ترجمان

جان أوريو

فولتير

أو العقل ملكًا

ترجمة: عبود كاسوحة

المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

فولتير

أو العقل ملكًا

هذه السلسلة

في سياق الرسالة الفكرية التي يضطلع بها «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»، وفي إطار نشاطه العلمي والبحثي، تُعنى «سلسلة ترجمان» بتعريف قادة الرأي والنخب التربوية والسياسية والاقتصادية العربية إلى الإنتاج الفكري الجديد والمهم خارج العالم العربي، من طريق الترجمة الأمينة الموثوقة المأذونة، للأعمال والمؤلفات الأجنبية الجديدة أو ذات القيمة المتجددة في مجالات الدراسات الإنسانية والاجتماعية عامة، وفي العلوم الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والسياسية والثقافية بصورة خاصة.

وتستأنس «سلسلة ترجمان» وتسترشد بآراء نخبة من المفكرين والأكاديميين من مختلف البلدان العربية، لاقتراح الأعمال الجديرة بالترجمة، ومناقشة الإشكالات التي يواجهها الدارسون والباحثون والطلبة الجامعيون العرب كالافتقار إلى النتاج العلمي والثقافي للمؤلفين والمفكرين الأجانب، وشيوع الترجمات المشوَّهة أو المتدنية المستوى.

وتسعى هذه السلسلة، من خلال الترجمة عن مختلف اللغات الأجنبية، إلى المساهمة في تعزيز برامج «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» الرامية إلى إذكاء روح البحث والاستقصاء والنقد، وتطوير الأدوات والمفاهيم وآليات التراكم المعرفي، والتأثير في الحيز العام، لتواصل أداء رسالتها في خدمة النهوض الفكري، والتعليم الجامعي والأكاديمي، والثقافة العربية بصورة عامة.

فولتير
أو العقل ملكًا

جان أوريو

ترجمة
عبود كاسوحة

المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
أوريو، جان
فولتير أو العقل ملكًا/ جان أوريو؛ ترجمة عبود كاسوحة.
976 ص.؛ 24 سم. - (سلسلة ترجمان)
يشتمل على بيليوغرافية (ص. 931-937) وفهرس عام.
ISBN 978-614-445-184-7
1. فولتير، 1694-1778. 2. الفلاسفة الفرنسيون - القرن 18 - تراجم. 3. الفلسفة الفرنسية - تراجم. 4. السياسة - فلسفة. 5. الاجتماع السياسي، علم. أ. كاسوحة، عبود. ب. العنوان. ج. السلسلة.
194

هذه ترجمة مأذون بها حصريًا من الناشر لكتاب

VOLTAIRE
Ou La Royauté de l'Esprit

by Jean Orieux

Copyright © Editions Flammarion, Paris, 1966

عن دار النشر

Flammarion SA

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن
اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشـر
المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies
شارع الطرفة - منطقة 70
وادي البنات - ص. ب: 10277 - الظعاين، قطـر
هاتف: 0097440356888

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 8 991837 1 00961 فاكس: 1991839 00961
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

© حقوق الطبع والنشر محفوظة للمركز

الطبعة الأولى
بيروت، آذار/ مارس 2018

المحتويات

مقدمة 15

كشف تاريخي 21

شجرة نسب عائلة أرويه 61

القسم الأول

هؤلاء السادة آل أرويه: من يخدم بلاده ليس في حاجة إلى نسب 65

فرانسوا ماري، الولد الرهيب 74

التربية المتفلتة: المعبد 87

الرقصات الأولى على مسرح العالم 89

أم مذنبة وبنت شبه شريفة 93

الكتابة بالعدل والشعر وفضيحة جديدة 104

باءت الملهاة بالفشل 112

بسمات العشق وتشنجاته 120

فرانسوا يخدع المفوض 124

حسن استخدام الحرية: النجاح 128

مخالطات طيبة، وأخرى 132

لا بد من طيب العيش... 137
أرويه والدوقة 141
ضجيج في الكواليس 144
حياة القصر الجبرية 147
قضية اسمها لو (Law) 152
تصفية حسابات عائلية 155
الإغراء المرفوض 156
سكابان طموح 158
لقاء مقيت 160
رحلة ثنائية إلى هولندا 164
زوابع جديدة: الرئيسة تظهر على المسرح 170
مركيزة وشاعر قليل التهذيب
لورد وقصيدة ملحمية 174
وصديق كامل أيضًا 181
تلونات ربات الفنون، ووفاء الأصدقاء ونوبات الحمى 184
معجزة في شارون، نصف معجزة في فرساي 193
معروف ضائع... 197
الخيانة العظمى 199
أركاديا الجديدة: لندن 1726 207
عودة إلى باريس: فولتير يتدخل في كل شيء 218

ظهور الربة 234
مسرحية زواج دون جوان، تلتها هزلية، ثم تراجيديتان فاشلتان أيضًا 238
أدب ملتزم 243
هروب جديد 246
قلاقل قبل التقاعد 248
ديفونتين البشع 253
عدو يغفو، وآخرون يستيقظون 256
ناشرُ روان يجعل الناسَ يتحدثون عنه 258
مناوشات 260
مفاتن المنفى 261
إنذارات جديدة وسفر جديد 264
صاحب السمو الملكي في بروسيا الأمير فريدريك 268
ابنتا شقيقة وأخ وسكرتير 270
نيوتن في فرنسا 274
علاقات قبيحة 276
الحياة اليومية في سيري 285
الطلعات الكبرى 299
قضايا صغيرة كتابية ومالية 313
فضائح في البلاط وعلى المسرح 317
يخطب ود البلاط وود الأكاديمية 320

برلين أو الخيار الأسوأ 328
البلاط انبسطت أساريره... 338
انتصار فولتير (والملك) في فونتونوا 346
درب الأكاديمية يمر من روما 349
تملقوا وداهنوا، فلا بد من أن يبقى شيءٌ ما في النهاية 353
دخول الأكاديمية تلته قضية محزنة 360
الخبيث يساوي أكثر مما يبدو عليه 369
فولتير يغير كاتم أسراره وشعاره 372
قيم باطلة في المجتمع، كما تقول الأفعى 375
الخطورة في التلفظ بكلمة نصاب وفي كتابة كلمة غزو 378
ضاع بلاط، فحلّ بلاط آخر محله 385
سميراميس هي فرن 395
لقاء جديد مع الموت 398
كوميديا تراجيدية: تابع ونهاية 400
فلنتكلمْ في شؤون المال 409
من انهماك، إلى عمل، إلى إعداد الحقائب 410
آخر الأيام الطيبة في اللورين 417
ثلاثة رجال أرامل ويتيمة واحدة 419
فن تجرع العذاب والتجمل بالصبر 423
السيدة دوني تظهر على المسرح فتظل فيه 427

ولادة أفعى 431
عروس البحر في بوتسدام تجيد أكثر من أغنية 436

القسم الثاني

كان لأوروبا ملكان 447
معرض وحوش ملك بروسيا 452
فريدريك وفولتير في حياتهما اليومية 464
للمال رائحة أحيانًا... 468
ويعود الطبع خببًا 474
لم يحظَ الدكتور بورغون بمريض أفضل البتة 475
قشرة البرتقالة المرة! 479
ظل شيطاني... 483
هنالك خائن في برلين... 491
وكانت الحرب 494
الفن في قطع أواصر صداقة تحولت إلى عِداء 504
نتائج سيئة ترتبت على قطيعة غير ناجزة 507
اعتداء جديد على شاعر والحرية الفردية 513
حساب عملية سيئة 532
شبه لقاء مع الوطن 536
جار خطر، ومرارات وكوميديا تنتهك الحرمات 538

الراهب البندكتي الطيب مخدوع
فريدريك يقوم بإشارات، فيأتيه الرد 543

مياه بلومبيير 546

جنيف: مباهجها وقساوستها 551

تحركات شتى في جنيف
وزلزال في لشبونة 561

تظارفات قرد وعبوساته
كوليني العاشق يكتشف العشق الخفي لسيده 564

زوار أحباب ونتائج مدوية لزيارة بهية 570

مباهج صغيرة ومضايقات صغيرة
وظهور غير معقول لقبعة كاردينال 573

ملك بروسيا لم يغادر المسرح 577

المباهج الأولى هي الفضلى 585

فصل شتاء في لوزان 588

هاوٍ لا يقبل الإصلاح، يريد إحلال السلام في أوروبا 590

منغصات جديدة في الديليس، وتغيير جديد للأجواء 599

«مِلكية صغيرة» اسمها فيرني وكتاب صغير اسمه كانديد 603

العالم يتعرف الدرب إلى فيرني... 606

وضعُ الموسوعة فوق المحرقة أشعل الحرب مع لوفران دو بومبينيان 611

كيف صار رجل شقي سلاحَ قتال؟ 621

نجاح تانكريد السامي 629

جاءت الآنسة رودوغون لإبهاج فيرني فأحزنها الأشرار 633

فيرني: مشروع سلمي واسع وحرب صغيرة ضد الجوار 639
المواطن الجنيفي المؤذي 649
«فعلتُ شيئًا من الخير، وذلك أفضل مؤلفاتي» 654
الحياة الجميلة تحفظ الماكينة الهشة وتستهلك الثروة المتينة 657
الرئيس دو بروس يربح ست حزم من الحطب
لكنه يخسر مقعده في الأكاديمية 659
قضية كالا 664
سماع صدى القضية في فيرني... 671
وقائع الحياة في فيرني 682
زواج كورنيلي – شيفون 683
فولتير يخوض مناقشات ضد المرذولة 686
لو بومبينيان، وقد وضع التاج الأسقفي، يتعرض لنقد عنيف كالآخر 691
مخالطة جديدة مع يسوعي 695
تنافس ما بين الزيارات والعمل 699
الزيارات الجميلة 702
تلك كانت مشيئتك، يا جان جاك... 718
نجمة سميراميس تغشي على نجمة سليمان الشمال من غير أن تُطفئها 725
قضية أخرى مظلمة 735
أبفيل الدامية: فولتير، في شدة من القلق، يعتزل في الطوباوية 740
على المرء أن يعتني ببستانه 746

فولتير يتدخل في شؤون جنيف فينال العقاب الملائم 752
القس المتمرد 759
حماقات جديدة في حق جنيف 761
أخلاقيون وميتافيزيقيون مع فولتير وأخلاقه 767
البطريرك وقبيلته 773
كلب الهراش والدجاجة الرومية يُطرَدان من الحظيرة 778
السلوك الماكر للفيلسوف العجوز يصيب كاهن فيرني بمغص قاتل
ويثير غضبًا في أوروبا 787
السلام يحلّ من جديد: العجوز الشاب يجرب كتابة الأوبرا الساخرة 794
مناوشة مع عالِم يسوعي: السيد دو بوفون يُصاب بجرح 796
باروكة الأب آدم تجعل الحبر الأعظم يبتسم 798
قضايا فولتير العظيم الكبرى ومسائل الصغير الصغرى 801
باريس... باريس حاضرة دومًا في فيرني 807
حين تغير فرساي وزيرًا، فإن فولتير لا يغير سياسته 812
أيام فيرني الجميلة لا تعدل جواز سفر إلى باريس 816
أخطار جديدة: علجوم برناس وحمّامات الشتاء
عزاء: السيدة دوني يجري اختيارها بأغلبية ساحقة 825
زيارات محببة، وأيام هانئة 829
صوت ناقوس مغاير تمامًا 838
حكاية صورة رديئة 841
زائر من العيار السليم 843

فراشة فيلسوفة ويمامةٌ أنقذها من العزلة ماكر من باريس 848
فولتير فريسة شبحَي فريرون وشكسبير 852
مناخ فيرني يتدهور 855
أمل بانقشاع جميل تتلوه خيبة أمل 859
من باب المسرح الفرنسي عاد المنفي إلى باريس 862
باريس: نشوة المجد لا تقصي معوقات التقدم في السن 868
دلال وغنج مع قداسة أمنا الكنيسة وإنذار مشؤوم 874
إرجاء جديد، وبسمات من باريس ومشاحنات بيتية 880
التأليه 885
ما إن نزل من جبل الأولمب، حتى استأنف حياته العادية 888
مباهج باريس الكبيرة والصغيرة 890
الأعمال الأخيرة 895
فولتير في نزاع مع الأطباء والصيادلة والأصدقاء 897
نهاية الصنم المعبود 900
هل مات فولتير؟ 905
المراجع 931
فهرس عام 939

مقدمة

فولتير، يعرفه الجميع. فكل واحد يحمل فكرة عنه - تأييدًا أو معارضة - لا فرق. فحين يقاربه المرء، يتضح كل شيء. وحين تغوص في حياته، فإن غزارة الحوادث، وتقلبات شخصيته وتناقضاتها وتخفياتها تسبب لك الدوار. فكل حركة مرسومة، ومع ذلك تتوارى الشخصية والضوء مسلط عليها، فتتلألأ من كل حدب وصوب ولا تجد لها من كيان إلا في انعكاساتها. ولبلوغها، يلزم المرءَ الوقتُ وبعض الجهد والحلفاء.

الحلفاء هؤلاء، عثرتُ عليهم وأدينُ لهم بما قدموا لي من دعم. فالسيد ديغراف (Desgraves)، وهو صاحب مكتبة في مدينة بوردو، ومساعدته الآنسة بوتو (Boutteaux) وضعا تحت تصرفي، بطيب خاطر لن أنساه، معرفتهما وكتبهما. كذلك لن أنسى مساعَدة السيد بيسون (Besson)، صاحب مكتبة بلدية ليبورن (Libourne) الذي مد إلي يد عون ودي في بحوثي. أشكر السيد رونيه دوكرمان (R. d'Ukermann) الذي قبل بتكريس قسم من وقته الثمين للبحث عن مؤلفات وإرسالها إلي في مكان إقامتي البعيد في مراكش، وأشكره شكرًا خاصًا على أحاديثه حول عصر فولتير المألوف لديه كثيرًا. وأشعر بأنـي مدينٌ خصوصًا للسيدة بيتوار (Bethouart) التي دعمني ميلها الصائب دومًا في تأليف هذا العمل، وقد وافقتْ عن طيب خاطر على أن أذكر اسمها في مطلعه.

ما عساي أقول للسيدة شيبوا (Chibois) والسيدة بيفركورن (Pefferkorn) اللتين كانتا، من قريب ومن بعيد، قارئتين متنبهتين فردّتا إلي صدى عملي ردًا صادقًا جدًا. أما السيدة الكونتيسة دو بروتوي (de Breteuil)، فجعلتني أرتبط بصداقة مع

السيدة دو شاتليه (du Châtelet)، وشهرتها قبل الزواج بروتوي. ويعود الفضل إلى السيد برونو راديوس (B. Radius)، قنصل فرنسا العام في مراكش، وإلى السيد تانغي (Tanguy) الملحق الثقافي في مدينة النخيل، في التخفيف كثيرًا من عبء عملي. وعليَّ أخيرًا أن أشكر المغرب والمغربيين الذين أتاحوا لي ضيافتهم الكاملة، وأن أعمل وسط جو مريح جدًا وأن أعيش وسط شعب ودود بصحبة فولتير الذي تكيف وسط مناخ مضيفينا ولباقتهم تكيفًا تامًا.

أما بالنسبة إلى الذين قادوا خطواتي، فإنـي أحمل عرفانًا مليئًا بالإعجاب حيال السيد بيار غاكسوت (P. Gaxotte) الذي كان لكل ما كتب عن القرن الثامن عشر، وعن فريدريك الثاني وعن بروسيا، أن يسبغ على كتابي فولتير، الخارج توًا من بين الأوراق، دفقةً من الحقيقة أنعشته حتى كأنه تنفس هواء زمانه. وأدين كثيرًا أيضًا للسيد جان غيهينو (J. Guehenno)، بسبب بضع صفحات بارعة كتبها في مجلة فرنسا الجديدة (*N.R.F*) في أول نيسان/ أبريل 1937، فألقت على شخصيتي (فولتير) ضوءًا سعيت للإبقاء عليه مغمورًا به.

وأشير، من بين مؤلفات أخرى تأتي المكتبة إلى ذكرها، إلى أن كتاب دينوارتير (Desnoireterres) بدا لي ذا أهمية كبيرة، ومكثفًا يعج بثروات دفينة لكنها نفيسة. واقتبست آلاف الوقائع التي ألقيت عليها الضوء بطريقة مغايرة تمامًا لما فعل الكاتب المعاصر لمصابيح كارسيل (Carcel) في أيام نابوليون الثالث.

ذكرت بالخير في سياق نصي هذا نفسه السيد بيسترمان (Bestermann)، لتلهفي إلى الإعراب له عن امتناني، فضلًا عن إعجابي وافتتاني، ذلك أني لست واثقًا من أن السيد بيسترمان الذي يقطن ديليس (Délices) [قصر] السيد فولتير، لم يكتسب مع المسكن، فكر الساكن الأول وأسلوبه.

هل أجرؤ في نهاية المطاف على الاعتراف بأن أفضلَ مساعدٍ لي في هذه المسألة إنما هو الروح القدس، مهما بدا الأمر بعيدًا عن التصديق. إنه الروح القدس المتجسد في فولتير نفسه. فلا ريب في أنه ألهمني، على عكس عبقريته، الجرأة على متابعته خطوة فخطوة، طوال أربعة وثمانين عامًا، ثم على دفنه. وذلك كله من غير أن أشعر بأي نوع من الضيق أو التعب، فتلك هي معجزة فولتير.

الأمر منوط في واقعه بمعجزة، وربما بسحر، فسرد حياة فولتير إنما هو مقاربة المستحيل، وبناء عليه، لا بد من أن ينتظر القارئ شيئًا من الإيضاح.

حياة فولتير رقصة باليه متراخية إلى الحد الأدنى. ويؤدي رقصها في الغالب ما هو أقرب إلى الضوء الكاذب منه إلى الإنسان، فلا يسعك الإمساك بالنجم، فكيف لك أن تمسك بانعكاسات مرآة متراقصة لتقوم بتثبيتها، أو ببريق قطعة ماس تتلألأ تحت الثريات؟ حين قام دالامبير يعرّف فولتير، اعترف بأنه لا يقبل التعريف، فقال عنه: «السيد متعدد الأشكال» (M. le Multiforme). فكيف السبيل للخروج من تلك التعددية التي تسبب الدوار، بشخصية فريدة لا تقبل التقليد: السيد فولتير؟

لا مفر، كما بدا لي، من أن يؤدي المرء دورًا في تلك الأوبرا الساحرة التي احتلت المسرح الأوروبي على مدى قرن تقريبًا. لا بد من القيام بدور فولتير. والعمل هذا كُتِب، إذًا، مثلما عاش فولتير، أي على إيقاع موسيقى أليغرو من تأليف موزار. فليس ثمة ما يكشف عن طبيعة فولتير العميقة مثل السرعة؛ فهو يغير لحنه وموضوعه وإلهه بتواتر لا يُصَدق. ولم يتوانَ بعضٌ من ذوي الفكر النيّر عن الإشارة إلى أنه يعيش حياته بإيقاع جهنمي. وهنالك من يرغب في أن يُسكِن فولتير جهنم - حتى وهو على الأرض - في حين أنه كتب يقول: «إنما يكون الفردوس الأرضي حيث أكون أنا».

حياته تحديدًا هي التي أخذت بشغاف قلوبنا. والقارئ لن يبحث هنا عن دراسة أدبية لفولتير، فهي ليست موضوع كتابنا هذا. لكن ليس ما يدعونا إلى القول إن أعماله - الأكثر تميزًا - ليست مذكورة هنا فحسب، بل هي موضع تحليل أيضًا بما يتجاوب وأصداء حياته، أو حين تكون حوادث حياته هي المصدر لأحد أعماله.

ليس ما يثير الدهشة أكثر من مسيرة حياة هذا الكاتب؛ فهذا الكائن المتغير رسم مصيره بتواصل خالٍ من الضعف. فالفتى أرويه (Arouet) كان يعرف وهو في الخامسة عشرة ما يريد أن يكون، وكان يريد ذلك بعناد وطموح مذهلين. أدرك أن عليه أن يكون غنيًا جدًا وشاعرًا عظيمًا جدًا في آنٍ، فحقّق الفوز في المضمارين. فنجاحه الاجتماعي يمضي جنبًا إلى جنب مع نجاحه الأدبي. وكان يعتقد وهو

على مقعده المدرسي أن الموهبة بلا مال بؤس، وأن المال بلا موهبة غباء. وواقع الحال أنه لم يشعر بنفسه موهوبًا حيال هذه الترهات أو تلك.

يقول بعضهم إنه ليس «جادًا»، وهذا صحيح. فهو فعل ما وسعه حتى لا يبدو كذلك. لكن المسألة أهم من ذلك بما لا يقاس. فنحن ننسى أننا نحمل جميعًا، في أعماق أنفسنا، جواز مرور اسمه «كانديد». كان فولتير التجسيد الكامل تقريبًا لنوع من اتجاه فكري، كان قائمًا قبله في فرنسا من دون ريب، لكنه لم يتخذ شكله الحاسم إلا تحت قلمه. وحين أسبغ على ذلك الاتجاه الفكري وعلى تلك النزعة الإنسانية اللذين كان يعرفهما كلٌ من موليير ولافونتين ومارو ومونتان الشكلَ الباهر لـ «ميكروميغا» (*Micromégas*) أو الرسائل (*Lettres*)، صرنا فرنسيين أكثر مما كنا عليه قبله. وحتى الذين يتمتعون من بيننا بهذا النوع من «الوحي»، يفكرون وينطقون ويكتبون بطريقة تنم عن الاتجاه الفكري الفولتيري. كان مالارميه يقول: «خُلِق العالم لينتهي به المطاف إلى كتاب». ألا يسعنا أن ندعم الرأي القائل إن الفرنسية منذ الحكايات الشعبية المنظومة، ومنذ هزليات القرون الوسطى، لم تُخلَق إلا لينتهي بها المطاف إلى حكاية جميلة اسمها كانديد؟

أما فولتير، وهو ينشر إشعاع عبقريته الشخصية – والعبقرية الفرنسية – عبر أوروبا، فقلما كان يعبأ بالدعاية القومية. فليس فيه أثر من زهو قومي، وهو في رفعة عن تلك الخصوصيات. ولئن كان يفرنس خيرة الأوروبيين، فليس ليصنع منهم زبائن لفرنسا، بل ليجعلهم «أناسًا شرفاء». وتلكم واحدة من أفضل خصال مجده. إن أوروبا، بالنسبة إليه وإلى الذين يُصغون إليه، كانت قائمة: إنها أوروبا الأنوار، والوطن الأكثر تمدنًا وإنسانية بين الأوطان. وليس لها من حدود سوى حدود الفكر، فذلك المجتمع الفسيح المشكَّل من نُخبة الأمم يمثّل في نظره انتصار الحضارة. وفي إمكاننا القول إنها شكلت فوزًا لفولتير.

سعينا إلى الكشف عن سمات أخرى لمجد فولتير، مما نُسي قليلًا، أو حُجِبَ بعض الشيء بفعل خفة الشخصية الظاهرية. إن فولتير رجل عراك، وهو عراك يومي في سبيل السعادة. وليست سعادة أسطورية، بل سعادة أرضية وفي متناول الجميع. والمراد هو انتزاع الإنسان من براثن الطغيان والبؤس. فلا يسع

المرء أن ينعم بالسعادة إلا حين يتسنم بنفسه جميع قدراته بوصفه إنسانًا، أي حين يحيا بحرية وينعم برغد العيش. إن خصال التعصب والغباء والفقر تنجب الفقر والعبودية والحرب. وأما السعادة فثمرة الذكاء والشجاعة. إن السعادة ثمرة الحضارة، إنها شهامة الإنسان الحر وعظمته. أما بشأن الماورائيات: فليس للمرء أن يأمل شيئًا. فكل امرئ يصنع مصيره هنا على الأرض، وهو يصنعه بنفسه. حسبنا أن ننظر إلى حياة بطلنا لنقع على مشهد إنسان يبني حياته مثل ممثل يقوم بصوغ دوره فينجح في أدائه ممثلًا عبقريًا.

تتجلى عظمة فولتير أيضًا في إحساسه بالتضامن الإنساني. فهذا الجاحد يؤمن بالإنسان دونما كبير وهم، ويرى أن الإنسان رائعة الكون. وكل مس بالحرية والعدالة غير مقبول لديه. فحين جرى إعدام كالا (Calas) تقطيعًا، سمعنا صرخات فولتير ترتفع من جنيف توجعًا وسخطًا كأنما التعذيب يقع عليه. فليس كالا وحده هو الذي أُصيب، إنما هي الإنسانية التي جُرحت به. إنما هو فولتير. إننا أنا وأنت. إن فولتير، إذًا، إنما يدافع عني وعنك.

مثل ذلك الرجل جدير حقًا بأن نكرس له بضعة أعوام. والحق أنْ ليس في ذلك من فضل. لقد اخترنا بدافع المتعة أن نعيش بصحبة الرجل الأكثر ذكاء، والأفضل تهذيبًا، والأكثر رقة، بالنسبة إلى أصدقائه وضيوفه، والأكثر قحة أحيانًا والأكثر إدهاشًا، مثلما كان الأكثر إنسانية وطبْعيَّة. إن ستة أعوام في أفضل صحبة قد تكون عُرِفت على الإطلاق، ليست عناء، بل هي امتياز. إن فولتير يسحرك في كل شيء: في الخير، وفي الشر. ففيه نواقص لا تُحصى، بل فيه بعض العيوب؛ وهي عيوب راقصة، دوارة، متطايرة، عيوب بارقة، وعيوب زاحفة، وذلك باختصار تناغم يثير الذهول. لقد تركنا في قصة حياته، بكل احترام، مكانًا لتلك العيوب، فهو مكان جميل. ونتذكر قول صديقه اللورد بولنبروك (Bolingbroke) في كلامه عن مارلبورو: «كان رجلًا عظيمًا جدًا إلى حد أني نسيت عيوبه». فيسعنا أن ننسى عيوب فولتير، لكن كي ننساها لا بد من أن نتعرَّفها أولًا. ولهذا أمطنا اللثام عنها بكل عناية كما عن فضائله، تاركين للقارئ عناية إشباع رغبته منها أو نسيانها.

حتى لا ندع شيئًا من حياة على تلك الدرجة من الاضطراب والغنى والإغراء يفلت منا، كان يلزمنا من السنين بعدد ما عاش فولتير. ونعتبر أن هنالك أيضًا أشياء أخرى ينبغي أن تُضاف هنا وهناك. فأولينا أمرنا إلى فولتير نفسه الذي قال: «سر التسبب بالملل هو أن تقول كل شيء»، فبدا لنا أن ما من شيء فولتيري كمثل درء الملل عن قارئنا.

جان أوريو

كشف تاريخي

العام	حياة فولتير	حدث في فرنسا
1694	الأحد 21 تشرين الثاني/ نوفمبر: مولد فرانسوا ماري أرويه في باريس.	مجاعة. انتصار جان بارت على الهولنديين. قصف الإنكليز لدييب وهافر ودنكرك.
1695	سن فولتير: عام واحد	الانتهاء من بناء قصر فرساي. فرض ضريبة الرأس.
1696	عامان.	مولد لوي فرانسوا أرمان دو فينيرو دو بليسي (الذي صار لاحقًا الماريشال ريشوليو). معاهدة سلام باريس. السيدة غويون في سجن الباستيل.
1697	ثلاثة أعوام. جعله عرابه الأب شاتونوف يتلو حكايات لافونتين.	تعيين تورسي وزيرًا للشؤون الخارجية. دارجنسون يخلف لاريني. نفي الممثلين المسرحيين الإيطاليين. نفي فينيلون إلى كامبريه.
1698	أربعة أعوام.	الملك في معسكر كومبيين مع السيدة دو مانتونون.
1699	خمسة أعوام.	تعيين تورسي وزير دولة، وبونشارترين مستشارًا، وشاميار للمالية. وفاة بومبون.

حدثَ في العالم	الحياة الفكرية
إنشاء بنك إنكلترا. ديبرفيل يغزو نيوفاوندلاند (الأرض الجديدة). مولد الكونت تشسترفيلد.	الطبعة الأولى لـ معجم الأكاديمية الفرنسية. قصيدة رينيار: *Attendez-moi sous l'orme* (انتظريني تحت شجرة الدردار). بوسويه: آراء في الكوميديا. لايبنتز: منظومة جديدة للطبيعة. هاغنز: بحث في الضوء. إغلاق محترفات غوبلنز. بدأ سان سيمون بكتابة مذكراته. وفاة السيدة ديزوليير، وتينييه (الصغير)، وبوجيه، وبوفندورف، وآرنو. مولد كينيه، وكوابيل.
استيلاء وليام الثالث على نامور. وفاة السلطان أحمد الثاني.	نشر *Cabinet des fées* (مخدع الجنيات). فينيلون أسقف كامبريه. بوسويه يدين السكينية (هي مذهب تصوفي يقول إن الحب المحض يوصل إلى الفناء في الله، ويولد في النفس سلامًا مطلقًا يغنيها عن العبادات أو الطقوس الدينية الأخرى). وفاة لافونتين وبورسيل ودوما وهاغنز. مولد بانيني وباتر.
معاهدة تورينو. وفاة جان سوبييسكي.	ريغو يرسم وجه رانسيه. رينيار يكتب: *Le Joueur* (المقامر). بيرو يكتب: حياة الرجال المشاهير. وفاة السيدة دو سيفينييه، ولابروير ومولينو، وميتيار، وإلزيفييه. مولد تييبولو، وتوكيه.
30 تشرين الأول/أكتوبر: معاهدة ريشفيك: نهاية حرب عصبة أوغسبورغ. وفاة شارل الحادي عشر ملك السويد. ارتقاء شارل الثاني عشر سدة العرش.	بايل: معجم تاريخي ونقدي. فينيلون يكتب: شرح حِكَم القديسين. بيرو يكتب: *Contes de ma mère l'Oye* (حكايات أمي الإوزة). رينيار: *Le Distrait* (الطائش). وفاة دو ويت. مولد (الأب) بريفو، وهوغارت، وكاناليتو.
اتفاقية لاهاي.	لويس الرابع عشر يكتب: طريقة إظهار حدائق فرساي. السيدة دولنوا: *Les Illustres Fées* (الجنيات الشهيرات). مولد بوشاردون، وميتاستاز، وغابرييل، وبودمير.
تأسيس إمارة ليختنشتاين. وفاة كريستيان الخامس ملك الدانمارك.	افتتاح أول معرض فني في قاعة اللوفر الكبرى. دوفريني يضع: تسالي جدية وهزلية. فينيلون: تيليماك. السيدة داسييه تترجم الإلياذة. وفاة راسين، وم. بريتي، وج. ب. مونوابيه. مولد شاردان وسوبليرا.

العام	حياة فولتير	حدثَ في فرنسا
1700	ستة أعوام.	إصدار مذكرات القيمين (Mémoires des Intendants).
1701	سبعة أعوام.	لويس الرابع عشر يحتفظ لفيليب الخامس بحقوقه في تاج فرنسا. وفاة السيد باربوزيو، وتورفيل.
1702	ثمانية أعوام.	سان سيمون يرتقي إلى مرتبة دوق وعضو في مجلس الأعيان. تمرد الكاميزار (البروتستانت). تعيين فيلار ماريشال فرنسا. وفاة جان بارت.
1703	تسعة أعوام.	وفاة ذي القناع الحديدي في سجن الباستيل.
1704	عشرة أعوام. فقد فرانسوا ماري أرويه أمه. الدخول إلى مدرسة لوي لوغران التي يديرها اليسوعيون. في 19 كانون الأول/ ديسمبر: نينون دو لانكلو توصي بمبلغ ألف فرنك لأرويه الصغير كي يشتري كتبًا.	نهاية تمرد الكاميزار.

حدثَ في العالم	الحياة الفكرية
وفاة شارل الثاني ملك إسبانيا. ولاية فيليب الخامس (حفيد لويس الرابع عشر). وفاة إينوسان الثاني عشر وبداية عهد البابا كليهان الحادي عشر. معاهدة لندن: التقاسم النهائي لولاية العهد في إسبانيا.	فينيلون يضع: *Dialogue des morts* (محاورات الأموات). لايبنتز: (بحوث جديدة في الإدراك الإنساني). كونغريف: *Le Train du monde* (قافلة العالم). وفاة كل من: رانسيه، لونوتر، درايدن، سيبيريشت. مولد ناتوار.
بداية عهد فريدريك الأول ملك بروسيا. استبعاد آل ستيوارت عن العرش. وفاة جاك الثاني وبداية عهد جاك الثالث في إنكلترا. تحالف لاهاي ضد فرنسا وإسبانيا.	بداية نشر يوميات تريفو. ريغو يرسم لويس الرابع عشر بالحجم الكامل. وفاة مادلين دو سكوديري، وسيغريه، وبورسو. مولد لاكوندامين.
وفاة وليام الثالث. بداية عهد الملكة آن. بداية حرب ولاية العرش في إسبانيا.	الديلي كارنت: أول صحيفة يومية إنكليزية. فاركوهار: *L'inconstant* (المتقلب). مولد أفيد، وليوتار، ولونغي.
معركة هوشستات. دخول مقاطعة سافوا في التحالف. تأسيس مدينة سانت بطرسبرغ على يد بطرس الأكبر. وفاة السلطان العثماني مصطفى الثاني. مولد ماري ليتشينسكا.	لالاند: *Musique pour les soupers du roi* (موسيقى لوجبات عشاء الملك). باخ: المؤلفات الأولى للأرغن. وفاة سانت إفريمون، وبيرو. مولد بوشيه، وويسلي.
أصبح ستانيسلاس ليتشينسكي ملكًا على بولندا. الإنكليز يحتلون جبل طارق.	معرض فني اللوفر. رينيار يكتب: *Les Folies amoureuses* (حفلات الجنون الغرامية). أول ترجمة فرنسية لمؤلفات الشيرازي. سويفت: *Conte du tonneau* (حكاية البرميل). جوريو: *Histoire critique des dogmes et des cultes* (تاريخ نقدي للمعتقدات والعبادات). نيوتن: بحث في البصر. باخ: كانتاتا رقم. هاندل: ألميرا. وفاة بوسويه، وبوردالو، ولوك، وج. باروسيل. مولد دوكلو، وجوكور، ولا تور.

العام	حياة فولتير	حدث في فرنسا
1705	أحد عشر عامًا.	لويس الرابع عشر يقدم إلى هاينسيوس عروض سلام.
1706	إثنا عشر عامًا. مولد إميلي لو تونوليه دو بروتوي (التي ستصير مركيزة شاتليه). كتب فرانسوا في المدرسة تراجيديته الأولى «أموليوس ونوميتور» التي اختفت من دون أن تخلف أي أثر. التعرف إلى الأباتي[1] الأكبر في فندوم، في مقاطعة تامبل.	هزيمة فيلروا في راميلي. لويس الرابع عشر يقدم اقتراحات جديدة للسلام. هزيمة لافوياد أمام تورينو.
1707	ثلاثة عشر عامًا.	سوق إلزامية للنقود الورقية. وفاة السيدة دو مونتسبان.
1708	أربعة عشر عامًا.	هزيمة أودينارد. حصار ليل (Lille).
1709	خمسة عشر عامًا.	مجاعة. إفلاس صموئيل برنار. صهر الأواني في دار الصك. شاميار يفقد الحظوة. فوازان وزيرًا للخارجية. 11 أيلول/ سبتمبر: معركة مالبلاكيه. 23 تشرين الأول/ أكتوبر: ترحيل راهبات بور روايال. وفاة الأب دولاشيز. الأب تيلييه كاهن اعتراف الملك.
1710	ستة عشر عامًا.	هدم بور روايال. 15 شباط/ فبراير: مولد دوق دانجو (لويس الخامس عشر مستقبلًا). وفاة الدوق، والآنسة دو لا فاليير.

(1) الأباتي هو رئيس رهبانية، كما أنه لقب شرف لكبار الرهبان.

حدثَ في العالم	الحياة الفكرية
وفاة ليوبولد الأول (ملك هنغاريا)، واعتلاء جوزف الأول العرش. رسالة بابوية تتعلق بالجانسينية (Jansénistes).	كريبيون: إيدومينيه. رينيار: *Les Ménechmes* (التوأمان). ريغو يرسم وجه بوسويه. بوكستهود: موسيقى مقدسة. هالي يحسب مسار المذنبات. وفاة نينون دو لانكلو، ولوكا جيوردانو، والسيدة دو غرينيان، وبافيون. مولد فانلو.
قيام اتحاد بين إنكلترا واسكتلندا. فقد فيليب الخامس سيطرته على مدريد ثم استعادها. وفاة دون بيدرو ملك البرتغال. مولد فرانكلين.	كوازفوكس: الرون. رامو: أول كتاب للعزف على المعزف القيثاري. فاركوهار: *L'Officier de recrutement* (ضابط التجنيد). وفاة بايل.
حصار لوريدا. بطرس الأكبر يغزو بولندا. وفاة أورينغزيب.	فوبان: *La Dîme royale* (ضريبة العشر الملكية)؛ يفقد الحظوة فيموت. كريبيون: أتريه وتييست. لوساج: *Le Diable boiteux* (الشيطان الأعرج)، و*Crispin rival de son maître* (كريسبان خصم سيده). وفاة كوابيل، وإدلينك، وبوكستهود. مولد لينيه، وغولدوني، وبوفون، وأولر، فيلدينغ، ول. م. فانلو.
البابا يدين طروحات الأب كيسنل. مولد و. بيت (W. Pitt).	رينيار: *Le Légataire universel* (الموصى له بكل المال). بيركلي: نظرية الرؤية. بويرهاف: بحث في الطب. هايندل: القيامة. وفاة موكروا، وب. دو هوغ، وهاردوان مانسار. مولد فوازنون، ونونوت.
هزيمة شارل الثاني عشر على يد الروس في بولتافا.	لوساج: توركاريه. كريستوفوري يصنع في فلورنسا أول بيانو فورتي. أول أوبرا هزلية في نابولي. بويتغر يخترع البورسلان. وفاة ت. كورناي، ورينيار، وهوبيما. مولد غريسيه، وترونشان، وش. دوبروس، وكوليه، ومابلي، وجونسون، ولوفران دو بومبينيان، ولاميتري، وفوكانسون.
انتصار فندوم في فيلافيسيوزا: ظل فيليب الخامس سيد إسبانيا.	هايندل في إنكلترا. لايبنتز: تيوديسيه. سويفت: يوميات في ستيلا. وفاة فليشييه. مولد بيرغوليز، و(جانتي) برنار.

العام	حياة فولتير	حدث في فرنسا
1711	سبعة عشر عامًا. آب/ أغسطس: أنهى دروسه في ثانوية لوي لوغران وأصبح طالبًا يدرس الحقوق.	وفاة ولي عهد فرنسا الأكبر.
1712	ثمانية عشر عامًا. مولد ماري لويز مينيو (السيدة دوني مستقبلًا).	تفشي وباء الجدري. وفاة دوق بورغونيا. 24 تموز/ يوليو: معركة دونان: نهاية حرب وراثة العرش في إسبانيا. روهان كاردينالًا. وفاة كاتينا.
1713	تسعة عشر عامًا. أيلول/ سبتمبر: التحق، بصفته سكرتيرًا، بسفير فرنسا إلى لاهاي. نظم قصيدة غنائية حول مصائب العصر. 24 كانون الأول/ ديسمبر: العودة إلى باريس.	فيلار يستولي على فريبورغ. إنشاء ساحة بيلكور في ليون.
1714	عشرون عامًا. عاد إلى دراسة الحقوق. أخفق في نيل جائزة الشعر من الأكاديمية الفرنسية عن قصيدته أمنية لويس الثالث عشر. نشر قصيدتين فاضحتين: *Le Bourbier* و-*L'Anti Giton*.	لويس الرابع عشر يرغم المحكمة العليا على تسجيل الرسالة البابوية. مرسوم توريث الأبناء غير الشرعيين.
1715	واحد وعشرون عامًا. أرويه يألف جمعية المعبد ويعاشر الزنادقة الليبرتان. يقرأ في سو (Sceaux) أمام دوقة مين (Maine) مسرحيته التراجيدية أوديب.	فتح سفارة فارسية في فرساي. أول أيلول/ سبتمبر: وفاة لويس الرابع عشر. ارتقاء لويس الخامس عشر العرش (تحت الوصاية حتى عام 1723). موربا (Maurepas) وزيرًا للخارجية.
1716	اثنان وعشرون عامًا. 5 أيار/ مايو: النفي إلى تول، ثم إلى سولي سور لوار. علاقة بالآنسة دو ليفري.	لو (Law) يؤسس المصرف العام. إنشاء مؤسسة الجسور والطرق. استقالة فوازان. إعادة افتتاح المسرح الإيطالي في باريس. وفاة دارتانيان.

حدثَ في العالم	الحياة الفكرية
وفاة جوزف الأول. بداية عهد شارل السادس.	كريبيون: راداميس وزنوبيا. شاردان: *Voyage en perce et aux Indes orientales* (رحلة إلى بلاد فارس والهند الشرقية). فيفالدي: مقطوعات كونشرتو. وفاة بوالو، وج. دوليريس، وفوكيير. مولد هيوم.
مولد فريدريك أمير بروسيا (فريدريك الأكبر مستقبلًا)، ابن الملك سرجان. نهاية الحرب الدينية في سويسرا. مؤتمر أوتريخت. مولد وصي إسبانيا. فيليب الخامس يتخلى عن التاج في فرنسا.	أمر بإيقاف نشر المُشاهِد (Spectator) لأديسون وستيل. ماريفو: فارسامون. بيركلي: *Three Dialogues between Hylas and Philonous* (ثلاث محاورات بين هيلاس وفيلونوس). أربوتنو: قصة جون بول. وفاة لافار، ور. سيمون، وفان در هايدن. مولد جان جاك روسو، وكاسيني، وف. غواردي، وغورني.
كليمان الحادي عشر: الرسالة البابوية. مرسوم عملي من شارل السادس لمصلحة ابنته ماري تيريز. معاهدة أوتريخت: نهاية هيمنة فرنسا السياسية. إنكلترا تحتكر نخاسة العبيد. أفول نجم القوة الهولندية. نقل العاصمة من موسكو إلى سانت بطرسبرغ.	هاملتون: *Memoirs of Count Grammont* (مذكرات الفارس دو غرامون). اكتشاف آثار هيركولانوم. كوبران: الكتاب الأول عن البيانو القيثاري. وفاة جوريو، وكوريلّي. مولد ديدرو، وستيرن، ورينال، وسوفلو، ورامسي.
وفاة الملكة آن ستيوارت. عقبها جورج الأول (من سلالة هانوفر). معاهدة رادشتات. روسيا تستلحق فنلندا.	فينيلون: *Lettre à l'Académie* (رسالة إلى الأكاديمية). ماريفو: *Télémaque travesti* (تيليماك متنكرًا). لايبنتز: *La Monadologie* (الجوهرية الفردية). فهرنهايت يبتكر ميزان حرارة يعمل على الكحول والزئبق. وفاة د. بابان. مولد غلوك، وبيغال، وج. فرنيه، وكاسيني دو توري.
تمرد اسكتلندا: فشل جاك ستيوارت.	لوساج: جيل بلا. ماسيون: رثاء لويس الرابع عشر. ريغو: لوحة لويس الخامس عشر طفلًا. وفاة فينيلون، ومالبرانش، وجيراردون، وكويلن. مولد فوفنارغ، وهيلفيتيوس، وكوندياك، وبيرني، وكوشان، وميرابو (الأب)، وبيرونو.
ألبيروني رئيس وزراء فيليب الخامس. استيلاء الأمير أوجين على تيميشوارا: طرد الأتراك من هنغاريا.	وفاة لايبنتز، وش. دو لا فوس، وكافييري. مولد سان لامبير، وفيان، وميلندري، وفالكونيه، ودوبنتون.

العام	حياة فولتير	حدث في فرنسا
1717	ثلاثة وعشرون عامًا. العودة إلى باريس والإقامة في شارع كالاند. شاهد القيصر بطرس الأكبر. البدء بكتابة لا هنرياد. 16 أيار/ مايو: سُجن في الباستيل.	بطرس الأكبر في باريس. تأسيس الشركة الفرنسية للغرب. دوبوا في مجلس الشؤون الخارجية. داغيسو مستشارًا. الوصي يشتري الماسة التي تحمل اسمه.
1718	أربعة وعشرون عامًا. 11 نيسان/ أبريل: غادر الباستيل إلى المنفى في شاتني. 18 تشرين الثاني/ نوفمبر: العرض الأول لمسرحية أوديب. غورتس يعرض عليه منصب سكرتير.	بنك لو (Law) يغدو مؤسسة دولة. دوبوا وزيرًا للخارجية. مؤامرة سيلامار. إلغاء المجالس. بناء قصر الإليزيه.
1719	خمسة وعشرون عامًا. شباط/ فبراير: أرويه يتخذ اسم فولتير. نشر مسرحية أوديب. الحياة الاجتماعية.	لو (Law) يصك عملة. وفاة السيدة دو مانتونون وشومبرغ.
1720	ستة وعشرون عامًا. شباط/ فبراير: العرض الأول لـ أرتيمير. قام بزيارة لورد بولنبروك في قصر لاسورس، قرب أورليان. قراءة مقتطفات من لا هنرياد.	تفشي الطاعون في مرسيليا. لو يصبح المراقب العام للشؤون المالية. إغلاق شارع كينكامبوا. قلاقل في باريس. استقالة لو وهروبه. المحكمة العليا تعتمد الرسالة البابوية. بناء قصر دو شان.
1721	سبعة وعشرون عامًا. تشرين الثاني/ نوفمبر: عرض فولتير مخطوط لا هنرياد على الوصي واستفاد من انهيار نظام لو.	تأسيس أول محفل ماسوني. توقيف كارتوش. حل الشقيقان باري محل لو. «فيزا» دوفيرني. المصالحة الفرنسية - الإسبانية. دوبوا كاردينالًا. وفاة شاميار، ودارجنسون. مولد أنطوانيت بواسون (السيدة دو بومبادور مستقبلًا).

حدث في العالم	الحياة الفكرية
حظر المسيحية في الصين. حصار بلغراد. تحالف لاهاي الثلاثي ضد فيليب الخامس. الأمير أوجين يستولي على بلغراد.	ريتز: مذكرات. غالان يترجم ألف ليلة وليلة. واتو يرسم الإبحار إلى سيتير. وفاة السيدة غويون، وجوفونيه. مولد فينكلمان ودالامبير وهـ. والبول وفيرجين.
وفاة شارل الثاني عشر. بناء نيو أورليانز. تحالف لندن الرباعي. بطرس الأكبر يأمر بإعدام ابنه الأمير ألكسي.	بيغانيول دو لا فورس: وصف فرنسا. ماسيون: *Petit Carême* (الصوم الصغير). واتو: *Gilles*. انتهى كاسيني من قياس خط طول باريس. الأب دو سان بيار: *Discours sur la polysynodie* (مقالة عن تعددية مجالس الحكم). وفاة فاغون. مولد فريرون، وروسلان.
الحرب الفرنسية – الإسبانية. إبعاد ألبيروني (Alberoni).	ديفو: روبنسون كروزو. هودار دو لا موت: حكايات خرافية. هايندل: أسي وغالاتيه. فيرتو: *Histoire des révolutions de la République Romaine* (تاريخ ثورات الجمهورية الرومانية). وفاة أديسون وكيسنل. مولد سيدان، وفاديه، وكازوت.
تشكيل وزارة والبول (Walpole) في إنكلترا. الإسبان ينزلون في تكساس. إقامة مستعمرة إنكليزية في الهندوراس. دخول فيليب الخامس في التحالف الرباعي.	انتهى دانجو من يومياته. ماريفو: *Arlequin poli par l'amour* (أرلوكان وقد صقله الحب). إنشاء مكتب أختام الملك. اخترع هوشبروكر القيثارة ذات الدواسات. وفاة هاملتون وشوليو وهاينسيوس ودانجو وكوازفوكس والسيدة داسييه. مولد بيرانيزي وغوزي و(الأب دو) براد.
وفاة كليمان الحادي عشر وبدء عهد البابا إينوسان الثالث عشر. والبول مستشارًا للمالية. سان سيمون سفيرًا في إسبانيا.	مونتسكيو: *Lettres persanes* (الرسائل الفارسية). بيركلي: بحث في الحركة. سكارلاتي: غريزيلدا. ديفو: مول فلاندرز. وفاة واتو الذي أنجز لتوه *L'Enseigne de Gersaint* (علامة جيرسان)، وترودان، وموبرتوي. مولد أيزن.

العام	حياة فولتير	حدثَ في فرنسا
1722	ثمانية وعشرون عامًا. أول كانون الثاني/ يناير: وفاة السيد أرويه، والد فولتير. فولتير يتوسط للقيام بمهمة سرية في ألمانيا. تموز/يوليو: يسافر إلى بروكسل وهولندا بصحبة السيدة دو روبلموند. اللقاء مع الشاعر ج. ب. روسو. وضع كتاب: *Le pour et le contre* (ما له وما عليه).	تعيين دوبوا رئيسًا لوزراء لويس الخامس عشر. وفاة الأميرة بالاتين. المكتب التجاري. توقيف فيلروا. انحسار الطاعون في مرسيليا.
1723	تسعة وعشرون عامًا. انتهاء البحث في الحروب الأهلية. علاقة مع السيدة دو برنيير. نشر لا هنرياد (تحت عنوان: *Poème de la Ligue*). تشرين الثاني/ نوفمبر - كانون الأول/ ديسمبر، إصابته بالجدري، وعلاجه على يد آدرين لوكوفرور. كتب تراجيديا: ماريان. وفاة صديقه جينونفيل.	أكثرية لويس الخامس عشر. وفاة دوبوا والوصي ولوزن. أصبح دوق بوربون رئيسًا للوزراء.
1724	ثلاثون عامًا. 6 آذار/ مارس: العرض الأول لمسرحية ماريان. تموز/ يوليو - آب/ أغسطس: فولتير عند مياه فورج بصحبة الدوق دو ريشوليو. صحته تتدهور أكثر فأكثر.	إنشاء بورصة باريس. تأسيس نادي الأنترسول. إعلان ضد البروتستانت. قرار حول التسول.
1725	واحد وثلاثون عامًا. 18 آب/ أغسطس: العرض الأول لمسرحية *L'indiscret* (مفشي الأسرار). 6 تشرين الأول/ أكتوبر: أرسل فولتير لا هنرياد إلى جورج الأول ملك إنكلترا. تشرين الثاني/ نوفمبر: تلقى منحة من صندوق الملكة الخاص. الاتصالات الأولى بمرهوب الجانب ديفونتين.	زواج لويس الخامس عشر من ماري ليتشينسكا. إقرار ضريبة الواحد من خمسين. افتتاح أول محفل ماسوني في باريس.

حدثَ في العالم	الحياة الفكرية
إنشاء الوكالة الفرنسية في ماهي. وفاة مارلبورو.	باخ: *Le Clavecin bien tempéré* (الماريسكورد المعتدل). رامو: *Traité de l'harmonie* (بحث في الهارموني). الأب لابا: *Nouveau voyage aux îles de l'Amerique* (رحلة جديدة إلى جزر أميركا). ماريفو ينشر يومياته، و *Le Spectateur français* (المشاهِد الفرنسي)، و *La Surprise de l'amour* (مفاجأة الحب). هولبرغ: *Le Potier d'étain* (صانع أوعية القصدير). وفاة أ. كوابيل وجيلو.
إعادة الاعتبار لبولنبروك.	ماريفو: *La Double Inconstance* (التقلب المزدوج). باخ: ماغنيفيكا. هولبرغ *La Chambre de l'accouchée* (غرفة الولادة). بداية عصر البورسلان من نوع يونغ تشين. وفاة لوفنهوك. مولد أ. سميث وهولباخ وغريم ورينولدز ومارمونتيل.
وفاة إينوسان الثالث عشر. بداية عهد البابا بونوا الثالث عشر. اعتزال فيليب الخامس. دون لويس ملكًا على إسبانيا، ثم وفاته. فيليب الخامس يرتقي سدة العرش. تأسيس الأكاديمية البرازيلية في باهيا. إنشاء قصر كورير في البندقية.	باخ: آلام السيد المسيح بحسب إنجيل يوحنا. ماريفو: *Le Prince travesti* (الأمير المتنكر). شوليو: قصائد. ديفو: الليدي روكسانا. هايندل: تيمورلنك. هوغارت يرسم: ذوق المدينة السيئ. ميتاستاز: *Didon abandonnée* (ديدون مهجورًا). وفاة دوفريني وتشيكاماتسو. مولد كانط وكلوبستوك وماولبرتش وبيلوتو.
وفاة بطرس الأكبر، وولاية كاترين الأولى. اكتشاف مضيق بيرنغ. اتفاقية هيرنهاوزن. فيليب الخامس يحل التحالف الرباعي. اكتشاف الماس في البرازيل. تأسيس أكاديمية العلوم في سانت بطرسبرغ.	إنشاء مصنع الخزف في شانتيي. هدم مذبح كاتدرائية نوتردام في باريس. صالون اللوفر. كوبران: *L'Apothéose de Lulli* (تمجيد لولي). فيكو: مبادئ فلسفة التاريخ. مونتسكيو: *Le Temple de cnide* (معبد كنيد). ماريفو: *L'île des esclaves* (جزيرة العبيد). بوب يترجم الأوديسة. وفاة سكارلاتي، وفرين. مولد كازانوفا وغروز وب. باولي، وكونيو.

العام	حياة فولتير	حدثٌ في فرنسا
1726	اثنان وثلاثون عامًا. 4 شباط/ فبراير: فولتير يتعرض للضرب على أيدي رجال الفارس دو روهان. 17 نيسان/ أبريل: يسجن في الباستيل. 5 أيار/ مايو: في كاليه، على طريق المنفى إلى إنكلترا. تموز/ يوليو: يعود سرًّا إلى باريس، عازمًا على تحدي روهان في مبارزة.	أعاد فلوري، وقد أصبح رئيسًا للوزراء، العمل بقانون الجباية العامة.
1727	ثلاثة وثلاثون عامًا. كانون الثاني/ يناير: مثول فولتير في حضرة الملك جورج الأول. 8 نيسان/ أبريل: حضر جنازة نيوتن في وستمنستر. كانون الأول/ ديسمبر: نشر كتابين صغيرين بالإنكليزية: بحث في الحرب الأهلية، بحث في الشعر الملحمي. تحادث أثناء إقامته في إنكلترا مع فابريس حول حياة شارل الثاني عشر الذي تولى كتابة تاريخه، والتقى كلًّا من سويفت وبوب وكونغريف وغاي.	مسألة مثيري الاضطرابات في سان ميدار. شوفلان يتولى الشؤون الخارجية. وفاة بونشارتران.
1728	أربعة وثلاثون وعامًا. فولتير ينشر في إنكلترا، من طريق الاكتتاب، لا هنرياد مهداة إلى ملكة إنكلترا. تشرين الثاني/ نوفمبر: يرجع إلى فرنسا، لكن ليس إلى باريس.	خلاف حول الرسالة البابوية.
1729	خمسة وثلاثون عامًا. نيسان/ أبريل: يُسمح له بالإقامة في باريس. تأليف تاريخ شارل الثاني عشر، وبروتوس، والرسائل الفلسفية. أيار/ مايو: إقامة في بلاط اللورين. أودع أرصدته لدى الأخوين باري.	افتتاح أول ملهى في باريس. انتشار دُرْجة الحدائق الإنكليزية. وفاة لو.

حدثَ في العالم	الحياة الفكرية
تأسيس الإسبان مونتيفيديو.	سويفت: *Gulliver's Travel* (رحلات غوليفر). بورنويي: بحث في الحركة. رولين: بحث في الدروس. كريبيون: بيروس. طومسون: *The Seasons* (الفصول). السيدة دو سيفينييه: رسائل إلى ابنتها. تأسيس صالون السيدة تنسان. بدايات كامارغو في الأوبرا. فيفالدي: الفصول الأربعة. وفاة دولالاند. مولد فيليدور، وشودوفيكي.
وفاة كاترين الأولى وتسلم بطرس الثاني العرش. وفاة جورج الأول. تشكيل اتحاد مانهايم. أول مطبعة في اسطنبول. أول محفل ماسوني في مدريد.	ديتوش: *Le Philosophe marié* (الفيلسوف المتزوج). مونتسكيو: *Réflexions sur la monarchie* (أفكار في الملَكية). ماريفو: *Éloge de la raison* (مديح العقل). مونكريف: *Histoire des chats* (قصة القطط). ج. غاي: حكايات خرافية. برادلي يكتشف ظاهرة انحراف الضوء. مولد تورغو وموريليه وغاينسبورو، وتيبويو ودرويه.
تأسيس جايبور.	روسو يغادر جنيف. ماريفو: *La Seconde Surprise de l'amour* (مفاجأة الحب الثانية). تشامبرز: الموسوعة. بوب: دونسياد. الأب بريفو: *Mémoires et aventures d'un homme de qualité* (مذكرات رجل مرموق ومغامراته). مونتسكيو في الأكاديمية. افتتاح متحف عاديات دريسدن. وفاة لامونوي. مولد غولدسميث، وبيرك، ومينغز.
مولد كاترين دانهالت زربست (كاترين الثانية مستقبلًا). تمرد الناتشيز في لويزيانا. معاهدة إشبيلية.	باخ: آلام السيد المسيح بحسب إنجيل متى. مونتسكيو في إنكلترا. غولدوني: قائد الغندول الفينيسي. غراي: نقل الكهرباء. بوغيه: مقياس شدة الضوء. هالر: جبال الألب. وفاة كونغريف. مولد لسينغ وإيكوشار لوبران ومونسيني.

العام	حياة فولتير	حدثَ في فرنسا
1730	ستة وثلاثون عامًا. 15 آذار/مارس: وفاة آدرين لوكوفرور، وقد أُلقِيت جثتها على المزابل بعد رفض رجال الكنيسة دفنها في ضريح. وقد عبر فولتير عن سخطه في قصيدة حول وفاة الآنسة لوكوفرور. الصيف: فولتير عند مياه بلومبيير مع ريشوليو. كانون الأول/ديسمبر: العرض الأول لمسرحية بروتوس.	تعيين أوري مراقبًا عامًا.
1731	سبعة وثلاثون عامًا. كانون الثاني/يناير: استولت الشرطة على الطبعة الأولى من تاريخ شارل الثاني عشر. حزيران/يونيو: إقامة في روان. كانون الأول/ديسمبر: فولتير يقيم عند السيدة دو فونتين مارتيل. يقرأ تراجيديته بروتوس بحضور عشرة آباء يسوعيين.	تشتيت نادي أنتروسول. قضية لاكادير. تأسيس أكاديمية الجراحة.
1732	ثمانية وثلاثون عامًا. 7 آذار/مارس: العرض الأول لـ إريفيل (سميراميس). أيار/مايو: بداية تأليف قرن لويس الرابع عشر. حزيران/يونيو: الطبعة الأولى لأعمال فولتير. 13 آب/أغسطس: نجاح ساحق لـزايير. كانون الثاني/يناير: تأليف *Temple du goût* (معبد الذوق).	إقفال مقبرة سان ميدار.
1733	تسعة وثلاثون عامًا. كانون الثاني/يناير: نشر معبد الذوق. أيار/مايو: في سان جيرفيه. حزيران/يونيو: بداية علاقته بالسيدة دو شاتليه. تموز/يوليو: يضيف على الرسائل الفلسفية، ملاحظات حول باسكال. عكف فولتير في هذا العام على كتابة قرن لويس الرابع عشر والزير ومسرحيتي أوبرا: تانيس وزيليد، وسامسون.	إقرار ضريبة العشر. السيدة دو مايي تصبح عشيقة لويس الخامس عشر. معاهدة فرنسية - بافارية، ومعاهدة فرنسية - هولندية. وفاة فوربان.

حدثَ في العالم	الحياة الفكرية
اعتزال فيكتور أميديه الثاني أمير سافوا. والبول على رأس الحكومة. وفاة بنوا الثالث عشر واستلام كليمان الثاني عشر السدة البابوية. خلع السلطان أحمد الثالث. وفاة فريدريك الرابع. تسلّم كريستيان السادس عرش الدانمارك. وفاة بطرس الثاني وبداية عهد آنا إيفانوفنا.	ذيوع شهرة صالون السيدة دو ديفان. هاملتون: حكايات. رولين: التاريخ القديم. ماريفو: *Le Jeu de l'amour et du hasard* (لعبة الحب والمصادفة). بوفون في إنكلترا. غولدوني: دون جوان. ميتاستاز: الإسكندر. بداية استخدام آلة السدس (السدسية). مولد غيسنر.
دوبليكس في شاندرناغور. حلول اللغة الإنكليزية مكان اللاتينية في المحاكم الإنكليزية.	هولبرغ: *Théâtre danois* (المسرح الدانماركي). ماريفو: *La Vie de Marianne* (حياة ماريان). الأب بريفو: مانون ليسكو. فيلدنغ: *The Tragedy of Tragedies* (تراجيديا التراجيديات). تول: نظرية التسبيخ. وفاة ديفو وهودار دو لا موت. مولد و. كاوبر.
تأسيس المستعمرة الإنكليزية في جورجيا. معاهدة وارسو. مولد واشنطن، ونيكير.	بيركلي: *Alcyphron* (ألسيفرون). ميتاستاز: ديمتريوس. ديتوش: *Le Glorieux* (الماجد). انضمام مونتسكيو إلى الماسونية في إنكلترا. تأسيس لندن ماغازين. لوساج: دون غوزمان دالفاراش. ماريفو: *Les Serments indiscrets* (الأيمان المفشاة). بويرهاف: عناصر الكيمياء. موبرتوي: *Discours sur la figure des astres* (حديث في هيئة الكواكب). باخ: *Coffe Cantata* (أنشودة المقهى). وفاة دوبول. مولد فراغونار وهايدن وبومارشيه.
بداية حرب الخلافة على العرش في بولندا. إقرار التجنيد الإلزامي في بروسيا. حملة فيلار في إيطاليا. معاهدة تورينو. تأسيس مستعمرة إسبانية في الفيليبين.	بداية نشر تاريخ فرنسا الأدبي على يد الآباء البندكتيين في سان مور. رامو: إيبوليت وأريسي. باخ: *Mass in B minor* (قداس من مقام سي الصغرى). بوب: بحث في الإنسان. ماريفو: *L'Heureux Stratagême* (الخدعة السعيدة). فرانكلين: *Poor Richard's Almanack* (تقويم ريشار المسكين). برغوليزي: *La serva padrona* (الخادمة العشيقة). كاي يبتكر المكوك الطائر. وفاة كوبران. مولد بريستلي وفايلاند وميسمير ودوسيس وزوفاني وبوردا وهـ. روبير.

العام	حياة فولتير	حدث في فرنسا
1734	أربعون عامًا. 18 كانون الثاني/ يناير: العرض الأول لمسرحية أديلاييد دو غيسكلان. آذار/ مارس: فولتير شاهدًا على زواج الدوق دو ريشوليو من الآنسة دو غيز. 10 حزيران/ يونيو: الحكم على الرسائل الفلسفية بتعليقها على عمود تشهيرًا بها ثم حرقها. رسالة موقعة من الملك بحبس فولتير المختبئ عند السيدة دو شاتليه. بدأ بكتابة *La Pucelle* (العذراء). تموز/ يوليو: السفر إلى معسكر فيليبسبورغ. الدوق هولشتاين، الوريث المحتمل لعرش روسيا، يعرض عليه أن يدخله في خدمته.	وفاة برويك وفيلار.
1735	واحد وأربعون عامًا. يواصل فولتير كتابة العذراء، وعصر لويس الرابع عشر. نزاع مع ديفونتين. آذار/ مارس: يحصل على إذن بالعودة إلى باريس. أيار/ مايو: إقامة في بلاط اللورين. 11 آب/ أغسطس، العرض الأول لمسرحية وفاة يوليوس قيصر. أيلول/ سبتمبر: فولتير يتعرف إلى الكاهن ميسلييه.	مرسوم عن الوصايا.
1736	اثنان وأربعون عامًا. 27 كانون الثاني/ يناير: العرض الأول لمسرحية ألزير أو الأميركيون. بداية النزاع مع لو فران دو بومبينيان. الإقامة في سيري، حيث السيدة دو شاتليه تتعلم الإنكليزية. تموز: في باريس. 8 آب/ أغسطس: بداية المراسلة مع فريدريك، الأمير وولي العهد في بروسيا. 10 تشرين الأول/ أكتوبر: العرض الأول لمسرحية *L'Enfant prodigue* (الابن الضال). نشر رسالة إلى السيدة دو شاتليه حول النميمة. تشرين الثاني/ نوفمبر: فولتير يلتجئ إلى هولندا بضعة أشهر هربًا من التهديدات التي وجهها إليه لوموندان.	الاتفاقية الفرنسية – النمساوية.

لإمبراطور يعلن الحرب على فرنسا. معركة بارم. استيلاء الروس على دانتزغ. زينتزندورف: وحدة الإخوة المورافيين. تأسيس جامعة غوتنغن.

مونتسكيو: *Considérations... de la grandeur et de la décadence des Romains* (اعتبارات... عظمة الرومان وانحطاطهم). هوغارت: *La Vie d'une courtisane* (حياةُ غانية). باخ: أوراتوريو الميلاد. ريومور: تاريخ الحشرات. غريسيه: *Vert - vert* (أخضر – أخضر). غولدوني: بيليزير. تارتيني: سوناتا على الكمان. وفاة ريكي. مولد ريستيف دو لا بروتون، ودورا، ورولير، ورومني.

هدنة فرنسية – نمساوية. لابوردونيه حاكمًا لجزيرة فرنسا (جزيرة آل بوربون، المنطقة الباريسية).

دوم كالميه: *Histoire universelle* (تاريخ شامل). ماريفو: *Le Paysan parvenu* (الفلاح المترقي). نيفيل دو لا شوسيه: *Le Préjugé à la mode* (الحكم المسبق بحسب الدُّرْجَة). هوغارت: *La Carrière d'un roué* (حياة رجل). سالفي ينجز نافورة تريفي في روما. قام لاكوندامين وموبرتوي بقياس خط الطول الأرضي. السيدة دو تنسان: مذكرات الكونت دو كومينج. دوهالد: وصف إمبراطورية الصين. قام لوموان بزخرفة فندق سوبيز. رامو: أوبرا بلاد الأنديز المغرومة. باخ: كونشيرتو إيطالي. وفاة ستراديفاريوس. مولد الأمير دو ليني، وليبيسيه.

تمرد الهنود الحمر في لويزيانا. تأسيس بنك كوبنهاغن. بناء قصر الصيف في بيجين. بدايات الأوبرا الإيطالية في سانت بطرسبرغ.

ماريفو: *Le Legs* (الإرث). لوساج: *Le Bachelier de Salamanque* (عازب سلامنكا). شاردان: *Le Château de cartes* (قصر الورق). إنشاء معمل زجاج مورانو. هول يسجل براءة اختراعه المركب البخاري. وفاة بيرغوليز، وباتر. مولد دو لاغرانج. وواط.

العام	حياة فولتير	حدث في فرنسا
1737	ثلاثة وأربعون عامًا. آذار/ مارس: العودة إلى سيري. وفاة نيكولاي، الوصي القديم عليه. مراسلات نشطة مع فريدريك الذي يرسل وثيقة مهمة في شأن روسيا. كانون الأول/ ديسمبر: الانتهاء من كتابة ميروب.	شوفلان يفقد حظوته.
1738	أربعة وأربعون عامًا. كانون الثاني/ يناير: كتابة أولى المقالات عن الإنسان (*Discours sur l'homme*). تجارب علمية مع السيدة دو شاتليه. 25 شباط/ فبراير: زواج ماري لويز مينيو، ابنة شقيقته، من نيكولا شارل دوني. دعوى على الناشر جور. نشر عناصر من فلسفة نيوتن. تأليف *L'Envieux* (الحسود). كانون الأول/ ديسمبر: إقامة السيدة دو غرافيني في سيري: قراءة كل من قرن لويس الرابع عشر والتوراة.	مرسوم حول السخرة. أصبحت الآنسة دونيل عشيقة لويس الخامس عشر. إنجاز قناة كروزا (في بيكارديا).
1739	خمسة وأربعون عامًا. 15 أيار/ مايو: فولتير يسافر إلى هولندا بصحبة السيدة دو شاتليه. آب/ أغسطس: نشر حياة موليير. كتب في باريس الرد على جميع التحفظات الرئيسة التي صدرت في فرنسا حيال فلسفة نيوتن. تشرين الثاني/ نوفمبر: في سيري. نشر مجموعة *Pièces fugitives en vers et en prose* (المسرحيات الخاطفة شعرًا ونثرًا)، وقد صودرت.	لويس الخامس عشر لم يلتزم بطقوس عيد الفصح. بوفون وكيلًا على الحدائق الملكية.
1740	ستة وأربعون عامًا. كانون الثاني/ يناير: فولتير يراجع كتاب فريدريك الثاني (*Anti-Machiavel*) (ضد مكيافيلّي). 8 حزيران/ يونيو: العرض الأول لـ زوليم. تموز/ يوليو: في هولندا. 11 أيلول/ سبتمبر: توجه في أول زيارة إلى فريدريك الثاني في كليف. تشرين الثاني/ نوفمبر: في برلين. كانون الأول/ ديسمبر: العودة إلى بلجيكا.	لويس الخامس عشر يرسل إنذارًا أخيرًا إلى إنكلترا؛ القطيعة.

حدثَ في العالم	الحياة الفكرية
أول مسرح في براغ، واستكهولم.	معرض فني في اللوفر. لينيه: تصنيف النباتات. ماريفو: *Les Fausses Confidences* (الأسرار الزائفة). غولدوني: *L'Homme accompli* (الإنسان الكامل). رامو: كاستور وبولوكس. غلوك في إيطاليا. والبول في فرنسا. وفاة لوموان. مولد برناردان دو سان بيار، وبارمانتييه.
معاهدة فيينا: نهاية حرب وراثة العرش في بولندا. ستانيسلاس ليتشينسكي، دوق اللورين. إنكلترا تنضم إلى معاهدة فيينا. المعاهدة الفرنسية - السويدية. ثورات عمالية في إنكلترا. وايتفيلد يبدأ بالتبشير.	بيرون: *La Métromanie* (الولع بالنظْم). معرض فني في اللوفر. بول يبتكر نول الحياكة. هايندل: *Israel in Egypt* (بنو إسرائيل في مصر). رولين: التاريخ الروماني. كريبيون: *Les Égarements du coeur et de l'esprit* (متاهات القلب والفكر). برنويي: الهيدروديناميكية. قياس سرعة الصوت على يد كل من كاسيني وتيوري ومارالدي ولاكاي. إنشاء مصنع البورسلان في فنسين (نُقِل إلى سيفر). لانكريه: *Les Quatre Saisons* (الفصول الأربعة (سيدات فرنسا)). وفاة بويرهاف. مولد بيكاريا وهيرشل وبوفلرز ودوليل.
تأسيس الوكالة التجارية الفرنسية في كاريكال. انضمام فيليب الخامس إلى اتفاقية فيينا. حصار الأتراك بلغراد. والبول يعلن الحرب على إسبانيا. تأسيس أكاديمية العلوم في استكهولم.	السيدة دو تنسان: *La Siège de Calais* (حصار كاليه). معرض فني في اللوفر. هيوم: بحث في الطبيعة البشرية. بوشاردون ينجز نافورة شارع غرونيل في باريس. توكيه يرسم صورة ولي العهد. دولوز ينجز أولى الطباعات على القماش. دوبروس: *Lettres familières d'Italie* (رسائل عائلية من إيطاليا). بحوث كليرو حول الحساب المتكامل. هايندل: سوزان. مولد لا هارب.
31 أيار/ مايو: وفاة الملك سرجان وارتقاء فريدريك الثاني العرش واجتياحه سيليزيا. وفاة كليمان الثاني عشر. بداية عهد بنوا الرابع عشر على السدة البابوية. وفاة آنا إيفانوفنا. بداية عهد إيفان السادس. وفاة شارل السادس. ارتقاء ماري تيريز عرش النمسا: بداية حرب وراثة عرش النمسا. أول صحيفة يونانية.	تأسيس مطبعة بيلران في إيبينال. معرض فني في اللوفر. كوستو: *Les Chevaux de Marly* (خيول مارلي). شاردان: *Le Benedicite* (صلاة المائدة). ريتشاردسون: باميلا. كريبيون: *Le Sofa* (الأريكة). ماريفو: *L'Epreuve* (الامتحان). الأب غوجيه: مكتبة فرنسية. مولد ساد، وأوبرلان.

العام	حياة فولتير	حدثَ في فرنسا
1741	سبعة وأربعون عامًا. نيسان/ أبريل: العرض الأول لـ محمد في ليل. اللورد تتشسترفيلد يزور فولتير. حزيران/ يونيو: البدء بكتابة *Essai sur les moeurs* (بحث في العادات). تشرين الأول/ أكتوبر: في باريس. كانون الأول/ ديسمبر: في سيري.	مجادلات جديدة في شأن الرسالة البابوية.
1742	ثمانية وأربعون عامًا. كانون الثاني/ يناير: السفر إلى فرانش كونتيه. آب/ أغسطس: في بروكسل. حظر عرض مسرحية محمد في باريس. رحلة إلى إكس لا شابيل. تشرين الثاني/ نوفمبر: في باريس. تقليد مؤلفاته يتزايد.	بداية «عهد» العشيقات.
1743	تسعة وأربعون عامًا. 20 شباط/ فبراير: العرض الأول لـ ميروب. آذار/ مارس: موريس كانتان دو لا تور يرسم صورة فولتير. نيسان/ أبريل: أخفق فولتير في دخول الأكاديمية. حزيران/ يونيو: يذهب في بعثة دبلوماسية إلى برلين، حيث يحاول فريدريك الثاني استبقاءه. تشرين الثاني/ نوفمبر: العودة إلى فرنسا. 3 تشرين الثاني/ نوفمبر: انتخاب فولتير في الجمعية الملكية في لندن. نشر مسرحية محمد.	وفاة فلوري. دارجنسون، صديق فولتير، يصبح وزير الدولة للشؤون الحربية. المركيزة دو تورنيل تصبح عشيقة لويس الخامس عشر. مولد جان بيكو (التي صارت لاحقًا السيدة دو باري).
1744	خمسون عامًا. نشر ميروب. آذار/ مارس: العلاقة مع الآنسة غوسان. نيسان/ أبريل: فولتير يكتب أميرة نافار في سيري. أيلول/ سبتمبر: في شان، عند الدوق دو لا فالير. تشرين الأول/ أكتوبر: في باريس.	28 تشرين الثاني/ نوفمبر: دارجنسون وزيرًا للشؤون الخارجية. لويس الخامس عشر يعلن الحرب على إنكلترا والنمسا، ويجتاح بيمون وهولندا، ويستولي على فرايبورغ. قانون يجعل ملكية باطن الأرض للدولة.

تحالف فرنسي - بروسي. فشل والبول في الانتخابات. تحالف فرنسي - بافاري. السويد تعلن الحرب على روسيا. تفاهم فرنسي مع هانوفر. هدنة سرية بين النمسا وبروسيا. إليزابيت تقوم بانقلاب على إيفان السادس قيصر روسيا. شارل ألبير ملك بافاريا ينصب نفسه ملكًا على بوهيميا.

هايندل: *Le Messie* (المسيح). تحطيم الواجهة الزجاجية لكاتدرائية نوتردام في باريس. غابرييل، المهندس المعماري الأول لدى الملك. معرض فني في اللوفر. لا تور يرسم صورة الرئيس دو ريو. هيوم: بحوث أخلاقية وسياسية. غولدوني: *La Femme de tête* (امرأة الطليعة). فافار: *La Chercheuse d'esprit* (الباحثة الذكية). الأب بريفو: (تاريخ اليونان الحديثة). وفاة ج. ب. روسو وفيفالدي وورلين. مولد لافاتير ولاكلو وهودون وشامفور وفوسلي.

البابا بنوا الرابع عشر يدين سياسة اليسوعيين في الصين. النمساويون يستعيدون لينتز. شارل ألبير دو بافيير، ملك بوهيميا، يُنتَخَب إمبراطورًا باسم شارل السابع. استقالة والبول. تحالف فرنسي - دانماركي. معاهدة برلين. سقوط براغ.

معرض فني في اللوفر. ل. راسين: الدين. فيلدينغ: جوزف أندروز. يونغ: *The Complaint/Les nuits* (الليالي). بيرانيزي: *Carceri/Prisons* (سجون). تريزاغيه ينجز تعبيد الطرق. وفاة ماسيون.

الحرب الفرنسية - السردينية. حلف العائلة الثاني. فريدريك الثاني يعيد إنشاء أكاديمية برلين التي ستنشر مؤلفاته بالفرنسية. تأسيس الأكاديمية الدانماركية. آل فيراندري (الأب وأبناؤه) يكتشفون جبال روكي.

بدايات الآنسة كليرون في المسرح الفرنسي. هايندل: يوسف وإخوته. معرض فني في اللوفر. فيلدينغ: جوناثان وايلد. وفاة غريكور، وفا غيسلاندي وريغو وديبورت ولانكريه ولورين. مولد كاليوسترو ولافوازييه وكوندورسيه وجاكوبي.

المؤتمر الميتودي (نسبة إلى إحدى الطوائف المسيحية) العام الأول. فريدريك الثاني يستولي على براغ. بناء قلعة شونبرون.

ألبينوني: سيمفونيات. بيغال: ميركور. هوغارت: *Le Mariage à la mode* (زواج على الطريقة الدارجة). غلوك: *Sophonisbe* (سوفونيسب). فريدريك الثاني: *Le Miroir des princes* (مرآة الأمراء). هينو: *Abrégé chronologique de l'histoire de France* (عرض مختصر لتاريخ فرنسا). ميتاستاز: أنتيغون. وفاة فيكو وبوب وكامبرا. مولد هيردر ولامارك.

العام	حياة فولتير	حدثَ في فرنسا
1745	واحد وخمسون عامًا. في فرساي مع مطلع العام. 18 شباط/ فبراير: فولتير يفقد أخاه. 23 شباط/ فبراير: العرض الأول لأميرة نافار (*La princesse de Navarre*). أول نيسان/ أبريل: فولتير يُعيَّن كاتب سيرة ملك فرنسا. انتُخب إلى جمعية إدنبره الملكية. أيار/ مايو: نشر قصيدة *La Bataille de Fontenoy* (معركة فونتونوا). كتابة *Temple de la gloire* (معبد المجد). إقامة في شان. آب/ أغسطس – أيلول/ سبتمبر: مراسلة مع البابا. طباعة *Précis du siècle de Louis XV* (موجز في عصر لويس الخامس عشر). 27 تشرين الثاني/ نوفمبر: العرض الأول لمسرحية معبد المجد. 15 كانون الأول/ ديسمبر: تعرف إلى جان جاك روسو. بداية العلاقة مع السيدة دوني.	11 أيار/ مايو: معركة فونتنوا. بداية حظوة السيدة بومبادور. ماشو مراقبًا عامًا للشؤون المالية.
1746	اثنان وخمسون عامًا. 25 نيسان/ أبريل: فولتير يدخل الأكاديمية فيحتل مقعد جان بوهييه. 9 أيار/ مايو: استقباله في الأكاديمية. قضية ترافنول. 28 حزيران/ يونيو: أصبح عضوًا في أكاديمية سانت بطرسبرغ. آب/ أغسطس: كتابة مسرحية سميراميس. تشرين الثاني/ نوفمبر: تسمية فولتير نبيلًا عاديًا في الجناح الملكي. كانون الأول/ ديسمبر: يتعرف إلى دالامبير.	كريستوف دو بومون أسقفًا على باريس. وفاة تورسي.
1747	ثلاثة وخمسون عامًا. تموز/ يوليو: الكتابة الأولى لـ زاديغ: فولتير يلاقي المتاعب في البلاط. تشرين الأول/ أكتوبر: حادثة في مَقمَرة الملكة.	دارجنسون يفقد الحظوة. مولد لوي فيليب دورليان (الذي سيصبح فيليب المساواة مستقبلًا (Philippe-Egalité)).

اتفاقية أرانجوي. شارل ستيوارت ينزل على ساحل اسكتلندا. وفاة الإمبراطور. انتخاب فرانسوا الثالث دو لورين للعرش (فرانسوا الأول)، وهو زوج ماري تيريز إمبراطورة النمسا.

موريلّي: *Essai sur le coeur humain* (بحث في قلب الإنسان). سويدنبورغ: *(Du Culte et de l'amour de Dieu)* (عن عبادة الله ومحبته). سرفاندوني يرسم بوابة كنيسة سان سولبيس. تيبولو: لوحات جدارية في قصر كورنانو. معرض فني في اللوفر. غلوك: إيبوليت. ديتوش: مؤلفات. رامو: بيغماليون. وفاة سويفت وغارنيريوس وج. ب. فانلو. مولد فولتا وغويا وهوبيه.

احتلال الفرنسيين بروكسل. معركة بليزانس. وفاة فيليب الخامس. ارتقاء فرديناند السادس. استسلام جنوه. معركة روكو. تأسيس جامعة برنستون.

معرض فني في اللوفر. روسو يودع ابنه الأول في دار اللقطاء. ديدرو: *Pensées philosophiques* (أفكار فلسفية). فوفنارغ: *Réflexions et Maximes* (أفكار وتعليقات وحكم). الأب بريفو: تاريخ عام للأسفار. ماريفو: *Le Préjugé vaincu* (الانتصار على الفكرة المسبقة). هايندل: *Judas Macchabée* (يهوذا المكابي). وفاة والبول ولارجيلير وكوستو. مولد مونج وبيستالوتزي.

ثورة برتقالية في زيلندا. حرب فرنسية - هولندية. استيلاء الفرنسيين على بيرغ أوب زوم.

الناشر لوبروتون يوكل إدارة الموسوعة لديدرو ودالامبير. باخ: التقدمة الموسيقية. معرض فني في اللوفر. فرانكلين يخترع مانعة الصواعق. تروادان يؤسس مدرسة المناجم في باريس. غريسيه: *Le méchant* (الشرير). لا تور يرسم صورة وجه السيد دو ساكس. جونسون: معجم اللغة الإنكليزية. غلوك يضع أوبرا أعراس هيبيه وهرقل. نيفيل دو لا شوسيه: *L'amour Castillan* (الحب الكاتالوني). وفاة فوفنارغ، ولوساج، وسوليمينا. مولد غالفاني.

العام	حياة فولتير	حدثَ في فرنسا
1748	أربعة وخمسون عامًا. شباط/ فبراير - نيسان/ أبريل: إقامة في نانسي، ولونيفيل، وكومرسي، في بلاط الملك ستانيسلاس ليتشينسكي، حمي لويس الخامس عشر. 29 آب/ أغسطس: العرض الأول لـ سميراميس. أيلول/ سبتمبر: أصيب بالمرض. نشر *Panégyrique de Louis XV* (مديح الملك لويس الخامس عشر)، و *Pandore* (باندورا). تشرين الأول/ أكتوبر: فولتير يباغت السيدة دو شاتليه بين ذراعي سان لامبير.	«عهد» السيدة هنرييت.
1749	خمسة وخمسون عامًا. كانون الثاني/ يناير: فولتير يكتب تاريخ حرب 1741. نيسان/ أبريل: إميلي تريد الانتهاء من نيوتن. حزيران/ يونيو: عرض كوميديا نانين. 10 أيلول/ سبتمبر: وفاة السيدة دو شاتليه أثناء الولادة.	حرب ضريبة الواحد من عشرين. موروبا يفقد الحظوة.
1750	ستة وخمسون عامًا. فولتير في باريس، وقد جاءت السيدة دوني لتقيم معه في شارع ترافرسيير سانت أونوريه. ظهور فريرون. حزيران/ يونيو: فولتير يسافر إلى برلين بعد تسميته كبير الأمناء لدى فريدريك الثاني. لن يعود إلى باريس إلا عام وفاته.	حل مجلس الطبقات في لانغدوك. اضطرابات في باريس. ماشو حامل الأختام.
1751	سبعة وخمسون عامًا. فولتير يستعيد المخطوطات التي اختلسها منه سكرتيره لونشان. يعمل طوال العام في *Siècle de Louis XIV* (قرن لويس الرابع عشر)، الذي نشر في كانون الأول/ ديسمبر. قبل شهر، وصل لابوميل إلى برلين.	«عهد» السيدة أديلاييد.

معاهدة إكس لاشابيل: نهاية حرب ولاية العرش في النمسا.	كريبيون: كاتيلينا. هايندل: شمشون. بدايات فستريس في الأوبرا. بناء أوبرا بايروت. معرض فني في اللوفر. غريم يصل إلى باريس. ديدرو: *Les Bijoux indiscrets* (الجواهر الواشية). مونتسكيو: *L'Esprit des lois* (روح الشرائع). هيوم: بحوث فلسفية. ريتشاردسون: كلاريسا هارلو. كلوبستوك: لا ميسياد. أويلر: مؤلفات في التحليل الرياضي. نيدهام: نظرية الجيل العفوي. اكتشاف آثار بومبيي. بيغال: تمثال فينوس. لا تور يرسم وجه لويس الخامس عشر. لاميتري: الإنسان الآلة. مولد برتوليه ودافيد وجوسيو وبنتام وكورابيس.
تحالف إيطالي ضد قراصنة شمال أفريقيا.	هونتسمان يحقق صهر الفولاذ. اشتهار صالون السيدة جوفران. باخ: فن الفوغا. معرض فني في اللوفر. بوفون: *Histoire naturelle* (التاريخ الطبيعي). فيلدنغ: طوم جونز. سويدنبورغ: *Les Arcanes célestes* (الخفايا السماوية). تورنفور: دراسات في التشريح المقارن. ديدرو: *Lettre sur les aveugles* (رسالة في العميان). سُجن على أثر نشرها في فنسين. وفاة ماناسكو وج. فان هويزوم وكليرامبو. مولد غوته وألفييري وميرابو (الابن) وسوبليرا.
وفاة جان الخامس. ارتقاء خوسيه الأول عرش البرتغال. وزارة بومبال.	غولدوني: *Le Café* (القهوة). روسو: *Discours sur les sciences et les Arts* (مقالة في العلوم والفنون). توزيع دليل الموسوعة. بيغال: *L'Enfant à la cage* (الطفل في القفص). مارمونتيل: كليوباترا. وفاة باخ وموراتوري وأودري. مولد بركين وفالنسيين.
حكومة البرتغال تحظر الإعدام حرقًا.	معرض فني في اللوفر. ديدرو: رسالة عن الصم والبكم. بورلاماكي: مبادئ القانون السياسي. هايندل: جيفتيه. غوزي: *Rimes burlesques* (قصائد سمجة). فيلدنغ: أميليا. هيوم: *An Enquiry concerning the Principles of Morals* (تحقيق في مبادئ الأخلاق). ديكلو: *Considérations sur les moeurs de ce siècle* (تأملات في أخلاق العصر). نشر المجلد الأول من الموسوعة (حديث استهلالي لدالامبير). وفاة لاميتري. مولد شيريدان وجيلبير وجوفروا دابان.

العام	حياة فولتير	حدثَ في فرنسا
1752	ثمانية وخمسون عامًا. فضيحة هيرش – فولتير. أيار/ مايو: لابوميل يغادر برلين، بعد قطيعة مع فولتير وفريدريك الثاني. تشرين الأول/ أكتوبر: فولتير ينجز تاريخ حرب 1741. نزاع مع موبرتوي، مدير أكاديمية برلين.	قضية بطاقات الاعتراف. آخر عمليات الاضطهاد ضد البروتستانت.
1753	تسعة وخمسون عامًا. 27 آذار/ مارس: فولتير يغادر برلين بعد خلاف مع فريدريك الثاني. أيار/ مايو: إقامة عند الدوقة دو ساكس غوتا، ليكتب نزولًا عند طلبها حوليات الإمبراطورية (*Annales de l'Empire*). حزيران/ يونيو: توقيف فولتير واعتقاله في فرانكفورت. تشرين الأول/ أكتوبر: الإقامة في كولمار، بعد أن حظر عليه لويس الخامس عشر الاقتراب من باريس. الخلاف مع لابوميل يزداد حدة.	التنبيهات الكبرى من المحكمة العليا للملك. استدعاء المحكمة العليا.
1754	ستون عامًا. فولتير يعمل في *Essai sur les moeurs* (بحث في الأخلاق) في مكتبة الراهب البندكتي دوم كالميه، في دير سينون. آب/ أغسطس: عند مياه بلومبيير. كانون الأول/ ديسمبر: في جنيف. لابوميل يضاعف الأهاجي بحق فولتير.	23 آب: مولد ولي العهد (لويس السادس عشر مستقبلًا). ماشو في البحرية.
1755	واحد وستون عامًا. طبعة مقرصنة من تاريخ حرب 1741. الالتقاء بريشوليو مجددًا. فولتير يستقر في ديليس بدعم من آل ترونشان في 10 شباط/ فبراير 1755. آب/ أغسطس: عرض مسرحية يتيم الصين. حظر المسرح في ديليس بأمر من مجمع الكرادلة.	افتتاح حديقة الوعول. بناء قلعة كومبيين. إعدام ماندران.

حدث في العالم	الحياة الفكرية
ستانيسلاس ليتشينسكي يباشر بناء الساحة التي تحمل اسمه في نانسي. بناء قصر كازرت.	ريومور: تجارب حول المضم. هيوم: *Political Discourses* (مقالات سياسية). روسو: *Le Devin du village* (متنبئ القرية). الإدانة الأولى لـ «الموسوعة». موبرتوي: الأعمال الكاملة. فايلاند: عن الطبيعة. غاينسبورو يرسم صورة السيد والسيدة ساندبي. وفاة ج. ف. دو تروا، وش. أ. كوابيل. مولد فيلانجييري.
الحرب الأميركية – الكندية. مؤتمر لندن حول الشؤون الهندية.	فافار: باستيان وباستيين. هولبرغ: *The Haunted House* (البيت المسكون). معرض فني في اللوفر. لا تور يرسم صورتي روسو ودالامبير. بداية المراسلة الأدبية لغريم. بوفون في الأكاديمية: خطبة في الأسلوب. غابرييل يباشر بناء أوبرا فرساي. ريتشاردسون: السير تشارلز غرانديسون. ليغوري: *Théologie morale* (لاهوت أخلاقي). نشر المجلد الثالث من الموسوعة مع مقدمة بقلم دالامبير. وفاة بيركلي. مولد ج. ميستر وأوتامارو وبارني وريفارول.
دوبليكس يغادر الهند. تأسيس كينغز كولدج في نيويورك. طرد اليسوعيين من البرازيل.	روسو: *Discours sur l'inégalité* (بحث في عدم المساواة). بداية نشر *L'Année littéraire* (السنة الأدبية) لفريرون. كوندياك: *Traité sur les sensations* (بحث في الأحاسيس). ديدرو: *Pensées sur l'interprétation de la nature* (خواطر في تأويل الطبيعة). غابرييل يباشر بناء ساحة لويس الخامس عشر (ساحة الكونكورد) في باريس. هيوم: تاريخ إنكلترا. غولدوني: *Le Philosophe à la campagne* (الفيلسوف في الريف). فينكلمان في إيطاليا. بوشيه: *Mlle O'Murphy* (الآنسة أومورفي). فالكونيه: ميلون دو كروتون. وفاة هولبرغ، وفيلدنغ، وبيازيتا. مولد بونالد.
تأسيس جامعة موسكو. أول كتاب نحو روسي. قطيعة دبلوماسية فرنسية – إنكليزية. أول تشرين الثاني/ نوفمبر: هزة أرضية في لشبونة. طرد اليسوعيين من الباراغواي.	معرض فني في اللوفر. نشر المجلد الخامس من الموسوعة. بلاك يبتكر غاز الفحم. موريلي: قانون الطبيعة. لسينغ: الآنسة سارة سامبسون. غروز: *Le Père de la famille* (رب الأسرة). لا تور يرسم صورة السيدة دو بومبادور. وفاة مونتسكيو وسان سيمون وجانتي برنار ومافيي. مولد فوركروا وكورفيسار وفلوريان وكاترمير دو كينسي وكولن دارلفيل وفابر ديغلانتين ودوبوكور وأ. فيجيه لوبران وبروني.

العام	حياة فولتير	حدثَ في فرنسا
1756	اثنان وستون عامًا. تشرين الثاني/ نوفمبر: فولتير يقترح على وزارة الحربية عربات قتال. كانون الأول/ ديسمبر: يحاول أن ينقذ الأميرال الإنكليزي باينغ، المحكوم ظلمًا بالإعدام. كتابة مقالة التاريخ في الموسوعة. نشر *Essai sur les moeurs* (بحث في الأخلاق). زيارة دالامبير إلى ديليس.	اضطرابات في دوفينيه.
1757	ثلاثة وستون عامًا. شباط/ فبراير: بناء على طلب من السفارة الروسية، يباشر فولتير كتابة تاريخ روسيا. آب/ أغسطس - أيلول/ سبتمبر: يقوم فولتير بدور الوسيط بين فريدريك الثاني وفرنسا، بهدف إرساء السلام. كانون الأول/ ديسمبر: فضيحة مقالة جنيف (بوحي من فولتير) التي كتبها في الموسوعة.	4 كانون الثاني/ يناير: الاعتداء على داميان.
1758	أربعة وستون عامًا. كتابة تاريخ روسيا. تشرين الأول/ أكتوبر: شراء فيرني وتورني (من الرئيس دو بروس). دعوى ضد الناشر غراسيه.	تعيين شوازول وزيرًا للخارجية.
1759	خمسة وستون عامًا. كانون الثاني/ يناير: نشر كانديد. أيار/ مايو: نشر تراجيديا تانكريد، التي سوف تعرض في تشرين الأول/ أكتوبر على مسرح تورنيه. تشرين الأول/ أكتوبر: فولتير يدخل في حرب ضد المرذولة: ينشر علاقة مرض... اليسوعي بيرتييه. الانتهاء من كتابة الجزء الأول من تاريخ روسيا.	السيد دو سيلويت يقوم بإصلاح في إدارة الجبايات.
1760	ستة وستون عامًا. الانتقال إلى فيرني. متاعب مع مجمع كرادلة جنيف. قطيعة مع ج. ج. روسو. أيلول/ سبتمبر: عرض تانكريد في باريس. فولتير يستقبل الآنسة كورناي. الحرب ضد بومبينيان. عرض ملهاته *L'Écossaise* (الاسكتلندية) في باريس.	إنشاء بريد محلي في باريس. الضرائب تزداد.

بداية حرب السنوات السبع. مونتكالم في كندا. أول وزارة يشكلها بيت.

روسو: *Lettre sur la providence* (رسالة في العناية الإلهية). مولد لاسبيد، وموزار ورايبرن.

5 تشرين الثاني/ نوفمبر: فريدريك الثاني يقهر الجيش الفرنسي في روسباخ.

معرض فني في اللوفر. ديدرو: *Le fils naturel* (الابن الطبيعي). هيلفيتيوس: *De l'esprit* (عن الروح). السيدة لوبرانس دو بومون: *Le Magasin des enfants* (مخزن الأطفال). رامو: *Les Surprises de l'amour* (مفاجآت الحب). بيرك: المؤسسات الأوروبية في أميركا. وفاة فونتونيل وريومور وفاديه ور. كاريرا. مولد و. بلايك.

وفاة بنوا الرابع عشر وبدء بابوية كليمان الثالث عشر. الاستيلاء على فرونتوناك، وغوريه وسان لوي في السنغال من جانب الإنكليز. لالي تولندال في الهند.

روسو: *Lettre à d'Alembert* (رسالة إلى دالامبير). دالامبير يترك الموسوعة. ديدرو: *Le Père de la famille* (رب الأسرة). كينيه: *Tableau économique* (جدول اقتصادي). سويندنبرغ: السماء والجحيم. مولد برودون، وس. فيرنيه.

طرد اليسوعيين من البرتغال. معركة ميندن. استسلام كيبيك. الإنكليز في غوادالوبي.

معرض فني في اللوفر (ديدرو). إدانة من المحكمة العليا بحرق الموسوعة. فايلاند: سيروس. ستيرن: تريسترام شاندي. غوسيك: سيمفونيات. تأسيس المتحف البريطاني. وفاة هايندل، ومونتكالم. مولد شيلر وبيرنز وويلبرفورس.

وفاة جورج الثاني وبداية عهد جورج الثالث في إنكلترا. نهب برلين على يد الروس. استسلام مونتريال. حصار بونديشيري.

دالامبير: معادلات تفاضلية. ماكفرسون: أوسيان. سبالانزاني: بحوث فيزيولوجية جديدة. غاينسبورو يرسم صورة الأميرال هاوكنز. باليسو: مسرحية الفلاسفة (*Les Philosophes*). مولد شيروبيني و(الكونت) سان سيمون وهوكوساي.

العام	حياة فولتير	حدثَ في فرنسا
1761	سبعة وستون عامًا. فولتير يباشر التعليق على كورناي، ويتدخل لمصلحة القس روشيت. قضايا شائكة مع اليسوعيين في أورنيكس، ومع كاهن موان وأسقف آنيسي.	18 شباط/فبراير: إعدام القس روشيت. 13 تشرين الأول/أكتوبر: انتحار مارك أنطوان كالا. شوازول وزيرًا للشؤون الحربية والبحرية. مفاوضات فرساي: حلف العائلة.
1762	ثمانية وستون عامًا. البذخ في فيرني. خصام مع الرئيس دو بروس. 4 نيسان/أبريل: بداية قضية كالا. كانون الأول/ديسمبر: طبعة جديدة لـ *Essai sur les moeurs* (البحث في الأخلاق).	10 آذار/مارس: إعدام جان كالا في تولوز. المحكمة العليا تأمر بإلغاء اليسوعيين. إدانة المحكمة العليا لكتاب إميل، لجان جاك روسو.
1763	تسعة وستون عامًا. زواج الآنسة كورناي، وفولتير يقدم البائنة. تموز/يوليو: نشر المجلد الثاني من تاريخ روسيا. آب/أغسطس: جيبون في زيارة إلى فيرنيه. نشر *Traité sur la tolérance* (معاهدة حول التسامح).	10 شباط/فبراير: سلام باريس: نهاية حرب السنوات السبع.
1764	سبعون عامًا. شباط/فبراير: فولتير يتدخل لمصلحة السجناء البروتستانت. عرض تراجيديته *Olympie Mars* (أولمبيا مارس). يقترح إنشاء مستعمرة للبروتستانتيين الفرنسيين في غويانا. حزيران/يونيو: نشر المعجم الفلسفي. رسالة من أحد أتباع طائفة الكواكرز. تموز/يوليو: عرض تراجيديا *Triumvirat* (تريومفيرا). نشر كتاب *Le Sentiment des citoyens* (شعور المواطنين)موجهًا ضد روسو.	18 أيار/مايو: وفاة الماريشال لكسمبورغ. محاكمة سيرفين وإدانته. وفاة السيدة دو بومبادور.
1765	واحد وسبعون عامًا. 9 آذار/مارس: إعادة الاعتبار إلى كالا. أيار/مايو: نشر فلسفة التاريخ. زيارة سفير روسيا إلى فيرني. قضية سيرفان.	التجارة حرة بالنسبة إلى رعايا الملك كافة.

حدثَ في العالم	الحياة الفكرية
استسلام بونديشيري.	معرض فني في اللوفر (ديدرو). روسو: *La Nouvelle Héloïse* (إيلوييز الجديدة). غوزي: *Il Corvo* (الغراب). لوحة غروز: عقد خطبة لقروية، وفاة ريتشاردسون. مولد بوالي.
5 كانون الثاني/ يناير: وفاة إليزابيت إمبراطورة روسيا، وبداية عهد بطرس الثالث. 9 تموز/ يوليو: إمبراطورة روسيا كاترين الثانية تستولي على الحكم. الإنكليز في مانيلا وفي هافانا. مفاوضات تمهيدية للسلام بين إسبانيا وفرنسا وإنكلترا.	روسو: إميل، والعقد الاجتماعي. الكاهن ميلييه: *Mon testament* (وصيتي). اللورد تشسترفيلد: رسائل. غلوك: أورفيوس. بيغال: تمثال لويس الخامس عشر. غابرييل يصمم قصر تريانون الصغير. مولد فيخته، وأندريه شينييه.
معاهدتا باريس وهوبرتسبورغ.	معرض لوحات في اللوفر (ديدرو). بيكاريا: بحث في الجنايات والعقوبات. رينولدز يرسم صورة الآنسة أوبريان. وفاة ماريفو، والأب بريفو، ول. راسين.
قضية ويلكس. انتخاب الأرشيدوق جوزف ملكًا على الرومانيين.	روسو: *Lettres écrites de la montagne* (رسائل مكتوبة من الجبل). سوفلو: البانتيون. فينكلمان: تاريخ الفن القديم. هودون يصنع تمثال سان برونو. والبول: قلعة أوترانت. أول تقويم لغوتا. وفاة هوغارت، ورامو. مولد م. ج. شينييه، وأ. رادكليف.
فريدريك الثاني ينشئ مصرف برلين.	معرض فني في اللوفر (ديدرو). إنجاز الموسوعة. غروز: *La Malédiction paternelle* (اللعنة الأبوية). سيدان: *Le Philosophe sans le savoir* (الفيلسوف من دون أن يعلم). تورغو: *Formation et Distribution des richesses* (تكوين الثروات وتوزيعها). كافانديش: دراسة عن الهيدروجين. وفاة الكونت دو كايلوس، وبانيني، وس. فانلو.

العام	حياة فولتير	حدثَ في فرنسا
1766	اثنان وسبعون عامًا. أول تموز/ يوليو: إعدام الفارس دو لا بار. فولتير يقترح على الفلاسفة الفرنسيين الهجرة إلى الأراضي البروسية. يسعى لإعادة الاعتبار إلى الكونت لالي تولندال. ويستدعي عمال صنع الساعات في جنيف.	اتحاد اللورين بالتاج الفرنسي.
1767	ثلاثة وسبعون عامًا. اضطرابات في جنيف. نشر *L'Ingenu* (الساذج). دور لفولتير في الاضطرابات. قصيدته الهزلية: *La Guerre civile de Genève* (حرب جنيف الأهلية).	إعادة النظر في محاكمة سيرفن.
1768	أربعة وسبعون عامًا. قطيعة مع السيدة دوني بعد أن طُردت من فيرني. شباط/ فبراير: نشر *L'Homme aux quarante écus* (الرجل ذو الأربعين إيكو). حزيران/ يونيو: بداية أعمال في فرسوا. *Précis du siècle de Louis XV* (بحث في عصر لويس الخامس عشر). *La Princesse de Babylone* (أميرة بابل). زيارة لا هارب. فولتير يتناول القربان في أسبوع الفصح.	موبيو مستشارًا في فرنسا. بداية الحظوة لدى السيدة دو باري. ضم كورسيكا.
1769	خمسة وسبعون عامًا. نشر تاريخ محكمة باريس العليا. زيارة غريتري. فولتير يُرسم كبوشيًا.	إلغاء امتياز شركة الهند الفرنسية.
1770	ستة وسبعون عامًا. فولتير يعمل في مسائل الموسوعة ويقوم بحملة لتحرير الأقنان في مون جورا. تدخل لمصلحة الزوجين مونبايي. اكتتاب وطني لصنع تمثال له. عودة السيدة دوني.	زواج ولي العهد وماري أنطوانيت. نزاع بين لويس الخامس عشر والمحكمة العليا. 24 كانون الأول/ ديسمبر: سقوط شوازول.
1771	سبعة وسبعون عامًا. 25 تشرين الثاني/ نوفمبر: تطبيق وصية البروتستانتي سيرفن. ارتفاع حدة النزاع مع المحكمة العليا: قطيعة مع آل شوازول.	دوق إيغويون وزيرًا للخارجية.

وفاة ستانيسلاس ليتشينسكي. انتخاب ستانيسلس بونياتوفسكي ملكًا لـ بولندا. إدانة اليسوعيين في إسبانيا.	روسو في لندن عند هيوم. تأسيس المدرسة البيطرية في ألفور. سان لامبير: Les Saisons (الفصول). غولدسميث: The Vicar of Wakefield (أسقف وايكفيلد). لا تور: صورة الحسناء دو زويلن. بداية رحلة بوغنفيل. وفاة ناتييه وأفيد. مولد جرمان نيكر (السيدة دو ستال مستقبلًا) ومالتوس ومان دو بيران.
الدانمارك تحوز شلزفيغ وهولشتاين.	معرض فني في اللوفر (ديدرو). وات: ماكنة بخارية. روسو: معجم الموسيقى. بريستلي: تاريخ الكهرباء. لسينغ: مينا فون بارنهيلم. هولباخ: Le Christianisme dévoilé (كشف النقاب عن المسيحية). وفاة مالفيلاتر. مولد ب. كونستان وشليغل وج. دو هومبولت وجيروديه وإيزابي.
اتفاقية بوسطن. الحرب التركية – الروسية.	رحلة كوك الأولى. كيسنيه: الفيزيوقراطية (مذهب اقتصادي يعتبر الزراعة مصدر الثروات). كارمونتيل: Proverbes dramatiques (أمثال درامية). سيدان: La gaguere imprévue (التحدي غير المتوقع). ديدرو والسيدة إيبينيه يأخذان مكان غريم في المراسلة الأدبية. أويلر: Études de calcul intégral (دروس الحساب المتكامل). مونج: الهندسة الوصفية. غاينسبورو: صورة إليزا لينلي. وفاة فينكلمان وكاناليتو وشتيرن. مولد شاتوبريان وج. كروم.
وفاة كليمان الثالث عشر. ارتقاء كليمان الرابع عشر السدة البابوية.	معرض فني في اللوفر (ديدرو). مولد كوفييه، وأ. دو هومبولد، ون. نابوليون بونابرت، ولورنس.
مهمة دوموريه في بولندا.	روسو ينجز الاعترافات. سان لامبير في الأكاديمية. هولباخ: نظام الطبيعة. رينال: Histoire des établissements européens dans les Indes (تاريخ المؤسسات الأوروبية في الهند). غولدسميث: The Deserted Village (القرية المهجورة). غاينسبورو يرسم: الولد ذو الملابس الزرقاء. وفاة ج. ب. تييبولو، وبوشيه، ومونكريف، وهينو. مولد بيتهوفن، وهولدرلين، وَوردزوورث، وجيرار وهيغل.
إلغاء الرق في سافوا. الروس يغزون جزيرة القرم. غوستاف الثالث ملكًا للسويد.	معرض فني في اللوفر (ديدرو). بوانسينه: Le Cercle (الدائرة). بوغنفيل: Voyage autour du monde (رحلة حول العالم). لافوازييه يحلل تكوين الهواء. هودون: ديدرو. غويا يزين كاتدرائية سرقسطة. وفاة هلفيتيوس ول. م. فانلو. مولد بيشا، وف. سكوت وغرو.

العام	حياة فولتير	حدث في فرنسا
1772	ثمانية وسبعون عامًا. فولتير يضع قصيدة غنائية بمناسبة المئوية الثانية لمذبحة سان بارتيليمي. *Les Lois de Minos* (قوانين مينوس)، تراجيديا نقدية ضد التعصب. لوكان يمثل على مسرح فيرني. وفاة تييريو.	إفلاس جزئي.
1773	تسعة وسبعون عامًا. أيلول/سبتمبر: نشر *Fragments historiques sur L'Inde* (مقتطفات تاريخية عن الهند). فولتير يعرض ساعات من معمله على السيدة دو باري. عدو جديد: كليمان.	تأسيس محفل فرنسا الماسوني الكبير. قضية بومارشيه وغوزمان.
1774	ثمانون عامًا. نشر *Le Crocheteur borgne* (الحمال الأعور). فرساي تقلق حيال خلافة فولتير.	10 أيار/مايو: وفاة لويس الخامس عشر، وبداية عهد لويس السادس عشر. موريا المستشار الحميم. فيرجين وزيرًا للخارجية. تورغو للبحرية والمالية: إقرار حرية تجارة الحبوب، وتخفيض تعويضات الجباية العامة، واستعادة سلطة المحكمة العليا.
1775	واحد وثمانون عامًا. نشر الطبعة «ذات الإطار» للأعمال الكاملة. فولتير يدعم تورغو. سكان فيرني يحتفلون بوليّ نعمتهم.	مجاعة في باريس: حرب الطحين.

كاترين الثانية تسحق ثورة القوزاق. محاكمة سترونسي وإعدامه. أول تقسيم لبولندا. وارين هاستنغز حاكمًا للهند.	لاغرانج: *Addiction à l'algèbre d'Euler* (إضافة إلى جبر أويلر). بريستلي: ملاحظات عن الهواء. غولدسميث: *She Stoops to conquer* (هي تتنازل لتغزو). كازوت: الشيطان العاشق. فايلاند: *der Goldene Spiegel* (المرآة الذهبية). ديدرو يُنجز جاك المؤمن بالقدر[2]. رحلة كوك الثانية. وفاة سويدنبورغ ودوكلو، وتوكيه. مولد نوفاليس وكولريدج وبروسيه وريكاردو وجوفروا سانت إيلير وفورييه.
كليمان الرابع عشر يحل جمعية يسوع. ديدرو في روسيا. بناء أول جسر حديدي في كولبروكدايل.	معرض فني في اللوفر. ب. دو سان بيار: *Voyage à l'Ile de France* (رحلة إلى جزيرة فرنسا). غوته: غويتز فون برليتشنغن. ميستر يحل محل ديدرو في المراسلة الأدبية. وفاة بيرون. مولد ج. ميل.
وفاة كليمان الرابع عشر. بداية حظوة بوتمكين لدى كاترين الثانية.	فايلاند: *Die Geschidate der Abderiten* (الأبديريون). غوته: فيرتر. دراسات بريستلي عن الأوكسيجين. شيلي يكتشف الكلور. هيرشل يبني التلسكوب الكبير. وفاة غولدسميث وكيني ولاكوندامين. مولد ساوذي وس. د. فريدرش.
بداية حرب الاستقلال الأميركية: واشنطن القائد الأعلى. بيوس السادس على السدة البابوية.	معرض لوحات في اللوفر (ديدرو). جانتي برنار: *L'Art d'aimer* (فن العشق). بومارشيه: *Le Barbier de Séville* (حلاق إشبيلية). ديدرو: حلم دالامبير[3]. شيريدان: *Les Rivaux* (الخصوم). وفاة فوازنون، وف. هـ درويه. مولد أمبير، وترنر، وماير، وبولديو، وشيلينغ.

(2) من ترجمتنا، صدر في عام 2000 عن دار الحوار، بالتعاون مع القسم الثقافي في السفارة الفرنسية بدمشق (المترجم).

(3) من ترجمتنا، صدر عن وزارة الثقافة السورية في عام 2007 (المترجم).

العام	حياة فولتير	حدث في فرنسا
1776	اثنان وثمانون عامًا. نشر *La Bible enfin expliquée* (التوراة مشروحة أخيرًا). زوار فيرني لا يحصى عددهم. عدو يُحسب حسابه: الأب غينيه. لويس السادس عشر لا يحب فولتير.	إلغاء موقت للسخرة والتجمعات المهنية. استقالة ماليزيرب. نيكر ينضم إلى المراقب العام للمالية. فرانكلين في باريس.
1777	ثلاثة وثمانون عامًا. تموز/ يوليو: الإمبراطور جوزف الثاني يمر من فيرني من دون التوقف عند فولتير. تأليف تراجيديا *Irène* (إيرين).	نيكر المدير العام للمالية. إنشاء الكلية الحربية. معاهدة تحالف فرنسية – سويسرية.
1778	10 شباط/ فبراير: الوصول إلى باريس. قراءة مذكرات سان سيمون. 30 آذار/ مارس: ذروة المجد: جلسة في الأكاديمية، وعرض إيرين. لقاء مع فرانكلين، وديدرو. 7 نيسان/ أبريل: فولتير يُستقبَل في محفل الأخوات التسع. 11 أيار/ مايو: فولتير طريح الفراش. السبت 30 أيار/ مايو: وفاة فولتير في عامه الرابع والثمانين. 2 تموز/ يوليو: وفاة روسو. دفن فولتير سرًّا في دير سيلير في الساعة الخامسة صباحًا.	إنشاء صندوق الحسم في باريس.

حدثَ في العالم	الحياة الفكرية
4 تموز/يوليو: إعلان الاستقلال الأميركي. تأسيس أول نقابة عمالية في لندن.	جوفروا يسير مركبًا بخاريًا على نهر الدو. رحلة كوك الثالثة. بداية نشر المجلدات الأربعة من ملحق الموسوعة. ريستيف دو لا بروتون: *Le Paysan et la Paysanne pervertis* (الفلاح والفلاحة فاسدا الأخلاق). جيبون: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها هولباخ: *La Morale Universelle* (الأخلاق الشاملة). مابلي: مبادئ القوانين. آ. سميث: ثروة الأمم. وفاة هيوم وفريرون. مولد كونستابل وأفوغادرو.
لافاييت في أميركا. التصويت على بنود الدستور الاتحادي السويسري.	معرض فني في اللوفر. *Le Journal de Paris* (جريدة باريس)، أول صحيفة يومية فرنسية. لافوازييه: نظرية الاحتراق. شيريدان: *L'École de la médisance* (مدرسة النميمة). هودون: ديانا. بيغال: تمثال الماريشال دو ساكس. وفاة غريسيه وناتوار. مولد غوس وكلايست ودوبويترين.
كوك في جزر هاواي. فريدريك الثاني يغزو بوهيميا.	روسو ينجز هواجس المتنزه المتفرد بنفسه. بارني: *Poésies érotiques* (قصائد ذات إيحاءات جنسية). بوفون: *Les Époques de la nature* (أحقاب الطبيعة). موزار: العدميات الصغيرة. لامارك: *La Flore française* (الثروة النباتية الفرنسية). هودون: موليير. وفاة بيرانيزي ولينيه وبيت. مولد فوسكولو وغي لوساك وبروتونو.

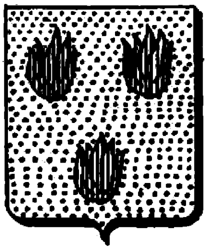

شجرة نسب عائلة أرويه

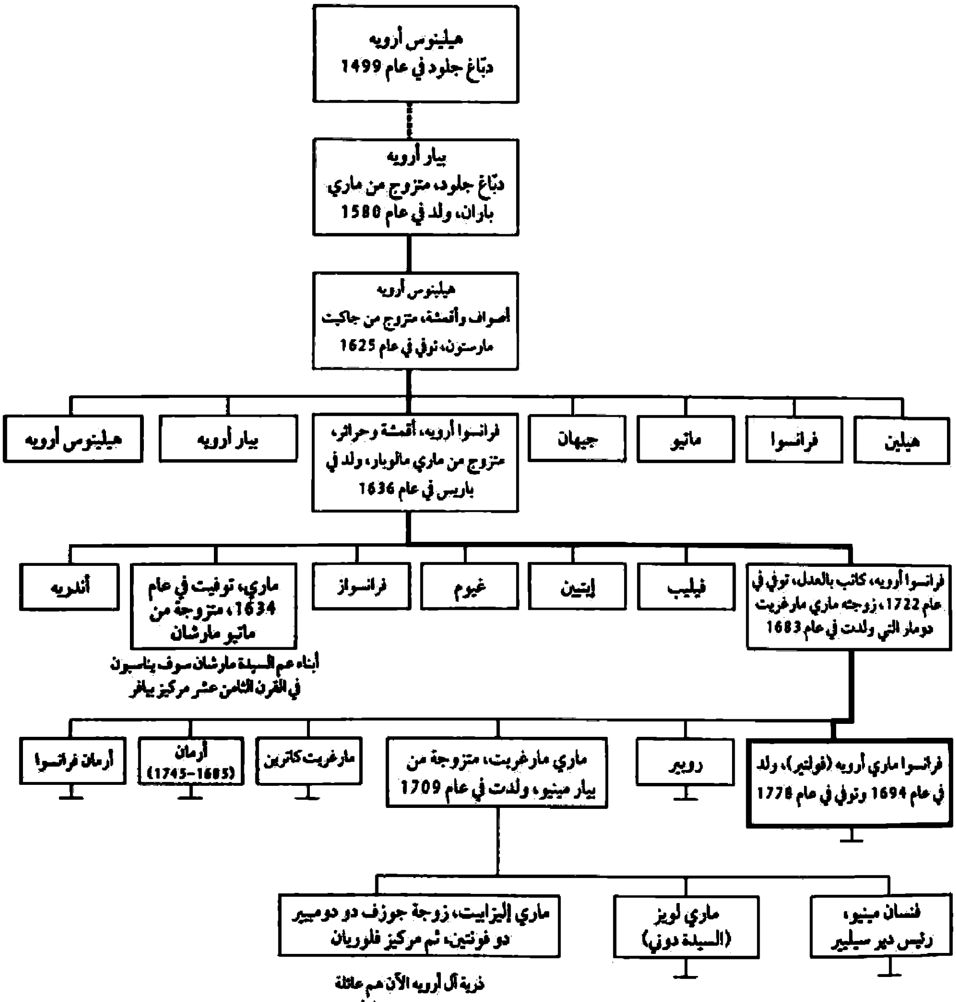

القسم الأول

هؤلاء السادة آل أرويه: من يخدم بلاده ليس في حاجة إلى نسب

يكشف لنا هذا البيت الذي كتبه ميروب عن شعور فولتير تجاه العائلة عمومًا وتجاه عائلته خصوصًا؛ فهو يزدريها، إذ رغب في أن يكون الأول من أبناء جلدته ونسبه. فلِمَ دُعِيَ فولتير؟ ليس من يعرف عن الأمر كبير شيء. هنالك من يقول إنه تصحيف لاسم أرويه، فيما يقول آخرون إنه اسم لأرض. والحال أن ما من قطعة أرض تحمل هذا الاسم، ويعلم الله أن الكاتبين بالعدل (موثقي العقود) كانوا، في ظل النظام القديم، يمسكون بدفاتر تشير إشارة واضحة إلى أصغر القطع من الأرض. لقد سمى نفسه فولتير حتى لا يُدعى أرويه مثل أبيه ومثل أخيه أرمان والأفراد الآخرين كافة من عائلة أرويه. ورغب في أن يظهر في هذا العالم على مثال الربة مينرفا[1]، وأن يخرُج طفلاً عبقريًا من دماغ الكائن الأسمى. وواقع الحال أنه ولد على سرير كاتب بالعدل، فكان من عائلة أرويه وظل منها على الرغم من سخطه عليها.

تبجح بإنكار جدوده، لكنها ترهة ليس إلا. فلكي يُنكِر المرء جدوده، لا بد من أن يكون له جدود. لكن جدود فولتير ليسوا على تلك الدرجة من الشهرة ليغدو التكلف بإنكارهم نوعًا من الزهو. إلا أنهم كانوا على درجة من العزة تجعلهم جديرين بمشاعر أخرى غير ازدراء سليلهم.

ما كان لنا أن نعرف شيئًا عنهم لو اقتصرنا في معلوماتنا على فولتير. فهو لا يتكلم على عائلته إلا باستهتار. لكنه مدين لها بكل شيء، ونجد فيه كثيرًا من السمات - بل من أرفع الشيم - جاءت السليل من ذلك العرق الذي ازدراه،

(1) خرجت الربة الإغريقية أثينا - واسمها مينرفا عند الرومان - من رأس الرب الأكبر زيوس. (المترجم).

حتى وجب علينا الكلام على تلك العائلة المثالية في فرنسا القديمة. إن ظهور عائلة أرويه إنما هو في العمل والذكاء والصمود - وهي سوف نتابع نشوءها الدؤوب على مدى قرنين - فالمراحل كافة حُددت، ودُوِّن كل شيء، وليس هنالك من حركات فجائية، ولا من خطأ: فكان آل أرويه في كل جيل يرتقون. ارتقَوا من قرية صغيرة في فانديه، إلى الشمال من بواتو، واسمها سان لو، في بلد غيضة من الاخضرار ومنعزل في غاتين. بلد ثوار ملكيين بعض الشيء، وبلد حقيقي متماسك ومتحد. وكان أول واحد من عائلة أرويه دباغًا في القرن الخامس عشر. والدباغون كُثُر في المنطقة لأن تربية المواشي مزدهرة فيها، والماء متوافر بغزارة، فاستأجر في عام 1495 ذلك الرجل أرضًا قرب النهر لغسل الجلود وتجفيفها. وكان القرن السادس عشر عصر نعمة على القرية بفضل صناعته القائمة على الجلود والصوف، بل جرى فيها نسج الجوخ. فتحول آل أرويه الدباغون إلى الصوف ونسج الجوخ.

وفي عام 1523، صار أحد آل أرويه، واسمه هيلينوس، مالكًا لأراضٍ. فاستقر في سان لو، بعد أن هجر قريته سان جوان دو مارن، قرب إرفو، وهي أهم مركز في تلك المقاطعة الصغيرة. وما لبث هيلينوس هذا أن أصبح كاتبًا بالعدل، فصار يشار إليه أحيانًا بأسماء أراضيه التي تعود إلى أسماء نبلاء من القرون الوسطى: السيد دو لا موت أو فيه، أو السيد دو با دو سين.

ما كانت تلك البلاد ميسورة، فلم يُقِم النبلاء فيها. إن القلاع هناك منازل حصينة، وليس فيها ما ينم عن البذخ. فتألفت النخبة بين السكان من الرسميين المحيطين بالتاج، ومعظمهم من رجالات القضاء، من أبناء الدباغين والتجار الأغنياء الذين تطوعوا فرسانًا، ثم حازوا في الوقت نفسه، بارتقائهم إلى المناصب وتفويضهم بشيء ضئيل من السلطة الملكية، لقب النبالة. وكان ذلك هو الطموح الأسمى لزعماء العائلة الذين أثرَوا. فمنذ القرن السادس عشر وآل أرويه في سعي وراء تلك المصاهرات. وإذا كانوا لم ينالوا ذلك اللقب حتى الآن فإنهم كانوا على احتكاك بتلك النبالة الصغيرة الفتية، بل أصبح بعض آل أرويه يضطلع بمهمات محلية متواضعة: وكيل أملاك الأسياد. ونقع من بين مصاهرات آل أرويه على واحد من آل بيدو. لكننا نعرف آل بيدو هؤلاء حق المعرفة. إنهم عائلة

والدة لافونتين. وهم أبناء الخؤولة من آل بيدو، من مقاطعة بواتو. وقد تعرف لافونتين إلى أنفه الكبير حين شاهد واحدًا من آل بيدو، أبناء خؤولته الذين كان لهم الأنف نفسه. ويا له من اقتران جميل لآل أرويه ولافونتين بأصولهم العائلية، وهي أصول ذات رحيق عطَّرَ الحكايات الخرافية لدى أحدهما والقصص لدى الآخر. وفي حين واصل اثنان من أرويه مهنة الدباغة حتى القرن السابع عشر، فإننا نعثر على واحد من أرويه محاميًا في توار، وقد وُصِف بأنه نبيل. وتلك أول إشارة إلى لقب النبالة الذي لن يصير واقعًا بالنسبة إلى أصحابنا آل أرويه إلا في نهاية القرن السابع عشر بالنسبة إلى والد فرانسوا أرويه، المدعو فولتير، ولن يتألق بالنسبة إلى فولتير، بوصفه نبيلًا في غرفة الملك، إلا في عام 1741.

إن أول واحد من آل أرويه يقوم بقفزة حقيقية هو فرانسوا، وذلك في عام 1625: فقد غادر سان لو إلى باريس من غير رجعة. كان ابن رجل يدعى هيلينوس أرويه الذي تزوج من آنسة نبيلة من آل مارسوتون، كما أنه حفيد بيار أرويه الذي تزوج من نبيلة من آل باران. وجمع فرانسوا هذا ثروته وتخلى عن الجلود المدبوغة والعادية، ليقيم في باريس تاجر جوخ. ولم تكن تلك الجرأة ضربًا من الجنون، إذ لم يظهر في آل أرويه أي مجنون. ولم يقعوا في أي خطأ البتة: كان فرانسوا هذا يعرف حقيقة هويته، أي إنه ابن أسرة متماسكة وكريمة وذات طموح مشروع. فاستقر به المقام «تاجر أجواخ وحرير» ولم تكن المسألة محض مصادفة. فنحن في عهد لويس الثالث عشر، عهد التجارة الباذخة التي تضع التجار على تماس مباشر مع طبقة النبلاء. وليس لنا أن ننسى أن البرجوازي النبيل (مسرحية موليير) تاجر جوخ - كما ينبغي ألّا ننسى أن كولبير هو ابن تاجر جوخ. لم يكن جد فولتير يشبه السيد جوردان[2] إلا في ثروته ومصدر ثرائه. وفي ما خلا ذلك فهو حصيف، لا يرغب في أن يكون ماماموشي[3]، إنه يطمح أولاً إلى أن يكون برجوازيًا في باريس. وبعد عشرة أعوام على تأسيس تجارته، أضحى كذلك. فتزوج في عام 1626 من الآنسة

(2) بطل مسرحية موليير الكوميدية البرجوازي النبيل. (المترجم)

(3) كلمة كوميدية أدخلها موليير في مسرحيته نفسها، يفهم منها المشاهد أنها لفظة تركية تشير إلى مرتبة نبيلة. (المترجم)

مالبار التي توقع باسم: ماري دو مالبار[4]. فمن هي؟ إنها ابنة تاجر أجواخ. كان أبوها، ويُرَجَّح أنه ألماني، قد أسس (أو كان يملك) مصرفًا في فرنسا، ونال لقب النبالة لقاء خدمات قام بأدائها. والملاحظ أنه ما من أحد من آل أرويه، من بدء معرفتنا بهم، تزوج زواجًا باهتًا، وما من أحد انحدر درجة من على سلم الارتقاء. فضلًا عن ذلك، فمن الطريف أن نلاحظ أن جدة فولتير لأمه من أصول جرمانية. فهل ذلك هو السبب في ما يقيم من اعتبار للألمان؟ وسبب نفاد صبره حيال الفلش[5] (Welches)؟

افتتح فرانسوا أرويه تلك الدكان الجديدة في شارع سان دوني رافعًا فوق بابها شعار الطاووس. وتوفي قبل أن يزوج أولاده، ثم توفيت أرملته ماري في عام 1688، في شارع فين، التابع لأبرشية سانت إيتيين دو مون، حيث دُفِنت في الكنيسة، وكان لهما سبعة أولاد.

تزوجت إحدى البنات، واسمها ماري، من ماتيو مارشان، وهو معلم فروسية. وسوف يولد من هذا الزواج أبناء العمة مارشان؛ وهم الأقرباء الوحيدون الذين تعرف إليهم فولتير في القرن اللاحق، لأن أبناء مارشان هؤلاء كانوا من أصحاب المؤسسات واحتلوا أرفع المناصب في البلاط والجيش - ليستقر بهم المقام أخيرًا في طبقة النبلاء. وتزوجت واحدة من بناتهم من المركيز دو بيفر.

وُلِد فرانسوا، والد فولتير، وهو الولد السابع، في عام 1650. واشترى في عام 1675 منصب كاتب ملكي بالعدل في شاتليه. فتم بلوغ الهدف: وصل آل أرويه إلى غاياتهم. فهذا أول واحد من عائلة أرويه، منذ الدباغ الذي استأجر مرجًا لغسل الجلود، يتسنم مهمة سامية ويصل إلى طبقة النبلاء. فجرى التخلي عن دباغة الجلود والتوجه نحو القراطيس المدموغة بشعارات النبلاء. واستغرق ذلك الانتقال قرابة قرنين. وإن شراء ذلك المنصب يمثل ثروة حقيقية (ما يقارب مئتين وخمسين مليونًا من الفرنكات الفرنسية القديمة). لقد كانت دراسات الكتّاب بالعدل الملكيين، والمحلفين في باريس، باهظة التكاليف في القرن السابع عشر مثلما هي في أيامنا.

---

(4) ترمز لفظة دو (de أو du) الفرنسية إلى عائلة نبيلة. (المترجم)

(5) وصف انتقاص يطلقه الألمان على من ليس من عرق ألماني نقي. (المترجم)

تزوج فرانسوا، وهو مستشار الملك، وكاتب بالعدل في شاتليه، من الآنسة دومار، في 7 حزيران/ يونيو 1683. وليست هذه من عالم الجوخ، لكنها من عالم القضاء والقانون؛ إلا أن كل شيء محسوب بدقة حتى إنها ليست من عالم القضاء الأعلى: ليست من أبناء القضاة النبلاء، فمهنة والدها هي كاتب في المحكمة العليا، وهي مهمة شريفة، وملكية، لكنها لا تخول القائم بها سلطة، ولا توازي طبقة النبلاء. إلا أن فرانسوا أرويه استطاع عبر ذلك الكاتب، أو عبر ابنته في الأقل، ارتقاء عائلات المحكمة العليا. وارتقى أشقاء زوجته جميعًا، مثلما ارتقى هو، طبقة النبلاء. فأحدهم كان نقيبًا في قصر روي، وقد سك شعاراته حين عُين مشرفًا على سلاح الدرك الملكي. إنه يرتدي شعار النبالة المؤلف من «برج فضي على خلفية لازوردية»، ومتزوج من الآنسة باران، من مقاطعة بواتو، وهي من عائلة ذات نسب مع آل أرويه ونالت لقب النبالة في القرن السادس عشر. فنلاحظ أن تجار الجوخ هؤلاء كانوا يجيدون نسج الأواصر العائلية.

عمل فرانسوا أرويه أيضًا على تسجيل شعاراته في دار الشعارات الكبرى في فرنسا. ولسوف يكون ذلك شعار فولتير. وكان جاهزًا منذ زمن طويل، فآل أرويه يحتفظون به على سبيل الحيطة منذ مئتي عام؛ إنها أسلحة ناطقة. فأرويه يحمل شعارًا مؤلفًا من «ثلاثة ألسنة من لهب على خلفية ذهبية»، لأن لفظة «أرويه» (Arrouer)، بلهجة بواتو القديمة، تعني «التَهَب» (brûler).

لكن ينبغي عدم التلاعب بالرموز، فهنالك سحر في كل شيء. هنالك سحر في تلك الألسنة الثلاثة القرمزية من اللهب. وكان فرانسوا أرويه، الكاتب بالعدل في شاتليه، يلعب بالنار من غير أن يدري، ويلعب مع الشيطان ومع الروح القدس؛ إذ خلّف ذلك الشعار لابنه حين ترك له تلك الألسنة الثلاثة من اللهب. ألا يرى الكل فيه رمز العنصرة[6]؟ إنه الروح القدس الهابط إلى الأرض في ذلك العيد الذي كرسته الكنيسة بالأحمر. وكان ذلك هو الرمز الذي سيولد في ظله، بعد ذلك بأربعة أعوام، فرانسوا ماري أرويه الذي سيرغب في أن يُدعى فولتير. ولو سئل عن رأيه بشأن اختيار شعاراته الناطقة، هل كان سيجد ما هو أفضل؟ إن الشك

(6) عيد العنصرة: ويرمز إلى نزول الروح القدس على شكل ألسنة لهب على رؤوس التلاميذ، بعد 50 يومًا من الفصح، فصاروا ينطقون بجميع لغات المنطقة. (المترجم)

ليساورنا بشأنها، إلا أنه جعلها تنبؤية، وجعل «تلك الألسنة الأرجوانية والذهبية» تتكلم اللغة الأكثر نقاءً، والأكثر ذكاءً من كل ما سُمِع على الإطلاق.

غير أنه كان يستهزئ بما يدين به لآل أرويه. وهاكم اللهجة التي تحدث بها عنهم، حين كتب في عام 1741 إلى رجل أعماله في باريس، الأب موسينو، قائلًا: «أبعث إليك بتوقيعي وكالة على رَقّ. ولقد نسيت اسم أرويه الذي طالما وقع لي أن نسيته. وسوف أرسل لك بُرقوق أخرى تحمل ذلك الاسم، على الرغم مما أوليه من قلة اعتبار».

وثمة رجل اسمه السيد دو لا فون، من منطقة لودان، كتب له يومًا بكثير من الزهو والتفخيم يعلمه بأنه اكتشف شاعرًا من آل أرويه عاش في لودان في حدود عام 1429. وكان الباحث النزيه يعتقد أنه بذلك سيُدخِل السرور إلى قلب فولتير الذي أجابه بلباقة واستخفاف قائلًا: إن السيد فولتير يستهزئ بشعراء القرن الخامس عشر عمومًا، وبالشعراء من آل أرويه خصوصًا. وواقع الحال أن الباحث النزيه التبس عليه الأمر، فاسم الشاعر المذكور أدويه (Adouet)، لكن احتقار فولتير اسم أرويه حقيقة واقعة.

فما كانت مآخذه على آل أرويه هؤلاء؟ إنهم يجسدون عهودًا من الكد، وأجيالًا من النزاهة والاستقامة، وعزة نفس لا تشوبها شائبة. لكن لا يبدو على آل أرويه هؤلاء أنهم كانوا ذوي مزاج مرح، ولا ريب في أنهم أناس صارمون، وأن فضيلتهم، بالمعنى العميق للكلمة، تتجلى في قوة الروح. فلم يخلفوا طوال قرنين من الزمان طرفة واحدة، ولا ملحة جميلة، ولا نزوة، ولا رسالة، ولا صفحة من الذكريات. لقد سودوا دفاتر، لكنها دفاتر حسابات. أما حساباتهم فكانت على مدى قرنين مضبوطة، وجميع عملياتهم التجارية مسوغة. وتقع أموالهم تحت الخاتم الملكي، وكذلك حال أبنائهم وزيجاتهم ومنازلهم، ناهيك بأن صحتهم لم تقتضِ أن يقال عليها كلام قط. وكان الأطباء يقتلونهم مثل معظم المرضى في ذلك الزمان، لكن إما في مرحلة الطفولة الأولى، وإما في حال الكهولة؛ أي قبل عقد الصفقات أو بعد تحقيق الثروة. إن آل أرويه هؤلاء هم دعامات فرنسا القديمة، فلا الحروب ولا الطاعون ولا الكوارث المالية استطاعت أن تفت في عضدهم. إنهم حجر الأمة الغرانيتي. والأرجح أن يكون طبع آل أرويه هذا هو الذي أدى إلى نفاد صبر فرانسوا ماري أرويه، المدعو فولتير.

مع ذلك، ففيه شيء من صلابة أرويه. فليس حصينًا سليلُ سبعة أجيال معروفة من الشغيلة المجدين، والنزيهين حتى الهوس، والذين يحبون المال فيقدرونه حق قدره. لكن دم أرويه امتزج لديه بدم باريسي، فمصاهرات مالبار ودومار رققت الدم الفاندي القديم وسخنته، ففيه نار تأتي من مكان آخر. كانت تلك النار تتقد فوق طبقات عميقة من إرثه، فتخفي عمق أرويه، من دون أن تستهلكه البتة. ولسوف نشهد فولتير على نحو مباغت، في مسار حياته المديدة، يتناقض وفولتير المعروف لدينا: الاجتماعي، والباريسي، والزنديق الذي ينتهك المقدسات. وسوف نشهد بروز أرويه قديم من سان لو، تصدر عنه كلمة كاتب بالعدل، كما سنشهد فولتير في أعماق مخدعه يضبط حساباته، فكأنه صورة لأبيه الذي لم يكن راغبًا في أن يشابهه. وعلى هذا النحو تعرضت فرديته الفلسفية لصدعين بارزين؛ فنحن نلمح أكثر من مرة عبر النظرية المخروقة، الوجه العنيد لأرويه قديم ورأس قلمٍ لا يعرف الكلل يضيف أعمدةً طويلة من الأرقام، ويحسب أرباحًا خيالية لرهون عقارية.

والحق إلى جانبه على صعيدٍ ما، فهو هو، وليس سوى ذاته. لقد صنع نفسه، بل كوّن نفسه على نحو لم يفعله سوى قلة من الناس، باستثناء كبار ممثلي المسرح ورجالات السياسة. والبرجوازية تثير سخطه، فالأرستقراطية هي وسطه الحقيقي. لكنه يُغفِل شيئًا واحدًا فقط: لئن فتحت له الأرستقراطية أبوابها، فإنه مدين بذلك لأبيه. صحيح أنه استقر فيها بموهبته، لكنه ولجها بفضل كرامة الاسم الذي يحمله والتقدير الذي يكنه لأبيه كل من آل ريشوليو وسان سيمون وسولي.

من كان ذلك الأب؟ إننا نتبين الأمر أكثر مما نعرفه. ويكاد ذلك لا يُصَدق. كان رجلًا صارمًا وذا استقامة لا تهون. وكان مطلبه من ذويه أن يكونوا مثله. لم يكن رضاه عن ولديه إلا بين بين؛ فهما خيبا أمله، من البكر أرمان، حتى الثاني فرانسوا. إلا أن البكر كان المفضل لديه. كان فرانسوا يرعبه ويوحي إليه بشيء من الازدراء، فلم ينله من هذا الابن سوى المهانة والمرارة.

جرت مراسم تعميد البكر أرمان في 23 آذار/ مارس 1685. أما عرابه فكان السيد الكبير، رفيع الشأن المعظم، المونسنيور أرمان جان دو بليسي، دوق ريشوليو وفرونساك، وأحد أعيان فرنسا الاثني عشر. إن العلاقة قائمة إذًا بآل ريشوليو من جهة مولد بطلنا. أما العرابة فكانت السيدة القادرة جدًا، السيدة شارلوت دو لوبيسبين دو شاتونوف، مركيزة روفيك، قرينة السيد صاحب السمو والقدرة

المونسنيور كلود دو روفروا، دوق سان سيمون، أحد أعيان فرنسا، وفارس من المراتب الملكية، ووالد كاتب المذكرات الشهير. لقد كان الكاتب بالعدل (والد فولتير) يجيد تعميد أبنائه.

في عام 1692، ما عاد الكاتب بالعدل كاتبًا، فهو باع وظيفته، وأضحى في سجل الأشراف في فرنسا حاملًا لقب «مستشار الملك، ومحصل رسوم الأفاوية [التوابل] في ديوان المحاسبة». وحين يكون المرء في مجال الأفاوية فإنه لا يبدد وقته سدى.

إن أرمان، ذاك الذي تلقى تعميدًا متميزًا، أحدث مع أخيه فرانسوا تناقضًا صارخًا. وكانت خيبة الكاتب بالعدل المسكين كبيرة، حتى لَيقول: «لي ولدان أحمقان: واحد من قلة التقوى، والآخر من شدة التقوى». وأصاب بقوله ذاك كبد الحقيقة؛ فأرمان حلق وسط رأسه، وفكر في دخول السلك الكنسي. لقد كان شخصًا متفردًا مليئًا بالغرابة، قلقًا، وذا إيمان مشوش ومضطرب. ومن المسلم به أنه كان متطرفًا ومتعصبًا وميالًا إلى العقيدة الجانسينية[7] المجنونة، وأنه كان في عداد الاختلاجيين[8] (convulsionnaires)؛ فهو في حاجة إلى معجزات. إنه يتمرغ بالأرض من حين إلى آخر لاجتذاب النعمة. على الرغم من أنه يعرف ممن يرث، فهو لم يهمل في الوقت نفسه مصالحه الزمنية. كان يعيش مع والده، وقد عرف كيف يحصل منه على الحصة الكبرى من الميراث. وهو يكن الكراهية لأخيه فرانسوا؛ فكان من أعظم أسباب غمه في حياته أن يموت بلا خلف وهو يفكر في أن قسمًا من ممتلكاته سوف يؤول إلى أخيه الكافر!

كانت لهما أخت أيضًا، هي الولد الخامس للكاتب بالعدل، واسمها مارغريت. فكان فولتير يحبها، لأنها الشخص الوحيد الذي ألهمه العاطفة في عائلته. تزوجت في عام 1709 من السيد مينيو، مستشار الملك والمدقق في ديوان المحاسبة. وهكذا كانت الزيجات حسنة التدبير والإخراج على الدوام. رزقا بثلاثة أولاد، فجاءت أولًا ماري لويز التي وُلِدت في عام 1712. ولسوف نقيم معرفة

(7) حركة دينية ثم سياسية وفلسفية نشأت في فرنسا في القرن السابع عشر، في سياق عمليات الإصلاح التي شهدتها الكنيسة الكاثوليكية، وفي مواجهة الاستبداد الملكي. (المحرر)

(8) مصطلح سك في القرن الثامن عشر اشتقاقًا من التعبير الطبي «اختلاج». واستُخدم في ذلك الوقت للدلالة على الحركة المتطرفة التي ارتبطت بالجانسينية. (المحرر)

أوسع مع ماري لويز البدينة التي ستتزوج في عام 1738 معلم الفروسية (écuyer) نيكولا شارل دوني، كما سيعرفها أصدقاء فولتير وأعداؤه كافة باسم السيدة دوني. وأما الثانية فهي ماري إليزابيت المولودة في عام 1715، والتي تزوجت في عام 1738 من السيد جوزف دو دومبيير دو فونتين، فرزقت منه بولدين أداما حتى اليوم سلالة آل أرويه بصورة مباشرة تحت اسم دومبيير دورنوا في بيكارديا[9]. والولد الثالث أخيرًا سيكون الأباتي فنسان مينيو، المولود في عام 1728، والمستشار الكنسي في المجلس الأكبر، والإقطاعي البابوي في سيلبير في مقاطعة الأوب. كما سنلتقي بأبناء الأخت في سياق حديثنا.

ذلكم هو العش الذي ولد فيه بطلنا. لكن ينقصه الأساس: الأم. وذلك النقص يُرثى له. فيسعنا القول إن فولتير كان طفلًا بلا أم، ذلك أنه فقدها وهو في السابعة، ولم يتكلم عليها البتة. ونكاد لا نعرف عنها شيئًا، باستثناء كلمة واحدة عن بوالو الذي كان جارًا لآل أرويه ويتردد إليهم قليلًا. فكانت تقول عن الشاعر العجوز وصاحب كتاب الفن الشعري إنه «كاتب جيد لكنه رجل أحمق». وذلك ما يجعلنا نخمن أن الباريسية كانت صاحبة لسان حاد.

كان مسكن آل أرويه قائمًا في الحي الذي هُدم الآن والممتد وراء مفوضية الشرطة، على جادة قصر العدل الحالي. وحين كتب فولتير يقول في غنائية إلى بوالو: «في باحة القصر وُلِدتُ، فأنا جار لك»، إنما كان يقول الحقيقة بعينها، لأن بوالو الذي كان أبوه من رجال القضاء، كان مقيمًا في القصر العدلي. وقيل إن بوالو الذي اشتهر بكراهيته للآخرين، كان يضيق ذرعًا بشدة صراخ أبناء أرويه، وإنه عنّف فرانسوا لإفراطه في الهذر والتطاول. ولا يمكن أن تكون الواقعة صحيحة لأن فولتير لم يلتقِ بوالو قط. لكن الصحيح أن فرانسوا لم يكن مهذارًا فحسب، بل كان سريعًا في وقاحته أيضًا، وفي حال من الخصام الدائم مع أخيه الأكبر.

وهنالك ميل إلى وصف آل أرويه بالعصريين، ولأنهم كتاب بالعدل لكبار الأسياد وحتى لنينون دو لانكلو، فقد راق بعضهم أن يوصَف بالخفة. إنما الفرضية هذه هي الجديرة بالاستخفاف، بل إن فولتير نفسه ساهم في الإساءة إلى سمعتهم

---

(9) أخبرني كونت دومبير دورنوا أن تقليدًا عائليًا يعزو تسمية فولتير إلى اللقب الذي أعطي لفرانسوا ماري في طفولته، وهو Petit Volontaire الذي أصبح Vlontaire، وباختصاره: Voltaire.

على ذلك النحو. وإذا كانت نينون قد أوكلت إلى السيد أرويه أمورها المالية، فذلك لأنه يمثل جميع الفضائل التي تقتضيها مهنته: الوقار والنزاهة والاستقامة. وكان زبائن أرويه يقيمون معه روابط صداقة؛ فليس ما يداني ذلك شهادة في مصلحة هذا الرجل. ويستقبل آل أرويه أيضًا كاهنًا قانونيًا من كنيسة سانت شابيل، هو الأباتي جدوان الذي سنصادفه ضمن العلاقات الغرامية القديمة للآنسة دو لانكلو. ويعرف أرويه كورناي الأكبر، فينقل لنا ابنه الكلمات الآتية: «كان يقول لي إن هذا الرجل العظيم أكثر الناس جميعًا تسببًا في الضجر، وأشدهم إسفافًا في الحديث». فهل لأن السيد أرويه لم يكن شاعرًا؟ ليس ذلك بالضرورة؛ لأن كورناي نفسه يقر بتواضع، بأنه لا يجيد الكلام بين الصحب.

تعرف آل أرويه، عند بوالو تحديدًا، إلى الأباتي شاتونوف. وإنه لكسب جديد لآل أرويه؛ فهذا الكاهن هو الذي علم فرانسوا الأشعار الأولى، وهو الذي كان يدير المناقشات التي ترتفع حدتها بينه وبين أخيه أرمان، وهي مناقشات تنتهي غالبًا بالحدة. ويا له من مشهد غريب يتولى الكاهن فيه إثارة البغضاء بين الأخوين، وهو يؤجج النزاع بين صبيين ذكيين، لكنهما سريعا الغضب. ذلكم هو المجتمع الذي يألف المنزل الكريم لأرويه. ولا ريب في أنهم كانوا يستقبلون بأبهة كبيرة واحتفالية باذخة، رجال القضاء والزبائن الأكثر ثراء، والذين تقوم السيدة أرويه برد الزيارة إليهم بكل تقدير. لكن ليس من مكان أقل شبهًا بصالة عصرية، من صالة منزل آل أرويه الكبرى والمعتمة، بظلها الثقيل. وليس لنا أن نذهب بعيدًا في بحثنا عمّا كانت نفس فرانسوا ماري تمتلئ به من نفور، من المنزل الذي أبصر فيه النور في 22 تشرين الثاني/ نوفمبر 1694.

فرانسوا ماري، الولد الرهيب

ما كان في وسعه أن يولد ولادةً بسيطة، فقد بدأت حياته بتجهم وعبوس. اعتقدوا في البداية أنه وُلِد ميتًا، لكن كان في نيته أن يخدع عالمه. ولسوف يقول: «وُلِدْتُ قتيلًا»، لكنه سيظل كذلك حتى الرابعة والثمانين. إنه على هشاشة منيعة، وعلى درجة من الهشاشة حتى إن المُرضِع لم تحسب أنه سيعيش أكثر من ساعة واحدة. وكما الحال مع فونتونيل[10]، كان عند ولادته أضعف من أن يتمكنوا من

---

(10) كاتب فرنسي، 1657-1757، اشتهر بفكره النيّر وتبسيطه للعلوم. (المترجم)

تعميده، فاكتفوا بمسحه بالزيت المقدس، ثم عمّدوه من بعد. وذلك ما أتاح لفولتير أن يماحك بشأن تاريخ ميلاده، فيقول إنه وُلد في شاتني قبل ذلك بعام. ويصر بعناد على تكبير عمره، وليس هناك من يعرف السبب. واقع الحال أن ثمة رسالة من أحد أبناء عمومته من بواتو، وقد شهد ولادته، وهنالك أيضًا صك المعمودية. صحيح أنه ليس الصك الأصلي الذي أُحرق في أثناء الثورة، وإنما نُسخة عنه استخرجها يوم وفاته كاهنٌ صالح لم يكن مُغرمًا بفولتير، لأنه نسخ الصك على ورقة تغليف، وكتبها بدرجة من الإهمال، حتى إن المرء ليضحك وهو يتخيل كم ضاقت نفس ذلك الكاهن الطيب ذرعًا بما كان يفعل وكم عافته نفسه. وتؤكد النسخة التاريخ وأسماء الشهود. فالعراب هو السيد فرانسوا دو كاستانييه دو شاتونوف، رئيس دير فارين، والعرابة هي السيدة ماري باران، زوجة دومار، معلم الفروسية، والرقيب في الدرك الملكي. وإذا ما كانت العَرابة أقل ألقًا منها لدى أخيه أرمان، فإن فرانسوا سوف يختار بنفسه عرابَين آخرَين. وفضلًا عن ذلك فإن عرابه، الأباتي شاتونوف، سوف يقوده على أفضل الدروب - دروب التفلّت - حيث سيتخذ فرانسوا اسم فولتير.

لم يكن وحيدًا في عملية خلط الأوراق بشأن مولده؛ بل أشاع أعداؤه أيضًا أنه وُلِد في مزرعة (إنه المنزل الريفي المريح في شاتني). وسوف يقول آخرون إن أباه كان حاجبًا عند كاتب بالعدل، وإنه كان يأتي بالمشتريات للكهنة والزبائن، فتثير تلك الأكاذيب سخط فولتير. ولقد استخدم تلك الطريقة أحيانًا مع أعدائه. وكانت طريقة ناجحة في المقابل في إثارة غيظه، حين يستخدمها الآخرون ضده، وتملأ نفسه بهجة حين يستخدمها هو ضد الآخرين.

لكن لندع الآخرين جانبًا ولنصغِ إليه وهو ينشر شائعات تثير الذهول. ولا يفتقر إلى الجرأة، فضلًا عن الحياء، وهو يشيع بكل وضوح أن أمه كانت تعاشر عشاقًا، وأنه ابن واحد منهم. فهو حريص على كل شيء باستثناء أن يكون من سلالة أرويه! فكان يرى أن الأباتي شاتونوف - الرجل المتفلّت - هو أبوه. وصار ميالًا في مناسبة أخرى إلى اعتبار أنه السيد روشبرون، وهو نبيل من أوفرن ينظم أشعارًا غنائية ويتردد إلى منزل الكاتب بالعدل. ولسوف يكون مثار دهشة لو أنشد هناك ألحانه. ويقول فولتير إن روشبرون هذا كان يبدي حياله كثيرًا من العطف. لكن ما مثار الدهشة في ذلك؟ كان فرانسوا الصغير، على الرغم من ضعفه وهزال جسمه، ولدًا ذكيًا على درجة من الحيوية وحضور البداهة والجرأة

أمام الناس الكبار، بحيث لا يدعو الأمر إلى أن يكون الواحد منهم أباه لكي يهتم به، بل يسعنا القول إن السيد أرويه - أباه الشرعي والقانوني - كان أقل من الزائرين تساهلًا في نظرته إلى وقاحة ابنه، فلقد كان على درجة من النمو المبكر، تثير القلق.

مهما يكن من أمر، ها نحن أمام الفتى فرانسوا وهو يتزيا بثلاثة آباء: رئيس دير، وسيد ذي فكر نير، وكاتب ملكيّ بالعدل. فلم ذلك؟ لأجل رغبة في استدراج الكلام وإثارة الاهتمام والتسبب بالوخز والصدمة، ولكي يكون تحت الأنوار الساطعة. ولسوف يتوجه إلى صديقه الدوق دو ريشوليو، بهذه المسارة التي يصوغها شعرًا ليبهج واحدًا أكثر تفلتًا منه. فيقول، أخشى أن:

ابن روشبرون بالزنا

يتسبب بالمضايقات والمتاعب

لوريث أرمان وذوي النفوس الطية

كتب هذه الأبيات في عام 1744، وهو يناهز الخمسين من عمره! والحق أنه يفضل أن يكون ابن زنا للأباتي، وأن يكون ابن حلة الرهبنة! فالمسألة أكثر تشويقًا بالنسبة إلى كافر من طينته!

الأمر منوط به فحسب ليلحِق بأمه أسوأ سمعة ممكنة. والحال أنه ليس ثمة ما يدعونا إلى أن نتبع فولتير في نزوته المريبة. كانت السيدة أرويه تقوم بزيارة نينون دو لانكلو، لكن ذلك لا يعني البتة أنها تتردد إلى المنزل لمواعيد مشبوهة. وإذا كانت لنينون في ما مضى علاقاتها الغرامية التي يصعب تعدادها، فإنها تشرف الآن على الثمانين، وما عاد لديها سوى أصدقاء من علية القوم، وعشيق واحد أو اثنين... فلا بد من الاعتراف بذلك. ولم يتحول صالونها قط، حتى في زمن حوادث المقلاع[11] (La Fronde) حيث كان الجو لاهبًا في باريس، إلى مكان تطوله الشبهات.

بعد وفاة السيدة أرويه، لبث فرانسوا ثلاثة أعوام بصحبة أبيه. وهذا من مظاهر شدة صبر هذا الأخير الذي أدخله إلى مدرسة لليسوعيين، من حين بلوغه العاشرة من عمره. وكانت الإقامة في المدرسة الداخلية ذات ثلاثة أنظمة. النظام الأول مشترك بتكلفة 400 ليرة، أي ما يقارب 2500 فرنك [حوالى 382 يورو اليوم]،

(11) مرحلة اضطرابات داخلية حتى منتصف القرن السابع عشر، بسبب الغلاء والضرائب. (المترجم)

ينام التلاميذ بموجبه في المهجع ويأكلون في مطعم المدرسة. في حين خُصص [النظام الثالث] لأبناء كبار الأسياد حيث كانت لهم الغرف الخاصة بهم والمعلم والخادم. أما بالنسبة إلى فرانسوا فقد اختير النظام المتوسط، حيث يقسم التلاميذ إلى مجموعات من خمسة في الغرفة، تحت إشراف مدير. ومدير الفتى فرانسوا هو الأباتي الشهير الأب دوليفه الذي صار من بعد زميلًا لفولتير في الأكاديمية، ويود كل منهما الآخر، فاحتفظا بذكريات جميلة عن تلك البدايات. وإنها لمعجزة تجدر الإشارة إليها، إذ في وسعهما وصف علاقاتهما ما بين معلم وتلميذ بالسم والمرارة. وها هي ذا تصير إلى مديح الواحد للآخر. فقال الأباتي من بعد في الأكاديمية: «كنتَ تلميذي آنذاك، وها أنا اليوم تلميذك».

أحب الإطراء مذ كان في المدرسة.

ما كان ذلك الزمن بهيجًا دائمًا بالنسبة إليه، ومع ذلك فهو لم يشتكِ منه. وكان شتاء 1709 راعبًا. فدفع السيد أرويه مئة ليرة إضافية كي يحصل ابنه على خبز أسمر. وبلغ البرد درجة من الشدة جعلت المعلمين والتلاميذ يتزاحمون بالمرافق حول المدفأة وهم يرتعدون بردًا. فكان فرانسوا المسكين شديد التأثر بالبرد ومنكمشًا على نفسه مثل هبال [نوع من القرود الأميركية]، وكانت معاناته أكبر من الجميع؛ فهو الذي يرتعد طوال حياته، ويهرع إلى المدفأة، حتى في أماسي الصيف الباردة بعض الشيء، ليلطو بقربها. وما كان، وهو الأول في صفه، ليجلس في الصف الأول من المقاعد، مقابل المعلم، بل بجانب المدفأة. وذات يوم دفع فرانسوا تلميذًا آخر ليصل إلى شيء من الدفء، قائلًا له: «تنح، وإلا أرسلتك إلى بلوتون»، فقال الآخر: «ولِمَ لا ترسلني إلى الجحيم، فالحر هنالك أشد؟»، فأجاب فرانسوا أرويه: «صه، فليس ما يؤكد وجود هذا ولا ذاك».

إن الكلمة لجريئة جدًا، حين ينطق بها فتى في الرابعة عشرة من عمره، وفي دار إينياس دو لويولا، لكنها تقبل التصديق.

وذات مرة، أقبل الأب لوجيه، الذي كان على علاقة سيئة به، فأمسك بفرانسوا من خناقه - وهو الوقح كعادته - وهزه بعنف قائلًا بصوت فيه إلهام:

«أيها الولد الشقي! لسوف تغدو يومًا راية الآلهانية في فرنسا!».

المسألة هنا غاية في المتعة. وسوف يكرر دوفيرنيه هذه النبوءة في عام 1786. فبعد مرور ثمانين عامًا، وبعد وفاة فولتير بثمانية أعوام، توافر الوقت الكافي وتوافرت الوسائل السهلة لتوقع آلهانية فولتير. وإذا كان الأب الصالح لوجيه لا يستطيع ذلك، فهنالك في المقابل تعليق كتبه أستاذه وهو مثير للاهتمام حقًا؛ فقد كتب الأب بوالو قائلًا: «إن هذا الصبي عَطِش إلى الشهرة ومتلهف عليها». ولو أن الأب لوجيه تفوه بتلك النبوءة، لبدت بعيدة جدًا عن التبصر: فليس ما يزيد فرانسوا متعة مثل سماعه القول إنه سيكون «راية»، حتى لو كان المقصود راية ملعونة، وحتى راية الشيطان. ليس لنا في أي حال أن نصدق بسذاجة تلك الأقوال الطيبة والجميلة كلها.

لم يكن الأب لوجيه هذا نبراس عصره، وهذا ما اكتشفه فرانسوا بسرعة. فكان الأولاد الذين فقدوا الاحترام يستمتعون بمضايقته بكل خبث، وبكل الفساد الذي يميز أولئك الذين أضحوا يعون تفوقهم في المستقبل. ولم يكن الأب لوجيه عرضة لظلم فرنسوا فحسب، بل لظلم عدد من أصدقائه الآخرين أيضًا، ومنهم: الدوق الفتى دو بوفليه، والمركيز دارجنتال. فذات يوم قذف بوفليه أنف الأب بحبة بازلاء جافة نفخًا بأنبوب. كانت تلك الحبة على الأنف بمنزلة اعتداء، وصدر حكم بالجلد على السيد دوق بوفليه الذي كان في الخامسة عشرة، والذي يحمل بالوراثة لقب حاكم الفلاندر، إضافةً إلى رتبة عقيد وقائد كتيبة بحكم منصبه. أما دارجنتال فاستطاع الإفلات من العقوبة: فهو لم ينفخ في الأنبوب، بل ضحك فحسب. وتلقى الدوق، الحاكم، العقيد الضرب بالعصي. وتألم والده الماريشال دو بوفليه على قدر ما تألم هو. فرفع شكوى إلى الملك وأخرج ابنه من المدرسة. وكانت الإهانة التي أصابت بوفليه الشاب في كرامته، بسبب ضرب الآباء الصالحين، على درجة من الشدة حتى أُصيب بحمّى من الدرجة الثالثة أو الرابعة أنهكت قواه، إلى حد أن الجدري الذي أصابه بعد بضعة أشهر ما لبث أن أودى به. فهل لنا أن نخلص من ذلك إلى ما خلص إليه كاتب المذكرات النشط الذي نقل الواقعة، معتبرًا أن الجدري جاء مصدِّقًا لعقوبة الجلد التي نفذّها الكهنة الطيبون؟

لا يبدو على فرانسوا أنه أولى الواقعة نظرة مأساوية، إذ كان التلاميذ يمضون أحيانًا إلى أبعد من ذلك: كان بعضهم يشطب بموساه أكفال معلميهم، وكان هؤلاء يحيلون أكفال تلاميذهم إلى جلود مدبوغة. وما كانوا يموتون جميعًا إثر ذلك. كان

مشهد تلك التربية الحيوية محرضًا كبيرًا بالنسبة إلى الولد الرهيب فرانسوا، فنراه من خلال الشهادات ذا وجه ضئيل بحجم قبضة اليد. إلا أنه ناجز في حدته وفي ارتسامه، وفي إضاءته بعينين سوداوين، عينين تتوقدان نارًا، وبابتسامة وتشنجات لا تُقاوَم فتنتزعَ ضحكاتٍ جنونية صاخبةً من زمرة من الصحْب، من باريسيين ونبلاء، ذوي روح منشرحة وحادة ووقحة فطرةً وعزة عائلية.

فمن رفاقه في المدرسة؟ ينبغي أن نعرفهم لأنهم سيظلون أصدقاءه أبدًا.

كان في مدرسة لوي لو غران الأخوان دارجنسون. الكبير منهما في سن فولتير. وكان في عام 1709 في الخامسة عشرة. وإنها لخير صحبة بالنسبة إلى فرانسوا: «كنا حينئذٍ صبية كبارًا، وقد تقدمنا في العالم أشواطًا كبيرة حتى إننا من غير أن نكون متفلتين، سلكنا الدرب لنغدو كذلك». وإن ذلك لقول بليغ في الشعور بالفضيلة السائد بين الشبيبة في عهد مانتونون الصارمة والملك العجوز. ويقول: «كان يتتابني إحساس بالعار، لا لأني متفلت، بل لأني لا أزال في المدرسة». وهو على صلة وثيقة جدًا بدوق فرونساك الشاب، وأرمان دو ريشوليو، ابن الدوق دو ريشوليو، زبون آل أرويه وصديقهم. لقد تزوج هذا الشاب، في سن الثالثة عشرة، من الآنسة دو نواي وبعد ذلك بعامين، وقد بلغ الخامسة عشرة، أُدخِل إلى الباستيل لأنه راود بوقاحة مفرطة... دوقة بورغونيا عن نفسها! وهي وريثة العرش! أما هو فما كان يعاني الخجل. والصداقة بين فرانسوا والدوق الفتي معروفة للجميع، حتى إن الكاردينال فلوري، وقد ثارت ثائرته ضد الدوق، قال في ما بعد ساخطًا: «حسبنا أن نقول عنه إنه صديقُ فولتير المبجل وإن فولتير صديقُه المبجل».

وارتبط بعلاقات أيضًا مع أولاد آخرين، من أمثال فيو دو لا مارش الذي سوف نلتقي به أول رئيس لمحكمة ديجون العليا، والذي سوف يكتب له رسائل طافحة بالمرح وبنوع من الإعجاب والتقدير. وواحد اسمه لوكوك، لن يتقلد منصبًا رفيعًا، لكنه سيظل نائيًا فيتلقى من رفيقه الوفي مساعدات لم يأتِ فولتير إلى ذكرها البتة.

كان بينه وبين معلميه ما يشبه اتفاقًا جرى إقراره مسبقًا؛ فقد كانوا يحبون الكتّاب أنفسهم، وللأسباب عينها. وكان منذ مولده، كاتبًا كبيرًا، ومع أنه تربى في مدرسة جانسينية، بل حتى كالفِنية، فقد ظل مع ذلك شهيرًا. لكن على أرويه

الصغير، كي يصبح فولتير، أن يلبث في حضانة اليسوعيين. فعندهم تحديدًا تعلم ذلك الشكل السامي من الذكاء والفن الذي يسمونه الذوق. ولا ريب في أن أرويه، لو لم يتعلم ذلك الكمال الكلاسيكي، وتلك الكياسة والعفوية التي ليس هناك ما يضاهيها، لكان قادرًا على ابتكارها بممارسته. لكنه عاش في مأمن من ذلك الهم. وقد تواتينا الجرأة على القول إنهم علموه إياها، ذلك أنهم جعلوه يتنسم ريحها في أثناء دروس لا يطولها النسيان. فاللغة التي سوف يكتب بها في ما بعد ميروب وكانديد، تعلمها في المدرسة. وهو لم يتعلم تلك اللغة فحسب، بل تعلم معها نوعًا من اللفتات الذهنية، ومن الفكر الإلماعي، والتحفظ الفني، ما جعله يقف دومًا في المقدمة فيتمكن من الإيحاء بالمزيد. لكن ذلك لا يُكتسَب إلا من بعد صقل طويل للذكاء من طريق الروائع، ومن بعد تشبع فطِن ورهيف بما جرى التفكر فيه وكتابته بصيغة لا جدال فيها. كان الآباء الصالحون يعظون مهتديًا حديثًا، فبدت له مبادئهم الأدبية ممثلة الطبيعة نفسها؛ أي، في واقع الأمر، طبيعته هو. وهكذا كانت مؤلفاته كلها تتنسم ذلك الهواء من النقاء والخلود اللذين تسبح فيهما دروس لوي لو غران. ولقد أُشبع كيان فولتير بذلك الهواء حتى الصميم.

كان زمان المدرسة زمان سعادة في نظر فرانسوا. فهو لا يعتبر العمل سخرةً، بل يحب أن يعمل وأن يروق الآخرين؛ فيروق معلميه بإطرائهم، عبر النتائج الباهرة التي يحققها. فهو يحبهم، وهم يحبونه. وظل طوال حياته يلهج بهم عرفانًا وعطفًا: «تعلمت طوال سبعة أعوام عند رجال يقدمون جهدًا مجانيًا ولا يعرفون الكلل وهم يصوغون فكر الشباب وأخلاقه. فمن ذا الذي يدعو المرء إلى أن يجحد فضل معلميه؟ ليس هناك ما من شأنه التأثير في ذكرى الأب بوريه، الأثير أيضًا لدى الذين درسوا عليه كافة، وما من رجل فاقه قط في جعل الدروس والفضيلة محببة إلى النفوس (ذلكم هو السر! وقاعدة القواعد بالنسبة إلى فولتير. لقد تعلمها على مقاعد المدرسة، وسوف يظل يرددها طوال عمره). كانت ساعات دروسه بالنسبة إلينا ساعات من العذوبة، ولكم وددت لو تجري الأمور في باريس على نحو ما كانت عليه في أثينا، بحيث يستطيع المرء في أي عمر كان أن يحضر تلك الدروس. حينئذٍ كنت سأعود مرارًا وتكرارًا لأصغي إليها. ولقد شاء حسن طالعي أن أتربى على أيدي أكثر من كاهن يسوعي من أمثال الأب بوريه، وأنا أعرف أن له خلفاء جديرين به».

كتب فولتير ذلك الكلام في عام 1746، وهو ثناء جميل يكرم فيه أساتذته على قدر ما يكرم نفسه. أما وقد أعرب عن ذلك، وأجزى الثناء على الجهاز التعليمي، فإن جماعة يسوع (اليسوعيين) لن يلقوا دائمًا منه حسن المعاملة، على الرغم من أنه لم يبدِ تجاههم أي كراهية حتى في الأوقات العصيبة، فلم يعرفوا من جانبهم قط تلميذًا عطوفًا أكثر منه؛ فهو يوجه إليهم كتبه، وينتظر رأيهم بانفعال. فيقول للأب تورنمين: «أبتاه الغالي، أبتاه المبجل المحترم، أصحيحٌ أن ميروب راقتكم؟ هل تعرفتم في ثناياها بعضًا من المشاعر الكريمة التي لقنتموني إياها في صباي؟»، أما وهو بعيد عن باريس، فقد أرسل صديقه تييريو ليحمل تراجيديته إلى منزل الأب بروموا: «أستحلفك بالله أن تسرع إلى الأب بروموا، فهو واحد من أولئك الآباء، من أساتذتي القدامى الذين لا ينبغي أبدًا أن يصيروا أعداء لي. حدثه بحنان وقوة. لقد قرأ الأب بروموا ميروب وكان مسرورًا. والأب تورنمين تحمس لها. أحمد الله على أني حظيت بإطرائهم! أكد لهم أن تعلقي بهم لن تنقطع أواصره، فأنا مدين لهم، وقد تولوا تربيتي، ولسوف أكون في منتهى الوحشية حين لا أعترف بالذين تولوا تربية روحي».

لم يحظَ أبوه قط بمثل تلك الشهادة من العرفان، فآباؤه الحقيقيون هم الذين هذبوا روحه. أما الآخر، بل الآخرون - ما داموا ثلاثة - فمجرد فكاهة! إنه إحساس لصيق بأرويه بشدة، يتبدى هنا إحساسًا بالالتزام: «إني مدين لهم. ولسوف أكون في منتهى الوحشية حين لا أعترف». وهو يعرف، في المقابل، ما يدين به الآخرون له، وحين يتخلف الواحد منهم عن ذلك، يغدو «في منتهى الوحشية».

أنّى لأساتذته أن ينسوا؟ لقد أضحى بدءًا من سن الثانية عشرة غير قابل للنسيان. وما كان يلعب في الأغلب أثناء الفُرَص، بل كان يتبادل الحديث مع المعلمين. فيقولون لنا إن التاريخ المعاصر هو الذي يستأثر باهتمامه، ونحن نقول إنها «السياسة». ويقول الأب بوريه: «كان يهوى أن يزن بموازينه الصغيرة المصالح الكبرى لأوروبا».

لكن شهرته ذاعت في المدرسة بسبب مهارته في نظم الأشعار. فأطلعه الأباتي شاتونوف في بدء الأمر على لافونتين، ثم على قصيدة خليعة للشاعر جان باتيست روسو، وقد كان في التاسعة من عمره! ثم وضع في الثانية عشرة تراجيديته

الأولى أموليوس ونوميتور (*Amulius et Numitor*)؛ تلك التي اختفت من دون أن تخلف أي أثر. لكن هنالك مقطوعات شعرية تعود إلى بعض المناسبات. وذات يوم، كان فرانسوا يعبث وهو في الصف بعلبة نشوقه، فيقذف بها في الهواء، ثم يعود فيلتقطها. بلى، إذ كان يوصى بالتبغ نشوقًا علاجًا للزكام. واغتاظ المعلم فصادر علبة النشوق، وآلى على نفسه ألا يعيدها ما لم يقم المذنب بتوجيه استرحام إليه، على أن يكون شعرًا. فيا لها من عقوبة ذكية. ومن فوره قام الفتى أرويه بتدبيج استرحامه. فتأملوا براعة ذلك السيد الصغير الذي نم، وهو في الثانية عشرة، على توددات غزلية لسيد عجوز من رجالات البلاط؛ فها هو ذا يتأوه معربًا عن عجزه عن النظم باكيًا على فقدان علبة نشوقه:

«وداعًا، يا علبتي المسكينة!

وداعًا، فأنا لن أراك من بعد.

لا الرجاء، ولا الدموع، ولا التوسلات

سوف تعيدك إلي، فجهودي ذهبت سدى.

وداعًا، يا علبتي المسكينة!

فيا له من حاجز رفعوه في ما بيننا!

يطلبون مني أشعارًا! فواحسرتاه! إني عاجز!

وداعًا يا علبتي المسكينة!

وداعًا، فأنا لن أراك أبدًا».

ذلكم هو الولد المدلل، الولد الرهيب.

ونظم في الصف قصيدة عن موت نيرون نقتطف منها هذين البيتين:

«أما وأني لم أقُمْ قط بغير أعمال وحشية

فقد شئتُ، بقتل نفسي، القيام بعمل شجاع».

وتأتي قصيدة أخيرة لتتخطى جدران المدرسة: إنها المغامرة الأدبية وقد بدأت، وإنها من وحي المحبة. وينبغي التنويه بذلك؛ ففي الحادية عشرة، اتخذ موقف الدفاع عن رجل تعس. والمقصود بذلك رجل مقعد بسبب الحرب تقدم يطلب هدية رأس السنة من ولي العهد، وقد خدم تحت قيادته. فقُرئت القصيدة في

البلاط ونال المُقعَد لويسات[12] ذهبية. وهذه نهاية القصيدة؛ فليس لولي العهد أن يتشكى:

«تنافس الآلهة كلهم وهم يقدمون إليك عطاياهم
وجاءت مينرفا لتهبك الحكمة منذ سنيك الغضة
وأغدق عليك أبولون الخالد هبة الحسن
لكني أضرع في أحزاني إلى الله القدير
عسى أن يمنحني هدية رأس السنة
وهو يمنحك الجود والسخاء».

أتدرون ما كانت مكافأته؟ مضى ليجلس في حضن نينون دو لانكلو. فالجنية العجوز كانت هناك، تترصد المواهب الفتية، فرغبت في التعرف إلى الشاعر وتهنئته، ولا سيما أنه ابن الكاتب بالعدل لديها، وابن صديقها الأباتي شاتونوف بالمعمودية، والأباتي هو الذي اصطحب فرانسوا إلى بيت نينون. ولقد كتب يقول:

«أخذني الأب شاتونوف إلى بيتها، وأنا صغير السن لمّا أبلغ الثالثة عشرة، وكنت نظمت بعض الأبيات التي لا تساوي شيئًا لكنها بدت ذات قيمة نسبةً إلى صغر سني». ويقول لنا إن الأباتي كان رب البيت، ما يعني أن نينون كانت عشيقة الأب شاتونوف. وهي حينذاك قد تخطت الثمانين! ومهما يكن الأمر مدهشًا فهو صحيح. ويا له من ارتباط جميل! كان ذلك الصبي يفهم كل شيء، بل يفهم الأمر حتى إنه لم يبدِ دهشة حياله. فكان يحافظ على خفة الظل وتلك العفوية اللتين تتيحان له مواجهة المجتمع وكسب وده. وحرصًا منه على تفسير الصلة بين نينون وشاتونوف، وقد وجده من فوره، تولى أن يقدمه إلينا بنفسه، فقال: «كان الأباتي من أولئك الرجال الذين ليسوا في حاجة إلى جاذبية الشباب كي يشعروا بالرغبات». ويراود المرءَ شيءٌ من الشك في ذلك، لأن الآنسة دو لانكلو التي أدخلت البهجة إلى قلوب معاصري ريشوليو قبل حوالى ستين عامًا، وعلى الرغم من الحكايات الخرافية التي تصفها لنا وهي في السبعين بأنها على الدرجة نفسها

---

(12) لويسة: عملة فرنسية ذهبية صُكَّت في عام 1640 في عهد لويس الثالث عشر وحملت اسمه، واستمر تداولها حتى عام 1792. (المحرر)

من النضارة كما كانت أيام مسرحية السيد (*Le Cid*)، فإنها كانت تحمل في واقع الأمر آثار التقدم في السن كافة. لكن ما الهم في ذلك إن كان في وسع الأباتي أن يغمض عينيه عن التجاعيد ومظاهر الذبول؛ فكلّه آذان صاغية لتأثير السحر، ذلك أن كلام نينون «كان وقعه عليه وقع الجمال!». أليس ذلك مثار العجب العجاب؟ كان تاريخ تلك الصلة العذبة يعود إلى ما قبل عامين أو ثلاثة أعوام خلت. ولم تكن نينون إلا في السابعة والسبعين يوم استسلمت للأباتي الخمسيني. لكن هذا الأخير ما لبث أن وجه لومًا إليها سألها لمَ تركته في حالة من الضنى طوال يومين أو ثلاثة من بعد أن أعلن عن قدومه. فهل كان ضروريًا تأخيره طوال تلك الفترة؟ فقالت المرأة الفاتنة إنها انتظرت حلول عيد ميلادها، إذ وجدت أكثر متعة وأشد ندرة أن تهمس بكلمة نعم، وهي تستهل بعاشق جديد عامها السابع والسبعين. ودعا فولتير ذلك بـ«الحفل الجميل». لكن نينون لم تستمر على ذلك، فبعد عدد من الحفلات الجميلة، وجهت الرجاء إلى شاتونوف بأن يقتصر على الكلام، إلا أنهما كانا على الرغم من ذلك متحابين بكل ود.

وعقب لقائها الفتى أرويه، خصته بألفي ليرة في وصيتها كي يتمكن من شراء كتب. ويا لها من هدية جميلة (تعادل عشرة آلاف فرنك)، وإيماءة حسنة وكريمة وفاتنة، لإطالة ذكرى امرأة تألقت على مدى قرن، وللإبقاء عليها في ذاكرة شاب سوف تضيء عبقريته عصره هو.

مما لا شك فيه أنه ينبغي، لتأهيل فكر ذلك الشاعر الفتي وأخلاقه، أن يُحاط علمًا بوجود رب بيت آخر عند نينون. وكان يعرفه، فهو كاهن الرعية جدوان من الكنيسة المقدسة. والمخدع في بيت نينون كنيسة عجيبة، تعج بالكهنة. فمن يرغب في رؤية كاهن الرعية يقصد بيت نينون. وما من أحد يتفوه بكلمة واحدة، فالفضيحة في ذلك العصر مقصورة على شؤون المال. ومع ذلك نظر فرانسوا أرويه نظرة عجب إلى تلك الحالات من العشق التي توحي بها نينون: فهو لا يراها بتلك العيون المتوقدة التي ينظر بها إليها أولئك الرجال الخمسينيون، فهاكم كيف رآها، وينبغي أن يكون على حق. قال: «كانت امرأة متغضنة الوجه وهرمة، ولم يكن يكسو عظامها إلا بشرة صفراء ضاربة إلى السواد. ويسعني أن أؤكد لكم إنها كانت، وهي في الثمانين، ذات وجه تعلوه أقبح علائم الشيخوخة وإن قلبها كان طافحًا بأشكال العجز كافة»، وهو يتكلم عليها من غير انفعال: لقد رأى فيها

«إحدى الغرائب»، إنها آبدة من قرن مضى: آبدة غرامية. لكن ذلك لم يؤثر فيه؛ فشهوانيته لم تضطرب. أما الأوابد الأدبية من القرن المنصرم، فلا يعتريها الذبول، وهي تؤثر فيه وسوف تؤثر فيه وتسبب له انفعالات بصورة دائمة: ستظل مسرحية إيفيجيني ندية دومًا، وفتية دومًا، وتسبب الانفعال من غير انقطاع. تلك هي الأشياء التي تهتز لها نفس الفتى... وانفعالات ذلك الفتى أضحت انفعالات فولتير.

اجتذب الأنظار إليه - بصورة ورعة - في المدرسة عبر قصيدة غنائية موجهة إلى القديسة جنفياف. فالقصيدة تلك يسودها جو رعوي، والورع فيها يشبه إطراءً في البلاط المالكي. وكتب يخاطب القديسة، شفيعة باريس، بطريقة تخلو من الكلفة:

إن كان لهذه الحميّة أن تروقكِ

فاقبلي بجرأتي كي أرفع إليك

تقدمة من كتاباتي.

لم يزهُ كثيرًا في ما بعد بقصيدته الرعوية؛ لا لأن الأبيات من الشعر الرديء، بل بسبب القديسة جنفياف. فسوف يعمد ذات يوم ذلك القذر فريرون إلى إخراج تلك القصيدة من مخبئها ليكررها على مسامعه، فيجعل الجميع يضحك من ورع فولتير. ونضحك بدورنا من نظمه.

حَظِي، وهو في مدرسة لوي لو غران، بإطراء جاءه من أكبر شاعر في زمانه: جان باتيست روسو. ولننظر في الأمر من كثب؛ فذلك هو أول اتصال له برجالات الأدب. كانت مسألة نبوءة. وشهد الشاعر، وهو يحضر ذات يوم توزيع الجوائز، من قدم له الفتى أرويه، وقد أصبح الناس يلهجون بسيرته في المدينة. وهاكم ما كتب يقول في ما بعد: «إنه تلميذ يافع بدا لي في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من العمر، ذو سحنة قبيحة، لكنه متوقـد النظرة ويقظ وقد أقبل يعانقني بكل طيبة خاطر».

حين نعرف مع من نتعامل، نتبين سوء النية ضمن ملامح الصورة: فعبارة «سحنة قبيحة» ليست سوى تعبير عن اللؤم الخالص. ولئن لم يكن فرانسوا، وهو في السابعة عشرة، وسيمًا فإنه كان ذا وجه لطيف ومعبّر وابتسامة ساحرة حقًا،

سوف تظل تلازمه. ويُنعم روسو عليه بتوقد النظرة، وما كان في وسعه أن يفعل أقل، لأن تلك النظرة بهرت الجميع، أما «طيبة الخاطر» فلا بد منها، لأن فرانسوا من أهل البلاط بحكم مولده؛ فحسن طرائقه ولطافته وحرصه على أن يروق الآخرين وفنُّه في النجاح في هذا المضمار، كانت كلها موضع إطراء أو انتقاد، لكنها محط اعتراف أينما كان. فالصورة تعبر إذًا عن سوء نية، لأنها حين كُتبت، بعد اللقاء بثلاثين عامًا، كان الشاعران يتبادلان الكراهية. والمؤكد أن سحنة فولتير تدهورت حالها سريعًا بسبب هشاشة صحته: لقد كان هزيلًا جدًا، لكنه لم يبدُ بملامح شريرة إلا تجاه أعدائه، فكان في واقع الأمر تجسيدًا للدماثة بعينها.

لم يغفر فولتير لروسو الشاعر تلك «السحنة القبيحة»، فانتقم؛ والمسألة غاية في اليسر، ذلك أن روسو كان في واقع الأمر ذا شعر أصهب. كما كان ممتقع اللون وأنمش، وعيناه مختلفتان لونًا، وشفته هدلاء. ورد عليه بطلنا قائلًا: «لا أدري لِمَ قال إن سحنتي لم ترقه، يبدو أن ذلك عائد إلى شعري الكستنائي وفمي غير المورروب».

أما حين هاجم روسو قصيدة فولتير، لا هنرياد (*La Henriade*)، إضافةً إلى ذم سحنة كاتبها، فإن الثأر كان أشد عنفًا. فمن المعلوم أن والد ج. باتيست روسو كان إسكافيًا، وأنه عمل في خدمة آل أرويه، وأن روسو ما كان ذا سحنة جميلة، ولا يعرف الأصول وآداب السلوك، بل كان... ذا أخلاق سيئة. وهذا هو نص الانتقام:

«كان عليه (على جان باتيست روسو) أن يضيف أنه قام بتلك الزيارة لأن أباه صنع أحذية أبي طوال عشرين عامًا، وأن أبي حرص على وضعه عند وكيل دير حيث تمنى أن يمكث لديه طويلًا، لكنه طُرِد من عنده لأنه أنكر مولده. وكان في وسعه أن يضيف أيضًا: إن أبي وأهلي كافة وجميع الذين تعلمت على أيديهم منعوني من التوجه لرؤيته، وإن سوء سمعته بلغ حدًا من الانحطاط، حتى إن كل تلميذ، حين يقع في خطأ من نوع ما، يقولون له: لسوف تصير حقًا مثل روسو». وسواء أكان ذلك صحيحًا أم لا، فإنه قد قيل.

فهاكم ما يتكلف المرء عندما يقول، في أثناء توزيع الجوائز في مدرسة لوي لو غران في عام 1710، إن فرانسوا أرويه ذو سحنة قبيحة.

لم يخلُ محيط فرانسوا الشاب من الإثارة حين خرج من المدرسة، والمرجح أن يكون ذلك من أفضل ما عرف العالم في ما يتصل بالفكر والسلوك والثقافة، وفي ميدان فساد الأخلاق أيضًا. كان فرانسوا يشاهد كل شيء ويفهم كل شيء، فيستحيل ألا يكون الغلام - على الرغم من النظام الصارم الذي كان سائدًا هنالك - قد تأثر بالأحاديث التي سمعها وسط النشوة الروحية: ألا كم كان أولئك «المتفلتون» في المعبد يجيدون الكلام! فما يبدون من استهتار بالقوانين والمعتقدات يجعل منهم سادة الذكاء والحرية، فهم كذلك بالوراثة. وكان مبهورًا فجرى اجتذابه. وشعر هناك بأنه في بيته وبين أترابه. وعلى الرغم من أنه شبيه على الدوام بأولئك المتفلتين من الطراز الرفيع، فقد وعى، وهو يراهم ويصغي إليهم، حقيقة طبيعته. واقتنع بأن آل أرويه ما كانوا سوى أداة عمياء لوجوده، وبأنه وُلِدَ «سيدًا عظيمًا وزنديقًا»، وحرًا في حياته وأفكاره وأفعاله. ومن هنا بدت طبيعية جدًا تلك الكلمة المذهلة التي توجه بها إلى أمير كونتي في أثناء عشاء كان الجميع في أثنائه يتنافسون فطنة وجرأة:

«كلنا هنا أمراء أو شعراء!».

الكلمة التي قيلت في حضرة أمير من الأسرة المالكة تنطوي على مخاطرة، لكنها عبرت وانتهت. كان أمير كونتي فتيًا مرحًا.

أما بالنسبة إلينا فإنها تحدد موقع قائلها: أمير وشاعر، أو شاعر وأمير، هما سيان. لكن هذا الأمير - الشاعر لا علاقة له بالناس العاديين. فلا فرق في نظره بين كاتب بالعدل وإسكافي. ويعرف فرانسوا أرويه أنه سيعيش فوق القمم لا في مكتب كاتب بالعدل، وإنْ يكن ملكيًا، ولن يعتمر قبعة رئيس المحكمة العليا. يلزمه تاج. وسيكون ملكًا حتى ضد الملوك، وضمن مسارهم.

قام بدخول المعبد منذ زمن المدرسة، حين قصده بصحبة مرشده شاتونوف، الأب والزنديق في آن. ففي عام 1706 أمضى الأيام الأولى من إجازته: كان في الثانية عشرة! ويا له من تناوب عجيب في تلك التربية. فطوال الأسبوع، هناك القداديس ومواعظ الآباء الصالحين ودروسهم الباهرة. وأما يوم الأحد، فهناك

المعبد والكفر. وحين تقدمت به السن قليلًا، صار واحدًا من المترددين إلى موائد العشاء الشهيرة، تلك التي كانت تسبب رعدة للأتقياء. واستعار من أولئك الزنادقة المشهورين لهجتهم ونقاءهم ورشاقة لغتهم واحتقارهم الكلي والساخر «لأقدس الأشياء».

ويسع المرء أن يتساءل كيف ترك المفكرون الأحرار (الملحدون) برج المعبد يُهدَم، وهو الذي كان كاتدرائية الزندقة في العهد الملكي. لكن القداديس لم تُقم فيه قط باحتفاليات تفوق احتفاليات مطلع القرن الثامن عشر، يوم كان الكاهن الأكبر لسلك رهبان مالطة الذي تعود إليه ملكية المعبد، هو فيليب دو بوربون - فندوم، الجنرال الشجاع واللامع، إلا أن الزندقة ملء جوانحه. وهو حفيد الملك هنري الرابع وغابرييلا ديستريه. كان إذًا كاهن الزندقة الأكبر، ولم يعرفه فرانسوا أرويه إلا في عام 1715، لأنه كان منفيًا حتى ذلك التاريخ. ويعتبره رجال بلاط الملك العجوز والسيدة دو مانتونون رجلًا شريرًا. ويبدو أن ظواهر الأمور تضع الحق إلى جانبهم. أما في غيابه فيتولى رعاية عقيدة الزندقة مساعدون متألقون: لا فار الشاعر، وشوليو الشاعر أيضًا، ودوق سولي، ودوق فرونساك. وهم جميعًا من كبار أصدقاء فرانسوا وزملائه، وممن يألفهم السيد أرويه. وهناك كاهن اسمه سيرفيان ومساعدون آخرون لا يتمتعون بالألق نفسه لكن يتمثل دورهم في زيادة بروز المتألقين. أما وأن أرويه الشاب سوف يُتِم تربيته بين ظهرانيهم، فإن هؤلاء السادة جديرون بأن نمضي من جانبنا بعض الوقت بصحبتهم، فهم سوف يطلعوننا على إيقاع باريس في تلك الحقبة، من انتهاء العهد الملكي الكبير، وبداية الوصاية. وبمعرفتنا لهم، يغدو سلوك تلميذهم الجديد واللامع، طبيعيًا جدًا في نظرنا.

أضحك الكاهن سيرفيان باريس كلها يوم أنشد على خشبة الأوبرا قصيدة معروفة تشيد بالملك، بعد أن حرف بعض كلماتها. فزلزلت الضحكات والتصفيق أركان القاعة. وكانت شقيقة هذا الكاهن زوجة دوق سولي العجوز، وتاليًا فإن دوق سولي الشاب وصديق فرانسوا أرويه - والذي أضحى رفيقه إلى حياة الزندقة في المعبد - هو ابن شقيقة ذلك الكاهن العجيب. لم يفتقر الكاهن إلى الفطنة ولا إلى الثقافة وآداب السلوك. ولا ريب في أن انتخابه إلى الأكاديمية كان بسبب أغانيه وطلاوة حديثه. ولم يتمكن يوم قبوله في الأكاديمية من شق طريق له بين

حشود المتجمهرين، كي يبلغ الباب. فصاح بأعلى صوته: «إن دخول المرء إلى هذا المكان أصعب كثيرًا من قبوله فيه». وكان وضعه يهيئ له فُرَصَ الذهاب حيثما شاء، لكنه لم يتردد إلا إلى الأمكنة التي تفسح لقريحته الإباحية الانطلاق من دون قيود. ويراه المرء في الأوبرا وفي أروقة الأسواق التجارية. وشخصيته معروفة؛ فهو يسير متظارفًا بمعطف من الفراء ويداه مخبأتان في كمَّين من الفراء أيضًا. وكان بارعًا في التعبير بصوته العذب وتعرجاته المغناجة، والأسلوب الأكثر براعة في العالم، تعبيرًا عن الأفكار الأكثر هولًا. وهو على أوثق صلة بأبناء شقيقته من آل سولي. وقبل وفاة الملك بمدة قصيرة، قُبِضَ على الكاهن وفروته، واقتيدا إلى سجن فنسين. فتسبب ذلك بمناحات كبيرة. أما فرانسوا أرويه المعروف دومًا بشدة تعلقه بأساتذته، جماعة الخير منهم وجماعة الشر، فأرسل إليه على الفور قصيدة بأسلوب أناكريون، عسى أن تخفف عن الكاهن عناء بلوته. أما في نظرنا فتبدو تلك الموسيقى والورود والصرخات والبسمات باهتة وذابلة. ولنحكم على ذلك:

«وا أسفاه! وجدتُ النعميات نائحات
كسيرات القلب وشاحبات ويائسات
رأيتُ الضحكات حزانى واجمات
وقد رمين بالزهور التي تزينهن
دامعات الأعين شاهقات ألمًا
سالكات جميعًا الدرب إلى فنسين».

ولن نمضي إلى نهاية المطاف، فلندع ربات الفنون «والكاهن الرقيق الذي كان لهن أبًا». حسبنا أننا عرفنا ما فيه الكفاية.

الرقصات الأولى على مسرح العالم

حين بلغ السادسة عشرة، عقد اختياره على أن يكون أديبًا. وكان للنبأ وقع الصاعقة على آل أرويه كافة، ولم تعرُهم الرعدة لأن القرار أحمق فحسب، بل لأنه شائن أيضًا. ورد عليه السيد أرويه قائلًا: «إنها حال رجل يريد أن يكون عديم النفع في المجتمع، وأن يتحمل أهلُه أعباءَ الإنفاق عليه، ويرغب في أن يموت جوعًا». كان ذلك القول موضع الاستهزاء الأكبر من الشاب فرانسوا. إلا أنه سار على درب

مدرسة الحقوق. فيا للهول! هناك صدمته سماجة اللغة، وسوء تصرفات الأساتذة والطلاب فضلًا عن قذارتهم. والمقر؟ لقد أطلق عليه اسم مستودع أعلاف. وهو لن يتكيف مع ذلك المكان أبدًا: إنه في حاجة إلى صحبة نبلاء وأمراء لكي يجد من يفهمه، وفي حاجة إلى أماكن مزدانة بالزخارف ليبتهج فتتفتح قريحته. والحال أن السيد أرويه لا ينظر بعين الرضى إلى ابنه الذي يألف النبلاءَ الشبابَ على قدم المساواة، في حين أنه هو الكاتب بالعدل العجوز ما زال يقف في حضرتهم متهيبًا، لكن ليس بيده من حيلة أمام ما يجري إعداده: لن يصنع ابنه من نفسه نظيرًا للنبلاء، بل سيغدو ندًا للملوك، وسوف تفيء مَلَكيته عليهم بظلها.

كلفته سيدة رفيعة المقام، في تلك الأثناء، بأن يصحح لها أشعارها. وتلك بداية نوع من دعوة تربوية. فسوف يقوم بتصحيح محاولات العظماء الشعرية. وإن قيام المرء بتصحيح أشعار دوقة، لأمتع بما لا يُقاس من التحدث إلى قضاة قذرين يرطنون بلغتهم وتفوح منهم روائح كريهة. وأوعزت الدوقة بتسليمه مئة ليرة! وكان أن اتخذ قراره الطائش: فقد اشترى بذلك المبلغ الضخم عربة عتيقة، واستأجر خيولًا وخدمًا وتجول وهو محاط بذلك الطاقم طوال يوم كامل في باريس. إنه يمثل. كان يمثل دور سيد كبير، لكنه عند زاوية الشارع تراجع. فعندما حل المساء، ما عاد يدري ما يفعل بتلك الحاشية، فأودع كل شيء في دار أبيه وصرف الخدم. وفي أثناء الليل، شرعت خيول الأب بالصهيل والرفس، وقد ضيقت خيول الابن عليها المكان. ونشبت في ما بينها معركة زعزعت أركان الإسطبل وأقلقت راحة الجوار. واستجلى السيد أرويه حقيقة الأمر، فاستبد به غضب فاق غضب خيوله، وطرد ابنه. وفي اليوم التالي باع الخيول الهزيلة والعربة من صانع للعربات عند طرف الحي. فهل كل ما جاء في هذه الطرفة صحيح؟ إن أعداء فولتير ليؤكدون ذلك. يبقى أن المغامرة خالية من أي وجه مأساوي؛ إذ رغب وهو في السادسة عشرة، في الظهور بمظهر من الاستقلالية. أما الشيء الأكيد فهو أن الأب نفد صبره. إن فرانسوا يرجع إلى البيت ليلًا، ساعة يشاء، ولا يتناول وجباته بأي انتظام، وصارت لقاءاته المتباعدة بأبيه عاصفة. ويخبرنا فرانسوا أن أباه سيئ الطبع. وإذا كان ذلك مؤكدًا تقريبًا حيال ابنه، فإنه كان يعنف الناس أيضًا على ما يبدو. ويروي لنا الابن كيف أخذ أبوه ذات يوم بخناق البستاني لديه. فهزه بعنف كما تُهَزّ شجرة توت، وصاح به قائلًا: «اغرب عن وجهي، أيها السافل، فعسى أن تجد لك سيدًا صبورًا مثلي». ويضيف أنه اقتاد ذات مرة الكاتبَ بالعدل العجوز إلى المسرح،

وهو راغب في المكر به، فهنالك تُعْرَض مسرحية عنوانها «الموبخ»، بطلها نَزِق الطبع. فعمد فرانسوا إلى النص فأضاف إليه الجملة التي قالها أبوه للبستاني، فكان في ذلك إصلاحه. إن تلك الواقعة تدخل ضمن نطاق التربية القديمة «الأخلاق تطبيقًا». أما الصحيح فهو أن السيد أرويه أضحى ساخطًا على سلوك ابنه، فكان يقسو في تضييق الخناق عليه بلا طائل.

أما حين جاء فرانسوا ليلًا ليجد أبواب المنزل موصدة في وجهه، توجه إلى بواب القصر طلبًا للمأوى. وبعد أن احتار هذا أين يضعه، أشار عليه بالجلوس على كرسي ذي حمالات كان منسيًا في الباحة، والانتظار حتى طلوع النهار. ووصل قاضيان في الصباح الباكر فراقهما المشهد، فحملا الكرسي وما حوى، وتوجها به بكل هدوء ليضعاه أمام مقهى على الرصيف، حيث استمتع زبائن الصباح بمشهد المغفل النائم منطويًا على نفسه فوق كرسي مهمل على أرض الشارع.

ما عادت الطمأنينة تعرف طريقها إلى قلب أبيه الذي كان مستعدًا لأن يشتري له وظيفة في المحكمة العليا. وما كان يتهيب، في سبيل إعادة الطمأنينة إلى قلبه، أي إنفاق، حتى شراء قبعة مربعة وقفطان مبطن بفراء القاقم لرئيس المحكمة العليا، من أجل أن يموه رعونة ابنه تحت تلك المناصب الرفيعة والالتزامات المترتبة عليها. ولأول مرة، يسلم الرجل المسكين بوجود لطخة في تراث آل أرويه. لكن يا لها من لطخة! إنها لن تستمر. أما مقابل هذا الثمن، فإن واحدًا اسمه فولتير سوف يغدو خالدًا. وهكذا، فهنالك تقمصات عجيبة لا يدرك الكتّاب بالعدل ولا أرباب الأُسَر الشيء الكثير من فحواها على الإطلاق، ذلك أنهم لا يشعرون في قرارة أنفسهم بأنهم حقًا آباءُ أولئك الأشخاص «الاستثنائيين» الذين ليسوا بالمقابل أبناءهم إلا على نحو ضئيل.

رفض فرانسوا بكل خشونة عرض الكاتب بالعدل، ورفض القبعة وفراء القاقم: «قولوا لأبي إني أرفض رفضًا قاطعًا كل اعتبار يمكن شراؤه. ولسوف أعرف كيف أقيم لنفسي اعتبارًا لا يكلف شيئًا».

وإذا ما نحينا الوقاحة جانبًا، صرنا أمام شعور معاصر جدًا. ذلكم هو عنفوان «الرجل العصامي»، بل إن عبير الثورة ليُستَشف من هذا القول الذي تردد أصداؤه كرجع بوق تاريخي: «هيا قولوا للملك إننا هنا بإرادة الشعب...» وسوف يضيف

بعد مدة قصيرة قائلًا: «ألقيت بنفسي في الفنون الجميلة التي تحمل معها على الدوام مظهر وضاعة، نظرًا إلى أنها لا تجعل من رجل مستشارًا للملك في مجالسه البتة». وإن ذلك لصحيح وخطِر. فمهنة الأديب في ذلك المجتمع مهنة على قدر من الوضاعة، إذ إن المرء في ذلك العالم لا يكون أحدًا ما، إنْ لم يكن شيئًا ما. وواقع الحال أن الأديب ليس شيئًا، فهو لا يملك حتى ما يخرج من تحت قلمه. إن فرانسوا أرويه هو أول من سيصنع للأديب وجودًا اجتماعيًا، يتمتع بسلطة وكرامة وحقوق، وهي حقوق ينكرها المجتمع إنكارًا متواصلًا، فيدافع هو عنها باستمرار، وبحدة يلومونه عليها ظلمًا. ذلك الرجل الجديد سوف يُدعى فولتير.

هاكم ما يكمن تحت المغامرة المبتذلة لـ «ابن العائلة»، وهو يقطع أواصر الصلة بينه وبين وسطه البرجوازي ليكون «فنانًا»؛ ليس ذلك الرومانسي المبتذل على الإطلاق – كم تغير زمانه! – المنتمي إلى تمرد الشاب الملهم على جوزف برودوم. إن فرانسوا لا يسعى بإنكاره آل أرويه نحو انحدار اجتماعي، بل يسعى نحو الارتقاء بما يمثله من فكر حر وحرية في الكتابة. وليست المسألة مسألة انعتاق شاب وسيم متأنق راغب في أن يعيش حياته الحمقاء. إنها ترقية اجتماعية كاملة، وهي قيد من العهد البائد قد تحطم. مع ذلك فلا يقع نظرنا، طوال أعوام الشباب هذه، إلا على الخفـة، بل التفاهة الاجتماعية: مجرد كلمات، كلمات جميلة، لكنها تتلاشى تلاشيَ العطور الخفيفة التي تفوح من الدوقات، ومن القصائد الغزلية الرقيقة، والبسمات؛ لكن يا لها من بسمة! إن بسمة أرويه الشاب لا تُبارى، فهي تجمع السحر فضلًا عن المكر، فتتوهج وتتوقد وتغري وتنعش. وكان يثبت النظرات بنظرته، وما كان الذكاء قط على مثل تلك الدرجة من البريق والتوهج. فحين يجلس إلى مائدة، يضاعف مرات ومرات عدد الشموع التي تعلوها، وتغدو كؤوس النبيذ أكثر دفئًا، لذا كان لا يشرب منها إلا بمقدار. كان منتشيًا بفكره فيجعل الآخرين ينتشون به.

يتألق الشاب أرويه بكل ما في كلمة التألق من معانٍ، فيبلغ في ملابسه حد الكمال. وكان حسن القيافة حين يمشي، يتكلم مثل واحد من الأمراء، ويتمتع بكياسة فطرية وطلاوة حديث في المجتمع؛ ذلك أن الصالون في تلك الأزمنة الباذخة مسرح، وخشبة المسرح هي المجتمع الذي يتحرك فوقه فرانسوا على سجيته. وكان صريحًا وثاقب الفكر وألمعيًا. وبدا على ذلك النحو عالمًا إلى

أين هو ماضٍ، ومقتنعًا بكل طمأنينة، وهو في السابعة عشرة، بأن عبقريته تؤهله للارتقاء إلى مصاف صاحب سمو، فجدَّ طوال أربعة وثمانين عامًا مُصِرًا على إقناع أوروبا بذلك، ونجح في مسعاه.

بدأ يتدرب، ذلك أنه يعمل. فهذا الطائش يتمرن طويلًا على صقل الأسلوب والإنشاء. إنه يقرأ ويتكلم ويصغي؛ فالكلام بالنسبة إليه تعلـمٌ وصوغ لفكره. ولا معنى في نظره لكلام لا طائل منه، لأنه، حتى وهو ينطق بالترهات، يصوغها على نحو تبدو معه وهي تلتمع ذكاء.

جعله شوليو ولا فار يقرض الشعر. فاشترك في عام 1712، وهو في الثامنة عشرة، في مسابقة الشعر التي تنظمها الأكاديمية. لقد تذكر لويس الرابع عشر بغتة أن والده لويس الثالث عشر نذر للعذراء أن يكرس لها فرنسا، فأوعز الملك ببناء مذبح في كاتدرائية نوتردام في ذكرى نذر لويس الثالث عشر. ورغبت الأكاديمية إلى الشعراء نظمَ قصيدة غنائية للعذراء. فنظم فرانسوا هذه القصيدة الغنائية على نحو ما نظم واحدة للقديسة جنفياف. وأطرى جان باتيست روسو القصيدة: لم يثنِ على الورع، بل على الروح. ولا ريب في أن ذلك ما استحقت.

لكن طموح الكاتب الشاب هو نفسه طموح كتّاب العصر كافة. ولا بد له، لكي يصير كبيرًا، من عملٍ كبير. والحال أن العمل الكبير والأسمى، إنما هو التراجيديا. والموضوع جاهز لديه: إنه أوديب. وقيل له إن كورناي سبق فعالج ذلك الموضوع، فكان جوابه إنه سوف يتجاوز كورناي (إنه لا يبالغ في التعهد، لأن أوديب كورناي عمل بائس ما عاد أحد يأتي على ذكره)، أما مسرحيته هو، أوديب، فليس عرضها بقريب. إلا أن المسرحية شبه جاهزة، وما انفك هو يواصل تعديلها. إنها لما تنضج، وكذلك هي حاله لأنه لما ينضج أيضًا، فلا بد من العبور من قلب النار.

أم مذنبة وبنت شبه شريفة

ضاق السيد أرويه ذرعًا بالحياة التي يعيشها ابنه. فتوجه، في سبيل وضع حدٍ لذلك، إلى صديق قديم، هو المركيز دو شاتونوف - شقيق الكاهن - وكان سفيرًا في لاهاي، فائتمنه على المتعذر إصلاحه، وليصنعوا من

فرانسوا ما يشاؤون: ملحقًا أو سكرتيرًا أو مستشارًا أو وصيفًا، على أن يعيدوا العقل إلى رأسه، أو فليخلصوا الأب المسكين في الأقل، من ابنه، ابنه الناقص الأهلية.

وسبق أن جربوا فيه علاج السفر: أرسلوه إلى كان، فكانت النتيجة بلا طائل. ما كان يفعله في باريس، واصل فعله في كان. هنالك انبهرت به سيدة اسمها السيدة دوسفيل، فصارا يُشاهدان متلازمين في كل مكان. وكل مكان - بالنسبة إلى فرانسوا - يعني القصور الريفية وقصور كان الجميلة. سلب لبها حتى ليُغشى عليها وهي تنظر إليه أو تسمعه. وكادت ذات يوم تختنق غضبًا حين علمت أنه يلقي قصائد ماجنة في صالون آخر في المدينة. ولم تقوَ على تحمل ذلك الإلحاد، فضلًا عن تلك الخيانة، فأغلقت بابها في وجهه. وتسبب الأمر في كان في ما يشبه فضيحة، سوف ترافق الشاعر مقتفية أثره، طوال حياته، وفي كل مكان. فلا يسعنا القول إن الواقعة مرت مرور الكرام. لكنه سرعان ما وجد تعويضًا عن الصد الذي قابلته به تلك المتظاهرة بالاحتشام، في شخص كاهن يسوعي هو الأب دو كوفرينيي، الماجن من الدرجة الأولى والأديب الذواقة. كان الأب يعلن في كل مكان أن ذلك الشاب عبقرية واعدة، فيبرهن الشاب من جانبه على صدق قوله، كما كان الأب رفيق درب يتميز بالثراء. فقام فرانسوا بقراءات لم يعرفها من قبل، ودخل في نقاشات مع ذلك الصديق، فعاد أكثر مهارة وأكثر تعلمًا، بل أكثر تعقلًا. وفي عام 1713، رجع إلى باريس، فوجد أباه في انتظاره، ليقول له أن يُعد حقائبه على الفور، للتوجه إلى لاهاي.

روت الإقامة في لاهاي فضول فرانسوا بألف موضوع وموضوع من المفاجآت والتسالي، وأفضلها في ميادين الهزل والعشق. ولا طائل من القول إن السفارة، بطاقمها وأوراقها، كانت المكان الذي نادرًا ما شوهد يتردد إليه في لاهاي، إذ انصرف من فوره إلى المجتمع الذي قوامه المنفيون السياسيون، وآخرون من دون أسباب تقبل البوح بها أو لا تقبل. كان المجتمع كبيرًا ومتنوعًا ومن سويات متفاوتة؛ فالموضوعات الراقية وفيرة فيه، والأخرى أيضًا. ففتح قلبه لهذه الأخيرة. لكن ليس لنا أن نقلق؛ فالباب ضيق، والذين يلجونه قلة، وما من شيء تحطم. وسوف نرى أن صداقات فولتير كانت متينة وعميقة ورقيقة، لكنها لا تقع ضمن ذلك العالم الرائع والمريب الذي قاده إليه حب الاستطلاع.

تعرف إلى سيدة تدعى دونواييه. هاجرت هذه الضحية من ضحايا التعصب هربًا من الاضطهاد الديني، فجاءت إلى هولندا سعيًا وراء حرية المعتقد، وحريات أخرى غيرها. وبرهن سلوكها كله على أنها وجدت حرية الأخلاق. وازدانت علاقاتها رونقًا بوجود ابنتيها اللتين كانتا فاتنتين. فقد اختطفتهما من أبيهما النقيب في الجيش الفرنسي، والذي ظل في فرنسا، إذ استطاع التوفيق بين إيمانه الديني ووطنيته، لكنه خسر زوجته وابنتيه، فهل خسر الكثير؟ ما كانت السيدة دونواييه لتتوانى، حين تنطلق على سجيتها، عن القول إن هروبها كان بالأحرى بسبب التسلط الزوجي أكثر من كونه بسبب المتزمتين في حاشية صاحب الجلالة. وكانت تتمتع بذلك النوع من اندفاعات الصدق، فتعترف على سبيل المثال بأنها على نصيب لا بأس به من الدمامة، لكن ذلك لم يقف يومًا عائقًا في وجه تجارتها الغوائية. ويرافق افتقارها إلى الجمال، افتقارها إلى أي تحرج فتؤكد أنها «تعرف الرجال»، ما يعني أنها تراهن على رذائلهم أكثر من فضائلهم لتتمكن من قيادتهم. فتكسب على ذلك النحو عيشها في لاهاي. ومارست قبل لاهاي نشاطها في إنكلترا، لكن ما إنْ أطلعت الإنكليز على حقيقة مواهبها، حتى وجدت نفسها مرغمة على تغيير زبائنها.

وهي تتمتع بمواهب شتى. فأضافت إلى الغواية والتسول «الاجتماعي»، موهبة النميمة، فكانت تكتب! بل لها دور في تلك الجوقة الرهيبة من الشتائم الموجهة إلى فرنسا من الخارج. فتكتب أهاجي سافلة ضد البلاط والكنيسة ورجالات القضاء. ويغرق فرانسوا في الضحك قائلًا إنه ما من خبر واحد صحيح في تلك الأخبار كلها. لكن ذلك لم يسبب له أي صدمة على الإطلاق؛ فالأمر مدعاة للتسلية. لكن هنالك، والحق يُقال، بعض الحقائق في تلك الأكوام من النفايات. قد يتم العثور في الكهاريز أحيانًا على ملعقة من الفضة، لكن ذلك لا يقلل مما تعبق به المجارير من روائح كريهة، كما لا يحيل السيدة دو نواييه إلى امرأة فاضلة. تلك كانت الأم.

كان فرانسوا يصغي إليها، لكن ابنتها الثانية، أولمب هي محط أنظاره. وينادونها بمبيت، فهذا الاسم يلائم ذلك العصفور كل الملاءمة. ليس جمالها طاغيًا، لكنها تتوقد نشاطًا، وهي نَزِقة وظريفة وغاية في الطيش وبعيدة كل البعد عن الغرور. فوقع فرانسوا للمرة الأولى تحت تأثير السحر: لقد علق في

الشرك. والمسألة جديدة عليه. إن بمبيت تتقدمه، إذ تولت أمها تدريبها. فالسيدة دونوايبه عقدت العزم، على الرغم من سمعتها، على تزويج ابنتيها، وعلى أن تُحسِن تزويجهما. وتوصلت إلى تزويج ابنتها البكر من ضابط عجوز ميسور الحال، هو السيد قسطنطين. وتقول موعظة السيدة دونوايبه: «على المرأة أن تتزوج مرة واحدة في الأقل في حياتها، لمتعتها أولًا ولمنفعتها من بعد». وكانت ماهرة حتى أوشكت أن تزوج بمبيت من جان كافالييه، نبي الكاميزار[13] الشهير، الذي كان للبروتستانت حياله نوعٌ من العبادة. وحين جاء إلى هولندا، قوبل بتهليل من اللاجئين كافة. ومن بعد أخذته السيدة دونوايبه في خلوة خاصة، فعرضت عليه كل شيء، فلم يأخذ سوى بمبيت. تقدم بوعد بالزواج، ثم هرب على حين غرة إلى إنكلترا. فهل لاحظ شيئًا من متاجرات الأم؟ خلاصة المسألة أنه ما من أحد عرف البتة إن كان قد هرب من الفتاة، أم من الأم، أم منهما معًا.

كان من أثر ذلك أن يضحك أعداء فولتير استهزاء قائلين، بعد ثلاثين عامًا، إنه كان منافس الكاميزار، ولم ينلْ سوى الفُتات. كما سيقولون ليس في الأمر ما يُدهش. فهذا سيقول إنه كان في هيئة تائه، فيما سيكتب مفتش في الشرطة قائلًا: «أرويه طويل القامة ونحيل وأشبه بساتير...»[14]، بيد أنه لم يكن طويل القامة، وإذا كانت ابتسامته الماكرة تجعله يشبه الساتير، فلا بد من أن يكون أولئك القوم غاية في إثارة الاهتمام.

كتب في تلك الفترة إلى رئيس دير فندوم، فقال عن نفسه إنه ناحل وهزيل الجسم. كان كذلك، وسوف يظل أكثر نحولًا. كانت له أجمل عينين في الدنيا، لينظر إلى نفسه في المرآة، ولينظر بهما إلى بمبيت التي يجدها فاتنة. وهي كذلك؛ لأنها لم تجعله مضنى زمنًا طويلًا كمثل حال شاتونوف وهو مضنى عند قدمي نينون. ولا ريب في أنها لم تره في هيئة تائه، ولا في سحنة ساتير. هذا ما لم تكن ألاعيب ساتير قد راقتها حتى الثمالة. وكانت باختصار مجنونة بهواه على قدر جنونه بهواها.

---

(13) اسم يطلق على الكالفنيين الجنيفيين الذين حاربوا إدارة لويس الرابع عشر وجيشه بعد إلغاء مرسوم نانت في عام 1685. (المترجم)

(14) الساتير من الكائنات الخرافية في الأساطير الإغريقية، يشبه التيس بقرنيه وذيله وأظلافه. (المترجم)

لم تنخدع السيدة دونوايه، كما لم ينخدع أحدٌ كائنًا كان في لاهاي، بطبيعة العلاقات بين بمبيت وأرويه. فهما لم يكلِّفا نفسيهما عناء إخفائها. ولم تكن الأم لتستاء من تلك الغراميات المكشوفة، بل هي ممن يتقاضى عليها أموالًا، ولو أن فرانسوا في سن الزواج لأرغمته على ذلك. فكانت توبخ ابنتها التي بدأت طعامها بتناول حلوى ما بعد الطعام، من غير أن تلقي بالًا إلى ما يسند القلب، لكنها هناك لتدارك هذا النوع من الطيش.

قامت بتجميع أشياء من حطام كرامة بقيت لديها من أزمنة عز غابرة، وتوجهت بها إلى السفارة الفرنسية لتؤدي دور الأم المهانة: قام فرنسي، يشغل منصب ملحق في السفارة، بتوريط بمبيت البريئة، فلطخ سمعة الفتاة وسمعة أمٍ لا يسعها المهادنة حين يتعلق الأمر بالفضيلة. وهي بروتستانتية فوق هذا كله، فلا مفر من التعويض. واستولى الضيق على السفيرِ، فهو لا يرغب في فضيحة في ذلك المنصب الذي احتله لتوه. زدْ أنه لمّا يقدم أوراق اعتماده. والحال أن «الأم المذنبة»، كانت قادرة بقلمها على التسبب بالأذى. وعلى ذلك جاء الأب معلنًا وجوده: لم يكن راغبًا في لقاء الأم، بل في لقاء ابنته بمبيت. فطلب أن تُعاد إليه، وعرض في المقابل أن يؤمن بالكاثوليكية وأن يجعل بمبيت تؤمن بها إذا ما عادت إليه. وليس ما يمكن أن يروق أكثر بلاط الملك العجوز الذي سيطلب من السفير أن يدعم الأب فيسهل عودة بمبيت إلى حضن وطنها الأم وحضن كنيستها. فكان من شأن الفضيحة التي أثارتها الأم إفساد كل شيء. فما كان لدونوايه أن يساورها أدنى ارتياب في ما يجري إعداده. إنها تأبى التخلي عن وضعها كهرطوقية ومنفية، فهما وضعان لا يؤمنان لها أفضل مصادر مواردها فحسب، بل يحررانها أيضًا من الطغيان الزوجي. وإذا ما تمكن زوجها وفرنسا والكنيسة من استرداد بمبيت، فمن عساه يؤمن لها مصدر العيش في أواخر أيامها؟

على الرغم من تلك الشبكة من الدسائس، كان الشاب أرويه لا يزال يواصل حبك عشقه الكامل. لكنه لم يشكل أي عبء؛ إذ قام السيد دو شاتونوف بإرساله على نحو مباغت إلى السيد والده.

ويا له من انهيار! فعلى أثر المسعى الذي قامت به الأم، مثل في المساء نفسه أمام السفير الذي أوضح له أنهم سوف يعيدونه إلى أسرته على الفور. فتوسل

فرانسوا وساق الحجج واسترحم وعرض البراهين. ويسعنا أن نتبين كم ضمن استرحامه من الحنكة والفطنة والبراعة. فالسيد السفير ليس راغبًا في المتاعب. وجل ما نال فرانسوا مهلة من أربع وعشرين ساعة، لكنه ظل محتجزًا في غرفته! فما نفعُ ذلك؟ وما العمل؟ أن يطلق لخياله العنان... أن يتخيل أنه يختطف بمبيت، وأنه يمضي مسرعًا إلى نيم فيرتمي على قدمي النقيب طالبًا إليه يد ابنته. لكن نيم على مسافة خمسة عشر يومًا من السفر بالعربات! فيستنجد بالسهم الأخير: أن يكتب رسالة إلى تلك البريئة! ينبغي أن تتبعه، من غير تردد ولا تنهد. «إذا ما ترددتِ لحظة واحدة فسوف تستحقين كل ما يحل بك من مصائب. ولتظهر فضيلتك هنا بكل جلائها. فانظري إلي وأنا ماض بالعزيمة نفسها التي ينبغي أن تتسلحي بها وأنت تسافرين».

ويخبرها بأنه معتقل وتحت الحراسة؛ فهنالك آذنٌ يقف على باب غرفته. كما يطلب منها أن تسلمه ثلاث رسائل، واحدة لوالدها النقيب، والثانية لعمها، والثالثة لشقيقتها. فهو عازم على حشد العائلة بكامل أفرادها: المسألة جادة. فيا لنار الهوى! ويا للحمية! فالأمر حُسم ولا تراجع عنه. إنه التجلي الأول لطبع مشبوب العاطفة، ولسوف يظل كذلك حتى النهاية، لكن على نحو نادر أكثر في ميدان العشق. فتلك هي حاله في كل ما هو راغب فيه، إنه يريده مهما كلفه الأمر، ويريده من دون انتظار.

علم ساعة إرسال الرسالة أن رسائله كلها تمر عبر السفارة فتمكث فيها، لكن هاكم المسرحية الهزلية: لديه خادم - سكابان من النورماندي - جعله يتنكر. توجه الخادم بصفة بائع جوال يبيع علب النشوق! وجاء يعرض بضاعته على السيدة دونواييه، ونجحت الحيلة. لقد رأى بمبيت. كانت تلك العصفورة المسكينة مشرفة على الهلاك من الضنى. فأخبرها الخادم أن فرانسوا عازم على رؤيتها، واصطحابها إلى ضواحي لاهاي حيث سيختبئان، لكن ينبغي لها أن تخرج قُبَيل منتصف الليل. إن بمبيت راغبة في ذلك... لكن ما العمل؟ فوالدتها تعرف ألاعيب العشق ومعارضيها كافة، فجعلت بمبيت تنام في سريرها هي. فأضحى الحل ميؤوسًا منه!

لكن حصل انقلاب مفاجئ! فالسفر جرى تأجيله. وأرجأ السفير الرحلة،

لكن أرويه سوف يظل موقوفًا. وإذا كانت الضربة موجعة، فإن بقاءه في لاهاي خيرٌ من أن يكون في باريس. حسبه أن يغفل عنه البواب قليلًا، وأن تقوم البريئة بعملية ماكرة، فيحصل اللقاء. قام فرانسوا بإرسال ملابسه إلى بمبيت، ومعها معطف يستر كل شيء، إضافة إلى رسالة حافلة بالتوصيات. «حاذري من طعنة من طريق السيدة أمك، واحذري على نفسك من نفسك، واعتمدي علي مرة أخرى لأخرجك من هوة الجحيم التي أنت فيها». إن المسألة في نهاية الأمر لتؤلم، حين نرى عاشق الفتاة يصف سرير السيدة دونواييه، فيقول: «هوة الجحيم التي أنت فيها»، ذلك أن بمبيت كانت في واقع الأمر تقيم هناك، وكانت إقامتها مقيتة جدًا. وأما ما لا يبدو قابلًا للتحقيق إلا في الكوميديات، فقد تحقق في حياة أرويه - سكابان: استلمت بمبيت الملابس فارتدتها، وخفّت الخطى لتعبر برشاقة عتبة القصر الذي يؤوي سجينها الحبيب. فسلمته الرسالة وسلمها فرانسوا رسالة من جانبه. استولى عليه فرح غامر. فهل جاءه من طريق الحب أم من طريق الحفلة التنكرية؟ ذلك حقًا بالنسبة إلى أرويه ما يُسَمى الحياة. ولقد كتب إليها يقول بعد لقائه بها وهي متنكرة:

«لست أدري إن كان علي مناداتك بالآنسة أو السيد. ولئن كنت رائعة بالقبعة المثلثة، فأنتِ فارس ظريف. وبوابنا الذي ليس عاشقًا لك، قد رأى فيك غلامًا وسيمًا جدًا».

أما إحساسه بأنه مراقب، فقد ألزمه بوقف المكيدة الرائعة. إنه عازم على السفر. أعطاها عنوانه في بيت أبيه في باريس، لكن بمبيت مجنونة حبًا؛ فهي تنوي الذهاب لترتمي عند قدمي السفير، طالبة أن يحميها من أم بربرية، وأن يعطف على فرانسوا. إلا أنه منعها من القيام بهذا المسعى، لأنه يعرف أن العواقب سوف تكون كارثية عليها وعليه. فالسفير عازم على كتم القضية، وكل ما يعوق ذلك محكوم عليه بالفشل. «يا عزيزتي بمبيت، اسمعي نصيحتي هذه المرة، وسوف تكون كفتك هي الراجحة طوال الحياة، فسوف أنذر أن أطيعك دائمًا». إنه وعد جميل من عاشق: فلتطعْهُ مرة، وبعدئذٍ سوف يطيعها... طوال حياته!

للأسف! لم تقوَ بمبيت على المقاومة، فوقعت مريضة، وما عادت والدتها في حاجة إلى الإبقاء عليها في السرير؛ فالحمى تولت الأمر؛ ذلك أنها هي العاشقة الحقيقية، فرسائلها ساذجة بيد أن حبرها يُلهِب الورق. وأرويه صادق من ناحيته،

ما في ذلك من ريب، لكنه يكتب دومًا كتابة عالم بأصول البلاغة، فقلبه يُلهِمه، وهذا ما نشعر به، لكن الفكر يحافظ دومًا على حقوقه. فرسائله براقة، إلا أن دفئها محدود. «وداعًا يا حبيبتي الغالية، فقد تكون هذه آخر رسالة أكتبها من لاهاي. وأنا أقسم لك إني باقٍ على العهد أبدًا. وفي وسعك أنتِ وحدك أن تجعليني سعيدًا، بل أنا غاية في السعادة حين أستذكر العواطف الرقيقة التي تحملين لي... فوداعًا يا معبودتي أولمب، وداعًا يا غالية. لو كان في وسعنا كتابة القبل، لأرسلت لك ما لا نهاية له منها بالبريد».

هل هذه لغة عاشق كسير القلب؟ إن بمبيت تتعذب، وهي محمومة بسبب كل ما تتخيل في سبيل أن تراه، أن تعانقه، مخاطرة بحياتها، ومرة أخرى تخاطبه بمنتهى الرقة: «لن أكلمك أبدًا عن صحتي، فهذا أقل ما يعنيني، وأنا قلما وجدت الوقت لأفكِر في نفسي، لفرط تفكيري بك. أؤكد لك يا حبيبي، أني لو ارتبتُ بحناني، لاغتبطتُ بدائي، أجل يا صغيري الحبيب، فالحياة ستغدو عبئًا علي لولا الأمل العذب في أن أكون محبوبة من أغلى حبيب في الدنيا».

إنها راغبة أيضًا في ارتكاب حماقة أخرى لكي تراه، لكنها تخمن أنه سيرفض المخاطرة المحتملة. فها هي بارعة وجسورة، أما هو فأكثر حذرًا: «لا تحرمني من هذه النعمة، يا عزيزي أرويه، فأنا أسألك ذلك باسم الأكثر رقة؛ أي باسم الحب الذي أكن لك. وداعًا يا ولدي المعبود، أحبك حتى العبادة وأقسم لك أن حبي سوف يدوم ما دمت حية».

ليس لتلك النبرات أن تخدع؛ فهي ليست ذات أسلوب. إنه كلام امرأة عاشقة حتى شغاف القلب. أما تلك الحاجة الأمومية لحماية «هذا الطفل الغالي»، و«هذا الولد المعبود»، فيجعلها تتميز بحرارة ما كان أرويه الحبيب ليشعر بها.

سافر، فكتب لها «من داخل يخت». إنه كسير القلب ويعاني دوار البحر. ويعد بإقناع والده «ما لم يكونوا قد أعلموه مسبقًا». إنه الحب الأول والأكبر في حياة أرويه ويتميز إذًا بشيئين: الملاطفات والحذر. فيخلص إلى القول: «صليني بعواطفك على قدر ما أستحق ولسوف تحبينني طوال عمرك». وهو لا يتحدث بطريقة مغايرة إلا إلى دوقاته اللواتي سوف يلتقيهن. أما عند وصوله إلى باريس، مضى ليرتمي بين ذراعي الأب تورنمين. قد تقولون ما هذه الفكرة العجيبة؟ إلا أنه

وضع خطته. فكتب ثلاث رسائل إلى ذلك الكاهن الطيب ليأتمنه على سوء طالعه، وعلى آماله. وهي تدعو إلى الإقناع على نحو ما سنرى. أوَليست أولمب نفسًا تستوجب الإنقاذ؟ أوَليست العناية الإلهية هي التي أوقدت الحب في قلب أرويه لتلك الزنديقة لتعيدها إلى حضن الكنيسة؟ إن من لا يدعم هذا الحب الموحى به من العناية الإلهية إنما يعرقل إذًا حسن سير النعمة. حسب المرء أن يتفكر في الأمر. وقد باشر الأب الطيب العمل لتلك القضية الصالحة.

أحاط فرانسوا بمبيت علمًا بكل ما يقوم به: رجاها أن تكتب إلى والدها النقيب، وأن تعلن أنها عازمة على العودة إلى حضن الكنيسة، وأن تكتب إلى قريب لها هو أسقف إيفرو، وأن تتوسل إليه أيضًا. ويوصيها قائلًا: «لا تنسي خصوصًا أن تخاطبيه بقولك: يا صاحب السيادة»؛ فالذي يتعامل مع هؤلاء البروتستانت، لا يستطيع أن يتنبأ بما ستؤول إليه الأمور. فمن كان يخطر في باله ذلك كله؟ أن يعمل أرويه، وهو دعامة المعبد، على العودة بنعجة ضالة، هي المسكينة بمبيت، إلى حظيرة الكنيسة؟ أما في حقيقة الأمر فليست تلك بحظيرة الكنيسة، إنْ هي إلا حظيرة أرويه.

أهي وقاحة؟ أم تهور؟ جميع ذلك ولا شيء من ذلك؛ إنه واحد من تلك التناقضات التي ستعمر دربه الطويل. يُقال إنها لا تقبل التفسير، لكن ليس الأمر كذلك. إنها الرغبة الملحة في التملك، إنها تلك الفطرة المزعجة التي تدفع به إلى أن يحوز بأي طريقة كانت ما هو راغب فيه، لكن على الفور. وليكن ما يكون بشأن الدين، وشأن بمبيت، وشأن إيمان الكاهن تورنمين، بل ليكنْ ما يكون بشأن راحته الشخصية، وحتى سمعته. أما بعد انتهاء كل شيء، فسوف يُعمِل تفكيره في الأمر. لكن لا فائدة تُرتجى في ذلك، لأنه سوف يشد الركاب من فوره ميممًا وجهه شطر قضية مماثلة لأنها في الأغلب أسوأ. إن أرويه غير قابل للإصلاح. أما في هذه المرة فباغتته الصاعقة قبل أن يُتم مساعيه. وكانت في شكل رسالة وجهها السفير شاتونوف إلى السيد أرويه. لقد بلغ الغضب بالكاتب بالعدل مبلغًا من العنف جعل بعض الأصدقاء يخفّون إلى التواري بفرانسوا عن الأنظار، إذ كان أبوه قمينًا بقتله. وطلب مع ذلك استصدار أمر ملكي بتوقيف ابنه، أو بنفيه. كان يتمنى أن يراه في غياهب السجن أو على ظهر سفينة تُبْحِر به إلى الجُزُر النائية. وكانت الجُزُر تعني الاختفاء النهائي. في تلك الأثناء واصل فرانسوا التوسل إلى بمبيت كي تأتي إلى

باريس، فقد عثر لها على مأوى في دير للفتيات المهتديات، حيث سيختطفها من هناك في أول مناسبة، ومن أجل كبر سعدها: «إذا ما كنت على جانب من قسوة القلب حتى الإصرار على البقاء في هولندا، فأعدك بكل تأكيد بأني سوف أقتل نفسي لدى وصول أول خبر بذلك». ها نحن في قلب قصص الحب والبطولة والخيال، وهذا هو فيرتر[15] قبل الأوان. أما في حقيقة الأمر فنحن حيال إحدى التماعات الأسلوب الكتابي: إننا حيال خشبة المسرح ننتظر حل العقدة. ونحن نقارب التراجيديا - لكن من بعيد - لأنه يؤدي في الوقت نفسه تمثيلية كوميدية أمام والده. إن أرويه يجسد حسن آداب السلوك وحسن المعشر الاجتماعي. ولا بد له في سبيل أن ينجح في المجتمع على ما هو عليه، من أن يمثل. واسمه لما يظهر في ذلك الوقت، على لوح مسرح العالم الكبير؛ إذ إنه يواصل تدريبه. إن ابن الكاتب الملكي بالعدل المبجل، بدأ يجعل الناس يتكلمون عليه - وليس بالخير دومًا - إنما المسألة الأساس أنهم باتوا يعرفونه.

أدى إذًا، أمام والده، دور الابن الضال والتائب. فهو يتوسل إليه أن يسمح له بالركوع أمامه وتقبيل قدميه، من قبل أن يتوارى إلى الأبد في مفاوز العالم الجديد. الشاب المتوقد والأثير لدى الدوقات في تلك المفاوز! إن الصورة لتجعل المرء يُغرق في الضحك. وباختصار فاللقاء جرى. والسيناريو معروف مثلما هي اللوحة: إنه غروز[16] قبل الأوان. ومنح رب الأسرة عفوه مشفوعًا بشرط واحد: لن يمضي فرانسوا ليلفظ أنفاسه محترقًا في المفاوز، بل سيتوجه ليتعفن في مكتب كاتب بالعدل باريسي. فقبل لكي يبقى في باريس، ويواصل مراسلة بمبيت، وينظم أشعارًا، ولكي يلتقي مجددًا أترابه وأصدقاءه. والحال أن أترابه يقيمون في القصور وفي القلاع الريفية وفي صالونات باريس، لا في مكان آخر، إلا أن العقاب رهيب. لقد كلفته بمبيت غاليًا! أن يغدو فرانسوا كاتبًا لدى كاتب بالعدل، في هوة مغبرة، حيث تفوح رائحة الورق العفِن، وحيث اللغة موحلة كمثل الحبر النتن في آنية من الصلصال لا تُدعى حتى بالمحابر، وحيث سيدبج كتبًا وطلاسمَ على درجة من السخف والابتذال في أساليبها المرعبة، والموجهة إلى فئة من الزُبن، لا يسع المرء الإمساك بحججها الفارغة والخسيسة إلا بملقط.

---

(15) بطل رواية غوته الشهيرة آلام فيرتر، ويموت فيها منتحرًا. (المترجم)

(16) غروز: فنان فرنسي (1725-1805). من أشهر لوحاته «اللعنة الأبوية». (المترجم)

قَبِل، لكن قراره أن يكون «مغايرًا» لما يرغب قاضي أبيه أن يجعل منه، ما كان قط على تلك الدرجة من العنف. إنه يكره أرويه العجوز، لكنه يُطيعه: لقد ولج المطهر؛ إنه مكتب المعلم ألان، الكاتب الملكي بالعدل، في شارع بافيه سان برنار، قرب أدراج ساحة موبير. والشارع لا يزال قائمًا، جزئيًا في الأقل. كان حيًا موحشًا، فالشمس لا تبلغ أرض الزقاق البتة.

لكن بمبيت كانت تتلوى فوق نار مستعرة في لاهاي، وكان سعيرها أشد من أن يدوم طويلًا. فهي لم تكن ضليعة من الأدب. ورسائل العزيز أرويه لا تمنحها مطلقًا تلك المتعة التي تتحقق لها بوجود «طفلها المعبود». وفيما كان يواصل مساعيه التقية على درب هداية الفتاة، كانت لدى الأم، السيدة دونواييه، مشروعات أخرى. فلاحظت وجود شاب فرنسي، اسمه غويو دو مرفيل، كتوم وحسن المظهر، ففتحت له بابها. وحين رأته بمبيت، فتحت له قلبها. وواصل فرانسوا كتابة رسائل غاية في الرقة، إلى فتاة صارت تقرأها بشيء من العناء، لكن أمها كانت تحتفظ بها. لم تكن على الدوام موضع إطراء فيها. لكن لا بأس: لقد صنعت منها مجموعة بعنوان رسائل تاريخية وغرامية، يزينها اسم فرانسوا أرويه، ولم تُقابَل المجموعة بالإهمال. وذلك ما سعت الأم إليه؛ إنها تريد توريط أرويه الشاب. ونجحت في إذاعة ذلك الصيت المزري الذي كان معروفًا في صفوف البرجوازية والأوساط الدينية. لكن من عساه استاء من ذلك؟ إنه خليفة أرويه الذي فاز بمحاسن بمبيت. فيا للعجب العجاب: احتل مكانه وأضمر له الضغينة. وظل يلاحق الشاعر بحقده سنين عديدة. ولم يلقِ فرانسوا من جانبه لذلك بالًا، لكن ذات يوم وقعت المفاجأة! كان فرانسوا في تلك الأثناء قد صار فولتير، الغني وذا النفوذ، فجاءه غويو دو مرفيل، طالبًا منه المساعدة. فأصم فولتير أذنيه عن توسلاته، مثلما كان فرانسوا أرويه فعل حيال تهجماته.

حين بلغ فرانسوا نبأ فقدانه الحظوة لدى بمبيت، تولاه على الفور غم شديد. ثم أدرك بسرعة أن بمبيت حين تناسته، أدت له خدمة كبرى. فامتلأت نفسه حيالها بالعرفان؛ وليس ذلك من الخيال الروائي بشيء لكنه على جانب كبير من التعقل. فيا لآل أرويه هؤلاء! لم يحمل لها إذًا أي ضغينة، بل كان الواقع خلاف ذلك. وسعى بعد بضع سنين، أي في عام 1721، إلى أن يمد إليها يد المساعدة في شؤونها. وكان يتكلم عليها دومًا بكثير من العطف، موجهًا الإطراء إلى فضائلها،

حين أضحت كونتيسة ونترفيلد. وكانت حياتها كثيبة وكريمة. فيا له من فارق مع بداياتها! وآل بها المطاف إلى غير ما كانت تحسب أمها الحمقاء، لكن زواجها ما كان زواج متعة ولا زواج مصلحة، بل زواج حكمة وفضيلة. لذا فإن أولئك الناس الماكرين الذين يظنون أنهم يعرفون كل شيء، ينسون دومًا أن هنالك أيضًا أناسًا شرفاء.

على ذلك النحو انتهت حكاية بمبيت وفرانسوا الحزينة، لكنها كانت حافلة بالمعنى واكتشفنا شاعرنا فيها عاشقًا على طريقته هو. وهذه البداية في عالم العشق ذات مدلول، فالحب هنا لا يشبه الشغف والغرام. مع ذلك، فإن فولتير مشبوب العاطفة، لكن العواطف الكبرى التي تستهلك حياته هي عواطف المجد والحرية في أشكالها كافة، فتلك هي الأصنام التي تقدَّم إليها الأضاحي. ولها تحديدًا سوف يُهدي حميته وشدته وصموده وقدرته الواسعة على العمل. أما حساسيته المتأججة، فسوف تجعله يرتكب الحماقات ويؤدي الأعمال السامية على حد سواء، وهنالك سوف نتعرف لغة العاطفة المشبوبة، لا القصائد الغزلية الموجهة إلى بمبيت. فهو لن يقاتل من أجل عشيقاته، إلا أنه سوف يشن، في سبيل مجده وفي سبيل الحرية، حربًا على المجتمع كله.

الكتابة بالعدل والشعر وفضيحة جديدة

لا يبدد رجل الفكر وقته تبديدًا تامًا البتة، مهما فعل، ومهما قرأ، ومهما لاحظ. كان أرويه يعاني أشد الضيق في مكتبه لكنه كان يقوم باكتشافات. فالطرائق التي يتعلمها في ميدان شؤون الآخرين، والتي تتصف بالدهاء والمراوغة، سيجعل منها مكسبًا لشؤونه الخاصة. ففي ذلك الميدان أيضًا كان أستاذًا؛ كان واحدًا من آل أرويه، وربما كان يفوق الجميع مهارة. كذلك وقع عند المعلم ألان على كنز، على صديق: إنه تييريو الذي كان مثله كاتبًا عند كاتب بالعدل. ظل وفيًا لتلك الصداقة حتى النهاية. مع ذلك، أراه تييريو، كما يقال، نجوم الظهر. أما في ميدان الصداقة، فأرويه لا غبار عليه. لقد تحمل من أصدقائه الحقيقيين خبث المشاعر والإهانات والسرقات، فكانوا مقدسين: إنهم أصدقاء وسيظلون كذلك. ويكاد ذلك الصبر على الأصدقاء لا يُصدق حين يصدُر عن رجل كانت مشاعره ورهافة أحاسيسه وعصبيته في أقصى تطرفها، حتى إنها لتستجره غالبًا إلى حالات

من الثأر لا تليق به، ولم تكن غير جديرة بعبقريته فحسب، وإنما بسخائه أيضًا. وربما تجعل هذه الكلمة بعضهم يجفل منها. لكننا سوف نكررها كثيرًا على مسار حياته الطويلة، كلما عثرنا على بطلنا متلبسًا بجرم الطيبة والكرم والجود، وحتى السخاء. إلا أن التباين في مزاجه، وسورات غضبه المباغت أساءا إلى سمعته كثيرًا، بيد أن روحه لم تكن مبتذلة البتة.

لا ريب في أن المرء لا يرتبط بصداقة مع أرويه إلا فوق القمم؛ أي عبر ميول فكرية وفنية مشتركة. كان من شأن مفاتن بمبيت كافة أن تبوء بالفشل. إنما حب الشعر هو الذي جعله يكتشف تييريو. فقابليتهما المشتركة لنظم الشعر التي جعلتهما في الوقت نفسه غير قادرَين على المماحكة، وحدت بينهما في المقت الشديد لأعمالهما الشاقة. والأكيد أنه لا مجال للمقارنة بين مواهبهما، ما دام تييريو لا يتمتع بأي موهبة. لكن تييريو يحب الشعر، ولا سيما شعر فرانسوا. وكان يكره مهنته، لكن المستقبل سوف يرينا أنه ما أحب أي مهنة أخرى. فأضحى المؤتمن المخلص على الأسرار، وعلى الرغم من أنهما لم يتجاوزا الثامنة عشرة، فإن نبرة صداقتهما لم تتسم قط برفع الكلفة، وتلك إحدى سمات فرانسوا أرويه، ولا ريب في أنها تميز آل أرويه جميعًا بأنهم كانوا يستهولون ترك الأمور متراخية. فكانا يتخاطبان بصيغة «يا سيد»، ومثلما كانت حال بمبيت، لم يستخدم تييريو في مخاطبته صيغة المفرد «أنت» (بل أنتم). ولسوف يكتب إلى تييريو، بعد مرور عشرين عامًا على تركه مكتب ألان، حيث كانت السيدة ألان تستقبلهما أحيانًا - لكن أي ضيق كان يتولى نديم آل فندوم وريشوليو وسولي! - وذلك يوم ظهور كتابه **معبد الذوق** (*Le Temple du goût*)، قائلًا: «لكن أي وثبة تلك التي قمنا بها، يا سيدي العزيز، من بيت السيدة ألان، إلى معبد الذوق. المؤكد أن السيدة ألان ما كانت ترتاب بوجود مثل ذلك المعبد في العالم».

ما كانت البرجوازية الطيبة تلقي للأمر بالًا؛ فهي معنية بسعر السكر والشموع أكثر من سواه بكثير. لذا ما كان مساعِدا زوجها يقيمان أي اعتبار لها ولا لأمثالها.

يتساءل فرانسوا، فيما هو يُمضي الدقائق يُخربش وثائق العقود، إن كانت القصيدة الغنائية للعذراء التي وضعها تحت اختيار الأكاديمية سوف تُتَوج بالنجاح، فهو يعقد عليها كثيرًا من الآمال. بيد أن ج. ب. روسو كان حذّره بكل

تعقل من عدم الإفراط في انتظار كثير من باطل الجوائز الأدبية؛ إذ كتب إليه يقول: «لم نشهد واحدًا من أمثال كورناي أو راسين أو ديبريو قد انصرف إلى الكتابة يومًا لنيل الجوائز. فكانوا يخشون كثيرًا من الإساءة إلى شهرتهم. وكانوا يعرفون حق المعرفة أن أسوأ الأعمال لها حق الأمل في نيل جوائز الأكاديمية...».

ليس ذلك لائقًا بحق لجنة التحكيم، لكن الحذر واجب. ويا للأسف! لم يفز أرويه بالجائزة، بل الأب دوجاري هو الذي نالها. وأصيب شاعرنا المستجد، إثر ذلك، بجرح مميت يفوق كثيرًا ما ناله من خيانة بمبيت التي كان عازمًا على الموت من أجلها، أما الآن فهو يريد الموت للشاعر العجوز. وثارت ثائرته، مع أن الكاهن المسكين لم يكن مذنبًا، إذ كتب قصيدته وهو صافي السريرة، إلا أن أرويه عازم على الانتقام: «هو واحد من هؤلاء الشعراء الممتهِنين الذين يصادفهم المرء أينما كان والذين لا يرغب في أن يراهم في أي مكان. وهو طفيلي، يسدد ثمن نصيبه من وجبة طعام لذيذ بأبيات شعر رديئة». أما مخالبه ككاتب رسائل هجاء، فأنشَبها في ظهر الكاهن العجوز: «من العدل تكريم من تقدمت بهم السن هكذا». وأُرهِق الشقي، ولا سيما بفعل تصحيح من أرويه الذي عثر على هذا البيت في القصيدة الفائزة:

«ومن الأقطاب المُلتهبة حتى الأقطابِ المتجمدة».

أجاد التلاعب بالكلام حين سأل الشاعر المذموم عن مكان الأقطاب الملتهبة.

وها هو ذا على نحو ما سيصير إليه: سيتميز بروح المعارضة، ويقف حجر عثرة، ويثور غاضبًا يخدش بمخالبه ويعض بأنيابه.

لم يكن ذلك كافيًا، فنشر في عام 1714 قصيدة هجاء، بل قصيدة ثأرية عنوانها: المستنقع (*Le Bourbier*)، أسقط فيها جميع الناس الذين يكرههم. فتجلت فيها الحمية، وعنف الطابع والأسلوب الأشد التماعًا. وحققت نجاحًا باهرًا؛ أي شكلت فضيحة. إنها الفضيحة الأدبية الأولى في حياته، ولسوف نشهد فضائح أخرى كثيرة، لكن الآلية أُفلِتت من عقالها، ولسوف يؤدي الدور حتى... حتى النسمة الأخيرة من صدر الشاعر.

عاد عليه مستنقعه بشعاع من مجد، لكن نجاحه ما كان جديرًا بتقدير كبير. إنها بداية الشهرة، في أي حال؛ أي أكثر ما يهوى في الدنيا. وهدأت سورة الغضب، وصحا من نشوة النجاح، فشرع يفكر. «اتخذت القرار بعدم السقوط البتة في هذا النوع المزري من الكتابة».

لكن فات الأوان! والقرار لا طائل وراءه: فلسوف يظل يسقط في هذا النمط طوال حياته، فيستخلص التأثيرات الخارقة مما لم يشاهَد له مثيل البتة، ويتعرض لأسوأ المنغصات، لكنها منغصات صاخبة ومتألقة تجعله مريضًا خوفًا وغيظًا، وقد تمنحه أشد اللذات شهوانية، ألا وهي لذات الكبرياء. وثارت عليه ثائرة السيد أرويه مجددًا. فما فعل فرانسوا لتهدئة غضب أبيه؟ وضع موضع التداول، في عام 1714، قصيدة جديدة لم يكن من شأن موضوعها الوعر أن يروق الكاتب بالعدل. والعنوان وحده يكفي: ضد جيتون[17]. لكن فليطمئن بالنا، فليست على شيء من البذاءة؛ إذ لم يكن تحت قلمه أو في كلماته ولا حتى في سلوكه من بذاءة أو أمور شائنة أو سوقية قط، ولا حتى ما ينم عن مظهر مَرَضي. والقصيدة مهداة إلى الآنسة لوكوفرور، لأنهما سخرا معًا من أمثال جيتون في أوساط المدينة؛ فهو يتولى الدفاع عن محاسن آداب السلوك، من غير أن يكون غير متساهل حيال الآخرين. ولم يكن فيها ما يسوء الذوق، لكن فيها أكثر من إيماءة تسيء إلى الأخلاق؛ وهي ليست أكثر من تُرهة في نهاية المطاف. وكتب من ناحية أخرى قائلًا باطمئنان: «أفضل رؤية انحطاط الأخلاق العامة على انحطاط الذوق».

عزم أبوه هذه المرة على حسم المعضلة، وكان مستعدًا للأمر بحبسه، لولا أنْ تولى تهدئته صديق قديم. والمقصود بالصديق هو السيد دو كومارتان الذي طلب إلى السيد أرويه أن يأتمنه على ابنه. وكان الكاتب بالعدل مستعدًا أن يوكل به الشيطان! فكانت سعادته غامرة في تخلصه منه بوساطة ذلك الرجل النزيه الذي اصطحب فرانسوا إلى قصره الريفي، في سانت أنج، قرب فونتينبلو. قبل فرانسوا بالإقامة في ذلك القصر، وقبل أيضًا بالوسط الاجتماعي

(17) جان دو لا برويير (1645-1696) كاتب فرنسي، انتقد عيوب عصره في كتاب **الطبائع**. وشخصية جيتون (Giton) تمثل الغني، المستهتر بأشكال اللباقة وآداب السلوك كافة في المجتمع، ظنًا منه أن ثروته تبرر له تلك المساوئ كلها. (المترجم)

لذلك السيد العجوز الذي دخل العقد الثامن من عمره، والذي كان في القرن السابع عشر مستشار دولة، ووكيلًا للمالية، وكان أديبًا وفاضلًا وموسرًا جدًا. وقال عنه سان سيمون الذي يعرفه حق المعرفة، إنه محيط بكل شيء يتعلق بالبلاط الملكي السابق، في مجالات التاريخ والسلالات والسياسة والكشوف التاريخية. فذاكرته تتيح له أن يتلو عن ظهر قلب صفحات بحالها من كتب قرأها قبل ثلاثين عامًا، وكذلك أحاديث مازاران وكولبير ولوفوا والملك والأمراء وذوي الحظوة في العهد العظيم (عهد لويس الرابع عشر). ويقول سان سيمون: «كان متمكنًا من الإحاطة بالمجتمع الراقي، ويتمتع بذكاء كبير، وكان رجلًا مفضالًا وفي منتهى النزاهة». في أثناء ذلك الاعتزال الذي سيتيح للرأي العام وللسيد أرويه تقبل القصيدة الفاضحة، كان السيد دو كومارتان يروي قصة حياته؛ أي تاريخ فرساي، من بداية العهد وحتى عام 1700. وكان ذلك السيد يجيد فن السرد حتى أبقى على فرانسوا تحت تأثيره السحري. فأعاد ذلك السيد الطيب إحياء العهد الكبير، مستذكرًا في آن المسرح الذائع الصيت و«الوحوش المقدسة» لتلك الأوبرا الأسطورية، وذلك العرض المسرحي الكبير الذي قُدم أمام أوروبا المبهورة بالتراجيديات وعروض الباليه ومسرحيات الميلودراما. وكشف له السيد دو كومارتان عما في الكواليس وعن آلياتها، وعرّفه إلى الملك العظيم الذي كان في تلك الأثناء يلفظ أنفاسه الأخيرة في فرساي، وإلى الأمراء والماريشالات. وأراه وزراءَ العصر وعباقرته، كما أراه مهرجيه وراقصاته، إضافةً إلى خلية اليعاسيب والزنابير وحتى الفراشات العابرة، فكان ذلك كله يتلألأ. عندئذٍ تراءى للشاب أرويه كتابه المقبل: عصر لويس الرابع عشر. فدوّن الملاحظات، وحلم بالكتاب: إن إحدى الروائع باتت في الحاضنة فاستودع الحاضنة في إحدى ثنايا دماغه المنظم تنظيمًا رائعًا يماثل محفوظات الكاتب بالعدل أرويه، سواء أأرضاه ذلك أم لم يرضه! أما من بعد، فإن ذلك الإطراء المدهش للعصر الكبير سوف يبهر العالم، إذ صممه أرويه في فكره وهو في العشرين من عمره، في فترة منفاه في سانت أنج، في غضون أسابيع قليلة من العزلة والتأمل.

تلك كانت الحال التي انقضت عليها فترة الإجازة الإلزامية لذلك الشاب المشاغب. حسْب المرء أن يحالفه الحظ في الالتقاء بالسيد دو كومارتان، وأن تروقه طريقة عيش سيد كبير، وأن يستعذب حسن السرد عن العصر الكبير، وأن يتمتع بفكر فولتير مخزونًا احتياطيًا، ليصمم في فكره مؤلفًا يُعَد من الروائع.

«يحمل كومارتان في دماغه
قصة عصره الحية
كومارتان متجدد دومًا
وصوته يشنف أذني».

تقود المتعة المرء أينما كان، إذا ما اختار مباهجه، وكان يُدعى فولتير. وصمم في فكره أيضًا قصيدته الملحمية: لا هنرياد.

لم يتأخر أكثر من ذلك في سانت أنج؛ فقام بجني ثمارها. كان يرغب في أن يُهدي قصيدته إلى أدريين لوكوفرور، وهي الممثلة الشهيرة التي ما انفك يغازلها بانتظام، في المسرح الوطني الفرنسي. وغالبًا ما نصادفه في الكواليس وفي المقصورات، فهو تشرّب الشغف بالمسرح والممثلين... أوَليس هو واحدًا منهم؟ وسعى إلى تقديم مسرحيته أوديب هناك. فكتابة المسرحية شيء حسن، أما جعلها مقبولة ومعروفة تُقابل بالتصفيق، فشيء آخر. وكان فرانسوا أرويه موهوبًا في الجانب الثاني على قدر موهبته في الجانب الأول. فكنت تراه يرفرف كالفراشة بين المقصورات يساير الحاضرين ويعابثهم، ويذم الغائبين والخصوم. وهو النشيط دائمًا، والمتألق واللبق، فيشغل حيزًا بكشاكش كمّيه، وبقبعته وسيفه القصير الذي يرفع طرف قفطانه. فيدور في المكان ويخف متنقلًا إلى آخر: فهو هنا وهو هناك، يرى كل شيء، ويتحدث إلى الجميع، ويكلمهم على مسرحيته أوديب، فيحدثهم عنها بتوقد. إنه مقتنع بأنه لم يُكتَبْ للمسرح قط - منذ راسين - عملٌ على مثل تلك الدرجة من السمو. كان راسين ربًا، لكنه في السماء. أما على الأرض فهنالك فرانسوا أرويه، الذي هو تجسيد لرب التراجيديا. «ماذا، هل أنتم في شك من ذلك؟ لا بأس، قدموا مسرحيتي أوديب، ولسوف تقتنعون، كما أن الأرض كلها سوف تصفق لكم». وإن أكثر ما كان يفتقر إليه هو الخجل. لكنه كان في غنى تام عنه. ولم يكن هذا مما يسوء في ذلك الوسط. ثم أحب ممثلة مسرحية، هي الآنسة دوكلو، فلشدة ما أطراها وقع في هواها. وباح لها بهواه، فوجد لديها أذنًا صاغية، فالزهرة توشك أن تتفتح. ألا أن الأوان قد فات! فالكونت دوزيس مر كعصفة ريح فقطف الآنسة دوكلو ومضى بها. وظل فرانسوا في حالة من الذهول. فالسادة الكبار يتميزون بذلك النوع من التصرفات! أما وقد انقشع الغم، فكتب يقول: «تتناول المرأة دوكلو كل صباح بضع جرعات

من منقوع نبات السنا والأكاسيا، أما في المساء، فالكثير من الكونت دوزيس». واقتصر ثأرُه كله على ذلك.

فيا لأرويه من مسكين! إنه يمضي بخطًى وئيدة: فالأكاديمية أصمت أذنيها عن سماع قصيدته الغنائية، والمسرح الوطني أغمض عينيه فتعامى عن مسرحية أوديب، مثلما صار أوديب في زمانه أعمى.

في عام 1715 هذا، توفي الملك؛ فظهر نهر الانحلال الخفي الذي كان يجري في السر – في ما يشبه السر – ليتدفق تدفقًا مباغتًا في العلن، وسط المجتمع. فالإلحاد منتشر في كل مكان، والأخلاق تراخت دفعة واحدة، أي إن الناس باتوا يفعلون علانيةً من دون رياء ما كانوا يرتكبون في الخفاء. ومن المسلّم به أن يكون المثل المضروب آتيًا من فوق.

كان الوصي على العرش، فيليب دورليان، صديقًا لرئيس دير فندوم. فحرص منذ البداية على استدعائه، ليرد إليه المعبد ويعود به إلى مجتمعه. وقال سان سيمون عن الأباتي إنه «لم يبتْ ليلة منذ أربعين عامًا إلا مخمورًا وإنه لم يكف عن معاشرة عشيقاته علنًا وعن التفوه بكلام الكفر والجحود».

أربعون عامًا من الفسق والتفلُّت! إن حفيد غابرييل وبيارنيه كان ذا تربية متينة الأسس.

عادت حفلات العشاء لتُستأنف في قصر فنسين، على نحو ما كانت وأكثر. ولئن ما عاد للأب دو شاتونوف من وجود، فإن الرئيس هينو حل محله. ولأرويه مكانه الدائم على المائدة. وإذا لم تكن معرفته بدوق أورليان جيدة، فهو يقول إن الوصي على العرش كلمه عنه بإطراء. وذلك مؤكد نظرًا إلى المرددين مع الشاب أرويه:

«أعرف أنك نلت الشرف،
وذلك ما قال لي، بأن تشارك
رئيس دير محبوب، ضروب تفلّته،
وأغانيه التي تتألق جمالًا».

كان فرانسوا يتولى الوعظ بأبيقورية الأباتي ذاك، فيردد حِكَمَه، ويجَملها إذا ما اقتضى الأمر، ويسبغ بذكائه مظهرًا لاذعًا وجديدًا على أناشيد المجون. إلا أن هشاشة صحته لم تتح له أن يكون سوى تلميذ أفلاطوني في فندوم. فهو يقول القول، لكنه لا يضرب المثل. فحين يتطلب الأمر الانتقال إلى الفعل، على المائدة أو في المخدع: كانت قدراته تتعطل. كان يود لو أنهم يأكلون ويشربون كميات أقل. فيبدي دهشته من أولئك القوم الذين يحتاجون إلى الخمر كي يسكروا: فالكلمات إذًا لا تكفيهم؟ ويعود ذلك إلى هشاشة صحته وإلى ذوقه، إلى ذوقه السليم. فهو يقبل عن طيب خاطر بأن يكون ماجنًا على أن يصير داعرًا، وأن يكون كافرًا، لا سافلًا. وهو يلامس الفسق، لكن وهو يرتدي قفازات. فيقوم توافق على النظرية، بينه وبين ماجني المعبد هؤلاء وبين أرويه، لكنهم يختلفون في التطبيق؛ فهو عصري أكثر، في حين أنهم ماجنون من القرن السابق. إنهم ماجنون أرستقراطيون، في حين أنه «مثقف» قبل الأوان (أي هو «فيلسوف»). فهُم قلما يعبأون بأفكار الآخرين ومعتقداتهم. حسبهم أن يدعهم هؤلاء ينعمون بإقامة احتفالاتهم من غير أن يطلبوا إلى أحد شيئًا، ويشعرون حيال الأتقياء الذين يهاجمونهم في المواعظ بشفقة فَكِهة خالية من العدوانية. ولا يسعون إلى تمزيق الكنيسة، إنهم لا يعبأون بها إلا ضمن الحد الذي يجعلهم، حين يكونون من رجالات الكنيسة، يحصلون منها على دخولهم ومناصبهم من كاهن قانوني ورئيس دير وراعي أبرشية وأسقف. في حين أن أرويه داعية؛ فهو يريد حمل إلحاده إلى الساحة العامة، ليجعل منه مهنة له، فيبني مجده عليه. هو يريد أن يصير مُرسَل الإلحاد. وليس إلحاده صافيًا كما حال الأسياد الكبار الماجنين. فهو ينوي الدخول في مناقشات، لأنه في حاجة إلى تشجيع الإلحاد من حوله. لكن لو أنه قام بشكل علني ومكشوف يعظ مناقضًا العقائد ومهاجمًا الكنيسة، لنظر الأباتي ومن في محيطه إلى سلوكه نظرة ريبة، والأرجح أن يتوجهوا إليه قائلين: «أين تحشر نفسك، وما علاقتك بما يفكر فيه الحمقى؟ تمتع بحريتك ودع الآخرين بأوهامهم ينعمون. فموقفك سيئ جدًا وليس من كبير فارق بينك وبين راهب سوقي يعظ الساذجين بترهاته فيخيفهم من الجحيم...». كان أرويه مرهف الحس جدًا، وتنقصه إلى جانب ذلك ثقة كبيرة بالنفس – فهو لا يزال في العشرين – ليبدو معاديًا للكنيسة في أثناء حفلات العشاء في المعبد. وتتناول الأحاديث الشعر والمسرح. فيقرأ عليهم مسرحية أوديب، فيناقشونه ويوجهون إليه النقد. فيصغي وينقح. فأصدقاؤه لا يُعْرَفون بأخلاقهم الفاضلة، لكنهم يتمتعون

بذوق رفيع. وقد كتب إلى الأباتي قائلًا: «عاد ذلك المساء بكثير من النفع على تراجيديتي. وأعتقد أن كتابتي لعمل عظيم منوطة بتناول العشاء معكم أربع مرات أو خمسًا. كان سقراط يلقي دروسه وهو في السرير، أما أنت فتلقيها وأنت جالس إلى المائدة، ولا ريب في أن ذلك يجعل دروسك أكثر بهجة من دروسه». إنه يتقن فن الإطراء ويجيد قول ما يُثقِل صدره. وهذا واحد من المبادئ التي سوف توجه حياته: ينبغي للمرء أن يتعلم لكن في جو من المرح. فالمعرفة الحزينة معرفة ميتة. والذكاء، في نظر أرويه، فرح.

كان يتردد أيضًا إلى قصر سو الريفي. فيلاقي نجاحًا فيه، كما في غيره، بفضل حسن تصرفاته وعذوبة لسانه. ورجته دوقة مين التي كانت تدير بلاطًا شبه ملكي، أن يقرأ أوديب: وقرأ فأجاد - إنه يقرأ مسرحياته قراءة ممثل - مقتنعًا كل الاقتناع بعبقرية الكاتب! فقوبل بالاستحسان، وقوبل بالنقد. فتمتع بمهارة توجيه الشكر للإطراء، ومهارة الانتفاع بالانتقادات: وهو يبدي كثيرًا من الرضى لتصحيح أخطائه وفقًا لآراء أصحاب السمو الملكي، الأمر الذي يجعل أصحاب السمو يضاعفون مجاملاتهم في إطرائه. وما كان ذلك كله مجرد ألاعيب مجتمع سطحي. فليست السطحية سوى زخرف لذوق راسخ، ومعرفة حقيقية بقواعد الفن وقواعد اللغة، فكان أرويه يعيد كتابة تراجيديته بجدية تامة، على نغمة من التسلية، فيقتطع مشهدًا هنا، ويحذف بيتًا من الشعر أو عبارة هناك، فيسرع سير الحدث. ويعمل دائمًا وأينما كان، ولا سيما حين يبدو عليه أنه يتلهى. فالحياة في القصر إنما هي اجتهاد، وهو اجتهاد ذهبي اللون، ومتلألئ.

باءت الملهاة بالفشل

ليست التراجيديا سوى جانب من موهبته الوليدة؛ ذلك هو جانبه الرسمي، لكن لديه في المقابل نوع من المَلَكة الساخرة واللاذعة التي ارتأت تكريس نفسها في عصر الوصاية هذا، في عالم الأهاجي والمقاطع الشعرية، المغفلة أحيانًا، والمتفلتة أحيانًا أخرى، والافترائية على الوصي وعائلته. فكان الوصي يقرأها حين تكون مرحة وفكهة، ولا يُبالي بما يُقال. ولم يستطع أرويه مقاومة الإغراء في أن يُدلي بدلوه، لكن الوفرة في تلك السخافات حَدَتْ بمفوض الشرطة إلى اعتماد العقوبات.

كانوا يلومون أرويه على بعض المقاطع التي استخدم فيها رشاقة قلمه، ليحيط الباريسيين علمًا بعلاقة الزنى القائمة بين الوصي على العرش وابنته دوقة بيري. والموضوع ذو وزن، حتى وإن كان منظومًا بأبيات من الشعر الرديء. وأقسم فولتير على أن الشعر ليس من نظمه، لكن صديقه سيدفيل قال إنه اطلع عليها حين نظمها أرويه؛ ذلك أن من سمات صديقنا الشاب أنه لا يستطيع إلا أن يقرأ - تحت طابع من السرية - ما يكتب سرًا عن حياة بعض معاصريه المغرقة في السرية. ونعرف إلى أين ينتهي المطاف بتلك الأسرار: إلى الشارع. أما الحجة التي يستخدمها أرويه للدفاع عن نفسه، فسوف تفيده طوال حياته: لا يسع هذه الأبيات أن تكون من نظمي، فهي رديئة جدًا، ويمكن لي أن اتَّهمَ بأي شيء إلا بأنْ أكونَ كاتبًا رديئًا.

ونجح في جعل الشك يحوم حول مؤلف الأنشودة، وعلى ذلك لم يقم مفوض الشرطة بسجنه، لكن صدر الأمر بنفيه إلى تول. وتلقّى أرويه النبأ بصرخة استغاثة: تول! هذا يعني الموت. هل من دوقات في تول؟ وما اللغة التي ينطق بها الناس هناك؟ وأشفق عليه أبوه فأرسل من يتوسط لدى الوصي ليصار إلى استبدال سولي سور لوار بـ تول. فوفقًا لما يقول ذلك الرجل الطيب أرويه: «إن لنا في سولي أقرباء لمراقبته».

لِتذهب القرابة إلى الجحيم! لقد استقر في القصر الريفي عند صديقه الشاب دوق سولي. وسولي هو الذي يعرفه حق المعرفة باسم الفارس دو سولي. وجاءت وفاة أخيه البكر لتمنحه لقب دوق. وكان فرانسوا يألفه في المعبد، فهو ابن شقيقة الكاهن الطائش سيرفيان. وكانوا في سولي يتكلمون لغةً فرنسية راقية. كان فرانسوا يقيم في برج أقام فيه الشاعر شابيل سجينًا قبل قرن من الزمان، لمدة عامين، وظل يسكر فيه لمدة عامين. لكن فرانسوا لن يسكر فيه من الخمر، بل من الصحبة الرقيقة. فالدوق الشاب لم يكن متزوجًا، وكان المحيطون به يعيشون «عرسًا غزليًا دائمًا»، تجري أبهة احتفالاته الريفية في المتنزه العام وعلى ضفاف نهر اللوار، كما كانت مظاهر الشطط فيه ذات انسجام. فالشعر والمسرح وحفلات رقص الباليه هي المبررات الأنيقة لتلك الاحتفالات. وذلك تحديدًا هو الجو المثالي الملائم لفرانسوا أرويه. لقد شادوا مسرحًا، لكن كل مكان كان مسرحًا، حتى الأجمات. وهكذا فأينما وضع أرويه قدمه، خرجت المنصات والدفوف من الأرض، ليضع الجميعَ فوق خشبة المسرح، فتنعقد الحبكات في أثناء العرض، لتتواصل ثم تجد حلًا لها تحت الظلال، أو في المخادع.

ذلك العالم المسحور، هو الذي تولى أرويه وصفه لأصدقائه في المعبد في شوليو، وللأب دو بوسي، وهو ابن دو بوسي رابوتان (العائلة مرتبطة بالمعبد وبسلك رهبان مالطة، وكان العم الأكبر هو رئيس الدير في عام 1640). وكتب إلى بوسي، بوصفه «المحبوب جدًا والطائش جدًا رئيس دير فريغوليه». فيا له من خطاب يتميز بالجد ويتوجه إلى من سيغدو أسقف لوسون مستقبلًا! ويا للتغيير الذي طرأ من حين أن كان ريشوليو المسؤول عن مطرانية لوسون! كان شخصًا رائعًا، والحق يقال، ذلك الأب دو بوسي الذي ما كان يُعرَف عنه سوى عيب واحد: لم يكن يؤمن بالله. ولا يبدو أن أحدًا قد حمل عليه بقسوة من هذا المنطلق.

لكن المعبد تهاوى ركامًا. وظل شوليو في قيد الحياة حتى عام 1720، فتوفي في الحادية والثمانين. كان المركيز دو لا فار قد توفي في عام 1712، والأب سرفيان في عام 1716. كان هذا الأخير متميزًا حتى النهاية، فلفظ أنفاسه في أحد المخادع، ولم يكن ذلك مخدع نينون أو واحدة من أمثالها، بل مخدع راقص في الأوبرا اسمه مارسيل. ومات شوليو المسكين ميتة فرح، فكان وفيًا لعقيدته. ومع أنه أعمى، فقد ظل ينظم أشعارًا - عليها طلب شديد - لكن لا يقرؤها أحد، حتى هو. ويقال إنه ظل يشرب حتى النهاية، فلنصدق حديث الخرافة عنه. مع ذلك، يمكن أن تكون الخرافة صحيحة صحة التاريخ؛ فالآنسة ديلونيه التي كانت تبهج حياة ذلك الماجن العجوز، تقول بنفسها إنها كانت تجد كبير متعة في تلك المباهج التي فاتت مواسمها، وإن شوليو لفظ أنفاسه في أثناء إحدى الجولات. وهكذا تهاوى الركن الأخير من معبد الزندقة.

ظل أرويه، بين إبحار إلى سيتير وآخر، يكتب إلى باريس، ولا سيما إلى الوصي، لكي يبرئ نفسه ويحظى بعطفه. ووصف لأصدقائه مباهج حياته، إلا أنه كان مغمومًا. فما العمل إن نسيته باريس؟ إذ بات يخشى، لفرط ما أطري استمتاعه في منفاه، من أن يصدقوا كلامه. ذلك أن لديه حسادًا ولديه أعداء. وبث هذه الفكرة الرعب في نفسه، فما عاد يقوى على البقاء في سولي؛ ذلك أنه بات يعرف نفسه حق المعرفة فيدوّن بكل دقة إحدى نزعاته الفطرية، فيقول: «لست مهيئًا للإقامة طويلًا في المكان نفسه». ولكَـم كان ذلك القول صحيحًا! فسوف يجوب في حياته المديدة كثيرًا من الطرقات، هنا وهناك، قلِقًا أو مطارَدًا، أو فريسةً

فحسب للشيطان الذي يتلبسه فينكد عليه عيشه. إنه يغير مكان جلوسه عشر مرات في السهرة الواحدة، وسوف يغير مكان إقامته مئة مرة في حياته. فهو يعرف، ولمّا يبلغ العشرين، أن موطنه الحقيقي هو المنفى، أو بالأحرى هو الحركة.

لكن الوصي يعفو دونما ضغينة. ويأتونه بأرويه الذي ينبغي أن يشكره على استدعائه، ليعود بعد أسابيع إلى نظم قصيدة لا تقل تفلّتًا عن الأولى. ويقابلها الوصي بابتسامة... إلا أن المكاتب لا تنسى، وتدوّن. إن أرويه غير قابل للإصلاح.

غادر منزل أبيه، لدى عودته من سولي، واستقر في منزل مفروش، في بانييه فير، في شارع كالاندر. فاستأنف حياته الصاخبة، وكان يرجع ليرتاح منها، إلى السيد كومارتان في سانت أنج. وأمضى هناك فترة الصوم الكبير في عام 1717، وهو في الحادية والعشرين من عمره. ويخبرنا أن في فترة الصوم تلك «لم يكن طعامه يتضمن سمك الرنكة المدخن والبقول»[18]. وكنا مرتابين في ذلك.

كان بقرب السيد كومارتان واحد من أبنائه، هو الأب كومارتان. يهوى آل كومارتان الهذر وإشاعة الأقاويل على المجتمع الراقي، ويجيدون تنميقها بلمسات من المكر والالتزام بالأخلاق. وكان الكاهن، وهو أديب مرموق، قد دخل الأكاديمية قبل السادسة والعشرين من العمر. فهو يعرف كل شيء عن الحاشية وعن المدينة، فنلاحظ أن هذا الثلاثي غاية في الانسجام؛ فكل واحد من الثلاثة قمين بدوره بأسر لب الاثنين الآخرين.

لكن أرويه لديه نقيصة، ولسوف تلازمه. فحين يتكلم، ينساق وراء متعة حلو الكلام، وكان ما يقول من كلام جميل مسيئًا جدًا لغيره، فيعود في بعض الأحيان السوء ويرتد عليه. فبعد عودته من سولي، كان يحمل حقدًا شديدًا على الوصي، حتى لا يسعه الامتناع في أحاديثه عن أن يوجه إليه أكثر السهام شراسة، بل يفعل ذلك بحضور من هم من خاصة الأمير وبطانته، فحقده على الأمير معروف إذًا لدى الجميع.

---

(18) في أيامنا هذه، يصوم الكاثوليك الملتزمون، نهار الجمعة العظيمة فحسب، بامتناعهم عن تناول اللحوم، أما أيام فولتير فالصوم الكبير يدوم خمسين يومًا، وفيه امتناع تام عن المنتوجات الحيوانية كافة (بيض ولبن ولحوم)، فلا يأكلون سوى الأطعمة النباتية والسمك. (المترجم)

في ذلك الوقت تحديدًا، وضعت الشرطة يدها على قصيدة، هي أهجية عنيفة جدًا ضد الوصي، وضد الإدارة، تحمل عنوان: رأيت... (*J'ai vu*) رأيتُ هذا، ورأيت ذاك... التجاوزات كافة، والفضائح كافة، الصحيحة أو المفترضة، تنتهي كلها على النحو الآتي:

«رأيت هذه الشرور ولما أبلغ العشرين».

بما أن اليسوعيين هوجموا في القصيدة، وبما أنها تفوح منها رائحة جانسينية، وبما أن العمر المذكور يوافق عمر فرانسوا أرويه، استُنتج أنه هو كاتب القصيدة الأهجية. إن ما يشبه مؤامرة غير مقصودة قررت مصيره: فأصدقاؤه الذين وجدوا القصيدة رائعة، قالوا، في سبيل إطرائه، إنهم شاهدوه يكتبها، وأعداؤه الذين يريدون القضاء عليه قالوا الشيء نفسه، في حين أن كاتبها الحقيقي المغمور، وقد هاله النجاح الذي لاقته القصيدة، آثر التواري والاختفاء وراء نسبتها إلى أرويه. فالكاتب يدعى لوبران (Lebrun)، وكان قد وضع كلمات أوبرا سخيفة: أبقراط العاشق؛ ولَكَم كان يتمنى أن ينسى الناس قصيدته، وأن يجري عرض أبقراط! لكن الجمهور لم يعبأ كثيرًا بجهالات أبقراط مؤثرًا عليها جهالات الوصي. وقالوا إن أرويه كان خير من شهر بها.

أصيب الوصي هذه المرة بصدمة. وحين التقى أرويه في القصر الملكي، استدعاه فقال له: «يا سيد أرويه، أراهن على أن أجعلك ترى شيئًا لم ترَ مثيلًا له قط».

وهو تهديد يلمح إلى جميع ما جاء في القصيدة.

- وما هو يا سيدي؟

- الباستيل!

- آه، يا سيدي! اعتبِرْ أني رأيته.

لكن ذلك الرد لم يعفه من رؤية ما وعدوا بأن يجعلوه يراه. وها هي الدعوة التي جاءه بها مفوض الشرطة صباح يوم 16 أيار/ مايو 1717، وكانت دعوة جافة:

«يأمر صاحب الجلالة الملكية بتوقيف السيد أرويه واقتياده إلى الباستيل».

فيليب

وسوف يقول:

«عشرون غرابًا متعطشًا للسلب والنهب

مسوخ جشعة أنبتها الجحيم»

وذلك في معرض وصف توقيفه، واختيارهم ذلك الصباح الجميل من عيد العنصرة، لإلقاء القبض عليه. وهو في ذلك يزهو، فتوقيفه كان أكثر تواضعًا. كان اثنان من مساعدي القاضي كافيين. فهو سلس الاقتياد على الرغم من أنه صرخ في بداية الأمر. لكن الضابط قال له بكل تهذيب، وهو يشير إلى المساعدين اللذين ينتظرانه في الشارع، قرب العربة الزنزانة، إن العصا التي يتوكأ عليها كل واحد منهما ليست معدة للناس الذين تلقوا تربية حسنة، والذين يطيعون أوامر الملك، بل أُعِدت للآخرين. وكان فرانسوا عاقلًا: فقال لنا بأسلوب ماروتي[19]:

«ينبغي الرحيل. اقتادوني بعد قليل

في عربة مغلقة نحو الخلوة الملكية

التي شاهدها آباؤنا تُشاد قرب سان بول

على يد شارل الخامس. يا أهل الخير، يا إخوتي،

وقاكم الله شر مسكن مماثل.

بلغت أخيرًا منزلي

وجاءني فلاح بطريقة لطيفة

ليطري لي محاسن مأواه الجديد....

هذه جُدُر سمكها ستة أقدام

وسوف تنعم قربها ببرودة منعشة

ثم دعاني إلى تأمل السور

فله ثلاثة أبواب لها ثلاثة أقفال....».

(19) نسبة إلى كليمان مارو (Clément Marot) (1496-1544)، وهو شاعر فرنسي امتاز شعره الكلاسيكي بالرقة والعذوبة، فغدا مضربًا للأمثال. (المترجم)

لم تظهر هذه النبرة الفكهة إلا في ما بعد. أما فور التوقيف والاعتقال فكان فرانسوا المسكين مسحوقًا.

«ها أنذا في مكان النكبة هذا
نزيل الباستيل، لاجئًا في مكان ضيق
لا يغمض لي جفن، شرابي ساخن وطعامي بارد
وقد غدر بي الجميع حتى عشيقتي».

ها هو أولًا يكيل التهم للسيد دارجنسون جزافًا. فهذا الأخير نفذ أمرًا ملكيًا. وهو والد رفيقيه في مدرسة لوي لو غران، وشقيق زوجة السيد دو كومارتان. فليس لدى فرانسوا ما يخشى من هذا الجانب. وسوف نراه يثوب إلى رشده عما قريب لينظم قصيدة فريدة في إطراء الشرطة (شرطة لويس الرابع عشر)، وتبجيل السيد دارجنسون. فمصيبته نجمت عن الأقوال التي تفوه بها. فحين يقول إن الجميع غدر به، حتى عشيقته، فما عساه ومن عساه يقصد؟ هنالك نوعان من الغدر في حاله: غدر المجتمع وغدر العشق.

كيف غدر به المجتمع؟ يقول لنا إنه اعتُقِل بسبب قصيدة «رأيت»، لكنه لا يقول الحقيقة كلها، بل يقول جزءًا ضئيلًا منها، وهي جديرة بأن تُعرَف كاملة، من أجل أن نعرفه هو بالكامل، إن كان ذلك ممكنًا. فمذ دارت حوله الظنون أنه كاتب القصيدة، والشرطة في شك. انتظرتْ عامين، لكن ظهرت في تلك الأثناء قصيدة جديدة، أشد خبثًا أيضًا: *Puero Regnante*، وفيها هجوم مسموم على الوصي. أما موضوعها فهو: بينما الملك لا يزال صغيرًا، فهم يختلسون ويفسقون... وجاء تقرير من الشرطة يتهم أرويه بالتفوه علنًا متبجحًا بأنه «كتب أشعارًا هجائية تتناول الوصي وابنته الآنسة دوقة بيري. ومن جملة ما كتب، مسرحية شعرية باسم *Puero Regnante*...» واتُّهِم كذلك بأنه قال «إنه لا يستطيع الثأر من الوصي بطريقة ما، لكنه لن يوفره في هجائياته». وعلى ذلك سأله أحدهم عم فعل الوصي بحقه، فنهض غاضبًا كالمسعور وأجابه: «وكأنك لا تدري ما فعل بي هذا الـ...؟ نفاني لأني جعلت الجمهور يرى أن «ميسالينا» تلك (المقصودة ابنته) إنما هيَ ز...».

التوقيع: دارجنسون.

كاتب المحكمة: ديشان. المفوض: إيزابو. كاتب المحضر: بازان.

إن المفوض إيزابو هذا وكاتب المحضر هما اللذان قاما بتوقيفه. فمن عساه يكون ذلك الـ «أحدهم» الذي سأله عم فعل الوصي بحقه؟ إنه واشٍ، كان فرانسوا قد جعل منه بيت سره. كان ذلك الشخص التعيس، الحسن الهيئة، نقيًا مزهوًا اسمه بوروغار. وكان فرانسوا، بطبعه النزق، يرتمي في أحضان أول قادم شرط أن يكون لبقًا في تصرفاته ويتمتع بطلاوة الحديث، يصغي إليه فيفتنه فيُفتتن به. وليس أسهل من دفع فرانسوا إلى البوح بأسراره: كان ألَقُ العبارة يحوّل انتباهه عما يمكن أن تمثل من خطر. والتقى بوروغار هذا أرويه في أحد المقاهي. لا ريب في أنه كان يراقبه خلسة، فاستقبله فرانسوا في بيته. ولمَ لا؟ إنه ضابط حقًا، وعسكري مقدام: حدثه عن حملاته العسكرية، وعندما يتصنع فرانسوا التواضع، كان الآخر يجيد تحريضه فيقوم فرانسوا بإفراغ جرابه. ويقول له الجاسوس: «إن الجمهور ينسب إليك هذه القصيدة أو تلك...» فيقول فرانسوا: «إطلاقًا، فهل تعتقد أني أكتب مثل تلك الأشياء البائسة؟» «لكنهم يقولون إن رائعة «رأيت» كفيلة بصنع مجد لشاعر مثل ج. ب. روسو». فيهتف قائلًا: «إيه! هذه من نظمي أنا. فقد كتبتها في بيت السيد دو كومارتان في الريف، وسوف أريك مخطوطها».

أهو أحمق؟ يزهو فينسب إلى نفسه أبياتًا ليست له؛ لأن الجاسوس قال له إنها رائعة؟

ثم يضيف قائلًا: «وبما أني لا أستطيع الثأر بطريقة أخرى من صاحب السيادة دوق أورليان، فإني ألجأ إلى هذه».

- وماذا فعل بحقك؟

فينهض غاضبًا كالمسعور ...إلخ، ونعرف الباقي.

هكذا جاء تقرير بوروغار، متضمنًا الوقائع نفسها، والتعابير التي جاءت في تقرير مفوض الشرطة دارجنسون. والشك في دور بوروغار لا يتجاوز الشك في سذاجة الهجّاء الشاب وغروره. وهنالك سمة أخرى في طبعه: إنه حقود. كان لديه ألف سبب وسبب كي لا يحمل في نفسه غلًا على الوصي: لقد كانا مهيئين في واقع الأمر للتفاهم في ما بينهما، ولم يكن في نفس الوصي أي ضغينة. وهو لم يقم بنفي الشاعر إلا بعد أن أثار سخطه. لكن فرانسوا واظب على شن حملاته

الهجومية، منذ عودته من منفاه. وليس المراد هنا المطالبة بمحاسبة حكومة الوصي، بل المقصود شن هجمات شخصية، فلا مناص من التمييز بين الحالين.

ذات يوم التقى بوروغار - وذلك كله مدوَّن في تقاريره المفصلة - في منزل أرويه صديقه السيد دارجنتال. ومن غير أن ينبس الجاسوس ببنت شفة، استل من جيبه نسخة من *Puero Regnante*...، فخف أرويه مندفعًا صوب المقطع الذي سيتسبب في شقائه صائحًا: «أما هذه فلم أكتبها في بيت كومارتان، وإنما قبل أن أسافر بزمان طويل...».

فوشى بنفسه قبل أن يكلف الآخر نفسه طرح أسئلة عليه! لكن السيد لويال بوروغار قام بما هو أفضل أيضًا، فسأله:

«كيف تؤكد أن هذه القصيدة لك، في حين بلغني من مصدر موثوق أنها لأستاذ يسوعي».

أجابه أرويه مغتاظًا: «إن اليسوعيين أشبه بطائر الزرياب الذي يتزيا بريش الطاووس في حكاية لافونتين، وإن قصيدة *Puero* من تأليفه هو وفي وسعه أن يريه المخطوط. ثم انفلت بكلام سليط ومقذع بحق بنت الوصي، قائلًا إنها ستضع ولدًا عما قريب حملت به من أبيها، وزاد فدل على المنزل في أوتوي، حيث تجري الاستعدادات لاستقبالها كي تلد سرًا. وأضاف الجاسوس الشريف، بعد أن نزع عن وجهه القناع، إن أرويه أضاف أشياء كثيرة «لا يسع الورق أن يتحمل مضمونها!». فيا للحياء المخدوش، أين سيلتجئ؟

نتساءل في نهاية المطاف قائلين: من وشى به؟ لا أحد سواه هو، بغروره الرهيب كاتبًا. إن الغادر معروف. فمن عساها تكون الغادرة؟ وهل وقع حقًا ضحية غدر العشق به مرةً ثانية؟ ومن هي بمبيت الجديدة؟

بسمات العشق وتشنجاته

تدعى الغادرة سوزان دو ليفري: بنيّة فاتنة جاء بها من سولي. فكيف اختطفها؟ ولِمَ لَمْ تنبس العائلة ببنت شفة؟ إن روح عهد الوصاية السائد في الوسط الذي يعيش فيه آل أرويه وآل سولي وشركاؤهم، يفسر تلك السهولة كلها، ويفسر كثيرًا

من الخفة. إنها في حقيقة الأمر دراما رشيقة جدًا، وغراميات فولتير تلك إنما هي غراميات فراشة. إلا أن الغدر موجع على الرغم من ذلك، ويتميز فرانسوا أرويه بطريقة خاصة به وبزمانه في أن يكون غيورًا، أو بالأحرى في ألا يكون كذلك.

كان عم سوزان دو ليفري محاميًا، ومدعيًا عامًا، ووكيلًا لدوقية سولي، وكان آل ليفري يتقلدون تلك المناصب بصفة وراثية. إذًا كانت سوزان تنتمي إلى الدوقية، لكن عبر منفذ آخر: كانت تستخدم حسنها الندي في مباهج القصر ومقاصفه. وهكذا عرفها أرويه، إلا أنه تولى هدايتها في الوقت نفسه إلى فن المسرح وفن الغزليات. فكانا يقومان معًا بالتمثيل بصحبة ممثلين مشهورين وأسياد كبار، إذ إن النبلاء الهواة ما كانوا يزدرون المهنيين المشاهير، وما كان هؤلاء كذلك ليزدروا شركاءهم من علية القوم على الرغم من مهنيتهم الخرقاء. وحب التمثيل المسرحي يمحو الفوارق كافة. وكانت سوزان تتوقد حماسة؛ فأرويه هو الذي يلقنها الدروس. وكانا يعيشان في حميمية رقيقة جدًا، وإيجابية جدًا. وكانا متحابين، فلم يخفيا ذلك البتة وانطلقا معًا إلى باريس. وعلى أرويه أن يتولى توجيهها في مهنة التمثيل المسرحي: فهي تبتغي التمثيل، ولو كان الثمن حياتها. يتجولان في عربة تجوب بهما شوارع باريس، ويشاهَدان ضاحكين رقيقين، يتناولان العشاء في الحانات الريفية.

كان أرويه على درجة من البساطة والبعد عن الغيرة، حتى إنه غالبًا ما كان يشرك في تلك الجولات مع سوزان صديقه جينونفيل، وهو شاب أنيس ووسيم يتوقد ذكاء وأدبًا، ويحتل أبوه منصب رئيس في محكمة بروتانيا العليا. وأبوه يُدعى السيد دو لا فالوير، ففضّل الابن اتخاذ شهرة أمه، الآنسة دو جينونفيل. وكان جينونفيل في مثل سن أرويه، فوقع ما كان ينبغي أن يقع: التهب بمشهد النار التي كان العاشقان يؤججانها أمامه، فلم يخفِ ذلك عن الفتاة اللطيفة. ورأت سوزان - وجينونفيل هو الصديق الكامل الأوصاف لعشيقها - أن من الظلم عدم التعامل مع هذا وذاك بالطريقة عينها. وبناء عليه، جعلت الأسهم متساوية بين هذين الصديقين الفاتنين معًا والعاشقين معًا. ودخل فرانسوا ذات يوم على سوزان ليباغت جينونفيل في سرير صديقته. وعلى الرغم من أن فرانسوا لم يخسر في واقع الأمر شيئًا مما ربح جينونفيل، فإنه خبط الأرض بقدمه، وثارت ثائرته، وأطلق كلمات تنديد بالغدر ونكران الجميل، بل مد يده إلى سيفه القصير

متهدًا... فيا للأسف! وأجهش المذنبان بالبكاء. وأثارت رؤية الدموع شجونه، فبكى أيضًا، وانجرف الثلاثة في سيل عاطفي فلبثوا متعانقين تمتزج دموعهم ويتبادلون أعذب كلمات التوبة والعفو. وتفكروا من بعد، فتساءل فرانسوا هل كان حبه لسوزان سيدوم أطول من صداقته لجينونفيل، فاعترف بأن الجواب هو لا لأسباب عدة؛ فسوزان لا تتمتع بأي موهبة كممثلة. وقد تكون لديها النار، لكن هنالك كثيرًا من الدخان. والحال أن أرويه لا يسعه التمسك طويلًا بدخان الوهم، فسحر سوزان لا يرتكز على الذكاء، ولا على العمل، ولا على الموهبة. وتقول سوزان من ناحيتها لمن يشاء أن يسمعها، ومن غير كبير إعمال للفكر، بل بطريقة ساذجة إن «أرويه عاشق من ثلج». فيدعو قولها إلى الافتراض أنها عثرت في جينونفيل على ما من شأنه تذويب ثلج أرويه. وآل الأمر بجينونفيل، من بعد المصالحة، إلى الاستخفاف بالمغامرة، ما أغاظ فرانسوا الذي تخلى عن سوزان. وواصلت هذه حياتها المهنية المُستحبة، فكان جينونفيل مخلصًا لها بعضَ الوقت. ونسي أرويه كل شيء، باستثناء صداقته لجينونفيل. وتعرض هذه الأبيات لما لبث في نفسه من ضغينة:

«أعرف أن الغدر قد دفع
في ما مضى باللص لأن يمد يده
إلى العشيقة الحسناء
وكنتُ بها مولهًا
فضحك من الخيانة ساخرًا
وكان لثائرتي أن تثور
إنما على المرء أن يضرب صفحًا
عن الترهات في الحياة».

ها قد ثبت لدينا أن سوزان ترهة بالنسبة إلى أرويه الذي ليست أهواؤه مغرقة في الشهوانية، وحالته فيها «ثلج». فلنعرف أين نقف منه كما هو الحال مع الآنسة دو ليفري.

نراه بعيني سوزان في عام 1718، حين رسم لارجيلير صورة له. إنها أجمل

صورة وصلتنا عنه. كان وجهه على درجة من الحركة يصعب معها الإحاطة به. فنراه في حلة من المخمل الأزرق، وهو يبتسم ابتسامة رضًا (عن نفسه، وعن سوزان من دون شك)، ويضع إصبعين من يده اليسرى في سترته، فيبدو خفيف الروح بهيئته اليقظة، وهي هيئة جسور فيها شيء من المكر والخبث في النظرة. إنه في الرابعة والعشرين، إلا أنه غائر الخدين بعض الشيء، لكن خديه سيصيران من بعد إلى أخاديد.

لنصغ إليه وهو يصف نفسه في ذلك العام، 1718: «إن لي مرونة الأنقليس، وحيوية الحرذون، وأعمل دؤوبًا دومًا كالسنجاب». إن دقة سماته تثير الدهشة؛ فما من أحد وصف نفسه والآخرين بصحو فكر وصفاء مثلما فعل. ولئن كان هو وشقًا (أوس) في نظر الجميع، فهو الوحيد الذي يتمتع بذلك النظر الثاقب، من بين أوشاق ذلك العصر كافة، وفيه الكثير منهم، وإنا لنظن أن موليير كان يقصده بقوله:

«أن تكون لك عينان ثاقبتان يعني أنك كافر».

لا ريب في أن المرء الذي يتمتع بتلك النظرة، لا يسعه أن يكون السيدة برنيل ولا أورغون، لا يسعه إلا أن يكون فولتير أو ستاندال. والمرء بتلك النظرة يرى نفسه سمكة «أنقليس». فيا لها من مرونة! إنها تمكن من الانزلاق من بين أرجل رجال الشرطة والمراقبين، للإفلات من النظريات، ومن الأنظمة، ومن الأفكار الجاهزة، ومن أشكال الطغيان كافة، وحتى لو كان الثمن أحيانًا بعض الأشكال اللزجة. الشيء الأساس ألا تكون مرتهنًا لشيء سوى السرور. وهو يعرف نفسه رشيقًا ومتهربًا وزئبقيًا، لكن ليس من دون لطافة، وفيه صفة الحرذون الوجل والخائف من البرد، والفجائي، والرشيق. وتُسمَع نأمة؟ إذًا الهروب. فلا عين رأت ولا أُذن سمعت، والجُحر الحجري قائم في سانت أنج، على سبيل المثال، أو في سو أو سولي أو لاهاي. وعما قريب، سوف يقدم له صاحب الغبطة الوصي على العرش، جحرًا صخريًا في سجن الباستيل. كذلك سيتعرف حرذوننا العزيز إلى جحور أخرى كثيرة. وينتهي برؤية نفسه في صورة «سنجاب»: سيد صغير محبب في ثوب من الفراء، وهو غاية في الرقة والنظافة والنشاط. إنه يقوم بقضم المكتبات، ويخزن في أهرائه من دون كلل. ويبدو كأنه يقدم عرضًا بهلوانيًا بالقفز من السنديانة إلى شجرة الدردار، فيجني آلاف الثمار الثمينة. والقفز من

غصن إلى آخر، من الصالونات في القصور، ومن عند دوقة مين إلى مقر رئيس دير فندوم، ومن مكتب الكاتب بالعدل إلى السفارة. وقفز فوق غصن منخور ليسقط في زنزانة من سجن الباستيل. لكنه يعثر على مؤونته في كل مكان: في الأفكار، والصداقات، والكتب، والطبائع، وعلى المال أيضًا. وهكذا سوف يكون لنفسه رأس مال مذهلًا. فالحياة طويلة... والمجد لا يُكتسَب اكتساب وظيفة، إنما يُكتسَب المجد بالعمل، ومن طريق الثروة أيضًا. وإن رأسًا حسن الشكل يمكن أيضًا أن يكون رأسًا مليئًا، وسنجابنا لا يعرف الكلل، فيؤمن لنفسه، وهو يواصل القفز، أولياء نعمة في العائلات الكبيرة، ومكتبات في القصور، وكمبيالات في العواصم كلها، وشبكة لا تضاهى من الصداقات الدولية. وهو على درجة من المهارة والنشاط تثير القلق أحيانًا، لكنه شخص لا يُنسى بالنسبة إلى مَن عرفه من كثب. إنه بلا نظير.

فرانسوا يخدع المفوض

تركناه صبيحة عيد العنصرة، في 16 أيار/مايو 1716، يمضي في «عربة مغلقة» - «سلة الخس» - متوجهًا نحو الباستيل، بصحبة المفوض إيزابو. وكان فرانسوا في حالة من الغضب المسعور والصامت، لكنه يمسك بالثأر بين يديه من غير أن يدري. فيبدو أن ذلك المفوض، استنادًا إلى تقاريره الأمينة والحكيمة والشديدة الدقة، رجل على درجة عالية من الرصانة ورباطة الجأش. ونظرًا إلى ذلك، قاده سلوكه المهني إلى دروب مقرفة تعافها النفس. ويبدو أنه لو كان يتحلى بذرّة من الفكاهة، لتفادى تلك الواقعة المؤلمة. لكنه لم يكن يعرف أرويه، وظنه واحدًا من أولئك النباحين السوقة، فلم يُعِد للأمر عدته. وما كانت مهمته تقتصر على إلقاء القبض على الشاعر فحسب، بل ووضع اليد أيضًا على جميع الأوراق التي بحوزته. والحال أنه لم يقع منها إلا على كمية ضئيلة. فكان مقتنعًا بأن أرويه أخفاها أو أتلفها، فاستجوبه قائلًا:

- أين أوراقك؟

فرد فرانسوا بخشونة:

- هي كلها على طاولتي.

- لا أصدق شيئًا مما تقول، فلديك أوراق أخرى. أين أخفيتها؟ وفِرْ عليَّ مؤونة تحطيم الأقفال، أين هي؟

حينئذ خطرت ببال فرانسوا فكرة شيطانية، فقال:

- في المراحيض.

وبقي إيزابو حائرًا. ثم رفع إلى رئيسه تقريرًا ليشرح له اختفاء الأوراق. فما العمل؟ فأجابه مدير الشرطة بجفاف: «ابحثوا عنها حيث هي».

أطاع إيزابو الأمر، لكنه لم يكن بالأمر السهل. علينا أن نعرف أن الأشياء كافة كانت منظمة في القرن الثامن عشر، ليس بفعل مراسيم أو قوانين أو لجان، بل بفعل عادات وتقاليد اتخذت قوة القانون. وهكذا، فإن كل شارع في باريس وكل مجموعة من البيوت كان لها مأمور، بل بالأحرى مأمورة؛ إذ كان المنصب نسويًا بامتياز. فلها إذًا مأمورة مسؤولة عن الحفر الصحية. وأنعم الشعب البسيط على تلك الشخصية المبجلة بلقب «سيدة المصلحة الغائطية». أحال المفوض إيزابو القضية إلى السيدة مديرة تلك الأماكن، كي تأتي لتكون عونًا لحاسة الشم عند رجال الشرطة في بحثهم الحساس عن أوراق السيد أرويه. فكتب إيزابو إلى رئيسه، في إثر بحث أولي وبلا طائل: «لم تعثر المعلمة المسؤولة عن الصرف الصحي على أي ورقة، نظرًا إلى أن الحفرة ملأى وطافحة بالمياه». وأوضح أن الخبيرة الجليلة أنزلت شمعة مربوطة بسلك في المسرب. وأنها بانحنائها الشديد على فتحة المسرب، استطاعت أن تكتشف أنه خال من أي أثر لورق، وأنه هو، المفوض إيزابو، يعتبر نفسه ضامنًا للكشف. ويواصل إيزابو القول بمثابرة جديرة بغرض أفضل: «يمكن تلك الأوراق أن تكون فوق الماء الذي يعلو المادة الغليظة. بيد أنكم، يا سيدي، إذا ارتأيتم من الملائم الإيعاز بالبحث، فأنا أقدر أن ذلك لا يمكن أن يتم من غير تفريغ المراحيض تفريغًا تامًا».

المفوض إيزابو

في 21 أيار/ مايو 1717

رد رئيسه الذي لا يعرف الرحمة قائلًا: «واصلوا البحث حتى النهاية!»، فتلكم هي الأعمال التي يمكن الشعراء المهذارين أن يفرضوها على العظماء

الحاكمين، وتلكم هي الأوراق التي يرتكز عليها الهدوء الاجتماعي! ومضى المستشار إيزابو والسيدة الفراغة في مهمتهما حتى النهاية. لكن يبدو أنهما قاما بها بنوعٍ من الغباء، حتى إنهما ثقبا الحفرة القائمة في القبو. وهنا تدخل الاحتفاليةَ مالكةُ البناء بتظلماتها وعرائضها وشكاواها. فهي إلى جانب الجزع من روائح نتنة قاتلة، تظلمت من أن رجال الملك تسببوا لها بخسارة عدد كبير من زجاجات البيرة والنبيذ كانت أودعتها لتوها في القبو، فرَفعت الدعوى إلى الملك وربحتها. وأُرغِم جلالته على التعويض عن الخسائر التي تسببت بها ضربة معول خاطئة في جدار حفرة مراحيض السيد أرويه التي لم يكن فيها سوى ما كانت الشرطة لا تبحث عنه.

حينئذ أدرك إيزابو أن أرويه قد خدعه، فأحاط رئيسه علمًا بذلك. وكتب يقول بالأسلوب الخاص به، إن الشاعر المخادع أعطاه معلومات كاذبة، بدافع «من شراسة فكره للتسبب بمجهودات لا طائل وراءها». وتلك هي العبارة الوحيدة التي بحوزتنا حول خيبة الأمل التي أصيب بها ذلك السيد الطيب إيزابو.

لكن هل كان لخيبة الأمل تلك التي تخيلها فرانسوا، أن تروح عن نفسه مما سينتابه من أحزان غِب اعتقاله؟ وفيما كان إيزابو يتخبط في حفرته، جُرّد أرويه من كل شيء فور وصوله إلى الباستيل. وهذا كشف بمحتويات جيوبه: كان يحمل ست قطع ذهبية بقيمة ثلاثين ليرة للقطعة الواحدة، وأربع قطع من فئة الخمسين فلسًا، وقطعتين من فئة الخمسة والعشرين، وقطعة من فئة العشرة، وثلاثة قروش، ومقربة، ومقص، وموسى صغيرة، ولويحة، وبضع أوراق.

جرى ختم ذلك كله وتسليمه إلى قلم سجن الباستيل.

عانى كثيرًا حالة الحرمان التي وُضع فيها، ولا سيما حرمانه من الأشياء المتعلقة بحسن مظهره وهندامه، فاستغاث طالبًا النجدة فجاؤوه بقائمة أغراض، فيها: «منديلان هنديان: واحد للرأس، والآخر للعنق؛ وقبعة صغيرة، وربطتا عنق، وطاقية للنوم، وخلاصة عطر القرنفل، فضلًا عن مراهم ومستحضرات أخرى كان يدهن بها. لكنه لم ينسَ دهون الفكر أيضًا، فنقعُ من بينها على مختارات لكل من هوميروس وفيرجيل اللذين يدعوهما من بين 'أربابه العائلية'».

يبقى مخرجه الأقصى، كما هي الحال دائمًا، العمل. إنه «الترياق»؛ فهو

يتغلب على المرض والحقد والنفي، بورق وريشة وكتب... وبحرية فكره، حتى وهو في السجن. ذلكم هو الأمر المعجز. فما إن يجد نفسه وحيدًا أمام الورق، حتى ينسى قنوطه. إنه يثب مجددًا فيبدع. وليس من يقوى على التشكيك في تلك القدرة على العمل، لدى رجل ناحل الجسم ومضطرب وطائش، ويبدو أنه مشتت الذهن والقوى، في حين أنه النقيض التام لما يبدو عليه؛ فهو صلب وصامد ومركز الذهن، بل عنيد، وقوي الإرادة، وذو رزانة أسقفية حين يعمل. ذلكم هو جوهر أرويه القديم الذي يتولى هو نفيه أو تمويهه. إن القوى الكامنة في هذا الطموح النحيل، لمَّا يخمنْها أحد. فهو يغلفها بغلالة من السهولة الاجتماعية التي كانت تخدع الجميع، بل تخدعه هو أيضًا في شبابه. أما وهو في زنزانته في الباستيل، وحيدًا في مواجهة القنوط، فقد اكتشف الأمل في عمل جديد، هو الأفضل في حياته. كتب على هوامش الكتب النادرة التي زودوه بها، وبين سطورها قصيدته الملحمية *La Ligue* (الرابطة) التي سوف تُنشر تحت عنوان لا هنرياد، والتي سوف تقرؤها أوروبا كلها. لقد عاملوا الشاعر بقسوة: حرموه الريشات والورق، فعوقب بما أخطأ به. كتب إذًا قصيدته الضخمة بالقلم على هوامش الكتب. ويقول إنه كان يؤلفها وهو نائم ويكتبها وهو مستيقظ. وإذا لم يكن ذلك صحيحًا، فإن الكاذب يدعى الرئيس هينو الذي قال إنه سمعها من أرويه نفسه.

لم ينسوه في باريس، إنما لكي يتناولوه بالسوء؛ أليس ذلك هو أفضل دليل على شهرته الناشئة؟ كانوا يتنافسون في القول إنه لن يخرج إلى النور من بعد، وإن حقده على الوصي على العرش كبير حتى إنهم ألقوا به في أعماق زنزانة، وإنه سيتعفن فيها عما قريب. أما آخرون، وهم الأكثر رأفة، فقد أكدوا أنه سوف يُنقل قريبًا إلى قلعة بعيدة مدى الحياة، فالأمر مسلّم به. وتولى في النهاية، كل واحد، مسألة دفنه حيًا، على قدر ما لديه من ضراوة ورياء. وفي ذلك برهان على أنه بدأ يتسبب ببعض الضيق. أخيرًا – وعلى نحو ما يخرج الحرذون من جحره في السور دونما توقع – خرج فرانسوا أرويه مع شروق الشمس في 11 نيسان/ أبريل 1718، ودام اعتقاله أحد عشر شهرًا.

يبقى هنالك أعراف لا بد من التقيد بها؛ فالأشخاص الذين قام الملك باستضافتهم في الباستيل لا يرجعون من فورهم إلى الحياة العامة. فثمة فترة انتقالية من الكياسة مراعاتها: لا بد لنزلاء جلالته من التقيد بفترة زمنية من الإبعاد.

وأمضى فرانسوا فترة حجره في شاتني، في المنزل الريفي المريح الذي يملكه أبوه. والموقع كأنه في باريس، وليس في نوميا. ومع ذلك أخذ يتذمر.

كتب إلى الوصي، وكتب إلى الوزير كي يتبرأ: «ليس في فرنسا من رجل واحد قادر على إثبات أني قمت بتلك الكتابة الشنيعة»، لكنه اعترف بذلك أمام شهود، فهل نسي اعترافه؟ والملف ليس مفقودًا. وكتب إلى الملازم الأول في الشرطة أنه لم يقل قط سوى الخير بحق الوصي على العرش والبلاط. فلا بد أن ذاك ضحك كثيرًا، فهو يضع التقرير تحت ناظريه. كذلك كتب يقول: «لو كان صاحب السمو الوصي شخصًا عاديًا لوددت أن يكون صديقي المفضل!» ولم يطلبوا إليه التشبه بسمكة «الأنقليس»، بل طلبوا إليه التزام الصمت، أي طلبوا المستحيل. وتوسل كي يوعزوا بإنهاء نفيه إلى شاتني: «أنتم تدركون أن عذابي عذابُ رجل يشاهد باريس من منزله الريفي من غير أن يملك حرية الدخول إليها». ولم يطلب إلا القليل: ثلاثة أيام فقط في باريس، أي ما يكفي من الوقت للتجول بقبعته، قبعة السنجاب.

حسن استخدام الحرية: النجاح

هذا، ولم يكن شقيًا على قدر ما يقول؛ إذ توسط له ملاك صالح، فلم يحصل له على ثلاثة أيام، بل على ثمانية. ذلك الملاك الصالح هو البارون دو بروتوي. قام آل بروتوي بدور الجِني الصالح حيال فرانسوا. وهم رجال فكر كرماء، ينتمون إلى تلك النخبة المستنيرة في المجتمع، والتي هي فخر ذلك المجتمع وزينته في آن. وسوف يقوم البارون دو بروتوي هذا بعد أعوام بمنح فولتير هبة استثنائية: سوف يعطيه ابنته غابرييل، مركيزة شاتليه. ولم يفعل البارون دو بروتوي ذلك عمدًا، لكن المرء لا يفعل المعجزات البتة وهو في كامل وعيه. وغابرييل هذه سوف تهب فولتير ثمانية عشر عامًا من السعادة. أما بانتظار ذلك، فأبوها وهب فرانسوا أرويه فرصة مدتها ثمانية أيام.

انقض على باريس... وليس ذلك كافيًا! فحصل بفضل السيد دو بروتوي أيضًا، على إذن بمدة شهر كامل: شهر تموز/ يوليو 1718، تلاه شهر أيضًا، هو آب/ أغسطس، ونال أخيرًا في أيلول/ سبتمبر إجازة مفتوحة، لكنها قابلة للإبطال على الدوام. ولم ينل حريته النهائية إلا في مطلع نيسان/ أبريل 1719، أي بعد عام

كامل من الإفراج عنه. فلنعترف بأنهم كان يجيدون فن التقدم تدريجيًا: فالسجن تلاه النفي الموقت، ثم إجازة ثمانية أيام، فشهر، فالإجازة المفتوحة...، وأخيرًا الحرية النهائية. فليس لفرانسوا أرويه أن يشكو إهمال المكاتب: لقد كان موضع انتباه شديد اليقظة.

لم تكن تلك الأسفار إلى باريس مكرسة للطيش. وإذا ما انصرف إلى اللهو، فإنما يفعل ذلك خدمة لطموحه. وهو يجيد المديح بشكل مذهل، لكن أفضل إطراء يكيله، إنما هو إطراؤه لنفسه. ويمكن له أن يكون باعثًا على الضجر فلا يُطاق، مثلما هم الناس الذين على تلك الشاكلة، أما هو فلا يجيد أن يكون موضع تحمل فحسب، بل هو يأسر الألباب في تمارين الخيلاء الأدبية التي يقوم بها. فتوصل على ذلك النحو إلى فرض مسرحيته أوديب. كان جمهور الصالونات - وهو الجمهور الذي يصنع النجاح - مؤيدًا لمسرحيته، لكن الممثلين هم الذين وقفوا في وجهه. وكان هؤلاء راغبين في إدخال تعديلات عميقة وجذرية. فهل كان ذلك باسم الفن؟ كلا، بل باسم الجمهور. كانوا يعتبرون أنهم يعرفون ما يريد الجمهور، خيرًا مما يعرف الجمهور نفسه. وبدا موضوع أوديب المفزع، المقتبس من سوفوكليس، غير محبب كثيرًا إلى نفوس الممثلين. وكأن له أن يكون محببًا! لكن سادة المسرح وسيداته قرروا أن يجعلوه محببًا، حتى يسايروا الذوق السائد. فكان ينبغي تقديم أوديب، وفقًا لأسلوب عهد الوصاية... كنبات بأرجلٍ كقوائم الظبي، وشرائط، وانثناءات، واستخدام البودرة والعنفقة! ينبغي لجوكاستا أن تكون في إهاب السيدة واتو! يريدون مشاهد غزلية قبل فعل الزنى المحرم وفي أثنائه وبعده، لأن السيدات الممثلات متمسكات بالغنج والدلال، والرجال حريصون على التظارف. وجرت مناشدة أرويه - الذي اقتبس أحد المشاهد من سوفوكليس حرفيًا تقريبًا - أن يحذف ذلك المشهد؛ فهو لا يطاق من الممثلين. وقد قالوا عن نص سوفوكليس، إنه «سخيف تمامًا ومبتذل».

أما وأن فرانسوا كان حريصًا على أن تـُعرَض مسرحيته بأي ثمن، ولكونه لا يزال فتيًا، فإنه مسخها على قدر المستطاع ليجعلها مقبولة من أولئك البلهاء. فوافق الممثلون في نهاية المطاف، وعلى مضض أيضًا، على تقديم أوديب. وقُدِّم العرض الأول في 18 تشرين الثاني/ نوفمبر 1718، وفرانسوا لا يزال حرًا تحت مراقبة.

من المسلّم به أن يكون المشهد الذي قوبل بأكبر قدر من التصفيق والاستحسان هو ذاك المقتبس من سوفوكليس، والذي بدا غير قابل للتمثيل من الممثلين. كان ذلك نجاحًا، لكنه نجاح وفضيحة. فمن كان في وسعه أن يخمن ذلك؟ لكن أرويه واقع تحت ضربة القدر، وهي ضربة الفضيحة؛ إذ شاء الجمهور أن يرى في المقاطع والأقوال المسهبة تلميحات إلى الملك العجوز المتوفى، والذي ولّد موته فرحة شعبية عارمة. إن لويس الرابع عشر لا يزال موضع كراهية بعد ثلاثة أعوام على موته.

«يحترم الناس قوانينهم ما داموا على وجه الأرض
ويرفعون عدالتهم السامية حتى عنان السماء
فالشعب يعبدهم وهم بأنفسهم آلهة
أما وقد لفظوا أنفاسهم فما يمثلون في نظرنا؟
عليكم إطفاء البخور الذي أوقدتموه لأجلهم...».

ألهب ذلك مشاعر الجمهور. فما إن عثر على التلميح، حتى باشر البحث عن تلميحات أخرى، بل عثر على بعضها حيث لم يكن لها من وجود. فليس أكيدًا أن العبارة المسهبة كانت تستهدف الملك المتوفى. لكن بعض الأبيات جرحت مشاعر الملكية. فابن الملك يقول:

«وما أنا لولاه؟ لا شيء، لست سوى ابن ملك».

أضحى لدى الجمهور حدس، وخلاصة غامضة بأن المرء لن يؤمن إيمانًا أبديًا بعظمة الملوك، ولا بحق أبنائهم المقدس. فتعطي أبيات من هذا النوع شكلًا وكيانًا لما كان يجري الحدس به فحسب، من غير أن يُصاغ. وصار الحدس منذ ذلك الحين شعورًا، ثم فكرة، وأخيرًا نظرية، قبل الانتقال إلى الأفعال في عام 1789.

«ليس كهنتنا ما يظن الشعب البسيط
وإن سذاجتنا لتصنع علمهم كله».

إن تلك النفخة في البوق، المعادية لرجال الكهنوت، والتي انطلقت على حين غرة في المسرح الفرنسي، تجاوبت أصداؤها في أرجاء باريس كافة، فمزقت

الأجواء وأثارت عواصف ما كانت ستهدأ أبدًا. وذلكم شيء جديد، شيء مخالف للمألوف في تراجيديا مطابقة جدًا للقواعد، كلاسيكية جدًا وراسينية جدًا في نبرتها. وانفجرت تلك الأبيات في الكنائس، مثل انفجار عبوة من الديناميت. وفي تلك المسرحية، وجد واحد من أعدائه، هو الأب نونوت اليسوعي، «حماسة جهنمية»، معتبرًا أن أرويه «يعرض في أبيات مفخمة أشد الأهوال ظلمة ضد القائمين على الكنائس». وها هي حرب قد نشبت، إنها الحرب النضالية لمقاومة الإكليروس: فهل خمدت نيرانها؟

كان أرويه الشاب يحمل الصاعقة متواثبًا. لم يتمالك نفسه عن الصعود إلى خشبة المسرح، في مساء العرض الأول. وقد تهلل طربًا في أثناء العرض، فأخذ دور المهرج، وشرع يحمل بطريقة هزلية ذيل حلة الكاهن الأكبر. وضحكت الصالة، وذلك قلما حدثَ في مسرحية تراجيدية. كان يود أن ينسف العرض، فلم يجد طريقة أفضل من ذلك. هذا ما اعتقدته الماريشالة دو فيلار التي كانت في الصالة، فسألت من هذا الممازح، فقيل لها إنه أرويه، المؤلف. فأطربها ذلك كثيرًا ورغبت في التعرف إليه: وراق كلٌ منهما الآخر بلا حدود، فقررا عدم الافتراق من بعد أبدًا. وكان تصرفًا متسرعًا! لكنهما لم يمضيا معًا بعيدًا جدًا.

لم يكن والد فرانسوا قادرًا على الثبات في مكانه في أثناء العرض، فكان يجمجم قائلًا من بين أسنانه، وهو مختبئ في طرف إحدى المقصورات: «آه، يا له من خبيث! آه! يا له من سافل!». وإن جان جاك روسو، أو بالأحرى تلميذه برناردان دو سان بيير، هو الذي روى الواقعة. فمن الذي نقلها إليهما؟ وهي ما لم تكن حقيقية، فإنها يمكن أن تكون كذلك، لأن السيد أرويه كان موزعًا بين الإعجاب والخوف - والاستياء كذلك - من رؤية ابنه وقد ضاع نهائيًا في سبيل الشهرة.

كتب له أمير كونتي رسالة إطراء نظمًا، يقول فيها إن مسرحية أوديب أرويه «تجعلنا نعتقد بأن راسين عاد من الجحيم». وليس من مجاملة يمكن أن تفوق لديه مقارنته بربه: راسين. فرد على الأمير بدالة مذهلة، مخاطبًا إياه مثلما يخاطب رفيقًا له: «يا صاحب السمو، سوف تغدو شاعرًا كبيرًا، وسوف أعمل على تأمين نفقة لك من لَدُن الملك».

لاقت الفكاهة قبولًا حسنًا، لكن اللعبة هوجاء. فمن يلعب بالنار، حتى الأكثر دهاء، يكتوِ بها. وسوف يكتوي فرانسوا بالنار... لكن ما العمل؟ أن يلزم جانب الحذر؟ ذلك يعني افتقاره إلى الحرية. والحال أن ليس من روح إلا في الحرية، وحتى في السفاهة غالبًا. وإذا ما عمدنا إلى قص جناحي يمامة الروح القدس، أضحت حمامة منزلية تصلح للطهو. أما يمامات الروح القدس فتحلق عاليًا في أرجاء سماء زرقاء بلا حدود، لكنها ليست بلا مخاطر.

عُرضت المسرحية خمسًا وأربعين مرة، ما يعني نجاحًا استثنائيًا بمعايير ذلك العصر. فطُبِعت كتيبات تناولتها، منها المؤيد، ومنها المعارض. وعجت الصالونات بدمدمات التأييد والذم. ذلكم هو الكمال. وعرفت المسرحية النجاح نفسه مقروءة، بعد أن طبعت. وكتب إليه الشاعر جان باتيست روسو، الذي كان مقيمًا في فيينا آنذاك، يشكره على إهدائه كتابه إليه: «منذ زمن طويل، وأنا أنظر إليك رجلًا مقدرًا له أن يصنع ذات يوم مجد عصره، وأشعر بالرضى، وأنا أرى الأشخاص الذين يشرفونني بالإصغاء إلي حتى النهاية، فيكون حكمهم هو حكمي نفسه».

إن روسو هذا لما يَصِر الخصم والعدو. وإنه لصادق؛ فهو يكتب العبارة نفسها لأشخاصٍ عدة. افتُتِنَت الإمبراطورة في فيينا ورجالات البلاط بقراءة أوديب. فيضيف جان باتيست روسو: «آمل أن نلتقي في بروكسل، وأن يتسنى لنا الوقت لنتداول في أشياء عديدة، تطول كتابتها كثيرًا».

سوف يذهب أرويه إلى بروكسل بكل تأكيد. ونرى أن الشاعرين كانا سيحسنان عملًا، لو أنهما بدلًا من التداول في «أشياء كثيرة»، لزما جانب الصمت، وعاش كل منهما على بعد مئة فرسخ من الآخر. لكن لا مناص لنا، كي نستمتع باللقاء، من أن نكون وإياهما على الموعد أيضًا.

مخالطات طيبة، وأخرى

كانت باريسُ في عهدِ الوصاية تعج بمجتمع متعدد الأجناس يثير كثيرًا من الإعجاب وكثيرًا من القلق: إنها مسبقًا إحدى سمات باريس الحديثة، باريس الأوروبية. ارتبط أرويه بعلاقة مع بارون اسمه غورتس، يزعمون أنه مبعوث

شارل الثاني عشر، ملك السويد. كان ذلك السفير يفيض بالمشروعات العجيبة، ويقلب خريطة أوروبا رأسًا على عقب؛ فيخلع هذا الملك عن عرشه، ويغتصب منه تلك المقاطعة فيعطيها لذاك، ويقوم بإغلاق مرفأ من المرافئ. واختار أرويه ليضع فيه ثقته، ويأتمنه على أسرار سياسته الظلامية؛ أي ذلك العبقري الطائش الذي يصغي مفتونًا إلى تلك الألاعيب التاريخية، فيدخل عبر ذلك الأحمق إلى حياة ملك لم يُرَ له مثيل من قبل: شارل الثاني عشر. وازداد تردده إلى منزل البارون، حتى سرت شائعة في جميع أرجاء باريس تقول إن أرويه سوف يختطفه من فرنسا ملك السويد الراغب في ضمه إلى بطانته. وعلق جان باتيست روسو الذي أثارت الشائعة غيرته قائلًا - وهو محق في قوله - إن شارل الثاني عشر لا يجيد كلمة واحدة بالفرنسية، وهو لا يفقه شيئًا في الشعر، كما كتب يقول: «لن يكون لشاعر من دور مهم في مثل ذلك البلاط». وواقع الحال أن أرويه يريد أن يكون ذا دور مهم على الدوام وأينما كان. فلن يتم اختطافه إذًا لمصلحة السويد. لكنه أرويه، وهو يؤدي دور المؤتمن على الأسرار، والشخص الذي يحتمل أن يكون المفضل لدى ملك نصف أسطوري، وهو كان قد بدأ بتأليف تاريخ ذلك الأمير المقيم في الشمال، واغتنى بألف طرفة، فصنع بطلًا حقيقيًا ينبض بالحياة، وصاغ بالاختصار رائعة جديدة ترى النور مستقبلًا: **تاريخ شارل الثاني عشر**. ويبدو على سنجابنا أنه يبدد وقته، ونعتقد أنه يلهو ويرقص، إلا أنه يعمل.

نعرف عنه أنه لا يضيره القفز على غصون تالفة. فالبارون غورتس لم يكن سليمًا جدًا، أما غصن استناده الثاني، فهو البارون هوغرز النمساوي أو السويسري. وهو - وليس هناك من يعرف كثيرًا - منخور بالسوس، ومشوش... تربكه آلاف المعارف السياسية، سهل عليه البوح بأسرار الدولة، وأسرار المخادع الملكية، والخزائن الخاصة، وخزائن الدولة، وهو باختصار - كما الآخر - نصف دبلوماسي، ونصف مغامر، لكنه ثري، وعلى طريقة أولئك الناس، أي باذخ حتى شفا الإفلاس، وممتلئ بالمعرفة دونما تمييز، فيعج رأسه بالأفكار، إلا أنها في معظمها جنونية. وقد يتعلم الإنسان أشياء كثيرة بصحبة تلك المخلوقات، لكن بشرط عدم تقليدها في شيء. وكان ذلك البارونِ المشبوه يقيم في مقر باذخ في شاتيون، وكانت ضيافته من الأكثر سخاء، والمجتمع كبير عدده. ولم يكن لديه الوقت ولا النزعة للاختيار؛ فالمكان يعج بالطفيليين. ويقص علينا ج. ب. روسو

أن كريبيون كان يرتدي ملابسه بنفقة السويسري. فتجعل الغيرة الشاعر أقل رحمة من المغامر:

«يا له من ثوب براق يا كريبيون!
بَيِّنةٌ تزلُّفِ إلى سويسري ثري
ولولا تلك الهدايا، لكانت الأسمال البالية
هي التي تكاد تستر ساقيك».

استلهم فرانسوا أرويه قصيدته *Le Bourbier* (المستنقع)، وهو يتفكر في ذلك الوسط حصرًا. ومع ذلك كان شاعرنا يختلج في تلك المياه العكرة، فتفتنه أسرار المغامرين المغلفين بالماس والكشاكش المخرمة، ويطرب لأنه يحظى بثقتهم. أما وهو يخشى دائمًا من أن يُنظَر باستخفاف إلى لقبه شاعرًا، فقد كان متهللًا من موقف الرزانة الذي يقفه منه أولئك الناس المعدومو الذمة لكن الممتلئون بالدهاء. وهي حاجة لدى فرانسوا أرويه في أن يكون محط الأنظار، وشخصية مهمة، وأن يكون تحت الأنوار الساطعة. هو ليس مغفلًا أو مخدوعًا من أولئك الذين يسعى وراء نيل اعتبارهم، لكنه ذو حس فائق الرهافة، وأبعد من أن يكون ساذجًا، ليعلل النفس بالأوهام عن المستنقع. لكن حين انتحى به جانبًا ذلك الراعي للآداب والفنون السمين، ليسر إليه: «لا أقول هذا لسواك، إن صاحب الجلالة الإمبراطورية والملكية، على قاب قوسين أو أدنى من الإفلاس... وبناء عليه، فهاك...»، استخف بأرويه الفرح، وانتشى غرورًا. فقد رأى نفسه وزيرًا خفيًا للقضايا الأوروبية الكبرى، ولم يكن ذلك بالحلم الباطل. فهذا التناقض الظاهر بين أرويه الصافي الذهن وأرويه المغشى على بصره بالغرور والطموح، سوف يجعله يحرز تقدمًا، ويجني كثيرًا من الأشواك. ولسوف يستسلم دومًا للإغراء في أن يكون «شخصية مهمة» أو أن يظهر كذلك.

لكن ذلك لم يجعل الشرطة التي تحيطنا تقاريرها علمًا بالشاب أرويه وعلاقاته الاجتماعية، تنظر بعين الرضا إلى ذلك الافتتان. فالوصي يعرف تلك الصداقات مع أشخاص لا تقبل بهم الحكومة إلا مكرهة، ولولا ذلك لطردهم عن طيب خاطر.

ونعرف معرفة أكيدة أن فرانسوا يلعب، بيد أن اللعبة خطرة.

لقد وقع، من خلال إقامته التعيسة في الباستيل، على الوسيلة ليصنع لنفسه امتيازًا. وهو رجل حاشية بالفطرة، لكنه مفرط في نزواته لينجح نجاحًا تامًا، وهو حر بإفراطٍ أيضًا. أما حين يرغب في بذل بعض العناء، فهو لا يُقاوَم. ولقد بعث إلى دوق أورليان بقصيدة عنوانها: الباستيل، فكانت خالية من كل أثر للمرارة أو الضغينة. فكل ما فيها مزخرف ومتبرج ومعطر. فلم يجد الوصي ضيرًا في أن يُحضِروا إليه أرويه. ولم يتلكأ هذا على الإطلاق، ورد على الوصي الذي شكره على قصيدته حول الإقامة التي قدموها إليه في الباستيل:

«يا سيدي، لكَمْ يروقني إذا تكرم جلالته فتحمل عبء إطعامي مستقبلًا، لكني أتوسل إلى سموكم بعدم توليه عبء إقامتي من بعد».

إن لطافة الخدعة ونباهتها تُنسِيان، مرة أخرى، تطاول الرد، أو رفع الكلفة في الأقل. أما الإلماح إلى الطعام فليس عرضيًا؛ إنه يتعلق بنفقة أنعم الوصي عليه بها من أجل أوديب. ومضت الحياة متقلبة على ذلك النحو بين الساخن والبارد؛ فهو في السجن تارة، وتارة أخرى ينعم بمعاش، فكيف له أن يشعر بأنه مهمل؟ كانت عينهم عليه، وعلى ذلك كانوا يداورونه. وقد لا تكون منحة الإعاشة مكافأة له على مزاياه شاعرًا، بقدر ما تلزمه، مضافًا إليها قوة الإقناع التي تتمتع بها اللويسات الذهبية، بالتعقل والسعي وراء الحماية والمكافآت من بلاط لا يطلب سوى استقبال شاعر تام الشاعرية بين ظهرانيه. وعلى المرؤوس الصالح، حتى وهو من كبار رجالات الفكر، أن يسعى ليحظى برضاه. فكيف لم يفهم أرويه تلك اللغة، وذلك النغم؟ أما وأنه لم يفهم، فذلك لأنه لا يريد أن يفهم.

مع ذلك عبّر له الوصي مجددًا عن حسن التفاته، فأهدى إليه ميدالية ذهبية كبيرة إعلانًا عن نجاح أوديب، وأوعز أيضًا بأن تُقدم إليه سلسلة ذهبية كبيرة كي يعلقها في عنقه. وتوجه الصائغ الذي سيصنع السلسلة إلى أرويه ليسأله عن أي نوع من السلاسل يريد. فأجاب الوقح: «سلسلة بئر».

لكنه كان راغبًا في اسم كبير ليعلق به إهداء أوديب. فأرسل إلى كل مكان تقريبًا يخاطب الملوك والأمراء طالبًا أن يرغب أحد في قبول إهدائه. لكن الوصي

لم يرد على طلبه. فلِمَ؟ ذلك أن مسرحية أوديب تتضمن علاقة محرمة تعيد إلى ذاكرته بغيظ ما كان أرويه يدس في أهاجيه. فعاد أرويه بإهدائه إلى دوقة أورليان الوارثة - لكن لا حياة لمن تنادي - ثم توجه بالنداء إلى ملك إنكلترا، ثم إلى دوق لورين الذي قدم إليه «أولى ثمار موهبته».

«إنما ندين بها للرب وأنت كذلك بالنسبة إلي».

لكن لا فائدة ترتجى. إذ ربما كانوا يعرفون ما الوزن الذي يقيمه أرويه للآلهة - وللملوك - فلا يعبأون بذلك البخور المسموم الذي يحمل مع ذلك عبق العطر الأفضل في باريس.

حمل الإهداء توقيع: أرويه دو فولتير. إنها المرة الأولى التي يظهر فيها الاسم مطبوعًا. فلِمَ في عام 1719؟ هاكم ما كتب إلى ممثلة، هي الآنسة دونواييه: «لا تعجبي، يا عزيزتي، من هذا التغيير في الاسم، فقد كنت على درجة من الشقاء مع ذاك، حتى رغبت في أن أرى إن كان هذا سيأتيني بالسعد».

وها هو ذا متطير! «أرويه» يجلب النحس و«فولتير» يجلب السعد. لكن ليس لنا أن نأخذ كلامه بحرفيته، فهو يرى من ناحيته - وقد تكون حجته أقوى - أنه بعد أن أساء إلى عدد كبير من الناس بأبيات موقّعة باسم أرويه، أو منسوبة إليه، فإنه بتغيير اسمه ينأى بنفسه عن الشبهات. ولم يكن المراد الانتقال إلى اسم جديد بل إلى نبوغ جديد. وليس فولتير سوى أرويه لا يني ينمو ويجمّل نبوغه وحدّته لستين عامًا مقبلة. وسوف يغدو اسمه الأكثر إثارة للإعجاب، والأكثر بغضًا، ليس في قرنه فحسب، بل حتى في القرن التالي أيضًا. لقد بدل اسمه من غير أن يطرأ أي تغيير على فكره أو روحه أو سلوكه. إنه يغير... لأنه يحب التغيير حتى في مكان إقامته، إنه يتغير عن نزوة، وبفعل استياء، وبدافع كوميدي، وباستدراك. يتغير ليظهر على خشبة المسرح. ولا يسع الشخصية التي سوف يؤديها إلا أن تحمل اسم فولتير، فاسم أرويه زال وامحى من اللافتة، فلن يبقى له من وجود إلا في كتاب الطلاسم لكاهن سانت أندريه ديزارك. لقد منح بطلنا نفسه اسمًا، واختار لنفسه شخصية ودورًا، ولسوف يقوم بتأليف المسرحية، فالديكور قائم: إنها أوروبا القرن الثامن عشر - أوروبا البلاطات الملكية - والممثلون الصامتون (الكومبارس) كذلك: زهرة الحضارة في عصر الأنوار. وُلد فولتير إذًا في عام 1719، في إهداء أوديب.

نشهد في الأعوام 1720 و1721 و1722 شهوة جديدة تترسخ لدى شاعرنا، هي شهوته إلى المال. صار مقربًا إلى أوساط شديدة الاختلاف، لكنها كلها أوساط غنية. أما وهو يتمتع بالموهبة وبحاجة فطرية للتوسط، فقد اهتم بالأعمال، وبأعمال الآخرين في الأقل فكان يقوم بدور الوسيط بين رجال المال وطبقة الأعيان، وبين المتاجرين والناس المقيمين. فيناله من ذلك المال، الذي يروح ويغدو على مرأى منه ومسمع، نصيب من الربح. بل إن الوصي نفسه انخرط في تلك التسلية منذ أن صدر العفو عن الشاعر، فحظي بالإنعام ونال الميدالية وسلسلتها. وكتب فولتير كتابة غامضة إلى صديقته أميرة برنيير، جاء فيها: «يستطيع السادة ديغابيل تأخير صفقتهم بضعة أيام. فالشخص الذي تعرفين (ريشوليو على الأرجح) حصل على وعد متكرر من صاحب السيادة الوصي بشأن الصفقة الكبرى...».

بيد أنه لم يكن من أصدقاء الوصي الحميمين قط، وكان ذلك ممكنًا في ذلك الوقت، لكن يبدو أنه لم يحاول ذلك. وذات مساء صادفه في دار الأوبرا فجرى الحديث بينهما عن رابليه. فالوصي شديد الإعجاب به، وقد أطرى كتابه غارغانتوا إطراء عظيمًا. والحال أن فولتير كان في شبابه يجده سمجًا وهمجيًا: فأغاظه الوصي كثيرًا بحماسته الشديدة. لكن فولتير عاد فغير رأيه من بعد؛ فصاغ لاستعماله الشخصي نوعًا من «المقتطف» لعمل رابليه بإجراء اقتطاعات كبيرة منه، فلم يبق من مؤلف رابليه أكثر من مئة صفحة، إلا أنها الصفحات الفضلى. ولم يكن المال ليسد شهية أرويه الشاب. فهو يطمح إلى مهمة عليا: إنه يريد أن يستلم منصبًا وأن يحمل ألقابًا. فنحن نلمح طيف الطموح يعبر عند منعطف درب وعر سيسلكه فولتير كثيرًا، لدى إقامته في إنكلترا على سبيل المثال. فهو ينخرط، بادئ ذي بدء، في مديح يُكال لإنكلترا. لا بأس. لكن إلى أين يمضي بنا ذلك الدرب؟ إلى لندن؟ كلا، على الإطلاق. أما في باريس، فيقتادنا ذلك لاستجلاء الوضع القائم في وطنه، وطن السيد فولتير.

لكن إلى أين سنمضي في المسألة...؟ إلى حدٍ جعَلَ أولي الأمر يعلمون أن السيد فولتير يريد حقًا أن يصير شاعرًا، لكنه يود أن يصير إلى ما هو أكثر. وهنا تحديدًا يستيقظ دم أرويه: إنه يبتغي وظيفة كبرى، يبتغي مهمة. ويرمي إلى نيل

لقب، فلا تقتصر موهبته كلها على نظم أشعار فقط، بل هو خليق، بفعل حصافته وتصلبه وسلاسته وسعة خياله، بأن يعالج القضايا الكبرى للدولة. قام بعرض نبوغه على ربات الفنون فابتسمن له. وها هو يعرضه الآن على رئيس الوزراء الذي لم تنبسط أساريره.

إنه ما زال يقيم في شارع كالاندر، حيث جرى توقيفه، وقد قطع أبوه عنه الإعاشة. واستلم الألفي ليرة من نينون. فماذا فعل بها؟ الأكيد أنه اشترى شيئًا من الكتب. وهو يتناول عشاءه في المدينة، ويستأجر عربات، وملابس غاية في حسن الانتقاء. وإنه لينفق شيئًا كثيرًا نسبيًا، فأصدقاؤه الأسياد الكبار يكلفونه باهظًا، لأنه ليس متطفلًا عليهم. ولئن كان عليه أن يسايرهم - حتى في قصورهم - لوجب عليه أن يعيش نمط حياة مكلفًا. كان ذلك العصر من وصاية العهد عصر يسرٍ مالي، ولا سيما في الوسط الذي كان يألفه فولتير، وقد تمتع وريث آل أرويه، وهو لا يزال فتيًا، بحاسة المال. فكان يعرف، وهو في الخامسة عشرة، الشيء الأساس مما يتعلق بتداول الكمبيالات المصرفية والمضاربة. ألم يَقُمْ، وهو في الثالثة عشرة، بالاكتتاب على سندات عند أحد المرابين؟ هل من يتخيل ولدًا في الثالثة عشرة يتسلق الدرج الدبق لمراب جشع، فيكتب كمبيالات تتخذ قيمتها من إرث والده؟ ومن عساه يكون ذلك الدائن الذي وقع عليه؟ سوف نعرفه ذات يوم.

لكن ذلك درّب الفتى أرويه على فن تأسيس ثروة لنفسه. ولنقل من فورنا إنه كان موهوبًا جدًا، وإن محيطه لم يكن ليثبط مسيرته. وقدم له كبار الأسياد ورجال المال الذين كان يألفهم التسهيلات كافة للتدريب. كانت الأخلاق المالية في عهد الوصاية في وضع يُرثى له بالنسبة إلى الدولة، وفردوس نعيم بالنسبة إلى المضاربين وأصحاب السندات، والمتاجرين باستغلال النفوذ، وجامعي الضرائب من المراتب الوضيعة والعليا. وبلغت حالات الشطط درجة دعت الوصي إلى إنشاء «مجلس عدلي»، اتخذ مقرًا له في دير رهبان القديس أوغسطين، فقام بالتحقيق وفرض عقوبات قاسية على المتاجرين باستغلال النفوذ، والمتفاخرين بثرواتهم الفاحشة. وفُرضت رسوم باهظة أدت إلى إفلاس أربعة آلاف وأربع مئة عائلة من طريق مصادرة أملاكها. لكن لم تنل الخزينة الملكية من المئة وستين مليون ليرة التي صودرت سوى سبعين مليونًا فقط! فالشؤون المالية العليا والتجارة أصيبا بالخلل، من غير ربح تحقق للحكومة أو للشعب، ذلك أن الأعمال تعرضت للشلل. فلِمَ؟

لأن «موظفين» جددًا تدخلوا بين المجلس العدلي والأموال المصادرة، فقاموا بعمليات تصفية لرؤوس الأموال، فكانت المصفّاة تحتفظ بالحصة الفضلى من بين ركام الأوراق، أي في جيوبهم. وكانت الآلية، على نحو ما نرى، عصرية جدًا منذ ذلك الحين.

تُضاف إلى فضائح الدولة تلك، فضائح خاصة. ويسعنا أن نعدد منها العشرات. لكن من شأن واحدة فقط، يعرفها فولتير حق المعرفة، أن تُطلِعنا على فحوى ذلك المجتمع. كان المركيز دو لا فار في حالة فقر مدقع، وكان شديد التبذير في الوقت نفسه، وقد تزوج من آنسة تدعى باباريل. وكان باباريل الأب مقاولًا، وهذا يعني بصيغة أخرى أنه يملك المؤسسة التي تزود الجيش بالمعدات وصيانتها. لكن يا لها من مؤسسة! لقد كان خازن الدرك الملكي. ومثُل باباريل أمام المجلس العدلي. فعمد قبل صدور الحكم عليه، على نحو ما كان يتوقع، إلى تسجيل أمواله كافة باسم صهره الذي تصرف بها تصرف لص حقيقي، فاحتفظ بها لنفسه. ولكي ينجز عمله ذاك على أكمل وجه، ترك لباباريل أن يموت بؤسًا. ولم يكن للأمر من أهمية تذكر، لأن المجلس حكم عليه بالإعدام. أما وقد رآه يموت جوعًا على يد صهره، آثر عدم تنفيذ الحكم فيه. تبقى سمة أخلاقية قبل الانتهاء: توفي الصهر لا فار مفلسًا، لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد، فقد خلف وراءه ديونًا بلغت خمسمئة ألف ليرة، من بعد أن بدد ثروة حميه باباريل البالغة أربعة ملايين ليرة! (أربعة مليارات فرنك بلغتنا! فيا لها من مؤسسة!)

قام فولتير، متفكرًا في تلك الحسابات العجيبة للممولين في عهد الوصاية، بكتابة رواية زاديغ التي يقول فيها إن العدالة ليست سوى نزوات، حين يتعلق الأمر بالشؤون المالية. «لو كانوا في بلاد فارس، لأعدموا ثلاثة وستين سيدًا على الخازوق» (لقد حاكموا في باريس أربعة آلاف وأربعمئة، وذلك عائد من دون شك إلى أن باريس أكثر سكانًا من أصفهان، لكن من الأيسر عليهم العثور على أربعة آلاف وأربعمئة خازوق، من العثور على أربعة آلاف وأربعمئة رجل مال نخره الفساد). ذلك، بحسب قول الفارسي، ما كان ينبغي فعله. لكن زاديغ يواصل القول: «كانوا في بلاد أخرى (والمقصود بذلك بلادنا نحن، أيها الصديق باري) سيُنشئون مجلسًا عدليًا ينفق على المحاكمة ثلاثة أضعاف المال المسروق، فلا يرجع فلسٌ واحد إلى الخزائن الملكية».

ربما يحسب أنه يحلم، بل ربما يظن أنه حيال فضائح، ليست هي فضائح القرن الثامن عشر، بل فضائح قرننا نحن. إن فولتير، وهو في هذا الصدد - بل وهو حيال مسائل أخرى كثيرة - لقريب منا كل القرب. أدرك على جناح السرعة أن «الرأي العام الناقم» أشد خطورة من الاختلاس، وأن سجن الباستيل يتهدد المتطاولين أكثر كثيرًا مما يتهدد السارقين. وبناء عليه، وقف في صف المقاولين، وعثر في فُتات صفقاتهم غير المشروعة على مصروفه اليومي. لكن ربما لا نوفيه حقه إذا ما اعتقدنا أن المنفعة وحدها جعلته يقف في صف رجال المال. إنها لديه قضية شعور أكثر أصالة؛ إنه يشعر بالهول من حرمان إنسان من حريته. وإنما السجن في نظره، لا السرقة، هو الجريمة الكبرى ضد الإنسانية. والسارق لا يحرم المسروق إلا من ماله، وهذا شر رديف. أما إلقاء امرئ في السجن، فهو الشر الأقصى. والإنسان المحتجز في قفص إنسانٌ ساقط، وذلك هو العار، حتى لو كان المرء سافلًا. ألستم مقتنعين بذلك؟ هاكم باباريل. إن باباريل في السجن سِمْل من الأسمال، بل نفاية بشرية. انظروا إليه وهو حر: إنه رجل مال رائع. أليس مثيرًا للإعجاب؟ أما العبرة فهي: دعوا اللصوص يرتعوا بكل حرية. إنما فلنكن على بينة من الأمر؛ إذ ليس المقصود بذلك سوى كبار اللصوص، أي البارعين في فن التفليس، والسحرة في ميدان الاختلاس. دعوهم ينموا ويزدهروا، تصبح الأحوال المالية على ما يُرام، فتنشط التجارة ويكثر مناصرو الآداب والصالونات وتزدهر الأوبرا. فإلامَ تطمحون أكثر في مجتمع حسن التنظيم؟ ويا لحُسْنِ تلك الأنقليسات وهي تنزلق فوق تلك الأكوام من الذهب!

كان أرباب المال في غاية الامتنان؛ لأنه أحسن فهمهم، وأجاد الدفاع عنهم. ذلك أن فولتير عبّر عن تلك المشاعر نظمًا في قصيدة غنائية موجهة إلى قصر العدل. ولقد كان ساخطًا؛ فالحق أنه ما لم يعد في المستطاع سرقة الملك، فإن فرنسا لا تعود فرنسا من بعد، بلد حصانة للمفلسين والمختلسين.

«وتتويجًا للمؤسسة (معاقبة السارقين)
يجعلون من بلد الحصانة
سجنًا شاسعًا مترامي الأطراف».

لم يزهُ فولتير كثيرًا من بعد، برائعة الوقاحة تلك التي طلبها منه الأشقاء

باري - رجال المال المشاهير - وأصدقاؤه الحميمون، لقد كانوا آل كريزوس عصرهم. فغُرموا بمليون ونصف مليون من الليرات من دون أن يطرف لهم جفن. يا للقوم المساكين! ويا لنزاهتهم! فهم الذين أعانوه على أن يسير خطاه الأولى في عالم المضاربات؛ فرأى نفسه على خير ما يرام. يقال إن رجال المال مجردون من العواطف، لكن ذلك من التجني؛ فهم يجيدون في الأقل مكافأة السلوكيات الحسنة. وتصرفات فولتير، كما نعلم، تصرفات ممتازة، فكوفئت بامتياز أيضًا.

أرويه والدوقة

كان الماريشال الدوق دو فيلار يقيم في قصر فو. وما زال ذلك القصر، من أيام فوكيه، مقر الإقامة المشرق للمجتمع الراقي. لم تكن موشّيات الماريشال الذهبية الجاذب الرئيس، بل كان سحر زوجته الدوقة الحسناء، بذكائها اللماع، المهيمن على كل حفل استقبال. لم تكن في سني شبابها الأول، لكنها كانت تبدو غاية في النداوة. وكان الماريشال مفعم القلب طربًا حيال ذلك الفيض من الزائرين الذين ينتمون إلى علية القوم، وتزل به ريشته، كلما كتب من قصره - ينسى قصر فو - فيقول قصر فيلار.

كان فولتير والدوقة لا يفترقان من يوم النصر الكبير الذي حققته مسرحية أوديب. أما فيلار، الشخصية الفائقة الاعتبار، وصاحب النصر في موقعة دونان، فأسبغ عليهما بركته العسكرية، وهنأ أرويه على مسرحيته: «الأمة مدينة لك بكثير من العرفان»، فكان رد الشاعر الشاب على العجوز المنتصر على أوروبا المتحالفة: «كانت ستدين لي بأكثر من ذلك، يا سيدي، لو كنت أجيد الكتابة، مثلما تجيد أنت القتال».

شعر الماريشال لدى سماع تلك الكلمات بالانتصارات كافة تكلل رأسه. ولم يكن حبه للأدب نابعًا من أنه يفقه فيه كثيرًا، لكن رجالات الأدب يجيدون إعادة النفخ في أبواق الشهرة. والحال أن الماريشال، منذ كف عن سماع دوي المدافع، ما عاد يروقه سماع شيء على قدر الإشادة بمآثره. وعلى ذلك، سعى إلى أن يُنتَخب عضوًا في الأكاديمية، ليكون مع صحبة حسنة. ولم تكن المواظبة على الحضور ديدنه، فاعتذر بكل لباقة من زملائه الأعضاء، ورجاهم، في سبيل إقناعهم بأن تغيبه يشق عليه أكثر منهم، أن يقبلوا بتعليق صورته في وسطهم، فيكون بتلك

الخديعة حاضرًا معهم بالصورة! واستبدت ببعض الأكاديميين الغيرة. فلم يكن هنالك سوى صورة الكاردينال دو ريشوليو وصورة الملك وصورة كريستين ملكة السويد، فشعروا بأن الماريشال بغيابه، يعطي لنفسه حجمًا أكبر. وهكذا توافدت، بعد حين، صور راسين وكورناي وبوسويه وفينيلون، كي لا يكون الأمر مقصورًا على الماريشال... وتدفق من بعدُ سيل الصور.

كان فولتير يُقبل مسرعًا لدى أدنى إشارة، فالماريشالة تفتنه؛ إذ كانت سيدة عظيمة جدًا، على درجة من الأناقة والذكاء قل مثيلهما. ويقول الرئيس هينو إنها كانت «مليحة الوجه، طويلة القامة، ذات جاذبية وكياسة لا تشاهدان إلا في الحاشيات الملكية، حتى ليسع المرء أن يتعرف إلى اللواتي كن هنالك». فلنثق إذًا بالرئيس هينو الذي كان من خير العارفين في شؤون الذكاء، والموائد الفاخرة، والإطراءات الجميلة، والنساء الحسان، وأفضل خبير بدار الماريشال. وكان فولتير يعتقد أنه بلا بديل، بالنسبة إلى ذلك العالم تحديدًا، وذلك النوع من النساء، لأن ذلك العالم وتلك المرأة كانا كذلك بالنسبة إليه. فوقع فولتير في فخ الخديعة، على الرغم من تدربه في المعبد، وعلى الرغم من أن لا فار وشوليو كانا من خيرة معلميه. ويا للهيئة التي خدِع بها! بل يا للأناقة، كما نقول اليوم، وقد خدعته امرأة تمتاز باللطافة والذكاء وحسن السجايا التي تميز بطلة من مسرح ماريفو؛ أي كمال الصنعة والغنج. وتزين ذلك كله عاطفة محببة لذلك الشاعر الشاب. لكن هذا الأخير كان راغبًا في الاقتناع بأن ما تحمل له من عطف كان أعمق، وأن الحياء وحده يجعلها تقف عند حافة البوح. أما في واقع الأمر، فإن ما كان يردعها ليس سوى عدم المبالاة الأكثر تهذيبًا في الدنيا. إلا أن فولتير، الذي كان يظن أنه يعرف كل شيء عن ألاعيب الهوى، انساق وراء قيود كبلته بها البسمات والنظرات الطافحة بالحنان، والمجاملات اللطيفة التي ما كانت تهدف إلا إلى مداهنة غروره المعروف وجعله يتعلل بآمال كاذبة. كما كانت في واقع الأمر تسخر بكل لطافة من ضآلة خيلائه. فثارت ثائرته بسرعة كبيرة، إذْ لم يحظَ إلا بصداقة كلها رياء وأوهام. إنه يسعى وراء عشق جارف! ومع ذلك فإن ما حُظر عليه قد مُنِح لسواه، على مرأى منه تقريبًا. وهو رئيس دير بارع في فنون الغزل، وكان هنالك كثيرٌ ممن سبقه وعديدون سوف يأتون من بعده. وكان الأباتي ذاك، واسمه فوزيال، ويصفونه بـ «الكاهن الخبيث والعاشق الطيب»، موزعًا بين الماريشالة دو فيلار

والكونتيسة دو غيتو. أما وقد أحسن اختيار «الهياكل التي يقوم قلبها بالتضحية عليها» وفق ما يقول طرطوف[20]، فقد جرت تسمية الأباتي أسقفًا على مدينة رين، وهو انتقام لائق قام به رجال الكهنوت من ذلك الجاحد الصغير فولتير! لم يكن لدى الشاعر ماريشالة ولا أسقفية، لكنه احتفظ بذكرى مؤثرة «عن جلسات العشاء الصغيرة التي كانوا يتناولون فيها نبيذًا باردًا جدًا» تقدمه له حسناؤه الدوقة. وهو نظام طعام ممتاز للقلوب الملتهبة.

لم يكن قلبه هو المطمع. فاضطرام فولتير الوحيد الذي يمكن أن يروق الدوقة كان اضطرام فكره؛ كانت تعشق أقواله وأساليبه وهيئته وعبثه وأشعاره ورسائله، وتستحثه دونما كلل، وتجعله يضيع كثيرًا من الوقت، فيعاني بسبب ذلك، وتؤجج النار في أثناء العشاء فيبدو شررها ممتعًا في نظره، لكنه وعى الأمر بعد حين، فأضحت المسألة محسومة. عاد إلى عمله، وما عاد يلبي الدعوات إلا في أوقات تزداد تباعدًا. وكتب إلى صديقة يقول:

«لقد عرفوا كيف يخرجونني من صومعتي فيرجونني للذهاب إلى فيلار، لكن لن يجعلوني أفقد هناك راحتي (برهان على أنه فقدها هناك). إني أرتدي الآن معطف فيلسوف، ولن أتخلى عنه مقابل أي شيء في العالم».

بلى، هو ارتدى المعطف، إنما بعد أن كان المطر الغزير قد انهمر. أما وهو يشكو بثرة في عينه، فقد طلب عقارًا للتداوي وأوضح يقول: «لا تظنوا الأمر غنجًا كيما أبدو أمام فيلار أقل بهرجة. فلا تبدأ عيناه تثيران اهتمامي إلا على قدر استعانتي بهما للقراءة والكتابة. وأنا ما عدتُ أخشى شيئًا، ولا حتى عينَي أحد...».

ها هو ذا عاقل، قليل الإحساس - كان إذًا يخشى عيني الماريشالة - ولقد عانى قليلًا، قليلًا فقط. وكتب بعد أيام يقول إن عينه شفيت وقلبه أيضًا، «فكوني واثقة من أني شفيت إلى الأبد من الداء الذي كنت تخافين علي منه!» (إنه في الرابعة والعشرين! وقد شفي من الحب؟ ربما كان كذلك منذ الولادة). «لقد جعلتني أشعر بأن الصداقة ذات سعر يفوق ثمن الحب ألف مرة (وهو هنا صادق

---

(20) بطل مسرحية كوميدية لموليير تحمل اسمه طرطوف (*Tartuffe*)، وهو يمثل الخداع والانتهازية وجميع مبررات الوصولية. (المترجم)

أيضًا، فليس في حاجة إلى أحد كي يعلمه الأمر، إذ عرف ذلك على الدوام. وهذا ما لمسته كل من جينونفيل والآنسة دو ليفري). أرى داخل ذاتي أن من السخرية أن أعشق وأرى ذلك أكثر أيضًا في اللواتي يعشقنني. ذلك أمر قد تم، وأنا أتخلى عنه طول الحياة».

يسعنا الاعتقاد بأن هذا التخلي، المبكر جدًا، ليس إلا بتأثير التضجر؛ لا ريب في أن هنالك شيئًا من التضجر، وشيئًا آخر أيضًا. إنه يرى نفسه على حقيقته: إنه لم يُخلـَق للهوى. ثمة أشكال أخرى من العشق، وثمة نجاحات جميلة جدًا. لكن تولدت لديه من بعد نار تأججت سريعًا؛ صداقة مفعمة بالرقة. ونحن نشعر بأنه ممتلئ ريبة حيال العواطف العابرة: لقد أصبح راسخًا في معرفة قدرته على الإغراء. فهو ليس مثل صديقه الدوق دو ريشوليو، دون جوان العصر (ربما تمنى أن يكون كذلك)، وهو لن يثقل على عشيقاته، فلا يجعلهن يجرين وراءه جامحات في ممرات القصور، أو عبر المناطق والأقاليم حتى الوصول إليه فوق حقول المعارك. سيقوم من جانبه بسلب لب النفوس بواسطة فكره: سوف يفتن الملوك وبلاطات أوروبا وزهرة المجتمع.

قام حينئذ، أي في عام 1719، بوضع خطته: إنه لم يُضِع الماريشالة ما دام لم ينلها قط، لكنه أضاع وقته. ولم يسامح نفسه إلا بمشقة. أما هي، فقد أضاعت فولتير، فأضاعت الدمية، وأروع فتنة جاذبة تستطيع سيدة عظيمة أن تعرضها في بلاطها، في حين أن فولتير ربح كثيرًا حين خسر تلك الجولة: لقد وجد نفسه. إلا أن تلك المغامرة خلفت نوعًا من المرارة في نفسه. لكن ينبغي الاعتراف بأن ما أثار حفيظته لم يكن الرفض الذي قوبل به من عشيقة بقدر ما هو الأسف على الكتاب الذي كان عليه أن يكتبه.

ضجيج في الكواليس

تعرفنا إلى فولتير عند المغامرين وعند رجال المال وعند الدوقات. وليس لدى أولئك الناس، على ما يبدو، من شيء مشترك. لكن بلى، فهم كلهم يسكنون القصور، ويعيشون في وسط باذخ، وسط تلك الزخرفات من عهد الوصاية والتي يبدو أن الحضارة حققت فيها النجاح الأكبر. ويربط ما بين الجميع سحر لا يقوى فولتير على مقاومته: إنه البذخ. إن ما أبدعته الحضارة من جمال، ومن عيش رغيد،

ومن ظرف في الفكر ومن أساليب وملابس أو ما نطلق عليه اسم وسائل الراحة، إن ذلك كله كان طبيعيًا جدًا في نظر فولتير. فهو لا يتنفس إلا تحت سقوف مطلية، ولا يتناول طعامه إلا في أطباق مسطحة أو من خزف ساكس، ولا ينطق بالمُلَح إلا وهو في ملابسه الحريرية، وهو يبرق أمام عيون النساء المزدانات بالماس بكل عفوية: إن البذخ من طبيعته.

هو لا ينظر نظرة ازدراء إلى كواليس المسرح ولا إلى مقصورات الممثلات، فهنالك يعيش أيضًا بين أميرات الأساطير، والديكورات المصنوعة من القماش، لكنها تمثل قصور ملوك وقياصرة. فتراه يستنشق العبير السامي للتراجيديا الراسينية، فيما هو يحوك الدسائس مع الممثلات. لكن تلك الدسائس في الكواليس لا تستحوذ عليه كثيرًا. فيلبث على سمو فكري، لكنه يتبذَّل على ارتفاع أدنى. وليس لتلك التناقضات أن تسبب له الضيق، فالضيق يتولانا نحن حين نكتشف شؤونه العجيبة.

صنع نجاح مسرحية أوديب رجلًا عظيمًا من الكاتب الشاب الذي كان يقبل، حتى عام مضى، بأن يُصار إلى اقتطاع شيء من نصه وأن يصير نصًا باهتًا، استرضاءً للممثلين. أما من الآن فصاعدًا، فهو حين يكونُ في المسرح الوطني الفرنسي، يكونُ في بيته. ورغب على سبيل ذكرى الأيام السعيدة، في أن يجعل الآنسة دو ليفري تحظى بالأدوار الجميلة: لقد غفر كما نعلم. لكن سوزان الحسناء كانت تفتقر إلى الموهبة: لم يكن دورها الأول ناجحًا. وبكت كثيرًا. فقدم لها فولتير المزيد، وأوكل إليها دور جوكاستا! وكان في الأمر جرأة بالنسبة إلى المؤلف. فهو يعلم حق العلم أن سوزان تستطيع بعناء أن تؤدي الأدوار الساذجة في الصالونات، وها هو يوكل إليها دورًا تراجيديًا ساحقًا: فانسحقت، وكادت المسرحية تنسحق معها أيضًا. فأخذ السيد كومارتان يقول: «إن نجاح المؤلف (فولتير) لم ينتقل قط إلى تلك التي يشرفها في سريره». لقد قوبلت بصفير استنكار رهيب، وليس من الجمهور فحسب، بل من رفاقها أيضًا، ولا سيما واحد اسمه بواسون، كان يقلد لكنة خفيفة جاءت بها سوزان من قريتها، وما كانت تلائم جو الأكاديمية الفرنسية. لذا بكت كثيرًا. وأراد فولتير أن يدافع عن حسنائه «لكن صاحبنا كان غاضبًا، فأفرط في الكلام». وكان كلامه يصفع، فشعر بواسون بالصفعة. وثارت ثائرته وأراد الدخول في مبارزة. ورفض فولتير: ماذا؟ رجل من طينته، وابن كاتب

ملكي بالعدل، ومراقب الأفاوية في ديوان المحاسبة؟ ها إنه يستذكر في الوقت الملائم نبل محتده. إنه لن يلتحم في مضاربة بالسيف مع «بهلوان». بواسون بهلوان! بئس القول! لقد بلغ الغضب ذروته لدى الممثل الذي تهدد فولتير بأن يضربه بالعصا. وكان النزاع حتى ذلك الحين يجري عبر أشخاص بالوساطة. فكل واحد من المتحاربَين الاثنين يصرخ ويتهدد وسط حلقة صغيرة، ثم تتولى ألسنة الوساطة الحسنة أمر الباقي. أما حين ارتفع صوت العصا، فقام فولتير بإعلام وكيل الشرطة طالبًا تأمين الحماية. لكن ذلك لم يحُل دون أن يتخيل احتمال وقوع حيلة من نوع ما، ولم يكن ذلك بالأمر الخارق في عام 1719. وسوف نرى هذه الطريقة، مهما بدت غريبة، تُستخدَم بعد مدة قصيرة، وليس من فولتير بل ضده. فعلينا أن نذكر أن ذلك الممثل كان، مثله مثل فولتير، ضمن مجتمع البارون هوغرز (Hogguers) الذي كان على خير علاقة مع بواسون؛ كانا يتقاسمان العشيقة نفسها. بعث فولتير بمن يقول لبواسون إن البارون يريده على جناح السرعة. لكن بواسون المرتاب، استنشم طُعمًا. وقبل أن يخرج من بيته، سعى إلى تفتيش الزوايا والمداخل. فماذا رأى؟ كان فولتير في عباءة بلون الجدُر، يصحبه رجلان قويان يحمل كل منهما بيده هراوة، مستعدًا لأن ينهال بها على بواسون. فرجع هذا الأخير إلى بيته على جناح السرعة قائلًا: «إنه قد وجد الصحب كثيرًا». وتقدم بشكوى. فقام فولتير من جانبه بإعلام أصدقائه كافةً بالأمر، وهم دارجنسون ودارجنتال وريشوليو وآل كومارتان، كي يحصلوا على أمر بتوقيف بواسون. كان عازمًا على أن يرمي به في أعماق سجن، وأن يستبعده نهائيًا من المسرح الوطني. لكن آل كومارتان رأوا أن هناك إفراطًا في الطلب؛ إذ على الرغم من كل ما يُكِنون لفولتير من وِد، فإنه سيتخلص من الورطة بكل يسر، ما لم يتم توقيفه «قاتلًا». ولنذكر أن فولتير عدل روايته عن الكمين؛ إذ وجد أن حكاية المأجورين والعصي لا تليق بمؤلف أوديب، فقال إنه كان راغبًا فحسب في تهشيم رأس بواسون بالمسدسين اللذين كان يحملهما في جيبه. لكن ذلك لم يأتِ بتسويةٍ لوضعه. كما أنه لم يظهر بمظهرٍ لائقٍ جدًا في تلك القضية. لكنه سيتخلص من الورطة، إذا ما انبرى كل دوق ودوقة، مع الوزير السيد ماشو، إلى مساعدته. وبناء عليه، جرى توقيف بواسون وأُودع السجن. أما وأنه ليس هنالك من يرغب في سجنه إلى ما لا نهاية، اتُّفق على أن يبادر السيد أرويه دو فولتير بكتابة رسالة للوزير يسحب فيها شكواه، ويطالب بالإفراج عن بواسون، وذلك ما حصل. إلا أن فولتير، بدلًا من أن يكتب

الرسالة ضمن الحدود التي عيّنها الوزير بنفسه، نَظَم رسالة شعرية ضمّنها مجموعة إطراءات على طريقته، موجهًا بعضها إلى الوزير لشكره على ما قدم من تسويات، وموجهًا بعضها الآخر إلى بواسون الذي جرت تبرئته والصفح عنه. لكن السيد ماشو استبد به غيظٌ شديد، لأن فولتير المزهو برسالته الشعرية، وزع نسخًا منها بدأت تجوب أرجاء باريس التي ضحكت من تلك التمثيلية الهزلية التي لم يكن فيها للممثل الكوميدي ولا للشاعر ولا للوزير من دور جميل.

حياة القصر الجبرية

تفجرت في ذلك الوقت تحديدًا فضيحة جديدة، هي فضيحة الفيليبيات[21]. ونتبين أن المقصود بذلك هجوم جديد على فيليب دورليان. وهي أيضًا قصيدة هجائية حاقدة متفجرة تنم عن قريحة جهنمية؛ فانصرف التفكير على الفور صوب فولتير. فما السبب؟ ذلك أن الوصي كان يتوجس منه منذ قضية الـ بويرو رينيانتي، لأن فولتير كان يألف أناسًا، هم لأسباب شتى، على أسوأ علاقة بالسلطة: ريشوليو كان مغضوبًا عليه وآل فيلار أيضًا، دوقة مين في سو تحبك المؤامرات، وترى نفسها متربعة على العرش. يضاف إلى ذلك أنه كان المؤتمن على أسرار البارونين المشبوهين غورتس وهوغرز.

واقع الحال أن مؤلف الفيليبيات شخص مغمور اسمه لاغرانج شانسيل. وحين رأى أن الشبهة تحوم حول فولتير، وجد المسألة طريفة جدًا فكتب يقول:

«يعاقِبون الأبيات التي يسعه أن ينظُمَها
بدلًا من الأبيات التي قام بنظمها».

---

(21) الفيليبيات (Philippiques): أصل الكلمة من خطب أربع قالها الخطيب الأثيني ديموستينوس بين عامي 351 و341 ق. م. ضد فيليب الثاني المقدوني، يفضح فيها طموحاته، وينتقد تلهي الأثينيين عنه، ويستنهض مشاعرهم الوطنية. وقد أطلق المصطلح لاحقًا على كل خطبة فيها حثٌ على الحرب أو هجاء قاس. بعث الخطيب الروماني شيشرون المصطلح ثانيةً، بين عامي 44 و43 ق. م.، عندما هاجم مارك أنطونيوس الذي كان سيخلف يوليوس قيصر في 14 خطبةً، سماها الفيليبيات، تشريفًا لديموستينوس الذي كان شيشرون معجبًا به جدًا، لكن تسميتها الأصلية التي اعتمدت رسميًا في ما بعد هي الأنطونيات نسبة إلى أنطونيوس. في القرن الثامن عشر استخدم الشاعر فرانسوا جوزف دو شانسيل المعروف بـ لاغرانج شانسيل المصطلح لإطلاقه على مجموعة قصائد هجائية، هجا فيها الوصي فيليب دورليان، متهمًا إياه بمحاولة تسميم الشاب لويس الرابع عشر، فأحدثت دويًا هائلًا في فرنسا. (المحرر)

فكان ذلك هزءًا بالشرطة وفولتير.

كان فولتير بريئًا إذًا، فحقده على الوصي انطفأ. وبرهن على ذلك من بعد، حين انبرى للدفاع عن ذلك الأمير الذي يتمتع بكثير من المناقب، وبكثير من العيوب أيضًا. وينبغي لها كلها أن تجتذبه إليه. فسعى إلى تبديد أشكال النميمة التي ساهم مساهمة فعلية في إشاعتها. فتظاهر فيليب بنسيان ذلك، إلا أنه بعد مرور عامين على الـ بويرو رينياتي المهين، عاد فتذكرها جيدًا. وبناء عليه نقلوا إلى مسامع السيد أرويه دو فولتير، أن الفصل الجميل وقد حل - كان ذلك في أيار/ مايو 1719 - فسوف يجد الهواء الملائم لصحته، وهو أبعد ما يكون عن باريس. ليس ذلك هو السجن، بل هو الهواء الطلق: إنه المنفى. فصار يتنقل من قلعة إلى أخرى، حتى استقر به المقام في سولي مجددًا. وهناك تحديدًا جاء المرابي ليمسك بخناقه. لم يكن مرابيًا بل هي مرابية، كان قد استلف منها مالًا بموجب سندات وهو في الثالثة عشرة. جاءت تطالب بسداد دَيْنها. فبرهن على أن تلك السندات بلا قيمة؛ لأنه آنذاك لم يكن بالغًا؛ كان ينقصه شهر لبلوغ سن الرشد، وكان ذلك صحيحًا. إن ابن الكاتب بالعدل يجيد المماحكة. وكان قد اقترض من تلك السيدة، توما، مبلغ 500 ليرة!

يروي هو نفسه كيف كانت له منازعات أخرى مع المرابين؛ فقد دخل يومًا على واحد من هؤلاء الذين كانوا يأتونهم بمرتهنات؛ فوجد على طاولته صليبين، فسأله إن كانا من المرتهنات التي يأتونه بها. فقال صاحبنا المرابي - النزيه والمستقيم - إنه لا يعقد صفقاته إلا بشكل قانوني، وبين يدي سيدنا يسوع المسيح. فجاءه الرد السريع من فولتير إن صليبًا واحدًا يكفي، وحسبُ المرابي، وهو يعقد صفقات من ذلك النوع، أن يضعه بينه وبين زبونه، أي بين اللصين[22]. لكن المرابي ثارت ثائرته، على الرغم من ذلك الاستنباط المنطقي، فنعته بالملحد ولم يرغب في أن يُقرضه شيئًا. فخرج فولتير، لكن ما كاد يبدأ بهبوط الدرج حتى استدعاه اللص التقي، بعد أن انتابه تأنيب الضمير - وأي ضمير؟ - فاستحلفه بأنه لم يكن سيئ النيات حيال يسوع المسيح. فأقسم فولتير. وقدم مرتهناته، فتلقى المال ناقصًا قيمة

(22) جاء في الأناجيل أن المسيح كان مصلوبًا بين لصين اثنين: واحد صالح والآخر شرير. (المترجم)

الربا، وهي عشرة في المئة لستة أشهر. لكنه حين رجع لتسديد المال واستعادة مرتهناته، وجد أن المرابي الورع اختفى عن الأنظار، واختفت معه المرهونات التي كانت قيمتها تعادل خمسة أضعاف المبلغ المقترض. لقد وقع فولتير على لص شرير!

عاد يعمل وهو في المنفى. فكتب تراجيديا جديدة بعنوان: آرتيمير. وآمن بالمعجزة مثلما آمن الجميع معه: فمسرحية أوديب ليست شيئًا. وإن آرتيمير سوف تفضُلُها بمئة مرة. كانت آدريين لوكوفرور راغبة في تولي الدور، وذلك عربون نجاح. ومضى الأب دو بوسي، في كل مكان، مناديًا بأعلى صوته إن بهاء أرتيمير سيطغى على ألق الشعراء التراجيديين من التاريخ القديم ومن القرن الفائت كافة. والبرهان على ذلك أن الأباتي، لدى قراءته الخاصة لمسرحية أرتيمير، أجهش بالبكاء حتى أُصيب بالرشح. فيا للحد الذي تبلغه حساسية قلبِ رجل فاسق لدى قراءة شعر فولتير!

يعلم الجميع إلامَ يؤول ذلك النجاح التضامني: إلى الفشل الذريع. ذلك ما كان من أرتيمير، في 15 شباط/ فبراير 1720. وثارت ثائرة فولتير للصفير وصيحات الاستنكار، فوثب من مقصورته حيث كان يفور غيظًا وصاح بالجمهور ينتهره. كان ماهرًا، بل كان ممثلًا مسرحيًا ماهرًا، لأنه أحدث تغييرًا تامًا، أحدث انقلابًا مفاجئًا في الصالة. فلا يسعنا، حين نتخيل صالة أفلتت من عقالها، وصار منتهى غبطتها العنيفة إسقاط مسرحية، سوى الإعراب عن إعجابنا بتلك السلطة، السحرية بعض الشيء، التي انبثقت من كلام رجل، لم يكن له شيء من المهابة ولا قوة الصوت ولا القوة الجسدية ولا هيبة الشكل، ولا شيء سوى نظرة باهرة وعبارات ساحرة سقطت من الشرفة على جمهور الصالة، سقوط شلالات من حبات الماس. وحصلت المعجزة: صفـق جمهور الصالة للمؤلف بعد أن صفـر لمسرحيته.

لكن المعجزة لم تبعث أرتيمير من القبر؛ لقد ماتت وشبعت موتًا. وكان فولتير ذا بصيرة نافذة بشأن مؤلفاته ما خيبت ظنه البتة، فقبل بحكم الجمهور. وعاد إلى كتابة مسرحيته فعدل فيها، نزولًا عند ضغط من الماريشال فيلار، وقدمها مجددًا. فرفضها الجمهور أيضًا. وكانت النهاية.

سُمِحَ له بالعودة من منفاه لأن براءته ثبتت لدى الوصي بالبرهان؛ إذ وشى به «أصدقاؤه» من بلاط الأختام، ومن حاشية البارون غورتز! أما هو، فلم يبلغه علم بتلك الخيانة، لكن الشرطة علمت بها. وشعر بأنهم ما عادوا حاقدين عليه في الأوساط العليا. حينئذ طلب إلى الوصي الإذن في أن يقرأ عليه قصيدته *La Ligue* (الرابطة). لقد ألفها وهو في الباستيل، وسوف تُعرَف بعنوانها النهائي لا هنرياد. وقال فولتير للوصي إنه يمجد فيها جده هنري الرابع، لأنه هو يشبه ذلك الجد شبهًا خاصًا. وجرى تكليف تييريو، الكاتب السابق لدى الكاتب بالعدل، ليتولى نسخ أناشيد القصيدة الملحمية التسعة، في حين توجه فولتير للإقامة في قصر صديقه ريشوليو. «أنا الآن في أجمل قصر في فرنسا، فما من أمير لديه مثل تلك التماثيل الجميلة، ولا مثلها عددًا. كل ما هنا ينطِق بعظَمة الكاردينال. فالمدينة مشيدة مثل الساحة الملكية (ساحة الفوج). والقصر مترامي الأرجاء، لكن ما يروقني دون ما عداه هو السيد دوق ريشوليو الذي أحبه بعاطفة لا حدود لها، لكن ليس أكثر مما أحبك أنت». ذلكم هو فولتير: إن الكاتب لدى الكاتب بالعدل والدوق الرائع هما على قدم المساواة في قلب فولتير.

ذلك القصر المنيف قد جرت إزالته اليوم. وباع الذين هدموه حجارته لرصف الطرق. لكن قبل زيارة فولتير بوقت قصير، أوشك الدوق الوسيم أن يُفصَل رأسه عن جسده. فهو شريك في مؤامرة ألبيروني الذي كان سيسلم بايون إلى الإسبان. وقال الوصي إن في جريمة ريشوليو ما يبرر قطع أربعة رؤوس، لو قُبِض على أصحابها. أما عمه الكاردينال، فكان سيقطع رأسًا واحدًا بكل تأكيد، إلا أن ما أنقذ ريشوليو هو الحب الذي كان يعمر قلب الآنسة دو فالوا، ابنة الوصي، نحوه. لقد أحبته حتى التخلي عن لقائه إلى الأبد، والقبول بدوق مودين (مودينا) زوجًا، وهي التي ظلت ترفضه حتى ذلك الحين. أما دوق ريشوليو، المميز دائمًا، فقد حُكِم عليه بالاعتكاف في قصره، فحسب... ومُنِح حق لقاء فولتير تسليةً. لكن الأمر لم يكن عقوبة، بل كان مكافأة. كان الدوق مفعمًا حبًا وصداقة؛ فهو يتمتع بكل شيء، وهو في قمة الطمأنينة، مقتنعًا بأنه إنما وُلِد ليكون ناجحًا في كل شيء، وأن القدر الذي أغدق عليه الهبات، إنما كان يعطيه حقه بوصفه رجلًا سعيدًا.

كان المجتمع على تلك الشاكلة يسلب لب فولتير الذي يهوى مظاهر السعادة، مثلما يهوى مظاهر البذخ.

إنه يمضي من قصر إلى قصر، حاملًا مخطوط لا هنرياد جوازَ سفر: انتقل من قصر ريشوليو إلى سولي، ومن سولي إلى قصر لاسورس، حيث يقيم سيد إنكليزي كبير هو اللورد بولنبروك. أما وهو متمرس بفن الدعاية (أو الإعلان) منذ مولده، فكان يختار بعض المقاطع، فيقرأها في الخفاء، هنا وهنالك، بحضور خمسة عشر شخصًا. لكن يا لهيئاتهم! ويتلقى تييريو التعليمات: إنه ينسخ وينسخ، ويوزع مقطعًا ملائمًا في الأماكن الملائمة، ويتخفى وهو يهمس بالأبيات الشائكة في آذان «رجالات الأدب» المعوزين الذين يحملون أسوأ الأقلام، وينطقون بأسوأ الألسنة، فيروجون من فورهم ما أقسموا على كتمانه، وذاك هو المتوقع منهم. لقد أضحت، باختصار، تلك القصيدة الفريدة، تلك القصيدة المقلقة، شهيرة جدًا حتى قبل إنجازها. وشاعت مقاطع منها في كل مكان، فصار اسم فولتير هذا على كل شفة ولسان، فيراه المرء مكتوبًا في أسفل تلك المقاطع الجريئة التي تهاجم الدين. فالمرء يقرأ اسم فولتير، فيفهمه مرادفًا لكلمة الفضيحة!

ما إن أضحى الخبر شائعًا، حتى رأى فولتير أن الوقت حان لتكذيبه. فعل كل ما وسعه للحصول على ذلك النوع من الشهرة. وما إن حقق نجاحًا باهرًا حتى تسرب الخوف إلى نفسه، فالأنباء الآتية من باريس تثير شيئًا من القلق، فتوجه إلى تييريو: «كيف أن ابنته (القصيدة) تحقق نجاحًا بين الناس، ما دام لديها كثير من الأعداء وكانوا يعتقدون أني والدها الحقيقي».

إلا أن غروره تلاءم كل التلاؤم مع جلسات القراءة تلك، حيث يتصرف كممثل مسرحي أمام جمهور رائع! فهو يقرأ ويقوم بإيماءات، وتكون الحصيلة على الدوام مزيدًا من التقدير. أما ذات مرة، فقد وجه إليه رجل يدعى السيد دو لا فاي ملاحظة شديدة حول طريقته في التحدث عن هنري الرابع. وما كان فولتير ليتوقع مثل ذلك النقد. فكان من حساسيته حيال هذه النقطة الأخيرة أن استبد به سخط شديد، فما كان منه إلا أن جمع أوراقه غاضبًا، وألقى بها في الموقد صارخًا: «ليست جديرة إذًا إلا بأن تُحرَق». فكان الرئيس هينو هو الذي ارتمى على ألسِنَة النار لإنقاذ هنري الرابع! فنجح في ذلك ولم يكن قليل التباهي، إذ ظل يزهو حتى آخر أيامه بأنه أنقذ إحدى الروائع (علينا أن نكون مطمئنين إلى أن تييريو كانت لديه نسخ أخرى). وكان المنقذ المقدام يهتف: «تذكروا أني أنا الذي أنقذت الـ هنرياد، وأن إنقاذها كلفني اثنين من أجود أكمامي». والواقع أن كشاكش أكمام الرجل شاطت قليلًا!

أما وهو يتنقل بين قصر وآخر، فما قل اهتمامه قط بما يجري في العاصمة. كان يعلم بكل شاردة وواردة، وييسر عليه الأمر أن له كثيرًا من الأصدقاء، تماثل سهولة الكتابة لديهم سهولة الكلام. فالضجة التي اهتزت لها أرجاء باريس، في ذلك العام 1721، دوت كقصف الرعد. إنها قضية لو. فالمعلوم أن ذلك الاسكتلندي العبقري، وهو المراقب العام للشؤون المالية، راودته فكرة استبدال الأوراق المالية المضمونة من الملك، بالعملة المعدنية. وافتتن الباريسيون بتلك الأوراق الصغيرة: لقد أبهجتهم تلك الثروات، الخفيفة خفة رؤوسهم، ولا سيما أنهم صاروا يغتنون من يوم إلى آخر، بل من ساعة إلى أخرى، عبر المقامرة بمضاربات جنونية. فتحول شارع كنكانبوا إلى سوق بورصة في الهواء الطلق: إنه برج بابل. وقد ترك لنا ميشليه وصفًا له غاية في الحيوية: «بادر الشطار من المقاطعات كافة ومن البلدان الأوروبية كلها، إضافة إلى مواطنينا من أبناء أقاليم غاسكونيا ودوفينيه وسافوا، إلى اتخاذ مراكزهم باكرًا، فاستأجروا كل الدكاكين لإقامة مكاتبهم فيها. كان يتصادم على طول الشارع الضيق (ولم يزل) ويتزاحم، سيل من حشود المشترين والبائعين والمقايضين والمضاربين والمخدوعين واللصوص. وليس للأسياد من وجود (هؤلاء يضاربون بالأسهم من طريق أشخاص وسطاء)، لكن هنالك كثيرًا من النبلاء والقضاة والرهبان، وحتى كبار العلماء في جامعة السوربون. وليس للحياء من مكان، فالحقيقة عارية: الشتائم والدموع والتجديف والضحكات الصاخبة، تضاف إلى ذلك أشكال من البلبلة. فالأباتي هذا يبيع بطاقات دفن في مقابل أوراق مالية. وهؤلاء السيدات يتاجرن بأنفسهن، فالأسهم مجسدة، والتسديد بالأمهات أو بالبنات. وحين يغلق جرس المساء الشارع المهووس، ينحشر بابل بغليانه في المقاهي، وفي مطاعم الأزقة الجانبية، وفي بيوت المتعة حيث تلجأ الأنسات الماكرات إلى إراحة الرابح من ثقل محفظة نقوده». وصلت إليه، مع ذلك الضجيج المالي، أصوات تلك الثروات التي تعلو فتهوي. فكتب إلى جينونفيل اللطيف يهنئه بأن فكره لم يُشوَّش بذلك «النظام».

«لم يُلحِقِ النظامُ أي ضير
بفكره المحبب اللطيف

فأسلوبه لم يتغير البتة

ومرحه على حاله أبدًا».

لم يتورط فولتير، ولا صديقه أيضًا، في النظام. ولم يفعل جينونفيل ذلك بلامبالاة، أما فولتير فبدافع الحذر. فهو ليس ممن يتولاه الشغف، ولا سيما بما يستهوي الدهماء. صحيح أنه يعرف سورات من الغضب، وحالات من النزق لا تُقاوَم، لكن ذلك لا ينال من مرتكزه العقلي. فهو يزدري عدوى الأفكار، وألوان التشوش، وحالات الهذيان الجماعية. وساعة كان نصف فرنسا يغتني بالورق، ونصفها الثاني يصاب بالإفلاس فيخسر مقتنياته الذهبية، كتب إلى جينونفيل إنه لا يجرؤ على تصديق ما قيل له:

«هل حقًا أُصبتم جميعًا بالجنون في باريس؟ فلا أسمع كلامًا إلا على الملايين. يقولون إن كل من كان ميسورًا صار إلى البؤس، وكل من كان يتسول صار في رغد من العيش. فهل هذا واقع؟ هل هو وهم؟ هل عثر نصف الأمة على الحجر الفلسفي في طواحين الورق؟ وهل لو إله أم مشعوذ أم هو لص ينتشي بالمخدر الذي يوزعه على الجميع؟ وهل يرضى الناس بثروات وهمية؟ إنها فوضى لا يسعني أن أتدبر أمرها، ويتراءى لي أنك لا تدرك فحواها. ولا أستسلم من ناحيتي لأوهام سوى أوهام الشعر».

إن الحس السليم لدى آل أرويه لا يتلاءم والأوهام.

يبقى أن لديه مستشارين ممتازين، هم الأشقاء باري؛ فهم أعداء «النظام» اللدودون الذين يراهنون على انهياره، وقد بنَوا على ذلك الانهيار ثروة هائلة، أما صديقهم فولتير الذي سار على خطاهم فقد شهد رأس ماله يتضاعف عشر مرات، وهم ساعدوا حذره الطبيعي. وربما كان سيستجيب للإغراء، فالأمر خارق جدًا! ولم يكن مستحيلًا على شاب، تشير الدلائل كافة إلى أنه لا يرغب في أن يدخل إلى المجتمع دخول شاعر صعلوك، وإنما دخول سيد وشاعر، ألا يكون فكر في الانتفاع بالمضاربة. أما حين انهارت أوراق لو، لخص فولتير الكشف الختامي للنظام بكلمة واحدة: «أعادوا إلى الورق قيمته الأولى».

إلا أن الماهرين لعبوا لعبتهم. كان أمير كونتي الذي أجاد فهم كلمة فولتير يتمتع أيضًا بمواهب أخرى: فهو أُحيط علمًا بالإفلاس في الوقت الملائم، فعمد إلى استرداد أمواله من مصرف لو. لزمتهم ثلاث عربات لنقل قطع العملة المعدنية، ودار الكلام على أربعة عشر مليونًا من الليرات، أي ما يقارب أربعة عشر مليارًا من الفرنكات القديمة. في اليوم التالي، قام دوق بوربون بعملية السحب نفسها. ورأى الشعب أن الأمراء الأصلاء يراهنون أحسن مراهنة على أوراق لو. لكن شعبيتهم لم تحقق كسبًا. وهذا ما يفسر الإلماع في كلام فولتير؛ فيما كان في المسرح مع أمير كونتي، أعطى هذا الأخير الإيعاز بالتصفيق، وقلدته الصالة. حينئذ واتت فولتير الجرأة ليقول له:

«يا سيدي، ما كنتَ تحسب أن لديك ذلك الرصيد كله».

في صيف عام 1721، وجد فولتير نفسه في قصر سولي، لكن بملء إرادته هذه المرة. وتمثلت تزجية الوقت في ذلك الفصل، في فونتونيل وكتابه: *La Pluralité des mondes* (تعدد العوالم). جعلوا يدرسون الكواكب: أتاح لهم ذلك الخروجَ ليلًا إلى أعماق الحديقة الكبرى ومنَحَهم شاغلًا مهمًا لأن العالم يتغير؛ فهناك، بدءًا من الآن، رغبة في أن يكون المرء «رجل علم» وفلكيًا على وجه الخصوص. لا مناص إذًا من التعلم. وارتمت السيدات والسادة على العلم ارتماءهم على أوراق لو. تركز الكلام على ما يدور (في فلك)، من غير معرفة عميقة بالدوران حول أي شيء، ولا بكيفية الدوران ولا السبب، ولا مناص من الاعتراف بأن الموضوع شائك. إلا أن هنالك متعة الكلام، والتحديق في السماء والعشاء تحت ضوء القمر. كان ذلك القصر أشبه ما يكون بقفص طيور باذخ الثراء، يعمر جنباته حفيف أجنحة براقة، وأصوات زقزقات وطرق مناقير وقبلات. وواقع الحال أن الأفضل تلاميذ فونتونيل تلميذة تحمل اسمًا رائعًا هو: السيدة دو لا ميزانجير (السيدة القرقفة – أنثى طائر القرقف). ولم يكن الأمر جادًا على الإطلاق، فلا تساور فولتير أي أوهام في ذلك الشأن. إلا أنه أمر ممتع:

«كنا عند المساء، فوق أسرّة من الخضرة
أسرّة، قامت يد الطبيعة
في تلك البساتين الرائعة
بإبداعها لمغامرة أخرى

نُحدِث خلطًا في نظام السموات.
فننظر إلى الزهرة على أنها المشتري
لأننا، كما تعلمون، ليس لدينا هنا
لسبر مواقع الكواكب
سوى نظارات دار الأوبرا
بدلًا من المناظير الطويلة».

ذلك هو القول الفصل. ولسنا نرى السبب الذي حال دون مناقشة المسائل نفسها في صالة الرقص. وكتب إلى فونتونيل يشكره. إنه بهيئة الهازل، لكن رسالته حسنة السبك، وقد صاغها لتروق فونتونيل فيقرأها: إنها عملية دعائية! وهو يعرف ذلك حق المعرفة، لذا كتب إلى تييريو يقول: «رد لي رسالتي إلى فونتونيل وأجوبته عليها، فذلك كله لا يساوي الشيء الكثير لكن في العالم حمقى سوف يجدونها جيدة».

تصفية حسابات عائلية

توفي السيد أرويه بمرض الاستسقاء في مطلع كانون الثاني/ يناير 1722. وكانت العلاقات بين الأب والابن قد تحسّنت، إذ وردت إشارة إلى أن الولدين كانا في ظل بيت الأسرة لدى حصول الوفاة. ولا يبدو أن فولتير قد أبدى كثيرًا من الحزن، لكن التركة وأخاه سوف يتسببان له بحزن حقيقي. كان أرمان هو المفضل لأنه البكر، فالحق إلى جانبه ورجال القضاء أيضًا. وذلك ما أثار حفيظة فولتير، فكتب إلى السيدة دو برنيير يقول: «سلكت ثروتي منحى شيطانيًا في ديوان الحسابات حتى إني سأغدو ملزمًا يومًا بأن أعمل لأعيش من بعد أن عشت لأعمل». فيا لها من حكمة جميلة لمثابر كبير. لكن تلك الثروة التي كان ينتظرها، والتي كان لها أن تهبه وقت فراغ للعمل، أُفلتت من بين يديه. فرفع دعوى ضد أخيه: «تراكمت علي كومة من المشاغل أصغرُها الدعوى التي أجددها ضد وصية أبي»، بيد أنه خسر الدعوى.

بلغ ما شعر به السيد أرويه من صدمة بسبب فرانسوا حدًا جعله يلحِق به الضرر في وصيته لمصلحة أخيه. فلم يكن من شيء مشترك بين فولتير، وأرمان الجانسيني

[المتعصب] مثل السيد أرويه، ومثل أغلبية رجالات القضاء. فكان هؤلاء جانسينيين بسبب نوع من التشدد والنزاهة الأخلاقية، أما أرمان فبنوع من الشراسة والجنون. وكان السيد أرويه يفضل الجانسيني المجنون على المتهتك بجنون: فليس الأول سوى مقيتٍ ومنفّر أما الآخر فمخز وشائن. فضل أرمان إذًا لأنه ملتزم بتقاليد آل أرويه. والمرء بصحبته يشعر بالطمأنينة: إنه «مثل أي شخص آخر».

توفر لأرمان الوقت الكافي ليقوم، بين فرض صلاة وآخر، بنقل إرث أبيه في سجلات ديوان المحاسبة، وأنجز ذلك في اللحظة الأخيرة؛ إذ جرى التوقيع على تحويل التركة قبل الوفاة بيومين اثنين، لكن كان كل شيء نظاميًا. ويمثل ذلك التحويل القسم الأكبر من التركة: مئتان وأربعون ألف ليرة في عام 1701 (تعادل 240 مليونًا من الفرنكات القديمة). وأما الشقيقة، السيدة مينو، فحصلت على مبنيَين، إضافةً إلى بائنتها. ولم يكن فولتير راغبًا في تولي رقابة الأفاوية في ديوان المحاسبة، بل كان راغبًا في مثل نصف قيمة التركة. فهو لم يتلق سوى ريع بأربعة آلاف ليرة (هو دخل بقيمة أربعة ملايين من الفرنكات القديمة). فالمبلغ يضمن حياة يسرٍ لا بأس بها، لكنه ليس بالثروة التي ورثها أرمان.

مكنته العلاقات الطيبة التي كان يقيمها مع الإخوة باري من بناء ثروة صغيرة؛ إذ صار يملك ثلاثة أسهم في شركة الهند، وخمسة سندات بقيمة ألف ليرة. وقد عاد عليه ذلك كله بريع قيمته خمسمئة ليرة، يضاف إليه مرتب خصه الوصي به، وقيمته ألف وخمسمئة ليرة، ثم رفع هذا الأمير الطيب القيمة إلى ألفي ليرة لدى علمه بوفاة السيد أرويه. لقد أخذته مشاعر الشفقة باليتيم المسكين!

كان لدى ذلك اليتيم إذًا، في عام 1724، إيراد يقارب ستة آلاف وخمسمئة ليرة، أي ما يقارب ستة ملايين من الفرنكات القديمة، تُضاف إليها حقوق الكاتب لمسرحيته. لكن هذه الحقوق تمثل مبلغًا ضئيلًا، فلم يطالب باستيفائها كاملة. لقد آثر التصرف كسيد كبير فترك للممثلين القسم الأكبر من ذلك الريع.

الإغراء المرفوض

كانت لدى ماريشالة فيلار رغبة حقيقية في إعادته إليها، لكن رهافة حسها في أن تغامر بمسعى قد يؤول إلى الفشل، جعلتها تبعث إليه بالماريشال. الماريشال العجوز، في العادة، رجل مقدام، حسير البصر. يبقى أن الماريشال هذا رجل

رقيق الجانب حيال فولتير، فكتب له يدعوه، ولوّح له ببريق جميع المباهج التي تنتظره، وهي مباهج راهنة؛ فهم يقدمون المسرحيات في فيلار، ولديهم مسرح أخاذ، وممثلون وممثلات، وهواة... ولا ينقصهم سوى فولتير. إلا أنه لا يقارَب؛ فهو يتمترس وراء أوامر طبيبه. ويعلمنا بأنه مشرف على الموت، وإنا لنسمع هذه الشكوى التي سوف تتجاوب أصداؤها حتى نهاية حياة لا تنتهي، وهي التي لم تكن، إذا ما صدقنا كلامه، معاناة طويلة في تجرع سكرات الموت. بلى، إنه يموت، إنه بين يدي طبيبه، فإن فارقه خطوة واحدة، يلفظ أنفاسه. فهل الماريشال عازم على قتله؟

هذا الطبيب واسمه فيناش، تلقى موعظة من فولتير، فمضى يردد عبر باريس قائلًا إن هواء فيلار هواء مسموم بالنسبة إلى مريضه. وكان فيناش هذا من نوع المشعوذين، فقد بحث عن حجر الفلاسفة بصحبة الوصي الذي كان يهوى تلك البحوث الكبريتية، فلم يعثر هذا عليه ولا ذاك، لكن المشعوذ ظل متفوقًا على الأمير؛ إذ عثر على إكسير يشفي بعض ذوي الرؤى، وباعه من آخرين عديدين فلم يُشفَ منهم أحد، لكنهم أمنوا له ثروة بلغت مئة ألف ليرة.

لم يتوجه فولتير إلى فيلار، لكنه كان يتحسر كثيرًا وهو يقرأ رسائل الماريشال الأخاذة: أعلموه بأنهم قدموا لتوّهم مسرحية بوليوكت. وتنكّر اثنان من الحرس الملكي، ليتوليا دور بولين وستراتونيس! وكان لا بد من وضع شعر مسرَّح لهما، وإلباسهما ثيابًا نسائية وتبريجهما. وذلك ما تطوعت للقيام به، بحماسة جنونية، بنت الماريشال دونواي. أما حين لزم تثبيت سلة الفستان المنفوخ على الأرداف العارية لجنديي صاحب الجلالة، أصيبت تلك الفتاة بالذعر لِما أبدت كل من بولين وستراتونيس هاتين من إعجاب - وكان إعجابًا صامتًا - بماشطتهما الفتية.

ها هي الكوميديا ماثلة في كل مكان، حتى في جناح الخدم. فقد أحاط الماريشالُ فولتير علمًا بان إحدى الوصيفات جُنت في هوى بستاني، فعارضت أمها ذلك الزواج غير المتكافئ معارضة قطعية. أما إذا كان لا بد من ذلك، فربما تُذعن إذا ما تولّت السيدة الماريشالة نفقات العرس في القصر. لكن، يا للأسف! فهذه الأخيرة المعروفة بشدة توفيرها، فضلت توجيه موعظة إلى الأم عن قسوة قلبها، بدلًا من إعطائها مئة ليرة لتزويج ابنتها. وها هو ذا الماريشال يتهكم بزوجته

بسبب بخلها، على الرغم من أنه يتمتع بالصيت نفسه. فحين تسلم منصبه حاكمًا لمقاطعة البروفانس، كان العرف يقضي بتقديم كيس نقود للحاكم الجديد، وأن يقوم الحاكم من جانبه برفضه. أما هو، فرفض أن يرفضه. وهنالك من ألح عليه بقوله إن دوق فندوم رفضه. فهتف الماريشال قائلًا: «كان أميرًا لا نظير له». واستولى على كيس النقود البروفنسالية.

لكن ذلك لم يمنعه من أن يكون طلق اللسان: إنه يقص كل شيء على فولتير، فيريد له أن يكون من أهل البيت. ذلك الماريشال يحرك العواطف، فلسان حاله يقول: «هيا بنا، إنما أنت من أهل البيت. وأنا، كما ترى، أقول لك كل شيء». وروى له أن حوذيًا من المدعوين حطم رأس خادم، وأن كاهنًا استدعته الأسقفية لأنه أساء الكلام على الثالوث الأقدس... إلخ.

كانت لدى فولتير الجرأة على مقاومة التودد الذي أبداه حياله السيد الذائع الصيت، وماريشال فرنسا؛ إذ كان في الوقت نفسه شديد التجذر في ذلك المجتمع المولع به كل الولع، ولا ريب في أنه كان زينة له أيضًا، والأكيد أيضًا أن ذلك المجتمع الراقي يشعر حتى أعمق أعماقه بأن فولتير ينتمي إليه. لقد قاوم فولتير لأن الماريشالة قاومته: صمدت في وجهه هو، ولم تفعل ذلك تجاه آخرين. لكن تجدر الإشارة إلى الطريقة التي يتعامل بها سيد كبير في عهد الوصاية مع شاعر فتي، هو ابن كاتب بالعدل. إن في جو العصر شيئًا جديدًا.

سكابان طموح

دفع الطموح بفولتير خدمةً للملك في مقاصد سياسته العليا، إلى أن يشرع في مسايرة أحد الوزراء، ألا وهو الكاردينال دوبوا. إنه شخص خسيس، وفولتير يعرف ذلك مثله مثل الجميع. لكن هذا لم يحل بينه وبين اللجوء إلى أحط أشكال المداجاة. ولنضِف أنه لم يكن الوحيد في التملق، بل دله فونتونيل، وحتى ماسيون، على الطريق: إن هذا الكاردينال، وهو الشخصية الدينية الرفيعة المستوى، وقع الشهادة على استقامة الحياة وحسن الأخلاق التي كانت ضرورية للأباتي دوبوا (المتخلي عن الفسق)، من أجل الحصول على قبعة الكاردينالية، وهي الدرجة السامية الوحيدة التي تلائم رئيس وزراء يرتدي الجبة الكهنوتية.

لكن فولتير زاد على ذلك، فقارنه بريشوليو، على حساب ريشوليو بالتأكيد:

«عبقريتك وعبقريته تتنازعان النصر
لكن برزتَ فكان لغزًا
أن يُحتجَبَ هو زمنًا».

بدا ذلك تطاولًا بعض الشيء، إلا أنه لم يكن كافيًا. حينئذٍ أعرب فولتير عن رغبات مكشوفة أكثر. إن ما بلغ علمنا يكاد لا يُصدق، وكما أن كل شيء في الحياة عرضة للدسائس، فإننا نقع فيها على مشاهد سامية، وعلى هزليات وتصرفات ماكرة. وهذه عينة منها.

اكتشف فولتير، وهو يُعمِل نبشًا في الزوايا الخفية من باريس، شخصًا اسمه سلومون ليفي. كان ذلك الرجل قد قام بأعمال كثيرة وفي بلدان عديدة. لكن فولتير المتعطش طمعًا، لم يعبأ بأن يكون الرجل عميلًا مزدوجًا أو ثلاثيًا. ولأن سلومون يخدم، فلا بد من استخدامه لدى الكاردينال الوزير. وسبق للبلاط الفرنسي أن استخدم ذلك العميل تحت حكم شاميار ضد النمسا. وكانت النمسا قد استخدمته ضد فرنسا، ذلك أن سلومون كان يزود الجيش الإمبراطوري (النمساوي) بالسلاح، لكن ذلك لم يحل دون تزويد الماريشال دو فيلروا، وهو قائد القوات الفرنسية في ألمانيا، بالمعلومات. هذا وقام الفرنسيون بتوقيفه، لكنه استطاع التملص دونما ضير، حين أعطاهم معلومات أكثر دقة. وعمل أيضًا في خدمة الماريشال فيلار في النمسا. لم يقم فولتير، إذًا، باختيار واحد مستجد ليتولى تدريبه. لكن علامَ عساه يتدرب؟ على الجاسوسية أم على الدبلوماسية؟ لقد رفع سلومون من تطلعاته، حين أخبره بأنه على أطيب علاقة بالسكرتير الخاص بالإمبراطور، فاعتقد صديقنا المتدرب أنه أصبح عند المصدر نفسه للمعلومات التي ستنير سياسة الملك حيال النمسا.

أعلن أنه على استعداد للتوجه إلى فيينا، فقوبل إعلانه بالتخوف: بأي صفة؟ ومن عساه يكون في نهاية الأمر؟ جاسوسًا عند جاسوس؟ أما وقد أعماه الطمع، فإنه ارتمى كالمجنون في تلك القضية، وكتب في 28 أيار/مايو 1722 إلى الكاردينال الوزير، يقول:

«أستطيع بيسر يفوق كل من عداي أن أتوجه إلى ألمانيا، بحجة لقاء روسو الذي كتبت إليه قبل شهرين، معربًا عن رغبتي في عرض قصيدتي (لا هنرياد) عليه وعلى الأمير أوجين، بل إن لدي رسائل من الأمير أوجين يشرفني فيها بقوله إنه سيسر لرؤيتي. وإذا كان لهذه الاعتبارات أن تنفع في شيء، فإني أتوسل إلى سيادتكم أن تثقوا من أنكم لن تكونوا مستائين مني، ومن أني سأكون ممتنًا لسيادتكم إلى الأبد، لإتاحتكم الفرصة أمامي كي أخدم سيادتكم».

إنه لا يطلب شيئًا سوى «أن يُستخدَم لشيء ما»، ولا يطلب سوى أنْ يُكلف بمهمة، وأن يُدون اسمُه على لائحة الجواسيس. إنه لا يتكلم على سفارة، لكن إن كان لا يأتي إلى ذكرها، فهو يفكر فيها. فلْيضعوه على المحك، ولسوف ينجح. وسيعرف من بعد كيف يمول نجاحه. أما في المهمة فسيكون على رأس القائمة؛ فالأمر يعتمل فيه كالحمى. إيه! لو كان يسعه أن يضع قدمه في تلك الدار العظيمة التي تُدعى البلاط! لكن يشاء تعسه، ألا يُلقيَ الكاردينال بالًا للجاسوس الهاوي. لقد أبقى عليه في مرحلة الهواية. فيا لها من حكومة سيئة! لو كان في إنكلترا، لأضحى وزيرًا.

لقاء مقيت

أحيط فولتير علمًا بالدور الذي أداه «صديقه» بوروغار في توقيفه، فاستبد به حقد جنوني وعنيد، على نحو ما سيتولاه أكثر من مرة في حياته. وعلينا الاعتراف بأن بوروغار هذا ليس جديرًا بغير ذلك. فهذا القائد لفيلق بروفانس لم يكن يخوض حربًا في ساحات الوغى، بل في مقاهي باريس ومع الشعراء العابثين، فيلاحق الهازئين من خليلات الوصي، لكنه يدع أعداء فرنسا ينامون ملء جفونهم. بينما كان فولتير في فرساي، في عام 1720، وبعد أربعة أعوام من احتجازه، وجد نفسه مع الواشي وجهًا لوجه. كان الأمر رهيبًا. أحس الشاعر بأنه يفور ويغلي، وقد صَعَق الواشيَ الخسيس بنظرة متأججة، وانتفض نافشًا ريشه مثل ديك يستعد للصراع، شاهرًا لسانه المسموم، صارخًا بصوت يصم الآذان، متلفظًا بأقذع الشتائم التي تليق بذاك، غير أنهما في بلاط الملك! فأحاط بهما الحضور. وبقي بوروغار أكثر رباطة جأش، فتوعد فولتير بأن يجعله خلال وقت قصير يندم على خروجه هذا.

كانت هفوة خطرة من جانب فولتير الذي توقعه حيويته الرهيبة في مآزق قبيحة. كان ذلك الجاسوس تحت حماية وزير الحربية السيد لوبلان. وكان هذا الأخير يعرف حق المعرفة ما نفع بوروغار الذي كان صنيعته. فهل تظنون أن فولتير اهتز له جفن حين علم بذلك؟ على الإطلاق: إنه على نحو ما هو في أغلب الأحيان، فريسة هيجان مسعور يجعله يفقد كل اتزان، وكل سيطرة على نفسه. وهناك كلام كثير يمكن أن يقال على أعصاب فولتير، وعلى حساسيته القاتلة حيال بعض الاستثارات. كانت لديه كما يقول الأطباء، «حساسيات مفرطة»، وليست حيال هذه السلعة أو هذا الشعور، وإنما حيال هذا الشخص، وهذه الأفكار، وتلك المعتقدات، وتلك الفلسفات. يكفي أن يُلفَظ أمامه، دونما قصد، اسم مقيت، لتعروه رعدة. ولا تعود المسألة أن يسيطر على نفسه فيتصرف بتعقل، بل أن يعاني بسبب انفعاله فيتحمل عواقبه الحمقاء والفاجعة. وهكذا، فحين جرى تحذير فولتير علنًا من التصرفات الرعناء حيال بوروغار، وإنذاره بأن الوزير هو الذي سينتقم له، لأنه أحد مقربيه، أطلق الرد الملتهب قائلًا: «أعرف أنهم يكافئون الجواسيس، لكن لم يصل إلى علمي أن مكافأتهم أن يأكلوا على مائدة الوزير».

علينا، كي نقدر خطورة المسألة، أن نعرف أن السيد لوبلان هذا كان تقريبًا من سوية بوروغار الأخلاقية نفسها، وكان بين مقربيه جاسوس آخر، وعسكري قديم فقد رتبته على يد الجلاد (وكان الوزير يحتفي به!) لارتكابه نصف عملية اغتيال! فما نصف عملية اغتيال وما ربعها؟ إنها طعنة خنجر انزلقت فوق أحد الأضلاع، أو طلقة أصابت فلم تقتل. فكان ذلك الوزير محوطًا، على نحو ما سنرى، بأناس من الوجهاء. أما ضميره فلا يسبب له أي عبء. وهكذا، حين طلب إليه بوروغار أن يريحه من فولتير بأي وسيلة كانت، قال له السيد لوبلان (الأبيض)، وهو اسم على غير مسمى: «تصرف بحيث لا يرى أحد شيئًا».

فيا لفولتير من مسكين! كادت سيرة حياته أن تكون قصيرة. لكن أولئك المجرمين كانوا، إضافةً إلى ذلك، حمقى: كان على بوروغار أن يعلم أن فولتير، ما لم يمت من فوره، فإن صراخه سوف يُسمع في أرجاء باريس كافة. وذلك ما قد وقع: أُوقِف فولتير على جسر سيفر، فانتُزِع من عربته، وأُوسِع ضربًا بعصا، وتلقى طعنة خنجر من يد بوروغار في وجهه. وعلى الرغم من ألمه وضعفه، كانت الغلبة

لغضبه ومذلته وحقده. فصرخ بملء فيه، وجاب باريس كلها منددًا بالاعتداء الذي كان ضحيته، وسعى من بعد لأن يثأر.

أبدى في ملاحقة بوروغار تصلبًا لا يُصدق. أهمل أعماله ومباهجه. ومضى من قاضٍ إلى قاضٍ، فأرغم قاضي منطقة سيفر على إصدار أمر توقيف. وثمة عدالة على الرغم من كل شيء، ما دام بوروغار قد شعر بالخوف؛ فتوجه ليتوارى خلف ثنايا علم فيلقه العسكري. ذلك أن بوروغار عسكري! ولا بد من أن يساوره الخوف في باريس! فحين يتغيب فولتير يتولى الملاحقة تيريو الذي ينبغي أن يجعل القضاة يتولون الملاحقة. ولقد كتب من بروكسل يقول: «اعملوا على جلب من تعرفون مكبلًا بالقيود». وسوف تشغله هذه القضية طوال أعوام عدة. قال إن مهمته سوف تنحصر، فور رجوعه إلى باريس، في توقيف السافل ومحاكمته. «أنوي التوجه إلى باريس في غضون أسبوعين، بشأن الرجل المقيد. سوف أكون هنالك في محيط القبض على السافل ومواصلة معاقبته بنفسي ومعاونة أصدقائي». لكن المحاكمة افتُتحت في شاتليه، حتى تتولى العدالة الانتقام له في حال عجزه عن الانتقام لنفسه بنفسه.

هل يُفهم من ذلك أنه كان في نية فولتير أن يبارز بوروغار بالسيف؟ هنالك ما يدفع نحو ذلك الاعتقاد. لكن ليس في فولتير شيء من مسايف، وكان الحسام سيخترقه من الخطوة الأولى. لقد أثار ذلك الزعم ضحك بعضهم ممن كانوا مقتنعين بالجبن الفطري لدى فولتير، حتى لم يروا في ذلك إلا تشدقًا. ولم يتوانَ صديقه دارجنسون عن قول ذلك، لكن الأمر لم يقلل بشيء من محبته لفولتير وتقديره له، ذلك أنه أدرك بحق أن جرأة فولتير كامنة في طبعه، لا في أعصابه التي تفتقر إلى الصلابة.

كتب دارجنسون يقول: «إن في روحه جرأة جديرة بتورين، لكنه يخشى أقل الأخطار على جسده، فهو خواف».

ذلك قريب من الحق كل القرب، فهو موسوس فيه هشاشة ووجل، لكنه قادر، إذا ما ثارت ثائرته، على السعي لقتل بوروغار، لكن بالطريقة الخرقاء التي تميز رجلًا لا يفقه في إشهار سلاح سوى قلمه. ولئن لم يكن بقادر على المبارزة بشجاعة متعقلة، فإنه قادر من دون شك على العراك باهتياج مسعور.

مضى عامان، وبوروغار ما زال يروح ويغدو مطمئنًا: «يواصل دومولان (وكيله للدعوى) باسمي، محاكمة بوروغار. لقد أفلست بسبب النفقات».

لكن بم تهم النفقات إذا ما جرى شنق بوروغار؟ فذلك ما يحلم به فولتير. ويشاء حسن الطالع أن يفقد لوبلان الحظوة. لقد مضى الشرير ليُستبدَل به الإنسان الطيب: البارون دو بروتوي.

حرر القضاة المحاضر، ولما لم يجدوا من عائق، نجحوا في مسعاهم، فأضحى بوروغار على نحو ما حلم به فولتير: وُضِعت يداه في القيود وأُلقيَ به في غياهب السجن. طالب فولتير باستعادة التحقيق كله من بداياته، كي يُبقيَ عليه في السجن أطول مدة ممكنة. وبذل مساعيه كافة من أجل الحكم عليه «بعقوبة أكثر تلاؤمًا مع جريمته ومع القوانين، وتكون أكثر من مجرد نفي».

كتب إلى السيدة دو برنيير يقول بلهجة فيها كثير من الطلاقة: «لا يزال بوروغار في سجن شاتليه، وبودي الإبقاء عليه هناك بعض الوقت».

ما حقيقة ما حل ببوروغار؟ لم يقع أحدٌ له على أثر من بعد. لكن سوف يُعلمنا عدو رهيب لفولتير، هو الأباتي ديفونتين، أن الشاعر تلقى تعويضًا عن الضربات التي أصيب بها فوق جسر سيفر، قيمته ثلاثة آلاف إيكو[23]! وأن فولتير اغتبط اغتباط بخيل شحيح للمبلغ السخي الذي قبضه لقاء العصي التي ضُرِب بها. لكن ذلك لنميمة بحتة: إن فولتير في تلك القضية سيستهزئ بقطع الإيكو، ولئن كان استلمها، فهو على استعداد لردها عن طيب خاطر لقاء نفقات سجن دائم يقبع فيه الذي اعتدى عليه.

إن المال ليس بذي قيمة في نظر فولتير، في قضايا الكراهية أو الصداقة، فمن الممكن أن يُتلِف كل ماله في سبيل إلحاق الأذى، ومن الممكن أن يتلف كل ماله في سبيل فعل الخير.

(23) الإيكو (écu) عملة فرنسية من العصور الوسطى، صُكت من الذهب بداية ثم من الفضة، وتحوي نقوشًا ترمز إلى أسلحة المملكة الفرنسية. استمر التعامل بها حتى بداية العصر الحديث. (المحرر)

قام فولتير، عند نهاية شتاء 1722، بمغامرة بصحبة صديقة حديثة العهد، بدأ ينعم وهو بقربها بمباهج كثيرة، من غير أن يتكلف في المقابل ربع ساعة من السأم. إنها السيدة المركيزة دو روبلموند، وهي بنت الماريشال داليغر التي كانت قد تزوجت من سيد فلامنكي قُتل وهو يعمل في خدمة ملك إسبانيا. واعترافًا بالفضل، أجرى ذلك العاهل للأرملة نفقة تبلغ عشرة آلاف ليرة. ومضى وقت طويل وهي تقبض جرايتها حتى نسيت مصدرها. لكن لندع سان سيمون يحدثنا عنها: كانت ذات طبع لعوب حتى لقبوها في البلاط بـ «الشقراء» أو بـ «خالية البال دومًا»، ما يدعو الخيال إلى أن يمضي بعيدًا... ويقولَ إنها لم تكن شقَراء البتة، بل هي «صهباء مثل بقرة» و«على درجة من الوقاحة لا مثيل لها»، وكانت تتسلل إلى كل مكان، فأنت «تراها في الأسواق والأماكن الصاخبة كافةً»...

تلك هي التي آثر شاعرنا مرافقتها لزيارة منطقة الفلاندر. والحق أن تلك الحال كانت تمتعه، لكننا لا نشعر بأنه مطمئنٌ كل الطمأنينة. وقد وضع شرطًا للسفر، هو التوقف في بروكسل، حيث كان راغبًا في أن يزور جان باتيست روسو، وأن يقرأ له قصيدته لا هنرياد. وما دامت هي التي تتولى القيادة فإنها قبلت. فالعربة والخيول والحوذيون والخدم، ملك لها. أما هو، فمدعو.

جرى التوقف في بدء الأمر في كامبريه. توقفوا أسابيع عدة: كان في كامبريه مؤتمر دبلوماسي. فالمدينة غاصة بالسفراء والوزراء والنساء والجواسيس والممثلين المسرحيين والجنرالات والماريشالات والأساقفة والطهاة المقبلين من أمم شتى. كان الكاردينال دوبوا أسقف كامبريه: إيه، يا فينيلون! إن طائر تم كامبريه استبدلوا به بومًا. وأعاد فولتير إثارة قضية سلومون، وبعث بتقرير إلى الكاردينال الوزير الذي لم يسأله شيئًا عن سير مؤتمر كامبريه. ويخامرنا الشك في أن يكون فولتير وصديقته المركيزة يعرفان كثيرًا من الناس، أو أنهما كانا معروفين لدى كثيرين، وأنهما يحظيان بأحسن استقبال. وصانع الكاردينال، وهو يُطري له محاسن كامبريه وثراءها وجوّها الحسن، كتب يقول: «وصلنا، يا سيدي، إلى حاضرتكم، حيث أعتقد أن سفراء أوروبا وطهاتها كافة ضرب بعضهم لبعضهم الآخر موعدًا. ويبدو أن وزراء ألمانيا كافةً ليسوا في كامبريه إلا ليشربوا نخب صحة الإمبراطور. أما السادة سفراء إسبانيا، فالواحد يحضر قداسين يوميًا،

والآخر يتولى توجيه ممثلي المسرح. والوزراء الإنكليز يرسلون كثيرًا من البريد إلى شمبانيا والقليل إلى لندن».

لكن ما حال الفرنسيين؟ المفروض أن يعرف الكاردينال ما كانوا يفعلون. لم يبدُ في نظره ذلك الخبر بعيدًا جدًا عن الصحة، لأنه صاغ رأيه عن ذلك المؤتمر كما يلي: «سوف نرى مؤتمر كامبريه هذا يستخدم نصف فترة انعقاده لتسوية رسمياته، والنصف الآخر في عدم إنجاز أي شيء إلى حين وقوع حوادث غير متوقعة تعمل على حله».

ينصرف الناس، بانتظار أن يُحَل، إلى التسلية. كانت الأقسام كلها تتضمن عروضًا مسرحية: فتقدم فولتير ليدس أنفه ويمد يده ويُشهر قلمه. لكن إدارة المسرح كانت امتيازًا أُعطيَ لسفير إسبانيا الذي لم يرغب في أي تنازل لمؤلف أوديب. وانقسموا إلى فئتين: كانوا يتبادلون الكلام أو يتراسلون، نثرًا وشعرًا، فيُطرون اختيار هذا، ويرجون الآخر أن يُذعن. وبذل فولتير أقصى جهده ليدعم السيدة دو روبلموند؛ أي مسرحيته هو. لم ينجحوا بأحسن مما نجحوا في ميدان الوقاحة. كانوا يتبادلون التملق دونما حياء، ولم تتراجع السيدة دو روبلموند أمام أي تضحية، فكان أن انتهى الأمر باختيار أوديب. ثم نشبت الحرب مجددًا بشأن موضوع آخر: لقد حل زمن الصوم. رفض كهنة كامبريه القانونيون إعفاء المؤتمر من الصوم. فلم يقابَلوا إلا بصرخة استنكار؛ فهم لم يجيئوا إلى كامبريه كي يصابوا بالهزال. ولا مناص من المناقشة. وفولتير من خيرة البارعين فيها، أما الأسباب فرائعة. أليس تطبيق الصوم تمايزًا أحمق تجاه الوزراء البروتستانت الذين سوف نمتهنهم ونحن نتظاهر بتلقينهم درسًا؟ ألن تخفق المفاوضات مع دبلوماسيين تعكر مزاجهم تلك العقوبة؟ أخيرًا، أليس في إقامة مأدبة فاخرة، في وسط الصوم، لياقة أكبر من الإماتة ضمن ظروف على ذلك النحو من السخف؟

لكن الكهنة المتعنتين لا يرغبون في الإصغاء: سوف يلتزم المؤتمر بالصوم!

كان لا بد من التوجه إلى رئيسهم، إلى أسقفهم، الكاردينال الوزير في فرساي. ولم يتأخر في الجواب: لقد استنكر موقف الكهنة القانونيين فنعتهم بالأغبياء، وأصدر حِلًا بإعفاء المؤتمر بكامله باسم التواضع المسيحي الذي يحظر علينا اجتذاب الانتباه بتصرفات تفاخرية.

بعدئذٍ وجد الطباخون والممثلون المسرحيون أن لهم مطلق الحرية.

بعد أن استنفد فولتير وإيجيري مباهج كامبريه، توجها إلى بروكسل، وخلفا وراءهما تمتماتٍ نميمة تسبب بها ثنائيهما العجيب. وتميزت رعونتهما بإساءة فهم التلميحات إلى علاقتهما المحبية، والدفاع عن نفسيهما، وقد ظهرت عليهما ملامح من السخط صارت في هزليتها مادة تندر لمجتمع، هيهاتِ أن يعبأ كثيرًا بتلك المخالطة التي جمعت شاعرًا فتيًا متهتكًا بحسناء سابقة، في بلاط لويس الرابع عشر، بقي لديها فضلات من الجمال، بَلْهَ الفضيلة. لكنها كانت على درجة من الحيوية وخفة الروح التي لإحدى حمقاوات البلاط، فما كان من أحد يطلب إليها أن تتصنع البراءة مع شاعرها الضئيل الهزيل.

كان فولتير وصديقته، داخل العربة الضخمة التي تجوب الطرق الكبرى، أقل تبادلًا لأحاديث غزلية مما هما عليه في المجتمع؛ فهما يخوضان في منازعات فلسفية. لم تكن السيدة دو روبلموند ترغب في التفكر إلا في الموضوعات الكبرى. وشرح فولتير لها لوكريس، فآل الشرح سريعًا إلى المروق والمجون، كان يريد من فلسفته:

«أن تعلمك ازدراء أهوال القبر
ومظاهر الرعب في الحياة الآخرة».

كانت تعشق ذلك النوع من الدروس، وهي دروس تعلمتها من زمان طويل. أما وأن الأستاذ هو فولتير، فقد كانت تكرر رغبتها بضرورة المسارعة إلى استبعاد «الأكاذيب المقدسة التي تعج بها الأرض». وأهدى إليها ضمن ذلك السياق، *Épitre à Uranie* (رسالة إلى أوراني): إنها من دخان حفلات العشاء في المعبد، وقد استعادتها ذاكرته بعد مرور عشرة أعوام: كانت ملامحها حادة وعنيفة. ولسوف يتذكر جان جاك روسو، بعد ذلك بثلاثين سنة، في رواية *Profession du vicaine savoyard* (مهنة الأسقف السافوايادري)، تلك الشطحة الخيالية البراقة والخفيفة، فيجعل منها نشيدًا دينيًا. إلا أن الدرْجة (الموضة) تغيرت؛ إذ ما عادت البسمة الساخرة للماكر من عهد الوصاية، على الدرَجة ذاتها من التعبير بالنسبة إلى جمهور تأثر بحساسية نهاية القرن، فأضحى في حاجة إلى نبرات صوت مثيرة للشجن، وارتعاشات وأنغام موسيقية، وفي نهاية الأمر أشكالٍ من السحر. إن الذكاء قد خسر بعض النقاط.

يبدو أن فولتير لفت الأنظار إليه في بروكسل، بسبب سوء جلوسه في الكنيسة، إلى حدٍ أوشك معه الجمهور المستاء أن يرمي به خارجًا. وكان جان باتيست روسو هو الذي أشاع هذا النبأ في ما بعد، من غير أن يقوم أحد بإثباته. فالشراسة المتبادلة بين الشاعرين، ما كانت لتتراجع أمام أي كذبة. وحين علم فولتير بالمسألة، رد باستخفاف قائلًا: «هل كنتُ قليل التقوى في القداس؟... ذلك ممكن، إذا كنتُ سهَوْت مرةً أخرى وتولاني الشرود، فإني شديد الإحساس بالضيق لذلك السبب، يا سادتي». لم يغتظ لوصفه بقلة التقوى، بل لأنه تعرض لهجوم ذلك الأشقر البشع: «لكن والحق يقال، هل لروسو أن يلومني على ذلك؟ وهل يلام من كتب الكثير من القصائد الهجائية الماجنة، ومؤلف الموشحات الفاحشة الموجهة إلى أصدقائه والمحسنين إليه، وهل يحق لكاتب *Moïsade* (الموسوية)... أن يتهمني، بعد مرور ستة عشر عامًا، بأني سببت إرباكًا في كنيسة؟».

بلى، فالمدعي جاء في الوقت السيئ. كان منفيًا في بروكسل لنشره «فاحشة» كما يقول فولتير. لكن جان باتيست روسو كان يتصنع الخلُق الحسن ليسدل ستارًا دون ماضيه، في حين يجهد فولتير لتذكير كل واحد به، وتذكير السلطات التي توشك أن تنساه. ونشر جان باتيست أن فولتير كان في بروكسل ضمن حاشية سيدة، وأنه كان في عداد «وصفائها»، وبذا تصرف بطريقة رعناء. فجاء رد فولتير عنيفًا، إذ قال إن جان باتيست هو ابن خادم كان يعمل عند العجوز أرويه: «والخادم يعبر بكلامه تعبيرًا عفويًا عن واقع حاله، فلكل واحد لغته». وقد اخترق ذلك القول قلب الشاعر اللئيم الذي كان يتستر على أصله الوضيع.

لم يجرِ تبادل تلك الطرائف إلا بعد زيارة بروكسل بزمن طويل. فحين وصل فولتير، استقبله جان باتيست روسو بأسمى آيات الترحاب؛ فهو المسافر الذي أرسلته العناية الإلهية، وهو من باريس، إنه الشعرِ والمسرح والنجاح والوطن. وهو، فضلًا عن ذلك، فولتير، بفكره المستنير - وفقًا لما كان يقال - وفكره المنير أيضًا. إنما كان فولتير، وسط مشاعل بروكسل آنذاك، بمكانة الشمس. وقد انبهر به روسو على الفور، مهما يكن ما قال في حقه لاحقًا، ولا سيما أن فولتير عمل على إغرائه، لأن جان باتيست روسو كان إذ ذاك الشاعر الكبير، وهو أكبر منه، ولأن فولتير يرغب في نهاية المطاف أن يكون موضع محبة وإعجاب. زِد أنه سلمه لا هنرياد على الفور راجيًا إياه أن يقرأها فيعطيه رأيه فيها. فاستبقاها جان باتيست روسو ستة أيام وفُتِن بها. فهو الذي كتب يقول:

«أمضى السيد دو فولتير أحد عشر يومًا هنا، لم نفترق في أثنائها قط. سحرتني رؤية هذا الشاب الذي يبشر بأمل عظيم. وتلطف فاستودعني قصيدته مدة ستة أيام. وأؤكد لكم أنها ستكون مفخرة عظيمة لمؤلفها. إن أمتنا في حاجة إلى عمل مثل هذا، فالسبك مدهش، والأبيات غاية في الجمال...».

إلى هنا وكل شيء على ما يرام، أما حين يسخر فولتير من شعر جان باتيست، فسوف يتغير النغم. سيسعى جان باتيست روسو إلى الإيحاء بأن فولتير لم يُقِم في بروكسل إلا تحت وصايته، فهو الذي شرع له الأبواب. وذلك سخف ومحض افتراء! فلم تكن السيدة دو روبلموند، الفلامنكية بحكم زواجها، ولا فولتير، في حاجة إلى جان باتيست روسو، من أجل زياراتهما. وإن ذلك الأخرق سوف يتظلم مما عانى من متاعب لتقديم ذينك الزنديقين إلى المجتمع الراقي. لكن ماذا عنه هو؟ ألم يكن زنديقًا؟ وهل كان المجتمع الراقي على تلك الدرجة من التقوى؟ ويقول إنه عانى كثيرًا من «المضايقات والشطط والمنازعات الشريرة التي يمكن أن يتسبب بها نَزِقٌ وأرعن لرجل رصين وهادئ». إلا أن هذا الكلام يبعث على الضحك. كان فولتير يعرف حق المعرفة، بوصفه رجلًا من فرنسا أو من بروكسل، أصول السلوك في المجتمع، ويعرف أن سُمعة روسو لن ينالها السوء؛ فقد كان تقواه المزيف معروفًا للجميع. وأعلن كذلك - ونتذكر طرطوف (*Tartuffe*) - عن مدى صدمته بقراءة لا هنرياد. فرأيه فيها كان معروفًا إذ ذاك، لكنه عاد فروى - وبتأخير! - أن ثائرته ثارت بسبب «التصريحات الهجائية العنيفة ضد الكنيسة، وضد البابا، وكهنة الأبرشيات، وكهنة الرعايا القانونيين، وأخيرًا ضد السلطات الكهنوتية والسياسية».

ألا كم يتغير المرء حين تنهش الغيرة قلبه! ألا كم تبلغ قسوة القلب بهؤلاء الأتقياء من حديثي العهد!

كان أيضًا قد قرأ *L'Épître à Uranie* (رسالة شعرية إلى أوراني)، فأعلن أنها «تغص بما يقزز النفس حيال أقدس مقدساتنا: حيال الدين وحيال شخص يسوع المسيح نفسه الذي نعته بصفة لا يسعني تذكرُها من غير أن تنتابني قشعريرة». فيذكرنا هذا بمظاهر الاحتشام لدى بوروغار. إلا أن رعشات الهول هذه لم تعترِ جان باتيست روسو إلا بعد قراءتها بستة عشر عامًا! ويقول إنه خاصم فولتير

خصامًا شديدًا لأنه اختاره مؤتمنًا على مثل ذلك الشعر الرهيب. أما وأن الملاسنة جرت داخل عربة، وأن فولتير كان يريد أن يدافع عن نفسه «متقدمًا بحججٍ شنيعة»، فإن جان باتيست روسو تهدده بأنه يفضل إلقاء نفسه من باب العربة علىٰ مواصلة الإصغاء إليه. ولم يصل به الأمر إلى ذلك الحل المتطرف، فسدَّ أذنيه. «حينئذٍ لزم الصمت ورجاني فحسب ألا أتحدث مطلقًا عن تلك المسرحية. قطعت له وعدًا بذلك، فوفيت به» (والدليل على ذلك أننا علمنا به).

يضيف أن فولتير ما عاد يوليه الثقة نفسها، في الأيام التي تلت واقعة العربة.

تلكم هي إذًا حال هذه الروح النقية التي تجعلنا نعتقد أن القطيعة مع فولتير تسببت بها الزندقة التي ترشح من القصيدتين. ومن الصعوبة بمكان اعتماد هذا التفسير. فيسعنا الاعتقاد بأن لا هنرياد كانت تحوي في أيامها سمات فاضحة، وأن الرسالة الشعرية كانت تتضمن أشياء رهيبة، بل نرغب في الاعتقاد بأن جان باتيست روسو رآها تسبب صدمة، وذلك لمجرد أن جيلًا يفصل بينه وبين فولتير، وأن جرأة الشاعر الشاب بدت له مزعجة جدًا. لكننا على استعداد كذلك للاعتقاد بأنه طرِبَ – وهو آنذاك لا يزال جاحدًا لمّا يَتُبْ – للقريحة الشعرية واللمسات العنيفة والجزلة، ولتلك الصور المتلألئة التي تسحر كل عارف. وكان جان باتيست روسو بها خبيرًا.

يروي بيرون – بيرون الطيب – أن روسو أصغى إلى الحكاية الآتية: إنها تتعلق بالسيد دو مالزيو، مؤدب الدوق دومين. كان يقرأ ذات مرة نصًا من الكتاب المقدس على تلميذه. وخانه ضعف بصره، أو سوء الطباعة. فبدلًا من أن يقرأ: «وتراءى له الله في الحلم (en songe)»، قرأ: «وتراءى له الله في صورة قرد (en singe)». فنبهه تلميذه إلى أنه ينطق بإحدى الكبائر، لكن السيد دو مالزيو أجاب بكل نقاء إيمان إن في وسع الله أن يتراءى في أي صورة يشاء.

كان جان باتيست روسو يضحك لتلك الحكاية ضحكًا جنونيًا، مثل من لا يشكل التقوى أي عبء على كاهله. ولا مناص من أن يكون تصرف على النحو ذاته لدى قراءته رسالة شعرية إلى أوراني. ثم يضيف بيرون: «تلكم هي الصورة، ولكم أن تحكموا على صدقيتها».

كلا، فالنزاع مع فولتير لم يصدر عن قلة احترام هذا الأخير للسيد المسيح،

بل صدر بالنسبة إلى روسو عن أمر أشد خطورة؛ صدر عن سلاطة لسان فولتير وهو يتناول أعمال جان باتيست روسو الشعرية. لقد كان لقاؤهما قاضيًا بالنسبة إلى صداقتهما، ذلك أن الشاعر الشاب لم يبدِ حيال أعمال الشاعر العجوز اللباقة نفسها. وما كان أبدى روسو من إطراء حيال لا هنرياد والرسالة الشعرية هو ذنب لا يُغتَفَر. وقد قرأ جان باتيست روسو عليه قصيدة: *Jugement de Pluton* (محاكمة بلوتو)، الموجهة ضد محكمة باريس العليا التي كانت قد نفت الشاعر. إنها قصيدة باهتة. فربما تكون محكمة باريس العليا أخطأت في أمر نفي الشاعر، لكن الشاعر يخطئ خطأ أكيدًا إذ يكتب قصيدة رديئة بشأن قضية كريمة. وفولتير قال، دونما مواربة: «ما ذاك، يا معلمنا، بالشعر الحسن، شعر روسو العظيم».

لم تكن تلك بأكثر من وخزة شوكة، تلتها طعنة نجلاء؛ إذ شعر روسو بأفول نجمه، فقام، في سبيل صعود المنحدر، بإشادة ماكينة هائلة من آلاف الأبيات ذات الإيقاع الاسكندري التقليدي، وكان مقررًا لها في زحفها الجماعي أن تحمل اسمه إلى العصور التالية، وهو أطلق عليها اسم: *Ode à la Postérité* (أنشودة للخَلَف).

جاء قرار فولتير حاسمًا: «لا أظن أن هذه الأنشودة ستصل إلى عنوانها أبدًا».

ازدادت الكلمة ثراءً وغنى، لكنها تسببت في إفلاس صيت جان باتيست روسو. هذه هي الجريمة التي لا تقبل التكفير. لقد افترقا عدوين مدى الحياة.

زوابع جديدة: الرئيسة تظهر على المسرح

عاد إلى باريس في نهاية تشرين الأول/ أكتوبر 1722، فأقام فيها طوال تشرين الثاني/ نوفمبر، ثم ارتحل في نهاية كانون الأول/ ديسمبر إلى قصر أوسيه، في الأنجو. كتب في ذلك الوقت رسائل مؤرخة من لاسورس. فهو ضيف ذلك السيد الإنكليزي الكبير المنفي في فرنسا: اللورد بولنبروك. كان متهللًا غبطة من القصر، ومن المُضيف، ومن الصحب، ومن عمله.

«عثرتُ لدى ذلك الإنكليزي على كل ما في بلاده من تبحر علمي، وكل ما في بلادنا من تهذيب، ولم أسمع قط من يتكلم لغتنا بحيوية واستقامة أكثر. إن هذا الرجل الذي أمضى حياته كلها منغمسًا في المباهج والمشاغل، وجد الوسيلة، على الرغم من ذلك، ليتعلم كل شيء ويحفظ كل شيء».

كان اللورد بولنبروك يعيش في فرنسا مع المركيزة دو فيليت منذ عام 1717. وُلدت تلك السيدة في عائلة مارسيي، وطلب يدها للزواج الفارس دو فيليت. وواقع الحال أنها تزوجت من والد ذلك الفارس، إذ كان المركيز بحارًا رفيع المكانة، ففضلته على ابنه. ثم ترملت في عام 1707، ولها من العمر اثنان وأربعون عامًا. فكانت إذًا، حين التقت اللورد في عام 1717، في الثانية والخمسين. أما وأنه أصيل ومتفرد، فلم يشأ أن يرى سواها. أحبها فأحبته، لكن ما عقّد الأمور، بعض الشيء، هو أن له زوجة في إنكلترا هي الليدي بولنبروك. فتصرفا تحديدًا كأنها لم تكن في الوجود. وإذا ما وضعنا الإجراءات الشكلية جانبًا، فإنهما عاشا مثل أفضل زوجين. وأحسنت زوجته الليدي صنعًا؛ إذْ توفيت في عام 1719. لكن العاشقين لم يسارعا إلى إعلان زواجهما، لأن ذلك سوف يكون مخالفًا لقواعد اللياقة. فتزوجا في أثناء قيامهما برحلة، بعد ذلك ببضعة أعوام، من غير استعجال ولا إثارة ضجة. ويتسلى اللورد بتحسين قصره في لاسورس، مستمتعًا بالحدائق والغابات والينبوع الرائع. كشف له نجاح مسرحية أوديب اسم فولتير، فرغب في التعرف إليه. وكان دارجنتال، رفيقه في المدرسة وصديقه الأبدي، هو الذي رتب اللقاء. وحين قدِم فولتير إلى لاسورس، لم يأتِ وحيدًا، اصطحب معه قصيدته الملحمية: «هنري الرابع». وقرأها اللورد، فكان الافتتان، وكانت بداية صداقة قوامها الإعجاب المتبادل وصفو المودة. وأُتيح له مجددًا أن يلتقي أناسًا من النخبة، ما كانوا من القديسين، لكنهم يمثلون إنسانية طيبة، أخطاؤها المزعومة أعذب من أحسن الفضائل.

كانت لفولتير إقامة أيضًا في قصر أوسيه الفخم؛ حيث توافر له فيه كل شيء، من جمال المقر وطيب الصحب والفراغ للعمل. فزوجة المركيز الأولى هي بنت فوبان الكبير، وكانت امرأة مسترجلة، قوية، رهيبة، لكنها قضت نحبها. أما الثانية، فهي مركيزة لينة العريكة. وكان هنالك رئيس دير يؤلف أغاني على درجة من الجسارة، بحيث لا يطلبونها منه إلا وهم في الصيد؛ فالهواء الطلق ضروري لذلك النوع من الكلام. وكان المركيز قد استقبل في ما مضى جان باتيست روسو، وكان على صلة بالرئيس هينو الذي يصف المركيز بقوله إنه أفضل رجل في الدنيا. وهو على درجة من حب التسلية تصلح مضربًا للأمثال، فيذكر هينو من طبعه تلك السمة الفائقة الندرة: «إنه يتخيل أنه لم يُخلَق إلا من أجل الآخرين». وإن رجلًا من تلك الطينة لجدير حقًا بأن يمضي المرء للقائه.

ويضيف هينو إنه كان ممثلًا مسرحيًا مدهشًا في ما كان يسمى بالفرقة البرجوازية. وكان فولتير يحبه بسبب تلك الموهبة الصغيرة كما لفضائله جميعًا. والحياة في تلك القصور منظمة إلى حد الكمال؛ فهي تخصص قسمًا لمباهج الحياة الريفية، وآخر للحياة الاجتماعية، وقسمًا للعمل. ويدوّن فولتير في أثناء قراءاته لقصيدته الملاحظات، فيصحح. ويبعث برسالة تلو الأخرى إلى تييريو لإطلاق تلك الـ هنرياد، فهو ينتظر منها كل شيء: ينتظر الشهرة، وينتظر الثروة. وكلما أعاد صوغ عمله، أضحى أثمن في نظره. وكان على تييريو أن يشيع أن فولتير لم يتوجه إلى هولندا إلا استعدادًا لطباعة عمله. مع الحرص الشديد على عدم الهمس بكلمة واحدة تتعلق بجان باتيست روسو!

بيد أنه كان قلقًا؛ فهو يعرف أنه أشاد بالملك هنري الرابع، وأشاد بفرنسا، لكن ذلك كله امتزج بإيماءات، وومضات من المكر. ولأنه يعرف باريس حق المعرفة، ويعرف أصدقاءه في المجتمع، وفي عالم الأدب، فهنالك ما يدعوه إلى أن يخشى الوقوع في مكيدة ما. والخطر لا يجعله يتراجع، إلا أنه يشعر بالخوف. وخطرت فكرة في باله، لم تكن فكرة شاعر، بل فكرة ناشر: سوف يتولى بيع مؤلفه بنفسه، فيشرف على طباعته، ويؤدي النفقات كافةً، ويبيعه بسعر محدود، ومن طريق الاكتتاب. ذلكم هو اكتشافه. فعمل على توزيع بيان تمهيدي يحدد لاهاي مكانًا للاكتتاب، لدى الناشر لوفييه، وفي الريف عند صاحب المكتبة الرئيسة، وفي البلدان الأخرى عند أصحاب المكتبات في المدن الرئيسة.

أدى الإجراء إلى إزعاج عدد كبير من الناس. وكأن قيام فولتير ببيع كتابه بالرقم والعدد، دينًا أو بالقبض سلفًا، أمر يعنيهم! فلم يُعر تلك الأشكال من السخرية التفاتًا، وعمل على تجميع أكبر عدد ممكن من نشرات الاكتتاب، مؤكدًا - ويا لجرأته! - حصوله على امتياز من الملك يسمح له بطبع قصيدته وبيعها بالتجزئة. ولم يكن يكذب على الآخرين بقدر ما كان يكذب على نفسه، ذلك أن اقتناعه بقضية الامتياز جعلته يصوغ الإهداء للملك. كان النص غاية في البلاغة والفصاحة، حتى ليوصف بـ «الوطني»، لو كان للكلمة آنذاك من وجود. لكن هناك اندفاعًا، هناك صدقًا يثير الحماسة. إنه رغب حقًا في صنع قصيدة تشيد بالملك هنري وبمجد فرنسا، فرنسا الفولتيرية، على نحو ما سيقال. والقطعة مفرطة في الصدق، لأن بعض المدائح الموجهة إلى هنري الرابع تشبه هجائيات موجهة إلى لويس الخامس عشر. يبقى أن الملك لم يقرأ ذلك الإهداء قط؛ لأن الرقابة رفضت الكتاب.

يا للكارثة! هل سيجب عليه إعادة الأموال إلى المكتتبين؟ الجواب معروف؛ لذا آثر العمل على طباعة الكتاب سرًا في روان. لديه أصدقاء موثوقون: هناك الرئيس برنيير، خصوصًا الرئيسة التي سوف نتعرف إليها من كثب، ثم الصديق سيدفيل، المستشار في محكمة نورماندي العليا، وأخيرًا تييريو الذي استقر به المقام في ريفيير بورديه عند آل برنيير لكي يراقب الطباعة. سوف يحتضن هنري الرابع خيرة الأصدقاء في العالم.

في كانون الثاني/ يناير 1723، كان لا يزال في أوسيه. إنه هناك في أحسن حال فكتب إلى الرئيسة برنيير يقول: «لا يدع لي حب الدراسة والاعتكاف أي رغبة في العودة إليها (أي إلى باريس). ما عشتُ قط سعيدًا هكذا إلا من حين ابتعادي عن الخطب المقيتة والمضايقات والنكبات السوداء التي تعرضت لها كافة».

إنه لصادق. فها هو ذا متألم نفسيًا، وسوف يظل ممزقًا بين تلك الحاجة إلى العزلة النشيطة وحاجته إلى باريس، فهو باريسي حتى الأعماق. أما المأساة فهي أن أعصابه لا تتحمل باريس إلا بشق النفس. وتراه مع ذلك يتكيف مع جو المدينة الكبيرة على ما يرام. أليس هو الذي يستثير، كأنما بدافع الاستمتاع، تلك المناكدات، وتلك الأقوال التي تشاع عنه، أو التي يشيعها عن الآخرين؟ إنه يعود دومًا إلى باريس من بعد أن يكون قد أنكرها. لكن تلك الإقامة التي ينتشي بها لا تلبث أن تغدو سريعًا مؤلمة بالنسبة إليه، فهو يخشاها وهي تفتنه، فحاله كحال أولئك الأطفال الذين يلعبون بالنار، فلا يقاربونها إلا وهم يرتعدون، ثم يمسكون بجذوة، كأنما على الرغم منهم، فيحركونها، ويثيرون من حولهم لهيبًا وشررًا؛ يا له من مشهد رائع، وخطِر! وبغتة تكويهم النار، فيصرخون، ويهربون مرتعدين، ثم ينظرون من بعيد إلى النار الرائعة المتأججة، ويشرعون في الاقتراب منها شيئًا فشيئًا، ليستأنفوا اللعبة الساحرة التي يمكن أن تودي بهم، لكنها اللعبة الوحيدة التي قوامها النور والتوقد؛ اللعبة الوحيدة التي تشبه الحياة. يعود فولتير إذًا إلى باريس. وذات يوم لن يعود إليها من بعد، سينأى زمنًا طويلًا جدًا، لكن على الرغم منه.

سوف نصادفه هناك في شباط/ فبراير 1723، فتأتي شوكة لتخزه على الفور. قدم بيرون في السوق الموسمية مسرحية هزلية صاخبة، يؤديها ممثلون جوالون، سخر فيها من الكتّاب الحديثي العهد.

اختار، لكي يهاجم فولتير، أسوأ مسرحية كتبها، أي آرتيمير؛ تلك التي سُحِبت من على خشبة المسرح. ولاحظ بيرون أن فولتير لم يكتب سوى بيتين جيدين في مسرحيته: إنهما البيتان الأولان، بيتان من بين خمسة فصول. وحين التقى فولتير ببيرون قال له بلهجة حادة ومرة:

«إني لأغبط نفسي إذ كان لي نصيب في رائعتكم في السوق الموسمية».

فقال بيرون مندهشًا: «وما كان نصيبك؟».

أجاب فولتير:

«إنهما البيتان اللذان أتيتَ إلى ذكرهما».

فردّ بيرون متعجبًا:

«الحق أني لم أعرف ذلك، فليس في باريس من اعترف بهما أو رغب في نسبتهما إليه. فغامرت بذكرهما على أنهما مجهولا الهوية». وختم المخادع قائلًا: «فهل شاء سوء الطالع أن يكونا لك؟».

وقع فولتير تحت العذاب، فهذه الومضات يضنيه تحملها. وعبثًا يؤكد أنه لن يعبأ بها كثيرًا في المستقبل. لكن لا يسعنا تصديقه، فحساسيته مفرطة حيال متعة إطلاق تلك التهكمات، كي لا يعاني آلام التعرض لها.

وسوف يوفيه بيرون الثمن غاليًا.

مركيزة وشاعر قليل التهذيب
لورد وقصيدة ملحمية

كان يتردد منذ عام 1715 إلى صالون آل ميمور، وهم أناس في منتهى الكياسة. فالمركيز دو ميمور أكاديمي، وماريشال ركن قائد لواء. ويقول سان سيمون فيه وفي المركيزة أطيب الكلام: يكادان يبلغان الكمال. وكان قصرهما في شارع سان بير، ويستقبلان فيه خيرة الناس. فيُستقبَل فولتير هناك برفع كلفة مدهش، لكن دونما ابتذال. عانى آل ميمور من «النظام» كثيرًا، فخرج منه المركيز والمركيزة بثروتهما وقد تضاءلت كثيرًا. وقد كتب فولتير إليهما (المركيز والمركيزة) في ذلك الشأن بلهجة فكهة، عسى أن يخفف عنهما؛ وليس من يدري إن كان بلغ مراده

بكل ذلك المرح: «إن كان شيء قد أصابكم فلن ينزع منكم المباهج الفكرية أبدًا. أما إن واصلوا (رجال المال) تقدمهم على المنوال ذاته فلن يدعوا لكم سواها. وصراحة، ليس ذلك بكافٍ للعيش عيشة يسر، وامتلاك منزل في الريف، حيث يشرفني أن أمضي فيه بعض الوقت بصحبتكم».

تلكم هي الحكاية! لا يصل بكم الأمر حد إشهار إفلاسكم كيما تستقبلوني في قصركم. هنالك براعة في القول، لكن ما كل الناس يستسيغون هذه اللهجة. قد يكونون على خطأ، لكن عددهم كبير. وآخرون يغتبطون لأنهم أكثر تجاوبًا مع البراعة منهم مع الانفعال. وكانت السيدة دو ميمور من هؤلاء. وقد أظهرت على الدوام كثيرًا من الود حيال فولتير. وبعد أن توفي زوجها واصلت استقبال الأصدقاء. صدرت في ذلك العام، من جديد، مراسيم محددة للنفقات، سعيًا وراء لجم النفقات الجنونية التي كانت النساء يبددنها على زينتهن. وعلى الرغم من أنها أرملة، وعلى الرغم من سنها المتقدمة، وفقًا لمعايير ذلك العصر (كانت في الثالثة والخمسين)، وحالة الإفلاس التي تعاني منها، فقد صرخت بأعلى صوتها احتجاجًا على المرسوم. كانت راغبة في تعريض نفسها لمزيد من الإفلاس، لكنه من صنعها هي هذه المرة. وهذا ما يغير كل شيء. طلبت إعفاءً من الوصي بموجب الخدمات التي أداها المرحوم المركيز للوطن. فنالت مطلبها، ثم عادت لتظهر بالبروكار المنسوج بخيوط الذهب والمرصع بالماس. وكان ذلك لإثارة غيظ البليدات الهزيلات المرغمات على التدثر بأثواب من الكتان الرخيص والصوف البخس، لكن ذلك لن يعمر طويلًا.

كان عند السيدة دو ميمور تحديدًا، أن التقى فولتير ببيرون. وكانت تفوح من بيرون رائحة الريف. ولا تعوزه الروح الطيبة، لكنه خام. فليس على شيء من لين العريكة أو أصول اللياقة، أما ملابسه ففي حال يرثى لها. ولو أن الروح القدس قد حل فيه، فإنه لن يحظى من فولتير، وهو على تلك الحال، بغير الاستهزاء. وسعت السيدة دو ميمور إلى جعله يغير ملابسه، لكن ما يلبث بيرون أن يتلفها بطريقة عيشه البوهيمية؛ إذ كانت جيوبه سلة طعام، تجد فيها خبزًا وجبنًا وزجاجة نبيذ.

ذات يوم، دخل بيرون على المركيزة في الصباح الباكر، على الطريقة القروية: «وأنا في طريقي، دخلت لأقول صباح الخير». فابتسمت من غير أن تغتاظ وقالت

له إن فولتير عندها. والحق أن فولتير كان يتصرف إلى حد ما تصرف الولد المدلل في البيت. كانوا يبينون له أنه بذلك لا يتسبب بأي ضير. وقالت المركيزة لبيرون: «أما وأنك شديد الرغبة في التعرف إليه، فاذهب إليه، إنه يتدفأ في غرفتي»، ثم واصلت الاعتناء بهندامها.

كان بيرون في واقع الأمر يتوق لهفة لمعرفة فولتير، ذاك المبهر الذي غزا باريس، كأنما بمنتهى اليسر، في حين أنه هو، ذو الفكر المتألق والآتي من الريف، كان يشقى كالمحكومين بالأشغال الشاقة، لينال ما يشبه النجاح. ولم يكن قد رآه من قبل. وجد الشاعر غارقًا في أحلام يقظته، غائصًا في كنبة كبيرة باسطًا جسده البارد في مواجهة النار. ولم تنل تحيته من رد سوى نظرة وإيماءة من رأسه. وحكم فولتير من فوره على ذلك الغريب من مظهره المرتبك وانحناءاته المتكررة. وقبل بوجوده، فجلس بيرون. ثم شرع يقترب من النار بتنقلات بطيئة. كانت النار وحدها تتحرك وتتمتم. والصمت ثقيل. ويتكلم بيرون، وما من رد. وما عاد الريفي المسكين يدري كيف يسلك مع أنه يتحكم في ملكة الكلام. لقد امتُهِن. فما عاد يجرؤ على أن ينبس ببنت شفة. وكانا يتبادلان النظرات خلسة. أما وفولتير غير راغب في الكلام، فأخذ ينف. وبيرون يعطس. وينظر أحدهما إلى الساعة، فيتناول الآخر قبصة من النشوق. قام فولتير إذ ذاك بحركة تركت البورغوني مبهوتًا. فقد أخرج من جيبه قطعة من الخبز، وشرع يقضمها شيئًا فشيئًا مثلما يفعل السنجاب. أجل، كان يقرضها بطرف أسنانه، مثل أي واحد من القوارض، فيحدث صوتًا أشبه بصوت فأرة وهي تقرض عند منتصف الليل أسفل الجدار. وتحرك الدم في عروق بيرون، على الفور، فأخرج من جيبه زجاجة النبيذ الصغيرة وأفرغها في حلقه. عندئذٍ فاض الكيل بفولتير، فنهض ليقول بلهجة مُرة:

«أنا أصغي إلى السخرية، يا سيدي، مثلي في ذلك مثل من عداي، إلا أن سخريتك هذه، إن كانت كذلك، فليست في مكانها على الإطلاق».

لم يكن بيرون على ثقة بالنفس تكفي لأن يرد عليه بقوله إن زجاجته الصغيرة لم يؤتَ بها إلا لتُشرب مع قطعة خبزه. وذلك حقًا ما يجدر القيام به مع تلك القطعة، إلا أن الشاعر الذي ينعم بموهبة الكلام أوضح له الأمر قائلًا:

«شُفيت من مرض خلّف لدي إحساسًا دائمًا بالجوع». فردّ عليه بيرون قائلًا:

«كلْ، يا سيدي، فحسنًا تفعل بأن تأكل. أما أنا فآتٍ من بورغونيا حاملًا معي عطشًا دائمًا؛ فأنا أشرب».

منحه فولتير ابتسامة ضئيلة وخرج، ثم دخلت السيدة دو ميمور بعد قليل مضطربة، لتنتهر بيرون المسكين وتسأله، غاضبة، عمّا فعل حيال السيد دو فولتير الذي خرج من توه ليصيح بها قائلًا: «من عساه يكون ذلك السكير المعتوه الجالس قرب موقدك؟ فهل شربتِ شيئًا هذا الصباح؟». لكنه روى لها الواقعة فأغرقت في الضحك لذلك اللقاء.

أما في حقيقة الأمر، فإن فولتير كان ينظر بعين الريبة إلى ذلك الدخيل الذي بدا يأخذ لنفسه مكانًا في منزل يتمتع هو فيه بالحقوق كافة. كان يكره بيرون لمظهره الغليظ، كما كان يغتاظ بسبب ما يبدي بيرون من فكر واقعي جدًا. إن آخر ما يعجز رجل فكر عن تحمله هو رجل فكر آخر في نواحيه. وكان مرغمًا على تحمل بيرون لأن السيدة دو ميمور متمسكة به، وتزيدها في ذلك حال وصيفتها الآنسة دوبار التي كانت في تجاوب متناغم مع البورغوني. فلين عريكته يروق المرأتين، فتظاهرتا بعدم ملاحظة أمارات الضيق على فولتير. وكان منزعجًا في واقع الأمر، فتخلى عنهما بالتدريج. وظن أنه وقع على ما هو أفضل.

كانت الرئيسة دو برنيير هي التي حلت محل السيدة دو ميمور، فهي زوجة السيد دو برنيير، رئيس محكمة نورماندي العليا. إنها تقيم في قصر جميل يقع على زاوية شارع بون والشوارع المحاذية للنهر. وشاءت الأقدار أن تضعه فيه، وسوف يعود إليه ليفارق فيه الحياة. إن السيدة دو برنيير جميلة وذكية وجريئة في صداقتها. وقد عاشا في أكبر حميمية ممكنة من غير أن يقوى أحد على التأكيد أنهما كانا عاشقين. وكان الجميع يعتقد ذلك إلا برنيير. فهو الذي قام بتجهيز شقة لفولتير مجاورة لشقة زوجته وقدمها له. وليس ما يسمح بالقول، إذا ما استثنينا الظنون، إن السيد دو برنيير كان مخدوعًا. يقيم الرئيس في النورماندي، في قصر بالقرب من روان، اسمه لاريفيير بورديه. إنه فردوس آخر لفولتير! فهو يقيم فيه لفترات طويلة ومتكررة، ويشرف من هنالك تحديدًا على طباعة لا هنرياد، ومن هناك أيضًا كتب في ذلك العام 1723 مسرحيته التراجيدية مريم (*Mariamne*)، وبدا يتلقى علاجًا لداء صدره بشرب حليب الحمير. وهذا ما جعله يكتب للرئيسة قائلًا:

«أنا عائد هذا المساء إلى لاريفيير لأوزع اهتمامي ما بين مريم وحمارة».

وقع في روان على مجتمع استهواه. فهنالك صالونات تغص برجالات الفكر، يقدمون فيها مسرحيات وحفلات موسيقية رائعة. وكون لنفسه أصدقاء، فذاعت شهرته. وهو يثير الفضول حين يتحدث عن قصيدته فيتلقى اكتئابًا: «لا بد من أن تسلم بأن من يسعى إلى تقديم قصيدة ملحمية في حاجة إلى أصدقاء».

أما بشأن مسرحيته مريم، فسوف يوكل أمر أدائها إلى أدريين لوكوفرور - وهي مختلفة كل الاختلاف عن ليفري الصغيرة - فهي ذات موهبة، ويا لها من موهبة! إضافةً إلى أنها عاشقة، وعشيقته هو. وذلك ما يدفع بنا إلى الاعتقاد بأن حنان الآنسة لوكوفرور كان كافيًا لهذا «العاشق البارد كالثلج»، وأن ما بينه وبين الرئيسة لا يعدو الصداقة الحميمة والعميقة جدًا. وكان ذلك بالنسبة إليه، وربما بالنسبة إليها، الكسب الأكبر.

رجع إلى باريس في نيسان/ أبريل 1723 وشهد عرض تراجيديا لاموت، التي قال بشأنها: «شهدتُ مسرحية إينيس دو كاسترو التي وجدها الجميع رديئة جدًا ومؤثرة جدًا. فالناس يستنكرونها وهم يبكون». وينبغي القول إن «البكاء» بلغة القرن الثامن عشر يعني الإعجاب؛ كلما بكَوْا أكثر كانت المسرحية أجمل. ووجد نفسه في أثناء العرض جالسًا إلى جانب رجل عجوز مغرم بالمسرح من ستين سنة، ويتكلم على مسرح القرن الماضي من غير انقطاع: «في أيامنا...»، إلخ. وكان من رأيه أن فرنسا لم تعرف قط مسرحية جيدة من بعد مسرحية السيد (*Le Cid*). ورد فولتير الوقح على العجوز قائلًا:

«يتراءى لي، مع ذلك أنك، في عرض السيد الأول الذي كنتَ تحضره، لم تكن راضيًا عن المشهدين الأولين».

كان قد انقضى آنذاك تسعون عامًا على العرض الأول لمسرحية السيد. وكان ثمة شاهد على الحديث حذر فولتير قائلًا: «حذار من أن يتكرر الضرب بالعصا»! وهو تلميح عنيف إلى واقعة بوروغار، لكن لم يقع شيء من ذلك، فالرجل العجوز كان مسالمًا أو أصم.

دعاه دوق ريشوليو إلى مرافقته إلى مياه فورج، لكن فولتير اعتذر، فالرحلة ستكون في العام المقبل.

رجع اللورد بولنبروك إلى إنكلترا في حزيران/ يونيو من عام 1723، فمشكلاته قد سُويت. لقد سمح له الملك جورج بالعودة، لكنهم، بعد رجوعه، لم يعيدوا إليه ما صودر من أملاكه وألقابه ومروجه. فعاد أدراجه إلى لاسورس.

بدأ فولتير من باريس يرهق بإلحاحه تييريو الذي ظل مقيمًا في روان، من أجل أن يسهر على الـ هنرياد. وعقد العزم على الحصول على مقصورة في الأوبرا للرئيسة، صديقته الحميمة. فشرع يتوسل ويداجي وينسق في الخفاء، ومضى إلى حد التعهد بكتابة أوبرا، إذا ما أُعطي مقصورته المبتغاة. وكتب إلى السيدة دو برنيير يقول: «إذا ما قوبلتُ بصفير الاستنكار، فليس لك أن توجهي اللوم إلا إلى نفسك».

لكن الحصول على مقصورة في دار الأوبرا للرئيسة، صديقته، لم يمنعه من ناحية أخرى من أن يلتمس بإلحاح وظيفة عاطلة[24] (sinécure) لصديقه تييريو. لكن تييريو صعب في تنقله. فتوجه بطلبه إلى المصرفيين باري - دوفيرنيه، ويا للعناد الذي حاصرهما به! وحين أدرك أنه أصبح مُلحًا في سؤاله، عمد إلى وساطة أصدقائه: جينونفيل والماريشال دو فيلار والرئيس دو ميزون، كان الإخوة باري خدومين أثبتوا لفولتير ذلك، إلا أنهم لم يكونوا مكفوفي البصر. وكان يمكنهم إسناد وظيفة إلى تييريو في أعمالهم الواسعة جدًا، لولا أن تييريو هو تييريو، أي إنه مسلوب الإرادة وكسول، ونزعته الحقيقية أن يكون طفيليًا، ديدنه تعداد الحِرَف. زدْ أنه لم يكن موثوقًا تمامًا. أما بالنسبة إلى فولتير فهو مقدس؛ إنه الصديق. إن نواقصه كلها معروفة لديه من دون شك، لكن ينبغي ألّا يخاض فيها. وكان أصحاب المصارف المتضايقون من الرفض، يَعِدون فيداورون. وفي نهاية الأمر لم يتخذوا تييريو موظفًا لديهم. ولم يتول الغم هذا الأخير مثلما تولى فولتير. وما كان تييريو ليرغب في أكثر مما هو متوافر له: أن يكون له سكنٌ هنا أو هناك، وأن يكون فاخرًا على الدوام، وأن يقوم ببعض المساعي، وهو يصغي ويكرر، فينشر خبرًا هنا، ويتستر على آخر هناك، ويتلقط بعض المنافع ويتلقى هبات سخية من صديقه العزيز فولتير. وسارت الأمور كما في الماضي.

استطاع فولتير الإفلات من باريس في أيلول/ سبتمبر 1723 ليعود فيلقى

(24) المقصود: وَظيفة براتِب جيد وعمل سهل. (المترجم)

صديقته الرئيسة، وحمارته المدرة للحليب، وجو النورماندي الطيب، وأصدقاءه في روان، ومسودات الطباعة... وليعيش حزنًا عميقًا جدًا.

إن آلام فولتير الكبرى ناجمة دومًا عن إساءات إلى كبريائه، وإلى صداقاته، أو إلى الحرية؛ حريته هو أو حرية الآخرين.

أما الحزن الذي أصابه في ذلك العام بسبب وفاة جينونفيل، فهو حزن لا يُنسى. فنحن نعرف ذلك القاضي الشاب المتألق الذي يضج ثقافة وحماسة وتطلعات مستقبلية. وهو تشارك في سوزان مع فرانسوا أرويه. وكان يحمل تارة شهرة أمه، وتارة أخرى شهرة أبيه السيد دو لا فالوير. وحيثما يعرفونه يلقبونه بفالوير الظريف. وكتب فولتير ذات يوم إلى السيدة دو ميمور، يقول بإيماءة غاية في الرقة وهو يذكر جينونفيل: «أتمنى أحيانًا ألا تعرفيه، لأنك لا تعودين قادرة على تحمل تصرفاتي».

لقد أودى به الجدري وهو في السادسة والعشرين من العمر في أثناء الوباء الرهيب الذي انتشر في ذلك العام. فبعد عشر سنين على تلك الوفاة، ظل الحزن يملأ صدر فولتير الذي كتب يقول في هذه الرسالة الشعرية إلى روح جينونفيل:

«أنت الذي، ما زال، بعد عشر سنين،
يفزعني فقدك الرهيب بحداثة عهده».

ويستحضر ذكرى العشق الثلاثي، واللعبة الممتعة والعنيفة، فيخرج منها، من دون أي ضغينة في تلك الذكرى.

«تحضرك ذكرى الزمن يوم كانت الحبيبة إيجيري
في الأيام الرائعة من حياتنا
تصغي إلى أغانينا، فتشاطرنا أشواقنا
كنا عشاقًا نحن الثلاثة: فالعقل والجنون
والحب والفتنة لهي أعذب الأخطاء
تجمع كلها قلوبنا الثلاثة».

لِمَ يُقال عن فولتير إنه عديم القلب؟ أليس الحنان هو الذي يُلهمه هذه

الأبيات؟ صحيح أنها أبيات تفتقر إلى الشجن، لكن ما الذي يجعلنا نعتقد بأن الشجن يفوق اللياقة صدقًا وعمقًا؟

«كنا أحيانًا ننشد أشعارك وأشعاري
ونُشيد بمفاتن روحك المحببة
فذكرك لا يزال ماثلًا في أحاديثنا
نقرأُ ما كتبتَ، ونسقيه من دموعنا».

هنالك معابد للحب، ومعابد أخرى للصداقة. فلِمَ لا تُنَقَشُ عليها هذه الأبيات؟ فالصداقة لا تتغير لدى ذلك الرجل المتلون ذي الحياة المضطربة، بل المرتبكة والمشوشة. إنه عنصر الحفاظ على التوازن لدى ذلك الكائن الخفيف اللعوب. إنه يرتبط بأصدقائه ارتباطًا قويًا جدًا ويرغب في أن يرتبطوا به بقوة، فيقوم بخدمتهم ويقوم باستخدامهم. ويتألم بسبب لحظة من التناسي أو الإهمال، لكنه يرسل إليهم سريعًا ببطاقة فيعيد بعث كل شيء. الرسالة هي الصلة. يجري فيها تبادل التماعة، أو ومضة فكرية، أو طرفة ما بين الفكاهة والرقة، فيستأنف التيار جريانه. إن الأرواح تتواصل: فيشعر بنفسه أنه أفضل، ويرى مثيله الذي يقابله بمرآة يجد فيها نفسه فيتأملها بإعجاب. ويلزمه لتلك اللعبة الصغيرة أصدقاء غاية في الذكاء، فقد يكون ذلك بالنسبة إليه هو الشكل الأكمل والأمثل من الحب.

عاد إلى باريس في حالة حداد على جينونفيل، فسلم مسرحيته مريم إلى الممثلين في المسرح الوطني، وإلى أدريين لوكوفرور قبلهم، ثم مضى ليحظى بالإعجاب والدلال لدى صديقه الرئيس دو ميزون الذي لمّا نعرفه.

وصديق كامل أيضًا

كان الرئيس دو ميزون ينتمي إلى أسرة غنية نعمت بالحظوة الملكية منذ قرن من الزمان. فجدّه الذي كان مستشارًا لدى آن النمساوية (Anne d'Autriche)، هو الذي صنع ثروة العائلة. أما دو ميزون الشاب، فكان أشبه بالولد المعجزة. إنه تلميذ موهوب بشكل مدهش. وربما ما كان شيئًا غير ذلك، لكنه كان ذلك إلى حد الكمال. فهو يؤدي المهمات كافة على أحسن صورة في العالم، والحق أنه كان ذكيًا على قدر ما كان محببًا إلى القلوب. وقد قام لويس الرابع عشر، في عزمه على مواساته لدى

فقدِ والده، بتعيينه رئيسًا للمحكمة العليا وهو في الثانية عشرة من العمر! وواصل الوصي من جانبه المحاباة نفسها؛ فسمح له باحتلال كرسي القضاء، وإصدار الأحكام وما كان قد بلغ الثامنة عشرة. وما من أحد أبدى منه تظلمًا، إلا أن ذلك القاضي الأول لم يكن شغوفًا بالقضاء وإنما بالعلوم. فكان يجري التجارب، كما جرت به العادة في ذلك العصر، أي لفرط قيام المرء بمعالجة هذه المواد الكيماوية أو تلك ومزجها باليد، لا بد له من أن يقع في النهاية على شيء مختلف ما، من غير أن يعرف دومًا ما هو. أما السيد دو ميزون، فقد حظي بامتياز معرفة ما قد اكتشف. لقد اكتشف لونًا هو الأزرق البروسي الذي كان على ما يبدو صباغًا ممتازًا. وأنشأ في ميدان آخر حديقة زراعية على درجة من العناية مكنته من أن يفخر بأنه أنضج أول مرة حبوب البن عند أبواب باريس، ذلك هو المهم في نظره. أما المهم في نظرنا نحن، فهو أنه كان صديق فولتير، وكان رجلًا شهمًا وكاملًا. إنه أيضًا رجل من النخبة! والحق أن فولتير كان يجيد اختيار أصدقائه. وحسبنا ذلك من بين المناقب لإقناعنا بأن سمعة اللؤم والشح والغدر التي أُلصِقت بفولتير كانت أقرب إلى الأسطورة منها إلى الواقع.

نقول، في عودة منا إلى الرئيس المحبب دو ميزون: إذا كان قد مَحَضَ فولتير تلك الصداقة، فلا ريب في أن فولتير جديرٌ بها.

كان أبوه قد ابتنى بوساطة مانسار، ذلك القصر المدهش لآل ميزون، حيث كان يستقبل خيرة مَنْ في فرنسا من نبل محتد وجدارة. وكانت لفولتير غرفته هناك، فكان يستمتع بذلك. ويشعر بأنه بعيد عن باريس كما لو كان في قصر سولي، علمًا أنه كان يشاهد من نافذته سطوحها، ويستطيع أن يقصدها فيعود منها في بحر النهار. وكان عازمًا على البقاء طويلًا عند آل دو ميزون. وقد نعم بالخدمة! لكنها ليست كما كان يأمل.

لزم الفراش عاجزًا عن الحركة بسبب إصابته بالجدري. وكتب محام اسمه باربييه، يصف تلك الفترة في مذكراته قائلًا: «مات عدد لا يحصى من الناس، وحقق الملك ربحًا ضخمًا لجهة المعاشات التي تُدفع مدى الحياة...»[25] وهي طريقة لتقدير الأشياء. كان في جملة من توارى أسرة الدوق دومون بكاملها. وكان

---

(25) كأن يشتري المرء أراضي من رجل بلا دخل، لكنه لا يستثمر أراضيه، لقاء مرتب شهري مدى الحياة. (المترجم)

الولد الشاب آخر من توفي، وقد قال للطبيب الذي شارك في دفن أبيه وأمه وأخته: «هل سأتوجه يا دكتور إلى سان جيرفيه (اسم المقبرة) لتكتمل الرقصة الرباعية؟ إلا أنها ستكون رقصة رباعية بشعة». لقد سلك فولتير الدرب نفسه أيضًا. وذات مساء ساءت حاله، وحال السيد دو ميزون أيضًا. جرى فصدهما (لإسالة الدم)، وفق مقتضى الحال. وفي اليوم التالي تحسنت حال السيد دو ميزون في حين ساءت حال فولتير. وكان الطبيب متشائمًا حيال هيكل جسده الهزيل. وأخبره الخدم، رحمةً، بأنهم في صدد إعداد تابوت له. فاستقبل بكل ورع كاهن آل دوميزون الذي لم يكن يخشى العدوى - وكانت حالة نادرة - فباح له فولتير باعترافه الأخير، اعترافًا بفضله. وكتب وصيته، وتحسر على فراق أصدقائه وعلى مخطوطه الذي كان عازمًا على إدخال تعديلات عليه. واستولى الهلع عليه بشدة، لأن منجّمًا شهيرًا تنبأ له بأنه سوف يموت في ذلك العام. ولسوف يسخر من تلك الكهانة لاحقًا، أما والحمى تُمسك بخناقه، فقد صدق حقًا أنها ستتحقق، ولا سيما أن الجميع كان يذكر مثال السيدة دو نوانتيل، التي تنبأ لها ذلك المنجّم نفسه بأنها سوف تعيش مئة عام، إذا ما تجاوزت عتبة عامها الأربعين، لكن يُخشى عليها من الموت في هذه السن. والحال أنها قبل عيد ميلادها الأربعين بقليل، وكانت تتفجر صحة، شعرت لدى انتهائها من العشاء بألم في رأسها، فقضت نحبها في الصباح. صدق المنجّم.

بذل السيد دو ميزون وزوجته قصارى جهدهما لإنقاذ فولتير، ونجحا في ذلك؛ فقاما برعايته والاعتناء به بشجاعة ورقّة تثيران العجب. طلبا حضور تييريو الذي أقام في غرفة مجاورة لغرفة صديقه، وسهر عليه ليلًا ونهارًا. وقد انطوى ذلك على مجازفة حقيقية لأن حدة الجدري كانت رهيبة. وزارته أدريين لوكوفرور أيضًا في غرفته. وأخيرًا لم يتوانَ عن كيل الإطراء لطبيبه، الدكتور جيرفازي، فكان يقول له: «لو إنك عالجت جينونفيل، لكان الآن في قيد الحياة». وفي نهاية المطاف، شعر في 15 تشرين الأول/ أكتوبر 1723، بأنه تحسن، فعاد يعمل على الفور وهو لا يزال في سريره. وفي الفاتح من كانون الأول/ ديسمبر، استطاع أن ينهض، فمضى ليشكر مضيفيه: كانت دموع الفرح والعرفان والمجاملات الحميمة متبادلة بين طرف وآخر.

وتوجه قاصدًا باريس، والدموع لا تزال تبلل وجهه، فصعد إلى العربة...

مملًا: سيكون خروجًا عاديًا؟. لا بد من إسدال الستارة إذًا، أو انتظار حدوث ارتداد مباغت. لكن لندعه يتكلم: «ما كدت أبتعد مثني خطوة عن القصر حتى اشتعلت النار في الأرضية الخشبية لغرفتي وانهارت. وسرى اللهيب إلى الغرف المجاورة والشقق التي في الأسفل، فأتى عليها، وذهب الأثاث والرياش الباذخ الذي كان يزينها طعمة للنار».

أصابه اضطراب شديد؛ إذ يمكن القول إنه في معرض اعترافه بفضل مضيفيه، أشعل النار في قصرهم. إلا أنه لم يخلف سوى جمرة شبه مطفأة في الموقد، فما حقيقة ما حصل؟ لقد أشعلوا نيرانًا شديدة طوال فترة إقامته، وكانت تعترض مدخنة موقده عارضة خشبية ثخينة أخذت تتأكّل شيئًا فشيئًا. وكانت رحيمة به فانتظرت خروجه لتحرق غرفته، وإلا تعرّض للشيّ حيًا.

«لم أكن سببًا في ذلك الحادث، لكني كنت مناسبتَه المحزنة، فتولاني الحزن نفسه كما لو كنت أنا المذنب. وعاودتني الحمى على الفور، وأؤكد لكم أني شعرت بعدم امتنان حيال الطبيب جيرفازي لأنه أنقذ حياتي».

لم تقع تلك الانتكاسة ضمن مجال الطب، بل ضمن مجال الصداقة. وبادر أصدقاؤه آل دو ميزون إلى تعزيته وتهدئته وطمأنته، فبذلوا جهدًا اتّسم بالرقة لجعله ينسى ندمه، حتى كتب فولتير بفيض من العرفان والانفعال يقول: «بدا وكأنه أحرق قصري أنا...»

تلونات ربات الفنون، ووفاء الأصدقاء ونوبات الحمى

أعاد من فوره وصل ما انقطع مع العاصمة. فكانت البداية جوقة من التهاني بمناسبة شفائه.

وحرص البورغوني على صداقة فولتير حرصًا شديدًا، على الرغم من المشادة الصغيرة التي جرت أمام موقد السيدة دو ميمور، حتى إنه نظم قصيدة غنائية تكريمًا له. أما وأنه لم يعرف أين يعثر عليه، فإنه ذهب ليرابط فينتظره عند السيدة دو ميمور. وكان حسابه في محله؛ إذ التقى فولتير فسلمه قصيدته. أخذ هذا القصيدة ببرود وقال له بلهجة لا تنم عن شيء، ابتهاجًا أو لامبالاة، إنه على ثقة من أن القصيدة جيدة، إذ سبق له أن أُعجِب بطريقته في التصرف. وأضاف بنبرة فيها

ما يشبه التهديد، وهيئة من يحيط ببواطن الأمور: «تحدثت للتو إلى المركيزة، هيا ادخل فسوف يُحسِنون استقبالك».

دخل بيرون، وهو يرتجف من غير أن يدري ما السبب، إلى عند المركيزة ليلًا، فلاحظ على الفور أن هنالك ما يدعوه إلى الارتجاف: «فكرت من فوري في أن أغلِق بابي دونك». استقبلته بتلك الكلمات، فأصيب الشقي بالذهول. فأخبرته أن فولتير قرأ عليها قصيدة من أولها إلى آخرها، من تأليف بيرون: كانت شيئًا رهيبًا! فهي عامرة بالتعابير الفاحشة والتلميحات المقززة... ما يدعو إلى شنق ستة من أمثال بيرون.

استولى عليه ما يشبه فورة هذيان، فهو يثب فيصفق بيديه ويخبط الأرض بقدميه ويجأر بالصراخ غضبًا. وارتعدت السيدة دو ميمور، فأضحى همها أن تهدئ من روعه، لتقول له إنها لم تصدق شيئًا من ذلك، وإن فولتير قام حيالها بتلك الخدعة الماكرة. لكن بيرون اعترف بأن القصيدة من تأليفه. إنها غلطة، لكنها غلطة من أيام الشباب وهي نتيجة رهان تعس. أما وقد هدأت ثائرته فإنه ظل يرتعش ويتمتم وينشج. فقالت له: «هيا اجلس، فيا لك من غبي كبير». وصفحت عنه.

هل كانت حيلةً حقًا لعبها فولتير على بيرون؟ ليس ما يثبت ذلك. لا يعرف بالواقعة سوى ريغولي دو جوفينيي، وهو واحد من مداحي بيرون، وأعداء فولتير. ونحن نعرف أن فولتير لم يكن قادرًا على تحمل بيرون؛ إذ لم يكن يتقبل أن يكون المرء ذا موهبة، وأن يكون نطقه قرويًا، وتكون قلبات أكمامه ملطخة وملابسه قذرة. ومن الممكن أيضًا أن تكون للسيدة دو ميمور يدٌ في تلك «الوخزة»، إذ لم يكن يضير تلك السيدة الرائعة أن ترى صديقيها يتهارشان.

لكنهما لم يتهارشا، في حضرتها على الأقل، والطرفة تظل في الأحوال كافة موضع شك، إلا أنها تُصنف ضمن الطرائف التي ترمي إلى إلصاق نقيصة الغدر بفولتير. لكن كيف لنا أن نصدق ذلك «الغدر»، ونحن نعلم أن بيرون، بعد تلك الواقعة بقليل، سوف يعرض إحدى قصائده على فولتير، طالبًا إليه إجراء تعديلات عليها وأن فولتير سيقوم بها، فيتقبلها بيرون بكل احترام. ذلك مستحيل، لأن بيرون الطيب لا يتنكر، ولا يؤدي دور رجالات البلاط. فإنْ يغضب من فولتير، نعلمْ بغضبه؛ لأنه سيصرخ في الشوارع، ولا يذهب ليقوم بزيارات مجاملة.

كانت لدى فولتير مشاغل أخرى: دخلت الـ هنرياد باريس خلسة، بل بدأت تنتشر فيها. إنه في أي حال لسرٌ ذائع سلفًا؛ إذ جعلنا حب الظهور نرى المؤلف السري مُلقى به على طاولات الصالونات وفي كل بهو انتظار. ولا تجده في المكتبة، لكنهم يأتونك به إلى المنزل؛ يحملونه إلى المنازل الجديدة به. إن ذلك التكتم على سر مُذاع فعل فعله لنجاح العمل أكثر من القيام بتوزيعه مجانًا؛ فحين يلتقي أحد رجالات المجتمع بآخر يتبادل وإياه شواهد من الـ هنرياد، زد أن رجال فكر مشهودًا بمكانتهم، مثل الفيلسوف بايل، رأوا فيها عملًا عظيمًا؛ فهذا الأخير كتب يقول: «تعلّم يا سينيك هذا الزمان ويا لوكان، طريقة الكتابة والتفكير من هذه القصيدة العظيمة التي تعود على أمتنا بالفخار وعليكما بالعار».

تبدو لنا قصيدة فولتير باردة ورنانة مفخمة. أما في نظر قراء القرن الثامن عشر، فهي رشيقة. قام فولتير بهز أثواب الجوخ الفضفاضة التي كان يأتزر بها العصر العظيم، وتجرأ على مزج التاريخ بالبسمات والإيماءات المضمرة. ولم يكن عظماء الرجال من البرونز أو من الرخام: بل هم في لبوس لويس الخامس عشر، أما النظُم الكنسية وسواها فما عادت مغلفة بالبخور. ونقول، بإيجاز، إن لم يكن فيها من شيء هادم، وفق ذوقنا الحديث، فإن من الجمهور من وجد فيها بدعة، ومنه من وجد فجورًا، وثالث رأى فيها زندقة، ورابع فوضى، لكن الجميع لمس فيها أثرًا من الهرطقة. هاجمها اليسوعيون – وهاجمها الجانسينيون أيضًا – لأسباب متعارضة. فاتهِم فولتير بأنه جانسيني من رئيس دير مغمور اسمه ديفونتين، سوف نرافقه بعد قليل لمسافة صغيرة على دربنا. ورأى البلاط أنها تتعرض للعرش برفع كلفة يسبب الصدمة. وهنالك على وجه العموم مكيدة يتواطأ فيها الغباء والرياء والمنفعة والخوف. أما من ناحية الشعراء، فالحسد كان يسمم كل شيء.

أفرط فولتير في قول الحقائق لبلاط روما، ولم يوجه إلى الإصلاحيين ما يكفي من الشتائم، ليأمل في الحصول على «الإذن كي يطبع في وطنه تلك القصيدة التي نظمها للإشادة بأعظم ملك عرفته أمته على الإطلاق».

كان لديه ما يكفي من حدس رجل من البلاط، ليخمن أن «أعظم ملك» في بلد من البلدان إنما هو دومًا الملك الحالي. ذاك هو من ينبغي أن تشيدَ له الصروح، لتحظى بالرضا. لكن يشرفه أنه لم يكن لديه ذلك الضعف. إن فولتير ليحب وطنه،

حتى ملوك وطنه، لكنه لم يكن مصابًا بذلك الحب الأعمى. يبقى في نهاية المطاف أن ذلك هو كل ما يلومونه عليه: كان يرى بوضوح زائد. افقأ له عينيه، يكنْ لديك شاعر مكلل بالغار.

في 6 آذار/ مارس 1724، قامت الآنسة لوكوفرور بتقديم مسرحية مريم. فأدت الدور بموهبتها كلها، وبكل ما لديها من حمية، ومن كل قلبها، هي الفنانة العظيمة. وكان الفشل. بدأت الصالة تتهكم. أما حين وقف أحد المهرجين، وسط المشهد الأكثر مأساوية حين ترفع مريم الكأس المسمومة لتشربها فتسقط مصعوقة، ليهتف قائلًا: «الملكة تشرب!»، اجتاحت الصالة موجة ضحك جنوني. لكن لم يكن ذلك ما أسقط المسرحية. إنها كانت رديئة. وإنْ أصغى الجمهور ضاحكًا، وقام ذلك الموتور مهرجًا، فذلك لأن العرض لم يحظ باهتمام أحد.

شعر فولتير بذلك من الفصل الأول: فحين شربت مريم السم فهوت أمام صالة تضحك، عُدَّت المسرحية ميتة منذ إسدال الستارة الأولى.

ها هو مريض. إنه مريض حقًا، وسقوط مريم ليس عن ذلك المرض ببعيد. ولا يدهشنا الأمر لأنه لم يتمتع يومًا بصحة جيدة، فهو في حالة شكوى دائمة. ويؤمن بالأطباء، ولا سيما بآخر واحد تحدث إليه. كان يتناول العقاقير، دونما توقف، فيحيط نفسه بأشكال التوقي كافةً، ويحرص على رعاية صحته حرصه على حماية عمله. ويؤدي عمله وراء أسوار القلاع، ويداري صحته وراء أسوار الأقراص. فلديه منها مئة نوع، ولديه ألف زجاجة دواء. ويستفسر ممن هم في محيطه ليعلم ما يتناول الآخرون؛ فيأتي لنفسه بالعقاقير الجديدة ويتجرعها على جناح السرعة. وحدث أن تنازع مع السيدة دو روبلموند، لأنه حين لاحظ عندها في زجاجات أقراصًا لا يعرفها، سرقها منها فابتلعها. والحال أنها كانت في حاجة قصوى إليها، فلم تسامحه قط. كان يبتلعها بنهم، وبدت له أقراص صديقته ممتازة، فظلت ذكراها تلازمه حتى سرير موته. قال: «كنت راغبًا حقًا في أن أسرق منها أقراصًا أخرى، فقد كانت تفرط في تناولها وأنا أيضًا».

على ذلك كان يعاني سوء هضم تراجيديًا خطرًا، فيرتعد وترتعد أمعاؤه كأنها تتقطع، ويصيبه الهزال أكثر. ويعمل وهو في سريره، على الرغم من إصابته بالإسهال.

ما إن تحسن الطقس حتى ذهب إلى فورج بصحبة ريشوليو، فالرئيس برنيير له منزل هناك. ونشأ على الفور مجتمع راقٍ حول الدوق فولتير. إنها الحياة في القصر لكن بحرية أكبر. وأفعمت المباهج والمياه قلب الشاعر فرحًا. وقد كتب في 20 تموز/ يوليو 1724 يقول: «عادت عليّ المياه بنفع ما كنت لأتوقعه، فبدأت أتنفس وصرت أعرف ما الصحة. وما كنت عشت حتى الآن سوى نصف عيش. أدام الله هذا البصيص الصغير من الأمل، وعسى أن يطول وميضه».

لكن يا للأسف! فالأمور مستقبلًا لن تكون أبدًا إلا في صعود وهبوط، والإسهال سوف يقضي قريبًا على ذلك البصيص من الأمل، ولن يحيا مجددًا وفقًا لقوله إلا «نصف حياة»، لكن نصف حياته سوف يجعله يعيش بكثافة أكثر بمرتين من حياة الآخرين، وأطول منها بمرتين: ذلكم هو المنطق الفولتيري.

دهمه حزن نابع من القلب لا من الأحشاء فأقضّ مضجعه: أخبره الدوق دو ريشوليو أن واحدًا من خيرة الأصدقاء، وهو دوق أيضًا، قُتِل في شانتيي في أثناء جولة قنص، إذ هاجمه وعلٌ مسعور، فبقر بطنه بطعنات من تشعبات قرنيه. وكان ريشوليو شديد الاضطراب، أما فولتير فوقع مريضًا: مات صديق فها هو ذا يلزم الفراش راقدًا محمومًا يتوجع. أهو الاكتئاب حقًا؟ ها إن مياه فورج أضحت مؤذية له؛ فهي تسكره، فيشعر بالدوار. كفَّ عن تناولها، وضاعف العمل. فهو يرقد في النهار وينهض في المساء. إنه يقامر. قامر كثيرًا وخسر، فأطلق على ذلك اسم «غسل الملابس السنوي». هو لا يشعر في ذلك بأي متعة، لكنه ينصرف إلى القمار مرة في كل عام. ولما كانت تلك الطريقة في خسارة المال ليست من طرائق آل أرويه، فقد كان يتوقف حين يقدر أن عملية غسل الملابس غدت كافية.

عاد إلى باريس في نهاية تموز/ يوليو، فأقام في شقة آل برنيير المحاذية لنهر السين. إلا أن حركة البضائع كانت صاخبة على الطرق المحاذية للنهر حتى أوشكت أن تسبب له الجنون. فوضع سدادات في أذنيه، لكنها لم تكن مجدية، فداهمته الحمى: إنها وفق قوله حمى «ثلاثية مزدوجة». وهي خبيثة جدًا من دون ريب، فآثر الهرب.

سوف يقطن في مسكن مؤثث. سعى دوق سولي إلى جره من هناك واصطحابه إلى سولي. كان فولتير يفضل لا ريفيير بورديه، لكنه لم يقصدها على الفور، فهو عازم على إنجاز مسرحية مفشي الأسرار *(L'Iindiscret)* التي بدأها في فورج.

ما وقع له في تلك الشقة المؤثثة؟ لقد عرف فيها من المنغصات ما دعاه للرجوع إلى شارع بون. فهل المضايقات من الجوار؟ يبدو أن الفندق كان مشبوهًا فيه بعض الشيء. أما السبب فهو البق؟ ربما الاثنان معًا. كذلك عانى كثيرًا في تلك الشقة التي أجّره – أو أعاره – إياها السيد دو برنيير. فذلك لم يحل دون قول الحساد إنه يعيش متطفلًا على السيد دو برنيير مع بقائه عشيق زوجته. لم يكن في مثل تلك الحال من شيء خارق في القرن الثامن عشر، زد أنها كانت غير صحيحة؛ إذ ليس في شخصية فولتير شيء من التطفل، فوجوده متعة واعتزاز للأصدقاء الذين يستقبلونه، صديقًا وندًا، لا «مسليًا» أو مدعوًا يسدد مساهمته بالكلمة الحلوة. لم يكن أيضًا يُعامَل «مدعوًا» بأكثر من شعوره «مدعوًا». إن طينته ورخاءه كانا شبيهين بطينة مضيفيه ورخائهم، وليس بينهم في نهاية الأمر سوى رابط واحد: إنه المتعة في أن يكونوا معًا.

لكن ما كاد يقيم عند آل برنيير، حتى ساءت الأحوال بسبب الحاجب. حوّل مأواه إلى حانة، وصار يقدم الشراب للمارة، كي يؤمن لنفسه دخلًا إضافيًا صغيرًا، لكن فولتير لم يرضَ بذلك. وها هو ذا في حرب سجال مع الحاجب وخموره.

ساءته أكثر، أيضًا، تلك البثرات التي عرَت بشرته. فكتب إلى السيدة دو برنيير يقول: «سوف تجدينني مصابًا بجرب رهيب يغطي جسدي كله». فهل نجم ذلك عن البق في شقته المؤثثة؟ يقول إن ذلك ناجم عن المياه. «لن نتبادل العناق لدى عودتك لكن قلبينا سيتخاطبان». إنه بارع دومًا في انتقاء الكلمات، حتى وهو يتحدث عن طفح جلدي.

أخذ، ما بين مشاحنة مع الحاجب وحك جلده، يعيد صوغ مريم صوغًا كاملًا. فيا لها من شجاعة! بل كان يتهم مسرحيته الفاشلة بأنها تسببت في تسميم دمه: «أعتقد أن مريم البائسة هذه هي التي قتلتني وأنا مصاب بالبرص لأني أفرطت في الإساءة إلى اليهود».

لكن كانت لديه – ويا له من رجل أدب! – دوافع رهيبة. لقد نمى إلى علمه أن روسو الأصهب يؤلف خفية في منفاه مسرحية مريم. فيا لها من جرأة تُطاوِل الوقاحة! بل إن هنالك رئيس دير مغمورًا اسمه نادال، كتب في المسرح والتراجيديا، نجاسر فكتب مسرحية باسم مريم، وقَبِل الممثلون بها وسيقدمونها. ولقد قُدمت: فكانت فشلًا ذريعًا. فجأر الأباتي نادال بالصراخ، جامعًا الشعراء كافة من حوله

ومتهمًا فولتير بأنه انتدب تييريو لاصطحاب طغمة إلى الصالة، وإثارة شغب أدى إلى سقوط مسرحيته. كان في وسع فولتير أن يلوذ بالصمت تاركًا الكلاب تنبح. لكن إهمال شجار كان فوق طاقته، فردّ على نادال باسم تييريو؛ ذلك أن الهجوم شُن على تييريو. لكن لا يسع فولتير السماح بمس أحد ممن يحب؛ فكتب بلهجة حليمة:

«وأخيرًا يا سيدي، فليس من كبير أو صغير إلا واستهزأ بك، أما أنا، والطيب من شيمتي، فشعرت بكثير من العناء، وأنا أرى كاهنًا متقدمًا في السن يتعرض لامتهان الجميع، على ذلك النحو المخزي، حتى إني ما زلت إلى الآن أشعر حيالك بالرأفة، على الرغم من شتائمك ومؤلفاتك».

كان الكل يطرب لقراءة ذلك الكلام المهين المسموم.

بعد سقوط مسرحية نادال بخمسة عشر يومًا، أعاد المسرح الفرنسي تقديم مريم فولتير: قام بغسلها وكيها وتجديدها، وحذف منها مشهد تجرع كأس السم ذا الذكرى المقيتة. أما في ما خلا ذلك، فظل الملل نفسه والسطحية عينها. وكانت باختصار على رداءة نسختها الأولى، وتكاد تكون مماثلة لمسرحية نادال، لكن الجمهور وجدها جيدة. جرى تكريسه شاعرًا عظيمًا من طريق الوثوق بأسوأ مؤلفاته. ولم يعترض، لكنه كان يعرف حدوده حق المعرفة.

ربما يكون أطيب الأصدقاء أحيانًا غاية في المشاكسة. وكان تييريو واحدًا من أولئك، وهو يتجاوز الحد. وكان فولتير قلقًا على مستقبله. أما وقد جرى تعيين ريشوليو سفيرًا في النمسا – وهو المنصب الأكثر هيبة واعتبارًا – فإن فولتير طلب إليه ضم تييريو إلى طاقم السفارة وتأمين منحة له. ولما كان ريشوليو أقل تشددًا من رجال المال، فقد قبل. وأفعمت البهجة قلب فولتير فحمل النبأ الطيب وقصد تييريو، فشمخ هذا بأنفه ورفض. وأصيب فولتير بخيبة أمل، فشكر ريشوليو وسحب طلبه. ولنلاحظ أن فولتير لا يفعل شيئًا لإرغام تييريو، فهو لا يرغم الناس أبدًا على القبول، فيدع لكل واحد حرية الاختيار، إلا أنه كان مستاءً بسبب الرفض.

في ذلك الحين ظهر البديل: إنه الكاهن ديفونتين. وسبق له أن طلب ذلك المنصب، فتقدم إلى ريشوليو فوافق. ثم عاد ديفونتين بعد أيام عدة فانسحب بدوره وقدم واحدًا من أصدقائه، وجاءت موافقة الأمير الطيب ريشوليو على الصديق. إيه! لم ينتهِ الأمر بعد.

اختار تييريو ذلك الوقت، ليعيد طرح القضية على بساط البحث. قرر أن يسافر فيؤمن لنفسه ثروة وهو يمشي على خطى السيد الأكثر تألقًا في العصر كله. فلمَ هذا التحول في الرأي؟ لأن السيدة دو برنيير أفرطت في الاستئثار به. كان ينوي الهروب، ثم بقي في نهاية الأمر. فهو لديها في منزلها، وهي صديقة مرهِقة بعض الشيء. جعلت منه الرجل الملازم لها، والمتطفل المختار، ونعرف من ناحيتنا أنه كان راضيًا عن ذلك كل الرضا. فهو على استعداد لكل شيء باستثناء العمل. فلم تجد كبير عناء في استبقائه، وجعلته يشعر بالخجل في التخلي عن الذين يحبونه. فهل لديه من شكوى حيالهم؟ وهل ينبغي تقديم المزيد له؟ حسبه أن يتكلم. وسوف تفعل كل ما هو راغب فيه من أجل أن يبقى!

لامَ فولتير السيدة دو برنيير على حبها لأصدقائها حبًا أنانيًا من أجلها هي لا من أجلهم هم. فقد أضرت بمصلحة تييريو حين استبقته، فكان أن حثّها، وهو المتضرر كثيرًا من انفصاله عن تييريو، لتدع صديقهما يسافر: «إذ ليس أمامه سوى هذه الفرصة، وإنه لن يكون موضع اعتبار علية القوم إن هو تخلى عن ثروة، ليظل رجلًا بلا فائدة ترتجى».

ذلكم هو فولتير متكلمًا بمنطق السيد أرويه، وبلهجة صديق حقيقي. لكن كلامه كان مغايرًا لهموم واحد مثل تييريو. فهو لا يأبه بأن يكون رجلًا «عديم النفع»، ما دام إنسانًا سعيدًا. أما بشأن تقدير علية القوم، فهو يفضل عليه الحماية. وأما بشأن ثروته، فهي ثروة ناجزة سلفًا: كان اسمها فولتير.

قرر تييريو، إرضاء للسيدة دو برنيير التي نزلت عند أسباب فولتير، وإرضاء لفولتير نفسه، أن يذوق بنفسه حلو ريشوليو الذي كان يرفل في الذهب، وأن يقبل بالمنصب. فتطلب الأمر تكرار الطلب إلى الدوق. وتطوع فولتير للقيام بذلك، إلا أن الوضع كان باعثًا على الضيق. أراق ماء وجهه وضيع الكثير من وقته. فهل من يظن أنه وجه اللوم إلى تييريو؟ كان لومًا شكليًا... «سببتَ لي بعض المضايقات بتقلبات رأيك. جعلتني أتوجه بطلبين أو بثلاثة طلبات متناقضة إلى السيد دو ر... الذي اعتقد أني أخادعه. وأنا أسامحك على ذلك بطيب قلب». كان تييريو على حق، فيا لها من ثروة حقيقية حين التقى بفولتير في مدرسة المعلم ألان.

بعد مدة قصيرة عاد فولتير فكتب له قائلًا: «فعلت من أجلك ما كان يمكن أن أفعله من أجل أخي ومن أجل ابني ومن أجلي أنا. فأنت عزيز عليّ مثل من ذكرت

كافة. وسوف يكون مآلك، في أسوأ الأحوال، أن ترجع لتشاطرني مسكني وثروتي وقلبي».

أليس ذلك رائعًا؟ فما تحسبون تييريو فعل بعد ذلك كله؟ رفض الذهاب إلى فيينا. وفي نهاية المطاف، ألم يكن على حق؟ إن أسوأ الأحوال التي يكلمه فولتير عليها، هي السعادة في نظره تحديدًا. والثروة؟ إنها جيوب الآخرين حين يدعونها مفتوحة بسخاء. ولنضف أن موجات التشنج التي سببها له تييريو أضيفت إلى أحزانه بسبب مريم، وإلى منغصات بيته المؤثث والمجهز، لكنه مجهز بالبق، وبمنغصات شارع بون والحاجب السافل، وبالحكة التي كانت ترغمه على هرش جلده وظهره بدلًا من حك الورق بريشته، وبالوخزات التي كانت تأتيه من السيدة دو برنيير بشأن المركيزة دو ميمور التي كانت تغار منها. الحق أن السيد دو فولتير رجل مشغول جدًا، ولا مناص من التسليم بذلك.

كف عن لقاء السيدة دو ميمور؛ فوجود بيرون أثار سخطَه، واستغلت السيدة دو برنيير ذلك السخط. فهي تريد فولتير من دون مشاركة من أحد. لكنه إغراء شاق لرجل منفتح ومشهور مثله، بل يسعنا أن نقول لمشتتٍ أيضًا. راهنت السيدة دو ميمور على الخصومة بين بيرون وفولتير؛ إلا أن ما كان رهانًا بالنسبة إليها كان إهانة في نظر فولتير. فهو عند الرئيسة مَلك. لا بأس في ذلك، لكنه ليس مكتملًا، لأنها كانت تريد بقوة أن يكون كل شيء في بيتها، شريطة ألا يكون شيئًا في مكان آخر. وواقع الحال أن فولتير يفضل أن يكون الأول هنا وهناك وهنالك وفي أي مكان أيضًا.

حين خضعت السيدة دو ميمور لعملية استئصال الثدي - يسعنا أن نتخيل أنها كانت في القرن الثامن عشر عملية رهيبة - توجه فولتير لرؤيتها على الرغم من حصول القطيعة بينهما. وعلمت الرئيسة بذلك فوجهت إليه توبيخًا كتابيًا. فرد عليها فولتير قائلًا: «ينبغي أن يروقك التوجه إلي باللوم لأني قمت بزيارة لمسكينة على فراش الموت توجهت إلي بالرجاء من طريق والديها. أنتِ لستِ مسيحية صالحة على الإطلاق إذ ترفضين أن يتصالح الناس مع الاحتضار...». وعلى الرغم من اعتدال اللوم - لكم هو مدهش صدوره عن رجل غاضب مثله - كان يخشى من أن يتعكر بسببه مزاج الرئيسة، على الرغم من أنه جاء في محله، فأضاف

يقول: «هذه الخطوة المسيحية جدًا لا تُلْزِمني مطلقًا العيش مجددًا مع السيدة دو ميمور. إنْ هو إلا واجب صغير قمت بأدائه وأنا عابر».

ذلك أن في نيته أن يختم حياته مع الرئيسة الطيبة، ومعها هي وحدها. إنه في الثلاثين وها قد بات يتكلم على التقاعد. لكن داء البرص متواصل لديه، وكذلك حال إسهاله، ومعاناته من أصناف الحمى الراجعة، مثنًى وثلاثًا ورباعًا، وليس من يدري. إنه يرى نفسه عجوزًا فيشعر بذلك الشعور... ويقول ذلك على الأقل. لكن ها هي ذي عزيمته تعود إليه، ذلك أن لديه طبيبًا جديدًا هو بوسلدوك؛ واحد من كثيرين. فالأطباء يعبرون، لكن أمراضه باقية وهو باقٍ كذلك.

معجزة في شارون، نصف معجزة في فرساي

هب فولتير مسرعًا إلى شارون مثلما فعلت باريس عن بكرة أبيها. إنْ هي إلا صرخة واحدة، هنالك امرأة حدثت لها معجزة! فأثناء الطواف في أبرشية سانت مارغريت، يوم عيد القربان المقدس في عام 1724، كانت امرأة من عامة الشعب تعاني نزفًا، فشعرت في غمرة من فورة الإيمان بأن نزفها توقف! وفعل فولتير كما فعل القديس توما من قبل: لمس فصدق[26]. إنها جوقة أناشيد من نعميات السماء. ويتكلم الناس... فيقولون إن البروتستانت سيصيبهم الارتباك. وشرع المحامي باربييه، وهو أقرب إلى الزندقة وخلف مذكرات تشع حيوية، يؤمن بالمعجزة ما وسعه ذلك. آمن الجميع، باستثناء اليسوعيين، ذلك أن كاهن الرعية جانسيني، إذًا ليس من وجود لمعجزة. وبدلًا من أن توحد المعجزة، أخذت تفرق. والناس ربما يتعاركون بسبب كلمة واحدة زيادة أو نقصانًا. وبُدئ بإجراء تحقيق لمعرفة إن كان لافوس، زوج صاحبة المعجزة، جانسينيًا بطريقة ما. وعليه، سُئلَت المرأة إنْ كان زوجها جانسينيًا، فأجابت:

---

(26) إشارة إلى ما جاء في الإنجيل عن توما: بعد صلب المسيح ودفنه بيومين، كان التلاميذ مجتمعين، وخائفين من اليهود، فظهر المسيح بينهم وخاطبهم وتناول من طعامهم. أما توما، فلم يكن بينهم. وحين أخبره التلاميذ الآخرون قال لهم: «لن أؤمن ما لم أرَه... وأضع إصبعي في موضع المسامير»، فصار توما رمزًا لقطع الشك باليقين. (المترجم)

«كلا، كلا، بل هو أبنوسي»[27].

إن كثيرًا من قوة الإيمان ثبت الإيمان في باربييه الذي تحول من شدة النباهة إلى الهوس بالتقوى. وتوجه الناس جماعات وفرادى، اعترافًا بالنعمة، للقيام بالطواف من شارون حتى كاتدرائية نوتردام. وكانت المرأة التي أُنعِم عليها بالمعجزة تحمل شمعة. وليس من يعرف كيف كانت تحملها، لكن كان الجميع يهتدي لدى رؤيتها. وصار الطواف يتكرر كل عام. فلم تقوَ إلا الثورة الفرنسية على مسح ذكرى صاحبة معجزة شارون.

وجد فولتير نفسه منخرطًا في المعجزة، لكنه منخرط، في نهاية المطاف، على طريقته هو، وبفضوله الساخر. لكن ذلك لم يحُل دون ملاحظة وجوده الواضح ضمن الهالة العجائبية. وقد كتب إلى الرئيسة يقول: «لا تظني أني أقتصر لدى وجودي في باريس على العمل في تقديم الأعمال الكوميدية والتراجيدية. فأنا أؤدي خدمة مقبولة لله وللشيطان في آن معًا. ولدي في هذا العالم حظ ضئيل من التقوى أعادته إلي معجزة الضاحية. جاءت المرأة صاحبة المعجزة هذا الصباح إلى غرفتي. أترَين كيف أُجِل منزلكم وفي أي عبق من القداسة سوف نجد أنفسنا! لقد أصدر السيد الكاردينال دونواي أمرًا بمناسبة المعجزة، ولكي يكتمل التكريم أو السخرية، ورد اسمي في ذلك الأمر... وجهوا إلي الدعوة، ضمن الاحتفالية، لحضور صلاة الشكر التي سوف تقام في نوتردام لمناسبة شفاء السيدة لافوس».

إنها حيلة ناجحة قامت بها المطرانية تجاهه بإيراد اسمه ودعوته، وذلك من فعل الأب كويه، الأباتي الذي كان فولتير يعرفه. ولا بد من أنه وجد متعة - على الطريقة الفولتيرية - في «توريط» فولتير في تلك الاحتفالات الورعة.

ولكي لا يظل فولتير مدينًا، رد على الدعوة اللطيفة في الأمر بإرسال مسرحيته مريم، مشفوعة بهذه الرباعية:

أرسلتم إلي أمر الدعوة

---

(27) الجانسيني - المسيحي المتعصب - لفظه بالفرنسية: جانسينيست (janséniste)، والنجار الذي يصنع الأثاث من خشب الأبنوس يدعى إيبينيست (ébéniste). فالموقف فكاهي، والواضح أن المرأة ساذجة فظنت أنهم يسألونها عن مهنة زوجها، النجار، الذي كان يتعامل بخشب الأبنوس. (المترجم)

فتقبلوا مني تراجيديا
عسى أن يتم في ما بيننا
تبادل الكوميديا».

فواحسرتاه! ألا ليت الحروب الدينية كانت تستخدِم دومًا ذلك النوع من الأسلحة!

صحيح أن فولتير وأمثاله كانوا يؤدون تمثيلية جميلة؛ ذلك أن «عصر العقل» وقع في فخ الإيمان بالمعجزة والشعوذة كما لم يحصل في أي واحد من العصور «المظلمة».

لكي يظل في عالم الكوميديا، عمل على تقديم مسرحيته مفشي الأسرار (*L'Indiscret*). كان دوق ريشوليو قد قرأها في فورج حيث كُتِبت، فراقته، وشاطره الجمهور ذلك الإعجاب، والسيدة دوبري أيضًا. كان رأي تلك السيدة له وزنه؛ إنها محظية دوق بوربون، وهو آنذاك رئيس للوزراء. إنها الملكة تقريبًا، وبفضلها دُعي فولتير إلى حضور زواج الملك من ماري لشتشينسكا (Marie Leczinska). وفكر في أن يقدم إطراءه إلى الملكة الشابة ويعرض عليها أشعارًا، وقال باستخفاف: «إن تكنْ جديرة بذلك». لكن ذلك الاستخفاف المخادع لم يحُل بينه وبين نظم الأشعار قبل أن يعرف إنْ كانت الملكة جديرة بذلك. لقد بكت وهي تشاهد أوديب! إنها إذًا لجديرة بذلك. فرغب في إهدائها كل ما لديه: أوديب ومريم ومفشي الأسرار. وأعلموه أن ستانيسلاف ملك بولونيا، والد الملكة، سيكون ممتنًا لقراءة لا هنرياد ومعرفة كاتبها. واستقبلته الملكة. وإذا ما صدقنا فولتير، فهو لم يقبل إلا إرضاء للسيدة دوبري. ويتخذ من المظاهر ما وسعه: «قد يرضى غبي بكل ذلك...»، وهو ليس بغبي، بيد أنه مفرط في غروره حتى ليهذي فرحًا، ولا يتوصل إلى تمويهه حتى بمشقة. وتتحدث الملكة إليه بعطف، فتناديه بلقب «يا صديقي الطيب فولتير». ويدور التساؤل عن السبب؟ لا ريب في أن الغاية هي إعطاؤه منحة شهرية بقيمة ألف وخمس مئة ليرة. ومنذ ذلك الحين طرأ تحول على البلاط: إنه الفردوس. لكن الحظوة التي نعم بها لم تجعله أنانيًا: «إنه توجهٌ للحصول على الأشياء التي أطلب... ولن أتشكى بعد اليوم من الحياة في البلاط». هذا تهكمٌ وقح، لكن سخاءه يشفع له حين يضيف: «بدأت تتولد لدي آمال معقولة بقدرتي على أن أقدم نفعًا لأصدقائي». ولسوف نرى أن تدخله المتكرر سيكون مجديًا.

عرفت حياته لبضعة شهور شيئًا من الراحة: لقد منحته حظوة البلاط هذه نوعًا من الصفاء. فبدا أن همومه الصحية أزيحت - لأنه سعيد - ولديه اليقين بأنه يسلك الدرب الكبير نحو النجاح والتكريم والمهمات. ولن ينسى ذلك الطموح أبدًا: مهمة رسمية كبرى، الحلم بلقب! إن اللقب في هذه البلاد يصنع الإنسان. لكن لا تأتيه من جانب الملك كلمة واحدة؛ فالأمر يستدعي شيئًا من القلق. فدعمه يأتي من السيدة دوبري التي تسيطر على دوق بوربون الذي يسيطر بدوره على الملك، المسيطر على الجميع. لكن، إن تكن السيدة دوبري ذات سلطة - بل ربما أكثر من الملكة - فإنها واحدة من تلك الملكات ذوات الحلل النسائية القادرات، إنما السريعات الزوال، أما الملكة الأخرى، الحقيقية، فهي باقية. فينبغي الانتفاع بالسيادة السريعة الزوال، للاستقرار في ظل السيادة الدائمة. ولسوف تكون تلك هي المعجزة الثانية في ذلك العام.

اعتقد أنه نجح في مسعاه، وتراءى له في نشوته أن الموهبة والذكاء - إذا ما اتشحا بلبوس اللباقة والمداهنة - يعطيانه حقوقًا. لقد قام أصدقاؤه، كبار من الأسياد، بتدليله بعض الشيء؛ فهم يعاملونه برفع الكلفة، صديقًا ومساويًا لهم، على الرغم من حرصه تجاههم على إبداء مظاهر الاحترام التي يقتضيها نبل محتدهم. وتسود من بعد الحرية بفضل بعض الأشكال المتعارف عليها. لكنه كان يتمتع بنظام متميز؛ إذ كان بعض أصدقائه المفضلين يتذمرون بين وقت وآخر... وكان له بعض من تلك الحريات. ولم تكن قسماته تسيء إليهم دائمًا، لكنهم يتهكمون في بعض الأحيان.

يمكن أن يمد القط كفًا مخملية، لكن يقع للمخلب أن يخدش، فيتحول التفكير نحو خطر دفين. وما كان لأحد أن يفوق فولتير لباقة وكياسة وتهذيبًا رفيعًا في معاشرة الأصدقاء والاختلاط بالمجتمع. إن الضامن الأول لشهرته في بدء الأمر، تمثل في حديثه، وأحاديثه بالنسبة إلينا قد ضاعت، لكن الفتنة التي كان يشيعها من حوله ليست سحرًا، وليست فتنة تسبب الخمول. فالأمر بخلاف ذلك؛ إنها تنعش الفكر فتحرضه وتشحذه. إنها تلهب الخيال وتحل عقدة الألسِنة. تمثلت فتنة فولتير في أنه كان على درجة من الذكاء، وبطريقة مشعة وغيرية جدًا إلى حد ما بحيث يجعل الآخرين أذكياء. وكان متألقًا بما يكفي لجعل الألق يظهر من حوله. كانوا يُعجبون بأنفسهم، وهم يُعجَبون به. وكان يلهب المجتمع حماسة،

فهو ممثلٌ بارعٌ جدًا، حتى لَيعتقد شركاؤه أنهم مساوون له. وكانوا كذلك أحيانًا وهم يشاركونه المحاورة.

كانت تلك إشارة على درجة عالية من التمدن، سواء بالنسبة إليه أم إلى العالم الذي يعيش وسطه. فما كان في وسعه أن يكون فولتير إلا في العالم الذي اختار العيش وسطه، وهو العالم الذي كان يرى نفسه فيه. إنه ليس إنسانًا واحدًا، إنه في ذلك العالم: إنه حضارة.

لكن هذه اللعبة الأخاذة لم تكن لعبة مغفلين. كانت عيونهم جميعًا مفتحة تمامًا، وكانوا تحت مظهرهم الحريري، على درجة من صحو الفكر هي غاية في القسوة؛ بل إنها تماثل الفولاذ صلابة. كانت لعبة الفكر هذه، تلامس الخطر دائمًا، فهي تتناول المعتقدات كافة، حتى الأكثر قداسة، وتتناول الموضوعات كافة، من انتهاك المقدسات حتى التمرد والخروج عن الأخلاق، والفوضى.

كان لويس الخامس عشر على جانب من الذكاء مثل أي واحد، وكان يحمل فكر عصره. فهو يتابع أحاديث فولتير من بعد، فيخشى مخلبه الخفي، ولا سيما تلك الوقاحة التي تكدره وتصدمه. فيظل متنحيًا لأنه لا يتحمل بعض أشكال التحرر التي يقبل بها كبار الأسياد، ويفضل البقاء بعيدًا من مشاهدة بهلوانيات ذلك السنجاب المدهش الذي يُخشى أن يأتي واثبًا دونما اعتبار فوق أغصان السنديانة المقدسة التي تقي جذع القديس لويس. ذلكم تفسير تحفظ الملك حيال فولتير. وعلى ذلك فالحظوة التي أُنعِم عليه بها في البلاط لم تكن سوى نصف حظوة.

معروف ضائع...

يبقى أن ذلك الرصيد لفولتير عاد بالنفع على شخص غريب الأطوار.

ولد بيار غويو ديفونتين في روان في عام 1685 من أسرة مرموقة من رجال الكهنوت، تصاهر أسرة برنيير. وظل الأباتي ديفونتين هذا، وهو يسوعي ومن تلامذة اليسوعيين، أستاذًا لبعض الوقت داخل السلك الكهنوتي. لكنه ذو فكر موارٍ، فآثر حياة حرة أكثر، وحصل على أبرشية في تورينيي، في مقاطعة النورماندي. لكنه لم يمكث فيها، إذ إن الالتزامات عددها خارق؛ من خدمة القداس صباحًا، فقراءة كتاب الصلوات، ثم الإصغاء للاعترافات، والتعميد، وعقد الزيجات، وإقامة

صلوات الجناز... ففضل حرفة الأدب. وكان يجيد الكتابة، ويتمتع بذوق رفيع إلى جانب المعرفة. ونظم، في سبيل إشهار اسمه، قصيدة موضوعها «سوء استخدامنا الحياة». فقدم فيها البرهان على أنه شاعر رديء جدًا. فتخلى عن الشعر، لكنه احتفظ بنوع من الحقد على الشعراء، ولا سيما الشعراء المجلين. وأما نثره فكان نثرًا ممتازًا مثل المتعلمين كافة في عصره، زِد أن أذيته تجعل نقده لاذعًا.

قام يصب جام غضبه على تلك المسرحية المسماة إينيس دو كاسترو التي وضعها الشقي لاموت، فبدا قاسيًا قسوة مدهشة. وكانت الشرطة قاسية معه بالقدر نفسه، حين أوقفته بسبب لقاءاته المنفردة والمقلقة مع الصغار من أبناء سافوا الذي يعملون في تنظيف المداخن. والمسألة خطرة. فالمحرقة تتهدده لو شاء القضاة المضي بالقضية بعيدًا. فقد أحرِق شكلٌ يمثل المسكين تيوفيل دو فيو للسبب نفسه. أما بعد ذلك بعامين – أي في عام 1726 – فجرى في حالة مماثلة إحراق شخص يدعى ديشوفور إحراقًا تامًا. إذًا كان الأب ديفونتين خائفًا أشد الخوف، وهو في سجنه.

كان فولتير هو الذي أخرجه من ورطته. كان فولتير مريضًا، فغادر سريره ومضى ليرتمي على قدمي الكاردينال فلوري، وهو وزير آنذاك، طالبًا الإفراج عن ديفونتين. وخرج الكاهن من السجن في 29 أيار/ مايو 1725. وفي 30 أيار/ مايو كتب إلى فولتير يشكره. وينبغي أن نقرأ كلمات الشكر لنستمتع من بعد بالشتائم: «لن أنسى أبدًا يا سيدي ما أنا مدين به لك من التزامات لامتناهية. إن طيبة قلبك لتقع في مكانة أسمى من فكرك. وأنت الصديق الصدوق أبدًا. وإن الحماسة التي أبديتَ تجاهي لتشرفني أكثر من روح الإيذاء لدى أعدائي وظلاميتهم، وقد ألحقوا بي الإهانات من طريق سوء المعاملة التي تعرضت لها. ولا مناص من الاعتزال لبعض الوقت».

كان ذلك جانب العواطف الطيبة، لكنه لمّا يرضَ. وهو يرى النفي ظلمًا. فينبغي أن يحصل له فولتير على العودة الفورية، بل يعرض عليه صيغة الاستدعاء التي ليس على الوزير سوى توقيعها. ولقد خصص ستة أسطر للإعراب عن الامتنان، لكنه أفرد أربعين سطرًا للسفاهة والفظاظة.

استأنف فولتير مساعيه، فلا يلوذ به شقي من دون طائل. أما وأن له الآن

مكانة مرموقة في البلاط، فقد حصل في 7 حزيران/ يونيو 1725، على العفو عن ديفونتين. إنه رقم قياسي: بعد شهر واحد على خروجه من السجن! لكن ذلك ليس كافيًا. ولا بد له من نفقة، أو معونة في أقل تقدير. عند ذلك أفهموا فولتير أن على ديفونتين أن يلتزم الصمت؛ «لأن بعض الانطباعات لا تزال حديثة العهد جدًا». أما ديفونتين، فأصبح من جانبه في حضن دافئ، حيث استُقبِل لدى السيدة دو برنيير، وصار يتبادل التهاني مع تييريو، بمباركة من فولتير.

حرص فولتير على تأمين الدفء لتلك الأفعى بعناية سوف تؤتي أكُلها في القريب العاجل.

الخيانة العظمى

لا تمر مخالطة كبار القوم من غير مخاطر. وكان فولتير قد ألفهم حتى نسي ذلك. كان الممثل الكوميدي دانكور معروفًا بسرعة بديهته حتى صار زينة لحفلات العشاء الباذخة. أما ذات مساء، وقد تألق كثيرًا، حيث الطعام الفاخر والشمبانيا عملا في الظاهر على إزالة الفروق الاجتماعية، طلب إليه أحد كبار الأسياد أن يعود فيلتزم بآداب السلوك قائلًا بالحرف الواحد: «إني أحذرك يا دانكور، من أنك إن كنت عند نهاية العشاء أكثر مني مزاحًا، فسوف آمر بجلدك مئة جلدة». فبدأ دانكور يتحفظ. ليست الجلدات المئة هذه مَجازية، ولا هي أيضًا من المتممات الفكاهية. إنها جزء من حياة المجتمع في عام 1725، فهي ظاهرةً اجتماعية قائمة بنفسها، ودانكور يعرف ذلك حق المعرفة.

لكن فولتير لم يكن يتمتع بتلك الحكمة. كان مقتنعًا بطمأنينة بأنه «أمير»، لأنه «شاعر»، ولأن أصدقاءه جعلوه يقتنع بذلك الوهم. ففي عام 1725، كان ذلك وهمًا. ولو أن آل ريشوليو وآل سولي وفيلار وكونتي دعوه إلى الالتزام بقواعد السلوك، حتى لو كانت الدعوة هادئة، لكان اتخذ ربما جانب الحذر. فلنقل، إطراءً لهم، إنهم تركوا له الحبل على الغارب، ليقول ويفعل ما يشاء. ولسوف يكلفه ذلك التساهل أفظع إهانة لحقت به في حياته.

التقى فولتير في المسرح الوطني، في خلال كانون الأول/ ديسمبر 1725، الفارس روهان شابو، في مقصورة أدريين لوكوفرور. كان فولتير

معجبًا بالممثلة لوكوفرور كل الإعجاب، إذ بقي لديه من صلتهما رابط وفاء، ما هو عشق، بل صداقة صدوقة كأنها معطرة بالحنان. وكانت الآنسة لوكوفرور تبادل مؤلف أوديب تلك المشاعر كلها. وظن الفارس دو روهان الذي نهشت قلبه الغيرة، من دون شك، من الصلة الخالية من كل تكلف بين الممثلة والشاعر، أنه لم يُعامل بكل الاعتبار الذي يظن نفسه جديرًا به. وحسِب أن من الملائم اتخاذ مظهر الأهمية والصلف والسيد العظيم. وقد يتساءل المرء عن السبب. أليس هو روهان؟ إن ذلك لكافٍ. فشعاره يقول: «أنا لست ملكًا - ولا أتنازل لأن أكون أميرًا - فأنا روهان». إن سلوك ذلك الرجل على درجة من الحمق والفظاظة وشدة الاختلاف عن سلوك كونتي، على سبيل المثال، حتى لكأنه أشبه ببقعة من الدسم على صدرية من الحرير. فهو يتكلف مظاهر من التعالي المتعجرف. روهان المتغطرس مثل السيد جوردان[28]! يتظاهر بالجهل باسمي فولتير وأرويه والخلط بينهما. أما فولتير المتعود على سلوكيات أخرى، فوجد تلك التصرفات جارحة جدًا. وحين قال له روهان:

«أرويه؟ فولتير؟ هل لك اسم في نهاية المطاف؟».

فولتير لم يكن دانكور. فردّ عليه بسرعة صاعقة وبفكر متوقد ومستثار غضبًا، مسددًا لروهان هذا السهم:

«فولتير! أنا ابتدأ اسمي، وأنت سينتهي اسمك».

كان هنالك أشخاص يسمعون. فرفع الفارس عصاه على ابن أرويه، وسارع هذا فاستل سيفه دفاعًا. أما الآنسة لوكوفرور التي تدرك ما العادات، فقد عرفت كيف تسقط مغمًى عليها ما بين العصا والسيف. وأعاد الفارس وضع العصا تحت ذراعه، ورد فولتير سيفه إلى غمده. وما إن استدار الفارس مغادرًا حتى هبت الآنسة لوكوفرور واقفة على قدميها. وقال أحد الحضور لفولتير: «يسعدنا أنك أرحتنا من وجود الفارس». وذلك برهان على أن صحبه ما كانوا يستلطفونه.

إلا أن المسألة لمّا تنته.

---

(28) بطل مسرحية موليير البرجوازي النبيل. (المترجم)

بعد ثلاثة أيام، كان فولتير يتناول العشاء في بيت صديقه دوق سولي؛ فهو يتوجه إليه «كأنه من أبناء البيت». وفي أثناء العشاء، جاء من يطلب فولتير: إنه رسول ينتظره في الشارع. فنزل دونما حذر. كانت هنالك عربتان مغلقتان متوقفتان، فدُعيَ إلى التقدم صوب الأولى والصعود على الدرجة الأولى للتحدث إلى الشخص الجالس داخلها. ولقد أُحسِنَ إخراجُ المكيدة. فما إن اقترب فولتير حتى انهال عليه تواتر من الضربات. وسُمِع من العربة الثانية صوت الفارس روهان صارخًا: «لا تضربوه على رأسه، إذ يمكن أن يخرج منه شيء صالح».

وزها روهان من بعد، وهو يروي تلك المأثرة، قائلًا: «توليتُ قيادة العمال»، فيا له من فارس مقدام! وكان هنالك جمهور غبي ينظر المشهد، فيجد أن الفارس كان رقيق القلب حين دارى رأس الشاعر، وقالت الغوغاء: «إيه! يا له من فارس صالح!».

إن تلك الواقعة تثير السخط، أيًا كان الوجه الذي ننظر منه إليها. ولسوف تعتمل ثورة في قلب الشاعر. أما الضغينة التي حفظها منها فلن تقبل أن تمّحي. لكن كان هنالك ما هو أسوأ من الضربات.

صعد كالمجنون إلى القاعة، مضطربًا ومشعثًا، فروى هنالك للضيوف الذاهلين، وهو خارج عن طوره، ما جرى، داعيًا إياهم إلى نجدته، بدءًا بالدوق، أليس ضيفًا عنده؟ لقد لحقت به الإهانة وهو على عتبة داره. فمن عساهم يحسبون سولي؟ وتوسل إليه كي يرافقه إلى مفوض الشرطة لتقديم شكوى، والاحتكام إلى القوانين؛ فهناك محاولة قتل. إلا أن الدوق الرصين رفض. وكانت الوجوه كلها كأنها قُدت من صخر، وران صمت قاتل. فأدرك أنه ما من أحد سيناصره. وفهم في ومضة برق، أن فولتير لا يعادل شيئًا حين يكون في الكفة الأخرى من الميزان واحدٌ اسمه روهان. فما هو أكثر من نديم، ومحرك للجو في أثناء العشاء، ومصدر لهو لدى الإقامة في الريف.

حصل ما يشبه الانهيار في أعماق نفسه. كان يعرف على الرغم من ذلك أن هذا الجور قائم. بلى، لكنْ بالنسبة إلى آخرين، لا بالنسبة إليه. وكان شديد اليقين بأنه في مأمن من تلك الإهانة. وليست الإهانة في تلقّي الضربات، بل هي في تلك الموافقة الصامتة والتامة والعامة، لدى أولئك الذين كان يحسبهم «أصدقاءه»، على الضربات التي تلقاها لتوه. ذلكم هو العار.

سبق أن وضعوه في الباستيل، فلم يحتفظ بضغينة طويلة على السلطة. ريشوليو نفسه دخل الباستيل، فذلك مصير الذين يحتجون كافة، فيقاومون. لكن ضربات العصي لا تصدر إلا عن نزوات رجل، وهذا أمر شائن. وأسوأ ما في الأمر أن الجمهور أقرّ إقرارًا كاملًا بشرعية تلك الأشكال من الجلد، فوجدها مسلية. وهكذا قال الكاهن القانوني كومارتان - وهو قريب صديق فولتير - من غير سوء نية: «كم كنا سنشقى لولا أن الشعراء أكتافهم صلبة!». المسألة إذًا مُسَلمٌ بها، فأمثال كومارتان وروهان يؤمّنون العصي، فيما يؤمّن الشعراء الأكتاف؛ إنها تسلية. أما أمير كونتي الذي كتب إطراء جميلًا موجهًا إلى مؤلف أوديب، فقد صاغ عبارة ذكية بشأن الضربات التي تلقاها فولتير، فقال عنها: «كان تلقّيها جيدًا لكن منحها كان سيئًا».

حاول فولتير التبجح لبضعة أيام. فظهر في كل مكان، من البلاط إلى المدينة. بل إن أحد الرواة، واسمه ماريه، كتب يقول: «ما من أحد أسف لحاله، والذين كان يظن أنهم أصدقاؤه أداروا له ظهورهم». وقد طَرِب ماريه لذلك كثيرًا.

توسل إلى دوق أورليان قائلًا: «سيدي، أطالبك بحقي»، فرد عليه الدوق، بالإجمال، ردًا فولتيريًا جدًا، إذ قال: «لكنهم أعطوك إياه!».

توسل إلى السيدة دوبري أن تتدخل لدى الوزير، بل لدى الملك نفسه. فأصغت إليه ولم تُجِب بشيء.

لكن سواء أحصل تدخل أم لم يحصل، فالنتيجة هي نفسها، إنه الفشل الذريع، بل ما من أحد يرغب - بمن فيهم الوزير نفسه - في أن يتحمل عبء آل روهان. فهم كثُر، وهم قادرون. وهم جميعًا متضامنون في ما بينهم، من الكنيسة إلى الجيش فالبلاط. ولا يعود الأمر إلى أن الفارس كان بذاته شخصية براقة، بل الأرجح أنه كان جبانًا ومرابيًا! لكنه ماريشال ركن، ثم أصبح قائدًا عامًا في عام 1734؛ وتظل تتمثل أفضل رتبة شرف نالها في الهجوم الذي شنه على منكبَي فولتير.

لم يكن فولتير من جانبه قائدًا حربيًا ماهرًا، لكن رغبته الضارية في الثأر قامت لديه مقام البسالة. لقد قرر أن يقتل الفارس. كان في وسعه أن يغتاله، لكنه كان يريد قتله وفقًا للأصول، وهذا شيء حسن من جانبه. عند ذلك بدأنا نرى شاعرنا الذي

أُسقِط في يده، والغل والإحساس بالعار يعملان فيه نهشًا، فيهرب من المجتمع، ويلوذ بالسوقة، فيخالط أوكار اللصوص والمسايفين المأجورين. صار قذر المظهر، بلا باروكة ولا ملابس بيضاء نظيفة، وغير حليق الذقن. إن الحال خطرة جدًا؛ فشناعته فاضحة، وقد شعر بنفسه وهو ينزلق إلى أسفل سافل المجتمع. اتسخ في نظر نفسه، ولم يكن يدري أن الشرطة تتابعه، فهناك جاسوس يقدم تقريرًا يوميًا حول حركاته وسكناته ومخالطاته: إنه يتعلم على يد المسايفين هجمات مستحدثة، لكي يُحسِن قتل الذي أهانه. باتوا يعرفون ماذا يطهو على نار هادئة، فخشي آل روهان وقوع هجوم، فيما أصدقاء الشاعر يتهكمون؛ إذ إنهم يعرفون مدى جبنه، فهو لن يفعل شيئًا. أما في أعماقهم، فلن يغيظهم أن يقوم بما تطلق عليه الشرطة بحياء اسم «ضربة طائشة»؛ أي أن يبعج بطن روهان بسيفه أو أن يدفع إليه مَنْ يفعل ذلك. استدعى فولتير أحد أقربائه من الضاحية ليكون شاهدًا له؛ وذلك برهان على أنه ما عادت لديه ثقة بأصدقائه في باريس. ولا بد من أن تكون المحنة مُرة لدى امرئ اعتبر الصداقة العاطفة الأقوى والأكثر استقامة وثباتًا. أما وأن معاشرته أولئك صارت مقلقة جدًا وعزيمته ازدادت ثباتًا، على مدى إتقانه إجادة القتل، فإن الشرطة ارتأت أن من الأفضل استباق «الطيش» من طريق احتجازه في الباستيل.

أما هو فكان يُعِد انتقامه بذلك العناد، وبتلك الطاقة التي يضعها في كل ما يطمح إليه. فكيف يسعه أن يتحمل المجتمع المقيت الذي يعيش فيه؟ قد يقول قائل «بدافع من اليأس». لكن هذا غير صحيح، فالأمل يحدوه بخلاف ذلك في النصر. وربما يسع فولتير أن يكون ساخطًا جدًا، لكنه لا يعرف اليأس أبدًا. إنه يعاود الوثوب دومًا. ولا يذهبن بكم الظن إلى أنه يرغب في خوض «معركة حتمة»: فإما أن يَقتُل، وإما أن يُقتَل دفاعًا عن شرفه. كلا، على الإطلاق. إنه يريد أن يَقتُل وأن يحالفه الحد الأقصى من الحظ، والحد الأدنى من المخاطر. وهو أشد حبًا للحياة من أن يأتي ليفقدها في مغامرة. إن حماقة روهان هي التي ترغمه على هذه الحماقة الأكبر وفحواها قتل رجل. إنه يشعر بالهول من الموت، والهول أيضًا من القتل، ومن القتَلة من أي صنف كانوا. أما وأنه أُرغِم على ذلك... فهو يؤثِر أن يَقتُل على أن يُقتَل. إنها حصافة آل أرويه الماثلة على الدوام: فلْنُحافظ على الشرف، من غير أن نخسر الحياة.

يروي تيريو أنه كان مختبئًا وراء أحد الأبواب، حين فوجئ بلقاء غير متوقع بين فولتير والفارس في مقصورة أدريين. وطلب فولتير إلى الفارس بكل زهو أن يُصلِح الخطأ بالاحتكام إلى السلاح، فقَبِل الفارس الجريء بذلك. أما وأنه خرج من هناك، فهل تحسبون أنه مضى يصقل سيفه؟ لقد توجه يطلب اللجوء لدى بعض أفراد عائلته، مع الإلحاح على وضع الأمر باحتجاز فولتير موضع التنفيذ، ولاسيما أن الأمر موقع؛ إذ كانت رسالة الأمر جاهزة منذ خمسة عشر يومًا. وجرى التريث قليلًا... لكن السيد الدوق دو بوربون ما عاد يتردد حيال انفعال الفارس، فلا يسعه أن يرفض لذلك البطل طلبًا. وهكذا كان أن تعرض فولتير للضرب فالخيانة فالاعتقال. إنه الخزي بعينه.

لكن هنالك صوتًا وحيدًا ارتفع بقوة وإباء، إنه صوت الدوق دو فيلار، ذاك الذي خاض بنفسه غمار المعارك، فشن الحرب ضد الأعداء على الحدود، لا على الشعراء عند فراء إحدى الممثلات. واعترف بأن الجميع كان على خطأ: «أخطأ فولتير بإلحاقه إهانة بالفارس، وأخطأ هذا الأخير باجترائه على ارتكاب جريمة تستوجب الموت عندما أقدم على ضرب مواطن (أجل، تلكم هي كلمة مواطن ترد على قلم أحد ماريشالات فرنسا)، وأخطأت الحكومة لأنها لم تعاقب على شيوع هذا العمل المرذول، ولأنها احتجزت المعتدى عليه بالضرب في الباستيل لكي تطمئن الضارب».

ليس هنالك ما يفضُل هذا القول. فالماريشال يبدو أنه يفكر في شيء فات معاصريه كافة: إنه القانون. فالحكومة لا تعبأ به أكثر من الضارب. لكن ما حال الشعراء الآخرين؟ الصمت المطبق. إنهم يضحكون هازئين، وينتظرون دورهم. إن ما تسبب لفولتير بصدمة دون ما عداه، في واقعة الضرب تلك، ذلك التواطؤ ضمن غياب الحس بالمواطنية: فذلك الشعور بالمواطنية، كان يشعر به هو والماريشال وبعض الآخرين، من دون ريب، لكنه لمَّا يكن شعورًا ناضجًا لدى الفرنسيين في عام 1725. خلاصة القول، اقتيد فولتير في ليل 17 نيسان/ أبريل 1726 ليُعتقل مرةً ثالثة في الباستيل، وليتنفس الصعداء أخوه أرمان الذي لم يكن يريد له أي خير، والذي خاف بشكل خاص من الفضيحة، وحتى أخته الأثيرة لديه، السيدة مينيو الطيبة التي كانت ترتعد خوفًا على الولد الرهيب، وهي تخشى أن يقتلوا أخاها. كانت تلك المرأة الصالحة تعرف حق المعرفة أنه «أعظم شاعر

في ذلك الزمان»، كما يقول عنه الدوق دو فيلار والرأي العام، يُدعى أرويه، وأنه سوف يتحطم كالزجاج إذا ما اصطدم بآل روهان.

شعر البلاط بدناءة ذلك الاعتقال. فرصيد آل روهان لم يحقق منه كسبًا كبيرًا؛ إذ جعلوهم يشعرون بأنهم إنْ نالوا ما طلبوا، تسببوا بالضيق للجميع. إلا أنه ضيق صامت ومذعِن.

وها هو أحد أدلة إحساس الوزير بالخطأ؛ تلك الرسالة الموجهة إلى مدير سجن الباستيل: «إن السيد دو فولتير ذو عبقرية تقتضي المراعاة. وقد ارتأى صاحب السمو الملكي أن أكتب بأن نية الملك هي أن تؤمنوا له أشكال اللطافة كافةً وحرية الباستيل التي لا تتعارض مع أمن اعتقاله».

هنالك اكتشاف: «امنحوه حرية الباستيل»! إن دمج هاتين الكلمتين مِن أنجح ما جاء في الأسلوب الإداري. كان بوسي رابوتان يتشكى وهو في الباستيل من أن الملك أعطاه «صدرية من الحجر». ويبدو ذلك أكثر تعبيرًا.

ها هو ذا قد استقر في مسكن، وسط أثاث ملكي. فبدأت الزيارات، وها هم أولاء الأصدقاء الذين كانوا نادرين جدًا، ومتوارين، يتدفقون على حين غرة، جماعات وفرادى. أضحى فولتير معتقلًا مسايرًا لذوق العصر: إنها باريس. وإننا لنتساءل إن كان أولئك الناس المطابقون لذوق العصر مقيتين أكثر في جُبنهم أم في ظهورهم التفاخري. وكان التوقيف بلا طائل. فالاعتداء بالضرب كان كافيًا، زد أن الاعتقال يحول بين فولتير وإثارة صخب فضيحة جديدة، ويحرم الجمهور مشهدًا مثيرًا. وبلغ الحشد حدًا جعلهم يحظرون الزيارات.

يوم جرى حظر الزيارات، وُقِّع على الأمر بإطلاق سراحه. وهو من ناحيته، لم يطلب شيئًا، لكن ما كان في وسعهم الإبقاء على ذلك المستمسك المقلق. إنه الأول من أيار/ مايو 1726. كان ذلك الإفراج مرفقًا ببعض الشروط: على فولتير أن يتعهد بمغادرة فرنسا من دون استمهال، وأن يُبحِر في اليوم نفسه من مرفأ كاليه إلى لندن. فتوجهت السيدة دو برنيير والسيدة دو ديفان وتييريو لوداعه. وقد قدمت له السيدة دو برنيير عربتها، ولسوف يُعيدها إليها الشرطي الذي سيرافقه ليتأكد من إبحاره.

لم ينسَ أن يقول وداعًا لجارته الشهيرة في السجن، السيدة دو تانسان، وهي المسكينة، المعتقلة لأن أحد عشاقها انتحر، وكانوا اتهموها بأنها دفعت به كي يفجر دماغه بطلقة نارية. فما كان الناس يملكون الحق في أن يكونوا مثل فيرتر، ولا أن يكونوا ملهِمين لأمثال فيرتر. كتب فولتير إلى زميلته في المعتقل:

«كنا مثل بيرام وتيسبي[29]، ما كان يفصل بيننا سوى جدار، وما كنا نتبادل العناق قط بسبب ذلك الحاجز...». كان ينبغي، مع سماكة الجدار التي تبلغ ثلاثة أمتار، أن يكون المرء بقوة هرقل، ولم تكن تلك حال فولتير.

ها هو ذا في لندن، لكنه لم يقوَ على البقاء فيها، فعاد سرًا مع العزم على قتل روهان غيلة. ولا مناص من القول إن اعتقاله جعله مهووسًا بالحقد. عاد ليمضي تائهًا في شوارع باريس، متنكرًا، يبحث عن الذي أهانه فلا يقع عليه، ثم يتولاه هلع مباغت بسبب المخاطر الرهيبة التي تتهدده، فيسارع بالعودة إلى لندن؛ إذ إن تجار القماش من آل أرويه كافة، استيقظوا على حين غرة ليلهموه حذرهم المقدس.

كتب إلى تييريو يقول: «هنالك احتمال كبير في ألا أراك مجددًا في حياتي، وليست هنالك سوى أشياء ضئيلة أفعلها بحياتي: أحدها أن أغامر بها بشرف حين يسعني ذلك (ذلكم هو أسلوب الروايات في القرن السابق، فلا بأس)، والآخر أن تنتهي في ظلمة من الاعتزال التي تتلاءم مع طريقتي في التفكير، ومع مصائبي ومعرفتي بالناس». وفي هذا كثير من الرصانة؛ إنه يريد أن ينسى وطنه ومواطنيه، والمجتمع الباريسي، والوزراء ومحظياتهم، والخديعة الرهيبة عن الصداقات في المجتمع الراقي.

ولسوف تقابله إنكلترا بآلاف البسمات عسى أن تعينه على السلوان.

---

(29) يقول أوفيد إن الشاب بيرام والفتاة تيسبي عاشقان من بابل. كانا في دارين متجاورتين، فكان ينظر كلٌ منهما إلى الآخر عبر شق في الجدار، لأن الأهل رفضوا زواجهما. وذات يوم تواعدا على اللقاء عند جذع شجرة توت بيضاء. ووصلت تيسبي أولًا فبوغتت بوجود لبؤة فارتدت مذعورة، وسقط وشاحها الذي عبثت به اللبؤة فلوثته بالدم. وحين وصل بيرام ورأى الوشاح المدمى ظن أن تيسبي قضت بين فكي اللبؤة. فطعن قلبه بالسيف وسقط عند جذع التوتة صريعًا. وسال دمه فاصطبغت التوتة بالأحمر. ثم رجعت تيسبي لتجد حبيبها صريعًا فقتلت نفسها حزنًا. (المترجم)

كل شيء في أحسن حال، وكل شيء على خير ما يرام. كان ذلك ما قرره فولتير. تيقظ حبه للإنكليز في صداقته للورد بولنبروك. وعثرت الصداقة الآن على مبرر وجودها. ولسوف يتغنى بمدائح إنكلترا، لكنه سيغادرها - وإلى الأبد - فور تمكنه من القيام بذلك، من غير أن يكف عن كيل المدائح لها، إما لأن إيمانه بذلك هو نصف إيمان، وإما ليتسبب بالغيظ لباريس وفرساي، وذلك هو المرجح. فحقق في مسعاه نجاحًا لا بأس به، وهو لن يُنسى أبدًا.

لندَعْ لأناشيده أن تهدهدنا. لم يقع لألبيون الخضراء أن صُورت بمثل تلك الألوان البهيجة المتألقة: «كانت السماء خالية من الغيوم كما هي في أجمل الأيام في جنوب فرنسا، والجو تنعشه ريح غربية رقيقة تزيد الطبيعة صفاء وتجعل النفوس أكثر انشراحًا؛ ولا سيما أننا ماكينات وأن أرواحنا منوطة بفعل أجسامنا. توقفت بالقرب من غرينتش على ضفاف التايمز، ذلك النهر الذي لا يفيض أبدًا... إيه أيها النهر العاقل الذي يكلل بالعار أنهار فرنسا كافة... إلخ».

حتى التايمز يشكل توبيخًا لأنهار فرنسا. إنه المثال الأوضح على تجميل مشهد طبيعي بالعواطف. فضربات العصي والباستيل وتخاذل الأصدقاء تجعل من فرنسا بلدًا لا يُسكَنْ، كل ما فيها شنيع وهمجي ومزور، حتى الأنهار! فيا له من مشهد أخاذ! مشهد التايمز وهو مغطى بالسفن التجارية، المثقلة بالثروات وفي ما بينها سفينة مذهبة، جلس فيها الملك والملكة يتنزهان، تحيط بهما جمهرة من الزوارق يرتدي المجدفون فيها ملابس زاهية تتلألأ بالحرير والذهب. ورأى من النظرة الأولى أن أولئك الرجال الذين يجدفون هم «مواطنون أحرار»: إنهم يتنسمون ريح بهجة الحرية والنعمة. فيا له من تحقيق رائع: «اكتشاف شاعر باريسي إنكلترا، وهو على خلاف مع الشرطة الملكية».

كانت لديه مثل تلك الحاجة ليتنفس بحرية! وشعر براحة كبرى؛ إذ على الجانب الآخر من البحر آل روهان، والعصي، ورجال الشرطة، والباستيل، والصداقات المسمومة! إنها حقًا حاجة إنسانية لأن يجدد المرء لون بشرته بعد أن تعرضت القديمة لتلك الدباغة الوحشية، ولأن يسبغ على الجديدة الفضائل كافة لمجرد أنها تجعله ينسى القديمة.

نسي أنهم في إنكلترا أيضًا يجلدون الشعراء. فكُونْت روتشستر أوعز بضرب الشاعر درايدن بعصا عبده الزنجي ويل. فالضاربون بالعصي في باريس من البيض، أما في لندن فمن السود. إنه الفرق الوحيد. لكن لا قيمة لذلك: إن فولتير على استعداد لأن يرى كل شيء بلون وردي. وعلى الرغم من جودة أوهامه، فإنها تهرأت على مر الزمان، وبسرعة أكبر مما يسلم به. وسلوكه في هذا الشأن أكثر فصاحة من كلامه.

التقى، لدى وصوله، بالعزيز سان جان لورد بولنبروك الذي عاد إلى ممتلكاته، وكانت له مكانة سامقة في المجتمع الراقي، وبين رجالات الأدب. لقد عثر، إذًا، على صديق محبب جدًا، ولا يقلل من قيمته بشيء أنه طويل الباع. لكن اللورد لم يبدِ تمامًا ما كان فولتير يعقد عليه الآمال من حرارة. وحصل بينهما شيء من التكدر بسبب فكرة إهداء. فكان فولتير يأمل، وهو في فرطٍ من حماسته، أن يهديه الـ هنرياد، ظنًا منه أن ذلك سيروقه، لكن خاب ظنه؛ إذ قام اللورد بمداورات لطيفة لجعله يعلم أنه غير متمسك بذلك التقدير. ولا مناص من القول إن تصرفات فولتير البارعة، وطرائق إطرائه للبلاط، كانت تغيظ اللورد بعض الشيء. وذلك كان من حقه. واستشهد، من غير أن يرفض رفضًا مكشوفًا، بكلمة شيشرون: «أخشى المديح لأني أخشى أن يُسخَرَ مني». وقال في رسالة إلى صديقة مشتركة، هي السيدة دو فيريول: «سوف أدَع له (لفولتير) طول الحياة، قناعة الاعتقاد بأنه يعتبرني مغفلًا بشيء من الهذر».

لم يقبل الـ هنرياد، مع إعجابه بها. فهل يسعنا الكلام على صداقة مع ذلك الفتور؟

والتقى عند اللورد بولنبروك كلًّا من سويفت وبوب وغاي.

شقي في ذلك العام الأول من النفي بمصيبتين: فقد شقيقته، السيدة مينيو، وفقد ماله. أحزنه كثيرًا موت شقيقته. فهي الأثيرة لديه، إنها هي بالأحرى الشخصية الوحيدة التي أحبها من آل أرويه، كان يهتم ببيتها، وغالبًا ما يبعث بتييريو لزيارتها والاستفسار عن صحتها وعن شؤونها، فكتب يقول: «كان لشقيقتي أن تعيش، ولي أنا أن أموت... كنت أظن أنها هي التي سترتدي ثياب الحداد» (16 تشرين الأول/ أكتوبر 1726).

كان حزنه صادقًا إلى الحد الذي جعله يتقرب لبعض الوقت من أخيه. وفي حين يلقبه أعداؤه بـ «قاسي القلب»، وأنه معروف في بعض المناسبات بروحه الانتقامية، فإنه هو من اتخذ زمام المبادرة. وكتب إلى آنسة اسمها بيسيير يكلفها بمصالحته مع أخيه، وكان في رسالته ملحًا وعطوفًا... لكن الجانسيني النفور لم يرد. وشعر فولتير بجرح أصابه. كان يخشى أخاه إلى الحد الذي دعاه لأن يكتب إلى تييريو، بمناسبة زيارة سرية ينوي القيام بها لفرنسا - وهي مغامرة خطرة - قائلًا: «ينبغي ألّا يرتاب أحد في أني وطئت أرض بلادنا بقدمي، أو أني فكرت في ذلك. وأخي، بشكل خاص، هو آخر بني البشر ممن يمكن البوح له بسرٍ مماثل، سواء بسبب طبعه الفاضح، أو بسبب الطريقة اللئيمة التي استخدمها حيالي من حين وصولي إلى إنكلترا. لقد سعيت إلى تلطيف السماجة والحذلقة والأنانية الوقحة التي أرهقني بها في هذين العامين الأخيرين. ولا أخفي عنك، بكل ما في قلبي من مرارة، أن سلوكه المرهق حيالي كان واحدًا من أشد أحزاني قسوة».

إن هذا التصريح لصادق: فهو لن يكذب على تييريو الذي يعرف ألاعيب هذا الأخ وذاك حق المعرفة، والذي لا يساوره أي توهم بشأن سوء نية الاثنين. لا جَرَمَ أنه عانى حقد أخيه، ومن ذلك النوع من الرعب الفظيع الذي توحي به زندقته لأخيه أرمان. وليس ذلك الشعور بغريب عن الازدراء الذي صار فولتير يكنه بازدياد للأتقياء. فلا يسع فولتير القبول بأن تتمثل جدارة أخيه في السماء في الحقد الذي يكنه لأخيه، وأن يجرؤ على إصدار صكوك غفران من طريق تقديم نذر إلى كنيسة سانت أندريه ديزارك، أن تمكن من استعادة روح فولتير «الشيطانية»، وهو النذر الذي كان يمكن أن يُرى متدليًا في الكنيسة حتى عام 1786. فيا لها من أخوة عجيبة!

أما بشأن ماله، فقد خسره بسبب خطيئة يهودي برتغالي اسمه داسكوتا، وهو الذي رتب أموره كي يُشهر إفلاسه، عشية اليوم الذي جاء فيه فولتير طالبًا إليه تسديد كمبيالته التي جاء بها من باريس، وقيمتها عشرون ألف ليرة؛ أي ما يقارب عشرين مليونًا من الفرنكات الفرنسية (أربعة ملايين يورو). إن المصيبة لقاسية. لقد أعطاه اليهودي المسكين، وهو ينتحب، بضع قطع كانت متناثرة في أسفل جراره ورأى فولتير أن سلوكه في منتهى الشهامة! ذلك أن الجميع في إنكلترا مستقيم وصالح. ولو أن المغامرة نفسها وقعت له في باريس...

فيا لجوقة العويل والنواح! وكم من المساعي وعرائض التوسلات ستبذل للعمل على شنق المفلس... إلخ.

حين علم الملك جورج بمصيبته أوعز بإعطائه مئة جنيه للتخفيف عنه. فتعزى لكنه في نهاية الأمر فقد ماله، إذ لا يسعه استلام النفقة التي خصه بها البلاط، وزاد الطين بلة أنه خسر إيراداته من مدينة باريس. أما الدعاوى الرهيبة التي رفعها ضده أخوه، فلا تتيح له تسوية تركة أبيه التي كانت كفيلة وحدها بأن تضمن له رخاءً ملائمًا.

لكن الأصدقاء في لندن تولـوا التخفيف عنه. فلم يكن اللورد هو الذي خصه بأفضل استقبال، بل تاجر غني من لندن اسمه السيد فوكنر. فملكيته الواقعة في ضواحي لندن، البسيطة (مقارنة بملكية ريشوليو) والمريحة جدًا، راقت فولتير بفخامتها المعقولة، فهي أقل بذخًا، لكنها أكثر راحة، وأكثر صفاء، وأكثر برجوازية، على العموم، من بذخ الأسياد الفرنسيين. وبدا له ذلك أكثر إنسانية، وبلا تكلف: فكان مفتونًا (ليس أكيدًا أن ذلك جعله ينسى فيلار وسولي)، وكان السيد فوكنر هذا رجلًا ذكيًا، وكان مقررًا له أن يصير وزيرًا، فبدا الأمر رائعًا في نظر فولتير: تاجرٌ وزير (وماذا عن كولبير؟ وعن صديقه السيد لوبلان؟ هل كانا من كبار الأسياد؟ ولم نأتِ إلا إلى ذكر اثنين فقط). وكان يحب الفنون، والفلسفة، وخصوصًا فولتير! وهذا القول يختصر ما خلاه.

وحسبُ فولتير أنه وقع على الإنسان الكامل.

كان معجبًا، إذًا، بمُضيفه، وبإنكلترا، فيما هو يرتعد؛ ذلك أنه مريض ويائس. فكان يعالج أمراضه وأحزانه بوصفاته التقليدية: العمل وحب الاطلاع. فنشاطه التنقيبي أنقذه على الدوام من السأم، ومن اليأس. فهو يقع أينما كان على ما يشبع فكره. أما الملاذ الذي قدمه إليه فوكنر، فمثّل في نظره عرضًا لكل ما تحوي لندن. ورأى الجميع، إلا نيوتن. تخلف عنه بعض الشيء، فنيوتن حضَرته الوفاة. بهره الموكب الجنائزي للعظيم نيوتن. فأي شعب مدهش هذا الذي يحيط أعظم عالم لديه بأشكال الإجلال التي لا تقدم في فرنسا لغير الملوك! إنها مناسبة ملائمة لانتقاد وطنه الجاحد، فهو يجد متعة ماكرة في أن يبين كيف أن رجل الأدب في إنكلترا أفضل تكريمًا بكثير مما هو في فرنسا. إذا قيل في إنكلترا كاتبٌ، فهي توصية، أما

في فرنسا، فالكلمة تثير الريبة. ومن المسلم به أن من وضع كتاب المستنقع أو كتاب لقد رأيت لا يمكن الوثوق بهما. أما الآخرون... فلنكف عن المناقشة، ونتابع استدلاله، فهو يستند إلى أمثلة إنكليزية. ويعرضها على هذا النحو: الشاعر أديسون، لو كان في فرنسا لما نال أكثر من مقعد في أكاديمية ما ونفقة، بشرط أن تحرص امرأة على أحدث طراز على جعله ينالها. لكن ما كانوا سيتوانون عن إثارة قضية شريرة بحقه، لو أن أحدًا رأى في إحدى مسرحياته تلميحًا إلى الحاجب عند رجل من ذوي المناصب. أما في إنكلترا فأديسون وزير. ومثال آخر، كان نيوتن مدير مؤسسة النقد. أما لو كان في فرنسا، وحظي بالرعاية، فلربما حصل على منحة من ألف ومئتي فرنك. وهاكم شاعرًا إنكليزيًا آخر هو وزير فوق العادة. والسيد سويفت هو عميد إيرلندا، ويحاط فيها باعتبار يفوق رتبة كاردينال...

ولئن فاته اللقاء بنيوتن، فإنه التقى بكلارك، وهو ميتافيزيقي (عالم بالماورائيات) صديق لنيوتن، وقد بهره بتفكيره العميق والجريء حيال أسرار الكون: «قفز كلارك إلى الهوة فواتتني الجرأة على اللحاق به!». وكان يجتاحه نوع من النشوة في إرخاء العنان لفكره للتلاعب بموضوعات يحظرها الدين في فرنسا. وقد هتف، في إثر واحدة من تلك المحادثات المسكرة، قائلًا بحماسةٍ أمام رجلٍ إنكليزي كان هناك: «إن السيد كلارك ميتافيزيقي أعظم من نيوتن»، فرد عليه الآخر قائلًا ببرود: «ربما، لكن المسألة كأنك تقول إن الواحد يلعب بالكرة أفضل من الآخر».

تلكم كلمات لن ينساها فولتير أبدًا. لقد وُضِعت الميتافيزيقا في مكانها، من دون مواربة، على إيقاع الصحبة الحسنة، لكن بلا رحمة.

مضى ليزور كونغريف الكاتب المسرحي الشهير، فشكره كونغريف، مبديًا دهشته للزيارة التي يقوم بها أجنبي لنبيل إنكليزي. فردّ عليه فولتير قائلًا: «لو لم تكن نبيلًا، لما تشرفتُ أنا بحضوري اليوم إلى بيتك». وإنا لنتساءل إن كان الآخر قد خدعه، بوصفه كاتب مسرحيات كوميدية، بمشهد صغير ما على طريقته متظاهرًا بنسيان مجده الأدبي، والإفراط في التواضع حتى القول إنه السير كونغريف ليس إلا. أما فولتير، فكان سلوكه يتسم بمداورة أكبر، فيرى نفسه صنوًا لذوي المحتد الكريم، من سويات مختلفة، أولئك الذين يستضيفونه، فيدللونه أو يضربونه بالعصي، وفقًا لمقتضى الحال.

لم تنقضِ تلك الإقامة المشرقة من غير منغصات. وليس هو الذي يقصها. كانت لديه نقيصة: إنه يجيد الكلام، لكن بإفراط، ويحافظ على لهجته التي تغدو سريعًا حاسمة وقاطعة، حين لا يكون المتحدث من رأيه، وهو رأي يعطيه من غير أن يُطلَب منه، وبطريقة مسرفة. لكنْ ينبغي له، لكي ينصرف إلى أشد ما يهوى في الحياة، وهو تبادل الأحاديث، أن يجيد الكلام بالإنكليزية إجادة تامة. وبدأ يعمل بنشاط شغوف، لا يعرف النصَب، فحقق نجاحًا باهرًا. والإنكليز يحكمون أفضل منا كثيرًا في هذا الميدان، ولا سيما أنهم أفضل حكمًا من أعدائه في باريس.

كان يروق السيدة جنليس كثيرًا الهذر والاغتياب، فكانت تقول إنه يتكلم الإنكليزية ويكتبها بشكل رديء، لكن رأي الكتاب الإنكليز مغاير تمامًا. وإذا ما استثنينا حالة أو حالتين، فإن الإنكليز قدروا مناقبه، من غير أن يَغفلوا عن عيوبه، وهي التي كانت تروقهم أيضًا، لأنه ذو حيوية واندفاع. قال يونغ، بعد خروج فولتير المدهش على الفردوس المفقود لميلتون، وتلك «الحكاية المقرفة والشنيعة»، كما قال، عن الخطيئة الأصلية والموت، مخاطبًا الشاعر المنفي بالعبارات الآتية: «أنت على درجة من رهافة العقل والزندقة والهزال، حتى إننا نرى فيك ميلتون والموت والخطيئة في آن معًا».

كان فولتير يكتب الإنكليزية ويقرأها بيسر كبير حتى ليسعه أن يكتب بتلك اللغة رسائله العادية. ويلغ به الأمر أنه حين عاد إلى فرنسا، صار عليه أن يبذل جهدًا، كما قال: «تعودت تقريبًا على التفكير بالإنكليزية، حتى صرت أشعر أن تعابير لغتي ما عادت تأتي للمثول في خيالي على مثل جزالة الماضي. والمسألة كما الساقية التي جرى تحويل نبعها، فلزمني الكثير من الوقت والعناء لأعيدها إلى الجريان في مجراها الأصلي».

أما الشهادة الفضلى على ذلك اليسر فأعطاها الأكثر إنصافًا بين الحكام: إنه الشعب في الشارع. لم يبدُ أن التعاطف مع الفرنسيين هو الشعور السائد في شوارع لندن. فقد قوبل فولتير ذات يوم بروح عدائية من بعض الرعاع الذين عرفوا من مظهره أنه فرنسي، فلاحقوه وهمّوا برميه بالطين، بل ربما أوشك أن يتعرض للضرب مرة أخرى. فأسعفه حضور بديهته بالارتقاء فوق نصب وارتجال خطبة موجهة إلى أصدقائه البريطانيين: «أيها الإنكليز الشجعان، ألا يكفيني شقاء أني

لم أسعد بأن أولد بينكم» ...إلخ. وتابع إطراء بلادهم وذم بلاده! لم يكن ذلك من الشجاعة بمكان، بل من المهارة، خصوصًا أنه قيل بجودة حتى إنه قوبل بالتصفيق من أولئك الذين كانوا عازمين على أن ينهالوا عليه ضربًا. لقد بدا مدهشًا في نظرهم أن تتكلـم تلك الضفدعة لغتهم بتلك الجودة. فلْنسلم إذًا، مرة أخرى، بأن السيدة جنليس «امرأة نمامة».

إذا ما استثنينا تلك الغوغاء التي شاء له قدر مشؤوم أن يختلط بها، فإنه لم يكن يلتقي في لندن كما في باريس، سوى أبناء المجتمع الراقي، ومن بينهم اللورد هيرفي وزوجته، وفيهما نفحة من باريس. كان اللورد شاعرًا على طريقة شوليو، فصار فولتير يقذفهما بغزليات صغيرة بالإنكليزية. وأمضى عند اللورد بيتربورو ثلاثة أشهر. واستقبله اللورد باث الذي أضحى وزيرًا، كما استقبله أيضًا والبول الشهير جدًا، والعدو السياسي للورد باث، وكان أحد رجال الدولة الأكثر بروزًا في إنكلترا وأوروبا. كان فولتير يقوم عن طيب خاطر بزيارة الليدي تشرشل، دوقة مارلبورو. وكانت تكتب مذكراتها من غير عناية وبفوضى، حرصًا منها على تمزيق أعدائها أكثر من حرصها على قول الحقيقة. وطلب إليها فولتير أن يقرأ مخطوطها، فرجته أن يتريث قليلًا. والسبب كما قالت: «أنا منهمكة الآن في إصلاح طبع الملكة آن، فقد شرعت أحبها من يوم أن بدأ هؤلاء الناس يحكمون». ولا يسع الإنسان أن يكون حسن النية في انحيازه أو في ظلمه. لكن ذلك لم يتسبب بأدنى ضيق لفولتير، ولا لأي شخص آخر.

هنالك لقاء آخر ومذهل. الآنسة دو ليفري! أجل، سوزان! إنها في لندن! وهي جديرة بالتحية، فقصتها معبرة جدًا، وفولتيرية جدًا! لم تكن المسكينة مقبولة في المسرح إلا بفضل فولتير. كانت تقابل بالصفير بصورة منتظمة، وأخيرًا رجاها الممثلون أن تنسحب. ورأى فولتير أن الطريقة ذات قسوة تثير الغضب. وقال إنهم لو رفضوا، في واقع الأمر، الموظفين كافة في كل قسم من أقسام الدولة، بسبب نقص في كفاءاتهم، كما فعلوا في المسرح الوطني، فلن يبقى من شخص واحد في المكاتب. ولا ريب في أن الأمر عائد، أيها الشاعر العزيز، إلى أن المسرح أكثر نزاهة من المكاتب. أُوقِفت سوزان عن عملها، وليس من حامٍ إلى جانبها، فبكت. وكان عفافها يضعها فوق كل مكسب لكن موهبتها دون كل مأخذ. إنها في وضع ميؤوس منه. فاتخذت قرارها بالذهاب إلى العمل في لندن، لتبين للإنكليز من

دون شك كيف يكون عدم التكلـف. وفهم الإنكليز من فورهم، فوجدت نفسها مجددًا على قارعة الطريق. فاستقبلها بكل نزاهة أحد أبناء جلدتها، وكان يدير نزلًا، فلبثت في غرفة صغيرة تعاني اليأس والملل، وتحرص حرصًا شديدًا على بقاء الباب مرتجًا. فذلك الشباب وذلك الجمال، وتلك النكسات والدموع، وتلك العفـة المحتمية وراء باب موصد، كانت كلها مثار إعجاب صاحب النزل الذي لا ينِي يطري الأسيرة الفتية الحسناء أمام زُبُنه الفرنسيين. فأثارت فضول مركيز عابر، هو السيد دو غوفرنيه، من عائلة لا تور دو بان.

أعرب عن رغبته في لقائها، فصاحت سوزان من وراء الباب: «أبدًا!». ثم ألح، فرفضت. وعاد، ثم سافر فعاد. وأدت أخيرًا دور لوكريس أداءً حسنًا حتى اقتضى الأمر خلع الباب، لكنها لم تقم بقطع شرايينها ولا تجرعت كأسًا مسمومة. كانت بكل بساطه أشبه بغزالة محاصرة. ولم يصبها الهزال، فمظهرها بسيط وأنيق، ووجلُها يزدان بنفحة من الزهو، وكانت ذات إلقاء مدهش؛ فوقع المركيز صريع هواها، وأعرب عن رغبته في الزواج منها، فأبت قائلة بكل زهو: «إني فقيرة جدًا». ومن الجلي أن أداءها في غرفتها البائسة كان أجود منه على خشبة المسرح. وفكر المركيز قائلًا في نفسه: «لن يعوقني ذلك. لدي ما يعمل على إغناء المحبوبة بطريقة كتومة وظريفة». وهاكم ما فعل. قدم لها - من غير أن يلزمها ذلك بشيء - خمس ورقات يانصيب، فقبلتها. وكما كان بمحض المصادفة، ربحت إحداها الجائزة الكبرى. ووجدت ليفري الصغيرة نفسها غنية. فهل ستقبل بأن تغدو مركيزة؟ أبدت شيئًا من الغنج مرة، فاثنتين، وابتسمت في النهاية. ولسوف تصير مركيزة لا تور دو بان - غوفرنيه!

عمل المركيز، في سبيل إغناء حسنائه، على طباعة قائمة مزورة بأرقام سحب الأوراق، بدا فيها رقم سوزان في مكان بارز. فليس على المرء سوى التفكـر في ذلك. واستعاد من بعد، من طريق عقد زواج أُحسِنت صياغته، ماله المدفوع، واضعًا ليفري - لوكريس في سريره. وبدا الأمر شبيهًا بواقعة حياة ماريان (*la Vie de Marianne*) من تأليف ماريفو، كما نقع فيها على حبكات حكايات فولتير، وعلى فولتير نفسه. فذلك شبيه به، كما هو شبيه بعصره الذي يرى صورته فيه، ومثلما يرى العصر صورته في فولتير أيضًا.

لكن فولتير لم يتوقع الحل. وحين رجع إلى باريس، توجه وهو المخلص الدائم والودود، ليقرع باب المركيزة دو غوفرنيه التي هي في نهاية المطاف ليفري الصغيرة، عشيقة فرانسوا أرويه وجينونفيل، الممثلة السابقة الصغيرة الفاشلة التي تقف على عتبة البؤس، والتي ما كانت لتقف على خشبة المسرح لولا أن فولتير كان يمسك بها من طرف ذراعها. إذًا، حين جاء فولتير سعيدًا ومتبسمًا، فطرق بابها، جاء خادم السيدة السويسري ليحول بينه وبين الباب، إذ ليس من يعرفه هنا. لقد كانت ليفري الصغيرة تلك، وفقًا لما نرى، ممثلة رديئة.

وجاء ثأره بأبيات من الشعر، لم تكن أبياتًا لئيمة، ضمن خطاب الـ أنتَ والـ أنتم. لقد ذكرها بالماضي، وكان ذلك تحديدًا ما ضايقها أكثر:

«فيليس، أين منا ذاك الزمان
وأنت تتجولين في عربة
من غير خادم، ومن غير تسوية للشعر
مزدانة فقط بمحاسنك وحدها...».

أيام البؤس قد ولـت؛ فسوزان لديها خادم سويسري.

لم يحل فضوله تجاه الغرابة البريطانية دون العمل. فكتب تاريخ شارل الثاني عشر. ونحن نعرف أيضًا أنه نشر في باريس، الصيغة الأولى من الـهنرياد تحت عنوان «الرابطة»، وتناول العمل في لندن، فقام بتعديله وأعطاه عنوانه النهائي. وهنالك، من بين التعديلات، واحد أملاه عليه الحقد؛ ذلك أن خيانة صديقه سولي جعلت ذلك الاسم بغيضًا جدًا لديه، حتى إنه قام بحذفه من الـهنرياد. فكل ما له علاقة بالجد الأكبر، سولي العظيم، صديق هنري الرابع ووزيره قد حُذِف. وكانت ثمة مدائح يستحقها الوزير، جعلتها الصداقة مع حفيده أكثر حرارة. إلا أن فولتير رفض أن يورد ذلك الاسم. وإنها لمخاطرة أن يقوم المرء بكتابة تاريخ هنري الرابع من غير أن يذكر سولي بكلمة. لقد تصرف هنا على نمط الليدي تشرشل. إن للشعور - أو للضغينة - مكانة أكبر من الحقيقة، لكنها على الأقل لا تُحجَب عنا. إنها الصراحة في نهاية المطاف داخل التزوير. لكن ينبغي أن نضيف أن قصيدته ليست من التاريخ، إنها ملحمة، والملحمة لها على الدوام نصيب من الأسطورة، ولا سيما حين تنزلق نحو السخرية كما الـهنرياد.

كيف كانت نظرة سولي إلى الإهانة؟ إنها في نهاية الأمر إهانة. كانوا في باريس يتوقعون تلميحات مسمومة إلى اسم سولي؛ فأشكال التمجيد بسولي الكبير تستخدَم مبررًا لضربات مؤذية بحق «الصغير». لكنهم لم يقعوا إلا على الصمت المطبق. وبدت الإهانة مدوية أكثر بكثير. فلِمَ لا يحافظ فولتير على تلك الطريقة في الثأر؟ ألا كم كانت ستوفـر عليه من جهودٍ مُذِلة!

فيما كان يقوم بتصحيح المسودات، جَهد بما نعرف لديه من مهارة، في وضع النسَخ قيد الاكتتاب، فكان الإنكليز غاية في الكياسة؛ إذ اكتتب الملك والبلاط وأصدقاؤه جميعًا. وأقدم سويفت في إيرلندا على الاكتتاب. كانت الطبعة الجديدة الزاهية، المطبوعة طباعة فاخرة، والمجلدة بأغلفة محفورة، مهداة إلى ملكة إنكلترا؛ فهي لم ترفض. وكان ذلك أفضل بالنسبة إليه. لا جَرَمَ في أنه طُـرد من فرنسا من دون مواربة، واستقبله الإنكليز، فأحسنوا استقباله، وهو يعبر لهم عن عرفانه. أما في نهاية المطاف - وعلى الرغم مما يظهرون في البلاط الفرنسي من لامبالاة مشوبة بازدراء - فإن الطريقة تبدو مثيرة للسخط. إنها، في واقع الأمر، من فعل إنسان ساخط. ذلك ما يثير الحفيظة حياله، ويولد حقدًا يتبدى في شكل افتراء. لقد تهجم على سلوك فولتير أشخاص ليسوا بالضرورة من مداحي الفارس روهان. فبعض الشائعات أطلقه الأب ديفونتين، وكان محض افتراء ينم عن لؤم خالص. لكنها لقيت قبولًا، وظل فولتير يُلام بسببها. قال الكاهن إن فولتير صار ممقوتًا لدى الإنكليز، حتى إنه أرغِم على الهروب من لندن. وهذا قولٌ منافٍ للعقل. وقيل إنه كان على العشاء مرة عند بوب، واستخدم ألفاظًا نابية جدًا بحق الديانة الكاثوليكية، حتى إن والدة بوب، وهي كاثوليكية، غادرت المائدة، ما جعل بوب الذي كان يقدس أمه، يوعز بإلقاء فولتير خارجًا. وهو قولٌ منافٍ للعقل أيضًا؛ إذ لا يشتم فولتير الناس وهو على مائدتهم، ولا سيما سيدة في التسعين، ووالدة كاتب يحبه ويجله. ولو فعل ذلك، لما صفح عنه بوب أبدًا. وواقع الحال أن صداقتهما لم يتعكر صفوها قط، فلكل منهما مزاجه السيئ. وبناء عليه، كان لأصداء نزاعهما العنيف - إذا ما حصل - أن تتجاوب بعيدًا جدًا.

أشاع ديفونتين أيضًا أن فولتير تعرض للضرب بالعصا من ناشر في لندن. وهذا قولٌ منافٍ للعقل؛ فالناشر ليس مثل روهان. أما أن يكون فولتير دافع دفاعًا مريرًا عن حقوقه حيال ناشر جشع، مثلما كان جشعًا هو أيضًا، فذلك صحيح. كانت

أنياب الناشر طويلة، وكانت مخالب فولتير حادة. فعرف كيف يدافع عن مصالحه قائلًا: «لست أحمق إلى الحد الذي يجعلني أتخلى لناشر عن كل ما أملك». كلا، لم يكن أحمق، بل هو من خيرة آل أرويه في مطالبته بحقه. ولم يبدُ في هذا المجال نصابًا على الإطلاق. أما نصيبه في رواج بيع الـ هنرياد فيفوق نصيب الناشر بكثير. فهو المؤلف، بادئ ذي بدء، ثم يُطرح السؤال: من الذي روّج البيع؟ والتوزيع؟ ومن الذي توسط لدى الأصدقاء؟ لقد قام سويفت، في دبلن، بتوزيع الكتاب في قصر الملك إرضاء لفولتير. فكان ذلك النجاح التجاري الباهر من عمل فولتير أيضًا. لقد كتم مزاعم الناشر، وذلك عدل. ومجددًا لم تقع هناك أي فضيحة.

لكن الصفقة الرابحة في إنكلترا، لم تتلُها صفقة رابحة أخرى في فرنسا؛ إذ كان البيع هنا هزيلًا، وبدلًا من ثلاث مئة وأربع وأربعين نسخة بيعت في لندن، لم يحصل تييريو إلا على ثمانين اكتتابًا. ولا يشرف هذا الرقم القراء الفرنسيين، لكن ما تلا ذلك لا يشرف تييريو. فيا له من صديق عجيب! وهاتوا نسمع حكاية لصوصيته.

من عساه يكون ذلك الشيطان الذي وسوس لتييريو كي يتوجه إلى الكنيسة لحضور القداس يوم عيد العنصرة في عام 1728؟ ذلك أنه لم يكن يذهب إلى الكنيسة قط. وبينما هو يؤدي طقوس ورعه غير المعهودة، تسلل لصوص إلى بيته فسرقوا نسخ الـ هنرياد الثمينة. لقد اختفت كلها من دون ضجيج، ومن دون أن تخلف أثرًا، فجرى تداولها خفية وبيعت سرًا.

سرت الشائعة في كل مكان: إن تييريو هو الذي اقترف تلك المعجزة يوم العنصرة. فهم فولتير ذلك وهو في لندن، من غير أن يطلع على التفصيلات: لقد سرقه تييريو. وإنه لأمر خطر.

هنا تحديدًا يسعنا الحكم على فولتير الذي لزم الصمت. فهذا النوع من القضايا يؤثر فيه أقل كثيرًا مما تفعل شتيمة أو نقد مسيء. فكان حرصه الأول يتمثل في أن يتسلم كل مكتتب نسخته، ومن حسابه هو. ذلكم هو الابن النزيه لأرويه النزيه. ويبقى تييريو. اكتفى فولتير بمعاقبته ببعض التلميحات، فهو حريص على ألا يبدو مغفلًا، ويضيف هذه النصيحة الطيبة: «يمكن لهذه المغامرة، يا صديقي، أن تجعلك تعاف الذهاب إلى القداس، لكنها لن تمنعني من محبتك دائمًا ومن شكرك على حسن صنيعك».

لقد صفح، لكنه ليس مخدوعًا بنزاهة تييريو. فيقول إنه صديق شبابه، وإنه وفي. لكن من الوفي؟ إنه فولتير؛ فوفاؤه وأناته مدهشان حين يصدران عن شخص عصبي جدًا ونزق، ويظل رائق المزاج حيال تلك اللصوصية كما حيال إفلاس اليهودي البرتغالي. ولسوف يقول، من بعد، حين سعَوا إلى إثارة حفيظته حيال تييريو: «لقد كان فتيًا». كان فتيًا؟ إنهما من سن واحدة، وكانا في الثالثة والثلاثين في عام 1727.

مضت على نفيه ثلاث سنوات، وإنها لمدة طويلة. والحق أنه لم يكن يعاني شيئًا بعينه في لندن بل كان يعاني كل شيء: إنه الحنين إلى الوطن. كان ابن باريس في حاجة إلى هواء باريس، إلى ذلك الجو الفاسد المليء بالحسد والنميمة والغيبة والدناءة، بروائحها النتنة، ذلك الهواء المليء بسموم العبقرية والفن وبترياقهما.

عودة إلى باريس: فولتير يتدخل في كل شيء

في 15 آذار/ مارس 1729، عاد الكاتب المصاب بالطاعون إلى فرنسا، لكن ليس إلى باريس. إنه محجور عليه في سان جرمان أن ليه، عند صانع باروكات اسمه شاتيون، في شارع روكوليه. والبيت كوخ أو مستودع. فليس فيه من لوحة غزلية، ولا من مقطوعات شعرية فوق نهر السين، ضمن موكب من الزوارق المذهبة، والمجدفون بملابس زاهية من الحرير والمخمل. فرنسا كئيبة. إنها حياله زوجة أب قاسية وشرسة، لكنه يحبها على الرغم من كل شيء.

استُقبِل بنبأ بارد؛ إذ أحاطه علمًا الكاردينال والوزير، صاحب السيادة فلوري، وبعبارات لبقة، أن الملك قرر إلغاء نفقته. لم يباغته ذلك، لكن علمه بالأمر كان قاسيًا. وعقد آماله على أن تواصل الملكة منحه جرايتها، فهي مدينة له بذلك «ما دام السيد زوجها قد حرمني مداخيلي مخالفًا حقوق الناس».

ها هو ذا، على نحو ما كان قبل نفيه، يكتب إلى الجهات كافة، متوسلًا، ومداهنًا، ومادحًا نظمًا، موجهًا تييريو ليتوسل لدى المتنفذين، زِدْ أنه مستعد للقيام بالأعمال الجريئة كافةً، وبارتكاب الهفوات كافةً. وهو مستعد كذلك لأشكال السخاء كافةً. سوف ينال تييريو خمسمئة ليرة من جعالة الملكة، فور أن تؤتي المساعي أُكُلها. زِد أنهم سيضعون قيد الطبع تاريخ شارل الثاني عشر، الذي جاء

به من لندن، ولسوف ينال النزيه والطاهر الذيل تييريو، ستمئة ليرة من الطبعة. وينبغي بشكل خاص ألا يشيح بوجهه رافضًا، لأن فولتير سوف يستاء: «ينبغي أن تسير الأمور هكذا، وإلا فلن نعود أصدقاء». وليس ضمن هذه الشروط ما يتهدد بحصول قطيعة، فقبل تييريو.

يتوجه فولتير إلى باريس لبعض شؤونه خفية، لكن المسألة ذات خطورة. فتدخل ريشوليو وقدم التماس فولتير إلى الوزير. لقد توجه الشاعر إلى موربا: «كتبت إلى موربا عسى أن يدعني أجر قيدي في باريس». إنه السجين الهارب!

حصل في نيسان/ أبريل 1729 على إذن بالإقامة في باريس. وبدلًا من أن يتوجه إلى مسكنه عند الرئيسة دو برنيير، مضى ليقيم في منزل بسيط الحال، في شارع ترافرسيير سانت أونوريه. إنه الهوس في التنقل؛ لقد أقام في لندن في عشرة مساكن، أما في باريس فليس من يحصيها. غيّر مسكنه في الحالة الراهنة، لأن علاقاته بآل برنيير اعتراها البرود، ولم يفعل شيئًا لبث الحرارة فيها مجددًا. إنهم ما زالوا أصدقاء، لكن عن بعد. وكما هي حال نجم السيدة دو ميمور، خبا نجم السيدة دو برنيير أيضًا؛ إنها شهاب عابر في الفلك الفولتيري.

لكن فلنقارب موضوع المال.

كان همه الأول في باريس أن يعيد تنظيم شؤونه المالية. خطا، وهو على مقربة من أصدقائه الإنكليز، خطوات متقدمة في مجال فن استثمار المال. لكنه سينطلق في هذا المشروع بتسرع محموم، ويقوم بأعمال متهورة تجعل من باريس مكانًا موبوءًا في نظره، مرة أخرى.

كان لا يزال في متناوله بعض رؤوس الأموال. فمسألة إرث أرويه تمت تسويتها، ونال نصيبه. وأبقت لديه عروض مسرحياته شيئًا من الوفر، وعادت عليه الـ هنرياد بدخل كبير. ومهما تصنع التواضع فهو يسلك سلوك واحد من آل أرويه: «إن ذلك لشيء ضئيل... وهنالك الكثير من النفقات... والناشرون يأخذون كل شيء...»، وعلى الرغم من أن تييريو أحدث ثغرة، فقد تبقت لديه مبالغ كبيرة. إن هذا القرد القبيح سيخلف ذرية.

كان فولتير يجيد الاستمتاع بباريس، ويعرف كيف يحقق منها المكاسب. فهو ينثر البذار في الأحاديث، ويجني حين تسنح له الفرصة. وذات مرة، في أثناء العشاء عند سيدة تدعى دوفيه، قدم أحد المدعوين على المائدة عرضًا تفصيليًا كيف قام لوبيلوتييه، المراقب الجديد للشؤون المالية، بإعادة تنظيم اليانصيب الذي يتم بواسطته تسديد بعض الكمبيالات. ولاحظ فولتير أنه إذا قام أحد ما بشراء بطاقات اليانصيب كافة، فسوف يحقق بكل تأكيد ربحًا صافيًا يبلغ مليون ليرة. وقام بحبك الصفقة مع بعض الأشخاص، فنجح. وثارت ثائرة مراقب المالية، فرفض ساخطًا، وهو يلمس الدليل على ضعف نظامه، أن يسدد المبلغ. لكن المجلس أرغمه على الدفع. كانت الدولة على خطأ لسوء تنظيمها اليانصيب تحت العين اليقظة لأحد الشعراء. وكانت حصة فولتير خمسمئة ألف ليرة؛ أي ما يقارب ثلاثمئة وخمسين مليونًا من الفرنكات القديمة. فيا لها من سهرة رائعة! لكن بات لديه الآن عدو لدود في شخص لوبيلوتييه، فنصحوه بالسفر.

ولى هاربًا، من غير أن ينسى تسديد قصيدة من الشعر المغرق في الاستهزاء بمراقب المالية، مغفلًا توقيعها. فهل كان لذلك السهم البارثي[30] من ضرورة حقًا؟ يقول فولتير: بلى، ذلك أن مراقب المالية أخطأ بإبداء امتعاضه لدى إطاحة نظامه.

رجع إلى مياه بلومبيير بصحبة ريشوليو (الذي اقترض منه مالًا مقابل فائدة، بل فائدة مجزية، مقابل رهن عقاري، وضمن أفضل الشروط القانونية). وعلم في أثناء السفر أن دوق لورين يقوم بترتيب عملية بالأسهم، سوف تغدو مربحة جدًا، حتى إنه ينبغي ألّا تباع الأسهم لغير اللورينيين. وكان السعر مغريًا جدًا جعل فولتير يقوم بانعطاف - هو انعطاف ذهبي - من طريق نانسي. إنه مرهق جدًا، إنه مريض ومحموم، يبتلع النزر اليسير من طعام بؤس، وينام قليلًا، ويعاني الإسهال، ويرتعد، ويتكلم دونما انقطاع، ويحسب، ويخطط. ولزم السرير يومين في نانسي، وأضاع الوقت الذي خمن أنه ربحه بسلوكه خط البريد. إنه مشرف على الموت. وفي اليوم الثالث كان يقف على قدميه، فيقابل من تلزم مقابلته، ويتوسل. إنهم

---

(30) البارثيون من الشعوب الشرقية، اندمجوا بالساسانيين بعد زوال مملكتهم على يد الرومان في بدايات القرن الثالث الميلادي. وكان الفرسان البارثيون في المعارك يتظاهرون بالهرب فيلحق بهم أعداؤهم. فيقوم الواحد منهم بالالتفات إلى الخلف وتوجيه سهم أخير لمطارديه يكون في الغالب صائبًا. ومن هنا جاء تعبير «السهم البارثي»، بمعنى السهم الأخير القاتل. (المترجم)

يسخرون منه، فهو ليس لورينيًا، ولن يحصل على أسهم. مع ذلك حصل على خمسين سهمًا، لأنهم خلطوا ما بين اسم أرويه (Arouet) واسم هارويه (Haroué)، وهو نبيل لإقطاع في اللورين ينتمي إلى عائلة بوفو. أما وأنه دفع ذهبًا ثمن الأسهم التي لديه، فإنه لم يقم بردّها. وكتب يقول للرئيس هينو بلهجة من المرح الطائش: «ضاعفت في أيام قلائل ما بحوزتي من ذهب ثلاث مرات، وآمل أن أنفِق نقودي الإسبانية مع أناس مثلك».

لدى عودته إلى بلومبيير تولاه السأم.

حين رجع إلى باريس، رغب في تقديم مسرحيته بروتوس. لكن قراءة المسرحية تسببت للممثلين بالكآبة. إنها باهتة. وتقدموا إليه راجين عدم العمل على عرض تلك المسرحية الهابطة، فتخلى عن الفكرة، لكنه قال إن كريبيّون وروهان تآمرا على جعل الممثلين يرفضون مسرحيته.

أما وقد جرى استبعاد بروتوس، فإنه بدوره علم بأن عدوه، المراقب العام للمالية، استُبعِد أيضًا. وإنه لنبأ حسن. وها قد عاد إلى بروتوس، فوجد الوسيلة وسط ذلك الاضطراب لإعادة كتابة مسرحيته، آخذًا الانتقادات في الحسبان. وينبغي تقديمها هذه المرة. توفيت الآنسة لوكوفرور، والآنسة غوسان هي التي ستؤدي دور البطولة، لكن المسرحية ظلت رديئة. اضطربت الآنسة غوسان، وكان أداؤها سيئًا، لكن فولتير ظل يشيد بها ويشجعها، حتى إنها بعد أداء ضعيف، تألقت في العرض الثالث وأنقذت المسرحية! أغاظ ذلك النجاح بيرون، فاتـهم فولتير بالانتحال، فهزئ فولتير من ذلك متضاحكًا. فلِمَ لا يكون رده دومًا على ذلك النحو؟ وتناسى فولتير مطاعن بيرون، ورغب في أن يستخدمه للقيام بمسعى سيئ بعض الشيء حيال الممثلين؛ إذ لم يرغب في مغامرة القيام به بنفسه. ورأى بيرون الشرَك فرفض. وسعى فولتير، بروح من الإحسان أن يريه أين نفعه... «ذلك أنك، في نهاية المطاف، لستَ غنيًا صديقي بيرون». واغتاظ الآخر فرد قائلًا:

«ذلك صحيح، لكنه لا يهمني في شيء، حتى لكأني غني».

بقيت الأمور عند ذلك الحد، وقضية بروتوس أيضًا.

طُبع تاريخ شارل الثاني عشر، لكن احتُجز على الرغم من السماح به وكان

فولتير يحب ذلك الكتاب، فقرر أن يتجاوز الحظر ويقوم بتوزيعه خفية على نحو ما باع كتاب الرابطة، فعمل على طباعته في المكان نفسه، في روان. وكان الصديق سيدفيل هو الذي جرى تكليفه بعملية روان. وإنها لعملية حساسة؛ إذ كان في نهاية المطاف عجيبًا أن ترى مستشارًا في محكمة النورماندي العليا - والذي سيلقى في ما بعد دعمَ الرئيس الأول، السيد دو بونكاريه - يمد يد العون في عملية، هما مدعوان بحكم منصبيهما لإدانتها، إذا ما عُرِضت أمام الملك.

فحصل بفضل أصدقائه على الضمان بغض النظر عنه. وها هو في روان يراقب الطباعة، فيتخفى في نزل موبوء حيث:

«العناكب تغطي الحيطان

والأغطية قصيرة، والأسرّة قاسية».

كان لصاحبة النزل المهمِلة، في ذلك المكان المهمَل، ابنٌ هو الكاهن ليِنان الذي سيتشبث قريبًا بجيوب فولتير. ولسوف نلتقي به. كي يضلل الشرطة، قام فولتير بدور كوميدي، فزعم أنه مسافر إنكليزي. ومع ذلك فهو يقوم وسط شباك عناكبه بعمل ضخم، فيتولى تصحيح تاريخ شارل الثاني عشر، ويعيد العمل في الـ هنرياد من أجل الطبعة الجديدة. وكتب مسرحيتين جديدتين مضى في تأليفهما معًا! وندع جانبًا الكلام على ما ينتابه من حمى ثلاثًا ورباعًا.

هل تظنون أنه كان على الأقل ينعم في تخفيه بالسكينة، وأن نفسه المطمئنة انصرفت نحو عمله كل الانصراف؟ على الإطلاق. فهو مطارد كما حاله دائمًا. إنه خائف، وليس مخطئًا ذلك. وقد ارتكب هفوة، فهل نلومه عليها؟

لقد عمل على رواج قصيدة من تأليفه عن وفاة أدريين لوكوفرور، طافحة بالسخط حيال الطريقة التي عوملت بها تلك الممثلة الكبيرة بعد موتها. لقد دُفِنت مثل كلب، في أرض مهجورة على ضفاف السين. أليس مثيرًا للسخط أن يُرمى في مكان قذر جسدُ امرأة كانت باريس كلها تصفق لها وتبجلها وتستقبلها وكانت تحظى تاليًا بمعاملة حسنة؟ ندد فولتير بالفرنسيين بسبب تلك العادات الظالمة والبربرية، وزيادة في توبيخهم، كال المديح لإنكلترا، حيث لا يقع المرء إلا على اللطافة والعدالة والتسامح ...إلخ.

إن غيظه لَغيظ مفهوم، لأن أدريين كانت تعني الشيء الكثير بالنسبة إليه، كما نعلم، وكانت أكثر من ذلك بالنسبة إلى صديقه دارجنتال الذي أحب أدريين حبًا جنونيًا وبطريقة غاية في الكياسة. تبنى الألم الذي أصاب صديقه، والإهانة التي لحقت بأدريين. إلا أن لهجة القصيدة الانفعالية وفصاحتها اللاهبة تجدان تفسيرًا أفضل في الإحساس الذي تولى فولتير دومًا، والذي مضى متعاظمًا على الدوام، حتى اليوم الأخير. وفحوى ذلك الإحساس هو الخوف من أن يُلقى به، هو أيضًا، بعد موته في مكب للقمامة على نحو ما جرى لأدريين. لم تكن صيحة الاستنكار على تلك الدرجة من الرهبة إلا لأنه رأى نفسه في جثمان الممثلة المسكينة. كان فولتير مقتنعًا بأنه سيموت قبل بلوغه الأربعين عامًا، فمتاعبه الصحية لم تسمح له قط بأن يأمل في المزيد. وواقع الحال أن هذا الزنديق كان يريد أن يثوي في أرض مقدسة وأن ينال بركة الكنيسة. فتبدو له حطـة الموت خفيفة الوطء عبر الطقوس الدينية. وما كان ليظن أن من شأن صلوات الكاهن أن تضمن له الحياة الأبدية. ولم يكن من شيء صوفي في ذلك التعلق، فالموت هو الموت. لكن فولتير يظل ابن الآباء الأخيار، وقد لا يغدو ذلك الموت الرهيب ربانيًا أكثر في حضن أمنا الكنيسة المقدسة، لكنه إنساني أكثر. وليس مأخذه على دفن أدريين الشائن مظهرَه اللاديني، بل لاإنسانيته.

انتشرت تلك القصيدة كثيرًا، وقد قال إن ذلك جرى على الرغم منه. لكن لِمَ يعهد بها إلى تييريو، لولا أن لديه الرغبة في أن يقوم بترويجها؟ ورددت باريس برمتها الأبيات الانتقامية. ودوى غضب رجال الكهنوت، فعاد الكلام يدور حول الاعتقال. فاختبأ في روان. وقام ناشره جور (Jore) الذي سيتولى طباعة **رسائل إلى الإنكليز أو رسائل فلسفية** (*Lettres philosophiques*)، فخبأه في كانتلو، على بعد بضعة كيلومترات من روان. ولم يكن ذلك الناشر متسامحًا حيال فولتير؛ فيصفه بقوله: يا له من شحيح عجوز، هذا الميلورد فولتير! فهو لا يدفع ثمن البيض ولا الخضار التي نأتيه بها. ويخفض مخصصات الخادم حتى النصف، الأمر الذي يرغم الناشر على تسديدها من جيبه الخاص. ولسوف يعرض عليه فولتير إعطاءه ساعة حائط على سبيل التعويض. أما في واقع الأمر، فإنه لم يتلق المال ولا الساعة. ويمضي فولتير من بعد – وهو المصاب دومًا بداء التنقل – ليقطن عند صديق للناشر، فاعتنوا به ودللوه، فلبث عندهم أسابيع عديدة. ولدى انصرافه،

ترك لهم أربعة وعشرين فلسًا! فكان أن أصيبت الخادمة بنوبة عصبية: قالت إنها خدمته سبعة أشهر!

هل ذلك صحيح حقًا؟ دخل جور في مقاضاة مع فولتير - وأساء إلى سمعته قدر المستطاع - والصحيح أن صديقه الكاتب الماهر يجعله يجري حسابات دقيقة. إن فولتير متشدد جدًا في مجال الأعمال؛ بل هو قاس. لكن جور كذب حين قال إن فولتير مكث سبعة أشهر. أما أن تظهر على فولتير علائم الشح حين يفترض أنهم مزمعون على نتف ريشه، فذلك صحيح جدًا. لكن يبدو أن فولتير ما كان سيتحمل، بدافع من اللياقة، أن ينوبوا عنه في الدفع للخادم. وماذا عن تلك الحكاية عن الساعة العتيقة؟ من الصعب تصديقها. لقد حسب جور ومن لف لفـه أنهم وقعوا على ميلورد يسهل عليهم نتف ريشه، فوقعوا على واحد من أسرة أرويه، جدير بحمل هذا الاسم. ولن يكونوا وحدهم في الإحساس بتلك الخيبة حيال شاعر يجيد الحساب.

قرأ في عام 1731، وهو في باريس، مسرحية سيزار (*César*) على السيد دو ميزون وقرابة عشرة من الآباء اليسوعيين، فصفقوا له؛ لكنه ليس مطمئنًا. إنه يخشى أولئك السفلة المقيمين في فرساي، أكثر مما يخشى هؤلاء اللاهوتيين المتقشفين. وما عاد يعرف للنوم طعمًا. إنه راقد بين حِملين من الأشواك: هنالك سيزار من جهة، وتاريخ شارل الثاني عشر من الجهة الأخرى.

فكيف لمسرحية شارل الثاني عشر أن تغزو باريس؟ وعبر أي ثغرة يمكن لبطله أن ينفذ في طريقه إلى النجاح؟ قام إذًا بتدبير خطتين: استقدام الطبعة كلها من روان عبر الطريق البري حتى فرساي، وإيداع الشحنة عند ريشوليو، والعمل على توزيعها في باريس بوساطة رجال تحت رعاية الدوق؛ فالعَلَم يغطي على البضاعة. أما إذا كان الطريق البري باهظًا، فالخطة الثانية تقوم على استحضار طبعة تاريخ شارل الثاني عشر في مركب نهري حتى منزل دوق غيز في سان كلو، وقد عرض عليه هذا الأخير أن يهتم بالمسألة «بمفرده». وكلما كان عدد المتواطئين أقل، كانت حظوظ النجاح أمام العملية أكبر. وهكذا وصلت طبعة تاريخ شارل الثاني عشر إلى باريس على صفحة المياه، وتسللت إليها في صورة 2500 نسخة سرية. ولم تدر الشرطة بالأمر البتة.

جاءت ضربة قاسية لتفت في عضده؛ فقد توفي السيد دو ميزون في 13 أيلول/ سبتمبر 1731. إن وباء الجدري الذي صفح عنه في المرة الأولى، أودى به في المرة الثانية. وكان تكرارًا لموت جينونفيل؛ ذلك أن الرجلين يتماثلان في الفكر والقلب والسلوك والثروة: كانا ينعمان بالمواهب كلها. وكان فولتير محبًا لأولئك الناس الأكثر امتلاءً؛ أولئك الروائع وسط غوغائنا التعيسة، أولئك النادرين المختارين الذين يفتدون القطيع البشع. إنه يحب الذين ميزهم القدر، في حين أن الذين يمتازون بالضحالة يحسدونهم. تلك كانت الطريقة الخاصة به في تقديم الشكر على المظالم السماوية. ولم يكن فولتير يقيم اعتبارًا للبشرية عمومًا، أما أن يحبها، ويشعر بالتضامن معها، فأمر واقع. وتثور ثائرته لأن قوة حمقاء حرمته، وحرمت البشرية، من إنسان كان يرتفع به رأس الجميع كافة: «وضعني موت السيد دو ميزون في حالة من القنوط بلغت حد الخبل».

هالته تلك الميتة: «توفي بين ذراعيّ لا بسبب الجهل بل بإهمال من الأطباء»، ومضى من باب إلى باب وهو ينتحب، معانقًا الذين يفهمونه، ومتقبلًا مواساتهم. فيقص عناءه، وثورته. إنه منهك، وأكثر هزالًا وضعفًا ومعاناة من الحمى. ومن الطبيعي أنه بلا مسكن. فينام عند هؤلاء ويتغدى عند أولئك ويتناول عشاءه عند آخرين. ليست المسألة أنه يفتقر إلى مكان يؤويه، فلديه فائض من الأمكنة! واقع الحال أن هذا الرحالة كان ملازمًا البيت، وهذا المضطرب كان صلبًا في ثباته، وهذا المشتت كان من كبار المجتهدين؛ إذ ما من شيء يمكن اجتذابه البتة نحو صيغة سهلة لدى هذا الإنسان الذي يبدو شفافًا! فلَكَم هو متماوجٌ ومتناقض! ويظن المرء أنه يعرف عنه كل شيء – وهذا صحيح، فليس هنالك من سر – لكن مثلما يعرف كل شيء عن متاهة صممتها مينرفا. فليست دقة الخط الذي يرسم ذلك الطبع سوى شَرَكٍ للذكاء، لا يحول دون أن يتيه الأكثر فطنةً، وفولتير كما المتاهة، قائم لكي يتيه المرء فيه. وهو ليس بمظلم بل إنه الضياء. وقد يكون الخداع مرغوبًا منه أحيانًا؛ حينئذٍ يكون الأكثر شفافية. ويكون الخداع في الأعم والأغلب هو العمق، وهو الأكثر ذكاء، إنه خداع غير واع. إنه يخدع في وضح النهار، على نحو ما يتنفس ويتكلم ويفتن. والنور مُشِع أينما كان، في حياته كما في فكره. إنه يُبدع ذاته بذاته متلاعبًا بخفة في ذلك النور، فيبدع ذاته وهو يكثر من الحركة، فهو حركة أكثر مما هو مادة. وهو في الأحوال كافة لاعب الخفة الأكثر إثارة للذهول في عصره الذي عرف لاعبين كثرًا، وغاية في الأهمية.

بلى، فهذا المضطرب لا يهوى شيئًا على قدر ما يحب البقاء في أعماق كهفه، في داخل «بيته هو»، منطويًا على نفسه أمام النار، يعرض ساقيه لدفئها، منهمكًا بتحريك الجمر والتفكير والحديث إلى بعض الأصدقاء الحميمين، وشرب مغلي الأعشاب وابتلاع أقراص الأدوية، والتلفع بالأوشحة والفراء، وارتداء الجلابيب والمباذل المنزلية، وتقليد عجوز شمطاء في كنبته، وتشكيل حلقة من حوله مثل سيدة مسنّة من الطبقة الرفيعة، تتلقى أشكال الاحترام والإطراء والمداهنة، مع أشكال من الرأفة والإعجاب والحب، ومن الخوف أيضًا من بعضهم. ذلكم هو المناخ الذي تتفتق فيه مواهبه، والذي يعيد خلقه أينما ذهب، لأن ذلك المناخ ضروري بالنسبة إليه في كل مكان. فينبغي للآخر أن يعتاد عليه أو أن ينصرف، وإلا فهو الذي سينصرف.

ذلكم هو السبب الذي يفسر غالبًا سبب رحيله؛ لأنه لم يتمكن من خلق مناخه هو، مناخ الحاضنة، الحاضنة التي تمر عبرها باريس كلها.

لكنه عثر في عام 1731 على مأوى يتناغم وهواه. إنه صالون الكونتيسة دو فونتين مارتيل. فلنفعل كما يفعل الجميع آنذاك، ولندخل بكل جرأة إلى جوهما الحميم.

كانت إجيري (مساعدة أحد آلهة الرومان) الجديدة تقيم في القصر الملكي، وقد أسكنته في الطابق الأرضي من قصرها، وهو المطل على الحديقة. والمرأة تجاوزت الستين، أي إنها أضحت، وفقًا لمفهوم ذلك العصر، في مصاف القطع الأثرية. يضاف إلى ذلك أنها كانت مصابة بمرض الأكزيما الجلدي الذي يجعل منها شيئًا منفرًا.

إنها ظروف العناية الإلهية، حيث اجتمع التقدم في السن ومرض الأكزيما، ليثبطا مقدمًا همة سيئي النيات. أما عفة المضيفة وعفة الضيف فكانتا خارج نطاق الشبهات. ولم تكن السيدة منفرة فحسب، بل بخيلة أيضًا وشحيحة، تتكلف الظهور بروح نبيهة ما كانت لتخدع أحدًا، لكن كان لدى فولتير ما يعوضه. إنها الملك بلا منازع على صالون مطروق جدًا. ويأتي أمير بالوراثة ليخاطر بين وقت وآخر بتذوق المشروبات الرديئة التي كان الطاهي يقدمها تحت اسم عشاء. ولنقل أخيرًا إن تلك الأكزيما كانت ستارًا لروح قوية، ولنفهم من ذلك أنها ملحِدة بعناد.

كانت «فيلسوفة» مهووسة. وأما بشأن العروض، فالقداس يشينُها، لكنها تجد الأوبرا سامية، فهي تضع فوق ذلك السمو الباريسي، السمو فوق الطبيعي، أي التراجيديا، ثم في الأعلى يأتي فولتير. كانت تعمل على عرض مسرحياته في بيتها. فهل له أنه يطمح إلى ما هو أفضل من ذلك؟!

ها هو ذا منهمك في العمل. إنه يعمل على تقديم مسرحية: إريفيل (*Eriphyle*). ويصفق المشاهدون قليلاً؛ لأن المسرحية منظومة نظمًا مدهشًا. أما النجاح فضئيل جدًا حتى ليقارب الفشل. فقام بسحب المسرحية وأعاد كتابتها من جديد. جدد الفصول الثلاثة وقرأها على الجمهور، فدوّن الملاحظات، وكرر التصحيح. إن تلك النزاهة في العمل، وذلك الخضوع المتيقظ لملاحظات جمهور مستقيم، لتثيران الدهشة لدى ذلك الرجل الصبور جدًا، والمغرور جدًا في بعض الأحيان. وحين رأى أن لا خير يرتجى من ذلك العمل، وضع المسرحية في أحد الأدراج وبادر إلى عمل آخر: زايير (*Zaïre*).

ما كانت السهرات عند الكونتيسة، ولا العمل، ليحولا بينه وبين الاهتمام بالآخرين وتقديم الفائدة. إنه يهوى تقديم العون، ولا سيما للمبتدئين. وصلت إليه قصيدة من شاعر شاب عنوانها: *Ode sur la Création* **(غنائية عن الخلق)**. إنه موضوع شاسع! فالأكثر خبرة يضيع فيه، ولم يكن ذلك المبتدئ ماهرًا جدًا، حتى في ميدان النظم. لكن ذلك لم يحل بينه وبين أن يكسب عيشه من قرض الشعر. ذلك الشاعر الشاب هو لينان، ابن المرأة التي كانت تدير النزل في روان إدارة سيئة. واستقدم فولتير إليه ذلك الشاب المهذار، السمين، ذا الطبع الأقرب إلى ريفي. فكيف أمكن لذلك النوع من الناس أن يجتذب اهتمام فولتير؟ ربما بدافع من الرأفة. وسعى لأن يجد له وظيفة صغيرة تشبه قيامه بدور سكرتير على سبيل المثال. وتحدث في ذلك الشأن مع سيدة القصر الملكي، فعبست، إذ سبق لها أن لُدِغت. ومن تييريو! أجل، تييريو نفسه الذي قد يكون أُلقي به إلقاءً بريئًا بين ذراعي السيدة المصابة بالأكزيما. واستقبلته فأحسنت استقباله، واستمتع من جانبه بالاستقبال الحسن. وعهدت إليه بمبلغ من المال، على أمل أن تُسدد لها الفوائد بطرائق ودية. لكن رد تييريو هذا جاء بطرائق مجافية لا تصدق، وأسوأ ما في الأمر أنه مضى يغدق مال الكونتيسة على آنسة اسمها ساليه، تعمل في الأوبرا. وهذا النوع من الامتهان لا يمكن نسيانه، حتى لو كان مفهومًا. وكان أن

رفضت الكونتيسة ذلك الشاب الجديد، الذي وصى به فولتير. وبناء على ذلك بدأت تستفظع الحب من جميع الرجال الذين يقاربونها. فقال فولتير: «إن خير صفة يمكن أن يتصف بها الرجل، ليستطيع دخول بيتها، هي أن يكون عاجزًا». عجبًا لهذا الأمر! فهل يتصف هو بتلك الصفة، ولا سيما أن دخوله إلى بيتها كان حسنًا؟ «إنها تخشى دومًا من أن يقوم أحدهم بقتلها، ليعطي مالها إلى إحدى فتيات الأوبرا». وكانت ترى الآنسة ساليه أشد إيذاء أيضًا من الكنيسة الرومانية. ولم يكن ذلك في نظرها عنوان حقد يسير. وكان فولتير مقتنعًا بأنها لم تقبل به، إلا لأنه كان في الثامنة والثلاثين (فهل هي سن متقدمة؟)، ولأنه كان مريضًا على الدوام وغير ملائم لألاعيب الغرام.

بالانتظار، لم يكن أمام لينان من مصدر عيش آخر سوى نظم بعض الأشعار البسيطة التي كان فولتير يوصي بها لشخصيات كبرى، مما يساوي بعض الهبات الصغيرة للتخفيف من جوع شديد.

كُتِبت مسرحية زايير[31] في خمسة وعشرين يومًا! وكان القصر الملكي مكانًا مواتيًا لتمرين من هذا النوع. وقد وُجه اللومُ إليه لأنه ما كان يضمّن مسرحياته ما يكفي من الغرام. فهل كان متوافرًا بكثرة في حياته؟ فقرر أن يضيف منه شيئًا، فقابله الجمهور بالهذيان. فيا لها من غبطة! كان الناس يبكون وكان العرق يزخهم أيضًا. كان ذلك في 31 آب/ أغسطس من عام 1731. المناخ شبيه بمناخ بلاد الحجاز لعرض تلك التراجيديا السورية[32] في قاعة بلا تهوية، تضاء فيها ألف شمعة كبيرة وتداعب النفوس آمال بالرطوبة.

لم يحل النجاح دون إبداء بعض الملاحظات التي تلقفها فولتير، فعمل على تصحيحها. لكن الممثلين طفح بهم الكيل بسبب تلك التعديلات التي لا

(31) تحكي المسرحية قصة أسيرة فرنسية لدى السلطان اسمها زايير، أحبت هذا الأخير وأحبها حتى أوشكا على الزواج، لكن محاولات أخيها الأسير لثنيها عن الزواج وإعادتها إلى دينها ولقاءاتهما المتكررة من أجل ذلك تسببت بسوء فهم لدى السلطان - الذي ما كان يعرف شيئًا عن أمر أخيها - فظنهما عاشقين، فطعنها بخنجر، وعندما عرف الحقيقة طعن نفسه. (المحرر)

(32) تجري أحداث المسرحية في القدس في القرن الثالث عشر، والمنطقة يومها تقع ضمن سوريا. (المترجم)

تنتهي، فقام أحدهم، وهو أكثرهم ظهورًا، بزجر فولتير قائلًا إنه لن يأخذ بعد الآن بالتعديلات. وقد زعم ذلك الشخص أنه يعيش في المدينة الأدوار الباذخة التي يؤديها على خشبة المسرح. كان لا يُطاق. وبدلًا من أن يبدي فولتير غيظه، اقتاده بلباقة ودهاء نحو المصالحة. ففي أثناء عشاء عند ذلك الممثل، جيءَ بفطيرة من المعجنات الفاخرة، وهي قطعة صنعت بطريقة مدهشة. وما من أحد عرف شيئًا عن الذي أرسلها، ففتحوها وقدموها. كانت تحتوي على حجال، وكل طائر يقبض بمنقاره على بطاقة. وقرئت البطاقات. كانت تحمل الأبيات التي عُدّلت في زايير! فقبل الممثل - وقد تغلب عليه أسلوب فولتير - بأن يحفظ الأبيات الجديدة.

مثّلت زايير أعظم نجاح مسرحي في ذلك العصر، وجرى تكريس فولتير سيدًا عظيمًا للمسرح الفرنسي، فَعُد، منذ ذلك الحين، مساويًا لكل من كورناي وراسين. كان في الثامنة والثلاثين، فأضحى الرجل العظيم في عصره بمسرحياته التي ما عاد عصرنا يقوى على قراءتها، ويستطيع بشيء من العناء مشاهدة عرضها. فيا له من انقلاب عجيب للقيم! ويظل مع ذلك رجلًا عظيمًا، لأنه كتب أشياء أخرى غير التراجيديات «السامية...»، أشياء صغيرة وخفيفة، بل رشيقة جدًا، حتى لتكاد تطير عبر الزمان، وهي ثابتة لا تقبل التغيير.

إلا أن بعض النغمات الناشزة ما لبث أن ظهر في الأناشيد التي قامت تمتدح نجاحه. أولاها الهجوم الذي شنه جان باتيست روسو المقيم أبدًا في المنفى، والمستمر في الحقد. إن فولتير من بعد اليوم هو المستهدف، لأن العدو الكامن في الظل، في سانت غودول، لا يلقي السلاح. أما الحسد في باريس فسُمه في أنيابه ناقعٌ أيضًا. ويروي فولتير أن عددًا لا بأس به من زملائه، وعددًا آخر من الناصحين، أشاروا عليه قبل ذلك بوقت قصير بأن يدع الريشة جانبًا. وهنالك من سأله: «وبم أجبتهم؟»، فقال:

- أعطيتهم زايير.

ذلك هو الجانب الحسن من الحرب الكلامية، لكنه سوف يعرف جانبًا آخر لن يكون في مصلحة شهرته.

بادرت السيدة دو مارتيل إلى عرض زايير في منزلها، وقام فولتير بدور

العجوز لوزينيان؛ وهو أحب ذلك الدور طوال حياته. كان يطنب في الإلقاء ويوقع ويفخم وينفعل حتى إنه صار يؤدي أداءً خاطئًا. وقد جعله هواه مهتاجًا. أما صوته الصاخب، فيخترق الجُدُر ويثقب الآذان: إنه جنون حقيقي. فالمقصود بذلك عجوز يخرج من السجن، حيث لبث في الوهن والضنى عشرين عامًا، فكأنما أمضاها في القبر، ولا بد من سماع ذلك الصوت الحاد. ويصيحون به: «على رسلك! على رسلك!»، لكنه لا يسمع شيئًا: إنه ممسوس. فالمسرح بالنسبة إليه فورة من الفرح فوق الطبيعي.

وواصل، وهو يقوم بتصحيح زايير، عمله في كتابه عن إنكلترا. إنه يعمل باستبسال ثور وقلق أرنب، فتراه يرتجف وهو يكتب؛ والخوف بالنسبة إليه متعة لا ريب فيها، لأن ما يفزعه سوف يثير غيظ أعدائه. لكن ليس ما يحول بينه وبين أن يقول ما ينبغي ألّا يُقال. وبسبب ذلك دوت شهرته عبر الآفاق، لأنه يقوم بنشر أفكار تمضي مخالفة للأفكار المتلقاة، ومعاكسة للأحكام المسبقة، وضد السلطات من كل مأكل منها ومشرب. وهكذا نراه يسعى لإقناع نفسه بأن كتابه قد لا يكون خطرًا أو شديد الخطورة. فيقرأ مقاطع غير مؤذية يراها الوزير في الواقع، ممتعة جدًا، وغاية في البراءة. ويقرأ صفحات قام بتشذيبها فيبتسم الكاردينال لسماعها. أما النص الكامل فلا بد من أن يثير حفيظة الكاردينال، على نحو ما سيجري حين يقوم باكتشافه. ويمكن المرء أن يقول إنه يعمد ساعة وقوعه في الخطر – وهو ما لا يمكن تداركه – إلى وضع كفه أمام عينيه. إن فولتير رقيق القلب، إنه رقيق القلب بإفراط!

كان آنذاك على درجة من الهزال، حتى إنه لو رآه غريب، لما أعطاه سنًا تتجاوز شهرًا من الزمن. وكانت حياته مفرطة في اضطرابها بالنسبة إلى صحة على تلك الهشاشة، وكان يسعه أداء دور لوزينيان الخارج من القبر، من غير تبديل في سحنته؛ فملامحه ملامح إنسان مشرف على الموت.

شاء أن يباغت الجمهور، فكان أن دفن الكونتيسة، وهو الذي تولى مرافقتها في لحظاتها الأخيرة، ولنشهد نحن بدورنا تلك الكوميديا الجنائزية، وهي كوميدية حتى النهاية. لقد جعلها تموت وفقًا للأصول، أي إنه جعلها تُمنح الأسرار الأخيرة. فلماذا؟ لأنه خشي من أنها إذا ماتت في حال من الزندقة، يتهمْه العالم بأنه مسؤول

عن تلك النهاية الفاضحة. وبناء على ذلك، قبلت باستقبال كاهنٍ كي توفر على صديقها الفضيحة. ويسرد فولتير علينا الواقعة فيقول: «جئتها بكاهن جانسيني، نصف سياسي، تظاهر بأنه يصغي إلى اعترافها، وقام من بعد بتقديم ما تبقى(!). وحين بادر ذلك الكوميدي من سان أوستاش، فسألها بصوت عال إن كانت على قناعة تامة بأن ربها وخالقها يقيم داخل القربان المقدس، أجابت: آه، بلى! وكان من شأن لهجتها تلك أن تجعلني أقهقه ضاحكًا في حال أقل كآبة».

إن كانت المسألة تتعلق بقلة الاحترام، فمن الصعب فعل ما هو أفضل. ولا ريب في أنه ضحك هازئًا إن لم ينفجر بضحك صاخب. أما من بعد، فقد حافظت السيدة الطيبة على صحو فكرها حتى النهاية. أما وقد شعرت بدنو أجلها، سألت كم هي الساعة: «إنها الثانية»! فردت قائلة: «فليتمجد اسم الرب، فأنا على موعد مضروب، أيًا تكن الساعة».

لم يتح لفولتير الوقت الكافي للبكاء، إذ كان عليه إخلاءُ المسكن على الفور. وكان قد نظم قصيدة عنوانها *Le Temple du goût* (معبد الذوق)، عبر فيها عن أفكاره في فن الكتابة، وعن آرائه في المؤلفات والمؤلفين في عصره. فكان بعضهم موضع إطراء وبعضهم الآخر موضع استهزاء. إنها فضيحة مرة أخرى. لكن الفضيحة هنا تجسدت في لؤم الجمهور وغيرة أصحاب الأقلام، وانتهى الجميع إلى الاعتقاد بأن فولتير لو نشر قصة *Le Petit Poucet* (الإبهام الصغير)، لعمل أعداؤه على اعتقاله. فكتابه، معبد الذوق، لا يُضِر بأحد، ما عدا الكتّاب المتصفين بالضحالة، وبجان باتيست روسو الذي أساء إليه قليلًا. فأقام فولتير لنفسه أعداء حتى من بين الذين امتدحهم، إذ طلب إليه واحد اسمه السيد دو كايلوس، أن يحذف من الطبعة المقبلة المدائح التي خصه بها. ومن المسلم به أن تكون تلك الشكاوى مرفقة بالتهديدات.

لكنه شعر بارتياح كبير؛ إذ أوعز الملك والملكة بعرض مسرحية زايير في البلاط، في قصر فونتينبلو. وهكذا عاد شاعرنا إلى البلاط، برعاية من ريشوليو. التقى هنالك ببيرون. ولم يحظَ ذلك اللقاء برضى هذا ولا ذاك؛ فكل واحد منهما يرى أن الآخر ليس في مكانه. وها هو ذا بيرون يرينا، بمكر، فولتير في البلاط، لكنه مكر لا يخلو من بعد نظر. فـ«السنجاب» يروح ويغدو، يهرول ويستدير، يُقبِل

ويُدبِر؛ فليس في القائمة فولتير واحد في القاعة، بل عشرة. إنه في كل مكان، وهو مع كل واحد؛ فيلقي السلام، ويتكلم ولا يصغي، ويرى الجميع، ويومئ إلى أحد بعيد، ويلقي كلمة يمنة وكلمة يسرة، ويقول بيرون بأسلوبه: «إنه يتدحرج مثل حبة بازلاء وسط طبق من المرق». وها هو ذا يلقى بيرون:

«إيه! مرحبًا يا عزيزي بيرون، ما جئتَ تعملُ في البلاط؟ (كان في وسع بيرون أن يجيبه بقوله: وأنت؟) فأنا هنا منذ ثلاثة أسابيع (كاذب! إنه هنالك منذ ثلاث ساعات). لقد عرضوا قبل أيام مسرحيتي، مريم، وسوف يقدمون زايير. ومتى يعرضون غوستاف (يا له من فظٍ قاسي القلب! إنها مسرحية بيرون التي ولدت ميتة). ثم كيف حالك؟... آه! سيدي الدوق، لدي كلمة أقولها، فقد كنت أبحث عنك...» وأهمل مواصلة الحديث مع بيرون. وحين رأى فولتير في اليوم التالي، بادره بالقول من دون مقدمات: «أنا على أحسن ما يرام، وأشكرك، وأنا جاهز لأي خدمة أقدمها لك». وسأله فولتير مندهشًا عما يعني بذلك الكلام، فأعاد بيرون تذكيره بأنه سأله بالأمس عن أحواله، وأنه لم يتمكن من تقديم الجواب قبل الآن.

ولئن كان في ذلك المشهد شيء من المبالغة، فهو حقيقي. إنما فولتير في البلاط على خشبة مسرح: إنه في حال من النشوة.

لكنه يثوب إلى رشده برجوعه إلى العمل. لقد صاغ كتابه *Lettres Ecrites de Londres sur les Anglois* (رسائل إنكليزية) بعناية فائقة، وحرصٍ واقعي على احترام الحقيقة. فحين يتكلم على نيوتن ومنظومته، يخشى عدم الدقـة. وواقع الحال أنه حرص على إعطاء العالِم الشهير مكانة سامية في كتابه. إن نيوتن بالنسبة إليه هو المستقبل؛ فلقد أزاح ديكارت عن عرشه. نيوتن عبقرية كونية، وينبغي للعلم بكامله، وفي جميع البلدان، أن ينتمي إلى مدرسة نيوتن. إنها فكرة تنبؤية، لكنها تتعارض تعارضًا مطلقًا مع أفكار العلم الرسمي في باريس. احتاج العلماء ذوو البراءات إلى خمسين عامًا كي يتعلموا ديكارت، ولسوف تلزمهم خمسون أخرى لنسيان ما حفظوا. ولئن كان فولتير هو الفرنسي الأول الذي دعا العلماء الفرنسيين إلى تغيير النظرية، فإنه كان ثاني الذين تعرفوا إلى نيوتن: فالأول كان موبرتوي؛ فقد قصده فولتير ليتولى تصحيح الأخطاء التي يمكن أن يكون وقع فيها لدى حديثه عن نيوتن، ووضع مخطوطه في عهدة العالم الرياضي. وهكذا

بدأت بين هذين الرجلين، علاقات ليست جاهزة للانتهاء، لكنها سوف تنتهي بفضيحة، من غير أن يخامرنا شك في ذلك.

لكي لا تغيب عنا كثيرًا عادة الضجيج والحرب الكلامية والتهديدات، جرى تفجير قضية جديدة في ذلك العام، 1732، بشأن قصيدة كان قد نظمها للمركيزة دو رويلموند في عام 1722: *Épître à Uranie* (رسالة شعرية إلى أوراني)، وهي الرسالة التي تسببت بصدمة كبرى لجان باتيست روسو، حتى إنه هدد بأن يُلقي بنفسه من باب العربة على أن يسمع قراءة مثل تلك التهجمات الشائنة على الدين. لكن ها هي القصيدة تُطبَع، ويجري تداولها. فلماذا؟ يقول فولتير إن النص سُرِق منه، وإن أحد الرعاع عمل على طباعته على غير علم منه، من أجل أن يودي به. فهل هذا صحيح؟ أليس هو الذي أعطى القصيدة بنفسه؟ إنهم جميعًا يكذبون، لكن هنالك قومًا أصبحوا شرسين حياله، وهم في موقع يؤهلهم إلى جعل شراستهم فاعلة. لقد أجاب سكرتير المستشار أغيسو، حين سأله المستشار وهو في حيرة من أمره، عن رأيه بالإجراء الواجب اتخاذه في حق فولتير قائلًا: «يا سيدي، ينبغي لفولتير أن يُسجَن في مكان لا يحصل فيه أبدًا على ريشة أو حبر أو ورق. فهذا الرجل قادر بإدارة فكره على التسبب بهزيمة بلاد بحالها».

إنه احترام مدهش لقوة «إدارة الفكر»، إلا أنه احترام خطر. لقد طلب أسقف باريس من المستشار إنزال أقسى عقوبة. واستدعى مفوض الشرطة السيد هيرو فولتير - وكان يعرف حق المعرفة السيد أرويه دو فولتير - واستجوبه عن صلته بالقصيدة النارية. فقال فولتير:

«ليست من نظمي أنا، إنها من نظم الأباتي، الأب دو شوليو».

كان شوليو قد توفي قبل خمسة عشر عامًا! لا ريب في أن «إدارة الفكر» كانت هي نفسها؛ مكان التظاهر بالغباء بين السلطات العليا. وأخلي سبيله.

لكن كتب عنه أحد النقاد يقول: «ذلكم كاتب ضئيل دميم، كان يجب علينا أن نجعله يعبر البحر مجددًا».

وها هو ذا أمر آخر بالاعتقال على طاولة الوزير: إنه نذير إقامة جديدة في الباستيل. لكن أصدقاءه يحولون دون خروج الأمر من محفظة الوزير، وفي

المقابل حُظِر عليه طباعة أي شيء. كان الوضع يدعو إلى الرثاء، لأن أصحاب المطابع بلا ترخيص، والمروجين، وأصحاب المكتبات من عديمي الاستقامة، كانوا وحدهم يحققون الربح من تلك المكافحة بلا طائل، ما دام القادرون على الدفع يستطيعون الحصول على الكتاب الخفي كما العلني.

انتقل في أيار/ مايو 1733 من بيته مجددًا، ليظل مخلصًا لعاداته الحسنة، فمضى ليقيم في مقابل بوابة سان جيرفيه. يقول متحدثًا عن تلك البوابة، إنها كانت «الصديق الوحيد الذي منحني إياه معبد الذوق»؛ ذلك أنه أبدى إعجابه بتلك البوابة في قصيدته، كما أن البوابة من ناحيتها لم تُضمِر له الغِل! فيا للمعجزة العظمى!

ظهور الربة

لم يكن المكان مبهجًا جدًا. إنه زقاق - شارع جاك دي بروس - «في أقبح حي من باريس، وفي أقدم منزل، ودوي النواقيس يفعل فعله في رأسي أكثر من فعله في رأس خادم في الكنيسة. لكنني سأحدِث بقيثارتي ضجيجًا يجعل ضجيج النواقيس لا يؤثر فيّ». كان الحمقى يسخرون منه لاعتقادهم بأنه أقام هنالك مدفوعًا بالسبب الذي تقدم، أي لكي يروي إعجابه ببوابة جيرفيه. إن ذلك لسخرية من الحمقى. فلديه سبب موجب جدًا؛ إذ كان يقطن في ذلك الزقاق سيد اسمه دومولان - وهو ليس سوى اسم مستعار بالنسبة إلى فولتير - إنه تاجر حبوب وتبن، كانت تراوده فكرة صنع ورق من التبن! إنها فكرة ممتازة. لكن يعوزه التمويل، فتقدم فولتير بالتمويل وعُقِدَت الصفقة. ذلكم هو فولتير يصنع ورق التغليف، لذا جاء ليقيم في ذلك الحي؛ فعين منه على البوابة، والعين الأخرى - العين السليمة - تراقب صانع الورق من التبن. لكن ذلك لم يحل دون إصابته بالمرض، ولا دون الكتابة، وإقامة دعوات للعشاء في مأواه. ولنبتعد بشكل خاص عن الاعتقاد بأنه لم يكن مريحًا كما رغب هو في القول؛ فالذين مروا من هناك وجدوه في أحسن حال من الراحة. ولا يمكن أن يكون الوضع على غير ذلك.

جاءت عربة فاخرة ذات مساء، بعد معاناة من ضيق الزقاق، لتنزل أمام مسكنه ثلاثة زائرين، عليهم مظاهر النعمة، وقد جاءوا لإعطاء انطلاقة للشاعر المتقاعد. وعرض عليهم العشاء، فرفضوا بدافع من الرزانة؛ لأنها المرة الأولى التي يزورونه فيها. فحصل على وعد منهم بالعودة:

«يا الله! هكذا سمعتها تدعو
إنها طاهيتي ماريان
راجية أن تأتي دوقة سان بيار
ودو شاتليه وفوركالكييه
ليتناولوا العشاء في مأوانا!».

إنه هو الذي يبوح لنا بأسماء زواره: الكونت فوركالكييه، ابن الماريشال دو برانكا، وكان عشيقًا للدوقة. أما المركيزة دو شاتليه فلم يكن لها من عشيق آنذاك. ولم تجرؤ على القدوم بمفردها، فاصطحبها الآخران. لكنها سوف تجرؤ على ذلك عما قريب. كانت الدوقة صديقة ودودة جدًا، وقد رغبت في تسهيل الأمور. فهي التي واتتها فكرة فتح باب الشاعر وأن تأتي إليه بالسيدة دو شاتليه. ولكم كانت الفكرة ذكية. لقد شكلوا أروع رباعي في الدنيا، وقصدوا حانة في ذلك المساء للعشاء، فتناولوا الفراريج المقلية. ولن ينسى فولتير أبدًا ولا المركيزة، ذلك العشاء الذي كان فاتحة تفاهم وعلاقة حب وصداقة دامت سبعة عشر عامًا، ولم تنتهِ إلا بالوفاة. إن تلك الأمسية هي واحدة من فرص النجاح التي يأتي بها قدَرٌ مباركٌ إلى حياتنا، من غير أن ندري ما السبب. كان فوركالكييه يطفح بشاشة، وهو رجل وسيم شديد الحميّة حسن المزايا، فليس لصحبته أن تشوبها الكآبة. وتصفه الآنسة فلاماران بقولها: «كان ينير الغرفة حين يدخل». وما كان ذلك بالإطراء البسيط. إن السيدة دو سان بيار امرأة رائعة، وهي تتألق سعادة لأن لديها مثل ذلك العشيق، وكانت ترغب في أن يتألق الجميع. ومنذ ذلك المساء وقع كل من فولتير والسيدة دو شاتليه في غرام الآخر. ولم يطل الأمر بالمجتمع لمعرفة النبأ. وقد لا يكون الناس آنذاك يعرفون ما نعرف نحن الآن، ذلك أنها امرأة من أكثر نساء زمانها علمًا ورقة وظرفًا، جاءت لترتبط مع أعظم كاتب برباط العشق الأشهر في تاريخ الأدب في القرن الثامن عشر. ألم ينجحا في جعل ذلك التوافق شبه المعجز بين امرأة عالمة وشاعر مشاكس، يستحق تحية إكبار من الأجيال اللاحقة. ذلك أنها معجزة حظيت باحترام سوء النيات، وبمباركة من المركيز دو شاتليه. ويأتي بعد ذلك من يزعم أن العالم يسير بالمقلوب!

يعرف فولتير السيدة دو شاتليه من زمان طويل. كانت لا تزال طفلة حين قام

والدها، البارون دو بروتوي، بتقديم أكبر العون لفولتير، في سبيل إخراجه من الباستيل. ولقد حافظ على الدوام على أطيب العلاقات بتلك العائلة التي سوف يشعر مستقبلًا بأن صلته بها لصيقة أكثر من قبل. وكان العشيقان يتصرفان تصرفًا طبيعيًا خالصًا؛ إن الحرية التي كان يتمتع بها بعض الأشخاص في مجتمع القرن الثامن عشر لمذهلة حقًا. واستقر فولتير ناعمًا بعاطفته على أحسن ما يرام، مثله في ذلك مثل أي أرستقراطي آخر. وكذلك كانت حال السيدة دو شاتليه. وما كان كثير من الناس المتزوجين في ذلك العصر لينعموا بحياة زوجية فيها من اللحمة كما هي حال فولتير والسيدة دو شاتليه. فواقع الأمر أن الحياة الزوجية الخاطئة هي حياة المركيز دو شاتليه. أما الحقيقية فهي حياة فولتير وإميلي.

وُلِدت غابرييل إميلي لو تونولييه دو بروتوي في 17 كانون الأول/ ديسمبر من عام 1706. كانت، إذًا، في السابعة والعشرين لدى ظهورها في «عرين» بوابة سان جيرفيه. وهي مقترنة بالمركيز دو شاتليه منذ سبع سنين. لكنها لم تكن في حاجة إلى ذلك الزمان كله حتى تكتشف أن الرجل الطيب زوجها لم يكن سوى رجل طيب. ولم يكن آل شاتليه يرفلون في الذهب والحرير، أما آل بروتوي فقوم أثرياء. والمؤسف أن تمويل المنزل مرتبط بأحوال آل شاتليه أكثر من ارتباطه بآل بروتوي. ويشاء سوء الطالع أن تظل إميلي محافظة على نزعاتها وهي ابنة بروتوي، وعلى بعض سلوكاتها المكلفة جدًا. فهَوَسُها بالقمار وحب الحجارة الكريمة يبلغ حد الهذيان. كانت أول من يستهزئ بتلك العيوب المستهجنة، وآخر من يسعى إلى الشفاء منها. ويخامرنا الشك في أن يكون فولتير فُتِن بإميلي بتأثير هذه الأسباب، وأن يكون سقط صريع هوى عميق وجنوني، أول مرة في حياته وآخر مرة. ولم يتميز ذلك التعلق قط بهيجان الشغف العميق ونشواته، لكنه عرف حالات من الغم وبعض حالات العنف وروعة الحنان.

هل سحرته بحسنها؟ ينبغي ألا يُفرَّط في هذا الظن، على الرغم من وسائل إطراء العرف الشائعة. كما لم تكن على تلك الدرجة من الدمامة التي أعطتنا إياها السيدة دو ديفان، في الصورة السيئة التي تداولتها الأجيال كلما دار الحديث عن فولتير والسيدة دو شاتليه. أما الغش العام فيها فيقوم، على الرغم من ذلك، على بعض اللمسات الصحيحة. وها هي ذي الصورة في خطوطها الكبرى:

«تخيلوا امرأة طويلة القامة وجافة، بلا ردفين، وبصدر ضيق، ذراعاها وساقاها سمينة، وقدماها ضخمتان، رأسها صغير جدًا، ووجهها حاد، وأنفها مدبب، ولها عينان خضراوان كلون البحر، وبشرتها سوداء وحمراء ملفوحة، ولها فم أبطح، وأسنان فرقاء ومتهرئة جدًا. ذلكم هو محيا الحسناء إميلي...».

لِمَ يطلقون عليها اسم الحسناء إميلي، إن كانت على نحو ما تصورها السيدة دو ديفان؟ أهو قلب المعنى؟ بلى، فقد كانت جديرة، في نظر بعضهم على الأقل، بأن تُدعى بالحسناء إميلي، لأنها كانت حسناء بطريقة ما. إن سوء النية لدى السيدة دو ديفان، لمسألة جلية. فنحن لسنا ملزمين بتصديقها، ولندعها بالأحرى تضيف بعض اللمسات على الصورة. فهي لا توفر شيئًا: لا تجعيد الشعر، ولا شراب الزينة، ولا الحجارة الكريمة، ولا الأساور، أو العقود الزجاجية التي تزدان بها إميلي. «كأنما هي تريد أن تكون حسناء، على الرغم من الطبيعة، ورائعة، على الرغم من القدَر. وهي مرغمة في الغالب على الاستغناء عن الجوارب والقمصان والمناديل والترهات الأخرى».

يتسبب الحقد في هذيان السيدة دو ديفان ذات النية السيئة في العادة، لكن بلطافة أكثر. فلا يسعنا أن نتخيل أن الضيق النسبي جدًا الذي تعانيه أسرة دو شاتليه، والذي يسمح لها على الرغم من ذلك بأن تحصل على الماس، يحول بينها وبين تبديل الجوارب والقمصان. لكن هنالك قول حق يتعلق بفيض الحجارة الكريمة والزينة الرخيصة، فهنا تصيب كبد الحقيقة. وحين كانت تظهر إميلي في أيامها المسعورة، وهي تتلألأ بالماس - ربما المزور منه - متبرجة إلى حد يسبب الذعر، تزينها ألف شريطة بألوان متعددة كالفراشات، كان الناس يرون، بشيء من المكر، أنها أكثر شبهًا ببغلة البابا التي تطوف حاملة ذخائر القديسين.

لم يكن ذلك هو ذوق فولتير، فكان يتحمل العبء وهو يئن. وأعجب ما في الأمر أن إميلي نفسها تجد ذلك رديئًا، من غير أن تقوى على الاستغناء عنه. وصورها لا ترينا إياها دميمة على الإطلاق. ربما كان فمها غائرًا قليلًا، وأنفها طويلًا بعض الشيء، لكن لونها غير ضارب إلى السواد! وربما كان المصورون أكثر لطافة من السيدة دو ديفان، وربما كانوا كاذبين بعض الشيء. أما أن يكون هيكلها العظمي ناتئًا، فأمر معقول؛ لأن ذلك يُسبغ عليها مظهرًا من المهابة. وكيف تُلام على لون

عينيها الخضراوين كلون البحر؟ هنالك إجماع تام على أن هاتين العينين جميلتان، بل جميلتان جدًا، فنظرتهما ودودة وغاية في الذكاء ومتألقة. ولا يرى المرء سوى تلك النظرة، إلا أنها قمينة بإضاءة الصالون الذي تدخل إليه. والحق أنها لم تكن في حاجة إلى تلك اللآلئ كلها مع تينك الحدقتين. إنما ذلك الألق هو الذي لم تقوَ السيدة دو ديفان على أن تسامحها عليه، وهو الذي فتن فولتير.

لا ريب في أنها دمية جميلة، لكنها لم تكن قطعة من خزف «ساكس». كانت لديها جوانب من الجمال. ومن يدري، في نهاية المطاف، إن لم يكن لذراعيها الطويلتين، وساقيها المديدتين، وقدميها الكبيرتين، سحرها الخاص وتأثيرها في «السنجاب»؟

هكذا، وعلى الرغم من الحسد، ظل فولتير مولهًا بحب إميلي على نحو ما هي، إنما بشكل خاص بسبب ذلك السمو في قلبها، وذكائها الذي جعلها جديرة به. كذلك أحبها لأنها كانت تسليته اليومية، فقد أمتعته بنزواتها، وغفر لها حالات عنادها وثوراتها الغاضبة الصاخبة، وحتى عدم وفائها بين حين وآخر. كانت باختصار ذات عبء رائع جدًا، وكانت تحمل لعشيقها أفراح الصداقة، ومباهج الحب التي استطاع بفضلها أن يتذوق أشكال القلق والمنازعات كافة، وأن ينتشي بالمصالحات المسكرة. لقد منحته كل شيء، باستثناء الإحساس بالسأم.

مسرحية زواج دون جوان، تلتها هزلية، ثم تراجيديتان فاشلتان أيضًا

لم تكن فورات العشق لتتعارض بشيء مع نشاطه. فمعمل الورق موضع مراقبة دقيقة، ويقوم هو بكتابة أوبرا، سوف يتولى رامو الشهير وضع موسيقاها - ستكون تلك الأوبرا مفخمة وتوراتية، وسوف تدعى شمشون (*Samson*) - زد أن فولتير يهتم بحبكة أخرى هي زواج الدوق دو ريشوليو؛ ألا يقع ذلك أيضًا ضمن مجال المسرح؟ فولتير يتولى تزويج دون جوان العصر! فهل هنالك من مجال لا يقوم بالتدخل فيه؟ ولقد نجح في مسعاه؛ إذ زوجه من ابنة دوق غيز الثانية. كان دوق غيز صديقًا لفولتير. ونذكر كيف تعهد أمر الطبعة الكاملة لكتاب تاريخ شارل الثاني عشر الذي جُلِبَ بمركب نهري من روان إلى سان كلو، ثم جرى توزيعه في باريس. كانت تلك خدمات لا تُنسى! فتوسط فولتير في تزويج ابنته الثانية - وكانت غير مؤهلة كثيرًا للزواج - من أكثر الأسياد تألقًا في البلاط. كان

كلٌّ من دوق غيز هذا وزوجته الدوقة من الناس الملحدين. ودهشا بعض الشيء من النجاح في أن يتقدم إليهما صهر على شاكلتهما، بل أكثر. لكن العرقلة لم تكن هنا، بل كان العائق في المولد. فآل غيز أمراء لورينيون، أي يتحدرون من أصل ملكي تقريبًا، في حين لم يكن ريشوليو سوى حفيد شقيقة الكاردينال، أي حفيد السيدة فينيورو. ورأى آل غيز أن فينيورو سيكون خفيف الوزن، إذا ما شاء أن يتزندق في عائلة من الأمراء. فتجهمت وجوه آل غيز جميعًا؛ إذ لا مكان لواحد مثل فينيورو لدى الأمراء اللورينيين! لكن فولتير تولى تسوية كل شيء. لم يكن آل غيز أثرياء جدًا، أما ريشوليو ففائق الثراء. فكان فولتير يهمس للأمراء اللورينيين قائلًا: «بلا بائنة! بلا بائنة!»، وهكذا كان. أما الأعمام، وأبناء الأعمام، وأبناء الإخوة من آل غيز في الإمارة فقد تحملوا ريشوليو على مضض، وعاملوه على أنه «راعي مقاطعة فانديه»! إن كل هوى ليلامس الشِعر، حتى شجرة النسب العائلي. جرت إذًا مراسم الزواج، وكانت فائقة الرفعة؛ إذ دعا نصف فرنسا. أما النصف الآخر، وهو آل غيز، فكان غائبًا. فتولى فولتير سد ذلك الفراغ.

كان فولتير، بين جولة وأخرى، يواصل العمل في كتابة الأوبرا التي وضعها. كان قادرًا على تصميم رقصات باليه، وقمينًا بأدائها، لولا أن ساقيه هزيلتان. ويسعه أن يجعل عرائس الدمى ترقص وتتكلم. فهو يقول إن جميع المواهب التي منحها الله للإنسان ينبغي استغلالها، كما ينبغي تعهد كل ما هو فينا بالرعاية، إذ ليس هنالك ما يقبل الإهمال، وإن كل رفض للانتفاع بذات الإنسان هو سخف وعجز. وتمضي أمثال تلك المبادئ بعيدًا، فيما الدين يطلق الصرخات العالية. ويضيف إن واحدًا من الناس الأكثر سموًا، وهو نيوتن، أخطأ خطأً كبيرًا حين لم يكتب الأوبرا. إنه عبقري مدهش، لكن فولتير كان سيضعه في مصاف الآلهة، لو عرف كيف يصوغ مشهد عشق في الأوبرا، وينسق ألوان الأداء المتناغمة لفرقة باليه. فكيف له، وهو الذي يتمتع بهذا النهم للحياة، أن يشعر بالسأم؟ إنه يشعر بنفسه ممتلئًا بموارد لا تنضب، وهي ليست ملكًا شخصيًا له، بل ملك الإنسانية جمعاء. فالإنسان هو الخليقة الأكثر إعجازًا في الخلق، ففيه كل شيء، ومواهبه متعددة حتى اللانهاية، فتتجدد وتنبثق في عملية خلق. وليس من سلطة بقادرة على عرقلة سير تلك المعجزة المتواصلة المتمثلة في الذكاء. وهاكم إحدى العقائد من دين فولتير: «لم نولد فحسب كي نقرأ أفلاطون ولايبنتز، ونقيس المنحنيات وننسق

الأفعال في رأسنا، بل وُلِدنا ولنا قلبٌ ينبغي أن يُفعَم... ينبغي أن نُدخِل في رأسنا الصيَغ المتخيلة كافة، ونفتح الأبواب كافةً في روحنا أمام العلوم كلها، والمشاعر كلها. بشرط ألا يكون دخولها فوضويًا، فهنالك متسع لها كلها».

أما السيدة دو شاتليه التي آمنت بتلك النظرية في شمولية الإنسان، فكتبت من جانبها تقول: «إنه لتضييق فكري عجيب أن يحب المرء فنًا واحدًا، أو علمًا واحدًا، ويستبعد الفنون كافة أو العلوم الأخرى. ففي وسع المرء أن يبدي تفضيلًا، لكن لِمَ الاستبعاد؟ إن الطبيعة تهبنا القليل من الأبواب، لتقوى المتعة أو التعلم على الدخول إلى روحنا، فلِمَ لا نفتح منها سوى باب واحد؟».

ها هما، إذًا، منفتحان على رياح الفكر الأربع، فلْنتنبه إلى أن ذلك «من أجل لذة التعلم». والاثنان يمضيان معًا.

إن العاشقين الصديقين متفقان، فالكلمة الجوهرية هي: «رفض الاستبعاد». إن قدرات الإنسان لامتناهية، فليس له أن يقول كلا حيال أي من تطلعاته. وليس لشيء في شخصيته أن يظل كالأرض البور. فإن يقم بتقطيع أوصاله بنفسه، يرتكب جريمة ضد الإنسانية.

لكن إلى أين هما متوجهان فوق تلك الدروب المهلكة؟ فلنكن مطمئنين، فهاكم طبيعة الإسراف لدى فولتير: «العمل هو شرف الإنسان ونصيبه، ويتراءى لي كل يوم أنه حياة الإنسان، فهو يستجمع قوى الروح ويمنح السعادة».

ذلكم هو السنجاب النشيط، وتلك هي طبيعته العميقة: إن هذا الهاوي لحياة الصالونات والمسرح ما كرّس سهرة قط للمجتمع من غير أن يندم عليها. فمباهجه الحقيقية مباهج صارمة - لكنها لامتناهية - كالدرس والتأمل والعمل. إنه يعيش بالسرعة القصوى، مع حرصه على أن يُغذي بالثريد والشوكولاته، هيكل جسده الهش المغطى برق غزال مجعد.

جربت السيدة دو شاتليه التي كانت تحسن الغناء، أن تؤدي على المعزف القيثاري موسيقى رامو. ما كانت تحب رامو. فقد كان هذا الأخير - إضافةً إلى أنه موسيقي كبير جدًا - رجلًا فظًا ومتحذلقًا. كان فولتير في مجالسه الخاصة يطلق

عليه، بكل بساطة، اسم أورفيوس[33]، فكان الآخر يقبل بمنحته. أما حين يكتب فولتير إلى سيدفيل، فبنغمة مختلفة: «موسيقى رجل يُدعى رامو. إنه واحد متحذلق في الموسيقى، لكنه مضبوط ومزعج». أما بين الجمهور فيمضي معلنًا أن رامو في صدد كتابة أجمل أوبرا في العالم. ثم يضيف بتواضع: «تلك التي تخصني».

قامت باريس حياله بحيلة خبيثة؛ فقد أدى ممثلون جوالون هزليون صورة ساخرة عن معبد الذوق، ويا للذوق الذي تحمله تلك الصورة الساخرة! نرى أن المهرج الذي يصعد على خشبة المسرح مريض، فيقولون إنه ينبغي جعله «يتعرق»، ويضربونه بالعصا. فلا «يتعرق»، ويعطونه ما يسبب الإسهال، إلا أنه صامد لا «يتعرق». فيأتونه أخيرًا بـ معبد الذوق، ممثلًا بكرسي مثقوب، فيجلس المهرج عليه و«يتعرق...»، وأُفعِم الجمهور طربًا. فهذا النوع من النقد الأدبي يلهب حماسته. أما فولتير فثارت ثائرته، ورفع شكوى إلى الشرطة، فحظرت الشرطة العرض الساخر. وعلق أعداء فولتير المتميزون قائلين إن الشرطة أظهرت حساسية مفرطة حيال مسألة الذوق واستخدام الكراسي المثقوبة.

يحتاج فولتير إلى أن يثأر من أحدهم، فينظم *Épître sur la calomnie* (رسالة شعرية عن النميمة) ويهديها إلى إميلي، إلى ما كانت تستحق تلك الإهانة. وكان خيرًا له لو أنه لزم الصمت. فالرسالة المكتوبة تحت تأثير سورة من الغضب، إنما هي اللؤم بعينه. إلا أن جان باتيست روسو هو الذي ورد اسمه في النقد، وهو الذي سيسدد الثمن. لكن لِمَ لمْ يُترك وشأنه ليظل كالماء الآسن، فلولا كلام فولتير عليه لنسيه الناس. وهو يعرف من ناحيته ذلك الأمر، فقد هاجمه وهو يقول بحق إن «القصد هو المهارشة». وكانت خاتمة القصيدة ضد جان باتيست، كما يلي:

«إن الشقي وقد تخلى عن البشر
يموت بالسموم التي أعدتها يداه».

يقر فولتير قائلًا: «أنتم ترون أني أُكِن كرهًا لروسو، لكن من لا يعرف أن يكره، لا يعرف أن يحب». ونحن مطمئنون بصحبته؛ إنه ملتزم بحكمته كل الالتزام.

---

(33) أورفيوس: شاعر وموسيقي، ابن كاليوب، إحدى ربات الفنون، وبلغت روعة موسيقاه أنها كانت تسحر الحيوانات المفترسة، فحين يباشر العزف على قيثارته، يأتي إليه الأسد ليقف بجانب الوعل والذئب بجانب الحمَل... وكلها مفتونة بموسيقاه. (المترجم)

هو في مناسبات أخرى خفيف الظل، يستقبل في بيته الأب لينان، في حين ما كان في حاجة قط إلى ذلك الغلام، إذ لديه من قبل أمين للسر. صحيح أنه ضحل القدرات، لكنه لا يقوم بصرفه رأفةً به. لكن لينان فاتر العزيمة، وبعيد عن العرفان. مع ذلك خشي فولتير عليه من السأم، فاستقبل شاعرًا ثالثًا تبدو عليه المعاناة من الجوع، كي يكون في صحبة الاثنين الآخرَين. والحال أن هذا الأخير، الفائض عن الحاجة، كان الأكثر إمتاعًا بين الثلاثة، لكن الغلام المسكين قضى نحبه بعد مدة قصيرة، بداء السل. ها هو ذا أخيرًا بصحبة ثلاثة من الطفيليين الذين يحتاجون إلى الرعاية، إضافة إلى أديلاييد دو غيسكلان التي لا تُعتبر الأقل إزعاجًا. إنها بطلة تراجيديته الأخيرة، وإنها شيء جديد؛ فالموضوع فرنسي وبطولي، فيا له من تجديد بالنسبة إلى تراجيديا! زد أنها طافحة بالمشاعر الطيبة، لكن الجمهور لم يتقبلها. فالفصل الأول قوبل بالصفير، والثاني أثار الصخب، وحين ظهر في الفصل الثالث السير دو كوسي، وهو سيد موقر، يتقدم منه أحد الشخوص سائلًا بكل تبجيل: «هل أنت مسرور يا كوسي؟»، أجابت القاعة المغتبطة ساخرة: «كوسي، كوسا[34] (Couci-Couça)». وتلا ذلك وابلٌ من الصراخ والشتائم سقطت تحتها أديلاييد دو غيسكلان المسكينة ولفظت أنفاسها. ولم تكن إلا في يومها الثاني: وُلِدت في 17 كانون الثاني/ يناير 1734 وتوفيت في 18 منه.

لنغادر المسرح متوجهين إلى الحياة، وإن كان في وسعنا الخلط بينهما على الدوام. فثمة تراجيديا أخرى أوشكت أن تكلف صديقه ريشوليو حياته. كان فولتير يعرف خيرًا من كل من عداه، منغصات الزواج الذي ساهم مساهمة فعالة في عقده. وكان قد حذر الفتاة مسبقًا، بأبيات شعرية. وإنها لنصيحة عجيبة تُوجه إلى عروس فتية، بيد أن كل شيء عجيب في حياة ذلك الرجل الذي يبدو «طبيعيًا» جدًا. وها هي ذي نصيحته:

«لا تُفرِطا في العشق، فأنا الذي أرجوكِ
فهي الوسيلة الأكثر ضمانًا لدوام حبكما
فخيرٌ لاثنين أن يكونا صديقين مدى الحياة
على أن يكونا عاشقين أيامًا معدودات».

(34) صيغة فرنسية تعني: بينَ بين. (المترجم)

لم تكن المسكينة بصديقة، ولا عشيقة. كانت دوقة ريشوليو، أي زوجة لتيار من الهواء[35]. وتيار الهواء ذلك كان عشيق النساء كافةً مع ذلك باستثنائها هي. ففي اليوم التالي للزواج، افترق عن زوجته، والتحق بالجيش. وهنالك التقى بأبناء عمومة الدوقة - بأنسبائه - الذين نظروا إليه نظرة متعالية. ومنهم أمير ليكسان، وأمير بون. ولم يكن ريشوليو ذا مزاج حليم. فتبارزا بالسيف في الثاني من حزيران/ يونيو 1734. فقتل ريشوليو بدء الأمر ليكسان، لكنه أوشك أن يقع صريعًا بسيف الآخر؛ إذ كان جرحه على درجة من الخطورة بحيث بدا إنقاذه ميئوسًا منه أيامًا عدة. وكان فولتير هو الذي أوشك أن يموت ألمًا. إذ كان لا يزال مقيمًا في مونجو، عند آل غيز، حيث تم الزواج. وفي حين أوشك أن يلفظ أنفاسه غمًا، أعاد إليه الوزير تلك الأنفاس، بإرساله أمرًا بتوقيفه. وشاء حسن طالعه أن قام صديقه الحميم، بل «ملاكه الحارس»، دارجنتال، فأعلمه في الوقت الملائم، فجفف دموعه وولى الأدبار.

أدب ملتزم

هكذا كان الأثر الأول لكتابه رسائل إلى الإنكليز أو رسائل فلسفية الذي طبعه السيد جور من روان. فبعد حصول فولتير على إيضاحات موبرتوي حول نيوتن، قام بإنجاز كتابه. وكان إيمانه بالنيوتنية إيمانًا مطلقًا. فكتب إلى مزوده بالمعلومات يقول: «رسالتك الأولى هي التي عمدتني في الديانة النيوتنية، ورسالتك الثانية منحتني التثبيت. وأنا إذ أشكرك على شعائرك...».

لكنه بوغت، فما كان يعرف أن الكتاب قد بدأ يُباع، من غير امتياز! فهنالك قصة مشبوهة بين ناشر وكاتب مثل آلاف القصص التي عرفها ذلك القرن. لم يكن التشريع يؤمن للمؤلفين حماية كافية، فكانت المسألة بينهم وبين أصحاب المكتبات أشبه بمعرض شجار. لقد بعث فولتير بتييريو إلى لندن لمراقبة طبعة إنكليزية لـ الرسائل، لكنه وعد الناشر الإنكليزي بأن الطبعة الفرنسية لن تظهر إلا من بعد طبعته. وواقع الحال أن تييريو، بدلًا من أن يقوم بتنشيط الطباعة، كان يتلهى. وشجعه فولتير على العمل واعدًا إياه بأن يتقاسم معه الحقوق. «ليس ما هو أعذب من قدرة المرء على القيام برفع سمعته وزيادة ثروة أصدقائه في آن معًا».

(35) المقصود بذلك أنه يتوارى قبل أن يتمكن المرء من الإمساك به. (المترجم)

أما وقد أثار ذلك الوعد حماسة تييريو، فقد شرع يحث الناشر في لندن على الإسراع. وتمكن هذا الأخير من وضع المؤلف بين يدي الجمهور بعد مدة قصيرة. أما جور الذي كان ينتظر دومًا ساعة حائطه، فقد عمل ما في وسعه لاستباق الآخر، على الرغم من مناشدات فولتير، الذي لم يكن لديه من إذن بالنشر سوى بضع بسمات من الكاردينال الوزير، حصل عليها إضافةً إلى نصٍ مبتور! وكانت مخاصمة طويلة بين الاثنين: «لا تنشر! ستحل بنا مصيبة!» «لا بأس، لكن أعطني دفعة ما!» «هاك! (إنها صرة نقود) لكن أقسم لي أنه لن يتسرب شيء». «كلا، لن أقسم لأني غير واثق. وماذا عن ساعتي الجدارية؟». والحق أنهم بتلك المساومات كانوا يلهون فولتير؛ فكان جور يقوم ببيع الكتاب في باريس بمبادرة شخصية منه، في حين كان الكاتب منهمكًا بتزويج دون جوان من أميرته البعيدة. واقترانها هي بزوجها المتقلب.

كان جور، ذلك الأحمق، قد دخل السجن حين أحيط فولتير علمًا بالأمر. لكن «العرين» في سان جيرفيه قد جرى تفتيشه، فحملوا الأوراق - وحملوا صندوق النقود - لكن هذا كُسِر على الطريق - وهي محض مصادفة بالتأكيد! - ومن الطبيعي أن يفرغ من محتوياته على الفور.

أما في إنكلترا، فأثارت الرسائل الشهيرة التي تحمل المديح للبلاد بمؤسساتها وعاداتها، موجة خفيفة من الاهتمام. كان الرأي السائد أن العمل ليس بسيئ، إذ يصدر عن فرنسي، لكنه ليس بالجودة الكافية بالنسبة إلى إنكلترا. ولم تمضِ المسألة إلى أبعد من ذلك.

أما في فرنسا، فقد ثارت موجة صاخبة من السخط العارم ونوع من الاستفظاع المقدس، واصطبغ بقلق لا يعبر عن نفسه بيسر، لكنه أشد خطورة من مشاهد الصراخ الغوغائية. فالمقارنة تتناول أمتين، مع امتياز صارخ بالنسبة إلى إنكلترا، فلا بأس. لكن، كان في نغمة الكلام شيء ما جارح، يلامس أحيانًا مواقع الصواب، ويتحول أحيانًا أخرى إلى بغي. وقد أثارت تلك النغمة حفيظة الفرنسيين، لكن ليس الجميع. فهنالك من كان يتبنى أفكار فولتير. إن تلك النغمة الهجائية تستدعي إلى الذهن فكرة الثأر. كان فولتير يثأر إلى حدٍ ما، من أمة بكاملها، لضربات العصا التي أنزلها به طائش حقير من علية القوم، وللتخاذل الذي أبداه بعض «الأصدقاء»

من مجتمع النبلاء. وكان هنالك أيضًا القلق الذي بدأ يستيقظ في الضمائر؛ فالدين والمؤسسات الفرنسية باتت مُختَرقة بسهامٍ مسمومة. بدا عليه أنه يستهزئ - على نحو ما أوحى بذلك إلى الكاردينال العجوز فلوري - بالمؤسسات والامتيازات الإقطاعية، والحكم الملكي المطلق. كانت آلتنا السياسية - وهي أبعد من أن تكون عرضة للشتم أو الجلد على يد أحد المصلحين، على الرغم من أنه ذو وزن في نقده اللاذع مثلما هو مصدر ضيق في نداءاته لإحلال العدل - موضع مقارنة بسيطة بالعادات الإنكليزية الحكيمة. لكن فولتير يعمد إلى استخدام إيماءات ساخرة يتوازى فيها قبح العادات الفرنسية مع المضحكات الإنكليزية، ووحشية السلوكات الفرنسية مع العبث الإنكليزي. وليست الانتقادات هي الجديدة في ذلك المؤلف. فمنذ زمن لا بأس به تُسمَعُ تمتمات أو ترتفع أصوات بالمواعظ ضد التجاوزات. لقد شن بعض الواعظين من فوق المنابر، حملات كلامية عنيفة تكاد لا تصدق، لكنها كانت تشكل جزءًا من التمثيلية. فهذه المواعظ اللاهبة ما كانت تشعل من الحرائق على قدر ما تنشر من دخان. وهي الهجمات التي لا تُطلَق في أي حال إلا لتقوية عرش الكنيسة، والمؤسسات لا يجري جلدها إلا لتقويمها وبث النشاط فيها. في حين أن فولتير، إن كان يخزها بشوكته، فذلك لكي يفقأها ويصدعها. ذلكم هو الشيء الجديد، وقد أحس به الناس من ذوي المناصب إحساسًا تامًا.

هكذا شهدنا الوزير والمحكمة العليا يتصرفان بسرعة غير معهودة؛ فصدر أمر بتمزيق الكتاب، وإحراقه علنًا بوصفه كتابًا فاضحًا، فيه إساءة إلى الدين والاحترام الواجب حيال السلطات.

كم عدد «الجرائم» التي لا نراها نحن، والتي وقعوا عليها آنذاك في الكتاب! تفضيل نيوتن على ديكارت جريمة، إطراء تدوين الجدري قانونيًا جريمة، الإشادة بشكسبير في وطن بوالو جريمة. إضافةً إلى بعض الجرائم الأخرى...

نرى مع ذلك، بشأن شكسبير، أنه لم يحبه إلا بمقدار؛ بل إنه لأمر مدهش أن يكون سعى فقط لكي يحبه، وأن يكون توصل إلى منتصف الطريق من غير أن يفقه منه قدرًا وافرًا أو شيئًا كثيرًا. لكنهم، في فرنسا، لم يسامحوه، لأنه لم يبادر إلى إدانة شكسبير إدانة قاطعة. أما نحن، فنرى فولتير في هذه النقطة، وجِلًا، بل

مجانبًا للمسألة. وهو أكثر كلاسيكية من أن يستمتع بذلك «البربري». لقد أحس مع ذلك بجمالياته الوحشية، وبقوته وسحره. وكان في وده أن يحبه لولا أنه خاف منه. ظل فولتير كالمنذهل. فهو لم يشأ أن يُدخِل هاملت إلى فِناء معبد الذوق، ولا أن يتوجه إليه بكليته. أما في معرض حبه لغران ويل[36]، ورغبة منه في خدمته، فقد قام حياله بأسوأ خدمة؛ ذلك أنه ترجمه! فما من خيانة موصوفة شبيهة بتلك الخيانة. لقد جرى تطويع الدراما الشكسبيرية وفقًا لذوق عهد الوصاية والصالونات التي كان يتطاير فيها فولتير. فـ «عطيل» رجل متظارف، يضع الباروكة ويرفل في الحرير والكشاكش. لقد ألقى فولتير بشكسبير في حضن كهنة البلاط الصغار، مثل من ألقى بحفنة من السكاكر. أما في نهاية المطاف فإنه، إذ قام بخيانته، جعله في متناول أمة راسين ولافونتين. فانطلاقًا منه، صار لشكسبير وجود في فرنسا. والحال معه كما حال فولتير؛ فهو لم يغدُ شهيرًا إلا بالقصائد الغزلية، وتكلف خفة الروح في الصالونات، أو بالعمل على تقديم مسرحيات تبعث على الضيق. فما كان لأحد أن يقرأ رسائله الإنكليزية لولا أنه فولتير، ذاك الذي جعل باريس كلها تذرف الدموع أمام مسرحياته: بروتوس، وأوديب، وزايير، وأديلاييد، وأرتيمير، تلك التي فضلها الأكبر اليوم أنها زادت جنسًا أدبيًا ميتًا ضغثًا على إبالة. لكنه كان عملًا متقنًا! وقد مهد الدرب أمام فولتير الأفكار العظمى.

هروب جديد

كانت السيدة دو شاتليه أكثر الجميع شقاء. لقد جُن جنونها ألمًا، فقامت تبوح بمكنونات قلبها لعشيقها القديم ريشوليو الذي هو صديق فولتير، وهو عشيق يوم أو ربما يومين، لأن ريشوليو يحط على الغصن، لكنه لا يبتني عشًا. تنازعا ثم تصالحا؛ إنهما صديقان. فهي ترتبط بصداقة حميمة مع القديم من أجل الجديد، من أجل فولتير. ولقد أطربهم هذا الوضع: إنهم الرؤوس الثلاثة البراقة لمثلث عاطفي.

كتبت إلى ريشوليو قائلة: «لا أتمتع بالشجاعة الكافية لأعرف أن صديقي، وهو بصحة مريعة، يقبع في السجن حيث سيموت من الألم ما لم يمت من المرض».

إن ذلك لصحيح، لأن فولتير مريض، فالإسهال يجعله يتلوى من الوجع،

(36) وليام شكسبير. (المترجم)

ويتغذى على أصناف من الحساء مثل الرضيع. وما عاد يحتمل الانحباس؛ إذ ينبغي له أن يتحرك، أن يخرج. إن أربعة جدر ورتاجًا إنما هي تابوت بالنسبة إلى العصبي الكبير. لقد أبلغه دارجنتال بأن من الأفضل له أن يسلم نفسه فيتم توقيفه ويعملون من بعد على إخراجه من هناك. لكن ذلك ليس ما يرى فولتير، فوصل إلى مقاطعة اللورين التي لا تزال مستقلة. «بت أمقت السجن بكراهية قاتلة. فأنا مريض، والهواء المحتبس سيقتلني، ومن ثم يضعونني في تابوت».

إن ذلك لمحتمل جدًا. كان الوزير شديد السخط، ويتلقى من كل جانب عرائض تلتمس إنزال أشد العقوبات بفولتير، مرة وإلى الأبد.

ما إن وصل إلى اللورين حتى أسرع ليسهر على صحة ريشوليو الذي أخذ يتعافي من طعنات السيف. هناك احتفوا بالشاعر، فاستقبله الضباط استقبال الأبطال. يسخرون في الجيش من أوامر التوقيف، إنها مسائل تهم المدنيين. ولم يكن أمير كونتي آخر المحتفين به. ذهل فولتير من نمط الحياة الباذخة التي يعيشها هؤلاء السادة الكبار في الريف: هنالك اثنان وسبعون بغلًا يسير في موكب ريشوليو حاملة حوائجه، إضافةً إلى ثلاثين جوادًا، وجمع غفير من الخدم! إن الأمر ليسترعي الاهتمام. وقد أثار فضوله ذلك الوسط فمضى يمنة ويسرة يبحث وينقب، إلى أن وقع بين أيدي جماعة من الحرس الذين لم يسمعوا بالرسائل الإنكليزية، فقبضوا عليه على أنه جاسوس، وباشروا بهزه وتعنيفه. لكن شاء حسن حظه أن يمر من هنالك أمير كونتي، فعادت المياه إلى مجاريها. «صادف مرور الأمير الذي دعاني إلى العشاء بدلًا من تعليق مشنقتي». وإن المرء ليحسبها واقعة من كتاب كانديد!

لكنه لم يطرب كثيرًا لـ «الإقامة بين القذائف والقنابل»، فانسحب باتجاه أراض مسالمة كثيرًا؛ ذلك أنهم يُعِدون العدة للهجوم على فيليبسبورغ، فما راقه ذلك الصخب البتة:

«سيحيل بيلوني إلى رماد
استحكامات فيليبسبورغ
على أيدي خمسين ألف إسكندر
جعالتهم أربعة دراهم في اليوم».

غضب البلاط أشد الغضب لوقاحة فولتير، ولأن الجيش بالغ في تكريم أحد المنفيين. عندئذٍ حثت إميلي فولتير على التوجه إلى الخارج؛ إلى بروكسل أو إلى لندن. ولكي تصل إميلي إلى تلك النتيجة، لا بد من أن يكون الخطر أضحى داهمًا. لا يسعها العيش من دونه، لكن لا بد له من الرحيل، فالمسألة تتهدد حياته. وكان جواب فولتير مؤثـرًا. إنه لا يسمي أحدًا؛ لأن رسائله يجري احتجازها، بل إن رزانتها مؤثرة أكثر: «السوف يستحيل علي، ما دمت محبوبًا إلى هذا الحد في فرنسا، البحث عن ملاذ آخر: الوطن حيث لك صديق».

يا لها من حكمة رائعة، ويا للموهبة في صوغها! الوطن حيث لك صديق. فالحب لم يقع على أجملٍ منها، وأصدق منها. ولدى قراءتها، ذرفت العينان الخضراوان بلون البحر سيلًا من دموع الحنان.

لكنه عثر على ملاذ. إنه ملاذ يحقق التصالح مع الجميع، ففيه الأمان، وفيه الحب، وحتى الوطن. أجل، حتى يكاد يكون فرنسا. إنها سيري، في اللورين، من ممتلكات المركيز دو شاتليه نفسه. إنه قصر سيري. هو ملاذ مكتمل، ما دام الزوج الكامل يبارك للعاشقين خيارهما.

قلاقل قبل التقاعد

لكن لا يزال العاشقان غير قادرين على الالتقاء. ينبغي لإميلي أن تنشط في باريس، ليس لاستصدار العفو، فالوقت لا يزال مبكرًا، لكن لإيقاف الملاحقات. ينبغي جعل القضية تُخلِد إلى النوم. إن العزيزة إميلي تنهمك على قدْر ما تستطيع، وإنها لتستطيع الكثير. وهي شبيهة بفولتير، فطاقتها لا تقبل التقييد. لكنها تتمتع، زيادة عليه، بصحة كالحديد. وهي تجابه من الأشياء مئة، دفعة واحدة؛ نقول «الأشياء» لأن في قائمة اهتماماتها ما هب ودب؛ من المغرق في الخفة إلى الأمور الجادة الخالصة. وهي في أي حال مُجدة ورصينة في كل ما تقوم به. ولديها الآن إلى جانب المساعي، اهتمامها بالرياضيات. إنها تعكف عليها بهوى جنوني. أما معلمها فهو الأستاذ الشهير موبرتوي. ولسنا ندري هل علينا الإعجاب بمواظبة كلٍ من التلميذة والأستاذ وبحميته، أم نرتاب فيهما. إن إميلي هي الأشد هوسًا. فلا يسعها أن تمضي يومًا واحدًا من غير هندسة، بل بدقـة أكبر، من غير أستاذها في علم الهندسة. إن يؤجل الدرس، تهرع إلى بيته، وحتى إلى مقهى غرادو الذي

يرتاده، حيث تلتمسه ثانية. وتقوم كذلك بالزيارة تلو الزيارة لصديقاتها العزيزات مثل دوقة ريشوليو ودوقة سان بيار، وتلتقي الوزراء، وتكتب، وترتدي ملابسها وتعيد ارتداءها، وتتبهرج مثل ملكة في الأوبرا، وترعى طوال فترات مديدة من بعد الظهر، دوقة ريشوليو المريضة، وتقوم بحل ست مسائل صعبة ثم تتغندر بمواظبة.

أما فولتير، الوحيد في سيري، فهو مثلها في حركة دائبة: لديه جيش من العمال، وكتيبة من الدهانين، ونجارون، وبناؤون. كان القصر الريفي خربًا، فلم يصمم فولتير على جعله قابلًا للسكن فحسب، وبنفقته، بل على جعله مريحًا وأنيقًا. والعمل جزئي؛ فالشقة التي ستقطنها إميلي وشقته هو وحجرات الأبهة، ستكون مجموعة باذخة. أما الباقي فيبقى. سوف يتشكى المدعوون، سوف يتجمدون هناك من البرد، ويثقل على صدورهم الدخان، وتخترق غرفهم، لسوء إغلاقها، تيارات الرياح كافة من الراين إلى شمبانيا. ولقد أجرى تعارفًا مع الجارتين الأكثر قربًا: السيدة دو نوفيل، والسيدة دو شامبونان. وهذه الأخيرة تعرف إميلي منذ طفولتهما الأولى، وكانتا في الدير نفسه. إنهما من سيدات الريف الطيبات جدًا.

عبثًا هو يسعى في تلك الأعمال كلها، ويحلم مغتبطًا بأنه وقع أخيرًا على المأوى الذي جد في السير وراءه دائمًا، من غير أن يقوى على بلوغه، أو من غير أن يرغب في ذلك. فهو يعتقد أن وجوده في باريس أمر لا يمكن الاستغناء عنه، ويضع مشروعًا للتوجه إليها خفية... وكتب إلى إميلي يقول: «سوف نلبد في ضاحية، نتناول فيها العشاء معك، ونكون مخفيين مثل كنز، ونولي الأدبار لدى أصغر نأمة. فلدينا أعمالنا في نهاية الأمر، وعلينا أن ننظمها وألا نعرض أنفسنا لأن نرى ثروتنا الصغيرة تتلاشى على نحو مباغت».

«ثروة صغيرة!» يا له من تواضع! إنها جديرة بالتعرض للمخاطر من أجلها؛ فتلك «الثروة الصغيرة» لم يتسع لاحتوائها غير صندوق كبير.

مع ذلك فالسفر لم يتم؛ ذلك أن إميلي هي التي قدمت إلى سيري في تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1734. لكن يبدو أن فولتير لم يكن هناك. فأين هو؟ لقد وصلت بعد وقت قصير رسالة من هولندا. فهنالك ما يحمل على الاعتقاد بوقوع خصام بين العاشقين، وبأن الولوع بالهندسة وبأستاذ الهندسة كان له بعض الدور.

كانت إميلي نارًا متوقـدة، وينبغي لها أن تلتهب متأججة، بوجود فولتير أو بعدم وجوده. ولو كان الشاعر في متناول يدها، لما فضلت عليه من أحد سواه. أما وأن الهندسة هي خبزها اليومي، فإن أستاذ الهندسة أضحى كذلك. ولم يقوَ فولتير على تحمل تلك الحماقة، في أوار البدايات. لكن آل به الأمر إلى التعود على ذلك، وعلى غير ذلك أيضًا...

تميزت العودة من هولندا بمصالحة متألقة. فهو سعيد جدًا بالغفران، حتى إنه يجد من حين وصوله كل شيء رائعًا، بما في ذلك التغييرات الانقلابية الجنونية التي أدخلتها إميلي على مخططات الصيانة، فما عاد يعرف شيئًا من شيء. لكن ما همه، فالربة هنالك. لكن ليس لوقت طويل؛ فما إن بردت فورات الأيام الأولى، حتى أعادها فولتير سريعًا إلى باريس. لكنها ما عادت خالية الوفاض؛ إذ ستضع بين أيدي الممثلين تراجيديته الأخيرة التي فرغ منها لتوه: ألزير (*Alzire*). ولسوف يقرأها دارجنتال، فيدخل عليها التعديلات التي يراها ضرورية.

فيما ذهبت إميلي لتتجول في أنحاء باريس، استدعى فولتير، وقد أضحى غارقًا في الأعمال، رئيس ورشة ليتولى إدارة شؤون العمال. ولسوف نعلم بعد مدة قصيرة، أن نشيد *La Pucelle* (العذراء) الثامن قد ولد بين بقايا الجص وقطع البناء، ووسط وقع المطارق وصرير المناشير. فمتى نجح في كتابته وكيف؟ وألزير؟ لقد كتب في عام 1734، ذلك العام الشديد الاضطراب، تراجيديا واحدة، وثمانية أناشيد من قصيدة ملحمية، وأعاد ترميم قصر ريفي و... و... و...

استمتع كثيرًا بكتابة تلك القصيدة عن جان دارك؛ إذ راودته فكرة تلك الملحمة، وهي نوع من محاكاة ساخرة، في أثناء عشاء عند ريشوليو. كانوا يسخرون من عذراء شابلان الغبية، والمنفرة عن غير قصد. فقال ريشوليو لفولتير إن عليه أن يتناول ذلك الموضوع الجميل الذي يسعه أن يعالجه ضمن الشكل الهزلي الساخر، لكن بوعي كبير. ورفض فولتير... لكن الفكرة انتشرت، حتى إن الأناشيد الثمانية الأولى كُتِبت!

كان يكتب عابثًا، أي يكتب وهو ملحد حقًا، ومن دون إجلال. إن ريشته الشيطانية أفلِتت من عقالها. وما همَّ، ما دامت القصيدة ستبقى سرية. ولنتفق: إنه هو مَن سوف يقرأها، وسيقرأها بعض الأصدقاء أيضًا، أو سوف تُقرأ عليهم. فما الخطر؟ فالقصيدة لن تُطبع أبدًا، بل لن يرى أحد مخطوطها. إنه سر! ومحفوظ

وراء ثلاثة أقفال. إذًا، ليس ثمة ما يدعونا إلى الشعور بالضيق، ولكن أكثر شراسة وأكثر هزلًا من أي وقت مضى. ويشتَم المرء رائحة شر وفساد في ذلك التهكم الذي يرمي إلى أن يكون سريًا، في حين أنه يتحرق شوقًا كي لا يكون كذلك. حتى لنكاد نسمعه يقول: «إيه، لو تعلمون ما أكتب لتولتكم دهشة كبرى، لكن لن تروا، لا أنتم ولا من خلاكم، أي شيء أبدًا، وأنتم لا تدرون ما ضاع عليكم... إيه؟».

ذلك كله، في حين لا يزال خاضعًا لمذكرة توقيف، وعرضة للتهديد رسميًا بالنفي الدائم. إنه غير قابل للإصلاح.

يشاء حسن طالعه أن يكون له أصدقاء. لقد بذل دارجنتال، أكثر من أي شخص آخر، جهدًا متواصلًا للحصول على تعليق الأمر بالتوقيف. ويشير عليه مفوض الشرطة هيرو الذي سوف نلتقي به كثيرًا، وتتخذ مشورته تعابير لبقة، بل عطوفة، فينصحه بأن يغلق أفواه أعدائه عبر سلوك رجل عاقل بلغ سنًا لا بأس فيها. إنها نصيحة طيبة بالتأكيد. إن السيد هيرو لا يريد سوءًا بفولتير الذي لن يصير عاقلًا أبدًا، أما «السن التي لا بأس فيها» فلن تضيف شيئًا على المسألة. بلغ فولتير عامه الأربعين في عام 1734، وهو يدهش «الناس العقلاء» بتصرفاته الحمقاء، ولسوف يظل يدهشهم حتى نهاية القرن. لا ريب في أن تلك الحماقات ستزداد جنونًا، وذات طابع من المكر بجسامة متزايدة، ولسوف تلامس موضوعات خطرة جدًا، لكنها ستحافظ على الاستهتار نفسه وعلى الاستخفاف أيضًا، وهو الاستخفاف الذي يسمح بالتحليق فوق الذرى.

حين قرأ فولتير رسالة السيد هيرو الرصينة، قهقه ضاحكًا وهو يلوح بأوراق مقاطع من العذراء. إيه! لو أن مفوض الشرطة فقط كان يعرف ما كان فولتير يكتب في تلك الساعة!

بعد ثلاثة أسابيع، أي في 30 آذار/ مارس 1735، دخل فولتير مرة رابعة إلى باريس. وكان حرصه الأول أن يكتب بطاقة إلى السيد هيرو. وكان يود حقًا أن يقوم بزيارته ليعبر له عن عرفانه... لكن صحته الهشة أبقت عليه في سريره شبه ميت... إلا أنه منصرف بأفكاره كلها إلى السيد هيرو. فهل اغرورقت عينا مفوض الشرطة بالدموع؟ ليس لمدة طويلة، فقد نمى إلى علمه أن فولتير كان في أنحاء باريس كافةً، إلا عنده هو.

إنه يريد أن يعرف كل شيء، وأن يرى كل شيء. فما حقيقة ما جرى في باريس منذ عام؟ إنها ثورة! أي دُرجةٌ جديدة. ما عاد الناس يتكلمون على الشعر في الصالونات. وتبدو الأبيات موضع استخفاف. فالكلام بات يتناول الفيزياء والهندسة. إن فولتير لمذهول. فالشعر ليس بدُرجة! إن نعميات النَّظم لا تقبل الاستبدال. وهنالك ما يَخِزُه! أليس موبرتوي هو الذي سيغدو عبقريًا؟ ألا يتنطع بمثلثاته ودوائره وطريقته في التحدث بإطناب فوق كتب من الطلاسم لأن يبهر الدوقات، وأن يسيطر على عشيقته إميلي؟ وإننا لنرى دوقة ريشوليو تحقق من النجاح ما مكنها من إرباك أحد اليسوعيين الذي كان يهاجمها في شأن جاذبية نيوتن. هكذا هم تلاميذ موبرتوي! لا ريب في أن فولتير أبعد ما يكون عن معرفة الرياضيات، إنها الطريق القويمة لفهم نيوتن. وليس مغتاظًا من إميلي التي تقدمت بخُطى واسعة جدًا في ميدان العلوم الحقيقية، فهو يعلن عن نفسه من تلاميذ نيوتن وموبرتوي... لكن ذلك ليس مبررًا لطرد ربات الفنون، وتثبيط همة المعجبين به والمعجبات، وخصوصًا تضليل معبودته إميلي.

أما بشأن سر العذراء، فجرى خرقه. ويدور الكلام عليه في باريس بوصفه أشد القصائد التي نظمت انتهاكًا للمقدسات فيا لها من دعاية! وعاد أصدقاؤه من جديد يرتعدون خوفًا ويستحلفونه إخفاء قصيدته. بعد ذلك بشهر عاد إلى اللورين. ومضى إلى لقاء دوق اللورين، في لونيفيل. لم يقابله، لكنه زار مخبر الفيزياء، وأمضى فيه أيامًا. وها هو ذا يؤمن بالعلم الجديد الدارج.

رجع إلى سيري. كانت إميلي هنالك مع ابنها البكر وأحد المربين. واكتملت الجوقة بوجود السيدتين دو شامبونان ودو نوفيل. وأحضر فولتير لينان التافه. إنه طفيلي أحمق. كان، وهو في باريس، ينام في السابعة مساء ويستيقظ ظهرًا. وما كان ليكتب شيئًا. وقرر، وهو في سيري، أن يتخلى عن ثوب الرهبنة، فتركه فولتير وشأنه. صار كثير المتطلبات ووقحًا؛ إنه يتشكى من نوعية الطعام ومن المأوى، ويتظلم لأنه ضحى بما كان عليه (؟) ليتبع فولتير. فوبخه فولتير وأفهمه أن شكاواه تنقلب ضده وتسيء الظن فيه. ومع ذلك ظل يتحمله، وهذا ما يعرفه المتطفلون على فولتير كافة. حين يرتبط فولتير بصداقة مع أحدهم فإنه لا يفصم عراها أبدًا. ولكم كان طويل الأناة مع لينان هذا، بجسمه السمين ووجهه المستدير الأصهب الأنمش! لم يكن يتمتع بأي موهبة؛ فقراءته سيئة، ونظره ضعيف، ومعرفته باللاتينية

محدودة، وبالفرنسية أكثر بقليل. وقدّمه فولتير مربيًا للفتى شاتليه. كان المركيز دو شاتليه راغبًا في إحضار كاهن، لكن فولتير لم يشأ. وكان النصر حليفه. فقد هتف قائلًا: «لا كاهن على الإطلاق في بيت إميلي!».

وجاء الغرور العدواني ليزيد الطين بلـة في عيوب هذا الغلام. فذلك التافه – وهذه هي الكلمة التي يصفه بها فولتير بحق – أراد أن تكون له عشيقة في القصر؛ فدَس بكل وقاحة قائمته [يده] الرخوة والراشحة في صدر السيدة دو نوفيل التي استنكرت المبادرة الفاضحة أشد الاستنكار. ولم تهدأ سورة غضب السيدة الطيبة بأقل من قصيدة عاطفية صغيرة نظمها فولتير من أجلها.

مع ذلك لم يطرد فولتير لينان.

ديفونتين البشع

اختار ديفونتين فترة الإقامة الأولى لفولتير في سيري ليكون سمجًا ومزعجًا حيال ذاك الذي أنقذه من قبل. أعطى فولتير تراجيديا غير منشورة لتلاميذ مدرسة هاركور الذين أبدوا رغبتهم في تقديم واحدة من مسرحياته. وكانت تلك المسرحية قد طُبعت على غفلة منه، فظهرت محشوة بالأغلاط ومشوهة على يد الذين طبعوها. أما ديفونتين، فلم يمتنع فقط عن إحاطة الجمهور علمًا بالأمر، بل كتب أيضًا نقدًا شرسًا للمسرحية، متظاهرًا بالاقتناع بأن النص أصيل، وزاد الطين بلة بنشره الرسالة التي تحمل إليه التماسًا من فولتير. لم يكن سوء نية الناقد أسوأ ما في تلك القضية؛ ففي ذلك الحين كان فولتير لا يزال هاربًا، فكان ديفونتين، بنشر رسالته، يدل الجميع، ويدل الشرطة، على مخبئه. كانوا يظنون أنه في بروكسل: لكنه في سيري، ورسالته دليل إثبات.

كانت طعنة غادرة، لقد امتلأ صدر فولتير بسببها بحقد رهيب، وسيغدو من الآن فصاعدًا عديم الرحمة، فقد كتب إلى أصدقائه كافة عن كرهه لديفونتين. أما هذا الأخير، وقد أضحى محاصرًا، فأقر بالذنب جهارًا، ونشر من بعد النقد العنيف إطراءً للمسرحية التي لا تستحق ما أثارت من ضجة. لكن غضب فولتير، وهو في منفاه، كان يتجمع ويتركز، إذ شعر بأنه لمّا يشفِ غليله؛ فهو لم يرد على الهجوم. وتشاء المصادفة أن تصل اعتذارات ديفونتين متأخرة جدًا إلى سيري:

فردٌ المتوحد الساخط انطلق توًا. إنها مقالة ظهرت في لومركور (Le mercure). وحين تلقى ديفونتين الطعنة، ظن أنها طريقة غادرة اختارها فولتير ردًا على مقالته الجميلة. فثارت ثائرته بدوره، واستل ريشته ليُعمل في شاعر سيري تجريحًا؛ فأخذ عليه كتابة تراجيديات لا تتوافق مع القواعد، ولا مع الأخلاق الحميدة. إنها مصيبة المصائب! ولا سيما حين يصدر ذلك عن رجل أوشك أن يقضي فوق المحرقة بسبب سوء سلوكه. وقد أطلق على تلك الشحنة الحارقة اسم: «أهجية الطلاق».

أُعلِنت الحرب بين ذلك الكاهن الغادر وفولتير المهتاج حتى أقصى درجات السخط، ولا سيما حين عرف أن ديفونتين كان قد بدأ، وهو لا يزال في السجن، بكتابة أهجية ضد المحسن إليه. ويقوم ديفونتين من بعد، بتزييف طبعة من قصيدة La Ligue (الرابطة) مستخدمًا نسخة مسروقة. والأرجح أن تييريو سرقها، وقد أضحت مخالطاته المريبة لديفونتين مقلقة جدًا. لكن تلك لم تكن خيانة تييريو الأولى. أما أن يكون كلٌ من تييريو وديفونتين متينًا خيانة، فأمر مسلم به، لكن أن يذهب فولتير ليتلطخ معهم في حمأة النمائم والوشايات، وتلك الدناءات التي تصدر عن كاتب رديء جائع، أو عن نصاب مبتز، فأمر أسوأ؛ لأن تلك المنازلة مع كائنات تعيش في الوحل قد لطخته بالوحل. ويسعنا التسليم بأن عقوق الكاهن الشنيع وخيانة تييريو الرخيصة أفقدا صواب شاعر غضوب نزق وعصبي حتى الهستيريا، لكن...

لكن فولتير ليس معذورًا بشكل مطلق. لقد أفرط في جعل ديفونتين يشعر بأنه مدين له بكل شيء - بل ربما بحياته - وأنه يتوقع منه مدائح في المقابل، بل مدائح بلا تحفظ وحتى خالية من الاحتشام. وكان العصر يقبل ذلك التزلف، فليكن. أما ديفونتين الذي لا يقل حدة عن فولتير، فلم يقبل بأن يُطالَب بتلك اللهجة اللاذعة من التعالي والوقاحة التي كان فولتير يجيد إشهارها عند الضرورة أيما إجادة. وليس ما يدعونا إلى التعامي، ذلك أن غرور فولتير الجنوني بوصفه من رجالات الأدب، يجعله في الأغلب متهورًا بحسابه هو، وغالبًا أيضًا غير محتمل من الكتاب الآخرين. ويصل الأمر بالرجل الأكثر ذكاء في العالم حد أن يسلك سلوك شخص طائش. أما أن تصير مثل تريسوتان[37] فهو أمر محزن، حين

(37) شخصية من مسرحية النساء العالمات لموليير، تجسد أنموذج رجل الفكر المتحذلق والمغرور. (المترجم)

يكون اسمك فولتير! هذا والسيناريو معروف. فما إن يخف الإطراء، حتى يتغضن وجهه، وتتراءى العاصفة ملء نظرته. إن يكن هنالك تحفظ، تجده يتأوه من الظلم والغباء. أما إن كان النقد مفتوحًا، فتتولاه نوبة من الاهتياج المسعور: يضرب الأرض بقدميه، ويثب في الغرفة، فيضرب قطع الجمر بالملقط، ويتحول إلى قطع الأثاث فالحيطان، وهو يلوح بالأوراق التي حملت الشتائم. بعدئذٍ، تنسكب موجة الغضب والعلقم فوق مئات الرسائل الملأى باتهامات الغدر. ويُشيع في كل مكان أنه كان ينبغي إحراق ديفونتين، لميوله المنحرفة نحو منظفي المداخن الصغار، والتي هي أكثر رسوخًا من ميوله الأدبية، ولو أنه أُحرق ذلك الناقد الرديء لوفر على الناس إلى الأبد مؤونة إحراق مقالاته الرديئة.

خلاصة القول أن نتساءل: أين هو الأدب في ذلك كله؟ أليس وقتًا ضائعًا في تلك الحياة التي هي جِدٌ كلها؟ ليس ذلك تمامًا، لأن فولتير يعيش في الحقد بكل نشاط. ويتولاه في أثناء تلك الفورانات العدوانية شعور بالقوة، وحيوية مضاعفة، فذلك تحديدًا ما يحب. إن كل نوبة تجعله ينتشي: فهنا يكمن سر حبه للتراجيديا، وحبه لراسين. أما خارج المسرح، فيقدم لنفسه في الحياة الانفعالات نفسها، بقيامه بتمزيق ديفونتين وإحراقه إحراقًا رمزيًا، حين يقوم بتمزيق مقالاته ورميها في النار. وقد يظن المرء أنه إنما يقتل نفسه غلًا وغضبًا. لكن لا، على الإطلاق. إن ذلك الغضب العارم، هو في الأغلب، علاج صحي ممتاز لوضع معقد وعصي مثل وضعه. وفيما كان يتهدد ديفونتين بالويل والثبور وعظائم الأمور، ما عاد يشكو الإسهال، وتوارت آثار الحمى. فالكلمات العنيفة والاغتيابات تتوارد لديه ارتجالًا. يعذبه أعداؤه، لكنهم لا يقضون عليه، بل هم بخلاف ذلك، يحرضونه أكثر. وهو على الدوام منحرف المزاج ومتراخ، فيُخشى عليه أن يتدلل فيستسلم للرقاد، ما لم يقم ديفونتين وأمثاله بكيه بالحديد الأحمر. أن يستسلم للرقاد! إنها لأفظع مصيبة يمكن أن تحيق به. إن مَن ينظر من كثب إلى سلوكه وإلى سلوك أعدائه، يستطيع أن يقسم (إن كان يجرؤ على القسم) أنه هو الذي يثير أولئك النباحين، وأن ضربات العصي التي تلقاها - وليسامحنا الله على هذه الشطحة - إنما هي جزء لا يتجزأ من العناية الإلهية الفولتيرية. وإنه ليرهقنا أن نرى أن مساعيه كافة تمضي باتجاه استقبال الضربات، حتى لَنتساءل، في نهاية المطاف، إن كان الفارس دو روهان جدير بأن يُمنَح وسامًا. إنْ هو إلا السخط الذي يدفع بنا في النهاية إلى مثل هذا التطرف المدين أو المرفوض، وإننا لنعترف بذلك.

لكن ذلك لم يحل دون أن تنقلب الشتائم في غير مصلحة فولتير. فدعاه مفوض الشرطة إلى القيام بتسوية علنية، مثلما كان يطالب الكاهن وأصدقاؤه؛ أي عصابة حُساد فولتير. فقام، والغم يملأ قلبه، بكتابة مقالة صغيرة رديئة، تكلف فيها اللطف، إذ قال: «ما تشكيت من النقد، بل من الصديق (يا لها من صداقة! ويا لطيبة قلبه!)، ذلك أن أعمالي جديرة بالكثير من الرقابة (يا للتواضع! ولَكَم هو عفوي!)» ...إلخ. وتظاهر الكاهن بأنه رضي بتلك الأوهام، إذ من مصلحته ألا تكون القطيعة نهائية، إنه لا يزال في حاجة إلى فولتير؛ إنه في حاجة إلى مقالات يكتبها فولتير لتُنشر في جريدته لو مركور. والحال أن الكاهن السفيه تجاسر من ناحيته، فطلب الإذن بنشر قصيدة كان فولتير قد نظمها عن ضيوف سيري. ورفض فولتير بدافع من اعتباره لآل شاتليه الذين رغبوا في الإبقاء على تلك القصيدة ضمن خصوصيتهم العائلية. ومع ذلك طبع ديفونتين القصيدة! إذًا كان لديه المخطوط! فممن حصل عليه؟ أم أن أحدًا سرقه منه؟ وهل عمل على توزيعه من طريق تييريو؟ إن السخط ليبلغ به أحيانًا، مبلغ الشك في...

نظر المركيز دو شاتليه إلى القضية باستياء شديد. إنه ساخط لأن الألسنة الطويلة كافة في باريس ستبدأ تلوك على هواها عذوبة العيش في سيري على شكل أسرة ثلاثية. فرفع السيد دو شاتليه دعوى على ديفونتين عند رئيس المحكمة العليا. وصدر في الوقت نفسه حكم على ديفونتين في قضية أخرى. فماذا فعل فولتير؟ أخذته الرأفة بديفونتين: فقاز بوعد من السيد دو شاتليه بسحب الدعوى. وكتب فولتير في ذلك الشأن يقول: «ما حَل بالكاهن؟ وفي أي مقصورة أودعوا ذلك الكلب الذي يعض أصحابه؟ لسوف أعطيه مجددًا قطعة من الخبز، مهما يكن مسعورًا». ليس ذلك من العطف، بل بدافع إنساني؛ بل إنه أيضًا من المحبة المسيحية. ومن المفهوم ألا يقابله ديفونتين بأي عرفان.

فكم يسبب ذلك. لكن لا، فليس فولتير في وضع موثوق.

عدو يغفو، وآخرون يستيقظون

بدأ كل شيء باحتيال أدبي صغير، كان أمرًا شديد الشيوع في القرن الثامن عشر. حصل لو فران على موضوع تراجيديا، هي ألزير (*Alzire*)، كان فولتير قد كتبها، وأرسلها خفية إلى تييريو في باريس. فكتب لو فران، باستعجال كبير،

تقليدًا لها باسم زورايد (*Zoraïde*)، وأعطاها للممثلين في المسرح الفرنسي. وعلم فولتير أن زورايد السيد لو فران دو بومبينيان سوف تُعرض قبل ألزير فولتير. فشرع بالصراخ قائلًا إنهم يذبحونه وإنهم يقطعون أوصاله على الدولاب... ولسوف يموت بكلِ تاكيد إن عُرضت زورايد على خشبة المسرح أولًا، لأن ألزير سوف تبدو انتحالًا لزورايد، في حين أن...

إن لو فران هذا لَيَكْتُبُ مسرحيات على درجة من الرداءة، تجعل أكثر المسرحيات الباهتة من أعمال فولتير تفيضُ حياة وتشويقًا مقارنة بها، لكن صلَفَه كان بلا حدود. وقد كتب تراجيديا، اسمها ديدون (*Didon*)، عادت عليه برسالة من الأمير فريدريك، وريث عرش النمسا، فقرأها في جميع أرجاء باريس، بيتًا بيتًا. فلم يحرص، وهو في ذروة عزه، على إبداء أي مداراة لمجد فولتير الذي هو ناجز ومكتمل في نظره، زد على ذلك أنه لا يشكل أي خطر. فيا له من رجل مسكين! فولتير لا يشكل أي خطر! من المسلَّم به أن تييريو كان المؤتمن على أسرار لو فران، فقد كانا يلتقيان إلى مائدة بوبيلينيير، الجابي العام للضرائب الشهير، وفيما كانا يتنعمان بالطعام إلى تلك المائدة، وهي أفخر مائدة في باريس، كانا يتبادلان تراشقًا بالسهام ضد المنفي في سيري.

كان لو فران يتبختر مزهوًا مثل ديك رومي حيال الممثلين. ينفش ريشه أمامهم، فيضحكون هازئين. ويعاملهم بتعالٍ، فيزّقون. وتغطرس فوجّه نقدًا جديدًا وتعطلت به الأمور مع زورايد. ما عاد الممثلون راغبين فيها. احتلت ألزير إذًا مكانها. وكان نجاحًا باهرًا: عشرون عرضًا متواليًا. وعادت على فولتير بمبلغ من المال لا بأس فيه. أما وهو السيد العظيم، فقد تخلى عنه للممثلين.

رغب الشاعر غريسيه – وقد سبق له أن نظم قصيدة بعنوان «أخضر – أخضر» أطرى فيها ببغاء – أن ينظم قصيدة بمناسبة ألزير يمدح فيها فولتير، وكان نجاحه في هذه كنجاحه في تلك. وخرج لينان السمين من خدَره المستاء ليكتب بعض المدائح، وتقدم ديفونتين نفسه لينطق بلسان يقطر حلاوة وعذوبة. «لا يمكن أن تراودني أبدًا فكرة أن أُغشي على مجد كاتب يساهم ضمن لونه الأدبي في ازدهار ملكه!».

جرى ذلك كله من أجل ألزير، تلك المسرحية التي نسيها اليوم الجميع، لكن باستثناء ربما روح ابن راسين التي لم تهدأ، إذ كان يمضي في كل مكان قائلًا إن

فولتير سرق منه بيتًا من الشعر، فوضعه في تراجيديته. وذات يوم كان فولتير يقرأ في أحد الصالونات، وكان لوي راسين يتذمر من دون توقف، قائلًا: «ذلك البيت لي! ذلك البيت لي!»، فقام الأب فوازنون الذي أضنته تلك اللازمة من النواح، واقترب من فولتير قائلًا: «رُد له بيته، ولينصرف من هنا».

ليس من عرف ذلك البيت مطلقًا، والحق أن الناس يجهلون كذلك من هو الزير.

ناشرُ روان يجعل الناسَ يتحدثون عنه

كان جور ذا طبع سيئ وقد ارتكب فولتير خطيئة كبرى. لم يكن متعودًا على ذلك النوع من السذاجة، لكنه في سعي منه لإنهاء علاقته بالناشر، واعتقادًا منه بأنه سيهدئه، كتب له التفصيلات كافة المتعلقة بالصفقات المعقدة التي انخرطا فيها معًا بشأن موضوع الرسائل الإنكليزية. فكان يأمل، على أثر ذلك البرهان على حسن نيته، أن يجتذب الآخر نحو الاتفاق وتسوية خلافهما بالتراضي. لكن جور، وبحوزته اعترافات فولتير، قام برفع دعوى عليه أمام المحكمة. فصدر الحكم بحقه، مع التهديد بالحجز ما لم يبادر إلى تسديد ما يطالبه به جور. فعاد فولتير إلى باريس، وشعر بأن الرأي العام يقف ضده. وعلى الرغم من التدخل الحميد من مفوض الشرطة هيرو، فقد نشر أعداء فولتير قصيدة هجاء ضده، تناولوا فيها بخله وتراجعه عن مواقفه، وتشنج سحنته. لقد رسموا له صورة كاريكاتورية شائنة. أما المصيبة فهي أن الريشة التي خطت الصورة ريشة ماهرة. لكن على الرغم من مئة تفصيل صحيح، ظلت الصورة الدنيئة خاطئة؛ إذ قامت النميمة على وقائع صغيرة وصحيحة - الأماكن، والتواريخ، والطرائف - لا يمكن دحضها. لم تكن تلك الرائعة الغادرة تحمل توقيع ديفونتين، لكنها تخصه. فقد قام الكاهن بتقديم الشر والأذية، بينما تولى جور أمر المواد والتمويل. وجاءت أيضًا مسألة غامضة لتساهم في تعقيد سابقتها؛ إذ سُرِقَت من فولتير (مرة أخرى أيضًا) نسخة من الرسائل الإنكليزية كان قد أدخل عليها بعض التعديل، وكانت، بدلًا من أن تخفف من حدة النص، تزيده التهابًا. وما إن وقعت النسخة بين يدي جور، حتى طبعها فوزعها، وسلمها إلى الوزير دو موربا الذي كان يكره فولتير. لقد أصيب الوزير والشرطة بالإرهاق من حكايات فولتير، فليس ما ينشغلون به في مكاتبهم سوى فولتير.

شعر بأنه ينبغي أن ينتهي من القضية، فعرض مالًا على جور، فقام هذا الأخير، وقد أحس بقوته، فهاجم فولتير. وها هو ذا الشاعر يمضي مجددًا وراء المساعي والوساطة وحشد الأصدقاء. وحصل مجددًا على مساعدة هيرو. فرُدت دعوى جور. ولم ينل شيئًا، لكنْ حُكِم على فولتير بدفع غرامة للفقراء بقيمة خمسمئة ليرة، إذ صدر الحكم بأنه مذنب. وأذعن للحكم، لكنه جُرح في الصميم. ولم يصرخ، بل أخذ يئن. إن ذلك لمن أسوأ الأدوار التي يقوم بأدائها؛ إنه يبكي بؤسًا. لقد أصبح في الحضيض، وأضحى الفقراء من بعد أغنى منه؛ فقد جردته تلك الصدقة من كل ما يملك. أما في باريس، فتعم الأرجاءَ الضحكاتُ المجلجلة وأشكالٌ من السخرية والهزء، بسبب تلك الكوميديا الرديئة. وتمكن جور، من دون كبير عناء، من إثبات أن فولتير ذو دخل يبلغ ثلاثين ألف ليرة (ما كان ذلك المكار على علم بكل شيء). عندئذٍ قرر فولتير أن يتحمل البلاء، ويستسلم. فشكر الوزير نفسه الذي لم يفعل شيئًا لأجله، بل فعل عكس ذلك. واستيقظ ضميره، فأعرب عن ندم بسيط - ندم بسيط جدًا - لقد أسف (متأخرًا بعض الشيء) لأنه مدين بالنهاية السعيدة لتلك القضية، لـ «ارتجاليةِ السلطة» وليس للعدالة. ويبقى السؤال، لِمَ لمْ يكف عن مناشدة تلك «السلطة الارتجالية» ودس الدسائس لحرف مجرى العدالة لمصلحته؟ ولمْ يثبط ذلك من عزيمته ليواصل في المستقبل التماس الامتياز، وهو في هذا كما الجميع في أي حال، فهُم كانوا يفضلون في بعض الحالات لو أنه أخرس، لكن نادرًا؛ ذلك أنه يجيد الكلام!

يقول لنا الأب دوليفه، وهو أستاذه سابقًا، إن فولتير كان يتحرق شوقًا لدخول الأكاديمية، لكن قضيته مع جور عادت عليه بأكبر الضرر. فالكهنوت يقف ضده، لكن الدوق دو ريشوليو ودو فيلار يساندانه. وارتأى الأب دوليفه، الفطين جدًا، أن فولتير إذا ما غاب عن الأعين بعض الوقت، فإن صيته سيتحسن، وسوف يتمكن أصدقاؤه بكل هدوء من فتح أبواب الأكاديمية أمامه، لكن في وقت متأخر... بل متأخر جدًا... وكان فولتير يعلم حق العلم أن ذلك الأمل ضرب من الجنون، لذا بادر إلى استباق الفشل: «لقد تحدثوا إلي اليوم بشأن شغل مقعد في الأكاديمية (من؟ وهل طلب أحد إليه أن يتقدم بترشيحه؟) أما والأحوال التي أنا فيها فلا صحتي، ولا حريتي التي أفضلها على كل شيء، تسمحان لي بالتفكير في ذلك».

أما في واقع الأمر، فلم يكن يفكر إلا في ذلك المنصب، لكن الأكاديمية هي التي لم تفكر في ذلك من أجله، هذا ما لم تكن تفكر في الرفض في ذلك الوقت. وعاوده التفكير مجددًا، وهو بعيد في سيري، لكنه لم يحدّث أحدًا بالأمر، وحسنًا فعل.

مناوشات

كان من شأن رتابة الأيام العذبة في سيري أن تهدهده، لو لا أن نزاعه مع جان ب. روسو عاد إلى الظهور مجددًا. نشر صاحب مكتبة من أمستردام، على غير علم من فولتير، قصيدة غنائية إلى أوراني والنميمة. فما كان السيد دو شاتليه راغبًا في طباعتهما. وكان محقًا في ذلك. لكن جشع الناشرين الهولنديين كان بلا حدود في القرن الثامن عشر. وردّ المنفي في بروكسل بأهجية تقطر سُمًّا ضد فولتير، فقام هذا بالرد بأهجية أخرى استعاد فيها التذكير بوالد روسو الذي كان إسكافيًا عند السيد أرويه، وذكّر بخادم فولتير الذي هو ابن عم روسو الشاعر، والذي يطلب العفو يوميًا من سيده، والمعذرة عن الأشعار الرديئة التي ينظمها ابن عمه. ويذكّر بالعصي من السيد دو لا فاي (كيف يجرؤ فولتير على التذكير بضربات عصي تلقاها آخرون؟)، وذكّر باختصار بكل ما من شأنه أن يجرح ذاك الشقي روسو في الصميم. أما وأنه ابن إسكافي وأن شفيع أهل الحرفة هو القديس كريسبان، فقد أضاف فولتير زخرفة نقع فيها على هذه الملاطفات:

«وجد الشيطان نفسه، ذات يوم، عاطلًا من العمل
فقال: بودي أن أشكـل ما يمتـعني
أن أصنع حيوانًا ما، تكون روحه ويكون وجهه
معاكسين لاتجاه الطبيعة
إلى حد يجعل الناظر، حتى لو كان غبيًا جدًا،
يتعرف فيه صورتي المنسوخة تمامًا...».

كان يتحدث عن روسو، والحيوان «المعاكس لاتجاه الطبيعة» هو روسو. وفي سبيل أن يفرج عن نفسه، كتب فولتير مسرحية كوميدية هي *L'Enfant prodigue*

(الولد الضال)[38]. أما وقد خامرته الشكوك بشأن قيمتها، فقد أشاع أنها من تأليف غريسيه. وقد نظر هذا إلى المسألة بسوء، على الرغم من أن الكوميديا لاقت بعض النجاح، حتى من ديفونتين! لكن ضغينة فولتير لم تلقِ السلاح، فهو لم ينسَ القصيدة التي طُبِعت على الرغم من ممانعة السيد دو شاتليه، وقد انتقم بعد مرور شهور عدة بنظم غنائية عن الجحود تستهدف ديفونتين باسمه:

«إنه ديفونتين، إنه ذلك الكاهن،
الآتي من سدوم[39] إلى بيساتر
ومن بيسيتر إلى الوادي المقدس».

سوف يشن ديفونتين هجماته، من الآن فصاعدًا، دونما هوادة. وكان من شأنه أن يهدأ لو أن فولتير لم يواصل إزعاجه. فلِمَ كان فولتير يعامل ذلك الشقي معاملة الند للند، فيمنح ديفونتين أهمية لا يتمتع بها؟ أما أعداؤه، فهو الذي يوقظهم. مضت ستة شهور، وديفونتين يلتزم جانب الصمت، حين صوب إليه فولتير ذلك السهم: *Ode à l'Ingratitude* (غنائية عن الجحود). ولسوف يدفع الثمن غاليًا عما قريب.

مفاتن المنفى

مضى عامان والعمل جار على تجميل سيري. وانهمك فولتير وإميلي في الأعمال كافة باندفاع وَثاب: أعمال الترميم، وأعمال الزخرفة، إضافةً إلى انهماكهما في الدراسة ونظم الشعر، فضلًا عن الهموم المتعلقة بقضايا المحاكمات والشؤون المالية. كانت أيامهما ممتلئة كل الامتلاء.

لقد رغبا في أن يكون ذلك القصر الذي سعدا بالعيش فيه نوعًا من معبد مكرس للحب والصداقة والعقل المجتهد.

---

(38) إشارة إلى المثل المضروب في الإنجيل عن «الابن الضال»، الذي شطر ثروة أبيه فأخذ نصيبه، فبدده بسفاهة لينتهي راعيًا للخنازير... (المترجم)

(39) إشارة إلى سدوم في التوراة، المدينة التي خرج منها لوط، ثم احترقت بنار نزلت من السماء. (المترجم)

أما وأن كل واحد منهما يتمتع بالذوق - ولديه كثير من المال - إضافةً إلى ميل نحو الأبهة يتجلى في الزخرفة المفرطة، ولدى فولتير في الإخراج، فقد جعلا من سيري الواقعة في طرف مقاطعة ريفية، مقرًا ذا مظهر عظيم، ولم يكن ذلك بالأمر اليسير في عام 1734. وكان لا بد من أن يتصديا للتراجيديات، وعلم الجبر، وعمليات الحفر والردم في آن معًا. جرت عمليات قلب للحدائق، للحصول على «إطلالات»، وعلى مصاطب متدرجة ومحاطة بدرابزينات. أما في الداخل، فأقيمت أحواض استحمام من الخزف؛ لأن إميلي كانت تستحم كثيرًا. ويقول لنا لونشان، سكرتير فولتير: «كان ذلك يهدئ من حالات اضطرامها». وقد صنع لها ذلك الاستحمام المتكرر سُمعة طرافة وغرابة. الانتقال من نيوتن إلى الاستشفاء بالماء؛ يا للعجب العُجاب! لكن كانت لديها جوانب أخرى: إنها تدرس الإنكليزية، والفيزياء، والهندسة، وتستقبل أيضًا عددًا من الزائرين، لأن الناس المتميزين كانوا يقومون بانعطاف، عن طيب خاطر، ليزوروا أولئك الناسكين في سيري. كانت تلك العزلة الدراسية والعاطفية تستقطب الأحاديث عنهم، على قدر فضائح ديفونتين وجور؛ ذلك أن الأمر كان فضيحة أيضًا. أليس العيش في العزلة، وفي الريف، ورفض باريس والبلاط، شيئًا فظيعًا؟ وكان المسافرون الذين يمرون من سيري، جميعًا، يجدون أنفسهم لدى عودتهم محاصرين بالأسئلة؛ بل كانوا يتكلمون من غير أن تلقى عليهم الأسئلة، وقد يفرطون في الكلام. وكيف لا يرغب المرء في كشف الغموض الذي يكتنف ذلك «الهروب إلى الصحراء»، ضمن شكل مثير وممتع؟ وكيف تقوى إميلي دو بروتوي ومعها أرويه، وهما أبناء باريس الصالونات، على العيش بعيدًا عن ظل أبراج كاتدرائية نوتردام؟ وذلك الهواء الآتي من الغابات ومن الأراضي البور، هواء العزلة ذاك، المرهوب الجانب، أليس هواءً قاتلًا لأبناء المجتمع، أولئك الذين لا تشع أفكارهم ولا يعيشون إلا تحت ضوء الثريات، مثل قطع الماس وحبات اللآلئ؟ إن ما كان يصيب الباريسيين بالذهول عند السؤال: «هل أصيبا بالسقام، أم ضربهما الخَبَل، وهل يسعيان على أربع؟» أن يأتي الجواب بأنهما على خير ما يرام وأنهما يتألقان عافية وهناء عيش.

فها هو ذا الفارس دو فيلفور يروي، بعد زيارته إلى سيري في عام 1736، عن الساحرين الاثنين المسحورين. يبدو المكان غريبًا وغامضًا بعض الشيء، حيث يتمتع هذان الناسكان الغريبا الأطوار، بلطائف الحضارة والثقافة، وهما في الصحراء. وصل الفارس مع حلول الليل. عبر باحة أولى، فثانية، فثالثة.

قرع الجرس، وانتظر فترة طويلة. كل شيء في حالة سُبات. وأخيرًا ظهرت في الظل خادمة تستضيء بفانوس. ودخل إلى بهو أول. تبع الدليل وفانوسه عبر دهاليز طويلة وغرف فارغة ومعتمة، وتوقف. وهنا تجرأ على الكلام، فطلب أن يرى المركيزة. تُرِك واقفًا هنالك من أجل الذهاب والإعلان عن اسمه لساحرة ذلك العرين. وانتظر. عادت الخادمة، فاستؤنف السير مع تلمس الطريق تقريبًا؛ فالنور ضئيل جدًا. وفُتِح باب: يا للمعجزة! إنه صالون تشع أنواره. وتوقف الفارس مذهولًا ومبهورًا: «كانت ربة المكان مزدانة جدًا، ومحملة بالماس إلى حد بدت معه أشبه بفينوس الأوبرا، لولا أنها، على الرغم من استرخاء وقفتها وغنى زخرفة ملابسها، كانت تتكئ بمرفقها على أوراق تعلوها كيفما اتفق خطوط ورموز س وَ ص، ومنضدتها مغطاة بأدوات وكتب هندسية».

إنها جنية الجبر مزدانة مثل كليوباترا على مسرح الأوبرا. والصورة صحيحة، ومثقلة بعض الشيء ويتخذ ما يليها رسمًا كاريكاتوريًا تقريبًا. رفعت يدها من بعيد للغريب بتحية النبلاء، ونهضت فسعت لأن تتحرر مما علق بها من سينات وصادات. وعرضت عليه أن تقوده إلى عند السيد دو فولتير، فهنالك اعتقاد بأن الزائر لم يتكبد عناء القدوم إلا من أجل الشاعر. وكانت شقة الساحر تتصل بشقة الساحرة من طريق درج خفي، لا ريب في أنه ذاك الذي أقامته عنوة داخل إحدى المداخن في أثناء هروب فولتير إلى هولندا. وتسلق الفارس هنالك بابًا. وقُرِع الباب، وما من جواب. فهل هم يبحثون عن حجر الفلاسفة؟ وأخيرًا فُتِح الباب. فأحيط الزائر علمًا بأنه لم يصل في الوقت الملائم، إذ إن ساعة المحادثة لمّا تحن. وجرت مشاورات، فيما الوقت يمر. وأخيرًا دُق جرسُ مدرسة داخلية. إنه موعد العشاء. لقد فُرِجَت.

لم تكن قاعة الطعام أقل غرابة؛ فلا وجود للخدم. ففي كل طرف من المكان تقوم منضدتان دوارتان: واحدة لتقديم الأطباق، والأخرى لرفع الأطباق. ويقوم كل شخص ليأتي بطبقه مملوءًا لدى تغيير كل صنف من أصناف الطعام. إنه مطبخ عالي الجودة. والعشاء يستغرق وقتًا طويلًا. ودُق الجرس من جديد: هنالك تبديل للنشاط.

إنها ساعة القراءات الأخلاقية والفلسفية؛ لا ريب في أن القصد أن يترافق هضم العشاء بنعاس عذب. وانقضت ساعة، فدُق الجرس: حان وقت النوم. والكل يُطيع.

مع دقة الساعة الرابعة فجرًا، جاءوا يهزون الزائر. ألَم يسمع الجرس؟ أليس راغبًا في أن يشهد التمرين الشعري الذي سيجري في الأسفل، داخل الرواق؟ هل هو راغب حقًا في التخلف عن هذا القداس الصباحي المهم جدًا؟ يا لهؤلاء الباريسيين! يا لتكاسلهم! إنهم يتخلفون من دون كبير اهتمام عن تمرين لنظم الشعر في الرابعة صباحًا، في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، في قصر متجمد، ضائع وسط مقاطعة مشهورة ببردها. لا يتخلف فولتير وإميلي عن هذا الطقس القدسي أبدًا، لأنهما في مقام الكهنة، وخدم القداس، وجمهور المؤمنين في آن معًا.

حين يكرر أصدقاء من باريس على مسمع من إميلي ما روى الفارس، فإن إميلي تجيب أنها «أوصاف قام بزخرفتها، فصَنَعوا منها حكاية جنيات. إن ما أسأل عنه هو بلا رأس ولا ذيل ولا قافية ولا سبب».

صحيح أنه تحدث عن إميلي بوصفها جنية، جنية قصر مسحور. أما عن تقسيم الوقت فهو صحيح بكل دقة؛ فالنهار منتظم على ذلك النحو بدقات الجرس. لقد كان شبه مستحيل على المرء في سيري إضاعة ربع ساعة. كان لدى فولتير شعور بالهول الغريزي من الفراغ القاتل، ومن الزمن الأجوف. فحبه للحياة بكل شغف، يجعله يثمن عاليًا كل ساعة من ساعات النهار، فيعمل على ملئها بمتعته الخاصة، أي بالقراءة، والتأمل، والنشاط في المجالات كافة.

هذا ردّ فولتير على فيلفور الذي أفرط في الكلام: «أتحدى السيد دو فيلفور أن يقول، أو أن يكون عرف، كم نحن سعداء في سيري». فذلك هو الأساس، وهو ما لم يفهمه الباريسيون. فالسعادة هي الحب، وهي الصداقة والبذخ وهي ذلك النظام. أجل، إنها ذلك النظام الرهباني أو العسكري الذي يسعى فولتير وراءه عبر ألف شكل من أشكال الفوضى الظاهرة في حياته.

إنذارات جديدة وسفر جديد

أما بشأن الفوضى، فهذه أشكال جديدة. نتذكر أنه كان لفولتير، من بين أصدقائه في المعبد، كاهن اسمه دو بوسي، وقد صار أسقف لوسون. وها قد توفي مؤخرًا. فمن عساه يكون ذاك الذي نقب بين أوراق الأسقف، ليعثر على قصيدة لفولتير عنوانها *Le Mondain* (الدنيوي)؟ واقع الأمر أن تلك القصيدة طُبعت وبدأ توزيعها في باريس في عام 1736، على غير علم من الكاتب. وجرى

الشروع في ملاحقة جديدة لوجود ملامح إلحاد في تلك القصيدة. وشكا فولتير أنهم حمّلوه عبء جريمة، لأنه قال إن آدم، أبانا، كانت أظفاره طويلة، وإنه كان ذا سوكات سيئة. وهتف صارخًا: «في أي قرن نحن نعيش؟».

صار عليه أن يرتحل من جديد. فعزلته ما عادت آمنة، وهنالك خطر جديد يتهدده، ويتهدد إميلي أكثر منه كثيرًا، فها هم أولاء أبناء عمومة المركيز دو شاتليه يرتؤون، بعد مرور أكثر من عامين على بدء العلاقة بين المركيزة والشاعر، أن من غير الملائم أن تعيش زوجة ابن عمهم وفولتير تحت سقف واحد، في حين أن زوجها ينازل أعداء الملك على بعد مئتي فرسخ من هناك. إنهم ينوون توجيه إنذار إلى الزوج من طريق القضاء. فما يسعه أن يجيب؟ لا بد من العقوبة، ذلك أنهم قانونيًا على حق. فأعد فولتير حقائبه على جناح السرعة. وأجهشت إميلي بالبكاء ما بين جواهرها، وسيناتها وصاداتها.

إنما الغباء هو أسوأ عدو لسعادة رجالات الفكر.

إلى أين يذهب؟ لديه الرغبة في التوجه إلى الأمير فريدريك، ولي عهد بروسيا الذي تربطه به مراسلات تظارف. كان فريدريك هو الذي فتح الدرب أمامه، فسلكها، وسار فيها خببًا..! أطربه أن يُعامل على أنه عبقري بلا قرين، وأن يُتوج على عرش الذكاء والموهبة بيد صاحب سمو ملكي في طريقه لأن يغدو ملكًا. أما وقد بدا ذلك الأمير عالي التدبير في مصلحة الشاعر، فقد أعلن الشاعر من طرفه أن ذلك الأمير سوف يكون ملك زمانه. وراودته الرغبة في أن يراه من كثب.

كان ذلك من غير أن يحسب لارتياب إميلي أي حساب؛ فقد استشمت مكيدة، وظنت أن فولتير يريد الإفلات منها. فراودها الخوف، لكنها أقنعت فولتير بأن الخطر يتهدده هو. وخشيت شغف الشاعر بذلك الأمير الذكي جدًا، والمزدان بتاج ملكي سبق لفولتير أن انحنى أمامه، لكنها جعلته يخشى الخطر الذي يمثله الملك العجوز فريدريك فيلهلم الذي كان متوحشًا وعنيفًا، والذي كان يعامل ابنه مثل وغد ونذل، وقد قام بسجنه، كما أمر بقطع رأس صديقه المفضل أمام عينيه. ولم يشق عليها إفهام فولتير أن العجوز الهرم سوف ينظر بعين الريبة إلى وجود فرنسي، شاعر وفيلسوف، على مقربة من وريثه الذي لن يتوانى عن الاستماع إلى ذلك الشاعر وآرائه المؤذية والهدامة حيال السلطة الأبوية. والحال أن فولتير

يمكنه، وفقًا لمزاج الملك العجوز، أن يجد نفسه بكل يسر داخل سجن في أعماق بوميرانيا، أو أن يبعثوا به إلى عالم أفضل، من غير شكليات أخرى. لقد أجادت الشرح فأوضحته له على أفضل صورة، والأمر مفهوم بكل يسر، وأضافت تقول، حتى لا ينفد صبر الشاعر المتوقد لهفة للإطراء الملكي، أو شبه الملكي: «إن الأمير ليس الملك، وحين يصير ملكًا سوف نذهب إليه نحن الاثنين معًا، أما بانتظار ذلك فليس هنالك من ضمانة قط».

«نحن الاثنين معًا»؟ يا لها من إيماءة جميلة! إن كانت تحسب أنها ستكون ضمن الجوقة. وبناء عليه فقد رفض الدعوة.

أما وأن بروسيا ضارة بالصحة، فقد عاد إلى هولندا. وتحاشى التوجه إلى بروكسل؛ إنها المدينة التي أنتنَت بوجود جان باتيست روسو فيها. لكن ماذا نمى إلى علمه؟ إنه نبأ مقزز! قيل إن روسو تلقى السماح بالعودة إلى فرنسا. ماذا؟ بينما يلاحَق هو، يُعفَى عن عدوه اللدود؟ ذلك ما يفوق القدرة على التحمل. فيمكن التساهل مع أمر ملاحقته، إنها عادة قديمة من عادات السلطة، لكن ليُصار على الأقل إلى اضطهاد الآخر أيضًا. سعى فولتير كي يوصل إلى الوزير نسخة من قصيدة ج. ب. روسو التي كتبها ضد الحكام وضد الملك. كذلك أوصل إلى أولئك السادة في المحكمة العليا، تلك القصيدة التي يُساء إليهم فيها، كأنما فولتير هو الذي نظمها. واستبد بأصحاب الحلل السوداء والقبعات المربعة غضب مسعور فجرى تمديد نفي روسو. وكان لهذا النبأ السار دور كبير في البهجة التي وجدها فولتير جراء الاستقبال الذي لاقته به هولندا.

كانوا يعرضون مسرحياته في المدن التي مر فيها كافة. وبلغه أنهم في لندن يقدمون زايير بنجاح. كما جاءه منها خبر أفعمه غبطة؛ فغرور الكاتب يزداد أحيانًا لدى وقوع حادث يبدو محزنًا للناس العاديين. ولنحكم على الواقعة. كان أحد الممثلين الإنكليز، واسمه المستر بوند، يحب تراجيديا زايير حبًا جنونيًا، ويؤدي فيها دور العجوز لوزينيان. فكان يؤدي الدور بنوع من الانفعال العنيف حتى إنه، ساعة يتعرف لوزينيان إلى ابنته ويتعين عليه أن يبدي تأثرًا عنيفًا جدًا، أصيب المستر بوند - لوزينيان بسكتة قلبية وسقط مصعوقًا على خشبة المسرح. وفاضت بفولتير غبطة الإعجاب حتى إنه صفق بيديه فرحًا: «أليس شيئًا ذا بال

أن تكون العبقرية الدرامية قادرة على صعق الذين يؤدونها؟». لكن هنالك ما هو أفضل؛ فالعرض لم ينقطع لدى وقوع تلك المعجزة. فتقدم على الفور ممثل آخر، ورفع المشعل: لقد رغب في أن يكون هو لوزينيان، «الدور القاتل!»، ثم أعرب عن أسفه بكل بساطة لأنه لم يتمتع بما لدى المستر بوند من روح لينتهي نهايته.

نتساءل من بعدُ لِمَ يجد فولتير الإنكليز رائعين؟ فليس الفرنسيون هم الذين يتمنون الموت وهم يؤدون زايير!

أما تلك الإقامة في هولندا التي جرت في أثنائها الإشادة بمناقبه أيما إشادة، فراقته. ولم يحرص على العودة من فوره إلى سيري، على الرغم من أن الخطر استُبعد. لكن لا بد من العودة لأن عناصر فيزياء نيوتن أضحت في وضع ملائم للطباعة، وتُطالب إميلي بأن يتولى بنفسه مراقبة الطباعة. وهو في الواقع أمر جوهري. فهذا المؤلف الصغير سوف يضع في متناول الجمهور المثقف فيزياء نيوتن تلك التي تعافها نفوس الفرنسيين الرسميين، في حين أن فولتير يسعى لأن يفرضها عليهم. لكن هولندا تسليه... وإميلي تصدر الأوامر، وفولتير يحتد غضبًا، وإميلي تبكي وتتهدد. ويتولاها على نحو مباغت خوف من أن يأخذوا منها فولتير. فيستبد بها اليأس وتدعو آل دارجنتال إلى نجدتها: «أتوسل إليكم وأنا راكعة أن تقولوا له بقسوة إنه إن واصل عناده ولم يرجع، فسوف ينتهي أمره، وأنا واثقة من ذلك وثوقًا حازمًا. لو رأيتم رسالته الأخيرة، لما أدنتموني، فهي بتوقيعه ويدعوني فيها 'يا سيدتي'. هذا تنافر فريد جدًا حتى إنه تسبب لي بدوار من الألم».

إن إميلي هائمة عشقًا. وها هو ذا فولتير يُظهر مرة أخرى أنه أقل غمًا وأقل شغفًا من شريكته، مع أنه عميق في حبه وصادق. لكنها مخطئة في قلقها، ذلك أنه سلك طريق العودة، وها هو يرجع، بسعادة غامرة، ليضع نفسه تحت سلطة معبودته. وكان الرجوع غاية في العذوبة:

«وأدع المجال للتفكير بعدد المباهج
التي دفعاها ثمنًا لمكابداتهما».

لا ريب في أن أعذب المباهج كانت مباهج حجرة الفيزياء، لا مباهج المخدع. فغالبًا ما تتجلى ألوان لهو الحب ومرحه لدى فولتير في صورة تمارين تربوية.

كتب خفية إلى الأب موسينو، وهو أحد المؤتمنين على أسراره، ورجل أعماله غير الرسمي، أي إنه نصف صديق ونصف مفوض من السلطة، يسأله عن الموضوع الذي اختارته أكاديمية العلوم في مسابقة عام 1738. وشدّد خصوصًا على ألا يعرف أحد أن السؤال موجه من فولتير: «أنا لستُ عالمًا»، لكنه يرغب في أن يصير كذلك، أو أن يصير، على الأقل، إلى حد أن يبدو كذلك. وما إن عرف السؤال حول مسألة انتشار النار، حتى أرسل الكاهنَ نفسه إلى عند فونتونيل ليستفسر منه حتى يعرف أكثر ما يمكن معرفته عن الموضوع. لكن ينبغي التزام الصمت..! ويبعث بعدئذ بالكاهن الطيب إلى أحد الصيادلة. «اشترِ من عنده كتابًا عن الكنكينا، فأرسله إلي، واجعله يحدثك عن طبيعة النار». فعل الكاهن ذلك كله، وهو كمن لا يدرك أن فولتير يُعِد مذكرة ليجيب عن سؤال أكاديمية العلوم.

الكاهن موسينو رجل شريف جدًا، وهو مشهودٌ له بالنزاهة، فكان المؤتمن على صندوق سِلكِه، وصار المؤتمن أيضًا على أموال فولتير. فكان يقوم بتوظيف الأموال، ويشتري اللوحات، ويقبض الفوائد، ويقوم كذلك بمهمة حساسة أكثر؛ إذ يتولى تنشيط ذاكرة المدينين الذين ينسون موعد التسديد. إنه منصب مهم جدًا بسبب المبالغ المستحقة، وحساس جدًا بسبب شخصية المدينين، من أمثال ريشوليو وفيلار وأسيادٍ آخرين، وهم أناس لا يمثل لديهم التسديد أبدًا النتيجة الإلزامية للاستدانة. لكن موسينو كان يجعل تلك النتيجة «إلزامية»، من غير أن يغيظ أحدًا. فيا له من رجل أثير على قلب فولتير الذي كان يقرض مبالغ كبيرة بفوائد مجزية، لأن إميلي شديدة الإنفاق!

صاحب السمو الملكي في بروسيا الأمير فريدريك

كانت رسائله آسرة، أما هديته فتأخذ بمجامع القلوب: عكاز قبضتها تمثال نصفي لسقراط مصنوع من الذهب ومرفقة بإطراء. وإن فولتير لمذهول بها. لكن من عساه يصمد حيال هذه اللهجة في الكلام! «إن حدث يومًا وجئتُ إلى فرنسا، فأول شيء سأسأل عنه، سوف يكون: أين هو السيد دو فولتير؟ فلن يكون للملك ولا للبلاط ولا لباريس وفرساي والجنس والملذات، من نصيب في رحلتي، ستكون رحلتي لك أنت وحدك». وبناء عليه، صار فولتير يخاطبه بلقب «سليمان الشمال»، ولا يسعه أن يفعل ما هو أقل. وقدم له فريدريك منزله في لندن

مكان لجوء. وزاد على ذلك أيضًا بأنه أرسل إليه سفيرًا! إنه البارون كيسرلينغ. وها هي التعليمات التي بعث بها الأمير إلى ذلك السفير، وهو في طريقه إلى سيري: «فكر في أنك ذاهب إلى الفردوس الأرضي، وإلى مكان يفوق في عذوبته جزيرة كاليبسو[40] ألف مرة؛ ذلك أن الربة في هذه الأمكنة لا تقل بشيء عن ساحرة تيليماك[41] جمالًا، وأنك ستجد فيها محاسن الفكر كافة والتي تفضُل محاسن الجسد كثيرًا: وأن تلك المعجزة تشغل فراغها كله في البحث عن الحقيقة... إلخ».

كان ذلك كله مخصصًا لأن يُعرض على إميلي. فليست المغالاة في التقريظ موجهة لإرضائها، على قدر ما هي للدلالة على الغم الذي شعر به فريدريك؛ إذ لم يُخفِ فولتير عن فريدريك أنه لم يتوجه إلى بروسيا للقائه، لأن العلاقات العذبة لصداقته أبقت عليه في سيري. فكان ذلك كافيًا لفريدريك كي يكره إميلي. وحين بعث إليها فريدريك بإطرائه، لم يتوانَ عن تسريب ما يحدوه من رغبة في استحضار فولتير، بل في التنازع عليه مع إميلي: «وأرجوكَ أن تبين للسيدة المركيزة أني لا أستطيع التنازل عن السيد دو فولتير إلا لها هي، كما أنها هي الوحيدة الجديرة بامتلاكه».

أذعن لذلك لأنه لا يستطيع القيام بشيء مغاير. والحق أنه لم يذعن؛ فقد عاد أيضًا ليجد مبررًا لاستدعاء فولتير كي يأتي إليه، وليست إميلي مطمئنة على الإطلاق. فمن طبيعة السنجاب أنه يثب، والأنقليس يتخلص منزلقًا، والحرذون يتسلل هاربًا، وهي تعرف ذلك.

كان كيسرلينغ رجلًا قصير القامة، يعاني النقرس، لكنه يضج حيوية ونشاطًا حين لا يقعده المرض، وكان مهذارًا من الطراز الأول. وهو من ناحية أخرى واسع الاطلاع. وكانت الأميرة دوروثي، شقيقة فريدريك تقول عنه: إنه «طائش كبير وثرثار، يتكلف الظهور بمظهر النباهة، لكنه ليس سوى مكتبة مقلوبة».

---

(40) من عرائس البحر، وكانت تقيم في جزيرة أوجيجي، حيث استقبلت أوليس طوال سبعة أعوام، بعد أن قذفت به عاصفة إلى شاطئها. (المترجم)

(41) هو ابن أوليس، وكان يجدُّ بحثًا عن أبيه الذي ظل بعيدًا عن وطنه عشرين عامًا. (المترجم)

حظي في سيري بالاستقبال الذي يحظى به الأمراء: ألعاب نارية، وإنارات تمثل اسم الأمير فريدريك، مع كتابة بالمصابيح المتعددة الألوان: «إلى أمل الجنس البشري». وكان ذلك على جانب من الروعة حدا بواحدة من المدعوات الدائمات إلى سيري، هي السيدة غرافيني التي سوف نتعرف إليها من كثب، إلى القول إننا نرى «أشياء لا يقوى على صنعها في مكان مثل هذا، سوى الجنيات والسيد دو فولتير».

كان السيد كيسرلينغ مفتونًا؛ إذ جعلوه يتكلم من دون هوادة ولا راحة، وأثقلوه بالهدايا من مخطوطات الشاعر: بداية عصر لويس الرابع عشر الذي بُدئ العمل به للتو، وقصائد، وتراجيديات، وبحوث. وليس ذلك كافيًا! لقد طلب فريدريك من سفيره بإلحاح أن يأتيه بمسرحية العذراء. وحذروه من أن ذلك المخطوط كان بين يدي الربة، وأنها لا تريد التخلي عنه بأي ثمن، إذ كان ملكيتها المطلقة. باختصار، أصبح لدى فريدريك سبب جديد ومحدد يدعوه إلى أن يكره إميلي، لكنه استعذب الحكايات التي قصها كيسرلينغ على مسمعه لدى عودته. الأمر يستدعي الهذيان، إذ كان فريدريك يمسك به من يديه وينظر في عينيه. كان يمسك بيدي رجل رأى فولتير بعينيه! وحتى لا يكون مدينًا بحمله لقب «سليمان» أطلق من فوره على فولتير لقب «فيرجيل العصر». أما وقد أضناه الأمل، عاد مجددًا يطلق صوت حورية البحر ليجتذب فولتير إليه. وعادت رعدة الرعب تستولي على إميلي؛ فكل رسالة من فريدريك تجعلها تمضي ليلة لا تعرف فيها عيناها للنوم طعمًا.

ابنتا شقيقة وأخ وسكرتير

عاد الحديث إلى عائلة أرويه في شخصية ابنتي شقيقته، ماري لويز وإليزابيت مينيو. فقد توفي والدهما السيد مينيو في ذلك العام، 1737. أما والدتهما، المرحومة أيضًا، فهي ماري مارغريت، شقيقة فولتير.

رغب في أن يكفل اليتيمتين. فالإحساس العائلي لديه لم يكن جافًا على قدر ما أشيع، بل أراد لهما أن تكونا على مقربة منه كي يتولى تربيتهما وإدخالهما في المجتمع وتزويجهما. وذلك ما يتيح لنا الاعتقاد بأن سهامه الموجهة إلى آل أرويه ضللتنا بشأن حقيقة مشاعره العميقة. وينبغي التسليم بالواقع؛ فهو يحب شقيقته بكل عطف وحنان، وها هو يحول هذه العاطفة نحو ابنتيها.

فكّر بداية في تزويج إحداهما من نجل السيدة دو شامبونان؛ تلك السيدة الريفية الودودة والمثابرة من سيري. غير أن الآنسة مينيو، الباريسية النشأة، لم ترغب في أن تأتي لتؤدي دور كونتيسات إسكاربانيا[42] على أدراج اللورين. فتقدم الأب موسينو باقتراح باسم فولتير وبتفويض منه؛ إذ رجا الأخير رجل الثقة هذا لديه أن يشرح لابنة أخته أنه لن يقسو عليها إذا ما رفضت، بل ينبغي لها ألا تقرر إلا بحسب رغبتها. وشدد على موسينو أن يُظهر جيدًا للآنستين الفرق بين عمهما النزق أرمان، وعمهما الآخر فولتير. وما كان من العسير عليه أن يفضح أمامهما مسألة الفرق؛ إذ كان أرمان قد سلم نفسه إلى «الاختلاجيين» (Convulsionnaires)، وكان جانسينيًا إلى حد مخيف. كان يتألم ويهوى إيلام الآخرين. وقد أجاب على جانسيني صديق له لا يطلب الشهادة وحاول تهدئته، بالقول: «حقًا! إن لم تُرد أن تموت شنقًا، فلا تنفر الآخرين من ذلك!». لم يكن هذا الأخ المغالي في الدين فريدًا في زمانه؛ إذ يجب ألّا نُسقط من حسابنا لا هو، ولا أمثاله، لكي نفهم ذلك العصر ونفهم فولتير. ففي مقابل ريشوليو واحد، وفولتير واحد، وحفنة قليلة من الملحدين اللامعين والمستهترين المتصدرين واجهة المشهد، يوجد جمع كبير لا حصر له من المؤمنين، والأتقياء، وحتى من المغالين المتطرفين الذين يزدادون تطرفًا بفعل استفزاز الإلحاد لهم. وتحتشد الكنائس، ووظائف الخدمة الكهنوتية والمحاكم العليا بأناس يمتلكون - بأغلبيتهم - الإيمان، ورغبة تشتد جموحًا لجعل الآخرين يحترمون هذا الإيمان بقدر ما تشتد وقاحة الأعداء. أقوياء هم هؤلاء؛ فتحت يدهم ترسانة من القوانين، والمحاكم، والشرطة. يضحك بعض من في أيامنا من «المظاهر التي تشبه» الاضطهاد هذه - لكننا سوف نشهد في السياق مظالم حقيقية وواقعية - وعندما يلقي فولتير بنفسه، وهو مريض حتى الموت، في عربة تعدو به في عز الشتاء الطرق الوعرة، فور علمه أن الشرطة تتعقبه، فليس خطرًا متوهمًا ذاك الذي يهرب منه. إن الزنزانة هي الزنزانة، وبمجرد أن ينسى أمرك الوزير الذي رمى بك فيها، تصبح الزنزانة قبرًا. فهل كان فولتير متبلد الإحساس عندما وردت هذه الفكرة في خاطره؟

كان أخوه إذًا من أولئك الأشخاص الذين يُخشى جانبهم، وكان هو يخشاه أيضًا.

(42) إلماح إلى مسرحية موليير *La Comtesse d'Escarbagnas* التي تزهو فيها الأرملة القروية النبيلة بمشاهدتها البلاط وتعلمها السلوكات الأرستقراطية، لكنها لم تبدُ إلا بمظهر مضحك. (المحرر)

كانت ماري لويز مينيو تنتظر بصبر نافد أن يتم العثور لها على عريس. ولما لم يتقدم إليها أحد، تولت الأمر بنفسها، فوقع اختيارها على السيد دوني، مروض الجياد، والضابط، والمفوض الرسمي لشؤون السلاح. إنه يعيش حياة يسر، وهو وسيم وحسن الطبع. وكان يعشق زوجته، كما كانت هي أيضًا تعشقه. وكانت هي من النوع السريع الاشتعال. ولسوف نرى من بعد أنها - إن لم تتمتع بقلب حساس جدًا - كانت ذات دم متوقد.

تولى فولتير دفع بائنتها. ولو أنها تزوجت ابن دو شامبونان لحصلت على بائنة مقدارها ثمانون ألف ليرة، ومعها آنية فضية بقيمة اثني عشر ألفًا. أما وأنها اختارت السيد دوني، فلم يعطها سوى ثلاثين ألفًا، مع أن السيد دوني كان أكثر غنى من آل شامبونان. قدِم العروسان الشابان إلى سيري. وبُهتت السيدة دوني من التعلق الذي يبدو على خالها حيال السيدة دو شاتليه، حتى تولتها الغيرة.

لكن أين تحشر نفسها هي؟ وما عساها تفقه في تلك الصلات المعقدة والعميقة التي تربط بين أناس أعلى مستوى كثيرًا من حمقاء صغيرة تقوم برحلة عرسها. أما وأنها سوقية، فقد تحول ذلك الشعور إلى حسد وانتقاد. وكتبت تقول: «لقد قطعتُ كل أمل وأعتقد بأن أمره انتهى مع أصدقائه، فهو مرتبط على نحو يبدو لي فيه من المستحيل عليه أن يحطم قيوده (ولِمَ تريد منه أن يحطمها؟). إنهما يعيشان في عزلة مفزعة، وفي منطقة لا يرى المرء فيها سوى الجبال والأراضي البور». جبال في سيري؟ قد تكون أكوام تراب من بيت الخُلد؟ وتضيف «إنهما مهمَلان من أصدقائهما كافة». لكنها غبية حقًا! فالمنزل لا يفرغ البتة، وغرف الأصدقاء مشغولة على الدوام. فلديهما مِلك يمتدحهما، وأكوام من الرسائل الأكثر إطراء وملاطفة.

تخلص تلك الحمقاء المذهولة إلى تلك الخاتمة: «تلك هي الحياة التي يعيشها أعظم عبقري في عصرنا».

لكن ما الحياة التي ترغب فيها لخالها؟ حياتها هي؟ أليست لديها أفكار للمستقبل؟ فخال مثله يُعد نابغة (وهو، فضلًا عن ذلك، غني!)، فما يسعها أن تفعل حياله؟

أما إليزابيت، بنت شقيقته الثانية، فتزوجت في 9 حزيران/ يونيو 1738، من السيد دو دومبيير، رئيس صندوق المالية الفرنسية في آميان. وجرى تكليف تييريو بتقديم الهدايا، فكانت هدية فولتير خمسة وعشرين ألفًا.

لكنه لم يحضر أيًا من حفلي الزواج: الأول والثاني. فلم تكن تلك الشكليات جديرة، في نظره، بأن يضحي من أجلها بأيام عدة يبتعد في أثنائها عن سيري.

لا يزال لينان هنالك، كسولًا أكثر من قبل. ويتسبب وجوده بضيق كبير للمركيزة، لكنها تتحمله. ولم يكن لينان يتقن اللاتينية، فكيف له أن يعلمها لابن إميلي الصغير؟ فكانت هي التي تتولى إعطاءه الدروس بدلًا من لينان. وكانت صبورة في بعض الأحيان!

نحن نعرف أن ضعف فولتير، حيال من يكفلهم، ليس له حدود. وها هو برهان جديد: كانت للينان أخت تعيش حياة بؤس، فسعى لأن يستدر عطف فولتير عليها، فكان أمرًا ميسورًا. لكن إميلي ترفض مهما كان الثمن، حسبه نموذجٌ واحد من آل لينان، ولا سيما أن الأخت، غير المؤهلة مثل أخيها، كانت ذات متطلبات كثيرة منذ رسالتها الأولى، وقد قال عنها فولتير: «إنها تكتب كتابة خادمة، أما وأنها، إلى جانب ذلك، تفكر تفكير ملكة، فلست أدري ما يسعنا أن نفعل بها».

على الرغم من ذلك، ومن إميلي، وصلت الفتاة التي وصف فولتير وصولها بقوله: «الكسل الأقصى، جسدًا وروحًا، وقفٌ على هذه العائلة». لكن، ألم يكن يعرف ذلك مذ كان في روان؟

لم يقتصر الأمر على ذلك، فما إن استقر بالأخ والأخت المقام، حتى باشرا حبْكَ الدسائس. فقامت السيدة دو شاتليه بطردهما، فلم يجرؤ فولتير على التفوه بكلمة. أما وأنه عطوف على الدوام، فقد دعا المطرودَين إلى كتابة رسالة استعطاف موجهة إلى المركيز وإلى إميلي. لم يدخر جهدًا في سبيل جعلهما يحظيان بالعفو.

لكن جواب آل شاتليه كان قاطعًا: الرفض. وحزن فولتير فأرسل معونة مالية «إلى هذين الشقيين المسكينين».

تسببت له عناصر فيزياء نيوتن بفشل خطر ومُر؛ إذ لم يستطع الحصول على إذن بالسماح بنشرها في فرنسا. وقف العلماء الفرنسيون كافة ضدها. فكان أن نشرها إذًا في هولندا. وهو بتبجيله نيوتن، يجعل نفسه هرطوقيًا مرة أخرى، ومفضوحًا بشكل شائن، لدى أكاديمية العلوم، على نحو ما كان عليه من قبل في السوربون.

قام الناشرون في أمستردام حياله بدور خديعة يثير السخط. لقد كانوا في عجلة من أمرهم لبيع الكتاب، على الرغم من رأي فولتير الذي كان راغبًا في أن يكون - على قدر الإمكان - في وضع قانوني مع السلطة، وهذا ما فعلوا. ولم يعطهم فولتير، بدافع من الحذر، سوى المخطوط منقوصًا، عازمًا على تزويدهم بالتتمة، حين يرى الوقت ملائمًا. فأنجز الناشرون المخطوط كيفما اتفق لهم، ونشروه في نيسان/ أبريل 1738، على غير علم من الكاتب. وثارت ثائرة فولتير. فقد أضاف من بعد عناصر فيزياء نيوتن عبارة «موضوعة في متناول الجميع» (mis à la portée de tout le monde)، اجتذابًا للقارئ من الأوساط المتواضعة. وقام النمامون بتحريف صغير في العبارة فقالوا إنه ينبغي قراءة عناصر فيزياء نيوتن مرفوضة من الجميع (mis à la porte de tout le monde). فتسبب له ذلك بالمرض.

على الرغم من الأخطاء، ومن أصناف سخرية العلماء وعدائهم، كانت أهمية الكتاب كبيرة جدًا. وقامت مجلة تريفو (*Journal de Trévoux*) بتحليل جيد جدًا لنتائج ذلك المؤلف الصغير الذي قوبل بنقد كبير. كانت مؤلفات نيوتن حتى ذلك الحين مخبوءة في حجرات علماء نادرين في أوروبا، مثل «سرٍ يجري تداوله همسًا من أذن إلى أخرى، إضافةً إلى ضرورة وجود مستمعين مؤهلين. وأخيرًا ظهر السيد دو فولتير فصار نيوتن مسموعًا؛ أو في طريقه إلى أن يكون مسموعًا؛ فباريس تتجاوب أرجاؤها بصدى نيوتن، وباريس كلها تلهج باسم نيوتن، وباريس كلها تدرس نيوتن بل تتعلمه...».

لا يسعنا أن نقع على تعريف أفضل للدور العبقري المبتكر الذي أداه فولتير في تبسيط الفكر العلمي، وفي إبراز أهميته، فهو عنصر رئيس في الفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر. قد لا يكون فولتير أنتج مذهبًا، إن في السياسة وإن في الفكر،

ولا اكتشف مشاعر لم يتطرق إليها أحد، ولا ألوانًا من الموسيقى العجيبة. لقد منح قيمة ومعنى وجدوى لمكتشفات الآخرين، أولئك الذين جعلهم وميض العبقرية يتبينون حقيقة جديدة. فوميض العبقرية لا يبرق إلا لشخص واحد، في حين أن فولتير يمتلك النور الذي يتيح للناس كافةً أن يتأملوا بإعجاب تلك الحقائق المكنونة، وأن يفهموها. والمدهش، في حال فولتير، أن الذكاء الذي ينشر الفكر العلمي الأكثر أصالة، والأكثر خصبًا في الأزمنة الحديثة، ألا وهو فكر نيوتن، ذلك الذكاء هو ذكاء شاعر. أما الجمهور المفتون حتى ذلك الحين بمسرحية زايير وبمسرحيات شبه راسينية، فيتلقى، على نحو مباغت، درس الفيزياء الأكثر مهارة في القرن، على يد أستاذ في الصالونات وفي المسرح، ذي فكر نيّر، تألق بإلقاء قصائده الغزلية.

يا له من جهد! ويا له من صمود! أن يعكف، وقد تجاوز الأربعين، على مبادئ الرياضيات والفيزياء، فيقرأ نيوتن ويترجمه ليرتقي إلى مستوى العالم السامي، ثم ينحدر منه ليضع نفسه على سوية العامة - من غير أن يكف عن كونه في مثل ذكاء العالِم - وعلى درجة الظُرف التي يتحلى بها مؤلف زايير.

نحن نذكر أن فولتير قرر أن يُجري خفية بحوثًا في طبيعة النار، ليرد على السؤال الموضوع في مسابقة أكاديمية العلوم.

الطريف هو أن إميلي، وبحرصها على السر نفسه، حصلت على موضوع أكاديمية العلوم وشاركت في المسابقة. وباشر كل منهما الموضوع نفسه بحمية، من غير أن يخبر أحدهما الآخر بذلك. ولم ينكشف أمرهما إلا بعد إعلان النتائج. فتتيح لنا تلك الواقعة أن نخمن الحرية التامة التي يدعها كل منهما لشريكه في عمله، على الرغم من التحسب والغيرة لدى كل منهما، وعلى الرغم من أنهما يعيشان معًا في البيت نفسه، وفي الخلوة العاطفية نفسها. فيا له من مثال مدهش في أساليب الكياسة!

لم يحصل أي منهما على الجائزة. ولا حتى على جائزة ترضية! لكن السيد دو ريومير كتب لهما رسالة جميلة خلفت في نفسيهما أطيب الأثر. سخر الناس في المجتمع من إميلي، وأسدى آخرون لهما من الإطراء ما يفوق أشد أشكال الاستهزاء سوءًا، مثل ذلك العالِم في السوربون الذي خلط ما بين

فولتير وإميلي ونيوتن؛ إذ شبّه فولتير بثيسيوس الذي ضاع في المتاهة (كما ورد في الميثولوجيا الإغريقية)، حيث كانت آريان تمد خيطها، لكنه أثقل في الإلحاح على ذلك الخيط الذي كان رابطًا جسديًا بين آريان وثيسيوس، غير أنه ما كان جسديًا بين فولتير وإميلي. وهتف العالم الفقيه قائلًا: «ليس بينهما سوى رابط روحي خالٍ من كل دنس». فمن كان يخمن أن يثير نيوتن تلك الحماقات كلها؟ وراق ذلك الأمر باريس كلها، أما فولتير وإميلي فكانا في منتهى الدهشة.

علاقات قبيحة

أعاد جور الكرّة. كان الشقي في وضع ميئوس منه. إنه على استعداد للقيام بكل شيء؛ أي بابتزاز فولتير. فكم بذل من مساعٍ! وكم بعث برسائل! وتلقى فولتير في نهاية الأمر من جور رسالة على درجة مقززةٍ من الدناءة، يعترف فيها بالأخطاء كافة، ويؤكد أن فولتير ليس مدينًا له بشيء، وبأنه، هو جور، قد غشه وبأنه لا يزال يسعى للقيام بذلك. لِمَ تلك الدناءات كلها؟ من أجل مبلغ من المال يقوم فولتير بدفعه إليه في مقابل ذلك الاعتراف. وما قيمة المبلغ؟ ليس من يعرف. لكن لا ريب في أنه مبلغ كبير إن تكنِ السفالة تباع بالوزن.

أعجب ما في الأمر هو أن فولتير، بعد ذلك بثلاثة أعوام، كان لا يزال يرسل هدايا إلى جور!

ونتذكر أن رجلًا يدعى دومولان، مقيم في شارع لونبون في سان جيرفيه، كان يتقدم باسمه وكيلًا لعقد صفقات الحبوب والقش والورق. وكان دومولان هذا يتمتع بثقة فولتير، ويتصرف بمبالغ طائلة تحت مراقبة الشاعر من بعد، من حيث يقيم في سيري، ومراقبة موسينو غير المبالية. وكان أن ضاع أربعة وعشرون ألفًا في جيب دومولان. وتشكى فولتير، فتهدده الآخر بالكشف عن مضارباته في صفقات الحبوب: سارق وواشٍ، ذلكم هو الرجل. ويسعنا أن نتخيل فولتير وهو يستخدم الحديد والنار. لكن شيئًا من ذلك لم يحدث، لأنه لم يخسر سوى المال. إن دومولان لم يَنَل من غروره ولا من مشاعره ولا من ميله الأدبي ولا من أفكاره الفلسفية. وبناء عليه، كتب إلى موسينو أن يعامل السارق بلطف: «ينبغي له أن يحمر خجلًا من تصرفاته حيالي. لقد أخذ مني أربعة وعشرين ألف ليرة، وهو عازم على أن يشين سمعتي! ينبغي للمرء، وهو يخسر أربعة وعشرين ألفًا، ألّا يكتسب

عدوًا جديدًا». وجرى عقد الصلح. سوف يرد له دومولان ثلاثة آلاف ليرة، أما بشأن الواحد والعشرين ألفًا التي احتفظ بها، فكتب له رسالة حارة كلها تواضع وود عميق. ليس من شيء مبالغ فيه مقابل ذلك الثمن، فهو لن يرد الآلاف الثلاثة أيضًا، بل سيكتب إلى فولتير قائلًا: «ما كان لعاشق أن يحب عشيقته قط على قدر ما أحب دومولان فولتير».

إن في ذلك تجاوزًا للحدود. لكن لا. فليست الاندفاعات العاطفية متطرفة البتة في نظر فولتير. فهو مسرح! إنه لمن المسرح. ورد يقول: «إني لأسامحك من كل قلبي من غير أن تبقى فيه أدنى ضغينة».

ليس المال بذي أهمية. كان المغتابون يقولون عنه إنه بخيل؛ وإذا كان كذلك، فليس بالنسبة إلى الجميع. إنه يعرف كيف يخسر، ويعرف كيف يعطي. فهل هو بذلك بخيل؟

أما نقطة ضعفه فهي كرامته. إن أعداءه يعرفون ذلك حق المعرفة، والأب ديفونتين يتلاعب بنقطة الضعف تلك تلاعبًا جهنميًا، فيرد فولتير ردًا عنيفًا، ولنقل ردًا ساذجًا. فالكاهن هو الذي وضع عبارة «مرفوضة من الجميع». وهو أيضًا الذي هاجم عناصر فيزياء نيوتن، فقال عنها «إنها موضع استنكار فيزيائيي أوروبا»، ويتهم فولتير بأنه تجاوز سن البحث عن دروب جديدة لموهبة ضئيلة لشاعر. فينبغي في هذه السن - وقد بلغ فولتير الرابعة والأربعين - نظم الشعر بين وقت وآخر، والتزام ذلك الحد. لقد جعل الكاهن ذلك الشاعر الذي ذوى رونقه، والمعتكف في سيري، يشعر بأن مجده أضحى وراء ظهره، وأن دراساته النيوتنية «ليست سوى إنجاز تلميذ في المدرسة»، وعمل صبياني ممتزج قليلًا بخرف الشيخوخة.

كان ذلك كله مغلفًا ومموهًا وغادرًا، وإنه لأمر شنيع. استولت على فولتير تلك الحال من رعدة السخط الأقصى التي تحول واحدًا من أشد اللطفاء الحالمين إلى مجرم قاتل، وهو لم يكن كذلك. لكن لا بد من الانتقام. فشرع يبحث في كتابات ديفونتين كافة، وخرج في تشرين الثاني/ نوفمبر 1738 بقصيدة هجاء عنوانها الواقي (*Le Préservatif*)، يذكّر فيها، مجددًا، بكل ما يعرف الناس عن ذلك الكاهن الحقير. كانت تلك الأهجية مضيعة للوقت، وعملًا غير لائق. لم يوقعها

باسمه، بل جعلها تُوَقع باسم مغامر في عالم الأدب، يعمل لحسابه، فيتجسس لمصلحته على أصحاب المطابع ورجال الأدب في باريس، وكان يُدعَى الفارس دو موهي. ومن المسلم به أن كل من سيقرأ ذلك الاسم سوف يقول: فولتير.

ولو أن فولتير لم يردّ لفقَد ديفونتين الذي أُهين شرفه منذ وقت طويل آخر قارئ له، ولكان لزم الصمت. فهو لا يثير الاهتمام، إلا بعد واحدة من حملاته على فولتير، لأن الناس يقرأون ما سيقول فيه فولتير، وعندئذٍ فقط يهتمون بأن يعرفوا على من شن فولتير هجومه ولماذا. فما من كاتب خدم مصلحة أعدائه مثلما كان فولتير يفعل حين يرد عليهم.

كانت السيدة دو شاتليه تعرف ذلك، فتتوسل وتبكي وتصرخ وتستاء وتخفي الأوراق، من غير أن يحول شيء بين فولتير وانصرافه إلى عادته الخطرة. فما من شيء كان أكثر من ذلك إيذاء لسمعته وإضرارًا بمصالحه.

كتب أيضًا في كانون الأول/ديسمبر 1738 مسرحية كوميدية عنوانها الحسود (*L'Envieux*)، يكون زويلن، الشخص الأول فيها، هو ديفونتين. فلم يخطئ أحد تعرُّفه. فأي دعاية هي لذلك الهجّاء المغمور! كان زويلن مثقلًا بالمفاسد حتى أضحى قبوله عسيرًا أكثر مما هو هزلي؛ فرفض المسرح الفرنسي المسرحية. وكان من شأن ذلك مضاعفة غضب فولتير على الجاحد، نموذج زويلن!

لكن هذا الأخير، وقد رأى القضية تتحول إلى مصلحته، اندفع اندفاعًا جنونيًا لإثارتها من جديد. فكتب واحدة من أعنف القصائد الهجائية ضد الناسك في سيري، وكان العنوان ذا مدلول: الفولتيرومانيا.

عثر على مطعن جديد إضافةً إلى ما اجترّ من كلام؛ إذ اتهم فولتير بأنه عاش طفيليًا في بيت الرئيس دو برنيير. وهنا يعاود تييريو ظهوره. فيكيل ديفونتين له المدائح؛ فليس تييريو، من ناحيته، طفيليًا، وليس هو الذي عاش متعلقًا بأذيال دو برنيير، ولا بأذيال كائن من كان. وليس تييريو هو الذي قال إن ديفونتين كتب، لدى مغادرته السجن الذي أخرجه منه فولتير، أهجية بحق من أحسن إليه، إنما فولتير هو الذي اخترع ذلك كله، ثم ألصق كذبته بتييريو البريء.

يا لها من هدية يتلقاها تييريو تحمل شهادة استقامة كُتِبت بمثل ذلك القلم.

أما الحقيقة فهي أن تييريو متواطئ مع ديفونتين. خان معلمه وصديقه؛ سرقه من قبل، ويقوم الآن ببيعه.

حين وصلت الأهجية إلى سيري كان فولتير مريضًا، بل مريضًا جدًا، حتى إن إميلي لم تدعه يراها: خشيت من أن تتسبب في قتله، وكتبت تستشير دارجنتال، الملاذ الأخير: ما العمل؟ هل تجعله يرد أم لا؟

تولت إميلي الرد، فقامت بذلك بما يكفي من المهارة والشجاعة. دافعت عن رجلها العظيم دفاعًا يفضُل ما يقوم به هو نفسه. فهي التي كشفت عن الدور الدنيء الذي قام به تييريو، وهي تريد من الخائن أن يدين أقوال ديفونتين، كما ينبغي أن يؤكد تييريو علنًا أنه شاهد ديفونتين، وهو يكتب شتائمه. ولقد رآها! ولم يفعل شيئًا لمنع الكاهن من كتابتها، ولا من نشرها!

ما الذي دفع بتييريو إلى هذه الدناءة؟ دافعه في العادة بسيط؛ إنه المال. فما إن تدفع له حتى يباشر السير. والحال أن ديفونتين لا يملك فلسًا واحدًا. فيكون تييريو، في هذه الحال، قد تصرف بدافع من الخسة. فهو من ذلك النوع من الناس الذين بلا ذمة ولا ضمير، فيقبلون بحسنات الناس على أنها نوع من ضريبة لازب، ثم يشعرون من بعد بنوع من الرضا القذر المتمثل في الثأر من المحسنين إليهم. فالإحسان الذي يُصنَع حيالهم يُذلهم، فينهشون سرًا في أجساد حُماتهم، ويزدرونهم على طيبتهم نفسها. فحين سرق تييريو طبعة الـ هنرياد من سيده، الذي لم يعمل على سجنه، لم يرَ ذلك شهامة من سيده بل عده ضعفًا وحماقة. ولو كان بوسع فولتير تعليقه على المشنقة، لكان تييريو احترمه أكثر. ذلكم هو «الصديق تييريو».

كانوا في سيري يعيشون حالة من الذهول، مع محاولة التكتم عليها. وكان لا بد أخيرًا من تسمية الأشياء بأسمائها. أخفت إميلي عن فولتير أنها قرأت الأهجية الشنيعة، وكان فولتير نفسه قد قرأها أيضًا منذ اليوم الأول، وأخفى الأمر عن إميلي. إن فولتير هو الذي تلقاها أولًا، وبسبب ذلك أصيب بالمرض. وكان كل منهما يظن أن الآخر يجهل الأمر، فكان يسعى إلى الإبقاء عليه في جهله ليوفر عليه شيئًا من الحزن. والحق أن بين يدي ديفونتين وأمثاله، كثيرًا من السلطة!

لم يرد تيبريو على رجاء السيدة دو شاتليه. وبعد أسبوعين اثنين، بعث إلى فولتير برسالة غامضة ووجلة، فهو ما عاد يتذكر أي شيء. فأرسل إليه فولتير رسالة مؤثـرة ورقيقة، يتوسل إليه فيها أن يقول قولًا واضحًا وعلنيًا إنه رأى ديفونتين يكتب هجائيته بحق رجل أنقذه من ميتة شنيعة.

لكن ما من جواب. عندئذٍ أمسك السيد دو شاتليه بالريشة؛ بلى، إن زوج إميلي سيتولى الدفاع عن فولتير. فلم يتوسل إلى تيبريو، بل أمره بكتابة ما طُلب إليه، وأرفق بكلامه مخطط الرسالة التي سوف تُكتب، كما أرفق بها بعض ضروب التهديد الغامضة التي لا يسع تيبريو وأمثاله إلا الإحساس بها.

تميز موقف السيد دو شاتليه بجسارة مدهشة. كان في وسعه ألا يولي تلك المنازعات بين رجال القلم أي أهمية، وأن يلتحق بمركزه، لكنه وقف وقفة حازمة إلى جانب الصديق ضيف سيري، وهو موقف أعظم شهامة من موقف سولي. وهو ذو فضل في ذلك، إذ على الرغم من حرية العادات، كان وضع فولتير في سيري وضعًا مغلوطًا، مع أخذ كل شيء في الحسبان.

أما السيدة دو برنيير، فكان موقفها لا غبار عليه. كانت ساخطة على الكاهن وبرهنت على أن فولتير كان يستأجر شقته فيدفع بدل إيجارها، وحتى بدل إيجار شقة تيبريو. وذكرت بالمبالغ التي استلمها ذلك الخادم من سيده. يضاف إلى ذلك أنها حصلت على الربح كله من الرسائل الفلسفية، كما تسلمت متتي جنيه من الطبعة الإنكليزية.

هتفت إميلي مغتبطة لدى قراءة تلك الرسالة: «يا لبرنيير هذه من رائعة!». أجل، إن برنيير طيبة ورقيقة. ولم تقع عين فولتير عليها قط من حين سفره إلى لندن. ولم تكن عائلة برنيير على ما يرام، فصار الأصدقاء يتحاشون منزلهم. لقد توفي الرئيس، فباعت السيدة ريفيير بورديه، وتزوجت ثانية وفق ميلها هي، لا وفق رأي أصدقائها، من السيد برودوم الذي كان رجلًا حييًا، لكنه بعيد، لسوء الحظ، عن سلوك النبلاء، أو رجالات الفكر. فظفرت بزوج، لكنها خسرت الأصدقاء.

مع ذلك لم تكف إميلي عن الهتاف: «يا لبرنيير الطيبة! إني أحبها من كل

قلبي». وتنحدر الدموع من مقلتي فولتير، رقة وحنينًا، إلى ذكرى الأيام الخالية؛ ذكرى الصداقة الجميلة، والصديقة الحسناء. لكن تلك الاندفاعات الفائضة بالحنان، لم تؤدِ إلى دعوة السيدة برودوم إلى سيري.

لبث تييريو صامتًا. لم تكن نفسه تنعم بالطمأنينة، فكان في الوقت نفسه يغدر بفولتير، بطريقة أخرى. كان يعمل في باريس مراسلًا للأمير فريدريك، بتوصية من فولتير. فقام، لقاء أجر، بأداء دور الواشي لدى صاحب السمو الملكي الأمير فريدريك، فكان يبعث إليه بأخبار الشرطة السوقية، وبالأهاجي التي كانت تقطرها «حشرات بارناس»، والدبابير، والدويبات. وأرسل إلى فريدريك الفولتيرومانيا - لا ريب في أنها النسخة الأولى - فطرب لها فريدريك. كان فولتير يجهل الأمر. ولم يرفض فريدريك ذلك الطبق من النفايات. إنه يهوى الأذية، فيرسل إليه تييريو نصيبه منها.

ما عادت إميلي تقوى على ضبط نفسها، فكتبت إلى فريدريك تقول له من هو تييريو. ولا ريب في أنه ضحك كثيرًا لسخط المركيزة، ولسذاجتها. إنه يعرف حق المعرفة من هو تييريو، وهو لا يستخدمه إلا لخِسته. فما كان يطرب له فريدريك، إنما هو تلك الألاعيب الوحشية والدنيئة، حيث ينساق الأكثر ذكاء بين الناس ليسقط بسبب الغرور، أو ينحدر إلى دركِ أمثال ديفونتين وتييريو. وهاكم ما كان يستهوي فريدريك: إنه يزدري الروح الإنسانية، ويرغب في أن يكتشف الدناءة حتى لدى الناس الأكثر سموًا. إنه ينال مبتغاه! فليس من شأن حمية إميلي ونزاهتها وصفاء عشقها، سوى إضافة شيء من الأفاوية إلى ذلك الطبق الذي قوامه مرق الأفاعي، فيتلذذ فريدريك بطعمه. وهكذا، رد على إميلي قائلًا إن تييريو منضبط في خدماته، وإنه موضع تقدير بسبب رغبته في تقديم ما هو نافع، وإنه يحظى لديهم بالقبول. وذلك يعني بكل وضوح أنه لن يضحي بتييريو بسبب نزاعه مع فولتير. وإذا لم يكن هذا الأخير قد فهم إذ ذاك من هو فريدريك، فذلك يعني أنه لم يشأ أن يفهم، لكن فولتير كان يحب أصحاب السمو الملكي حتى العبادة، خصوصًا حين لا يكونون فرنسيين.

أما تييريو، فكان يعمل على إضحاك زُبُن المقاهي، حين يقرأ ضروب الالتماس التي توجهها إليه إميلي. وقد لاقى من النجاح ما جعله يقول إنه عازم

حتى على نشر رسائل المركيزة والشاعر المحزونين. وسامح فولتير! إنما ذلك ما لا يُصفح عنه. أما إميلي، فإنها استخدمت لغة مغايرة، فأرسلت تُنذِر تييريو بأنها قادرة على أن تسلط عليه أبناء عائلة شاتليه وعائلة بروتوي كافة، ممن يسعهم استخدام أساليب أخرى مغايرة لما تستخدم «حشرات بارناس».

واصل فولتير كتابة رسائل رجاء إلى تييريو. فما الذي حصل؟ هل هي صداقة فولتير الحميمة؟ أم تهديد إميلي؟ ليس من يدري، لكن تييريو شرع في إبراز صورة منمنمة للسيدة دو شاتليه، فردّ على الرسائل بلطافة، وانضم إلى أصدقاء فولتير المطالبين ديفونتين بالتراجع عن أقواله. وحين قال له فريدريك بأن يتصالح مع إميلي، استطاع أن يجيبه بأن المرء يتصالح مع الناس الذين تنازع معهم، فهل يتنازع المرء مع سيدة يحمل منها قلادة منمنمة مزينة بماسات قيمتها ثلاثمئة إيكو؟

واضح أن تييريو رجلٌ كثير الحيَل.

وتهلل فولتير فرحًا، فضم تييريو إلى صدره. وقفت السيدة الطيبة غرافيني مذهولة، وكتبت تقول بعد تلك المصالحة: «إنها لمدهشة تلك الصداقة التي يمحضُها فولتير لذلك الرجل».

أما هي وإميلي، فكانتا تفضلان العمل على تقطيع أوصاله.

إلا أن فولتير هو الذي كان مشحونًا غضبًا، بمساعدة من تييريو، حتى تمنى أن يُصار إلى تقطيع أوصال ديفونتين: وكان غضبه مسعورًا. فكتب إلى دارجنتال بحرمان باريس كلها من النوم ما دام ديفونتين لم يخضع للتعذيب. «سوف أموت أو يتم إنصافي». وها قد غرز أنيابه الآن، ولن يتخلى عن ضحيته من بعد. إنه يمتاز بطول أناة حيال بعضهم، وبعداء شرس حيال بعضهم الآخر؛ ذلكم هو فولتير.

إنه يطلق على دارجنتال لقب «ملاكي الحارس»، لكنه يخشى أن يكون «ملاكًا» أيضًا حيال ديفونتين. لا بد لدارجنتال، كي يكون ملاكًا حيال فولتير، من أن يكون إبليسًا حيال عدوه، وعليه أن يسعى لإنزال عقوبة رهيبة بحق الكاهن. في حين أن تييريو سوف يتلقى عطاءً جديدًا.

يا للهول! علم فولتير بأن اليسوعيين يرغبون في مصالحته مع ديفونتين. أبدًا! إنه عازم على التوجه مجددًا إلى باريس، لتجديد شحنة الحقد، وتسعير موجة

الغضب، حيثما يكون لديفونتين أصدقاء. فتوسلت إليه إميلي أن يبقى في سيري، فذلك السخط الهائل أفزعها. وكانت المشاحنات يومية؛ فيذعن تارة، وتارة أخرى يثور. هل يسافر؟ هل يبقى؟

ها هو ذا ديفونتين يدافع عن نفسه، لأنه ليس كاتب الفولتيرومانيا الوحيد. لقد وشى بشريكه: إنه جان باتيست روسو، المنفي في بروكسل. وليس لنا أن نندهش. ولو شاء فولتير أن يرد برسالة تودد على ج. ب. روسو، بعد قيام هذا الأخير قبل شهور عدة بالتمهيد لإعادة الصداقة بإرسال قصيدة غنائية كلها مدائح، لكان وفر على نفسه عدوًا. لكنه رد عليه قائلًا إن «هذه القصيدة ليست على درجة من الجودة للقيام بتسوية»، وإنه بوصفه خبيرًا بالنزاهة وبالقصائد، فإنه يطالبه بعملية تصحيح لقصائده ولأساليبه إن كان راغبًا في إجراء مصالحة. وأضاف، ليصب مزيدًا من الزيت على النار: «على الرجل الكريم أن يزدري الرجل اللئيم (تيبريو، على سبيل المثال) حتى اللحظة الأخيرة». فكان الجواب على تلك الوقاحات في الفولتيرومانيا.

كما ساقه حقده إلى أبعد من ذلك، ومن المؤلم الكشف عن الأمر. لقد قام روسو برحلة سرية إلى باريس، وعلم فولتير بذلك. وهنالك رسالة بخط يده موجهة إلى أحد المحامين، يسأله فيها عن إمكان العمل على توقيف روسو وإعادة مقاضاته في شاتليه. وشاء حسن طالع سمعته هو، أكثر من سمعة ج. ب. روسو، ألا تخلف الرسالة أي ذيول. بيد أنها كُتِبت. وذاك ما يمكن أن يوحي إليه جرح كرامته.

توافق أعداؤه على تعذيبه. ففي الفولتيرومانيا صفحة دُعيت بـ «رائعة مجهول»، يرِدُ فيها قص مغامرة فولتير وبوروغار، بطريقة من التهريج والإهانة؛ فالشاعر يتعرض للضرب بيد ضابط نبيل ووسيم، فيقول: شكرًا.

«أنت ترى في هذا الحين شاعرًا مستهامًا
جديرًا بأن يُعاقب، ومغتبطًا بتلقي الضرب».

كانت هذه الصفحة بقلم واحد اسمه سان ياسنت، وهو مغامر من سقط الأدب، وكان يُعد، ويا للمفارقة، ابن بوسويه، أجل، ابن «نسر مو»

(l'aigle de Meaux) الذي تمخض فولد ببغاء. وهو امرؤ نمامٌ، فكان فولتير يقول عنه إنه لا يصلح إلا للعصا وحبل المشنقة.

ارتفعت وسط ذلك الفيض من المهاترات والسباب، لهجة أكثر إثارة للشجن. قال فولتير إن الإنسانية في داخله جُرِحت بذلك التهكم كلـه وبتلك القهقهات من التي يطلقها الحشد الغبي. فهو يعرف من هو، وما قيمته، وأن في عذابه جانبًا من عزة النفس، ذلك أن هذا الرجل الذي هو، في نهاية الأمر، في طريقه لأن يغدو مفخرة بلاده ومفخرة عصره، ليس، كما يقول، سوى «مهرج عمومي، ينبغي له، سواء أفقد كرامته أم لا، أن يسلي الناس بسعر زهيد وأن يظهر على خشبة المسرح وهو جريح». وإنها، ويا للأسف، مأساة النجوم! لكنه رغب كثيرًا في أن يكون على المسرح! وها إن رغباته لُبيت. لكن ذلك لا يحول دون أن نفهم ألمه، فهو على حق: إن سلوك العامة «يجرح الإنسانية» في بعض الأحيان. ولكم نشعر بأنه «عصري» في موقفه؛ فهو اختار تلك الحياة العامة، وحتى حياة راوية عصره، بكل فيها من مساوئ، ومن حسنات تحمل نشوة النصر. ولو سُئل كم من «المقابلات» كان سيمنح، وكم مقابلة كان سيطلب أن تُجرى معه! وبعض الأفلام القصيرة، ومقالات حُرض عليها، وبرامج «نقدم لكم ربع ساعة مع فولتير...»؛ كان سيقبل ربما بإجراء مناظرات مع نيوتن، بل حتى مع ديفونتين! كل شيء يغدو في نظره مقبولًا، لقاء ملء الدنيا ضجيجًا باسمه. لقد صاغ لنفسه، على الرغم منه إلى حدٍ ما، حياة «نجومية»، قبل عصر السينما. أما حياته فيسعنا أن نطلق عليها تسمية: «قرن مع... أوروبا». إنها مسرح شاسع، يتسع لجمهور واسع، على قياس ذلك النجم العالمي.

أما الجروح التي أصيب بها على خشبة المسرح، فلن ينساها أبدًا. فبعد مرور خمسة أعوام على الفولتيرومانيا، وجه بضع طعنات ماكرة باتجاه مؤلف رائعة مجهول، مما عاد عليه أيضًا بردٍ عنيف من سان ياسنت الذي شكره على إغنائه اللغة الفرنسية بفعل جديد. لقد أصبح فعل: أوسعه ضربًا بالعصا، يُقال «فلترَ[43] (Voltairiser)» كما تعلمنا به حاليًا بعض الأبيات الشعرية التي يجري تداولها في باريس:

(43) نسبة إلى واقعة ضرب فولتير بالعصا. (المترجم)

«ومن أجل أهجية فاضحة
يقومون بـ 'فلترة' أحد الشعراء».

أقيمت الدعوى أخيرًا؛ فقبِل ديفونتين بأن يتنصل من الفولتيرومانيا، على أن يتنصل فولتير من قصيدة الواقي. وكاد فولتير أن يختنق غيظًا: ماذا؟ إن شرط المعاملة بالمثل بين فولتير وديفونتين، فيه قضاء على ضيف سيري، لن يحصل ذلك أبدًا! وقد أيدته إميلي.

حصل هيرو في نهاية الأمر - وهو الذي يرعى فولتير منذ عشرين عامًا، فيا لطول أناته! - على تراجع ديفونتين التام، بعد أن تهدده بوضعه في السجن. وصرخ فولتير: «ماذا؟ في السجن فقط؟». كان يريد له الشنق، بل تقطيع الأوصال. لم تكن النتيجة متألقة، لكن كان الكل راغبًا في الانتهاء من تلك القضية. ولم يكن فولتير راضيًا حتى بنشر تراجع عدوه، فظلت القضية محفوظة في الملفات. ولا ريب في أن هيرو أحسن التصرف. لا بد من دفن ذيول تلك المسرحية الهزلية الشائنة كافة، مع أن خطوطها تعيد إلينا إحياء ملامح أبطالها. وحين رغب الوزير دارجنسون بتكليف نفسه عناء استجواب ديفونتين، ليعرف منه ما الذي دفع به إلى كتابة تلك الدناءة كلها في حق من أحسن إليه، أجاب الكاهن بصلافة وقحة: «لا بد لي من تأمين عيشي». فرد عليه دارجنسون: «لست أرى من ضرورة لذلك».

إن هذين القولين يضعان القضية ضمن سويتها. ذلكم هو عدو فولتير، وذلك مدى التقدير الذي يكنون له.

لن يعود ذاك إلى الظهور أبدًا، لكن سيكون له خلفاء.

الحياة اليومية في سيري

كانت الحياة العذبة تواصل سيرها، على الرغم من أمثال ديفونتين وتييريو: «لا تتخيلوا أن الحياة الحافلة بالعذوبة في سيري وسط أعظم البذخ وأطايب الطعام، وأثمن الكتب، والصداقة التي تـَفْضُل ذلك كله، قد تعكرت لحظة واحدة بسبب نعيبِ لأثيم فاسق مصحوب بالصوت الأجش للعجوز روسو». كانت الحياة في سيري تمضي، وسط مشاهد السخط، ومشاهد الدموع، وبين أزمات التشنج ونوبات

الحمى، وهي أبعد ما تكون عن الحزن. كانوا يتصدون للأعمال الجادة الخالصة، وينعمون بالمباهج المتنوعة، كأن لإميلي وفولتير عشر شخصيات مختلفة، وكأن يومهما من ثماني وأربعين ساعة. إنهما يحبان ويكرهان ويعملان ويعبثان، وكانا خصوصًا يضحكان. يضحكان غالبًا - كذلك كانا يبكيان - وكان فولتير يحب في ربع ساعة من الزمن، أن يضحك وأن يستثير الضحك. وكثيرًا ما يأسف على أنه لم يستثمر حتى الأعماق مخزونه الفكاهي والجسور، وقريحته الباريسية التي كان من شأنها أن تجعله يؤدي الدور الرئيس مع دورين وسكابان.

يسعنا تقسيم تلك الحياة بشكلها اليومي تقريبًا، بفضل السيدة دو غرافيني التي لا تجعلنا نجهل أي شيء من مراسلاتها التي تفشي الأسرار بعذوبة. وجدير بنا أن نعرف تلك المرأة الأنيسة، ذلك أننا عرفنا من خلالها تحديدًا، فولتير في سيري، وعلى أحسن صورة. يقول فولتير عنها إنها، يوم استقبلوها في سيري، كانت «المثل الأعظم للشقاء في هذه الدنيا». أما عزاؤها فكان في أصدقاء لها: ريشوليو وفولتير وإميلي. وكان لها زوج أيضًا، لكنه رجل فظ، لم يقوَ على تعرُّف مخازنَ لا تنضب من حبٍ يفيض به قلب زوجته، فأحال حياتها إلى جحيم، وكادت تقضي نحبها تحت ضرباته، وهو آنذاك حاجب الدوق ليوبولد دو لورين. وكان ينبغي في ذلك العصر، كي يستطيعوا الحجر على الزوج بوصفه مهووسًا لأنه ضرب امرأته، أن يكون قام بضربها في واقع الأمر كثيرًا جدًا. ولقد أقضت تلك الأشياء مضجع فولتير. كانت المسكينة غرافيني، من جانب أمها، حفيدة شقيقة النحات الشهير كالو. وقالت إن أمها، وقد تضايقت من كمية الصفائح النحاسية التي قام الخال بحفرها، أعطتها لصانع قدور نحاسية كي يحولها إلى آنية للمطبخ!

كانت السيدة دو غرافيني ذات طبيعة خيّرة جدًا، فكان يمكن لضربات زوجها أن تحطم عظامها، لكنها لم تؤثر قط في طيب عواطفها، فهي تثق بالعالم والحياة. وكانت ذات طبع عفوي، فهي ترتمي معانقة الآخرين. وتحب الضحك، فتسرد عذابها عن طيب خاطر، وتبكي لسماع عذاب الآخرين. ولم تكن تملك فلسًا واحدًا تقريبًا، فتولى فولتير وإميلي حمل عبئها. وهي مدعوة لديهما باستمرار. وكانت حالة فوضاها بلا حدود أما تبذيرها فمتقطع. حين تصلها مِنْحتُها الصغيرة تقوم بتبديدها على الفور. وما همها؟ فذلك المرور السريع لبضع قطع نقدية بين يديها يفعمها غبطة. ومن بعد ذلك، تستدين. فنحن نرى أنها ذات طبيعة سعيدة.

أما سعادتها الحقيقية فهي الصداقة. إن فولتير هو الرب المعبود بالنسبة إليها، أما إميلي فهي «حورية» وحسب. ولديها مجموعة من الأصدقاء الرائعين تكتب إليهم تحديدًا، وهي تمحضهم شعورًا صادقًا، متوقدًا وتلقائيًا مندفعًا، وبأسلوب بعيد عن التكلف، فتقول أنتَ أو أنتِ (tu, toi)، [بدلًا من حضرتكم]، وتناديهم بألقابهم المصغرة تحببًا. فواحد منهم لقبه «بامبان»، هو السيد دوفو، وثانٍ تدعوه بـ«ماروكان»، هو السيد ديماريه، وثالث «بوتي سان» (Petit-saint) (القديس الصغير)، هو المركيز دو سان لامبير الذي سوف نتحدث عنه لاحقًا. أما الصديق الأقدم والأشد إخلاصًا والأكثر حميمية، فهو «بامبان». وفي أيام الكآبة الرقيقة يعالجونها بـ«حساء بامبان». إنه يعمل قارئًا عند الملك ستانيسلاس، في نانسي. وليس عمله ذاك بالعبء الثقيل، غير أنه كافٍ بالنسبة إلى هشاشة بامبان. إنه ظريف وخجول وخفيف الظل، خفيف الظل جدًا. وينظم أشعارًا، هي قصائد صغيرة، قصائد في خفة الفراشات. كما يتمتع بكثير من أوقات الفراغ لأن صاحب الجلالة البولندي يستهزئ بالقراءة، إذ يقول الملك ستانيسلاس: «وما عساي أفعل بقارئ، فدوره سيكون كدور معلم الاعتراف لدى صهري».

(صهره هو الملك لويس الخامس عشر الذي لم يكن مفرطًا في الاعتراف). وقد نظم فيه أحد كهنة البلاط الأبيات الآتية:

«أغدقت السماء عليك كل العيوب المحببة
فأنت لا تتمتع بغير الفضائل المغفورة بكل يسر».

فيا لها من فلسفة! ويضيف الكاهن:
«... وضروري أخيرًا عبر خفته
وعبر أشياء بلا قيمة وذات قيمة».

ذاك هو الصديق المفضل لدى غرافيني الطيبة. وما خشيت أبدًا أي سوء معاملة منه.

أما ديماريه الذي كانت تناديه أحيانًا بلقب «دكتور» أو «الكلب السمين»، فالأمور معه مضت إلى أبعد من ذلك، لكن في حالات نادرة، لأن الحياة، كما يُقال، فرقت بينهما. لكنها تحبه، وتحب الحب حتى في الفراغ. ليس

لديها في أي حال سوى أن تفعل ذلك، زد على ذلك أنها في الخامسة والأربعين. ولم تكن جميلة جدًا، غير أنها كانت على استعداد لأن تهب ما لديها. لكن من النادر جدًا أن يعاملها الأجلاف بالمثل.

أما وهي تشعر بعزة نفسها، فلا تقبل أي مديح ما لم يكن في صيغة لائقة، ولا سيما حين لا يبدو صادرًا عن القلب. وهكذا صرفت، بالتي هي أحسن، ضابطًا شابًا جاء ليغزو الساحة بحد السيف. وشكت الأمر إلى «الكلب السمين» الذي غمغم، وبدت عليه الغيرة. عندئذٍ أطلقت عليه اسم «العشق» وقبلت بالزواج منه عن طيب خاطر. وديماريه أيضًا رغب في الزواج منها. لكن هنالك أمها الساهرة عليها التي ترى أن ديماريه عادي جدًا وفقير جدًا. إن اقتران المجاعة بالعوز، لا يصح، ولا سيما أن المجاعة - غرافيني وُلدت من آل إيسمبور دوبريكور، إنها ترفض الاقتران بالمُعوَز- ديماريه الذي لا أصل له ولا فصل. وها هي ذي السيدة تذرف الدموع، لكنها استعفت: «أحبيني كثيرًا أيها العشق، ودع جانبًا الأقاويل كافةً».

وصلت إلى سيري في كانون الأول/ ديسمبر 1738. وكانت قبل ذلك مرافقة للآنسة دو غيز، قبل زواجها من ريشوليو. وصلت الشقية في الساعة الثانية قبيل الفجر، فأيقظت كل من في القصر. ولو أنها اختارت أن تدخل متكتمة، لما تمكنت من ذلك. كانت عربتها مختفية تحت الوحل حيث كادت مئة مرة أن تغور فيه فتبيد. وأقبل فولتير لاستقبالها مع الجميع. إنه في مبذله، ويضع قبعة وفراء، ويحمل بيده شمعدانًا وهو يرتعد من البرد. وقد استقبلها والدموع في عينيه. واستقبلتها إميلي بالترحاب، وهي تنظر مندهشة ومستمتعة بمنظر فولتير الذي لا يني يقبّل يدَي المسافرة، ثم يعاود تقبيلهما، وهي الطائشة تتكلم بإفراط عن الموت الذي لامسها مئة مرة أيضًا ثم آثر، كما يبدو، أن يدعها بصحة جيدة ومهذارة.

لكن إن كانت غرافيني تتكلم، فهي تنظر فترى بوضوح، وتسمع فتدوّن. وقالت عن لقائها الأول بإميلي... «حدثتني بدء الأمر عن دعاواها بلا تكلف. إن ثرثرتها لمدهشة. ما عدت أذكر شيئًا منها، فهي تتكلم بسرعة قصوى وكما أتكلم أنا حين أقلد الفرنسية (إن السيدة دو غرافيني لورينية، وإميلي باريسية. فكلامهما يتساوى، لكن اللكنة تختلف. فحين تقلد غرافيني الفرنسية، فذلك حين تتخذ

اللكنة والنغمة ونبرة صوت ضاحية سان جرمان). إنها تتكلم مثل ملاك، وهذا ما تيقنتُ منه. وهي ترتدي فستانًا من الحرير الهندي ومريلة كبيرة من قماش التفتة الأسود، وشعرها الأسود طويل جدًا، ومرفوع من الخلف حتى قمة رأسها ومعقود مثل شعر الأطفال. وذلك يليق بها على أحسن صورة».

تتيح لنا غرافيني أن نرى شقة فولتير. «إن بهوه كبير بحجم الكف، وتأتي من ثم غرفته الصغيرة والخفيضة المفروشة بالمخمل القرمزي، والمخدع كذلك وله هدب ذهبية. إنه الأثاث الشتوي. فهنالك القليل من السجاد لكن الإكساء كثير، وهنالك عدد كبير من اللوحات الرائعة ضمن إطارات، والمرايا، والأركان المبرنقة المدهشة... وأشياء لا تحصى، ضمن ذلك الطراز، والكل ثمين ومشغول بحرفية، وعلى درجة من النظافة بشكل خاص تدفع بالمرء إلى تقبيل الأرضية، وهنالك صندوق مفتوح مليء بالآنية الفضية. هنالك كل ما استطاع الفائض، وهو شيء ضروري، أن يبتكره».

إنها تضمّن كلامها هنا بيتًا من نظم فولتير حين يقول في *Le Mondain* (الدنيوي): «الفائض عن الحد، شيء ضروري»، ويأتي ذلك في الوقت الملائم. إنه يتخذ شكل فورة، إلا أنه عميق المعنى، فهو يعبر عن فكرة جوهرية بالنسبة إلى فولتير: الحضارة تخلق البذخ، والإنسان يتكيف معه تكيفًا طبيعيًا. فالفائض عن الحد ضروري للإنسان المتحضر. وهذا ما يقودنا إلى القول إن «طبيعة» الإنسان هي في الحضارة، لا في الغابات العذراء. وهذه الفكرة تُعد العُدة لحربه مع روسو الآخر - مع جان جاك روسو - الذي يقوم بشحذ سهامه هناك، في جبال سافوا، في حين أن السيدة غرافيني تتأمل علبة الخواتم، فتلامسها بعبث وتعد أحد عشر خاتمًا من الحجارة الكريمة المحفورة، واثنين من الماس. ثم تسير في الرواق حيث تتأمل تمثالين بين النوافذ: فينوس فارنيز، وهرقل. وفي مواجهة النوافذ خزائن ملأى بالكتب وأجهزة الفيزياء، إضافة إلى «مدفأة تجعل الهواء كما في الربيع». وليس الدفء بالنسبة إلى فولتير بذخًا، إنه الحياة. وهو بالنسبة إلى غرافيني جو من الفردوس، من بعد ليلتها في المستنقعات المتجمدة. والرواق مكسو ومطلي بالأصفر.

هنالك أيضًا غرفة معتمة يتم فيها تخزين آلات المخبر وماكيناته، وهي

مجهزة بباب يمكن فتحه لسماع القداس، دونما حاجة إلى الخروج من ذلك الجو الربيعي الذي يسود الرواق. ذلك شكل من رفاهية التقوى التي أمنها فولتير لنفسه؛ لا ريب في أنه استذكر مونتاين الذي كان في وسعه أيضًا الإصغاء إلى القداس من غير أن يغادر مكتبته. التقوى؟ ولم لا؟ لكن لا يسعنا التأكيد أن رجالًا من تلك الطينة الفكرية قاموا بذلك التجهيز في سبيل التقوى فحسب. ونحن منساقون إلى الاعتقاد بأن ذلك من أجل طمأنة الزوار إلى درجة تقوى رب البيت.

إلا أن شقة «الحورية» هي التي بهرت السيدة دو غرافينيي على وجه الخصوص. حورية تلك الأمكنة المسحورة. فذات يوم كان ليبان رائق المزاج، فكتب لإميلي الأبيات الآتية:

«مسافر لم يعرف المراءاة البتة
مر في سيري فأعجب بها وأخذ يتأملها
وحسب بدء الأمر أنه قصر
لكنه رأى إميلي، فقال: إيه! بل هو معبد».

جعل ليبان من «الحورية» ربة. أما غرافينيي فظلت عند الحورية، غير أن المسكن رباني.

«ليس مسكن فولتير بشيء لدى المقارنة، فالغرفة مكسوة بالخشب ومطلية بلون من الأصفر الخفيف مع شرائط من الأزرق الفاتح، ومخدع مثل ذلك محاط بإطار من ورق الهند الفتان. والسرير من الموهير الأزرق. وكل شيء متناسق ومتناغم، حتى سلة الكلب كانت بلون أصفر وأزرق».

هتفت تقول: «كل شيء محفور ومشغول بدقة علبة تبغ». وهنالك لوحة بريشة فيرونيز! ولوحات عدة بريشة واتو! والسقف من برنيق مارتان، ومجموعة أدوات كتابة من الكهرمان، أرسلها فريدريك (وعليها أبيات من الشعر)، وكنبة من قماش التفتة الأبيض، وستائر من الموسلين المطرز، وخزانة أرضيتها من المرمر ومكسوة برمادي الكتان. «كلا، ليس في العالم ما هو بمثل هذا الجمال».

يبقى أن فرط البذخ الأقصى - ولم يكن شيئًا مألوفًا في ذلك العصر - يتجلى في غرفة الحمام. فالأرضية من المرمر، والحيطان مكسوة بمربعات من

البورسلان، وحجرة صغيرة متصلة بها مكسوة بالأخضر الفاتح، وأريكة وكنبات مذهبة ومحفورة للاستراحة بعد الاستحمام! وهنالك خزائن زجاجية للكتب أيضًا، وكل شيء مبرنق وبراق ومشغول بدقة. والموقد من المنمنمات. فتقول غرافيني وكأنها تهذي: «إنها تحفة من الحلي، تصلح لأن توضع في الجيب. ولو كان لدي مسكن مثل هذا لطلبت أن يوقظوني ليلًا كي أراه».

لكن يا للأسف! كانت غرافيني تقطن تحت السقائف، وليس لها إلا أن تنام هنالك ما وسعها، كي لا ترى مأواها الكئيب. كانت غرفتها «أشبه بسوق الخضار، من حيث ارتفاعها وعرضها، حيث تعبث فيها الرياح كافة عبر آلاف الشقوق حول النوافذ التي سوف أسعى إلى سدها إذا ما وهبني الله طول العمر». فإكساؤها قبيح. وليس من منظر يمكن الإطلال عليه عبر النافذة ذات العوارض. والموقد واسع جدًا حتى إنه يستهلك من دون أي نفع نصف حمل من الحطب يوميًا. والحجرة والخزانة مليئتان بالشقوق. وقد كتبت إلى بامبان تقول: «باختصار، فإن كل ما ليس له علاقة بمسكن السيدة وفولتير، هو على درجة من القذارة المقززة. لقد بدت لي الحدائق جميلة من نافذتي. فأقول في نفسي اهربي من هنالك».

بتنا نعرف العرين. فلنرَ إلى الحورية والرب اللذين يقيمان فيه.

تقتر إميلي على الخدم في الأجور وفي الطعام. ويتندرون في باريس على مائدتها حيث التدني ظاهر في عدد الأصناف، كما في نوعية الطعام. وتشتري النبيذ بمعدل زجاجتين. نبيذ أحمر تقول عنه إنه نبيذ بورغونيا في حين أنه نوع رديء مجلوب من سورين، ونبيذ أبيض تعلن أنه شمبانيا، لكنه على درجة من الحموضة قمينة بإيقاظ الموتى وقتل الأحياء.

إنها لمعذورة حين تكون في باريس، فالسيد دو شاتليه ليس غنيًا. أما في سيري، فإن فولتير هو الذي يتولى الإنفاق على شؤون المنزل الذي يريد له أن يتميز بالثراء، والذي كان كذلك. إلا أن إميلي حافظت، في الثراء الفولتيري، على عاداتها المستهجنة. وكان ذلك يؤدي إلى مغادرة الخادمات المنزل على نحو مفاجئ، مما يتسبب بإغاظة فولتير. أما بشأن استخدام الوقت، فكأن المرء، وفقًا لما شهد السيد دو فيلفور، في ثكنة عسكرية، أو داخل أسوار دير، بحسب الاختيار. وتتظلم غرافيني من قسوة هذا النمط. فالحورية والرب ينهضان في

الخامسة صباحًا، وليس لأحد، ما لم يكن مدعوًا، أن يخرج من غرفته قبل العاشرة. فالسيدان يعملان في غرفتهما. أما الآخرون فليس عليهم سوى أن يفعلوا الشيء نفسه أو أن يلبثوا ساكنين. وفي العاشرة اجتماع في الرواق الأصفر لتناول القهوة. ويدوم ذلك ساعة. تليه عودة إلى الحجرات أو القيام بنزهة، وفقًا للمزاج وحالة الطقس. فنلاحظ، في الساعة العاشرة، أن فولتير وإميلي أنجزا عملًا طوال خمس ساعات! وعند الظهر غداء «الحوذيين». فمن «الحوذيون؟» إنهم السيد دو شاتليه، حين يكون هنالك، والسيدة السمينة الطيبة دو شامبونان وابنها، ذاك الذي لم تقبل ابنة أخت فولتير به زوجًا لها. وكان السيد دو شاتليه يتناول الطعام على حدة، لأنه يغفو أثناء الأحاديث العلمية، في حين أن زوجته وفولتير يضنيهما السأم لسماع حكايات حملات المركيز العسكرية. وكان ذلك الانفصال يروق الجميع. وبعد غداء المعبودَيْن، يتمتع المدعوون بحق الحديث إلى فولتير والحورية. كانا يتحدثان عما انتهيا من قراءته، أو عن المسائل التي هما عازمان على حلها. ويأتي الحديث عن الهندسة عنصرًا مساعدًا على الهضم. وحين تكون لدى فولتير قضية أمام المحاكم، وقد صارت في نقطة حرجة، يدور الحديث حول تلك القضية. أما إذا كان ديفونتين يلتزم جانب التعقل، وكانت المعادلات الرياضية قد وجدت حلًا لها، فإن الحديث يتناول الأدب أو الشعر. وعند إلقاء مُلحة ينهض فولتير، فينحني تحية للجميع، وبعبارات لبقة وطرائق البلاط التي تطرب محيطه، يمضي بالمدعوين بكل هدوء نحو باب الخروج. ثم يتوجه إلى غرفته، أو إلى حجرة الفيزياء، حيث يظل يعمل حتى موعد العشاء في الساعة التاسعة.

كان يروق غرافيني أن تقص مجريات حياتها وحياة الآخرين على بامبان، أو على «الكلب السمين». كان اهتمامها الوحيد منصبًا على كتابة الرسائل، ثماني ساعات كل يوم. وفي حدود الساعة الرابعة، كان فولتير وإميلي يتناولان معًا، في بعض الأحيان، وجبة طعام خفيفة. وتحذرنا غرافيني بأن من التهور المخاطرة بالذهاب إلى الرواق في تلك الساعة، ما لم تكن مدعوًا للتوجه إلى هنالك. ويا لها من نعمة! كانت المسكينة غرافيني تأتي لتجلس عند أقدام هذين الكائنين القدسيين، وهي تقضم شطيرتها كأنما هي مَنٌّ سماوي. وكانت أقوال الرب والحورية تجعل عابدتهما تنسى أحزان حياتها. ونحن نصدقها؛ إذ لا بد للمحادثة مع فولتير، التي ترعاها في جو حميمي كل من إميلي وغرافيني، ذات

الحديث العذب هي أيضًا، من أن تغدو سحرًا حقيقيًا. وبعد ذلك تصعد إلى غرفتها، ونفسها مفعمة إعجابًا. لكن وا أسفاه! تصعد لتلقى فيها البرد والظلمة والعزلة. فتجهش بالبكاء إلى حين قرع جرس العشاء. أما على العشاء، فما إن تجد معبودتها والمصابيح والجو اللطيف، والفضيات الفاخرة على المائدة، والطعام الشهي، حتى تنسى كل شيء، فتتكلم وتضحك كالمجنونة مع فولتير الذي كان يعشق ضحكاتها فيشاركها فيها.

إميلي شرهة، لكن الطعام يجعلها محتدمة. وهي تخلت عن تناول الخمور. أما حين تُفرط في تناول الطعام، فإنها تلتزم من بعد بحمية. وتقول: «هذه الأيام من الحمية لا تكلفني شيئًا، ذلك أني، في تلك الأثناء، ألزم بيتي في ساعات الطعام».

تلزم بيتها وتعمل!

أما فولتير، فيحرص من ناحيته على المشاركة في مباهج المائدة، كالآخرين جميعًا، ما لم يكن متألمًا جدًا. فتراه آنذاك الأكثر مرحًا، والأكثر جاذبية بين الضيوف. ولربما كانت تلك الأقوال السادرة هي روائعه؛ إذ إن تلك الأحاديث السريعة والخفيفة تعبر عن أكثر الأفكار تألقًا. فتتبلور عبره باختصار باهر المكتشفات التي جرى التوصل إليها في أثناء ساعات الاجتهاد، فيلقي بها فولتير بسرعة البرق. وقد تبدو تلك المكتشفات، في نظر الجاهلين بأصول العلم، ارتجالًا أو هبة من السماء، في حين أنها في الواقع الذروة القصوى لجهد عنيد ومستبسل، وتفكر بطيء وعميق يُستخلص بيسر سامٍ وبنوع من المرح الطلق. وتتألق كثيرًا تلك الجواهر التي لا تُقدر بثمن؛ لأنه يبدو كمن يتلاعب بها تحت أنوار الثريات، وتحت الأنظار التي تلتمع ذكاء لمجتمع جدير بتقدير قيمتها.

لم يكن هنالك من يباريه في فن التحدث ذاك، لأنه يتمتع – فضلًا عن الفطنة – بلباقة كاملة هي أيضًا «بذخ» وهي فتنة. وكان يعلم إلى أي حدٍ ينبغي أن يكون عميقًا من غير وقار، ومعابثًا من غير ابتذال، وكان يجيد إثارة الاهتمام والمس من قرب، والنقد الواخز من غير تكدير قط، وما كان يفرض من جهدٍ البتة من طريق عبارة غامضة أو خشنة، فيهب الجميع رضا الفهم، وتلك هي المهارة القصوى! كما يقدم لمحدثيه متعة الرد عليه بحدة. فبسبب ذلك كله كان من المجتمع الراقي، والمجتمع الراقي قد دلّله؛ إذ كان يرى فيه صورته. أما رجال الأدب المعوزون

فكانوا يكرهونه، وذلك ما لا يمكن تلافيه. كان يبدو كمن يتلاعب بكل خفة بموهبته الخارقة، في حين أنه كان يعمل أكثر من عشرةٍ من الكتّاب المزعومين الثرثارين.

كانت إميلي تعمل ليلًا على وجه الخصوص. أما في الساعة العاشرة صباحًا، فتتناول القهوة دومًا مع الآخرين. ويتوجه فولتير أحيانًا ليزور المدعوين في غرفهم. لكن ذلك نادر. ويرفض الجلوس على الدوام كي لا يتأخر، فيقول «إن أعظم هدر يمكن القيام به هو هدر الوقت». فيسبب هذا القول الغم للسيدة دو غرافيني.

أما والرياضة لا بد منها، فكانت المركيزة تمضي على جواد فيما يصعد فولتير في عربة ويذهب لصيد اليحمور. لكنه من أسوأ الرماة، فيرسل بالطرائد إلى أصدقائه، لكنه لم يصطد بيده هو البتة.

أما الاحتفالات، فهي العروض المسرحية. إنهم يقدمون الكوميديا في سيري. فالمسرح هو أكثر من تسلية؛ إنه من الشعائر الدينية. وإنه لحبٌ جنوني ذلك الذي يشعر به فولتير نحو خشبة المسرح، فيشاطره الآخرون هذا الميل. إنه مسرح ضئيل الحجم - تقول السيدة دو غرافيني إنه مسرح للعرائس - بلى، لكن خشبة المسرح واسعة. وهنالك تمرينان أسبوعيًا: الاثنين، والثلاثاء، وعرضان أيضًا: الأربعاء، والخميس. فتُلزم إميلي الشاب شامبونان برسم إعلانات يجري إلصاقها على باب القصر، وهي تقلد «إعلانات باريس»، فيعرضون تراجيديات فولتير أولًا. ثم يتسلوْن بعروض العرائس، ويقدمون كوميديا للمسرحي رينيار.

يقوم فولتير في بعض الأحيان، بعرض للفانوس السحري مساء. ولندع السيدة دو غرافيني تتحدث: «بعد العشاء عرض علينا الفانوس السحري وأرفقه بأقوال تميت من الضحك... كلا، ليس من شيء يفوق ذلك إضحاكًا. إلا أنه، لشدة ملامسته لمرشة الفانوس الذي كان مليئًا بالكحول، انقلب على يده، التي اشتعلت فيها النار فالتهبت. إيه يا إلهي كم كان المشهد جميلًا، لكن ما ليس جميلًا أنها التهبت. وقد أحدث ذلك شيئًا من الخلل في التسلية التي عاد إلى مواصلتها بعد ذلك بوقت قصير».

تنطحوا للأوبرا أيضًا. كانت إميلي ذات «صوت ملائكي»، هذا ما كان يقوله

الجميع، حتى هي. وكانت في بعض الأماسي تنشد أوبرا بكاملها. أما بعد يوم من فيزياء نيوتن، فإنه لعمل بطولي. كان شقيق إميلي الأب دو بروتوي، النائب الأسقفي في سانس، يأتي غالبًا. وكان هو وفولتير ينفعلان كثيرًا في ما بينهما، حتى تتخذ المناقشات في تلك الأماسي شكل ألعاب نارية. وكان موبرتوي يأتي أيضًا، وهو خفيف الظل، لذا كانوا يسمونه أرخميدس، فيزيده اللقب ظرفًا وكياسة، إذ جعلهم يسكرون بالرياضيات، نهارًا وليلًا، طوال أسابيع عديدة. وإن الأمر ليبعث على الهذيان. وقد لازمت غرافيني غرفتها. كان ينتابها الفزع مما يتداولون على المائدة، إذ ظنتهم جميعًا مجانين.

بعد سنة من العيش المشترك مع هذين المعبودَيْن، شعرت غرافيني بأنها مرهقة. فالفاتنان لا يفتنانها كل يوم. وكان بين الرب والحورية في بعض الأحيان مشاحنات مرعبة، فتجد الشقية نفسها متورطة فيها. كانت تلك الخلافات ترعبها، فترى نفسها محطمة كالزجاج. إنها قوى مسعورة، مرهوبة الجانب في غضبها، وليس ذلك بالنسبة إلى صاحبيها، لأنهما كانا يتصالحان على الدوام، من بعد القسم على الافتراق، ومن بعد التلاعن وتبادل الشتائم، باستخدام أشد العبارات حقدًا. وإذا حكمت غرافيني على نبرتهما وتعابير وجهيهما – ذلك أن فولتير وإميلي حين يتنازعان، يكون نزاعهما بالإنكليزية – فإن فزعها لا يكون أقل. بل إنهما، من ناحية أخرى، حين يتبادلان تعابير الملاطفات علنًا، فإنها تكون أيضًا بتلك اللغة التي ليس من يتكلمها آنذاك في سيري، ولا في أي مكان خارج سيري أيضًا.

هذه واحدة من تلك المشاحنات، مع أنها ليست الأشد عنفًا، لكن البطلين ينكشفان على حقيقتهما تمامًا. وصل فولتير إلى العشاء ذات مساء، فلم تشأ له السيدة أن يكون في بزة الجوخ التي يرتديها. إنها تريده أن يرتدي الحرير، فرفض تغيير ملابسه لأنه يشعر بالبرد ويخشى أن يصاب بالزكام. ألحت، فأصر بعناد. وأرسلت في طلب خادم لم يكن هناك. ورفض فولتير الصعود إلى غرفته ثانية. فصرخت وصرخ، وخبط كل منهما الأرض بقدميه – والكلام كله بالإنكليزية – ثم خرج. وجلس الجميع إلى المائدة في جو من الهول الكلي. وأرسلت في طلبه. «إن السيد مصاب بمغص، ولن يتناول العشاء». إن حياة فولتير ينهشها هذا المرض الذي يداهمه ساعة يشاء، ولا ريب في أنه يداهمه، أحيانًا، حين لا يشاء.

ثمة مدعوون جاءوا لسماع ميروب (*Mérope*)، وقد أصيبوا بخيبة أمل. وذهبت غرافيني تتسقط الأخبار، فوجدت فولتير في غرفة السيدة دو شامبونان، وهو يقص حكايات على تلك المرأة السمينة والمرحة. ما عاد مصابًا بأي مغص! وجلست غرافيني، وانخرط الثلاثة في الضحك متناسين إميلي. وقامت إميلي باستدعاء الجميع. فعاود المغصُ فولتير الذي نزل مع ذلك، لكن بهيئة من الاكتئاب التام. فوجهه شاحب وكئيب. كان قادرًا، لدى تغير مزاجه، على تغيير وجهه، وحتى لون بشرته. وخرج المدعوون، فاستؤنف الحوار حينئذٍ بالإنكليزية. وبعد بضع كلمات شعت العيون وعادت البسمات، فنهض الاثنان وأمسك كل منهما بيد الآخر، فاستأنفا الحديث بالفرنسية، وفي اللحظة التالية، جرى تمثيل ميروب.

تقدر السيدة دو غرافيني أن مشاحنات عائلية من هذا النوع هي الكفيلة بجعلنا نحكم على أن ما بين الاثنين شيئًا آخر غير الصداقة العادية، وإنهما «لعلى درجة مدهشة من الاحتشام». لكنها تضيف قائلة إن إميلي «تجعل حياته على شيء من القسوة». إلا أنه لا يتظلم من ذلك.

في يوم آخر كان مستاء لأنها منعته من أن يشرب من نبيذ الراين. فرفض أن يقرأ قصيدته وعنوانها جان (*Jeanne*) - وهي أيضًا عمل فاضح في طور التأليف - ولسوف تُعرَف تحت عنوان «العذراء». وجرى أخيرًا إصلاح ذات البين، ثم أصغى ستة أشخاص أو سبعة، في جو من السرية التامة، إلى تلك القصيدة التي لا ينبغي لأحد أن يدري بوجودها. إنه سر على طريقة فولتير!

وقرأت إميلي، في أمسية أخرى، بضع أبيات من نظمها، عند دوقة لوكسمبورغ، في أثناء رحلة قاما بها إلى باريس. فقال فولتير بسوء نية إن الأبيات ليست من نظمها، لأنها أبيات جيدة. فردت عليه. وصرخ فصرخت، بالإنكليزية والفرنسية: إنه لهذيان. وبغتة كشف لها عن خنجره: «إياكِ أن تنظري إلي بهاتين العينين الزائغتين الحولاوين». كان الوضع رهيبًا. إنها المرة الأولى التي يخاطبها فيها بصيغة المفرد علنًا!

كان ذلك كله أقل رهبة مما جرى لمنكودة الحظ غرافيني. فقبل عيد الميلاد في عام 1738 بمدة قصيرة، دخل فولتير عليها، كأنه مسلوب اللب. فقال لها إنه أضحى في عداد الأموات، ما لم تهبّ لإنقاذه. وهي ترغب في ذلك، لكنها لا

تفقه حقيقة الأمر. فقال: «اكتبي لبامبان كي يبادر إلى سحب النسخ التي يعمل على تداولها»، إنها على استعداد للكتابة، لكن ما النسخ المقصودة؟ فانفجر فولتير بالغضب على نحو مباغت، وشرع يثب كالشيطان المتحرك على نوابض فوق المقعد الذي بدا كأنه سوف يلفظ فوقه أنفاسه، فهو يركض في الغرفة ويصيح متهددًا ومتوعدًا: «ليس ما يدعو إلى التأود، يا سيدتي، فأنتِ التي أرسلتِها».

جاء دور غرافينيي لتنهار. فما حقيقة الأمر؟ وأخيرًا أوضحوا لها أن مخطوط جان سُرق، وأنهم طبعوا منه نُسخًا يجري تداولها، وأن فولتير يعتبر نفسه مشنوقًا، وأنها هي التي وجهت تلك الطعنة. فأخذت تصرخ وتنوح، وتُشهِد السماء، وترتمي على قدمي فولتير الذي يرتمي بدوره على قدميها؛ فالاثنان راكعان يبكيان ويتوسلان. وأقسمت على أنها بريئة، فيما هو يتوسل كي يستعيد جان. فكيف لها أن تكفّر عن خطيئة لم ترتكبها البتة؟ وليس ذلك كله بشيء بعد؛ إذ لا بد من مجابهة إميلي، إنها نيميزيس حقيقية. دخلت وهي تثب على غرافينيي، وتحمل رسالة تلوح بها: «هاك البرهان على دناءتك... أنتِ وحشٌ رهيب أدخلته إلى بيتي، لا بدافع الصداقة التي ما شعرت بها قط، بل لأنك ما كنت تدرين إلى أين تذهبين، ويلغت بكِ الدناءة حد خيانتي، بل اغتيالي! حد سرقة مؤلف من مكتبي بقصد نسخه...».

إن المرء ليتساءل إن كان فولتير ومن في محيطه يؤدون الكوميديا على خشبة المسرح أم في الحياة اليومية. فتلك الصرخات وتلك الحركات والمواقف، ذلك كله يجعلنا نفكر في المسرح. وسعى فولتير إلى أن يسيطر على إميلي، فأفلتت من بين يديه، وهي تذرع الغرفة وتصرخ شاتمة. وفي النهاية طلبت غرافينيي أن ترى «البرهان»: إنها رسالة من بامبان موجهة إلى غرافينيي. ولنذعن هنا للحقيقة: كانت الحورية والفاتن يعترضان سبيل بريد المدعوين لديهما في الذهاب وفي الإياب. وقد اكتشفا في رسالة بامبان تلميحًا إلى «العذراء»، ومن هنا استخلصا الدسيسة الجنونية كلها، والتي كانت بلا أساس. كانا يحبان الآلات والوسائل التدليسية، فيبعثان بها إلى كل مكان. أما المسكينة غرافينيي، البريئة والمنهارة، والتي تكاد تصاب بالجنون خجلًا وألمًا - وسخطًا أيضًا - فوعدت في سبيل أن تتخلص من المرأة الرهيبة - وهو اللقب الذي ستطلقه بعد اليوم على الحورية - أن تريها رسائل بامبان كلها. وانتهت فصول المسرحية في الساعة الخامسة صباحًا.

ما عاد في وسع السيدة غرافيني البقاء في سيري بعد اليوم. لكنها لا تملك وسائل السفر. وإلى أين سوف تذهب؟ فهي لا تملك فلسًا واحدًا. وجاء فولتير ليراها عند الظهيرة. شعر بالشفقة عليها فعمل على طمأنتها. كذلك جاءت السيدة دو شامبونان والمركيز. أما الاعتذار الوحيد الذي صدر عن السيدة دو شاتليه، فكان أن قالت لها بجفاء: «إني منزعجة من كل ما حصل في هذه الليلة». ولم يكن ذلك بكافٍ لتضميد الجراح. أما وأن ذلك جرى في أثناء قضية ديفونتين، فقد خشيت إميلي من أن تذهب غرافيني إلى باريس لتنضم إلى عصبة المسعورين، وأن تشيع ألف هذر واغتياب. وبناء عليه قامت إميلي المزهوة بما لم تقم به حيال أي شخص قط: لقد اصطحبت غرافيني في عربتها للقيام بجولة في البستان. وإذا لم يستبد جنون العرفان بتلك الشقية من بعد ذلك، فهذا يعني أنها بلا عواطف. كذلك وعدتها إميلي بأحد مؤلفاتها الميتافيزيقية! فيا لها من هدية مسمومة!

كان على فولتير، قبل القيام بتلك المسرحية السمجة والبشعة، أن يتذكر أنه هو نفسه قد قرأ في باريس أناشيد من «العذراء»، ولا سيما أمام الوزير السيد دو موريا.

إذا أضحت بعض النسخ متداولة، فليس على فولتير إلا أن يلوم نفسه على ذلك الغرور المجنون الذي يتعرض للمخاطر كافة لأن يزهو المثيرة بزندقته.

قدم فولتير اعتذاره الرقيق والمؤثر للسيدة دو غرافيني، وأعاد تكراره، فلم تستطع أن تنسى، لكنها سامحت فولتير. إلا أنها لم تسامح «المرأة الشريرة» البتة.

وجاءت طعنة أخرى لتصيبها. سعى فولتير من أجل تهدئتها، من دون شك، إلى دعوة «الكلب السمين» إلى سيري. وحسب أن ذلك سيروق غرافيني، لكن الشيء الأول الذي توجه به «الكلب السمين» إلى السيدة غرافيني، كان طعنة نجلاء: قال إنه ما عاد يحبها! فغادرت سيري في آذار/ مارس 1739، في حالة من الضنى.

بدأ فولتير وإميلي الاستعداد للسفر إلى بروكسل، إذ استدعتهما ثروة آل شاتليه للتوجه إلى منطقة الفلاندر.

كانت تلك الثروة العجفاء في حاجة إلى أكبر أشكال العناية. وفولتير، ألم يكن مهيأ للقيام بذلك؟ هنالك قريب لآل شاتليه، هو المركيز دو تريشاتو، وكان بلا ذرية، قد استُقبل في سيري. فهل اجتُذِب إليها؟ بكل تأكيد. وقد أحاطوه بالدلال، وكان يستحق ذلك. فهو عاجز ودميم وغبي. وتقول السيدة دو غرافيني: «لم يكن الغداء ممتعًا البتة، فالعجوز القصير تريشاتو اقتيد إلى المائدة، وكان ينبغي توجيه الحديث إليه، وليس ذلك بالمشوق على الإطلاق». لكن تريشاتو توفي بسرعة وخلف إرثه لآل شاتليه: وإنه لإرث ضخم، لكن الأرزاق تقع في منطقة الفلاندر، ومن ضمنها أيضًا إمارة قرب كليف، تجعل من إميلي أميرة! لكنها سخرت من ذلك. وقام فولتير بما وسعه ليجعل فريدريك يشتري تلك الأراضي واللقب. ويبدو أنه أصم أذنيه مع أن الطلب تجدد مرات عدة. فما كان فريدريك يهوى أن يعقد سوى الصفقات الرابحة، ولا سيما مع أصدقائه. أما السيدة دو ديفان الطيبة على الدوام، فيثير سخطها أن ترى إميلي أميرة. لكن ما يقلق إميلي إنما هو تشابك ذلك الإرث، والدعاوى كلها التي تتراءى في الأفق من أجل إحقاق الحقوق. فعقد فولتير العزم على مساعدة آل شاتليه، حين غادر في 7 أيار/ مايو 1739 سيري، تاركًا العذراء وعصر لويس الرابع عشر الذي بدأ للتو بكتابته. كان القصد إذًا إعطاء دفع للقضاة في بروكسل وفتح عيونهم على الحقائق، مع دفع رشوة لهم. فسافر وهو يلفظ أنفاسه، ولم يكن الأمر مزاحًا. وقد كان السيد دو شاتليه على درجة من القلق، حتى إنه كتب إلى دارجنتال لكي يطمئن نفسه: «إن صحة صديقنا متدهورة جدًا، حتى إنه ما عاد لدي من أمل في أن يستعيدها إلا وسط صخب السفر...». ويا له من علاج مدهش! إرسال رجل ينازع الموت فوق طرقات محفرة، وفي عربة تترجرج، تحت رحمة الحوادث وأصحاب النزل عسى أن تتحسن حاله. لكن العلاج هذا ينفع مع العصبي الكبير فولتير. فالاضطراب والتشوش اللذان يمكن أن يقضيا على من هو صحيح البنية، أعاداه منتصب القامة معافى.

لدى وصول الشاعر والفيزيائية إلى فالانسيين، قاما بزيارات متتالية، وقبلا الدعوات كافة على الغداء، ولا سيما دعوة الحاكم. وارتحلا بعد أسبوع ليستقر بهما المقام في بروكسل. وحرصًا من إميلي على عدم إضاعة وقتها، اصطحبت

معها أستاذًا في الرياضيات، هو السيد كونيغ، تلميذ موبرتوي الذي أوصاها به. فهي تتظلم من بطء تقدمها، وتخشى أن يحكم عليها كونيغ بأنها تلميذة بين بين، فيفقد اهتمامه بها. وبناء على ذلك فهي تعمل. لكن الاهتمامات بالدعوى والدروس لا تستهلك وقتهما كله؛ فهما يُستقبَلان ويَستقبلان. وينبغي بادئ ذي بدء أن يبرهنا للعجوز روسو أنه حين يظهر فولتير، حتى في منطقة نفوذه، لا يعود روسو شيئًا على الإطلاق.

في 28 حزيران/ يونيو 1729، أقيم لإميلي وفولتير احتفال في المنزل الذي استأجراه في شارع البرج الكبير، وعملا على تنظيف الواجهة، وبغتة سقط عاملان من أعلى المنزل فهويا في الشارع أمام فولتير: «تخيل ما حقيقة أن ترى سقوط اثنين من الحرفيين المساكين، وأن تتلطخ بدمهما. أرى أنه ما عاد في مقدوري إقامة احتفالات. أما ذلك المشهد الحزين فأفسد المتعة كلها لأجمل يوم في العالم».

لاحظ فولتير أن مجتمع بروكسل أكثر انجذابًا إلى المقامرة منه إلى الآداب، وقد رثى لحاله، لكنه تعزى لأنهم استقبلوه استقبالهم لسفير، فأُرضي غروره، وكان كل شيء في مكانه وعلى أحسن ما يرام. ومن ناحية أخرى، أليس هو «الأدب»؟ فحين يكرمون فولتير، ينبغي للأدب أن يكون راضيًا. والبرهان أن روسو لم يظهر. وما ورد لاسمه من ذكر قط. فذلك الصمت، وتلك الظلمات التي طوت عدوه، إنما هي تكريم لتفوقه. إيه لأهل بروكسل! كم هم ظرفاء، وعلى الرغم من أنهم غير متعلمين، يا لحساسيتهم حيال الموهبة الحقة.

ما من شيء أكثر سذاجة من غرور الرجل الأقل سذاجة في الدنيا.

وصلا في أيلول/ سبتمبر إلى باريس. فأقامت إميلي عند الدوق دو ريشوليو، وأقام فولتير في شقة مفروشة في شارع كلوش بيرس. مرت ثلاثة أعوام لم يطأ فيها أرض باريس. فكان الجو محمومًا؛ إذ حفل بالزيارات وحفلات الغداء والعروض. إنهم يريدونه هنا وهناك وفي كل مكان. «أنا مثل ذلك الرجل القديم (من عهد الرومان) الذي مات تحت الأزهار التي ألقوها عليه». ولكي يقتل المرءُ فولتير تحت المدائح، لا بد حقًا من أن يوجه إليه كثيرًا منها. فهي الشيء الوحيد في العالم الذي لا يبدو له أن الإفراط فيه جدير بالإدانة.

إنه في حالة من الاضطراب الدائم. فهو يطالب بأن يقوم الممثلون بحفظ تراجيديته محمد (*Mahomet*)، والتمرن عليها وأدائها في غضون ثلاثة أسابيع، في حين أنها لمّا تنل الإذن بالتقديم. وبدأ العاشقان بالاستعدادات لمغادرة باريس قاصدَين ريشوليو، حين وقع فولتير مريضًا. إنه مجددًا مشرف على الموت. وبعد ذلك بثلاثة أيام، صعد في عربة، وهو أكثر نحولًا، لكنه أقل تصميمًا على الموت. ولم يتوجها إلى ريشوليو، بل إلى سيري. وما كادا يصلان في مطلع أيلول/ سبتمبر، حتى عادا إلى تجهيز الأمتعة. إنهما في لياج يوم 16 تشرين الثاني/ نوفمبر 1739؛ فالدعوى في بروكسل تقتضي حضورهما.

علم فولتير في أثناء ذلك السفر أن الوزير منع بداية كتابه عصر لويس الرابع عشر الذي ظهر مع نصوص شتى من وضعه. وكان مغتاظًا بمرارة؛ فالكتاب تكريم له وتكريم لفرنسا: «لسوف تحكمون إن لم يكن كتاب مواطن صالح، وفرنسي صالح، ومحب للجنس البشري، ورجلٍ معتدل».

ذلك كله صحيح. فمن المؤلم رؤية عمل، على تلك الدرجة من القيمة، وقد جرى منعه، لأن عددًا من رجال البلاط السطحيين اعتبر أن الإشادة بلويس الرابع عشر سوف تلقي بظلالها على لويس الخامس عشر. وخرج فولتير بعد تلك الشكاوى ليخلص إلى القول: «أنا والكتاب، سوف نبقى».

وليس ما يفضُل ذلك القول.

بدأ يكتشف أن الفرنسيين يقضّون عليه مضجعه، ذلك أنه سمع بنبأ جديد بعد مدة قصيرة. فالوزير، السيد دو موربا، أبلغه بعدم الرجوع إلى باريس، لأن البلاط يعتبر فولتير منفيًا في سيري.

أما في الوقت الراهن، فليس المكان الذي فيه إميلي بمنفى. كان في بروكسل على ما يرام، فالدعوى التي وجهها تمضي في دربها الصحيح. أما وأن الوثائق تعوزه للعمل في عصر لويس الرابع عشر، فقد أعاد كتابة محمد وانصرف بحمية لا تصدق نحو التراسل مع فريدريك، ولي عهد بروسيا. إنه هذيان من الجانبين، والاثنان في الذروة من إعجابهما المتبادل. وعرض فريدريك لمشروع عزم على تنفيذه، من حسابه الشخصي، يتمثل في طبعة فاخرة لـ هنرياد. وهي المرة الأولى التي يفكر فيها بتمويل شيء ما، وهو اكتفى بالتفكير.

أولى فولتير، من جانبه، اهتمامه كله بطبعة كتاب فريدريك ضد مكيافيلي (L'Anti-Machiavel) الذي يضم أفكارًا هي غاية في الجمال والخير وصلاح الأخلاق، عن مزاولة السلطة. أحبه فولتير حبًا جمًا. إنه كتاب ملك فيلسوف، كتاب هاوٍ للجنس البشري. وإن نغمة رسائلهما لمدهشة. فيؤكد فولتير لفريدريك أن تراجيديته الجديدة، ميروب، هي من وضع الأمير ولي العهد على قدر ما هي من وضعه هو، وهو قدمها إليه في الإهداء لأن فريدريك أبدى ملاحظتين أو ثلاثًا حول الأبيات، علمًا بأن فولتير لم يأخذ بها لاحقًا.

كتب له فريدريك يقول: «راعِ صحةَ رجل أحبهُ حبًا جمًا، ولا تنسَ أبدًا بوصفك صديقي، أن عليك أن تبذل عنايتك كلها لتحافظ لي على أثمن نعمة جاءتني من السماء».

يعقب فولتير قائلًا: «يا سيدي، فكرتك تشغلني ليلَ ونهار، وإني أحلم بسيدي الأمير مثلما يحلم المرء بمعشوقته».

لم يكن ذلك حبًا. إنْ هو إلا غرور مُفرِط.

لكن ها هي ذي سحابة بدت منذ وقت. إنها ليست بضباب خفيف تهب نسائم هادئة فتزيله، بل غيمة بادية للعيان. تلك هي إميلي. إن فريدريك ليغمرها بالأزهار، إنما بقصد خنقها. وقد كتب لها يقول: «الحق أني لم أجد في أي مكان من أوروبا، ولا في العالم أجمع، سيدة استطاع فكرها المتين أن ينتج مؤلفات في مواد على درجة من العمق كالمواد التي تعالجين وأنت تعبثين».

أما في الحياة الخاصة فالنغمة مغايرة. إن هي إلا دجاجة رومية، فليس لديها من العلم سوى مظهر براق، ومؤلفاتها سخيفة.

لكن عيبها الأكبر أنها تفرض إرادتها على فولتير.

كان في وسع فولتير أن يواصل الاعتقاد بأن فريدريك كان حقًا على نحو ما يبدو، وعلى نحو ما يرغب له فولتير أن يكون. ألم تكن طفولته من النوع الأشقى في كنف والد بربري؟ وهل يسعنا أن نتخيل ضحية مؤثرة أكثر من ضحايا الطغيان؟ كان فولتير مقتنعًا بأن فريدريك يكره الطغيان، ويشعر بالهول من سفك الدماء، وأنه تفكر في سلطة الملوك المطلقة، تفكرًا يدعى «فلسفيًا»، أي إن أفكاره شبيهة بأفكار فولتير.

ما إن صار فريدريك ملكًا، حتى كتب إلى فولتير، في 6 حزيران/ يونيو 1740، يقول إن نفسه «تعاف العظَمات الإنسانية». فما كان فولتير ليتوقع ما هو أقل من فيلسوف متوج. لكنه ظن، وهو يواصل القراءة، أنه سيفقد صوابه، لشدة رضاه عما قرأ: «أرجو منك ألا ترى فيّ سوى مواطن غيور، وفيلسوفٍ مرتاب بعض الشيء، لكن وصديقٍ مخلص حقًا. وأستحلفك بالله ألا تكتب إلي إلّا بوصفي رجلًا عاديًا، وشاركني في ازدراء الأسماء والبريق الخارجي كله».

كانت النبرة ملاطفة حتى صدقها فولتير، فرد عليه، واللغة الدارجة تحل محل اللغة الصادقة: «جلالتكم تأمرني بألا أفكر في الملك، وأنا أكتب إليكم على قدر تفكيري في الإنسان. إنه لأمر يتوافق كل التوافق ونوازع قلبي».

لكن ذلك لم يحُل دون أن يقول: «جلالتكم»، وكان مغتبطًا بذلك. «لست أدري كيف أسلك حيال ملك، لكني على أتم الراحة مع إنسان يحمل في فكره وفي قلبه حب الجنس البشري».

إن «حب الجنس البشري» هذا أضحى جزءًا من العتاد الفلسفي العاطفي. ولسوف نرى ولاية هذا «الرجل الحقيقي» الموله عشقًا بالبشرية. ومن ذلك الحين، وفولتير الذي شعر بتنافر لقب «جلالتكم أو صاحب الجلالة» مع مرجعيات على تلك الدرجة من النبل، يدعو فريدريك بقوله «إنسانيتكم أو صاحب الإنسانية». أليس في تلك المكتشفات اللغوية الجميلة عمل كبير لمصلحة سعادة البشر؟

لقد فقدت إميلي في تلك المسألة نقاطًا عدة.

كان لها أن تستعيدها بسرعة، لو شاء فولتير أن يصحو من سكره. وكان في وسعه أن يفعل ذلك حين رجاه فريدريك أن يتوقف عن نشر كتابه ضد مكيافيلي. فأفكار الأمير ولي العهد ما عادت تلائمه وقد صار ملكًا. وقال إن بعض الأفكار قد تسيء. لكن لا ضير من ذلك، إذ تعهد فولتير بإعادة صوغ المؤلف! ولم يُطلَب إليه القيام بذلك. كانت هنالك رغبة في إيقاف الطباعة، لكن الناشر في لاهاي لم يشأ أن يفقد الربح المتمثل في كتاب بقلم ملك، والذي سيثير فضيحة بين الملوك في حين أنه سيحظى بإطراء الفلاسفة.

وعد فولتير الناشر فان دورين بمبالغ ضخمة في مقابل أن يتنازل

عن حقوقه، لكن الآخر رفض، ولا سيما أنهم أغروه بالمزيد. وبالغ فولتير في الاندفاع، وطلب إلى الناشر أن يعطيه المخطوط قائلًا إن الملك رجاه بأن يقوم بتعديله، وكان يأمل أن يأخذه ويتوارى عن الأنظار. أما الآخر فكان مرتابًا، وقبل بالتعديلات على أن يأتي فولتير بنفسه ليقوم بها في المطبعة. وكان فولتير يُشاهد جالسًا لساعات عدة يوميًا، تحت مراقبة ابن فان دورين، وهو يُعمِل شطبًا في صحائف الملك... «طمستها وكتبت ما بين السطور كثيرًا من الكلام الرهيب المُلتبس، وكثيرًا من الحديث المتهافت، حتى إن ذلك ما عاد يشبه أي مؤلف. ويُدعى ذلك بقذف المرء مركبه في الهواء كي لا يقع في أيدي الأعداء».

لم يكن فريدريك «رجلًا حقيقيًا» وحسب، وإنما رجل أدب أيضًا. فلم ترقه تلك الطريقة، ورفض نشر كتابه. كما رفض أكثر أن يصار إلى تخريبه، فأنكر ذلك العمل الهجين. ودُهِش فولتير، غير أنه لم يجرؤ على لوم «صاحب الإنسانية». وقد خمّن، بعد أخذ كل شيء في الحسبان، أنه أجرى تحسينًا على العمل. وذلك ممكن، لكن الأمر الأكثر صحة هو أن فريدريك كان يفضل العمل غير المحسن، إذ كان عمله هو.

لا يُمضي فولتير وقته كله في المطبعة، فهو يخرج كثيرًا لأنه في بلد يعرفه. كان في لاهاي كل من ج. ب. روسو وبيرون. وهو لم يلتقِ روسو، بينما كان هذا الأخير، وفقًا لأقواله، يتمنى عن طيب خاطر توجيه تحية إلى فولتير، إلا أن رغبته في المصالحة رُفِضت بحدة شديدة، فظل يلبث حذرًا.

أما بيرون فالتقى فولتير الذي لاطفه، فقال بيرون: «لقد كسر أنفي بعظمات من خديه»، فقبلات فولتير كانت عظمية. ويقول هو نفسه، إذ يتأمل خديه الأجوفين ووجنتيه البارزتين ومحجريه وذقنه الحادة: «أمضيت حياتي أغبط الناس الذين لديهم خدود». أما هو فكانت له أسنان.

إلا أنه لم يعض بيرون، بل إن بيرون هو الذي عضه، أو سعى لأن يعضه. وزها بأنه استهزأ بفولتير في أحد الصالونات حتى أوشك أن يخرب صيته باعتباره رجلَ فكر وثقافة. وذلك ما قال بيرون في الأقل. لكن فولتير لم يحقد عليه كثيرًا بسبب تلك الإهانة التي وجهها، حتى إنه قام، بعد ذلك بأيام قلائل، بزيارة بيرون الذي كان مريضًا. ورد هذا الأخير الزيارة لفولتير في نزله. وسأل قبل الدخول صاحب النزل عن زبونه الشهير، فقال الآخر في حق فولتير كل ما يرغب فيه بيرون من

سوء: لِمَ لم يختر مكان سكنه عند صيدلاني، بدلًا من الإقامة في نزل، فهو يتناول العقاقير دونما انقطاع؟ باختصار، يواصل بيرون حكايته التي صارت قصة، فيعلمنا بأنه وجد فولتير فوق مقعده المثقوب فقام على الفور «وهو ملطخ بالأقذار» ليرافق صديقه بيرون إلى القاعة. وهنالك جرى بينهما، «على مدى ساعة أو ساعتين، حوار بين الحاد والهادئ، حيث أدليتُ بدلوي على نحو لا بأس فيه». إنما ذلك إفراط وغباء، يا صديقنا بيرون، فلا يسعنا تصديقك إن فولتير لا يتجول أمام ضيوفه «ملطخًا بالأقذار»، وفضلًا عن أن حديثًا حادًا وهادئًا لا يدوم ساعتين، حتى لو كان مزدانًا بالتماعاتك.

ولئن لم يكن فولتير موضع استهزاء من بيرون، فإنه وقع حقًا ضحية خديعة من فان دورين. واستبد به الغيظ، فرجع إلى بروكسل.

كان فريدريك يتحرق شوقًا إلى لقائه وفولتير يتحرق شوقًا إلى لقاء «صاحب الإنسانية». فتوافقا على لقاء في كليف. ومن ذلك الحين وفريدريك يهذي. إنه يريد أن يقبل فم «فيرجيل الحديث» الذي تتناثر منه اللآلئ والدرر، وقد خصه بقصيدة. فيسعنا قراءة هذه الأبيات عن ذلك الفم الساحر:

«الذي صوته اللعوب والمؤثر
يمضي من الخف إلى الحذاء السميك
ساحرًا على الدوام ودائمًا أكثر فتنة».

إذا نحينا جانبًا النية الطيبة، والفم الفاتن، نجد شيئًا من الغرابة في ذلك الصوت المتنقل من الخف إلى الحذاء السميك. فهل تموضع في قدم فولتير!

كل شيء مباح في ذلك الشغف السعيد. أما التي لا تشاطرهما تلك العواطف فهي إميلي! إنها لا تتوانى عن أن تقول لفريدريك إنه مدين لها هي باستقبال فولتير، وإنها تعيره إياه، لكن ليس لوقتٍ طويل. «آمل أن تشعر جلالتكم بالرضا للتضحية التي أقوم بها حيالكم وألا تحتفظ جلالتكم به وقتًا طويلًا جدًا...».

جرى اللقاء في 11 أيلول/ سبتمبر 1740، في قصر موالار بالقرب من كليف. وإنه لموعد عجيب! لا ريب في أنه كان مغشى على بصر فولتير، ليصف بالسمو لقاءً ليس فيه شيء من النجاح، وليس فيه من شيء يروقه. كان الملك

محاطًا بموبرتوي - ونحن نعرفه من قبل - وبرجل إيطالي اسمه ألغاروتي، وهو رجل فكر وسيمٌ جدًا، وشديد التهذيب، ومجامل، ومعسول الكلام، وواسع المعرفة والذكاء، وذو ثقافة خفيفة، لكنها شديدة الاتساع. وكان هنالك كيسرلينغ، ومستشار لاهوتي اسمه رامبويه، وهو سمج وقذر، ملابسه خشنة المظهر، يضع باروكة مفككة، إضافة إلى أنه داهية مكار، وقادر جدًا. كانت تلك حال بلاط صاحب الجلالة البروسية، في ذلك الحين. وكان ذلك الجمع يقطن في مكان متداع، هو مستودع للأعلاف. وكان الملك مريضًا: إنه مصاب بجائحة حمى. ولم يكن للغرفة سوى حيطانها الأربعة. وفي ضوء شمعة، كان رجل قصير القامة راقدًا فوق سرير عسكري متلفعًا بمبذل من الجوخ السميك الأزرق، وهو يرتعد. على ذلك النحو ظهر الوثن المعبود للمرة الأولى أمام عاشقه. يقول: «انحنيت له إجلالًا، وبدأت التعارف بجس نبضه وكأني كبير الأطباء». وقعد بعد ذلك على حافة السرير من دون تكلف.

انجلت الحمى. وجلس رجال البلاط إلى المائدة. «تناول الحديث، بعمق، خلود الروح، والحرية، وكائنات أفلاطون الخنثى». إنها موضوعات واسعة ومتنوعة! وبينما كان المعلم يتكلم، كان الضيوف، كما يقول لنا فولتير، ينتشون بكلام الساحر. كان البلاط جديرًا بالرأفة، لكن المداهنة لا تفقد حقوقها. وبينما كان جلالته يتحدث مطولًا عن كائنات أفلاطون الخنثى، كان السيد رامبويه يسير على الدروب. ومن المفيد أن نعرف أي دروب لندرك المواهب العديدة التي يتمتع بها «الساحر»: كان متوجهًا بإنذار نهائي من الملك إلى أهالي لياج، يأمرهم بدفع مليون دوكا (عملة ذهبية)، وإلا فإن ألفين من جنود جلالته البروسية سيحاصرون المدينة، وإن مدفعيته ستقصفها. جرى توجيه رجاء ظريف إلى فولتير نفسه، لكتابة بيان يحث فيه أهالي لياج على الدفع قبل أن يفوت الأوان. ولقد كتبه! وهل يسعك أن ترفض طلبًا لملك فيلسوف، يُجلسك للغداء على مائدته، ويناديك بفيرجيل؟ وبعد ذلك بزمن، بل بزمن طويل جدًا، تنبه فولتير إلى أنه كان متورطًا في عمل لصوصي. إيه أيتها الفلسفة المناضلة، أين ضاعت بك السبُل؟

نحن في أوج شهر العسل. ويتناول فولتير الغداء - والوضع وسخ جدًا في أي حال - «مع واحد من أكثر الرجال ظرفًا في العالم، مع رجل قد يشكل سحرًا في المجتمع، وكان للجميع أن يسعى للقائه لولا أنه ملك، إنه فيلسوف من غير زهد وخشونة، وهو مثال للطافة والمجاملة والرضا...».

«كان يلزمني أن أبذل جهدًا لأستحضر إلى ذاكرتي أني أشاهد عاهلًا جالسًا عند طرف سريري (ذلك أن فريدريك كان يأتي لرؤية فولتير في غرفته، ويتبادل الحديث معه، وهو جالس على طرف سريره)، وأنه ملك بإمرته جيش من مئة ألف رجل».

وإنه كان يستخدم فولتير استخدامًا «فلسفيًا» من دون شك؛ فأهل لياج يتمثلون الأمر تمامًا.

ما كان فريدريك أقل حماسةً. فيبدو أن اللقاء، على الرغم من الأوضاع التي لم تكن مواتية تمامًا، قد أفعم أمنياته. وهو أسف لإصابته بالحمى، إذ ينبغي لمن يرغب في الاجتماع بفولتير أن يكون مالكًا وسائله كلها. يقول فريدريك: «إنه يتمتع بفصاحة شيشرون، ولطافة بلين، وحكمة أغريبا... إلخ. فما استطعت سوى الإعجاب به والتزام الصمت. إن السيدة دو شاتليه لسعيدة الحظ لأنها حظيت به».

فيما كانت تُعيره، حثت الخُطى إلى باريس. فقصدُها الدفاع عنه. واستخدمت إميلي كل ما لديها من رصيد لرفع أسهم فولتير في البلاط. وهي في حاجة إلى ذلك الصيت: إنه في وضع يُرثى له. كانوا في الأوساط الرسمية يعدون أهاجي فولتير ومنازعاته الفاضحة مع الهجائين والناشرين، وصرخاته وقصائده الماجنة ذات تكلفة باهظة تنوء بحملها متعة مسرحياته التراجيدية وأشعاره وحديثه.

قصد فولتير لاهاي في محاولة منه لاستخلاص ضد مكيافيلي من براثن فان دورين. فأقام في قصر ملك بروسيا، هو قصر نصف متهدم، لكنه قصر ملك، والملك صديق له. فوجد الأشياء جميلة حتى شِباك العناكب، لكنه رآها بأم العين. وكان يود في ذلك الوقت أن يذهب إلى باريس، لكن باريس محظورة عليه، فقرر الالتحاق بفريدريك في ريموسبرغ في ألمانيا، من دون أن تشغل المسكينة إميلي باله. أما فريدريك المفتون بهذا الرجوع غير المتوقع، فلا تساوره الأوهام في شأن عودته. وكتب إلى ألغاروتي يقول إن فولتير إنما عاد إليه، لأنه لا يستطيع الذهاب إلى مكان آخر. «إن بروسيا هي الاختيار الأسوأ». والحق أن فولتير كان سيتبع فريدريك في ذلك الحين إلى بروسيا الشرقية، مع احتمال أن يندم على ذلك بسرعة. وأدرك فريدريك ذلك الأمر، فشعر بأن فولتير كان ثملًا، لكنه ليس على درجة من النضج تسمح باقتطافه. واغتبط فريدريك في أي حال للزيارة، ولكي

يدع لصديقه فيرجيل الحرية كلها، وعده بأن يوصله إلى بروكسل، فور عودة السيدة دو شاتليه إليها لافتتاح دعواها الكبرى.

إن ذلك اللقاء الثاني لا يستجيب لتوافقهما العميق فحسب، ولا حتى لتعطشهما للزهو والغرور (هنالك حقًا غرور من الطرفين: كان فريدريك مزهوًا باستلحاق أشهر كاتب في عصره، كزهو فولتير بجعل ملك يجلس على طرف سريره). وكان ثمة أسباب تتجاوز الأسباب العاطفية. كان فريدريك راضيًا عن ألوان الاضطهاد التي ينزلها بلاط فرنسا بفولتير. فكلما كانت إقامة فولتير في باريس تفوق الاحتمال، كانت حظوظ فريدريك باستلحاقه أكبر. وكان فريدريك يعلم أنهم في فرساي ينظرون بعين الريبة إلى صداقة فولتير مع ملك بروسيا. وإن ما كان يطمح إليه هو أن تقع قطيعة تامة مع البلاط.

كان فولتير ينظر إلى الأمور نظرة مغايرة تمامًا؛ فهو يرغب في الحصول على «وظيفة»، على لقب رسمي، على مهمة. ولم يقم إلا بلمحة صوب البلاط، إذ عرف أن من الممكن أن يكون بالنسبة إليه الأرض الموعودة، والمكان المختار، لكن كان ينبغي الدخول إليه، أولًا، وأداء دور فيه.

«شهدتني باريس أولَد
وتركتني بلا بريق
وميلي المفرط أن أكون
وزيرًا من وزراء الدولة
أن أكون سيد المالية
أو سفيرًا، في الحد أدنى
مثل المرحوم بريور».

ظن أن الفرصة سنحت. أما وأن فولتير كان يعرف أن الوزير قلق بشأن نيات فريدريك الثاني تجاه سيليزيا، ويعرف أن سفير فرنسا، الأمير دو بوفو، لم يقوَ على معرفة شيء عن هذه النقطة، فقد اعتقد بأنه يغازل الملك - ملكه هو، مرة في الأقل - بالتقدم لإعلام الوزير عن مشروعات بروسيا، فكتب إلى الكاردينال فلوري بهذا المعنى، وعرض عليه بكل بساطة أن يجعل من فريدريك الثاني حليفًا لفرنسا.

رد الكاردينال الذي رأى وسمع كثيرًا من أمثال ذلك، برسالة على فولتير فيها طلاوة. لم يقبل بالعرض، إلا أنه لم يرفضه. زد أنه أعطاه أيضًا - في طريقه - آراء ممتازة في الاحترام الواجب علينا حيال أمنا الكنيسة المقدسة.

ثم جاءته رسالة ثانية من الكاردينال، سياسية أكثر. دار الكلام فيها حول مبادئ ممتازة يحتويها كتاب ما، ضد مكيافيلي، وعن أحد المبادئ تحديدًا: احترام التعهدات. سيكون من الخير تذكير ملك بروسيا بذلك، وهو الذي لم يقرأ على الأرجح ذلك العمل، فعلى فولتير أن يشير به على صديقه صاحب الجلالة الملكية، وسوف يسعدنا أن نعرف القرارات التي قد توحي بها تلك القراءة للعاهل الشاب المتأجج حماسة. وفهم فولتير أنهم لا يكلفونه بشيء، لكن أفكاره عن بروسيا وعن مشروعات فريدريك ستكون موضع ترحيب الوزير.

وردّ بطريقته التي لا تبارى: «أطعتُ الأوامر التي لم تُوجه من سموكم إلي، فأريتُ رسالتكم لملك بروسيا».

ها هو ذا مفاوض إذًا. إنه يهوى «الأدوار»، وحتى المواقف المغلوطة قليلًا، إذ ينبغي له أداء تغير شخص ما وتكوينه، بل ينبغي أحيانًا تغيير الدور في أثناء الأداء. فذلك يفتنه.

لديه أخيرًا موطئ قدم في البلاط. في البلاط الحقيقي! إن أصعب بلاط يمكن إغواؤه هو بلاط فرساي. لقد استُقبِل في بلاط لندن حسبما شاء. وله في بلاط بوتسدام سلطة ونفوذ. أما بلاط فرساي فهو الذي له سلطة ونفوذ في حياة فولتير الخاصة في الدرجة الأولى، وفي ممالك أوروبا الأخرى.

بلغه أن السيدة دو شاتليه نالت العفو عنه، فصَار في وسعه العودة إلى باريس. إنه راغب أيضًا في محو ذكرى سيئة من ذهن الكاردينال دو فلوري؛ فلما كانوا يعلمون أن فولتير يزدري الجانسينيين، وأنه هاجم باسكال وكتابه *Les Provinciales* (الريفيات) الذي سماه *Les Menteuses* (الكاذبات)، أوحى السيد هيرو للكاردينال الوزير بأن يطلب إلى فولتير بأن يضع ريشته في خدمة قضية محترمة. وما دامت قريحته تحركت في ما مضى ضد موضوعات مقدسة، فإن بوسعها مواصلة ذلك بطريقة مجزية ضد الجانسينيين. وسوف يقوم الشيطان هذه المرة بأداء خدمة للرب. فقبل فولتير في بدء الأمر، ثم عاد فاستنكف. ومن بعد أن كتب صفحات

عدة، قام فألقى بها في النار قائلًا إن لديه إحساسًا بأنه قد تسربل بالعار. وجاء ذلك في الوقت الملائم؛ إذ أعرب الكاردينال دو فلوري عن ضيقه بسبب الرفض، وأعرب فولتير عن أسفه؛ لأن الكاردينال لا يعامله كما في تلك الأيام الخوالي الجميلة، حين كانا يلتقيان عند الدوقة دو فيلار.

كان لمفاوضته مع فريدريك أن تؤدي أخيرًا إلى مصالحته مع الكاردينال، ومع البلاط.

يسع الإنسان تأويل ذلك «التفاوض» وفق ما يشاء. هل كان وفيًا إلى الحد الذي يجعله يتوجه، «بوصفه فيلسوفًا»، فيستخلص السر بأسئلة بارعة يلقيها على صديقه فريدريك؟ لا ريب في أن فريدريك، الأكثر مكرًا من فولتير، كان ضد مكيافيلي على الورق فحسب. يبقى أن الطريقة - وهذا أقل ما يقال فيها - جديرة حقًا بثعلبين اثنين.

ها هو في طريقه إلى ألمانيا. وقبل هرتفورد بقليل انكسرت العربة في 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 1740، فوصل إلى المدينة راكبًا على فرس نحيل، وهو يرتدي سروالًا من الحرير، وينتعل خفين. وسأله الحرس عن اسمه، فأجاب: «دون كيشوت». ودخل إلى هرتفورد تحت ذلك الاسم. وجرى اللقاء مع فريدريك في ريموسبرغ. كان فريدريك مفتونًا بذلك مرة أخرى. وكتب إلى ألغاروتي الذي يناديه باسم «بجع بادوفا» قائلًا: «وصل فولتير مشعًا بمحاسن جديدة، وبدا أكثر مؤانسة عما كان في كليف». فهل ذلك لأن فريدريك ما عاد مصابًا بالحمى؟ وهل لأن فولتير ما عاد يشكو المغص؟

ماذا يفعلون؟ يقرأون شعرًا، ويرقصون، ويأكلون، ويتفكرون في شؤون أوروبا كلها، ويلعبون بالورق، ويقوم فريدريك - إكرامًا لصديقه فيرجيل - بالعزف على الناي. ويغامر فولتير بشيء من المال في القمار. فهو لا يرقص ولا يأكل ولا يشرب، لكنه في المقابل يتكلم. وهنالك شقيقة لفريدريك، إنها مركيزة بايروت التي تحب فولتير على قدر ما يحبه فريدريك. ويبدو الملك الفيلسوف مولهًا من شدة الإعجاب، فهو لا يتكلم إلا على الشعر والموسيقى ورجله العظيم ولا يحلم إلا بذلك. فمن عساه يرتاب بوجود سيليزيا، وأن مئتي ألف رجل من جيشه المدهش يناورون في هذا الوقت بأمر منه لاجتياح المنطقة الغنية؟ ومن عساه

يظن أن ألحان الناي تلك وتلك الأنغام من الهديل الفلسفي تموّه بشكل ضئيل رنين قطع العملة، يسعى واحد من الرجلين العظيمين، هو فولتير، لأن ينتزعها من جيب الآخر، وهو فريدريك. ذلك أن الأول يريد الحصول على نفقات سفره، في حين أن الآخر لا يريد ذلك. وهاكم ما كتب فريدريك إلى جوردان في الوقت الذي يفعل السحر الفولتيري فيه فعله: «سوف يشرب صاحبك البخيل ثمالة رغبته المتعطشة إلى الغنى، ولسوف يحصل على ألف وثلاثمئة إيكو. إن حضوره لستة أيام سيكلفني خمسمئة وخمسين إيكو يوميًا. إنها لنفقات جنونية! فما من مهرج لدى سيد كبير نال مثل تلك العطايا».

يا لها من لغة لطيفة! ويا لدرجة تناغمها مع الفم «الساحر والفتان». فلئن كانت فكاهة، لهي ثقيلة ومتوحشة، وتُلحق مهانة بمن تصدر عنه كما بمن هي موجهة إليه، وهي أيضًا تتضمن تهديدًا: «سوف يشرب صاحبك البخيل ثمالة...».

بيد أن الوداع ظل مع ذلك مؤثرًا، وتحول إلى سماجة من فرط التكلف. إن لهما هديل طائري حمام، لكن سنكون مرغمين في ما بعد على التسليم بأن لكل من هذين الطائرين منقار نسر.

هذا هو وداع فولتير:

«كلا، فعلى الرغم من فضائلكَ، بل على الرغم من مغرياتك
ليست روحي راضية تمامًا.
كلا، بل لستَ سوى مغناجة
تفتن القلوب ولا تصلها».

فكالت له مغناجةُ بوتسدام بالمكيال نفسه:

«تشعر روحي بثمن مغرياتكَ الربانية
لكن لا تفترض أنها راضية
أيها الغادر، تهجرني لتجري وراء مغناجة
أما أنا، فلن أهجرك أبدًا».

كم نود أن نعرف ما رأي إميلي بتلك التمارين من النظم! لكننا نعرف بما

شعرت يوم علمت بهروب الأيام الستة إلى ريموسبرغ. «أخبرني بالنبأ بجفاء، وهو يعلم حق العلم أنه يطعنني في القلب». وجعلت من ذلك مرضًا حقيقيًا. والتهب صدرها، فهي لا تأكل ولا تشرب، وتقدر أنها ميتة، مثل صديقتها دوقة ريشوليو التي قضت نحبها مؤخرًا. وفي تلك المناسبة، وجه الدوق - وهو الذي كان يستهزئ بزوجته كأنها قردة - تعنيفًا إلى فولتير، لأنه لم يعمل على توقيف عروض مسرحيته - تراجيدية أيضًا - باسم زوليم (*Zulime*)، في أثناء احتضار الدوقة. لكن فولتير كان بعيدًا جدًا! وكم كان يعبأ حينئذٍ بإميلي وريشوليو، وبباريس وفرنسا. كان ملك بروسيا يعزف على الناي من أجل فولتير، ويطلق عليه لقب «الغادر!» الذي يتخذ مظاهر متنوعة.

كانت لدى إميلي - وسط تلك اللعبة العجيبة، حيث اختلط الغرور والذكاء والمصلحة والغدر والسخرية - فكرة مؤثرة؛ إنها فكرة الحب. فهي تشكو، لكنها تأسى مسبقًا لفولتير، فهي تتوقع أن تتبدد أوهامه، وأن يندم على الخيانة التي ارتكبها بحقها، وتتألم مسبقًا لعلمها بأنه تعيس. فكتبت إلى ريشوليو في 23 تشرين الثاني/ نوفمبر 1740 تقول: «هل تصدق أن الفكرة التي تشغلني أكثر في هذه الأوقات المشؤومة، هي الألم الرهيب الذي سيقع فيه السيد دو فولتير، حين تؤول النشوة التي يعيش وسطها في بلاط بروسيا إلى التضاؤل. لا يسعني تحمل الفكرة بأن ذكراي ستكون لومًا على وجهه. للذين أحبوني كافة أن لا يلوموه على حبي مطلقًا...» وها هي ذي تحب، مرة أخرى، حبًا أفضل.

عاد فولتير خالي الوفاض. وإذا ما استثنينا الإيكوات التي أُلقي بها إليه على مضض، واستثنينا تلك الأبيات الشعرية المتحذلقة، فإنه لم يأتِ بأي خبر. ولو أنه قرأ الرسالة الموجهة إلى جوردان، لعلم بأنه ليس سوى مهرج، من النوع الباذخ بالتأكيد، لكنه باهظ التكلفة. والمثير للغيظ أكثر، هو أن فريدريك كان على علم بكل ما جرى حبكه بين الكاردينال دو فلوري ومبعوثه.

لم يكن وصوله إلى بروكسل وصول المنتصرين؛ فالدعوى كانت في انتظاره، ومعها دموع إميلي. وشعر بأنه مذنب، بل مذنب جدًا، حتى إنه كتب إلى دارجنتال، سعيًا وراء الصفح. وتنتهي رسالته بهذه الكلمات: «لم تكن السيدة دو شاتليه قط أكثر رفعة من الملوك».

كان لها أن تكون أكثر سعادة لو لم توضع ضمن تلك المقارنة، لأنها ولا ريب اعتُبرت، ولبضعة أيام، «دون» ملك بروسيا. لكنها كانت خالية من العيوب. فما إن التقت فولتير مجددًا حتى كفت عن الشكوى، واستعادت مرحها، وكتبت إلى دارجنتال تقول: «... وأخيرًا وصل. حاله لا بأس بها باستثناء تورم حول العينين. انتهت أوجاعي كلها، وأقسمَ لي على أنها ستظل كذلك أبدًا». لكن هنالك فريدريك، ولا تساورها أي أوهام في شأن مشاعر الملك حيالها: «أعتقد أنه مغتاظ مني، لكني أتحداه أن يكرهني أكثر مما كرهته منذ شهرين. وأراك تقِر لي بمنافستنا المضحكة».

ليس من شيء مبتذل في حياة فولتير، لكن تصدر عنه بعض الإشارات التي يصعب فهمها. وهذه واحدة يخبرنا بها جوردان: لقد أساء فولتير القول في إميلي، في سبيل أن يتقرب من فريدريك! بل كان على درجة من السوء جعلت فريدريك يعلق آمالًا كبرى على مشروع استلحاق فولتير ببلاط بوتسدام، وعلى درجة من السوء بلغت بفريدريك حد ازدراء فولتير. وهذا ما كتب بخصوص فيرجيل: «إن دماغ الشاعر يساوي في خفته أسلوب مؤلفاته، ويُغبطني أن إغراء برلين سيكون على درجة من القوة تجعله يرجع عما قريب، ولا سيما أن صرة أموال المركيزة ليست ممتلئة كما حال صرة أموالي أنا».

علينا أن نطلق على «ذلك» اسم صداقة فولتير وفريدريك! إن فرضية فريدريك فيها افتراء؛ فليس لفولتير من مصلحة مالية مطلقًا في علاقته بإميلي. فهو الذي كان ينفق ثروته من أجل سيري، وكان سعيدًا بذلك. إن ذلك العشق وذلك السخاء أرفع سوية من عواطف فريدريك. ويشاء سوء الطالع أن يضع فولتير نفسه أحيانًا على مستوى فيلسوفه الملكي.

قضايا صغيرة كتابية ومالية

يعمل فولتير في بروكسل. إنه يعيد كتابة **محمد**. ما كان يعيش إلا مع **محمد**، وهي شخصية صاغها فولتير على طريقته، ولم يكن الشبه إلا ضئيلًا جدًا بينها وبين النبي محمد، رسول المسلمين. كان يتحرق شوقًا لرؤية **محمد** على خشبة المسرح، لكنه ليس في باريس لتقديمها إلى الممثلين، والتدرب عليها، ولتوليد حال من الضجيج والصخب والفضول، يعرف حق المعرفة كيف يحيط بها ظهور أعماله.

توقف فولتير، وهو في طريق العودة مع إميلي، في مدينة ليل، حيث تقيم بنت شقيقته التي يمارس زوجها في تلك المدينة وظائف مربحة؛ فهو الآمر بالصرف للشؤون الحربية. وعلى الفور، وجد أعيان المدينة متجمعين من حوله كافة. فألقى بشبكته على السيد دو لا نو، وهو ممثل وكاتب مسرحيات ومسؤول عن مسرح ليل. كان يعرفه من قبل، وسبق أن توجه إليه بالرجاء، باسم فريدريك، ليجمع فرقة من الممثلين لمصلحة مسرح برلين. وكان ينبغي إعداد كل شيء من دون طويل انتظار. وما إن أصبح الممثلون جاهزين حتى أخبروا فريدريك. لكن هذا الأخير الغائص في الحرب حتى أذنيه، والذي يجد فيها المجد والمتعة، صرف النظر عن قضية الممثلين. وكان من شأن لا نو الذي وظف ماله ورصيده، أن أصيب بالإفلاس والغم، لكنه لم يحقد على فولتير الذي كان قد علله بالوعود الكاذبة، كذلك لم يعتب عليه لأنه كتب محمد، على الرغم من أنه أعد من جانبه مسرحية بالاسم نفسه. وقد كتب فولتير إلى سيدفيل يقول: «تعانقت مسرحيتانا اللتان تحملان اسم محمد، في مدينة ليل»، لكن مسرحية فولتير كتمت أنفاس الأخرى. وقام لا نو الطيب بتقديم محمد فولتير التي حققت انتصارًا. وقدّر فولتير أن جمهور ليل هو الأكثر استنارة في العالم، بل شغفت الحماسة الكهنة أنفسهم. وكان هنالك كاهن اسمه فالوري، هو شقيق سفير فرنسا في برلين، كلفه فولتير بكتابة تقرير مفصل بالنصر إلى شقيقه، فأبدى فريدريك في برلين، تأثرًا واضحًا بذلك. إنها الدعاية!

حين كان فولتير يحيط فريدريك علمًا بالفوز الذي حققته مسرحية محمد في ليل، كان فريدريك يحيط فولتير علمًا بالنصر الذي حققه في مولديتس. تقاطعت البرقيتان في منتصف الطريق، ورأى الجمهور ذلك المشهد المدهش: قطع فولتير العرض ليقف على خشبة المسرح طالبًا من جمهور فرنسي التصفيق والهتاف لانتصار فريدريك ملك بروسيا، في حين أن ذلك النصر كان في حقيقته، إهانة لفرنسا. وفولتير المنتشي غرورًا يضيف: «سوف ترون أن فوز مسرحية مولديتس هذه سيمهد الطريق أمام فوز مسرحيتي أنا».

نعم، نجحت المسرحيتان. يقول فولتير: «كان الليليون (أهل ليل) الطيبون يبكون كأناس يرعفون». وإميلي بدورها تتأجج حماسة، إلا أنها شعرت بخيبات أمل بسبب الفيزياء؛ فأستاذها كونيغ كان من تلاميذ لايبنتز، وهي أضحت مثله،

لكن أكاديمية العلوم لم تكن كذلك. ها هي تدخل في خلاف مع العلم الرسمي. وتنازعت في نهاية الأمر مع كونيغ الذي مضى يردد أينما كان أن إميلي لا تفقه كثيرًا، إن في الرياضيات وإن في العلوم، وأنها حين كانت تكتب مذكرة ما، فإنما تفعل ذلك بإملاء من موبرتوي أو من كونيغ. وكان ذلك الأمر بشعًا! فأدلت السيدة دو ديفان بدلوها في حمى الهذر، وقالت ما يلي: «انتهى الناس إلى القول إنها شرعت في تعلم الهندسة لتتوصل إلى الاستماع إلى كتابها هي». وقام كاهن مغمور اسمه لو بلان، يقطر لسانه علقمًا وشرًا، فقدم إلى أكاديميات المناطق تقارير يقول فيها عن كونيغ إنه: «الخادم الهندسي الخاص بالمركيزة».

أرسل فولتير بدوره – وهو المعادي للايبنتز – مذكرة إلى أكاديمية العلوم عن القوى الحية التي كان ينبغي أن تُقِرها الأكاديمية، للأسباب نفسها الذي جعلتها تدين أطروحة إميلي عن لايبنتز. لكن الأكاديمية لزمت جانب الصمت بشأن المذكرة الأولى والأخرى. فالحذر مطلوب! وعزم فولتير على التمرد، ثم ارتأى أن من الأفضل عدم التخاصم مع السكرتير الدائم الذي سبق أن تنازع مع إميلي؛ فالحذر مطلوب!

في بحر تلك السنين النشيطة – على الرغم من أنها متقطعة بالأسفار، وملأى بالمهاترات والمسرحيات المكتوبة التي أُعيدت كتابتها وعُرضت، وعلى الرغم من الدعاوى التي تُحرك على الدوام والتي لم تُبَت – ظل فولتير يجد الوقت لأن يمرض يومًا من اثنين، ويجد الوقت بشكل خاص لاستثمار ثروته. وهو الآن يقرض مالًا لأسياد كبار، فيبدو ذلك جنونيًا، لأنهم أسوأ مَنْ يبرئ الذمم. والحال أن فولتير لاحظ أنهم – إن كانوا يتأخرون في التسديد – فهم في النهاية يسددون، أو إنهم يتصرفون على ذلك النحو مع فولتير، لأنه يعرف كيف يطالب بدينه. وفي المقابل، ما عادت مضارباته مع رجال الأعمال عليه دومًا بنفع كبير، فبات يرى أن متعددي المشاغل هؤلاء، أناس سطحيون وفوضويون، وأنهم في نهاية المطاف مفلسون، عاجلًا أم آجلًا. وهنالك شخص مغمور اسمه ميشيل جعله يخسر ثلاثين ألف ليرة من الريع. وإنه لمبلغ ضخم. فكيف كان رده؟

إذا ما صدقنا أعداءه بالأمس واليوم، فإن فولتير بخيل، بل على درجة من الشح الخسيس. والحال أنه لو كان بخيلًا، فإن من شأن تلك الخسارة أن تغيظه

وتهد كيانه، لكنه ينظر إليها، بخلاف ذلك، نظرة فلسفية إلى حد واضح. وإذا لم يكن رده عنيفًا فذلك لأنه لم يُصَبْ في مكان موجع من حساسيته. أما من بعد، فقد بتنا نعرفه بما فيه الكفاية، ونعرف أن هذا البخيل المزعوم ليس متعلقًا بالمال لذاته. فهو يحب المال، لأن المال لا يمكن الاستغناء عنه من أجل أن يكون «رجلًا نبيلًا» على طريقته هو. وإذا ما خسر مبالغ ضخمة أو أنفقها أو وهبها، فليس هنالك ما يستوجب القلق، ما دام نمط حياته، بوصفه سيدًا ميسورًا، غير مهدد. وهذا الموقف ليس بموقف بخيل.

يتساءل بعضهم عن سبب ذلك الإلحاح في مطالبة فريدريك بنفقات السفر؛ ذلك أن الأمر لا يتعلق بمبلغ من المال نكسبه أو نخسره، بل بمبلغ هو من حقه. وفولتير يطالب، لأن الملك فريدريك أصدر إليه أمرًا بالقدوم إليه. وواقع الحال أن من يصدر الأمر عليه أن يسدد. ويدفع فولتير من ناحيته، دفعًا سخيًا، مقابل الخدمات التي تُؤدى إليه. وحين يتوجه بطلب ما، تكون الجملة التالية حتمًا هي: «المال مودع لدى المصرفي السيد...» أو «سوف يحمل الحاجب إليكم مبلغ كذا». فلم تكن مطالبته بوحي من نهم مرضي لكسب المال، بل كانت شكلًا من المطالبة الأخلاقية والفكرية في آن، وحاجة للدقة والوضوح. إنه ابنٌ وحفيد لرجال ضبطوا حساباتهم بالدرهم طوال قرون. فهو يتوقع من الآخرين النزاهة نفسها، وذلك حقه. أما أن يطالب بدينه بنفاد صبر، وأن يخيب ظنه بعدم مبالاة مدينيه أو فساد ذمتهم، وأن يغدو جارحًا، فليس لأحد أن يندهش من ذلك. لكن أليس شح فريدريك - وهو ملك، وهو رجل سامٍ بالذكاء - مقيتًا أكثر، برفضه العطاء، من شح فولتير في تشبثه بالمطالبة؟ ولو وضعنا في كفة ميزان المال الذي وهبه فولتير، أو الذي أنفقه على الآخرين، أو الذي سهل على بعضهم أن يسرقه - وتييريو واحد من هؤلاء - في مقابل المال الذي طالب بتسديده، بتصاغر أحيانًا أو بشيء من التقتير، فلسوف نلاحظ أن فولتير كان سخيًا، وكان في الغالب رجلًا رائعًا.

أما ثأره الوحيد من ميشيل المفلس، فهو:

ميشيل، باسم الرب الدائم،
جعلَ الشيطان يضل عن دربه
أما بعد هذا الإفلاس

فليت الشيطان يأخذ ميشيل ويمضي.
أما هارباغون فكان سيقول كلامًا مغايرًا!

في خريف عام 1741، كان صديقنا «البخيل» في باريس مع إميلي. إنهما يقيمان عند السيدة دوتري التي شاءت لها مصادفة عجيبة أن تقيم في مسكن الكونتيسة دوفونتين مارتيل. فشعر فولتير كأنه في بيته. ويا للذكريات التي راودته، من عرض زايير، إلى وفاة الكونتيسة الملحدة!

رغبت السيدة دو شاتليه - والتي أتعبتها دعاواها وأغنتها بفضل حسن تدبير فولتير - في اقتناء منزل جميل في باريس. فاشترت قصر لامبير الجميل الذي شيده لوفو، وزخرفه لو سيور ولو بران. لكنه لم يكن مؤثثًا، وكان بعض التعديلات ضروريًا، فلم يكن إذًا قابلًا للسكن. لن يقيم فولتير فيه أبدًا، على الرغم من أنه قيل خلاف ذلك. أما في الوقت الراهن فأخذ على عاتقه مهمة التجهيز. وقد اختار البهو الذي سيقيم فيه المكتبة، وغرق في المشروعات حتى النشوة. واستقر شعار «الفائض شيء ضروري جدًا» في ذلك المسكن اللائق بالأمراء، وها هو ذا، باختصار، صديقنا البخيل، ينخرط في إنفاق عشرات الملايين من عملتنا الراهنة لتجميل منزل ليس بمنزله، وينبغي أن يعود إلى أبناء إميلي، كما فعل في سيري تمامًا، حيث دفن ثروة بحالها. ذلك أيضًا مثال على «بخله»، الخاص جدًا كما نرى. ولسوف تقدم حياته أيضًا أمثلة مشابهة، ناهيك بأمثلة أعظم.

فضائح في البلاط وعلى المسرح

في 21 كانون الأول/ ديسمبر 1741، عادت إميلي إلى سيري من دون فولتير. كان يتحرق شوقًا للذهاب وتوزيع بعض البسمات في فرساي. لكن ما من وزير واحد، وما من محظية واحدة، أومأت إليه بالدخول. فأعلن إذ ذاك أن جو البلاط لا يتلاءم وأفكاره الصارمة، ورضي بأنه ليس سوى «مواطن فيلسوف». وهكذا يتخذ مظهرًا فيه شيء من الازدراء حيال أكثر الأشياء التي يحبها في العالم حين لا تبادله تلك الأشياء حبًا بحب. ولقد وجد في أي حال مبررًا ممتازًا: «لم أعد أتمتع بصحة رجال البلاط». ولكم كان ذلك صحيحًا! فهو يتمتع بالروح لا بالصمود الجسدي. وإنها لمهنة مرهقة، بل إنها مهنة مستحيلة على رجل يصاب بالمغص ثلاثة أيام في

الأسبوع، وتفد عليه الحمى الرباعية، فالحمى الثلاثية في باقي الأيام. فعلى المرء أن يظل واقفًا لساعات وساعات، وأن يمشي ويصطاد ويرقص ويأكل ويشرب ويبكي ويضحك نزولًا عند أوامر، وأن يكون جاهزًا لكل احتمال مثل جندي في الميدان، وليس له أن يشعر بالبرد أو أن يتلفع بقبعات من الفراء أو من الصوف، ولا أن يلبس جوارب ثخينة من الصوف على شكل لولبي، ولا أن يرتدي المباذل في الخامسة مساء مثلما يفعل فولتير في سيري، أو في أمكنة أخرى. وعليه أن يجيد إضاعة أيام وليال في قول الترهات، وأن يقامر أو لا يفعل شيئًا، أي أن ينتظر وأن يكون هنالك. أما وقد عافت نفسه ذلك، فقد انتقل من المسكن الصغير الذي كان يقطنه في فرساي، من غير أن يعرف إلى أين يتجه. فالبلاط استاء منه، وهو ازدرى البلاط. ذلك هو أن يكون المرء فيلسوفًا.

لن يتلكأ في إعطاء البلاط دوافع، لا للاستياء منه فحسب ومقاطعته، وإنما للقسوة عليه وتعنيفه، فباريس كلها فيها ضجة؛ إذ يتناقل الناس نسخة من رسالة كتبها فولتير لتوه إلى ملك بروسيا. فقد انتهى هذا الأخير من عقد صلح مع النمسا، حتى من غير إعلام حليفته فرنسا بذلك الأمر. وهذا ما كتب الرئيس هينو، في ذلك الموضوع، إلى السيدة دو ديفان التي ما كان في وسعها، وهي في مياه فورج، أن تدلي بدلوها في تلك الوجبة الدسمة من النميمة: «أتدرين ما المسرحية الشائعة؟ إنها رسالة من فولتير إلى ملك بروسيا، وهي الأكثر جنونًا مما يسع المرء أن يتخيله؛ إذ يقول له إنه أحسن صنعًا بإحلال السلام (وهو الشيء المخالف لتعهده مخالفة مطلقة) وإن نصف باريس تؤيده (المحزن أكثر أن ذلك صحيح)، وإنه لم يفعل سوى استباق الكاردينال (إنها نميمة خالصة، وتملق كبير، إن فلوري حليف مخلص)، وإنه ليس عليه في الوقت الراهن سوى الانصراف إلى ملذاته...».

كان وقع تلك الرسالة كارثيًا في فرساي. فالمحظية (عشيقة الملك) آنذاك، وهي السيدة دو مايي، انتابتها سورة من الغضب فطالبت بإيقاع عقوبة نموذجية بفولتير. أما هو، فشرع يقسم بأن لا علاقة له بتلك القضية، وأن أسلوب الرسالة لا يليق به... إلخ. لكن السيدة دو شاتليه نفسها، تعرفت الرسالة. إن عجزه عن خطب ود فرساي، جعله يخطب ود برلين. وكان من شأن فريدريك أن يقول إن ذلك أسوأ، لكن والحق يقال، لم يكن الوقت ملائمًا البتة لتهنئة ملك بروسيا على غدره بحليفته فرنسا.

ارتأى هيرو «انتقالًا إلى بروكسل». لقد انتهت زخرفة قصر لامبير، ومباهج سيري، والانتصار في المسرح... ولسوف تظل مسرحية محمد إلى الأبد بنت مدينة ليل.

كتب إلى المحظية يتوسل، ويداور، ويقسم، ويطلب مقابلة، ويسعى إلى التهدئة! وكان كل ما يُحسَب له حساب في باريس معاكسًا له. وطرحت السيدة دو ديفان المشكلة بفطنة لؤمها الذكي: ليس المراد أن نعرف إن كانت الرسالة لفولتير أم لا، ما دام الجميع يعلم - باستثناء فولتير - أنها له، لكن أن نعرف كيف انتقلت من جيب فريدريك إلى صالونات باريس وشوارعها وأزقتها. وقالت المركيزة: «أن نفهم كيف تسري، ذلك ما يبدو لي فوق الطبيعة».

حامت الشكوك حول الشرطة، وحامت حول اللصوص، وحول حساد فولتير في البلاط البروسي. وارتاب فولتير في الكاردينال العجوز، باستثناء المذنب الحقيقي الذي كان يضحك في سره: إنه فريدريك. لقد أوعز بنفسه إلى عملائه لتوزيع نسخ من الرسالة على السفارات في باريس كافة، بما فيها سفارته، تبديدًا للشكوك. فلماذا؟ للسبب الذي نعرف؛ لأن يخلق شقاقًا نهائيًا بين فولتير وفرنسا ويجعله منفيًا مدى الحياة. أما وأنه ليس من مكان يتوجه إليه، فإن عشيق «المرأة دو شاتليه»، كما يدعوه فريدريك، سوف يقع بين ذراعَي فيلسوفه المتوج، أو بين مخالبه.

كانت النتيجة مخيبة. لقد فقَد لويس الخامس عشر اهتمامه بالشاعر. فلم يتخذ، بدافع السأم أو عدم المبالاة، أي إجراء بحق ذلك الكاتب الرديء الذي لا يُعجب به، ولا يحبه، ولا يقدره. وكانت حيلة ماكرة بحق فريدريك، جرت بطريقة من الإهمال؛ إذ بقي فولتير في باريس بسلام. أما هو فكان الأكثر دهشة. ولم يعرف قط بأمر غدر فريدريك.

سوف يجري تمثيل مسرحية محمد في الأكاديمية، لكن الجو العام ليس على خير ما يرام. والكاردينال الذي أهداه فولتير مسرحيته، لم ينبس ببنت شفة. وترك الحبل على الغارب، لكن ذلك لا يعني أنه لن يقوم بمنع العروض في الدقيقة الأخيرة.

جرى العرض الأول في 19 آب/ أغسطس 1742، أمام صالة باهرة. وكان هنالك الأمراء، وأصحاب المراتب العليا، والأسياد الكبار والوزراء والسفراء وكبار رجال القضاء. إن سوء سمعة الكاتب جعل الصالة تغص بالحضور. وحققت مسرحية محمد نجاحًا منقطع النظير في ذلك المساء. أما في اليوم التالي، فكانت الكارثة: تنبه الناس إلى أن محمد ليس المقصود به رسول الإسلام. فالذي اعتبره الأغبياء تهجمًا على النبي العربي كان في واقع الأمر تهجمًا على يسوع المسيح. ليس الإسلام هو المستهدف، بل هي المسيحية! أما في حقيقة الأمر، فليس هذا الدين أو ذاك، بل هو الدين، أيًا كان اسم نبيّه. وقام لاهوتي يحرض الغوغاء في الشارع ويثيرهم ضد فولتير. أما حجته فهي أن اسم «ما - هو - مي» (محمد بالفرنسية) مؤلف من ثلاثة مقاطع على مثل «جيزو - كريست» (Jésus-Christ أي يسوع المسيح بالفرنسية) المؤلف أيضًا من ثلاثة مقاطع. أليس ذلك برهانًا قاطعًا على أن إطلاق الاسم الأول كان تمويهًا للاسم الثاني؟ وهنالك أشخاص ما كانوا على شيء من التعصب، ولا كانوا في حاجة إلى عد المقاطع ليكونوا من الرأي نفسه، مثل اللورد تشسترفيلد الذي قرأ مسرحية محمد في بروكسل، والذي قرأها بتمعن فلم ينخدع لحظة واحدة: «... وقعتُ على أفكار أكثر تألقًا مما هي صحيحة، لكني لمست في البدء أنه يحمل على يسوع المسيح ضمن قسمات محمد، وكنت مندهشًا كيف لم يلحظ الناس ذلك في مدينة ليل...». بلى، فجمهور ليل الطيب إنما هو جمهور مفرط في الطيبة. وإن مسرحية محمد في حقيقة أمرها آلة حربية. وليست موجهة ضد الإسلام الذي هو بعيد جدًا، بل ضد المسيحية القريبة جدًا.

كان الجانسينيون هم الأعداء الأشد عنفًا. أما وأن العروض أضحت صاخبة، فقد جرى منع المسرحية. وأقسم فولتير، وهو في سورة من الغضب، بأنه سوف يغيظ الحمقى في باريس، فيهدي مسرحيته إلى الحَبر الأعظم، ويحصل منه على الموافقة: «سأهدي مسرحية محمد إلى البابا، وأحسب أني سأكون أسقفًا في أرض الكفار (in partibus infidelium) ما دامت أبرشيتي الحقيقية هنالك».

يخطب ود البلاط وود الأكاديمية

ما كاد الستار يُسدَل على محمد حتى سلكا مجددًا درب بروكسل في 22 آب/ أغسطس 1742. وتوقفا في رانس. هناك عروض، وحفلات غداء،

واحتفالات راقصة. وبدت إميلي جميلة أكثر من العادة. أما فولتير فازداد نشاطًا، وكتب يقول: «لم ترقص قط رقصًا يفضُل ذلك، ولم تغن قط على الغداء على نحو أفضل مما غنت، ولا أكلت قط ولا سهرت أكثر مما فعلت البتة».

وصلا إلى بروكسل في 2 أيلول/ سبتمبر. فاستدعى فريدريك فولتير «بالصوت الساحر» على الفور إلى إكس لا شابيل، فهرع هذا الأخير إليه. وكانت رحلة سريعة. مضى يوم الاثنين ليرجع يوم السبت. فلم يتَح لهما الوقت لأن يغتابا سوى نصف أوروبا. وكرر فريدريك عروضه: منزل في برلين، وأراضٍ في بروسيا، ونفقة وألقاب... لكن فولتير استبعدها بهدوء: إنه يواصل مراعاة فرساي، بل طلب من الكاردينال فلوري الإذن بزيارة فريدريك. وحاول أن يوحي بالحصول على «أمر مهمة». إنه يريد تقديم «خدمة». لكنهم ما كانوا في البلاط يعبأون بذلك البتة، بل إن الكاردينال لم يرد على رسالته.

تولى إميلي السأمُ في بروكسل؛ فدعواها تراوح، وهي تراوح أيضًا، لكن من نفاد الصبر. أما فولتير فوجد أولَ مرةٍ ذلك السكون مريحًا. وهو مريض على الدوام، أي إنه يعمل أربع عشرة ساعة في اليوم. وإن اقتران أمراضه بأعماله جدير بشيء من الاهتمام. فقد كتبت إميلي إلى دارجنتال تقول: «صديقك مريض بعض الشيء، وأنت تعرف أنه حين يكون مريضًا، لا يسعه سوى أن ينظم الشعر». كان ينظم الشعر وهو سقيم، ويعالج الأمور الفلسفية وهو سليم، ويُجري حساباته في كل وقت. أما وأنه مريض على الدوام تقريبًا، فكان يكرس نفسه للشعر أكثر. إلا أن إميلي الطيبة (لكن ليس بشكل دائم، ولا مع الجميع)، فكانت تستهزئ بالشعر، لكنها أحبته في نهاية المطاف حبًا بشاعرها، ولأنه كان مريضًا، ولأنها كانت تحبه أكثر، مريضًا وشاعرًا في آنٍ معًا. كانت تحبه بأريحية، وهو العاشق الذي ليس جاهزًا للعشق في معظم الأوقات. وإن حبها الفائض غمر الشعر الذي كان ينظمه، ولو لم تكن تلك القصائد له، لما أحبتها أبدًا.

ها هما مجددًا، في تشرين الثاني/ نوفمبر 1742، في باريس. فاستأنف خطب ود الكاردينال دو فلوري. وفعل الكثير، وأجاد، حتى أجابه الوزير: «إنما أنت من الذهب الخالص، أيها السيد. لقد أطلعتُ الملك على رسالتك فكان شديد الانشراح». فيا له من نجاح! ينبغي له أن يكون في عداد خيرة رجال البلاط!

فقبل ذلك بشهور، كان يستحق الشنق، وها هو اليوم «من الذهب الخالص». ولولا أنه ذو مزاج مشاكس، ولديه تلك النزعة البهلوانية نحو الانعطافات المسرحية المفاجئة، لكان قام في البلاط بأدوار مدهشة. ولولا أنه تمتع، في مقابل ذلك، بتلك الموهبة العجيبة في المداورة والإغراء، لتعرَّض للشنق، وبكل تأكيد، عشر مرات. لكن وا أسفاه! إنه يقضي، بجرة قلم أو بزلّة لسان، على عمل شهور من خطب الود والمداورة.

ليس من شيء أكثر تعارضًا مع هذا الرجل سوى صفو العيش بسلام. فما كاد يصل حتى ظهر مجلد من مؤلفاته، بنصوص مزورة وفاضحة. وجرى إخطار السيد هيرو مجددًا. فصار فولتير يصرخ قائلًا إنهم يقتلونه، وإن تلك النصوص ليست بخط يده، وإنهم إنما يريدون القضاء عليه. وهو يطالب بقضاة للناشرين وخصوصًا بجلادين. والمذنب شخص مغمور اسمه ديدو - هو جد آل ديدو المشاهير - فجرى توقيفه. لكن وراءه زوجة وثمانية أطفال، فأخذ يشكو البؤس. وأُفرِج عنه بعد أن أقسم ألا يعود أبدًا إلى بيع كتب ممنوعة. لكن فولتير الذي يعرف ثمن أيمان أصحاب المكتبات، طلب من الشرطة مراقبة ديدو. ومن الطبيعي أن يعود ديدو، لدى خروجه من السجن، إلى بيع الكتب الممنوعة نفسها، تلك التي كان يبيعها قبل أن يدخل السجن. وتقدم فولتير بالشكوى، فجرى توقيف ديدو مجددًا، ثم تعهد ديدو من جديد فأُفرج عنه. ويمكن الاستمرار طويلًا على ذلك المنوال: إنه دأب أصحاب المكتبات في القرن الثامن عشر وديدنهم. فبيع الكتب الممنوعة لم يتوقف قط. فالكتّاب يدخلون السجون، وأصحاب المكتبات أيضًا، ثم يخرجون فيعيدون الكرّة. وعمل فولتير طوال حياته، مثله كمثل الآخرين، على طباعة كتب ممنوعة وتوزيعها. وتقارب الحال، مع بعض المنغصات، حال «حرية الصحافة» وقد تتجاوزها إثارة!

ما توانى فولتير قط عن التهكم بالأكاديمية والأكاديميين. لكن موقعه من الأكاديمية كموقعه من البلاط. فهو لن يشعر بكماله التام، إلا وهو ينتمي إلى هذا أو إلى تلك. والحال أنه لمّا يُستقبَل، وقد بلغ الثامنة والأربعين، لا هنا ولا هنالك. وما كان في وسعه قط أن يلوم سوى نفسه، أي أن يلوم الأحقاد التي نشأت بسبب مَكرِه؛ ذلك أن موهبته وطرائقه ونهج عيشه، تؤهله تأهيلًا طبيعيًا جدًا لأن يكون عضوًا في البلاط، وفي الأكاديمية. فكان في حاجة إلى أصدقاء ذوي قدرة على العمل لطي الأحقاد.

اعتمد كثيرًا، في مطلع ذلك العام 1743، على الكاردينال، وعلى الملك، لثني الأكاديميين الذين كانوا معارضين له. والحال أن الكاردينال وعده فأخلف. وإليكم كيف حدث ذلك. كتب فولتير إلى فريدريك يقول: «ارتأى الكاردينال، مع أنه كان مريضًا قبل يومين، وهو لا يدري ماذا يفعل، أن يذهب لإقامة القداس في مصلى صغير وسط حديقة في طقس قارس البرودة». كان ذلك في نهاية كانون الأول/ ديسمبر 1742. وينبغي أن نعرف أن الكاردينال في التسعين من عمره. وقد نعتَ الكاردينال البارونَ دو بروتوي بـ «طري العود»، حين جاءه يرجوه أن يتوجه لإقامة القداس في بيته. فأصيب الكاردينال بالتهاب رئوي، وتوفي في مطلع كانون الثاني/ يناير 1743.

بات على فولتير أن ينتظر مناسبة أخرى ليلقى دعمًا أمام الأكاديمية. لم يكن سبب بقاء فولتير خارج الأكاديمية مفهومًا حقًا إلا في باريس؛ فأوروبا كلها كانت مقتنعة بأنه أكاديمي، بل إنه فوق ذلك، أجمل زهرة في المجتمع. أما حين قال أحد المسافرين لأمير ألماني إن فولتير ليس عضوًا في الأكاديمية، جاءه الجواب الآتي: «ومن عساه أن يكون عضوًا فيها إذًا؟».

حينَ رأى فولتير مقعد الأكاديمية يُفلِت منه، سعى لاحتلال مقعد في أكاديمية العلوم. ولِم لا؟ وها هو ذا يُبرز قيمة عناوينه: **مذكرات في طبيعة النار**، **مذكرات في القوى الحية**. ولاقى مؤيدين. وكان مقعد فونتونيل فارغًا. فمن عساه يفضُل فولتير لاحتلاله؟ فهل من قلم خير من قلمه في توضيح نتائج التجارب، ونشر المكتشفات؟ كان فونتونيل مبسطًا رائعًا للعلوم. وفولتير يتجاوزه. أما عدوه لابوميل، الذي سوف ننشغل به قريبًا، فعثر على صيغة تقطر سمًا ناقعًا لإطراء موهبة فولتير: «إن هذه الوظيفة تلائم السيد دو فولتير ملاءمة فريدة، فهو أفضل رجل في العالم لكتابة الأشياء التي أعمل الآخرون فكرهم فيها».

قدم له كل من ريومور وموبرتوي أقصى دعم، بل شجعاه على التخلي عن الشعر، ليكرس نفسه للعلوم. وكان لذلك الرأي، في سيري، أن يفعم السيدة دو شاتليه غبطة، لكنه سيتسبب بالغم لكل من السيدة دو غرافيني، والسيدة دو شامبونان: إنهما تعشقان أشعار فولتير! وهذا ما يفسر قول السيدة غرافيني في إحدى رسائلها: «السيدة الحسناء (إميلي) تضيق عليه دومًا كي يتوقف عن ذلك (نظم الشعر)، وأما أنا والسيدة الضخمة (شامبونان)، فنعارضها على قدر ما

نستطيع. إن منع فولتير من نظم الشعر لأمر مرعب». وذات يوم سعدت السيدة دو غرافيني، بعد أن جهدت لأن تقرأ نيوتن، من غير أن تفقه شيئًا، بسماع فولتير يقول لها: «دعي نيوتن جانبًا، إنها أحلام يقظة. عاشت الأشعار!».

لكن لم تفتح له الأشعار، ولا الفيزياء، بابَ هيكل العلوم. لقد رُفِض قبوله في أكاديمية العلوم لأنها كانت تعج بأنصار لايبنتز المتحمسين جدًا، وبالأتقياء المتشيعين الذين أقسموا على أنهم سيحطمون قبعاتهم المربعة وآنية مخابرهم وأدواتهم الهندسية، إذا ما ولج فولتير معبدهم.

عاد فيمم وجهه شطر الأكاديمية الفرنسية؛ فقد كان عنيدًا. وقيل له إن الملك لن يعارض انتخابه. ففكر في أن تحقيق نجاح أدبي باهر - ومن العيار السليم - سوف يُلزِم أعداءه جانب الصمت. وكانت ميروب (*Mérope*)، إحدى أنجح مسرحياته التراجيدية. فهو عمل فيها منذ أعوام عدة، فمنحته النجاح. ونحن نذكر أنه قرأ مقاطع منها في سيري، في عام 1739.

روى أن الممثلين رفضوا مسرحية ميروب. وذلك غير صحيح، لكنه يتيح له أن يرتجل سيناريو صغيرًا. وقرأ ميروب على الأب فوازنون الذي امتلأ غبطة وإعجابًا فهب معانقًا فولتير، ودموعه على خديه وهو يهتف إعجابًا بالرائعة.

قال له فولتير: «لا بأس، لكن الممثلين رفضوها». فهرع فوازنون إلى المسرح الفرنسي، وهو خارجٌ عن طوره، وأثبت للممثلين أنهم ازدروا أعظم رائعة مسرحية فرنسية. فارتبك هؤلاء، وعادوا إلى ميروب.

واقع الحال أن الأشياء لم تجرِ على ذلك النحو؛ فالممثلون لم يرفضوا ميروب، بل كانوا يريدون تمثيلها متى جاء دورها، أي بعد المسرحية التي كانوا يتدربون عليها. أما وأن فولتير لم يتسامح مع تأجيل مسرحيته، فقد اخترع حكاية رفضِها، وبفضل هذه التمثيلية الصغيرة، الماكرة والماهرة، احتلت ميروب مركز الصدارة.

أما الشيء الحقيقي فهو النجاح الباهر الذي تحقق لـ ميروب؛ إنه نجاح لا يُبارى، بل لعله الأكبر بالنسبة إلى المسرح الفرنسي؛ فالجمهور حيا المسرحية والكاتب وهتف لهما هتافًا بلا انقطاع. ويروي لنا فولتير أنه فيما كان قابعًا في

مقصورة الدوقة الشابة دو فيلار، طالب الجمهور بظهوره أمامه وطلب من المرأة الفتية أن تمنح فولتير قبلة، وهو ما فعلت، فأثارت على ذلك النحو هذيانًا حقيقيًا في القاعة. أما الحقيقة فمغايرة بعض الشيء؛ إذ كان جالسًا في مقصورة السيدة دو بوفليه، مع دوقة لوكسمبورغ. وقد اكتفى بتقبيل يد السيدة دو لوكسمبورغ. ولا ريب في أن المشهد الذي جرى تخيله مؤثر أكثر!

بذل جهدًا لامتناهيًا لضمان نجاح المسرحية. فلم يقم بمراجعتها فحسب، آخذًا في الحسبان ملاحظات أصدقائه، بل تولى بنفسه أيضًا قيادة التدريبات باجتهاد رجل مسرح وهمته. كان يدير حركة الخشبة بحمية، ويحترق من جانبه وهو يمثل، لأنه كان يؤدي الأدوار مع الممثلين. وانقلب رأسًا على عقب: فلا حالات مغص بعد اليوم ولا نوبات حمى، فهو يصيح ويؤدي حركات كبرى، ويركض من ممثل إلى آخر. فيا له من مشهد لهذا الرجل الملتهب، الناحل نحولًا مذهلًا، بوجهه المتغير وصوته، والبروق تتطاير من نظراته الثاقبة، وهو يقوم بتحريك الذين يؤدون عمله. كان - وهو الأشبه بالميت - من يبث فيهم الحياة. أما الآنسة دومينيل التي تقوم بدور البطولة، فصرخت به، وهي منهكة إعياء: «لكن لا بد للشيطان من أن يتلبسني لأصل إلى أداء النبرة التي تريدها مني».

- بلى، قولك صحيح يا آنسة، لا بد للمرء من أن يتلبسه الشيطان كي يبرع في الفنون كافة.

لا ريب في أنه كان، من ناحيته، يؤمن حقًا بالتعاون مع الشيطان لينجح في عمله. وذات يوم، فاجأته السيدة الطيبة غرافيني (ليته كف عن تعريض نفسه للمفاجآت) وهو منهمك بكل ورع وحرارة في تلاوة ابتهالات إلى السيدة العذراء. ولم تصدق غرافيني ما رأت. حينئذٍ قال لها إنه يكفّر عن ذنوبه حيال الأم، لأن ابنها الأبله لا يروقه. فهل هو في مشاهد من هذا النوع «ممثل مسرحي» إلى حدٍ ما، كمثل حاله حين يؤدي ميروب مع ممثليه المسرحيين؟ ومتى يسعنا القول إنه ليس كذلك تمامًا؟

لم يحُل ذلك دون أن تتجاوز الآنسة دومينيل قدراتها؛ فأدت دورها حتى الكمال، بفضل النص، وبفضل نصائح المؤلف، وبفضل موهبتها الحقيقية.

كان الأب دو برني، وهو الضخم، والسمين، الممتلئ الوجه، والممتلئ حبورًا، والمُعوَز في تلك الفترة، أشد المعجبين بمسرحية ميروب، حتى الهذيان. وقال إنه مستعد لأن يتسامح مع عبادة الأوثان، إن كان الوثن هو فولتير. وحين تصدر تلك الأقوال الملحدة عن كاهن، فهي ليست بالإطراء البسيط. أما وهي تصدر عن الأب دو برني، فهي قصيدة غزلية.

هل تساور الأكاديميةَ مشاعرُ الأب دوبرني نفسها فتستقبل فولتير؟ ليس ذلك بأكيد. إن العائق الذي لا يمكن تجاوزه هو جحود فولتير، وزندقته النضالية الوقحة. أما عدوه العلني في الأكاديمية فهو بوايِيه، أسقف ميربوا. وكتب فولتير، بقصد تجريد الأتقياء من سلاحهم، رسالة إلى الوزير لا يسع المرء قراءتها من دون فزع. تريده الأكاديمية ورعًا؟ لا بأس، سيصير إلى ذلك. أو لم يكن ورعًا من قبل؟ ومن هم الغادرون الحاسدون الذين يسعهم التلميح إلى أنه ليس كاثوليكيًا مثاليًا؟ لقد تجرأ على الاستشهاد بـ«تلك الصفحات (أي صفحات؟ الأنشودة للقديسة جنفياف؟) من عمله الذي قدسه الدين». قد يحسب المرء نفسه يحلم فممن عساه يسخر؟ ويستحضر «الـ هنرياد التي ليست سوى مدائح للفضيلة الخاضعة للعناية الإلهية» (ولِمَ جرت ملاحقة تلك القصيدة الهادية إلى التقوى؟). ويواصل القول: «يلومني أعدائي على رسائل فلسفية لا أدري ما هويتها...» إنه ضعيف الذاكرة. فهو لا يتذكر سوى الرسائل اللطيفة التي كتبها إلى أصدقائه، لكن ليست تلك التي طُبِعت تحت «ذلك العنوان المزهو». فيا له من تواضع!

قرأت باريس كلها تلك القطعة بذهول. فضحك بعضهم منها، وشعر بعضهم الآخر بالسخط، وما انخدع أحد. كان «ورع» السيد دو فولتير شهيرًا شهرة موهبته شاعرًا، لكن الحكم على «الورع» كان أسوأ. وهل تعلمون من كان الأشد سخطًا؟ رجل ذو روح طيبة: فريدريك! أما سخطه فناجم عن تقديره أن فولتير إنما يخون الزندقة.

سوف يفسر فولتير في ما بعد، وقد اتخذ هنا دور طرطوف الزندقة، أن أسقف ميربوا النزق والغضوب هو الذي أرغمه على ذلك الرياء. وكتب يقول: «كان عليه أن يعلم أن تصنُّع المرائين إنما هو فضل كئيب جدًا». لكنه فضل

لا يتوانى عن التحلي به، ولا يتسبب له بالكآبة، ولا سيما أن مكافأة ذلك الفضل الكئيب مقعد وثير في الأكاديمية. وبقي عائق غضوب آخر، إنه أسقف سانس ... «سوف أفعل كل ما ينبغي لتجريد أسقف سانس من سلاحه وتهدئة خواطره».

المسألة غاية في الوضوح! و«كل ما ينبغي» لا تدع مجالًا لأي نوع من الشك. حتى إنه قام بزيارة للأسقف دو ميربوا، وعرض عليه الصفقة الآتية: كانت المحظية، السيدة دو شاتورو، تزدري الأسقف. فعرض عليه فولتير أن يستعطف له الدوقة بوساطة من صديقه ريشوليو، بشرط أن يسهل الأسقف مسألة انتخابه.

إلا أن «حمار ميربوا[44]»، كما لقبه فولتير، كان عنيدًا. وحين سأله فولتير: «وهل سترفض أن أحتل مقعدًا في الأكاديمية؟»، أجاب الحمار، صاحب التاج الأسقفي: «بلى، ولسوف أقوم بسحقك».

صارا من بعد عدوين لدودين. وساند موربا الأسقف. كان ذلك الوزير عدوًّا خطرًا؛ قيل إن غريسيه اتخذه أنموذجًا لمسرحيته الكوميدية *Le Méchant* (الشرير). وانهارت أحلام فولتير حين قال أحدهم للملك إنه سيكون من غير اللائق اختيار فولتير ليحتل مقعد الكاردينال فلوري؛ ذلك أنه كان يتطلع إلى ذلك المقعد تحديدًا. إذًا سيكون أكبر زنديق في هذا العصر هو الذي سيتولى رثاء الكاردينال وكان أن عارض الملك.

اختارت الأكاديمية في 22 آذار/ مارس 1743، الأسقف دو بوايو ليخلف الكاردينال فلوري. ولم يرفع ذلك الحبر الصالح من هيبة الدار. فأقسم فولتير – ما الذي دعاه إلى القسم؟ – أنه سيتخلى عن الأكاديمية إلى الأبد؛ أي حتى التقدم المقبل.

---

(44) حمار ميربوا: يتعرض فولتير في مذكراته لنزاعه مع أسقف ميربوا السابق، لأنه عارض دخوله إلى الأكاديمية. أما وذلك الأسقف ذو خط سيئ، ويُوقع مختصرًا الكلمات، فصار توقيعه: الأسقف السابق لميربوا (anc. de Mirepoix)، قابلًا لأن يُقرأ: حمار ميربوا (âne de Mirepoix). وطرِب فولتير لذلك الاكتشاف الذي أضحى موضوع تندر في كثير من مجالسه، أو في مراسلاته. (المترجم)

لئن ملأ ذلك الإخفاق قلب فولتير بالمرارة، فإن فريدريك فُتن به. وكان ذلك يخدم مصالحه، فكتب إلى فولتير يقول: «تغلب على نفسك بازدراء أمة تتنكر لكتابات بيل إيل وفولتير، وتعالَ إلى بلاد يحبك الناس فيها، بلادٍ خاليةٍ من التعصب».

ذلك ما يدعى بضرب الحديد حاميًا.

أضحت باريس مقيتة في نظر فولتير؛ إذ رفض له كريبيون، وهو الرقيب، تراجيديته الأخيرة: يوليوس قيصر (*Jules César*). وعلم فولتير بالأمر وهو خارج عند منتصف الليل، من التدريب على مسرحيته! فكانت تلك طلقة الرحمة. فوعد فريدريك من فوره بأنه سيغادر فرنسا إلى بلاط بروسيا. فأفعمت الغبطة قلب هذا الأخير. إنه فرح يمتزج بالمكر، وقد خرج منه بالأبيات الرديئة الآتية:

«باريس والحسناء إميلي
كانا على ضلال في نهاية المطاف.
بوابيه والأكاديمية
قاما رغم تراجعه
فحددا مصير فولتير.
وبرلين، مهما يقل لنا،
هي الاختيار الأسوأ
لكن ما الهم؟ لسوف يضحكنا
حين نسمعه يتكلم
على موربا وعلى بوابيه
وهو ممتلئ بعلقم الهجاء».

كانت إميلي دامعة العينين، إنه التخلي. وباريس كلها تسخر من حزنها؛ ذلك أن باريس كانت تعرف كل شيء عن «النجمة»: عن عشقها ونجاحاتها وخصوماتها، وعن التسويات. وما كانت إميلي لتفكر بغير فولتير؛ فالجاحد أضحى على طريق

هولندا. وقامت في سبيل إرجاعه، بمضاعفة المساعي في سبيل التمكن من عرض يوليوس قيصر. فإذا وُضِعت المسرحية على لوحة إعلانات المسرح، فإن فولتير سيعود؛ ذلك أنها تعرف شاعرها حق المعرفة، ولئن بدا فريدريك أقوى منها، فإن المسرح أقوى من الجميع.

كان فولتير المريض والمتعب، ينتظر في لاهاي، داخل قصر فريدريك المليء بشباك العناكب، أوامر هذا الأخير للتوجه إلى برلين. لكن «الغندورة» (فريدريك) جعلته ينتظر. ولم يبدد فولتير وقته، بل هو لا يبدده أبدًا، فهو نجح بمساعدة مجدية من صديقيه دارجنسون وريشوليو في التغلب على كراهية البلاط له، والحصول على تكليف بمهمة دبلوماسية سرية من الشؤون الخارجية. وهكذا إذًا، سنرى فولتير «يعمل في الاستخبارات» على صاحب الجلالة البروسية الذي كان يمتاز بخاصية مدهشة هي الهذيان تحت تأثير هواه الفولتيري، وهواه للغة الفرنسية في آن معًا. ولا بد للمرء من أن يكون فولتير ليلقي بنفسه في مثل ذلك الوضع المغلوط.

ظهر مرة أخرى على مسرح الحوادث. وكان ذلك في برلين، في آب/ أغسطس من عام 1743. فالسيناريو لدينا، وهو مضحك، لكن ينقصنا الحوار كله تقريبًا، وهو الأفضل. فتبقى لدينا العِبرة التي يُرثى لها.

تظاهر لدى فريدريك – وكل ممثل يجيد التظاهر – بأنه غادر فرنسا وصفق الأبواب خلفه. ويقول لنا إن لويس الخامس عشر شجع تلك الحيلة. لكن الأمر مريب! إنه يفيض هزءًا بحق «حمار ميربوا». وشرع فريدريك يكتب بحق الأسقف أشياء مرحة وشديدة الانتقاص. فعمل فولتير على توزيع تلك الرسائل في باريس. واشتكى الأسقف إلى الملك من أن فولتير جعل منه موضوع سخرية في بلاط أجنبي، فأجابه الملك – كما قيل – بأنها مسألة تتعلق بالسياسة العليا، ومتفقٌ عليها ما بين فولتير والوزير، وإنه كلما كان الانتقاص من شأن الأسقف كبيرًا، كانت رفعة الملك وفرنسا أعلى شأنًا. ووجد فولتير الطريقة طريفة، بل هي كذلك في الواقع، ما دامت تسبب الغيظ لعدوه. فهذا الرجل المرتاب حيال كل شيء وحيال الجميع، لم يكن في ريبة من غروره الذي فضحه على حين غرة.

إن افتتان فولتير بتلك الأشياء المريحة كلها لم يكن بأقل منه حيال المنافع

التي حسب أنه سيجنيها، من فرساي ومن بروسيا على حدٍ سواء؛ إذ منّاه فريدريك بوعود مذهلة، فأجرى لها ابن الكاتب بالعدل حسابًا دقيقًا. ولم تقدم فرساي أي وعود، لكن الملك يدفع بسخاء، بل كان يدفع سلفًا إذا ما صدقنا فولتير. وما إن كُلف بمهمة حتى توسط لابن عمه مارشان كي يتولى تزويد الجيش بالأعلاف، فكان له ما أراد. وليس مارشان سوى اسم مستعار، لأن فولتير هو الذي سيجني الأرباح. لكن بدا ذلك غير كافٍ: العلف نافع للحمير - من ميربوا - فطلب، فنال تزويد الجيش بالملابس العسكرية. وإنها لصفقة ضخمة، لكنها ليست تجربته الأولى؛ إذ سبق لآل باري دوفيرنيه، في عام 1734، أن جذبوا اهتمامه إلى تزويد الجيش بالمؤن الغذائية، فكان نصيبه من الربح آنذاك مبلغ ستمئة ألف ليرة. ولم يكن ذلك كل شيء. ففي عام 1741، جعله صديقه دارجنسون يساهم في صفقة رابحة أخرى من التموين.

في أثناء إقامته في برلين، أهمل ابن عمه مارشان تقديم عشرة آلاف بزة عسكرية من أجواخ لوديف. فغضب وزير الحرب وهدد بسحب الطلبية، وتوكيل مزودين آخرين بتلبيتها. ومرة أخرى كانت إميلي هي التي بادرت فأنقذت الموقف: دفعت المبالغ اللازمة وعملت على تسليم البزات. وكانت أيضًا صفقة رابحة! وكتب فولتير إلى الوزير يقول: «طوبى للذين يخدموننا...» وكان في وسعه أن يضيف: «فيما هم يحققون لأنفسهم منافع كبيرة». إلا أنه كتب قائلًا في الحرب، قول فيلسوف وزاهد وطاهر الذيل: «أتظل الشعوب طويلًا عرضة للدمار كي تذهب لتكون موضع امتهان واحتقار وذبح في جرمانيا من أجل تحقيق الثراء لماركيه (هو مقاول، مثل فولتير) ومن لف لفه؟».

أليس هو تحديدًا ممن «لف لفه؟» فبكم يدٍ استطاع أن يكتب، وبكم قلم؟ لا ريب في أنه عدد كبير، وكل يد تجهل ما تكتب اليد الأخرى، وإن ذلك ليشكل آراء كثيرة بالنسبة إلى رجل واحد!

حرص على تهدئة خواطر إميلي، فائتمنها على مضمون مهمته «السرية». وبرهن لها على أنه لا يتخلى عنها إلا عنوةً وإرغامًا، وأنه لا يحب فريدريك، ويزدري بروسيا، ولئن كان يهجر إميلي الملائكية، فذلك نزولًا عند واجب وطني: فهو في بروسيا، إنما يخدم فرنسا! لكن إميلي التي سبق أن سمعت كثيرًا من تلك

الأقوال، لم تكن مقتنعة، وكتبت قائلة: «لا أصدق إلا بالبراهين». فبعث إليها فولتير برسائل الوزير. وفضلًا عن ذلك، فرضت إميلي أن تمر من طريقها هي، التقارير التي يوجهها الشاعر إلى الوزير، وتعليمات الوزير إلى... إلى من؟ فلنقلها: إلى جاسوسه. إنما الدبلوماسية فتاة طيبة حقًا. ولم يطل المقام بفريدريك حتى علم بتلك الترتيبات الممتعة التي قام بها بلاط فرنسا حيال صديقه «فيرجيل»، وترتيبات فيرجيل هذا حيال صديقه «سليمان الشمال». وإننا لنرتعد إذ نفكر في أن فريدريك يمكن أن يكون أشد بطشًا.

قام صديقنا العميل بتدريباته الأولى في لاهاي، تحت شباك العناكب على الدوام. كان وكيل فريدريك، الكونت بودفيك، غير عابئ بالعناكب، وهو يصرف جل اهتمامه إلى الزوجة الفتية لوزير هولندي. فتقوم هذه بنشل تقارير زوجها السرية، لتزود بها عشيقها الذي كان يعطيها إلى فولتير ليقرأها، فيقوم فولتير من ناحيته بإرسال أهم ما فيها إلى دارجنسون تحت رقابة حورية سيري. وعلى ذلك النحو كانت فرساي تحاط علمًا، ويستغل فولتير وضعه، شاعرًا مغضوبًا عليه، استغلالًا ماهرًا، ويستغل «الظلمة السعيدة التي أطمح في ظلها إلى أن يستقبلوني في كل مكان وبكثير من الألفة». لقد أوكلوا إليه مهمة فصل فريدريك عن حلفائه الإنكليز وجره صوب فرنسا. إلا أنها عملية صعبة، لأن التنظيم السيئ للجيش الفرنسي ورداءة رؤسائه، ما كانا ليوحيا لفريدريك بالثقة. وسعى فولتير للقيام بعملية تضليل، مستغلًا حسن مركزه في لاهاي، فحاول إقامة شقاق بين هولندا وفريدريك. لقد نمى إلى علمه أن هولندا تقوم بتهريب الأسلحة عبر الأراضي البروسية. فأحاط فريدريك علمًا بالأمر، وعرض عليه أن نزاعًا مشروعًا مع الجمهورية الغنية سيمنحه غرامات حربية ضرورية، تُدفع بالفلوران، وهي عملة ممتازة، وأن هذه العملية لن تحول إلا موقتًا بينه وبين نظم الشعر والبحث الفلسفي.

كان من شأن ذلك النزاع أن يحظى بمباركة من فرساي، إلا أن فريدريك لم يستسلم للخديعة. ولم يتخل فولتير عن مشروعه، فكتب إلى الوزير: «سوف أسعى لجعل هذا السم الصغير يختمر». كان طويل الباع في مطابخ الساحرات، غير أنه لم يوفق في إعداد ذلك الطبق.

أخيرًا تمكن فريدريك من استقباله. لم يكن ذلك في إيكس لا شابيل مثلما جرى الاتفاق عليه، بل في برلين التي وصل إليها فولتير في 30 آب/ أغسطس 1743. ولم يكن اللقاء سوى معانقات وقصائد عاطفية. وأقام فولتير عند الملك. إن تلك الحميمية تخدم أغراضه السياسية التي لا يغفل عنها. فيصغي فريدريك المتحفظ قليلًا إلى حديثه السياسي فيوافق أحيانًا على المناقشة. وربما يكون ذلك معابثة، إذ لا يشفّ من الفكر الملكي أي شيء. هنالك إعمال فكر في الأمر. ويزداد فولتير إلحاحًا، فيبوح له فريدريك بأنه لا يضع ثقته في فرساي، وأنه يعرف أن وزيرنا يتآمر في فيينا على حساب بروسيا. فاتخذ فولتير هيئة من تعرض للإهانة، وصاح منددًا بالنميمة: إن النمسا هي التي تنشر تلك الشائعات الكاذبة. وأضاف فولتير ليكون كلامه مقنعًا: «ألم يفتروا (أي النمساويون) عليك من قبل؟ ألم يُشيعوا في أيار/ مايو الماضي أنك مزمع على التحالف مع هنغاريا ضد فرنسا؟». ودُهش فريدريك كثيرًا وهو يرى فولتير على اطلاع واسع على نياته الواقعية جدًا، فاعترض قائلًا: «أقسِم لك (واحد آخر يُقسم!) على أن ذلك مغلوط تمامًا».

دوَّن فولتير في تقريره أن الملك لم يُقسِم إلا وهو يغض الطرف. فأحد الكوميديين إذًا يبشر بإحراز بعض النتائج. ولم يكن الآخر ممن يستسلمون نتيجة قَسَم مُلتبس! فانطلق فولتير في حديث منمق عن التحالف مع فرنسا التي... والتي... سوف تنعم أوروبا بالسلام (من بعد القيام بنهبها)، وستركع أخيرًا أمام أقدام لويس وفريدريك بعد حرب طويلة تُدار بفن وحنكة كبيرة. فيا له من أمر مدهش! دبلوماسي فيلسوف وداعية سلام يقوم بتوجيه السياسة وها هي ذي حرب تنشب. ويشاء سوء حظ حديثه أن يشهد، قبيل اختتامه، دخول من يعلن لجلالته أن الفرقة الموسيقية تنتظر ناي جلالته فحسب لتبدأ العزف، فتوقظ المشاعر الأكثر فلسفة، والأشد إنسانية، في قلب شاعرين يقومان بتقطيع أوصال أوروبا.

كان فريدريك يعزف عزفًا جيدًا على الناي، وكان يؤلف أيضًا، لكن مؤلفاته لم تكن تستحق أن تُؤدى. وشاء فريدريك أن يُطرب صديقه، فأوعز بتقديم أوبرا من تأليفه، بنص إيطالي، على مسرح القصر، وقُدمت إلى فولتير وحده! فكيف الصمود حيال مثل تلك الاهتمامات التي لا تصدر عن ملك - ونادرًا ما تصدر - إلا عن ملك مثله يقوم بزيارته؟ وكيف لا تتوافر لديه الجرأة، مع الألفة التي يعيش وسطها - أو يحسب أنه كذلك - بصحبة صاحب الجلالة، على تسليمه استجوابًا

عن مشروعاته السياسية؟ كان السؤال مدونًا على نصف الصفحة، وتُركت على نصفها الثاني، مساحةٌ بيضاء للجواب، وعلى الملك أن يملأها بخط يده. عُثر على هذه الوثيقة المذهلة بين يدي بومارشيه الذي احتفظ بنسخة عنها. لا بد للمرء من أن يكون فولتير ليغامر، في منتصف القرن الثامن عشر، بإخضاع ملك مطلق الطغيان لاستجواب لا يُخضَع له سوى المواطنين الأحرار في ديمقراطيات القرن العشرين، تحت تهديد السلطة البيروقراطية المطلقة. ألا كم كان متقدمًا على زمانه!

وأصاخ فريدريك السمع، فارتاب إذ ذاك في أن فولتير لم يأتِ في رحلة فلسفية وشعرية، غير أنه أجاب عن الاستجواب على طريقة فولتير: أجاب بأبيات شعرية! فهو رد على السؤال المتعلق بسيليزيا التي سيستولي عليها النمساويون مجددًا ما لم يتحالف فريدريك مع فرنسا، قائلًا:

«سوف نستقبلهم بي ري بي (biribi)

على الطريقة البربرية

يا صديقي».

أما عن السؤال المتعلق بواحد اسمه باسكور (ومعناه: مدجنة)، عمدة مدينة أمستردام الذي يتآمر مع فرنسا ضد بروسيا، فإن «المهمة الموكلة إلى باسكور هذا، هي على ما يبدو، تسمين الديوك المخصية والديوك الهندية».

ترينا تلك السخرية، على أحسن صورة، مدى استخفافه بسياسة السيد فولتير.

لكن أرويه العنيد سيعيد الكرّة. إنه يريد من فريدريك رسالة جادة يستطيع أن يسلمها بنفسه إلى لويس الخامس عشر (ورأى نفسه مسبقًا وقُدِّم إلى الملك، وقُبِل في البلاط!). وألح، بل أفرط في الإلحاح. وأخيرًا أجابه فريدريك بلهجة قاطعة بأنه لن يسلمه شيئًا: «إن المهمة الوحيدة التي يسعني أن أُحملك إياها لفرنسا، هي أن تسلك فرنسا سلوكًا أكثر تعقلًا».

المهمة الوحيدة، إنها لوقاحة! لكن ذلك لم يحل دون أن يكتب فولتير إلى فرساي أن مهمته تتقدم تقدمًا بطيئًا، لكنه تقدم حقيقي. إن والد كانديد «متفائل» أحيانًا.

ها هو ذا يرافق فريدريك إلى عند أخته المارغراف (المركيزة) دو بايروت التي كان يعرفها، لكن يلزمه أن يداور وأن يتوسل ليشارك في السفر، ولقد سخروا منه. إن سليمان الحكيم لم يقل كلا، لكن طريقته في التزام الصمت جعلت المحيطين به يرون أن غياب «كلا»، لا يعني «نعم». وهنالك من أجابه بأن الشاعر، في غياب الملك، سوف يُخلِد إلى الراحة. إن جلالته حريص على صحة الشاعر. فهتف فولتير قائلًا إن صحته لم تكن يومًا بأفضل مما هي عليه الآن، وإنه سوف يتبع سليمان الحكيم حتى القطب. وعلى الرغم من ذلك لم يرجُه أحد للحضور. إنه يتبع وليس من يحول بينه وبين أن يتبع. أما الوصول، فكان بالنسبة إليه نجاحًا باهرًا. كانت المارغراف تحبه حتى العبادة، والأخت الأخرى، أولريكه، تحبه أكثر. وكان يظهر حيال هذه الأخيرة توددًا يخالف الصواب، فهو على درجة من الهذر يصعب تخيلها. لكن كل شيء في مأمن بفضل نبرة فولتير وروحه وطرائقه. وكان بعضهم يظن أنه في طريقه إلى الفضيحة، لكنه يتفاداها لأنه فرنسي، ولأنه فولتير. إن الدعابة، على نحو ما كان يفعل مع صاحبة السمو الملكي في ألمانيا، في القرن الثامن عشر، لمخاطرة. لكنه كان يطير فرحًا: هنا المسرح والسياسة والغزل، في وسط الأمراء والبذخ وجمهور واسع يحيطه بالتبجيل. فأين يسعه العثور على ذلك كله؟

«بايروت هي خلوة روحية فائقة العذوبة، يستمتع فيها المرء بكل ما في البلاط من بهيج، من غير منغصات العظمة» (هذا موجه إلى فرساي!).

أمضى في بايروت خمسة عشر يومًا. لقد وهب لنفسه هذه الإضافة التي ما كانت واردة في خطة الرحلة. وكان أقسم لإميلي إنه لن يمكث سوى عشرة أيام في برلين. وأسوأ ما في الأمر أنه تركها خمسة عشر يومًا بلا خبر، وأرسل إليها في اليوم الأخير أربعة أسطر ليحيطها علمًا بأنه كان عند المارغراف.

كانت إميلي مهتاجة من الألم، فهي تكتب الرسالة تلو الرسالة إلى آل دارجنتال. أما الحقيقة، فهي أن فولتير نسيها، فهو سكران؛ ذلك أن البخور الذي كان يحرقه عند أقدام الأميرات الألمانيات كان يسكره هو نفسه. فهو يجد في تلك الأوساط الملكية، الرهيفة حقًا، أشكالًا من الفتنة لا يقع عليها في فرنسا. وهو هنالك محبوب أكثر. كانت تلك الأرستقراطية، وهي أقل عجرفة وعمقًا فكريًا مما

عندنا، تفوق أرستقراطيتنا رهافة حس وبساطة، وتماثلها ثقافة وحسن استقبال. أحب فولتير إنكلترا، لكنه أحس فيها بالسأم، أما في ألمانيا فليس ذلك مطلقًا. وهذا ما كانت إميلي تعرفه وتخشاه؛ فهي غيورة من فريدريك، ومن أولريكه، ومن المارغراف، ومن ألمانيا كلها. فلِمَ لا ترافق شاعرها؟ كانوا سيستقبلونها أحسن استقبال، هذا أكيد. وما كانوا سيسخرون من دراساتها العلمية، بل كانوا وفروا عليها، بخلاف ذلك، تلك الضحكات الباريسية الهازئة، والسهام المسمومة التي ترميها بها السيدة دو ديفان.

لكن وا أسفاه! كان حب ألمانيا لفولتير أكبر من أن تقوى معه إميلي على حب ألمانيا؛ فالغيرة لا ترحم. وذلك أمر مؤسف، لأن ألمانيا كانت ستحبهما معًا.

كيف لها أن تسامح بلاط بايروت هذا الذي أسكر فولتير إلى حد منعه من الكتابة طوال شهر، باستثناء بطاقة من أربعة سطور! «بطاقة من ذلك النوع الذي كان يكتبه من غرفته إلى غرفتي».

ماذا كان يفعل في بايروت؟ «ما أدراني؟ قد يُمضي فيها طول حياته؟ والحق أني كنت سأصدقه لولا أني أعرف أن لديه أعمالًا تستدعيه إلزامًا إلى باريس. إنه مهووس بحب أوساط الأمراء الألمانية. لكن هل ذلك يبرر أن يجعلني أموت قلقًا؟». إنها تتوسل إلى دارجنتال أن يبعث برسالة إلى صديقه ليصف له «الحالة التي وضعها فيها». كانت إميلي في بروكسل، تكد وتكافح ما بين وكلائها وأوراقها، وتبكي، في حين كان فولتير يبعث بهذه القصيدة الغزلية إلى أولريكه التي ستصير ملكة السويد:

«شيء من الحقيقة في الأغلب
يختلط بالكذب السمج
في هذه الليلة وسط خطأ حلم
وجدتني أرتقي إلى مصاف الملوك
أحببتك يا أميرة، وتجاسرت فقلته لك
ولدى اليقظة لم تنتزع الآلهة مني كل شيء
فأنا لم أفقد سوى مملكتي».

الحق أن حبه أُسيء استقباله. لكن الغزلية أُرسلت إلى باريس، حيث جرى التعليق عليها. قيل إن فريدريك أساء تفسير ذلك البوح، وشبه فولتير بكلب ينبح في وجه القمر. إلا أن تلك الأقوال الشريرة هي لبيرون وليست لفريدريك.

لكن الشيء الأكيد أن فريدريك مازح فولتير بشأن غرامياته حيال شقيقته، وحيال الطاهية في السفارة الفرنسية (التي ما كانت ترفض له أي طلب). ويجيب فولتير بأنه إن انكفأ نحو الطاهية، فالسبب: «ليس لدي جيش من ثلاثمئة ألف مقاتل يُمَكنني من اختطاف الأميرة».

أرسلوا إليه – وفي ذلك برهان على أنهم لم يسيئوا النظر إلى جسارته – صورة للملك، وصورة للملكة الأم التي كان له حق التوجه إليها من دون استئذان، وصورة للأميرة أولريكه. وكتب إلى فريدريك هذه المقطوعة الرباعية، تعبيرًا عن شكره على الصورة الأخيرة، فيسعنا أن نحكم على مدى الطلاقة التي يتعامل بها ابن أرويه مع الملوك ومع شقيقاتهم.

«إن من الوقاحة بمكان أن يقبّل المرء من دون حيرة
المغريات المتواضعة لشقيقتكم المبجلة.
لكن رؤيتها، وأخذها وعدم تقبيلها
سيكون أمرًا مفرطًا في إثارة السخرية!».

الحق أن أولئك الناس، أصحاب السمو الملكي، لم يكونوا مرتابين جدًا، لكن فريدريك صار كذلك بشأن موضوع آخر: السياسة؛ فحافظ على مسافة بينه وبين فولتير في نهاية إقامته. وشعر فولتير بذلك فكتب يخبر الوزير. ووجد نفسه في ما بين الملك الذي يرتاب فيه وسفير فرنسا الذي يحسده، لأن فولتير يسحب البساط من تحت قدميه. فالسيد دو فالوري كان غاضبًا من أنهم أرسلوا إليه ممثلًا بديلًا منه في شخص فولتير، ومن غير أن يحيطوه علمًا بالأمر. والحال أنه يعرف «السر»، مثل الجميع في أي حال. وتصدى فولتير لجبهتين: على اليمين وعلى اليسار، فأوضح للملك أنه لا يطمح إلا إلى تقارب مع لويس الخامس عشر، وذلك في سبيل رفعة كل منهما، فقبل منه فريدريك ذلك التفسير. وأوضح للسيد دو فالوري أن مهمته – وهي سرية – إن نجحت، فسوف ينعكس العز كله على السفير المقيم، وأن فولتير إنما يعمل في النهاية في خدمة ذلك السفير. فقبل السيد دو فالوري ذلك التفسير.

كان فريدريك يتمتع، كما فولتير، بموهبة إعداد السموم على نار هادئة. فأرسل المقاطع من الرسائل التي كتبها فولتير إليه بشأن الأسقف ميربوا، إلى الأسقف نفسه. وكان في ذلك من الغدر كمثل غدر فولتير. مع ذلك فليست الأدوار على قدم المساواة؛ فالغدر متساو، لكن فريدريك أكثر بطشًا. إنه يلعب مع فأر، فليس معرضًا لأي خطر. أما فولتير فهو عرضة لضربة مخلب قاتلة من الجانبين. ولا ريب في أنه جاء بملء اختياره ليضع نفسه بين نمرين. لكنه ليس سوى شاعر في زمان، يمكن الموهبة أن تؤمن فيه بعض الحظوة، غير أن الشخصية الإنسانية ليست بذات وزن يذكر ضمن مراهنات الملوك - وحتى الوزراء - بل حتى أمام عصا فارس مثل دو روهان. أحيط فولتير علمًا بخيانة ذاك الذي كان هو يخونه. وكتب فريدريك إلى سفيره في باريس، السيد دو روتنبرغ، يقول: «لست أدري كيف استطاع فولتير أن يُخرِج الخيانة الصغيرة التي ارتكبناها بحقه من مخبئها، فهو ملدوغ بسببها حتى الحد الأقصى، وآمل أنه سيبل من لدغته».

إن تلك الصداقة لغريبة حقًا وفريدة؛ فقد كتب فولتير من ناحيته إلى وزيره يقول: «هو يعتقد أنه يستحوذ علي بإضاعتي في فرنسا (لقد نفذ فولتير إلى قلب مؤامرة صديقه)، لكن أُقسِم لك (مرة أخرى!) بأني أُفضِّل العيش في مدينة سويسرية، على أن أتمتع مقابل ذلك الثمن بالحظوة الخطرة لدى ملك قابل لأن يضع الخيانة في قلب الصداقة نفسها».

يثير هذا اللوم الابتسام، بل الضحك الساخر أيضًا، وأيضًا قوله «أُقسِم لك»، لأنه سيستمتع بالحظوة المسمومة عند فريدريك، على الرغم من الأيمان الغليظة، أما الأكثر إثارة للضحك فهو أنه سيأتي يوم يعيش فيه في «مدينة سويسرية»، لتكون آنذاك الاختيار الأسوأ من الاختيار الأسوأ. إن غروره لمفرط جدًا، فهو لن يتخلى عن فريدريك الذي هو ملك، لأنه في نهاية المطاف وجد فيه صديقًا، أو شريكًا في الأقل من طينته نفسها. فلعبتهما المسمومة ستصبح ضرورية لهما حتى، إلى حد عدم الرغبة في الاستغناء عنها. وهكذا تفارقا في 12 تشرين الأول/ أكتوبر 1743، بالدعابات المألوفة. لكن الثقة لفظت أنفاسها في هذا الجانب وذاك، فواحد استشم رائحة الجاسوسية، والآخر استشم رائحة الخيانة. ولم تجرِ مساومة مالية نافلة: لقد تحمل فولتير النفقات كافة.

اشترى لنفسه عربة جديدة انكسرت في اليوم الثاني من السفر، فألقت بفولتير أرضًا وسط حفر العجلات، هو وحوائجه ومعاطفه وقبعاته، محطمًا لكن من غير كسور. أما الفلاحون الذين هبوا إلى مساعدته فقد أقبلوا بالأحرى لنهبه، فالتجأ إلى قرية. وما كاد يلتقط أنفاسه حتى بدأت القرية تحترق؛ إذ اشتعلت النار في الكنيسة والنزل. وكان عليه أن يهرب، فتوقف عند الدوق دو برونشفيك الذي استقبله استقبالًا رائعًا. ولبث خمسة أيام وسط عذوبة ذلك البلاط الفتان، فيما كانت إميلي تبكي في بروكسل طوال النهار والليل! ولزمه من بعد أن يتنقل بين قصر ريفي وآخر، فيقول: «إنها رحلة سماوية انتقلت فيها من كوكب إلى كوكب، كي ألقى أخيرًا باريس الصاخبة هذه».

لكن قبل بلوغه باريس، مر في بروكسل. وحين التقت إميلي شاعرها أطلقت صيحة فرح كبرى، وبكت فصفحت. أما هو فبدا كمن خرج في الصباح، ثم عاد لتناول الغداء.

البلاط انبسطت أساريره...

انطلقا مسرعين إلى باريس، لأن فولتير في عجلة من أمره لتقاضي تعويض خدماته. وتوقفا في طريقهما عند بنت شقيقته السيدة دوني، وهما يعبران مدينة ليل.

وصل فولتير إلى باريس في الأيام الأولى من كانون الثاني/ يناير 1744. هنالك خيبة جديدة؛ إذ جعلته الوزارة يشعر بأن خدماته كانت موضع استخفاف. وإذا ما صدقنا أقواله، فإن صديقنا الجاسوس الهاوي وقع ضحية تآمر. يقول لنا إن الوزير الذي استخدمه، السيد أملو، كان لجلاجًا. والحال أن تلك العاهة كانت تفوق قدرة المحظية السيدة دو شاتورو على التحمل، فأوعزت بطرد الوزير. يؤكد فولتير قائلًا: «لقد شملتني تلك المصيبة». كان يمكن الواقعة أن ترد في كتابه زاديغ (Zadig)، أما الواقع فكان مغايرًا. لم يفقد السيد أملو الحظوة لأنه كان لجلاجًا، بل لأنه كان عديم الكفاءة. يضاف إلى ذلك أن تلك المصيبة حلت في نيسان/ أبريل 1744، في حين أن فولتير غادر باريس في نهاية كانون الثاني/ يناير 1744، وعاد إلى بروكسل. لم ينتظر إذًا أن تحل المصيبة بالوزير ليقيس حجم مصيبته. وصل صفر اليدين، فتركوه يرحل كذلك. لكن قلبه ممتلئ غمًا.

إن إميلي لتمسك به هذه المرة، فهي واثقة من أنه لن يذهب إلى برلين من بعد. لماذا؟ لأنها جعلته يقسم على ذلك. قالت: «لئن حنث في هذه اليمين فسوف يكون ذلك تدنيسًا مزدوجًا للمقدسات»؛ ذلك أنه أقسم بحضور السيد دارجنتال. والأمر مثير للشجن! لكن وا أسفاه! فذلك التدنيس المزدوج، وذلك القسم - والأيمان الأخرى - ليست بذات معنى بالنسبة إلى فولتير إذا ما قرر الرحيل أو البقاء، أو الإصابة بالمرض أو الشفاء، أو الكتابة أو إلقاء خطبة قصيرة أو التفوه بكلمة جميلة تستجر عليه مصيبة. ليس من شيء يقيده، باستثناء العقود في الصفقات، والعمل في الحياة اليومية.

هذه وسيلة للإمساك به: عرض على فولتير أصدقاؤه ريشوليو ودارجنتال وأسياد آخرون يشكلون ما يسمى بـ«المكاتب»، وهي تجمعات تعارض الوزارات بممارسة تأثيرها مباشرة على الملك، أن يكتب إلى البلاط نصوصًا مسلية. فهؤلاء الأصدقاء العابثون والمتألقون يسامرون الملك، وليس للسياسة التي يدعون إليها سوى قصد واحد: تقويض سياسة الوزراء. أما نتيجة تلك المشاحنات فمعروفة؛ إنها السياسة الكارثية التي انتهجتها فرنسا تحت حكم لويس الخامس عشر.

كان ريشوليو منظم الاحتفالات. وتعهد فولتير، إرضاء له، بكتابة مسرحية تسلية نصفها أوبرا ونصفها باليه، وعنوانها: أميرة نافار (*La Princesse de Navarre*). واندفع في ذلك العمل اندفاعه المحموم كعادته لدى قيامه بأي عمل آخر، يحرضه الأمل في الدخول منتصرًا إلى ذلك البلاط الساحر والمرهوب الجانب. فوضع نصه تحت تصرف أصدقائه الذين صححوه تصحيحًا قاسيًا. فعاد وتمرد، لكنه أخذ الملاحظات في الحسبان، أما ملاحظات ريشوليو غير المقروءة، فكتب إليه بشأنها يقول: «صحيح أنك تكتب كتابة هر»، ثم أضاف في سبيل تمرير ذلك: «أنت ناقد كبير، ولا يسع المرء أن يرتشف الشاي وذهنه أكثر نباهة».

تمتلئ تلك الأنواع من الأعمال بالشراك؛ فينبغي عدم إزعاج أحد. وهذه مسألة أكثر مشقة من حيازة الرضا. فكان يفضل لو كتب تراجيديا على كتابة عمل ترويح عن النفس.

توجه هو وإميلي في حزيران/ يونيو 1744 إلى سيري. لم يسبق قط أن وجدا المنطقة على مثل ذلك الجمال. شعر فولتير هنالك بالسعادة الكبرى، فشرع يؤرخ

رسائله من «سيري الغبطة». وتوجه الرئيس هينو لزيارتهما لدى عودته من بلومبيير. فزها فولتير لِما أبدى الرئيس من إعجاب وافتتان. وكتب الرئيس إلى دارجنسون قائلًا: «أقول لك أخيرًا إن المرء يظن أنه يحلُم». وأصغى إلى قراءة الأميرة وكان على درجة من الرضا عنها، الأمر الذي جعل فولتير يأخذ بالتعديلات التي أشار بها هينو كافة. وقال هينو إن فولتير هذا كان تلميذًا نجيبًا على الدوام؛ «فقد نجح في أن يكون مؤثرًا وفكهًا». وكان ذلك هو الكمال، فسوف يجد البلاط في المسرحية ما يرضي الأذواق كافة.

تبعت إميلي خلال تلك الفترة، ما يشبه الاستشفاء من سموم علمية؛ إذ جعلها كونيغ تتشرب «اللايبنتزية»، وهي تتخلص منها. فتابعت دروس الأب جاكييه النيوتني. وكان فولتير يتألق طربًا لتقدم النيوتنية.

ظهرت شخصية جديدة في حياة فولتير مع إبداع تلك التسلية: إنه الموسيقار رامو. فعليه أن يكتب موسيقى أميرة نافار، وفقًا لكلمات فولتير. فما سيكون عليه ذلك التعاون؟ كان رامو مبتلى بأسوأ طبع في العالم: إنه امرؤٌ ساخط. لاقى بدايات صعبة، لكن أسوأ ما في الأمر أن تلك البدايات دامت طويلًا. فحين جرى تقديم أول عمل له، وهو أوبرا إيبوليت وآريسي (*Hippolyte et Aricie*)، كان رامو في الخمسين من عمره. وثار لمدة عقوبته الطويلة فأضحى مهووسًا غطرسة. ولم تكن تهمه في كثير أو قليل كلمات أوبرا ما. وقد صاح ذات يوم بمغنية قائلًا: «أسرعي أكثر! أسرعي!»، فقالت له إنها ما عادت تستطيع التلفظ بالكلمات، وإنها ستغدو غير مفهومة. فقال: «وما الهم في ذلك، حسبهم أن يسمعوا موسيقاي».

كان مؤلفو الأغاني لرامو بمنزلة عبيد لديه يعاملهم بفظاظة لا تُصدق. فهل سيعامِل مؤلف زايير على النحو ذاته؟ لقد سمح لنفسه بأن يتلاعب بنص هذا الأخير من دون وازع من حياء، فارتأى هينو بحكمة أن يستبق الانفجار الذي هو واقع لا محالة. وأحيط ريشوليو علمًا بالأمر فتدخل راميًا بكل ما لسلطته الكبيرة من ثقل لكي يعيدَ رامو تصحيحَ نص فولتير. وكان قد تحول مزقًا وأعيد صوغه على يد «كل شويعر من أصدقائه»، وهذه هي التسمية التي يطلقها ريشوليو على عبيد رامو. إلا أن واحدًا من أولئك الشويعرين لم يكن عبدًا، لكنه كان يعشق التلاعب بأشعار الآخرين. كان ذلك هوسًا وعادة مستهجنة، حتى ليُسددَ ثمنَ تلبيتها. إنه

الجابي العام الشهير لا بوبلينير الذي جعل منه البذخ وكرم الضيافة والنباهة شخصية مرموقة. أحيط فولتير علمًا – أو راودته شكوك – بشأن تلك التلاعبات. ورامو نفسه لم يُخفِها عنه. كان المتوقع أسوأ؛ لكن اقتصر الأمر على ابتسامة إشفاق وتسامح، فما كان رامو إلا شخصًا غريب الأطوار، إنه مجنون ممتلئ موهبةً، وإن في مقدور من صاغ فصل الإنكا (Incas) أن يكون مجنونًا. فيا له من صبر! ويا لها من لطافة! ولكم كان ذلك غير متوقع! فهل هو احترام لموهبة ذلك المجنون؟ ليس ذلك تمامًا. فالمطلوب تقديم ذلك الترويح عن النفس في البلاط، سواء أقام رامو باقتطاعات من العمل أم لا، لذا لن تقع القطيعة مع المجنون. وما الهم من الموسيقى وفظاظة الموسيقار، شريطة أن يَدخل مؤلف الكتيب إلى البلاط، وأن يثبّت من بعد قدميه هناك. «ومهما يكن رأيك، فإن تلك الترهة (أي الترويح عن النفس) هي الحيلة الوحيدة الباقية في حوزتي، من بعد استقالة السيد أملو».

لم تكن «الترهات» الدبلوماسية مواتية له، فبات يعتمد على «الترهة» الموسيقية ليستدرك الوضع.

مع نهاية الصيف، في 14 أيلول/ سبتمبر 1744، عادت إميلي وفولتير إلى باريس. وكانت باريس تتهلل فرحًا. فالملك تعافى، بعد أن ساد الاعتقاد بأن أمره انتهى في ميس. وكان الإيمان الملكي لا يزال قويًا، إلى حد أن لويس المحبوب استُقبِل في باريس بمظاهر من المحبة الفائضة التي لم ينعم بها سوى قلة من الملوك. ودُهِش لويس للأمر. لكنه لم ينفعل جراء ذلك، لسوء طالع ذريته؛ فقد كان لذلك الإيمان الشعبي أن يلهمه شيئًا من التبصر...

أما السيدة دو شاتليه التي لم تكن باردة العاطفة كالملك، فإنها رغبت في المشاركة في الفرحة العامة، وفي رؤية الألعاب النارية، والتصفيق، وفي أن تهتف «عاش الملك» مع البائعات في الحوانيت ومع الحرفيين. أما في شارع كروا دي بتي شان، فإنهم وقعوا في زحام عربات لم يُسمَع بمثله من قبل. كانت هنالك ألفا عربة متداخلة بعضها في بعض، ومحاطة بحشد متلاحم وفي حالة من الهذيان. وأسوأ ما في الأمر أنه كان لدى إميلي حوذي من سيري، لا يزال حديث العهد في العمل في باريس. ولقد جاء في الوقت الملائم. فما عادت

تدري إميلي وصديقها الشاعر ماذا يفعلان. هل يظلان في مكانهما؟ أيناماں في العربة؟ أجل، لكن ذلك يعني البقاء مستيقظين فلا يغمض لهما جفن، وبقاء كل منهما خاوي البطن حتى الغد. فارتمت إميلي وسط تلك الموجة البشرية، بكل عناد، وهي تجر شاعرها الوجِل الذي سار على خطى جنية سيري، المتبرجة كما عادتها، والمتلألئة بالحلي الماسية، والمزدانة بالريش، وعلى وجهها الصبغة كأنها على خشبة المسرح، فعبرا طريقهما، من دون مزاحمة ومن دون التعرض لكلام لاذع أو نشل أو شتائم أو قرص، حتى ساحة فندوم حيث يقوم قصر الرئيس هينو. كان غائبًا، لكن الأمر غير مهم. حلّوا، فأرسلوا لجلب شواء من مطعم مجاور، وزجاجة نبيذ من القبو. وأكلا مبتهجَيْن وشربا نخب صحة الرئيس، وكتبا له رسالة يعلمانه فيها بعدد الأنخاب التي شُرِبَت نخب صحته، ونخب المشاعر الطيبة التي يحملانها له كافة.

لم يأتِ الشاعر هذه المرة ليتقدم من البلاط صفر اليدين، إذ إنه نظم قصيدة مداهنة: حوادث عام 1744. كان التملق الذي بذله فيها متكتمًا. ورُفِعت القصيدة إلى الملك، وطُلِبَ أن يُقال له، من طريق الكاردينال دو تانسان، إنه قدِم خصيصًا من سيري إلى باريس للاحتفال بعودة جلالته. «وليعلم الملك، باختصار، أني وضعت ثلاث شموع كبيرة عند النافذة». إيه! يا له من مرؤوس طيب في رعية جلالته، ويا للحمية الورعة المتمثلة في تلك الشموع الثلاث!

تلك كانت الأعمال التمهيدية. واستقر فولتير في فرساي، في قصر فيلروا، ليتابع تدريبات الأميرة في كانون الثاني/ يناير 1745. ويريد أن يجعلنا نصدق أنه لا يرى شيئًا، ولا يرى أحدًا، وأن فرساي تجعله غير مبالٍ: «أنا في فرساي مثل مُلحد في كنيسة». وهي صيغة جميلة كي يخدعنا بذلك عمدًا. واقع الحال أنه يقوم بالمناسك المكتملة التي يقوم بها مرؤوس كامل. وكتب يقول إنه لأمر متعب بالنسبة إليه أن يكون «مهرج الملك وهو في الخمسين». فهو ما ينفك، وفقًا لما كتب، في غدو ورواح بين باريس وفرساي. ويمتدح، بل يمدح، الملك دونما هوادة «مديحًا رفيعًا، والسيدة ولية العهد مديحًا رقيقًا، والأسرة المالكة مديحًا هادئًا»، ويتصرف على نحو يجعله «يُرضي البلاط، من غير أن يغيظ المدينة». ولِمَ ذلك كله؟ لأن هذا الشكل من الاضطراب يروقه، مثلما تروقه أشكال الاهتياج كافة. ففي ذلك الوقت، يضطرب السنجاب في الفراغ، فيجعل قفصه يدور،

ويعرف ذلك، لكنه يأمل في أن يغدو قفصه من ذهب. وهذا ما ينتظر من البلاط، وهو ما يكتبه إلى دارجنسون في 8 شباط/ فبراير 1745: في البدء مهمة رجل بلاط عادي ملحق بغرفة الملك، وهو اعتماد بلا مقابل. وعلى وجه الإجمال، «فما دام الاعتماد لا يعدو كونه اعتمادًا، يمكن أن يُضافَ إليه منصبُ مؤرخٍ رسمي، وبدلًا من النفقة المخصصة للتأريخ الرسمي فإني لا أطلب سوى مرتب من أربعمئة ليرة. وإن ذلك كله ليبدو لي مبلغًا متواضعًا بعض الشيء (لكنه سيرضى به، على سبيل البداية). وكان تقدير السيد أوري مماثلًا، فوافق على الترهات كلها».

إذًا لقد رأى مراقب المالية العام، السيد أوري؟ واستشاره ونال موافقته؟ وعلى ذلك فحين سيُحاط الملك أو الوزير علمًا بمطالبة السيد دو فولتير، فسوف تكون المالية مستعدة للرد بالإيجاب. والمسألة سوف تُنجَز. كان على وجه العموم، يستحق منصب مؤرخ رسمي أكثر من أي شخص آخر. وكان ينبغي أن يُقدم إليه ذلك المنصب، من قبل أن يسعى هو للحصول عليه. صحيح أنه كان في وسع البلاط أن يتساءل، استنادًا إلى الفضائح السابقة، بأي حبر سوف يُكتَبُ التأريخ الملكي... لكن لا ضير في ذلك، فريشة فولتير متطوعة لكتابة تاريخ ملكه وزمانه.

وسط أنغام مسرحية الأميرة وخطاباتها المفخمة، ووسط المكائد الغرامية والأجواء المحمومة التي ترافق إخراج مشهد كبير سيعرض في البلاط، علم فولتير بوفاة أخيه أرمان في 18 شباط/ فبراير 1745. لم يشهد فولتير ساعات أخيه الأخيرة، لكنه ذهب لحضور دفنه. وكان من الأخ غير المحبوب أن وجه إليه إساءة أخيرة أيضًا. فبدلًا من أن يختاره هو منفذًا لوصيته، كما ينبغي أن يكون، إذ إنه أخوه وأقرب وريث له، اختار أرمان ابن شقيقته السيد دو فونتين هورنوا، زوج إليزابيت. أحس فولتير بالإهانة. لقد كان قادرًا أكثر من أي شخص آخر على أن يدير فيستثمر رأس المال الذي تركه أرمان، من غير أن يدع، بحكم نزاهته، أي غبن يلحق ببنات شقيقته. وكان ما جرى بخلاف ذلك؛ فأعداؤه رغبوا في تسويد سمعته في ما يتصل بهذه النقطة، لكن ذلك لغو، وظلم كبير. فلديه الكثير من نقاط الضعف أو البراعة، لكن استقامته في الشؤون العائلية لا يمكن المس بها. وكان كاهن مغمور، يُدعى الأب برويل، قام في مطلع القرن التاسع عشر، بمحاولة لتسويد صفحة فولتير نهائيًا، في مقابل الإشادة بالسيد دو شاتوبريان، لكن محاولته باءت بالفشل؛ فهو

ذكر أن فولتير، وفي معرض عزمه على الاستيلاء على تركة أخيه، قام بدور من الاحتيال السمج؛ إذ شوهد بملابس سوداء، واضعًا قبعة ذات حروف مسدلة كالتي يضعها كبار كهنة بور روايال، وهو يجوب الكنائس التي يتردد عليها أخوه، فيرفع الأدعية مشفوعة بتنهدات عميقة واندفاعات قوية، ويصغي مفتونًا إلى المواعظ الجانسينية، تحت ناظري أرمان. فيا له من حديث خرافة أحمق! ذلك أن فولتير كان منصرفًا في تلك الفترة إلى إخراج مسرحية أميرة نافار، وإن نفاقه الوحيد تمثل في اتخاذ دور الطائش ليعلم الممثلات حسن أداء أدوار الشخصيات الطائشة في نصه. إن ذلك الأب التعس باروبل شن هجومًا فاشلًا، وإن مساندة قضية بتلك الطريقة إنما تعني خسارة تلك القضية. فما النفع من إضافة عيوب أخرى إلى فولتير؟ إنه أغنى رجل في العالم، في هذا الميدان، وفي ميادين أخرى، فلندع له عيوبه، لأنه يتكيف وإياها إلى حد الكمال. أما ما ينسِب إليه باروبل، فهي غباوات، وهي ليست من فولتير في شيء.

باختصار، أُصيب فولتير بغبن شديد من قِبَل أخيه الذي لم يدع له سوى حق الانتفاع بحصة ضئيلة من إرثه. وترك أرمان للسيد دو فونتين، مكافأة له على القيام منفذًا لوصيته، ماسة بقيمة ستة آلاف ليرة. فكان لتلك التركة في نفس فولتير أثر الصفعة؛ ذلك ما كلفته إياه سخريته من الجانسيين! فربما هم يصفحون «في ما يتعلق بالله»، لكنهم لا يصفحون في وصيتهم.

لم يجعله ذلك الدفن يضيع كثيرًا من الوقت. وما كان لمسرح فرساي آنذاك من وجود (ذلك الذي أُعيد إلينا توًا، فمنحنا سعادة كبيرة)، فأقيمت الاستعدادات لتقديم الأميرة في قاعة موقتة من مضمار الملك. إلا أن القاعة الفسيحة جدًا كانت أصغر من أن تضم بين جنباتها الذين كانوا يزعمون أن لديهم الحق في حضور التسليات الملكية؛ إذ كانوا يريدون الدخول بأي ثمن، حتى على حساب أن يموتوا اختناقًا. وكان بعض الناس يسحق بعضهم الآخر، فيما الحجّاب يصرخون قائلين: «أفسحوا المكان!»، فبدا ذلك غير ملائم للدوق دو لوين. وصار ضروريًا إخلاء القاعة من الحضور؛ إذ استغرقت حالات الإغماء والاختناقات وقتًا أطول من وقت العرض. ومثلت تلك ذروة التسليات في الاحتفالات التي أقيمت بمناسبة زواج ولي العهد. فالاحتفالات قائمة منذ ثمانية أيام في باريس وفي فرساي. والمدينة تهرع باتجاه البلاط، والبلاط يرتد منعطفًا نحو المدينة. صار فولتير في

ذروة الاهتياج بسبب ذلك الجو. وبدا الممثلون وقد خارت قواهم، غير قادرين على الصمود أكثر يومًا واحدًا. كانوا في انتظار الملك في الساعة السادسة، فلم يصل إلا في السابعة. وانتهى الحفل في منتصف الليل. حقق فولتير نصرًا مؤزرًا من ذلك العرض، لكن يبدو أن المؤلف كان وحيدًا في حماسته؛ فالمسرحية حققت نجاحًا واضحًا، لا أكثر ولا أقل، وأُخِذ عليه مزج الفكاهة برقة العاطفة، بل بدا الهزل سمجًا في نظر بعضهم. أما ولية العهد، صاحبة السمو الملكي ماري تيريز، فجاءت من إسبانيا، مسقط رأسها، بمزاج صَموت، ولم تنجح انعطافات فولتير كافة، من الكلام الرصين إلى المزاح، في حل عقدة حاجبيها مرة واحدة. كانت نفسُها تعاف «المزاح»، وكانت ترى أن الباليه الكوميدية تفتقر إلى «النبل والعظمة». ورأوا في باريس أن التسلية كانت مفرطة في الطول وباعثة على الضجر على الرغم من وجود ومضات. أما وأنه ما من أحد اكتشف فضيحة بين السطور، أو مسًا بالذات الملكية في تلميح ما، فإن ذلك كان «نجاحًا بمعيار البلاط». إنهم يملّون باحتشام.

نال فولتير من البلاط، لقاء تلك الانعطافة الضئيلة والمداهِنة والاتفاقية عن أعماله كافة إطراء الملك، ووعدًا من فم جلالته نفسه بأنه سيصير المؤرخ الرسمي، وينال نفقة بقيمة ألفي ليرة. وتم ذلك بعد شهر واحد، إذ إن فرساي لا تقتّر مثلما تفعل بوتسدام. أما ذلك الخير كله لقاء كلام فارغ، فقد دفع بفولتير إلى القول:

«مسرحيتي هنري الرابع ومسرحيتي زايير
ومسرحيتي الأميركية ألزير (*Alzire*)
ما عادت علي بنظرة واحدة من الملك.
كُثر كان أعدائي وضئيلة جدًا رِفعتي
وأخيرًا ها هي ذي التكريمات والإنعامات تنهمر علي انهمارًا،
لقاء هزلية تُلقى في السوق الشعبية!».

فهل يسعنا القول إنه على خطأ؟

نحن لا نعرفه حق المعرفة، لو تخيلنا أنه سوف يكرر مرارات الماضي: إنه يتمتع بالحظوة الحالية. أما ثناء فرساي الذي جرى منحه بتقتير شديد لمسرحيته

«هزلية السوق الشعبية»، فجعله منتشيًا. وإنه في سبيل مباهج عالم البلاط الساحر والمسموم، ليبيع روحه. هنالك لذة الغرور، ولذة التفاخر، ولذائذ المكائد والبذخ، ومباهج الحديث وخفة الظل، والذوق الأكثر اكتمالًا الذي ربما لا يكون له مثيل البتة. لكنه لم يمتنع عن الموافقة على ذلك، وكتب إلى فوفنارغ أنه، من بعد، لا يتردد إلى البلاط بدافع الاستمتاع ولا المصلحة، بل بدافع العرفان. فمن عساه يُقنِع بأنه يؤدي واجبًا شاقًا، وأخلاقيًا جدًا؟ إنا نعرفه منذ واحد وخمسين عامًا! ولئن كان هنالك واجب، فهو ليس حيال الملك، وإنما حيال منافعه الخاصة. فهو لمّا يشبع من مهمته مؤرخًا رسميًا، وهي «بهجة» بسيطة. كما أنه لم ينسَ أن الأكاديمية مدينة له بكنبة وثيرة، وهي ضرورية له. فالكفر أغلق دونه الباب، لكن التقوى سيفتحه في وجهه. فمن الذي سوف يمنحه تلك الشهادة، في التقوى والإيمان والخشوع المسيحي؟ إنه، وبكل بساطة، قداسة البابا نفسه!

انتصار فولتير (والملك) في فونتونوا

أما وهو عازم على الانخراط في ذلك المسعى الكبير، أُرغِم على القيام بسفر قصير دعاه إلى تأجيل مناوراته. هنالك ابن للسيدة دو شاتليه يعاني مرض الجدري الخطر في شالون. فهرع ليكون قرب سرير الطفل للتخفيف عن أمه. ترك البلاط إذًا، وتخلى عن مباهجه وعن مشروعاته الطموحة. وتلكم هي إحدى سمات «إبليس» هذا. أضاع على ذلك النحو وقتًا ربما يكون غير قابل للتعويض، وعرض نفسه للعدوى بداء قاتل، من أجل طفل إميلي ومن أجل إميلي نفسها. فهل ذلك بتأثير الروح الجافة التي نسبتها إليه خرافة غبية؟

حين رجع إلى فرساي، أغلِقت الأبواب في وجهه. إنه الحجر الصحي الأربعيني! إذ يُشتبَه في أن تأتي العدوى من طريقه، والقاعدة لا استثناء فيها. يريد من الوزير أن يستقبله، لكن لا سبيل إلى ذلك. «ينبغي التضحية بي بناء على الحكم المسبق الذي يستبعدني من فرساي أربعين يومًا، لأني رأيت مريضًا على بعد أربعين فرسخًا».

ضحى بنفسه من أجل الصداقة، وإن ذلك لأفضل.

لكن البلاط لم يبدِ استياءه منه، بل أوكلت إليه، على الرغم من أنه «مضحي

به»، مهمة إعداد رسالة ينوي الملك إرسالها إلى القيصرة التي عرضت وساطتها لإحلال السلام. ونقف في تلك الرسالة على العبارة الآتية التي يمكن أن تباغتنا لو كانت بريشة الملك، لكننا نعرف أنها من فولتير: «لا يسع الملوك أن يطمحوا في أوطانهم إلا إلى المجد المتمثل في تأمين سعادة رعاياهم». وما كان لتلك العبارة أن تحمل معنى سياسيًا قبل فولتير بقرن من الزمان، وكان من شأنها أن تكون عبارة موعظة. أما في عصر لويس الخامس عشر، فهي ذات مدلول سياسي، إلا أنها مرت أيضًا من غير أن يلحظها أحد، باستثناء بعض ذوي الأفكار النيّرة.

أما موهبته بصفته مؤرخًا رسميًا، فسوف تجد أمامها الفرصة الأكثر دويًا لتتألق. ولسوف يسعَد، وهو الكاتب الأول في عصره، بأن يكتب فونتونوا، أشهر انتصار في زمانه، نظمًا. فكتب متحمسًا إلى دارجنسون الذي أحاطه علمًا بالنصر المؤزر. ولَكَم كان ذلك النصر مدهشًا ورافعًا للعزائم من بعد عدد كبير من الهزائم التي منيت بها جيوشنا: «إيه! فيا لها من وظيفة يقوم بها مؤرخنا الرسمي. فمنذ ثلاثة قرون لم ينعم ملوك فرنسا بمثل ذلك العز. وإني لمجنونٌ فرحًا. وطاب مساؤك يا صاحب السيادة» (الخميس في 13 أيار/ مايو 1745، الساعة الحادية عشرة ليلًا).

كتب قصيدته المدحية. لم يكن ما فيها سوى تمجيد وبخور فواح، وأبطال وأكاليل غار. أما دارجنسون الذي كان في قلب المعركة، ولم يكن ينظر عبر دخان البخور بل عبر دخان المدافع والبنادق، والمذبحة الرهيبة، فإنه ذكّر فولتير بـ«القتلى والمحشرجين والجروح المفتوحة النازفة. وأصدقك القول إن قلبي تهاوى فصرت في حاجة إلى زجاجة من النبيذ. وراقبت أبطالنا الشباب مراقبة شديدة، فوجدتهم غير مبالين بذلك الأمر...» وهي لهجة جديدة في الكلام عن الحرب. أحس فولتير أيضًا بالهول مما أطلق عليه دارجنسون تسمية: «الغنيمة اللاإنسانية». وذلك هو فجر انفعال جديد. «فالحساسية» والعلوم دخلا معًا في حياة «الناس الأشراف». يبقى أنه لمّا يئن الأوان لترق القلوب إلى جنودِ المشاة، في قصيدة رسمية مثل قصيدة فولتير. فما كان الاهتمام منصبًا إلا على إطراء الملك والأمراء والبلاط، وفولتير أفلح في ذلك وتألق. لكن هل من يعرف ما الذي عاد عليه بالإعجاب الأكبر؟ إنها براعته في إدخال عدد يصعب تصديقه من أسماء العلم في قصيدته. فالكل أضحى راغبًا في أن يُذكَر اسمُه في ذلك «التحقيق» المدهش المنظوم على الوزن التقليدي، والذي سوف يدور في أرجاء أوروبا كافة، وقد اعتقد بعضهم أنه

سوف ينتقل إلى الخَلَف. إن من يرد اسمُه في قصيدة فولتير عن فونتونوا، إنما دخل في سجل الخلود. وما كان الملك مستاء من ذلك. وأصيب اللورد تشسترفيلد بالذهول، فما من جريدة قدمت عرضًا لوقائع المعركة استطاعت أن تأتي إلى ذكر ذلك العدد من الأحياء والجرحى والقتلى. وإننا لنتساءل: أين يكمن الشعر في تلك القصيدة؟ وما الذي يستأثر بإعجاب الحشود من الناس؟

لكن هنالك مشكلة الذين لم تُذكَر أسماؤهم. فيا له من سخط! هاجمه الناس من أجل وضع إضافات على تحقيقه. فكتب يقول: «رأسي يدور، فأنا لا أدري كيف أتصرف حيال السيدات اللواتي يُردن مني إطراء أبناء عمومتهن وأحباء قلوبهن». أما وأنه دوّن الدفعة الأولى بسرعة زائدة، وأن تفصيلات جديدة تصله على التوالي - مع أسماء جديدة لتسريبها - فإنه أحاط الجمهورَ علمًا بأنه سيَخرُج بطبعات متتالية لقصيدته تكون أكثر اكتمالاً على الدوام وأكثر إحاطة بالمستجدات.

تسلى الناس ببيانه، كما بغطرسته. فهو لم يأتِ إلا إلى ذكر أصحاب الأسماء الكبرى من حمَلة الشعارات. وكان أن كتب أحد الظرفاء قصيدة ساخرة تقول:

«أيها الرفاق الجنود، أنا لا أُشيد إلا بكم».

انتهت الأسماء الكبرى والألقاب، وما عاد المقصود سوى «العساكر»: فيا أحبائي من الزنبقة إلى الوردة إلى ذات القلب الجميل إلى زهرة الأمل.

وكتب منتقد آخر قصيدة «مطلب كاهن فونتونوا» سخر فيها من إضافات فولتير على قصيدته: «وعلى العموم، فنحن نأمل أن المسرحية يمكنها البدء باتخاذ شكلها بعد الطبعة المئة»، لينتهي إلى القول: «إن لم تبدُ القصيدة ملائمة لتستحق النقد، فإن المؤلف نفسه سيقوم بذلك لإبراز قيمة عمله وإلقاء قصيدته».

قبل فولتير قبولًا استثنائيًا تلك العبارات اللاذعة. فهو يعرف لِمَ كُتِبت قصيدتُه، لتروق الملك والبلاط. وتمّ بلوغ هدفه: إنه الشاعر الرسمي للبلاط. زد أنهم يقرأون قصيدته ويتلونها ويبيعونها في كل مكان. إنه في ذروة الاغتباط.

هيا بنا نُجرِ تقويمًا للصفقة! لقد كتب إلى دارجنسون يقول: «هل يسعك يا سيدي، أن تقول للملك إن قصيدة تمجيده ظهرت بخمس طبعات في غضون عشرة أيام (يا للتملق!)، وأنا أرجوك ألا تنسى ألاعيب البلاط الصغيرة هذه».

تلك هي الحقيقة؛ إذ ليست قصيدته نفسها سوى واحدة من ألاعيب البلاط. وليس لنا أن نتسرع لرجمه بحجر، ففرنسا كلها كانت مستعدة للقيام بمناورات في البلاط، لكنهم قلّة أولئك الذين كانوا يناورون بقصائد. ولربما كانت هنالك، في أزمنة ديمقراطية أكثر، ناهيك بأزمنة فاضلة، مناورات... ودهاليز. يبقى أن جميع أعداء فولتير الذين أخذوا عليه «مناوراته» وهم حاقدون، كانوا يناورون أيضًا، من أمثال بيرون، وفريرون، و... آخرين أكثر رفعة مقام، لكن مناوراتهم أقل جودة، فموهبتهم ضحلة في كل مجال.

درب الأكاديمية يمر من روما

أما موهبته هو التي لم تكن ضحلة، فتريد أن تستقر في الأكاديمية، وينبغي لذلك أن يحصل دونما تأخير. ونحن نعرف أن درب الأكاديمية بالنسبة إلى فولتير يمر من الفاتيكان. ويبدو دربًا وعرًا، إلا أننا سوف نسلكه. ولسوف يكون لدينا المتسع الكافي من الوقت لنتأمل بطلنا وجهًا لوجه، وبنظرة جانبية، وبمسار مشية منحنٍ وحتى بمشية تقهقر. وليست زندقته على الإطلاق هي التي تحوم حولها الشبهات، لكن هنالك ما هو أكثر رصانة؛ إنه التقليد الأخرق للورع والخشوع المسيحي. لم يلحظ الأب بارويل أي شيء في ذلك، لأن الخدعة في تلك المناسبة فائقة الرهافة بالنسبة إليه. وما عاد المقصود عملية نفاق يؤديها فولتير متنكرًا بحلة مساعد أسقف وقبعة مستديرة، بل المراد القيام بمساعي طامحٍ، ما إن قضم بضع وجبات تكريمية في البلاط، حتى اكتشف أن له شهية غول انفتَحت على الألقاب والوظائف، شهية توابلها أفاوية الدهاء. فأي حماسة تلك التي تجعله يخدع الآخرين ثم يطرب ويتسلى بألاعيبه الخاصة. إن ذلك ليُحسَبُ حسابُه لدى بطلنا؛ فلقد كان يصفق لنفسه حين يكون أداؤه جيدًا.

أعلن فولتير إذًا، وإعلانه يعود إلى تاريخ رفض مسرحيته محمد، أنه ما دام ليس من أحد على ضفاف السين يؤمن بتقواه، فسوف يعمل على ضمانة ذلك الورع من على ضفاف التيبر، ومن البابا شخصيًا. وبدا ذلك الزعم غير معقول، لكنه واقعي ولسوف ينجح. كان البابا بِنوا الرابع عشر من البابوات الصالحين، فكان دونما ريب، رجل أدب أكثر منه رجل تقوى: إنه البابا الملائم لعصر الأنوار. وكانوا أطلقوا عليه بعد لقب فيرجيل، لقب «طائر تم مانتو».

وكان بِنوا الرابع عشر فائق الرهافة، ورومانيًا أكثر من أن يقع ضحية خديعة، حتى لو كانت من فولتير؛ ذلك أن الحبر الأعظم كان يجيد القراءة، ويجيد الإصغاء لما يقال له عن فولتير. ولم يكن من شأن ذلك أن يُلبِس مؤلف الـ هنرياد ثوب القداسة.

ما كان في وسع فولتير أن يقدم التماسه المذهل تقديمًا مباشرًا. فعمل على محاصرة الكرسي الرسولي من جانبين. وكان من شأن جانب واحد أن يكفي، فذلك الإفراط يمكن أن يضيع كل شيء، وليست المسألة أن الكرسي الرسولي قاوم، لكنه استسلم بسرعة كبيرة. زد على ذلك أن الحصار الثاني بدا بلا طائل ومسببًا للصدمة في آن. جرى الحصار الأول بمساعدة دارجنسون الذي كان سيبعث بالسفير الفرنسي الأباتي كانيلاك إلى عند البابا. وكان الكاهن شديد التوجس من نجاح مسعاه لمصلحة مؤلف الـ هنرياد وزايير. ومثل دارجنسون مثل الكاهن في الريبة. لكن فولتير أساء الظن كثيرًا في ارتياب الوزير والكاهن بشأن إيمانه الكاثوليكي. فأكد بالوقاحة المعروفة عنه، أنه موضع استحسان كبير من البابا الذي يقرأ مؤلفاته فيُعجَب بها. فأقنع دارجنسون بأن يرغم السفير على القيام في حضرة البابا بإطراء الشاعر الأكثر زندقة في العصر.

قام فولتير، في تلك الأثناء، وفي سبيل مزيد من الطمأنينة، بشن هجومه الثاني من طريق سفيرته الخصوصية، وتدعى الآنسة دو تيل، وهي صديقة للسيدة دو شاتليه، وتأتي فرادتها من أنها كانت تمتطي الإيمان الكاثوليكي والإعجاب بالزندقة الفولتيرية في آن معًا. وكان للآنسة دو تيل صديق، ورئيس دير من تولينيون. وقد أرسِل هذا الأخير إلى روما مزودًا بتوصياتها وتوصيات فولتير، وحاملًا ذخائر فولتيرية: نسخة خارقة للعادة من كتابه محمد، وأشعارًا مهداة إلى قداسته، إضافة إلى تدوين ينبغي أن ينقش تحت صورة بِنوا الرابع عشر التي كان فولتير ينتظرها على أحر من الجمر: «أنا في صف المعجبين به كما في صف نعاجه»، فيا له من قول عذب يصدر عن روح تقية عذوبتها عطرة!

يطالب فولتير، مقابل تلك الذخائر، وبتوسلات يعجز الوصف دونها، ألا يدعه قداستُه يذوي مدة أطول بلا أوسمة! أوسمة؟ لقد حصل الأب دو تولينيون على ميداليتين ضخمتين. وصاح فولتير قائلًا: «ميداليتان ضخمتان، ورسالة من الكاهن التابع لمكتب قداسته».

حينذاك مثل الأب دو كانيلاك أمام الحبر الأعظم وتلا إطراءه. وأصغى البابا إليه مندهشًا: لقد سمع الكلمات نفسها وبإيقاع شديد التماثل! إن فولتير هو الذي قام بتأليف الأغنية، وهو الذي يتولى من باريس عزف لحنها. وفي النهاية لم يتفوه البابا بكلمة عن المسعى السابق، ولا عن الميداليتين الممنوحتين، ووعد بمنح اثنتين أخريين، وأكثر ضخامة أيضًا، من طريق السفير، لكنه قال: «من أجل عيد القديس بطرس». ولم يشأ البابا أن يكدر أحدًا، لكنه، على ما يبدو، لم يكن مخدوعًا.

لم يصدق دارجنسون أذنيه حين أخبره الكاهن أن البابا أصغى إلى قصيدة المديح بكثير من حسن الالتفات، بل إنه قطع له وعودًا بشأن الشاعر الذي... لكن... في أي حال. كانت تلك الوعود تستوجب العبرة ومؤثـرة جدًا: كان قداسته راغبًا في بلوغ الرغبة التقية لدى فولتير الذي لا يسعه – وفقًا لأقواله – العيش من دون وسام نال بركة قداسته. فليطمئن بال فولتير؛ لأن قداسته اختار وسامين مخصصين له.

كان بِنوا الرابع عشر يصغي بكل ترحاب وهو مؤمن بما يريد. وعلى الرغم من ذلك، ساورت فولتير المخاوف. كان يخشى من أن يعلم الأب كانيلاك بمسعى تولينيون فيغضب، وأن يعلم تولينيون بالازدواجية التي قام بها مع السفير فيغضب كذلك. لكن تكتم البابا أنقذ السفيرين و... فولتير أيضًا! واستلم أخيرًا صورة بِنوا الرابع عشر من طريق السيد دارجنسون. فتألق شكره عبر الطلاقة أكثر منه عبر التقدير والاعتبار: «تسلمت للتو، يا صاحب السيادة، صورة الحبر الأعظم، الممتلئ الخدين، أكثر من جميع من عرفنا من بابوات منذ زمن طويل. ويبدو من هيئته أنه إنسان طيب يعرف على وجه التقريب ما قيمة ذلك كله»، أما كلمة «ذلك» فهي من الوقاحة!

لم يتوانَ فولتير للاختتام، عن التذكير بأن «ذلك» ما كان لها أن تكون إلا إذا كان الملك والبلاط، والأكاديمية على وجه الخصوص، على علم بالأمر: «عليك أن تقول للملك المسيحي جدًا، كم أنا فرد من الرعية، مسيحي جدًا».

هاكم ما حصل: تلقى صورة البابا، وميداليتين ضخمتين! أما وهو مزود بتلك التأشيرة، فإن في وسعه دخول الأكاديمية.

لم يكن ذلك كل شيء؛ فالبابا قبِل بأن تُهدى إليه مسرحية محمد. فتقدم فولتير برسالة في 17 آب/ أغسطس 1745، بوصفه «معجبًا بالفضيلة» التي تكرس «لزعيم الدين الحقيقي كتابًا ضد مؤسس ديانة خاطئة وبربرية». ووضع عند قدمي الحبر الأعظم الكتاب والكاتب، طالبًا منه الحماية للأول والثاني. أما إذا استمر الأتقياء، من بعد هذا الإعلان الجميل، بالإحساس بالضيق لدى عرض مسرحية محمد، فمعنى ذلك أنهم هراطقة.

وجد البابا أن المسرحية باهرة، والكتابة غاية في الروعة، وقصيدة فونتونوا جميلة جدًا. وكان، باختصار، كل شيء على خير ما يرام، فكتب يقول: «لا يسعك الشك في الاعتبار الاستثنائي الذي يلهمني إياه فضلٌ معترَفٌ به مثل فضلك».

فيا لميربوا من مسكين! وما عساه يفعل بعد ذلك؟ أن ينهق في الصحراء. إن عدوه تلقى - شخصيًا - البركة الرسولية من بِنوا الرابع عشر!

لا ريب في أن البابا اعتبر، وبروح من التسامح تثير الإعجاب، أن من الأفضل ترك فولتير يؤدي مسرحيته الكوميدية. فهو مسرور لذلك من غير أن يكون مخدوعًا. أما فولتير، فلم يبقَ عليه سوى الانتفاع إلى أقصى حد ممكن من بركة البابا وحمايته من أعدائه. وكتب إلى دارجنسون يقول: «الحق أن النعم السماوية لا يسعها أن تنتشر انتشارًا زائدًا، وإن رسالة قداسته كُتِبت لكي تُنشَر. ومن الخير، يا صديقي الموقر، أن يعرف الناس المرموقون أني محمي حيالهم ببَطْرَشيل[45] حبر الله».

إنه لنجاح باهر. لكن الحصول عليه استوجب تحرك أحد وزراء ملك فرنسا، وأحد السفراء، والكاردينال باسيوني، وعضو من مجمع الكرادلة المقدس هو الكاردينال فالنتيني، والسيد ليبروتي الذي حمل المدونة بموكب عظيم، وكاهن روماوي وغاليكاني هو تولينيون، وفتاة عانس هي الآنسة دو تيل. لكن لزم قبل كل شيء عناد فولتير. وجرى بلوغ النتيجة: إن «بابا الزندقة» قد تلقى بركة حبر الله. وإن حمار ميربوا ما عاد في وسعه أن ينهق في الأكاديمية، ولا أن يرفس فيها.

---

(45) قطعة من القماش مطرزة ومقصبة يعلقها الكاهن في عنقه وتتدلى على صدره عند خدمة القداس. (المترجم)

كان وضع فولتير في فرساي أفضل كثيرًا، منذ قصيدة فونتونوا في عام 1745. فلويس الخامس عشر قال إن تلك القصيدة لا تحتمل أي نقد. وكتب فولتير يقول: «أنتم ترون حقًا أن علي الاعتقاد من بعد بأن الملك هو أفضل من يعرف مملكته». وكان الرضا عامًا في البلاط، حتى بدأوا يتوقعون مدائح فولتيرية جديدة. وطلب ريشوليو من الشاعر كتابة مسرحية تشيد بمجد الملك وبفونتونوا مجددًا. فكتب معبد المجد (*Le Temple de la Gloire*)؛ إذ ينبغي مخاطبة النزعة النبيلة، خطاب البطولة المفخم والرنان. وشعر فولتير بالراحة. إنه أسلوب التراجيديا المزخرف قليلًا والموقع على إيقاع الرقصة الثلاثية. لكن ما أزعجه هو اضطراره إلى أن يكون مقيدًا من جديد مع رامو الذي لا يُطاق. ووجه في 20 حزيران/ يونيو 1745 رسالة إلى ريشوليو، يلتمس فيها من الدوق أن يبرز قيمته. فمن المستحسن للإنسان أن يكون ذا موهبة، أما إن ظلت خفية فليس وراءها من طائل، علمًا أن موهبته ليست مهددة.

تقع في هذه الرسالة، أول مرة، على اسم كان له شيء من الوقع آنذاك، هو اسم المركيزة دو بومبادور. وواقع الأمر أن المحظية، اتخذت آنذاك هذا الاسم فأضحت «عشيقة» رسمية. أما وأنها من منبت برجوازي، فقد ساد الاعتقاد في البلاط بأنها لن تكون أبدًا أكثر من علاقة غرامية. كان فولتير يعرف أسرة السيدة لونورمان ديتيول معرفة جيدة، فيتردد إلى منزل الأم، السيدة بواسون، التي كانت عشيقة الجابي العام للضرائب لونورمان دو تورنم. فنساء العائلة كن «عشيقات» بالوراثة. وقيل إن أنطوانيت (المركيزة دو بومبادور)، كانت ابنة السيد لونورمان الذي زوجها من ابن شقيقه لونورمان ديتيول، وهو مساعد الجابي العام. فما كانت جباية الضرائب، والجبايات، تتعدى حدود عائلة لونورمان. وكان ذلك الوسط غاية في اللباقة. فقد حظيت الآنسة بواسون بالتربية الأكثر رقيًا، والكل يعرف جمالها وفتنتها وسعة ذكائها ومواهبها. فهي موسيقية وتمارس التصوير الزيتي، والحفر على الحجارة الكريمة الدقيقة. أما درب حياتها الخارق فما كان معجزة؛ إذ يجد تفسيره في شخصية المحظية وفي نوع من اليقين بنفسها رسخته فيها أمها منذ سن التاسعة، حين كانت تقول: «إن ابنتي قطعة من مَلِك». ويشاء حسن طالع فولتير أن يلتقي أنطوانيت، فكانت استعانته بريشوليو،

وبعادته هو في التدقيق والتوسط، أن هيأت له الدفع بمقاصد السيدة بواسون وابنتها قُدُمًا. فظلت هذه الأخيرة تعترف بفضله على الدوام. ذلكم هو فولتير! إننا نقع عليه في ذلك القرن عند مفارق الطرق كافة، مثلما نلقاه في الدهاليز الخفية.

أقام في إيتيول مرات عديدة في عام 1745. وشرب فيها من نبيذ توكاي الذي قال عنه إنه يفوق في جودته ذلك الذي أرسله إليه فريدريك الثاني؛ فالإطراء ليس برقيق. ولا بد من أن يكون آل بواسون قد تذوقوه.

كان قد نظم في المحظية، قبل الاعتراف الرسمي بها، مقطعين من الشعر لم يرضَ عنهما الملك. فالشاعر الحاذق بذل جل قواه ليدفع إلى الأمام بالعربة الظافرة التي تركبها أنطوانيت، قبل أن يترك للعربة أن تجره وراءها.

«حين كان قيصر، ذلك البطل الفتان
الذي كانت روما كلها مولهة بحبه
ينتصر في معركة متألقة
كانوا يتوجهون بالمدائح
إلى كليوباترا المعبودة

....

وحين يحقق لويس، هذا البطل الفتان
وهو الذي تهيم باريس كلها بحبه،
النصر في معركة متألقة
يجب التوجه بالإطراء
إلى ابنة إيتيول المعبودة».

إن ذلك لا يضيف شيئًا كثيرًا إلى مجده، لكنه يرفع من حسن طالعه، أي من حظوته في البلاط. وإنه ليجيد عمليات الإيداع المربحة، مالية أكانت أم تملقًا.

إلا أن خصمًا ظريفًا كان ينافسه على حظوته لدى ابنة إيتيول المعبودة، من غير أن تنتابه الغيرة منه. وليس لنا أن نُغفِل الإشارة إليه. فنحن نعرف الشخصية بعض المعرفة، إنه الأب دو برني، العابث والمزهو وطلق اللسان. فذاك

الشاب الطيب والوسيم، المنتفخ الخدين والسمين، والمتورد مثل دمية، لم يكن يعكر صفو أحد، ويتولى تسلية الجميع. فيا لحسن الطالع الذي كان ينتظره! ويا له من سعد عجيب وغير متوقع! لقد أحسن الترويح عن نفس أنطوانيت - وكانت في أمسّ الحاجة إلى ذلك - فاستلحقته وألحقته بفرنسا. كان يجيد نظم أشعار سهلة وسريعة، منمقة ومزخرفة، فكانت باقات حقيقية صغيرة وندية ومعطرة لا تدوم أكثر من ساعة، لكنها تحقق ساعة من البهجة. صحيح أنها أزهار اصطناعية، لكنها مجدولة برشاقة ممتعة. ولعل ذلك ما عاد على الأب بلقب «بابيه، بائعة الأزهار»، لكن ذلك لم يحُل بينه وبين أن يصير عضوًا في الأكاديمية ووزيرًا وكاردينالًا، بل إن السيدة دو بومبادور كلفته بوزارتين، فبدا ذلك تطرفًا آنذاك؛ لأن برني على درجة من الخفة حتى لَيبدو مثقلًا جدًا وهو ينوء بحملين؛ فهو المكلف بمهمة الرد على بطاقات الهيام التي كان الملك يوجهها يوميًا إلى عشيقته. وكان لويس الخامس عشر يطرب غبطة بالردود. أما وأنه يعرف كاتبها، فقد أعرب له عن رضاه بالطريقة الآتية: لقيَ برني يومًا حاملًا ملفًا من قماش سميك أعطته إياه المركيزة ليغطي به قطع الأثاث في شقته. وطلب الملك رؤية القماش، فأراه إياه برني. فما كان من الملك إلا أن أخرج لفافة من اللويسات الذهبية فأعطاها لبرني قائلًا: «وهذه لتثبيت المسامير.»

ذلك هو الوسط حيث عاش فولتير في إيتيول أو في شان، وحيث تقيم السيدة دو شاتليه الملتزمة على الدوام بدروسها أو بموائد القمار. إلا أنه كان مكبًا على تأليف معبد المجد. وأحاط الوزير علمًا بأنه على استعداد لأن يكتب بطريقة «تاريخية جدًا» آخر حملات الملك، مع فيض من الوثائق والحوادث الحقيقية... لكن ينبغي إحاطة الملك علمًا بالأمر، ليوافق عليه ويشجع مؤرخه الرسمي. زد على ذلك أنه يود أن يسمع عبارة «وهذه لتثبيت المسامير». وطلب إليه صديقه الوزير دارجنسون أن يدبج احتجاجًا دبلوماسيًا سوف يوجه إلى هولندا التي خرقت بنود اتفاق مع فرنسا، واستخدمت ضدنا جيشًا من الأسرى من غير دليل. وأدى فولتير المهمة أداء حسنًا، فأسلوبه نبيل ومتشدد، من غير أن يكون فظًا. فالمنتصر يتكلم لغة سيد يعلم أن الحق إلى جانبه، لكنه لا يتكلم بازدراء. وكان دارجنسون في غاية الرضا، ولا سيما أنه لم يمهل فولتير إلا يومين، وأن هذا الأخير أضاف ليلتين ليؤدي المهمة.

ولن يطول الوقت قبل مكافأة الرضا الوزاري.

بناء عليه، دُعيَتْ السيدة دو شاتليه للالتحاق بالبلاط في فونتينبلو داخل عربات الملكة. كانت عمليات ركوب العربات تلك على درجة لامتناهية من التعقيد. كان حق احتلال الصدارة يؤدي إلى واقعات مأساوية، فضلًا عن حالات الإغماء. وصعدت إميلي إلى العربة، وهي الفارسة دومًا، بعد مرورها أمام دوقة لوين وسيدتين أخريين، فاحتلت المقعد في صدر العربة، ثم دعت الأخريات إلى الصعود والجلوس. فكان أن أدرن لها ظهورهن وتوجهن للجلوس في عربة أخرى. عند الوصول، شعرت إميلي ببرودة كبيرة من حولها. فالدوقة اشتكت إلى الملكة. وجاء دوق ريشوليو ليصحب إميلي بطريقة احتفالية، فيسلم أمرها إلى دوقة لوين التي ستتولى اصطحابها إلى الملكة. فتلقت السيدة دو لوين الاعتذار الواجب على إميلي. ودعاها ريشوليو لأن تبادر إلى الاعتذار من الملكة التي استنكرت سلوكها. وقامت إميلي بكل ما طُلِب منها بعد ما تلقت من تقريع من عشيقها السابق، فقبلت الدوقة اعتذارها والملكة أيضًا، وتبادلن الابتسام. وغدا الكل راضيًا. أما إميلي فتولّاها الخوف!

لم يصل فولتير إلا في اليوم التالي؛ فالمغص الذي يعانيه يقض مضجعه، لكن ذلك لم يمنعه من القيام بمجاملاته، ولا من العمل في البلاط. وكان يريد، من أجل كتابة تاريخ فونتونوا، الحصول على شهادة الإنكليز. إنه يريد عرض المعركة كما يراها الجانبان. وذلك أمر جديد: أخْذُ رأي الخصم، وإجراءُ مواجهة بين الشهادات. وتبين له أن الصديقَ فوكنر الذي أقام عنده في لندن، ثم أهدى إليه زايير، هو معاون دوق كمبرلاند الذي كان يتولى القيادة في فونتونوا. وتوقد فولتير حماسة، فكتب عن مشروعه لفوكنر، وهو جاهز لأن يسافر إلى لندن لجمع الوثائق، بل هو على استعداد لأن يأتي مكلفًا بمهمة دبلوماسية، ورأى نفسه مفاوض سلام بين فرنسا وإنكلترا. وتذكر على حين غرة مرارات مهمته في بروسيا ومخاطرها، فبردت همته. وبعد أن أحاط فوكنر علمًا بسفره، عاد فتردد. ومن بعد كثيرٍ من الأخذ والرد، تخلى عن مشروعه، ثم آثر البقاء ساكتًا. وكانت تلك من المناسبات النادرة التي يتغلب فيها الاعتدال والحذر على خياله المهتاج بسبب غروره وطموحه إلى تأدية دور سياسي.

ما عساه يدعوه إلى ركوب مثل تلك المخاطر؟ لئن كان يقوم بمجاملاته من طريق دارجنسون وريشوليو والمحظية، فإنه سوف ينال الخطوة الخاصة من بين الذين يدخلون إلى غرفة الملك. وها إن المجال مفتوح أمامه إذًا للولوج إلى البلاط.

حين رجع إلى فرساي، طلب الملك إقامة الاحتفال الموعود الذي ينبغي أن تُقدم فيه معبد المجد. فأقيم ذلك الاحتفال في 27 تشرين الثاني/ نوفمبر 1745. ورأى المشاهدون تقدم رتلٍ من الأبطال القدامى، كلهم جبار، وكلهم عنيد. وظهر أخيرًا كريم النفس والظافرُ تراجان، مزدانًا بالفضائل كلها ويشيع المبرات. إن تراجان هو لويس الخامس عشر. لقد جرى تمجيد ملك فرنسا بخاتمة من التعظيم.

لكن حال فولتير لم تكن كذلك. كانت الموسيقى جيدة: هكذا رآها الملك. أما حيال القصيدة، فلم ينبس ببنت شفة. وليس مرد ذلك إلى أنه وجد القصيدة رديئة، بل إلى أن فولتير أغاظ الملك؛ إذ قيل إنه اقترب من الملك، وسأل بلهجة استخفاف غير معروفة في فرساي، لكنها هي لهجة فولتير في كل مناسبة – وخارج المناسبة – قائلًا: «هل تراجان راضٍ؟»، فرماه الملك بنظرة من جليد، ليرتفع من بعد في ما بينهما جدار من جليد.

جرت زخرفة للواقعة التي لم تحدث كبير ضجة. فنظرة الملك كانت وافية بالغرض. لكن أشيع أن فولتير تقدم بدالّة ممجوجة فقبّل الملك، وأن بعض الحرس ارتمى عليه ليمنعه، وأنه شد الملك من كمه، فأقبل ريشوليو وشده من كمه هو ليوقف ذلك المشهد، وأن فولتير قال للدوق: «إنما أنت تشد كمي شدًا قويًا!»، بيد أنها كلها ترهات لا تقبل التصديق!

لا ريب في أن البلاط البروسي كانت تسوده ألفة أكبر، لكن فولتير كان يعرف خيرًا من أي شخص آخر أن فرساي ليست بوتسدام. وكان جسورًا في الكلام، لكنه لم يكن وقحًا. أما في حقيقة الأمر، فهنالك شرخ حدث، وهو ناجم بكل بساطة عن اللهجة التي كان فولتير يخاطب بها السلطات؛ فهو لم يزعج سوى الملك. وقد أوعز روهان بأن يحاط علمًا بذلك الإزعاج. لكن لو كان فولتير يتكلم على نحو مغاير لما كان فولتير حقًا. ولولا أنه حر ومنطلق، لاختنق فكرًا. والحال أن فكره هو يتنفس، والمرء يشعر بذلك.

نُميَ ذلك الفشل إلى علم فريرون، فكتب هذه اللطائف - ولنوافق على أنها ليست بلا أساس، إذا ما تناولت انهيار معبد المجد - «ونعرف فضلًا عن ذلك أنه لم يكن سعيدًا قط في بنيان معابده. وأنا أعرف أربعة منها، ألا وهي: معبد الذوق، والمجد، والهناء، والصداقة. ولو تواتيني الجرأة لاقترحت على الكاتب إشادة معبد خامس؛ إنه معبد الكرامة».

الواقع أن فولتير كان ضحية جسارته، وضحية مزاج لويس الخامس عشر أيضًا. فالملك كان خجولًا، ويتولاه نوع من انحراف المزاج حيال التجمعات، وبسبب الخطب المملة والعبارات التي عليه أن يتلفظ بها دونما تفكير أمام الجمهور. وغالبًا ما كان يحبس نفسه داخل صمت متعجرف، ليكون قناعًا لتحفظه وسأمه. ولم يكن فولتير الضحية الوحيدة لهذا الوضع المرضي لدى الملك. وحظوته في البلاط لم تتأثر بذلك. أضف إلى ذلك أنه كان في أعماق نفسه يسخر من معبد المجد، ويعرف ما قيمة تلك المسرحيات التي تُكتَب للمناسبات؛ فهو ينتظر أول مقعد يفرغ في الأكاديمية.

كانت السيدة دو شاتليه تتألق فرحًا وهي ترى مدى تعلق فولتير بالبلاط، وتزداد غبطة وهي ترى البلاط يتعلق بفولتير، فتعتقد أن فتنة برلين فقدت كل تأثير لها لكنها كانت ذات تأثير على آخرين. وكان فريدريك يقوم بالاستمالة والاختيار. كان ذلك دأب ملوك بروسيا؛ فكان الأب يملأ ثكناته حين يختطف بعنف أتباع ملك فرنسا، أما الابن فيجهز أكاديميته وهو يختطف - بالحظوة أو بالمداهنات - كتّاب باريس وعلماءها. ففي عام 1745، اختطف فريدريك موبرتوي الذي سوف يتولى رئاسة أكاديمية برلين. ومنحته فرساي الإجازة. ومن شأن ذلك خدمة دعاية ملك بروسيا؛ إذ شرع الأدباء والعلماء بإطراء ملكٍ أحسنَ استقبالهم. فيسعنا أن نستنتج بكل يسر أنهم، إن ارتحلوا، فمرد ذلك إلى سوء حالهم في بلادهم.

أما فولتير الذي لم يلقَ قط من معاملة حسنة في البلاط على قدر حسن معاملته آنذاك، فإنه وجد البلاط رائعًا. إنه لا يحيا إلا من أجل البلاط، ويود أيضًا ألا يحيا، وذلك أمر مفروغ منه، إلا من أجل البلاط. المسامير! المسامير! من الملك. وطُلِب إليه كتابة صيغة أخرى من أميرة نافار. إن المسألة تبعث على الضيق، وفيها شيء من المهانة. فها هو ذا يغدو مهرج البلاط، بيد أنه رضي بذلك؛ فشهر العسل لمّا ينتهِ.

ها هو ذا شخص جديد يعلِن ظهوره في حياة فولتير، وفي الأدب، بمناسبة تلك التسلية الرديئة. والظهور بسيط، بل متواضع. فمن كان يحسب أن هذا المجهول سوف يقلب الأمور رأسًا على عقب؟ كان ظهوره من طريق الموسيقى، وفي صالون لا بوبلينيير، وهو يُدعى جان جاك روسو. وليس من كان يعرفه. كان لدى لا بوبلينيير هذا - وهو وكيل عام للضرائب، وباذخ حتى الهذيان - بلاط بحاله، ومن أكثر الأنواع اختلاطًا؛ فهنالك أسياد، وأدباء، وفنانون، وممثلون مسرحيون، وأبناء المجتمع الراقي والمتوسط، وآخرون. وكان يُطلِق على ذلك المجتمع اسم «معرض الوحوش»، لأنه لم يكن في أي حال حظيرة دواجن. وكان ريشوليو يقصده سعيًا وراء «الترويح عن النفس». وأما الرجل الأكبر في الدار فهو رامو. فآل لا بوبلينيير هم الذين فرضوه، أما نجاحات الموسيقي فكانت تكافئهم على جهودهم، وعلى صبرهم. وكان الصبر ضروريًا لتحمل ذلك الدب. كتب جان جاك روسو أوبرا عنوانها *Les Muses rivales* (ربات الفنون المتخاصمات) التي أوعز لا بوبلينيير بأدائها. وكان رامو، وهو يصغي، يكيل الإطراء بإفراط لكل مقطع، لكنه يؤكد فورًا أنه مقطع قام المؤلف بسرقته. وغمرت الحماسة ريشوليو فرغب في أن تؤدى تلك الأوبرا في فرساي. فغضب رامو، ووقفت السيدة دو لا بوبلينيير في صفه، فصرف ريشوليو نظره نحو شيء آخر. إلا أنه أوكل إلى جان جاك إعادة صوغ قصيدة فولتير غير المكتملة «عيد رامير» التي من شأنها أن تُمتِع البلاط. لكن ذلك يقتضي المس بأشعار الفائق الشهرة! وعقد صلات! فدعا ريشوليو روسو إلى أن يكتب إلى فولتير ليطلب منه الإذن بذلك. وكتب روسو الرسالة وهو يرتعد، بادئًا على هذا النحو: «سيدي، منذ خمسة عشر عامًا وأنا أعمل كي أكون جديرًا باهتمامك». ولا بد لرجل يشين المداهنة من أن يُجيد التملق إجادة تامة. جرى صوغ رسالته لتستعطف قلبًا أقل تأثرًا بالإطراء من قلب فولتير، فكان أن منح فولتير، على أثر قراءة تلك الرسالة، التسهيلات كافة الممكنة لذلك الرجل الذي يقف متواضعًا في حضرة شمس الأدب. فاتسمت بدايات العلاقة باللباقة. وكان فولتير على الدوام ذا دماثة رائعة. ولم يتوانَ روسو عن اعتبار تلك اللباقة «تملقًا دنيئًا». فقد قال إن فولتير لم يكن لطيفًا إلا لأنه يخشى من أن يقوم جان جاك الذي كانت تربطه أطيب العلاقات بدوق ريشوليو بإثارة خلاف بينه وبين فولتير! فيا لها من خرافة! وهل قام فولتير بمداراة روسو في سبيل مزيد من التقرب إلى ريشوليو؟ إن جان جاك لا يعرف حقيقة باريس، والأمر واضح. وهو مرتاب

وعدواني، ولِم لا؟ بيد أنه على خطأ؛ إذ كيف له أن يتخيل أن فولتير في حاجة إلى نفوذ شخص ضئيل ونكرة ليكسب ود دوق ريشوليو؟ وكم كان يظن أنه ذو وزن ضمن اعتبار الدوق، ذلك المسكين جان جاك؟ لكن ها هو ذا في الواقع – مع أنه ضئيل وخانع – مجنون غرورًا.

أخيرًا جرى عرض عيد رامير في 22 كانون الأول/ ديسمبر 1745. ولم يحضر العرض فولتير ولا رامو. كان هنالك روسو وحده، لكن اسمه لم يكن ظاهرًا، بعد أن عارض رامو رؤية اسمه الشهير يجاور اسم ذلك النكرة. ولم تكن السيدة دو لا بوبلينيير بمنأى عن ذلك الإغفال. أما فولتير فلم يبدُ عابئًا لا بهذا ولا بذاك.

نظر فولتير إلى مهمته، مؤرخًا رسميًا للملك، نظرة جادة إلى أبعد حد. فغاص أيامًا بطولها وسط ملفات وزارة الحربية لإعادة تشكيل معركة فونتونوا. إن ما يقوم بأدائه، مثلما هي حاله دائمًا، يؤديه على أكمل وجه، لكنه يريد أن يعترفوا بفضله، ويتوقع مدائح تثلج صدره ودراهم تملأ محفظته. وكتب يقول: «فضلي أني أقوم مجانًا بما كان يقوم به بوالو مقابل أجر كبير»، وإنه ليبالغ. صحيح أن بوالو لم يفعل شيئًا كثيرًا. أما هو؟ فما فعل، إذا ما وضعنا قصيدة فونتونوا جانبًا؟ أو لا يستلم جراية؟ لكنه يجدها غير كافية. فلا بد له من «إكراميات» ملكية. وقد كتب إلى دارجنسون قائلًا: «هلا قلت للملك وللسيدة دو بومبادور إنك راضٍ عن المؤرخ الرسمي. وأتوجه إليك بالرجاء لتقول كلمة للملك بشأن هذا العمل الذي انتفع به جلالته». والكاتب منتفع أيضًا.

ألم تسرِ الشائعات بفقدانه الحظوة! إن القلق ليستبد به، فيحتج، ويستشيط غضبًا، ويمضي محدثًا جلبة في كل اتجاه. وهنالك من تجرأ على القول إن أفضل شاعر هو على أسوأ حال، في عهد الملك الأفضل بين ملوكنا كافة. وفي الوقت الذي أغدِقت عليه الهبات، كان سخطه، الذي هو سخط صادق، قد اتخذ شكلًا مسرحيًا حتى بدا متكلفًا. إن عنجهيته لتعرقل الشفقة.

دخول الأكاديمية تلته قضية محزنة

توفي الرئيس بوهييه في 17 آذار/ مارس 1746. ولم يبدُ الأمر خطِرًا، فهو رجل صالح ارتحل من غير أن يخلف إرثًا ثقافيًا كبيرًا. أما بالنسبة إلى فولتير، فالحادث جوهري، لأن الفقيد ترك فراغًا في الأقل: إنه مقعده في الأكاديمية.

وها هو فولتير، وقد استبدت به الحمى، فأخذ يرتعد تلهفًا وتخوفًا. وأعمل هذان الإحساسان فيه تمزيقًا. لقد تعرض في ما مضى لأشكال من رفض الأكاديمية الجاف، حتى بات يتوجس خيفة من الالتماس. لكن «ملائكته» سيقومون بذلك نيابة عنه. فكتب إلى آل دارجنتال الرسالة الآتية، ويا له من ابتكار! إنه يكتبها بصيغة الغائب، وإنه يلتمس من أجل شخص آخر، شخص خجول ومريض وأعزل اسمه فولتير: «علم فولتير منذ يوم أمس بوفاة الرئيس بوهييه، لكنه ينسى الرؤساء كافة، الأحياء منهم والأموات، حين يرى السيد والسيدة دارجنتال. وقد سبق أن جرى الحديث مع فـ... بشأن ملء المقعد الشاغر. لكن فـ... مريض. وليس فـ... في حال تمكنه من القيام بالمساعي. إن فـ... الذي وخط الشيبُ شَعره، لا يستطيع بصدق أن يطرق الأبواب على الرغم من أنه يحظى برضا الملك. وإنه ليشكر ملائكته، وهو يأمل كثيرًا في أن يكون مرغوبًا فيه، لكنه يتهيب دومًا حيال القيام بالمساعي».

إذًا، سوف تقوم «الملائكة» بالالتماس بدلًا منه، وهم مشكورون سلفًا. أما هو فسوف يتمسك، في كتاباته وأقواله، بإيمانه الكاثوليكي، وبحبه لليسوعيين، مذكرًا بالبركة الرسولية: «أزهو بأن الرأفة التي منحني إياها أبو الجميع (الحبر الأعظم) سوف تضمن لي رأفة أهم أبنائه». ذلكم القول موجه إلى الأساقفة الأكاديميين، والحجة لا تقبل الرد.

أبدى لويس الخامس عشر رأيه بالوقوف إلى جانبه، فأضحى انتخابه إذًا شيئًا مفعولًا. أما أن يكون منتخَبًا، فذلك لا يكفيه. إنه يريد أن يكون مرغوبًا فيه، وأن يُستدعى وأن يُلتمَس، فيُستقبَل استقبال الصديق. لكن ذلك أمر شاق على الأسقف دو ميربوا وعلى آخرين. فتحوا الأكاديمية أمامه، لأنهم لا يستطيعون سوى ذلك. وأعداؤه ملتزمون الصمت، فلا ينبغي أن يُطلب إليهم المزيد. وإن القول الشرس الذي تفوه به مونتسكيو ليعبر عن درجة حرارة الاستقبال: «ليس فولتير بجميل، وما هو سوى مقبول. وقد يكون مخجلًا للأكاديمية إن كان فولتير داخلها، لكن سوف يلحق بها العار ذات يوم لأن فولتير لم يكن داخلها». إن المعضلة أليمة! فليس في وسع الأكاديمية سوى الاختيار بين مذلتين: المذلة الراهنة باستقبال فولتير، والمذلة المستقبلية في أنها رفضته. لذا اختارت الأكاديمية المذلة الفورية العابرة، تحاشيًا للأخرى التي سوف تدوم. والأكاديمية ليست الكنيسة، لكنها كنيسة خاصة، وهي تواجه الحاضر لكنها لا تدع المستقبل يغيب

عن نظرها، لأنها هي أيضًا تعمل في الخلود، من دون إعطاء ضمانة لأحد. وعلى ذلك فقد وضعت الأكاديمية حكم الأجيال المقبلة نصب عينيها، وضغطت على نفسها فرضيت باختيار «فولتير المشاغب».

تلا ذلك، فورًا، استيقاظ الحساد في باريس. ففولتير له عدد لا بأس فيه من هؤلاء. وبدا أن ذلك الانتخاب، الواقع حكمًا، ضاعف عددهم. فبعضهم ينبح ويعض، وبعضهم الآخر يفح وينفث سمومه، وكل يفعل وفقًا لطبيعته. وإن الأسوأ بينهم في هذه المناسبة شخص اسمه روا، سبق أن أعلن نفسه. فلقد أعاد نشر «الخطبة التي ألقيت عند باب الأكاديمية» في عام 1743، وأهجية أخرى من عام 1736 هي «انتصار الشعر»، بعد إغنائها بملاحظات راهنة عن حياة فولتير في عام 1746.

إن روا هذا لا يعني لنا أي شيء. أما في عام 1746، فكان فولتير يُعد شاعرًا مجليًا ورجلًا لئيمًا جدًا. فهو أَلِف السجون، لا بسبب جرأته الفكرية، بل لأنه زور سندات قانونية، إذ كان مستشارًا في شاتليه.

وفي اليوم نفسه لانتخاب فولتير، تلقت الأكاديمية والصالونات رزمة من القذارات من السيد روا. وكانت العملية مدبرة تدبيرًا حسنًا. ولم يُتَح لفولتير الوقت الكافي للتمتع بفوزه، فالسم نُفِثَ فيه من فوره. وحسِب أنه سوف يموت من شدة الغيظ. ظن مذ أن صار من رجالات البلاط، ومن الذين يشهدون استيقاظ الملك، ومذ أن نال بركة البابا، أنه صار في مأمن من الوشايات كافة. ويا له من استيقاظ! إنه يسمع السخريات الرهيبة لأفراد العصابة، من أمثال ديفونتين وفريرون ولابوميل الذين كانوا متعارفين معًا، ويقومون بإعداد الدسائس في ما بينهم.

لكن ما سبب ذلك الحقد من جانب روا؟ وما سبب تطاوله؟ كان يسود الاعتقاد – إضافةً إلى اعتقاده هو – بأنه ذو موهبة، وكان يلاقي الدعم من الملكة ماري ليتشينسكا. فالملكة ما عادت تقول الآن «المسكين فولتير»؛ ذلك أنه في معسكر المحظية، وهو في نهاية المطاف، معسكر الشيطان. لكن كان لها حزبها الذي يضم في صفوفه عدو فولتير: الشاعر روا. وكان روا هذا الذي ليس هنالك سواه، ينظم أشعارًا للملكة. وكان قد حصل في ما مضى – وهي حظوة لم تتكرر – على شريطة وسام سان ميشيل. وكان ذلك كافيًا للملكة كي تمنحه ثقتها. وأخيرًا فإن روا خطِر، مثل كافة الساخطين والحساد، لوجود سرطان يعمل في قلبه نهشًا:

إنه يريد دخول الأكاديمية. فكل شغور لمقعد يثير أعصابه، ويرمي به في رعدة المعذبين، كما أن رؤية المقعد الشاغر تصيبه بالعذاب الذي عاناه سان لوران على المحرقة، والإعلان عن انتخاب ليس له اسم فيه يجعله يهذي سخطًا. وكان يكتب أشياء شائنة. فآه أيتها الأكاديمية، كم من الجرائم ارتكبوها من أجلك!

حاول روا التقدم قبل ذلك التاريخ بعشر سنين. ورد فونتونيل أنه ما من أحد في الأكاديمية يقبل بالجلوس بجوار ذلك الشخص. وذلك يعني أن صيته السيئ كان واقعًا ثابتًا. وغالبًا ما كان ذلك البائس يدخل السجن ويتعرض للضرب. ففي عام 1754، تعرض لضرب وحشي بالعصا بإيعاز من الكونت دو كليرمون إلى عبده الزنجي، حتى قيل إنه مات بسبب ذلك. لكنه لم يمت حقيقة إلا في عام 1764. وقد يكون عانى طوال عشر سنين، لكن هنالك ما يؤكد أنه لزم السرير عشرة أيام، وذلك هو الأرجح بالنسبة إلى ضرب بالعصا.

أما حقده على فولتير، فتفاقم، بعد أن عرض على البلاط مسرحية مسلية - فذلك هو اختصاصه - لكن البلاط فضّل **أميرة نافار**. وكانت جريمة لا تُغتفَر! فقام من بعد بكتابة محاكاة ساخرة لـ**قصيدة فونتونوا**. وانتقم فولتير بوضعه تمثالًا للحسد يجسده روا، على العنوان المزخرف لـ **معبد المجد**. وكي يعرفه الناس بكل يسر، منحَ الحسد شريطة وسام سان ميشيل. تلك هي صغائر فولتير، وإنها لتكلفه غاليًا. ولسوف يكدس منها، في هذه القضية، كمية كبرى، تجعله في نهاية المطاف يخسر الدعوى ويفقد ماء وجهه، على الرغم من أن أعداءه هم من الرعاع والسفلة.

أهمل فولتير الصعاليك الذين في محيط روا كافة، ليركز جام حقده ورغبته في الانتقام عليه فحسب. وها نحن أولاء نحضر مشهدًا يدعو إلى ذهول، إذ نرى فولتير يتولى بنفسه توجيه الملاحقات ضد المفترين، وضد موزعي كتبه. فنراه لاطيًا في عربة يراقب الباعة الجوالين البؤساء في غدوهم ورواحهم، كما نراه يرصد واجهات المكتبات، ليدل بنفسه رجال الشرطة على مساكن الباعة، ودكاكين المشبوه في أنهم ينشرون الأهجية البغيضة، بل إنه تولى بنفسه توقيف أحد أولئك الباعة، فقاد رجال الشرطة إلى باب مسكنه الحقير. وجاءوا في أسوأ وقت، فالرجل يلفظ أنفاسه. وعُرِفت القضية، فصار الجميع يغتابه. إن عضو الأكاديمية الجديد قاد بنفسه رجال الشرطة لإلقاء القبض - ويا لها من قسوة قلب - على رجل يلفظ أنفاسه فوق فراشه. ولم تكن تلك سوى بداية...

يتولى فولتير، بين جولتين من نوعية خاصة جدًا، إعداد خطبة استقباله. وقام، خلافًا لما جرت به العادة، بإعداد خطبة حقيقية؛ إذ كانت الأكاديمية، حتى ذلك التاريخ، تكتفي بسماع كلمة إطراء من الكاردينال دو ريشوليو، وهي كلمة موجزة وتقليدية، تليها كلمة إطراء أكثر إيجازًا يلقيها المستشار سيغييه، وفي النهاية كلمة من العضو السابق: كلمة لباقة وبركة. وهنا تكون الخاتمة.

ألقى فولتير خطبته في جلسة يوم الاثنين 29 أيار/ مايو 1746، فحُمِلت على أكبر محملٍ من الجد. فهو يعرف أن الأكاديمية هي المعهد الفني للغة الفرنسية الصحيحة والجميلة. فذكّر بذلك ورسم الخطوط العريضة لمصادر اللغة وأصولها، ملاحظًا تأثير كبار الكتّاب في تطورها وتثبيتها، مشددًا على طابعها الشمولي. وبدا ذلك جديدًا جدًا، وهو في الواقع كذلك. ويبدو لنا ذلك الأمر عاديًا، لأن فولتير هو في واقع الأمر أقرب إلينا مما كان عليه كثير من معاصريه، وخصوصًا أولئك الجالسين في الأكاديمية في عام 1746. وأتى إلى ذكر الأجانب الذين يتكلمون الفرنسية ويكتبونها. ويسعنا أن نتخيل المدائح التي كالها، في معرض كلامه، لأمثال فريدريك وكاترين (إمبراطورة روسيا) والبابا بِنوا الرابع عشر الذين كانوا يباركون بلغة فرنسية سليمة التراجيديات التي تتناول موضوعات التدنيس وانتهاك الحرمات، ويباركون مؤلفها. وإن البخور الذي أُشعِل تكريمًا للتيجان والصولجانات التهبت نيرانه إطراء للأكاديميين من أمثال مونتسكيو، وفونتونيل، وناظر دروسه سابقًا الأب دوليفه، وحتى بالنسبة إلى كريبيون الذي كان يكرهه ويحسده، فيكيل له الأخر الصاع مئة. لقد أحاط بهم جميعًا عطر المديح المقدس. وكان عازمًا أيضًا على إطراء موبرتوي، لكن البلاط حذف المقطع؛ فلا طائل وراء تهنئة جندي فار أو منشق. وكان من شأن ذلك إعلامه سلفًا بمشاعر البلاط حيال الذين سيحملون موهبتهم قاصدين برلين. وكال المديح أيضًا لريشوليو، وليس الكاردينال هو المقصود، فذلك أمر مفروغ منه، وإنما لابن شقيقه، الدوق والصديق الدائم. تلقى الدوق إكليل الغار؛ إذ كرر فولتير كلمات الملك على ساحة معركة فونتونوا: «أنا لن أنسى أبدًا الخدمة التي أديتموها لي». والحق أن فونتونوا تلك كانت منجمًا بالنسبة إلى فولتير؛ فهو لم يقدم شيئًا للمعركة، لكنه فعل الكثير لكي يستثمرها. وأخيرًا جاء دور الملك: «ألا ليتني أرى في ساحاتنا العامة ذلك العاهل

الإنساني منحوتًا بأيدي نحاتينا من أمثال براكسيتيليس[46]، ومحاطًا برموز الغبطة العامة كافة! وليتني أقرأ عند قاعدة التمثال هذه الكلمات المحفورة في قلوبنا: «إلى والد الوطن».

يسعنا القول إن تلك المدائح جزء من اللعبة، فيكفي صوغها بلغة سليمة، والقيام ببعض الإضافة إليها، وعدم النظر إليها من قرب شديد، ليكون الرضا قد عم الجميع. لكن فلنمعن النظر من كثب. إنه لا يمتدح الملك هنا لانتصاره، فهو «بشري». والرموز التي تزين صورته ليست من غنائم الحرب، بل هي «رموز البهجة العامة». فذلك ما كان جديدًا ومن شأنه أن يبدو فريدًا. وماذا بشأن ذلك العنوان: «أبو الوطن»؟ إنه متقدم في الأقل مدة خمسين عامًا. وينبغي في سبيل فهمه أن ننتظر عيد الاتحاد الفدرالي في عام 1790.

ليس لنا أن نذهب في البحث بعيدًا. فالخطبة أحدثت حيرة، والناس في باريس حين لا يفهمون فهمًا جيدًا، يضحكون هازئين، حتى لو أن فولتير لم يبدُ على درجة كافية من الوضوح. ولوحظ من ناحية أخرى، أن الخطبة مؤلفة من أجزاء وأقسام غير متجانسة معًا. فكيف لتلميذ كان عند اليسوعيين أن يخفق في كتابة موضوع الإنشاء؟ إنه ذنب لا يُغتفَر: فالتمرين الأكثر أكاديمية أخفق في كتابته ألمع التلاميذ لألمع أساتذة البيان والبلاغة. ومهما يكن الترتيب المعتمد لقراءة مقاطع الخطبة، فإننا لا نجد في المجموع من تغيير يذكر. فكان موضوعًا للتلاعب، ولنعترف بأن ذلك نقد بارع.

واصلت الشرطة في تلك الأثناء اعتقال المتواطئين مع روا. فوقعت مصادفةً على شخصٍ اسمه ترافنول، هو عازف كمان في الأوبرا كان يكره فولتير، ويشيع ما استطاع الأهجية التي عنوانها: «خطبة ألقيت عند باب الأكاديمية».

وحين جاءوا لتوقيف ترافنول، أحدثت زوجته وابنته صخبًا يصم الآذان، عندما صادروا منهما الكمان الذي هو مصدر رزقهما. وكانت الفتاة معوقة لكنها ذات صوت مدوٍّ! وهي أوشكت أن تثير شغبًا. وفي غضون ستة أيام عاد العزف

---

(46) براكسيتيليس: نحات يوناني عاش في القرن الرابع ق.م. ومن أشهر ما صنع تماثيل أبولون، وأفروديت وغيرهما... ألهمت أعماله كثيرًا من النحاتين الإغريق الذين جاءوا من بعده. (المترجم)

إلى بيته؛ إذ كان مدعومًا. وسرت شائعة في باريس تتهم فولتير بأنه جلاد الفتيات العاجزات. ولئن كان بعيدًا كل البعد عن تلك الفظاظة، فإن ظواهر الأشياء كانت ضده. ونمضي إلى ما هو أبعد. وإن كان يُتهَم بأنه منافق، ففي وسعنا الحكم على أنه كان في الواقع حيال مجابهة قوية مع المنافقين!

ذهب ترافنول ليرتمي على قدمي فولتير. لكن ترافنول ذاك لم يكن هو المذنب، كان ترافنول الذي جثا يقبّل الأرض بين يدي فولتير شيخًا في الثمانين من عمره، وقد اعتقلته الشرطة بدلًا من ابنه الذي هرب، فجاء يتوسل طالبًا العفو عن الهارب. فمن عسانا نصدق؟ وما الذي جرى؟ وهل يمكن الشرطة التي لم تجد الابن أن تكون اعتقلت الأب؟ وأين هو عازف الكمان؟ وأخيرًا فإن فولتير الذي أقض مضجعه ذلك المشهد، ولم يحتمل رؤية شيخ يجر نفسه عند قدميه، جثا بدوره أمام الشيخ لتمتزج دموعهما بقبلاتهما المتبادلة. أليس المشهد مثيرًا جدًا للعواطف حتى يستحق أن يُعرَض؟ لكن تأثر فولتير بلغ حدًّا من الصدق حتى وعد الشيخَ بكل ما طلب. فدعاه إلى مائدته، وحادثه، ومازحه. ومضى ترافنول العجوز متخمًا، بعد أن طُيِّب خاطره، ومُنِحَ القبلات. وهنا ثاب فولتير إلى رشده؛ لقد اقتنع بعد قليل بأنهم خدعوه. ولم يكن مخطئًا في تقديره. فهنالك أهاج جديدة يجري تناقلها. ويبحثون، فيجدون أن الابن المتواري يواصل تلاعبه القَذِر. أما فولتير فجُن جنونه غيظًا. فهل سيكرر العازف العجوز النغمة المأساوية على مسامع فولتير المرتاب؟ كلا، بل سيمضي ليشنف بها أذنَي الأب دوليفه. ولسوف يقوم الأب الذي رق له قلبه، بدور الوسيط بين فولتير وهذين العازفين الغشاشين، فيحصل من العجوز على رسالة يتهم فيها نفسه، فيعلن ندامته، ويتوسل إلى فولتير ليستدر شفقته. وكان ذلك دليلًا على أن العازفين ترافنول غير مرتاحي الضمير، وأنهما يخشيان حكم العدالة. سُلمتْ الرسالة إلى فولتير، وكانت مخصصة لاستعطافه، لكن مشهد الدموع الذي انتهى بالسخرية منه، لا يزال ماثلًا في ذهنه. وعلى ذلك، حمل الرسالة التي تتضمن الاعتراف، ورفعها إلى العدالة مشفوعة بشكوى.

فيا لبؤس العدالة! ويا لبؤس القضية! ويا لتفاهة موقف فولتير في ذلك كله!

عيّن آل ترافنول محاميًا يدعى مانوري، وهو محام بلا قضية، سوف يجعل

من الدعوى فضيحة تدوم ستة عشر شهرًا. وهي وسيلة ممتازة ليؤمن لنفسه صيتًا ذائعًا، حسنًا أكان أم سيئًا، وذلك بجرجرة فولتير في الوحل. وكان على مانوري أن يثأر من الأكاديمي الجديد. فهو لا يسامح الشاعر الذي علله بوعود غامضة في وقت ما، حين كان خالي الوفاض، ورغب في أن يقترض منه مالًا. لكن فولتير قدّر في ذلك الحين أن مانوري لا يساوي المبلغ الذي طلبه. وذلك حقه في أي حال. زد على ذلك أنه لم يكن مخطئًا في ظنه بالمحامي الدجال، بيد أن فولتير يؤكد أنه أعطاه مالًا دونما أمل في رؤيته مجددًا، فيما يؤكد مانوري خلاف ذلك. لكن فولتير يقول ساخطًا، وهو يُقسِم بالسماء والإنسانية: إنها لجريمة أن يأخذ أحدهم صدَقاتِ رجلٍ ليقوم من بعد بتلويث شرفه، وتشبيهه بواحد مثل ترافنول أو الشاعر روا... فهل قبض مانوري مالًا من فولتير؟ لا يبدو ذلك. لكن فولتير أوصى بمانوري شقيق تيبريو، وهو بائع ملابس، كي يُلبس المحامي غير الممارس، على حسابه الشخصي، بعد أن تشكى هذا الأخير من أنه لا يستطيع المرافعة، لأنه لا يملك ملابس لائقة. ويبدو أن الملابس لم تكن كافية؛ كان ينبغي ملء الجيوب أيضًا. فمن يسعه أن يلوم فولتير في هذه الواقعة؟ إن كرَمه حيال من يعرف مداورته، كرَمٌ حقيقي؛ فهو تخلى في الفترة نفسها عن حقوقه كاتبًا عن معبد المجد التي كانت تُعرض آنذاك في الأوبرا، لمعاونه رامو. مع ذلك ما كان يتوقع إطراءً من الموسيقي، لكن قدم له تلك الهدية بصيغة فيها تكريم لفكره وعاطفته. وهذا نص البطاقة التي كتبها:

«إن السيد رامو ذو سوية رفيعة، لكن ثروته أدنى كثيرًا من مواهبه، حتى ليغدو من العدل أن تكون المكافأة من نصيبه بكاملها».

وظل ينتظر كلمة شكر واحدة.

لم يُرضِ الحكم الصادر في قضية ترافنول أحدًا؛ ذلك أن فولتير لم ينل سوى ترضيات كلامية. وجرى توبيخ الواشين ووعظهم، في حين ترتب عليه هو أن يدفع تكاليف الدعوى. وكان طالب بأن تُنزل بهم أشد العقوبات وفي الحد الأدنى، التعليق من اليدين على عمود التعذيب. لكنه ذهب بعيدًا في حسابه! فعبّر عن سخطه علنًا، جريًا على عادته: ألم يفهم القضاة إذًا أن قضية فولتير تتجاوز شخصه؟ إنها قضية النظام العام! أما كانوا يعرفون أن معنى الافتراء على فولتير،

تقويض المجتمع من أساسه؟ وعلى السلطة كلها في المملكة أن تتحرك، بدءًا من الملك حتى أصغر شرطي، دفاعًا عن تلك القضية المقدسة! لكن لندع هنا تلك الأشكال من الإفراط وذلك الهوس الجنوني الذي تأرجح بين الصدق والتكلف، ولنعد إلى الوقائع. إن ترافنول الذي أفرِج عنه توًا باشر نظم القصائد تعبيرًا عن اغتباطه بإخلاء سبيله بهذا الثمن البخس. أما مانوري، فبلغت به الوقاحة حد المطالبة بتعويض عما تسبب به «الشاعر المرموق» لنساء بيته من صراخ ودموع. وأما حيال ذلك التهكم الصفيق والوقاحة المفرطة، فإن رجالًا أطول أناة من فولتير كانوا سيخرجون عن طورهم.

إن ترافنول هذا، الذي أراد القضاة اعتباره أعجز من أن يكتب شيئًا، نشر من فوره تقريبًا، بعض السفاسف التي نكتشف فيها كلامًا لاذعًا ضد الماسونية. إن ترافنول يدافع عن الهياكل، وليس ذلك كله سوى بؤس! وإن ترافنول ليذكّر بتلك الحشرات التي تخز في العقب فحسب، أو لا تعيش إلا في الأسافل. ويبدو أن فولتير الذي عجم أوتار ذلك العازف الرديء منحه من الأهمية أكبر مما يستحق. وها هو ذا مجددًا يضيع وقته، ويبدد ماله.

قدر أن ثأره كان ناقصًا؛ لذلك سيواصل السعي. قرر رفع دعوى جديدة. وليس ما يثير السخط أكثر من رؤية ذلك الرجل السامي، وهو يزحف لينحدر إلى سوية ترافنول. لكن لدى ترافنول مستشارين ممتازين، لذلك يقف إلى جانبه كل من القضاة والرأي العام. وهاكم كيف تُعرَض الدعوى: على القضاة أن يختاروا بين زندقة فولتير المتباهية والغنية والقادرة والذكية، وفقر فنان متواضع وتقي؛ ذلك أن ترافنول تقي تعريفًا. وفي تعريفه أيضًا أنه لم يكتب قصائد قط، ولم يوزع أهاجي شائنة. ولما كان ترافنول عاجزًا عن دفع تكاليف الدعوى، فإن المدعي العام نفسه هو الذي يدفع السلفة لتغطية النفقات. وكانت المباراة غير متكافئة، والقضاة يعون ذلك. أما أن يكون فولتير قد أزعجهم، وأن الرأي العام وقف ضده بسبب نجاحه، وخصوصًا بسبب ظهور أعداء أشد حسدًا له بسبب ثروته، من غيرتهم منه لنجاحه الأدبي، فذلك كله يقيني ومؤكد. إن فولتير مدين سلفًا من الجمهور، ومن القضاة. أما العازف المسكين فهو الضحية البريئة للثراء الباذخ والزندقة. وحين رغب دائنو ترافنول الذين لم يستلموا شيئًا، في مصادرة تعويضه من الأوبرا، وقف في وجههم رجال القضاء. وما عاد التحيز يخفي وجهه وراء أي

قناع. ونشر ترافنول أهجية بحق رفاقه في الأوبرا. إن أشكال مكره جلية، وكذلك هي موهبته شاعرًا فظًا وهجاءً، ما دام أنه طُرِد من الأوبرا. لكن ذلك لم يؤثر بشيء في الرأي الذي يرغب القضاة والجمهور في تكوينه عن ترافنول. فينبغي لفولتير أن يخسر الدعوى. وهكذا، خسرها فولتير وسدد التكاليف كافة. وصرف ترافنول، دونما ثناء أو تعويض، لكن بعظة أبوية. وانفجرت زمرة روا بالضحك، أما فولتير فصرَّ على أسنانه، فباريس تزدريه.

الخبيث يساوي أكثر مما يبدو عليه

نرى في هذه القضية الشاقة التعقيدَ والتناقضَ في طبع فولتير: فظاظته العمياء والمُذِلة، وذلك العطف على شيخ يقوم بخداعه. وكان فولتير على استعداد للتخلي عن الملاحقة، بل قام، على أثر مشهد آخر من النواح والدموع، بدفع مبلغ مساعدة للفتاة العاجزة، والواقعة أكيدة. ولنصغِ إلى رجل ما كان يحبه، لكنه كان يجيد القراءة في خبايا النفوس؛ إنه ماريفو. وهاكم ما قال في فولتير: «ولهذا الخبيث عيب إضافي بالنسبة إلى الآخرين: إن لديه فضائل في بعض الأحيان».

ليس في بعض الأحيان فحسب، بل غالبًا وغالبًا، للأسف! وهي تختلط «بخبثه». وإن ذلك لأمر محير. وحرصًا من بعضهم على تفادي التشوش، فضلوا الخيار السهل، فلم يروا فيه سوى الطبع الخبيث. وهكذا يغدو الطبع والإنسان من مورد واحد، فيقولون: «إنه لخبيث رائع». والأمر أولي لكنه خاطئ، فيضيفون أحيانًا للتعويض، إنه ذو موهبة. لكن موهبته لا تعوض عن دناءته، فالفضائل وحدها هي التي تعوض.

هنالك نزعة لا تخدع، فوق تلك الأرضية من فضيلة أرويه، ألا وهي ميله إلى أن يكون سعيدًا في الصداقة. فتشنج قسماته وحقده الناجم في الأغلب عن التشنج والضغائن، تشوّه شكل وجهه. ولو أنّا محونا تلك البسمة الهازئة، ما رأينا فحسب الذكاء الرائع يتألـق، بل رأينا الطيبة أيضًا فيلزم أن نراه متهللًا في مجتمع أصدقائه المحبب والمهذب. وهو من ناحيته لا يتألق بوهجه كله إلا في ذلك المجتمع من التعاطف والأناقة. إن الفظاظة دمامة وداء، فهي تشل وتشوه كلًا من الفكر والشعور. ولا ريب في أن الحقد ألهمه قسمات، لكنها ليست سوى «كلمات» وتنسيق كلمات ذات سرعة لا تُصدق، فأنوار ذكائه الجميلة والعظمى في موقع

آخر؛ إنها في رسائله التي في حوزتنا، وفي حديثه الذي طار. ولربما كان في وسعنا أن نتذوق هنا جوهر حضارة بحالها، تلك التي تفتحت في هذا القرن، وفي شخص فولتير. وهي، بلا ريب، زهرة تالفة؛ فالصوت والنبرة والبسمة والنظرة ووقع الكلمات، ذلك كله غير ملموس، وقد تبدد في مساكن العدم المعتمة. لكن ذلك وُجِدَ فعلًا، ولدينا شهادة الذين سحرهم ذلك الحديث الذي فتن قرنًا بكامله، ولم يبلغ درجة الكمال إلا في مناخ من الصداقة واللباقة الأكثر رهافة.

ذلك هو فضله، فهو لا يتألق تمامًا إلا تحت أشعة اللطافة والذكاء. وحين يصادف روحًا متميزة، وقلبًا مستقيمًا، وفكرًا منيرًا، يبدي إعجابه وحبه، ويتألق فرحًا. إنه يتجاوز نفسه.

في ذلك تحديدًا نرى البرهان على مناقبيته الأخلاقية. فالدناءة لا ترتبط بالعظمة، وشخص لئيم لا يكتب إلى شاب مجهول تلك الرسائل التي كتبها إلى فوفنارغ. فيلزم المرء الذي يبدي حماسته على ذلك النحو، أن يتمتع بحس الفضيلة، ونبل الروح؛ إذ بهرته رسائل ذلك الضابط الشاب، فصار يشيد أينما كان بجدارته، كاتبًا وفيلسوفًا. وهو تعرّف من فوره فضيلة فوفنارغ التي كانت مع ذلك مخبوءة، فاستشم العظمة الأخلاقية في بعض الانعطافات الحزينة والمترفعة في العبارات التي كان يكتبها إليه الضابط المجهول الذي كان بلا ثروة ومريضًا، فتبين من فوره نفسًا أبية. وضاع عدد من رسائلهما المتبادلة. وكتب له فولتير في بداية مراسلاتهما في عام 1743، وفولتير حينذاك شهير جدًا، بل فائق الشهرة تقريبًا، ومعترف به في الأقل أنه الكاتب الأول في فرنسا، فقال:

«أيها الشاب المحبب ذو العبقرية الجميلة، لقد قرأت مخطوطك الأول، فأعجبت فيه بتلك الرفعة لروح عظيمة. ولو أنك كنت مولودًا قبل بضع سنين لكانت قيمة مؤلفاتي أكبر. غير أنك تزيدني ثقة، وأنا أقارب نهاية حياتي المهنية، بالدرب الذي تسلك. فأساتذتي الأوائل هم العظمة، وإثارة العواطف، والإحساس، أما أنت فآخرهم».

لَكم هو رائع أن نرى هذا الرجل الذي يكبر مراسله الشاب بواحد وعشرين عامًا، يجعل من نفسه تلميذًا له، فهو يحبه ويحترمه. وفي إحدى إيماءاته الحماسية، تحدث عنه إلى الدوق دورا، وها إن البهجة تغمره، لأنه من قبل أن ينطق

باسم ذلك الضابط الشاب، قال له الدوق: «إنه السيد دو فوفنارغ!» وقرأ المخطوط علنًا. وعلق عليه حتى أبرز قيمته. فيا لها من بهجة أن يصغي المرء إلى رأي فولتير في فوفنارغ! ويشاء سوء الطالع أن يعير المخطوط (مثلما كان يعير مخطوطاته الشخصية)، فجرت على الفور طباعة مقاطع منه في نشرة لو مركور. والحال أن فوفنارغ لمّا يكن عازمًا على نشر مؤلفه. فاعتذر منه فولتير بسبب إهماله: «رغبت في وقف الطباعة، لكن قيل لي إن الأوان قد فات. فأرجو منك أن تتحمل هذا المذاق المر، إن كنت تكره الشهرة».

حين اضطر فوفنارغ إلى ترك الجيش بسبب سوء صحته، جاء فأقام في باريس. وغالبًا ما كان يلتقي فولتير. وكان يحضر لقاءاتهما أيضًا شاب آخر اسمه مرمونتيل، كان تحت رعاية فولتير:

«كانت أحاديث فولتير وفوفنارغ من أغنى ما يسعُ المرءَ سماعُه على الإطلاق، ومن أكثرها خصبًا. فكان من جانب فولتير فيض لا ينضب من الوقائع المهمة واللمحات المضيئة. وكانت من جانب فوفنارغ فصاحة ملأى باللطافة والفتنة والحكمة. ولم يحصل قط لمناظرة أن توافر فيها ذلك القدر من العذوبة وعمق الفكر والنزاهة. وما كان يفتنني من جهة فوفنارغ، دون ما عداه، احترامه لعبقرية فولتير، أما من الناحية الأخرى فهو إجلال فولتير الرقيق لفضل فوفنارغ».

إنه تفاهم مدهش على صعيد الفكر والشعور، ومفخرة لهذا وذاك في آن. ولا يقيم أعداء فولتير لتلك الأوقات من حياته أي اعتبار. أما الرجل الذي عاشها فليس على تلك الدرجة من السوء التي يرغبون في إقناعنا بها.

والراجح أن مورمنتيل الشاب ما كان قادرًا على الارتقاء عاليًا، لكن كان في وسعه أن يُعجَبَ وأن يفهم. وكان في وسعه أن يثمن، أكثر من غيره، صداقة فولتير للشبيبة، وتفانيه في سبيلها. إن فولتير هو الذي دعا الليموزي[47] الشاب، وهو بلا ثروة، للقدوم إلى باريس، وفولتير هو الذي وجد له منصبًا لدى الوزير السيد أوري. ولسوء الحظ توافق وصول مرمونتيل إلى باريس مع فقدان السيد أوري لمنصبه. وعرض فولتير منحة على الشاب الآتي حديثًا، تعويضًا عن خسارته، لكن

(47) الآتي من مقاطعة ليموزان (Limousin).

حياء الشاب جعله يرفضها. وأثر ذلك كثيرًا في نفس فولتير، ما ساهم في ارتباطه الوثيق بمورمنتيل، ثم أقنعه، مع مرور الزمن، بأن يقبل بسبب أشكال الصداقة، والاحترام العطوف الذي يكنه للذين يرعاهم، المساعدات التي يعتقد أنه مدين بها لمرمونتيل، ما دام هذا الأخير جاء إلى باريس بناء على نصيحته. فلنعترف له إذًا، من الآن فصاعدًا، بتلك النقيصة الإضافية التي يدعوها ماريفو باسم: الفضيلة.

فولتير يغير كاتم أسراره وشعاره

لم تحُلْ قضية ترافنول ولا المرض ولا الأعمال ولا الزيارات إلى البلاط ولا المدينة دون أن يكتب تراجيديا سميراميس.

لحق المخطوط بالثنائي في تنقلاته. فنلقى في آب/ أغسطس 1746 السيدة دو شاتليه وفولتير، في قصر آنيه، عند دوقة مين. وها هما في أيلول/ سبتمبر، في قصر فونتينبلو مع البلاط.

ووقعت بين هذا وذاك كارثة على مستوى الخدم؛ إذ ارتحل خدم السيدة دو شاتليه كافة في اليوم نفسه، وقلدهم خدم فولتير تضامنًا معهم. كانت السيدة دو شاتليه قاسية مع العاملين لديها وشحيحة حيالهم. وغالبًا ما كان فولتير مرغمًا على مداراة وضع الخدم بالعطاءات الخفية. ولم يكن الأمر مقتصرًا على التقتير، بل هنالك مزاج إميلي السيئ. فهي لم تكن فيلسوفة إلا في مخبرها ومع كتب طلاسمها. أما خارج ذلك المكان، فهي ذات نزوات وسورات غضب. وكأن سكرتير فولتير أراد أن يساهم في البلبلة، حين استغل الهروب العام كي يقضي نحبه. وكانت تلك الخسارة الأشد وقعًا على نفس الشاعر، إلا أنه تذكر أن كبير الخدم لدى إميلي كان يدون مخطوطاته أحيانًا مع سكرتيره المرحوم. كان اسمه لونشان، وكانت إميلي قد جاءت به من بروكسل في أثناء واحد من أسفارها العديدة التي قامت بها من أجل دعواها الشهيرة. وتكيف لونشان، على الرغم من العناء الكبير، مع عادات إميلي. لبث ذلك الشاب الطيب طويلًا ليتقبل أن تبدل السيدة دو شاتليه قميصها أمامه «عارية مثل تمثال من الرخام»؛ ذلك أنه هو لم يكن من الرخام، فكان ينفعل. وكانت تجعله يسخن لها ماء استحمامها لتنزل في المغطس وكأنها وحدها (هنالك سيدة أخرى، هي السيدة دانفيل، كانت تستعين بوصيفها لتنزل في مغطسها، لكنها تحرص مسبقًا على أن تنزل داخل كيس). أما ذلك المسكين

لونشان فلا يني يكرر منذهلًا: «إن شخصي كله لم يكن، في نظرها، يتجاوز بقليل أو كثير، إناء الماء المغلي الذي كنت أحمله بيدي». والمحزن بالنسبة إلى حاله، أنه كان يغلي مثل إناء الماء، لكن بلا طائل.

نجا من تلك الامتحانات الرهيبة حين دخل في خدمة السيد. وكانت البدايات قاسية بعض الشيء، لأن انطباعات لونشان تنم عن كثير من الأمور. فهو في الصباح الأول كان وصيفًا وسكرتيرًا، إذ لم يكن هنالك من أحد سواه. وحين استيقظ فولتير طلب حافظة أوراقه. ويدأ لونشان يبحث. إنها أمام عينيه، لكنه لم يعثر عليها لأنه لما يعرف تنظيم الغرفة، أو فوضاها. وعيل صبر فولتير فصرخ به: «إنها هنا، ألا تراها؟»، ودله على كرسي.

كان لونشان يرتعد خوفًا. أمره فولتير قائلًا: «رتِّب لي باروكتي»، فجهد لونشان في تمشيط الباروكة ومسحها بالفرشاة. وحين قدمها إلى سيده، تهكم، وسخر من ذلك «الحلاق»؛ فعليها كثير من البودرة، ولسوف يسويها بنفسه. وطلب مشطًا، فجاءه لونشان بمشط، وأخذه فولتير وجأر صارخًا، ورمى به أرضًا. ليس ذلك هو المشط الذي يريد، إنه الآخر الكبير. لكن ليس هنالك من مشط آخر. «التقط هذا وأعطني إياه». ثم صب جام غضبه على الباروكة، فانهال عليها بضربات من المشط، ثم دعكها وألقى بها بشكل مقلوب على رأسه. وارتدى ثوبه، من دون أن يتفوه بكلمة واحدة، ثم توجه ليتناول فطوره مع إميلي.

يسعنا الخروج بأقسى الاستنتاجات من هذا التقرير الأمين الذي قدمه لونشان بشأن المزاج المقيت لفولتير. لكن لندع لونشان يتكلم، بدلًا منا، فموقعه يؤهله لذلك. تراءى له في بداية الأمر أنه لن يلبث هنالك طويلًا. لكن تبين له بسرعة كبرى أن ما اعتبره عنفًا ليس سوى عصبية غير مضبوطة ما إن تنفجر حتى تخمد: «لاحظتُ من بعد أن حالات نزقه كانت عابرة، حتى ليسعني القول إنها سطحية، على قدر ما كان تسامحه وطيبته صفتين ثابتتين ودائمتين».

جعل الحذر لونشان لا يتطوع لخدمة فولتير، إلا طوال فترة سفره إلى فونتينبلو. لكن ذلك الحذر كان بلا طائل، فلقد ظل في خدمة فولتير من عام 1746 حتى عام 1754.

أما في البلاط، فكان على فولتير أداء مهنته، جليسًا للملك. ويقول لنا إنه كان يهملها: «ها أنا في فونتينبلو. وفي كل مساء أتخذ القرار الحاسم بالذهاب لحضور استيقاظ الملك، لكني في كل صباح أظل مرتديًا مبذلي بصحبة سميراميس». لكن هذا نصف الحقيقة. إن مفاتن سميراميس لا تجعله ينسى تمامًا واجباته التي يقوم بأدائها على أكمل وجه. وبعد ذلك يضيف أبياتًا إلى أبيات، لينتهي به الأمر إلى بناء تراجيديا بعد مدة قصيرة. ولسوف تكون هذه الأخيرة مملة قليلًا بالنسبة إلى الأخريات، لكن معاصريه يحبون هذا النوع كثيرًا.

تلقى في 22 كانون الأول/ ديسمبر 1746 شهادة نبيل عادي من غرفة الملك. لقد وفى لويس الخامس عشر بوعده. فصار فولتير، من الآن فصاعدًا، نبيلًا بكل معنى الكلمة. ولم تنسَ السيدة دو بومبادور الخدمات التي أُدّيت للسيدة لونورمان ديتيول في أثناء ارتقائها المدهش والصعب. فهو مدين لها هي بذلك اللقب الذي يحسدونه عليه. ويسعه أخيرًا أن يقول إن آل أرويه، من سان لو، بلغوا بشخصه هو قمة المجتمع. فقام بهذه المناسبة بنفض الغبار عن شعاراته، وأجرى عليها بعض التعديل. كان آل أرويه يضعون اللون الذهبي شعارًا، بثلاثة ألسنة من اللهب. فصنع لنفسه شعارًا بلون لازوردي وثلاثة رؤوس من اللهب ذهبية اللون. وما عاد على الشعار لونٌ أحمر - لون الروح القدس - واحتفظ بالذهبي، لون السيدة العذراء.

لم يكن لهذا التكريم الجديد في باريس من أثر، لأن فيها كثيرًا منه. لكنه أثار ردات فعل في سان لو، بمنطقة بواتو، مهد آل أرويه، التي غادرها جدهم الأكبر هيلينوس في عام 1620، أي قبل ذلك التاريخ بمئة وست وعشرين سنة. فلقد ثارت ثائرة النبلاء الصغار في سان لو، لأن شخصًا صغيرًا من آل أرويه أضحى نبيلًا، واستقبله الملك. ونطلع على تلك الواقعة من البداية:

«أحاطوني علمًا، يا عمي المحترم، بقيام الملك، وبوساطة جلساء من ذوي النيات السيئة، بالإنعام بلقب نبيل على شخص مغمور اسمه أرويه، من سان لو، وهو ابن واحد مغمور أيضًا اشتُهِر بلقب فولتير. ولن يُلحِق الملك إهانة بالنبلاء لو حرم هذا المغمور من نعماته التي سيجد نفسه مرغمًا في سبيل الحصول عليها، أن يسعى وراءه من ناحية أهل أمه، وفي ذلك مس بشرف نبلاء يتوارثون اللقب أبًا عن

جد، منذ أقدم العصور. وأرجو أن يتخذ عمي القرار، من بعد أخذ رأي النبلاء من أقربائنا، كي نقوم بإغلاق أبوابنا وألقابنا في وجه فولتير هذا... إلخ. ولسوف تعطينا رأيك يوم الأحد على الغداء في فيرنيه».

أما من بعد تلك الخطوة الجميلة بالدعوة إلى «إغلاق الأبواب والألقاب» في وجه ذلك «المغمور»، فيعود ذلك البطل النبيل إلى الواقع ليقول: «الحصان الأحمر محطم بسبب سباق الأمس، ولو أن العصفور كان في البيت لتوجهت لأكلمك بنفسي بدلًا من الكتابة لك».

فيا لها من خسارة لو أن العصفور ظل في البيت، لأننا كنا سنُحرَم من هذا النص الجميل في الحقيقة. وتبقى هنالك تواقيع ذلك السيد القادر والرفيع المقام. ولا تسيء تلك التواقيع إلى الفتنة الزراعية للرسالة. فهو يوقـع باسم «سيد شجرة الكرز، من جهة، وسيد معصرة الزيت، من الجهة الأخرى». ألم يقم موليير بكتابة تاريخ فرنسا، وهو يكتب هزلياته؟ مثل *Monseigneur de l'Huilière* (السيد صاحب معصرة الزيت)!

وأي مقام يحتله ذلك المغمور، واسمه فولتير، وهو من العامة! إن العظمة ماثلة في كل مكان، وخصوصًا في الغباء.

قيم باطلة في المجتمع، كما تقول الأفعى

كانت بدايات عام 1747 غائصة في البحوث التاريخية عن حرب 1741. يضاف إلى ذلك مرض فولتير المتكرر، على الرغم من اكتشافه أقراصًا رائعة اسمها دو ستال. فهو يوصي بها الجميع ويتناول منها كميات يمكن أن تقتل رجلًا ضخم البنية. فهو لا يتوانى عن المغازلة، مثل أي نبيل حقيقي من جلساء الملك، عبر الرسائل، ولدى زياراته للسيدة دو بومبادور. فلقد بعث برسالة شعرية إلى دوقة مين بشأن انتصار لاوفيلد في 2 تموز/ يوليو 1747. وقيل في كل مكان إنها لا تساوي قصيدة فونتونوا. وهذا صحيح. ذلك أن القصيدة كانت للملك، أما الرسالة الشعرية فموجهة إلى صاحبة سمو. فكل شيء في البلاط له معياره وفقًا لحقوق الصدارة، بما في ذلك عرض المواهب. بيد أن الدوقة راضية جدًا، وهي دعت فولتير وإميلي لتمضية فترة من الوقت في آنيه. فهاتوا نتبعهما.

جرت إحاطتنا علمًا بحركاتهما وسكناتهما، وبالطريقة الأكثر تجنيًا وعدوانية، والأكثر سخرية، من طريق بارونة اسمها دو ستال، كانت تعيش في القصر، وصداقتها الوثيقة مع السيدة دو ديفان، جعلتها ذات لسان يقارب لسانها شرًا، وقلم يقارب قلمها جودةً. ويا لها من توصية! نظرت إلى وصول الثنائي بشيء من الهول. وليس من يعرف السبب، لكن إميلي كانت، على وجه الخصوص، مقيتة في نظرها، وعلى ذلك، فكل حجر يصيب. وتروي على مسامعنا أنهم انتظروا الشاعر والفيزيائية طوال النهار، فكان أن وجدا الوسيلة للوصول في منتصف الليل «مثل شبحين ترافقهما رائحة أجساد محنطة، حتى بدا أنهما جاءا بها من قبريهما». وتضيف البارونة إنهما كانا مع ذلك «شبحين جائعين»، فوجب إعداد حساء لهما، وتحضير سريرين. ومن شأن ذلك كله أن يبدو طبيعيًا جدًا في نظر الجميع، باستثناء الأفعى التي صممت على أن تُضفي على كل شيء صبغة استهزاء. فلقد عملوا على ترحيل واحد من نبلاء الدوقة لإيواء القادمين. ألم يكونوا مستعدين لاستقبالهما؟ وأثار ذلك المسكين الشفقة، إذ لم يجد الوقت الكافي حتى لجمع حوائجه. ووجد فولتير المسكن ممتازًا، الأمر الذي جعل الغيظ يستبد بالذي أخلاه، ذلك أنه فقد كل أمل في استعادة مسكنه. أما بالنسبة إلى إميلي، فالمسألة أكثر تعقيدًا. إنها تشكو من سريرها، فلا بد لها من الانتقال. وهنالك تلميحات تشير إلى تطلّبها وتشددها، لأنها ليست على جانب من الرقة. فكانوا يعدونها بالأفضل من بعد رحيل الماريشال دو مايبوا، ويأملون في أن يجري ذلك سريعًا؛ لأن هذا الأخير لا هم له سوى القنص، وهو لم يجلب شيئًا للتخفيف من سأم الضيوف الذين يألفون القصر. وهم يأملون في أن تكون السيدة دو شاتليه وفولتير أكثر نفعًا، ويقترحون من ناحية أخرى تمثيل مسرحية كوميدية لفولتير، بل هي هزلية، بعنوان بورسوفل (*Boursoufle*). ولم تتوانَ البارونة عن الإشارة إلى أن إميلي سوف تقوم بدور الآنسة دو لا كوشونيير[48]. وتضيف المهذارة قائلة: «ليست تلك أسلحتها الناطقة»، لتشير إلى أن إميلي نحيلة الجسم. أما فولتير في بورسوفل فوضعه مهلهل، لأنه أشبه بهيكل عظمي.

غيرت إميلي غرفتها ثلاث مرات في ثلاثة أيام. ولم تدخر البارونة عنها شيئًا؛

(48) الاسم بالفرنسية يعني: مربية الخنازير. (المترجم)

فقد غادرت الغرفة الأخيرة بسبب الدخان. «دخان بلا نار! قد يكون ذلك شعارها»؛ إنهم يسخرون خفية من عملها المزعوم الذي يحتجزها طوال النهار وراء طاولتها. فهي لا تحب الصمت إلا في النهار أما في الليل فتظهر وتنشط. وفكر فولتير في الصحب سلفًا، فوزع هنا وهناك بعض الأبيات الغزلية: كانوا سيرضون عنه كثيرًا لولا أنه تلبس بإميلي تلك.

صحيح أن إميلي لا تقوم بعمل مريح. وهي استولت على الطاولات في الغُرَف كافة. فيلزمها سبع طاولات أو ثمانٍ، لتبسط عليها أوراقها وكتبها وأدواتها وجواهرها ومستحضرات بهرجتها وزينتها. والمشهد مفزع، فكل شيء معروض على البسطة! وتشاء مصادفة سعيدة، وفقًا لتقدير البارونة، أن تنسكب محبرة على كتاب الجبر؛ فانتابت إميلي سورة مسعورة من السخط ابتهج لها الصحب جميعًا.

أما وقد جرى إحضارهما لإشاعة جو من البهجة، رأى الجميع أنهما منغلقان على نفسيهما؛ فالنهار طويل جدًا، وهما لا يظهران إلا في المساء. وكتبت البارونة تقول عنهما: «إنهما لا يرغبان في اللعب ولا في النزهات. فهما لا يشكلان وزنًا في المجتمع؛ إذ إن درجاتهما العلمية المكتوبة لا تقدم أي نفع».

أما على العشاء، فكان فولتير يسدد في ساعة واحدة قيمة استضافته أضعافًا مضاعفة. ولدى التسلية بأداء بورسوفل، كان فولتير يُبهج الجميع بشكل عجيب. حتى إميلي كانت ممتازة في دورها، بل غنت حتى انتشى السامعون طربًا. لكن الاعتراف بها يتطلب أن يكون التمثيل حقيقيًا! ولم يتأخر النقد في الظهور: لقد مثلت إميلي دور الآنسة دو لا كوشونيير وهي ترتدي فستانًا تزينه آلاف اللآلئ، بعضها حقيقي وبعضها مزيف، لكنها تبرق كيفما اتجهت وبطريقة فريدة. وغضب فولتير كي تجهد فتشبه الآنسة دو لا كوشونيير بعض الشيء من ناحية الزي في الأقل. لكن علم الجبر أرغم الشاعر على السكوت، «فهي السيدة وهو العبد»، وفقًا لما خلصت إليه البارونة. وهي وعدت بتزويدنا أيضًا بألف سمة من سلوكهما الهزلي الذي يتثرانه من حولهما من غير أن يدريا. وحسبنا نحن ما ورد. ويبقى أن الثنائي الغريب الأطوار انسحب من صحبة المضيفين في قصر آنيه.

إنهما لا يثبتان في مكان: قاما بجمع حوائجهما وأوراقهما على جناح السرعة، وهرعا نحو ريشوليو الذي كان عازمًا على السفر إلى جنوة، ويرغب في

لقاء فولتير قبل سفره. ولا يمكنهما أن يرفضا له طلبًا فأسرعا إلى لقائه، ومعهما طن من الحقائب. وبعد ذلك بيومين، تلقت البارونة الطيبة رسالة كئيبة من فولتير: لقد أضاع، وهو في عجلة من أمره عند السفر، مخطوط بورسوفل. فينبغي العثور عليه بأي ثمن، وإرساله إليه، لكن ليس من طريق البريد، لأن لصوص المخطوطات سوف يسرقونه لبيعه من الناشرين اللصوص. أما عن الأدوار التي قام كل واحد بنسخها، فهو يوصيها بكثير من التشدد: «ينبغي الإقفال عليها بمئة قفل». وتقول الثرثارة العذبة: «كنت أظن أن مزلاجًا فقط كفيل بحفظ ذلك الكنز».

الخطورة في التلفظ بكلمة نصاب وفي كتابة كلمة غزو

في 14 تشرين الأول/ أكتوبر 1747، كان الصديقان مجددًا في باحة قصر فونتينبلو. ونحن نعرف أن إميلي التي كانت تقتر في استهلاك خدمها من الخبز والملح، كانت مقامرة من الطراز الأول، ومنكودة الحظ طبعًا. أما وأنها كانت ذات مساء على مائدة قمار الملكة، فقد بدأت تخسر خسارة مروعة. ورأت اللويسات[49] الأربعمئة، وهي تتبخّر من أمامها في طرفة عين. وهي لم تجمع ذلك المبلغ إلا بشق النفس. كان فولتير يراقبها فتغيظه خسائرها، ذلك أنه يزدري إضاعة الوقت، وخسارة المال، على ذلك النحو ودونما طائل، إلا أنه أقرضها مئتي لويسة كانت في جيبه، لكنها تبددت فورًا. وحاول إبداء بعض الملاحظات، لكن مصيرها كان مصيرَ تلك التي تجرأ فأبداها عن ثوبها المسرحي، فَرُدتْ إليه بعنف. فاستسلم للأمر الواقع وطلب من أحد الخدم أن يأتيه بمئتي لويسة أخرى من رجل أعمال كان أقرضه إياها بفائدة باهظة جدًا. وكانت هنالك الآنسة دو تيل التي تجيد توجيه المبعوثين إلى البابا على أحسن وجه، والتي قبلت عن طيب خاطر بإقراضها مئة وثمانين لويسة. فألقت بها عالمة الجبر الرائعة على مائدة القمار، وبدلًا من أن تراها تتضاعف، رأتها وهي تتوارى حتى آخر لويسة. وتوسل إليها فولتير كي تنسحب، فزجرته مجددًا، وواصلت المقامرة مراهنة على قولها. وحينذاك بدأت الكارثة! خسرت على ذلك النحو أربعة وثمانين ألف ليرة، مضافًا إليها مبلغ تسعمئة لويسة، أي ما يساوي مجموعه مئة وثلاثة آلاف ليرة. وواقع

(49) ظل ملوك فرنسا يحملون اسم «لويس» حتى الملك الثامن عشر. والليرات الذهبية - «اللويسات» - مدموغة بصورهم وأسمائهم. (المترجم)

الحال أن السيد دو شاتليه لم يكن غنيًا جدًا، كما نعلم. وتابع فولتير المقامرة بالسخط الأخرس وبُعد النظر لشخص توقع كل شيء ولبث عاجزًا. ولقد رآها تهرع نحو الخسران كالحمقاء. ولدى الضربة الأخيرة لم يقوَ على تمالك نفسه، فقال بالإنكليزية وبصوت راوَحَ بين المسموع والخافت: «ولكن ألا ترين أنك تقامرين مع لصوص؟». كانوا في منتهى الندرة أولئك الذين يتكلمون الإنكليزية في ذلك العهد، لكن لا ريب في أن أحدهم فهم لأن فولتير لاحظ بفزع أن وشوشات بدأت تدور من حولهما، وأنه يجري تداول الكلمة المنكرة التي تفوه بها. كان من الخطورة بمكان استخدام تلك الكلمة في مقامرة الملكة. فهنالك أمراء أصيلون، وأرفع سيدات المملكة مقامًا. وكان عليه أن يتوارى بأسرع وقت ممكن قبل أن تتخَذ بحقه أي إجراءات قمعية؛ فهو ارتكب جريمة مسٍ بالذات الملكية؛ فهل كان على خطأ؟ كلا بالتأكيد. لكن من نقائص البلاط، أن:

«على المرء أن يتكلم من بعد
أو أن يلتزم جانب الصمت».

كتب دوق لوين في مذكراته: «إنهم ما زالوا يمارسون كثيرًا من السرقة في فرساي...» وعدّد الوقائع... وتروي السيدة دو ديفان أن سيدة من النبلاء باغتَها خادمٌ في إحدى الأمسيات، وهي تحاول مع عشيقها فتح خزانة أوراق مالية. اعتذرا لدى سيد القصر زاعمَيْن أن ذلك على سبيل الفكاهة! وهي الأميرة دو مـ... وجرت في قصر فرساي أيضًا، سرقة لفافة من اللويسات من على مائدة قمار. وجرى في مرة أخرى استبدال لويسات حقيقية بأخرى مزيفة. فالدوقات يمارسن الغش، ولا ريب في أن أزواجهن من النبلاء يفعلون ذلك أيضًا. فذلكم ما كان ينبغي تحاشي الكلام فيه، حتى بالإنكليزية.

ولى الاثنان الأدبار في إحدى عربات البريد، وهي أول عربة وقعا عليها. أما وأنها كانت مخلعة، فإنها تحطمت بهما في إيسون. ولم يكن لديهما فلس واحد لتسديد قيمة إصلاحها لصانع العربات الذي أبقى عليهما رهينتين. ومر مسافر من هنالك فعرفهما، فسدد الأجر بدلًا منهما، ولولا ذلك لمكثا حيث هما، ما لم يلحق بهما رجال الحرس لجلبهما.

كان فولتير يشعر بخوف رهيب - وإنه لعلى صواب - من انتقام أولئك

الأسياد الكبار المقيمين في البلاط. ففارس اسمه دو روهان، يُعتبر كافيًا طول الحياة! وظن أنه يستطيع العثور على ملجأ في سو، عند دوقة مين، لكن لا يسعه الدخول هكذا، من غير إذن وفي وضح النهار. فاختبأ في مزرعة وبعث ببطاقة إلى الدوقة مع عامل مياوم ما لبث أن عاد بالجواب: إنها دعوة وعلى الرحب والسعة!

دخل إلى سو مع انتصاف الليل. وكان ينتظره عند البوابة المعدنية سيد اسمه دوبليسي كان مثّل في مسرحية بورسوفل، فكان صلة وصل. واقتيد في عتمة الليل نحو باب سري للقصر، حيث قاده سلم خفي يمر تحت السقائف، إلى شقة صغيرة ليس من يعلم بوجودها. ولسوف يمكث هنالك، وسط سرية مطلقة، مدةً تتجاوز الشهرين.

كانت فترة استجمامه اليومية تبدأ حوالى الساعة الثانية بعد منتصف الليل، فينزل كما الشبح إلى غرفة الدوقة ذات العقل المرهف. ويكون الجميع نيامًا باستثناء خادم مطلع على السر، كان يبسط مائدة في نادي الأميرة. وكان فولتير يجلس إلى تلك المائدة مرتديًا مبذله وعلى رأسه طاقية نومه، فيتناول عشاءه من أشهى الأطعمة التي تقدم، كما على مائدة الملك. فيأكل من ذلك المن السماوي وهو يحادث الدوقة، المتكئة وهي بملابسها المخرمة، بكلام هو الأكثر تألقًا في العالم. فكانت في جو من النشوة، وهو أيضًا. وكانت عزلته تجعل تلك الساعة من البوح ثمينة أكثر، فيشعر بأنه محبوب جدًا، ويفهمونه على الوجه الأكمل. فكان يضيء أنوار فكره كلها أمام تلك المستمعة الفريدة - ويا لفرادتها! - أمام إحدى النساء الأكثر نشاطًا، والأكثر ثقافة، وذات الذكاء الذي يقارب ذكاء فولتير، والتي تتمتع بذوق معصوم من الخطأ. فيا له من لقاء! إنها صاحبة سمو ملكي، وأميرة في الفكر، تحلق مخطوفة بالروح، وهي تحت أجمل سقائف في فرنسا من بعد سقائف فرساي، وأمامها الرجل الأكثر ذكاء في عصر كان الأكثر ذكاء في تاريخ البشر. إنه عرض بلا مثيل، يجري في ضوء شمعة. لكن هل ندري ماذا كان يضيء ذلك اللهب المرتعش، وما الأوراق التي كان يقرأها للدوقة؟ ذلك أنه كان يقرأ ليلًا ما كتب في النهار، من أجلها، ردًا لفضل استقبالها إياه وحمايتها له. كان يكتب قصصًا خفيفة جدًا، بريشة لا تكاد تلامس الورق: هي نسمة روح، ولمسة إحساس، وظل من الأخلاق، وحبة من تبحر في العلوم تحت طلاء تاريخ موشى وشفاف.

وتلكم هي حكايات تُدعى بابوك وممنون والساذج وميكروميغاس وزاديغ. وهي هنا دائمة أبدًا في حين أنها مكتوبة أصلًا بفعل خيال صنعها، لتروق ذات مساء وساعةً واحدة، دوقةً شبه قزمة، ذات فكر فوار، كان بودها أن تغفو فحسب برفقة بسمة لا مثيل لها بين لوحات الفنان لا تور.

كان لونشان يشاطره حياته في الأسر، فيعيد نسخ ما يكتب فولتير. وكان إلى جانبهما صبي من سافوا في الثانية عشرة من عمره، يقوم بالمشتريات. وذات يوم لم يستطع فولتير أن يُدخل قدمه في فردة حذائه، فأرسلوا بالفردة إلى إسكافي. فماذا اكتشف هذا الأخير؟ هنالك صرة من الليرات الذهبية في طرف الحذاء! وكان أن انخرط الصبي بالبكاء، فهو ظن أنهم رغبوا في وضع أمانته على المحك. فأخذ ينوح، وعاد باكيًا وهو يرتجف لأنه خشي من أن تضيع الصرة الثمينة في الثلج. وحين وصل سرد كل شيء. وكان الضحك، ثم طمأنوه و... كافأوه. فكيف أضاع فولتير لويساته؟ أفرغ جيوبه ورمى بمحتوياتها في خزانة جدارية، دونما تدقيق. فسقطت الصرة في فردة الحذاء فاستقرت فيها وغطى عليها النسيان. فهل ذلك تصرف رجل رغبوا في أن يصوروه لنا بخيلًا وشحيحًا مثل هارباغون[50]؟ إن أمثال هارباغون يكدسون لويساتهم باغتباط، فلا يلقون بها في أسفل خزانة جدارية، وإذا ما أضاعوها - بل إذا ما أضاعوا درهمًا واحدًا - فسوف نسمع صرخاتهم، وهم يبحثون ويفتشون صارخين: «أمسكوا باللص! أمسكوا باللص!...». وقد نأخذ فولتير أحيانًا بجرم الشح المشهود، فلا نغمض عيوننا دونه (سيكون انتقاصًا منه أن نكون قصيري النظر، حتى حيال عيوبه). وله في ذلك الميدان أسبابه التي ليست راقية على الدوام، لكن تلك الأسباب تنسجم غالبًا مع الحق، وابن أرويه يعرف ذلك الحق بعمق، ولا سيما حين يرتاب في أن خصومه يريدون استخدامه للإضرار به. أما أن نرسم صورة كاريكاتورية لفولتير تظهره جامع دراهم، فذلك يجعل منه عبثًا على طريقة دوميه، في حين أن لارجيلير هو الذي رسم لنا صورته.

في شباط/ فبراير 1748 زال الخطر؛ إذ قامت السيدة دو شاتليه بالوساطة في فرساي وفي باريس، فجرت تسوية كل شيء. ودخلت الـ «كلمة» حيز النسيان،

(50) بطل البخيل، أشهر مسرحية لموليير. (المترجم)

فصار في وسع فولتير أن يظهر إلى العلن. لكنه بدأ قبل الظهور أمام المجتمع الباريسي، بالظهور على خشبة مسرح قصر سو. وإنها لطريقة فولتيرية جدًا باستئناف الصلة بالحياة: المكر، والتظاهر بغير ما يُضمِر. وقدم بالتعاون مع إميلي والفيكونت دو شابو والمركيز دو كورتانفو الذي كان يجيد الرقص حتى الكمال، مسرحيتين كوميديتين: *La Prude* و*Les Originaux*. أما بين راقصات التسلية الصغيرات، فهنالك بُنَيَة نالت إعجاب الجميع، واسمها غيمار. ولسوف تصير غيمار الشهيرة، وهي أروع راقصة في ذلك العصر.

جرت واقعة منغصة بينه وبين صديقته الدوقة. ولم تكن هي المخطئة، فهي مقيمة في قصرها وتكره الزحام والغوغاء. والحال أن السيد فولتير الذي أرهقته ثلاثة شهور من العزلة أحب الظهور أمام أعين أوسع جمهور ممكن. فسمح لنفسه بمضاعفة عدد بطاقات الدعوة. فيا للوقاحة! ودُهِشت الدوقة حيال ذلك التدفق للمدعوين، فتشكت من ذلك. فماذا فعل على سبيل الاعتذار؟ قدم عرضًا ثانيًا وهو يُقسم أنه سوف يقتصر على الأصدقاء المقربين. كان هنالك أناس أكثر من المرة الأولى، وليسوا جميعًا من السوية العالية. ولم يعبأ كثيرًا بإرسال البطاقة الآتية: «الدخول حر لمن يشاء دون أي قيد. ينبغي الحضور في السادسة تحديدًا، وإعطاء الأمر بأن تكون عربة الانتظار في الباحة ما بين السابعة والنصف والثامنة. هذا، والباب بعد الساعة السادسة، لن يُفتَح لأحد».

جرى إخفاء تلك البطاقات عن عيني الدوقة، لكنها رأتها في ما بعد، فقضت بأنها «غير لائقة بها»، فلا يسعنا سوى إبداء إعجابنا بصبرها. وهكذا يأذن فولتير لنفسه بتصرفات غير مقبولة حيال أشخاص يصفحون قليلًا، في حين أنهم، بطبيعتهم، غير ميالين للكثير من الصفح. وهو يعرف ذلك، فقد سبب لها المتاعب، وظل على رأيه. وليس لنا أن نذهب بعيدًا لنبحث عن الأسباب التي جعلت تعامل الملك معه باردًا، وكذلك بلاط فرساي. أما عن دوقة مين، فإن «بطاقات الدعوة» تلك ظلت عبئًا ثقيلًا على صدرها، فما عاد بينها وبين فولتير تلك الألفة الحميمة السابقة، لكن ذلك لم يكن سببًا دعاها، كما قالت ألسنة شريرة، إلى طرد فولتير من بلاط قصرها في سو.

لقد أعجبت الدوقة بقصة زاديغ، إضافة إلى الذين قرأوا المخطوطة، إعجابًا فائقًا، حتى إنهم وعدوا فولتير بنشرها. وأعطى البداية لصاحب مطبعة في باريس، وقال له إنه في صدد إعداد الخاتمة. ثم أعطى الخاتمة لصاحب مطبعة في روان وقال له أن يعيد النظر في البداية. ثم استلم القسمين فضم مثتين منهما معًا، وأرسلها إلى دوقة مين التي تولت توزيعها. فكان من شأن ذلك أن جعلها تنسى تقريبًا صدمة بطاقات الدعوة: «الدخول حر لمن يشاء...».

لكن ينبغي للمرء أن يرى سخط الناشرَين حين بدأ تداول العمل، وكل واحد يعتبره من إصدار داره. فكان أن دفع فولتير بسخاء لكل منهما، وسمح لهما من بعد بطباعة البداية والنهاية معًا. ألم ينتهِ بذلك إلى حيث كان ينبغي له أن يبدأ؟

وقدموا في البلاط مسرحيته *Enfant prodigue* (**الولد الضال**) للملك وحده، ولحاشيته. وأدى كل من دوق شارتر ونيفرنيه وغونتو والسيدة دو بومبادور أدوارهم أداءً رائعًا. ولم يجرِ توجيه دعوة إلى فولتير، لكن المركيزة أحاطته علمًا بأنها حصلت من الملك على موافقته للمستقبل على دعوة المؤلفين الذين يجري عرض مسرحياتهم «في الحجرات المغلقة». فوجه إليها فولتير هذه القصيدة العاطفية:

«بومبادور، أنت تجملين
البلاط والبرناس وكيتيرا[51] (Cithère)
أنت سحر القلوب كلها، وكنزٌ لواحدٍ من البشر
فليكن هذا الطالع الجميل مؤبدًا!
ليرجع سلام حقولنا مع لويس
كوني وإياه بلا أعداء
وحافظي وإياه على غزواتكما.

إن هذه القصيدة اللطيفة جعلت بعض من في البلاط يجد سجعًا بالفرنسية، بين كلمتي: غزوات (conquêtes) (بالمعنى الغرامي) وعواصف (tempêtes)، ما أدى

---

(51) من جبال اليونان، حيث تقيم الآلهة وربات الجمال والفنون. (المترجم)

إلى إثارة العواصف. فحزب الملكة رأى من غير اللائق أن يتجاسر فولتير، فيقرن غزوات الملك بغزوات بومبادور.

يبدو أن الكشف عن ذلك السر المفضوح شكل عارًا، وأن كشفَ فولتير عن التصرفات الملكية المخزية اعتُبرَ مسًا بالذات الملكية. وكان مقدرًا للضجة أن تخفت سريعًا، لولا أن الشكوى انتقلت إلى الملكة وبعض الحسناوات القديمات من محيطها. لكن هنالك أيضًا بنات الملك، الساخطات أشد السخط على المحظية، وعلى فولتير. والحال أن الملك كان يهيم حبًا ببناته اللواتي يبادلنه حبًا بحب. وبعد تكرار ملاطفاتهن، حصلن من أبيهن على وعد باستبعاد فولتير من البلاط. فنجحن في النيل من السيدة دو بومبادور في شخص شاعرها المفضل. ونُمي إلى علمنا، من ناحية أخرى، أن ولي العهد وولية العهد كانا، في محيطهما الخاص، يطلقان على السيدة دو بومبادور اسم «ماما العاهـ...». وقد تكون الكذبة كبيرة جدًا، لكن ستحملها.

ما حقيقة ما جرى؟ غمغم البلاط بشكل خافت، تذمرًا من فولتير. أما في باريس، فجعلوا من تلك الغمغمة، وعلى نحو ما جرت به العادة، ضجيجًا مدويًا. قيل إن فولتير نُفي، وليس هنالك ما يسمح بإثبات ذلك، لكن الشاعر الذي أحيط علمًا بالأمر، آثر مرة أخرى أن يركب البحر، أي إنه سلك درب سيري. ولم تفعل السيدة دو بومبادور شيئًا لثنيه عن عزمه. ولا ريب في أن رحيله أراحها؛ ذلك أن قصائد فولتير الرقيقة وغزلياته أضحت مثيرة للشبهات. لقد خسرت إحدى الجولات، وشعرت بمرارة الهزيمة. لكن الأمور في فرساي تسير كلها همسًا. أما في باريس، وحدها، فالاغتياب قائم على قدم وساق.

كتب فولتير إلى دارجنتال، والى الرئيس هينو، ليضعا النقاط على الحروف، وليقوما خصوصًا، بالإيضاح لمن حولهما بأن كل ما في تلك الشائعات خاطئ من أساسه: «لا يسعني إذًا، يا أحبائي، أن أغادر باريس إلا منفيًا!». صحيح، إنها رحلة استجمام (مع أنها جرت على عجل). وتلا ذلك إطراء للأسرة المالكة على سبيل الخداع. ولم يذكر غزلية المركيزة بكلمة واحدة. ونفى عن نفسه تهمة الكتابة إلى السيدة ولية العهد. لكن من الذي اتهمه بالكتابة إلى ولية العهد؟ هو نفسه. إنه يسعى إلى فتح طريق مغلوط، تفاديًا للكلام عما هو قائم. كان في العشرين من عمره يتصرف على هذا النحو، وهو الآن في الرابعة والخمسين! فحين اتهموه

بكتابة البويرو رينيانتي (*Puero Regnante*)، دافع عن نفسه قائلًا إنه لا علاقة له بقصائد «لقد رأيت». أما الآن فهو على الدروب: إنه هارب، وذلك ما لا ريب فيه.

ضاع بلاط، فحلّ بلاط آخر محله

يا لها من رحلة لبلوغ سيري في الشتاء! أما إميلي الغريبة الأطوار على الدوام، فلا ترغب في السفر إلا ليلًا. كانت عربتهما كالعادة مثقلة بأحمال زائدة، والبرد رهيب، أما الثلج المتجمد على الطرقات، فيُخفي الأماكن الموحلة. كان العاشقان في العربة الضخمة يتدثران بفرائهما، وهما مسحوقان بين الحقائب الكبيرة والرزم التي تنقلب فوقهما لدى كل عثرة؛ إذ جرى تكديس ذلك كله على جناح السرعة. فعلى الرغم من سعة عيشهما، كانا يسافران في أقل الوسائل راحة. وعلى بضع فراسخ من نانجي انكسر محور العربة. وتهاوت العربة الضخمة على نفسها بعنف، وزحفت على الدرب الحجرية، ومالت، ثم مالت، وكادت تنقلب، لكنها رقدت من غير انقلاب، وسط صرخات العويل الجنوني الصادرة عن الشاعر والفيزيائية. لكن صراخه هو كان الأشد. إنه محصور بين صندوقين من الكتب، ويكاد يختنق، بل يموت! وكانت المركيزة منقلبة فوقه لكنها ما زالت تستنشق الهواء الحر، وكانت الخادمة فوقهما معًا. واستخرجوهم من هنالك. إنه حي ما دام يجأر بالصراخ. وما إن وقف على قدميه حتى استعاد توازنه ورباطة جأشه. وأرسل إلى القرية لاستدعاء عمال. وبانتظار وصولهم، استقر فولتير وإميلي على حافة الخندق حيث فرشا مقاعد العربة، فوق الثلج مباشرة. وجلسا بشكل طبيعي جدًا، يتأملان السماء المتلألئة بالنجوم والصقيع. وكان نيوتن معهما، وداخلهما. فانطلق الثلاثة معًا إلى الأفضية اللامتناهية. واستسلما لنشوتهما التي هي نصف شاعرية ونصف فلكية. فهما في الاسترخاء نفسه كما في مكتبهما في سيري. وإنهما ليتجمدان بردًا، وينتشيان بذلك الحقل العجيب من الاستكشاف الواسع الذي أعدته لهما سماء الشتاء. إنهما يهذيان هذيانًا علميًا. ولنعترف لهما بأنهما يبلغان الذروة في فن رداءة السفر وحسن الاستمتاع به.

كان كل منهما يهتف قائلًا: «ألا ليتنا جئنا بالمنظار المقرب (التلسكوب)!». بلى، لقد كانا في حاجة إليه للبحث عن حوائجهما المبعثرة ليلًا فوق الثلج، لكنهما لا يريان شيئًا من ذلك. إن كلًا منهما يمسك بيد الآخر وعيونهما شاخصة إلى النجوم فيما هما يتكلمان... ويتكلمان... ويتكلمان معًا من غير أن يصغي أحدهما

إلى الآخر. وما همهما ما داما يعبران عن الأفكار المسكرة نفسها، وذلك تحديدًا هو جوهر حبهما.

تمكن أربعة فلاحين، مستعينين بالحبال، من وضع العربة فوق عجلاتها. وكان الإصلاح عابرًا. لكن الرجال الأربعة الذين أُخرجوا من فراشهم في تلك الليلة السيبيرية توقعوا مكافأة مجزية. ومنحت إميلي التي عادت من النجوم، اثنتي عشرة ليرة وهي تتندم. فأخذها العمال، وابتعدوا وهم يغمغمون. وتركوهم وشأنهم، وصعد الجميع إلى العربة ولعلع سوط الحوذي. وكان الانطلاق مجددًا. ولم تدُر العجلات عشر دورات حتى انكسر المحور مجددًا: فعلا الصراخ وطَلَبُ النجدة. لكن لا وجود للأجلاف! وعلتِ الأصوات بالرجاء، ثم ارتفعت بالتوسل، لكن ما من مجيب. وهنا استل فولتير صرة نقوده: فبرق الذهب تحت الضوء الشاحب للنجوم. ومن هنا تحديدًا كان له أن يبدأ. وعاد الأجلاف للظهور، وتمكنوا في نهاية المطاف من الوصول إلى نانجي حيث تركوا العربة. والتمس المسافران الاستضافة في قصر مجاور، فالتهبت لتدفئتهما نار عظيمة، فأكلا وشربا حتى بزوغ الفجر، ثم أويا إلى فراشين كبيرين من الريش، ولبثا هنالك يومين بانتظار إصلاح العربة، ثم تابعا سفرهما كيفما اتفق لحين الوصول إلى سيري من دون متاعب أخرى.

دامت الإقامة هنالك أربعة أشهر. وفور ظهورهما نشأ المجتمع المألوف من السيدة شامبونان والجوار. فالحقائب لما تفتح حين نُصِبت منصات المسرح. وعلى الفور جرى عرض المسرحية الكوميدية، فظلوا يقدمون بورسوفل حتى انقطعت أنفاسهم.

قاما خلال ذلك الشتاء نفسه، أي في شباط/ فبراير 1748، بهروب موقت إلى بلاط الملك ستانيسلاس في لونيفيل. كان ستانيسلاس ملكًا صالحًا ورجلًا صالحًا، وانتهى الأمر بأهل اللورين الذين قاطعوه في البداية، إلى التعلق به، مثلما أحبهم ستانيسلاس من ناحيته، فظل عهده من أفضل العهود في تاريخ اللورين. كان ملكًا من غير أن يملك. وكان السيد دو لا غاليزيير، معتمدًا فرنسيًا عينته فرساي ليهتم بشؤون الحكومة. فلم يكن ستانيسلاس ينازعه شؤون السلطة، ولم يكن يحتفظ لنفسه إلا بحق فعل الخير. فكان بلاطه رائعًا، والناس يعيشون في ألفة، وكلهم متعارفون. وكان الجميع على جانب من التهذيب واللطافة، من

غير العجرفة السائدة في فرساي. إنه بلاط مصغر، مثل البلاطات الأخرى التي تقلد فرساي في أناقتها، لكنها ترفض نظامها وفسادها. كان ذلك البلاط في لونيفيل شبيهًا بالبلاطات الألمانية التي أحبها فولتير كثيرًا. وكان حول الملك ستانيسلاس الأدوار اللازمة كافة لأوبرا كوميدية جميلة جدًا. فهنالك أولًا عشيقة من أجمل نساء أوروبا، ولم تُلحق شهرتها أي ضير بعذوبتها وذكائها. إنها المركيزة دو بوفليه، من عائلة أمراء بوفو، وهي العائلة النبيلة الأولى في اللورين. وفي المقابل، كان لدى ستانيسلاس كاهن، ومعلم اعتراف يسوعي، هو الأب مينو الذي كان كئيبًا بعض الشيء، في حين كانت المركيزة في منتهى التألق. ولسوف نرى فولتير، وبحسب مقتضى الحال، يدس الدسائس لمناكدة الأب مينو أو لإبهاجه. وقد قال عنه شاعرنا الذي يعرف خيرًا من الجميع أمور المناورة والجرأة: «إنه الكاهن الأكثر مناورة، والأكثر جسارة، من بين جميع من عرفت على الإطلاق». ويضيف إن قلب الملك كان مقسمًا بين هذين الكائنين، وإن اليسوعي كان مكلِفًا أكثر من المحظية. لقد استطاع أن يحصل من الملك على أكثر من مليون، فبنى بها دارًا باذخة لأعضاء سلكه، واحتفظ باثني عشر ألفًا منها لشؤون مائدته! (عشرة آلاف ليرة لمائدة معلم الاعتراف لديه!) إضافةً إلى مبلغ مماثل يستطيع التصرف به على هواه.

أما إذا نظرنا إلى المحظية – كما يقول فولتير – فهي لا تتلقى من الملك «إلا ما يكفي لشراء تنوراتها ضمن الحد الأدنى»، لكن لا ريب في أنها كانت تنورات من نوعية مدهشة جدًا.

لا ريب في أن معلم الاعتراف كان يشعر بالغيرة من المحظية. كان يسعى لطردها من الحيز الذي احتلته في قلب ستانيسلاس، ويساوي نصف قلبه. فكانت الحرب بينهما معلنة، ولدى خروج الملك الصالح من القداس «كان يلاقي عناء حقيقيًا في إعادة عشيقته ومعلم اعترافه من المكان الذي يتجه كل منهما إليه».

وكان لدى الملك ستانيسلاس أيضًا قزم مفرط في الصغر، حتى إنهم كانوا يضعونه أحيانًا وسط كمية من الخبز على المائدة، ولدى البدء بتوزيع الخبز يتحرر الشخص الضئيل، فيشرع يهرول بين الكؤوس والأطباق. وكان يسعه أن يقول كل شيء. ويكون مزاجه في بعض الأحيان سيئًا. أما صرخاته وشتائمه، فهي مصدر بهجة عارمة في البلاط. فقدوه ذات يوم وسط المرج؛ لأن العشب كان بالنسبة

إليه كما الغابة. وكان الحديث يدور حول القزم حتى في فرساي، فتبدي السيدة دو بومبادور دهشتها من أنه لم يقوَ قط على أن يتعلم مبادئ الدين المسيحي، وأنهم لم يستطيعوا البتة أن يجعلوه يسمع بوجود الله. كان القزم المسكين في حاجة إلى كثير من النعم، في ذلك الوسط، ليرتقي وحده إلى تلك الفكرة! وكان اسمه بيبي (الرضيع). ذلكم هو بلاط ستانيسلاس. وذلك كله سماحة وتساهل.

لم يسافر فولتير وإميلي إلى لونيفيل من أجل بيبي (Bébé)، فذلك النوع من التسليات ما كان يروقهما البتة. كانت السيدة دو شاتليه تأمل في الحصول من الملك على مرتب من أجل.

«زوجها المقدم الذي

لم يكن هنالك قط»،

وفقًا لقول ب. ج. توليه.

ينتمي المركيز إلى واحدة من أقدم العائلات في البلاد، وأقلها ثروة. فاللورين تدين له بمعاش. وكانت إميلي تعلم أن ستانيسلاس سوف يُحسِن استقبالها، لأنه على علم بالحياة السحرية التي يعيشانها في سيري. ورغب ذلك الملك الصالح في أن يجتذب الشاعر والمركيزة إلى بلاطه، فهما من رعاياه، ويدينان له بضريبة فكرية محببة. ولئن لم يكن ستانيسلاس متطلبًا جدًا، فإنه لم يكن دائمًا على استعداد لأن يتسلى بقزمه وبالمناكدات الرتيبة لمعلم اعترافه وعشيقته. أما بوجود فولتير، فالأشياء سوف تتغير. كان الشاعر مقتنعًا بأن ستانيسلاس ينتظره بصبر نافد، لكن لسبب مغاير تمامًا. وذلك تخيل خالص من جانبه، لكنه يقدم لنا صورة عن بطلنا. فيروي فولتير، مقتنعًا، بأن الأب مينو الذي كان يسعى للتخلص من السيدة دو بوفليه (عشيقة الملك)، فكر في جعل السيدة دو شاتليه تحل محلها، وأنه اشتم تلك المكيدة فور وصولهما. لكن ذلك مستبعد؛ فالسيدة دو شاتليه لا تستوفي الشروط، بسبب طبعها المتسلط، وطموحاتها العلمية التي كانت تنفر ستانيسلاس، وبسبب سنها، وأخيرًا، وعلى وجه الخصوص، لأن الملك كان يمحض السيدة دو بوفليه حبًا رقيقًا جدًا. فلنقل إن مشروعًا مماثلًا ما كان ليخطر قط في بال الأب مينو ولا السيدة دو شاتليه ولا ستانيسلاس. لكن فولتير يجعل من ذلك يقينًا كي يسوّد صفحة معلم الاعتراف. أما هو فيظل خلي البال. وكان يتوقع

في لونيفيل مباهج كثيرة ترضي غروره، وربما منافع أخرى. فهو يعبّر أولًا عن رضاه بالدلال الذي أغدقه عليه الملك ستانيسلاس. أما وأن ابنة ستانيسلاس كانت على وشك أن تطرده من فرساي، فإنه استمتع بجعل الحساد يرون أن الملك يثبت بسلوكه أن اللغط بشأن فقدانه الحظوة في فرساي كان محض افتراء. ولنقل أيضًا إنه كان مفتونًا بمجتمع السيدة دو بوفليه، فهو معجب بها ويبجلها. وتهدهده فتنة تلك المرأة الرائعة التي لم تكن امرأة عِلم، فلقد لقبوها بـ «سيدة اللذة». وإن ذلك اللقب للمحظية خير من لقب الأستاذية. فالذوق الرفيع الذي يتجلى في حديثها ونظرتها إلى الأشياء وأناقتها، إنما هو ذوق فرساي. إضافةً إلى ذلك، كانت تتمتع، في نظر فولتير، بنوع من فضيلة خارقة؛ ذلك أنها كانت منفصلة، وبصورة طبيعية جدًا، عن كل فكرة تتعلق بالخطيئة، وعن كل عقيدة دينية، فكانت تخلق بالنسبة إلى محيطها جوًا من السعادة خاليًا من أي عتمة أو ندامة، وهو جو يَعُب فولتير من هوائه ملء صدره. لقد صاغت بنفسها هذه الشاهدة:

«هنا ترقد بكل سلام
سيدة النشوة،
التي جعلت، لمزيد من الأمان،
فردوسها في هذا العالم».

حين جاء صديقانا الشهيران لتكملة بلاط لونيفيل، طار الجميع اغتباطًا، باستثناء معلم الاعتراف. فهم سيعرفون أخيرًا حفلات عشاء تبعث على النشوة، ويشاهدون مسرحيات ومغامرات غرامية جديدة. ومنذ ساعة الوصول، أضحت إميلي والسيدة دو بوفليه صديقتين حميمتين. وأسرع فولتير نحو المسألة المستعجلة، أي نحو المسرح. ينبغي البدء بتجهيز المنصات وخشبة المسرح! وأعادوا عرض المسرحية التي حققت نجاحًا في سو. فرغب ستانيسلاس، وقد بهره العرض، في تقديمها مرتين من أجله هو. وجاء من بعد دور ميروب. فبكوا فيها مرارًا وتكرارًا حتى إن فولتير الذي ينبغي أن يكون قد سئم مسرحيته، أخذ يذرف الدموع. ولم يقع قط لمجتمع أسسه راسخة في رغد العيش أن استسلم على ذلك النحو لمتعة الدموع.

كان بين الجمهور أناسٌ لطفاء، بل وأناسٌ موهوبون. ولسوف يتقدم أحد

المشاهدين ليأخذ دور نجم تمثيل، فيتولى واحدًا من الأدوار الكبيرة الأولى؛ فهو وسيم وحسن الشكل، وعليه مسحة من التهذيب وشيء من البرود يسبغ عليه مسحة من الاتزان، ويجيد نظم الشعر، وفضلًا عن ذلك فهو فتي. اسمه المركيز دو سان لامبير، ويحمل رتبة رائد. والحق أن شعره خال من التشويق؛ ففي أبياته، وذلك أمر مؤسف، ارتفع العمق البارد ليطفو على السطح. بيد أنه يظن أن شعره عميق، لأنه يسبب السأم. وعلى الرغم من جانب الضعف الأدبي هذا، فسوف يجد هذا الشاعر نفسه، مرتين، يخالط أيام المآثر التي عرفها الأدب الفرنسي في القرن الثامن عشر؛ فهو حقق فوزين مؤزرين على أكبر كاتبين فرنسيين معاصرين، هما فولتير وجان جاك روسو. ولا يعود ذانك الفوزان إلى موهبته الأدبية، وإنما إلى مواهب أخرى. فهو سيتألق في المصاف الأول، باختطاف إميلي من فولتير، وفي المصاف الثاني سوف يأخذ - أو هو بالأحرى لن يدع - السيدة هودوتو لجان جاك الكئيب. تلك هي مآثر سان لامبير في مجال الأدب، فضلًا عن قصيدته «الفصول» التي نُحَيِيها من بعد.

أغار على السيدة دو بوفليه، منذ وصوله إلى لونيفيل. وكان الفوز في متناوله؛ فالمركيزة ليست تلك المرأة التي يمكن أن تحرم فارسًا متألقًا من نصر يمكنها أن تشارك في مباهجه كافة. لكن سان لامبير كان في الواقع ضابطًا لدى الملك ستانيسلاس الذي كان سيد المركيزة - ما دامت هي عشيقته - وأيضًا سيد العشيق المحتمل؛ فالأمر إذًا لم يتحقق، لأن منظورات ستانيسلاس تتعارض بأسرها مع منظورات المركيزة والضابط الوسيم، لكنه لم يشأ أن يرى في سان لامبير منافسًا له. وأما السيدة دو بوفليه التي كانت أقل الناس مشاكسة، فقد اعترفت، بكل طيب خاطر، بذلك الحق الملكي. وكانت تفضل أن ترفض منح الآتي الجديد مباهج لما يعرفها، على أن تحرم العشيق القديم والرائع من تلك المباهج التي كانت بالنسبة إليه حقًا وعادة. ولـنضِـف أن هنالك سببًا آخر، وملموسًا أكثر، وهو أن الملك ستانيسلاس كان يتقاسم المركيزة من قبل مع مستشاره، السيد دو لا غاليزيير. وذلك التقاسم كان مسألة مسلّم بها، على نحو ما تبين الواقعة الآتية: كانت المركيزة ذات مساء مخمورة قليلًا، ومتعبة بعض الشيء من إطراءات الملك العجوز وملاطفاته، وهي ملاطفة في منتهى الرقة من دون شك، لكنها أيضًا بلا جدوى، ما دعاها إلى أن تقول لعشيقها الذي أفل نجمه: «وهل هذا كل شيء،

يا حبيبي؟»، فما كان من الملك الطيب الذي لم تشفع له سلطته الملكية في ذلك الموقف، إلا أن أجاب: «كلا، يا سيدتي، ليس هذا كل شيء، ولسوف يتولى مستشاري قول الباقي لك». فقدّر أنه ينبغي التوقف هنالك، تاركًا للمستشار أمر الاستنتاج، لكن للمستشار فحسب. فعشيقان اثنان ليسا سوى عشيقين اثنين. أما إذا صاروا ثلاثة، فقد صاروا جوقة.

على ذلك النحو فإن سان لامبير، المرفوض، طرفت عينه صوب السيدة دو شاتليه. ولم يكن لعينه أن تطرف كثيرًا: فهي ألقت بنفسها بين ذراعيه. وكان الأمر شبه محتوم، فصبرها نَفِد. لم يكن فولتير في أفضل حالاته سوى «عاشق جليدي»؛ فالسن والمرض ونوع من البرود الناجم عن الشبع حتى الامتلاء، جعلت منه الآن عاشقًا من جليد. وليس من المحقق أن إميلي كانت تعاني اليأس والملل منذ أعوام؛ فواقع الحال أن طبيعتها لا تجعلها تعاني على ذلك النحو، لكن ربما تجد حالات السخط العنيف التي تتولاها والدموع وذلك الهوس المسعور في القمار، تفسيرًا لها في تلك الدراما الداخلية. ولا ريب في أن فولتير يحبها دومًا، وعلى نحو ما أحبها دائمًا، لكن الأمر ما عاد كذلك. فمنذ عام 1742 وفريدريك يسخر منه بعد أن أسرّ له فولتير - وكان خيرًا له لو أنه لاذ بالصمت - بأنه ما عاد بينه وبين إميلي سوى علاقات شعور وفكر. وقد يكون ذلك صحيحًا، لكن يسعنا أن نرتاب فيه (وفي أي حال، فلئن كان في عام 1742 باردًا مع إميلي، فهو لم يكن كذلك مع واحدة أخرى. ولسوف نتحدث عن تلك القابسة الأخرى غير المتوَقعة. ولو أن إميلي عرفت ما نعرف نحن، فيا للعاصفة التي كانت ستثور!). فمن المؤكد أنها كانت محرومة وكانت تكابد بفعل ذلك.

بذلت كثيرًا من المحاولات في سبيل «التقرب» من فولتير، لكن وجب صرف النظر عنها، فهي كانت مخيبة جدًا للآمال. ويعترف فولتير، في قصيدة تطفح بالرقة والكآبة، بأن هنالك طقوسًا ما عاد يمارسها، من بعد أن بلغ الرابعة والخمسين. فهو يعتذر عنها لإميلي، فيواسيها ويواسي نفسه. فالحب في جريه نحو النشوة، يفقد زخمه بغتة، فيسلم المشعل إلى الصداقة التي تواصل الدرب بخطًى متزنة، لأن المسألة ما عادت جريًا، بل نزهة. إنها رمزية الاستعفاء، فليس ما يفوقها إثارة للشجن والكآبة. وهاكم ما كتب من بعد التعطل:

«حينما عطفت الصداقة علي
فنزلت من السماء لنجدتي.
ربما كانت أكثر حنانًا
لكنها أقل توقدًا من عشقي.

أما وقد تأثرت بحسنها الجديد
وبضيائها المنير،
فقد تبعتُ خطاها. لكن بكيت
للعجز عن متابعة سواها».

لذلك كانت إميلي تبكي كثيرًا، وكانت تأمل بأن يقوم سان لامبير فيمسح دموعها. وتوشك المسرحية أن تنتهي، لكن وا أسفاه! ستنتهي بمأساة، أما وأن لفولتير كلمته في المسرحية، فهو لن يمتنع عن إدخال بعض صور الهروب حتى باب القبر.

ما كانت «لا مبالاة» فولتير، تلك، بسرّ؛ فالأب فوازنون كان يقول، وهو يفكر في موقف فولتير حيال السيدة دو شاتليه: «إنه نظم من القصائد ضد الدين أكثر مما صاغ من الغزليات إهداء لعشيقته».

بل يا له من جفاف، ذلك الذي يظهر حتى في كلماتها الغزلية المكتوبة! «ها هو اليوم الثاني والأربعون يمر من غير أن أنال منك شيئًا، فضاعفْ عدد الدقائق اثنين وأربعين مرة تحصلْ على حجم عذابي». وإذا كان ذلك الحساب الوعر هو كل ما ألهمها إياه نفاد صبرها، فذلك يعني أن قلبها تجمد. فيسعنا أن نقول: إميلي، يا لها من مسكينة! فما عاد لديها سوى حالات الوجد، أمام النجوم التي يزيدها الجليد ألقًا، لكنه وجدٌ جليدي أيضًا!

ظلت عاشقة كما في البداية. وعشقت بكل شوق واضطرام، أكثر كثيرًا مما كانت معشوقة. ومن بين كل اثنين، لا بد لواحد من أن يدفع أكثر من الآخر. وباحت بمكنونات صدرها لأصدقائها آل دارجنتال، والبوح يثير الشجن؛ لأنها صادقة

ومضطربة وهي تعترف قائلة: «إن لها روحًا من تلك الأرواح الرقيقة والثابتة التي لا تعرف تمويه عواطفها ولا تلطيفها، ولا تعرف الضعف ولا النفور، وتجيد بعنادها الصمود في وجه كل شيء، حتى اليقين بأنها ليست محبوبة البتة. لكني لبثت عشرة أعوام سعيدة بعشق ذاك الذي هيمن على روحي. أما حين خفف التقدم في السن من رغبته، إلى جانب الأمراض وربما الارتواء أيضًا، لبثتُ زمنًا طويلًا من دون أن ألحظ ذلك. لقد كنتُ عاشقة عن اثنين». ثم تضيف قائلة: «صحيح أني فقدت تلك الحال السعيدة، وإن ذلك لم يقع من غير أن يكلفني كثيرًا من الدموع». تلكم هي! لقد أوضحت كل شيء. ويوم وصولها إلى لونيفيل، كانت قد سئمت ذرف الدموع، فخرجت من حال الاستعفاء السعيدة تلك: إنها في حاجة إلى عشيق، وصادفت سان لامبير في دربها، فاتخذته.

لم يأتِ شهر أيار/ مايو من عام 1747، إلا وسان لامبير صار عشيقها. فإحدى رسائلها الغزلية تحيطنا بالأمر علمًا، وتخبرنا، في آن، بأنها هي التي اتخذت الخطوات التمهيدية كافة، ذلك أن سان لامبير الشديد الغرور سيصعر الخد اعتزازًا. أما إميلي تلك، فيا لها من مسكينة! قالت: «لا يسعني أن أندم على شيء، وما دمت تحبني، فأنا مدينة بذلك لنفسي. ولولا أني توجهت إليك بحديثي في بيت السيدة دو لا غاليزيير، لما أحببتني قط. ولست أدري إن كان علي أن أزهو بحب قوامُه أشياء ضئيلة جدًا».

ولسوف يحيطنا المستقبل علمًا بأن مخاوفها لم تكن واهية. أما الحب الذي منحته لعشيقها الشاب البالغ ثلاثين عامًا – في حين أنها بلغت الحادية والأربعين – فقوامه على وجه الخصوص ما تطلق عليه اسم «عنادها». فهل يكون هذا هو الضامن الأفضل لعاطفة متبادلة؟ لا يحول ذلك دون أن تكون البدايات صاخبة، أما في العمق فهي خالية من البهجة. ثم أضحت من فورها مستبدة: دَهَمها الخوف، فأرغمته على التخلي عن السفر. وعرضت عليه التضحية بكل شيء مقابل تضحية تامة، ولم يُخفِ عنها سان لامبير أنه لا يقبل إلا بتضحيات جزئية، وأنه لا يوافق إلا على السطحيات. ويسعها أن تقول مجددًا، وفقًا لصيغتها الشجية: «كنت عاشقة عن اثنين». وسان لامبير ليس فولتير، غير أنه في نهاية المطاف عشيق حقيقي، وهو عشيقها. وإنها لتحبه.

هما يتبادلان الرسائل الغرامية على الرغم من أنهما يتقابلان الآن يوميًا. فالرسائل تشكل جزءًا من العشق، وهي تؤجج جذوته. فكانت إميلي تخفي رسائلها في قيثارة السيدة دو بوفليه. وكان سان لامبير يتوجه بعد انصراف المدعوين إلى القيثارة ليعثر على رسالة ذلك اليوم: «أحبك حتى العبادة، ويبدو لي أننا حين نحب، لا نقع في أي خطأ».

نظّم فولتير وإميلي في فترة المرفع (الكرنفال)[52] احتفالًا في إثر احتفال، وأحبهما جميع من في البلاط حبًا جمًا، لأنهم لم يعرفوا لتلك الأشكال من المتعة البهيجة مثيلًا. أما وأنهما لم يتظاهرا في فترة الصوم بالالتزام بالشعائر الدينية، فإنهما تسببا بما يشبه الفضيحة. ولم يكن الآخرون خيرًا منهما فكرًا، لكنهم كانوا يحترمون التقاليد. أما الملك فكان حريصًا على أن يحتفل كل واحد بعيد الفصح، وأن يكون احتفاله على خير ما يرام. فلم يسمح لنفسه بإبداء أي ملاحظة، غير أننا نعلم أنهم قالوا في فرساي: إنه كان مستاء من موقف فولتير وإميلي.

التزمت إميلي، في شهر أيار/ مايو، بالسفر إلى سيري، فتركها فولتير تسافر، ثم لحق بها من بعد. ففي 15 أيار/ مايو، كان في فرساي. وأخذ سان لامبير ينوء تحت عبء رسائل إميلي، ليس من حيث عددها فحسب، بل بسبب لهجة الهذيان التي تسودها أيضًا. إنها في حقيقة الأمر مجنونة حبًا، ورسائلها مضطربة وغامضة. وتعقدت مشكلاتها الغرامية بفعل قضايا أخرى؛ فبدلًا من أن يمنح الملك ستانيسلاس المركيز دوشاتليه القيادة التي كانت إميلي تلتمسها، أعطاها لضابط آخر أصغر من المركيز سنًا. فشعرت بالغم، وأقسمت ألا تعود إلى لونيفيل من بعد. ولم يكن في وسع الملك الصالح أن يفعل سوى ذلك؛ فالمنافس ذو مناقب أكبر كثيرًا مما لدى السيد دو شاتليه. لكن ستانيسلاس الذي لم يكن يريد المشقة لأحد، أوجد منصبًا منح بموجبه السيد دو شاتليه جعالة بلغت ثلاثة آلاف إيكو.

---

(52) هي الفترة الممتدة بين الأسبوع الأول من السنة الجديدة، وبداية الصوم الكبير الذي يمتد خمسين يومًا حتى عيد الفصح. وعليه، فإن العيد الذي يقع في أواسط نيسان/ أبريل، في الأغلب، يجعل احتفالات المرفع تمتد حتى الأسبوع الثالث من شباط/ فبراير تقريبًا (عيد الفصح ليس ثابتًا في يوم محدد كباقي الأعياد الكنسية، لأنه يتبع حركة القمر بدءًا من الانقلاب الربيعي). وتتميز الاحتفالات بأشكال من اللهو، الصاخب أحيانًا، والاحتفالات التنكرية. وليس أدل عليها من كرنفالات ريو دي جانيرو في البرازيل، حتى اليوم. (المترجم)

ولم تكن تلك الحظوة بضئيلة. وتألقت إميلي فرحًا، لا بسبب الإيكوات الثلاثة آلاف فحسب، وإنما لأنها ستتمكن أيضًا من العودة إلى نانسي.

في باريس، حصر فولتير اهتمامه بـ سميراميس، وقد تجاوز الممثلون أنفسهم في أثناء التمرينات، فقال: «جعلوني أبكي، جعلوني أرتعش». لكن لم يكن للمسرحية التأثير نفسه فينا. ومن بعد سفره، أوكل إلى آل دارجنتال أمر رعاية «ابنته» سميراميس. «إن رعاية الأيتام لأمر رائع، ولولاكم لمات والد سميراميس خوفًا».

ووصل العاشقان المترابطان على الدوام إلى منطقة اللورين، وطيف سان لامبير بينهما، لكنه طيف خفيف الظل جدًا، فلم يساور فولتير أي ظن.

سميراميس هي فرن

في ذلك الصيف من عام 1748، كان ستانيسلاس يدير شؤون بلاطه في كومرسي، وقد أجرى عليه تحسينات رائعة. فتوجهت إميلي وفولتير إلى هناك لشكره على سخائه حيال المركيز دو شاتليه، لكن سفرهما لم ينته من غير وقوع حادث؛ إذ رغبت إميلي، وهما في شالون، في تناول حساء ساخن في نُزل لا كلوش. فطلبت أن يأتوها به إلى العربة. وما كان من صاحبة النزل التي عرفت هوية زبونتها إلا أن حملت إليها الحساء بنفسها في إناء من الفضة وطبق من البورسلان. ثم قالت صاحبة النزل الموقرة: «القيمة لويسة ذهبية!» فجاء رد المركيزة العالمة صرخة من أصيب بلسعة. إنها تعترض، لكن ما من سبيل آخر. فالأخرى كررت القول من دون القبول بإجراء أي تخفيض: «إنها لويسة ذهبية!». وتدخل فولتير في القضية، فقد كانت إميلي تصرخ وحدها حتى ذلك الحين، وضم فولتير صراخه إلى صراخها، فجاء صاحب النزل ليجأر بزعيق أشبه بزئير الوحوش. وتجمع الحشد الغاضب، معاديًا ركاب العربة ومساندًا صاحب النزل الغشاش. وشعر الجميع بهمهمة الغوغاء. فرمى لونشان بلويسة ذهبية وانطلقت العربة. وجاء ذلك في الوقت الملائم، لأن إميلي أوشكت أن تتعرض للعنف، فانطلقت مغمومة كمن أُدميَ فؤاده: لقد انتزعوا أحشاءها مع تلك اللويسة الذهبية. وليست المسألة سوى واقعة، لكنها تسمح بتقدير حجم متطلبات الشعب ومدى اعتباره...

في أثناء تلك الرحلة، ومن حين مغادرة باريس، كان فولتير ملفوفًا لفًا فعليًا بالأقمطة، لشدة معاناته من المرض. وفور وصوله إلى كومرسي، كتب إلى دارجنسون قائلًا إنه في النزع الأخير، ذلك النزع الذي بدأ من يوم ولادته، والذي أقل ما يقال فيه إنه كان ملحوظًا طوال أعوامه الأربعة والثمانين.

عاد فبُعِث، من أجل الأداء الكوميدي ونظم الشعر وكتابة رسالة إثر أخرى، وعمل على دعوة آل دارجنتال من طريق الملك ستانيسلاس. وكتبت السيدة دو شاتليه تقول: «إننا نعيش هنا خارج حدود الزمان، وصحيح أن أربعًا وعشرين ساعة ليست بفائضة على التدرب مرتين أو ثلاثًا على عمل للأوبرا، وعلى المقدار نفسه من العرض الكوميدي».

ولئن قمنا بحذف نصف البرنامج، فإنه يظل أيضًا مثقلًا.

وجهت ملكة فرنسا الدعوة إلى أبيها للقدوم إلى تريانون. وغادر ستانيسلاس كومرسي في منتصف شهر آب/أغسطس ليلتحق بابنته. وقرر فولتير اللحاق بالملك، فهو أيضًا سوف يرى ابنته سميراميس. لكن الشقية كانت تعيش حياة متعبة، بسبب ما لها من أعداء. هنالك أولًا كريبيون. وكان فولتير حين اختار موضوعه يعرف حق العلم أن كريبيون كتب مسرحية باسم سميراميس، فأراد أن يُظهر تفوقه على الغريم الذي يزدريه. لكن ذلك الغريم كان رقيبًا أيضًا! فيسعه أن يخنق سميراميس في مهدها. وكان فولتير يرتعد خوفًا عليها. فلم يحذف كريبيون سوى بضعة أبيات. لكن فولتير شعر بأنه تعرض لمعاملة سيئة. وكان على خطأ؛ فقد رغب الملك في دفع تكاليف ديكورات سميراميس؛ لأن فولتير أهداها إلى ولية العهد.

ففي عرض سميراميس الأول، وقف فولتير ليعارض علنًا وجود مشاهدين على خشبة المسرح. وكان أولئك المزعجون يسيئون إلى العرض، فطلب فولتير إلغاء ذلك الامتياز الذي لم يُلغَ إلا في عام 1759، بفضل الكونت دو لوراغيه. غضب فولتير في ذلك المساء لأنه دبر أمر ظهور شبح كان ينبغي أن يخرج على خشبة المسرح من قبر نينوس. وواقع الحال أنه كان هنالك من الحضور على خشبة المسرح ما عوّق الشبح عن شق طريق له بين أرجل أولئك المزعجين الممدودة على مداها. وشرع فولتير يصيح: «أيها السادة! أفسحوا مكانًا

للشبح، الرجاء أن تفسحوا المجال للشبح!»، ولم يكن ذلك التدخل جميلًا في العرض البتة. زد على ذلك أن القاعة كانت منقسمة، فهنالك جانب كان يحركه كريبيون وبيرون وأعداء فولتير على اختلافهم، والجانب الذي يقف في صف فولتير. وكان شاعرنا استراتيجيًا بارعًا في ذلك النوع من المعارك. فلديه أربعمئة مقعد، ولديه مصفقوه المأجورون الذين يتولون عند الضرورة توجيه اللكمات والضرب بالعصي. وإن من أشهر «الإرهابيين» في الصالة واحد اسمه لا مورلبير استطاع فولتير أن يستلحقه، فبلغ من تأثيره أن مسرحية مدانة من مورلبير إنما هي مسرحية ميتة. ولم يكن ذلك الرجل العنيف أميًا، بل كان يشوش ويشاغب بدافع من المصلحة، ويدافع من التذوق أيضًا. فكان ذلك يهبه من الجدوى أكثر مما لو كان مأجورًا سوقيًا. وتلك هي حوافز النجاح!

على الرغم من حماسة لا مورلبير، لم تحقق المسرحية نجاحًا، علمًا أن فولتير وضع فيها أشياء رائعة، وشبحًا، وتجديدات على صعيد الإخراج، لكنها أشياء لم ترُق. فقال فلان من الناس: «هذا شيء من فولتير، لكن من فولتير الرديء». ويبدو أن ذلك تعبير عن الحقيقة. لكن فولتير ثارت ثائرته. ورغب في التأكد من مشاعر الجمهور الحقيقية، فلجأ إلى التنكر في سبيل الوصول إلى ذلك: المسرح والتمثيل من جديد! فقد أعاره كاهن فيايفيل جبّته وقبعته المثلثة وباروكة كبيرة بدت سحنة فولتير الهزيلة من تحتها أكثر تجعدًا. وتوجه فولتير تحت تلك الخلعة الكهنوتية، وهو غير قابل لأن يُعرف، فيجلس في ركن من مقهى بروكوب، وخافيًا وجهه وراء جريدة مفتوحة متظاهرًا بقراءتها، وأخذ يصغي. كانت أمة الأدب المجتمعة تُعمِل كلها نهشًا في سميراميس وفي مؤلفها. وأصغى طوال ساعة، والقرف ينتابه، إلى الانتقادات الأكثر حماقة، والأشد وحشية. ورجع من هنالك مريضًا سخطًا وتقززًا.

لكن حساباته مع مرارات باريس لمّا تنته؛ فقد انتهى غريمه كريبيون من كتابة تراجيديا باسم كاتيلينا، فمُنِحَ أن يقرأها على السيدة دو بومبادور، فكانت صدمة جعلت الغيرة تستولي على فولتير. لكن كان هنالك ما هو أسوأ، ذلك أن الملك الذي أصغى بدوره إلى القراءة، محتجبًا وراء ستار، أعلن إعجابه بالمسرحية، ورغب في أن يتم عرضها. عند ذاك لم تجرؤ السيدة دو بومبادور على الدفاع عن سميراميس التي لم ترُقِ الملك.

كان الممثلون أنفسهم مَقيتين، فلم يقبلوا بأي ملاحظة من فولتير، وكانوا أول من انتقص من قيمة المسرحية التي قاموا بأدائها مُكرهين. وذلك غير مقبول على الإطلاق؛ فقد تخلى، حتى ذلك الحين، عن حقوقه مؤلفًا إلى مؤدي مسرحياته، أما وقد وجد نفسه هذه المرة حيال جحودهم وصفاقتهم، كتب قائلًا: «لن أضحي بشيء من حقوقي لأشخاص لا يعترفون بأي معروف، وهم غير جديرين بذلك في أي حال».

لكن تلك الحقوق لم تصُب في جيوبه، بل حولها إلى الآنسة كليرون، والآنسة دومينيل، والممثل غرانفال. وكان اختياره هو الأفضل. وأعلمه مفوضُ الشرطة، على سبيل وضع شيء من البلسم على جرحه العميق، بأن الأبيات الستة التي حذفتها الرقابة أعيدت إلى مكانها، فكانت تلك هي الترضية الوحيدة التي نالها من تلك الابنة الجاحدة.

لقاء جديد مع الموت

أما وهو مثقلٌ بالهموم، بدأ على الفور يرتعد من الحمى، ويتلوى من شدة المغص. ونمي إلى علمه أن الملك ستانيسلاس متوجه إلى لونيفيل في 10 أيلول/ سبتمبر 1748. حينئذ قرر أن يغادر باريس، ويهجر مسرحه وممثليه والجمهور. فلو أنه حقق نجاحًا لكانت صحته أحسن. وحين يكون هنالك ما يرضي غرور فولتير، يغدو كأنه تناول منشطات. أما حين يجري المس بكرامته، فإن جسده يفرغ من الدم، ويشرف على الموت. ها هو يسلك الدروب من جديد، بصحبة خله الوفي لونشان، وهو في الأقمطة على الدوام، بلونه الممتقع وأنينه. ثم ارتفعت حرارته في شاتو تييري. فشكله مشوه، ولا يرى المرء منه سوى عينين تبرقان في وجه باهت اللون، وخط شبه متورد ترسمه شفتان رقيقتان، أما رأس خديه وأنفه وذقنه فتكاد عظامها تشق عنها الجلد. واصلا طريقهما حتى شالون. وهنالك استولى الخوف على لونشان، فالسيد دو فولتير أقرب إلى أن يكون جثة. واستدعى أمينُ سره المطرانَ ووالي المنطقة فقال لهما إن سيده مشرف على الموت، وإنه غير راغب في أن يتحمل وحده مسؤولية موته، لكن فولتير رفض أن يأوي إلى المطرانية أو إلى دار الولاية. فرقد في سرير نزل، حيث استقبل الطبيب فأصغى إليه بكل تهذيب، ثم رفض، بالتهذيب نفسه، أن يتبع أيًا من التعليمات التي

أعطيت له، فهو لم يأكل شيئًا من حين مغادرته باريس، وظل كذلك. فكان قليل من الشاي، وقليل من الماء الذي غُمِس فيه شيء من الخبز والذي يُعطى للمواليد الجدد، كافيين للقيام بأوده. وواقع الحال أنه كان يعالج نفسه بنفسه على أحسن وجه، بالامتناع عن تناول أي شيء. وكان على درجة من الضعف حتى لا يقوى على تحريك يده أو رجله... لكنه كان يملي رسائل قصيرة يمهرها بحرف «ف» (٧)، ويده ترتعش. وإذا ما تكلم فلكي يذكر كريبيون الدنيء، وسميراميس القليلة الجدارة، والناشر الخسيس الذي كان يقوم بنشر زاديغ، ولكي يذكر أعداءه كافة وسفاحيه جميعًا. وكرس قواه الأخيرة لكي يلعنهم، راجيًا أن تصيبهم أقسى ألوان العذاب، وكان يتخيل بعض الجِيل عسى أن ينتقم منهم في المستقبل. فهنالك مستقبل ينتظر ذلك الميت، وهو مستقبل من أجل الثأر، وكانت تلك الفكرة تعود عليه بالنفع. ولقد توسل إلى لونشان بألا يتخلى عنه، لتكون هنالك يد صديقة تلقي بشيء من التراب على جثمانه. فكان يقول ذلك بطريقة مؤثـرة جدًا، لكنها غير مقنعة على الإطلاق.

بعد مرور ستة أيام مضت في «مغازلة الموت»، اعتبر أن الوقت حان لاستئناف السفر. فهو لم يشأ أن يموت في تلك المدينة الكريهة حيث قامت صاحبة نزل بسرقة لويسة ذهبية من إميلي، فقرر أن يمضي ليموت في مكان آخر. ورقد فتناول شيئًا من الشراب المغلي، ونظر إلى لونشان الذي كان لفظ أنفاسه بدوره، لكن جوعًا وتعبًا. وطلب السكرتير وجبة دسمة قوامها قطعة شواء من فخذ خروف، واثني عشر طائر سمن واثني عشر شحرورًا. فرمق الشاعر الميت تلك الأطعمة الشهية بطرف عينه، وكانت نظرته ذات مغزى. فعرض عليه لونشان أن يتذوق شيئًا من الطعام: فقضم فولتير متمهلًا شحرورين اثنين وشرب جرعة من النبيذ الأحمر. وعلى ذلك استسلم للنوم، ولم يستيقظ إلا في الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم التالي. وبنظرة متيقظة، وصوت رنان، أوعز بإسراج العربة والتوجه إلى لونيفيل.

هنالك لقي إميلي، فارتمى بين ذراعيها، وبكى حنانًا وشوقًا وفرحًا، فبدا ممتلئًا بالتوقد الذهني والحياة، ما لم نقل بالقوة، وسأل عما سيعرضون في ذلك المساء على خشبة المسرح، فصعد بالبلاط إلى خشبة المسرح، وصعد بنفسه إلى مستقرها: إلى الحياة.

لم تكن إميلي سعيدة في عشقها لسان لامبير، فهي تعيش في قلب العواصف. إنها ظَـنون وملحاح لا تُطاق، فلم يكن في وسع عشيقها أن يتحملها. وتحصل في ما بينهما مصالحات جميلة، لكن الفواصل كانت أطول من المشاهد نفسها، فكانت المسرحية تتعثر في سيرها.

لم يكن فولتير على دراية بشيء مما يعرفه البلاط كله، لكن كانت له، هو بدوره، أجواؤه العاصفة. وها هو ذا وسط هدوء منطقة اللورين وسكينتها، يعلم بأن مؤامرة تحاك ضده في باريس؛ فممثلو المسرح الإيطاليون مزمعون على تقديم محاكاة ساخرة لمسرحية سميراميس. والمسألة رهيبة، فالعمل نسيج من السفالة الفاحشة والافتراء بحق الكاتب والتراجيديا، فهي - وإن كانت مملة - تراجيديا نبيلة وها هو ذا يقع مجددًا فريسة للحمى، فيتوسل إلى ستانيسلاس أن يرجو ابنته الملكة بالتدخل لمنع تلك الصورة الساخرة الشائنة. وقام ستانيسلاس بما طلب إليه، لكن ماري لتشينسكا لم تعبأ قط بالدفاع عن شاعر تولتها الكراهية حياله، فهو في نظرها يمثل الشيطان. وكانت على علم بالمسألة من قبل، لكن جاء الآن تحديدًا من يقول لها إن ذلك الشيطان قد نشر لتوه كتابًا يحوي كفرًا بعنوان زاديغ. وهي لم تقرأه، ولن تقرأه أبدًا، فمجرد رؤيته إهانة. وإنها لتكرر ما يُقال لها، بل هنالك من أكد لها أن فولتير أنكر ذلك العمل المفرط في انحطاطه الأخلاقي. ولن تمضي الملكة التقية لتغامر، فتلقي بنفسها إلى التهلكة، في سبيل التحقق من صحة ذلك الاتهام: إن فولتير في نظرها مُدان. وردّت على ستانيسلاس قائلة إنها لا تعبأ بالأدب ولا بالمتأدبين.

توجه فولتير مغمومًا نحو جهات أخرى، فطرق الأبواب كافة. أما مسعاه الأكثر غرابة فهو ما قام به لدى مدير الشرطة، وهو خليفة هيرو الذي لطالما التمس وساطاته، وتسبب له بكثير من الهموم. عرض عليه أن من الضرورة بمكان منع الممثلين الإيطاليين من تقديم المحاكاة الساخرة، للسبب الآتي الذي سوف يباغتنا؛ وهو أن للسيد دو فولتير ابنة أخت تدعى السيدة دوني، وهي أرملة وعلى أهبة الزواج من رجل مرموق. وواقع الحال أن المسرحية الساخرة إذا ما قُدمت، فإنه هو، فولتير، خال السيدة دوني المذكورة وولي أمرها، سوف يجد أن سمعته

تلوثت، وأن هذا السبب سوف يؤدي إلى فسخ مشروع الزواج: فالزوج المقبل ا
يرغب أبدًا في امرأة لَوَّثَ شرف خالها وولي أمرها في وحول باريس. وعلى ذلا
النحو، عاد اسم ابنة الأخت للظهور مجددًا، من طريق سميراميس التي زُيِّفَتْ
وعلمنا أنها أرملة: ذلك صحيح، وعلمنا أنها على أهبة الزواج مجددًا: ذلك غ
صحيح. فليست مسألة زواج السيدة دوني مجددًا مطروحة على بساط البحـ
مطلقًا. ففي ذهن الخال وابنة الأخت مشروعات أخرى منذ بعض الوقت، لكـ
ذلك كان مبررًا صائبًا جرى التعلل به لكتم أنفاس المحاكاة الساخرة.

أخيرًا، ظهر مدير الشرطة الجديد مليئًا بالعطف، وبادرت السيدة دو بومبادو
إلى بذل شيء من جهدها. كذلك لم يكن الملك حريصًا على أن يسخر أحد مـ
مؤرخه (الذي لم يؤرخ شيئًا منذ زمن طويل)، فلم يجرِ عرض المحاكاة الساخـ
في البلاط، إلا أن عرضها لم يحظر في باريس. إن موربا الذي كان يكره فولتيـ
أذِنَ للإيطاليين بالعرض. وسنحت في الدقيقة الأخيرة فرصة لا تُصدق، مكنـ
ريشوليو والسيدة دو بومبادور من منع العرض. وعرف الشقي فولتير أسابيع أخر
من الاحتضار، فلِماذا؟ السبب هو تلك المحاكاة الساخرة الحمقاء، إن هي إ
قمامة في الحياة الأدبية، لكن ذلك يقتله، وإنه أيضًا لـيُحييه. أما حياته العاطفـ
فهي على وشك أن تشهد انقلابًا أشد عنفًا مما شهدت حياته الأدبية.

ذات مساء من شهر تشرين الأول/ أكتوبر 1748، في كومرسي، توجه فولتـ
بكل بساطة، إلى شقة إميلي. ولم يكن الباب مغلقًا، فدخل. ولم يكن هنالك مـ
خادم يعلنُ قدومَه، فتقدم ودفع بابًا آخر، لكن ما من أحد. حينئذٍ دفع باب مخدـ
إميلي: فيا للمشهد! كانت حبيبته إميلي وسان لامبير في وضع لا يدع أي مجا
للشك في ما بينهما من حميمية. فأطلق صرخة! وجعلته حيويته الرهيبة يفقد كـ
سيطرة على نفسه، فخبط الأرض بقدمه، وصرخ وهو يشتم إميلي ويتهددها. و
لمشهد قاس ومثير للسخرية. وسوف يصير أكثر امتهانًا أيضًا، لأن سان لامبـ
الرابط الجأش، وقف حائلًا بين فولتير وإميلي وعرض المبارزة على فولتير طر
لإصلاح الخطأ. ويا لها من شجاعة! إن فولتير ابن الرابعة والخمسين عامًا أضحـ
عجوزًا، وهزيلًا، وأخرق في المبارزة بالسيف أكثر من كل من عداه، في حين
الآخر فارس في الواحدة والثلاثين من عمره، مدرب ويتدفق حيوية. فما كان ـ
فولتير الذي امتُهِن وأهين، سوى أن يولّي هاربًا، والحزن الشديد يملأ قلبه. هـ

مسرعًا إلى بيته، فأوعز إلى لونشان أن يُعِد الحقائب للرحيل على الفور. فتوجه لونشان، وقد أذهله الطلب، ليتسقط الأخبار. استحلفته السيدة دو شاتليه بأن يسوف، فيؤخر الرحيل وأن يمنعه، فقد تولاها الهلع من النتائج التي يمكن أن تترتب على تلك القطيعة الصاخبة مع فولتير، وهو عشيقها الرسمي منذ سبعة عشر عامًا. وما سيكون عليه وضعها في البلاط وفي المجتمع وحيال أسرتها؟ وما حال السيد دو شاتليه؟ بل ما سيقول السيد دو شاتليه؟ إن زوجته تخون السيد دو فولتير مع عشيق جديد؟ إنه لن يقوى على تحمل ذلك. وإن تلك القطيعة ستشكل فضيحة مماثلة للطلاق، لذا ينبغي الحؤول دونها بأي ثمن.

توجهت إلى قرب فولتير الذي حطمه المشهد وأرقده في سريره. فجلست على حافة السرير. وإذا ما بدا الحب عاجزًا عن مصالحة العاشقين، فلديهما المنطق. وكانت إميلي خبيرة بالأول مثل خبرتها بالثاني. وظل لونشان يتصنع الانهماك بتجميع الحوائج في الغرفة، فتكلمت إميلي بالإنكليزية، ولم يتعرف إلا إلى كلمات العشق التي كانا يتبادلانها. ولما لم يتمكن من فهم شيء آخر، وظل فولتير مكفهر الوجه، غادر الغرفة ليلصق أذنه بالباب. فعادت إميلي إلى التكلم بالفرنسية.

بدأت بالحجة التي لا تموت: كان فولتير ضحية خداع نظر. فهو ذو نظر رديء، ويرى الأشياء مضاعفة. أليست إحدى أذنيه أيضًا شبه صماء؟ وليس وضع عينيه بأفضل. فهب فولتير وهو يقسم على أنه رأى الأشياء بكل وضوح، وقد كان في وسعه أن يلمس ما رآه. كذلك كانت حال المسكين ألفريد دو موسيه الذي رأى عبر الحمى التي انتابته الدكتور باجيلو وهو يُحيط جورج ساند برعايته. أما حين واتته الشجاعة على التظلم لدى عشيقته، برهنت له على أنه كان ضحية هلوسة سببتها له الحمى. لكن فولتير لم يصدق حقيقة الغشاوة على عينيه أكثر من تصديق موسيه لهلوسته. أما وقد رأت إميلي عناد والد سميراميس، وعنف غضبه، غيرت من نهجها. اعترفت بكل شيء، وقالت له إن عليه بعد اليوم أن يتكيف مع هذا الوضع من أجل حياتهما، ومن أجل حياة هانئة. وحسب كل منهما أن يعرف كيف يبذل قصارى جهده.

أما وقد جرى طرح هذا المبدأ، فإنها برهنت عليه برهانًا جديرًا بأستاذة.

فما أثمن شيء في الدنيا لديها؟ إنها صحة فولتير. ولو أنها طالبت عشيقها المسن بأن يغمرها بالعواطف الرقيقة والمحمومة التي من حقـها أن تنتظرها منه، فما كان سيقع؟ كان سيلفظ أنفاسه بسبب ذلك. وأذعن فولتير للأمر، بل سبق أن اعترف بذلك. أما هي، فما كانت ستؤول حالها إليه، وهي حيال موت عاشق قتل نفسه تلبية لرغبتها؟ كان الحزن قمينًا بقتلها. فلَكَمْ كانت معاناتها، وهو في بروسيا. إن مجرد غياب عشيقها دفع بها إلى حافة القبر. أما موته فسوف يرمي بها فيه، ووافق على ذلك أيضًا. وبناء عليه، فلو كان فولتير عشيقًا فعالًا، لمات بسبب ذلك، ولكانت لحقت به. وأما إن لم يكن كذلك، فهي التي ستعاني السأم، لأن أشواق الغرام القاتلة بالنسبة إليه هي منبع حياة بالنسبة إليها. فما العمل؟ هل يقبل لها بأن تذبل فتذوي فتلفظ أنفاسها؟ وصدرت عنه تنهيدة. هل يكون السبب في موت حبيبته إميلي أم يدع لشخص آخر أمر العناية بها ورعايتها لتبقى في قيد الحياة، فتتمكن من البقاء في ظل هواه؟ إنه لمأزق عنيف! ولقد عثرت على الخلاص، فأضحى هو مستعدًا للموافقة عليه.

إنها إذًا لم تتخذ عشيقًا إلا للحفاظ على صحة فولتير، وعلى صحتها هي. فالعقار نفسه قمين بشفائه وشفائها. فما كان سان لامبير بالخصم، بل هو في حقيقة أمره طبيب يعالج هواهما المنهك، وهو منقذٌ لهما معًا.

ما عاد فولتير بقادر على الصمود في وجه ذلك الوضوح وتلك الحكمة كلها، فهتف قائلًا: «إيه يا سيدتي! أنت دائمًا على حق. أما وأنه ينبغي للأشياء أن تجري على ذلك النحو، فلتجرِ، لكن ليس أمام عيني في الأقل».

إنه الطلب الأصغر الذي استطاع التقدم به. وما دام ذلك العلاج ضروريًا لإميلي، فلتغلق بابها بالرتاج حين تستقبل طبيبها. وبكى، ثم تعانقا. وأوصته حرصًا على صحته بالكف عن التفكير في تلك الترهات، ثم انسحبت.

ها قد جرت تهدئة واحدٍ من العاشقـين. وبقي عليها القيام بتهدئة الآخر.

كان سان لامبير بطبعه الوثـاب مستعدًا على الدوام لأن يخز فولتير بسيفه. فكان خطابها إليه أقل؛ لأن لديها عللًا أخرى تناقشها معه. ونبهته إلى أنه لن يحقق مجدًا ولا كبير نفع، إذا ما غرز سيفه في صدر رجل ناحل الجسم وعجوز في

الرابعة والخمسين، وهو، فضلًا عن ذلك واسع الشهرة، بل إن كثيرًا من الناس سيلصقون به جريمة القتل إثرَ تلك المبارزة. أضف إلى ذلك أن فولتير كان على أحسن استعداد للقبول بخصمه، وأنه سيكون مرتاحًا لإحلال المصالحة بينهما، إذا ما قام بزيارته وتقديم شيء من الاعتذار له، بسبب حدة الكلام الذي تبادلاه. وهكذا فإن سان لامبير، وقد جرت تهيئته بدهاء، تصرف بدهاء ومهارة؛ فتقدم من فولتير، وتمتم ببضع كلمات اعتذار لم يُترَك له المجالُ لإتمامها. ففولتير ارتمى، والدموع تفيض من عينيه، بين ذراعي ذلك الطبيب الذي صان له إميلي على أكمل وجه، ثم ها هما الاثنان يبكيان معًا. ولكم يود المرء لو يرى وجه إميلي في تلك اللحظة. قال فولتير لخصمه الشاب: «يا بني، نسيتُ كل شيء، فأنا المخطئ. وأنت في العمر السعيد، عمر العشق ونشر البهجة. تمتع بهذه الأوقات المفرطة في القِصَر، فإن عجوزًا مريضًا مثلي ما عاد صالحًا للمباهج».

تخلى له عن مكانه! فهل هي وقاحة «كلبية»[53]؟ أم هي حكمة؟ ولِمَ الكراهية؟ لم المعاندة في وجه الحتمي، حين يكون الحتمي هو المرض والشيخوخة؟ أليس من الأفضل الحفاظ على حنان إميلي، وذكريات فريدة عمرها سبعة عشر عامًا من حياة عشق وانسجام، سبعة عشر عامًا من العمل المشترك، والتوافق الفكري التام، تضاف إليها في بعض الأحيان تلك الأوقات من النشوة التي كانت، في ما مضى، أوقات المخدع، لكنها كانت، على وجه الخصوص، أوقات ذكائهما المنطلق نحو النجوم، والتي كان ينظم تطوراتها السامية ربٌّ اسمه نيوتن؟

لندعْ لسان لامبير إذًا اندفاعات الشباب ولنحتفظ بمباهج القلب والعقل فهي غير قابلة للفساد.

نعود لنجد فولتير، على وجه العموم، شديد الشبه بنفسه. فنار الحباحب تلك لا تختلف إلا عبر انعكاسها. فهو في العمق، ومنذ ميلاده حتى الوفاة، لا يقبل التغيير: إنه يسامح سان لامبير، مثلما كان قد سامح الآنسة دو ليفري، في جينونفيل، قبل ذلك بثلاثين عامًا.

---

(53) مذهب فلسفي يقول باحتقار العرف والتقاليد والرأي العام والأخلاق الشائعة، وبتحكيم العَقل والطّبيعة. (المترجم)

ويعث بهذه الأبيات إلى خصمه يمتدح فيها إنجازه:

«يا سان لامبير، من أجلك أنت فقط

تتفتح هذه الأزاهير الجميلة

فيَدُك أنتَ تجني الورود

وأما الأشواك فمن نصيبي».

بل إنه ليُزجي إليه هذه النصائح:

«امض فاحملْ لها، وهي في مخدعها

هذه الأزاهير التي تتفتح تحت خطاك

واشدُ لها على مزمارك

بهذه الألحان الجميلة التي يرددها الغرام

والتي لم يكن نيوتن على دراية بها».

إنه لممثل بارع حقًا، بل مفرط في البراعة بعض الشيء؛ إذ بلغ به الأمر حد إطراء غريمه أمام فريدريك الثاني الذي لا بد من أن يكون قد ضحك كثيرًا! ولكمْ نحن بعيدون عن العواطف الرومانسية الجامحة! عن أشكال العشق التي تنتهي إلى خبر عادي. وهنالك من قال، إذا كان فولتير ومعاصروه ينسحبون بكل يسر من حالات عشقهم، فذلك لأنهم كانوا بلا قلوب. وقيل إنهم لم يحبوا حقًا. ولا ريب في أنهم لم يعرفوا العشق الذي نعرفه نحن، أي العشق بشغاف القلوب. لكن هل خير ما في الإنسان كامن حقًا في حشاه؟ نحن على علم بتعليق السيدة دو تانسان وهي تتوجه إلى فونتونيل الذي لم يكن يخطئ بسبب إفراط في العاطفية، فوضعت إصبعها على صدره قائلة: «ليس بقلب ما لديك هنا، بل إنه دماغ كالذي في رأسك». ويمكن أن ينطبق القول نفسه على فولتير؛ فهو يحل العقل في كل مكان، حتى في عواطفه الغرامية.

قُطِعت الإقامة في كومرسي، مع نهاية كانون الأول/ ديسمبر 1748، بسبب رحلة مباغتة إلى سيري، حيث استدعت أعمال ملحة حضور السيدة دو شاتليه.

وتفاديًا للتوقف في نُزل لا كلوش، وفي شالون، وتفاديًا لاسترجاع ذكرياتهما السيئة، نزل عاشقانا الاثنان في المطرانية. كان المطر ينهمر مدرارًا. وفي أثناء تبديل الخيول، عرض الأشخاص المقيمون هناك الاجتماع حول مائدة القمار. فاغتنمت إميلي الفرصة، وقامرت على طريقتها فخسرت وعاندت. وكان الحوذيون المعرضون للمطر، يأتون بين ساعة وأخرى ليسألوا إن كان المسافرون على استعداد لمواصلة السفر. فترد إميلي قائلة: «بعد جولة أخرى أيضًا». وعيل صبر فولتير. لكنها ظلت كذلك، فلم توافق على السفر إلا في الساعة الثامنة مساء، وكانت قد جلست إلى مائدة القمار في الثامنة صباحًا!

لدى إقامتهما في سيري، انهالت عليهما صاعقة، على صورة نبأ مذهل؛ ذلك أن إميلي باحت لفولتير، وهي مكتئبة وقلقة ومحاصرة، بأنها حامل. فحمل المسألة على محمل السوء، وكان المشهد صاخبًا. ثم جاء دور الدموع فتلاها الضحك. الضحك؟ بلى، أخذا يضحكان متسائلين عن المخرج الذي ينبغي العثور عليه لجعل السيد دو شاتليه يصدق النبأ كيفما كان. وإنها لمشكلة. فالسيد دو شاتليه، على نحو ما نعلم، زوج مثالي، لكن الكمال نفسه ذو حدود، وكان فولتير يخشى أن يرى تلك الحدود وقد تم تجاوزها. فاستدعى سان لامبير، ذلك أن رأي ثلاثة يفضُل رأي اثنين. وكان لونشان يخشى على تلك الندوة من أن تنتهي بين الاثنين نهاية سيئة، فكان أمينًا لعادته في التنصت من وراء الباب. وتحدثوا طويلًا، ثم سمعهم ينفجرون في ضحك مجلجل: عثروا على الحل.

قاموا باستدعاء السيد دو شاتليه على جناح السرعة، بحجة ضرورات العمل. ولمّا يجرِ قط من استقبال لمحارب بأفضل مما جرى له. فحكايات حملاته تكون في العادة مملة حتى أن أحدًا لا يرغب في سماعها، فما إن يشرع في سردها حتى يصير المكان خاويًا. ونحن نذكر أنه كان يتناول طعامه مع أولاده. وفور وصوله وضعوه على رأس المائدة، وقاموا بتحريض بلاغته العسكرية الثقيلة. فما كانت إميلي ولا كان فولتير ليشبعا البتة من سماع مآثره البطولية؛ فينبغي عرض تفصيلات حصار ما بأكملها، كما ينبغي الكشف عن أدق مناورة قامت بها الخيالة. إميلي يكاد يُغشى عليها طربًا، وفولتير يطلق صيحات بطولية، والسيد دو شاتليه نبع لا ينضب له معين.

كانت زوجته ترتدي فستانًا بقبة ذات فتحة عريضة جدًا، وكانت متبرجة تبرجًا مثيرًا، وهي تبدي حياله من الإعجاب ما لم يعرف المركيز المسكين مثيلًا له من قبل، وتأتيه دفقات من أنفاسها الحارة. وقامت حياله بإيماءات مثيرة انتهت بالزوجين المنفصلين منذ ثمانية عشر عامًا إلى سرير الزوجية ليستأنفا مشادات شهر العسل. وبعد أسابيع قليلة، أسرّت السيدة دو شاتليه إلى زوجها بأنها تستطيع أن تؤكد له أنه سوف يكون أبًا من جديد. وطرب الزوج الخمسيني وتهلل فرحًا. وقاموا بنشر النبأ السعيد، فأوعز السيد دو شاتليه بإحاطة جيرانه وفلاحيه بالأمر علمًا. وبدأت أرتال العربات تتوافد، فأقبل من يقيمون بالجوار كافة لتهنئة المركيز على مأثرته، وتولى فولتير إغراء الفلاحين، فأقاموا احتفالًا لسيدهم الطيب.

ضم سان لامبير، بكل تواضع، تهانيه إلى تهاني الجموع المندهشة، فيما كان فولتير يثير من جانبه عواصف التصفيق. وكان المركيز طافحًا بالسعادة؛ فهو لم يشعر البتة بأنه محبوب إلى ذلك الحد، ولم يبدُ له أصدقاءُ زوجته قط على تلك الدرجة من اللطافة. وعلى ذلك، وبعد أن تم لهم الأمر، أفهموه سريعًا أن مكانه بين الجيوش. ففهم وامتطى جواده الكبير، وتوجه قاصدًا سيليزيا. وتبعثر مجتمع سيري؛ فتوجه سان لامبير إلى لونيفيل، وسافر الزوجان الحقيقيان، أي إميلي وفولتير، إلى باريس. وبدا المركيز وسان لامبير بصفة مدعوَين.

واصل فولتير وفريدريك تبادل الرسائل. كان فريدريك لا يمل رجاء فولتير، للقدوم إلى برلين. وكان هذا لا يرد سلبًا ولا إيجابًا، بل يخترع الذرائع متعللًا بسوء صحته. كان يقول إنه شبه ميت من مياه بلومبيير (التي لم يتناولها). وكان فريدريك ينتظر الفرصة الملائمة، لكنه كان يعرف أن إميلي هي العائق الحقيقي.

كان فولتير يحب لونيفيل والملك الطيب ستانيسلاس، وكان هذا الأخير يحب فولتير، على الرغم من تحذير ابنته ماري والأب مينو. لكن ستانيسلاس كان مثل الجميع في ذلك العصر: كان يكتب. وكان معجبًا بالذين يكتبون، وليس من هو أنجح في ذلك من فولتير. وألّف ستانيسلاس كتاب: *Un Philosophe Chrétien* (فيلسوف مسيحي). وليس الكتاب بذي قيمة تُذكر بحسب قول فولتير؛ إذ جرى وضع كلمة فيلسوف لأنها الكلمة الرائجة، ومسيحي، لأن الملك كان يخاف من كاهن اعترافه.

وسط ذلك الشغف الشامل بالأدب وفولتير، بقي ملك واحد بارد العاطفة. إنه لويس الخامس عشر، وهو الملك الوحيد الذي كان فولتير يتمنى لو أثار اهتمامه.

أما وقد جرى توقيع اتفاق على السلام في عام 1748، فهنالك احتفالات كبرى كانت مرتقبة. وسوف يستقبل الملك في الرواق الكبير أركان الدولة كافة، وكل واحد سوف يلقي خطبة أمام جلالته. وأحيطت الأكاديمية علمًا بأن دورها سيحين في 21 شباط/ فبراير 1749. وقام فولتير بإعداد قصيدة مدح، عمل على تجليدها وزخرفتها بماء الذهب، ولسوف تُسلم بمناسبة الاحتفال إلى الملك، بيد الدوق ريشوليو. وكان ريشوليو قد طلب إلى فولتير إعداد القصيدة التي سوف يحفظها عن ظهر قلب، واشترط ألا تكون طويلة جدًا. وفي صباح 21 شباط/ فبراير، وقفت هيئة الأكاديمية تنتظر مرور الملك. كان فولتير غائبًا. فما السبب؟ كان ريشوليو مختليًا بنفسه قرب أحد الأبواب وهو يردد قصيدته المحفوظة بصوت خافت، حين وقف أحدهم وراءه وواصل التلاوة حتى نهاية القصيدة. وبرقت فكرة في ذهن ريشوليو: لقد قام فولتير بخداعه، فنشر نص الخطبة، ليجعل ريشوليو موضع سخرية، وليتقصَ من قيمة دوق عالي المقام يقوم بتحريك الأكاديميين، فلا يسعه التفوه بكلمة أمام الملك إلّا بترديد الدرس الذي علموه إياه. فقرر ريشوليو أن يرتجل كلمة سريعة على أن يكون موضع استهزاء. وتخلص بذلك من المسألة على أحسن وجه. لكنه قام، من بعد، فأعاد إلى فولتير قصيدته مشفوعة برسالة قل نظيرها فظاظة وقسوة. وها هو ذا شاعرنا وقد جُن جنونه ألمًا وخوفًا. فاندفع صوب صورة لريشوليو فمزقها قطعًا وداسها. لكنهما متعارفان منذ الصغر، وبينهما من الصلات ما يحول دون بقائهما على تلك الحال. فالتقيا على مائدة عشاء وشرح كل منها موقفه للآخر. لم يقم فولتير بدور مخادع، لكن السيدة دو شاتليه أعطت نسخة من الخطبة إلى السيدة دو بوفليه، التي أعارتها، فأُخِذت منها نُسخ عديدة. وكان هنالك من تلا النص في عدد من الصالونات قبل الاحتفال، فقبل ريشوليو بذلك التفسير، وعادت المياه إلى مجاريها بين الصديقين. لكن فولتير ظل يأسف لأن قصيدة المديح الجميلة التي نظمها والتي أُحسِن تجليدُها، لم تؤد أي نفع:

«هذا المديح ذو تأثير ضئيل جدًا
فما من إنسان شكرني عليه

أما الذي لم يعبأ البتة به
فهو الذي قد صِغته من أجله».

ومن المسلَّم به أن الملك لم يرَ القصيدة، فلن تكون هنالك من مكافأة!

فلنتكلمْ في شؤون المال

لم تكن أعمال فولتير، في عام 1749 ذاك، في حال سيئة. فأمين سره لونشان ما عاد مقتصرًا في عمله على الإصغاء من خلف الأبواب، ذلك أن فولتير كان يرسله غالبًا إلى باريس، ليأتيه من عند الكتّاب بالعدل ورجال المصارف بالأموال العائدة له. ولديه على الدوام الأب موسينو، بمكانة الوكيل.

ارتفعت عائداته من بعد موت أخيه أربعة آلاف ليرة. وعادت عليه تراجيديا أوديب بفوائد قليلة، لكن الاكتتاب في الـ هنرياد هو الذي بدأ بإثرائه. ولم يكن ذلك سوى البداية. فهي حياة اليسر، لكنها ليست الثروة التي من شأنها أن تتيح له العيش على هواه، أي مثل أصدقائه الأسياد الكبار.

لدى عودته من إنكلترا، وظف رؤوس أموال في تجارة كاديكس التي كانت تؤجر سفنًا إلى الهند الغربية، وكانت نسبته من الأرباح خمسة وعشرين في المئة. وسهل له السيدان باري ودوفرني عملية تموين الجيوش، وهي أعمال تصل أرباحها إلى مئة في المئة. زد على ذلك أن شاعرنا ما كان ليدع عائداته غير منتجة، فكان يقرض المال لأفراد. وها هو مبلغ الفوائد التي قبضها فولتير في بحر عام 1749، مقدرًا بالليرات. وعلمنا في الوقت عينه بأسماء مدينيه، وكلهم أناس مرموقون.

عقود مع مدينة باريس	14023 ليرة
عقد مع السيد الدوق دو ريشوليو	4000 ليرة
عقد مع السيد الدوق دو بويون	3250 ليرة
نفقة من السيد دوق أورليان	1200 ليرة
عقد مع السيد الدوق دو فيلار	2100 ليرة
عقد مع السيد المركيز دو لوزو	2300 ليرة
عقد مع السيد الكونت ديستان	2000 ليرة

عقد مع السيد أمير غيز	2500 ليرة
عقد مع السيد الرئيس دونوي	2000 ليرة
عقد مع السيد فونتين	2600 ليرة
عقد مع السيد مارشان	2400 ليرة
عقد مع شركة الهند	605 ليرات
رواتبه مؤرخًا لفرنسا	2000 ليرة
رواتبه نبيلًا في غرفة الملك	1620 ليرة
عقد مع الكونت دو غوبريان	540 ليرة
عقد مع السيد دو بورداي	1000 ليرة
عقد مع اليانصيب الملكي	2000 ليرة
عقد مع السيد مارشان	1000 ليرة
عقد مع 2 س (2s)	9900 ليرة
تموين إلى جيش الفلاندر	17000 ليرة
المجموع:	74038 ليرة

يضاف إلى ذلك عائدات وارثيه العائلية، وعائدات شتى ليست على القائمة. فكان لمجموع عائداته أن يبلغ مئة ألف ليرة (أي ما يقارب 90 مليونًا من الفرنكات القديمة). ووظف لدى إقامته في بروسيا، بحسب ما قيل، 200 ألف ليرة في شركة بحرية أسسها فريدريك في إمدن.

أما طرافة تلك الثروة فهي أنها لا تقوم إلا على الورق؛ إذ لم يكن فولتير في عام 1750 ليملك سقفًا يؤويه. فينبوع الثراء هذا الذي كان يسيل بين كفيه الجافتين كان ناشئًا عن عملية كتابة، ويغذيه ألف مصدر من الديون المبعثرة في أرجاء أوروبا كافة. وهكذا كان السيد فولتير، على نحو ما نرى، «رأسماليًا» عصريًا جدًا.

من انهماك، إلى عمل، إلى إعداد الحقائب

وسط غمرات تلك الأشهر الأخيرة، وجد الوقت لإعادة كتابة سميراميس، وصارت المسرحية جاهزة لتحتل المكان الذي خلفته شاغرًا مسرحية كاتيلينا التي ألّفها كريبيون، والتي أخفقت على الرغم من دعم الملك والسيدة دو بومبادور.

وكان ذلك الإخفاق عذبًا على قلب الشاعر؛ فنجاح خصمه «كان سيقتله». ومن ناحية أخرى صفق لنجاح مارمونتيل، بل قام بتعليم من غدا ربيبه طريقة «ملء الصالة»، وهو فن أتقنه الداهية العجوز مثلما أتقن فن تأليف المسرحيات التراجيدية؛ فهو لا يكن مشاعر الضغينة إلا للناس الأشرار، أما الذين يحبهم فيجسد حيالهم الإخلاص بعينه.

كان تفضيل الملك والمحظية (السيدة دو بومبادور) لكريبيون قد خلف جرحًا في نفسه. وتولاه القنوط من أن يصير يومًا النديم الأكثر تألقًا في بلاط فرساي. ألا يليق هو بذلك؟ أليس من المسلّم به أن يختار الملك الأول في أوروبا، الكاتب الأول في عصره ليقوم بإطرائه؟ ما كان فولتير ليرى، وقد غشى الغرور والطموح على بصره، أن دور المداح الخالص للملك المسيحي جدًا، ما كان لينسجم تمامًا في تفكير لويس الخامس عشر، والملكة والبلاط، مع دوره أميرًا للفلاسفة وأصحاب الفكر المتين. فهو يرى أمرًا طبيعيًا أن يسامحه الملك على استخفافه بالملكية والدين. أما بالنسبة إلى لويس الخامس عشر، فإن «الإمارة الفلسفية» لفولتير غير مقبولة. وعلى ذلك شرع الشاعر يقاطع البلاط مجددًا، والتمس الإذن في أن يبيع مهمته «نبيلًا في غرفة الملك». فهنالك رسالة من الملك بمنحه ذلك الإذن، مع السماح له بالاحتفاظ باللقب. وكان ذلك دليل عطف استثنائي، لأن فولتير لم يشتر ذلك المنصب. وكان في وسع الملك أن يسترد هدية ما عادت رائقة. وعاد فولتير فباع المهمة بستين ألف ليرة أدخلها في حسابه. واحتفظ باللقب من غير القيام بالالتزامات. فمم يشكو؟ وما يلزمه فوق ذلك؟

إنه يريد حظوة باهرة، يريد المكانة الأولى، صدارة الصداقة، حتى في خصوصية الملك. لكن ليس ذلك هو أسلوب البلاط في فرنسا مطلقًا. وإن فولتير ليطلب المستحيل، ولسوف يسعى بحثًا عنه في أمكنة أخرى. لكنه لن يتعزى أبدًا لأنه لم يجده في فرساي.

تنخرط السيدة دو شاتليه في العمل انخراط امرأة مهووسة. فالناس يرونها في المجتمع وفي البلاط، لكنها تمضي لياليها عاكفة على كتبها الطلاسم، فهي تريد الانتهاء من نيوتن. وتخشى أن يدركها الموت قبل أن تنتهي من ترجمة أعماله الضخمة. فما يدعوها إلى أن تخاف من الموت؟ إنها لا تدري. بيد أنها لم تعش

قط في ظل مثل تلك الحالة من الهوس، على الرغم من أن صحتها الحديدية وهمتها الطبيعية وشغفها تضعها في مأمن من التعب. وإنها، والحق يُقال، لامرأة مسكينة وشديدة الهم. ورسائلها إلى سان لامبير رسائل مؤثـرة ومؤلمة. فهي تعاتب عتابًا عنيفًا، ثم تتوسل، فيهجرها. وإذا ما كتب فَلِكِي يتظلم من أنه لا يتلقى منها سوى العتاب. ومن بعد أن تئن وتتهدد، تعود فتضعف، وترق فتعذُر وتعتذِر. وهي تحب. إنها تحب وسط القلق، وتتوجع أيضًا نتيجةَ حَمْلها. وإنها لتعلم يقينًا أن الولد الذي تحمله إنما هو متسلل سوف تأتي لتدخل به على عائلة دو شاتليه. فتفكر في ابنها البكر الذي بلغ العشرين من عمره، وتعاني الألم الذي سيناله لدى ولادة «المتخلف» الذي سوف ينال نصيبًا من الميراث، فهي أكثر نزاهة واستقامة من ألا يعذبها انعدام النزاهة الكامن وراء ذلك كله. «وذلك كله» هو في نهاية المطاف سان لامبير. وهي مهمومة، لكن بالعشق، وعلى الرغم من عذابها فهي سعيدة.

جاء دوق اللورين للإقامة فترة في تريانون، فدُعيت السيدة دو شاتليه إلى هنالك، وذلك في نيسان/ أبريل 1749. فكرت في أن ستانيسلاس سيمضي الصيف هناك أيضًا، فأوعزت بإحضار فساتينها الصيفية كافة إلى لونيفيل. واغتاظ سان لامبير، فهو لا يريد البقاء وحيدًا مدةً أطول، فطالبها بالعودة. إنه يحبها إذًا؟ فهو ما كان قط ملحاحًا هكذا وفي عجلة من أمره. لا ريب في أنه يحبها أقل مما تحبه هي، لكن لا مناص من الاعتقاد بأنه متمسك بإميلي. وذلك ما يسمح لهما بالتصالح على قدر ما يدور بينهما من منازعات. وتشعر إميلي أول مرةٍ، بحلاوة غضب سان لامبير: لقد أحست بالغيرة والرغبة، وبالحنان أيضًا. إنه يريد أن يكون إلى جانبها ساعة ولادتها، فلا بد من رجوعها إلى لونيفيل.

استفادت من وجودها بالقرب من ستانيسلاس، لتحصل على مسكن في لونيفيل كانت تطمح للحصول عليه منذ زمن طويل، تتوافر فيه شروط أكثر ملاءمة لزيارة عشيقها لها، وأكثر راحة، وله باب خروج مباشر إلى الحديقة، إضافة إلى درجين. أما ستانيسلاس، وكله لباقة، فقدم لها المسكن مع الأثاث الذي لم تطلبه.

لكن ستانيسلاس قفل عائدًا إلى اللورين في نهاية نيسان/ أبريل. ولبثت إميلي في باريس. فلِمَ لا تهرع للارتماء في أحضان عشيقها؟ المؤسف أن الفاصل بينهما

هو نيوتن. وتوسلت إلى سان لامبير أن يتفهمها؛ إذ ينبغي لها أن تنجز ترجمة نيوتن، وهي لا تستطيع إنجازها إلا في باريس. فكيف له أن يعتقد أنها تبعثر جهودها؟ إنها تعمل، وعلى نحو محموم. وفي النهاية، ما هم هذه المرأة العاشقة - وهي المرة الأخيرة في حياتها - من دون شك، من فيزياء نيوتن؟ فهي ليست من العلماء، والنساء الأخريات يسخرن من ضعف علمها، وأغلبية الفرنسيين غير راغبة في فيزياء نيوتن. غير أن ترجمتها هي التي سوف تنشر أفكار نيوتن في فرنسا؛ إنها تريد الوصول بها إلى شاطئ السلامة فتقوم بنشرها. فذلكم ما ضحت لأجله، بالأسابيع الأخيرة من حياتها، وبآخر المباهج من شغفها المجنون بسان لامبير، تلك المرأة ذات القلب المعذب والمفتون.

كانت تقيم مع فولتير في شارع ترافرسيير سانت أونوريه، في منزل مستأجر يتعهدانه طوال السنة، فهو موطئ قدم لهما في باريس. وهنالك كانت تعمل مع عالم عجوز اسمه كليرو. كانا يغوصان في حساباتهما، فينسيان الزمن. وذات يوم كان فولتير جالسًا ينتظرهما للغداء في الطابق الأعلى. وأحاطهما علمًا بالموعد، فطلبا ربع ساعة من التأجيل. ومرت نصف ساعة، فأرسل فولتير يستدعيهما مجددًا، ومجددًا أيضًا طلبا ربع ساعة. ومضى ربع الساعة. أما، وهو المتحرق على نار الانتظار، فقد أوعز ببسط المائدة، وانتظر. وتجمدت أطباق الحساء. وعندما أضحى الشقي عاجزًا عن ضبط نفسه، اندفع يهبط على الدرج كالمجنون، مخاطرًا بتكسر عظامه. فقرع ونادى وهز الباب، وحاول فتحه: لكن إميلي وكلير وكانا قد أقفلاه بالرتاج! فتولاه السخط، فخرق الباب وهو يرفسه بقدميه وتلفظ بتهديدات وشتائم مقذعة، أفلا يتولاها الخجل مما تفعل على هواها مع هذا الأستاذ العجوز، في حين أن سان لامبير يعاني الأمرّين في اللورين؟ فيا له من مشهد! إن فولتير هو البطل المدافع عن شرف عاشقِ عشيقتِه الخاصة! أما كليرو المسكين فكان يود لو يتسع له جحر فأرة ليختبئ فيه. وصرخ فولتير بالاثنين قائلًا: «أنتما إذًا على اتفاق للقضاء علي؟».

إن المسرحية الهزلية والتراجيديا تتجاوران دونما انقطاع.

انتهى الغداء من غير كلام. ومع آخر لقمة، توارى كليرو عن الأنظار، وأدار كل من العاشقين ظهره للآخر، متوجهًا إلى غرفته الخاصة. وفي الصباح التالي،

بعثت إميلي تسأل فولتير إن كان يرغب في تناول القهوة بصحبتها، فقبل. ونزلت وهي تحمل فنجانها الخاص المصنوع من بورسلان ساكس، وهو قطعة ثمينة حقًا. وأدارت الحديث صوب واقعة الأمس. فلم تتعرض لها إلا لمامًا، لكنها كانت تعرف، في نهاية الأمر، أنها تلعب بالنار. وظل فولتير جامدًا، فتجرأت قليلًا، ثم ازدادت جرأة، وأخيرًا خاطرت بتوجيه ملامة.. وعلى حين غرة وثب فولتير غاضبًا، فدفع إميلي التي أسقطت فنجانها الجميل من يدها. وتناثرت تحفة البورسلان عند قدميهما إلى ألف قطعة وقطعة! وهرع لونشان لدى سماعه تلك الضجة، فلم يلتقط سوى بضع كلمات بالإنكليزية وجهتها إميلي، فجعلت والد سميراميس يقف مصعوقًا. ولبث وحيدًا أمام الشظايا، ثم استعاد رباطة جأشه فبعث بلونشان ليأتيه بأجمل آنية بورسلان ساكس لدى أفضل بائع للتحف في باليه روايال. وجاء السكرتير بستٍ من أجمل القطع المعروضة، لكن ليس فيها من واحد يعدل الفنجان المكسور، واحتفظ فولتير بأغلاها ثمنًا. فقيل له إنه بعشر لويسات. وصرخ قائلًا إنهم سوف يقضون عليه، وإنه لن يدفع ذلك الثمن. واستغرقت المسألة بعض الوقت. ثم دفع اللويسات العشر التي بدت مبلغًا باهظًا جدًا لقطعة من البورسلان، لكنها قطعة جميلة جدًا. أرسل بها إلى إميلي، فابتسمت. ثم نزلت لتشكر فولتير، فتعانقا، وبكيا قليلًا ثم سارت الأمور على خير ما يرام وعاد إلى نفسه الصفاء، فاستعاد قلمه وثلاث مخطوطات كان عاكفًا عليها.

كان لديه مشروع كتابة مسرحية كاتيلينا (لمعارضة مسرحية كريبيون وتعطيلها) وبعدها مسرحية أوريست (*Oreste*)، وأخيرًا حط الرحال عند موضوع كوميديا بعنوان نانين (*Nanine*)، وهي مسرحية شعرية لا يغيب عنها طيف مسرحية باميلا لريتشاردسون. وكتب يقول: «نظمت مئة بيت في نانين، غير أني ألفظ آخر أنفاسي». وليست تلك الميتة سوى واحدة إضافية.

كان دارجنتال قد تقدم منه بملاحظات في ما خص تلك المسرحية، فأصغى إليها إصغاء عاقلًا. ثم وصل ذات مساء منهكًا وساخطًا إلى منزل السيدة دارجنتال، بعد نهار أمضاه في سو بين القيام بمشتريات وزيارات فيها لعدد من الكتاب بالعدل، فأوسعها ملامةً لم تفقه منها شيئًا. فما الذي جعل زوجها يتدخل، فيبدي ملاحظات للممثلين الذين كانوا يتدربون على نانين؟ ألم يكن الشاعر مرغمًا على التجوال في أنحاء باريس كافة، لإصلاح الضرر الذي ألحِقَ بمسرحيته؟ وإنه لمرغم على

استئناف تلك المساعي في اليوم التالي؟ وخلاصة الأمر أنهم يقضون عليه، وأن آل دارجنتال هم السبب. وسعت السيدة دارجنتال المسكينة لأن تهدئ من روعه ما أمكنها ذلك. واستسلم فولتير للملاطفة، فانتهى إلى السخرية من سخطه. وبكى وهو يقدم اعتذاره، ثم ضحك فبكى أيضًا، وأخيرًا تقدم من السيدة دارجنتال ليمنحها آلاف القبلات، ومضى طافحًا بأرق المشاعر حيال ملائكته. كانت المرأة المسكينة محطمة؛ فقد انتقلت من المباغتة إلى الغم، فالفرح، فالحنان. وانتابها من المشاعر وضروب الانفعال في ساعة واحدة أكثر مما ينتاب كثيرًا من الناس خلال عام بطوله.

أمضى هذان الزوجان دارجنتال نصف حياتهما في الاهتمام بفولتير؛ فالإعجاب الذي يملأهما حياله وصداقتهما له، ليس لهما من حدود، وهما مفتونان بنزواته على قدر افتتانهما بمداعباته. لكن السيد دارجنتال كان أكثر من مجرد معجب محبب. فهو مستشار موثوق جدًا وشديد الحذر، ورجل ذواقة، وهاوٍ مسرحي له تأثيره الشديد في المسرح الوطني الفرنسي. أما الناحية الأخيرة التي لا ضير وراءها، فهي تأثيره الشديد في الجهات العليا في الإدارة.

جرى عرض نانين في حزيران/ يونيو 1749. ولم يستقبلها الجمهور استقبالًا حسنًا. وفي أثناء العرض، شرع بعض المشاهدين يضحكون هازئين في موقع شجي. وملأ ذلك الضحك الوقح صدر فولتير بالغيظ، فقام من أعلى مقصورته، وصرخ بصوت حاد: «كفوا عن الضحك، أيها الهمج، كفوا!». وكان أن أخرس الضاحكين، مما بدا مدهشًا جدًا. وإن تدخلًا مماثلًا في أيامنا ليستثير المزيد من الضحك، من دون ريب. ويخبرنا واحد آخر من أمناء سره، واسمه فانيير، بأنه لم يكن يرغب في الجلوس بجوار سيده، في المسرح. فالوضع غير مريح على الإطلاق؛ لأن فولتير، الهادئ في البداية، يأخذ بالتململ شيئًا فشيئًا، ثم تعروه هزات فارتعاشات، وهو يعيش المشهد، فيفتح فاه ويغلقه، ويلتهب نظره، ويشارك جسدُه كله الممثلين في أدائهم: «فصوته ووقع قدميه وطرق عكازه، تُسمع كلها بدرجة أو بأخرى، فينهض قليلًا عن كنبته، ثم يجلس، وبغتة يهب منتصب القامة، فيبدو أطول بشبر مما هو عليه في الواقع، وعند ذلك تحديدًا يُحدِث أكبر ضجة. ولذلك السبب عينه، كان الممثلون المحترفون يتهيبون الأداء في حضوره».

كان، والحق يقال، مسكونًا بشيطان خشبة المسرح. ولما لم ترقه مسرحيته، مثلما لم ترق الجمهور، أراد التخلي عن نانين والتوجه إلى سيري، فضلًا عن أن إميلي نفد صبرها بعدما انتهت من أمر كليرو، فما عادت متمسكة بالبقاء. أما سيري بالنسبة إليها، فتعني: التوقف (الأقصر الممكن) على الطريق إلى لونيفيل. وكانت في تلك الفترة موضع اهتمام فريدريك الثاني. فضاعف العروض كيما تتخلى له عن فولتير. فيتكرر على مسمعيه القول إن صحة الشاعر رديئة جدًا، لكنه ما عاد يرد على تلك الحجج الواهية. إنه مقتنع بأن إميلي هي العائق، وعلى ذلك، عرض عليها الصفقة الآتية: أن تبعث إليه بالشاعر، ليبعث إليها في المقابل بمهندس من أكاديميته الجديدة. فهل تقبل؟ وأجاب فولتير بأن عليها أن تلِد قبل اتخاذ قرار. فكان رد فريدريك هو الآتي: «سوف تلِد السيدة دو شاتليه في أيلول/ سبتمبر، وأنتَ لست بقابلة. فهي تستطيع أن تلِد من غير وجودك». أما وقد سئم من دوام الطلب من دون الحصول على نتيجة، أضاف يقول: «يبقى أن تعتقد أن المباهج التي نقدمُها للناس من غير أن نُرتجى هي أفضل وأكثر عذوبة منها حين يجري التماسها». وذلك ما رد عليه فولتير بشيء من الحزم: «لا يستطيع السيد بارتنستين ولا السيد باستوشيف، بما يتمتعان به من سلطة، ولا فريدريك العظيم الذي يجعلهما يرتعدان، أن يمنعوني من القيام بواجب أعتقد أنه ضروري. فما أنا بصانع أطفال، ولست طبيبًا أو قابلة، لكني صديق، ولن أفارق امرأة يمكن أن تموت في أيلول/ سبتمبر، حتى من أجل لقاء جلالتكم. وتبدو الولادة ذات أمارات شديدة الخطورة، لكن إن خرجت منها سليمة، فأنا أعدكم، مولاي، بأن آتي لأعرب لكم عن ولائي في أيلول/ سبتمبر».

وكان قولًا فصلًا: «لكني صديق»؛ فليس الملوك، حيال ذلك، بشيء. وكان فريدريك مرغمًا على الانتظار.

فيما كان فولتير يستعد لمغادرة باريس، جاء كاهن شاب، برفقة قريبة له هي صديقة للسيدة دو شاتليه، يتوسل إلى الكاتب بأن يصحح خطبة عليه إلقاؤها في قصر اللوفر، أمام الأكاديمية وشخصيات مهمة من رجالات البلاط. فتلك الخطبة سوف تقرر مصيره. فإن نجح، فلسوف ينال منصبًا. أما الموضوع فهو

قصيدة في مديح القديس لويس (لويس التاسع)[54]. ففي كل عام يتقدم مرشح ليتناول الخطبة المملة نفسها في الموضوع ذاته. وتتمثل صعوبة المسألة في إسباغ نغمة ونعمات على لُمامة من الأمكنة العادية المرتبطة بالقديس الملك. ورفض فولتير ذلك القصاص الإضافي الممل، فهو منهمك في إعداد حقائبه، فضلًا عن أنه لا يعرف ذلك القديس أكثر من معرفته بالآخرين، فليذهب للاستعانة بفقهاء السوربون!.. إلخ. فأمرته إميلي، وهي المرأة ذات اللهجة الحاسمة، بأن يراجع العمل التقريظي، فأذعن. وفي اليوم التالي، كانت الخطبة التي سلمها إلى الكاهن الشاب، قد أُعيد صوغها تمامًا؛ إذ شطب كل شيء فيها، وأعاد صوغ كل شيء. واستغرق ذلك منه ليلة بحالها، فالنص مريع بسويته المتدنية. وما إن تسلم الكاهن الشاب النص حتى أوشك أن يسقط مغشيًا عليه، فأطلق صرخة هلع: إنه غير قادر على تعرف حرف واحد من عمله. وبذل جهدًا طائلًا هو وقريبته، للحصول على وعد من فولتير بإعادة كتابة الخطبة على ورق أبيض جديد، فكان أن كرس فولتير لذلك ليلة ثانية. وسلم في اليوم التالي نصًا جديدًا تمامًا. مع ذلك لفتوا انتباهه، وبشيء من الجفاء أيضًا، إلى أنه لم يفصل تمام الفصل، بين الاستهلال والفقرة الأولى، ولا بين الفقرتين الثانية والثالثة، ولا بين الفقرة الثالثة وخاتمة الخطبة. انحصر عمل الكاهن الشاب إذًا، في أن يصوغ بخط جميل ومنمق، وفقًا لما جرت به العادة، أدعية مثل السلام الملائكي عند فواصل شتى الفقرات، وأن يختم بكلمة آمين، نقطة نهائية. تلك كانت مساهمته في عمله الرائع، وكان على حق في عدم مسه. لقد عاد عليه ذلك العمل التقريظي برئاسة أبرشية بعد مدة قصيرة! وهذا ما يثبت لنا أن المساعدة مجدية أكثر في الحكم على نص، منها في اختيار الأساقفة.

آخر الأيام الطيبة في اللورين

كان ستانيسلاس، طوال صيف 1749، يدير بلاطه في كومرسي بكثير من البساطة، وهنالك استقبل مسافرينا الاثنين. وكان شيد في الحديقة الكبرى أجنحة صغيرة، لاستقبال الأشخاص من محيطه. وكان يتوجه لتناول الغداء في بيت هذا

(54) هو الملك الفرنسي لويس التاسع (1214-1270). شارك في الحروب الصليبية، ووقع في الأسر وهو في مصر (1250)، ثم اشترى حريته، وعاد فأجرى إصلاحات كثيرة، وحكم بالعدل. وأخيرًا جهز الحملة الصليبية الثامنة، لكنه توفي بالطاعون في تونس في عام 1270. (المترجم)

أو ذاك، بعد ثلاث ساعات من إحاطتهم علمًا بحضوره. ولم يكن ذواقة ولا شرهًا، فكان ينتهي من وجباته كمن ينتهي من سخرة. فيقوم على الدوام، بتقديم ساعة الغداء، لينتهي منها بأسرع ما يمكن، حتى إن مستشاره، السيد دو لا غاليزيير، قال له مرة: «مولاي، إن تواصل على هذا المنوال، فسوف ينتهي بك الأمر إلى تناول غدائك بالأمس». وكانت المقامرة وسيلته الفضلى لتزجية الوقت، أما لعبة القمار المفضلة فاسمها «لا كوميت» (الشهاب). وإميلي تخسر فيها دائمًا بعنادها المألوف.

كانت السيدة دو بوفليه تمثل زخرف البلاط الصغير؛ إذ استقبلت العائدَيْن بشغف، وكانت تقرض الشعر، ولا تهاب مقاربة الفلسفة، وتقارب كل شيء بفكاهة، حتى معلم أطفالها، الأب بوركيه، الذي كان رقيقًا وضاويًا وجافًا، حتى ليقول عن نفسه: «إني محشو بالقش داخل جلدي»، كانت السيدة دو بوفليه تناكده شعرًا حول المخاطر التي يروجها في شأن عفة النساء:

«في ما مضى، رُقتُ بوركيه
وعرف بوركيه أن يروقني
فصار أكثر تأنقًا
وأنا صرتُ أقل قسوة
وقدرت جمال وشاحه
وأُعجِبت بشعره المستعار
أما اليوم فقد خاب أملي
إذ أعتقد أنه مخنث».

كان سان لامبير بدوره ينظم الشعر؛ فهو في معرض إعداد ديوانه «الفصول» الذي كاد أن يجعل شهرته تطير. واختار الأب دو برني الموضوع عينه. لذا ينبغي الإسراع لأن السيدة دو بومبادور سوف تساند الأثير لديها مساندة قوية، وستعمل ما وسعها لإهمال خصمه. وقد بث ذلك السباق شيئًا من الحرارة في البلاط اللوريني اللطيف. والتقى فولتير أيضًا عدوّه: إنه الأب مينو الذي لقن أفكاره، للأسف، لأمين خزانة الملك وزوجته، أي الزوجين أليو. وقد أغدق فولتير عليهما آلاف

النعم، لكن دونما طائل؛ فالمرأة، على وجه الخصوص، كانت مقتنعة بأن فولتير إنما هو الشيطان بعينه. ورجته، ذات يوم عاصف، أن يخرج من البيت، لأنها كانت على يقين من أن وجوده كفيل باجتذاب الصاعقة. أما فولتير الذي كان يخشى البروق على قدر ما تخشاها هي، فكان مرغمًا على الخروج، مع احتجاجه لدى السيدة أليو بأنه يؤمن بالرب القدير وبنعماته أكثر مما تظن كثيرًا.

ازدادت حدة نزاعهما بشأن مواعيد الوجبات ونوعية الطعام التي لا تتلاءم تمامًا مع صحة الشاعر الهشة. وتوالت المخاصمات في الأمور النافلة، حتى ليظن المرء أنه في مدرسة داخلية. فالشاعر يلوح عاليًا بلقبه نبيلًا في غرفة الملك، وبالعروض المتوالية من ملك بروسيا. وشمخ بأنفه أكثر؛ إذ كيف يسيء أليو معاملته في كومرسي، على غير ما هي في فرساي أو برلين؟

كان السيد أليو أكثر تعقـلًا، وأكثر وقارًا، فردّ ردًا معتدلًا على الرسائل الساخطة والملحة للشاعر المصاب بعسر الهضم. ولم يحظَ بالمعاملة التي حلم بها. قدموا له على الدوام «الخبز والنبيذ والشموع»، وواظبوا على تقديمها له، لكن ذلك لم يكن بكافٍ، فالشاعر يريد أن تُقدمَ له تقديمًا استثنائيًا، فهل كان يرغب في أن يجيئوا في موكب عظيم؟

إلا أن تلك المناوشات بالملاعق والشوَك عُلقت بفعل حوادث فاجعة أكثر.

ثلاثة رجال أرامل ويتيمة واحدة

كانت السيدة دو شاتليه في آب/ أغسطس ذاك تعيش أيامها الأخيرة، منصرفة إلى المباهج كافة التي تسمح لها صحتها بأن تتمتع بها. لكنها كانت تستشعر شؤمًا، وتغير طبعها؛ فصارت لينة العريكة، وما عادت تغضب، وباتت تتقبل كل شيء بدماثة. فما من رجل قط أحيط بحب على تلك الدرجة من الرقة والعمق مثل سان لامبير. قامت بترتيب أوراقها، فجعلت بعضها رزمًا وختمت بعضها الآخر بالشمع، وكتبت رسائل «تُسلَّم في ما بعد» إلى زوجها وخيرة أصدقائها. وكلما غادرها سان لامبير، نهش الحزن قلبها؛ كانت تخشى ألا تكون في قيد الحياة حين يعود.

على الرغم من مخاوفها، وضعت طفلة في 4 أيلول/ سبتمبر 1749، ومن

دون ألم. فأراحتها أيضًا تلك المنحة من هواجسها الكئيبة. ووجدت نفسها قد نجت. ابتهج فولتير وتهلـل فرحًا، إذ كان خائفًا جدًا! وانتقل من الغم إلى فرح جنوني بعض الشيء. فأعلن النبأ على النمط الفكه إلى دارجنتال: «بينما كانت السيدة دو شاتليه تتسلى هذه الليلة بكتابة عن نيوتن، شعرت بحاجة بسيطة، فاستدعت وصيفتها التي لم يُتح لها سوى الوقت لتبسط مريلتها، فتتلقى وليدة صغيرة حملتها إلى مهدها. فقامت أمها بترتيب أوراقها. والجميع الآن نيام بسكينة فيما أنا أكتب لك».

كانت الطفلة في أحسن حال، فجرى تعميدها وتسليمها إلى مُرضِع. وكانت إميلي أيضًا على ما يرام، بيد أنها - وذلك هو دأبها - قامت بعمل طائش. كان الطقس حارًا، وشعرت بالعطش، فشربت كأسًا كبيرًا من شراب اللوز المثلج الذي طلبته، وتخاذلوا فقدموه إليها. فانتابتها، من فورها تقريبًا، أوجاع مبرحة. وهرع الأطباء إليها، فبدا أنها تحسنت. وكانت الآنسة دو تيل هنالك، تشد من أزر صديقتها. ومضى النهار بين بين، والمريضة خائرة القوى. وفي اليوم التالي، ظل الوهن ذاته. أما هي فبدت نائمة. وعند المساء، انسحب فولتير والسيد دو شاتليه وآخرون كانوا يملأون الغرفة، إلى بيت السيدة دو بوفليه حيث تناولوا العشاء. ولبث عندها كل من سان لامبير والآنسة دو تيل ولونشان. وحالًا بدأت التعيسة تحشرج، وغابت عن الوعي. فاستُدعي السيد دو شاتليه وفولتير والسيدة بوفليه، لكن حين وصلوا كانت إميلي قد فارقت الحياة. نسوا استدعاء كاهن! وكتب فولتير يقول: «لم تعرف أهوالَ الموت قط. ولم يشعر بها إلا أصدقاؤها».

لبث فولتير وسان لامبير وحدهما مع إميلي المسكينة. كان فولتير مسحوقًا، فشرع يهيم على وجهه في القصر، شارد اللب، وتعثر عند أسفل أحد الأدراج فسقط قرب مرقب الحرس، فجُرحت جبهته فوق البلاط. وكان سان لامبير يتبعه، فوجده على ذلك النحو، فأقبل يساعده على النهوض، فيما قال له الآخر وهو ينشج: «إيه! يا صاح، إنما أنتَ الذي اختطفتَها مني فقتلتَها». ثم استولت عليه تلك الحركات التراجيدية المألوفة طبيعيًا لديه، مثل حالات التهريج، فهب واقفًا كما تمثال اللعنة، ومد يديه المعروقتين كيدي ساحرة نحو سان لامبير الذي وقف مذهولًا، فصاح به: «ولكن، ما الحكمة التي جعلتك، أيها السيد، تستولدُها طفلًا؟».

ومن نافلة القول إنه هو، لم يفكر قط في جعل عشيقته تضع طفلًا. ولو أنه حاول، لما حقق سان لامبير ذلك النجاح التعس. بقي الآن أن يُحاط بالنبأ الرهيب أولئك الذين أحيطوا بنبأ الولادة علمًا، لكن علينا أن نبقى مطمئنين: فلم يغرق من أحد في بحر الدموع المسكوبة، كما لم تتخل الكوميديا عن حقوقها كافة.

تذكر فولتير، على حين غرة، خاتمًا تضعه إميلي في إصبعها على الدوام، ويمكن لفصه المتحرك أن يكشف عن صورة منمنمة للشاعر. فطلب إلى لونشان أن يتوجه، على جناح السرعة، ليأتي بذلك الخاتم من إصبع الفقيدة. فأجابه لونشان بأنهم أعطوه للسيد دو شاتليه. ورغب فولتير في أن يمنع السيد دو شاتليه من أن يرى صورته، إذا ما فكر في تحريك حجر الخاتم. فأرسل لونشان مجددًا لتقصي الأخبار، فيما شرع يذرع المكان جيئة وذهابًا، وقد عيل صبره. لكن علينا أن نطمئنه؛ فالسيدة دو بوفليه فتحت الخاتم وانتزعت منه الصورة، لكن الصورة لم تكن صورة فولتير، بل صورة سان لامبير! وهدأ روع شاعرنا لكنه شعر بجرح أعمق. وهتف العاشق المخلوع قائلًا: «إيه! أيتها السماء، هاكِ حقيقة النساء. أنا الذي خلع ريشوليو، فجاء سان لامبير وخلعني. ويأتي مسمارٌ فيطردَ آخر[55]. تلك هي حال الأشياء في هذه الدنيا».

وإن للفلسفة ضرورتَها في بعض حالات الغضب والقنوط.

غير أن ما يثير يأسنا وقنوطنا نحن، هو اختفاء المراسلات الضخمة بين فولتير وإميلي. والأرجح أن يكون سان لامبير قد قام بإتلافها في تلك الأيام الحزينة؛ إذ كان لنا أن نقع فيها على فولتير يغازل إميلي بدلال، متحدثًا إليها في أمور الفلسفة، ونيوتن، والإلحاد. ولكم كُنا رأيناه في تلك الرسائل حرًا أكثر منه في أي مكان آخر. إلا أن ذلك كله ذهبَ طعمةً للنيران...

احتُفل في باريس بموت «أوراني الربانية»، بالهزء والسخريات اللاذعة. فما كانوا في باريس يحبون إميلي قط. لقد كانت متفوقة على من تألف من الببغاوات كافة. وما كانوا يحبون فولتير للأسباب نفسها، وغيرها كثير؛ فالغيرة ترشح من كل جانب حتى في البلاط والمدينة والمسرح والصحف والسواقي.

---

(55) أي لا يفل الحديد إلا الحديد، فيما يقول مثل شعبي: «جَمَلْ مَطرحْ جَمَلْ يَبْرُكْ». (المترجم)

فكتب أحدهم يقول: «علمتُ أن السيدة دو شاتليه ماتت بالأمس عقب الولادة. وعلينا أن نأمل أن يكون ذلك آخر لحن تعزفه؛ فالموت في أثناء الولادة لمن في سنها، إنما هو دليل على رغبة في التفرد، وهو الزعم أنها لا تفعل من شيئ كما الآخرين».

هذه هي الشاهدة التي كُتِبت لها، والتي كانت تُقرأ على العشاء، وسط الضحكات المجلجلة (وهي تُنسَب إلى فريدريك الثاني. فلِم لا؟ وجدير به أن يكون من أولئك «المتحذلقين»):

هنا ترقد تلك التي فارقت الحياة
في أثناء ولادة مزدوجة
فقد وضعت بحثًا فلسفيًا
ووضعت طفلة شقية.
ولسنا نعرف تحديدًا
من منهما ذهب بها
ولا في هذه الواقعة المشؤومة
أيًا من الاثنين ينبغي أن نلاحق؟
فسان لامبير يتهم الكتاب
وفولتير يقول إنها الوليدة.

لم تكن إميلي خالية من العيوب، لكنها تفضُل، بما لا يُقاس، أولئك الذين ينتقصون من الجثث. فما من أحد يتحدث عن عملها العملاق في ترجمة نيوتن! وما من أحد يتعرض لتلك الصداقة الرائعة التي دامت سبعة عشر عامًا، بين طبعين عنيدين تناغما في نوع من الحنان القائم على الود والإعجاب المتبادلين، أكثر منه على الشهوانية.

أما فولتير، فكتب هذه الأبيات تحت صورة معبودته:

«فقدَ الكونُ إميلي السامية
التي أحبت المباهج والفنون والحقيقة.

وحين منحها الأرباب روحهم وعبقريتهم
لم يحتفظوا لأنفسهم إلا بالخلود».

الحب هو على حق، فذلك ما لا ريب فيه، إنما إميلي الحقيقية هي إميلي فولتير. فتلك الأعوام من الصداقة كانت الأسعد بين سني فولتير، والأكثر خصبًا. ولسوف لن تُعوَّض إميلي أبدًا. فالعزلة الدراسية في سيري جعلته في مأمن من أخطار باريس. كما أن نظام الحياة وأناقتها بالقرب من تلك السيدة العظيمة عرفت كيف تحد من هيجانه. ولئن لم يستطع أن يتفادى الشراك كافة، فقد تفادى أخطرها. وأحاطته إميلي بذلك الجو من خيار الصحب والفخامة: فخامة الروح كما الأثاث. وهي جاءته بالسكينة والنظام و«بالفائض، الذي يغدو ضروريًا جدًا» لتفتح عبقرية مثل عبقرية فولتير.

فن تجرع العذاب والتجمل بالصبر

ماذا سيحل به؟ فهو يجد نفسه، أولَ مرة في حياته، وقد بلغ الخامسة والخمسين، بلا معين ولا مأوى. ولم يبدُ الكون يومًا أكثر قفرًا في نظر رجل كان المجتمع حياته كلها، في حين عوضته إميلي عن باقي العالم. ومرة أخرى كان ستانيسلاس في منتهى الكمال: أقام لإميلي مأتمًا غاية في الضخامة، وكان يأتي ثلاث مرات في اليوم إلى الشاعر المفجوع، ليزوره في غرفته، فيبكيان معًا. أما في الغد، فما سيحل بفولتير؟ فكثيرًا ما اعتقد أنه سيموت فتيًا، وأن إميلي ستعيش من بعده، فيظن أنها هي التي ستُغمِض له عينيه في سيري. فإلى أين يتوجه الآن؟ فكر في بدء الأمر في الاعتزال عند الرهبان البندكتيين في سينون، حيث لآل شاتليه صديق كان فولتير يحبه، هو دوم كالفيه، كما فكر في الرجوع إلى إنكلترا إلى عند اللورد بولنبروك. لكنه لم يختر هذا التوجه ولا ذاك، بل عاد إلى سيري مع الأرمل الآخر؛ الأرمل الشرعي. وإنها لعودة مشؤومة إلى المسكن الزوجي! فقد كان يخشى تلك المجابهة، لكن الأمور سارت على خير ما يرام: فقد عاد إلى سيري، ليجد حبيبته إميلي، ويجدها حية وسعيدة مثلما عرفها على الدوام. فهي ماتت في لونيفيل، وهنالك رآها ميتة. أما في سيري، فهي خالدة. وكتب إلى دارجنتال: «أنا لم أفقد عشيقتي، بل فقدتُ نصف ذاتي، فقدتُ روحًا خُلِقَت من أجلها روحي، وصديقة رأيتُها تولدُ منذ عشرين عامًا. فالأبُ الحنون لا يحب ابنته

الوحيدة على غير تلك الصورة. أحب أن أقع على ذكرها في كل مكان، ويروقني الكلام مع زوجها ومع ابنها. فالآلام في نهاية الأمر لا تتشابه، فهذا ألمي وهذا هو شكله».

يا له من صدق موجع يتكشف عنه ذلك التصريح الجلي البيّن! لكن ذلك الحب «الأبوي» ليس خاليًا تمامًا من الاشتهاء. ويبدو أن فولتير لم يعرف يومًا أن يميز بين عواطف الحنان الأبوية وعواطف العمومة أو الخؤولة والعواطف الأخرى... وهنالك ابنة أخيه، السيدة دوني، فكيف كان يحبها؟ إن لديه، حيال الصلات العائلية، شعورًا فريدًا جدًا. ولسوف يقدم لنا عما قريب موضوعًا، لا ليجعلنا ندع الموضوع جانبًا فحسب، بل لكي نرد عليه أيضًا.

أما الآن، فهنالك أسئلة أخرى تطرح نفسها علينا. هل الهوى الجامح الذي شعرت به إميلي حيال سان لامبير أتاح لها أن تحافظ على فولتير مثلما حافظت على السيد دو شاتليه؟ وذاك الآتي الأخير، هل رضي رضًا أبديًا بذلك الاقتران الثلاثي؟ وهل كان عشقه للسيدة دو شاتليه سيصمد مدة أطول في وجه ذلك الوضع المغلوط، أم في وجه الاستنزاف؟ وماذا عن الرأي العام؟ وعن السيد دو شاتليه؟ لا ريب في أن الزوج كان كما المجتمع، على جانب كبير من التسامح، بل ذهب بهما الأمر إلى حد حماية الثنائي الشهير والفاضح بعض الشيء، لأن المرأة هي إميلي، ولأن الرجل هو فولتير. ولكن ما الحال مع سان لامبير؟ يبدو أنه كان للمستقبل أن يصير مظلمًا في وجه إميلي. فسان لامبير فتي، بل فتي جدًا، فكان سيطلق جناحيه سريعًا، لتظل إميلي بلا عزاء. وكانت في أي حال الضحية المعنية، إلا أنها بموتها وضعت حلًا للمعضلات.

رحل فولتير، بمساعدة السيد دو شاتليه. وجرى حزم ما يرغب في حمله من سيري: الكتب، وبعض قطع الأثاث، واللوحات، والتماثيل التي وُضِعت في براميل محشوة بالقش. وتحرك الموكب الكبير فظل السيد دو شاتليه وابنه في منزل فرغ حتى النصف من أثاثه، وفرغ كليًا من روحه. أعطاهما فولتير المبالغ التي جرى إنفاقها كافة من أجل الترحيل والتسوية، وذلك بعد مساومة جرت بينه وبين السيد دو شاتليه، بعيدًا عن العيون.

بكى بدمع حار، وهو يغادر سيري. فها هو ذا يفقد إميلي مرةً ثانية. كان مريضًا، بل مريضًا جدًا، ولم يكن في الأمر من خدعة قط. كان يعتقد أنه مقبل على

الموت، ولا يريد أن يُدفن في باريس. وكتب في ذلك الشأن إلى الأب فوازنون يقول: «لدي نفور رهيب من أن أُدفنَ في باريس، ولسوف أقول لك أسباب ذلك». أما نحن فنعرف الأسباب: فلسوف يرفضون في باريس أن تُقامَ له طقوسٌ جنائزية مسيحية، ويكون مصيره كمصير أدريين لوكوفرور، وإن ذلك الهلع من الحفرة الجماعية ليتسلط على أفكاره. فكان يسافر على مراحل قصيرة، ويقوم بتصحيح كاتيلينا. ولدى مروره برانس، اكتشف ناسخًا ممتازًا، فعيّنه لديه واصطحبه. وكان ذلك الخطاط الممتاز قد قال أبياتًا حماسية في التراجيديا الكئيبة التي تولى نسخها بحماسة.

أقام في شارع ترافرسيير، في باريس. وتخلى له السيد دو شاتليه، كي لا يكون أقل منه كرمًا، عن حقه في القسم الذي كانت تشغله إميلي من المنزل. ولما كان فولتير وحيدًا جدًا ومريضًا، رغب في تأجير طابق منه، بل عرض على صديق له أن يأتي فيشاطره بيته ومعيشته. لكن العرض لم يبدُ مغريًا، فظل بلا جواب.

كان أشبه بروح شقية؛ فالحزن العميق يجعله طائش اللب. كان يمضي تائهًا في الحجرات يتحدث وحيدًا بصوت عالٍ إلى حبيبته إميلي. وباح بتشوشه لأصدقائه، فشرع فريدريك (سليمان الشمال) يتهكم، لأنه لم يعتقد بصدق ذلك الألم، حين كتب يقول: «يبالغ فولتير كثيرًا في الكلام على غمه، ما يجعلني أرى أنه سوف يتعزى سريعًا». وذلك ما لا ريب فيه. لكن فريدريك يخلط بين أمرين: صدق مشاعر فولتير، وحيويتها. إن فولتير يلتهب، فيطلق بروقًا كبيرة تقوم على الإبهار، وإن لم تدُم إلا قليلًا. لكن من الخطل الحقيقي اتهامه بالتظاهر في تلك المناسبة. فنحن نعرف أنه من طبيعة لا تجعله يفني نفسه في عذاب أبدي. أما في الوقت الراهن، فالعذاب يضيق عليه الخناق، وإنه ليفوق القدرة على التحمل. وعلى ذلك فسوف يتخلص منه، لكن الأوان لمّا يزل بعيدًا. وذات يوم وجده سكرتيره أشبه بمعتوه يئن ويتعثـر، فيسقط أحيانًا وهو يتلفـظ باسم المتوفـاة. عندئذٍ اتخذ لونشان القرار بشفاء سيده من ذلك الغم الذي قضى بأنه متطرف، وذلك بإطلاعه على رسائل كانت إميلي قد كتبتها إلى سان لامبير، وفيها تسخر من فولتير. وشعر التعيس على إثرها، وفقًا لقول لونشان، بخيبة أمل حارقة، حتى إن دموعه قد جفت على الفور. وليس ما هو أقل إقناعًا من نجاعة ذلك العلاج الأليم؛ إذ كان في وسع فولتير أن يشفي نفسه بنفسه. ومن ناحية أخرى، ألم يكن لديه بعض أشكال السلوان؟ فليس هناك من تخطر في باله، أما نحن فنعرفها...

هل كان وحيدًا؟ لم يكن وحيدًا على قدر ما يقول لونشان. كان يستقبل آل دارجنتال وريشوليو ومرمونتيل والأب مينيو، وابن أخته، وبنت أخته أيضًا، السيدة دوني. لم تكن تلك المرأة الطيبة تقيم بعيدًا، فغالبًا ما تأتي. ولسوف تقوم بما هو أفضل: سوف تأتي لتقيم على الدوام. وكانت السيدة دوني تنتظر مجيء عيد الميلاد، لتقدم إلى خالها تلك الهدية الضخمة؛ ذلك أنها لم تكن هيفاء، والأحرى أنها كانت تنتظر المكان الذي خلفته إميلي خاويًا، كي يبرد بعض الشيء. فهي العزاء!

المتفقُ عليه أن المسرح هو الذي سيقوم، بالدرجة الأولى، بانتزاع فولتير من أحزانه. لقد غير اسم كاتيلينا التي سوف تدعى باسم روما الناجية (*Rome Sauvée*). وهو يريد تقديم تلك التراجيديا كي يعترف كريبيون بأن خصمه عالج الموضوع ذاته، فحقق الفوز من حيث لاقت كاتيلينا الخاصة به الإخفاق الذريع. وإذا ما سقط كريبيون، لذلك السبب، مريضًا، فسوف ينتقل فولتير فورًا من الحداد الكبير إلى نصف حداد، وذلك أمر مؤكد. لكن يا له من حساب عجيب! يبقى أن كريبيون نفسه هو رقيب، ومنه يُنتظر الإذنُ لتقديم تراجيديا، من الواضح أنها كُتِبَت ضد مسرحيته هو! فتوجه فولتير لزيارته وشرح له أن المصادفة الخالصة قادت قلمه ليسلك الدروب التي جنى منها الرقيب الشهير أكاليل الغار التي توّجت مسرحيته كاتيلينا... إلخ، مع تزلف لا يكاد يكون مقبولًا. وتظاهر كريبيون بالغباء فمنح التأشيرة. لكن ذلك لم يحُل دون أن يقول في فولتير إنه «رجل لئيم جدًا».

لم يكن العرض الأول متألقًا، فشعر الجمهور بالملل. كانوا يتكلمون ويسعلون ولا يصغون. وكان فولتير يختبئ داخل مقصورة متماوتًا. وبغتة جاء مقطع طويل، ليجتذب الانتباه، فيثير الأشجان. وعلا التصفيق. فهب فولتير واقفًا، وانحنى فوق الصالة صائحًا: «اصمدوا، أيها الأثينيون، هذا من عمل سوفوكليس!»، وظل أثينيو باريس عند ذلك الحد. أما المسرحية فارتدت متراجعة. فدوّن المقاطع المستهجنة وأعاد صوغها. وتوجه لرؤية الآنسة كليرون التي كانت تؤديها، فرجاها أن تعذره لإجراء تعديلات أخرى على مسرحيته مغايرة للتعديلات التي دلها عليها؛ فهو يعامل أميرات خشبة المسرح بالاحترام الموجه إلى صاحبات السمو الملكي، والحق أنهن كن ذوات طباع أسوأ كثيرًا.

إن ذلك الكم الكبير من التعديل جعل فونتونيل يقول إن فولتير «الكاتبُ عجيبٌ جدًا، لأنه كان يصوغ مسرحياته في أثناء عرضها».

قيل إنه كان يعطي بنفسه للمصفقين إشارة البدء بالتصفيق، وإنه لاحظ مرة أحد المشاهدين ساكنًا فصاح به ليرغمه على التصفيق، فأجابه الآخر بجفاء إنه لا يجد في نفسه أي رغبة في ذلك. فصاح به فولتير:

– ما اسمك؟

فرد الآخر قائلًا:

– روسو.

– أي روسو؟ روسو الصغير...».

جرى ذلك كله في أثناء العرض. وفجأة نهضت في وجه فولتير امرأة طويلة القامة ومسترجلة، فقربت من الوجه الصغير والمتغضن للشاعر كفًا ضخمة أقرب إلى مخباط للغسيل، ووعدته، ما لم يصمت، بأعظم صفعة في العالم. فولى فولتير هاربًا، وانفجرت القاعة بالضحك. ولقد أحسن صنعًا بهروبه، لأنه كان سيتلقى بكل تأكيد صفعة تلك المرأة، وهي السيدة لو با، زوجة النحات الشهير عند الملك، وعضو أكاديمية الفنون الجميلة. ولم تكن أقل شهرة من زوجها، لكن شهرتها تسود في قاعة المسرح الوطني، بسبب نداءات التعنيف والصفعات التي كانت توزعها.

السيدة دوني تظهر على المسرح فتظل فيه

عقب تلك الغارة، تراءى لفولتير أن روسو الذي هزئ به هو جان جاك. ولم يكن ذلك بصحيح، لكن جان جاك أحيط بالأمر علمًا، فكتب إلى فولتير، متبرئًا من التهمة: إنه لم يكن في الصالة في ذلك المساء، ولا يسعه في أي حال من الأحوال أن يسيء إلى السيد دو فولتير. وكان جان جاك، حتى ذلك الحين من شهر كانون الثاني/ يناير 1750، لا يزال شبه مجهول، لكن بعد ذلك ببضعة شهور سوف يغدو شهيرًا.

هكذا، وبعد أربعة شهور على وفاة إميلي، استعادت الحياة حقوقها، بفضل المسرح. ولم يرتكب فريدريك الثاني غير خطأ وحيد: لقد تحدث باكرًا جدًا عن السلوان.

استقرت الأرملة دوني في شارع ترافرسيير، مع حلول عيد الميلاد في عام 1749. كان زوجها قد توفي قبل ذلك التاريخ بخمسة أعوام، وتعزت في تلك الأثناء. تميزت حالات بكائها بالغزارة أكثر منها بالاستمرار، ثم وجدت خالها قد عاد تقريبًا إلى وضعه الطبيعي، فقاما معًا بدمج ترملهما، في السراء والضراء.

سعت السيدة دوني في بدء الأمر للحصول على تعويضات من باكولار دارنو الذي رغب في الزواج منها؛ إذ انخرط الاثنان في غزليات القول والكتابة، ثم في أشكال أخرى أقل أفلاطونية بلغت نهايتها الطبيعية.

بالغ فولتير في مداهنة ابنة أخته؛ فالمعاصرون أقل منه كلفًا بها. فالخال ينسب إليها الذكاء، وهي لم تكن إلا مهذارة وقليلة التحفظ. وكانت تنسب إلى نفسها الرخاء والحرية، فسقطت في التهتك. ولو أُضيفت إلى سلوكاتها وجمالها - بل إلى فتنتها - ذرة من الفطنة، لاستطاعت الخروج من ذلك مثل أخريات كثيرات، وبشيء من العز والمكاسب. لكن ابنة الأخت كانت تعوزها تلك الفضائل السماوية البعيدة المنال. كانت نهمة وشهوانية، فتأكل حتى التخمة، ولسوف تتضخم. أما، وهي بلا شفقة، فالسنون تمر عليها مضاعفة. كانت تلك الإوزة تؤدي زايير وكان خالها مفعمًا طربًا (وإن الخال لعلى حق، ذلك أنه يحب عشيقاته محبة أبوية). وذات يوم، رغب أحد المتملقين في أن يداهن الخال، فهنأ ابنة الأخت على حسن أدائها، لكنها تصنعت التواضع قائلة بصوت خافت: «ليتني كنت أصغر وأجمل». وتولى آخر التعليق فأضاف: «الحق أنك البرهان على عكس ذلك».

بيد أن مرمونتيل الذي كان على أطيب علاقة مع الثنائي وأصفاها، قال: «إنها امرأة محبية على الرغم من أنها دميمة»، فما عاد في ذلك من شك. وإن الرسامين الذين قاموا بتصويرها تملقوها. وكانت تقلد طرائق خالها، فيسبغ ذلك عليها مظهر رهافة وطلاوة حديث. وهو ثمن يتراكم على ضحالة ممتلكاتها.

يشاء سوء الطالع أن تبدي رغبة في استخدام الريشة وكتابة كوميديات. فأثار ذلك الميل قلقًا لدى فولتير؛ لأن الكوميديا، ما إن تُكتب، حتى تتلوها الرغبة في تمثيلها، أما إذا لم يضحك الجمهور، فإن الكاتب والممثلين والخال سوف يجهشون بالبكاء. وهكذا، خنق تلك العبقرية في مهدها لأنها غير واعدة.

كان البلاط والمدينة والشعب شغوفين بالمسرح، وكانت خشبات المسرح تُبسَط أينما كان. كان الملك وكبار الأسياد يمارسون التمثيل في فرساي، في الاجتماعات المغلقة. وكانت العروض تُقام في الساحات والمعارض والباحات الخلفية والصالونات وحتى في السقائف. ولاحظ فولتير في أحد تلك العروض ممثلًا شابًا بدا له أداؤه مدهشًا، دِقـةً وقوةً وحيوية. فدعاه إلى زيارته في شارع ترافرسيير، فاستقبله معانقًا وقدم له القهوة والشوكولاته وكلمه عن موهبته بحمية ملأت رأس الشاب نشوة. اكتشف فولتير لوكان، وهو أحد أعظم الممثلين الذين عرفتهم فرنسا موهبة. كان لوكان دميمًا، وكانت دمامته معبرة، إلا أنها شكلت عائقًا في وجهه، فكان عليه أن يتخطى ذلك الحاجز بقوة الموهبة والعمل. قال لفولتير إن لديه بعض الممتلكات، وإنه سيكرس ملكيته كلها للمسرح، بسبب شعوره بأنه لن يستطيع العيش إلا فوق خشبة المسرح. وبوغت فولتير كما افتتن بسبب تلك التضحية فهتف قائلًا: «إيه! لا تفعل ذلك أبدًا، صدقني! مارس التمثيل المسرحي لمتعتك، لكن إياك أن تجعل منه حياتك كلها». وقام على الفور بإقراض ذلك الشاب مبلغ عشرة آلاف ليرة لمساعدته على تدبر أموره، قائلًا: «سوف تردها إلي ساعة تستطيع ذلك».

لم يكن المقصود بذلك تقديم صدقة (المبلغ يساوي عشرة ملايين من الفرنكات الفرنسية القديمة). فيا لها من عفوية في تقديم ذلك المال لهذا الشاب! بل إن جان جاك روسو، الذي لم يحب فولتير قط، اعترف بجمال تلك الاندفاعات من الأريحية: «لا أعرف رجلًا واحدًا على سطح الأرض كانت مبادراته الأولى أجمل». ويضمر روسو وجود السلوكات الأخرى، لكنها لا تمحو الأولى. ولنقل نحن إن الأخرى قائمة كالأولى، لكن ذوي النيات السيئة يريدون الإفراط في النسيان.

صُعِق لوكان بفعل ذلك السخاء كله. وقبل أن يدعه فولتير ينصرف، طلب إليه أن يلقي على مسمعه بعض الأبيات من الشعر. فاختار الآخر، دونما عمد، نصًا من شعر بيرون. وتعرّف فولتير بسرعة عدوه اللدود فصاح به: «أبدًا! لا أريد شعر بيرون! لا أريد شعرًا رديئًا. هاتِ شيئًا من راسين». فتلا عليه لوكان مقطوعة طويلة من أبنر. ولم يقوَ فولتير على الإصغاء حتى النهاية، فانخرط في البكاء، وأخذ الإعجاب بخناقه، فاحتوى لوكان بين ذراعيه، ثم أقسم له على أنه سوف

يمسك ذات يوم بباريس، تحت تأثير سحره، على نحو ما هو يمسك بفولتير في تلك اللحظة.

ثم أوعز، لكي يؤوي كلًا من راسين ولوكان تحت سقفه، ببناء مسرح صغير في العليّة تحت سقف المنزل، إلا أنه بدأ بعرض تراجيديته هو، محمد، أمام ريشوليو وآل دارجنتال وابنة أخته والخدم. وقامت فتاة ساذجة، كانت تؤدي دور بالمير، بإلقاء الأبيات الرهيبة، بنغمة فيها غنج وتدلل، فاغتاظ منها الكاتب وناداها قائلًا: «تخيلي يا آنسة أن محمد غشاش ومنافق وفاسق، وأنه طعن أخاك بخنجر ثم جاء ليسمم أباك، وأنه عازم عزمًا أكيدًا على أن يتوج تلك الأعمال الخيرية باغتصابك. ولئن كانت تلك المكائد كلها تروقك، لأنتِ على حق في مجاراته على نحو ما تفعلين، أما إن كان ذلك يسوؤك بعض الشيء، فهاك كيف ينبغي أن تقولي...»، وانطلق الشاعر بجسده الهش، فاعتلى خشبة المسرح مدفوعًا بنبض قوي، وشرع يخطب منشدًا، فيجأر بالصراخ ويضطرب كالممسوس، معبرًا عن الهول واليأس في ذروتهما. وظلت الصغيرة المسكينة لاطية مرتعدة، بيد أن الدرس كان بليغًا، فوضعت ذلك في اعتبارها وحسنت من أدائها، إلى أن حكم عليها لوكان، في ما بعد، بأنها ممثلة جيدة للمسرح.

صمم فولتير على أن يجري في بيته بشارع ترافرسيير، تقديم تراجيديته روما الناجية. ونذر لوكان وأصدقاؤه أنفسهم من غير حساب. وعمل ريشوليو، وهو القادر، على أن تُنقلَ من المسرح الوطني إلى العليّة، الديكورات والملابس التي دفع الملك ثمنها من أجل كريبيون. وكانت قائمة المدعوين رائعة: دوقان هما ريشوليو ولا فاليير، ثم دالامبير وديدرو ومرمونتيل، ثم ثلاثة آباء، منهم أكاديميان، وعدد من الرجال المرموقين ورجال الكهنوت. وشكل ذلك الجمهور نجاحًا للمسرحية. وانتشر نبأ ذلك النجاح في باريس انتشارًا سريعًا، وتضخم على قدر ما كان عدد المدعوين محدودًا. وصارت عليّة فولتير بين ليلة وضحاها، المكان الأكثر أناقة في باريس والأشق منالًا. وينبغي ألّا يستأنف العرض مرة واحدة، بل عشر مرات. وعمل فولتير على إضافة مقاعد طويلة ومدرجات على الجوانب، بين دعامات السقف: إنها المقصورات، فتوصل إلى استقبال مئة شخص. وسعى الوزراء والسفراء لالتماس الدعوات، ولم يحصلوا عليها إلا بشق الأنفس.

وجد فولتير في ذلك النجاح متعة مركّبة، ما كان الثأر ببعيد عنها؛ إذ كان ممثلو المسرح الوطني في حالة من الغيظ. ألم ينظروا بازدراء إلى روما الناجية؟ وها هو ذا الجمهور الأصعب يرتقي بها حتى النجوم. وبعث إليه البلاط ببسمة، إذ اختارت السيدة دو بومبادور مسرحية ألزير لعرضها في المقصورات الملكية. وكانت المرة الأولى التي يتم فيها تقديم تراجيديا فوق مسرح له تلك الصفة الحميمية. وكان العرض غاية في الكمال. ثم تكرموا في العرض الثاني فدعوا فولتير. وقال الملك بصوت عال: «إنه لمن المدهش أن يكون مؤلف ألزير هو أيضًا مؤلف أوريست (Oreste)». وكان لطفًا أن يشيد بنجاح ألزير، لكنه تذكير بفشل أوريست. وكان لويس الخامس عشر يهوى لعبة الغمزات واللمزات التي كان فولتير يتألق فيها. إنه أسلوب العصر، وغالبًا ما يكون موجعًا.

في يوم من الأيام، قال الملك لأحد رجال البلاط: «ها أنت تشيخ، فأين تريد أن يدفنوك؟»، فردّ ذاك عليه قائلًا: «عند قدمي جلالتكم». فوضع الملك ذلك في اعتباره.

ولم تكن بسمات البلاط قط حارة جدًا بالنسبة إلى فولتير.

ولادة أفعى

كان الأب المرهوب الجانب ديفونتين قد خلف لدى وفاته إرثًا مسمومًا: ترك لفولتير واحدًا اسمه فريرون، سوف يراقب الشاعر، فينغص عليه عيشه ويؤرق بالَهُ ويتسبب له بالحمى، ويغيظه، إلى حد جعله ينظم قصائد لا تليق بموهبته. وبكلمة موجزة، ليس هناك من مبرر لوجود فريرون «سوى التسبب بقتله». وليس هناك من نجح في مسعاه، بين أعداء فولتير كافة، إلا هذا الرجل، فهو جدير إذًا بالتحية.

ولد فريرون في كيمبيه في عام 1719. كان تلميذًا لدى اليسوعيين، بل علم في مدرسة لوي لو غران، حيث وقع في الأرشيف التربوي على شيء من الآثار المضيئة التي خلفها التلميذ أرويه. وقد برز بوصفه أستاذًا متميزًا. كان فريرون صاحب ذوق رفيع ودقة ومهارة، وكان متمرسًا في خفايا الإنشاء الأدبي كافة. ثم تدرب على النقد على يد ديفونتين ومن في محيطه؛ أي على نزاهته الأدبية

والمشاعر التي تعتمل في نفسه حيال فولتير. فلم يكن يعوزه الغدر ولا اللؤم ولا العناد. أما تلك المواهب الغنية، مكتسبة أكانت أم طبيعية، فوضعها في خدمة المعتقدات التقليدية، التي ما كان يحبها رغم ذلك، بأكثر مما كان يكره الأفكار الجديدة. وكان يهاجم تلك الأفكار في شخص الفلاسفة، على قدر مهاجمتها في أعمالهم. وكان فولتير، في نظره، الهدف الأبرز بين الأهداف كلها.

انضوى للقتال تحت الراية المرية لديفونتين، الذي كتب بالتعاون معه **ملاحظات في الكتابات الحديثة**، وبعده، **أحكام في بعض المؤلفات الجديدة**. ثم أصدر لمصلحته الخاصة دورية بعنوان: **رسائل إلى الكونتيسة س... عن بعض الكتابات الحديثة** التي يتناول فيها بخسّة ودناءة سمعة الكاتب، من غير أن يقيم اعتبارًا لـ «مشاعره الطيبة»، فانتهى الأمر بالشرطة إلى حجب تلك الصحيفة في عام 1746. فعاد واستبدل بها في عام 1749 **رسائل في كتابات هذا الزمان** التي اتخذت في عام 1754 اسم **السنة الأدبية**. وفي تلك الدورية تحديدًا خرق فولتير بأوجع سهامه، وأفضلها تسديدًا، وأحسنها استقبالًا في الأغلب.

رُزِق فريرون هذا بابن، كان له أن يصير في ظل الثورة، بطل الأفكار المعارضة لتلك التي كان أبوه يشهرها في وجه فولتير، لكنه أدخل في صراعه التصلب عينه، إلا أن صراعه لم يكن أدبيًا. وعلى الرغم من تعاونه مع صحيفة ذات عنف نادر: (*L'Orateur du Peuple*) (خطيب الشعب)، فقد تميز أكثر من بين منظمي يوم 10 آب/ أغسطس، ومذابح أيلول/ سبتمبر. أما وأنه ذبح ما فيه الكفاية في باريس، فقد بعثوا به لتنظيم مذابح طولون. في المحصلة، كان متطرفًا ومتزمتًا كأبيه. والأرجح أنه كان قمينًا بإرسال فولتير إلى المقصلة من أجل «مبادئ» تتعارض مع تلك التي كان فريرون الأب يتمنى أن يُشنق فولتير من أجلها. ولكم هي إنسانية فولتير غريبة عن تلك «المبادئ» المسعورة!

كيف بدأت الحرب بين فولتير وفريرون؟ بدافع من الغيرة، نظم فريرون قصيدة تمجيد بالملك، بمناسبة النصر في فونتونوا، فطغت قصيدة فولتير عليها تمامًا. ولم يظهر غيظ فريرون إلى العلن من فوره، ولا بشكل مكشوف؛ إذ كان بارعًا جدًا، فقام بإطراء قصيدة فولتير: لكن كيف له أن يكون منصفًا وحياديًا ما لم يقدم نقدًا؟ ساق إذًا هجماته، فناقشها وفندها، وكان أن خرجت القصيدة،

باختصار، من ذلك الإطراء الفريد مهلهلةً. ولما كان ديفونتين قد زوده بأرشيفه، نسخ فريرون هجمات قديمة جدًا لا تتعلق بمؤلفات فولتير فحسب، بل بشخصه أيضًا. فيسعنا أن نقرأ، بين ما ورد من كلام مهين، هذه السطور التي صدرت تهاجم فولتير في عام 1735: «كان يستعيض، في مخالطته العظماء، عن الضيق الذي ينتابه مع أقرانه. فهو حساس دونما تعلق، وشهواني من غير شغف، واجتماعي من دون صديق، ومنفتح بلا صراحة، ومتحرر أحيانًا من غير أصالة». وإن في ذلك الصحيح والخاطئ. وفولتير لن ينسى ذلك الكاتب الخبيث اللسان، على الرغم من أنه توارى عن الساحة الأدبية خلال أعوام قلائل. والحال أن فريرون نُفيَ في عام 1746 إلى بار سور أوب على أثر منع دوريته رسائل إلى الكونتيسة س... من الصدور لأنه هاجم في تلك القصيدة الهجائية كاهنًا، «هو أصغر الأكاديميين سنًا في فرنسا... وهو كاهن شهير من حيث نبل محتده، وبسبب قصيدتين غنائيتين نظمهما»، وقد وجد نفسه «لدى إتمامه مرحلته المدرسية العليا ينال أسمى رتبة أدبية». وقالت «كونتيسة» فريرون (المجلة الأدبية) لدى حديثها عن ذلك الكاهن الوردي الذي لمّا تنبت لحيته: «شعرت بأقل غيظ انتابني في حياتي لأني امرأة». وتعرف الجميع في ضحية فريرون على بابيه لا بوكتيير: الأب دو بِرني، الأثير لدى السيدة دو بومبادور.

رجع فريرون من بارسور أوب في عام 1749 فأصدر صحيفته الجديدة. اشتم فولتير من فوره رائحة الخطر، فسأل دارجنتال إن كانت السجون غاصة بالنزلاء، وإن كان فيها من مكان لفريرون. وكانت مخاوفه في مكانها: هاجمه فريرون منذ العدد الأول، وهاجمه في شأن مسرحية لا تحمل توقيع فولتير، لكن ذلك لم يخدع أحدًا؛ إذ لا يستطيع فولتير الاعتراف بمسرحيته، ولا الدفاع عن نفسه، فيلوذ بالصمت، لكنه يختنق غيظًا. ويتجرأ فريرون فيكرر الجرم. ويتقدم فولتير بشكوى إلى مأمورية الشرطة: فليسجنوا فريرون، فليسجنوه بسرعة! ويتوجه مباشرة إلى السيد دارجنسون، وإلى أصدقائه كافة لمحاصرة الوزير. فينبغي للوزير الأول في مملكة فرنسا، ألا يسمع منذ المساء وحتى الصباح أي كلام في شأن الحرب البرية، ولا الحرب في البحر، ولا شيء يتعلق بعجز الخزينة أو الضرائب، بل بخمسة عشر سطرًا كتبها واحد اسمه فريرون، ليحول بين فولتير ونوم هانئ.

تقع جريمة جديدة من فعل فريرون، لا تقل عن سواها بشاعة. ألم يرتأِ أن

يقبل به ملك بروسيا مراسلًا، ومخبرًا، ومزودًا لصاحب الجلالة البروسية بالكتب والأهاجي؟ إن فريرون إذًا، هو الذي سيصوغ، عبر تقاريره، رأي فريدريك عن الحياة في باريس، ولا سيما عن جمهورية الآداب. وقد أصيب فولتير بالمرض غمًا لدى تلقيه النبأ؛ إذ تمثلت جرأة فريرون بالتوجه إلى فريدريك من دون المرور بفولتير، وفي تقديم نفسه له، مع أنه عدو لشاعره فيرجيل الحديث، فيا لها من صفعة! إنها نية مبيتة لنسف الصداقة التي تربطه بالملك الفيلسوف. ولنا أن نتخيل حدة ردات الفعل لدى فولتير. فالمصلحة والكرامة والغطرسة تعرضت كلها لجرح بليغ على يد فريرون هذا! أواه! لم يكن بالعدو الأخرق ذاك الذي وقع من نصيب الشاعر؛ إذ كان فريرون يجيد تسديد الطعنات. وإن ما يجعل الإهانة أشد إيلامًا هو أن صديقه تييريو كان من قبل المخبر المعتمد من فريدريك؛ ذلك أن فولتير قام قبل عامين بترشيحه لذلك المنصب اللائق. وبناء عليه، فإن الرغبة في خلعه، وحتى في تجاوزه، تساوي مجددًا «قتل» فولتير. وليس مرد ذلك إلى أن المنصب ممتاز؛ إذ إن تييريو المسكين، وبعد خدمة عامين، لم يقبض شيئًا من صاحب الجلالة البروسية الذي كان لا يدفع إلا كلامًا. وغالبًا ما تولى فولتير تذكير فريدريك بدَينه لتييريو لقاءَ التقارير التي أرسلها والكتب التي اشتراها. وبعد صمت دام عامين انتهى فريدريك بأن سمع فأرسل 1200 ليرة. والحال أنه كان يتوقع 2000 ليرة في كل عام، فالفرق يسبب الغم. فكتب تييريو إلى فولتير: «ولدي أيضًا ما أقول، وفقًا لما عرفت من طبع صاحب الجلالة البروسية، إنه لا يروقه أن يُطلب منه». فكان على فولتير أن يسد العجز. ولا يضيره في شيء أن يدفع إلى تييريو، بشرط ألا يأخذ فريرون المنصب. وبعد كثير من الضجيج والخوف، نُميَ إلى علمه أنه لم يكن في نية فريدريك استلحاق فريرون قط. وتنفس فولتير الصعداء، لكن حقده على فريرون لم يتلاشَ مع تلك المخاوف، ففي أول مناسبة سوف يوسَم الشقي بالحديد الحامي.

ما كان مسرح العليّة في شارع ترافرسيير ليفرغ قط. أوعز فولتير بطباعة بطاقات، فهو يحب وضع قائمة المدعوين الذين يعمل على تسليمهم المقاعد. أما وأنه فقد في نهاية الأمر قدرته على المقاومة، فما عاد يكتفي بكتابة المسرحيات، بل رغب في أدائها. فصعد في عام 1750 إلى خشبة المسرح، وقد بلغ السادسة والخمسين. وشاهد الجمهور ذلك الرجل الناحل الذي شاخ، ينتصب بفعل سحر

النصوص والمشهد، وبفضل قوة الهوس الفني، فيتخذ هيئة عسكرية، ويجد صوتًا عميقًا، ونبرات مؤثـرة ناهيك بكونها شجية. وكان يفخم في كلامه بصوت جهوري تتسرب فيه أحيانًا خشخشات صاخبة، لكنه كان يبذل جهدًا دونما حساب فيسقط في النهاية منهكًا ومنتشيًا. وكانت عواصف التصفيق تجعله يحمر، فيعود لهب الشباب إلى خديه المعروقين، وتنطلق من عينيه نيران سعادة خارقة ومتأججة. وتلحق به إلى خشبة المسرح ابنتا أخته: السيدة دوني والسيدة دو فونتين. وانتاب الممثلين القلق من ظاهرة «العلالي» هذه، ورأوا أنه إذا ما شرع المؤلفون بأداء مسرحياتهم الجديدة بأنفسهم، على نمط فولتير، فلن يبقى للمسرحيين إلا قوائم المسرحيات العتيقة. والتمسوا فولتير، فأعطاهم مكانين من أربعة عروض. ويُقال إنهم كانوا مزهوين بالتصفيق لمسرحيات كانوا سيرفضونها، من دون شك، قبل ذلك بثلاثة أشهر. وذلك يثبت في الأقل أنهم ممثلون بارعون.

احتفظ فولتير بالقطعة الشهية، روما الناجية، إلى النهاية؛ فهو تمسك بفكرة التوجه لتقديمها في سو، لكن الدوقة كانت قد شاخت بعض الشيء؛ فالحميّة تعوزها، كما أنها لما تنسَ كيف سلم فولتير قصرها إلى عصابات من المدعوين الذين لا ترغب فيهم. وهي ما زالت تحمل شيئًا من ذلك في نفسها... لكنها ما كفت يومًا عن محبة عالم المسرح. وتصرف فولتير كأنه صاحب حق، فأرسل، بلا مبالاته المعهودة، يحيط الدوقة علمًا بأنهم سيقدمون روما الناجية عندها، منذ الأيام الأولى. ومع أن الجواب الذي تلقاه لم يكن مشجعًا جدًا، فإنه ارتحل إلى سو في 8 أيار/ مايو 1750، ليستقر هناك ويفرض على الدوقة الحصار. وما كان لفكاهته ومرحه إلا أن تغلبا على مقاومتها. لكنها لم تتنازل في شأن نقطة بعينها؛ إذ يسوؤها أن تقدم للممثلين المبيت لديها. لا بأس. وقال: «وهكذا أريح ولية نعمتي من إسكان المهرجين». والمساومة لمّا تنتهِ بعد؛ فلسوف يعيدهم هو إلى باريس، بشرط أن تقوم هي بتقديم العربات، فقبلت.

جرى عرض التراجيديا في 22 حزيران/ يونيو 1750، وكان العرض رائعًا. وتجاوز فولتير الجميع في أدائه دور نيرون. وإن لوكان، العارف بالأمور، هو الذي قال ذلك، لكن العرفان يمكن أن يجعله يبالغ. والحق أن فولتير في المسرح، هو ممثل بارع أيضًا كما في الحياة. أما الحقيقة، فهي أن لوكان لم يكن له من مثيل، وإن فولتير هو الذي يقول ذلك.

يسخرون منه، في الصف المعادي، ومن مسرحيته روما الناجية، فيقولون: «إنه يتصرف تصرف الخبازين، فالفطائر التي لا يستطيعون بيعها، يتولون التهامها». كما اتهموه بأنه أسقط المسرحية التي كانت السيدة دو غرافيني تقوم بتقديمها آنذاك: سيني (*Cénie*). لكن ذلك محض تخرص؛ إذ كان على أطيب علاقة مع غرافيني العزيزة، ولم يكن يتمنى لها سوى النجاح، لكنها لم تحقق في عالم المسرح أكثر مما فعلت في الحياة.

كان للنجاح الذي حققه وجه إيجابي آخر: أعاد إليه ممثلي المسرح الوطني الذين أدركوا أنهم، بحسن استقبالهم مسرحيات فولتير، يحققون نفعًا أكبر كثيرًا من إدارة ظهورهم لها، لأن الجمهور، من ناحيته لا يقاطعها. زد على ذلك أن فولتير أثبت لهم أنه يستطيع الاستغناء عنهم بكل يسر، أكثر مما يستطيعون هم الاستغناء عن مسرحياته.

عروس البحر في بوتسدام تجيد أكثر من أغنية

بعد وفاة إميلي، صار فريدريك أكثر إلحاحًا؛ إذ تبدو الأيام الجميلة لبداياتهما المفعمة بالحماسة قد انتعشت. وتأثر فولتير بذلك: «أشعر لدى قراءة رسالتك بأني لو كنت بصحة أفضل، لتوجهت إليك فورًا، حتى لو كنت في كينغسبرغ»، لكنه الشتاء. فليس الوقت مواتيًا، لرجل يرتجف في عز الصيف، أن يسلك دروب ألمانيا. ووعد بالسفر حين يبدأ الطقس الجميل. ويحمل بالقصائد باكولار دارنو الذي توجه للقاء فريدريك في برلين. وكان يأمل في أن يقوم باكولار الذي يعترف بفضل فولتير عليه - وهو صديق السيدة دوني أيضًا - بإسداء خدمة له عند فريدريك. ولد ذلك المحترف الضحل للأدب في دوقية فينايسين في عام 1718 وتوفي في عام 1805. مكث قرابة عام في بروسيا. وكان يؤلف مسرحيات كئيبة جدًا، فهو يميل إلى اللون المشؤوم، ولاقى نجاحًا لا بأس فيه لدى الجمهور مدة من الزمن. ولم يحل ذلك دون أن ينتهي والبؤس والشؤم من حوله.

أعانه فولتير في بداياته، بنصائحه وبنقوده. أما مكافأته فكانت على النحو الآتي: بعد مدة قصيرة، أحاط تييريو فولتير علمًا بكيفية استخدام فريدريك وباكولار مواهبهما الشعرية؛ إذ كانا ينظمان أشعارًا تتحدث عن أفول نجم فولتير!

فيؤكد فريدريك أنه يفضل من الآن وصاعدًا: «على أفولِ نهارٍ جميل (أي فولتير) سطوعَ فجر أجمل (أي باكولار!)». فرد هذا الأخير والنشوة تملأ رأسه:

«أما وهذا هو الثمن، فأجرؤ على الزهو
بأن أساوي ألقَ فولتير».

حين أقبل تيبريو حاملًا تلك الأنباء، وجد فولتير في السرير. إن باكولار يرفل في النعمة! وعلى حساب من؟ على حساب من أنعم عليه! فصاح الشاعر المُهان: هاتِ أرني هذه الأبيات! حين وصل إلى «أفولِ النهار وسطوعِ الفجر»، وثب خارج السرير وهرع يمشي داخل الغرفة في كل اتجاه، وقميص نومه يخفق حول جسده، وهو يثب فيتعثر لشدة هزاله، موجهًا لومه إلى فريدريك، فلا يني يكرر: «فلينصرف إلى شؤون مملكته!». وأحس بالتهديد، حتى إنه أقسم ليَذهبَن إلى برلين ليعيد التنظيم إلى أفكار ملك بروسيا حيال البرناس الفرنسي. وإن ما عجز عن تحقيقه التوسل والعرض الأكثر إغراء حققه جرح في الكرامة. ويقول مرمونتيل إنه يرتاب في أن يكون فريدريك قد عمل عمدًا على توجيه تلك الوخزة إلى فولتير ليجعله يقرر المجيء والدفاع عن نفسه. وإن كان ذلك صحيحًا، فإن فريدريك عالم نفس بارع يعرف فولتير معرفة عميقة جدًا. ولقد نجحت الحيلة، أما العجيب في الأمر فهو أنها جعلت فولتير ينسى شكاية حديثة العهد ضد فريدريك، إذ رفض هذا الأخير أن يقرضه ألف لويسة. وما عاد فولتير في حاجة إلى المبلغ قط، لكن الرفض خلف جرحًا في قلبه. أما الآن فليست المسألة مسألة مال، بل هي مسألة زهو أدبي؛ فها هو «الفَخَار» يلقي مرة أخرى بفولتير على الدروب الطويلة.

لم يكن الرحيل نتيجة نزوة: اندفع الشريكان في مساومتهما المعهودة. وموضوع المساومة هو ابنة الأخت. فيقبل فريدريك عن طيب خاطر أن يتحمل كامل نفقات فولتير، لكنه ليس راغبًا في ابنة الأخت. والحال أن فولتير كان متمسكًا بأن ترافقه السيدة دوني. وإذا لم يكن فريدريك راغبًا في إميلي، فليس لكي يتحمل عبء البدينة دوني. وهو لا يلجأ إلى ذلك النوع من الزخرفة، لا في بلاطه ولا في أكاديمياته ولا في سريره. وإذا ما رغبت في الحضور فلتتحمل النفقات بنفسها! ولسوف يتم استقبالها إذا ما دعت الضرورة، لكن ليس لها أن تطلب تعويضًا عن ذلك. أما فولتير، فهو يحُصي بدقة النفقات كافة التي سيتكلفها نتيجة تلك الرحلة،

فيعرض طلباته بالتفصيل بدءًا من العربة، وانتهاء بأمر العناية ببيته في أثناء غيابه (ومِم ستعيش السيدة دوني إذا ما تركها؟)، وأيضًا لم ينس نفقات أمراضه المقبلة والتي لا يمكن تفاديها. وكتب إلى الملك يقول: «لست راغبًا في أن أكون عبئًا عليك». وطلب منه سلفة 4000 إيكو من عملة ألمانيا، وتعهد بأن يردها إليه. وإذا ما قبِل فريدريك فإن في وسع فولتير أن يغادر في غضون أربعة أيام. وأضاف: «عبثًا سيحاول جسدي أن يعاني فلسوف أجعله يواصل على ما يرام». ألا يكون رواقيًا[56] لقاء أربعة آلاف إيكو تهبط عليه من اليد الملكية؟

ما سيكون عليه رد فريدريك؟ إن هو رفض تقديم تلك السلفة إلى صديق غني ومليء تحل القطيعة. أما دفعها فيضع في حلقه غصة! وإذا ما عبس فولتير وولى ظهره للتسديد، فهل سنجد ملكًا ينازع شاعرًا؟ سوف تضحك أوروبا كلها ساخرة من الملك. ويبدو أن فولتير كان يراهن على تلك الأشكال من الحيرة والتردد، بل كان يتوقع رفضًا. أما وأن موجة الغيظ السابق مرت، فما عاد في عجلة من أمره للذهاب إلى بروسيا، وهو لن يذهب ما لم يَبدُ في ذلك السفر صفقة رابحة. فذانك هما صديقانا الاثنان. وليسا على الدوام في المقام الأسمى.

قبل فريدريك، وأخفى تقطيب ملامحه وراء حجاب من الشعر الميثولوجي؛ فهو يقارن نفسه بجوبيتير، ويقارن فولتير بعشيقته دانايي[57]. فضحك فولتير هازئًا وقبل بأن يكون دانايي في مقابل وضع 4000 إيكو في جيبه:

«صديقتك دانايي الهرمة
توشك أن تغادر بيتها
لإقامة جميلة مزخرفة
لا تليق بسنها».

---

(56) رِواقية: نسبة إلى «الرواق» الذي كان يجتمع فيه أتباع زينون، وهي فلسفة تقول بأن السعادة في الفضيلة، وإن على الإنسان أن يَكْبَح عاطفَتَه. فيتميز الرواقي بالصلابة ورَباطة الجأش. (المترجم)

(57) دانايي هي ابنة أكريزيوس، ملك أرغوس الذي قال له وسيط الوحي إنه سوف يُقتَل بيد حفيده، فعمد إلى سجن ابنته الوحيدة في برج من البرونز. لكن الرب زيوس - جوبيتير عند الرومان - (والأرباب في الميثولوجيا الإغريقية والرومانية، يعشقون الحسناوات) نزل عليها في صورة مطر ذهبي، فاقترن بها، فولدت بيرسيه. فاحتبس أكريزيوس ابنته وابنها في صندوق وألقى به في اليم. وبعد رسو الصندوق على أحد الشواطئ، ومغامرات عديدة... يعود بيرسيه وأمه إلى أرغوس... ثم تتحقق نبوءة الوحي. (المترجم)

فتجرأت العجوز المتصابية على الاعتراف بأنها تعشق:

«تعشق جوبيتير، تعشقه هو، لا مطَرَه
لكنها تُذَم دونما طائل
تلك القطرات الشافية
ففي العصر الحديدي الذي نعيش فيه
تغدو تلك القطرات ضرورية».

إن ذلك الغزل الذي يدور حول كيس من الدوكات الذهبية يجعلنا ننسج الكثير من الشكوك والأوهام حول العشق بين جوبيتير ودانايي. وواقع الحال أن فولتير عزم على السفر، من دون حماسة كبيرة. وانتظر حتى اللحظة الأخير إشارة من البلاط من شأنها أن تستبقيه. لكن تلك الإشارة لما تصدر بعد عن الملك ولا عن المحظية. ولقد أعرب، بحماسة ورغبة، أمام أكثر من جهة، عن استعداده لملء منصب وكيل مباهج الملك. لكن الدوق دو لا فالبير كان يقوم بذلك الدور خير قيام، وهم، علاوة على ذلك، لا يخشون وقاحاته؛ ذلك أن فولتير أتعب أناسًا كثيرين. فخلافاته الأخيرة مع فريرون أشاعت استياءً حتى لدى أصدقائه. وكان في وسع السيدة دو بومبادور نفسها أن تشكو من تطاولات فولتير. فذات يوم، وفيما كانوا يأكلون طيور السمان (Cailles)، استخدمت المركيزة سهوًا كلمة «سمنات». لفَتَ فولتير انتباهها إلى أن تلك الكلمة سوقية، وليس لها أن تدخل إلى البلاط. وألقى بصوت عال جدًا – إذ ينبغي لتألقه أن يبلغ الطرف الآخر من المائدة – هذين البيتين اللذين ارتجلهما:

«سمنات، كما يبدو لي، ولنقلها في ما بيننا، تطلق على الثرثارات
وأقولها لك، من غير أن أرفع صوتي، يا «بومبادورتي» الجميلة».

لم يتوانَ بعضهم عن لفت نظرها إلى أن الملك سوف يغتاظ من تطاولات فولتير وممازحته لها. فكيف لنا أن نصدق أن الملك لم يعلم بالواقعة؟

وحين فقد فولتير كل أمل في أنهم سوف يتمسكون به، جاء إلى لويس الخامس عشر يطلب منه الإذن في الخروج من المملكة، فرد عليه الملك بأنه يستطيع الخروج متى شاء، ثم أدار له ظهره.

قابلت المركيزة وداع الشاعر ببرودة أقل. وعلى الرغم من معرفتها بأن فريدريك يكرهها، فإنها رجت فولتير أن يقدم عميق اعتبارها إلى ملك بروسيا، وأن يقول ذلك بما يشاء من لطافة. وكان على الشاعر في واقع الأمر أن يقوم بالمهمة على خير وجه، غير أن فريدريك رد عليه ببرودة: «أنا لا أعرفها». وكي لا يخيب فولتير ظن البومبادورة، رفع تقريرًا بالجواب الزجري، إنما على طريقته. فأطلق على فريدريك لقب «آخيل» وكتب إلى السيدة دو بومبادور أن الملك كلفه بشكرها:

«يشرفني القيام من جانب آخيل
برفع خالص التقدير إلى فينوس».

ذلكم ما صارت إليه فظاظة: «أنا لا أعرفها». فيا لها من حقيقة، تلك التي كانت تسود بلاط الملوك، وتتردد بين الشعراء من رجالات الحاشية!

لم يتوصل فولتير إلى إغراء فرساي، على الرغم من موهبته وسحره ومداهناته فلا بد من التسليم بأن سفره أشاع الراحة لدى الجميع.

لكن المسألة لم تكن بتلك البساطة. فواحد مثل فولتير لا يُخلي الساحة على طريقة أشخاص مثل موبرتوي أو باكولار دارنو. عند خروجه، يخلف وراءه فراغًا وشيئًا من المرارة.

كان آل دارجنتال، من ناحيتهم، يعارضون ذلك الرحيل. فظلوا راغبين في الاعتقاد بأنه مجرد هروب موقت إلى برلين، على نحو ما جرى مرارًا من قبل. وكانوا يعارضون إقامة دائمة في بروسيا؛ فقطيعة نهائية للشاعر مع فرنسا تسوؤهم. فكتبوا بذلك إلى فولتير الذي وجد فيها مبررًا للمرض. لكن «المرض» يؤول إلى الشفاء، أما هو فمستمر في مشروعه. ولم يكن آل دارجنتال اللائمين الوحيدين لذلك الرحيل الصاخب؛ فقد جرى تسويد صفحة فولتير في البلاط، وفي المدينة، وكانوا مرتاحين لأنهم تخلصوا منه، لكن ساءهم أن يذهب ليسطع نجمه في بلاط بوتسدام. وحين بعث فريدريك إلى لويس الخامس عشر يطلب إليه أن يدع له فولتير، أجابه لويس الخامس عشر أن في وسعه أن يحتفظ به. وكان الملك يقول في أوساطه الضيقة إن ذلك يعني نقصان مجنون من بلاطه وزيادة واحد في بلاط

فريدريك. أما مهمة المؤرخ الرسمي للملك، فسُحِبت من الشاعر وأوكلت إلى دوكلو (Duclos). يبقى أن الملك، وهو دومًا السيد العظيم، ترك له مخصصاته بقيمة 2000 ليرة. لكن ما كان لسلوك الطلاقة هذا الذي أبداه الملك والسيدة دو بومبادور، أن يخفي خيبة أملهما كل الإخفاء؛ إذ بدا لهما سلوك فولتير أقل عداء من عدم لياقته، وانتشر ذلك الشعور انتشارًا سريعًا، ما جعل فولتير يكتب قائلًا، وكان في قوله مصيبًا: «من الممتع أن نرى رجال الأدب الذين كانوا قبل عام يريدون القضاء علي، يصرخون حاليًا ضد ابتعادي فيعتبرونه فرارًا. ويبدو أن المرء يستاء لفقدان ضحيته».

وإن معلوماته لصحيحة: لقد كانوا يعتبرونه فارًا.

يتجلى الغيظ في موقف باريس والبلاط من هذا «الفار»؛ إذ جعل صبر الناس ينفد، وكان الذين يكرهونه كثيرين، لكن أعداءه أنفسهم كانوا معجبين بموهبته وذكائه، وكان أكثرهم سخطًا يعتبر أنه ينتمي إلى باريس. كما كانوا أقرب إلى الاعتقاد أنه، بهروبه من قمعهم، إنما كان يشي بهم. ولم يكن فولتير يبالغ كثيرًا بقوله إنه برحيله حرمهم ضحيتهم. وبناء عليه كانوا يمثلونه على رشمات خشنة معتمرًا طاقية من جلد دب. وينادي الباعة في الشارع صائحين: «فولتير البروسي، بفلس واحد!». يتهمه بعضهم بأنه تصرف بدافع البخل فحصل على نفقات تعادل نفقات محظية. وإن ذلك جهل بشخص فريدريك الذي كان يسعه أن يطلق على سميره اسم دانايي، من غير أن ينساق بفعل ذلك إلى الإنفاق. أما الآخرون، من أمثال اللورد تشسترفيلد، فيتساءلون عن الدوافع الحقيقية للفرار، من غير التوصل إلى اكتشافها، ويجدون الفرار عبثيًا مهما تكن الأرباح التي يمكن فولتير أن يجنيها. وإن استبدال برلين بباريس، يمثل في نظر تشسترفيلد صفقة فيها غبن. يبقى أن اللورد، وهو رجل ذو فطنة، استشف أن فولتير لن يكون عليه من بعد الوقوف عند حد، فهو أصبح في منأى عن الرقابة، وعن أعدائه. فيسع فكره الوثوب بكل جسارة وريشته أن تصير أكثر حِدة من أي وقت مضى، بل أكثر خطورة أيضًا على البلاد والمؤسسات التي تركته يُفلِت من تحت رقابتها، ويرحل مغتاظًا.

أصاب تشسترفيلد كبد الحقيقة؛ إذ ارتكبت فرساي خطأ بعدم احتفاظها بالولد الرهيب؛ ذلك أن باريس، كانت تمتص، ضمن نزاعات فولتير التي لا طائل

وراءها، كثيرًا من روحه القتالية. فكانت حالات سخطه المضحكة، وهجائياته الهزلية، ضد أشخاص مثل ديفونتين وفريرون، تجعله يسهو عن حقده على شتى أشكال الطغيان والظلم والتعصب. أما من الآن وصاعدًا، وما دام في حماية ملك فيلسوف، فسوف يطلق لروحه العدائية العنان.

لو كان لفرساي أن تتصرف تصرفًا مغايرًا، لما كان لها أن تكون فرساي، أي أن يكون البلاط ومستشاروه أسيادًا أقل تعاظمًا وعجرفة، لكن أكثر مهارة. حينئذ، كانوا سيغدقون على فولتير كل ما يروقه ويهواه في الدنيا، من بعد العمل؛ أي التكريم والأوسمة والتدليل. سيُقال إنه كان سيتلفظ بكلمات وقحة؟ وما الهم؟! فكلماته لن تتخطى عتبات قاعات المرايا والزخارف في فرساي. كان على لويس الخامس عشر أن يعينه وكيلًا للعروض المسرحية، ووكيلًا أعلى للاحتفالات الصغيرة، وحتى الكبيرة، ومنظمًا أعلى لعروض الباليه والمنتديات الخطابية والمواكب. فكان من شأن فولتير تنظيم مواكب عظيمة يمر فيها رجالات الدولة كافة من أمام العرش. وكان من شأن الأكاديميات أن تتطور مثل حفل باليه بطيء ومتناغم، في حين سيوجه فولتير نظرات تواطؤ نحو الأب دوليفه، ونظرات ساخرة إلى حمار ميربوا. وكان سينصب خشبات المسرح في تقاطعات الشوارع كافة في باريس، وفي الأسواق المسقوفة في فرنسا كافة، وفي فناءات الكنائس، بل - وليسامحه الله - داخل هياكل الكنائس نفسها! ولئن قام أحد الأتقياء المتزمتين صارخًا ضد التدنيس، لسوف يرد عليه فولتير ساخرًا: «إن ملهاتي لتساوي ملهاتكم». وكان من شأن الكنيسة وطبقة النبلاء وطبقة العامة أن تشكل تناغمًا اجتماعيًا على شكل أوبرا شاملة، تقطعها مقاطع خطب رنانة من راسين، وفواصل موسيقية من تأليف رامو، لترقص على أنغامها جميع أولئك اللواتي تدربن على الرقص على يد الآنسة غيمار في فرنسا. وما كان لفولتير المنتشي بالمسرح والتكريم، ورجل البلاط حتى الهوس، وهو يرفل في حلل الحظوة الملكية، أن يرمي البلاط والكنيسة إلا بسهام مزدانة بشرائط ملونة. لكن...

لكن كان عليه أن يستجيب لقدَر آخر، وغالبًا ما يكون في متناول الرجال العظماء أقدارٌ عدة. وكان للقدر الذي سيتبعه فولتير أن يمر عبر فريدريك الثاني. ما عاد المقصود تلك الترهات التي تدور في البلاط، والتي ربما يتوارى فيها، ما عاد المراد بعد اليوم سوى رؤية أكثر وضوحًا، وأكثر بعدًا مما يرى الآخرون، وأن

يتكلم مطولًا كلامًا أفضل من كلام أي كان، وأن ينشر عبر أوروبا كتبًا صغيرة تنتشر انتشار الشرر المتطاير، فتحمل النار مع الأفكار المقبلة، لتلهب أشكال الخرافات والخيلاء والجهل والظلم كافة.

كانت القطيعة مع فرساي ومع باريس القطيعة الأكبر في حياة فولتير. لقد جعله موت إميلي يتحلل من أقوى روابطه بفرنسا، وجعله مستعدًا للرحيل الكبير. فهو في ذلك الربيع من عام 1750 بلغ السادسة والخمسين، وانتهى الأمر: إنه ماضٍ... فهل هو هروب، أم فرار، أم غدر، أم تملص؟ فلنسمه ما نشاء. إنه رحيل يثير الشجن. ما عاد فولتير، وهو ابن باريس، باريسيًا. وهو لن يدخل المدينة من بعد إلا في ختام حياته، ولسوف يدخل إليها مثل صنم معبود، ولن يخرج منها إلا مومياء. باريس: ذلك شيء انتهى... فهل هو يعرف ذلك؟ وهل شعر بالتمزق الذي يصيب اللحم الحي؟

لن يظل فولتير، من بعد ذلك الاقتلاع، فرنسيًا تمامًا. فحين سيرجع من بروسيا سيكون فرنسيًا من دون فرنسا، فرنسيًا بلا حدود، سيكون فرنسيًا للذكاء، من دون فرنسا الأحشاء. ولسوف يصير أوروبيًا، ومن خلال ذلك إنسانًا مثاليًا، وإنسانًا أكثر على الدوام.

القسم الثاني

كان لأوروبا ملكان

في ذلك الزمان، كان لأوروبا ملكان: الملك البروسي والملك فولتير. وكانا يقطنان معًا. وما لا يُصدق، أنهما كانا صديقين. فالأول يدير سياسة الملوك الآخرين وفقًا لمشيئته، فيفرض عليهم الحرب أو السلم، ويقلِب تحالفاتهم فيحرم كل بلاط في الممالك والمستشاريات من أن يُغمَض له جفن، ويسخر من الإله وحتى من البابا. وكان، فضلًا عن ذلك، يقرض الشعر بالفرنسية.

أما الثاني، فولتير، فلم يَسُد في بدء الأمر إلا على المسرح، فواصلَ إقامة الأمسيات الجميلة للمسرح الفرنسي في باريس وفي العواصم الأخرى. ثم ضمن لنفسه سلطة ماكرة وعميقة بإتقانه فن الكلام والكتابة لأوروبا كلها، بملوكها وكتّابها ورجالها الشرفاء الذين انتهى بهم الأمر، من غير إفراط في التوقي، إلى اعتماد لغة المعلم باعتناق أفكاره. وهكذا فالوردة الرقيقة لأوروبا وجدت نفسها، قُرابةَ منتصف القرن، خاضعة، وسعيدة بخضوعها، لشاعر فيلسوف، هو الرجل الأقل مهابة، لكنه الأكثر إثارة للاهتمام، في العالم.

كان الأول من بين هذين الملكين يتمتع بقوة السلاح، والآخر بقوة الفكر. لكن ملك السلاح على جانب من الذكاء يجعله راغبًا في جعل الفكر وفق أدائه. لقد سلك فريدريك حيال فولتير سلوكه حيال الملوك الآخرين: سعى لأن يستلحق منطقته الأجمل، أي لغته وأسلوبه.

كان فولتير على درجة من الحمق في سعيه وراء حظوة لدى الملوك، ولدى فريدريك، حين لم يجد مكانًا أفضل. فليس الفيلسوف هو الأكثر حكمة بين الاثنين. ولديه فيض من الحِكَم، إلا أنه سلك في الأغلب سلوك شاعر بلاط، فجنى عاقبة ذلك.

كانت تجمع المملكتين سمة مشتركة واحدة في الأقل؛ إذ كانتا معًا، في أنظار أوروبا العاقلة، فضائحيتين ومستقرتين على حدٍ سواء.

تعارف [الرجلان] قبل أن يصيرا ملكين. فاستشم كل واحد سيادة الآخر، واجتذبهما شعور من الأخوة والتواطؤ اجتذابًا لا يُقاوَم. فقاما، بكثير من الذكاء والعبقرية أحيانًا، وبشيء من الغرور والطمع والوقاحة والاستخفاف والتملق، مع مداهنة لا تريم، بتبادل لقب تمجيد إضافي، من طريق الصلات الأكثر رهافة والأشد تجذرًا لرابطة مدهشة، أطلق عليها التاريخ، لتعذر وجود تعبير آخر، اسم الصداقة.

ولسوف نتابع منعرجاتها ومنعطفاتها.

***

غادر فولتير باريس في 18 حزيران/يونيو 1750. وبعد مراحل السفر الفاشلة، ورداءة الملاجئ وبؤسها، والمناظر المقيتة في وستفاليا ومناطق ماغدوبورغ البهيجة، وصل في 10 تموز/يوليو إلى بوتسدام.

وجد نفسه ضمن الترتيبات الفكرية نفسها التي عرفها عند وصوله إلى لندن، قبل عشرين عامًا. ولمس في تلك المملكة الربانية: «أن كل شيء عظيم، وكل شيء جميل، وكل شيء في مكانه المناسب». فلنصغ إليه يقول: «مئة وخمسون ألفًا من الرجال الظافرين، وليس فيهم من وكلاء رهبانيات، هنالك أوبرا، ومسرح، وفلسفة، وشعر، وبطل فيلسوف وشاعر، وعظمة ونعمة، ونساء قادرات وربات فنون، ونافخون في الأبواق، وعازفون على الكمنجات، وولائم وصخب، «وو جبات أفلاطون»[1]، ومجتمع وحرية! فمن كان يظن ذلك؟ وإنه كله لصحيح...».

إنه الهذيان. ويبدو أن تساؤله «فمن كان يظن ذلك؟»، يستتبع الجواب: «ما من أحد!».

أما في الواقع، فكانت بوتسدام ثكنة فسيحة، لا جنائن أكاديموس[2]. وكان فريدريك يخوض الحرب ويعد لها العدة دونما فسحة ولا راحة. وليس لذلك النوع من العمل سوى علاقة ضئيلة بآليات الأوبرا. فما كان لأحد في بوتسدام، من

---

(1) إشارة إلى «الوليمة» لدى أفلاطون، حيث يلتقي النخبة من الصحب حول مائدة عامرة. (المترجم)

(2) بطل أثيني، من أيام حرب طروادة، كوفئ على بطولاته ببستان، فأحسن تقطيعه ونظمه جنائن. (المترجم)

الجندي البسيط وحتى الأمراء الملكيين، من حق في الخروج إلا بموجب بطاقة من الملك. وما كان ليوقع إلا على عدد ضئيل منها، فالكل محجور عليه. وعلى ذلك، كانت خمسة ألوية منزوية داخل أسوار بوتسدام. وما كان في وسع النساء النادرات المقيمات هنالك أن يخرجن من بيوتهن قط. وليس من يراهن. ويظهر منهن في البلاط عدد ضئيل. ولسوف يقول فولتير بعد مدة قصيرة: «ليس هذا بلاط، إن هو إلا مكان اعتزال، جرى إقصاء السيدات عنه». ويقولون إن هنالك شبيبة ماتوا سأمًا في تلك العزلة. لكن فولتير لم يرَ ذلك من فوره، بل هو لا يشغل باله بأن يراه، ذلك أن: «صديقي فريدريك الأكبر» يستأثر به، حتى إنه ليضحي في سبيل الصنم بالتعديل الذي يريد إدخاله على مسرحية روما الناجية. وهو لم يضح بعمله قط على ذلك النحو، حتى من أجل إميلي الرائعة. فيكتب شاعرنا، وهو في حالة من الجوى، قائلًا: «إنه يأخذ وقتي وروحي».

بدأت الاحتفالات على حين غرة. إنها احتفالات ضخمة، وباهظة التكاليف، وغير مفهومة، حين نعرف بخل فريدريك، لكن الجيش هو الذي يقدم الممثلين الصامتين واليد العاملة.

كانت تلك الاحتفالات الباذخة مخصصة لإبهار أوروبا، أكثر منها لإبهار البرلينيين. فهي تمثل دعاية فريدريك لدى البعثات الدبلوماسية والممالك الأجنبية. ويحتل فولتير المرتبة الأولى، ولسوف يقول في كل مكان إن لويس الرابع عشر بات على ضفاف نهر شبريه[3] (Sprée). وذلك ما كان منتظرًا منه ومن الدوكات الأربعة آلاف. فليرَ بعينه وليتكلم من بعد، ثم فليكتب. وما توانى، فكان بهجة للأمراء ووجهاء البلاط معًا في تعليقه على الاحتفالات، فيضاعف سحرها عشرات المرات لدى قيامه بوصفها. وكان وكيلًا دعائيًا من الطراز الأول، بل أفضل مَن في العالم آنذاك، من بين من استطاع فريدريك تجنيدهم. «كانت ستة وأربعون ألف فانوس صيني تضيء الساحة التي جرت فيها ألعاب الفروسية. فالنظام كاملٌ كالصمت، والتنظيم بلغ الكمال. إنها بلاد الجنيات، وذلكم ما يستطيع القيام به رجل واحد».

كان فريدريك يعلم أن فولتير، وقد قَبِلَ بمجيئه إليه، قام بتضحية كبيرة. وبناء

(3) نهر ينبع من ألمانيا الشرقية ويعبر برلين. (المترجم)

عليه، فهو يخشى على الدوام انقلاب الأشياء: إنه يعرف صديقه حق المعرفة! أما لكي يستلحقه بصورة نهائية، فإنه تدبر أمر غرور الشاعر ونهمه. فالغرور جرى إرضاؤه بالمداهنات وبعض الأوسمة. فأوعز بتسميته حاجبًا للملك، وأنعم عليه بوسام الاستحقاق من رتبة فارس. أما في شأن المال، فنال منحة بقيمة عشرين ألف ليرة، ودخلًا مدى الحياة للسيدة دوني قيمته أربعة آلاف ليرة، إذا ما قبلت بالمجيء إلى برلين لتتولى تدبير شؤون خالها. وكانت حسابات فريدريك تتميز بالمهارة، لأن حضور ابنة الأخت سوف يساهم في استقرار أكبر للخال المتقلب.

ذلك وجه من الصلابة في الجمع القائم بين فريدريك وفولتير. لكن ليس لنا أن نغفل الترهات التي كانت تمثل الخبز اليومي لصداقتهما: الرسائل المتبادلة ما بين غرفة وغرفة، والإطراءات والالتفاتات الصغيرة التي تشكل العملة الرائجة للصداقة الملوكية. كذلك كانت العائلة المالكة، وأشقاء فريدريك على وجه الخصوص، يعاملون فولتير معاملة ملك في سفر. وإن ما يفوق المكاسب كافة، وألوان «التكريم مجتمعةً»، إنما هو ذلك الوهم الذي يملأ فولتير بالانتشاء وهو يرى نفسه يعيش على قدم المساواة تقريبًا مع ملك شاعر، فيشعر واقعًا بأنه ملك شعراء زمانه، من بعد إحساسه بذلك منذ مولده.

وأحس بأنه مرتبط بفريدريك في برلين، فاعتقد أن حياته صارت ثابتة إلى الأبد. حينئذٍ باشر العمل على استقدام السيدة دوني. لكن هذه الأخيرة ما كانت لتخفي نفورها من سحر الأوهام المخادعة في برلين، فيرد عليها خالها، مغتاظًا من ذلك المقدار من الجهل: «ومن قال لك إن برلين الآن هي ما كانت عليه باريس في زمان هيو كابيه؟»[4]، فلتأتِ وترَ، وبعدها لن ترغب في أن تغادر أبدًا!

لكن السيدة دوني كانت تدير صالونًا في باريس يتردد إليه أصدقاء فولتير الذين يأتون احتفاء بإجلاله. وكانت تعيش حياة حرية، بل حرية زائدة، وفقًا لما يقول لنا لونشان. فشهدنا في بدء الأمر موسيقيًا ألمانيًا، كان رجلًا ضخمًا فارع الطول سلب لب السيدة دوني من غير أن يفتن الخال الذي قام بطرده. لكن ما إن سافر فولتير، حتى عاد الألماني إلى الظهور. وكانت الإيقاعات متناغمة إلى حين ظهور إيطالي أنشد حتى الانتشاء لحنًا مغايرًا. فاستظرفته السيدة دوني وقامت

(4) ملك فرنسا من عام 987 حتى عام 996. (المترجم)

بتسريح الألماني، فاحتل الإيطالي مكانه. لكن التناغم عاد فانكسر: إما أن يكون الإيطالي نزقًا في الحياة الخاصة، وإما أن تكون السيدة دوني قد اقترضت منه - وهو أقسم على ذلك أغلظ الأيمان - مبالغ كبيرة، ما كانت تعقد النية على سدادها، فكانت القطيعة مباغتة وصاخبة، وأرغِم لونشان على التوسط. ولكي يضع فولتير حدًا للفضيحة، أرسل المبلغ ليعوض على الإيطالي أغانيه، فدس المبلغ في جيبه وتوارى عن الأنظار. كانت السيدة دوني تستعذب إذًا تلك التحركات، وهي غير واثقة من العثور عليها في برلين.

لم يكن لونشان من ناحيته شديد الاستقامة؛ إذ سرق مخطوطات، فنسخها، وباعها لبعض الناشرين. والمسألة أكبر من أن تكون مجرد سرقة؛ فهو لا يقوم بسلب سيده فحسب، وإنما يعرضه لموقف خطر أيضًا. وأبدت السلطة قلقها، فمن أين جاءت تلك المخطوطات؟ وتولت السيدة دوني أمر التحقيق، فجرى استرداد المخطوطات. ونسب لونشان إلى السيدة دوني اتهامها إياه باطلًا، فهي لا تريد بقاءه من حين تدخله بين المطرب وبينها، ومن حين استحصاله على المبلغ تلافيًا للعنف. فيُمكن ألا تكون السيدة دوني قد أبدت حياله كل ما كان يتوقع من عرفان، لقاء الخدمات الخصوصية التي أداها لها. ولا يمكن استبعاد ابنة الأخت من هذا السلوك، لكن ذلك لا يُلغي التورط الخطر من جانب لونشان الذي ظل حتى ذلك الحين نزيهًا ومخلصًا. ولا ريب في أنه تورط حيال عروض بعض الناشرين الدجالين الذين كانوا يأملون في تحقيق مكاسب كبرى من مخطوطات فولتير.

هكذا استمرت الحياة في باريس التي استطاعت التمسك بالبدينة دوني، حتى إنها لم ترَ برلين قط.

***

ما إن فتح فولتير حقائبه، حتى كان همه الأول المثابرة على القيام بالأشياء الأساسية، أي المسرح. فبادر إلى عرض مسرحياته بالتعاون مع أشقاء الملك. وحرص من بعد على أن يُزيح من أمام شمسه[5] شخصًا يحجبها عنه بظله،

(5) حين وصل الإسكندر الأكبر إلى أثينا ذهب لرؤية أشهر فيلسوف فيها، وهو ديوجينوس الكلبي. وجده في حالة من الفقر المدقع، يقيم في كوخ أشبه ببرميل كبير، ويتدفأ بأشعة الشمس. فاقترب منه وقال له: «أنا الإسكندر الأكبر». فرد عليه قائلًا: «وأنا ديوجينوس الكلبي». قال الإسكندر: «ماذا يسعني أن أقدم لك؟»، فقال ديوجينوس: «أن تبتعد عن شمسي...». (المترجم)

والمقصود بذلك باكولار دارنو القصير القامة؛ إذ إن فولتير لم يسامح فريدريك على جرأته في مقارنة مؤلف زايير بـ «الشمس الغاربة»، لكنه يزيد على ذلك في عدم مسامحته باكولار الذي صدق الملك فظن نفسه «الشمس المشرقة». فكان أن بعث به فولتير ليشرق في أمكنة أخرى. فذات مساء كان باكولار يؤدي، مع الأمراء وفولتير، تراجيديا ميروب. ولم يوكل إليه فولتير سوى جزء من أحد الأدوار. وتلفظ باكولار بأبياته القليلة تلفظًا على درجة من الرداءة أثارت ثائرة فولتير؛ لقد ارتكب ذلك المغرور الصغير جريمة مضاعفة، حين تعامل بترفع مع فولتير ومع المسرح. فنشبت الحرب فوق الخشبة، وتواصلت في كل زمان وفي الأمكنة كافة، وطلب فولتير من الملك أن يطرد باكولار متعللًا برسالة كان باكولار قد كتبها إلى فريرون، ينسب فيها أقوالًا معادية للفرنسيين قالها فولتير في برلين. ولما كان باكولار أدنى من أن يُقارَن بفولتير في نظر فريدريك، جرى طرده، واستغل فريدريك الأوضاع فلم يدفع له نفقات السفر. وهكذا غابت شمسُ باكولار من قبل أن تشرق إشراقًا حقيقيًا.

توجه باكولار سعيًا وراء ملجأ لدى دوق ساكس الذي استقبله بقدر من الحرارة والترحاب، ما جعل الغيرة تنهش قلب فولتير، فكتب إلى المارغراف دو بايروت بما هو أسوأ من ضرورة شنق باكولار، وبالحرص على عدم استقباله، بل إن عليها العمل على طرده من جميع بلاطات ألمانيا. لكن لا طائل وراء ذلك العناء كله، إذ لا يَسَع باكولار العيش إلا في باريس؛ فرجع إليها بعد قليل بمحض إرادته، وجعل الجماهير تبكي لمشاهدة مسرحيات على درجة من الحزن لا يُسبر له غور، تلك التي شكلت المباهج الكئيبة لـ «رهافة الحس» الجديدة.

بعد أن جعل باكولار باريس تذرف كثيرًا من الدموع، قام بإحلال السلام بينه وبين فولتير؛ إذ تذكر النعمات التي أغدقها عليه فولتير في بداياته، وأقر بذنبه جهارًا. أما فولتير الذي يقف عاجزًا حيال مثل ذلك السلوك، من دليل على الندامة، أو إيماءة صداقة، فقد سامحه بما فعل من ذنوب في بوتسدام، باستثناء ذنبين لم يغفرهما له قط: الأول رداءة خطه، والثاني لأنه يُدعى باكولار.

معرض وحوش ملك بروسيا

ليس في المجتمع الذي أحاط فريدريك الثاني نفسه به من استثنائي، سوى عدد الكتّاب والعلماء الذائعي الصيت الذين جمعهم في بوتسدام، وثمة ممالك ألمانية أخرى قبله، أحاطت نفسها بمجتمع فرنسي. هنالك رغبة جامحة في كل

مكان في استنشاق عبير فرساي، والعزف على إيقاع الملك الوحيد الذي كان في أوروبا منذ بداية القرن: لويس الرابع عشر. بناء عليه، قال فريدريك فيلهلم، ملك بروسيا، لدى وفاة الملك الشمس[6]: «أيها السادة، إن الملك قد مات». وكانت تلك البلاطات الألمانية مفرنسة، إلى حد جعل مسافرًا دُعي إلى الغداء إلى مائدة الأمير تسول، ورأى حول المائدة أحد عشر فرنسيًا من اثني عشر، يهتف قائلًا: «إن هذا، في الحقيقة يا سيدي، لأمرٌ طريف، فليس هنا من أجنبي سواك». وإنه لقول مذهل - نباهة وسلامة طوية؟ - يتفوه به فرنسي على مائدة أمير ألماني، وفي ألمانيا!

كان فريدريك محاطًا، قبل وصول فولتير، بكل من المركيز دارجان وموبرتوي ولامتري، والإيطالي ألغاروتي الذي كان يتردد إلى سيري، وإنكليزي واحد هو اللورد تايركونل. وما كان هؤلاء يتكلمون سوى الفرنسية. لم يكن فريدريك يلم بالألمانية إلا إلمامًا سطحيًا، أي ما يكفي لتوبيخ خدمه وإصدار الأوامر لجيوشه. وحين رغب في قراءة ترجمة راسين بالألمانية، لم يقوَ على ذلك من غير الاستعانة بالنص الفرنسي. كان فرنسيًا بالفكر، وفولتيريًا بطبعه. وسبق أن سلمنا بوجود ما يكفي من وجوه التماثل الواضحة بين الصديقين الحميمين.

مع من سوف يجلس فولتير لتناول العشاء في سان سوسي؟ ها هو ذا المركيز دارجان الذي يحبه فريدريك حبًا جمًا. وكان جديرًا بذلك. إنه ابن نائب عام في محكمة إكس أن بروفانس العليا، رمى جانبًا بالثوب الفضفاض والقبعة المربعة اللذين أورثه إياهما أبوه منذ مولده، وولى مدبرًا ليلقي بنفسه في أحضان أشكال الحماقات كافة، فدخل الجيش ثم فر على الفور ليلتحق في إسبانيا بممثلة مسرح رغب في الاقتران بها. نجح والده في الحيلولة دون الزواج، فاستولى اليأس على الشاب دارجان الذي ملأ بطنه بالزجاج المسحوق، فأنقذوه بملئه بالزيت. ثم هرب إلى تركيا فدخل قسم الحريم في القصر عنوة، وأقام صلة براقصة، ثم ضبطوه فقاموا بجلده وتقييده وإخطاره رسميًا بالاختيار ما بين أن يؤمن بالإسلام أو يُعدَم على الخازوق. فاختار الهروب، ووصل إلى هولندا. وفعل كما

---

(6) الملك الشمس (le Roi-soleil)، هو اللقب الذي حمله لويس الرابع عشر (1638-1715) طوال حياته. (المترجم)

الجميع، فكتب، ورجع إلى إكس، وصار محاميًا لإرضاء أبيه. لكن ليس لنا أن نظن أن ذلك الإفراط في الطيش حال دون تعلمه، فنهمه للمعرفة لا يعدله سوى نهمه للملذات. واجتذبته العلوم لكن شغفه بالرسم بلغ به حد دفعه صوب روما لتمرين يده من طريق نسخ الروائع. وفيما كان يقامر في الروليت جاءه الربح الملائم، ما أتاح له أن يتعرف المدينة الخالدة طوال ستة شهور. واقتاده شاب فرنسي إلى فتاة فوقع في هواها. وأسوأ ما في الأمر أنها كانت أشد عشقًا له من عشقه إياها. وحين انتقل من هذه إلى أحضان أخرى، جعلتها الغيرة تدفع بقاتلين مأجورين أوشكا أن يقضيا عليه، فيما كانت الحسناء الروماوية المختبئة في الظل تنذره بأن ما فشل اليوم ربما ينجح في الغد، فولى هاربًا مخلفًا وراءه روما والروماويات.

عاد إلى فرنسا، ليستأنف الخدمة في الجيش، وجُرحَ فجرى الإقرار بعدم كفاءته. وسعى وراء مصدر للمال من طريق بيعه إلى ناشرين في هولندا أهاجي تتناول كل شيء، من غير عمق حقيقي، لكنها ليست مبتذلة ولا حيادية. وراقت تلك الأهاجي فريدريك، فلا ريب في أنها كانت إلحادية تمامًا. فدعا دارجان الذي أقر بصراحة لا حياء فيها، بأنه لن يشعر بالأمان وهو في بروسيا، لمعرفته بالعادة التعسة لملوك تلك البلاد، أي التطويع الإلزامي لأجانب يبدون لهم من حيث القامة والهيئة ملائمين عسكريًا. فماذا في شأن الذهاب إلى برلين؟ «هل يسعني القيام بذلك دونما خطر، أنا الذي يصل طولي إلى خمسة أقدام وسبع بوصات، وأتمتع بمظهر لائق؟». لم يكن مثل ذلك الخطر يتهدد فولتير. وما إن صار فريدريك ملكًا حتى طمأن دارجان: «لا تخشَ بعد الآن ألوية الحرس مطلقًا. وتعالَ يا عزيزي المركيز لتتحداهم في بوتسدام». ووعده بكومة من الإيكوات، فجعله ينتظرها طوال عامين، لكن قبل أن تطأ قدما دارجان أرض برلين، استحصل، بوساطة ملك بروسيا، على لقب قائم بالأعمال عند دوق فورتنبرغ. أما وأن الدوق وافته المنية، صارت علاقة دارجان بالدوقة الوصية على العرش. أحسنت الدوقة استقباله، بل استقبلته استقبالًا فائق الحسن، كما قال الرواة. ويقر دارجان نفسه بأنه ارتعد حيال حيوية مشاعر تلك الشخصية النبيلة. وما كان من جانبه ليتراجع أمام ذلك النوع من المخاطر. ولسنا ندري هنا هل كان توهمه بأنه متحلل من بعض أشكال اللياقات، أم أن تلك اللياقات لم تنزل بردًا وسلامًا على قلب الدوقة، بل ألهبتها بخلاف ذلك، وجعلتها تخرج عن طورها. وازداد مزاج السيدة حدة

وسوءًا، فأضحت مخاصمات العاشقين حكاية تتداولها بلاطات ألمانيا. وسعى دارجان وراء ملجأ عند فريدريك، حيث من المؤكد عدم وجود أي خطر من ذلك النوع يتهدده. وإذا كان قد عانى إفراطًا عاطفيًا في شتوتغارت، فهو يعاني الفاقة في بوتسدام. ورغبة منه في وضع حد لذلك العقاب، اقترن بممثلة مسرح من أسرة شريفة. لكن فريدريك ما كان يروقه ذلك، الأمر الذي استدعى اللجوء إلى ألف حيلة وحيلة، لإحاطته علمًا بذلك الزواج وجعله يتقبله، دونما شجب. وكان دارجان يخاطر بالحظوة التي ينعم بها، وهو حافظ عليها لكن ربما بريقُها خبا. ثم تهلهلت مع مرور الزمن. وكان فريدريك قد أعطاه منزلًا، وأظهر حياله اهتمامًا يعبر عن المكر، أكثر منه عن الذوق السليم، حين أوعز بأن تصور على الحيطان مآثر دارجان: فنراه في الحرب... يولي هاربًا من أمام الأعداء، ونراه تحت تهديد خازوق السلطان التركي، ثم نراه تحت مبضع جراح في موقع من جسده أساءت فينوس معاملته. وحين استيقظ دارجان عند الفجر ليتأمل منزله، شعر بأنه سيصاب بالجنون غيظًا، فاستدعى دهانين قاموا بطمس كل شيء بالطلاء. وتسلى فريدريك كثيرًا بذلك الغضب، فكان يروقه أن يذكر دارجان بمآثره الماضية. وكان دارجان شديد التطير مثل الكثير من ذوي العقول النيّرة الذين يُغرقون في السخرية حيال القرابين المقدسة، لكنهم يصابون بالشحوب لدى انقلاب مملحة (فوق المائدة). ويقول لنا دارجان نفسه إنه شارك ذات ليلة موبرتوي الشهير - وهو أيضًا ذو فكر نيّر - في غرفة نومه. وساعة توجه موبرتوي إلى سريره، ركع فتلا صلواته. وأصيب دارجان بالذهول حيال ذلك الضعف، فقال له:

«موبرتوي، ماذا تفعل؟».

فاكتفى العالم الرياضي بأن أجابه:

«يا صديقي، نحن هنا وحدنا.»

الإلحاد موجه إلى الجمهور، وفريدريك! ولسنا ندري، في أي حال، إن كان دارجان قد قلد العالم الرياضي، إلا أنه لم يسخط عليه بسبب تقواه. ولسوف نرى لامتري - وهو ذو الفكر المادي الأشد عنفًا في ذلك القرن - كيف يبدأ يرتجف ارتجاف ورقة فور سماعه دوي الرعد، وكيف يقوم بألف إيماءة خرافية مثل عجوز تقية، استبعادًا للخطر.

كان دارجان حسن التهذيب، وكان رجل معرفة وذا كياسة. وكان جاحدًا حيال الدين ومتطيرًا مثل لامتري، لكن لم يكن بين الاثنين من تماثل آخر. لقد ولد جوليان أوفريه دو لامتري في 25 كانون الأول/ ديسمبر 1709 في سان مالو، مثل موبرتوي الذي ساعده وزكاه لدى فريدريك. وكان ذا فكر متحمس، بل طائش بعض الشيء، إضافةً إلى رؤى قد تكون ذكية جدًا، كما قد تكون خرقاء، فتغتلي في دماغه على الدوام ألف فكرة وفكرة. ولم يكن النبيذ دونما تأثير في ذلك الفوران. ولم يدخل سلك الرهبنة إلا ليغادره، فصار طبيبًا. وقد عشق التشريح، فانغمس فيه باندفاع ورعونة، إن صح القول، لأنه كان طبيبًا في الجيش، فزودته الحرب بالمادة الأولية لفنّه. ولا يبدو أن المشاعر الإنسانية وقفت حائلًا في وجهه؛ فهو يروي مرة على المائدة - من غير إقامة اعتبار لوجود الخدم الذين يصغون إليه - أنه كان يُجري عن طيب خاطر بعض التجارب على الخدم والجنود، ليرى أثر عقاقير من ابتكاره، فيسوق الافتراض، في معرض تهوره، بأن قائمة عقاقيره أحدثت من الويلات أكثر مما فعلت حوجلات آل بورجيا الصغيرة(7). وتوجه ذات يوم إلى عيادة حوذي مريض، فبوغت حين استقبله رفاق ذلك الشقي بضربات السياط؛ إذ اعتقد أنه رأى الموت مقبلًا عليه حين شاهد لامتري. ومن نافلة القول أنه كان يكتب. وذاع صيته بعضَ الوقت في عام 1746 بمؤلـفه: سياسة الطبيب مكيافيلي أو درب الثروة مفتوح أمام الأطباء. وقد جرى تمزيقُ الكتاب وحرقُـه بحكمٍ قضائي وأمرٍ من المحكمة العليا. واعتبره فريدريك عنوانًا لا مثيل له بالنسبة إلى كاتب، واستمتع بقراءة الكتاب الممزق وأرسل فاستدعى لامتري. ولا يخلو العمل من الجاذبية المثيرة والحيوية؛ فأعظم أطباء العصر معروضون فيه بمرح وحشي وسخرية قاتلة بالنسبة إلى الذين جرت الإشارة إليهم. لكن كتابه الآخر، الإنسان - الآلة، هو الذي منحه الشهرة ضمن الطائفة الفلسفية، وخصوصًا عبر الجدالات التي أثارها. فهو يقول إن الروح لا وجود لها، وإن الفكر ليس سوى نتاج عضو اسمه الدماغ، يصدر عن آلية. حتى إن دولباخ وديدرو الطيب تولاهما الهلع نتيجة تلك الجرأة. ووجد فريدريك ذلك رائعًا. وساورت لامتري - رغبةً

(7) عائلة إيطالية من أصل إسباني، أشهرها بورجيس بورجيا، الذي ولد في روما (1475-1507). وكان رجل سياسة حاذقًا، لكنه منافق ومراءٍ وعنيف. وقد اتخذ منه مكيافيلي أنموذجًا لكتابه الأمير. والحوجلات إشارة إلى أنواع السموم التي يجري إعدادها لاستخدامها عند اللزوم. (المترجم)

منه في تعزيز الفضيحة - فكرة صبيانية جهنمية، حين أهدى كتابه إلى فقيه لطيف، وسليم الطوية، وعالم ورع اسمه هالر (Haller) كان، دونما ضجيج، فخرًا لجامعة غوتنغ. وحين وجد الشقي اسمه يغطي ذلك العار كله، احتج عبر أوروبا العلم كلها، وفي البلاطات والسفارات، مقسمًا أنه لا يعرف لامتري، وأن ذلك الإهداء مكر وتضليل. ولم يظن لامتري أن مزاحه الصغير سوف يحقق مثل ذلك النجاح، فرغب في تدعيمه لإضحاك أوروبا كلها وجعل ذلك المسكين هالر، فريسة لليأس. فكتب ذكريات عن هالر، مع أنه لم يكن يعرفه، كحال هالر تمامًا الذي لم يكن يعرف لامتري. وقد جعله حب الفضيحة، والرغبة في إشاعة الهلع بين صفوف المفكرين الواعين، يتخيل حكاية هزلية يعرض فيها هالر وهو يقوم بإلقاء دروس العلوم في مبغى المدينة: كان العالِم الفاضل يتوسع في أفكار عميقة، ويغدق فيضًا مدهشًا من العطاء على ذلك الجمهور من «السيدات»، يساعده في ذلك كل من لامتري، وزميل ثالث. ولنا أن نتخيل الصاعقة التي وقعت على رأس هالر المسكين لدى قراءة ذلك الكتاب الراعب! بادر البريء إلى نفي التهمة عن نفسه، مفندًا إياها، ومبرهنًا، نقطة فنقطة، بدقة وثقل وصدق دامغ، على أن لامتري كذاب، وأن هالر طاهر كالعذراء القديسة. وكانت أوروبا مقتنعة بذلك تمام الاقتناع، لكنها كانت تسلية كبيرة بسبب أشكال الهلع التي استولت على هالر الطيب.

أما في بوتسدام فضحكوا بأكثر قدر من المكر. وأشفق موبرتوي على هالر، فقال له إن كتابة لامتري لا تشكل خطرًا، لأن كاتبها رجل خفيف جدًا. فردّ عليه هالر قائلًا إن موبرتوي، لو كان مكانه هو لما وجد هذه الخفة في في افتراءات غشاش كبير خفيفة جدًا. أما فولتير فرأى من جانبه أن المرء - حين يكون ثقيلًا جدًا مثل هالر، وعلى الدرجة نفسها من التقوى الغبية، غير جدير بالدفاع عنه. أما وأن ارتباك ذلك الأحمق وأكذوباته مضحكة أكثر من أكذوبات لامتري، فينبغي تركه يصرخ، مع الإغراق في الضحك من صراخه. وإذا ما استثنينا ذلك، فليس من شيء مشترك آخر بين فولتير ولامتري.

هنالك فارس اسمه دو شازو، ولد في كان في عام 1716، لا يسعه إلا أن يكمل المجموعة. فهو ذو وجه جميل من حيث الشكل والمضمون، وكان قد قتل رجلًا في مبارزة، فثارت موجة من السخط ضده فهرب من فرنسا، فاستقبله فريدريك، ومنحه على الفور الوسام الذي يحمل رتبته، فلا خوف ولا ملامة.

أنقذ شازو هذا حياة فيليب في معركة مولديتس. وكان في الحرب ذا شجاعة استثنائية، كما تألق بفكره ومرحه. وكان يعزف على الناي عزفًا يُفعِم القلب، وقلب فريدريك شخصيًا. كان الحفل الموسيقي في بوتسدام يوميًا، إذ يعمل الملك على إقامة العرض كل يوم، ويؤلف مقطوعات على البيانو القيثاري، فيما يقوم حلاقه الخاص بتمشيط شعره وتجعيده. وفي المساء، يُقام الحفل الموسيقي في الصالون المستدير، وكله من الخشب المحفور والمعشق، مع موقد جميل جدًا من المرمر الأحمر، وثريا ضخمة من الكريستال. لم يكن هنالك من مدعوين سوى رجال البطانة الذين كان ذلك بالنسبة إليهم شرفًا عظيمًا. وكان فريدريك يؤدي مقطوعاته بنفسه. وما كان يهوى سوى الناي، أما الآلات الموسيقية الأخرى فلم تكن إلا للمرافقة. وكان شازو يتألق في الحفل الموسيقي، كما على أرض المعركة. وكان فريدريك معجبًا بالفارس من النواحي كافة، باستثناء نقطة واحدة: كان شازو يهوى النساء.

لم يرتبط فولتير بشازو مطلقًا، بل تنازع معه في أثناء القضية التي رفعها في برلين. قاما معًا برحلة عبر ألمانيا، لكن فولتير لم يكن مغتبطًا لوجود الفارس، بل إن فريدريك هو الذي فرضه من أجل السهر عليه. أما في الواقع، فمن أجل مراقبته، ومن أجل تسديد نفقاته، أي مراقبة نفقات الشاعر والحد منها. وفي إحدى المدن، قدموا الكتاب الذهبي لفولتير راجين أن يدون فكرة فيه. فقرأ ما كتب المسافر السابق: «إن كان الله معنا، فمن عساه يقف ضدنا؟». فكتب فولتير على سبيل الإجابة: «الألوية البروسية». ونقل شازو تلك المُلحة إلى فريدريك. إنه لا ينسى، حتى في أثناء السفر، أن يغازل دعاية صديقه الملك وأن يرعاها.

لكن ذلك لم يحل دون أن يكز فريدريك على أسنانه بعد العودة، حين قدم له شازو قائمة بالنفقات. وهنالك بند بعينه انتزع منه صرخة غضب: «اغتسال بالصابون قام به السيد دو فولتير طوال شهرين بقيمة 2 كروتسن لكل مرة».

صاح فريدريك الذي كان على وشك أن يشطب ذلك البند: «يا له من حساب أحد العطارين!». فقال شازو، وكان جادًا، لأنه أجرى تلك الحسابات مسبقًا: «لستُ مستعدًا لأن أشطب شيئًا، يا صاحب الجلالة، فحسابي غاية في الدقة».

ذلكم هو التنظيم في مالية الدولة.

كان السنيور ألغاروتي من المعارف القدامى لكل من فولتير والسيدة دو شاتليه، ولقد أقام في سيري لأسابيع عدة في عام 1736، مبعوثًا لفريدريك، وتلميذًا لنيوتن. وليس من رأى شابًا أكثر لطافة وكياسة. كان فولتير يدعوه طائر تم بادوفا[8]، فيما أنعم عليه فريدريك بلقب كونت. ولم يضايق ألغاروتي أحدًا قط، كما لم تبدر منه حركة أو تصدر عنه كلمة يمكن أن تسوء أحدًا. وكان مبتسمًا. أما حين يتوجه أحد إليه بسؤال فإنه يجيب دائمًا بمهارة، تفوق تحديدًا ما يتبين أنهم ينتظرون منه. وكان شديد الأناقة، مليئًا بالظرف، بل وسيمًا، إضافة إلى استقامته الشديدة ونزاهته التي لا غبار عليها. ولئن لم يبدر عنه أي طموح، فإنه شق طريقه بسرعة صامتة فكسب ود فريدريك. أما وهو حكيم حتى النهاية، فإنه لم يقبل أي وظيفة أو مهمة أو مسؤولية، وكان فريدريك يلومه على ذلك. قبل بالألقاب التكريمية والمِنَح... لكن بصفة مجانية. وحظي على ما يشبه الشهرة من كتاب بسيط بعنوان: *Newton expliqué aux Dames* (نيوتن مشروحًا للسيدات). وجدت السيدة دو شاتليه ذلك ضحلًا، ومفرطًا في التبسيط. وشعرت بانتقاص من قيمتها وهي ترى الدرك الذي انحدروا إليه بالرب نيوتن، لجعله في متناول الذكاء النسائي. فكانت إميلي العنيدة تقول إنها تريد أن يعاملوها أينما كانت كأنها رجل، إلا في السرير. أما ألغاروتي، فتعامل معها كأنها دمية حين كتب في مؤلفه يقول إن «حب العاشق يتناسب عكسًا مع مكعب المسافة بين عشيقته ومربع زمن غيابها». ويزعم ذلك القول الجميل أنه قمين بإفهام الحسناوات سر الجاذبية، لكن إميلي كانت تستخدم المعادلات استخدام رجل علم، فيما لم يكن ألغاروتي سوى صبي حلاق. وفي حدود عام 1747 ارتكب غشًا بحق فريدريك حين رغب هذا الأخير في أن يوكل إليه منصبًا رفيعًا في الدولة؛ إذ شعر ألغاروتي بالخطر، فانسحب إلى بلاط دوق ساكس الكبير الذي كان ملكًا على بولونيا، فعينه مستشاره الحربي. وحينذاك كتبت السيدة دو شاتليه تقول: «يا للروح المسالمة التي يتحلى بها هذا الملك الصالح! إذ عهِدَ بالحرب إلى الرجل الأكثر تعليمًا، والأكثر لطفًا، والأكثر عذوبةَ عيش».

لاحظ فولتير، منذ وصوله إلى بوتسدام، وجود فرنسي آخر صامت وكتوم

---

(8) طائر مائي أبيض وطويل العنق كالنعام. ويطلقون عليه، خطأً، اسم البجع. أما باليه الموسيقار الروسي تشايكوفسكي فاسمها «بحيرة التم»، لا بحيرة البجع. (المترجم)

كان وصيف فريدريك وسكرتيره، وهو السيد دارجيه. وتبين له أن ذلك الرجل يفوق في أهميته الأمراء والماريشالات كافةً. كان دارجيه هذا سكرتير سفير فرنسا، السيد فالوري، وقد أنقذ حياة سيده في ظروف مأساوية بشجاعة أدهشت فريدريك، فجعلته يقرر استلحاق هذا الرجل. ولقد هنأ نفسه على ذلك القرار. وواقع الحال أن السيد دارجيه كان، من دون شك، الرجل الوحيد الذي كان فريدريك يثق به ثقة مطلقة. فهو على اطلاع على الأسرار كافة، ولم يبدُ عليه يومًا أي زهو، وقلما استخدم سلطته التي كانت بلا حدود. أما وهو المترفع والذكي، فقد قدر فولتير كثيرًا، وخدمه بكل ما يستطيع من غير أن يغدو صديقًا له. وكان فولتير يقدم له في المقابل بعض المدائح الخفيفة:

«وداعًا سيدي السكرتير
كُن دائمًا سندي الحنون
ولئن كف فريدريك عن محبتي
فعليك التفكير بالتسديد بدلًا عنه».

كان في عداد المجموعة إنكليز أيضًا، أو بالأحرى اسكتلنديون، هم الأَخَوان كيث، وسفير فرنسا اللورد تايركونل، وهو إيرلندي في خدمة لويس الخامس عشر. وكان فريدريك، في عزمه على إغاظة الملك جورج الثالث في هانوفر - وكان يكرهه - يقوم بما وسعه لمصلحة اليعاقبة. كان أحد هذين الأخوين كيث معروفًا بلقب ميلورد ماريشال، وصديقًا حميمًا لجان جاك روسو. ويأتي فولتير إلى ذكره بحسن التفات وانطلاق. وحين جرى إرسال ميلورد إلى باريس بوصفه وزيرًا للملك البروسي، أحاط فولتير ابنة أخيه علمًا بذلك، لتكون مهيأة للقائه. وقد سافر تتلبسه شابة تركية - هي سبية حرب - لم تكن لتفارقه البتة، «مع أنه لم يكن يبدو في حاجة ماسة إليها». وكانت التركية مسلمة ملتزمة تتمسك بواجباتها الدينية بكل دقة. وكان الوصيف «تتريًا يفاخر بأنه وثني». أما الماريشال «فأعتقد أنه أنغليكاني إلى حدٍ ما. وكان ذلك كله يشكل تجمعًا ممتعًا يبرهن على أن الناس كافة يستطيعون العيش معًا على خير ما يرام، مع أنهم يفكرون بطرائق مختلفة»، لكن بشرط أن يكونوا من أمثال فولتير وميلورد... أما وقد عرضنا المسألة الدينية، فهاكم السياسية: «ما قولكم بالمقادير التي تبعث برجل إيرلندي

وزيرًا لفرنسا في برلين ويرجل اسكتلندي وزيرًا لبروسيا إلى باريس؟ إن ذلك ليبدو دعابة».

يبدو ذلك على وجه الخصوص فصلًا من فصول كانديد.

أما اللورد تايركونل، فكان فولتير، كما فريدريك، يمحضه الود. إنه أبيقوري، نهم في الطعام ويتعاطى الشراب، وصريح، بل فظ أحيانًا، فكان يشكل مع الإيطالي الرقيق تناقضًا تامًا. ويقول فولتير: «كان دوره أن يجلس إلى المائدة، حديثه وجيز ولاذع، وفيه ما لا أدري من الصراحة التي يتحلى بها الإنكليز من غير أن يتحلى بها أبناء مهنته البتة».

هذه شهادة قاسية بالنسبة إلى الدبلوماسيين، لكنها فكهة بريشة فولتير الذي كان يظن نفسه مُعَدًا للدبلوماسية.

بل كان هنالك أيضًا - وهو شيء نادر - شخص ألماني: هو البارون بولنيتس. كان فريدريك يحب شعبه لكنه لم يكن يخالطه. وحين يقبل بألماني ضمن بطانته الخاصة، فذلك بشرط أن يترك هذا جرمانيته معلقة على المشجب عند الباب. ولا ريب في أن بولنيتس هذا تخلى عنها منذ زمان، كما تخلى عن نقاء سريرته، وعن نزاهته، بل عن دينه أيضًا وثلاثَ مرات. كان يتمتع بالنباهة والحصافة والثقافة والشجاعة، وأما أخلاقيًا فهو عديم الوجدان. نقع عليه منذ عام 1712 في البلاط الفرنسي، وقد أحبته أميرة البلاط حبًا جنونيًا. فكانا يقولان في ما بينهما، وبكل جرأة، كل ما يمكن من السوء بحق فرنسا. وقدمته الأميرة إلى الملك العجوز الذي أحسن استقباله، حتى إنه قدم له بواسطة الدوق دورا، النبيل الأول في غرفة الملك، رتبة عقيد، بشرط أن يؤمن بالكاثوليكية. لكن بولنيتس استقبل العرض بترفع، وأقسم على أنه لن يرتد أبدًا. ثم قام، بعد ذلك بثلاثة شهور ووسط احتفال كبير، باعتناق الكاثوليكية، بل هرع إلى روما لينال مكافأة من البابا، وعاد بعد أن نال البركة منه. وحين رجع إلى باريس كان لويس الرابع عشر قد مات، وماتت معه التقوى الرسمية أيضًا. فكان أن استُقبلت كاثوليكية بولنيتس الطازجة بالضحك، في بلاط الوصي على العرش. أما وأنهم لم يعترفوا له، خارج وضع السخرية الذي زج بنفسه فيه، بأي فضل، فهو لم يصبح عقيدًا ولم ينل أي منحة. حينئذ فكر في الزواج.

بعد مدة قصيرة نعم بالمباهج لدى مركيزة، لها من العمر سبعون، ولها دخل يبلغ ثمانين ألف ليرة سنويًا. وكان لديها ولدان أحدثا صخبًا كبيرًا، وقاما بتأخير الزفاف الذي ينبغي أن يتوج مثل ذلك الغرام الجميل. لكن، وا أسفاه! فحين نوَت أن تتذوق مباهج الزواج من قبل أن تتزوج، لفظت المركيزة المسكينة أنفاسها، وهي بين ذراعي بولنيتس المِقدام. أما وقد تسرب اليأس إلى قلبه من ظلم القدر، وجحود فرنسا، قصد بولنيتس هولندا، حاملًا معه جواهر المركيزة.

لكنه قفل راجعًا لدى سماعه بأخبار لو، فأمضى أيامًا وليالي يغوص في وُحُول شارع كنكامبوا، حيث كانوا يجمعون الثروات. وصاح ذات يوم وقد حالفه الحظ، عارضًا جيوبه المحشوة بالأوراق الثمينة: «إن فيها مليونًا وأربعمئة ألف ليرة!»، وبعد ذلك بثلاثة أيام ما عاد فيها سوى الورق.

مع ذلك كان الحظ حليفه، فهو لم يربح شيئًا، لكنه ظل في قيد الحياة. كان جالسًا ذات يوم إلى المائدة في نُزُلٍ قرب إيتامب. وتقدم شاب طويل القامة، فطلب منه الإذن بالجلوس إلى مائدته، فدعاه بولنيتس إلى الجلوس. وما لبث أن فتنه جليسه بكلامه المتوقـد والذكي. وتحدث كل منهما عن سفره ومشروعاته. وعلى حين غرة جاءت بنت صغيرة فغنت تحت النافذة لحنًا قديمًا معروفًا. فنهض الغريب من فوره، فحيا على استعجال ثم رمى بلويسة على غطاء المائدة، وخرج فامتطى جواده الذي ظل مسرجًا قرب الباب، ثم أطلق له العنان، ليندفع بعدْو جنوني فيتوارى على الدرب. وبعد بضعة أشهر أُعلن أنه تم القبض على الشقي كرتوش، وأنهم وضعوه في قفص، وعرضوه أمام أنظار الجمهور. وأقبل الناس يشاهدون كرتوش في القفص. وذهب بولنيتس في جملة من ذهب، فتعرّف جاره على المائدة. وتعرّفه كرتوش أيضًا فقال له: «لقد تغديتُ معك في إيتامب، يا سيدي، وجاء مقطعٌ من أغنية لينذرني بأن رجال الدرك يلاحقونني، ما اضطرني إلى تركك بغتة، ولولا ذلك لكنتَ في عداد الأموات».

على ذلك النحو فقد بولنيتس المركيزة العجوز، وماله المطمور، وإيمانه اللوثري، لكنه نجا بحياته وعاد إلى وطنه، فجعله فريدريك يدفع غاليًا ثمن تقلباته: لقد حوله إلى مكسر عصا. وربما نتساءل عن سبب ازدرائه له على ذلك النحو المكشوف، واستقباله إياه على مائدته في آن معًا. إنها المتعة السادية، لأن

بولنيتس كان يتألم، وذلك يروق فريدريك. لكن بولنيتس لم ينصلح، إذ تخلى، من أجل عودته إلى بروسيا، عن إيمانه بالكاثوليكية، وعاد إلى عقيدته اللوثرية. وذات يوم قال فريدريك ساخرًا إن من المؤسف أن بولنيتس ما عاد كاثوليكيًا، لأنه كان من شأن منصب كاهن قانوني في سيليزيا، وبدخل جيد، أن يكافئه ويغنيه حتى الثراء. فهرع بولنيتس لدى سماع تلك الكلمات ليعتنق الكاثوليكية مجددًا، ثم يرجع ليقول لفريدريك إنه على أتم الاستعداد ليتولى منصب كاهن قانوني. فسخر فريدريك منه بفظاظة؛ إذ لن ينال أبدًا أي مكاسب كاثوليكية. ولم يحل ذلك دون أن يفرض فريدريك على بولنيتس شروطًا رهيبة: ممنوع عليه مغادرة برلين، وممنوع عليه مغادرة بوتسدام، وممنوع عليه الخروج من القصر، وممنوع عليه الاقتراض والشراء، وممنوع أن يستقبل أحدًا، وممنوع أن يلتقي أجانب خارج النطاق الملكي. وحين يكون بولنيتس مريضًا فيعجز عن السير خلف الملك في تنقله، يأتيه القول: «أما كان في وسعك أن تقول لمرضك أن ينتظر رجوعي؟».

لكن الازدراء لم يحل قط دون أن يمنح فريدريك مكرماته للناس. وهاكم ما كتب إلى ألغاروتي عن فولتير في عام 1749، إثر وفاة السيدة دو شاتليه مضاعفًا الإغراء والملاطفة لاجتذاب الشاعر: «إن من المؤسف اقتران روح هشة بمثل تلك العبقرية الرائعة. وهو يتمتع بلطائف القرد وطرائق مكره. ولسوف أقص عليك ذلك (هي واقعة ماكرة قام بها فولتير) حين ألقاك مجددًا. بيد أني سأتظاهر بعدم معرفة شيء؛ لأني في حاجة إليه من أجل طريقة النطق الفرنسية. إذ يسع المرء أن يتعلم كثيرًا من أحد الأشقياء. فأنا أريد معرفة لغته الفرنسية، وقلّما تهمني قيمه وأخلاقه».

وهاكم ما قال فريدريك لفولتير حين توفي بولنيتس: «مات العجوز بولنيتس، مثلما عاش، أي بمواصلة الاختلاس حتى عشية وفاته. فلن يأسف عليه أحد باستثناء دائنيه».

ربما نأسف على أن فريدريك اختار أصدقاء يجدر بهم مثل تلك الأشكال من التأبين، لكن ربما كان يجد متعة في صوغ تلك الخطب الجنائزية، أكثر مما يجد كثيرون في الإشادة بمناقب المتوفين.

أولئك هم الرجال الذين أحاط فريدريك نفسه بهم. وقد احتل فولتير في

ما بينهم، وفي تلك الجماعة العجيبة، مكان الصدارة. وسوف نلاحظ أنهم على الرغم من اختلاف طبائعهم، وأصلهم، ونشأتهم، ومواهبهم، كانوا جميعًا ذوي موهبة، بل مواهب؛ فكان لديهم جميعًا شيءٌ يقولونه في العلوم، أو التاريخ، أو السياسة، أو الفنون، أو عن خبرتهم المدهشة في العالم. ولم يكونوا جميعًا متعلمين فحسب، بل كانوا قادرين أيضًا على التألق بعلمهم ومعرفتهم.

ظهر فولتير في ما بين تلك الأنوار؛ فكان كما الشمس.

فريدريك وفولتير في حياتهما اليومية

مثلت الأيام الأولى من إقامة فولتير في بوتسدام قمة سيادته؛ إذ كان رصيده على درجة من القوة جعلت أمراء العائلة الملكية وكبار الوجهاء يطلبون مقابلته. وكان شقيقا الملك الاثنان يزهوان بلعب الشطرنج معه، ويدعانه يربح على نحو دائم. وكان فولتير يدير «بلاطه» على سجيته، فهو لبِق ومرح. ويقوم، من غير أن يلحظ أحد أنه يقصد ذلك، وبتلوينات فكرية وبتهذيب رائع، بتنازل مترفع وغير ملحوظ، لكن بعضهم يلحظه فيشعر بالخزي منه. ويؤمن له الملك يوميًا ست وجبات على مائدته. وغالبًا ما يكون لديه من المدعوين ما يفوق ذلك العدد، فيود على الدوام أن تكون لديه مائدة مفتوحة. وكان ذلك سبب مناكدات دائمة مع المطابخ الملكية. فهو يقول بطلاقة: «تعالوا كلوا من شواء الملك». وكان فريدريك الذي يراقب كل شيء يرى أن فولتير يسخر منه، وهو يدعو بتلك النبرة الساخرة.

تأتي من بعد مشاحنات بشأن الشموع والنبيذ والبن والسكر، لتذكر بشبيهاتها تمامًا مما كان فولتير يثير في لونيفيل. فهو يتظلم من أنهم لا يعطونه الشموع الست التي يدينون له بها كل مساء بموجب العقد. لقد حرص ابن الكاتب بالعدل أرويه على تدوين كل شاردة وواردة! ويتظلم الخدم من جانبهم، من أن الشاعر ينزع كل ليلة من الشمعدانات بقايا الشموع التي هي من حقهم أيضًا بموجب عقد، فيتهمونه بأنه يعيد بيعها. وكانت تلك المشاحنات المتعلقة بقطع الشموع تسمم علاقاته بأعوان الملك. ويقول إن الكميات التي يقدمونها إليه من القهوة والشاي قد جرى «تبحيرها»، أي إنها كانت منقوعة بماء البحر حتى تغيّر طعمها كثيرًا. وأحاط فولتير الملكَ علمًا بتلك الحرب الناشبة وهي حرب عصابات المطابخ. فبدا عليه الاهتمام بها، لكنه لم يفعل شيئًا لرفع سوية الخدمة. فكان يستمتع برؤية

«السعدان» يتواثب ويولول ويغضن ملامحه من أجل قطعة من السكر أو بقية من شمعة. ووقع فولتير على حيلة فيما هو يسعى وراء تحسين مخصصاته للإنارة. كان من عادته كل مساء، رفع الكلفة، والتوجه قبل العشاء إلى شقة الملك. فكانوا ينيرون له الدرب في الذهاب، أما في الإياب فيستضيء بشمعة من عند الملك يختارها بنفسه فيحرص على أن تكون كبيرة جدًا. أما وهو يكرر كل مساء ذلك الذهاب والإياب مرتين أو ثلاث مرات، فهو يربح على ذلك النحو ثلاث شمعات شبه كاملة. وحينئذٍ يسمح لنفسه بإفراط في الإنارة على حساب فريدريك وخدمه. فيعود ذلك عليه بكثير من الارتياح. ولم تبقَ المكيدة في منأى عن عين الملك الذي كان يقتِر في كل شيء: فبدت له الطريقة دنيئة، لكنه لم يقل شيئًا؛ ففولتير له حق القيام بكل شيء، حتى في فعل ما لا يُحتمَل.

في المقابل، كان فولتير يؤدي خدمات كثيرة لفريدريك. كان يريحه من أشقائه، فهو يشغلهم بجعلهم يقومون بالتمثيل المسرحي. ويقول فريدريك منشرح الصدر: «إخوتي يهرّجون». فهم في تلك الأثناء لا يدسون الدسائس.

كان فولتير يشغل أيضًا وقت الملكة ماري كريستين، بل إن اسمها لا يُذكَر إلا لمامًا، فهي بلا وجود. أما فريدريك الذي قرنها بمجموعة حمايته، فلم يكن ينظر إليها، فتعاني الشقية اليأس والملل. ولحسن الحظ أنها تحب الدراسة، وقد جعلها فولتير تقرأ معجم بايل (*Bayle*) الذي لم يكن مستقيم الرأي إلى حد كبير. أما والملكة مستقيمة الرأي حتى الذروة، فإن فولتير لم يقدم لها سوى المقالات «الصالحة»، في حين كان زوجها يفضل «الطالحة» على وجه الخصوص. وهكذا كان فولتير يقسم القراءات بين الثنائي الملكي، ما يجعل الملك والملكة يحفظان بايل معًا عن ظهر قلب.

لكن فولتير لم يكن يظهر عند الملكة إلا لمامًا، مثلما يفعل الآخرون، فهو عندها يكاد يلفظ أنفاسه سأمًا وبردًا وجوعًا. وهي تعيش من لاشيء. ويقال إنها ذات مساء جعلت زوجة ماريشال تتعشى عندها، فقدمت لها، إما سهوًا وإما بخلًا، شيئًا من الكرز المحفوظ.

أما الملكة الأم فكانت أكثر طرافة إلى حد بعيد، لذا كان فولتير يلاطفها أكثر وبطيب خاطر. زد على ذلك أنها كانت تحرص إلى تدفئة ضيوفها وعلى تغذيتهم

بروح إنسانية. في برلين، دعته الملكة الأم إلى العشاء بشكل مفاجئ. ولما كانت في حالة حداد، كان عليه أن يضع ثوبًا أسود، بينما كانت خزانة ملابس فولتير في بوتسدام. وعرضت لوصيفه فكرة استعارة ثوب من تاجر غني يعرفه. أما وأن التاجر أكثر سمنة من فولتير، فإن هذا الأخير كان يطفو داخل الثوب، فحمله إلى خياط راجيًا تضييقه. ففعل ما هو أحسن، إذ أعاد قص الثوب الذي لاءم فولتير كثيرًا. لكن حين أعادوه إلى صاحبه لم يستطع هذا الأخير أن يدخل فيه، فضحك كثيرًا. ولم يعرف فولتير قط ما فعل الخياط، وأنه ما استطاع إصلاح الخطأ. وهو كذلك لم يعرف أن برلين كلها سخرت منه بهذه المناسبة، وأن أعداءه تلقفوا الطرفة بوصفها، كما قالوا، دليلًا صارخًا وجديدًا على بخله وعدم استقامته.

غالبًا ما كان بلاط فريدريك يتنقل، ذهابًا وإيابًا، بين برلين وبوتسدام، لكن قدس الأقداس هو قصر سان سوسي[9]. وكان فولتير يقارن جمعة الصحب المحيطين بالملك بجمعية أخوية قوامها الكفر. فالأب الأباتي هو الملك، يليه الأخ ذو الامتيازات فولتير، ومن بعدهما الرهبان الآخرون الذين بتنا نعرفهم. وكان سان سوسي قريبًا جدًا من بوتسدام، فيتوجهون إليها سيرًا على الأقدام. والقصر مشيد فوق تلة، يجري عند أسفلها نهر هافل. والقصر، ضمن أبعاده الملكية، هو ما كان يطلق عليه الأسياد الفرنسيون في ذلك العصر اسم «الجنون». فهو يتألف من طابق أرضي فحسب. والجناح الرئيس فيه قاعة مستديرة تتوجها قبة. أما الأجنحة فسطحها أفقي، ويمكن الهبوط منه عبر درج كبير، شديد الفخامة، ومسرحي بعض الشيء نزولًا إلى الحدائق على الطريقة الفرنسية، ومع ذلك فالمسحة العامة إيطالية. ويحتل المستديرة المركزية صالون كبير من الرخام، والقبة ذهبية. والمدخل إلى اليسار يؤدي إلى قاعة الطعام حيث تُشاهَد صورة لدوقة شاتورو التي تجعل فريدريك يضحك ساخرًا. فكان يطلق عليها لقب كوتيون الأولى[10]، لأنها دشنت عهد العشيقات من ذوات الألقاب في عهد لويس الخامس عشر. وتأتي من بعد غرفة النوم بسرير مزخرف محاط بدرابزين من الفضة، لكن فريدريك ينام وراء ستارة فوق «حشية خشنة» حسبما يقول فولتير. والحق أنه سرير ميدان ضيق وقاس، كانت الكلاب الصغيرة لصاحب الجلالة تتشقلب فوقه

(9) المعنى الفرنسي: بلا هم، أي بعيدًا عن الهموم. (المترجم)

(10) كوتيون هي التنورة، وعبارة الركض وراء الكوتيون تعني السعي وراء معاشرة النساء. (المترجم)

طوال النهار. ويحمل فريدريك في بعض الأحيان واحدًا من تلك الكلاب في كمه. وهنالك أيضًا ساعة الحائط التي يتولى إدارتها بيده كل مساء، والتي ظلت متوقفة تحدد ساعة وفاته: في الثانية والثلث من يوم 17 آب/ أغسطس 1786. وكانت غرفة عمله مليئة بالكتب، لكن ما من كتاب واحد بالألمانية. وتقع في الجناح الآخر غرف الضيوف. وكان لغرفة فولتير مخرج على سطح مع مطل رائع على الحدائق المتدرجة. وهنالك كانوا يأتون لمقابلته، حين تكون مقابلته ممكنة. «إن صحتي كحالها في باريس تقريبًا. فحين أكون مصابًا بالمغص، أستغني عن رؤية ملوك الكون كافة. وإني استغنيت عن أمسيات العشاء الرائعة تلك حتى أجد نفسي في حال أفضل قليلًا...». إنه يتكلف التأفف، أما في الواقع، فلا يعوزه سوى القليل من حفلات العشاء الرائعة تلك، والتي يعرف حق المعرفة أنه قلبها النابض، لكن يُغريه أن يكتب قائلًا: «هنالك فائض من الجنرالات والأمراء». أما في الأماسي الصغيرة على العشاء، فيرى في فريدريك الكمال: «إنه قيصر، وهو ماركوس أوريليوس وهو جوليانوس، وهو أحيانًا كاهن بور ذاك الذي أتعشى وإياه، فهو الروعة في مكان الخلوة، وهو الحرية في الريف!»، مع مباهج الحياة كافة التي يسع سيد القصر الذي هو الملك، أن يؤمنها لضيوفه المتواضعين.

أما تلك المفاتن للخلوة فهي قصر، والشقق مفروشة وثمة أشكال من التكريم، والصديق هو الملك الأذكى بين الناس، وهناك الأخوية المتألقة، فهم وراء تلك الواجهة لعشرة ملايين من الأتباع الذين يعملون ويحاربون لعزة ملك بروسيا و«المباهج الصغيرة» للسيد دو فولتير. إنه فردوس حقيقي! وهو العصر الجميل، العصر الحقيقي! عصر العيش الرغيد، لكن ينبغي أن يكون فولتير وفريدريك معًا وأن يلتقيا. ولحسن الطالع فإن فولتير يحس بشيء من الاستشعار المسبق للحظوة النادرة التي ينعم بها: «قوام وظيفتي ألا أفعل شيئًا. فأنا أستمتع بوقت فراغي، فأمنح ساعة أو ساعتين في اليوم لملك بروسيا، لكي أعدل بعض الشيء في مؤلفاته النثرية أو الشعرية. فأنا أصقل معجمه النحوي ولست حاجبه. أما باقي اليوم فملك لي، وينتهي النهار بعشاء فاخر».

كانت تلك اللقاءات على العشاء مناسبة تجعله يتألق بأنواره كافةً. وكان فريدريك يجيد فن معارضته، وإلقاء أفكار تعارض أفكاره وأفكار المتحاورين. وكان مناكدًا وممازحًا حتى القسوة، فيؤجج ذلك من اعتزاز «الإخوة» الذين يصيرون أكثر تألقًا حين يصيرون أعداء.

يدع الملك أحيانًا تلك العقول النيّرة ليتناول العشاء على انفراد مع ضابط يروقه كثيرًا، هو السيد دو بَلبي. وكانت تلك المحادثات الانفرادية تغيظ فولتير؛ فهو غيور غيرة دائمة من تفضيلات الملك، حتى إنه يجيب إذا ما سئل عم يفعل الملك هذا المساء فيقول: «إنه يُبلبي».

مع ذلك فهنالك عبارة «لكن...»؛ فكل شيء على ما يرام في بوتسدام «لكن...»، والمسرحية جرى أداؤها على خير ما يرام «لكن...»، وشوارع المدينة جميلة «لكن...»، والإخوة متوقدو الذهن «لكن...». وينهي تلك السلسلة من الـ «لكن...»، التي يحرص على تبريرها، بتلك العبارة التي تتضمن كثيرًا مما يريد قوله حول التغير في المناخ الذي طرأ بعد مرور شهور عدة على إقامته: «بدأ الطقس يميل نحو البرودة الجميلة». ولقد أضحى «الكاهن الأباتي» متيقظًا. أما البرودة فأحس بها فولتير تمامًا، حتى إنه ما عاد يقول إنه «يصقل» عبارات الملك، بل يقول إنه يتولى «تقشيرها». وهذا تلوين!

أما موبرتوي فمغتاظ قليلًا. ألم يجرؤ على مقاطعة فولتير في أثناء قراءته ميروب من أجل إبداء ملاحظة ضئيلة؟ فيا لها من وقاحة! ولسوف يعلّمونه، وهو الأستاذ، أن يحترم «الأمراء».

للمال رائحة أحيانًا[11]...

هيأ فولتير لأعدائه أفضل مناسبة لمهاجمته. وكانت المناسبة مخزية، إلى حد أنها لم تمكن أصدقاءه من الدفاع عنه. فهو أغرى تاجرًا يهوديًا غير شرعي من برلين اسمه هيرش، أو هيرشل، للقيام بصفقة مضاربة غير مشروعة. وليس ما يفوق شريكه شبهة سوى شراكتهما. وكأنما جرى عمدًا تشويش كل شيء في هذه القضية بسبب الكذب من كلا الطرفين. أما المعطيات فهي أنه بعد انتهاء حربه مع دوقية ساكس، أرغم فريدريك هذا البلد على تسديد البروسيين كافة من حاملي سندات الدين من الدولة الساكسونية. والحال أن تلك السندات هبطت كثيرًا إلى ما دون قيمتها الاسمية، فطالب فريدريك بتسديدها بحسب قيمة الاكتتاب. فنشأت فورًا حركة متاجرة غير مشروعة؛ إذ كان البروسيون يشترون في الساكس سندات

(11) إشارة إلى مثل فرنسي يقول: ليس للمال رائحة، أي لا يُعرَف إن كان مصدره مشبوهًا. (المترجم)

بسعر منخفض ويقومون بتحصيلها بالسعر المرتفع بصفتهم البروسية. ورغب فولتير في أن يستفيد من الفرصة السانحة، فكلف هيرش بالذهاب إلى ساكس لشراء سندات بأخفض سعر ليأتي فيصرفها بالسعر المرتفع، بوصفه تحت حماية صاحب الجلالة البروسية. وحسب أن رأس المال الموظف في هذه التجارة غير المشروعة، ينبغي أن يعود عليه، بعد احتساب النفقات كافة بما فيها أجرة هيرش، بربح يبلغ 35 في المئة في غضون بضعة أسابيع. وهكذا، سلم شريكه قسمًا من رأس المال اللازم نقدًا، والقسم الثاني على شكل رسالة ائتمان بقيمة أربعين ألف إيكو تُحول من طريق باريس! فبلغ كل ما ائتمنه عليه 120 مليونًا من الفرنكات الفرنسية القديمة. وترك اليهودي لديه، على سبيل الضمان، كمية من الماس، أي إن فولتير كان سيجني ربحًا يعادل تقريبًا أربعين مليونًا من فرنكاتنا الصغيرة. وربما كنا سنجهل كل شيء عن تلك الصفقة لو أنها انتهت نهاية حسنة، لأن الصفقات الرابحة تنتهي من دون حكايات. أما هذه فتركت قصة، وإنها لمخزية.

ما كاد هيرش المثقل بذهب فولتير يتوجه إلى درسدن، حتى جاء من يعلِم فولتير بأن الرجل غير أمين وأن أمواله مهددة بالضياع. وجن جنون فولتير فأوعز من فوره بإلغاء الحوالة. وحين قدم هيرش السند في درسدن رفضوا أن يصرفوه له، فأصيب بإحباط كبير ورجع إلى برلين من فوره عازمًا على الانتقام، ولذا، لم يشترِ أي سندات، بل ظل يحتفظ بالمال الذي أعطاه إياه فولتير. وبدأت حينذاك سلسلة من أعمال الضغط من طرف وآخر. فطالب هيرش بتعويضات عن نفقات سفره، وكذلك تعويضه عن الربح الذي لم يحققه. فنظر إليه فولتير بتعال، وتبجح بأنه يحظى بحماية الملك. ورغب اليهودي في أن يعرف مدى تلك الحماية، لأن فولتير زعم أنه باشر تلك الصفقة بدعم من فريدريك. وذاع الخبر بسرعة كبيرة فيما رفع كل من فولتير وهيرش الصوت زاعقًا أكثر من الآخر؛ فطالب هيرش بتعويضه، في حين أنكر فولتير أنه كلفه تلك العملية. لكن ما الذي دعا فولتير إلى تكليف ذلك الوسيط وتسليمه ذلك المبلغ الضخم؟ قال فولتير: «لشراء كمية من الفراء». ويشاء سوء الطالع ألا يكون في درسدن سوق للفراء. فقال لاحقًا: «لشراء الماس»، فقيل له إن الماس يُشرى من هولندا. في أي حال، كان اليهودي ملزمًا برد المبلغ إليه، لكن هيرش قال إنه لن يرد شيئًا. وقام فولتير بتقدير قيمة الماس الذي بحوزته، فقيل له إنها ماسات مزورة. وهنا ثارت ثائرته وما عاد لسخطه من حدود.

ورفع دعوى بحق شريكه. ومن الجلي أن هيرش، الأمين على سوء سمعته، بدا رجلًا عديم الذمة. وعلى الرغم من اقتناع فولتير بكذب خصمه أمام المحكمة مرات عدة، فإنه كان في موقف حرج جدًا؛ إذ كان عليه أن يسلم بأنه كلف هيرش بعملية مضاربة ممنوعة. ولم يمتنع فريدريك عن مساندة فولتير فحسب، بل انتقده انتقادًا عنيفًا.

لم يكن فولتير رجلًا يقبل المساومة أو التصالح، على نحو ما كان شازو يأمل. تدخل هذا الأخير وأجرى مقابلة بين المتخاصمين، خرج فيها فولتير عن طوره فرغب في خنق هيرش. وكان من شأن ذلك السلوك أن يؤول بكل شيء إلى الإخفاق. وكان شازو ملزمًا رفع تقرير إلى فريدريك، وذلك ما لن يسامحه عليه فولتير أبدًا. وصدر عن الملك انفجار مباغت، فأصدر أمرًا إلى دارجيه بإبلاغ فولتير فورًا أن عليه أن يغادر بروسيا في غضون أربع وعشرين ساعة! فتوسل إليه دارجيه أن ينتظر يومين أيضًا ريثما يصدر الحكم في القضية، فالحكم ينبغي أن يصدر في 4 كانون الثاني/ يناير 1751، فيما كان فولتير قد رفع الدعوى في تشرين الثاني/ نوفمبر، فنلاحظ أن القضية بُحث فيها بهمة ونشاط. وكان فريدريك قد تلقى شكاوى كثيرة من ساكس في موضوع تهريب تلك السندات، وأدرك أن قضية فولتير، وهي تبسُط في وضح النهار تلك المضاربة، إنما تعرضه هو لتلقي الملامة من العواصم كافة التي سوف تعتبر برلين ساحة تجري فيها المضاربات الأكثر غشًا تحت حماية السلطة الملكية. أضف إلى ذلك أنه اعتبر فولتير قد أفرط في الجرأة وهو يتبجح بحماية الملك، وأنه استغل كرم الضيافة لكي يغتني. ألم يكن يدفع له ما فيه الكفاية؟

أحيط فولتير علمًا بذلك الغضب فلزم جحره لا يغادره. انتهى تبادل البطاقات المكتوبة بين غرفة وأخرى، وانتهت الزيارات في ضوء الشمعة، فاكتفى بالكتابة إلى دارجيه. كان يتوسط لدى القضاة ويتظلم، ويصرخ مستنجدًا، فيبكي وتثور ثائرته. لم يكن المال المفقود يثير سخطه، على قدر الطريقة المهينة التي استخدمها سمساره. فلصوصية هذا الأخير تدفع به إلى حافة اليأس، وحين يصيح داعيًا إلى «العدالة»، فإن رجع الصدى الذي نسمعه لدعوته هو «الانتقام!». لكن نحو من يسعه أن يتوجه باتهامه غير نفسه؟ ألقى بنفسه مقيد اليدين والقدمين إلى ذلك المجهول. وأخيرًا واتته الجرأة على الكتابة إلى فريدريك. ولم تكن الرسالة مرحة.

فنشعر بهبوب الريح الجليدية لزوال النعمة؛ إنها ريح الشمال القطبية. ولا يسعه سوى التوسل والتشديد على أنه لم يبق لديه من شيء على هذه الأرض سوى «أن أهنأ بأن أحبك وأن أجلك»، فهل من قرب أم من بعد؟ يسعه أن يخشى كل شيء.

توجه إلى المستشار السيد فورمي متوسلًا، وإنه لالتماس عجيب. كان ذاهلًا عما حوله، فدخل كالمجنون إلى بهو غاصٍ بالناس، حتى إنه لم يرهم، وارتمى على السيد فورمي، فأمسك بيده وجره عنوة إلى حجرة مجاورة، فسرد عليه من غير أن يلتقط أنفاسه قصته كلها. ويعبر هذا المشهد أوسع تعبير عن عصبيته. وكان حينذاك في نوع من حالة ثانية قريبة من الجنون. فكان يتكلم بحيوية تسبب الدوار، ويتوسل إلى السيد فورمي، بل يحثه على إبلاغ القاضي السيد دو جاريغس رسميًا بجعله يربح دعواه. وكانت ابنة فورمي الصغيرة تراقب ذلك الزائر العجيب، واسترعى نظرها الصليب الماسي الذي يعلقه على صدره، وهو وسام الاستحقاق، ورغبت في لمسه فقال لها على نحو مباغت: «إنها تفاهة براقة، يا بنيتي!»، ثم انصرف.

لقد أحدث خصمه انطباعًا على درجة من السوء أمام المحكمة، جعلت قضية فولتير تبدو أقل رداءة. ويروي بعض خصوم فولتير أنه قال ساعة طلب إليه أن يُقسِم على الكتاب المقدس: «وكيف لي أن أقسم على كتاب صِيغَ بلغة لاتينية رديئة؟ ولندع جانبًا هوميروس أو فيرجيل». لكن ذلك غير محتمل على الإطلاق؛ فهو ليس في مزاج يسمح له بالمزاح، لأنه يعرف أن مصيره مرهون بالقضاة: لقد أقسم اليمين بشكل رصين جدًا.

كانوا في باريس على علم بذلك كله. وقال لويس الخامس عشر أمام عدد من أفراد بطانته، بعد أن أحاطوه علمًا بمضاربات فولتير الدنيئة: «إن ذلك الشاعر الكبير شديد التدقيق حول البرناس وحول شارع كنكامبوا».

رفع فولتير ظلامته إلى المارغراف دو بايروت: «إن الأخ فولتير يخضع للقصاص هنا، فلديه دعوى ملعونة مع يهودي، ووفقًا للعهد القديم فسوف يتعرض لمزيد من القصاص، لأنه تعرض للسرقة».

إنه لم يكن يصدق حقيقة ما يقول. فهو سيربح الدعوى، لكنه لن يسترد

ماله، بل ينبغي أن يدفع مالًا آخر. أما المارغراف الطيبة، فتلقت جوابًا على كتاب الالتماس الذي وجهته إلى أخيها فريدريك الثاني من أجل فولتير، في الرسالة التالية: «سألتِني ما حقيقة دعوى فولتير مع ذلك اليهودي؟ إنها قضية نصاب يريد أن يغش محتالًا. وليس مسموحًا لرجل يحمل فكر فولتير أن يقوم بمثل ذلك الإسفاف الدنيء. فالقضية الآن بين أيدي العدالة، وسوف نعرف في غضون أيام عبر الحكم الصادر من الأكثر لصوصية بين الاثنين. ثارت ثائرة فولتير، فأمسك بتلابيب اليهودي، وأوشك أن يتلفظ بشتائم بحق السيد دو كوكسيجي. وسلك في نهاية الأمر سلوك رجل مجنون. وإني أنتظر انتهاء هذه القضية لكي أغسل رأسه، عسى أن نأمل، وقد بلغ السادسة والخمسين - إذا ما عجزنا عن جعله أكثر تعقلًا - أن نجعله أقل لصوصية في الأقل». وكان على فولتير أن يشعر شعورًا مُرًا بذلك الاحترام لاستقلالية القضاة؛ فالملك لم يتدخل.

بعد صدور الحكم الذي لم يكن مواتيًا إلا من حيث الشكل، كتب فولتير إلى فريدريك بلهجة ندامة وخضوع. فهذه القضية حطمته، حطمته تحطيمًا موقتًا، ولسوف يثِب. أما الآن فهو في الحضيض... «أما أنا، وفي سني، فقد ارتكبت خطأ لا يكاد يُصدق. فأنا لم أتخلص قط من تلك الفكرة الملعونة المتمثلة في التقدم دائمًا تقدمًا مفرِطًا في القضايا كافة، واستبد بي غيظ الرغبة في أن أبرهن على أني صاحب حق، في وجه رجل ليس للمرء أن يكون حياله على حق، فاعتبر أني في حالة من القنوط، وأني لم أشعر البتة بألم على تلك الدرجة من المرارة. أضحيت محرومًا من بهجة القلب، ومن الغرض الوحيد الذي جئت من أجله... أسأتُ إلى الرجل الوحيد الذي كنتُ أريد أن أروقه».

ذلك هو فعل الندامة قبل الرجوع إلى النعمة، لكن من الواضح أنه ليست هنالك كلمة أسف واحدة عن سبب الداء كله: المضاربة غير المشروعة.

لم يستطع فولتير الإفلات من التوبيخ الشديد الموعود. وكان توبيخًا قاسيًا. وهذه هي مآخذ فريدريك؛ إذ صرنا بعيدين عن فيرجيل الفرنسي، وعن دانايي والنعمات الأخرى. فالكلمات مُرهِقة، ولا يمكن نسيانها:

«كنتُ مرتاحًا جدًا لأن أستقبلك عندي، وقدّرت فكرك ومواهبك ومعارفك، وخمنت أن رجلًا في سنك تولاه الإرهاق من المخاصمات مع المؤلفين، ومن

التعرض للعواصف، قد جاء إلى هنا ليحتمي داخل مرفأ هادئ. لكنك طالبتني منذ البداية، وبطريقة عجيبة جدًا، ألا أستعين بفريرون أبدًا لكتابة الأنباء. وغلبني الضعف أو المراضاة لأن أهبك ذلك مع أنه ليس لك أنت أن تقرر من هم الذين أستقدِمُهم ليكونوا في خدمتي. لقد ارتكب دارنو أخطاء حيالك، وكان لرجل كريم أن يسامحه عليها، أما الرجل الحقود فيواصل ملاحقة الذي يغضب منهم. وفي النهاية، وعلى الرغم من أن دارنو لم يسئ إلي بشيء، فقد رحل من هنا بسببك أنت. وذهبتَ إلى سفير روسيا لتتحدث إليه في شؤون ليس لك أن تتدخل فيها، فساد الاعتقاد بأني أنا كلفتُك بذلك (هذا صحيح: توجه فولتير لمقابلة سفير روسيا، فتوسط في قضية حقوق الأفضلية التي لم تكن تعنيه، وكأنما هو مخول بذلك من فريدريك). وتدخلتَ في قضايا السيدة بنتك، من دون أن تكون معنيًا بذلك. (كانت تلك السيدة بنتك امرأة جريئة وحمقاء بعض الشيء، وقامت متاعب بينها وبين زوجها. فوقف فولتير بكل طيش إلى جانبها، وتدخل من غير تكتم لدى فريدريك الذي صرفه للاهتمام بأموره الأدبية). ودخلتَ في أسوأ نزاع مع يهودي، فأحدثت صخبًا رهيبًا في المدينة كلها. وإن مسألة السندات الساكسونية معروفة تمامًا في بلاد ساكس، حتى إنه جاءتني منها شكاوى خطرة. أما بالنسبة إلي، فقد حافظت على الهدوء والسكينة في بيتي إلى حين وصولك. وإني لأنذرك إذا كنت تهوى المكائد والدسائس، بأنك أسأت الاختيار. فأنا أحب الناس الودعاء والمسالمين الذين لا يُدخِلون أهواء التراجيديا العنيفة في سلوكهم. وإذا ما كنت قادرًا على اختيار العيش عيشة فيلسوف، فأنا سأكون مرتاحًا لرؤيتك. أما إذا انصرفت إلى أصناف الجموح في أهوائك كافة، وكنت تحمل الضغينة للجميع، فإن وجودك هنا لن يحمل لي أي بهجة، ويسعك تمامًا أن تذهب إلى برلين».

كان من شأن المشط الذي استخدمه فريدريك أن ينتزع شيئًا من جلد الشاعر، في أكثر من مكان، وجلده على كثير من الهشاشة أصلًا. ومهما يكن الجهد المبذول بعد تلك المصارحات، ومهما تكن التملقات، فإن العودة إلى حال الصديقين الحميمين في البداية غير ممكنة أبدًا. وإن صداقتهما التي كان جناحها ينوء، من قبل، تحت عبء ثقل الرصاص، ستظل جريحة غير قابلة للشفاء بعد تلك الواقعة...

ويلين فولتير في الوقت الراهن، فيكتب قائلًا:

«مولاي، إذا ما أخذنا الأشياء في عين الاعتبار مطولًا، فإني ارتكبت خطيئة فادحة بأن رفعت دعوى على يهودي، وإني أتقدم باعتذاري إلى جلالتكم، وإلى حكمتكم، وإلى طيبتكم. ولا يحول ذلك كله دون أن أكون قد كرست لكم حياتي. إني أحطتُ المارغراف دو بايروت علمًا بأن الأخ فولتير يكفر عن ذنوبه، فلتأخذك الرحمة بالأخ فولتير».

انتهت القضية في 27 شباط/ فبراير 1751، ولم يكن قد مضى على فولتير وهو في بروسيا سوى ثمانية عشر شهرًا. وسمح له فريدريك بالظهور مجددًا في بوتسدام، مع تذكيره بالوقائع السابقة المخزية: قضية الناشر جور، وعازف الكمان في الأوبرا، واليهودي النصاب... «ليس لتلك الأسماء أن تُذكَر مقترنة باسمك». ويبدو ذلك أمرًا مفروغًا منه، إلا أن فولتير لا يفهمه إلا في أحيان معينة، وحين تسوء الأمور. ويعود من بعد ميممًا وجهه شطر أخطار جديدة.

ويعود الطبع خببًا[12]

إن فولتير الذي أتقن الإنكليزية تمام الإتقان في لندن، لم يبذل أي جهد لتعلم الألمانية. وكان يقول إنه ليس من كتاب بتلك اللغة جدير بالقراءة: «لا تظنوا أني أتعلم اللغة الجرمانية تعلمًا جادًا، فأنا أكتفي حذرًا بأن أعرف منها ما يكفي لأن أخاطب رجالي وخيولي». ولم يكن تفكير فريدريك مغايرًا.

استعان بمترجم، في أثناء النظر في قضيته التي كانت تجري بالألمانية. فوقع على شاب متميز ومتضور جوعًا، لم يكد يوليه اهتمامًا يُذكَر، وهو مَن سيغدو الشاعر الشهير لسينغ. لكن قبل بلوغ لسينغ تلك المرحلة، تسبب بغضب شديد استبد بفولتير، وطبعًا بقضية جديدة.

كان لسينغ فخورًا بالعمل مع فولتير، وكان يجله إلى حد التقديس، حتى إنه توسل إلى سكرتير الشاعر بأن يدعه يرى مخطوط عصر لويس الرابع عشر

(12) يقول الفرنسيون: «اطرد الطبع، يرجع خببًا»، وكما في العامية «الطبع غلب التطبع» أو «الطبع غلاب». (المترجم)

الذي انتهى توًا من كتابته. وهكذا، ففي أثناء أهوال دعواه، أنجز فولتير مؤلـفه. فيا لها من قوة ازدواجية! ورأى لسينغ الكتاب فرغب في قراءته أيضًا. وتوسل، ثم كرر التوسل، حتى رضخ السكرتير، فسلمه قسمًا من المخطوط. وعُرِضَت على لسينغ وظيفة في فورتنبرغ، فغادر برلين على عجل حاملًا معه الدفتر الثمين. ونقع مجددًا على مؤلف غير معروف لفولتير يهيم على غير هدى! وحين علم فولتير بأن مخطوطه يسلك دروبًا بعيدة، أثار ضجة وصخبًا. ولم يراوده أي شك في أن مخطوطه وقع بيد أحد اللصوص. فهل من يلومه على ذلك؟ وفي ذلك الوقت، بدأت السيدة دوني بملاحقة الرجل النزيه لونشان بتهمة سرقة مخطوط. لم يُبقِ فولتير على شكواه طي الكتمان، فبدأت ملاحقات السارق. وما إن أحيط لسينغ علمًا بالفضيحة حتى أرجع المخطوط. فقد كان راغبًا بكل بساطة في إتمام قراءته، وما كان في نيته أن يسرقه. بيد أن الضجة انتشرت، ونسي فولتير لسينغ، لكن لسينغ لم ينسَ قط الرسالة المهينة التي وجهها إليه فولتير يطالبه بـ «المخطوط المسروق»، ولم ينسَ أن الملك أحيط علمًا بالأمر، وأن ألمانيا، وبسبب فولتير، اعتبرته لصًا.

هكذا صنع فولتير لنفسه عدوًا جديدًا، وإنه لعدو لدود. ومع ذلك أدى خدمة لذلك الطائش، ذلك الشاعر المجهول، بإشاعة اسمه في بلاطات ألمانيا كافة. وظهرت الرغبة لدى الجميع في قراءة شعر سارق المخطوط، فور قيامه بنشر أشعاره.

غادر فولتير سان سوسي، في بحر ذلك العام، 1751، ليعتكف في منزل المركيز دارجان، لأن هذا الأخير كان آنذاك في فرنسا. فقال إن ذلك المنزل ملائم لصحته. ولا ريب في أنه رأى من الحكمة الانسحاب بعضَ الوقت، لكي يفسح المجال أمام الحرارة لتعود دافئة من جديد.

لم يحظَ الدكتور بورغون بمريض أفضل البتة

كان يعتني بنفسه، في أثناء عزلته غير المطلقة؛ إذ تضاعفت أمراضه أيام متاعب الدعوى. فهو يعيش راقدًا طوال اليوم، ويستقبل الزائرين وهو في سريره.

لم تنطبق قط على كائن من كان أطروفة موليير: «الجسد، تلك الخرقة البالية»،

مثلما انطبقت على فولتير. فهو يعرف أن جسده خرقة بالية، لكنه يعتني بنفسه عناية فيها كل الحرص. ولا يسعنا سوى تأكيد أن تلك العناية جعلته يعيش فيعمر طويلًا. إن طب فولتير مثير للذهول في بعض النقاط، لكنه يُعلِمنا بمدى جهل الأطباء، في ذروة عصر الأنوار، كما يُعلِمنا أيضًا بمن هو فولتير في حميميته.

لم تكن له لحية، فهي لم تنبت على الإطلاق، وهو، تاليًا، لم يكن يستخدم موسى الحلاقة، لكنه كان ينتزع بعض الشعرات التائهة التي تنبت هنا وهناك. وينصرف إلى تلك المتابعة فيما هو يتكلم. فلديه على الدوام ملقط لهذا الغرض، يضعه فوق الموقد أو في جيبه.

حين ينتابه التشنج المعوي الرهيب، كان يلزم سريره ويملي على سكرتيره. ويصوغ في بعض الأحيان نصوصه في ذاكرته ثم يقوم بكتابة ما صاغ في أثناء أزمته الصحية، فليس لديه من وقت ضائع.

حين أصيب بالجُدَري، جعلوه يشرب ثماني جرعات من المقيئ، وبعدها مئتي كوب من الليموناضة. فيا لمعدته! وبقي في قيد الحياة، لكن بجسد ناحل وبصحة أكثر هشاشة مما مضى.

ما كانت تراوده أي أوهام في شأن الطب في زمانه. فهو يقول: «قوام الطب إدخال عقاقير لا نعرفها إلى جسد معرفتنا به أدنى منها أيضًا». أما التناقض الذي نلاحظه غالبًا، فقائم لديه بين أفكاره وسلوكه؛ فهو يهوى تناول العقاقير ويجرب الأدوية الرائجة كافة، والوصفات الشعبية المتداولة كافة، وكان يميل في ما مضى لأن يتناول «مرهم الطمأنينة» للأب إنيان، وهو كاهن كبوشي، كان يمرخ نفسه بـ «ماء رابيل» و«مرهم فارنغر». وطوى النسيان ذلك كله. إنه يتلمس المياه؛ فأوشكت مياه فورج أن تقضي عليه، إذ زادت لديه الأحماض الكبريتية. كذلك كانت حال مياه بلومبيير. لكنه يتناول علاجات من خلاصة القرفة التي لا تصيبه بالتسمم. فيكون ذلك كافيًا لكي يطريها إطراءً كبيرًا. وجاء طبيب مشعوذ قمين «بالقضاء عليه»، فجعله يبتلع برادة الحديد. فعلى ذلك النحو، كما قال الطبيب الدجال، يغسلون القوارير المتسخة. وكانت النتيجة كارثية: فقد عانى آلامًا راعبة، لكنه، وبمعجزة، لم يمت.

أجرى إحصاء، فوجد أنه تناول في شهر واحد ثماني شربات مسهلة، وأخذ اثنتي عشرة حقنة شرجية، وظل على ذلك النظام العلاجي طوال سنين. لكن ينبغي القول إن الحقن الشرجية تُعطى له بواسطة جهاز حسن الإتقان، جرى استحضاره من إنكلترا. إنه معجزة! بل جوهرة لا تفارقه حتى في السفر. فكتب يقول: «إنها تحفة فنية يسعك أن تضعها في جيب حزامك. ويسعك أن تستخدمها استخدامًا دائمًا، وفي أي مكان». فهي لا تفارقه، حتى في العربة.

يكتشف، وهو في برلين، أقراص ستال. وقد فُتِن بها إلى حد الابتلاع منها طوال النهار. وعند عودته إلى فرنسا لم يقوَ على الحرمان من أقراصه الغالية، فطلب إلى فيليب أن يرسل إليه رطلًا منها، وأن تكون طازجة وحقيقية! فيرد عليه فيليب قائلًا: «إن في كمية الأقراص التي طلبتها مني ما يكفي لإصابة فرنسا كلها بالإسهال، وما يكفي لقتل رجالات أكاديميات ثلاث. كلفت دارجيه بأن يرسل إليك هذا العقار الذي يحظى بشهرة واسعة في فرنسا والذي كان المرحوم ستال يتولى صنعه بالتعاون مع حوذيه...». ولم يقل له بأي مادة، لكن كان من نتائج كلمات سليمان الشمال تلك أن جعلت الأقراص بلا تأثير في فولتير، فما عاد يتناولها قط.

وتسارع هزاله مع تقدمه في السن؛ إذ لم يفته شيء من أشكال الانحطاط الجسدي كافة، تلك التي لا رجعة فيها. وإن ما لاحظه جيدًا لدى نينون دو لانكلو، صار يلحظه لديه هو، لكن بفارق عشرين عامًا. لقد فقد أسنانه بسرعة، فصار له ذلك الفم المزموم إلى الداخل. وضعُف بصره، فصار يصاب بالدوار، وخف سمعه، وأخذ صوته يتكسر في أثناء إلقائه الخطب... لكنه عائش. إنه يقرأ ويكتب ويتكلم ويضحك بين جلسة مغص وأخرى. إنه يضحك على الدوام، فور شعوره بمهلة للراحة.

ألزمه الخوف من المغص اتباع حمية، لكنه كان يستسلم لبعض الإغراءات؛ فهو يحب الفطائر الدسمة جدًا المحشوة باللحم المفروم، والفواكه المحفوظة. فإن تقع عينه عليها يأكل منها، ويسدد في ما بعد غرامة شراهته، لكنه يظل مسرورًا. وكان أحيانًا يشرب عشرين فنجانًا من القهوة، في الفترة الممتدة بعد الظهيرة، لكنه يتناول القليل من الطعام. ويصنع على الفطور خليطًا من القهوة والكاكاو. وحين

استقبل الممثل المسرحي لوكان أول مرة على مائدته، اقتصرت وجبتهما على اثني عشر فنجانًا من ذلك الشراب. أما وجبته الفضلى فهي العشاء الذي يتناوله في حدود التاسعة مساءً، وأحيانًا بعدها. وكان غالبًا ما يتناول العدس الذي يحبه كثيرًا! فليس من هدية تقدم إليه تفوق في قيمتها هدية كيس من العدس. وكان مقلًا في تناول اللحم، ويفضل لحم الضأن. وقوام حميته اللبن والبيض. فيكتب قائلًا: «هنالك أغذية قديمة جدًا، ومفيدة جدًا، ولقد تناولها الحكماء كافة في العهود القديمة. وأعترف بأن معدتي لا تألف أصناف الأطعمة الحديثة. فلا يسعني القبول بتناول طبق من لوزات العجل الغارقة في المرق المالح. ولا يسعني أن آكل خليطًا مفرومًا من الديك الرومي والأرنب البري، والذي يراد مني أن أعتبره نوعًا واحدًا من اللحم. ولا أحب تناول لحم الحمام مع نبات الضفدعية، ولا أن آكل الخبز الثخين من غير قشرة سمراء. وأشرب النبيذ باعتدال، وأعجبُ للناس الذين يأكلون من دون شراب، ولا يدرون ما يأكلون. أما بشأن الطباخين، فلا يسعني تحمل خلاصة فخذ الخنزير، ولا الإفراط في أنواع الفطر والبهار وجوز الطيب التي يموهون بواسطتها أطباقًا صحية بذاتها، والتي لا أريد أن يضاف إليها شيء من الشحم. وأريد للخبز أن يُشوى في الفرن العام، لا في مخبز خاص أبدًا. وإن عشاءً جرى إعداده إعدادًا طبيعيًا على نحو ما أقترح، يجعل المرء يأمل في أن ينام نومًا هانئًا لا تعكره أي أحلام مزعجة».

ما إن ينهض عن المائدة حتى يتوجه إلى السرير. وكانت أربع ساعات من النوم أو خمس كافية بالنسبة إليه. غير أنه يلبث في السرير خمس عشرة أو ست عشرة ساعة يوميًا. وهنالك شموع عدة تظل مشتعلة طوال الليل. وكان سريره مغطى بالكتب والأوراق ضمن فوضى منظمة. وهنالك طاولة في متناول يده تقدم له الماء البارد، والقهوة، والورق الأبيض، والريَش، والحبر. وكل شيء معروض أيضًا على الدوام.

كانت نظافته مثالية قياسًا على ما كان سائدًا في عصره، من حيث نظافته الشخصية وملابسه وأدواته وأماكن إقامته. إنه السنجاب البراق! لكنه كان شديد التأثر بالبرد، حتى إنه يندس تحت لُحُفٍ وأغطية سميكة في عز الصيف. وعلى ذلك كان جسده يعيش على الإيقاع البطيء، وبتقتير، إذ كانت طاقته كلها منصرفة نحو التنظيم العصبي الخارق الذي يستهلك قواه وهي تجري في

مدارها على أحسن صورة. ذلك هو دون شك السر الكامن وراء طول عمره وهزاله المذهل.

في أثناء اعتكافه في منزل المركيز دارجان، جاءه زائر، فوجده راقدًا. وقال له فولتير:

«إني مصاب بأربعة أمراض مميتة».

فرد عليه الزائر الذي لم يكن مخطئًا:

«وإن عينيك لَفي أحسن حال».

كان ذا بشرة بلون الرق، وكان جلده منكمشًا فوق هيكل عظمي ناتئ الزوايا، لكن عينيه ظلتا متوقدتين، كما وهو في العشرين. وكان لذلك الثناء من زائر بسيط أن جعله يثب من مكانه. فكيف يُقال له إن نظرته متألقة فيما هو يؤكد أنه على شفا الموت. فجلس في سريره وهتف بذلك الصوت الذي كان يملأ مسرحًا بحاله:

«ألست تدري أن المصابين بالإسقربوط يموتون من النظرة المتوهجة؟».

هل لأحدٍ أن يجهل أن السيد دو فولتير كان مصابًا بالإسقربوط، وأنه على وشك أن يلفظ أنفاسه، كما يظهر بوضوح من نظره الذي يتطاير منه الشرر من سخط العيش؟

كان يعيش على ذلك النحو، محاطًا بالفراء والريش، يرتعد، وهو في الصيف، ويرتعد، وهو في الشتاء، أمام نار تقوم بشيّه. وهو طوال حياته يرتعد بردًا أو يرتعد خوفًا من البرد.

قشرة البرتقالة المرة!

كتب من سريره إلى باريس لتبديد الشائعات المغرضة التي سرت حول نكبته. أما وهو غارق في فراشه الوثير، ومنهمك في ابتلاع ثريده، فيعطي الانطباع بأنه يعيش وسط وليمة متواصلة.

«في كانون الثاني/ يناير، يأكلون الدراق والفراولة والأناناس».

لكن آل دارجنتال ليسوا مخدوعين، فاستُنفرت صداقتهم. وشعروا بأن

وضع صديقهم غير مستقر، ويمكن أن يغدو خطرًا. فطمأنهم، لكنهم لم يصدقوا شيئًا من أكاذيبه المنمقة. وتوسلوا إليه أن يعود، لأن باريس هي المدينة الوحيدة في العالم التي يسعه أن يجد فيها مجتمعًا يلائمه. فبرلين فيها ملك وبعض من رجالات الفكر النيّر، لكن ليس فيها من بلاط حقيقي، وليس وراء الواجهة من وجود لمدينة. أما في باريس، وإذا ما خيب البلاط أملك، فهنالك المدينة. وإذا ما أصيبت هذه بالبرود، فإن فرساي تبسط ذراعيها لاستقبالك. ويقول إنه ابتعد عن باريس هربًا من الحسد، لكن ما عساه وجد غير ذلك في بروسيا؟ وكيف لم يخطر في باله أن اليهودي هيرش الذي كان وقحًا وقويًا جدًا، لم يكن كذلك إلا بدعم من أعداء فولتير، ولربما بدعم خفي من فريدريك؟ لقد قصد فولتير بروسيا سعيًا وراء الحرية، لكنه كان مغلول اليدين مثل أحد الخدم. ويسعه، وهو على المائدة، أن يتعرض لألف موضوع محظور، أما خارج نطاق تلك الأقوال البراقة - والتي تظل طي الكتمان - فهل يسعه التصرف؟ وهل يسعه الخروج؟ وأن يسافر؟ وأن يخالط من يروقه؟ كان على فولتير أن يوافق على أن آل دارجنتال ما كانوا على خطأ، لكن ما آن أوان الإصغاء إليهم. وإن السراب لمّا يتلاشَ بعد.

أضافت السيدة دوني شكواها وتوصياتها إلى ما قاله آل دارجنتال، إلا أنها كانت أكثر تكيفًا مع غياب خالها. فهي تستقبل المسافرين البروسيين الذين يوصيها فولتير بهم، بل إنها استقبلت القائم بالأعمال البروسي في باريس بفيض من الحرارة، ما جعل الخوف يدب في قلبه! وعرضت عليه أن يحتل المكان الذي ظل فارغًا بعد الإيطالي، إلا أنه رفضه. مع ذلك استضافته بكل أبهة، فقدمت له أطايب الطعام، وتجولت بصحبته في عربتها عبر المدينة، ثم قدمته من مقصورتها في المسرح الوطني إلى باريس كلها، لكن سلوك ذلك البروسي لم يشجعها على الذهاب والعيش في برلين.

راودتها الآمال في الزواج من المركيز دو كزيمينيس، وهو سيد عظيم شبه أحمق. لكن لم يبدُ على المركيز أنه مصمم مثلها. ولم ينصحها فولتير، من بعد، بذلك الزواج. وكان كزيمينيس ميالًا إلى الفتيات الصغيرات. والأرجح أن تلك الطريدة اليابسة والمتحذلقة لم ترقه تمامًا، ولا سيما أنه جرى نتف ريشها مرارًا وتكرارًا.

بعد مرور شهور عدة، بدا على فريدريك شيء من الرقة، فعادت المداهنات لتظهر ظهورًا وجِلًا، كما عادت كوميديا الصداقة إلى الأداء، لكن بفتور. والظاهر أن ذلك بدا كافيًا لهذا وذاك. وكتب فولتير إلى دارجنتال قائلًا إنه يفضل تلك الحال على مهاجمات فريرون وازدراء فرساي. ولا تزال لديه جولات كثيرة من الضحك مع لامتري. وهما على درجة من الاختلاف بحيث لا يسعهما أن يتحاسدا. فلا يحمل لامتري إلا على الأطباء ولا يحمل إلا فولتير على رجال الأدب، فيما يتفقان معًا على تمزيق سمعة رجال الكنيسة. ولم تكن حظوة لاميتري لتسبب الضيق لفولتير؛ إذ إنه يعتبرها نوعًا من التهريج. يبقى أن فريدريك كان يود لامتري كثيرًا ويوليه من الثقة ما لا يولي فولتير. وكان يُعابث لامتري، لكنه لا يجرؤ على معابثة فولتير، لأن من شأن ذلك أن يستجر عواقب لا يريدها. أخيرًا، كان لامتري عاشقًا، فقلبه من بروتانيا، وعند انتهائه من الطعام يفضي بمكنونه؛ فلديه حنين إلى موطنه. ويقول إنه يريد أن يرى سان مالو من جديد. أما حين يهذي بعشق بروتانيا، فإنه يهرف بأشياء أخرى، وعندما يستجوبه فولتير يجعله يبوح بما يقول له فريدريك في جلساتهما الانفرادية. ولكم هو مرغوب أن نجهل ما يقول «أصدقاؤنا» عنا في أثناء غيابنا! فهذا الأحمق لاميتري سكب، من دون أن يلحظ ذلك، حمض الكبريت الحارق في قلب فولتير. فهو أسر إليه بأن فريدريك لم يُخفِ عنه مدى اغترار الناس بشأن حظوة فولتير المزعومة، وإن تلك الحظوة لا أساس لها! وكرر لامتري عبارة فريدريك الرهيبة: «سوف أحتاج إليه لعام واحد على أبعد تقدير؛ فبعد أن نعتصر البرتقالة، نرمي بالقشرة بعيدًا».

إن تلك الكلمات لا تُغتفر. ومنذ تلك اللحظة وقع الشر؛ فما عاد فولتير يشعر بالأمان في بوتسدام. ولا يزال الصديقان يتقابلان بنظرة باسمة وثغر مفتر، لكن فولتير لا ينسى الإهانة ولا التهديد. فقشرة البرتقالة تلاحقه حتى في منامه. وكتب إلى ابنة أخيه يقول: «أحلم دومًا بقشرة برتقالة، وأنا أشبه ذاك الذي حلُم بأنه سقط من على برج الكنيسة، ووجد نفسه يسبح متراخيًا في الهواء، فقال: ليت ذلك يدوم». لقد تكيف إذًا مع تلك الحال الهشة، والتي كان لآخرين في مثل وضعه أن يفضلوا الانتهاء منها والانصراف، لكنه مكث، وربما لا يزال في حاجة إلى فريدريك.

كانت الإصابة على درجة من الفظاعة، جعلته عاجزًا عن تصديقها. وحاول

أن يتخيل أن ذلك السكير دو لامتري عثر عليها في التهيؤ الناجم عن الإفراط في شرب الخمر. لكن وا أسفاه! كان دو لامتري يردد الجملة بالدقة نفسها دائمًا ويصف المشهد دومًا، كما جرى بالضبط، فيتجاوب رجع العبارة كأنه أمر بالطرد. وكان فولتير يجعله يكررها. وذات يوم تهرب دو لامتري من أسئلته؛ إذ أوشك أن يلفظ أنفاسه من عسر الهضم. فهو ذهب لمعالجة اللورد تيركونيل الذي كان متألمًا، واستبقى المريض طبيبه على العشاء، فالتهم دو لامتري عشرة أطباق، ثم ابتلع فوقها كبد نسر محشوة بشحم الخنزير والزنجبيل. وبعد ذلك أحس بالاختناق. رغبوا في معالجته، لكنه رفض كل دواء باستثناء الفصد، قائلًا: «من أجل تعويد عسر الهضم على الفصد». وعلى الرغم من جهد الطبيب، رفض عسر الهضم أن يتعود على الفصد، ولفظ دو لامتري أنفاسه؛ فقد انتفخ جسده انتفاخًا مذهلًا وفارقت روحه جسده بكل بساطة. وحين أحيط فريدريك علمًا بتلك النهاية «الفلسفية»، أغرق في الضحك قائلًا: «أنا مرتاح لذلك». أما فولتير فأضاف «إنه المريض الذي قتل الطبيب الذي جاء لعلاجه».

كان العمل في ألمانيا قائمًا على طباعة عصر لويس الرابع عشر. وربما كان ذلك ما منع فولتير من مفارقة فريدريك. وبلغه عن قرب ظهور طبعات مزيفة لعمله في كلٍ من برسلاو وفرانكفورت. وجن جنونه بحق؛ ذلك أن مخاطر ذلك «التزييف» لا تقتصر على حرمان المؤلف من حقوقه، بل يمكن أن ترسله إلى السجن أيضًا بسبب تقديم نصٍ مزور، فاستعان فولتير بفريدريك طلبًا للعدالة. فلم يخفِ فريدريك عنه أن الكيل طفح به من الالتماس والشكاوى والقضايا المتعلقة بفولتير عمومًا، فانهار شاعرنا. لكن المسألة تتعلق بعمله. فتوسل مجددًا، فهو يريد، مهما حصل، انتزاع عصر لويس الرابع عشر من أيدي أولئك السفلة. وكان له ما أراد.

ظهرت الطبعة الأولى في برلين في عام 1752 بإشراف السيد دو فرانشفيل، مستشار ملك بروسيا للشؤون اللاهوتية. وهنأ الأصدقاء والمعجبون فولتير على ذلك المؤلف المدهش الذي يقلب تصور المرء للتاريخ رأسًا على عقب. أما أصالة العمل الأولى، فهي أن كل ما ورد فيه حقيقي؛ فالوقائع جرى التحقق منها كلها، والشهادات والوثائق مثبتة. وأما العمل الذي سلم فولتير نفسه إليه، وجعل أصدقاءه ومخبريه وأمناءه يسلمون إليه أنفسهم، فهو عمل لا يُصدق، وواقع على الدوام وسط مضايقات المجتمع ومشروعاته بمشاريها

المتعددة، وقضاياه ومضايقاته وصنوف اضطرابه العذبة. أما الفرادة الأخرى للكتاب، فتمثلت في تجميعها حول شخصية مركزية «أنوار» عصره كافة؛ فالملك ذو شهرة، لأن حضارة عصره شهيرة. ولا يمثل الملك وحضارة عصره إلا شيئًا واحدًا. وإن رجال العصر العظماء هم الذين صنعوا العصر وصنعوا الملك. وهي المرة الأولى التي لا يجري فيها تبجيل عاهل، من ناحية تبجيل طبيعته الخارقة، وإنما بتبجيل محيطه. فالفنون والآداب والعلوم هي التي جعلت من لويس الرابع عشر شمس أوروبا. ومجمل القول إن الشخصية الأولى في العصر هي الملك بوصفه رمزًا، أما في الواقع فهي الحضارة، أي الذكاء الإنساني.

وجد اللورد تشسترفيلد، وهو الناقد الممتاز على الدوام، كل شيء في الكتاب مثار إعجاب، باستثناء الخط! وإذا كان ذلك يثير الابتسام، فينبغي أن نعلم أن فولتير الذي يتدخل في كل شاردة وواردة، تدخل في تبسيط الكتابة. فحذف، بادئ ذي بدء، الأحرف الرئيسة (Les majuscules) في مطلع الجمل، فأثار من اللغط والسخط ما ألزمه إعادتها. وكتب كلمة Français (فرنسي)، لا كلمة François (فرنساوي)، لأن الجميع يقول فرنسي. وكان ممكنًا إعطاؤه الحق في ذلك، بخلاف كل ما أشاع ذوو النيات السيئة حول تعديله الكتابة، ليتحول الناس عن قراءة كورناي وراسين اللذين يحرمه مجدهما نعمة الرقاد. فيا لها من دناءة غبية! غير أننا شهدنا في وسط القرن التاسع عشر نزلاء دير ماري دن هو، وقد تأججت نفوسهم بالحماسة المقدسة، يرفضون كتابة «فرنسي»، لأن الذي وضع تلك الصيغة هو «فولتير الكافر».

ظل شيطاني...

كان لنجاح كتاب عصر لويس الرابع عشر أن جاءه بعدوٍ جديد، لا يقل عنادًا عن أمثال ديفونتين وفريرون. إنه شخص مجهول، سوف يؤدي كرهه لفولتير، ولؤمه، ونذالته المتناغمة، كما جرت به العادة مع صرخات المظلوم وأجوبته، إلى ذيوع شهرته. فقد عامله فولتير معاملة الند للند. أما هو الذي ما كان يتوقع ذلك، فجنى من تلك الدعاية الخارقة أعظم النتائج. كان يلقب نفسه بالسيد دو لابوميل، في حين أن اسمه أنغليفيل. وهو من مواليد عام 1726، من أسرة بروتستانتية في الجنوب. فكان يبلغ السابعة والعشرين فحسب

حين أعلن نفسه بكل حدة. ولما كان من أسرة متواضعة، سعى للتحول إلى الكاثوليكية «في سبيل الوصول»، فحقق تعليمًا مجانيًا عند الرهبان، أما وقد رغب في الغوص مجددًا حتى جذور الكالفنية، أقام لفترة في جنيف.

قصد الدانمارك في عام 1750، حيث درس في ثانوية، وألف بعض الكتب المدرسية الصغيرة وأسس جريدة المشاهِدة الدنماركية (*La Spectatrice danoise*). وصنع شهرة لنفسه - لكن بين عدد محدود من القراء - عبر نشر كتاب صغير، أفكاري أو ماذا سيقولون عن ذلك؟ لكن لم يُقل سوى النزر اليسير؛ لأن أفكاره لم تدفع بأحد إلى التفكير. يبقى أن الأسلوب رشيق وتهكمي ويتماشى مع ذوق العصر. وكتب من كوبنهاغن رسالة إلى فولتير الذي كان في بوتسدام، تميزت بالكياسة، يطلب إليه فيها أن ينشر مؤلفاته لحساب ملك الدانمارك. ونحن نعرف فولتير: فما إن يتقدم إليه كاتب شاب قائلًا إنه يدين له بكل شيء، وإنه يتكلم باسم أحد الملوك، حتى يستسلم.

في عام 1753، توجه لابوميل إلى برلين. فأحسن فولتير استقباله، من غير أن يتبادر إلى ذهنه أن ذاك لم يأتِ إلا للتجسس عليه ورصد مثالبه. ومن نافلة القول إن الحسد كان ينهش قلب لابوميل. فهو لا يحسد الشاعر على موهبته، مثلما يحسده على ثروته ونجاحه. ولم يعترف له بأي فضل على ما أفاد منه: على كياسته، وكرم استقباله، وحديثه الذي لا يُبارى.

من فوره اشتم لابوميل في موبرتوي حليفًا له، توجه إليه فباح له بحقده على فولتير، وطرب لأنه يشاطره الشعور. ورأى موبرتوي من فوره أن في وسع هذا الشاب الطموح والحاقد، أن يقدم إليه بعض النفع. وهكذا لم يدخر وسعًا في تسميم الأشياء بين فولتير والحسود الصغير. وكانت المناسبات وفيرة.

تبجح لابوميل بكتابة مذكرات السيدة دو مانتونون، مستعينًا برسائل مجهولة اشتراها، وفق ما قال، من ابن راسين. وليس من صدّق ذلك الشراء؛ لأن لابوميل كان يتضور جوعًا. وقلة من الناس هم الذين صدقوا وجود تلك الرسائل، على الرغم من حديثه عنها بثقة مدهشة. وأثارت تلك «الرسائل» لغطًا في مجتمع بوتسدام. وذات مساء، قال فريدريك على العشاء إن ما دام لابوميل لم يتسلم الرسائل من طريق أسرة الفقيدة ولا أصدقائها، فإنه حصل عليها بطريقة غير

شريفة. وأثلجت تلك الأقوال قلب فولتير لأن تلك «الرسائل» التي يجهلها تسبب له أشد القلق، إذ يتساءل بحيرة المؤرخ إن كانت تلك المصادر التي لم يتوصل إليها، سوف تناقض ما كتب عن الملك وعن السيدة دو مانتونون في كتابه عصر لويس الرابع عشر. فهل هنالك من هو على يقين من صحة تلك المصادر كلها؟ ولسوف يستطيع القول في ما بعد إن «السيدة دو مانتونون وقعت على كل ما قاله عنها». أما حين يأتيه لابوميل، ليكرر على مسامعه أنه مندهش من الأخطاء التي وقع فيها حين يضعون مذكرات السيدة دو مانتونون تحت ناظريه، فسوف يتملكه الشك المضني. وذلك هو جل ما يسعى إليه لابوميل: التسبب للكاتب بالألم، وإضعاف الثقة بكتابه المدهش.

ما إن ظهر عصر لويس الرابع عشر، حتى كتب لابوميل يقول إنه لا يتعدى كونه «ضحالة وأخطاء فكرية». وليس ذلك بالنقد، بل شتائم. لكن أسوأ ما في الأمر أن عدو فولتير أعلن أنه سوف يقبض على مؤلف العصر متلبسًا بارتكاب الخطأ وبالكذب، لأن في حوزته هو، لابوميل، وثائق أصيلة أهملها فولتير. وليس لشيء أن يكون أكثر من ذلك إيلامًا لفولتير الذي تمثل طموحه في ذلك العمل التاريخي في أن يكون حقيقيًا.

نشبت حرب جديدة. والدهشة تستولي على فولتير دائمًا حين يتكشف له عدو جديد. وسبق أن أعطاه لابوميل بعض الإنذارات التي كان لها أن تجعل فولتير يلتزم جانب الحذر. فمنذ وصوله إلى بوتسدام، جعل لابوميل مؤلف عصر لويس يقرأ كتابه الأفكار، ليقع فيه على مفاجأة مزعجة تمثلت في كلمة غدر بحقه؛ إذ كتب لابوميل يقول: «كان هنالك شعراء أعظم من فولتير، لكن لم يكن هنالك قط شاعر آخر ذو أجر أعلى». وتلا ذلك القول أرقام المِنح التي حظي بها الشاعر. وحين أعاد فولتير الكتاب إلى مؤلفه اللئيم، طوى زاوية الصفحة التي تتضمن ذلك الهجوم، ورغب في أن يعرف لِمَ قال عنه ذلك. ولم يهتز للمتجني لابوميل جفن وهو يجيب إن ذلك مديح أسيءَ فهمه، فقال فولتير:

«قد أكون لا أُجيد القراءة».

فرد عليه الوقح قائلًا، وهو يسعى لتهدئته بأكثر الممالقات مذلة:

«ذلك ممكن».

وعلا الشحوب وجه فولتير، وهو يرتعد غضبًا، لكنه كظم غيظه؛ فالثأر آتٍ من بعد.

لم يفتقر لابوميل، وهو بلا دعم ولا ثروة ولا شهرة، إلى تهور حين هاجم أشهر كاتب في زمانه، وقد كان وهو في برلين يتمتع بالقوة. وكان لابوميل يعلم حقًا أن ذلك الشاعر، على الرغم من كونه أكثر الناس لباقة، قادر على البطش إذا ما هوجم، بل كان كما قالت عنه غرافينيي الطيبة، وهي ترتجف: إنه «قمين بإخراج ميت من القبر كي يشنقه».

كان لهفوة ارتكبها لابوميل، أن تُفيد فولتير في مخططاته الثأرية. لقد تعرف لابوميل وهو خارج من دار الأوبرا إلى امرأة جميلة، وغازلها غزلًا رقيقًا جعلها تضرب له موعدًا من فوره. فهو من ناحيته شاب وسيم وجريء ودافئ الحديث. وأما انسياقه وراء المغامرة، فجعله لا يعبأ كثيرًا بالزوج الذي كان يقف على بعد خطوات ثلاث من زوجته، ويبدو كأنه لا يلقي إليها بالًا على الإطلاق. كان نقيًا اسمه كوكشاين، عبارة عن شجاع مزيف بشاربين ضخمين، يتقلد سيفًا طويلًا متدليًا، وهو كثيف الشعر أسود البشرة رهيب المظهر، وعديم الذكاء تمامًا. فهرع لابوميل إلى الموعد، واستعد من غير مقدمات لأن يبرهن للمرأة عن أشواقه المتوقدة. وانفتحت خزانة جدارية ليطل منه الرجل الرهيب، فأيقن لابوميل أنه هالك لا محالة. لكن ذلك العملاق ما كان يطمع إلا في كيس نقوده. وأعانته السيدة الغانية على حل رباط كيس لابوميل، فكانت الحصيلة هزيلة. وعزم السفلة على الانتقام، فرفع العملاق شكوى بتهمة الزنا. فجرى توقيف لابوميل وإيداعه السجن بسرعة لا تصدق، فصرخ وكتب. وتسلت برلين كلها بالمغامرة. وتدخل موبرتوي لدى فريدريك فجرى إيداع المبتزين الاثنين في السجن وأطلِق سراح لابوميل.

كيف استطاع فولتير أن يبقى بمعزل عن تلك الفضيحة؟ لم يبدُ فيها من شيء يثير اهتمامه، لكن قدره يشاء له أن يتدخل في كل شاردة وواردة؛ فقد تطوعت سيدة فاضلة للقيام بوصل ما انقطع، ورغبت في مصالحة فولتير ولابوميل. وما إن أُفرِج عن هذا الأخير، حتى توجهت لتقول له إن فولتير تولى الدفاع عنه، وإنه أنقذه بوساطة سفير فرنسا، واقترح القيام بمسعى لدى الملك، يشارك فيه الفرنسيون

كافة. وهو باختصار سلك سلوك صديق صدوق. ثم أرسلت لابوميل لكي يشكر فولتير. أما بطلنا الذي لا يتغير، فما إن رأى لابوميل كسير القلب، يتقدم منه بلطف، بل بكلام معسول، حتى فتح له ذراعيه فعانقه، وأطراه، ودعاه ابنَه. وبكى الاثنان. ولم يتساءل فولتير إن كان فعل حقًا ما من شأن لابوميل أن يشكره عليه؛ فهو لم يرَ في مشهد المصالحة سوى «مشهد»، وما كان لا يعبأ بالدافع الذي جعل لابوميل يرتمي على قدميه، ويظل هنالك. فلا بد من إنهاضه بسرعة، وما دام قال إنه يحب فولتير، فليس لفولتير أن يقول إنه لا يحبه، فهل له أن يظل مدينًا في مجال الصداقة؟

ما كاد مشهد العناق ينتهي حتى تلقى لابوميل تقريرًا مغايرًا جدًا؛ إذ أخبروه بأن الشاعر ذا الطبع الجافي قال إن ما دام لابوميل في السجن، فهو في المكان اللائق به، وإن فرنسيي برلين ليس لهم علاقة بشؤون رجل ليس فرنسيًا. فمن ناحية، إذا ما استطاع مصادفة أن يثبت أنه فرنسي بالولادة، فهو فقدَ تلك الجنسية حين نُفي من المملكة. ومن ناحية أخرى، وفي الحالة التي لا يمكن تصديقها وهي أنه لم يُنفَ من فرنسا حقًا، فقد تم بكل تأكيد نفيه من الدانمارك. أخيرًا، فإن وضعه ميؤوس منه في الأحوال كافة، لأنه، إن لم يكن منفيًا من أي مكان، فهو ليس سوى مسيحي شرير (الكلمة عجيبة حين تصدُر عن فولتير!). فينبغي أن يحول ذلك دون المساعي التي يمكن أن تُبذَل لمصلحته، إذ من غير اللائق أن يقوم سفير صاحب الجلالة، المسيحي جدًا، بإزعاج نفسه لمساعدة مواطن رديء ومسيحي شرير.

عاد حقد لابوميل كله ليتأجج، لدى سماعه ذلك الخطاب. ومنذ ذلك الحين بدأت حرب الاستنزاف. ومجددًا نقول إن نسبة ذلك الخطاب إلى فولتير تبدو من قبيل النميمة؛ إذ كيف لنا أن نصدق أنه استعان بتلك الصفة لمسيحي شرير، ليدع لابوميل يواجه مصيره بنفسه؟ بل إن تلك الصفة، في بلاط فريدريك، هي بخلاف ذلك صفة اعتزاز! إن الأمر الأكيد أن فولتير لم يبذل أي جهد لإنقاذ لابوميل، وإنه لم يخفِ ارتياحه لمعرفته بأن ذلك الوقح الرقيع قابع في الظل، وأنه على وجه الخصوص ملزم بالصمت.

لم ينسَ فولتير أن يجعل فريدريك يقرأ الهجوم الذي تعرض له في أفكار[13] لابوميل، فقابل الملك الأمر ببشاشة ودعابة، وأحيط لابوميل بذلك علمًا، فتوجه

(13) يقصد بذلك كتابه أفكاري. (المحرر)

إلى السيد دارجيه ليبرئ ساحته، وليشكو على وجه الخصوص من جعل الملك يقرأ ذلك المقطع. وكان جواب دارجيه الوحيد أن دعاه إلى عدم إطالة إقامته في بروسيا. وإن الأمر لواضح: إن الدرب الذي سلكه لابوميل في برلين بلغ غايته. وهكذا غادر البلاد من غير أن يحقق شيئًا يُذكر، باستثناء جعل فولتير يعيش فترة من القلق؛ ذلك أن الرسائل الشهيرة للسيدة دو مانتونون، كانت تؤرق بالَهُ على الدوام.

لجأ لابوميل إلى غوتا، حيث لم يحقق نجاحًا أكبر. أما وأنه ما عاد قادرًا على إزعاج فولتير، فإنه نجح في إيقاع وصيفة في هواه فهربت بصحبته، مصطحبة جواهر سيدتها. وعلم فولتير بالمسألة فورًا، فنشر الخبر في بلاطات ألمانيا كافة، حيث فقد لابوميل كل اعتبار. ويرى بعض الشرفاء أن فولتير إنما يلطخ سمعته، حين يبادر إلى نشر تلك السفاهات.

لم يجهل لابوميل شيئًا من الدور الذي أداه فولتير في تلك الدعاية الخطرة التي انتهت بطرده من كل مكان. وهو علم بالأمر من طريق فولتير نفسه الذي لم يخفِ عنه شيئًا من التقارير الموجهة إلى بلاطات ألمانيا، حول الطريقة التي يعتمدها السيد لابوميل في اختطاف الخادمات، وسرقة صناديق الجواهر.

لكي يبقى فولتير شبيهًا بنفسه، قام بعد مدة قصيرة بتحول عجيب، تمثل في تقديم تمهيد لعودة المياه إلى مجاريها مع لابوميل. فعرض عليه عقد مصالحة، راجيًا منه صرف النظر عن دحض ما ورد في عصر لويس الرابع عشر. فيا له من امتهان للنفس، ومن خطأ فادح! إن في ذلك مضيعة لوقته وانتقاصًا من كرامته. لم يرَ لابوميل في ذلك التذلل إلا تشجيعًا على الهجوم بضراوة على عدو يطلب الرحمة. فنشر في عام 1753، في فرانكفورت، كتابًا حمل عنوان: عصر لويس الرابع عشر، مضافًا إليه عدد كبير جدًا من الملاحظات والأجزاء الأخرى، بقلم السيد دوّ لا ب.! وحين جرى لفت نظره إلى أنه سوف يُتهم بالسرقة والتزوير، اكتفى بالإعراب عن أسفه لأن الناشر أخطأ فوقع العمل سهوًا بالأحرف دو لا ب.! التي تعني المؤلف. يُضاف إلى ذلك أنه لم يكن متضايقًا جدًا، لأن الأجر الأفضل، لقاء غدره، لم يتمثل في الخمسة عشر فلورين التي استلمها من الناشر، بل في الرضا على كون فولتير سوف يعلم من أين أتته تلك الطعنة. وبلغ به الرضا حدًا جعله يجدد مأثرته حيال أعمال أخرى لفولتير، والـ هنرياد على وجه الخصوص.

كم كان مبلغ ابتهاجه لو أنه استطاع أن يرى - بدلًا من أن يتخيل - العبوس الرهيب على وجه فولتير، وهو يكتشف عصر لويس الرابع عشر، مشوهًا بالأكاذيب والسفالات. فذلك الكم من البحوث، وتلك الاستقامة الفكرية كلها، وهذا الحب للحضارة الكلاسيكية... إن ذلك كله، إضافة إلى نزاهة كاتب، ومجد عصر، جرى تدنيسه وتعفيره بالتراب! لقد ظن فولتير أنه سيلفظ أنفاسه ألمًا.

إن موقفه لعجيب حقًا في أثناء تلك المخاصمات الدنيئة؛ فنحن نراه يرد على خصومه السفلة بأسلحة لا تقل في دناءتها عن أسلحتهم. لكن المسألة بالنسبة إليه ليست أكثر من كبوة؛ فجريمة الدناءة لدى فولتير ليست سوى جريمة انفعالية. ونحن نعرف أن الساحر، من بعد انقشاع الأزمة، سوف يعود إلى الظهور. ففي بعض الأحيان أمكنه أن يشابه لابوميل، لكن أمثال لابوميل لا يشبهون فولتير البتة. فالأكثر إثارة للسخط في مشكلة من ذلك النوع، ليس في رؤيته يسيء إلى نفسه بنفسه، ما دام يستعيد عافيته من فوره، بل إن الأمر الشاق هو أن نرى أمثال لابوميل، وهم يوجهون إليه تلك الضربات الخسيسة، لا يجرحون رجلًا عظيمًا فحسب، بل يحطون من قيمة رائعة من الروائع. ونحن على العموم لا نعبأ كثيرًا بضرر ربما يصيب غرور فولتير، فهو على درجة من الصلابة تمكنه من إصلاح الضرر سريعًا، لكن ما يُثير حفيظتنا تطاولٌ بلغ الجرأة على تزوير عصر لويس الرابع عشر. لقد أهان لابوميل وأمثاله ما هو جدير بالاحترام لدى الرجل المفكر، وما جاء فولتير يعرضه أول مرة أمام أنظار أوروبا المستنيرة، ليس في خطاب، بل في مؤلف مثالي؛ إنه احترام الحقيقة. لقد نجح بكل مهابة، من غير أن ينفصل عن حبه لبلاده وللحضارة، وللإنسانية. ويؤكد ذلك العمل تأكيدًا لا يقبل أن يُدحَض، حقيقة رفعة الذكاء.

***

في تلك الأثناء، بدأت لُحمة مجتمع بوتسدام تتفكك. فما عادت المنازعات مع لابوميل تستهوي أحدًا غير موبرتوي. أما اللورد تايركونل الذي قتل طبيبه، فإنه التحق به في القبر سريعًا، وللسبب عينه: الإفراط في الطعام. وقال فولتير: «لقد قتلا نفسيهما، لأنهما آمنا بأن الله لم يخلق الإنسان إلا ليأكل، وكانا يظنان أيضًا أنه خلقه لكي يغتاب». غير أنه كان يغتاب أكثر مما كانا يفعلان، لكنه يأكل أقل. كان يموت

بسبب المغص أو الغيظ سبع مرات أو ثمانيَ في الأسبوع، لكنه كان يشارك في دفن ذوي الأجسام السليمة: «من كان يظن أن ذلك الخنزير الكبير، اللورد تايركونل، المتألق نضارة، والقوي جدًا، والمتين البنية، سوف يلفظ أنفاسه قبلي أنا!».

أما دارجيه فلم يمت، لكنه عاد إلى فرنسا في آذار/ مارس 1752. كان مريضًا ورغب في أن يتلقى العلاج في باريس. وواقع الحال أن عجزه الرئيس كان ناجمًا عن سأم عميق؛ إذ فقد زوجته التي كان يحبها حبًا جمًا، ولم تنفع ملاطفات فريدريك في أن تجعله ينسى الزوجة العطوف، ولا الوطن البعيد. ولسوف يكرر ذوو النيات الطيبة القول إن دارجيه يغادر برلين لإحساسه بانحدار مقامه، بسبب وجود فولتير. فيا للحمق، ويا للغلط! لقد كان الرجلان متفاهمين تفاهمًا جيدًا، ولا ريب في أن ذلك عائد إلى أن فولتير بذل ما وسعه ليكون دارجيه بالنسبة إليه سندًا يقظًا بالقرب من فريدريك.

كان ذلك السأم عامًا، حتى إن بيكار، وصيف فولتير، كان ينوح لأن سيده لا يرغب في العودة إلى فرنسا. زد على ذلك أنه كان يضيق ذرعًا باستهزاء البروسيين به، نظرًا إلى قصر قامته. فكان فولتير يخفف عنه بقوله إن فريدريك الثاني أقصر منه، وكذلك كانت حال قيصر نفسه، والإسكندر أيضًا. فيرد الغلام المسكين بأن أولئك لم يكونوا بيكارديين، في حين أنه هو من بيكارديا.

وجد آل دارجنتال في باريس، ومعهم السيدة دوني، وسيلة لجعل فولتير يرجع إليها: إنهم لن يوافقوا على العمل لعرض روما الناجية إلا بشرط عودته. أما وأنه ظل على إصراره، فهم الذين تراجعوا، وعملوا على عرض التراجيديا التي لاقت نجاحًا مدويًا. فمن كان يظن ذلك؟ لقد نفعه غيابه نفعًا أفضل من مكائده. وإن لوكان هو الذي حقق النجاح الأكبر، فجرت تسميته «ممثلًا مسرحيًا لدى الملك». ورغبت السيدة دوني أيضًا، بوصفها بنت شقيقة الشاعر الكبير، في أن تعرض مسرحيتها *La Coquette punie* (قصاص المغناج). وكانت وحيدة في ذلك الرأي. فها هي ذي تقوم بالمساعي، فتتوسل وتبكي، وتنوح. لكن ليس هناك من يشجعها على بسط عبقريتها على خشبة المسرح، سوى «الأصدقاء» الذين تؤويهم في بيتها. فقد رفض الممثلون المسرحيون أداءَ بلاهاتٍ خطتها يدُها بريشة إوزة. ولم يتحمل فولتير البتة فكرة تقديم تلك الضحالة، لذلك لم يكن مستاءً حين علم

بأنه لن يجري تقديم قصاص المغناج. ولكي يسيء الممثلون إلى السيدة دوني، قاموا بتقديم *La Coquette corrigée* (هداية المغناج) من تأليف دو لا نو. وأمل فولتير إلى أن تؤدي الإهانة إلى جعلها تلتزم جادة التواضع، بَلهَ الفضيلة. فلا يسعها قط، وهي المغناج، أن توقع أكثر من ضحية واحدة كل مرة، أما وهي كاتبة مسرحية، فالأمر مستحيل! إنها ستثير التقزز في نفوس الحضور في صالة بحالها.

لا يزال فولتير متمسكًا بالبقاء في بوتسدام، لأن بوتسدام، على ما يبدو، لما تكشف لفولتير عن سمومها كافة. فمن بعد الدعوى ضد اليهودي، وبعد قشرة البرتقالة المُرة، وبعد لابوميل الراعب، بقي أمامه اكتشاف لا يقل مرارة وأذى عن الحالات الأخرى: إنها خيانة من صديق. فلا بد من الاعتراف بأن ذلك قد فاض عن حده بالنسبة إلى ضيف فريدريك، في أقل من عامين.

هنالك خائن في برلين...

كان موبرتوي بروتانيًا من سان مالو، ويعود تاريخ ميلاده إلى عام 1698. وكان والده نائبًا عن مدينته في مجالس بروتانيا، وهو الذي يسلم الملك تقارير شكاوى المقاطعة. كان موبرتوي طفلًا يثير الدهشة بذكائه، فجعله أبوه، على الرغم من بخله، يتابع دراسات ممتازة. وبعد ذلك أعرب الشاب عن رغبته في أن يصير بحارًا، فبكت أمه، ثم صار جنديًا، فبكت أمه. وعلى ذلك غادر في غضون عامين سلاح الفرسان، وصار فيزيائيًا ليجفف دموع أمه. وتوجه إلى باريس، فألِف أوساط العلماء، حيث لقي استقبالًا حسنًا. وكان إحساسه بقيمته مبالغًا فيه، أي ساذجًا، فكانت خطاه الأولى في المجتمع متعثرة إذ وجب عليه التقليل من حجم غروره. بيد أن ذكاءه في الواقع جعله يدخل في عام 1723 أكاديمية العلوم، وهو في الخامسة والعشرين من عمره. أقام في عام 1728 في لندن، فاكتشف نيوتن، وصار متعصبًا للجاذبية. وقرر أن يفرض النظرية الجديدة على فرنسا، فبذل في سبيل ذلك الأساليب كافة، وأضحت في نظره مختلف الطرائق مقبولة في سبيل أن يجتذب الانتباه إلى نفسه وإلى النيوتنية. وكاد أن يستخدم في ذلك السبيل قرع الطبول وجعل قردٍ يرقص على صوت الخشاخش. فهو طموح محموم، وما إن يقرر خرق الستارة حتى يخرقها ليقفز إلى مقدمة خشبة المسرح، والأضواء مسلطة عليه. لكنه دفع الثمن بنفسه؛ فحين اقتضى الأمر الذهاب إلى الدائرة القطبية لقياس

خط الطول، بدا مفعمًا بالجرأة والاندفاع، فتطوع للقيام بالمهمات الأكثر مشقة، فاستقر دونما تذمر وسط الثلج، والجليد، وزيت الفقمة، وسخام نساء الأسكيمو، بحيوية جنونية. فضلًا عن ذلك، كان حسابه مضبوطًا. لقد ضمن نجاح البعثة العلمية، ورجع إلى باريس وهو يحمل، إضافةً إلى وسائل القياس الأكثر دقة، قدميه المتجمدتين، واثنتين من الأسكيمو أثيرتين لديه، وكلها عرضها في باريس. كان عرض السيرك يؤمن الدعاية لإنجازاته العلمية، وكان لديه أيضًا زنجي اسمه أوريون. ثم تخلص من المرأتين مِنَ الأسكيمو بتزويج واحدة إلى رجل نورماندي قام بأسوأ صفقة يمكن لنخاس نورماندي أن يقوم بها، وحشر الأخرى في دير بعد تلقينها أصول الدين. أما الزنجي فكان يتبعه أينما توجه، حتى إلى بروسيا. وقد صار لذلك الخادم الأمين دالة على سيده، حتى إن موبرتوي، وهو المتشدق المهذار، حين كان يروي مآثره لجلسائه على المائدة، كان الزنجي يقول بصوت عالٍ: «إنـي لأتساءل إن كانوا يصدقونك».

يلفِت موبرتوي – وخادمه الزنجي يلازمه على الدوام – إلى نفسه الأنظار بسبب زيه المضحك؛ فهو يضع باروكة مستديرة صهباء، وينثر عليها بودرة صفراء، فيتجمع الناس من حوله. وكان يتحدث إلى الناس وسط جمع من المتسكعين. ويسلك ذلك العالم سلوك طبيب مشعوذ. لكن كانت لغروره أوراق رابحة أخرى لا تقتصر على تلك الهزليات السمجة؛ فهو رجل وسيم، وفارس مُجَل، وذو موهبة نفيسة جدًا في ذلك العصر: إنها طلاوة الحديث. فهو لا يفتقر إلى اليسر، وحضور البداهة، وحتى النقد اللاذع. ولا تنقصه كذلك شراسة الطمع. ونظرًا إلى تلك المناقب الممتازة، استدعاه فريدريك إلى برلين. لم يضع لويس الخامس عشر أي عراقيل في سبيله، بل أذن له بالذهاب. فأرجع إليه موبرتوي منحته السنوية البالغة أربعة آلاف ليرة، ولسوف يمنحه فريدريك واحدة قيمتها خمسة عشر ألفًا؛ إذ كانت الهندسة، في عام 1740، ذات قيمة أكبر من الشعر في بوتسدام. فلما وصل فولتير، رفع أسعار الشعر. وكان موبرتوي يروق فريدريك كثيرًا؛ فهو مهندسه الذي يرافقه إلى الحرب. ويروي فولتير (من بعد القطيعة بينهما) أن موبرتوي كان يتبعه على ظهر حمار، لأن الملك لم يشأ أن يتكبد من أجله نفقات حصان. وفي أثناء معركة مولديتس، لم يستطع موبرتوي أن يهرب بسرعة كما فعل سيده الذي حمل في تلك المناسبة لقب «الهارب من مولديتس»، فألقى النمساويون القبض عليه،

فضربوه وسرقوا حوائجه وأسروه بلا حمار ولا ملابس. وحين علم بلاط فيينا بالمغامرة المزعجة التي أصابت مهندس سان مالو، أغدق عليه الهدايا؛ إذ كان لدى حكومات تلك المجتمعات غير المنعتقة، ذلك النوع من المحاسن الرقيقة. وعاد إلى فرنسا، حيث انتُخِب عضوًا في الأكاديمية الفرنسية! لكن غروره المزعج جعله ثقيل الظل، مثل ازدرائه ديكارت وإطرائه نيوتن. ثم عاد فانطلق إلى برلين. أما وأن ما من أحد هنالك يعرف ديكارت أو نيوتن، فليس من جادل صديقنا العالم في ما أثبتَه. إذًا فرض نيوتن، وفرض خصوصًا نفسه، فحظيت «أهميته» باستقبال حسن. وتزوج من فتاة بروسية من كبار النبلاء. فلم تكن أسرتها راضية كل الرضا، بل كانت تفضل قليلًا من الهندسة، وكثيرًا من نبل المحتد. ودخل دخولًا قويًا إلى مجتمع برلين، فجرت تسميته رئيسًا للأكاديمية البروسية وسيطر سيطرة طغيان على الفكر في تلك البلاد. لكنه كان طاغية مستنيرًا، فقام بعمل رائع أشاد به فريدريك كثيرًا. وهكذا كان لدى موبرتوي ما يروق الآخرين، فكان ممن يترددون إلى سيري، وكان أول من علّم السيدة دو شاتليه مبادئ فيزياء نيوتن، ونحن نعلم أن إميلي كانت توده على علومه النيّرة، كما على مزاجه الكريم. فكان صديق فولتير طوال عشرين عامًا.

في بوتسدام سئم كل منهما الآخر. فهما متقاربان جدًا، وكل منهما خصم للآخر.

يقول عنه فولتير: «وُلِد متمتعًا بكثير من الذكاء والمواهب، إلا أن الإفراط في اعتزازه بنفسه جعل منه في نهاية المطاف رجلًا سخيفًا جدًا، وشديد اللؤم». لكن فريدريك يضيف إلى ذلك قائلًا: «إني أفضل العيش بصحبة موبرتوي على فولتير. فطبعه مطمئن أكثر، ولديه القدرة على مواصلة الحديث بطلاوة، في حين أن الشاعر - إذا ما لاحظتم ذلك - يتكلم دائمًا بنبرة قاطعة». وهذا من أثر مزاجه السيئ في أيام الدعوى مع اليهودي. أما لو عرف فولتير أو استشعر أن فريدريك يخاطر بمقارنته بموبرتوي، وحتى بتفضيله عليه، فليس لشيء أن يستثير أكثر حقد الشاعر على العالِم الرياضي. ونشأ خلافهما عن ذلك الاحتكاك المتكرر بين غرورين اثنين، يزيد في حدته تلاعب فريدريك. وقد صرح شاهد عيان كان في بوتسدام قائلًا: «كان أحدهما مفرطًا في طغيانه، والآخر فاقد القدرة على التحمل. فرغب موبرتوي في السيطرة، فسحقه فولتير».

يوم وصل فولتير إلى بوتسدام تبادل الصديقان العناق. أما ذوو الفطنة فلم ينخدعوا، ففي غضون ستة أيام أو ستة شهور، سوف ينفجر النزاع. وقال بوفون إن هذين الرجلين لم يُخلقا ليظلـلهما سقف غرفة واحدة. ولـم تكن بوتسدام أكبر من غرفة، فقدم فولتير من جانبه كل جهد ممكن، في الأشهر الأولى. لكن أن يبذل المرء جهدًا ليكون محببًا إلى شخص ما عاد حيالَه كذلك، مسألة لا يمكن إدراكها إلا إذا كانا يلتقيان نادرًا. أما في بوتسدام فهما على لقاء يومي، وكانت المسألة تعذيبًا. كتب فيها فولتير يقول: «إني أتحمل موبرتوي لعجزي عن التخفيف من غلوائه»، لكن ذلك يعني القطيعة، لأن فولتير لا «يتحمل» هذا ولا ذاك. إنه شخص لا يُطيق أحدًا وليس من أحد يطيقه.

كان لابوميل يقول، وهو الذي صار أحمق بسبب لؤمه، إن فولتير عازم على طرد موبرتوي من رئاسة الأكاديمية ليأخذ مكانه. لكن فولتير لم يطمح إلى ذلك البتة. إن مزاج موبرتوي، من دون ألقابه ومناصبه، هو الذي يثير سخطه. ولا شأن له بتلك الألقاب، فهو مفعم بالتكريم. ولم يكن فريدريك، في جحر الأفاعي الذي صارت إليه بوتسدام، الأفعى الأقل سمية، فهو لا يتوانى عن إطلاق النمائم وتكرار الوشايات، أو الإصغاء إليها. فقد كانوا في بطانة الملك يقولون بكل يسر: «إذا ما خسر فولتير دعواه على اليهودي، فهو مشنوق، وإذا ما ربحها فهو مطرود». وكان فريدريك يسمع ذلك القول فلا يعارضه. فلدى الملك طريقة في عدم الموافقة، يمكن أن تُحمَل على محمل التشجيع. وكان لذلك الموقف المقلق الذي جاء تأكيدًا للانطباع البشع الذي خلفته «قشرة البرتقالة» أن يجعل فولتير يلزم السرير أيامًا ثلاثة، وكان يفقد قدراته على موائد العشاء. كان كئيبًا ذات مساء، فيما كان موبرتوي متألقًا. وشاء سوء الطالع أن يعودا معًا في العربة نفسها. فقال له موبرتوي، والتبجح والمباهاة ملء إهابه: «لا مناص من الاعتراف بأن السهرة كانت اليوم رائعة».

رد الآخر مغمغمًا، وهو متقوقعٌ في فرائه، في أبعد زاوية عن موبرتوي: «وأنا لمّا أشهد قط ما يماثلها غباءً».

وقيل إن القطيعة جاءت من ذلك الرد؛ جاءت من كل ما بداخلهما، ومن كل

من يحيط بهما. فشرع كل واحد يتحزب وقوفًا مع فولتير، أو موبرتوي، أو ضده، فيزيد نار الخصومة تأججًا.

نشبت الحرب في شأن البروفسور كونيغ. لقد بسط موبرتوي، في البداية، حمايته على كونيغ، على الرغم من أن هذا الأخير كان من أنصار لايبنتز، ومعارضي نيوتن، وذلك يُعتَبَر جريمة، بل إن موبرتوي نفسه هو الذي سعى إلى المصالحة بين إميلي وكونيغ يوم خلافهما بشأن نيوتن. فكان من شأن ذلك جعل إميلي تقاطع الساعي في المصالحة أيضًا. وتطاول كونيغ فأبدى بعض الملاحظات حول مذكرة نشرها الرئيس موبرتوي. وكانت تلك الملاحظات خالية من اللؤم مثل كاتبها، لكن موبرتوي رد بعنف لا يمكن تصديقه، واستدعى كونيغ المسكين للمحاكمة أمام أكاديمية برلين التي تحولت إلى قاعة محكمة إرضاء لرئيسها. وأقسم موبرتوي على الإنقاص من اعتبار كونيغ حيال أوروبا العالمة، وأن يجعله يفقد ألقابه ومركزه ومنحته بوصفه أمين مكتبة لاهاي. وترك فريدريك لموبرتوي حرية التصرف. وكان فولتير يسخر من لايبنتز ومن كونيغ المدافع عنه، لكنه حين رأى مدى إفراط موبرتوي في تسلطه وجعله الأكاديميين يتكلمون ويصوتون، مثلما يحرك فريدريك جيوشه - أي بقوة العصا - وقف ضد الظلم الفاضح الذي كان العالِم المسكين ضحية له. وبدت له الفرصة مواتية للحد من عجرفة العالِم الرياضي موبرتوي الذي ارتأى أن يتحذلق بكثير من الصلف على مرأى ومسمع من أمير الفكر.

كان القول إن موبرتوي ينتقم من كونيغ يمثل الحقيقة الناصعة؛ إذ لم يكن هذا الأخير، بوصفه رجلًا طيبًا وصديقًا له منذ خمسة وعشرين عامًا، يؤدي له فروض الطاعة المختلفة التي ينتظرها منه رئيس الأكاديمية في برلين. فقد توجه كونيغ ذات يوم إلى الرئيس، في أثناء محادثة عادية بينهما، بالعبارات التالية: «لكن، فكر قليلًا، يا صاحبي...». ولدى سماعه تلك الكلمات، أوشك موبرتوي أن يختنق غيظًا. فكيف يخاطبه بتلك النبرة؟ لكن كونيغ لم يحمل ذلك الغضب الصبياني على محمل الجد، فقام بنشر ملاحظاته، بل طلب إلى موبرتوي الإذن بنشرها، فدعاه هذا الأخير، غدرًا، إلى نشرها. وكان ذلك بمنزلة الدفع بالغبي إلى الشرك حيث علق؛ إذ بلغه بعد النشر، نبأ إدانته من أكاديمية برلين. ولجأ إلى موبرتوي الذي أجابه بأنه لا دخل له في تلك القضية، وأن الأكاديمية أصدرت حكمها بحرية

تامة. وأوشك المسكين أن يقضي خجلًا وغمًا. فكتب دفاعه عن نفسه، فكان قيمًا وجريئًا ومطابقًا للواقع. فألقي به بين الأوراق المهملة للأكاديمية. غير أن دفاع كونيغ هذا لاقى في الأقل قارئًا متميزًا: إنه فولتير. وعلى الفور اتخذت معركة الديكة في أكاديمية برلين منحى مغايرًا.

كان موبرتوي مريضًا، لكن ذلك لم يغير من سوء نياته. كان يعاني التهابًا في الصدر، ويعالج نفسه بجرعات كبيرة من العرق. وأوصاه الملك أن يقلل من الجرعات لتتحسن حاله. لكن مرضه لم يجعله ينقطع عن المجتمع، فبلغه أن فولتير يتحدث لمصلحة كونيغ. وعلم فولتير بعد مدة قصيرة أن موبرتوي يقوم في المقابل بنشر هذه الشائعات الخطرة، وهي، وفقًا لأقواله «ليس لها من درع وقاية». فما حقيقة تلك الشائعات الخطرة على شاعرنا البريء؟ «لقد أشاع موبرتوي، افتراءً يقول إني أرى مؤلفات الملك رديئة جدًا». فليس هنالك ما هو أشد أذى، لأن فريدريك كان «رجل أدب» مثل فولتير. فقد تساهل حيال تلميحات فولتير بشأن ميله إلى ارتداء البزات الجميلة، لكنه لا يتحمل أن يستهزئ أحد بقصائده الرديئة. ولم يكن ذلك كل شيء؛ إذ وشوش موبرتوي في إذن حوالى اثني عشر شخصًا أحسن اختيارهم، أن فولتير تلقى ذات يوم أبياتًا من الشعر، بعث بها الملك إليه لتصحيحها، فقال «هذا الكلام العجيب» أمام أشخاص كثيرين: «أما آن له أن يمل من إرسال ثيابه الوسخة كي أقوم بغسلها؟».

هل ذلك محض افتراء كما يؤكد فولتير؟ كان الجميع مقتنعًا بعكس ذلك. والحال أن الافتراء المزعوم جرى تأكيده بالشهادة الأخرى الآتية: بينما كان مع صديق ألماني اسمه مانشتاين جاءه بقصائد ليقرأها ويصححها، حملوا إليه كدسة من مسودات الملك الذي رجا فولتير أن يصححها. حينئذ قال فولتير لمانشتاين، وهو يعيد إليه قصائده: «سنؤجل هذا إلى مرة أخرى يا صديقي، فها هو الملك قد بعث إلي بغسيله الوسخ كي أتولى تبييضه، وسوف أبيّض غسيلك أنت في ما بعد».

قامت تلك الكلمات بجولة في البلاط في غضون ساعة، وفي المدينة كلها في يوم واحد. والحق أن «الغسيل الوسخ» يساوي «قشرة البرتقالة» قيمة، فهي بين الأصدقاء واحدة بواحدة. لكن كان موبرتوي، في معرض تعليقه على تلك الأقوال، يؤدي دورًا خطرًا؛ فالمرء لا يتلاعب بحمض الكبريت من دون اتخاذ

الاحتياطات اللازمة. وكانت خطورة اللعبة على فولتير كمثلها على موبرتوي. ولن يطول الأمر بهذا وذاك قبل التنبه إلى المخاطر المتمثلة في مهاجمة الدوَل. فسوف يندم فولتير على سهامه التي وجهها إلى الملك، كما سيندم موبرتوي على توجيه سهامه إلى فولتير.

امتعض موبرتوي بشدة وهو يتلقى، في 18 كانون الأول/ ديسمبر 1752، أهجية مغفلة عنوانها «جواب من أكاديمي في باريس»، مثلت دفاعًا عن كونيغ، وهجومًا عنيفًا على موبرتوي. وكان الجميع في برلين متفقين على اسم الكاتب: إنه فولتير. استاء فريدريك كثيرًا من جرأة الهجوم على رئيس أكاديميته الذي دعمه دعمًا مكشوفًا، ولم يخفِ غضبه. أما وقد تظاهر بتجاهل اسم الكاتب، فإنه واصل غمر فولتير بإطرائه كلما صادفه في البلاط. ويتجاهل فولتير من جانبه أن فريدريك يعرف، فيرد عليه بالبسمات وأشكال التملق. لقد كانوا في بوتسدام يعيشون تحديدًا في ذلك الجو من الزيف.

استخدم المتنافسان العظيمان ما لديهما من مواهب التمثيل المسرحي، وهي مواهب كبيرة، لأداء الأدوار على طريقة باسيل. وتجاوز فريدريك نفسه في ذلك الأداء، مضحيًا، للأسف، بدوره ملكًا. فجعل نفسه مماثلًا تمامًا لفولتير في الزمن الرديء. ولم يكن له أن يبذل جهدًا كبيرًا، فهما يتشابهان في كثير من النقاط! وبناء عليه أخذ فريدريك قلمه وكتب ضد أهجية فولتير دحضًا مغفلًا: «رسالة من أكاديمي في برلين إلى أكاديمي في باريس». وكان فريدريك عازمًا على الدفاع عن موبرتوي الذي جعلته أهجية فولتير السابقة في الحضيض. وليس هناك من كان يعرف حينذاك، باستثناء موبرتوي، من هو كاتب ذلك الدحض. وعلى قدر ما كان هجوم فولتير حادًا ولاذعًا، كان الرد الملكي حافلًا بإطراء ممجوج لموبرتوي غير مقنِع. وساد الرأي القائل، إن كان ذلك هو كل ما وجد موبرتوي وأصدقاؤه للدفاع عنه، فدفاعهم ليس سوى ضربة سيف بائسة في الماء. وجرى تداول ذلك في كل مكان. وكان فولتير أول من استهزأ علنًا بكاتب الأهجية الغبي. وأصاخ فريدريك السمع إلى ذلك الانتقاد اللاذع، وليس من يدري بأي أذن.

كان فولتير يجهل إذًا من أين تأتيه السهام. أما فريدريك، فكان يعرف في المقابل إلى أي هدف يرمي. وجاء رد الملك على صديقه الغالي فيرجيل، حافلًا بكلام مهين على النمط الآتي: «ذلك الكاتب البائس لأهجية كافرة تنفث السم،

ذلك الكاتب لأهجية خالية من الفطنة، ذلك العدو الشقي لرجل مرموق المكانة. إلا أن عقم خياله (لا يحول مع ذلك) دون ارتكابه جريمة بلا طائل أضحت في حضيض الامتهان». ولا ريب في أنه لم يكن في وسع الناس الشرفاء سوى الشعور بالشفقة والازدراء حيال «ذلك التعس وأمثاله، بسبب خفة عقولهم وصفاقتهم وجهلهم...». ونهز فولتير بكتفيه، فليس للهجوم أن يصدر إلا عن كويتب عديم القيمة. وتمسك فريدريك بالمتعة السادية المتمثلة في إعادة طباعة عمله، وهو لم يوقعه، لكنه مهره بشعاره، وهذه الحال كالأخرى. ويعث به إلى فولتير الذي أيقن بأنه سيقضي من الخوف والغم، لكن من الخوف على وجه الخصوص.

أما موبرتوي فيغوص، ما بين ارتفاع شديد للحمى وارتفاع شديد لسورة الغضب، في تأمل مصحوب بجرعات من العرق، فيكتب رسائل مبالغًا فيها عن شؤون علمية. إنه عمل رجل يهذي بعض الشيء، فيقدم إلى الجمهور رؤاه شبه العلمية، وبعضها متنافر وهزلي. كان يريد نسف الأهرام بالمتفجرات ليعرف حقيقة ما تحوي، وأن يُنشئ مدينة لا يتكلم الناس فيها سوى باللاتينية، لتأتي الشبيبة من البلدان كافة، فتقيم فيها. وهنالك رؤى أخرى تسبب الصدمة؛ كان يدعو إلى التشريح الحي لأجساد المحكومين بالإعدام، ويفسر ذلك بأننا إذا ما قمنا بتقطيع دماغ إنسان حي، فسوف نكتشف آلية العواطف. وجعل العرق منه تلميذًا من تلامذة لامتري. وتشريح الأجساد الحية لدى آل موبرتوي ميل فطري؛ إذ كان أخوه يقوم بتقطيع القطط الحية. وقد تلقت دوقة إيغويون التي أعربت عن دهشتها من تلك الوحشية لدى رجل يحب القطط كثيرًا، الشرح الآتي: «سيدتي، لدينا قطط دونية لهذه الأنواع من التجارب».

كان لتلك الرؤى العجيبة والمتسمة بالغرور أن كلفت موبرتوي ردًا من فولتير، تجاوبت أصداؤه بين بوتسدام وباريس وروما ولندن وفيينا ولاهاي وبطرسبرغ، فصعقت رئيس أكاديمية برلين، إنه نقد الدكتور أكاكيا اللاذع، طبيب البابا. قللت تلك التسمية السمجة من هيبة موبرتوي؛ إذ تميز النقد بقريحة شيطانية، رشيقة ومسلية إلى حد كبير: فلدى قراءتها أغرق علية القوم كافة في الضحك. ويدور الموضوع حول دكتور مجهول اسمه أكاكيا، يزعمون أنه طبيب البابا، يلاحق شخصًا جاهلًا وأرعن تطاول فكتب الرسائل زاعمًا أنه عالم، ورئيس للأكاديمية. وإنه لأحمق من يظن أن رئيسًا حقيقيًا يمكن أن ينحدر إلى ذلك الدرك! وهنا نرى

المكر. فليس الهجوم على موبرتوي بوصفه رئيسًا، لأن لقبه، كان في الظاهر على الأقل، موضع احترام، بل هنالك إشادة بمنصبه للتمكن من تلطيخ عمله بالوحل. وانطلق فولتير، من بعد التزام تلك التحفظات، بوحشية واستخفاف، ليخوض في حماقات الرسائل، وليقوم بفضل الرشاقة الخطرة لقلمه، بقتل موبرتوي قتلًا معنويًا، بينما أوروبا كلها تموت ضحكًا.

أما أول قارئ لها ضحك أكثر من الجميع، ولم يشأ لآخرين أن يتمكنوا من قراءتها من بعده، فهو فريدريك. فقد قام فولتير، من جانبه، فقرأ عليه المخطوط. وكانت السهام لا تقاوَم، فالملك لم يقاوم. لكن بعد شيء من التروي، تذكر أن عليه أن يساند موبرتوي، فسلطته هي التي امتُهِنت في شخص رئيس أكاديميته. أما موهبته الهجائية فليست أقل امتهانًا عبر النجاح الباهر الذي تحقق لفولتير حين استهزأ بالمدافع عن موبرتوي على قدر استهزائه بموبرتوي! ولم يقدم فولتير نقده اللاذع إلى الملك إلا وهو يرتعد. فما الذي سيقع لو أن الملك، بدلًا من أن يضحك، وقف في صف موبرتوي مدافعًا عنه؟ كان سليمان الشمال قادرًا تمامًا على إدانة الطعن اللاذع وإدانة كاتبه. فالمخاطرة كبيرة. ويشاء حسن الطالع أن يقوم رجل الفكر في فريدريك بتهدئة غضب الملك. لكن من بعد أن ضحك حتى تلوى من الضحك، طلب من فولتير إتلاف المخطوط؛ إذ تحدث عن صداقتهما بنبرات مؤثـرة. وكان المشهد عاطفيًا! وعرف كيف يبين أنه يشعر بكبر التضحية التي يطالب بها، واستثار حماسة الشاعر وعبقريته المتألقة ومجده الواسع... ولم يكن فولتير يجيد مقاومة شدو حورية البحر، فتبادل الاثنان الإطراء والعناق، ورفع كل واحد صاحبه حتى النجوم، وعادت مفردات «سليمان الشمال» و«فيرجيل» للظهور مجددًا في حديثهما، وغزت نشوة الكلمات فؤاد فولتير، فوعد صديقه الملك الفيلسوف بكل شيء. وحين أراد فريدريك أن يطمئن قلبه، خاطبه قائلًا: «أحرق نقديتك!». أجابه فولتير في غمرة من الحماسة: «فلنُحرقها!». وأعادا، بوصفهما من رجال الأدب المستقيمين، قراءة الصفحات واحدة فواحدة، فضحكا أيضًا ثم بكيا في النهاية لدى إلقائها في النار.

فيا لها من لوحة! إنها مسرحية إضافية من أفضل الكوميديات التي قاما بأدائها، كلٌّ حيال الآخر، من بين أخريات عديدة.

يبقى أن فولتير وضع جانبًا عددًا من نسخ النقد اللاذع التي عمل سرًا على طبعها. وتولى تهريبها إلى ساكس، في حين وضع فريدريك يده على المخزون منها في المطبعة. وجرى حلف الأيمان جهارًا وكتابة، حول عدم بقاء نسخة واحدة تحت سماء بروسيا. وتجرأ بعض المرتابين الأشرار على إشاعة الاعتقاد بأن فولتير لا يزال يحتفظ بنسخ عدة من الطعن. فرفع الاحتجاج الساخط «ضد تلك الوشاية الرهيبة»، وأعلن: «إني أطالب بالعدالة أو الموت». إيه يا بروتوس!

ما كان بلاط بوتسدام، في تلك الأثناء، يهمل المباهج الفكرية الصغيرة كل الإهمال. وخامرت فريدريك الفكرة، على مائدة العشاء، بتأليف كتاب جماعي، يتولى كل واحد من الحضور كتابة فصل عن فكرة أو حدث أو شخصية بمحض اختياره. وتحمس فولتير للفكرة، فبدأ منذ الغداة بكتابة مقالته، ووقع اختياره على إبراهيم، من غير مداراة الإيمان بقدسية النبي. ومضى مصادفة وفقًا للترتيب الأبجدي فكتب بعد أيام قليلة المقالة: «إلحاد»[14]. وكان وحيدًا في مواصلة ذلك اللعب. وعلى ذلك النحو وُلِد المعجم الفلسفي. فتلك هي حاجته إلى الإبداع، ونشاطه الذي لا يعرف الكلل، وقدرة لا تبارى على التقاط فكرة ما. فكان يجتمع على موائد العشاء تلك رجال فكر ورجال علم وأناس جسورون، لكن ما من واحد أمسك بالريشة ليكتب عشرين سطرًا فقط عن فكرة فريدريك. أما فولتير فعرف كيف يخرج فيها بواحد من المؤلفات الأكثر ذكاء، والأكثر خصبًا في زمانه. قيل إنه تعميم! ألا أنعم به من تعميم. فهذا التعبير الذي يُراد به الانتقاص لا يُسيء إلى المؤلفات التي يُظَن أنه يقلل من شأنها ولا يحط من مدى صداها. ويدعو فولتير نفسه، وهو يقدم مقالته: «لاهوتي بعل زبول»[15]، ويُعلِم قرّاءه بأن هذه المقالة الصغيرة التي هي، في واقع الأمر، قليلة الإيمان، ستكون أكثر تدينًا. أما المقالات التي سوف تليها فإن فيها هرطقة تامة وكافرة. وعلى ذلك النحو تأكدت لادينية مرحلة نضجه، فكانت صلبة ومحصنة وهجومية. وهنا وقع فريدريك على «فولتيره» الأثير لديه.

---

(14) تبدأ الكلمتان بالفرنسية بحرف «A» Abraham, Athéisme. (المترجم)

(15) بعل زبول ربٌّ كنعاني صار يجسد في نظر اليهود، ثم المسيحيين، إبليس أو رئيس الشياطين. (المترجم)

لكن لم تحل تلك الألاعيب مع بعل زبول، من دون أن تواصل قضية موبرتوي تسللها كالأفعى فلم يحول فولتير نظره عنها.

يروي مسافر فرنسي مر عابرًا في برلين، أن فولتير كان يشعر بالسأم في ذلك الخريف من عام 1752؛ فهو يعيش في وكره مثل أرنب بري ويرتعد مثله أيضًا. وهو لا يظهر على موائد العشاء إلا بناء على دعوة، وإذا ما دُعيَ فهو يتألق، فينظم غزلياته حين يتلقى إشارة، ويبتسم في اللحظة المطلوبة. ولديه حيال ذلك أشكال الاستعداد كافة. إلا أنه، خارج نطاق المسرح، يشعر بالهول من تلك الأغلال كلها. وهو يرزح تحت عبء مجتمع بوتسدام، والتوجس خيفة يضغط على صدره.

كان فريدريك راضيًا كل الرضا عن توصله إلى جعل فولتير يحرق النقد اللاذع. والحال أنه حقق انتصارًا على «فيرجيل المعاصر» لمصلحة موبرتوي الواقع تحت حمايته. وقد توجه بنفسه ليحيط الرئيس علمًا بالخطر الذي كان يتهدده وبما يدين به لولي نعمته. كان موبرتوي على وشك أن يسلم الروح، وها هي أريحية الملك تعيد روحه إلى مكانها. وإن لابوميل هو الذي قال ذلك، في أي حال. وقام فريدريك بما يزيد على ذلك؛ إذ رغب، ما دام فولتير تحت رحمته، في أن يمتهنه أكثر بأن يطلب منه أن يكتب بخط يده تعهدًا علنيًا بألا يكتب بعد اليوم ما يضير فرنسا وفريدريك وموبرتوي. ويسعنا أن نتساءل عن علاقة فرنسا بتلك المسألة؛ القصد ببساطة هو الوصول إلى اسم موبرتوي. ووقّع فولتير على ما قدم إليه الملك. وقد سبق له أن كتب وقال وشاهد كثيرًا من الأوراق الأخرى... فيسعنا المراهنة على أنه، وهو يوقع تلك الورقة المهلهلة، كان يفكر باستمتاع بنُسَخ النقد التي كانت أعدادها تتكاثر في ساكس.

كتب فولتير، في سبيل استثارة شفقة ضحاياه، أو تنويمهم، رسالة تواضع وتحنن إلى مليكه المحبوب الذي لم يتوانَ عن إطلاع موبرتوي عليها. ويقول الشاعر فيها إنه على استعداد لتنفيذ كل ما يطلبه إليه الملك. ألَم يقدم على ذلك برهانًا قاطعًا؟ وإنه مستعد للإذعان لأقسى الأوامر بشرط أن يشعر بأنه محاط بالمحبة أو القبول في الأقل لدى البلاط (نحن نعرف أنه كان يسعى، في ذلك الوقت تحديدًا، للهروب). فهو لا يطلب سوى أن يتأمل صنمه المعبودا وليس

هو في نهاية المطاف سوى: «عجوز أثقلته الأمراض والأوجاع (إذ بلغ الثامنة والخمسين) لكني متعلق دومًا بجلالته على نحو ما كنتُ يوم أن وصلتُ إلى بلاطه».

استسلم فريدريك وموبرتوي للرقاد على هدهدة تلك الأقوال المعسولة، لكن حسب المرء الانتقال من برلين إلى بوتسدام، ليجد أن النقد اللاذع أفاق من رماده، مثل طائر الفينيق، فعاد لكي تتداوله الأيدي كافة. فالناس لا يتكلمون إلا على موبرتوي ولا يضحكون إلا منه. كانوا يضحكون من الضحية، لكنهم يخافون على الكاتب. واعتقد حتى أعداؤه أنه سينال عقابًا رهيبًا. فلو أن أحد رجالات الملك تطاول حتى ربع الوقاحة التي جاء بها فولتير، فإنه لن يحلم طوال عمره بأن يشهد ضوء النهار. وكان فولتير يعرف ذلك، لكن يستحيل عليه أن يلزم جانب الصمت، كما يستحيل عليه أن يبدد كتاباته. فما العمل؟ «أما وأنه ليس من مئة وخمسين ألف شارب تحت إمرتي، فلن أزعم أني سوف أخوض الحرب. وأنا لا أفكر إلا بأن أهرب هروبًا شريفًا...». فليس من علاج لشاعر هزيل الجسد، في مواجهة تهديد رهيب، إلا في الهروب. وكتب في هذا الشأن إلى السيدة دوني، في 18 كانون الأول/ ديسمبر 1752 يقول: «أرى بوضوح أن البرتقالة اعتُصِرت، ولا مناص من إنقاذ القشرة». وواتته الفكرة، لكي يبوح بمكنونات صدره، في تأليف معجم صغير مخصص لاستخدام الملوك:

يا صديقي تعني: يا عبدي.

يا صديقي العزيز تعني: أنت لا تهمني في شيء مطلقًا.

سوف أجعلك سعيدًا، يجب فهمها كالآتي: سوف أحتملك ما دمتُ في حاجة إليك.

تعال للعشاء معي هذا المساء، تعني: سوف أستهزئ بك هذا المساء.

أصعب شيء بالنسبة إليه، كما بالنسبة إلى التيس في الحكاية الخرافية، أن يخرج من البئر. فمنذ شهرين وهو يبحث عن الوسيلة، وتذرّع بسوء صحته. فضاق فريدريك ذرعًا بذلك النوع من الأعذار. فمن يسعه مواصلة تصديق الشاعر حين يقول إنه يريد الذهاب في تشرين الثاني/ نوفمبر إلى مياه بلومبيير؟ أرسله فريدريك إلى مياه بوهيميا، وقال له: «إنها مياه ممتازة، وسوف أرسل من يكون برفقتك».

لكن لم يكن لفولتير من رغبة في مياه بوهيميا، كما لم يكن راغبًا في «الملائكة الحارسة» التي لدى فريدريك.

بلغ سخط فريدريك ذروته حين أمر الشرطة بالاستيلاء على النقد. وعقدت المحكمة جلستها لتأمر بالاستيلاء على الكتاب وإحراقه في ساحة الدرك، في العاشرة من صباح 24 كانون الأول/ ديسمبر 1752. وإنها لهدية عيد ميلاد جميلة تُقدم إلى واحد زنديق! وقيل إن فولتير كتب كلمات جميلة عن ذلك «الإحراق» كما قال لنا كوليني، سكرتيره في تلك الفترة. لكن ليس ثمة ما يؤكد ذلك؛ فهو سلك سلوك فأرة صغيرة أمام القط الكبير الذي كشر عن أنيابه، وأنشب مخالبه في طبعة النقد السرية.

حرص فريدريك على مواساة موبرتوي بالإهانة الدامية التي ألحقها فولتير بهما مجددًا، فبعث إليه برسالة رائعة وقبضة من رماد النقد. إنه مسحوق مهدئ للقلوب الجريحة! ونشرت صحيفة غازيت برلين (*Gazette de berlin*) «الإحراق» الشائن وأعلنت اسم الكاتب على الرغم من أن الكتاب المدان لم يكن يحمل اسمًا. وقال فريدريك إن تلك العقوبة مخزية في بروسيا أكثر منها في فرنسا! أما فولتير، فكان يفضل لو أن الانتقاص منه كان في فرنسا! فما عاد في وسعه أن يتحمل بروسيا، إلا أن موبرتوي لم يشعر بأنه أخذ بثأره عبر المهانة التي أُلحِقت بفولتير، فتوسل إلى فريدريك أن يطبق على الكاذب باليمين أقسى أصناف العقاب. لكن فريدريك لم يذعن لذلك التوسل، وكتب إلى شقيقته المارغراف بايروت قائلًا: «إن شعوره المفرط بكرامته (أي موبرتوي)، جعل حساسيته مفرطة حيال مناورات سعدان، كان ينبغي أن يزدريه من بعد جَلده...». لكن «السعدان» ما كان يخشى ازدراء موبرتوي، على قدر خشيته من العقوبات الجسدية والسجن. فالكتاب المحروق يمثل شيئًا ضئيلًا في نظر موبرتوي الذي يسعه القيام بتقطيع رجل حي! إيه! لكَم كان يتمنى مُشرّح الأجساد الحية أن يرى التشنج على وجه السعدان الذي يقوم بتشريحه ويسمع صرخاته الثاقبة! كانت أهواء موبرتوي تسلي فريدريك كثيرًا، إلا أنه لم يأمر بإحراق فولتير حيًا. لكن هذا الأخير تألم كثيرًا من ذلك «الإحراق»، لأن الكتاب الوحيد الذي عمل فريدريك على إحراقه من طريق المحاكمة، كان تحديدًا كتاب فولتير. وإن مثل ذلك الامتياز لا يمكن أن يُنسى.

الفن في قطع أواصر صداقة تحولت إلى عداء

كان لا بد من الانتهاء من وضع ما عاد قابلًا للإصلاح. فأعاد فولتير إلى فريدريك، هديةً للسنة الجديدة، في 1 كانون الثاني/ يناير 1753، «الجلاجل والصولجان» أي الصليب والمفتاح الذهبيين، واللذين يرمزان إلى منصب حاجب صاحب الجلالة. لكن فريدريك لم يقبلهما وأوعز بردّهما إلى فولتير مشفوعين ببطاقة تراعي المستقبل. إنه ليؤكد لمؤلف الكتاب المحروق على أنه يفضل العيش معه، على العيش مع موبرتوي. فكتب فولتير الذي صار حذرًا إلى ابنة أخته يقول: «أنا لا أريد العيش مع هذا ولا مع ذاك». وتحدث البلاط كله عن غدو تلك «الترهات» ورواحها. وقيل إن فولتير رمى بهما إلى خادمه قائلًا: «خلصني من هذه الدلائل على عبودية شائنة». وقيل إن الشاعر لدى خروجه من غرفة الملك، في سورة من الغضب، علق الصليب والمفتاح بمزلاج الباب. وليس ذلك صحيحًا، لكنهم لا يختلقون في النهاية إلا ما هو قابل للتصديق. وهو يخضع في هذه المناسبة لحقيقة أخرى من طبعه؛ فقد مضى بمهارة أكبر مع ميله بوصفه نديمًا من بطانة الملك، فأرجع «الترهة» بكل احترام، مشفوعة بالرباعية الآتية:

«تلقيتهما بكل رقة
وأردهما إليك بألم
فأنا كما العاشق الذي، وهو في أوج هواه،
يرد صورة عشيقته».

والحال أنه يُعاد وصل الحبل مع «دانايي» و«الغندورات»، من بعد ما انقطع، لكن يا له من صدق! ويبقى أن فولتير كان يسعى وراء مساندين، فهو ما عاد يشعر بالأمان. وتذكر آنذاك أن في فرساي ملك - ملكه هو - يمثل في نظره الحماية الوحيدة والمجدية، في حال استجابة فريدريك لمطالب موبرتوي الجنونية. وكان سفير فرنسا، الفارس دو لا توش، خير داعم تتوجه نحوه الأنظار، فتقرب إليه فولتير بالتماس حثيث. وظل في تلك الأثناء يتلقى الدعوات من فريدريك على العشاء، فيرفض، ليصيح قائلًا: «أنا، على العشاء؟»، من بعد ما فعلوا حياله! وكيف له، في أي حال، أن يتناول العشاء؟ ألا يعرفون أنه مشرف على الموت؟ ومن يجرؤ على القول إن الحمى تصيبه نزولًا عند الطلب؟ ويقول: «هل ينبغي أن أموت لأبرر موقفي؟». لقد حاول إذًا أن يموت من غير تحقيق نجاح أكبر من السابق، إلا أنه

لزم السرير طوال أربعة عشر يومًا. وما كان يُغلِق بابه في وجه أحد، فيستقبل زواره وهو في السرير. وكان يواصل العمل، ويأكل حساء قوامه الخبز والزبدة، ويشرب القهوة، ويُفرِط في تناول الأقراص ويواصل عمليات الغسل المعوية. كما كان يُجري حساباته فيلاحق مدينيه وناشريه وأصدقاءه في باريس.

ما عاد فريدريك، بعد حرمان من فولتير دام شهرًا، بقادر على التحمل أكثر: فقدم تمهيدًا؛ إذ أعاد إليه مسكنه في سان سوسي، وأرسل إليه عربته. وتهلل فولتير فرحًا من غير أن يقبل شيئًا، وأحاط السيد دو لا توش بالأمر علمًا، راجيًا منه إشاعة الخبر في باريس كلها. وساهم هو في ذلك، لكن بفاعلية كبرى! وتوالت الرسائل من الجوانب كافة. ألم تنتشر في باريس الشائعة المزعجة بشأن زوال حظوته؟ أما افتراء أعدائه الغادرين فبلغ حد الزعم أنه قطع الصلة بفريدريك. هو، يفقد حظوته؟ في حين أن الملك يرسل إليه عربته الخاصة، ويفتح أمامه أبواب شقته المتصلة بالشقة الملكية؟ فماذا سيتقولون فوق ما قيل؟ مع ذلك، وفيما كان يشيع أنه ما كان يومًا في حال أحسن مما هو عليه، أوعز باستئجار شقة في لايبزغ حيث يأمل في التوجه إليها لاجئًا. إذًا ما الداعي إلى تلك المصالحة المزورة؟ ولِمَ تلك الأشكال من المداجاة؟ لأنها أشكال من المداجاة، ولأنه يحبها بوصفها كذلك، وبوصفه ممثلًا كوميديًا في مسرح كوميديا ديلارتي. وأيضًا لأنه يظن أنها نافعة. إنه عازم على الرحيل، لكنه لا يريد أن يرتحل ساخطًا. فليس المراد، والحال هذه، أن يولي هاربًا، ولا أن يبدو على وجه الخصوص مطرودًا. فالمراد أن ينفصل «عن سليمان الشمال من بعد مشهد وداعي ناجح جدًا». ولن يبخل بالأبيات الشعرية ولا بالعناق ولا بالدموع. أليس هو على خشبة مسرح تراقبه أوروبا بكل اهتمام؟ ولسوف يتفارق ملكا الوقت الراهن على ذلك النحو، بسلوكات اللباقة الأكثر رقيًا، وعلائم الصداقة الحميمة والمخلصة كلها.

أما وأن فريدريك من الطينة نفسها، فإنه كان في وسعه المشاركة في تلك التمثيلية باليسر نفسه والمتعة نفسها، ومن غير أن تساوره أي أوهام في شأن صدق شريكه. لكن فريدريك لم يرغب في مشهد وداع، بل كان راغبًا في الاحتفاظ بفولتير. وعاد فحاول استرضاءه. وما دام المرض وحده هو الذي يمنع الشاعر من استعادة مكانه في البلاط، فقد أرسل الملك إليه شيئًا من الكينا لتحسين حالته: «ليس هذا ما يلزمني، بل هو الإذن بالانصراف». ولم يتوجه إلى سان سوسي.

كان يسكن ضاحية من برلين، في منزل تحيط به حديقة كبيرة، يصحبه سكرتيره الطيب والمرهف الحس، الفلورنسي كوليني. كان يتجول في الخفاء، لأنهم يظنونه في النزع الأخير. وحين يرغب في أن يشرد مع أحلامه، يقول لكوليني الذي كان يتبعه صامتًا: «أما الآن، فدعني وأحلامي». والواقع أنه كان يتجول في حديقته، وهو سارد في أحلام يقظته، يتفكر في مخطط للهرب. كان يتخيل نفسه هاربًا متنكرًا بملابس أحد القساوسة، وهو في عربة ملأى بالقش، يتولى كوليني قيادتها. ويتدخل هذا الأخير ليقول له إنه لا يُجيد قيادة عربة، وإنه قد يتسبب بانقلابها في أحد المزالق. فيضحك فولتير وهو يتخيل آلاف الحوادث الطارئة في ذلك الهروب؛ لذا سوف يقول إنه ذاهب لرؤية ابنته في لايبزغ. وكان يعلم كل العلم أنه يزوغ عن الحقيقة... لكنها مسألة تسليه، وتسمح له بأن يعيش في الخيال ما يحلم به من أعماقه في الحقيقة: الرحيل!

أما وقد سئم فريدريك في نهاية المطاف سماعه يكرر دائمًا وأبدًا: «أريد الذهاب إلى بلومبيير»، فإنه أعطاه الإذن بذلك. لكن يا لها من نبرة صوت! «ليس ثمة ما يدعوك إلى اتخاذ الحاجة في الذهاب إلى مياه بلومبيير، مبررًا لأن تطلب مني الانصراف. ففي وسعك أن تترك العمل في خدمتي متى تشاء، لكن أعِد إلي قبل الانصراف عقد تطوعك، مع الصليب والمفتاح، ومجلد القصائد الذي استودعتك إياه».

بدا أن مشهد الوداع الجميل أصابه تشويه كبير، فليكن. أما وقد صار فولتير مزودًا بذلك الإذن الفج، قرر الانصراف من غير تأخير. ثم غير رأيه، وطلب مقابلة فريدريك. وتوسط له الأب براد في الحصول عليها. استقبله فريدريك، ولبثا ساعتين في خلوة في مكتب الملك. كان يُسمَع ضحكُهما عبر الباب. وانتشى كل منهما بالإطراءات المتبادلة، لكن لِمَ كانا يضحكان إلى ذلك الحد؟ كانا يضحكان من موبرتوي! يقول لنا كوليني إنهما تصالحا على حساب رئيس الأكاديمية. وعلى العموم، واصل فولتير الانتقام من عدوه. لكن ماذا عن فريديك؟ وماذا عن موقفه حيال تلك القضية؟

يا له من استخفاف أعاد به فولتير الصلة بينه وبين صديقه الخطر! يبدو أنه استأنف لعبة الأيام الخوالي السعيدة، في حين كان الاستعجال في الهروب يضيق

عليه الخناق. وأجاب الدعوة لتناول العشاء، فذهب وهو يرتعد. إنه غير واثق من عدم وضع يديه في الأغلال لدى قيامه عن المائدة. فأطلق على تلك الوجبات الأخيرة اسم: «عشاء داموكليس»[16].

بعد ستة أيام، واتته الجرأة للحديث عن الرحيل من جديد. وعلى الرغم مما في نفس فريدريك من ازدراء لطبع فولتير، ظل مبهورًا بذكائه وموهبته. ولا يزال راغبًا في الاحتفاظ به. فعل ما وسعه لإغرائه مجددًا في غضون تلك الأيام الستة الأخيرة. وجعله كل ما يحيط به يعتقد بأنه نجح في مسعاه. والحال أنه، وهو يستعرض الجيش ذات صباح، جاءه فولتير يعلمه بأنه راحل، بما أنه حصل على إذن بذلك. فقال له فريدريك بنبرة باردة:

- لا بأس، ولكن يا سيد دو فولتير، هل تريد بكل تأكيد أن ترحل؟

- يا صاحب الجلالة، هنالك شؤون ملحة ترغمني على ذلك، وخصوصًا صحتي.

- يا سيد، أتمنى لك رحلة موفقة.

ثم أدار له ظهره. ولم يكن لمشهد الوداع الجميل أن يجري.

نتائج سيئة ترتبت على قطيعة غير ناجزة

ألقى فولتير بنفسه في عربته الكبيرة، وولى هاربًا، من دون القيام بزيارات. وكتب بطاقات وداعية عن صحته، وعن سنه، كما العادة... إذ جرى إعداد كل شيء منذ زمن طويل. جرّت العربةَ أربعةُ خيول، أو ستة، وفقًا لحالة الطرق. وداخلُ العربة واسعٌ وفسيح كما غرفة، يغص بصناديق المخطوطات والكتب، والصناديق الحديد والفراء. وهنالك أيضًا كوليني الذي كان يدوّن ملاحظات في أثناء الرحلة، فيصغي ويتكلم ويضحك مع سيده. وكانت حالة فولتير الصحية تقتضي منه إضحاك الآخرين لكي يُضحك نفسه. فما إن تتوفر لديه فترة من الراحة حتى تتوارد إلى ذهنه، حول كل شيء وحول لا شيء، بِدَعٌ مضحكة.

---

(16) رجل من بطانة ديونيسيوس، كان يحسده على سعادته. دعاه ديونيسيوس يومًا إلى وليمة، وفي وسط الأفراح رفع الرجل نظره إلى السقف فرأى فوق رأسه سيفًا معلقًا بشعرة. وذهب اسم «سيف داموكليس» مثلًا للمخاطر التي تحف بمن يتولى المناصب والجاه، ما لم يكن عادلًا. (المترجم)

ما كاد فولتير يرتحل حتى تقرب فريدريك من موبرتوي، وبدأ الخلان يشعران بالخوف من فولتير الهارب، أكثر مما كانا يخشيانه، وهو ثابت في برلين وتحت المراقبة. وإن فريدريك ليتوجس خيفة من قصائد الذم وإفشاء الأسرار التي لن يتوانى فولتير عن نشرها لتسلية البلاطات في أوروبا على حساب سليمان الشمال. لكن فريدريك كان يخشى، فوق كل شيء، الانتقاد الذي قد يوجهه فولتير إلى شِعره. لقد سبق أن ثأر له «الغسيل الوسخ» من «قشرة البرتقالة»، لكن كل شيء لمّا ينته، وفريدريك يعرف ما عليه «صديقه» من تصلب الرأي.

ما إن وضع فولتير قدميه فوق أرض لا يبزغ حتى صاغ إضافة إلى النقد. وكتبها على نمط البداية، إلا أنه، وبتأثير نزعته إلى الهزل الماكر، صاغها بسخرية أقوى، حتى أضحى الجمهور الذي يمكن أن يستهزئ بموبرتوي أوسع مما كان. وكان في تلك الإضافة شيء من «راعي الخنازير» وشيء من «طبيب على الرغم منه»: وتأتي الحقن الشرجية من بعد دعمًا إضافيًا. ومن فوره أحيط موبرتوي علمًا بالأمر، فكتب وهو في سورة من الغضب رسالة تهديد، جاء في خاتمتها: «تذكر فضل الاحترام والطاعة اللذين ردعا ذراعي حتى الآن، فأنقذاك من أسوأ مأزق وقعت فيه حتى اليوم». لقد أشهر موبرتوي حسامه الكبير! أما الآخر، وهو بعيد، فاستهزأ به.

نشر فولتير تلك الرسالة، رغبةً منه في مزيد من السخرية، لكنه حرص على إدخال شيء من التسوية على نهايتها. فحذف السطر الأخير المتضمن تلميحًا مبطنًا، لكنه مزعج جدًا، إلى ضربات العصي من روهان ومن بوروغار، وإلى تهديد الكاتب. وقطع الجملة بعد كلمة «ذراعي»، ما جعل التهديد أشد وضوحًا. ثم أضاف كلمة «ارتعِد!» فجعل منها تفاخرًا هزليًا. ورد برسالة عمِلَ على تداولها، وختمَها على النحو الآتي: «أما وهنالك ما بين خمسين وستين شخصًا تطاولوا، فسخروا منك سخرية مذهلة، فإنهم يسألونك عن اليوم الذي ستأتي فيه كما تزعم لتقتلهم».

ها هو إذًا موبرتوي في سورة غضب أكثر من أي وقت مضى، يتوسل إلى فريدريك كي يثأر له. وهو يتوسل إلى فريدريك الساخط بدوره، لأن فولتير لم يُعِد إليه الصليب والمفتاح (الذهبيين!) وكتاب القصائد. فلمَ كان فريدريك حريصًا

ذلك الحرص كله على كتاب القصائد؟ ألأن فيه بعض المقاطع التي تتناول هؤلاء أو أولئك من رجال بلاطه أو البلاطات الأخرى؟ كان الكتاب قد طُبع في إحدى غرف سان سوسي، وسُحب خمسمئة نسخة، جرى توزيع معظمها. ولا ريب في أن مُخبري البلاطات الأخرى نسخوا منها نصيبهم، وإن تلك الأسرار التي سُحبت خمسمئة نسخة، وقرأها قرابة خمسة آلاف شخص أو أقل قليلًا، لتثير ابتسامنا. لم يكن في تلك القصائد، على الرغم من قيام فولتير بغسل أدرانها لتبييضها، ما يُبهر. فتُستَشم منها الرغبة في إحداث الجراح، غير أنها سهام رخوة. وظن فريدريك أنه فقد شيئًا من مهابته - من مهابته بوصفه كاتبًا فرنسيًا - لأن فولتير سيعيد طباعة قصائده، ويعلم الله ما السموم التي سيضعها فيها. باختصار، كان هذان «الصديقان» في نهاية المطاف خائفين؛ فكل منهما يخشى الآخر. كان ملك بروسيا يخشى لسان ملك البرناس وريشته، وكان هذا الأخير يخاف من سجون ملك بروسيا. ويبقى أن المباراة غير متكافئة، لأن في وسع ملك بروسيا أن يعبئ مئتي ألف «شارب» وعددًا مماثلًا تقريبًا من رجال الدرك.

كان فولتير مدركًا مدى هشاشته، فالرعدة تعرو هيكله كله، إلا أن فكره يواصل رقصته الرشيقة. وهو لم يُعِد الصليب والمفتاح والكتاب. فما السبب؟ هل هو التحدي؟ ليس من يعلم. ولِمَ تركه فريدريك يرحل من غير أن يطالبه بها؟

تلقى فولتير، في لايبزغ، رسالة قاسية جدًا من فريدريك، لا يخفي عنه فيها أنه لم ينخدع يومًا بحكاية الحاجة المزعومة إلى مياه بلومبيير: «كان مقصدك التوجه إلى لايبزغ لطباعة شتائم جديدة موجهة ضد الجنس البشري». وقد بدأت تسمية «الجنس البشري» تلاقي ازدهارًا في الكلام الفلسفي والحساس. والتسمية، والحال هذه، إنما تعني موبرتوي بكل بساطة. وهذا منتهى الرياء في نظر من يعرف أن فريدريك ظل يضحك طوال ساعتين استهزاء بموبرتوي، هذا الذي جاء بغتة ليمثل «الجنس البشري»، من أجل قضيته الخاسرة. وأضاف فريدريك قائلًا: «ولما كنت معجبًا بمهارتك، رغبت في أن أشهد عرض حِيَلِك، وأن أسلي النفس برؤيتك تسرد، بوقار، أكاذيب الضرورة لرحلتك الخرافية إلى مياه بلومبيير».

كان لذلك الهزء المتضمن ازدراء بكوميديته الرديئة أن ينتقص من قيمة فولتير،

لأنه لا يقع من شيء بين ممثلين فاشلين. «لست أشك في أن المقام قد استقر بك، والظاهر أن أصحاب المطابع في هذه المدينة (لايبزغ) قاموا بتطهيرك من ذلك السم الزعاف الفائض. وأنا أناشد ضميرك، إن كان لديك ضمير». وإن ورود تلك الكلمة تحت تلك الريشة لأمر مضحك، لأن فريدريك يعرف حق المعرفة علامَ يعتمد، بالنسبة إلى ضمير فولتير وضميره هو؛ فهما متماثلان. وقد كتب فريدريك مستخدمًا نبرة رجل نزيه أصيب بالذعر: «عليك أن تعترف بأنك مولود لتصير رئيس وزراء سيزار بورجيا». ويخالط إعجابه بفولتير سخرية وازدراء بسبب نفاقه. الواقع أن الشاعر قدم رسالة التهديد من موبرتوي إلى القضاة في لايبزغ. وسأله فريدريك، لكن من غير طائل: «هل قدمت إليهم أيضًا الأهاجي التي كتبتها بحقه؟»، وأصاب السهم مرمًى، لكن في وسع فولتير أن يجيب: «ألم تجعلني أقسِم قولًا وكتابة على أني غير متورط البتة بكل ما يُنشَر ضد موبرتوي، في حين كنت تعرف حق المعرفة أني أنا الكاتب، ما دمت سميتني باسمي في أهجيتك المُغفلة؟ كنتَ تكذب، يا صاحب الجلالة، وما زلت تكذب اليوم، مثلما كذبتُ أنا يومئذ، وسوف أواصل اليوم كذلك. فلنكذب معًا، وكلٌّ على هواه، لكني أتوسل إليك، ألا تعظني باسم الجنس البشري الذي تُكِن له الازدراء الأكبر».

من الصعوبة بمكان تبييض صفحة فولتير لتصير في بياض فرو القاقم، فمياه نهر شبريه كلها تعجز عن ذلك. لكن ليس بالأمر الجاد، أن يأتي فريدريك ليتخذ دور الواعظ. إلا أنه يوجه له هذا السهم، بوصفه تلميذًا نجيبًا: «كنتَ حتى الآن في خصومة مع العدالة، غير أنك وقعت بمهارة بالغة على وسيلة تجعلك نافعًا. وهذا ما يُسمى باستخدام المرء لأعدائه خدمة لأغراضه». والحق أنها صيغة ممتازة ما كان لفولتير أن يستخف بها، ولا أن يهمل التلميح إلى منازعاته القضائية. فكم من العلقم وكم من السم الزعاف في كلمات قليلة! أما فريدريك فكان يدرك عم يتكلم: «استخدام المرء لأعدائه خدمة لأغراضه» لم يكن بالنسبة إليه مناورة مجهولة، وإنما من أجله تحديدًا وبسبب مناورته ظهرت عبارة: «شن الحرب لمصلحة ملك بروسيا».

كان على فولتير، من بعد تلك الرسالة، أن يتوقع الأسوأ.

قام قبل السفر بإرسال صناديق كتبه إلى هامبورغ، ثم سلك درب غوتا. وتوقف ليلاقي الترحاب في بلاط الأميرة دوروثي دو ساكس ماينغن. ويقول فولتير إنها كانت على قدم المساواة مع دوقة مين، في الذكاء لكنها تتفوق عليها في الرقة، وبجودة المائدة على وجه الخصوص، ولم تكن فضلًا عن ذلك تنظم الأشعار. وذلك يعني أنه غير ملزم بقراءتها، ولا بإطرائها (من بعد إعادة صوغها). ولقد فتنته إلى حد أنها حصلت على وعد منه بكتابة **حوليات الإمبراطورية**، وهو مؤلف تاريخي ضخم عن الدول الألمانية من عهد شارلمان. كانت تريد شيئًا مشابهًا لـ **عصر لويس الرابع عشر** بالنسبة إلى الإمبراطورية المقدسة! لكنها تريدها، وبالتأكيد، ذات تأثير أكبر. وما من شاعر أُرغِمَ في حياته على القيام بعمل ممل أكثر، فهو باشر المهمة من فوره، وشرع يمحص في محفوظات غوتا الواسعة. ووفى بما وعد به؛ فـ **الحوليات** تم تأليفها، لكنها لا تشابه، إلا من بعيد جدًا، النجاح المتألق الذي حظي بها **عصر لويس الرابع عشر** و**شارل الثاني عشر**. فالعمل لم يجرِ بشغف، والتالي أن الفكر كان غائبًا عنه.

سلك في 25 آذار/ مارس 1753 طريق ستراسبورغ، عاقدًا النية على التوقف في فرانكفورت. وفكر لحظةً في القيام بانعطاف لطلب اللجوء لدى صديقته الغالية المارغراف دو بايروت. وعاد فتذكر أنه سيضع نفسه مجددًا في متناول فريدريك، من طريق الإقامة لدى شقيقته. وكانت المارغراف نفسها تتوجس بعض الخيفة من تلك الزيارة، على الرغم من المتعة الكبرى في تبادل أطراف الحديث مع فولتير، فانشرح صدرها لما رأته متخذًا وجهة أخرى.

لكن يا لغرابة مصائب القدر: تحاشى بايروت تجنبًا للخطر فألقى بنفسه في فرانكفورت، حيث كان الخطر في انتظاره. في الطريق بين غوتا وفرانكفورت، توقف في كاسل؛ فحاكم منطقة هيسه وابنه هما من الأمراء الذين يوافقون هواه. لكن لم يكن هناك سوى إطراء ومداهنات خداعة نحو هذا الجانب أو ذاك. وجرت عروض أوبرا وباليه وتراجيديات، إلا أن ظلًا وقع على المشهد الساحر: إنه ظل بولنيتس. وجاء من يحيط فولتير علمًا بأن بولنيتس الرهيب، المؤتمن على أسرار فريدريك وجاسوسه ويده اليمنى، هو الآن في كاسل. فهل هو يلاحق الشاعر؟ وسرت في برلين طرفة مفزعة: فذات يوم كان بولنيتس يصغي إلى فريدريك وموبرتوي وآخرين، وهم يصبون جام غضبهم على فولتير؛ فكانوا

يتهمونه بالجرائم كافة، ومن أخطرها حرمانهم من الرقاد بفعل سهامه المسمومة. حينئذ ثارت النخوة في رأس بولنيتس فهتف: «يا صاحب الجلالة، أصدر أمرك إلي، أتوجه لطعنه لدى خروجه من المدينة». ولنذكر، تقديرًا لفريدريك، أن استياءه من اقتراح فارسه الخادم بلغ به حد طرده. لكن ذلك لا يَحُول دون أن يكون فريدريك قد غير رأيه، وأنه ليس لفولتير أن يشعر بالطمأنينة الكبيرة؛ لأن ذلك «الملاك الحارس» يتبعه.

لمّا يصل شاعرنا إلى غاية مفاجآته التعيسة. ألم يعلم بأن موبرتوي جرى استقباله في كاسل؟ لقد طفح به الكيل. فأعداؤه يجدّون السير في إثره. ألن يقوموا بذبحه عند زاوية أحد الأحراش؟ واقع الحال أن موبرتوي لم يأتِ مسلحًا بخنجر، بل بقصيدة هجائية. وإن ذلك الاستهلاك الدائم للوشايات والافتراءات في القرن الثامن عشر ليَبدو لنا مماثلًا، في غرابته وشذوذه، لاستخدام المقيئات والحقَن الشرجية. جاء موبرتوي إذًا قاصدًا طباعة أهجية باسم لابوميل. وكان لابوميل في تلك الأثناء وراء جُدُر الباستيل. فلم يجد موبرتوي أي عناء في استخدام اسمه لمهاجمة فولتير. وكذلك فلن يكون لابوميل بدوره مستاءً من ذلك. ولسوف تفعم البهجة قلبه إذا ما الطعنات أصابت هدفها. وما كان لأحد أن ينخدع بذلك التوقيع؛ فالجمهور يتلذذ بتلك الأكاذيب كلها، وبدرجة من النهم لا تدعو مؤلفيها لأن يتكلفوا عناء جعلها قابلة للتصديق. وإن مقطوعة بومارشيه في شأن الافتراء لتحدد على أحسن وجه إحدى طبائع العصر. كان الافتراء مجديًا حقًا، بل إننا لنتساءل هل أثرت تلك المقطوعة في معاصريه مثلما أثرت فينا؟ لقد أوشكت أن تكون بالنسبة إليهم أمرًا مفروغًا منه (Lapalissade)، وكان الافتراء في القرن الثامن عشر الخبز اليومي لجمهورية الآداب.

كان فولتير يعلم حق العلم أن لابوميل وراء قضبان السجن، بل إنه سعى ما استطاع ليساهم في ذلك الاعتقال؛ إذ توسلت السيدة دوني، عملًا بنصائحه، لدى الوزراء كافة سعيًا وراء اعتقال لابوميل. وقد أحيط هذا الأخير علمًا بتلك النيات من طريق شخص اسمه ساباتييه، وهو سكرتير لرئيس دير، كان عند السيد دارجنسون ساعة جاءت السيدة دوني تقول لذلك الوزير إن لابوميل مطلق السراح، إنما يعني الدمار لفرنسا. وكان فولتير على دراية بكل شيء، فعلم بوشاية ساباتييه الذي عامله بوصفه قزمًا. وليس فولتير، في واقع الأمر، من ما عاد يتمتع برصيد

كبير في فرساي، ولا هي السيدة دوني التي تفتقر إلى الفصاحة والفتنة اللتين من شأنهما وضع لابوميل في السجن، بل هو دوق أورليان. ويبقى أن نية اعتقاله كانت حقًا نية فولتير.

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي تتدخل فيها السيدة دوني ضد أعداء خالها؛ فقد طلبت في العام السابق إلى السيد دارجنسون إغلاق صحيفة فريرون التي تنعت فولتير نعوتًا عنيفة، وهي تطاول فيه الإنسان أكثر من الكاتب. وبلغ حكم دارجنسون حد الكمال: «النقد جيد، لكن الشتيمة مبالغ فيها». فجرى إغلاق الصحيفة لمدة ستة شهور. وقيل إن فولتير هو الذي طلب عودة المياه إلى مجاريها. إلا أن ذلك القدر من الأريحية يبدو غير قابل للتصديق؛ إذ يسعنا أن نتخيل فولتير وهو يمد يد العون لأسرة فريرون، وهي في حالة العوز، لكن يصعب علينا القبول بأنه تدخل ليعيد إلى تلك الأفعى القدرة على نهش الـ هنرياد وزايير ومحمد، ومن بعدها نهش السيد دو فولتير. فلسنا نلومه على امتناعه، وإنما على رغبته في الظهور بمظهر الشهامة.

لنعد فنقتفِ طريق فولتير. لقد أمضى ليلة 30 نيسان/ أبريل 1753 في ماربورغ، وانطلق في الصباح، وحين أضحى على مسافة ما من المدينة، لاحظ أنه نسي علبة تبغه الذهبية في غرفته. فجرى إرسال كوليني على عجل لاستعادة العلبة الثمينة. ويشاء حسن الطالع أن يجدها على الطاولة الصغيرة بجانب السرير؛ ذلك أنه ما من أحد قبله وقع نظره عليها. وجعل فولتير ومن معه من الواقعة قضية كبرى؛ فالانفعال الذي أحدثه نسيان العلبة، والفرحة الغامرة إثر العثور عليها، وأشكال القلق والتعليقات، تجعلنا نقدر مدى الحذر المتبادل بين أصحاب النزُل والمسافرين والخدم، إذ أضحت نزاهة العصر المنصرم مشبوهة حتى لا يمكن الركون إليها.

دخلوا إلى فرانكفورت في الثامنة مساء. هنالك كانوا في انتظارهم.

اعتداء جديد على شاعر والحرية الفردية

أورد فولتير في مذكراته، وبعد ذلك بزمن طويل، في عام 1759، قضية فرانكفورت. وسرد القصة باستهزاء وتهكم جعلاها مسلية أكثر منها مأساوية؛ فهو لا يرغب في الثأر من الإهانة إلا بالسخرية منها. وهل من طريقة أخرى أمامه

للانتقام من عاهل قابض على السلطة؟ أما التزامه أصول اللياقة، من بعد أن همد غضبه، فلم يجعل صورة ما حدث تتشح بالسواد، إلا أنها كانت في واقع أمرها سوداء حالكة. وهو في المذكرات التي لم ينشرها، والتي سَرَق نسخَتها منه في عام 1768 كلٌّ من السيدة دوني ولا هارب، لم يَشأ إضحاك أوروبا على حساب فرايتاغ، وهو جلواز فريدريك في فرانكفورت، هو «الجلاد»، وعلى حساب فريدريك نفسه الذي ما جعله ذلك يشعر بكبير استياء. ولم تظهر المذكرات إلا في عام 1784. لكن فولتير كان قد قص كثيرًا في رسائله وأحاديثه عن إقامته الرهيبة في فرانكفورت، كما أن سكرتيره كوليني الذي كان يجيد النظر إلى الأشياء والكتابة عنها، علق على الأوضاع كافة حتى بتنا نعيش تلك الأيام المشؤومة والمضحكة، ساعة فساعة، ما دام التهريج لدى فولتير ماثلًا أبدًا.

أوعز فريدريك إلى سكرتيره فريدندورف - وهو الذي كان يكره فولتير - ليكتب إلى عامله في فرانكفورت، واسمه فرايتاغ، ليقوم بتوقيف فولتير وتفتيشه. وعلينا القول إن فرانكفورت كانت مدينة إمبراطورية، فليس فيها لفريدريك من سلطة على توقيف أحد، كائنًا من كان. وكان على فرايتاغ أن يصادر شعارات حاجب غرفة الملك (أي فولتير) المخلوع وأوسمته، وعقود جراياته، وعلى وجه الخصوص كتاب القصائد ومخطوطاته. ونبّه فريدندورف خادمَ فريدريك النزيه والمخلص إلى أن صاحب الجلالة يعلق أكبر الأهمية على استعادة كتاب القصائد. وأنذره بشكل خاص بصعوبة مهمته، وأنه حيال مشبوه تجسد الشر والمكر فيه، وأن عليه أن يتخذ أشد أنواع الحيطة ليتفادى أشكال الختل والهروب كافة، أو ما هو أسوأ! واقتنع فرايتاغ، وقد تولاه الذهول، بأنه مكلف بالقبض على عدو خطر للدولة قام باختلاس أسرار ذات أهمية كبرى. بذل فرايتاغ، بفعل خشيته الذليلة من التقصير حيال سيد لا يعرف الرحمة مثل فريدريك، كل ما لديه من حماسة لأداء المهمة على أحسن وجه. تلكما هما اليدان اللتان وقع بينهما ملك الشعراء وصديق الملك.

ما كان أمامه من سبيل للإفلات، فقد دأب فرايتاغ منذ أيام عدة على إرسال جواسيس إلى النزل يسألون قائلين: «هل جاءكم نبيل فرنسي اسمهماينفيلار؟»، وهي حيلة. فليس هنالك من فرنسي بذلك الاسم، وإنما القصد جعل أصحاب النزل يقولون إنهم يؤوون فرنسيًا آخر. وفي 31 أيار/ مايو 1753، أجاب صاحب

نزل الأسد الذهبي في فرانكفورت، بأنه استقبل لتوه السيد دو فولتير الذي حجز شقة ممتازة فنزل فيها مرتاحًا، يصحبه سكرتيره السيد كوليني. وكان المسافرون ينامون في ذلك النزل الممتاز وفي تلك المدينة الإمبراطورية الجيدة، تحت حماية النسور من أبناء هابسبورغ.

وإذا كانت الضحية تنعم بنوم هادئ، فإن نوم «الجلاد» كان مؤرقًا. إنه لا يدري من أين يبدأ؛ فقد قيل له إن المشبوه قادر على إحداث جلبة كبرى، والحال أن صاحب الجلالة يريد توقيفه من دون إحداث ضجة. فما العمل؟ اصطحب فرايتاغ مأمور تنفيذ، وهو رجل ضخم، ولا يفهم الفرنسية، لكن ليس له سوى تقديم العون إذا ما قام فولتير بالصراخ أو الاضطراب. وكان فرايتاغ شديد القلق، لأن فولتير إذا ما صرخ فسوف يسمعونه في لندن، وفي بطرسبرغ. وكان من شأن ذلك النوع من التوصيات المشددة أن يؤدي إلى القيام بخنق فولتير سرًا. ولا ريب في أن فرايتاغ فكر في أن ذلك هو الحل الأسهل. صحيح أنه كان عنيفًا، لكنه أقل غباء مما يقول عليه فولتير. لكن ما يجعل ذلك الشخص مثيرًا للقلق هو أنه لم يكن يعرف على الوجه الصحيح ما الجريمة المنسوبة إلى فولتير، فهو يشعر بغرابة الحالة التي تتجاوز مفاهيمه بوصفه جنديًا مرتزقًا. في التاسعة صباحًا دخل فرايتاغ ومرافقه غرفة فولتير، وبعد بعض اللباقات، أحاط فولتير علمًا بنيات صاحب الجلالة البروسية، فارتد الشاعر الجالس في كنبته إلى الوراء وأغمي عليه نصف إغماءة.

لا ريب في أن فرايتاغ كان يفضل لو جرى تكليفه بالقبض على أحد كبار المتنفذين بدلًا من ذلك الرجل القصير والهزيل على نحو يثير الخوف، والذي كان، إضافةً إلى صوته الثاقب، يثب ويرقص ويؤدي حركات عجيبة ويقلب الكراسي، فيثير سخطه باختصار ويشوش عليه أفكاره. فهو كائن لا يدري المرء من أين يمسك به، مع ضرورة الإمساك به بأي ثمن. واستعاد فولتير وعيه سريعًا فاستدعى كوليني الذي فتح الحقائب، فنبش وقلب وأخرج الأوراق التي وجدها. لكن فرايتاغ لمّا ينتهِ من عرض متطلبات مليكه، لأن فولتير غادره بلا استئذان حين فقد وعيه. وأخذ فرايتاغ الأوراق، فأغمي على فولتير مرة ثانية. ويقول فرايتاغ في تقريره عند هذه النقطة: «يبدو لي تمامًا أنه هيكل عظمي». لكن خادم صاحب الجلالة - يقول عنه فولتير إن فريدريك أخرجه من السجن حيث كان يدفع العربة

اليدوية - كان على درجة من الارتياب دعته إلى فتح كل شيء والتفتيش بنفسه. ويا له من تفتيش بالغ الدقة، ما دام بدأ في التاسعة صباحًا، ليدوم حتى الخامسة عصرًا! أوشكت أعصاب فولتير على الانهيار. سأله فرايتاغ إن كان لديه من شيء آخر، فأقسم فولتير مئة مرة على أنه ما عاد من شيء لديه. فسأله فرايتاغ: «وماذا عن كتاب قصائد الملك؟». إنها لمسألة رهيبة؛ فالكتاب بين الطرود والحزم التي أرسلها فولتير إلى هامبورغ. فقال له فرايتاغ إنه لن يطلق سراحه إلا بعد أن يصير الكتاب بين يديه. وأُغمي على فولتير مرةً ثالثة. وحين كتب قصة تلك المغامرة سخر من لهجة فرايتاغ. ولكَم هو الأمر مسلٍ إذا ما سمعَه المرء وشاهدَه يروي ويقلد: «إنه، يا سيتي، كتاب كسائت مؤلمي الّتيب» (إنه، يا سيدي، كتاب قصائد معلمي الطيب). فتلك ما كان فرايتاغ يطلق عليها اسم «جواهر تاج براندبورغ» التي يُتهَم فولتير بسرقتها. ويبدو أن «الجلاد» وقع له البطاقة الآتية:

«أيها السيد، ما إن تصل إلى هنا من لايبزغ البالة الكبرى التي فيها كتاب قصائد معلمي الملك الذي يطلبه صاحب الجلالة، ويعاد إلي كتاب القصائد، يسعُكَ أن تذهب إلى أي مكان تريد. فرانكفورت، في 1 حزيران/ يونيو 1753. التوقيع: فرايتاغ، المندوب السامي لسيدي الملك».

ذلك ما أضاف إليه فولتير بريشته: «حسَنٌ لكتاب قصائد معلمي الملك» ثم يضيف بلهجة في منتهى السخرية: «كان فرايتاغ بذلك شديد الرضا»، بل كان في ذروة السخط، وهنالك ما يبرر ذلك. لكن رسالة فرايتاغ عُثر عليها، وهي مكتوبة بلغة فرنسية سليمة. وعلى ذلك النحو انتقم الشاعر من «جلاده». وبدا بسحنة تعيسة، بعد عملية التفتيش تلك، حتى إن فرايتاغ أشفق عليه. لقد تخيل أنه سيجابه الشيطان، فوجد نفسه حيال رجل مشرف على الهلاك. وبعث فجاءه بأفضل طبيب في المدينة. وقدم له نبيذًا من قبوه، بل عرض عليه أن يرافقه بجولة في حدائق المدينة (مع شرطي مراقب يسعى في أثره). كان ذلك المسكين فرايتاغ على درجة من السذاجة، جعلته يعتقد أن فولتير سيتعزى لمجرد فكرة التنزه بصحبة سجانه المحبوب. أما فولتير، فيكاد يكون في حقيقة الأمر أثرًا بعد عين. فمتى سيكون العثور على بالة الكتب المرسلة إلى هامبورغ؟ بل هل سيتمكن أحد من العثور عليها؟ وحتامَ سوف يدوم اعتقاله؟

كتب فرايتاغ إلى برلين يطلب تعليمات جديدة. فهو يود أن يبعثوا إليه بسكرتير متخصص في ذلك النوع من كتابة القصائد؛ ذلك أنه لا يثق كل الثقة بحاسة شمه الشعرية، ويخشى أن تكون أفلتت من بين يديه كتابات مهمة في أثناء عمليات تنقيبه البطيئة جدًا، لأنها تنقيبات عمياء. وإشارة منه إلى روح التوفير التي هي موضع تقدير «سيدي الملك»، ذكر أن فولتير طالب باستخدام البريد السريع إلى هامبورغ لاسترجاع البالة الشهيرة. لكن فرايتاغ يضيف قائلًا إنهم أنفقوا ثلاث لويسات، بلا طائل في تلك القضية، ما يعني أن فرايتاغ استخدم البريد العادي. فيا له من خادم مخلص! ويعني ذلك أن فولتير سوف يمضي ثمانية أيام إضافية معتقلًا. ويرى فرايتاغ الصالح أن تلك النفقات والمساعي وطرائق التحقيق لا تتلاءم وضآلة تمارين «سيدي الملك» على نظم الشعر. وما كان ذلك الشقي يعرف أن تلك الفكرة الطيبة يمكن أن تنتهي به إلى السجن!

إن المثير للدهشة في المشهد الأول هذا، هو أن ملح البارود الفولتيري لم يشتعل فورًا مطلقًا النار واللهيب. فهذا الاعتدال لا يشبه بشيء صديقنا المقدام. فغالبًا ما ألقينا عليه القبض بالجرم المشهود من الغضب، ورأيناه هزليًا صراحة. هل فقد القدرة على محاكمة نفسه بنفسه؟ ليس الأمر كذلك على الإطلاق. فسورات غضبه ليست ذات أهمية بالنسبة إليه مثلما هي بالنسبة إلى المشاهدين. فهي مثل انفعالاته كافة، سورات مشهدية، لكنها في الوقت نفسه سطحية. فالانفجار كله خارجي، والعاصفة لا تخلف أثرًا إلا على السطح. أما البرهان على ذلك فهو أن الأزمة لا تكاد تمر حتى يستعيد التقاط أنفاسه، فيستأنف عمله ويعكف عليه من دون عناء. إن أعصابه حساسة، لكن استثارتها لا تؤثر إلا في البشرة. ولا يعني ذلك أن تلك الاستثارة ليست حارقة وعنيفة وغير مبررة في الأغلب. والحق أن فولتير لا يلتهب حماسة إلا التهابًا سطحيًا، لذا فإنه لا يعلق على سورات غضبه الأهمية التي يعلقها عليها مراقب سيئ النية إلى حدٍ ما. وهو لا يرى في ذلك انتقاصًا من مهابته في أعين الناس، لأنه يعرف أن تفريغ السخط المباغت ليس بذي قيمة في ضجيجه، إذ إنه لا يلحق من ضرر بإعمال فكره ولا بمقاصده ولا بصداقاته ولا أحقاده. فسورات غضبه العنيفة، ووثبات مزاجه لا تسيء إلى غير الحمقى الذين ينساقون بفعل تلك التشنجات. أما حقيقته، فتكمن في تصلبه الذي لا يتزحزح. فهو في أعماقه مصنوع من طينة آل أرويه. ويسعنا الاعتقاد أن في مساء

ذلك النهار الرهيب، توافرت لديه فرصة ممتازة ليدع نفسه على سجيتها، فنتخيله يذرع غرفته طولًا وعرضًا، وهو يرتعد، فيضرب الأرض بقدمه شاتمًا ومتوسلًا، وهو يكيل اللعنات. لكن شيئًا من ذلك لم يحدث البتة. ظل هادئًا، فالحالة أكثر من جادة لتستحق غضبه. فهل ذلك بدافع من الخوف؟ أم الإرهاق؟ أم دقـة في الحساب؟ إنه فولتير الآخر، وجه من وجوه فولتير الأخرى، ولا ريب في أنه الأعمق والأصوب، إنه فولتير العظيم الذي عمل الأمسية بطولها وفي أثناء قسم من الليل، وغاص في حوليات الإمبراطورية، ليروق مارغراف غوتا المحبية، وليكون وفيًا لشغفه بالنظام النشيط. فتلك هي عظمته وذلك هو فضله: «العمل قِسمة الإنسان وعزته، وألاحظ كل يوم أنه حياة الإنسان، فيقوم بتجميع قوى الروح ويجعل المرء سعيدًا».

إن المباهج الحقيقية لذلك الرجل الذي يوصف بالخفة، هي مباهج صارمة، وإن كوليني هو الذي يبدي تلك الملاحظة بإعجاب. أما فولتير فكتب مستذكرًا تلك الليلة في فرانكفورت:

«حين قام بربريان على ضفاف نهر المين
فصبا عليّ جام جبنهما ووحشيتهما
كان العمل يملأ عزيمتي المطمئنة؛
وكانت مغارتهما مأوى الفنون التي يجهلانها».

كانت تلك هي الطريقة المثلى للعزاء والثأر في آن معًا.

أما وقد رُفِعت الستارة من بعد عن مشهد فرانكفورت هذا، فإن إيقاع التراجيديا الساخرة سوف يتبدل تبدلًا سريعًا، ويجري عرض الدراما مرفقًا بالبشاشة والعصبية، أي على غير المتوقـع في المسرح الإيطالي. وكان لكوليني دوره هنالك؛ فهو خير سنِدٍ لسيده وقتَ المِحنة. وتشكل هذه الصداقة من جانب الذين كانوا يخدمون فولتير ثناء عليه؛ فهم يستغلونه لكنهم يحبونه، وهو يسامحهم لشعوره بأنه محبوب ولأنه يحب. ولسوف تفقد الدراما شيئًا من خطورتها، في هذه المرة أيضًا، وبدعم من كوليني، وليس ذلك لعدم أهميتها، بل لأن فولتير والفلورنسي ملتصق به، «ليس محمولًا» على محمل الجد. وهنالك وقائع كثيرة في حياة فولتير ليست

بذات مظهر جاد، إلا أن حياته أعمق كثيرًا من المظاهر. فهنالك، في التطورات الكبرى في حياة الشخصيات الكبرى، شيء من الثقل والتكلف والتمويه. الحال أن فولتير يرقص ويقفز ويقوم بوثبات صغيرة ومتلاحقة. وليس ذلك من المهابة في شيء، لكنه، بخلاف ذلك، حيوية الذكاء بعينها.

ما إن انتشر خبر اعتقاله في المدينة، حتى توالت عليه الزيارات. فهنالك عدد من الفضوليين، ومن بينهم الناشر فان دورين من لاهاي الذي ما لبث أن ندم على فضوله. فهذا الناشر هو الذي خدع فولتير وسرقه، أيام كان يقوم بطباعة كتابه ضد مكيافيلي. وظل فولتير يحمل له الضغينة. وبلغ الصلَف بفان دورين حد التقدم بسحنته الكئيبة من الشاعر الذي كال له صفعتين مدويتين؛ فأُضرِمَت النار في ملح البارود، وكان لِما تلا أن يكون داميًا. فقد هم فان دورين بسحق الرجل بين يديه الضخمتين وهما يدا لصٍ من اللصوص، لكن كوليني شرع يتكلم ويتكلم ويتكلم، مستعينًا بحركات يديه، حتى انتهى به الأمر إلى تهدئة ذلك الرجل الفظ. وجرى ذلك وسط حلقة الفضوليين الذين اجتاحوا غرفة فولتير، وليس فيهم من كان يضحك. فجميع من في المدينة جادون على نحو مفزع. مع أن هناك ما يثير الضحك في مشهد كوليني الذي كان يبرهن لفان دورين، بحيوية تشتت الذهن، أن ما تلقاه من صفعات جادت به عليه كف رجل عظيم، «وأن ذلك من حسن طالعه، فهو لا يتوافـر للجميع»، فخرج فان دورين من غير إثارة فضيحة أخرى، إلا أنه سيعاود الظهور.

كانت الزيارات الأخرى سلمية تمامًا، فارتبط أناس لطفاء من فرانكفورت بأواصر الصداقة مع الشاعر. ولما كان لبقًا ومرحًا، كان إنشاء حلقة من الأصدقاء والصحب الطيب من حوله في أيام قلائل تسلية له، ولو كان داخل سجن لأنشأ صالونًا.

أثار ذلك النوع من النجاح قلقًا سريعًا لدى فرايتاغ. وإذا تمكن فولتير من أن يضم فرانكفورت تحت لوائه، فما يسعه أن يفعل، هو، المندوب السامي، لعاهل «أجنبي»، وغير محبوب كثيرًا في هذه المدينة الإمبراطورية؟ وإن الصفعة الموجهة إلى فان دورين لتنذر بأن سلوك فولتير ربما لا يكون على الدوام سلوك رجل مشرف على الموت. علاوة على ذلك، رغب الناس في فرانكفورت في جعل مجلس

المدينة يتدخل لمصلحة فولتير. وكان عليهم القيام بذلك من فورهم، بما أن فريدريك خرق حقوق المدينة. وطلب فولتير الذهاب لتحية دوق ماينتغن، فجاءه رفض مهذب من فرايتاغ. وطلب تغيير الفندق، فجاءه رفض مهذب من فرايتاغ. وانفجر فولتير صارخًا: «وكيف لملكك أن يوقفني هنا في مدينة إمبراطورية؟ ولِمَ لم يفعل ذلك وأنا في ولاياته؟ (ذلك هو المنطق بعينه) إنك لرجل فاقد الرحمة، فأنت تتسبب بموتي وأكيد أنكم جميعًا ستواجهون نقمة الملك».

لم يقلق فرايتاغ كثيرًا حيال التسبب بموت فولتير، إلا أن التهديد الأخير أثار قلقه، فبدأ يتساءل إن كان من شأن حماسته الشديدة أن تنقلب ضده؛ إذ لم يسبق لصياد أن ضاق بفريسته ذرعًا على ذلك النحو. وشعر، على الرغم من ذهنه الغليظ، بأن القضية غير واضحة، فطلب تعليمات جديدة. وكتب فولتير من جانبه إلى الإمبراطور ملتمسًا حمايته في مدينة تعود للإمبراطورية. ولم يطالب بتوجيه جيش ضد بروسيا، بل بتذكير فرايتاغ بأنه يتجاوز صلاحياته، واستأنف تكرار لازمته بأنه يعاني النزع الأخير، وأنهم يقتلونه. «إن مريضًا في هذه الحال العنيفة يرتمي على قدمي جلالتكم المعظـمة ملتمسًا منها أن تعطف، فتوعز بما تتحلى به من خير، وبسرية، بأن مثل هذا الوضع يرغمني التوسل لعدم القيام بشيء يمس القوانين المتعلقة بحالتي في مدينته الإمبراطورية فرانكفورت...». وذكر بأن أم الإمبراطور، دوقة اللورين وشقيقة فيليب دورليان الوصي على العرش، كانت قد عطفت عليه، ويأمل ألا يصدر عن جلالته سوى الإحساس بتلك الذكرى. وما إن ينال حريته، بفضل التدخل القادر من جلالته الإمبراطورية، حتى يتوجه إلى فيينا للتحدث إلى جلالته الإمبراطورية في المسائل المتعلقة بعظمته وقدرته. ويعني ذلك بجلاء، أنه ما إن يتخلص من صلته بفريدريك الجاحد، حتى يضع نفسه في خدمة جلالته الإمبراطورية. لقد كان مستعدًا، من بعد أن خدعه ملك بروسيا، لأن يخدع هذا الأخير لمصلحة الإمبراطور. ويبدو الاقتراح باعثًا على الذهول. لكن إذا ما تمثلنا حالة الغم والعصبية التي وجد نفسه فيها، وأزماته المتواترة ما بين السخط والخوف مما يجعله كالمجنون في مواجهة عدو فائق القوة، وعديم الذمة إلى أبعد حد، أضحى في وسعنا أن نعذر رجلًا مطاردًا، مع إدانتنا لتلونه.

لم يكن فزعه خياليًا، إذ جاء أحد سكان فرانكفورت ينذره بأن من حقه تمامًا أن يخاف. فكتب من فوره، وقد جُن جنونه خوفًا، إلى المستشار المخلص

لصاحب الجلالة الإمبراطورية، طالبًا بأن يتكرم بالسماح له بأن يكتب على بابه «السيد دو فولتير، حاجب صاحب الجلالة الإمبراطورية» فيكون قد نجا. كان المسعى جنونيًا. فما الذي يدعو الإمبراطور لأن يهبه ذلك اللقب؟ إنه حصل عليه في فرساي، وفي بوتسدام بعد سنين من العيش في البلاط، وبمساندة قوية جدًا. وكتب في الوقت نفسه إلى آل دارجنتال بنبرة من الاستسلام والتجرد. وربما كان لا يريد إثارة قلقهم بدافع من الود: «يا ملاكي الغالي، على المرء أن يعرف كيف يتألم، لأنه وُلِد من أجل ذلك، إلى حدٍّ ما». فلِمَ لا يطلب العون من فرساي؟ وهل يخشى أن يُساءَ استقبال طلبه؟ إنه في أي حال لا يُجانِب الصواب. فهم لما ينسوا نزواته الحمقاء وسفره ومقارناته المزعجة، وإطراءه المفرط لبوتسدام، حيث يتبين المرء من الهجاء الساخر من فرساي أكثر مما فيها من إطراء لفريدريك.

لكن جاءه عون من شخص السيدة دوني، ابنة أخته، وهو عون معنوي. كانت على علم بكل شيء، فبذلت ما وسعها لدى اللورد كيث، سفير بروسيا في باريس، للعمل على تحرير خالها. كان اللورد كيث، وهو الميلورد مارشال، صديقًا لفولتير في سان سوسي، وقد استقبلته السيدة دوني في باريس، وقدمته إلى مجتمعها. وكان في المستطاع، حسبما كانوا يعتقدون، الاعتماد على دعمه. وقامت الصداقة القوية بين اللورد وفولتير، حين كان فولتير صديق فريدريك، ثم تلاشت تلك الصداقة بالسرعة التي انحدر بها رصيد الشاعر. وكان يتحلى بقدر من الفكر يجعله معجبًا بفكر فولتير، ويستمتع بالمشاركة في الدعوات إلى العشاء، إلا أن تلك المناسبات ألعاب، ليس غير. فهو لم يكن ممن يغامر بذرّة من رصيده في سبيل إنقاذ رجل زالت حظوته. وعلاوة على ذلك، صار اللورد كيث «حساسًا»، وهو روسووي (من أنصار روسو)، فهو إذًا طافح بالمشاعر، والكل يعلم أن «الحساسية الفلسفية»، إذا ما ذرفت الدموع بسخاء، تكون قد أدت شكل السخاء الوحيد الذي تجيده. فلم يخفِ عن السيدة دوني أنها إذا ما رغبت في رؤية خالها ينعم بالحرية، فإن عليه أن يبدأ بإعادة ما يطالب به ملك بروسيا. وتلك بداية لا غبار عليها، لكن ما جاء في رسالته من بعد إلى السيدة دوني تميز بالوقاحة، بل تضمن تلميحًا لا يخلو من خطورة حقيقية. فقال إن على فولتير أن يعيد كل شيء، وبذلك «يتحاشى ملامة الجميع». وأضاف بوصفه رجلًا إيجابيًا جدًا: «عليه القيام بذلك لمصلحته؛ فالملوك ذوو أيدٍ طائلة». وكان فولتير على وشك أن يقيس طول

اليد الملكية، وربما طول حبل المشنقة. أما إذا أصر فولتير على عناده، فإن اللورد يلاحظ أنه جعل أبواب الدول كافة موصدة في وجهه، باستثناء فرنسا، حيث يسعه العيش مع بقائه مطرقًا ساكتًا. وأضاف ليدو مازحًا: «إنه أضحى أكبر سنًا من أن يقصد الصين، ليصير فيها متنفذًا كبيرًا». وحذر قائلًا، في حال عودة فولتير إلى فرنسا وإلقائه بعض الأهاجي بحق «سيدي الملك»، فسوف يكفي ميلورد أن ينطق بكلمة في فرساي، ليُصار إلى نفي الشاعر الحاقد. ذلكم هو الصديق! لكن ليس ذلك كل شيء، فهذا الصديق أديب، وحساس، وبرهن على ذلك بحكاية علينا أن نقرأها، لنُدرك أن فولتير لم يكن يرتعد بفعل الأوهام. كان تنبؤ اللورد كيث شفافًا ومشؤومًا.

«حين وقع الشقاق بين الإسبان الذين غزوا البيرو، كان في كوسكو سيدة، (وددتُ بالأحرى لو كانت شاعرًا من أجل حكايتي) تثور باندفاع ضد بيزارو. وجاء رجل يدعى كرافاخال، من أنصار بيزارو وأصدقاء السيدة، ينصحها بالتخفيف من حدة خطاباتها، لكن ثائرتها ثارت أكثر مما مضى. وبعد أن حاول كرافاخال تهدئتها دونما طائل، قال لها: «أرى، يا عرابتي، أن العمل على إسكات امرأة يتمثل في كتم أنفاسها». وبادر في اللحظة ذاتها إلى التنفيذ فجعلها تتدلى، مشنوقة، من شرفتها».

تلكم هي الحكاية. أما في حال فهمت السيدة دوني حق الفهم أن الشاعر المحتجز في فرانكفورت يمكن أن يؤدي دور العرابة، وأن يقوم فرايتاغ - أو اللورد كيث - بدور كارافاخال، فإن اللورد يضيف تلك الحيطة اللفظية المخادعة: «إن سيدي الملك لم يرتكب قط مثل تلك الشرور، وأتحدى أعداءه أن يذكروا واقعة واحدة». بلى، لكن يبدو أن خدمه المخلصين فكروا في القيام بذلك استجابة لإشارة من «سيدي الملك». ثم يأتي التهديد عنيفًا: «لكن إذا ما تقدم سيد كبير وقوي، وقد أهانته أحاديث خالك، فوجه إليه لكمة، فسوف يستحقه». وسوف يُعتبَر ذلك من فعل القدَر، وحادث سير في أثناء السفر، ولن يكون للملك من علاقة بالأمر، كما حال المستشار «الحساس». و«إني لأغتبط لأنك بعد أن تفكري في ما أكتب لك ستخرجين مقتنعة. فامنعي خالك من ارتكاب الحماقات، لأنه يقوم بها مثلما يقوم بنظم الأشعار».

قيل كل شيء، بما في ذلك اللطافة النهائية التي أُحسن تقديمُها مع أنها مسمومة.

أثارت تلك الرسالة على واقعة فرانكفورت ريحًا جليدية ومشؤومة؛ وهي ريحٌ تسري في الدهاليز المظلمة للسجون، حيث يموت بعض السجناء ميتة مباغتة. وكانت تلك الرسالة من الميلورد مارشال دامغة بالنسبة إلى فريدريك. فالشك الذي جعله يثقل كاهل سيده الملك شك فظيع. وليس مؤكدًا في نهاية المطاف أن تكون تلك النيات قد راودت ذهن فريدريك. أما اليقين الوحيد، فهو أن اللورد كيث عرف تلك النيات وعبّر عنها. ومن غير المؤكد أن يكون نفذها، لكن يبقى أن رسالته تسمح لنا بالظن أنه قبل بتنفيذها دونما اعتراض. وتلكم هي ضروب الاكتشاف التي نقع عليها بعد ورودها بريشة رجل فاضل من تلاميذ جان جاك روسو. وإن ذلك المُريد العاطفي يتصرف تصرف واحد ممن يألفون آل بورجيا.

فضلًا عن ذلك، أوصى اللورد كيث السيدة دوني بعدم عرض رسالته على فولتير (وذلك في الواقع حذر في محله)، وإنما بوعظه بالأفكار التي تضمنتها، على أنها من بنات أفكارها هي. وبعد تلك القراءة المفزعة، وصلت السيدة دوني إلى فرانكفورت، وهي مريضة مثل خالها. وكادا يختنقان ألمًا ساعة لقائهما.

عند انتهائهما من العناق المتكرر والبكاء، صار عليهما التفكير في الأشياء العملية. وأسوأ ما في الأمر هو فقدان العقد الذي وقعه فريدريك لاستلحاق فولتير. وظنت السيدة دوني أنه بحوزتها في فرنسا. لكن أين؟ ومن يسعه العثور عليه؟ ومتى؟ وقرر فولتير إملاء تخليه الحرفي والمطلق عن حقوقه كافة في جميع المهامات والنفقات التي من حقه في بلاط بروسيا. فكانت السيدة دوني هي التي تكتب وفولتير يملي. قام بتقديم كل شيء: الأوراق والقصائد والأغراض والاستعفاء والخضوع. وأضافت أن خالها مشرف على الموت، وأنه لا يرغب في العودة إلى فرنسا إلا ليلفظ النفس الأخير. «إن ذلك القدر من الصدق سوف ينزع السلاح من يد جلالتكم». وذكرت بالصداقة القديمة والأيمان والوعود... وكان في وسعها أن تذكر فريدريك بالرسالة التي كتبها في عام 1750، حين كان راغبًا في إغواء «دانابيه»: «أي عبودية وأي شقاء وأي تغيير وأي تقلقل في مشيئة القدر

يمكن لكَ أن تتخوف منها في بلد يحملون لكَ فيه من الود كما في بلدك، ولدى صديق ذي قلب عارف بالجميل (وا أسفاه! إن القلوب لتتغير!) فماذا؟ ألأنك سوف تعتكف في بيتي سيُقال إن بيتي سيصير سجنًا لك؟ ماذا؟ ألأني صديقك، سوف أغدو طاغية أتحكم بك؟ إني لأعلن لكَ عدم قبولي بذلك المنطق...».

كتبوا إلى الوزير الصديق السيد دارجنسون في فرساي. وهنا تغيرت الطريقة؛ فكوليني هو الذي يمسك بالريشة والسيدة دوني تملي. إنها فقدت القدرة على الكتابة، لقد قاموا بفصدها مرتين، بحسب قولها. أما فولتير فعاجز عن الكلام وعن الكتابة. إنه يتماوت. وهو يدير العملية. وإن كانوا يتصرفون بطريقة دراماتيكية بعض الشيء، فلا بد من التسليم بأن ذلك يقع ضمن نهج المنزل. وبدا بصيص من أمل! فقد وصلت في 18 حزيران/ يونيو 1753، من هامبورغ، البالة التي فيها «الأعمال الشعرية لقصائد معلمي الملك». وقام فولتير من بين الأموات: إنها خاتمة أحزانه.

عاد فرايتاغ ليقتله مرة ثانية؛ إذ لن تُفتح البالة ما دام لم يتلق تعليمات جديدة من «معلمي الملك». وتباطأت برلين. ولما كان فرايتاغ لا يدري كيف يحتوي نفاد صبر سجينه، استدعى فريدندورف الذي عمل ما وسعه لتسميم الجو وهو يقول له: «ليس لك أن تعبأ بنفاد صبر السيد فولتير وبما يجعله يقول، بل عليك أن تواصل على نحو ما بدأت...»، لكن فرايتاغ لا يدري تحديدًا كيف يواصل. لقد وعد سجينه بالحرية مقابل تسليم «القصائد». وها هي! إذًا، فولتير يطالب بحريته. فيرغمونه على الانتظار أكثر، فتثور ثائرته. وهل هنالك من لا تثور ثائرته لو كان مكانه؟ إن ذلك الهدوء الذي التزمه، حتى ذلك الحين، على الرغم من طبيعته الساخطة، إن ذلك الهدوء انتهى، فحلت محله الصرخات وخبط الأرض بالقدم وصفق الأبواب ونوبات عصبية. وما عاد فرايتاغ يدري كيف يخاطب بلغة العقل رجلًا أضحى بلا عقل. فكتب إليه وتملقه وهنأه على تسليمه بالأمر الواقع راجيًا إدامة ذلك حتى الوصول المقبل للبريد من برلين. ماذا؟ الانتظار؟ مواصلة الانتظار؟ إنها مكيدة. وتراءى لفولتير، بما يتميز به من اندفاع خيالي، أنهم ينتظرون من برلين قدوم جلاد لخنقه. أما وأن السيدة دوني أخبرته بقصة ميلورد ماريشال، فيسعنا أن نتبين حالته النفسية. وكتبت السيدة دوني إلى برلين، إلى ذلك الأب دو براد الذي عمل فولتير على توظيفه بالقرب من فريدريك. فقد يتذكر هذا الأخير

شيئًا من حسنات الماضي! وأنهت رسالتها قائلة: «ما كان يساورني الشك قبل ثلاثة أعوام في أن ملك بروسيا هو الذي سيتسبب بموته. واعذرني على ألمي». وما سبق قط لرجل أن «قُتِلَ» على ذلك النحو المتواتر، بالقول أو بالكتابة أو بالفكر، إنما بالباطل. لكن ليس لنا أن نرتاب في أن نية الذين كانوا يتمنون موته، هي نية حقيقية في أغلب الأحيان.

بدت الدراما بلا مخرج، لكن فولتير عثر على مخرج. إنه حل كوميدي: قرر أن يهرب. ولم يكن هنالك ما يدل على ذلك، إلا أن المحاولة أوشكت أن تنجح؛ إذ استأجر كوليني عربة بريد، واتشح فولتير بثوب من المخمل الأسود، وانسل إلى داخل العربة التي أوقفوها أمام فندق آخر. وهيا بنا أيها الحوذي! فنجحا في اجتياز الأبواب، وظنا نفسيهما ناجيين. لم يحملا معهما سوى مقدارٍ ضئيلٍ من الأوراق الثمينة وصندوقٍ صغير مليء بالمال. وأما السيدة دوني والأغراض الثقيلة فتُرِكت بمنزلة رهينة. وجاء جاسوس بعد نصف ساعة ليخبر فرايتاغ بالهروب. وجن جنون ذلك الشقي رعبًا؛ إذ أيقن أنه بفقدان أسيره سوف يفقد منصبه وربما حياته. فبعث على جناح السرعة بسعاة سلكوا الطرق كافة، وجاء بمستشار من البلاط لا يعرف الرحمة، اسمه السيد شميت، وطلب أمرًا بالتوقيف من عمدة المدينة. فرفض هذا الأخير إعطاء الأمر في البداية، فهو تابع للإمبراطور، ثم أذعن في النهاية. وكانت النمسا قد بدأت تطأطئ رأسها. وتم القبض على الهاربين في الوقت الملائم، إذ كانا على وشك مغادرة أراضي فرانكفورت والعبور إلى أراضي ماينتس. فلم تخلُ هذه القضية من تدخل القدر، بتفصيل كالذي يقع في زاديغ أو في كانديد. لقد فقد فولتير دفتره في أثناء عبور المدينة، فعاد أدراجه للبحث عنه. وأضاع على ذلك النحو أربع دقائق، كان أن سلمته تلك الدقائق الأربع إلى يدي سجانه.

لم يستمتع فرايتاغ من فوره بطعم غنيمته، بل أضحى في بدء الأمر ذاهلًا ومرتعبًا مما قال له الهاربان؛ إذ وجد نفسه حيالهما في وضع متـهم، بل في وضع مذنب. وأشار كوليني وفولتير، اللذان كانا يتفاهمان تفاهمًا عجيبًا، بإصبع الاتهام إلى فرايتاغ وقالا علنًا إن فرايتاغ أخذ منهما ألف تالر (Thaler)[17] ليسمح لهما بالهرب. وجّه فولتير الاتهامات، فدعمها كوليني بالبراهين دعمًا وقحًا. لم يسبق

---

(17) اسم عملة ألمانية. ومن هذه الكلمة اشتُق اسم الدولار. (المترجم)

لفرايتاغ النزيه أن رأى سكرتيرًا يكذب كذبًا على تلك الدرجة من الكمال، ففن السكرتير يساوي فن المعلم. وذلك المعلم هو فولتير.

جرت إعادتهما إلى الفندق. وفيما كان فرايتاغ يكد سعيًا وراء الحصول على أمر التوقيف، استغل فولتير الفرصة لإحراق بعض الأوراق. فسعى فرايتاغ إلى معارضة ذلك، وقرر في سبيل أن يراقب سجينه مراقبة أفضل، أن يأتي به إلى بيته بانتظار السماح له بوضعه في السجن. فرفض فولتير، وطلب أن يُصار إلى توقيفه بحسب الأصول، كي يغدو الأمر معروفًا في كل مكان، وكي يتمكن من الهرب كما هو حق كل سجين اعتُقِل اعتقالًا اعتباطيًا. فجن جنون فرايتاغ وأوعز باعتقاله داخل العربة التي أُحيطت بالخفر، وبادر إلى الجلوس بجوار سجينه في سبيل المزيد من الطمأنينة. وبادرت المدينة كلها إلى المرور من أمام العربة فأحس فولتير برضا غريب وهو يُري الشعب أن المندوب السامي لملك بروسيا كان معتقلًا أيضًا كما السجين الذي يتولى حراسته. ولم يكن من شأن ذلك أن يزيد في هيبة فرايتاغ، ولا في هيبة «سيده الملك». لكن في المحصلة، كان فرايتاغ هو الأقوى ولم يكن زهوه بخفي.

كان من نتيجة تلك المنغصات أن صاحب فندق الأسد الذهبي رفض الاستمرار في إيواء نزيل مزعج مثل فولتير. وبعد استنفاد السبُل كافة، اقتادوه إلى عند المستشار شميت. فالشخصية مختلفة والمقام مغاير.

كان السيد شميت قد عارض من قبل أن يذهب مع السيدة دوني. فهي تدافع عن خالها دفاع نـَمِرة، ولم يُخِفها البروسي الرهيب البتة. لقد ردت عليه بجرأة لم يسامحها عليها. أما وهي تتردد إلى صالونات المدينة، داعية إلى حملة صليبية ضد البروسيين، أمر شميت بتوقيفها مثلما أوقف كوليني. وكتب فرايتاغ إلى برلين قائلًا، من غير أن يرف له جفن، إنه جرى توقيف السيدة دوني «لأن من شأنها أن تتسبب بإخفاق قضيتنا». والحق أن هذا الأخير لم يكن ابنًا لمكيافيلي. وتم جمع الأبالسة الثلاثة واحتجازهم في نـُزُلٍ عفن، تحمل لافتته اسم «قرن التيس».

وجد فولتير، وسط ذلك الكم من أحاديث مِملة لا تنتهي، وذهاب وإياب وتنقـل، المناسبة لأداء اسكتش يقع في ما بين المسرحية الهزلية والباليه. وجرى العرض في الصالة الكبرى من منزل المستشار الملكي، شميت. والحضور هم

السيدة شميت - وهي امرأة بروسية طويلة القامة وضخمة، ذات بشرة محمرة - وخادماتها، وكثير من جاراتها ومن الخدم والحوذيين. وكان عرضًا جميلًا. كانت السيدة شميت تعرف فولتير بوصفه متآمرًا وجاسوسًا ومجرمًا حيال الدولة. أما وقد رأت ذلك الرجل الهزيل، رمقته من علياء عظمتها، وعلياء قنطار من الشحم يعلو جسدها، فضبطت نفسها بمشقة عن شتمه. وعرض فرايتاغ أسراه، مبرزًا مزايا قيامه بإلقاء القبض عليهم، ومظهرًا الغنيمة أيضًا. وبدءًا بالمال، قاموا بسرقة فولتير فتقاسموا على مرأى منه مال خزنته، ثم قاموا بتفتيش جيوبه، وجاء أخيرًا دور جواهره. وتوسل إليهم كي يبقوا على علبة تبغه أو على ما فيها من تبغ في أقل تقدير، فهو يعتبره علاجًا له، لكنهم كانوا بلا رحمة، فأخذوا التبغ أيضًا. وأراد كوليني أن يحتج فهددوه بالسجن. وشعر فولتير بعقله يتأرجح في هول تشوش أولئك الحمقى القابلين لأن يغدوا عنيفين وجبناء وجاهلين، وعبيدًا في خدمة طاغية، فيمثلوا كل ما يزدريه. ولمح بابًا نصف مفتوح. فما كان من الرجل الضئيل وشبه الميت إلا أن تسلل منه، فكان أشبه بحرذون في سباته الشتوي، جاءه الدفء فجأة فتسلل بسرعة البرق. فالرجل الضئيل استعاد حركته فوثب وتوارى عبر فتحة الباب. كانت صرخات واضطراب وتدافع. وكانت المرأة الضخمة شميت هي الأسرع، فاندفعت بكتلة لحمها تلاحق الحرذون الصغير، فتهرول وتتأرجح وخادماتها يتبعنها، وإن هي إلا ثلاث خطًى واسعة، حتى ألقت القبض على الهارب. ويا لفولتير المسكين! لقد هرب إلى باحة بلا منفذ، فحوصر وقبض عليه. اقتربت منه النساء الشريرات وحين أوشكن أن يضعن اليد عليه تعاظم بهزاله متهددًا، فكان يؤدي حتى درجة الكمال ذلك الفصل الهزلي المرتجل وسط الدراما، وقال مؤلف ميروب بلهجة ازدراء وتعالٍ:

«ألا يسعني إذًا، أن أستجيب لقضاء حاجات الطبيعة؟».

واستدار صوب الجدار فتظاهر بأنه يبول.

لكن، ولسوء طالعه، لم يتركه معذبوه وشأنه البتة، بل شكلوا حلقة من حوله، ضمن الحد الأدنى من اللياقة. فانحنى حينها، وأسند رأسه إلى الجدار فريسة لأوجاع مفزعة، وانتاب كوليني القلق، فاقترب من سيده. فرآه والعينان تفيضان بالدموع التي لم تكن بفعل هول الموقف، بل ناجمة عن الجهد الذي كان يبذله

ليتقيأ، وهو يدس أصابعه في حلقه. وسأله كوليني وقد انتابه الغم: «أنت إذًا في وضع مؤلم...» فتمتم معلمه الطيب قائلًا بلغة سكابان (الإيطالية): «فينغو، فينغو! (Fingo, fingo)» (إني أتظاهر! إني أتظاهر!). وكان أداء الدور على درجة من الإتقان جعلت الفلورنسي نفسه ينخدع به.

لم يحظَ بأي مكافأة على ذلك الفن كله، فأعادوه إلى قاعة المستشار شميت الذي صاح به قائلًا: «ويلك أيها الشقي، لسوف تلقى معاملة خالية من الشفقة والمداراة».

هنا دخل السيد دورن. لم يؤد هذا إلا دورًا ثانويًا، إلا أنه الأكثر بشاعة. كان كاتبًا بالعدل. ويقول عن فولتير إنه انكسر، مثلما يقول عن فرايتاغ إنه كان في السجن، لكن ليس ما يُثبِت ذلك. فما الداعي إلى إضافة تلك الأكاذيب إلى واقع هو أسود أصلًا؟ إن تلك الأكاذيب تريحه من حقده راحة مجانية. وقد صاح دورن هذا، وهو يصغي إلى حكاية الهروب: «لو أني ألقيت القبض عليه في الطريق، لقتلته رميًا بالرصاص». إنه يمثل الشخصية التي حلم بها اللورد كيث أفضل تمثيل! وقد شاء حسن الحظ أنهم أرسلوه للبحث عن فولتير في اتجاه خاطئ. وقال فرايتاغ نفسه إنه لو لحق بفولتير خارج حدود البلاد، لألهب دماغه برصاصة في رأسه بدلًا من أن يرجع خالي الوفاض أمام «سيدي الملك». وأضاف قائلًا: «كنتُ إلى ذلك الحد حريصًا على الرسائل والكتابات الملكية». وإنها لأيدٍ أمينة، تلك التي تقوم بخدمة فريدريك؛ فسليمان الشمال كان على وشك القيام بتحميل ما يطلق عليه اسم الضمير جريمة قتل صديقته دانابيه.

قدموا إلى فولتير إيصالًا بما سُرِق منه، وجرى تكليف الكاتب بالعدل دورن – ما عسى كاتب بالعدل أن يفعل هنا؟ – باحتجاز الأسرى في «قرن التيس». وكان من نصيب كل واحد ثلاثة خفر يقفون على بابه، وقد ثبت كل واحد الحربة على رأس البندقية. ويقسم فرايتاغ أن فولتير يكذب، وهو يهتف ساخطًا: «ما كان هنالك سوى خفيرَين!». وعبثًا يجأر كوليني بالصراخ قائلًا إنه كان بعيدًا كل البعد عن تلك القضية، وإنه من أتباع الإمبراطور، لكنهم احتجزوه بلطافة. فيقول: «أنا لن أنسى تلك الفظائع أبدًا، حتى لو قُدر لي أن أعيش قرونًا».

لم تحضر السيدة دوني المشهد الأخير، بل ظلت محتجزة في «الأسد

الذهبي»، لكن جرى نقلها إلى «قرن التيس»، بإيعاز من دورن، من أجل تسهيلات أكثر في المراقبة، ولقد فعل ذلك بمهارة كبيرة؛ إذ قدم ذراعه إلى السيدة دوني ليرافقها إلى غرفة خالها. أما وقد اطمأنت إلى سلامة الطريقة، فقد تبعته حتى باب الأسد الذهبي حيث هب ثلاثة جنود، فأمسكوا بها، وجروها إلى «قرن التيس». وظنت المسكينة التي عاشت حتى الآن وهي تنعم بجميع أشكال العيش الهانئ والباذخ، أن ساعتها الأخيرة دنت في مسكن حقير، حيث وجدت سريرًا مقرفًا، وحيث كانت محاطة، وفقًا لما قال فولتير، بـ«أربعة جنود ثبتوا الحراب في رؤوس بنادقهم، وقاموا حيالها مقام ستارة ووصيفة». جلس دورن قبالتها، فاستقدم عشاءً دسمًا مرفقًا بالنبيذ الفاخر. ويضيف فولتير، ليستكمل المغامرة: إن دورن الذي دارت الخمرة برأسه بعد وليمته، سعى لاغتصاب ابنة أخته، لكنه تراجع عن «قصده الإجرامي»، بسبب ما أصابها من هلع وما أطلقت من صراخ حاد. ولن نصدق شيئًا، بل كان على فولتير أن يتخلى عن ذلك التنميق للقصة، لكنه يشكل جزءًا من السيناريو الذي وضعه. فكيف له أن يهمله؟

أخيرًا وصل الجواب من فريدريك: شكر فرايتاغ على حماسته، لكنه دعاه لأن يعيد إلى فولتير حريته. لكن بشرط: ينبغي لفولتير أن يوقـع تعهدًا بعدم الاحتفاظ بأي نسخة من كتابات صاحب الجلالة، وإلا فسوف يدخل السجن بأمر من جلالته في أي بلد كان. وذلك شطط إضافي وسط تلك المخاصمة التي هي نفسها ضرب من الجنون. أما آيات الشكر الموجهة إلى فرايتاغ، فليست على درجة كبيرة من الحرارة، وهنالك ما يبعث على الاعتقاد أنه لو قام هو أو دورن بتحطيم رأس فولتير، فإن رأس كلٍ منهما سيكون مهددًا بالزوال من مكانه. أما العجيب في الأمر فهو أن فريدريكَ لم يطالب من فوره باستعادة كتاب القصائد. فما الداعي إذًا إلى ذلك التوقيف وتلك الأشكال كلها من الاحتجاز والسرقة وسوء المعاملة؟ يبدو أن فريدندورف أظهر حماسةً. والدليل على ذلك أنه حين وجد أن القضية امتدت إلى أوسع مما كان يتوقـع، لم يشأ أن يواصل التدخل فيها، تاركًا فرايتاغ من دون توجيه. ولم يشأ هذا الأخير أن يظهر دون ما يتوقـعون منه، فزاد في العيار قليلًا. أما فريدريك الذي يمكن تشبيهه، من بعض النواحي، بضحيته، فلم يعطِ سوى أوامر شفوية، مفرطة في التسرع، وصادرة عن سورة غضب. كان عليه أن يتابع تلك القضية عن قرب أكبر. وأما حين اهتم، في أواخر حزيران/ يونيو،

وبعد مرور فورة الغضب، بمعرفة ما حل بفولتير، دُهش حين أخبروه بأن فيرجيل الحديث لا يزال سجينًا في فرانكفورت. ومن المسلّم به أنه هو أصل تلك المغامرة المزرية، لكن الذين فسروا أوامره كانوا أسوأ منه، أما أشدهم سوءًا فهو اللورد كيث.

مع ذلك لمّا يسلـَم فولتير من أيدي جلاديه. أرادوا أن يجعلوه يدفع ثمن إطلاق سراحه. فأحضر له فرايتاغ فاتورة نفقات إيوائه، فجعلوه يدفع نفقات إقامته في السجن. ووضعت الفاتورة على نحو يجعل فولتير يدفع كل ما بحوزته من أموال منقولة. ولا بد من القول إن فرايتاغ حرص على عدم إعلام فولتير بأن الملك أمر بإطلاق سراحه، وذلك ما يفسر صيغة الرسالة المهينة التي وجهها فولتير إلى فرايتاغ، بتواضعها وتذللها، اعتقادًا منه أنه لا يزال أسيرًا بين يديه، فكانت نهاية الأسر مساومة خسيسة. وكان دورن يقوم بزيارة السجناء، فبدأ يتحدث إليهم بعذوبة، الأمر الذي أثار ارتيابهم. وذات يوم، دس فولتير لويسة في جيبه، فأضحى دورن مفرطًا في التملـق والمجاملة. أما حين أعطي اثنتين فصار أكثر تذللًا من الخدم في الاصطبلات.

لكن في 25 حزيران/ يونيو 1753، تلقى فرايتاغ رسالة بتوقيع فريدريك فيها أمر بإنهاء المسألة، وجعل فولتير يتوجه إلى بلومبيير فورًا. وكان فرايتاغ قد وجه رسالة إلى الملك قبل ذلك بأيام، فقال إنه ينتظر الجواب على تلك الرسالة قبل تنفيذ ما جاء في رسالة 25 حزيران/ يونيو. وقعد ينتظر.

بدأ التذمر همسًا في المدينة من إفراط فرايتاغ في استخدام السلطة. وبلغت تلك التمتمات أذن فولتير الذي أرسل إلى برلين تقريرًا من طريق عمدة المدينة. وتولى الخوفُ فرايتاغ، فبدأ يتبرأ من الذنب، وأمر بإبعاد الخفر، وقام برد الحوائج. وشعر فولتير بتبدل في اتجاه الرياح. وطلب فرايتاغ وشميت مقابلته، فرفض استقبالهما. وبلغ بهما الشعور بالخطأ ما جعلهما يردان إليه سيفه. وعرضا أن يعيدا إليه أمواله بعد اقتطاع النفقات المعروفة عن إقامته الجبرية. لكنه رفض حسابات اللصوص تلك، وطالب برد المال كله. فبعثوا إليه بالكاتب بالعدل دورن. فقام برد باقي الحساب، بطلاوة لسان ويد ممدودة، مطالبًا ببراءة ذمة باليد الأخرى. فما كان من فولتير، حيال ذلك الشخص الكريه، إلا أن تصرف كما فعل لدى رؤية فان دورين: ارتمى عليه ومسدسه بيده، وصوّبه استعدادًا لقتل ذلك اللئيم.

وتدخل كوليني، فانتزع السلاح من يد سيده، وجره ليحتجزه كالمعتوه، فيغلق عليه الباب في الغرفة المجاورة. ويروي فولتير المشهد بطريقة مغايرة؛ فيقول إن دورن تظاهر فحسب بإحضار المال المسروق في جيوبه وجيوب كوليني، أما في شأن المسدس، فكان وفقًا لوصفه، غير قابل للاستخدام، وليس فيه بارود ولا رصاص.

نشر دورن في كل مكان خبر محاولة القتل التي كاد أن يذهب ضحيتها. وبدأ، على سبيل التعويض عما لحق به، بالاحتفاظ بكل ما اغتُصِب من فولتير: أوراقه الثمينة، وخواتمه، ومحفظة ذات ترصيعات ذهبية، ومقص من الذهب، وشرائط حذاء مرصعة بالماس. إذا كانت محاولة القتل حقيقية، فالسرقة كانت حقيقية أيضًا.

يقول كوليني إن دورن أوشك أن يسقط على السلم فتنكسر عظامه، وهو يهرب من أمام مسدس فولتير، كما أنه يهنئ الكاتب بالعدل على حذره، إذ كاد سلاح فولتير يلهب دماغه بناره.

جعل دورن فولتير يدفع غاليًا ثمن الهلع الشديد الذي تسبب به؛ فقد رفع عليه دعوى، فأرسل فرايتاغ في 6 تموز/ يوليو 1753 تقريرًا إلى الملك يمكن أن نقرأ فيه - مبتسمين أو مستنكرين - أن السيد فولتير أودع «بعض المال» عند فرايتاغ وعند المستشار شميت. ويبدو أمرًا مشروعًا استخدام ذلك المال تعويضًا لزوجة دورن وابنته اللتين ترقدان مريضتين جدًا، نتيجة الانفعال الشديد الذي أصابهما، حين علمتا أن الزوج والأب أوشك أن يلاقي حتفه على يد فولتير. فيا للقلوب الحساسة! وعلينا أن نعترف بأن فريدريك لم يولِ المرأة والفتاة المصدومتين، أدنى أهمية.

كرر فريدريك في الثاني من تموز/ يوليو الأمر بإطلاق سراح فولتير؛ بل إنه لم يُشِر إلى محاولة الهروب التي قام بها فولتير. لا بد من أنها بدت له مضحكة. وكان ذلك الأحمق فرايتاغ يشيع في كل مكان أنه يسعى بكل حماسة لإطلاق سراح سجنائه. وذلك غباء مزدوج؛ إنه يعني أنهم لمّا يُطلَق سراحهم، كما ينبغي أن يكون، وأنهم ما زالوا معتقلين كما ينبغي ألّا يكونوا. وما كان فريدريك ليحرص على ذلك النوع من الدعاية البتة.

أخيرًا وصل في 9 تموز/ يوليو أمر موجز كان ردًا على تقارير فرايتاغ كلها: «لا بد من أنك تلقيت الأوامر بالسماح له بالذهاب أينما يشاء وابنة أخته أيضًا». وذلك يعني: «فاض بي الكيل بسبب صاحبك فولتير وتقاريرك المرهقة».

شعر فرايتاغ بذلك فتولاه القلق، لكن فريدندورف طمأنه؛ فأن يكون فولتير لا يزال محتجزًا ليس بالأمر الجلل، وإذا ما صرخ، فدعه يصرخ. وإذا ما أشار إلى لقبه نبيلًا من بطانة الملك، فاعرض عليه الذهاب إلى فرساي: إن الباستيل بانتظاره هنالك. وإذا ما هدد برفع الشكوى إلى برلين، فكن مطمئنًا، لأن وشاية فولتير لن تضيرك. فنرى هنا أن فريدريك ليس المذنب الأكبر، بل إنه كتب إلى فرايتاغ بأن يرد إلى فولتير ماله كله وحوائجه وأغراضه وأوراقه. ويشاء سوء الطالع أن تصل تلك الرسالة من بعد رحيل فولتير، لم يحمل إلا ما على ظهره. ذلك هو الحساب الختامي لإقامته في بروسيا. لكن هنالك حسابًا آخر.

حساب عملية سيئة

كان للاعتقال في فرانكفورت أثر عميق ومدو في طبع فولتير؛ فهو خرج من مرحلة شبابه على ضرب العصي بيد روهان، ودخل مرحلة الشيخوخة وهو يتعرض لأصناف من سوء المعاملة على يد فرايتاغ والسجانين البروسيين. وتكمن خطورة المسألة في التوقيف الاعتباطي لرجل حر، فوق أرض حرة، على يد عملاء بلد أجنبي. أما بشأن ما تبقى، فهو مختلف كل الاختلاف؛ إنها خصومة بين اثنين من رجال الأدب، من ذوي الحساسية المفرطة وسرعة الانفعال، ومن محبي الانتقام. أما أحدهما، فلسوء طالع الآخر، هو ملك بروسيا! ولدى ممارسة هذا الأخير لعبة الأهاجي الصغيرة والقصائد الساخرة والكلمات اللاذعة، وهي العملة الرائجة للافتراء المكتوب أو المطبوع، قام بحرف لعبة عن مسارها: لقد استل سيفه من غمده، وشهره في وجه شاعر، وفي وجه صديق! سلك «سليمان» هذا إذًا سلوك بيكروشول[18]. وقد يكون معذورًا؛ إذ كان عليه أن يتحمل موبرتوي وفولتير، ثم فولتير من دون موبرتوي، ثم فولتير وغريمه اليهودي، ثم فولتير ولابوميل، ثم فولتير وشموعه وشايه المملح، وإصاباته بالإسهال، وأخيرًا

(18) هو اسم الملك في رواية فرنسوا رابليه غارغانتوا، والذي قاد ضد مملكة مجاورة حربًا عبثية وبلا أسباب مقنعة. (المترجم)

فولتير على الدوام... وفولتير... وليس هناك ما يدعو إلى الشك في أن فولتير كان بالنسبة إلى ذلك الملك، غير قابل للاحتمال ملوكيًا.

إذًا لِمَ كان يتحمله؟ ولِمَ سعى حتى اللحظة الأخير للاحتفاظ به؟ إنما فَعل لأنه لا يستطيع الاستغناء عن فولتير، ولأن فولتير كان بالنسبة إليه يأخذ بمجامع الألباب، بكل معنى الكلمة. وصداقتهما ما كانت صداقة عادية. كان فريدريك على درجة عالية جدًا من وضوح الفكر، فكان يعرف، مثلما فولتير، مما صُنِعت تلك العلاقة العجيبة والمعقدة والمشوشة التي تحافظ عليهما شديدي القرب، أحدهما من الآخر. إنه تشابك من المشاعر والمصالح والأحاسيس العقلانية، إذا ما صح القول، وهي أحاسيس أقرب ما تكون إلى الغل والمكائد، والطبائع المتغيرة كما انعكاسات الحرير الذي أُحكِم نسجُه، وباختصار مثل نزوات صديقينا؛ فكل واحد منهما ذكي ومرهف الحس إلى الحد الأقصى، وموهوب لاقطًا دقيقًا من شأنه التقاط الشكوك كلها، والرسائل الفكرية كافة، وما فيها من غليان الخواطر، ويتمتعان بما يكفي من الخيال لابتكارها عند الضرورة، فتصير دسائس وروائع في بعض الأحيان.

هنالك من ذلك كله في مغامرة فرانكفورت التي هي في مضمونها تصفية حساب، لكن الشيء الأكثر ظهورًا فيها هو الفضيحة. ولم تكن الفضيحة في واقع الأمر إلا حيال فولتير. فهي بالنسبة إلى فريدريك مجرد خلاف، إذ رغب في تلقين الشاعر الوقح درسًا. أما فولتير فقد أراد أن يجعل منها قضية دولة. فهل كان على خطأ؟ لقد جرى اعتقاله ونهبه وتهديده بالموت خنقًا إذا ما بالغ في الصراخ احتجاجًا. أما رجال فريدريك المأجورون الذين وطئوه بأقدامهم، فخلفوه مدموغًا طوال حياته. شعر بأنه هو، فولتير، الذي تتوقع أوروبا المستنيرة كلها صدور نداء رباني، وهو الشهير منذ ثلاثين عامًا، والذي لم يكن نجمًا عابرًا، بل إنه يجسد حضارة قرن، وحضارة الأمم الأكثر غنًى وتقدمًا في العالم. هو، فولتير، لا تتجاوز قيمته قيمة أي وغد يقع بين أيدي عملاء ملك بروسيا. فكان حيال تجلٍ عنيف، ووحي حسي إلى حدٍ ما، بأنه ما من قانون يحميه. إذًا وفي مثل تلك الأحوال، ما قيمة حياة إنسان من عامة الشعب، وقيمة شخصه وممتلكاته؟ وشعر على حين غرة، في قرارة نفسه - وهو حيال عميل من المرتبة الدنيا لملك بروسيا - بأنه على درجة مريعة من الهشاشة، بل ما عاد فردًا: إنه مجرد شيء. وبدا له أيضًا ذلك

الاعتداء في فرانكفورت، أكثر من اعتداء على السيد دو فولتير؛ إنه جريمة ضد الإنسانية.

ذلكم ما عاد به من إقامته في بروسيا: مرارة شنيعة، ومذلة لا تقبل النسيان. وإنه لحملٌ ثقيل.

لكن صفقة فريدريك كانت أكثر ربحًا، فلم يكبده فولتير تكلفة باهظة؛ إذ ما كان له من الناحية الدعائية أن يجد وكيلًا أفضل، وبتكلفة أقل. أما المال الذي أجاد في نقده إياه فتمثل في تلك الترهات والسفاسف التي قبض مقابلها، والتملق الذي نسيَهُ. وتحمل غرور فولتير نفقات الشراكة كافة. كان فولتير يُحِل فريدريك على الدوام في مكانة عالية كيما يرتقي هو نفسه إلى مصافه، فيمجده في الأغلب، فيما كان يحط من شأن الملوك الآخرين ولا سيما مليكه هو. ولقد أجاد لويس الخامس عشر في رده على فولتير المعتقل، بواحد من تلك الردود التي لم تكن بعيدة عن متناوله: «لكن توجه بشكواك إلى ذلك (الملك سيدك الجديد)، ذاك الذي جعلته يُدعى في أوروبا كلها: كاتون، سليمان الشمال، الملك الفيلسوف، نموذج كل عاهل، توجه إليه لتجد تلك العدالة التي اكتشفتها في برلين، والتي لم يكن لها في وطنك من وجود».

إلا أن تلك السنين التي انقضت في المداهنة وعلى موائد العشاء، وفي التصاغر، دونما سبب واضح، وفي القبول بالمذلة عنوة، ما كانت بالنسبة إلى فولتير بالسنين الضائعة، ذلك أنه لا يضيع وقته البتة. فالملك العجوز فولتير سوف يظهر. وسوف يهرب من البلاطات، ومن المدن أيضًا. ولسوف تكون العزلة والعمل خبزه اليومي. وهكذا يكون السيد دو فولتير قد غادر فرانكفورت محبطًا جدًا، لكن الفيلسوف خرج منها متحمسًا وصلبًا.

أعلموه في فرنسا بأن الجميع وقف إلى جانبه في تلك القضية. فهل ذلك الأمر أكيد؟ حتى الرجل الشريف الميلورد مارشال كيث قام بما في وسعه لتكذيب الوشاية التي انتشرت عن توقيف مزعوم لفولتير في فرانكفورت، وقطيعة مزعومة بين «سيدي الملك» والسيد دو فولتير. لقد غادر فولتير فريدريك بمحض إرادته. ألسنا جميعًا نعرف نزواته؟ كان على اللورد كيث هذا أن يُدعى الميلورد المخلص. كذلك رغب «المخلص» فريدندورف في إقناع السيدة دوني بأنه ما من أحد في العالم يحب فولتير مثله هو، وما من أحد بذل مثل ما بذل هو في سبيل

خدمته، وأن كل ما حصل لم يحصل إلا بأمر قطعي من الملك. إنه لأمر مدهش! إذ بحوزتنا الرسائل التي بعث بها هؤلاء وأولئك، فأي تناغم من الأكاذيب هو ذلك؟! فالجميع يكذب على الجميع، وتلك هي الحقيقة الوحيدة في ذلك المطبخ، مطبخ الساحرة. وعلى العموم، فما من أحد قام بتوقيف فولتير، وفريدريك يحبه كحاله في أجمل الأيام، فيا لها من معجزة! ولقد خرج فرايتاغ من القضية بريئًا ولطيفًا وناثحًا. فيا له من رجل مسكين!

شعرت السيدة دوني بدوار يستولي عليها؛ إذ يقع لها أحيانًا أن تكذب، لكنه كذب بُنَيّة صغيرة حيال أولئك الموهوبين بالنفاق والرياء. رجعت بحالة من البلبلة من مغامرتها في فرانكفورت، فوجدت شيئًا من العزاء لدى جمهور أحس، كما يقال، بالمهانة لرؤية تلك الخسة وذلك الكذب في تزييف الوقائع. أما وأنها لا تزال متألمة، فقد أراحتها مواساة الباريسيين الذين وقفوا مدافعين عن فولتير دفاعًا حارًا. ويقال إن الأحزان الكبرى يمكنها في بعض الأحيان أن تُلهِم كبار الحمقاوات أفكارًا نيّرة، وها هي ذي السيدة دوني تتوجه إلى خالها بالفكرة الآتية: «من الخير لنا أن نلزم جانب الصمت، فالجمهور يتكلم بما فيه الكفاية».

والتزما بتلك النصيحة، وحسنًا فعلا.

كان فريدريك في قرارة نفسه أقل صفاء. فكتب إلى شقيقته في بايروت، ومن بعد إلى الميلورد المخلص، ليعرب عن عميق أسفه على قضية عنيفة، كانت في نهاية المطاف بلا فائدة. وإذا ما كان لنا أن نستخدم هذه الكلمة في الحديث عن مشاعر واحد مثل فريدريك الثاني فسوف نقول: إنه نادم.

لئن ندم فقد فعل حسنًا. فلا مجده الأكيد، ولا عظمته الراسخة، يمكن أن يحلا تمامًا في حياة فريدريك القاحلة محل حضور فولتير وصداقته. وكان يزهو بأنه الرجل الذي يفهم فولتير أفضل من أي كان. وكان في وسع فولتير أن يقول إن تلميذه الأكثر وفاءً، والأكثر إخاءً، هو الملك الأكثر تألقًا في ذلك العصر. ولسوف يظل فريدريك يحن طوال عمره إلى الجلوس إلى موائد العشاء في سان سوسي، وإلى ذلك الفيض المفرط في الذكاء. أما فولتير الذي كان يجتر غيظه، فلن ينسى أبدًا ذلك الملك الذي بادر ذات مساء بالنهوض عن المائدة، على أثر غمرة من تألق باهر من فولتير، فقبل يده. لقد جرى بينهما – وكان على نحو دائم بينهما – تفاهم مكتوم، هو نوع من مغنطة الذكاء التي كانت تجتذبهما فتصل بينهما، على

الرغم من ألوان الغيرة والمحاباة كافة، وعلى الرغم من حساسيات أي نوع من التآخي، سواء أكانت من طريق القرابة أم من طريق الفكر.

شبه لقاء مع الوطن

غادر فولتير والسيدة دوني فرانكفورت في السادس من تموز/ يوليو 1753، فوصلا في السابع منه إلى ماينتس. وكان ذلك أشبه بنصر صغير. بدأت رينانيا كلها تحتفل لجعلهما ينسيان الامتهان الذي تعرضا له في فرانكفورت. تلك كانت ألمانيا الطيبة الغالية على قلب فولتير. هناك استسلم للمواساة، وتبادل كثيرًا من القبلات، ولم يكن يلزمه أكثر من ذلك للوثوب اغتباطًا: فها هو مرح، يفيض بالإطراء الرقيق حيال الجميع، ويتألق ضاحكًا. أمضى في ملاذ الرحمة ذاك ثلاثة أسابيع، من أجل أن يجفف، بحسب ما قال «ثيابه المبللة بسبب غرق السفينة». وها هو يعمل! لقد حققت حوليات الإمبراطورية تقدمًا ملحوظًا جدًا، فكتب إلى الدوقة الغالية على قلبه: «ليس النقص هنا في موسيقى القداديس الجميلة، لكن لا وجود لدوقة غوتا». وفي 28 تموز/ يوليو كان في طريقه إلى مانهايم، فأقام في نزل في فورمس، وتسلى بالتظاهر بأنه إيطالي أمام صاحب النزل الذي كان يتكلم لغة توسكانيا؛ وذلك دليل على أنه كان يجيد الإيطالية. وتزودنا بعض رسائل السيدة دوني ببرهان آخر، مفاده أنه قص في أثناء العشاء مئات الحكايات الحافلة بما هب ودب، والتي جعلت جميع من على المائدة يموتون ضحكًا كما يُقال. فذلكم هو فولتير: بالأمس كان يُعاني سكرات الموت في فرانكفورت، واليوم يُضحِك نزلًا بكل من فيه. إنه في التاسعة والخمسين من العمر، لكنه بطبعه في الثامنة عشرة، وأما بمظهره الجسدي ففي السبعين.

كان له في مانهايم نصر آخر؛ إذ غمره الأمير الجرماني بالاحتفالات وحفلات الأوبرا والمسرحيات الكوميدية. كان ذلك البلاط من أكثر بلاطات ألمانيا ثقافة ولطافة فشعر فولتير بأنه في بيته، وبأنه يعوم فوق بحر من الهناء، وليست هنالك من نهاية للعناق والانتشاء بالكلام الجميل والنبيذ الفاخر. ووضع الأمير تحت تصرف الشاعر محتويات أرشيفه الغنية التي أثرت الحوليات، ما جعل الكاتب يغتبط في رسالة بعث بها على الفور إلى دوقة غوتا، وبدأ في تلك الواحة من السلام واللباقة والذكاء، بصوغ فكرة عمل جديد، هو الأول منذ مغادرته فرنسا. فبروسيا لم تلهمه

شيئًا، وكتب إلى دارجنتال يقول: «تمثلت ملاطفة الأمير حيالي بالعمل على عرض أربع من مسرحياتي. وأدى ذلك إلى إحياء قريحتي العجوز، فباشرت وأنا أكاد ألفظ أنفاسي (أيضًا!) رسم مخطط لمسرحية جديدة طافحة بالعشق، وأنا أشعر بالخجل من ذلك، فهو سروح فكرٍ مجنونٍ عجوز».

من المسلم به أن تكون تلك المسرحية تراجيديا، وهي تراجيديا فاتنة سعت لأن تكون رهيبة، لكن الرعب لا يلائمها، وسعت لأن تكون طافحة بالعشق الذي يتألق ولا يُحرِق. إنها مرصعة في المقابل بومضات فكرية تتصل بالأوبريت والكوميديا الاجتماعية، وهي مكتوبة على وجه الخصوص بقلم فولتير، وعلى أفضل وجه، فهي تبرق من كل جانب. إنها مسرحية *L'Orphelin de la Chine* (يتيم الصين). كانت تلك مساهمة شاعرنا في الميل إلى التحف الصينية على نحو ما شاع في عصره: هنالك الذين كانوا يصورون «قرودًا» على الخزف والبورسلان، وآخرون يصورونها على أستار البرنيق الصيني، أما فولتير فجاءت علاقته بتلك الدرجة الصينية عبر تراجيديا استوحاها من ذكريات مبشر في الصين، هو الأب بريمار. فرغب فولتير، على ذلك النحو، في وضع «تحفته الصينية» على رفوف الأدب، وهي شبيهة بالصين على قدر ما تشبه السيدة دو بومبادور أحد أعيان الصين.

وصل فولتير في 16 آب/ أغسطس إلى ستراسبورغ، من بعد أن انتزع نفسه انتزاعًا من دار النعيم التي أحله فيها أمير البلاط، فحل في نزل هزيل يقع في حي متواضع. وإنه لأمر مفهوم أن تعلو أصوات متنافرة تقول: «أي بخلٍ هذا! حين يدفع من جيبه، يحل في مساكن حقيرة، وحين يدعونه، يحل في القصور». لكن سوء النية هنا لم يكن مصيبًا؛ إذ توقف في ذلك النزل الفقير بدافع من الطيبة الخالصة، والتقى لدى توقفه في إحدى المراحل، خادمًا شابًا أبدى كثيرًا من الود وحسن المبادرة حيال السيدة دوني، ومن أجل ذلك سأله، فعرف أنه من ستراسبورغ، وأن أباه يدير فيها نزلًا قليل الازدهار، اسمه «الدب الأبيض». توسل الشاب إلى فولتير أن يذهب لرؤية أبيه، فوعده الشاعر بالنزول في «الدب الأبيض»، تعبيرًا منه عن عرفانه حيال الابن الصالح. يقوم فولتير بالدعاية لنزل الأب، على حساب راحته وربما صحته أيضًا. إن محبة ذلك الشاب لأبيه أثرت في نفس فولتير، فوفى بوعده، لكنه لم يقوَ على المكوث في «الدب الأبيض» سوى بضعة أيام.

التقى في ستراسبورغ كثيرًا من الأشخاص الذين كان على علاقات معهم بالمراسلة، وأينما حل فولتير، كان يشهد على الفور مجتمعًا صديقًا يحف به، وعلى الفور أيضًا تقريبًا، مجتمعًا معاديًا. وكان من بين الأصدقاء، العلامة شويفلن الذي حمل مهمة مراجعة ملاحظات فولتير عن حوليات الإمبراطورية. فهنا أيضًا، يزداد فولتير علمًا ويعمل، وينشط، فيما هو يسلي الذين في محيطه: إن عمله أشبه بلعِب الأطفال، فهو متواصل ومغنٍ ويسير، ولا ريب في أنه بسبب ذلك، لا يرهق كاهله.

إنه يجوب الألزاس ذهابًا وإيابًا: فهو يسعى وراء مأوى، ويشعر بالحاجة إلى الاستقرار. فما عاد لديه مقر منذ سيري، وطفح به الكيل من استضافاته لدى الأمراء أو الملوك أو في الدوقيات. إنه يريد سقفًا خاصًا به، ولا يريد الإقامات الموقتة، حتى تحت الزخارف الذهبية، وذلك هو الشيء الجديد الذي جاء به من بروسيا وفرانكفورت.

كان يسعى لشراء ملكية، فيها قصر لائق وجميل ومحاط بمجال ثري. والحق أنه كانت في هوربرغ أرض جميلة جدًا تعود إلى دوق فورتنبرغ، وقد أخذ في مقابل رهنها قرضًا مدى الحياة، علمًا أن لديه هو نقطة ضعف حيال القروض الحياتية؛ فالدوق دو فورتنبرغ لم يكن يسدد السندات بانتظام، بل كان مدينًا صعب المعاملة، ولا بد من الصبر... وكان صبر فولتير مع مدينيه صبرًا مدهشًا، فمن عساه يصدق ذلك، وكان مكلِفًا. ذهب في نهاية المطاف لزيارة الملكية التي وُضِعت ضمانة للمبلغ الضخم الذي أقرضه للدوق. كانت هنالك كروم، وهي كروم مدهشة، وقصر ضخم ومهيب، ومهدم تقريبًا، لكن فولتير علم أن خصوصية تلك الملكية أنها موضوعُ دعوى مرفوعة على الدوق، فجعله ذلك شديد الحذر، وقال: «لن أتوجه لبناء مصح تكون دعوى قضائية أساسًا له». وهكذا نرى أن السيد أرويه الأب لم يمت تمامًا.

جار خطر، ومرارات وكوميديا تنتهك الحرمات

سوف يستقر في كولمار، فيتفقد النواحي المجاورة، ويهتم لفترة قصيرة بصناعة الورق في المنطقة، ويحترس من تواطؤ صغير قام به اليسوعيون الذين رغبوا في جعله يغادر الألزاس مطرودًا. فها هي الجماعة المعادية تتحرك،

والعداوات المشتتة تتبلور فور ظهوره، والهدوء الذي نعم به لدى عودته انتهى، لأن الحرب سوف تُستأنف.

ألسنا نرى ناشرًا في لاهاي، اسمه نيولم، قد طبع ووزع دونما علم من فولتير، كتابه موجز التاريخ الكوني الذي ظل مخطوطًا منذ عام 1740؟ فمن الذي سلّم المخطوط إلى الناشر؟ كان هنالك ست مخطوطات، إحداها بين يدي فريدريك، وكانت ناقصة، ومليئة بالأخطاء وخطوط الشطب العنيفة والخشنة. تلك هي المخطوطة التي طُبِعت. لقد سُرِقت على إثر هزيمة سوهر في عام 1745 مع حوائج فريدريك الذي أخلى الساحة سريعًا، ثم وقع بين يدي وصيف عند شارل دو لورين، فباعه الوصيف من نيولم. وجاء النشر في وقت غير ملائم، لأن فرساي ما زالت تبدي الجفاء لفولتير. وحرص، إثر رجوعه من ألمانيا، على عدم التوجه إلى باريس، بل ظل على التخوم... وحرصًا من الوزارة في فرساي على القيام بمبادرة طيبة حيال فريدريك، وهي أبعد ما تكون عن مساندة فولتير، قامت بمنعه من دخول باريس. ويصف دارجنسون ذلك بقوله: إن البلاط الذي كان يريد أن يغيظ فريدريك في الشؤون الكبرى اختار إرضاءه في شأن صغير، فكان فولتير ذلك «الشأن الصغير»!

أما طبعته موجز التاريخ الكوني فكانت شائنة، لأن فولتير لم يقم بمراجعتها من جهة، ولأنها كانت مزيفة من جهة أخرى، فلا يسع الكنيسة أن تقبل بما تضمّن النص من امتهان بحقها، وما كان الملوك بأفضل مقاربةً من الكنيسة.

كانت السيدة دوني تتلقى الرسالة تلو الرسالة من خالها الذي يحثها على أن تتوسل إلى الوزراء، وتلح على الأصدقاء من ذوي النفوذ للعمل على منع ذلك الموجز الذي لم يكن من تأليفه، وكان عليها أن تحصل على الفور على ملاحقات قانونية وعقوبات بحق الناشر وأصحاب المكتبات وحتى القراء. لكن السيدة دوني المنشغلة بهموم أخرى أو المرهقة بسبب تلك المساعي لم تحصل على شيء البتة، واغتاظ فولتير لأن ابنة الأخت التي لم تنل شيئًا من الوزراء، كانت تجيد سحب مبالغ باهظة من المصارف باسم الخال لتنفقها على مباهجها الصغيرة؛ إذ كانت تتخيل أن عليها الظهور بمظهر دوقة من الدوقات، لأنها «ابنة الأخت». فحملت ملاحظات الخال على محمل سيئ، وردّت عليه قائلة بكل عنف: «إن

البخل يُعمِل فيك طعنًا»، ثم شطبت تلك العبارة التي لا تزال مقروءة واستبدلت بها القول: «إن حب المال يقض مضجعك». ثم أثبتت له، مثلما هو منتظَر منها، أنها لم تقم بتلك النفقات الضخمة إلا لمصلحة الخال: إنها تقوم بالتمهيد لرجوعه إلى باريس. فمن يسعه أن يرتاب في أنها أنفقت ذلك المال كله على نفسها؟ والحال أن السيدة دوني كانت تعرف، أكثر من أي كان، أن دخول باريس محظور على خالها، وكان الملك نفسه قد عبّر عن الرغبة في بقاء فولتير على الحدود أطول مدة ممكنة. وأنهت السيدة دوني تلك الرسالة الأليمة بالعبارة الآتية: «لا ترغمني على أن أكرهك، فأنت آخر الناس من طرف الرحمة، ولسوف أخفي آثام قلبك ما استطعت إلى ذلك سبيلًا».

لولا أن في قلب فولتير شيئًا من الرحمة، لكلفت تلك الرسالة ابنة الأخت قطيعة نهائية. وواصلت إحراجه، مع الإضرار بشقيقتها، السيدة دو فونتين دورنوا التي كانت مثلها هي «ابنة أخت» مع مزيد من التميز عليها.

كان فولتير تعيسًا جدًا بسبب ذلك الخروج، ولم يبح بغمه إلا لدارجنتال، إذ أخفاه عن الآخرين، مثلما أخفى غلطة السيدة دوني. وكان يقول: «إنها تكاد تلفظ أنفاسها بسبب أصناف التعنيف التي تعرضت لها في فرانكفورت»، لكن مضى ما يكفي من وقت لتنساها. أما هو فلا ينسى الغم الذي سببته له فكتب يقول: «كنت أفضل لو تم فصلي عن الجماعة على أن أتلقى ظلم ابنة أخت كانت في مقام ابنتي فأضافت إلى شقائي شقاء».

لا يسع ذلك الغم الذي يبدو لنا حقيقيًا أن يُضلنا عن طبيعته الحقيقية، فابنة الأخت تلك التي «كانت تقوم مقام ابنته» سوف تبدو لنا «الابنة» الأكثر غرابة في العالم حين نكتشف سر ترابطهما.

ماذا فعل؟ لقد طأطأ رأسه، ذلك أنه، حيال الذين يحبهم، أعزل من كل سلاح. فهو غفر، وهي انتصرت. أسرعت مجددًا إلى أصحاب المصارف، فشكرها على المال الذي سحبته باسمه.

لكنه كان شديد الرغبة في رؤية باريس مجددًا! وإن وقتًا قصيرًا ليكفيه، لكنه أحيط علمًا بأنه تحت المراقبة. ولئن كانت أقواله وكتاباته ومساعيه تصدُر

عن مواطن صالح، فإن حسن التفات من وزير، وصداقة المتنفذين، ربما يأتيانه بإذن الرجوع. نحن في آذار/ مارس 1754، وهنالك من يراقبه في كولمار أيضًا، حيث يقيم مع كوليني. اقترب الفصح، فهل سيقوم بواجباته بوصفه مسيحيًا وابنًا خاضعًا للكنيسة؟ نصحه أصدقاؤه بأن هنالك من ينتظره عند ذلك المنعطف، وهو يعرف ما عليه أن يعمل. ذات يوم سأل كوليني، بلهجة لامبالية، إن كان سيحتفل[19] بعيد الفصح، فقال له كوليني إنه ينوي ذلك، فأجابه فولتير، وكأنما الرغبة راودته أيضًا: «لا بأس، ولسوف نحتفل به معًا». وجرى استدعاء كاهن كبوشي، تولى أمر استعداداتهما في المنزل، فتوارى كوليني عن الأنظار في أثناء إصغاء الكاهن إلى اعتراف سيده. وفي اليوم التالي توجه الاثنان معًا إلى مائدة القربان المقدس، وثار فضول كوليني لرؤية سلوك سيده أكثر منه لقدسية تقواه، وطلب المغفرة من ربه بسبب ذلك التلهي، لكن ذلك لم يمنعه من التظاهر برفع نظره إلى السماء لحظة تقدم فولتير لتناول القربان المقدس، ليباغت وجه الملحد في تلك اللحظة الانفعالية، فكتب كوليني يقول: «مد لسانه قليلًا، وحدق بعينين مفتوحتين في وجه الكاهن، وإني لأعرف تلك النظرات»، ونحن نعرف أيضًا. وما لم يكن الكاهن المسكين غبيًا، فإنه شعر دونما ريب، وتلك النظرات المتطايرة شررًا تحدق فيه، بارتعاش يده التي كانت تحمل قطعة القربان.

أرسل فولتير إلى الكبوشي، في معرض شكره وعرفانه، اثنتي عشرة زجاجة نبيذ، وفتيلة من لحم عجل.

روت الألسنة الطيبة في باريس أنها تلقت نبأ سعيدًا من كولمار: فولتير قام بمناولته الأولى.

كان في الستين من عمره، فكان يسعه أن يقول: «إن باريس تستحق تناول القربان»، لكنه قال ما هو أسوأ: «يسعني أن أدرك ذهاب الشيطان إلى القداس حين يكون في أرض تابعة للبابوية مثل نانسي أو كولمار» (قال ذلك للمركيز دارجان).

---

(19) كان الاستعداد للفصح آنذاك من الشعائر السنوية الإلزامية، وكان لا بد لكل مؤمن من القيام بها قبل عيد الفصح بأسبوع في الأقل، فكان عليه التوجه إلى كرسي الاعتراف، ثم تناول القربان. ومن لا يلتزم بذلك الطقس السنوي، يُصنف زنديقًا، فلا يُصلى عليه بعد موته ولا يُدفَن في المقبرة، بل ترمى جثته في مكبات القمامة!. (المترجم)

أما إلى دارجنتال، فكتب يقول: «لو كان بإمرتي مئة ألف رجل، لعرفت تمامًا ما ينبغي أن أفعل، أما وأني من دون تلك الإمرة، فلسوف أتناول القربان في الفصح، وأنت ستطلق علي لقب مراءٍ على قدر ما تشاء».

كرر، بعد عشرين عامًا، تلك الكوميديا التدنيسية التي أصابت دالامبير بصدمة. ولسوف يكتب إلى الصديق الذي لامه على تلك التساهلات: «ماذا على الحكماء أن يفعلوا حين يكونون محاطين بأعداء من البرابرة؟ هنالك أوقات عليك فيها أن تقلد حركاتهم البهلوانية وتتكلم لغتهم... وهنالك أناس يخشون مقاربة العناكب، وآخرون يبتلعونها». إن الفكرة هي فكرة مونتاين لكن اللهجة أقسى. والقسوة سوف تزداد، وصدمة فرانكفورت ليست ببعيدة عن تلك القسوة، أما أشكال الظلم الحديثة، على الرغم من خفتها في كولمار، فهي غير مسوغة مثل سابقاتها. ففي ما مضى كان يصرخ ألمًا، أما من بعد فسوف يصرخ حقدًا. والتعصب يولد تعصبًا جديدًا وبشكل مغاير. وحين سأله سكرتيره فانيير عما كان سيفعل ليعيش لو كان في إسبانيا، تحت أنظار محاكم التفتيش ومخالبها، أجاب قائلًا: «كنت حملت سبحة طويلة، وكنت سأتوجه إلى القداس كل يوم، فأقبل أكمام الرهبان كلهم، وأنا أسعى إلى إشعال نار الحرائق في الأديرة كلها».

إنه لأمر فظيع، لكن هل نعلم أنه وهو يعيش مطمئنًا في كولمار، كان المونسنيور دو بورنتروي، أسقف بال، يعظ ضده، ويقول إن عليه أن يكتب إلى الأب مينو معلم اعتراف ستانيسلاس راجيًا وقف تلك الهجمات. وإن ذلك الاضطهاد ليضاف إلى موقف فرساي، وإلى الذكرى المريرة عن شتائم فرانكفورت، وإلى عدم استقامة ابنة أخته وشحها، وما كان يحيط بالأشياء كافة علمًا...

من المسلم به أن فولتير لم يؤد دورًا مشرفًا، حين تقدم في ذلك اليوم من فصح عام 1754، لتناول القربان المقدس، أو لأداء دور كوميدي. أما تحت سلطة الأسقف دو بورنتروي، فكم عدد أولئك الذين يعاملون فولتير من علٍ، لكنهم سبقوه إلى كرسي الاعتراف؟

هل نعرف أن الأسقف بورنتروي الذي تقع كولمار - وفولتير - تحت سلطته

الرعوية، قد حكم في عام 1735 بالإعدام على أحد الصاغة، لأنه تجرأ فطالب بإعادة النظر في مجموع أنظمة جمعيته المهنية؟ وكان الإجراء المعمول به يقضي بأن يُصار أولًا إلى ثقب لسانه، لكن الأسقف الطيب وفر عليه ذلك الإجراء الشكلي، مكتفيًا بإرساله إلى المقصلة لقطع رأسه، وإنا لنعتقد أننا نسمع حكاية من القرن الثاني عشر.

برهن فولتير على أنه ليس بطلًا ولا شهيدًا، وإنما في وسعه أن يكون إنسانًا مستقيمًا وشجاعًا في بعض الأحيان. والحق أنه لم يكن مخدوعًا بشيء، ولا سيما بنفسه وتشنجات قسماته أو بحماقاته. وفي أثناء رحلته إلى ساكس، قبل ذلك التاريخ بأعوام، أصيب بتشنجات قولنج عنيفة جدًا ظن معها أنه هالك لا محالة، والأمر في هذه المرة صادق جدًا، فأمر على نحو مباغت باستدعاء كاهن، فاعترف وتلقى الأسرار، وعاد إلى الحياة؛ إنها القاعدة. وبعد أن استعاد أنفاسه، قال لسكرتيره السيد دييز الذي كان مذهولًا باحتضاره، على قدر ذهوله بتناوله الأسرار ثم عودته إلى الحياة: «لقد كنتَ شاهدًا، يا صاحبي، على ضعف الإنسان».

- علينا، باسم ذلك الضعف البشري، وذلك الصدق، وباسم عظمة الإنسان التي قوامها الضعف وصفاء الذهن، أن نغفر له.

الراهب البندكتي الطيب مخدوع
فريدريك يقوم بإشارات، فيأتيه الرد

أضحت كولمار، وفقًا لما يقول عنها، مقامًا لرجل معتزل في بيته، بموجب ما حكم به عليه طبيبه السيد جيرفازي، لأن مياه بلومبيير كانت كما يبدو ضارة بالنسبة إليه. وقد ارتأى طبيب فولتير أنه مصاب بالاستسقاء! ويبدو أنها حالة استسقاء شديدة الجفاف، فأين يكون ذلك الرجل المسكين الذي غدا جلدًا على عظم، قد أخفى ماء هيكله؟ كتب فولتير إلى دارجنتال قائلًا: «ارتأى جيرفازي أن المياه غير ملائمة لعلاج المياه، فحكم عليّ بالاعتزال في البيت. لقد حُكِم عليّ مرات عدة في حياتي بالاعتزال كالدويبات تحت الحجارة».

أما وقد عزم آل دارجنتال على المجيء إلى بلومبيير، نسي فولتير الاستسقاء على الفور، وأعلن استعداده للاستمتاع، إن لم يكن بمياه بلومبيير، فبهوائها، وهو

بصحبة «ملائكة». «يا ملاكي، بلومبيير مكان مقيت، والإقامة فيها مزرية، لكنها ستكون في نظري حديقة أرميد».

لسوف تأتي السيدة دوني أيضًا لتدل على عودتها إلى حظيرة النعمة. وفي 8 آب/ أغسطس 1754، غادر فولتير وحده كولمار، تاركًا كوليني يشرف على طباعة حوليات الإمبراطورية.

قام باستراحة وهو في الطريق عند البندكتيين في سينون، حيث التقى بالعزيز دوم كالفيه. فمنذ خروجه من سيري، والرغبة تحدوه للانعزال في سينون، وكان توقفه فيها توقفًا سعيدًا وفر عليه الالتقاء بموبرتوي الذي كان آنذاك في بلومبيير. وها هو الشيطان يغدو راهبًا، وإننا لنراه - إذ ليس في حاجة إلى أداء الكوميديا، فهو التمثيل كله - رجل الدين هذا، والمعادي للدين، هذا الكاثوليكي، المغرق في الكاثوليكية والتمرد، نراه أخيرًا في بيته. إنه يستنشق هواء طفولته المجدة، هواء أسرته الحقيقية: أسرة مدرسة لوي لو غران. وملأته المكتبة بالغبطة: إنها في مثل غنى مكتبة سان جرمان دي بريه! إن التقشف في غرفة الطعام، ونقاوتها، وكلام الرهبان التقي والنقي والفصيح، كلها تثير شغفه، والنظام والعمل والسكينة والعذوبة: ذلك هو مثله الأعلى الذي وجده في سينون. فقال إنه عاش عيشة عذوبة، ولم يقل عيشة تقوى، فليس هناك من يحاسبه على تقواه.

لم يتوانوا في صفوف الإلحاد عن الكلام بسخرية على تلك العزلة التقية. لكن ليطمئنوا، ففولتير لم يغدر بالقضية، بل ربما يكون غدر بالبندكتيين الصالحين، ويقول: إنه لم يبحث في المكتبة عن «صلوات الغسق ولا صلوات السحَر»، بل عن عناصر المقالات اللادينية التي كتبها لمصلحة الموسوعة في أثناء إقامته عند البندكتيين. وكتب إلى دوقة غوتا التي عَجِبت لرؤيته يرتدي ثوب القديس بِنوا قائلًا: «إنها لخدعة حربية ذكية أن يذهب المرء إلى عند أعدائه ليتجهز بمدفعية يصوبها نحوهم».

كتب له فريدريك عبر الأب دو براد، في حين لم يقطع فولتير لم يقطع صلاتِه التراسلية، بل واصل المطالبة بتعويضات عن الأضرار التي تكبدها في فرانكفورت. ورأى فريدريك الفرصة مواتية ليرد عليه بأن من شأن تقواه الجديدة أن تجعله ينسى

تلك المسألة القديمة، كما سأله بمكر - والمراسلة دائمًا بالوساطة - عن أخبار الصليب الذي تدلى كما يبدو، على صدر فولتير في أثناء عزلته التقية. وثارت ثائرة فولتير وهو يتساءل كيف أمكن فريدريك أن يعرف ذلك التفصيل الحقيقي، ولم يجد من ردٍ أفضل من صر ذلك الصليب وإرساله إلى فريدريك. وكان من شأن تلك الهدية أن تخلف في نفس الصديق المقيم في بوتسدام الأثر عينه في ما لو جرى تغطيسه في جرن للمعمودية. وهكذا فإن لدى سادة الإلحاد أولئك لفتات ذكية للبرهان على جحودهم.

نرى أن القطيعة لم تكن تامة بين الصديقين المتواطئين، لكن المدهش أكثر هو المراقبة اليقظة التي كان فريدريك يمارسها على شريكه، وهي يقظة تتسبب في أشكال من الإغاظة، وأشكال لاذعة من التظارف، ومنها واقعة الصليب على سبيل المثال. وكان فريدريك يشعر بالملل، فكتب إلى دارجيه قائلًا: «النقرس داء عضال، لكن المرض بالوسواس هو أسوأ الأمراض كلها. لقد أبهجتَني حين زودتَني بأخبار باريس وأخبار الشاعر. إن طبعه ليعزيني عن الأسف الذي يتولاني بسبب فكره، وأنا أكثر عزلة مما كنت أتمنى».

منذ رحيل فولتير، ما عاد يسمع كلامًا روحانيًا مرهفًا، ولم يقل شيئًا يروقه، ولم يضحك مرة واحدة.

أما فولتير، فهو يتملق بالوساطة، حتى لو بدا الأمر لا يقبل التصديق، فيقع له أن يضرع في مذلة وصغار حيال الأب دو براد أو المارغراف دو بايروت، وليس ذلك سعيًا وراء المتعة، بل وراء المصلحة. فهو بات يعرف أن نبوءات الميلورد ماريشال القاسية حقيقية، وأن السماح له بالرجوع إلى باريس لن يأتيه إلا عبر سفير بروسيا، ولن تعود إليه الحظوة ما لم يقم فريدريك باستدعائه إلى فرساي. أما وأنه يكاد يموت لعجزه عن لقاء باريس، فأمر يجعله يتصاغر على قدر ما يستطيع ليحصل على كلمة السر من فريدريك الذي كان يتسلى بتلك المسرحية. وكان الشيء الوحيد الذي يسلّي فريدريك آنذاك، هو قراءة رسائل فولتير وموبرتوي؛ إذ يواصل كل منهما الدفاع عن قضيته وتمريغ الآخر في الوحل. وقد دفع ذلك الفيض من الشتائم بفريدريك إلى القول: «إنهما يعتبران أني قناة صرف صحي يفرغان فيها أقذارهما». وليس هنالك ما يفضل ذلك القول.

يقول فريدريك عن فولتير: «إن قراءته ممتعة أما معاشرته فخطرة». فلِمَ إذًا توسل إليه كثيرًا كي يأتي، وحتى كي يبقى؟ إن لهجة فريدريك لهجة شجَن وليست لهجة حقد؛ فالحنين يتجلى في ما يكتب، قبل مرور عام على حادثة فرانكفورت: «أنت تشرّف البشرية كثيرًا جدًا بعبقريتك، فكيف لا أهتم بمصيرك».

إنه فولتير الذي لا يُنسى.

مياه بلومبيير

كان الناس في ضاحية بلومبيير الصغيرة يقيمون متكدسين بعضهم فوق بعض وفي حالة أبعد ما تكون من الراحة. فور وصول فولتير التَمّ حوله مجتمع صغير، كان هنالك رجل قضاء من محكمة بورغونيا العليا، هو السيد دو روفي الذي يفيض حيوية وحضور فكر وثقافة، فسعد به فولتير والمحيطون به. أدى حضور الشاعر إلى ظهور عدد من القصائد والأغاني التي لم تكن كلها عظيمة، لكنها في الأغلب مسلية. وكان روفي يتمتع بكثير من الحيوية حتى إنه غطى قليلًا على حيوية فولتير الستيني، فتمثلت نقطة ضعف أمير الفكر في أنه استاء قليلًا من منافسه، وأضحى بحضور روفي صامتًا أهدل الشفة. أخيرًا عادت المياه إلى مجاريها حين طُلِب إليه أن يكون حكمًا في نزاع نشأ في أثناء لعب القمار؛ فالكونت دو لورج والكونتيسة بيليستات يتبادلان التهمة بأخذ اثني عشر فرنكًا من دون حق في أثناء اللعب. وجرى تكليف فولتير بإصدار الحكم، فخرج بحكم ظريف وملاطفة نسائية، وقال شعرًا إن أحدًا لم يسرق شيئًا من الكونتيسة، بل هي التي أفعمت القلوب، ودافعت عن قلبها دفاعًا قويًا. وعلى ذلك النحو صدر عليها حكم أفعمها سرورًا:

«قلبك الذي تلقى الهجوم يجيد الدفاع أيما إجادة
وإن أم الألعاب والنعم والمباهج
تحكم عليكِ بجعله يأخذها».

فكيف للنقرس وداء الحصى الكلوي أن يصمدا في وجه أمثال تلك المداواة الرائعة؟

غادر بلومبيير في بداية أيلول/ سبتمبر 1754 متوجهًا إلى كولمار، وكانت السيدة دوني برفقته، فهي التي تأمر، وهي توجه، وهي تحسم الأمور. كانت تتربع على قمة تلة من الحقائب والطرود التي تهدد بالانهيار فوق الشاعر الهزيل حين تنحرف العربة على نحو ما يقع تقريبًا كل مرة. إنه خاضع لسيطرة ابنة أخته. وما عجز نسر بروسيا عن فعله، نجحت دجاجة شارع ترافرسيير الرومية في القيام به.

إلى أين يذهب؟ فلا يزال فولتير من غير سقف يؤويه، وقد بلغ الستين، وهو غني بمثل غنى رجل مصرفي ناجح أكثر مما هو من رجالات الأدب، ولا يدري إلى أين يأوي. وإن غرابة هذا الوضع في أيامنا التي أضحت فيها حياة الترحال لدى الناس الأغنياء أمرًا معروفًا، ليست مدهشة كما في القرن الثامن عشر. قد يكون لحياته التائهة أثر ما في وجه الكرامة والجد اللذين عانتهما سمعة فولتير في حياته. فلقد كان كاتبًا عظيمًا، بل كان أعظم كاتب في عصره، لكنه لم يكن سائدًا إلا على الريح. فهو لما يسد على قصر يملكه أو على قرية أو أراضٍ أو معمل. إنه يتمتع بحياة يسر، لكنه ليس بعد رجل البذخ الذي سيصير إليه.

هكذا حين استقر به المقام بين أربعة حيطان قوية في أحد القصور، واتشحت تلك الحيطان بالبرانق والرياش الفاخر، وتباهى وسط ملكية فاخرة لأحد الأسياد مسيطرًا على أراض وأتباع مثل سيطرته في عالم الأدب، اتخذ اسمُه وزنًا، وصار لطبعه اعتبار. وما عاد أحد يؤويه، بل صار هو مَن يؤوي. ولن يقوم من بعد بزيارات، بل سوف يتلقى زيارات، ولن يدق من بعد أجراس أبواب الأمراء، بل سيفتح أبوابه للأمراء؛ ونقول بالمناسبة إنه سيغلقها في وجوههم. فالمجتمع يشعر بالحاجة، إلى براهين ملموسة كي يمنح اعتباره لأحد الناس. فلا بد للمرء، كما يُقال، من أن تكون لديه مساحة؛ إنه في حاجة إلى قبعة كبرى من الآجر والأردواز تكلل هامة قصر مهيب، فتكون في منزلة تاج يعترف المجتمع به عن طيب خاطر علامة للغني الحديث النعمة. إن المساحة والعمق أمران كماليان.

إنه يبحث. بحث في سويسرا، ثم في برن، ثم في لوزان حيث عرضوا عليه منطقة جميلة جدًا. وكان على وشك الذهاب لبحث الموضوع حين أخبروه بأن المارغراف تنتظره على العشاء في نزل في كولمار. لم يسعه أن يصدق، فتردد، ثم هرع سريعًا. والحق إنها هي وزوجها أغرقاه في الإطراء والهدايا؛ فهما يريدان إزالة

آثار فرانكفورت. وفتنته المارغراف، فقال بعد العشاء: «فلنَخلُص إلى أن النساء أفضل قيمة من الرجال». ولنقل نحن إن دوروثي أفضل قيمة من فريدريك. وكتب إلى أكثر من مئة شخص يقول إن المارغراف جاءت تقدم الاعتذار بدلًا من أخيها، وإنها استقبلت السيدة دوني على مائدتها. إن ذلك ما يرغب في أن نصدقه. أما في حقيقة الأمر، فلم تُقدم إليه أي اعتذار، لكنهما يريدان نسيان ما جرى. أما هو، فما إن يلامس ملامسة أحد أصحاب السمو الملكي، حتى ينتابه دومًا شيء من الهذيان. أما دوروثي التي لم تكن واثقة الثقة كلها من أخيها المرهوب الجانب، فروت عن اللقاء قصة مختلفة تمامًا، نرى فيها فولتير موضوعًا للسخرية. وفي نهاية المطاف، اقتصرت أهمية الزيارة على زيادة غرور الشاعر، وحققت المارغراف شيئًا من الترويح عن النفس في استراحة كولمار.

هنالك عائد آخر، إنه ريشوليو، ونحن نعرفه: فهو متألق ومزهو وأناني، وقاسٍ عند الضرورة، إنه ينهب البلدان المغلوبة، كما أنه على وجه العموم السيد الأكثرُ حبًا للفكاهة والمغازلة، والأكثر بروزًا في المجتمع. وعلى الرغم من الفارق في المحتد، كان بينه وبين فولتير وفاءٌ وتجانسٌ حقيقيان، مثلما كانت الحال مع فريدريك. كان أولئك الرجال الثلاثة «يجسدون» عصرهم، فيشابه فولتير ريشوليو بلهجته وسلوكات المجتمع الراقي، بل إن تشابههما من تلك الناحية مدهش إلى حدٍ يجعلنا نقول: إن كلًا منهما يقلـد الآخر. فلقد تلقـيا التربية نفسها في لوي لو غران، وتعلم الاثنان على يد الدوقات أنفسهن، وإيقاعهما واحد. فأحدهما يغتاب الآخر بشراسة، وحالات القطيعة بينهما عابرة. وكان فولتير يقرض المال، فلا يقوم الدوق بردّه في الوقت المحدد، لكنه يردّه في نهاية الأمر مغتاظًا. ويتقدم الدوق من البلاط بالتماسات لمصلحة صديقه، ولم تكن المهمة سهلة دائمًا، لكنه لم يرفضها قط. وما إن يشرعا في تبادل الكلام والرسائل حتى تأخذ هوائيات كل منهما تهتز فتتلألأ في ما بينهما نجوم الحضارة البراقة كلها، وتسطع الشموس كلها.

مع ذلك، فكثيرًا ما تظاهر فولتير بالانتماء إلى فريدريك، وتظاهر ريشوليو بنسيان فولتير. فاللياقة والانتهازية تمليان ذلك السلوك على رجل من بطانة لويس الخامس عشر، ويتصف بالكمال. وعلى حين غرة، ظهر فولتير من صندوق فرانكفورت، وهو يصرخ بصوت مثل صرير خشخاشة: «ها أنا ذا، لقد عدت بعد الإفلات من براثن الغول، فمن هو الذي لا يزال يحبني؟»، فردّ ريشوليو قائلًا: «أنا

لم أنقطع يومًا عن محبتك، ولم تنقصني سوى المناسبة لأقول لك ذلك». ودعاه إلى مجلس لانغدوك الذي سوف يتولى رئاسته، وهو بعيد جدًا عن كولمار! فاللقاء سيجري في ليون، وسوف تكون السيدة دوني رفيقة سفر. ومن نافلة القول إنهما اثنان ميتان يتصديان لمخاطر ذلك السفر. وكتب فولتير يقول: «تزعم السيدة دوني أنك ستقوم بدفننا لدى وصولنا»، لكن ذلك آخر ما يمكن أن يخطر من الدوق على بال.

ساعة السفر تصرف صديقنا الميت تصرفًا سيئًا حيال كوليني الطيب. فلما كان لديهما فائض من المتاع، أراد فولتير إرغام كوليني على بيع محتويات خزانة ملابسه كلها، والصعود إلى العربة حاملًا صرة صغيرة من الملابس. رفض كوليني ذلك فثارت ثائرة فولتير، فطلب كوليني صرفه من عمله، وقام فولتير فسدد له حسابه، قائلًا: «أنا مدين لك بتسعة عشر فرنكًا، هذه لويسة. واحتفظ لنفسك بالباقي». وشعر كوليني بالمهانة من التصرف، فردّ عليه قائلًا: «أنا مدين لك بمئة فلس، فهاكها، لأني لست في حاجة إلى هذه الهبة». كانت السيدة دوني تحضر المشهد، فنظرت إلى كوليني وهو ينصرف من دون أن تنطق بكلمة، لكن لا ريب في أنها وبخت خالها، وندم هذا الأخير فقدم لويسة إلى كوليني الذي رفضها أيضًا، وجرى أخيرًا تبادل الكلام، فتكلما... وانتهى الأمر بالمصالحة. فأعاد كوليني صر متاعه، وانطلق الثلاثة بغبطة كبيرة.

لو استطاع لكان أكثر تماوتًا في ديجون مما هو في العادة. بعث بكوليني لينوب عنه في تقديم فائق الاعتبار إلى السيد دو روفي، نظرًا إلى عجزه عن القيام بذلك بنفسه. وجاء السيد دو روفي إلى غرفة الشاعر المحتضر الذي عادت إليه البهجة والحياة على الفور. وأوعز بإعداد عشاء، فيما بعث دو روفي ليحضروا من أقبيته أفخر أنواع النبيذ، فأكلوا وشربوا وتداولوا أطراف الحديث. وتألق السيد روفي، فيما كان فولتير يبرق ويشع... وأكلوا وضحكوا إلى ما بعد منتصف الليل، فأقسموا على الرجوع والجلوس إلى المائدة طوال أسبوع بحاله، ومرة أخرى يجري استبعاد الاحتضار بفعل المرح.

وصلوا إلى ليون في 15 تشرين الثاني/ نوفمبر 1754: «إنه، والحق يقال، لمزاح مفرط في الشدة بعض الشيء بالنسبة إلى مريض يقطع مسافة مئة فرسخ

ليصل إلى ليون لتبادل أطراف الحديث مع الماريشال دو ريشوليو. فالماريشال لم يجعل عشيقاته يقطعن مثل تلك الطريق الطويلة، على الرغم من أنه أخذهن بعيدًا جدًا». ومن ذلك اللقاء فعل الافتتان المتبادل فعله، واستأنف فولتير مع الدوق المداهَنات التي خصصها في ما مضى لفريدريك. فالدوق يُدعى «بطلي» أو «ثيسيوس»، كما في فونتونوا. أما فولتير الذي كان مهمَلًا، فصار «آريان التي أهمِلت في ناكسوس». وحين بلغ ريشوليو اللانغدوك، بعد خمسة أيام من النشوة الكلامية، ليرأس المجلس، ترك «آريان»[20] لملتقى نهري الرون والسون.

وما إن انتهى فولتير من النبلاء حتى توجه إلى تقديم اعتباره لرجال الدين. كان الكاردينال دو تانسان يجلس على العرش الأسقفي لمدينة ليون، وهو خال آل دارجنتال، وشقيق تلك السيدة، السيدة دو تانسان التي سجنت في الوقت نفسه معه في الباستيل. كان ذلك الأسقف يتمتع بفيض من الألقاب تجعله جديرًا ببعض أشكال الاحترام الفولتيرية، لكنه لم يجنِ شيئًا؛ فقد دخل فولتير وهو يرتدي حلة حريرية إلى غرفة انتظار الكاردينال، وكانت غاصة بالحضور، وأعلن اسمه، فاستُقبل على الفور. وما كاد يدخل حتى رآه كوليني خارجًا من فوره، ليمسك به من ذراعه ويجره قائلًا: «فلنخرج، إن هذا البلد ليس ببلدي». وقص على كوليني، وهما في العربة، أن الكاردينال قال له بغتة: «أنت لست على علاقة طيبة بالبلاط، فلا يسعني أن أستبقيك على الغداء». وكانت، وفقًا لقول فولتير، عبارة جديرة بأن توجه إلى أحد الخدم، فقطع اللقاء قطعًا حاسمًا.

كانت المارغراف في ليون، فقصدها ليضمد بالقرب منها الجرح الذي أصابه به الكاردينال، المتاجر بالشؤون الدينية وفقًا لقول فولتير. ولم يكن ذلك اغتيابًا، فهذا الكاردينال تفوح منه رائحة الهرطقة.

لم يستقبله الضابط قائد الحرس في الساحة استقبالًا أفضل، بل كان يقف شاهرًا سلاحه؛ فالكنيسة والجيش متفقان ضمنًا، وبقي له المسرح. فظهر فيه وكان النصر. هتفوا له هتافًا جنونيًا، فمِم يشكو: كان يقف في صفه واحدٌ من ماريشالات فرنسا، وأميرة صاحبة سمو ملكي، والشعب كله. وما عساه أن يمثل في وجه هؤلاء، رجل دين سيئ، وضابط ساخط لعدم ترفيعه؟ واستقبلته أكاديمية

---

(20) من شخوص الإلياذة. (المترجم)

ليون استقبالًا فخمًا، وأسمعه المدير خطبة رنانة لا تنتهي، لكنه لم يتضايق لبطئها ولا لثقلها، لأن دخان البخور الذي كانوا يحرقونه بسخاء أفعمه. ولا ريب في أن غروره يتسبب له في أغلب الأحيان بالألم، أما حين يستمتع به، فإنه لا يندم.

يبدو ممكنًا لصاحبة سمو ملكي - حتى لو كانت لوثرية - أن تكون ذات تأثير كبير في كاردينال من رجال البلاط. وهكذا توصلت المارغراف إلى إجراء مصالحة بين الكاردينال المتاجر بالشؤون الدينية، والشاعر المارق، فتلاقيا، وتبادلا التهاني ثم تعانقا، من بعد القطيعة بأربعة أيام. صرح الكاردينال - فالتواضع نقطة ضعفه - بأن استياءه من فولتير لكونه على علاقة سيئة بالبلاط، أقل كثيرًا من استيائه منه لأنه أطلق في عصر لويس الرابع عشر على مجمع أساقفة أمبران صفة «الصغير». المجمع الصغير! إن مجمع أمبران هذا، الذي يجهله الجميع تقريبًا، والذي عُقِد عند سفح جبل تمخض فولد فأرة، ذلك المجمع «الصغير» كان برئاسة الكاردينال دو تانسان! هنا نقع على الغلط، بل على الجريمة. ووافق فولتير على الفور: إن المجمع سيغدو بعد اليوم كبيرًا، بل عظيمًا، سوف يكون مجمع تانسان الكبير، وكتب إلى دار الطباعة في باريس بحذف كلمة «صغير» من طبعات عصر لويس الرابع عشر، فأعلن الكاردينال على الفور أن فولتير أذكى رجل في العالم، وأن زوال حظوته من أبرشية ليون انتهى. وأوصى المصرفي المشهور السيد ترونشان، وهو من جنيف، بفولتير. فعلى الرغم من أنه كالفِني قاس، فإنه كان يحظى بثقة الكاردينال، ما يبين أن هذا الحبر الذي كان موكلًا بإدارة أرزاق ضخمة، كان يعرف كيف يضع حدودًا لتزمته الديني.

جنيف: مباهجها وقساوستها

أضحى مجتمع ليون ممتعًا أكثر، لكن المسكن كان رديئًا، فتوجهوا إلى جنيف، ليروا إن كان ما قيل عن آل ترونشان صحيحًا وإن كانت الأرض في لوزان صفقة مربحة، فوصلوا إلى جنيف بعد غياب الشمس، بعد أن طالبت عائلة ترونشان الواسعة النفوذ بانتظار وصولهم إليها قبل إغلاق أبواب المدينة. وكان العشاء عند آل ترونشان، ثم حلوا في قصر برانجان، بدعوة من السيد غيغيه، صاحب القصر. وقيل لفولتير إن الأرض التي كان يطمح إلى شرائها في ألامان، لا يمكن أن تباع له. وهكذا مكث في برانجان حيث طابت له الإقامة، لكن كوليني كان يشعر

بضيق شديد. فكوليني يريد باريس، وفولتير يريدها أيضًا، لكن فولتير بلغ الستين، أما كوليني الذي لمّا يبلغ الثلاثين، فإن مشقة استسلامه للأمر الواقع أصعب بعشرات المرات. واستقبل أهل جنيف فولتير أحسن استقبال، وتولت حكومة برن حمايته، فيما أفعمت البهجة قلوب وجهاء جنيف وأعيانها لاستقبال ذلك الرجل الذي قال للبابوية حقيقتها من دون مواربة. وفُتِن فولتير بذلك الوضع، فقرر الإقامة في بلاد لا يطلبون منك فيها بطاقة اعتراف أمام الكاهن، لكن وا أسفاه! أُحيط علمًا بأن الكاثوليكي لا يحق له أن يصير مالكًا في جمهورية كالفِنية. لكن ذلك لم يفت في عضده؛ إذ ناور في سبيل الحصول على نقض يمكّنه من اقتناء ملكية أحلامه، فعثر عليها في موريون: منزل بارد، وليس محاطًا بحديقة، لكنه سيشتريه على الرغم من ذلك... إلا أن الشراء مستحيل، فهو كاثوليكي، لكن آل ترونشان حصلوا له على إذن بالإقامة؛ إنه تقدم. واغتبط كوليني لتلك المتاعب، فهو يتمنى صدور أمر بالاستبعاد. ثم تحقق الحلم على حين غرة: منزل يقع قريبًا من أبواب المدينة، على منبسط من الأرض تشرف على نهر الرون وعلى البحيرة، ويشاهد منها جبل مون بلان إلى الجنوب. تدعى تلك الملكية سان جان، وكان يسكنها ابن المارغراف. لكن ها هو يغير اسمها، لأن اسم سان جان تفوح منه رائحة القداسة، ولسوف يدعوها الديليس (les Délices) (المباهج)، فهذا الاسم يتوافق وإحساسه، ولسوف يظل دائمًا اسم تلك الملكية الشهيرة. دفع ثمن البيت الجميل والمربع، الذي لا يزال جديدًا، وثمن الأراضي المحيطة به مبلغ 87 ألف ليرة، وهو سعر ملائم. وقد جرى تسهيل الإجراءات بفضل آلِ ترونشان، فكان مجلس الدولة يمنحه التسهيلات كافة.

بدأت حينذاك حمى التغييرات؛ فهو عاد يكرر الأعمال التي قام بها في سيري؛ فاستدعى كتائب عمال من أنواعِ الحرف كافة، وطرأ تحويل على الحديقة نفسها، فاقتُلِعت الأشجار ونقِلت، وغُرِست أشجار أخرى، وهو منشغل في تنقله بين واحد وآخر. «إن الديليس هي الآن شغلي الشاغل. فنحن نهتم، أنا والسيدة دوني، ببناء حجرات لأصدقائنا وأكواخ لدجاجاتنا، ونوعز بزرع الجزر وصنع عربات النقل اليدوية، كما نغرس شتول البرتقال، ونزرع البصل... فنحن في حاجة إلى كل شيء... لا بد من تأسيس قرطاجة».

إنه منهك، ويهذي: أخيرًا هو في بيته.

ها هي الزيارة الأولى من السيد لوكان. لقد بعث بعربة إلى ليون لتأتي بالممثل؛ ذلك أن لوكان هو المسرح المتجسد، فهل كان مقررًا أن يهب البركة لبيته ممثل مسرحي في مدينة تحظر المسرح وتعتبره بوابة إلى الجحيم؟ لكن تراءى لفولتير بكل يسر، أنهم ما داموا قد أحسنوا استقباله، فهم على استعداد لمشاطرته ميوله كلها.

كان عليه أن يرتاب: فالبروفسور جاكوب فرنيه كتب إليه يطلب منه التزام جانب الحذر، لأن أنظار بعض الكالِفنيين، القلقين من وجوده، مسلطة عليه. ها هو ذا مرة أخرى تحت المراقبة! وقد لاحظوا أن أفكاره ليست معادية للبابوية فحسب بل وللدين أيضًا. لن يكون الحياد كافيًا وحده لجعل جنيف تتبناه، فهم ينتظرون منه العون لمصلحة الإيمان في سبيل تحويل الشبيبة عن اللادينية المتعاظمة. وإن لمثل ذلك الطلب أن يفوق طاقته. ولم يكد ينتهي من تلميع جميع الحيطان المطلية بالجبس في الديليس، حتى ظهرت بجلاء أسباب النزاع كافة مع جنيف.

رد فولتير في 5 شباط/ فبراير 1755 قائلًا بلهجة كانت غاية في الدماثة:

«سيدي العزيز، إن ما كتبتَ بشأن الدين معقول تمامًا، وأنا أزدري التزمت والتعصب وأحترم قوانينكم الدينية، وأحب جمهوريتكم وأحترمها، وأنا عجوز جدًا ومريض جدًا وربما أكون على جانب من القسوة المفرطة حيال الشبيبة، ويسرني أن تنقلوا إلى أصدقائكم المشاعر الحميمة التي تربطني...».

كان ذلك سخرية، لكنه وقع على أناس لا يتفهمون ذلك النوع من المزاح.

كان أهالي جنيف في ذلك الحين متنبهين على وجه الخصوص إلى المبالغ الكبرى التي ينفقها، ويتوقعون قدوم زوار أغنياء. رأوا باختصار في إقامة فولتير صفقة رابحة، فنَسب إليه أولئك السادة دخلًا بقيمة مئة ألف فرنك، إضافة إلى مال جار نتيجة أعماله الجارية، فشكل ذلك كله مطرًا من الذهب ينهمر فوق الجمهورية. كانت لدى ستانيسلاس رغبة قوية في اجتذاب الشاعر وأمواله إلى لونيفيل، فقدم له عروضًا كثيرة، لكن فولتير لم يتمسك بأي عرض منها.

أخيرًا وصل لوكان، تسبقه الأنباء عن نجاحاته المذهلة في كلٍ من ديجون

وليون؛ لقد أبكى المقاطعات التي عبرها كافة. جرى في الديليس تجهيز المسرح بالسرعة التي جرى بها تجهيز المطابخ، وقال فولتير إن لوكان الذي اعتقد أنه سيلتقي والد مسرحية ميروب، لم يلقَ إلا بنّاءً وبستانيًا، لكنهما قدما زايير أيضًا. أما جنيف، فلم تشهد مثل ذلك الفيض من الدموع التي انسكبت. قال فولتير منتشيًا بتلك الدموع: «ما كان الكالفِنيون قط على تلك الدرجة من الرقة». وكتب إلى آل ترونشان في ليون قائلًا: «ما كان يخطر ببال كالفِن أن الكاثوليك سوف يجعلون البروتستانت يبكون فوق أرض جنيف». كان هنالك شيء من التبجح والتحدي في قول ذلك، لكن هناك الكثير منهما في مباشرة ذلك المشروع. يظن فولتير أنه على جانب عظيم من القوة لأن قوم ترونشان يقفون إلى جانبه حلفاءَ وحماة، ونسي أن آل ترونشان ليسوا كل شيء في جنيف. كان آل ترونشان هؤلاء جناح مدينة كالفِن السيار والمتقدم. والمفضل لدى فولتير هو الطبيب، لأنه الأكثر تألقًا وتحضرًا وأوروبية. ولقد فرض، بفعل فكره المتجدد، التلقيح لاكتساب المناعة معارضًا سلطة السوربون، والأطباء الذين كانوا يكرهونه. كان يتمتع بالذكاء والحيوية وكثير من اللباقة، وشيء من الشعبذة الفكرية المحببة؛ فكان ابن عصره حقًا. وكان زُبُنه من أرقى ما في أوروبا، ولئن لم يكن يشفيهم دائمًا، فإنه كان يفتنهم. درس في إنكلترا (كان على صلة قرابة باللورد بولنبروك) وفي لايدن؛ إذ حيث كان تلميذًا لبويرهيف، وهو أشهر طبيب في ذلك الحين. وحقق نجاحًا أيضًا في زواجه الهولندي، يفوق نجاحه في الطب، إذ تزوج حفيدة الممثل الكبير جان دو فيت. وبرفضه الخضوع لوليام الأورنجي، غادر أمستردام حيث كانت له شهرة كبيرة ورجع إلى جنيف التي استقبلته بفورة من الفرح. وحين قصده فولتير ليوليه أمر العناية بصحته، حلق اسمه فوصل إلى بلاطات أوروبا كافة. قام فولتير حياله بدعاية براقة، حين كتب يقول: «هو عالم مثل أسكولابيوس ووسيم مثل أبولون، وليس من يبزه في الكلام والفطنة». وربما لم يخطر ببال فولتير أن طبيبه الشهير ما كان يولي مريضه الشهير وأقواله المدهشة الإعجاب الذي يظنه الشاعر العجوز المغرور. ولنصغ إلى ترونشان وهو يتحدث عن مريضه الشهير والمدلل: «ماذا عسانا ننتظر من رجل في حالة من التناقض الدائم مع نفسه، والذي كان قلبه على الدوام ضحية خداع فكره؟ لقد كانت حالته النفسية منذ نعومة أظفاره أبعد ما تكون عن الفطرة وشديدة التشويه، وقد جعلت كيانه الحالي كيانًا مصطنعًا ليس شبيهًا بشيء على الإطلاق».

ثم اتهمه بأنه أثرى ثراء فاحشًا، وذلك صحيح؛ إذ أدرك فولتير في سن مبكرة أنه إذا كان ينقصه نبل المحتد، فإن الثراء الفائض قمين وحده بضمان حريته. لكن تلك الملامة التي يوجهها واحد مثل ترونشان، وهو نفسه طبيب من أرقى سوية ويقوم بتجميع اللويسات الذهبية على مدار السنة، إنما تبدو لنا صادرة عن سوء نية. فهل أظهر ترونشان الفاضل هذا اهتمامًا ذات يوم بصحة شاعر فقير؟

ثم يواصل اتهامه بأنه استسلم لهدهدة الإطراء، وهذا صحيح أيضًا: كان فولتير يستسلم لنشوة الإطراء والتملق، لكنه يصحو من نشوته سريعًا، فماذا عن ترونشان؟ ألم يقم بإطراء فولتير مشجعًا نقيصته؟ ألم يستخدم تلك النقيصة برياء صارخ؟ فالصورة ليست محببة، وليست شديدة الإتقان، فخطوطها الضخمة صحيحة، أما وأنها مفرطة في الضخامة، فإنها ما عادت صحيحة إلا جزئيًا.

لم يرَ الدكتور العالم ترونشان مجموعة المرايا التي يتكون منها طبع فولتير، فذلك الوميض يبدو محيرًا في نظر واحد من أبناء أصحاب المصارف في جنيف، ويتمتع بفكر إيجابي. وكان لذلك الطبع أن يبدو له أخـاذًا ومفهومًا أكثر، لو تخيله شبيهًا بقطعة من الماس ذات آلاف الوجوه، وهي تتلألأ بألوان لا تحصى. لكن هذه الأنوار التي لا تحصى ولا يمكن لمسها ليست في فولتير سوى النور الوحيد الذي لا يقبل التقسيم، وآلاف وجوهها المتبدلة هي فكر وحيد وأوحد لا مثيل له ولا يقبل التقليد. فكل شيء يتغير معه، وعلى الرغم من ذلك فإن فولتير من أيامه في المدرسة وحتى وفاته هو نفسه؛ فالانعكاسات تتغير، لكن المرآة لا تقبل التغيير.

ولو أن العالم ترونشان أمضى مراحله الدراسية وعلومه الإنسانية في فلورنسا، بدلًا من تعلم كثير في لايدن، لكانت معارفه الطبية أدنى، بيد أنه كان قد أحاط بكثير من السيكولوجيا الفولتيرية. وإن كلمة من دالامبير عن فولتير تقول أكثر كثيرًا مما قال عنه ترونشان، إذ أطلق عليه دالامبير لقب «السيد المتعدد في الأشكال».

أما في شأن مرض فولتير، فلندون حكم ترونشان: «صفراء متهيجة على الدوام، وأعصاب، مستثارة باستمرار هي السبب الدائم لأوجاعه كلها». إنها كلمة معلم. فلقد رأى تمامًا أن فولتير ليس به من ضر، والمسألة هي سوء توازن ما بين الأخلاط. ولا ريب في أن أطباءنا سيتكلمون على سوء توازن هورموني،

وعلى اختلال في الغدد. وإذا ما نحينا شعر رأسه جانبًا، فما هو السبب الذي جعل منظومته الوبرية لا تتطور؟

أنجز الشاعر، وأعمالُ التجصيص تحيط به من كل جانب، مسرحية يتيم الصين التي نقع فيها على جنكيز خان الرهيب. وأوكل لوكان بالعمل وهو يوصيه بأن يكون شرسًا حقًا وأن يزأر وهو ينطق بأبياته، لكن لوكان ذو انعطافات في مقامات الصوت الشديدة الرقة: إنه يستثير البكاء، في حين ينبغي لجنكيز خان أن يسبب الرعدة والصراخ فزعًا. وقال فولتير في سبيل مزيد من الإيضاح: «ينبغي أن تضع في ذهنك أني رغبت في تصوير نمر، وهو حين يقوم بملاطفة أنثاه فإنه يغرز مخالبه في ظهرها».

هنالك خشية، بشأن مسرحية اليتيم، من ألا يكون النص على سوية التعليم الدرامي الذي يبثه فولتير. ولئن كان لوكان يثغو بعض الشيء بدلًا من أن يزأر، فذلك لأن أبيات فولتير لم يجرِ نظمها في صحارى منغوليا، بل فوق كنبة من طراز لويس الخامس عشر موشاة بالحرير.

عاد فشهد في جنيف ظهور شخص معروف مسبقًا ومنفر جدًا. لعلنا لا نكون نسينا أنه حين انفصل عن بمبيت، وقع اختيار هذه على شخص مغمور اسمه غيو ولقبه دو مرفيل، وبدلًا من أن يحتل هذا الأخير بكل تعقل المكان الذي تركه الشاب أرويه خاويًا، قام فشن على سلفه هجومًا عنيفًا. أما وقد انخرط في ما بعد تحت لواء ديفونتين والعجوز ج. ب. روسو، فإنه انتقد الـ هنرياد بطريقة دنيئة، وكتب في ذلك الأب فوازنون: «إن غيو هذا، وهو ابن مدير للبريد، يكتب كأنه لم يخرج البتة من اصطبلات أبيه». لم ينسَ فولتير شيئًا من ذلك كله، وشهد ظهور كائن معوز ومتواضع وسطحي ونادم، جاء يلتمس منه السماح، وعرض في سبيل شراء ذلك أن يكتب أربعة مجلدات من المدائح والإشادة بفولتير، وأن يمحو الهجمات كلها التي نشرها في مؤلفاته السابقة، كما تعهد أيضًا بأن يراقب طباعة كل ما يقوم فولتير بنشره من بعد. ظل فولتير جامدًا كالجليد. «إن إهداء مؤلفاتك التي تقدمها إلي، لن تزيد شيئًا في قيمتها، فأنا لا أهدي مؤلفاتي إلا لأصدقائي. وبناء عليه فإذا ما شئت، يا سيدي، سوف نبقى على ما نحن عليه».

جاء ذلك الشقي ليعيد شبح ديفونتين المزري إلى الحياة، لكن فولتير المتقزز قام بإغلاق ذلك القبر الوبيل. وبعد ذلك التاريخ بخمسة عشر يومًا رمى غيو بنفسه في البحيرة، وانتهت على ذلك الشكل المشؤوم تلك القضية التي اجتمعت فيها الانتهازية والعفونة.

توفي مونتسكيو في 10 شباط/آذار 1755، بينما كان فولتير يستقر في الديليس. وعلى الرغم من المشاجرات وما كان بينهما من حسد وغيرة، فإن كلًا منهما ما كان في يوم من الأيام عدوًا للآخر ولا صديقًا له، فأبدى فولتير كل احترام حيال الكاتب الكبير وحياه بقوله: «سوف يمثل إلى الأبد عبقرية سعيدة وعميقة تفكر وتستدعي التفكير. وينبغي لكتابه أن يكون الكتاب النموذجي للذين يتقدمون لحكم الآخرين. فذكرُه سوف يبقى دائمًا بينما ذكر الصحافيين المخفقين إلى زوال».

لا يسعنا القول إنها تحية مقنعة جدًا أو حارة؛ ذلك أن لمونتسكيو أقواله عن فولتير: «الفكر الخيّر أغلى قيمة من الفكر الجميل»، فيتولى فولتير الغيظ حين يرى الإطراء موجهًا إلى عمق الفكر لدى مونتسكيو، مقارنة في الأغلب بما يلمسون في أعماله من سطحي وبراق. أما حين طلبت إليه دوقة إيغويون أربعة أبيات توضع على ضريح مونتسكيو، أجابها أنها توصي على الأبيات مثلما يوصي المرء على صنع الفطائر، وأن فرنه ليس حاميًا بما يكفي، وأنه يشعر داخل نفسه في حاجة إلى شواهد أكبر من الميل إلى صنع شواهد للآخرين، فلمَ لم يحصل مونتسكيو على شاهدة؟ لأنه استهزأ بالأشعار وبالذين ينظمون الأشعار، ولم ينس فولتير ذلك الازدراء. فما من أشعار تُهدى لأعداء القيثارة!

***

ربما يسعنا الاعتقاد بأن الديليس أمنت له حقًا مباهج استقرار تحمس لها، فتذوق في نهاية المطاف ذلك الصفاء الذي يشترك فيه تقدمه في السن وسلام مدينة جنيف والحياة الهانئة والرقيقة التي يمكن أن ينعم بها. بيد أنه لم يعرف تلك السكينة قط؛ فها هي عاصفة جديدة تبزغ في الأفق، وهي ناجمة عن مسرحيته العذراء، فما كانت قط ابنة شاعر أغلى على قلب مؤلفها من تلك الملحمة الهزلية، وما من ابنة رهيبة تسببت لأبيها بمثل ذلك الغم. وأخبروه بأن هنالك قضية يجري

حبكها من يوم أن كان في كولمار. كان فولتير يحاط بكثير من الأشياء علمًا: فلديه أصدقاء لا يمكن إحصاء عددهم في مواقع ممتازة، كما كان لديه مخبرون - أي جواسيس - أجرهم مدفوع، وعلى علاقة غالبًا بمخبري الشرطة، فكان في وسعه أحيانًا أن يكتب رسائل إلى الوزير منسوخة حرفيًا تقريبيًا عن التقارير التي كانوا يرفعونها إليه.

ها هم ينشرون طبعة فاضحة لمسرحية العذراء. والسيناريو على حاله، لقد «سرقوا» المخطوط، فمن السارق؟ تحوم الشكوك حول صديقة إميلي، الآنسة دو تيل التي قد تكون وقعت بين أوراق سيري على مخطوط العذراء، وهو مخطوط غير كامل في أي حال، فباعته من ناشرين، وهم أكملوه على طريقتهم، فدسوا فيه كثيرًا من الفواحش والتدنيس والأبيات الرديئة، تحت اسم فولتير. ويجري، حتى الآن، بيع تلك الفظاعة خفية، وقراءتها سرًا، لكن قراءتها والكلام عليها يجريان في كل مكان. وتعرو فولتير لذلك السبب رعدة، مع أنه فوق أرض أجنبية. بعث بالسيدة دوني إلى باريس على جناح السرعة، لتلتمس من الوزير تدخلًا يقوم به الأصدقاء كلهم. فماذا بلغ سمعها؟ علمت أن المخطوط المباع سُرِق منها هي نفسها، والسارق عشيقها كزيمينيس الذي قامت حياله بكثير من الأعمال الطيبة. وجدت نفسها إذًا في أصل الفضيحة. ويبقى أن ذلك الوحش كزيمينيس يلتمس الحصول على مقعد في الأكاديمية، ويجرؤ على طلب الحماية من فولتير فيما يوجه إليه طعنة نجلاء. وأسوأ ما في الأمر أن دارجنسون بات مقتنعًا بأن فولتير نفسه قام بتلك الطبعة الجديدة، وأنه ينتفع بتلك التجارة، لأنها والحق يقال تجارة، بل تجارة رابحة. ويأتي واحد اسمه لا موربلير، على استعداد للانتفاع من فولتير على الوجوه كافة؛ فهو وكيل وجاسوس يرتاد بيوتات القمار، ويقوم بالمهن المشبوهة كافة، ويزهو بأنه باع نسخة من مسرحية العذراء بخمسين لويسة ذهبية. وظن دارجنسون أن فولتير الذي يشعر بنفسه وهو في جنيف خارج حدود القانون، كان يتقاضى حصته من تلك التجارة، وذلك غير صحيح، لكن لا بد للمرء من تبرئة نفسه من التهمة.

خطرت ببال فولتير فكرة! فما دام من غير الممكن وضع حد لذلك التدفق من مسرحيات العذراء المزورة، فلا يبقى أمامه سوى مضاعفة أعدادها وتأليف مسرحيات جديدة مزورة، وبغزارة، وجعلها على درجة من السماجة ترغم السلطة على التسليم بأن فولتير لا يمكن أن يشارك بمثل تلك الأشكال المرعبة من التزوير

لمؤلفه الخاص. وقام بذلك فنجح في مسعاه، وجرى التسليم بأنه كان الضحية وليس بمؤلف النسخ المزورة، في حين كان هو مؤلفها حقًا. وكما جرى الاتفاق على براءته، حين قام بنفسه بتنظيم الفضيحة.

قيل لفولتير إن شخصًا اسمه غراسيه، هو صاحب دار طباعة في جنيف، ويتاجر في باريس، على وشك أن يشتري مخطوطًا لمسرحية العذراء. إنه واحد إضافي! فأقام فولتير اتصالًا بغراسيه وامتدحه، وقال له إن ذلك المخطوط مزور، وإنه سوف يجر على نفسه المتاعب بنشره، ولن يتمكن من بيعه... في حين كان الآخر مقتنعًا بتحقيق ربح كبير من نشره. ولم تكن المراسلات كافية فجرت دعوة غراسيه إلى الديليس، حيث تناول العشاء، وعرض صفحة من المخطوطة المزوَّرة: إنها لراعبة! إنها نسيج من الألفاظ البذيئة، فاحمرت عين فولتير وهجم على غراسيه يريد خنقه، لكن غراسيه تخلص بسرعة من يد الشاعر الذي ليس سوى الهشاشة بعينها ليسعى بدوره إلى خنقه. وشرع فولتير يصرخ مناديًا للإمساك بالقاتل والسارق! فهب لنجدته جمع من النجارين والبنائين والبساتنة، فولى غراسيه الأدبار متحاشيًا أن يقع في أيديهم التي كانت ستُعمِل فيه تقطيعًا.

رفع فولتير دعوى أمام قضاة جنيف، وقدم ورقة الفجور التي قيل إنها ستطبع باسمه، ورفع صوته داعيًا إلى مكارم الأخلاق وحقوق الناس وتعاليم الكتاب المقدس، فجرى توقيف غراسيه. وبعد مدة قصيرة أطلِق سراحُه فطُرِد من جنيف، وقال فولتير: إن تلك البلاد تفتقِر إلى العقوبات.

حين أحاطته السيدة دوني علمًا بما جرى أصلًا لدى سرقة المخطوطة الأولى، حسِب أنه سيموت غضبًا، وحسبت هي أنها ستموت خوفًا؛ إذ فهمت أنه لا يصدقها إلا نصف تصديق، وأنه سيرتاب في بيعها بـ 600 ليرة. إنها ابنة أخته، وهو يحبها، لكنه لا يكن لها تقديرًا كبيرًا. وكتب إلى أصدقائه آل دارجنتال يخبرهم بالخيبة المريرة التي سببتها له، وهكذا علمنا بحجم المبالغ التي سحبتها من البنوك باسم خالها: «أنفقت ستمئة ألف فرنك، وباعت مخطوطة مسروقة بستمئة فرنك، وهي مثال فريد على الإفلاس الذي تستجره وراءها». إن تلك اللهجة المريرة لها ما يسوغها، وأما السيدة دوني فسوف تنجو من الورطة مرة أخرى، لكنها سوف تعود إلى فعل ذلك. ففي المرحلة الراهنة جرت تبرئتها، مع شيء من الشك: ربما يكون كزيمينيس هو السارق.

لم يتعرض فولتير لهجوم من السلطة، لكنه أصيب في تلك القضية ببعض الخسائر: تجاويت بين أرجاء باريس أصداء فضيحة جديدة تسبب بها فولتير، وشعر الوزراء والشرطة بانشغال بال بسبب العذراء، كحالهم مع جيش من اللصوص والمشردين، أما الأصدقاء فطفح بهم الكيل بسبب مساعي السيدة دوني المتكررة، وهي مساع فاضحة ومتعارضة. وانتشرت ضجة الفضيحة في جنيف، وزادتها قضية غراسيه ضخامة، أما الورقة الداعرة فقرئت ثم نُسِخت وشاعت. وبدأت المدينة الصالحة تتمتم قائلة: إن الذين بجوار الرجل العظيم أفسدوا الهواء النقي الذي كانت تنعم المدينة باستنشاقه في ما مضى.

لكن لم يصطبغ كل شيء باللون الأسود: حققت مسرحة يتيم الصين نجاحًا عظيمًا، فأدت الآنسة كليرون الدور أداء رائعًا، وكان لوكان، مفرطًا في عذوبته، مثلما هو متوقع، أما في العرض الثاني فهو «نمر». ورغب الملك في مشاهدة المسرحية، ولما كان البلاط في فونتينبلو، فقد جرى العرض هنالك. أما الملكة ماري التي كانت تزداد قداسة مع تقدمها في السن، فقالت للملك إنه قد قيل لها إن في المسرحية تلميحات إلى التهتك في قصر تريانون. فقال لها الملك أن تتفضل بالإشارة إلى كل ما ترغب في أن يُحذَف، ولسوف يجري حذفه، فأجابت بأنها لا تدري ما ينبغي حذفه، وجرى عرض مسرحية اليتيم من غير أي حذف على الإطلاق، فحققت نجاحًا باهرًا أمام البلاط بمراتبه كافة، وأُفعِم قلبُ فولتير غبطة: فهذه النجاحات جعلته ينسى أشكال الغم كلها.

كان كوليني في باريس، إذ تركه فولتير يمضي ليدافع عن العذراء، وليريح أعصابه بعض الشيء، فتسلى هناك كثيرًا. وعلى الرغم من أن القضية هدأت، فإنه لم يأتِ إلى ذكر العودة، ولم يلح فولتير عليه، بل كتب إليه قائلًا بلطافة: «حين تُحِس بالشبع من باريس، يا عزيزي كوليني، أحطني بالأمر علمًا... فخذ مؤونتك من المتعة وعد حين لا يبقى لديك من شيء أفضل تقوم به. لك قبلاتي».

ورجته السيدة دوني أيضًا أن يرتوي ارتواء حقيقيًا، لأنه ما إن يعود إلى جنيف حتى يلتزم التوبة. ولقد كانت تعرف عم تتكلم، وهي تقول إن كوليني الصغير هذا كان رهيبًا بما يخص النساء: فلقد باشر مقاربتها ذات يوم مقاربة عنيفة. فيا لكوليني المسكين: إنه يكره جنيف. إنه فتي متوقـد، يعيش بين سيدة سمينة ورجل عجوز،

وفي مواجهته جليد جبل مون بلان (Mont Blanc)! فليست تلك البيئة بيئته. وفولتير يفهمه حق الفهم.

تحركات شتى في جنيف
وزلزال في لشبونة

لم يكن القساوسة راضين الرضا كله عن نمط الحياة التي يعيشها المقيمون في الديليس، وزاد القضية تعقيدًا أن كثيرين من أهل جنيف كانوا مفعَمين بها. فاجتمع مجمع القساوسة (البروتستانت) في 31 تموز/ يوليو 1755، وحرّم العروض المسرحية، وهي حكاية قديمة تعود إلى الظهور من جديد. ففي أثناء القلاقل التي جرت في عامي 1732 و1739، جاءت الجيوش الأجنبية لإحلال النظام في جنيف، فأنشأت فيه المسرح الذي حقق نجاحًا لا يُصدق لدى السكان. وإن ذلك النجاح تحديدًا هو الذي أثار الذعر في المجمع، إذ أقر بمنطق خال من الرحمة بأنه لا يسع أهل جنيف الانصراف إلى تلك المتعة لأنهم يجدون فيها متعة كبرى. ويُفهَمُ من ذلك أن أشكال اللهو المزعجة هي المحللة، ويؤكد القساوسة - وقد يكون ذلك صحيحًا - أن قدرة الإفساد في المسرح تتضاعف لدى تأثيرها في النفوس الملأى بالفضيلة. أما في باريس، فما عاد المسرح يُفسِد أحدًا ما دام الجميع فاسدين، وإن ذلك واضح الوضوح كله؛ إذ جرى في جنيف، في 18 آذار/ مارس 1748، حظر عرض مسرحية بوليوكت (*Polyeucte*)، أجل، بوليوكت! فهل من مسرحية يتمجد اسم الله فيها ويبجل أكثر منها؟ أجل، فبوليوكت في جنيف، مسرحية نجسة. وإذا ما شئنا أن نفهم ج. ج. روسو، وطعنه اللاذع في المسرح، فينبغي أن نسمعه في جنيف، لا في باريس. وهكذا نرى أين وقع فولتير بمسرحه المنزلي وتمثيلياته الهزلية ونزواته الوقحة وأقواله الفاضحة.

وعد بأن يلتزم جانب التعقل، بعد أن تعرض لتبكيت آل ترونشان، ومن قبل صديقه القس فيرن؛ فأقسم أن المسرحيات الهزلية لن تعرض في بيته أبدًا، وأنه شديد التألم لأنه تسبب في تكدير مثل أولئك الناس الفاضلين. لكن تلك الاحتجاجات لا توحي إلينا إلا بالحذر، فقد اعتقد، بإذعانه، أنه يقلب صفحة المتاعب. فما عساه أن يفعل غير ذلك؟ فأداء الكوميديا بالنسبة إليه هو المتعة الأكثر رهافة، لكن أداءها، مع إغاظة الأتقياء والأغبياء، متعة إلهية.

في أثناء تلك المتاعب الصغيرة انفجر زلزال لشبونة الرهيب. فبادت عاصمة البرتغال واهتزت الأرض كلها، والتاريخ لما يسجل، منذ هركولانوم وبومبيي[21]، نكبة طبيعية مماثلة. أما فولتير المرهف الحس حيال حادث من ذلك النوع الذي يتعارض فيه النظام الطبيعي مع النظام الإنساني مثل ذلك التعارض العنيف، فتولاه اضطراب هز كيانه، فهو يروح ويغدو متمتمًا: «تلك هي حجة هائلة تناقِض التفاؤل». وكتب إلى دارجنتال: «إن مقولة بوب 'الكل جميل' أصابها شيء من الاضطراب، وأنا لا أجرؤ على الشكوى من إسهالاتي». ومن هذا الانفعال ولدت القصيدة عن نكبة لشبونة، فهو يعارض بوب، ويهاجم التفاؤل ويسيء إلى العناية الإلهية، فيما كنيسة روما تطلق التأوهات. يدافع في تلك القصيدة عن نفسه بوصفه معاديًا للمسيحية، ولسوء حظ جحوده، قام الناشر فأضاف كتاب الدين الطبيعي إلى القصيدة لزيادة حجم المخطوط الذي بدا له ضئيل الحجم، فليس هنالك ما هو بعيد عن الدين مثل الدين الطبيعي، فصدر في عام 1759 حكم بإحراق الكتاب. وعبثًا حاول كتابة مقدمة جميلة يبرز فيها حماسته الكاثوليكية والفرنسية في بلد بروتستانتي، لكن «الملصق» الذي وضعه على الكتاب لم يعدل من مضمونه المعادي للكاثوليكية، بل البعيد عن المسيحية.

كانت تلك القصيدة بداية خلافه مع ج. ج. روسو. فمنذ تعاونهما الباهت بمناسبة أعياد رامير في عام 1745 وعلاقاتهما تمتاز باللباقة، بل والاحترام من روسو. وأرسل هذا الأخير إلى فولتير كتابه خطاب في أصل عدم المساواة بين البشر، فشكره عليه في 30 آب/ أغسطس 1755، في رسالة معروفة لدينا: «أنت تروق الناس الذين تقول لهم حقيقتهم، لكنك لا تقوم بإصلاحهم... ولم يسبق لأحد أن استخدم مثل ذلك الفكر سعيًا وراء جعلنا بهائم، ومن يقرأ كتابك تأخذه الرغبة في أن يسعى على أربع قوائم. غير أني وقد فقدت تلك العادة منذ أكثر من ستين عامًا، فإني أشعر لسوء الحظ باستحالة قيامي بذلك، فأنا أدع تلك المشية الطبيعية لمن هم أكثر جدارة بها منك ومني... وأكتفي بأن أكون متوحشًا مسالمًا وسط العزلة التي اخترتها بالقرب من وطنك الذي ينبغي أن تكون أنت فيه»، ودعاه إلى المجيء إلى جنيف لشرب «حليب أبقارنا وقضم أعشابنا». لم

(21) مدينتان رومانيتان عند سفح جبل فيزوف، طمرتهما حمم بركان هائل في عام 79 ميلادي، ولم يبدأ الكشف عنهما إلا في القرن الثامن عشر. (المترجم)

يبدُ أن ذلك البرنامج الريفي استهوى روسو، إذ رأى في باريس مكانًا أفضل يقوم فيه ببناء سمعته، مع المخاطرة بأن يفقد هناك طبيعته الشَموس. وكان رد روسو لطيفًا على تلك الرسالة، لكن تغير كل شيء من بعد القصيدة عن كارثة ليشبونة في عام 1755. فلم يكن القساوسة أقل من الكهنة شعورًا بالإهانة والغضب، وطلب قس من جنيف إلى روسو أن يكتب دحضًا لطروحات فولتير الجاحدة. وثار جان جاك روسو ضد فولتير بوقوفه في صف العناية الإلهية: «إن فولتير وهو يظهر على الدوام مؤمنًا بالله، لم يؤمن قط إلا بالشيطان، ما دام ربه ليس سوى شرير لا يستمتع بحسب رأيه إلا بفعل السوء». وغالبًا ما يرد تحت قلم روسو أن فولتير غني، وأن ليس له من حق في الشكوى. وتُستشَم من ذلك رائحة الحسد، فما تلك بحجة فيلسوف. فهل ميز زلزال لشبونة مثلما فعل جان جاك، بين الأغنياء والفقراء؟ إن ما يظهر من تلك المناوشة الأولى هو التناقض الأساس بين الرجلين. فضلًا عن ذلك، لا يفوّت جان جاك، ذلك الرجل الطيب، فرصة إطلاق الأحكام الأخلاقية والزعم أنه يدافع عن عمل صالح: إن كان يعامل فولتير معاملة سيئة، فذلك في سبيل إنقاص عدد مؤلفاته السيئة، وزيادة مكانته قيمة. فيا لها من روح طيبة! وهو ليس بكاذب على الرغم من تزويره الأمور بعض الشيء. ويشكر فولتير لأنه بعث إليه بقصيدته التي لم يرسلها فولتير إليه، ويذكر روسو ذلك في مقام آخر، فيقول: إنه تلقاها من واحد اسمه روستان. لكن ذلك يتيح له أن يقدم شكره، وأن يبدي كثيرًا من الملاطفات التي من شأنها تمرير الشيطان. لم يجرؤ روسو على أن يبعث برسالته مباشرة إلى فولتير، فأعطاها إلى ترونشان، قائلًا: «إن كان أقل فلسفة مما أفترض، فأعِدِ الرسالة إلي»؛ وذلك طلب غير معقول. ولا يقع ترونشان في الأوهام: ليس لأحد أن يأمل في أن يصير فولتير عابدًا للعناية الإلهية، لأن جان جاك ويخه. بل إنه، بخلاف ذلك، سوف يتوتر؛ فقد قال ترونشان: «لا يشفى المرء في الستين من أمراضه التي بدأت وهو في الثامنة عشرة».

تحمل فولتير تلك الكذبة من غير أن يرفع الصوت احتجاجًا، فكتب يقول: «رسالتك جميلة جدًا»، لكنه واصل الاعتناء بابنة أخته المريضة، إضافةً إلى أنه هو نفسه «أشد مرضًا من أن أجرؤ على مشاركتك التفكير». فظلت القضية من غير حل، لكن جرى تأجيلها إلى وقت لاحق.

لم يعلق فولتير أيضًا اهتمامًا كبيرًا على تلك المجادلة الكلامية التي بدت

واهية في نظره؛ فليتول روسو الوعظ، ما دام ذلك يسليه. ويعتبر فولتير الأمر مضيعة للوقت، لأنه أمر مزعج.

لدى فولتير قصائد ينظمها، ومراسلون يرد عليهم، وأصدقاء وزيارات وقضايا مالية، ولديه ملكيته التي كان يديرها أحسن إدارة، فأرغمت تلك الأسباب مجتمعة روسو على انتظار الرد. وجاء الرد متأخرًا، لكنه كان على نحو مدهش حتى إن روسو عرفه على الفور؛ إذ قال في كتابه الاعترافات: «ليس الرد سوى رواية كانديد التي لا يسعني الكلام عليها لأني لم أقرأها»، فكيف عرف أن المقصود هو الرد على دفاعه عن التفاؤل؟ ومن ذا الذي سيصدق أنه لم يقرأ كانديد مع معرفته بأنه سيجد فيها دحضًا لنظريته الخاصة المؤيدة للتفاؤل؟ ألا أن جان جاك ليس بـ «كانديد» (أي طيب السريرة) كما ينبغي!

لكن الاعترافات لم تُكتب إلا في وقت متأخر، فأظهر جان جاك شيئًا من الرضا بسبب رسالة فولتير المهذبة، وتولاه خوف شديد من شاعر الديليس حتى إن بضع عبارات مهذبة جعلته يطير طربًا: «إن رجلًا أقام اعتبارًا لرسالتي، على نحو ما، فعل جدير بلقب فيلسوف، ولا يسع أحدًا أن يكون أكثر ميلًا مني لأن أضيف على إعجابي الدائم بكتاباته، الود والتقدير لشخصه».

إن ذلك الكلام لخبط عشواء، وإن جان جاك سوف يتنبه إلى ذلك.

تظارفات قرد وعبوساته
كوليني العاشق يكتشف العشق الخفي لسيده

اقترب الشتاء، وصار الجو باردًا في الديليس، فانتقل الخال وابنة أخته إلى مونتريون، في الطرف الآخر من البحيرة، عند أبواب لوزان، ولطيا هنالك، وسط الكروم المحمية من ريح الشمال، بانتظار حلول الربيع، لكنهما نسيا إغلاق الباب فأقبلت المدينة بكاملها إلى بيتهما، فطربا لذلك، وبدا لهما أهل لوزان مثل أهل جنيف لطافة. فقال فولتير في ذلك: «إنه الإمساك بالبحيرة من طرفيها».

في 10 آذار/ مارس 1757، عادا إلى الديليس من جديد، وقام فولتير على الفور بما يشبه الهروب إلى برن. فاستبد بكوليني الفضول، ورغب في أن يعرف المزيد عن ذلك، ثم انتهى به الأمر إلى معرفته: التقى بعض المبعوثين من دولة أجنبية، عرضوا عليه القيام بمهمة لدى فريدريك الثاني؛ هذا ما لم يكن فريدريك

نفسه هو الذي استدعاه لتكليفه بالمهمة. وقد باح لتييريو بعبارات مموهة بأنه رغب في إخراجه من ديره في تيليم كي «يضعه في قصر»، وباح لدوق فورتنبرغ قائلًا: «ليس الأمر منوطًا إلا بي أنا للذهاب إلى بلد حيث كنت في ما مضى من بطانة سموك، لكني لست راغبًا في أن أكون في ذلك البلد لأكرر احترامي». والمسألة واضحة: المقصود بهذا بروسيا.

وبعد ذلك بشهرين، دعته الإمبراطورة ماري تيريز للحضور إلى فيينا، لكن لا يسعه أن يقبل؛ فميله نحو أشكال العظمة في قصور الأمراء خبا! إن فرانكفورت هي التي شفته من ذلك. «أفضّل توبيخ العاملين في حديقتي على تقديم الولاء في بلاطات الملوك» تكاد أن تكون عبارة من رواية كانديد.

مع ذلك لا يزال يتبادل مع فريدريك بعض المظارفات، وضاعف من الرسائل الموجهة إلى المارغراف وإلى دارجيه، وهي رسائل ملأى كلها بإطراء فريدريك، وسوف تتكرر فتُرسَل إليه، وهي لا تخدع هذا ولا ذاك. لكن الاتصال دائم، وذلك هو الشيء الأساس. إن كل واحد منهما يشعر بالفضول لمعرفة أقوال الآخر أو ما يقوم به من حركات. إنهما، حتى في انفصالهما، غير قابلين للانفصال.

يتمسك فولتير بأشكال صغيرة من الثأر، محافظة منه على صمام أمان لضغينته التي هي واقعية تمامًا. وهي تصفه في حياته الخاصة، تمام الوصف؛ فلديه نسر موضوع في قفص، يقف ويتأمل ذلك الأسير بكثير من الرضا: إن النسر هو شعار الملك البروسي. يشير إليه قائلًا: انظروا إلى هذا المنقار، وإلى تلك البراثن، «هذا مثل ذاك». لكن من غير أن يسمي أحدًا. ويستفزه، فيشعر بالراحة. ولديه كذلك قرد صغير، بشع ومنفر وشرير، اسمه لوك (Luc). ولقد عض سيده عضًا وحشيًا، ثلاث مرات، حتى اضطره إلى المشي على عكازين. ومعروف بين أعضاء حلقة أصدقاء فولتير الحميمين، أن «لوك» هو اللقب الذي أطلقه فولتير على فريدريك، يسألونه: لماذا؟ فيجيب: «لأنه يعض الجميع». وتمضي به قريحته الهزلية بعيدًا جدًا، فيسأله واحد من خاصته قائلًا إنه لا يعرف دومًا حين يكتب هل «لوك» يعني فريدريك أم القرد، فيرد عليه فولتير بقوله: «حين يعني ‹لوك› فريدريك ينبغي أن تقرأوا بالمقلوب لتسمعوني»[22].

---

(22) قراءة الاسم Luc مقلوبًا – أي cul – يعني بالفرنسية «قفا، أو مؤخرة». (المترجم)

ما كان من شأن ذلك أن يلحق إساءة كبيرة بفريدريك، ولا أن يقدم إلى فولتير نفعًا، فيما لو جرى نقل تلك الألاعيب إلى فريدريك. أما الأمر الأكيد فهو أن ذلك كان مسليًا لبطلنا.

كانت داره أيضًا مصدر تسلية له؛ فهو فخور بها، بل يجدها أجمل من دار بوب في تفيكنهام، التي بدت له رائعة، في ما مضى. وهاكم نمط عيشه: لديه أربع عربات وحوذي ومساعد حوذي وخادمان وغلام، وطاهٍ فرنسي وأجير ريفي ومساعد طباخ، ووصيفة للسيدة دوني والسكرتير كوليني، وكان الطعام على الدوام وافرًا وفاخرًا والمائدة عامرة.

أما الملل الشديد الذي كان يتولى كوليني، فإنه جعل منه شخصًا متعبًا جدًا، وكانت السيدة دوني وفولتير يداريانه ويدللانه، لكن ذلك لم يكن كافيًا. وكتبت السيدة دوني تقول: «إنه يحب النساء حبًا جنونيًا، وليس في ذلك ما يُسيء»، وهي لن تتصدى لنقد ميل طبيعي شجعت عليه كثيرًا ضمن محيطها، «لكن النساء يُشِحن عنه بوجوههن، فيتسببن له بطبع مناكد يمتد تأثيره حتى رؤسائه».

أما العناية الإلهية التي كان فولتير يُنكِرها، فتجلت داخل بيته، ولمصلحة كوليني، فكانت في شخص سيدة من بورغونيا، أساء معاملتها زوج متوحش، فقدمت لاجئة عند سفير فرنسا في جنيف. أما أنها على مسحة من الجمال وذات فطنة، فقد فكر السفير في أنها يمكن أن تزين دار فولتير، فاستودعه إياها، وأحسن فولتير استقبالها، فخفف عنها وامتدحها. وهنا نلمس سخاءه حيال امرأة هاربة لم يكن يتوقع منها سوى أن تمنحه بهجة استقبالها. وكانت تبكي أحيانًا، بمسحة من الفتنة، وتجيد استذكار متاعبها، لا لتثير الحزن بل لتهدّئ ما في نفسها، وكانت نظراتها تنطق بأكثر من خطاب شجي. ولم يطل الأمر بكوليني حتى قال لها إنه، مقارنة بها، هو الأشقى لا هي. فهو فلورنسي، وتلميذ فطِنٌ لسيده، وماهر بالكلام والإشارات. واقتنعت السيدة التي تعذبت كثيرًا، بأن من القسوة التسبب في عذاب ذلك البريء المحبب، فقاما بمزج أحزانهما معًا، ليصنعا منها فرحًا كبيرًا. كانا جد مسرورين أحدهما من الآخر، وبكثير من البساطة، حتى غدا في وسع الجميع في الديليس، من مساعد الحوذي وحتى فولتير، أن يكون شاهدًا على فورات فرحهما. أما فولتير، وعلى الرغم من تسامحه مع المعتقدات كافة، فإنه يستطيع أن يتحمل

لفترة أطول تحوّل داره إلى معبد لربة الحب فينوس، فجرى توجيه رجاء إلى المرأة كي تعود إلى بورغونيا، فترنح كوليني لوقع الضربة، ولم يوبخه فولتير كثيرًا، إلا أن السيدة دوني وجهت إليه بعض الملاحظات. فما كان من شأن كوليني - وهو ذو ميل شديد إلى الاغتياب - إلا أن ضاعف من سوء نيته حيال السيدة دوني. فهو يقول عنها «العاملة الحولاء»، ويسخر منها لأنها شعرت بالغيرة حيال فتاة من جنيف قدمت إلى فولتير طاقية بقيمة أربعة فلوس، فوجدها فولتير أجمل طاقية في العالم، واستبد الغيظ بابنة الأخت، فأهدته واحدة «جديرة بأن تُهدى إلى سلطان»، فتظاهر بعدم رؤيتها، فقربتها من وجهه، فشكرها من طرف شفتيه، فانفجرت غيظًا. وكان من شأن ذلك المشهد أن أثار شكوك كوليني حول بعض الحقوق التي تفرضها السيدة دوني على فولتير والتي لا يمكن فرضها إلا مقابل أشكال من الفضائل التي لا تُمنَح عادة للأقرباء، وظل ذلك الشك طويلًا يشي بالظلم وسوء النية. أما اليوم فنحن على علم أفضل من كوليني بأن الأرملة الشابة السيدة دوني منحت ذاتها كلها لخالها فولتير، ومنذ أربعة عشر عامًا تقريبًا، ومن المسلّم به أن يبدو ذلك مخالفًا للصواب. كان فولتير آنذاك مريضًا ويحرص على أن يبدو مريضًا، وحسب المرء أن يراه ليسلِّم بذلك، فيغدو مفهومًا إذًا رفض الظن بوجود تلك العلاقة. وليس هنالك ما يدعو إلى الريبة، ففولتير كان في سلوكه وفي كلامه على درجة من التحفظ والاحتشام لا يطاولها الشك. ونعرف أن أقرب المقربين إليه وإلى السيدة دو شاتليه لم يتمكنوا يومًا من أن يكتشفوا لديه كلمة واحدة أو حركة قد تثير الالتباس. وخلافًا لسكرتيره الميال إلى الإفصاح عن مكنوناته علنًا وبحرية، لم يكن فولتير يكشف علنًا عن نوازعه الغرامية قط. فحين يكون بين الناس، يكون حبه للنساء بالنظرة أو الكلمة أو القبلة؛ لأنه يهيم بالجو الذي يُشِعنه من حوله. أما اندفاعاته الشهوانية فما كانت عنيفة البتة؛ فجسده، وكما نعلم، كان هشًا على الدوام، وليس من شيء كثير ما بين الجلد والعظام! لكنه لم يكن عديم الإحساس، ولا كان عاجزًا قط. وإن تلك التسلية ما بين فولتير والنساء لتكشف عن طبيعته كشفًا عميقًا جدًا: كان يهوى النساء لأنهن أكثر تمدنًا من الرجال. فالحب في نظره ليس هوى، بل هو صداقة تسمو بالذكاء والحنان وتصطبغ بالاشتهاء.

أخيرًا علينا التسليم بأن فولتير كان عشيق ابنة أخته؛ إذ نشر السيد بسترمان الرسائل التي تجعل من شك كوليني يقينًا، وتلك الرسائل مكتوبة في معظمها

بالإيطالية، لكن ذلك لا يقلل من توقدها. فقد آن الأوان لإلقاء الضوء على العلاقات ما بين ابنة الأخت والخال؛ إذ كتب لها في عام 1746 يقول: «إن شعرة واحدة من شعرك أغلى في نظري من قبلات بيلند كافة».

أما رسالته المؤرخة في 15 تشرين الأول/ أكتوبر 1746 فنقرأ فيها (وإيه! لو عرفت إميلي مثل ذلك!): «لكن أرجوك أن تكوني قنوعة وأن تجعليني قنوعًا، فمن الأفضل أن نمارس... لكن سواء أمارست أنا الـ... أم لا، فإن إعجابي بك دائم، ولسوف تكونين السلوى الوحيدة في حياتي».

في تشرين الأول/ أكتوبر 1747، كان ذلك الارتخاء متواصلًا، فهو يتظلم من سوء صحته التي تلحِق الضر بحسن نياته، ويجد أن الحب جميل جدًا.

«لكن على المرء أن يكون في أحسن حال
ليتكلم عليه ولكي يمارسه».

إلا أنه يتكلم عليه، بل ويتكلم كثيرًا: «إن الطبيعة التي أنعمت علي بالقلب الأكثر رقة نسيت أن تهبني معدة، فلا يسعني أن أهضم الطعام لكني أستطيع أن أحب. أحبك وسوف أظل أحبك حتى آخر يوم في حياتي. أقبلك ألف قبلة، يا حبيبتي الماهرة، أنت تكتبين الإيطالية خيرًا مني، فتستحقين الدخول إلى أكاديمية كروسكا، وإن قلبي و... يقدمان لك أرق أشكال الثناء».

ويمتزج المرض امتزاجًا دائمًا بأشواقه: «أنا أزهو برؤيتك على الرغم مما بي من مغص، وأحبك وسوف أحبك أكثر من حياتي».

لو كان العاشق أقل حاجة إلى الاستشفاء، لكان محببًا أكثر، لكنه ليس أكثر استعجالًا: «...وأشعر في كل يوم أن عليّ أن أكرس لك آخر أيام حياتي، فمن بعد ربيع جنوني، وصيف عاصف، وخريف واهن ستكونين وحدك القادرة على تلطيف متطلبات شتائي».

لنُشِر إلى أن ذلك كُتِب في أول شباط/ فبراير 1748، ولمّا تكن إميلي توفيت، وما من شيء كان يشير إلى أنها أول من سيموت. لقد كان إذًا يفكر في إنهاء حياته بصحبة ابنة أخته؟ ونفهم من هنا أنها كانت تملك أسبابًا قوية لأن تظهر

علنًا طمعها في خالها وفي ثروته. ولقد تلقت تطمينات، وعاد فجددها بقوله: «أشعر في الحقيقة بأنه ما عاد أمامي أيام طويلة أعيشها، فهل قُدر لي ألا أمضي معك الأوقات الأخيرة من حياتي، وألا أنعم بعذوبة إنهائها بين ذراعيك؟ اكتبي لي، وخففي عني، فقلبي في حاجة إلى رسائلك أكثر من حاجته إلى الأطباء».

كان يبدو تخليه عن إميلي أمرًا لا يمكن تصوره، زد على ذلك أنها ما كانت ستقبل. إذًا، ما الحل؟ ثلاثي؟ إميلي وهو وابنة الأخت؟ ذلك غير مقبول، ويستحيل على إميلي أن تقبل بوجود السيدة دوني، ولو عن بعد. فنرى أن موت إميلي حسم وضعًا كان يمكن أن ينتهي نهاية سيئة.

على الرغم من حالات الخذلان، كانت السيدة دوني السمينة ملهمته أكثر من مرة: «...وإذا ما سمح لي وضعي الصحي التعيس بذلك، فسوف أركع على ركبتي فأقبل مفاتنك كلها. أما بانتظار ذلك، فأنا أطبع ألف قبلة على نهديك المكورين، وعلى ردفيك المثيرين، وعلى شخصيتك كلها التي جعلتني مرات ومرات... فغمرتني في نهر من اللذائذ».

ماذا كان يجد في السيدة دوني؟ أيكون ذلك «الانفعال» الحسي الذي ما عاد يجده لدى إميلي ولا في أي امرأة أخرى؟ لكن لم تكن لديه من أوهام قط حيال قلة الاهتمام من جانب ابنة أخته؛ إذ استشف منذ عام 1740 جشع ماري لويز دوني، بسبب زلة لسان. كانا يتحدثان في الوصية التي ينوي فولتير أن يكتبها، وكانت تريد أن تتأكد من أنها وارثته بالوصية، فكتبت إليه قائلة إنها، إذا ما وهبها كل ما لديه في حياته، فسوف تجعله (ويا لها من ابنة صالحة!) سيد كل شيء. والحال أنها بدلًا من أن تكتب سيد (maître) كل شيء، كتبت سيدة (maîtresse) كل شيء. أما والخال ذو فطنة، فإنه قدّر أن تلك الغلطة تكشف أمورًا كثيرة؛ فلم تصبح بعد وقت قصير سيدة الثروة، بل أضحت maîtresse (عشيقة) الخال، بعد وفاة زوجها في عام 1744. وكان ذلك هو الوقت الذي تحولت فيه مظاهر شغف الشاعر بإميلي إلى صداقة رقيقة. وحين التحقت به ابنة أخته في فرانكفورت، وجرى احتجازهما من فريدريك، جلبت إلى حياتهما في الأسر بعض المباهج السرية، وعرفت من بعد إظهار قيمة أشكال العزاء التي جاءته بها، ولئن لم تتزوج ثانية، فذلك كان انتظارًا منها للإرث الذي جاءها... لكن في وقت تأخر أكثر مما كانت تتوقع.

نرى أن ظنون كوليني ما كانت باطلة، لكن ذلك لم يجعله عطوفًا أكثر على السيدة دوني، فكتب بشأنها حقائق مريرة، وتغافل ذات مرة بإهمال رسالة يتكلم فيها عليها. وقامت إحدى الوصيفات بتسليمها إلى صاحبة العلاقة التي استبد بها الغيظ، فسلمتها إلى فولتير مطالبة بطرد المذنب، وأذعن فولتير للأمر، فطرد كوليني، من غير حقد... ويعرب كوليني في مذكراته عن ندمه؛ لأنه لم يتفهم على الدوام مناقب سيده، وإن قصة افتراقهما قصة مشرفة بالنسبة إلى هذا وذاك. فقد أعطاه فولتير لفافة من الليرات الذهبية، فقال كوليني إن لديه واحدة. فردّ فولتير: «بل خذها، خذها، فليس من يدري ما يمكن أن يقع». وإن ذلك المشهد لمختلف الاختلاف كله عما جرى في كولمار. ويكتب كوليني قائلًا: «ليس من شيء لا يقوم على أساس مثل تهمة البخل التي تـلْصَق بذلك الرجلِ العظيم... كان فولتير يجيد فن زيادة ثروته والتمتع بها»، ثم يخلص إلى القول: «ما عرفت في حياتي رجلًا مثله، يستطيع خدمه أن يسرقوه بمثل تلك السهولة، فهل هو بخيل؟ وأنا أكرر القول، إنه لم يكن بخيلًا إلا بوقته». فيا لها من صيغة رائعة، إذ لديه الحق، في الواقع، أن يكون بخيلًا بوقته؛ فالوقت بالنسبة إلى فولتير هو العمل: إنه الثروة الحقيقية.

زوار أحباب ونتائج مدوية لزيارة بهية

بدأ الزوار الأجانب يسلكون درب الديليس، فجاء في عام 1755 شاعران ممن شملهم النسيان، هما باليسو وباترو. ومن الممتع قراءة شهادتهما. فقد قال باليسو في رسالة إلى الممثل الإنكليزي الشهير غاريك، بأنه أمضى ثمانية أيام عند فولتير «هي من بين أجمل أيام حياتي». ويتحدث بحماسة كبيرة عن فولتير، «الرجل العظيم»، فيقول: «تخيلوا مع هيئة رجل ميت، كل فوران الفتوة الأولى، والتألق في حكاياته المحببة! وإذا ما حكمت على الأخطاء، بل على العيوب التي تُنسَب إلى السيد دو فولتير، وعبر البخل الذي سمعت أنه يُرمى به، فكم يبدو النمامون أولئك أشبه ببهائم دنيئة وسخيفة! فأنا ما رأيت قط موائد عامرة كالتي يبسطها، تُضاف إليها سلوكات أكثر تهذيبًا وودًا ولطافة، وإن جنيف لمسحورة باستضافته...».

جاء شخص ذو مقام أعلى ليقيم في الديليس في آب/ أغسطس 1756: إنه دالامبير. كان الرجلان قد تعارفا منذ عام 1746، وكانت العلاقات بينهما ممتازة.

كان دالامبير رجل فكر عظيمًا جدًا، بالإضافة إلى أنه رجل مستقيم جدًا، وكان يعاني بسبب مولده الشاذ، لكن المجتمع الراقي لم يقاطعه، وإنما أحسن وفادته. إلا أن متاعب الطفولة خلفت أثرًا في تلك النفس الرقيقة والمزهوة. كان وجهه يبدو قليل الابتسام، لكن قلبه لم يكن كئيبًا. أما صلته القوية بفولتير فكانت من طريق الموسوعة؛ إذ أثار ذلك المشروع العملاق حماسة فولتير، إذ استهواه عمل المردة ذلك بسبب أبعاده نفسها، لأن فولتير كان يقف على الدوام وقفة إعجاب حيال المشروعات العملاقة، لكن الفكر المحرك للموسوعة هو الذي كان يستثيره على وجه الخصوص. ولا مناص من القول إنها كانت آلة حرب[23] خارقة أطلقت ضد السلطات التقليدية وضد النظام القديم للأشياء. كان إعجاب فولتير مقسمًا ما بين ديدرو ودالامبير: «إن باريس لتفيض بالذين يسودون الورق، أما من الفلاسفة الفصحاء فلا أعرف سواكما». ولقد نسي جان جاك، الأكثر فصاحة من الجميع، لكن جان جاك لن يتوانى عن تذكره.

منذ عام 1752، وضع فولتير نفسه تحت تصرف ذلك العمل الضخم والخالد الذي قام بأدائه كما ينبغي أداؤه؛ أي كما يُقال «ضمن روح الفريق»، لكن من غير أن يكرس نفسه له تكريسًا، كما فعل ديدرو أو دالامبير. وهو عرف، بتناسيه شهرته، كيف يحمل حجارة مجهولة الأسماء لإشادة ذلك البناء الجبار. وقال، بتواضع مؤثـر، إنه يريد أن يكون خادمًا بسيطًا في ذلك المخزن الشاسع، فهو رهن الأوامر. كان دالامبير قائد الفريق، وعليه كانت تقع مهمة النقد، والتصحيح، وتقطيع المقالات، وإصدار التوجيهات إلى المساهمين، ووضعهم على سكة العمل الصحيحة بحيث تصبح مقالاتهم جزءًا من كل بعد استبعاد أي خصوصية لكاتبها. وألزم فولتير دالامبير رفض الآراء الشخصية وعدم قبول إلا تلك تحظى بإجماع العقلانيين والمثقفين من الناس. وكتب في ذلك يقول: «أطعت أوامرك ما استطعت، فليس لدي الوقت ولا المعارف ولا الصحة التي تمكّنني من العمل كما أرغب. وما أقدمه إليك من بحوث ما هو إلا مواد يمكنك ترتيبها وتنسيقها في هذا البناء الخالد الذي تشيده. أضف، واحذف، فهناك حجارتي في تصرفك فأدخلها في أي زاوية تشاء من الحائط».

---

(23) كتب أنطون مقدسي، «سقراط السوري»، أن الموسوعة كانت حصان طروادة، اخترقت حصون النظام القديم فدكت أركانه من داخله. (المترجم)

لقي دالامبير استقبالًا حافلًا، لا في الديليس فحسب، بل في جنيف ومن رجال الدين أيضًا. وكان لذوي المقامات السامية أحاديث معه تميزت بالثقة. وما إن عاد دالامبير إلى باريس حتى كتب مقالته «جنيف» للموسوعة، فأثارت لغطًا جميلًا! فقد ظن أنه يقوم بإطراء القساوسة، لكنهم لم يفهموه على ذلك النحو في مدينة كالفِن. ولم يكن القساوسة مخطئين. ذلك أن دالامبير، في معرض كراهيته للبابوية، حسِبَ أنه شديد الانفتاح على الكالفِنية، وإن ما راقه في كلام القساوسة هو أنهم كانوا معادين للطقوس والعقائد الرومانية، فخلص دالامبير إلى أنهم تخلصوا من الإيمان، لكن أولئك السادة في مجمع القساوسة قابلوا مقالته بالصراخ. فمن تراه يظنهم؟ وهل هم كفرة؟ وأما فولتير الذي كان دوره في القضية بعيدًا عن أي شك، فقد وجد نفسه عالقًا ما بين صديقه الموسوعي وقساوسة جنيف، «ويجرؤ هؤلاء السخفاء على الشكوى من الإطراء الذي تنازلت فوجهته إليهم...»، لكن السيد دالامبير نسي أن هؤلاء السخفاء كانوا رجال إيمان، وأن إيمانهم مسيحي، وأن الإطراء الذي وجهه إليهم والذي كان على وجه الخصوص سلاحًا موجهًا إلى روما، أصاب في الواقع ما هو مشترك بين المسيحيين كافة: الإيمان بربوبية المسيح. أما بالنسبة إلى دالامبير، فذلك كله محض خرافة، فبات يتحمل عبء الجميع: عبء روما وجنيف، ولم يبق لديه سوى الديليس وشيطانها.

أخذ فولتير دور الوساطة بين الموسوعة والقساوسة، فطلب ترونشان بلباقة بالغة تصحيحًا للأمر: فلم ينل سوى عبارات «أكاديمية» كبيرة من التهذيب.

كانت هنالك نقطة مسمومة أخرى. فقد تحدث دالامبير عن نفور جنيف المقدس من المسرح، فهل هناك من يشك في أن فولتير فعل ما وسعه ليوحي بالمقال؟ وكان ج. ج. روسو على درجة من القناعة بأن المقطع المتعلق بالمسرح أوحى به فولتير، حتى إنه أعلم به القس فيرن في 28 تشرين الأول/ أكتوبر 1758. فقد دعا روسو إلى الاعتدال بشأن الملاسنة الدينية، أما بشأن المسرح فلا بد من شن الحرب. وأعرب روسو عن سخطه بشأن «تلك اللعبة من التضليل التي تجري في وطنه»، وكان ذلك السخط هو الدافع وراء تلك الرسالة الشهيرة رسالة إلى دالامبير حول المسرح والتي يتعرض فيها إلى كتّاب المسرح كلهم بقسوة شديدة. فيا لك من رجل ظريف، يا جان جاك روسو. هل كان ينبغي، في سبيل إرضائك، إعادة إشعال محرقة ميشيل سيرفيه ليوضع مؤلف زايير عليها؟ لقد أقر في رسالته

الموجهة إلى القس فيرن في 4 تموز/ يوليو 1758 بأن مقالة دالامبير «أيقظت حماستي حتى إني رأيت بوضوح أنه لا يتوانى عن التودد إلى السيد فولتير على حسابنا. فهاك حقيقة الكتاب وحقيقة الفلاسفة...».

تلك هي الحقيقة إذًا؟ فلو اكتفى دالامبير بالاستهزاء بربوبية السيد المسيح، من غير أن يتودد إلى فولتير، فهل كانت حماسة جان جاك روسو لتستيقظ؟ وما كان فولتير ليرتاب في أن جرابًا جديدًا من السم ينتفخ ضده.

مباهج صغيرة ومضايقات صغيرة
وظهور غير معقول لقبعة كاردينال

لم يكن فولتير عابئًا بالمغامرة أكثر من اهتمامه بالربح الذي يفكر في أن يجنيه، حين أقدم على واحدة من تلك الصفقات التي لم يكن يدقق في طبيعتها أكثر مما يفعل معاصروه. والمقصود بذلك تسليح السفن، وسواء أكانت تتجر بالبن أم الأقطان أم «خشب الأبنوس» أم بسلع أخرى، فليس من يعبأ بذلك. أما والحال تلك، كان المراد التوجه لشن الحرب على اليسوعيين في الباراغواي، وها هو يتهلل طربًا لتمويله حملة ضد الآباء الصالحين مع حصوله على فائدة حسنة، ذلك أن صاحب الجلالة الكاثوليكي جدًا – ويا لأسرار السياسيين! – ملك إسبانيا، ملك بلاد محاكم التفتيش، وبلد إينياس دو لويولا، هو الذي سيتولى قصف اليسوعيين. «أرسل ملك إسبانيا أربعة سفن حربية ضد الآباء المحترمين. وإن ذلك لحقيقي جدًا حتى إني أنا الذي أكلمك، أقوم بتجهيز نصيبي من هذه السفن... وفي الختام، وحتى تكتمل المغامرة الطريفة، فإن تلك السفينة تحمل اسم باسكال، المتوجه لمقاتلة الأخلاق المتراخية...».

فيكاد يكون ذلك فائق الحسن.

وهنالك قضية أخرى: علم في كانون الثاني/ يناير 1756 أن السيدة دو بومبادور، التي لمست لدى عشيقها الملكي أشكالاً من الوهن، والمعروفة تمامًا لدى فولتير، قد بدأت تخشى أن تصيب أشكالٌ أكبر من الوهن الحظوةَ التي تنعم بها في البلاط. ولم يدهش فولتير من ذلك التمهيد على قدر دهشته من التتمة التي نوت المركيزة أن تنهي بها القضية. ولسوف يجد فولتير نفسه معنيًا بتلك القضية

الحساسة، عبر واحدة من تلك «التركيبات» التي تملك البلاطات سرها. فقد كانت السيدة دو بومبادور تسعى إلى الإبقاء على امتيازاتها الدنيوية جدًا، بعون الله وعون رجالاته على وجه الخصوص. وربما يبدو الانعطاف طويلًا، غير أننا سوف نبلغ نهايته. ولنحكم على ذلك. رغبت المركيزة في أن يقوم زوجها، السيد لو نورمان، باستعادتها. وفي استطاعتها أيضًا، مع ما بقي لها من رصيد، أن تحافظ على وظيفة لها في البلاط، فهي لن تبقى بصفة «عشيقة»، بل بصفة مستشارة، معتمدة في ذلك على قوة العادة التي ستجعل الملك ينفر من كل وجه جديد. ولم يرغب السيد لونورمان في الإصغاء إلى ذلك الطلب، فخاب أملها، وقد كانت تعتقد أنها تستطيع الاعتماد عليه. ألم يكتب لها وهي في بداية حياتها المهنية في فرساي قائلًا: «اعرفي ضعفي كله، فأنا سوف استعيدك إذا ما رجعت إلي». وعرضت تلك الرسالة على الملك الذي قال لها بكل تمهل وهدوء: «حافظي على هذه الرسالة، فليس من يدري ما يمكن أن يقع». كم هو صحيح القول: المُلك أن تتوقع!

أما أن زوجها ما عاد راغبًا فيها، فقد بقي لديها معلم اعترافها، فأعطاها نصائح رائعة. طلب إليها أن تلتزم الصوم، فصارت تصوم ثلاثة أيام في الأسبوع، متيقنة من أن ذلك لن يضير صحتها بشيء. وعاد فوصف لها قراءات تنويرية، ولم تكن تنقصه المؤلفات، لكن ما ينبغي أن يسبغ مزيدًا من الألق على حديث المحظية، ومزيدًا من الأصالة على فورات فرحها الصوفية، هو إغناء الأدب التنويري بمؤلفات جديدة ومتألقة. فالأسلوب الشائع حينذاك لم يكن يتألق إلا في المؤلفات الإباحية، فلِمَ لا يتألق في المؤلفات التقية؟ وانصرف التفكير على الفور صوب فولتير لتجديد القراءات المقدسة التي ينبغي أن تقود السيدة دو بومبادور إلى الغبطة.

جرى تكليف دوق لا فالبير بتقديم الاقتراح، فكتب في الأول من آذار/مارس 1756 إلى فولتير راغبًا في «أن يقوم على هواه فيصوغ مزامير داود شعرًا»؛ لأن الصوغ المسهب والمحبب أهم من الالتزام بأمانة النص. «ولسوف تحجب روسو، وتلهم التثقيف التنويري، وتضع في متناولي تقديم أعظم بهجة للسيدة... (الاسم غير مذكور)، فنحن ما عدنا في حاجة إلى ميروب، بل إلى شيء من داود (ألا يؤثر في النفس هذا الـ «شيء من»؟). فبادر إلى تقليده وإلى إغنائه». وإن ذلك ليتجاوز الحد: إغناء داود! وإن ذلك العصر لأقل احترامًا للمقدس حين يتظاهر بتمجيده منه حين يقوم بمهاجمته.

لكن الشيء الذي يفوق الخيال لما يُقَل هنا، فهل هناك من يتخيل ما المكافأة التي فكروا في منحها للشاعر في حال خرج برائعة من الروائع بتعاونه مع الملك داود؟ وعدوه بإلباسه قبعة كاردينال! فولتير، كاردينال! ولئن لم يكن من برهان مكتوب على ذلك الاقتراح، فإنه جرى تقديمه وبات معروفًا، وإن رجلًا في رزانة كوندورسيه وحصافته يأتي إلى ذكر ذلك في كتابه حياة فولتير، فيكتب قائلًا: «ما كان في وسع فولتير أن يكون منافقًا حتى في سبيل أن يصير كاردينالًا، على نحو ما عللوه بالأمل بعد ذلك بوقت قصير».

كم سيكون المشهد جميلًا حين سنرى على مقاعد مجمع الكرادلة، واحدًا هو الكاردينال دو تانسان، وآخر هو الكاردينال دو برني، وثالثًا هو الكاردينال دو فولتير. لكن فولتير رفض الرتبة. وعلى ذلك، حُرِم الأتقياء مزامير مصوغة «على طريقته» مثلما حُرِم مجمع الكرادلة حضور الروح القدس. وفي تلك السنة نفسها، 1756، امتلأ فرحًا للاحتفال بنصر صديقه ريشوليو في بور ماهون. وكان أدلى بشيء من الاجتراء بنبوءة لهذا النصر، في مقطع شعري حين تولى ريشوليو قيادة الحملة ضد الإنكليز في الباليار. وشاء سوء الطالع أن يتأخر ذلك النصر الذي أفرطوا في الافتخار به، حتى بدأ الاستهزاء بنبوءات فولتير. وفي نهاية المطاف، دحر ريشوليو الإنكليز، فانتهت الأمور نهاية حسنة بالنسبة إليه وإلى شريكه، لكن النهاية كانت سيئة بالنسبة إلى الإنكليز، وبالنسبة إلى الأميرال بايينغ على وجه الخصوص، والذي كان يقود الحملة المعادية؛ ذلك أن الإنكليز قاموا، على نحو ما فعل فولتير، بالافتخار مسبقًا بالنصر، وعلى نحو أجوف. فكان وقعُ نبأ الهزيمة وقعَ خيانة نُسِبت إلى الأميرال بايينغ الذي حوكم، فصدر في حقه حكم بالإعدام ليكون ضحية العجرفة الشعبية. وكان فولتير قد تعرف إليه منذ أيام منفاه في لندن، فتأثر هو وريشوليو بهذا المصير الظالم والبربري، فكتب ريشوليو رسالة مدهشة إلى قضاة خصمه التعس، وأرفق فولتير بها بطاقة موجزة، لائقة ومؤثرة، فلم يحققا سوى أربعة أصوات لمصلحة بايينغ، كما أن الملك رفض العفو عنه.

إن ذلك المسعى من جانب فولتير يشرفه، فنرى، من بين مساعيه الصغيرة، والسخيفة أحيانًا، بروز الرجل العظيم، وليس عظيمًا بموهبته فحسب، وإنما بإنسانيته أيضًا.

كان من شأنه أن يقايض عن طيب خاطر بالقبعة والأرجوان، السماحَ له بالإقامة في باريس. فهو يعيش وسط المباهج في «الديليس»، حتى قال هو نفسه فيها شعرًا: «إن الملذة الدائمة لا تعود ملذة». إن الديليس في جنيف ليست سوى ملذات المنفى، وهي، على الرغم من كل شيء، ذات طعم آخر مر. وما كان للملذات في باريس أن تكون على تلك الدرجة من العذوبة، فهي بالأحرى ممتزجة بالتهديد، بل كم هي دراماتيكية وحتى مضنية وهدامة، لكنها باريس، مدينته وحياته ودمه. وإن من مفارقات القدر الحمقاء أن يكون أيسر على أكبر جاحد في ذلك العصر أن يصير كاردينالًا، وأن يقيم في عاصمة البروتستانتية، على أن يقيم فولتير، الباريسي والكاتب في شارع ترافرسيير سانت أونوريه البرجوازي في باريس. فكيف لا يقوم، حيال حال العبث الحمقاء تلك بكتابة كانديد؟ كان وزير العدل آنذاك هو السيد دارجنسون، الأخ الأكبر لصديقه دارجنسون في مدرسة لوي لو غران والذي صار وزيرًا للخارجية، وكان وزير العدل يكره فولتير، وقد وُجِّه طلب إليه للسماح له بالإقامة ثم أعيد توجيهه مرة أخرى، فكان الرفض حاسمًا.

جرى تداول قصيدة هجائية عن «العنزة» (وهو لقب وزير العدل، دارجنسون)، فنُسِبت إلى فولتير الذي دافع عن نفسه. وجرى الأخذ بثأره بعد مدة قصيرة؛ إذ نُفي الوزير البشع إلى أرضه في منطقة بواتو، وهي أرض الدردار. فجرى تداول بعض العبارات: ينتظر تحت الدردار، ذهبت العنزة ترعى في بواتو. وكانوا في التكتلات وفي البلاط يستملحون استخدام الألقاب. ويتغير اللقب مع تغيير المرء لزمرته؛ فلقب «العنزة» عند الملك، أضحى عند الملكة «الولد الأصغر الجميل». كان لقب دوقة فيلار «بابيت»، ودوقة دولوين «الدجاجة»، وكان المصرفي باري دو فيرني يُلقب لدى السيدة دو بومبادور بـ«صديقي الأحمق»، أما السيد دو مورا فهو «الخنزير السمين» (كان فولتير، حين يروق مزاجه، ينادي السيدة دوني باسم «الخنزيرة السمينة»، وهو يكاد يكون لقبًا). وكان السيد دو بولمي «الهول الأصغر»، والكاردينال دو برني هو «بابيه» تارة، و«الحمامة المنفوشة» تارة أخرى.

عاد فولتير إلى مونتريون تغييرًا للجو، فما من منغصات هنالك: إنهم يقومون بعروض كوميدية. إن سكان لوزان هم الأكثر روعة في العالم، فالكالفنية التي يعتنقونها عذبة كالعسل. وكان ثمة بعض المشاكسين: فالسيدة التي نسوا توجيه

الدعوة إليها، انتقمت بعرض محاكاة ساخرة لمسرحية زايير في بيتها، وجرى إعلام فولتير بالأمر، وحين التقى إحدى قريبات تلك السيدة قال لها:

- «ماذا! ماذا! إذًا أنتِ التي سخرت مني، يا آنسة؟».

فتمتمت الفتاة قائلة، وقد تولاها الهلع:

- «كلا، يا سيدي، إنها عمتي».

ملك بروسيا لم يغادر المسرح

في ذلك العام، 1757، أُصيب فريدريك ببعض النكسات؛ إذ تسببت سياسته باستياء حاد، وكردّة فعل، صارت الإمبراطورة ماري تيريز شعبية جدًا. كان فولتير يحب ماري تيريز حبًا جمًا! وحين بلغه نبأ هزيمة لحقت بفريدريك، شرع يرقص ويقفز ويضحك ضحكًا صاخبًا. فقد شعر بأنه ثأر منه أكثر مما حققه لقب لوك، فقال له أحد الذين تنقصهم اللباقة: «لقد نسيت إذًا تلك المدائح التي كنت تكيلها له؟»، فردّ عليه قائلًا إنه لمّا ينس فرانكفورت.

عرّفه مجتمع لوزان إلى أشخاص يثيرون العجب، وكانت بحوزة إحدى النساء مراسلات الآنسة الشهيرة آييسيه، فارتمى فولتير على تلك الرسائل وأخذ يعلق عليها. لكن أناشيد الحب المفخمة تلك ما عادت تستثيره، مهما تكن صادقة، فقال قول خبير: «إن الحب الدائم يرهق الحب».

والتقى بقس يستأثر بالاهتمام، كان كالفنيًا على قدر ما كان فولتير كاثوليكيًا. وإن ذلك السيد بولييه دو بوتان، المرتاح الراحة كلها في عدم إيمانه، قد طلب من فولتير الإذن بكتابة موضوعات للموسوعة. وكانت لهجته على درجة من الحدة والحرية، ناهيك بالإباحية، حتى إن دالامبير رفض أن ينشر موضوعه بعنوان «طقس» (شعائر العبادة المسيحية)، لأن من شأنه أن يضع «الطاقم» كله في السجن. فتوجه فولتير بالرجاء إلى بولييه ألا تهن عزيمته، فكتب القس ضمن المنحى عينه موضوع «مجوس»[24]. وكانت هذه التسلية مصدر متعة كبرى لفولتير، فتلك الأشكال من الجرأة تفعمه غبطة ولا سيما أنها صادرة عن

---

(24) هم المجوس الذين ورد في الإنجيل كيف اهتدوا بالنجم إلى مكان ولادة المسيح في مغارة بيت لحم. (المترجم)

قس، فكان دالامبير يجري تعديلات على الموضوعات غير القابلة للنشر، ويدعو فولتير إلى تشجيع القس على المضي في ذلك الدرب القويم، لكنه يقول له: «نطلب فقط إلى صديقك الهرطوقي أن يستخدم القفاز المخملي في الأماكن حيث يفرط في إظهار مخالبه»، فيرد عليه فولتير بلامبالاة: «لئن كان كاهني يزعجكم، فأحرقوا ملابسه الكهنوتية».

أقام من طريق بوتان هذا علاقة مع القس برتران، من برن، وهو ذو فكر متميز وراسخ، وعالم في الطبيعيات، كتب مذكرة مدهشة عن المتحجرات، كما بعث بموضوعات للموسوعة، واستحق على موضوع القانون الكنسي هذا الإطراء من فولتير: «إنك تضحي بالكهنوتية لمصلحة الحقيقة والمصلحة العامة: إن مؤلفك لجدير بالاحترام على قدر ما هو فكرك سوي وقويم»، وما من متحجر عاد على برتران بمثل ذلك الإطراء.

لكن ذلك كله ما كان سوى تمضية وقت: إنه يريد الذهاب إلى باريس. فقام مجددًا بحشد أصدقائه كلهم، وأطلقهم لمحاصرة السفراء، فكانوا يلقون مشقة في الإقناع. فكثيرًا ما وعد فولتير بأن يكون متعقلًا بينما لا تتوانى الفضيحة عن الظهور من تحت خطاه، فور أن تطأ قدماه أرض باريس، ما دعا المتنفذين لأن يصموا آذانهم. فباشر العمل مع ريشوليو على وجه الخصوص، وأوحى له بالمسيرة الواجب اتباعها لتبييض صفحته في البلاط؛ إذ ينبغي بادئ ذي بدء تبرئته من ذلك التعلق المزعوم بفريدريك، والذي طالما عاد عليه بالويل من بلاط فرنسا. فلنصغ إليه، فالأمر مثير للدهشة: «لو ملكتُ الجرأة يومًا على الحديث عن نفسي، لقلت لك إني لم أفهم يومًا كيف يمكن أن يحقدوا علي بسبب تظارفاتي مع ملك بروسيا. فليتهم يعلمون أنه قام ذات يوم بتقبيل يدي، على الرغم من هزالتها، كي يجعلني أمكث عنده، ولكانوا عذروني على أني قبِلت بذلك».

لنوافق على أن الحُجة لا تقبل الرد، فمن؟ من ذا الذي يستطيع في هذا العالم أن يصمد حيال ملك ينحني فيقبل يده؟ «ولو أني قلتُ هذا العام إنهم قدموا لي بطاقة بيضاء[25] (إشارة إلى العروض السرية التي قُدمت إليه في برن) لأيقنوا أني شُفيت من هواي».

---

(25) كناية عن إعطائه صلاحيات مطلقة في المجالات كافة. (المترجم)

هذا ما كان على ريشوليو أن يعرضه على البلاط، فكان من شأن فولتير أن يُضحِك الملك من غير أن يجعله ينسى الغدر، لأن لويس الخامس عشر كان يتمتع بذاكرة قوية. ولا مناص في النهاية من إطراء موجه إلى الدوق: «هل من يعرف خيرًا منك الوقت الملائم لعرض الأشياء وطريقة عرضها؟».

في تلك الأثناء ظلت التظارفات ترف بأجنحتها على الطريق باتجاه برلين. وواصل فريدريك بذل جهده؛ فهو يقوم، بين كل معركتين خاسرتين، بتأليف أوبرا انطلاقًا من مسرحية ميروب، ويتلقى فولتير ذلك النبأ فيكاد يغشى عليه انتشاء. مسرحية ميروب، يقوم ملك بتعديلها من دون إذن من صاحبها، فيا له من سحر رباني! وكتب إلى دوقة غوتا لتقوم بتكرار كلامه: «لم يقدم لي قط من هدية أكثر ظرفًا». أما في مذكراته فنقرأ عن الموضوع نفسه: «لا ريب في أن ذلك من أسوأ ما فعل».

بدأ يدور كلام على حرب ما بين النمسا وبروسيا، وأن فرنسا ستكون حليفة النمسا. ويتظاهر فولتير بأنه لا يفقه شيئًا من تلك التحالفات، وأما إن كان لتلك الحرب أن تعرف مجريات دامية، فيقول: «فليعملوا في الأقل على شنق السيد فرايتاغ!». تلك حرب ستكون ذات فائدة.

كتب إلى ريشوليو في 4 شباط/ فبراير 1757 يقول: «لقد كتب إلي ملك بروسيا رسالة رقيقة جدًا، فلا بد من أن تكون أموره على أسوأ حال». ولا تخامره أي أوهام في شأن طبيعة تلك الرقـة، إلا أنه يشعر برضا حقيقي وهو يعلم أن فريدريك يعاني متاعب خطيرة، ويفكر في المخرجين الاثنين اللذين يمكن أن تؤدي الحرب إليهما بالنسبة إلى «صديقه» والنتائج التي ستنعكس عليه. ففي حال كان فريدريك هو المنتصر «سيكون هنالك ما يسوغ ميلي القديم إليه، وإذا ما هُزم، فذلك ثأر لي»، فكل شيء على ما يرام. أما حقيقة القول، فإنه سوف يطرب لهزيمة فريدريك. وفي ذلك الوقت تحديدًا نرى فولتير ينصرف إلى نشاط مدهش: إنه يبتكر مركبة قتال (دبابة) بقصد تفتيت الجيش البروسي. وليس ذلك حلم بشاعر، فالمخططات وُضِعت، والآلة أضحت قائمة على الورق، لكنها بالتأكيد ذات أصل أدبي: لقد عثر على فكرة مركبته الحديثة عبر علاقتها بمركبات

أسويروس[26]. ووضع المخطط تحت تصرف السيد دو فلوريان[27]، وهو ضابط موهوب، فقام بدراسته ثم قدمه إلى الوزير، واهتم به ريشوليو لبعض الوقت، أو أنه تظاهر بذلك. خلاصة القول، إن المدفعية النمساوية سحقت الجيش البروسي في كولين، فيما كانت المكاتب تتصفح المشروع فتقوم بنقله من إضبارة إلى أخرى. وجرت إعادة المركبة الورقية إلى فولتير - أسويروس، لكن ذلك لم يمنع أن تكون التقارير التي قام بها فلوريان وضباط آخرون تقاريرَ جادة، بل جرى تنفيذ أنموذج مصغر للمركبة التي استهوت فولتير كثيرًا، «يجري تنفيذها الآن بنموذج مصغر. ولسوف تكون مركبة جميلة جدًا، فيعرضونها على الملك. وإذا ما نجح المشروع، فهنالك ما سوف يميت من الضحك، وهو أن أكون أنا (المحتجز في فرانكفورت!) صانع تلك المركبة المدمرة (لجيش فريدريك!). وأود أن تقوم أنت بقيادة الجيش وبقتل عدد كبير من البروسيين بواسطة سري الصغير». لم تدمر مركبة الحرب شيئًا، لكن تقلبات الحرب عادت بشيء من الرضا على ضغينة فولتير. فقد وجد فريدريك نفسه، من بعد هزيمة كولين، في وضع شديد الخطورة. فجيشه المهزوم لم يتح له إعادة النهوض بالوضع. تلقى ريشوليو الذي كان في ألمانيا ليساهم ما وسعه في هزيمة فريدريك، الرسالة التالية من فولتير: «إذا ما مررت في فرانكفورت، فإن السيدة دوني تتوسل إليك بإلحاح أن ترسل إليها الآذان الأربع لاثنين من السفلة، أحدهما اسمه فرايتاغ، مندوب الملك البروسي في فرانكفورت من دون جعالة، وهو لم يكن لديه من مال قط إلا ما سرق مني. أما الآخر واسمه شميت، فهو تاجرٌ ولص، ومستشار ملك بروسيا، وقد قام الاثنان بتوقيف أرملة ضابط من ضباط الملك، وتحمل جواز سفر ملكيًا. وقد أمر هذان اللصان بوضع الحراب لتلامس بطنها فنبشا جيوبها. والحقيقة أن أربع آذان ليست بالشيء الكثير تقديرًا لفضلهما».

كانت نيته جادة أكثر مما يُظن من نبرة الكتابة. كان يأمل في تنفيذ العقوبة والحصول على تعويضات، والدليل على ذلك أنه كتب إلى كوليني الذي كان معلمًا في ستراسبورغ، يقول: «أنت لن تخسر شيئًا في هذه القضية».

---

(26) أسويروس هو ملك الفرس، على نحو ما جاء ذكره في التوراة، في سفر أستير. (المترجم)

(27) تزوج السيد دو فلوريان، وكان ذلك هو زواجه الثاني في عام 1762، من السيدة دو فونتين دورنوا، وهي الابنة الثانية لشقيقة فولتير.

ما كان لشيء أن يكون قادرًا، على ما يبدو، على إنقاذ فريدريك من التحالف، وقد بدأ يستعد للموت ميتة سامية، بوصفه رجلًا قرأ ماركوس أوريليوس، واكتسب من صلته بفولتير بعض مبادئ الإخراج المسرحي. كان فولتير ممتلئًا غبطة وهو يرى أن موعد الثأر اقترب. ثم تغير كل شيء تغيرًا مباغتًا، حين رأى أن فريدريك ضاعت به السبل، فما عاد يفكر إلا بالصديق، و«سليمان» الرائع، بالرجل الذي أولاه الإعجاب فقبل يده، وبالإطراءات التي كانت تنطق بها الشفتان الملكيتان، فتسقط على الروح المفتونة لـ «فيرجيل الفرنسي». فصار يبكي، ويصيح مستنجدًا، وبعث إلى المارغراف برسائل مضطربة، فردت عليه قائلة، مثل لا باليس: «لا يعرف المرء أصدقاءه إلا في المصيبة»، كما بعثت إليه ببطاقة من فريدريك: «بلغني أنك كنت مهتمًا بانتصاراتي وبمصائبي. ولم يبقَ لي سوى أن أبيع حياتي بثمن باهظ».

كان السلام الفوري قمينًا وحده بإنقاذ فريدريك، وكانت النمسا تريد سحق بروسيا سحقًا تامًا، أما فرنسا فأقل تشددًا. وعرض فريدريك بصفة شخصية إمارة نيوشاتل على السيدة دو بومبادور إذا ما سعت نحو إحداث انفراجات سلمية. ففي ذلك الخلاص بالنسبة إليه، وما كانت نيوشاتل سوى شيء ضئيل، وأما التي كان يصفها بأنها «كوتيون الثانية» فسوف تغدو أميرة نيوشاتل، فماذا بعد؟ أما هو فسوف يظل ملك بروسيا ويقوم بالإعداد لمستقبل أفضل. ورفضت السيدة دو بومبادور بترفـع، وكان فولتير يتابع ذلك كله ويتحرق شوقًا للمشاركة في اللعبة، فكتب إلى المارغراف – «الأخت غيميت» – بالتوجه إلى ريشوليو: «إني أخاطر بهذه الفكرة، لا اقتراحًا، ولا حتى نصيحة، بل بوصفها أمنية بسيطة تنبع من حماستي».

يا لها من حماسة عجيبة! فها هو، من بعد أن قام بإثارة أوروبا كلها في وجه ذلك البربري الذي وضع الحراب على بطن السيدة دوني الغالية، يسعى إلى إنقاذه، فكيف لنا أن نفهم ذلك التحول؟ قد يكون هذا بالأمر اليسير: إنه ما زال يحب فريدريك، وقد تكون المنفعة غير بعيدة من ذلك أيضًا. وإذا ما نجح ريشوليو بالتفاوض على سلام منفصل مع فريدريك، فلمن يعود ذلك النجاح؟ إلى فولتير. ولا ريب في أن ريشوليو سيدين له بتلك الخدمة المتميزة، ذلك أن ريشوليو لا يفاوض دونما مقابل، فهو يجيد قبض الثمن، ويجيد عند الضرورة أن ينهب، ذاك الذي أطلق عليه الجيش بفصاحة لقب «الأب لا مارود». وفي نهاية المطاف، نميز هنا ذلك الطموح القديم إلى أداء دور سياسي، والتنطح لقضايا

كبيرة أو صغيرة، ومقاربة الأجناس الأدبية كافة. أما وقد أزاحته فرساي عن خشبة المسرح الكبرى، فقد سعى لأداء دور في الكواليس.

كرر فولتير على مسامع ريشوليو ما قام بكتابته لشقيقة فريدريك، الذي اعترف، وقد أحيط علمًا منها، ويعرف أن ريشوليو أحيط علمًا من فولتير، بأنه تلقى أفضل الآراء، فتجاوز كبرياءه وكتب إلى ريشوليو قائلًا: «أنا واثق من أن ابن شقيق الكاردينال العظيم دو ريشوليو خُلِق لتوقيع الاتفاقات مثلما خُلِق لكسب المعارك... ومسألة إحلال السلام تغدو إحدى الترهات، يا سيدي، إذا ما المرء شاء...». أما ملحق الوثيقة فكان على جوانب من المهارة والجدارة والرشاقة الملوكية. وإن تلميذ فولتير هذا لملك في الحقيقة. ولم تلقَ تلك الاقتراحات أي نتيجة.

في تلك الأثناء، تهلل فولتير فرحًا وهو يتلقى قصيدة من مليكه المحبوب: «وداعًا للحياة». فيا لها من دعاية! لقد حسب أن فولتير سوف ينشرها في أوروبا كلها. كانت قصيدة بلاغية عادية منظومة لجمهور أكاديمي ولمسرح المستشاريات والتاريخ الديبلوماسي، فقام فولتير، جريًا على عادته القديمة، بإصلاح أخطائها، وكتب إلى فريدريك، ليحوله عن تصميمه المميت. فهو يود على وجه العموم أن يراه مهزومًا - وهو كذلك - لكن في قيد الحياة. وبناء عليه، نصحه بأن يعيش فيلسوفًا: «في وسع الفيلسوف الاستغناء عن الدول»، ولا شك في أن فريدريك وجد الاقتراح مضحكًا. والحقيقة أن مشروع القضاء على الذات بدا مسببًا للصدمة في نظر فولتير؛ فهؤلاء المائتون اليائسون والعظماء غير مقبولين إلا على خشبة المسرح، أما في الحياة، ولا بد من قول الكلمة، فهم حالة متطرفة. وإن نقل سلوك أبطال العهود القديمة إلى عاداتنا لا يؤول إلا إلى مواقف سخيفة. فيرى فولتير باختصار، أنه هو وفريدريك ليسا بطلين، بل هما من الرجال العاديين، وإن عليهما باسم السلوك القويم واسم الإنسانية، أن يتصرفا مثل الناس، لا تصرف الذين سيدّعون البطولة الفارغة. «إن من واجب رجل مثلك أن يصون حياته في وجه الحوادث»، لكن لنثق بأن فريدريك يفكر في تمثاله، فيكتب هذين البيتين، وربما ليسا بمستوى شعره الباقي:

«علي، وأنا أتصدى للعاصفة،
أن أفكر وأعيش وأن أموت ملكًا».

أما وعزيمة فولتير لا تعرف الوهن أبدًا، فإنه بحث عن مخرج آخر، وفكر حينئذ بالكاردينال دو تانسان الذي من شأن مكره ونقائصه أن يجعلاه يحظى بالرضا. فبعث إليه على جناح السرعة بترونشان، المصرفي الذي يطلق عليه فولتير لقب معلم اعتراف الكاردينال. وإن ذلك المجتمع لسهلُ المِراس حقًا، حين يلزمه أن يكون سهلَ المِراس. ووجد الكاردينال الاقتراح مغريًا فأعد العدة لنيل حصته من الغنيمة، وأن تكون حصة الأسد! ورأى حجة فولتير لمصلحة السلام ممتازة، وها هي: إذلال منزل النمسا! فيا له من اكتشاف جاء متأخرًا مئة عام! إن فولتير راغب، إذًا، في إفلاس ماري تيريز التي كان يحبها حبًا جمًا قبل ذلك بثلاثة أشهر.

جرى الارتقاء بالأباتي برني إلى منصب الوزارة، فظن أصدقاء فولتير على الفور، وآل دارجنتال، وظن هو نفسه، أن الأوان آن للحصول على الإذن الثمين بالعودة، فأجاب برني أن البلاط لمّا ينسَ الهروب إلى برلين وينظر بعين الريبة إلى التراسل المتواصل ما بين فولتير وبروسيا. ولا مناص من التسليم بأن الظواهر ليست في مصلحة فولتير، فهو يغازل دونما حياء ملك بلاد كانت في حرب مع بلاده، ولم يتوانَ عن الرد بأنه إنما كان يضحي بنفسه في سبيل مصالح بلاده من خلال محافظته على الارتباط ببروسيا، وأنه ينبغي، بدلًا من توجيه اللوم إليه، المبادرة إلى مكافأته.

ولم ترَ فرساي من ضرورة لأن ترد عليه.

ذهبت جهوده سدى؛ لأن السياسة الفرنسية آنذاك كانت تحابي النمسا. أما أن برني صنيعة السيدة دو بومبادور، فلا يسعه سوى تنفيذ سياسة المركيزة التي كانت تكره فريدريك، فكان في وسع «كوتيون الثانية» أن تصفح عن استلحاق سيليزيا، لكنها لم تصفح عن تلقيبها بـ«كوتيون الثانية»، فساندت النمسا حتى النهاية. وكان فولتير يمضي بعكس التيار، وبدا أن ماري تيريز لم تعرف بمساعي فولتير المريبة، ذلك أنها أفسحت المجال أمام عرض يتيم الصين في فيينا في 17 كانون الأول/ديسمبر 1758. ومع ذلك، اعتُرضت الرسائل، وكان فولتير على علم بذلك، فقال بحذر: «لا أكتب شيئًا إلا ويستطيع بلاط فيينا وبلاط فرساي قراءته باعتباره أنموذجًا تنويريًا».

كان فولتير في سعي دائم، ضمن تشوش السياسة الأوروبية، وراء خيط من شأنه إنقاذ فريدريك؛ ففرنسا المنخرطة في حرب السنوات السبع المدمرة، تتحمل في كندا وخارجها، عبء إنكلترا والحرب القارية. ومن مصلحتها أن تتخلص من مشكلتها مع ألمانيا. ففكر فولتير في أن يقترح بروسيا، حليفة إنكلترا، لتقوم بدور الوساطة ما بين فرساي ولندن، وأن تقوم فرنسا، حليفة النمسا، بالوساطة ما بين برلين وفيينا.

في أثناء ذلك مات الكاردينال دو تانسان، وقد أرهقته الدسائس. ظن فولتير أنه مات غمّا لعجزه عن الوصول إلى حل مرضٍ في معاملته الأخيرة التي لم يكن يؤدي فيها، مع ذلك، سوى دور دمية. «كنت راضيًا في السر على أني الوسيط في تلك القضية الكبرى، وربما كانت لدي متعة أخرى، تمثلت في إحساسي بأن السيد الكاردينال يُعِد بنفسه عملية منفرة. وكان قصدي الاستهزاء به وجعله يذوق المرار، لكن ما كان في نيتي جعله يذوق الموت». إلا أنه يكذب، إذ كان مؤمنًا بنجاح القضية. إنه يقوم بتسويد صفحته بتمهل، ويتصنع الشر بعد وقوع الواقعة، وإذا ما نعته أعداؤه أحيانًا بالمخادع، فينبغي التسليم بأنه يعِد لهم أحيانًا أفضل المناسبات ليتعرضوا للشتائم.

ماذا يفعل الصديق برني؟ إنه يلوذ بالصمت، فهو لا يردّ بسطر واحد على ملاطفات فيلسوف الدبليس، ومع ذلك فهو يعمل على تحريضه بوساطة دارجنتال: «أنت تعلم كم كان صمته مَقيتًا بالنسبة إلي من بعد الطلب الذي نصحتني به والطريقة التي كتبتُ بها إليه». فيا له من عوَز رهيب! فليس هنالك من بطاقة بسيطة من وزير لجعل أهل جنيف يقرأونها! وما المطلوب منه؟ «كلمة نزيهة... إن عدم الرد على رسالة إهانة لا ينبغي أن توجه البتة إلى رجلٍ عشتَ معه واستطعت الإفادة من أنواره». فما معنى هذا؟ معناه أن فولتير الذي لم يتغير، استعجل فأوصل إلى الوزير الجديد «الأنوار» التي لديه حول بلاط فيينا وبلاط برلين وحول المارغراف... علاوة على ذلك، ليست فرساي معترفة بفضله، وحتى بابيه لا بوكتيير، تلك التي لا تقل قسوة عن الكاردينال دو فلوري!

أخيرًا وصلت البطاقة. وصلت مجدولة جدلًا رائعًا ومعطرة ومزخرفة. فزالت المرارة على الفور، وأُفعِم فولتير فرحًا فجعل دارجنتال يشاطره فرحته:

«يا صديقي الغالي والمحترم، تلقيت رسالة من بابيه التي قايضت بسلة أزهارها حقيبة الوزير، وأنا مغتبط لذلك». وقدر وهو يقرأ تلك السطور المزهرة أنه ما من وزير قرأ ذلك الأسلوب قط. «أشكرك لأنك منحتني باقة بابيه السمينة». وكتبت له السيدة دو بومبادور، وكتبت بابيه مرة أخرى. وهنالك أزهار على الدوام، وهي أزهار من البلاط، وفولتير يدرك ذلك... فيقول: «يمحضني برني الصداقة نفسها 'دائمًا'، وتبدي السيدة دو بومبادور حيالي العطف نفسه 'دائمًا'. وصحيح أن هنالك 'دائمًا' بعض الأتقياء الذين ينظرون إلي شزرًا، وإن الملك يحمل 'دائمًا' في نفسه قيامي بشغل منصب الحجابة».

قلما أقام الملك وزنًا لـ «حاجب ملك بروسيا»، لكنه لم يحب فولتير قط، فلقد سامحه، لكنه ما عاد يراه وليست لديه أي رغبة في رؤيته من جديد.

المباهج الأولى هي الفضلى

كانت المائدة مفتوحة في الديليس على نحو دائم؛ فمسافرون كثيرون يأتون إلى جنيف لاستشارة ترونشان الذي اتسعت شهرته جزئيًا بفضل فولتير. ويرى الحُجَّاج وسيطَي الوحي الاثنين معًا في آن: وسيط الطب، ووسيط الفلسفة.

استقبل فولتير في عام 1757 سيدتين كانتا مصدر بهجة كبرى بالنسبة إليه. لم تكن الأولى، واسمها السيدة دو مونفيرا ذات نفع حقيقي، إلا أنها وفقًا لقوله «خليط عجيب من التبرج والتقوى» يثير ضحكه. أما الأخرى فهي السيدة ديبيني الشهيرة، وكانت صديقة غريم. في ذلك الوقت تقريبًا، حين استقبل فولتير السيدة، تنازع غريم مع جان جاك، ولما كان غريم غير مهيأ للسفر، فقد سافرت السيدة ديبيني بصحبة زوجها وابنها والمربي. ووجه فولتير الدعوة إلى الجميع، فكان الجميع مفعمًا غبطة، وأعارهم عربته، فصار يتبادل والسيدة رسائل رائعة على أوراق للعب. فكان يقول لها: «إن بطاقاتك في نظري لوحات بريشة رفائيل، حين تزينها كلمة بخط يدك». أما تلك المرأة، وهي داهية حقيقية، فكانت تعلم أن في وسع فولتير أن يغمرها بالأزهار، وأن يقوم من بعد بالسخرية منها، لكنها انخرطت معه في التمثيلية: «لقد بذل قصارى جهده ليكون ظريفًا، ولا يصعب عليه التوصل إلى ذلك، إلا أني، وعلى امتداد البلاد، أفضل العيش مع السيد ديدرو الذي لا ينظرون إليه على قدر ما هو أهل له».

إن ديدرو هنا موضع احترام كبير، أما الرجل العظيم فهو دالامبير. وكان بودها تصحيح ذلك، فهي تحظى بمن يصغي إليها، وهم يتلقفون كل ما تقول لهم: «حينما أتكلم، أجد من الأفواه والعيون المفتوحة، على قدر ما هنالك من الآذان: إن ذلك لأمر جديد علي ويثير ضحكي». لكن على الباريسية المسافرة أن تكون حذرة: إن فولتير، على الرغم من وجوده في المنفى، لا يقل باريسية عنها، وماذا عن هيئته الساذجة؟ إن عليها أن تلتزم جانب الحذر.

وهي تعطينا صورة عن ابنة الأخت: «تكاد، وأنت ترى ابنة شقيقة فولتير، أن تموت ضحكًا؛ إنها امرأة قصيرة وسمينة، ومستديرة الشكل، وتناهز الخمسين، وهي امرأة لا مثيل لها، إنها دميمة وطيبة، تكذب دونما قصد منها وبلا نزعة إلى الشر. وتبدو ذكية مع أنها عديمة الذكاء. فتصيح وتقرر وتجادل في السياسة والشعر وفي الذكاء والغباء، وذلك كله بلا مباهاة ومن دون أن تسبب الضيق لأحد على وجه الخصوص. وعليها فوق ذلك مسحة من الذكورة التي تظهر على الرغم مما تبدي من تحفظ. وهي تهيم بخالها بوصفه خالًا وبوصفه رجلًا. أما فولتير فيحبها ويسخر منها ويحترمها: وإن ذلك البيت، بكلمة واحدة، هو ملجأ يجمع التناقضات وعرض يفتن المتفرجين».

إلا أنها لا تقيم لذلك العرض اعتبارًا كبيرًا، ويبقى أننا، وبفضلها، قد أحِطنا بذلك علمًا. إن السيدة دوني انكشفت على حقيقتها؛ فالمرأة الداهية رأت من النظرة الأولى «أنها تحبه بوصفه خالها وبوصفه رجلًا». ولقد استحوذ الساحر عليها إلى حد أنها لم تستطع، طوال ثلاثة أيام، أن تكتب إلى غريم، فطلبت من فولتير السماح لها بذلك، فقبل بشرط أن «أكتب على مرأى منه ليرى ما تقول عيناي فيما أنا أكتب. ولقد جلس قبالتي، يعبث بجمر الموقد ويضحك ويقول إني أسخر منه وإني كمن يقوم بنقده. فقلت له: إني أكتب كل ما يقول لي لأن ذلك يساوي كل ما يجول في فكري».

هذا ما يهوى فولتير فوق كل شيء: إنها صحبة السيدات الفائقات أناقة وذكاء، يهوى الزهرة الأكثر رقـة، في الحضارة الأكثر ذكاء.

استقبل كذلك سيدة شاعرة، وشهيرة في زمانها، هي السيدة دو بوكاج التي حملت أوسمة من الأكاديميات في فرنسا وخارجها كافة. وكانت

امرأة بسيطة ومتواضعة وجميلة، كما أنها متزنة وتحب زوجها، فتخلى فولتير لهما عن سريره. وكتبت هي تقول عن مضيفها: «إنه يجمع إلى كياسة رجل البلاط مزايا حضور الذهن الذي تشيعه الفطنة على التهذيب، فيبدو لي أكثر فتوة وبصحة أفضل مما كانت عليه حاله وهو مقيم في بروسيا. ولم يفقد حديثه شيئًا من محسناته، أما روحه الحرة فتضيف إلى ذلك كثيرًا من البهجة».

اختُصرت الإقامة لأن فولتير سلك الطريق إلى مانهايم في تموز/ يوليو 1758، بعد نداءات ملحة جاءته من الأمير الجرماني. وفي تلك المناسبة قدم له صديقه برني إكرامية؛ إذ منحه لقب نبيل من بطانة صاحب الجلالة، في سبيل أن يحمل فولتير جواز سفر يليق به. وحقيقة الأمر أن المنصب جرى بيعه منذ زمن طويل... لكن بابيت يجيد القيام بلفتات لطيفة.

ترك في الديليس ابنتَي أخته: السيدة دوني وشقيقتها السيدة دو فونتين. لقد كانتا تقومان بحفظ أدوارهما في مسرحيات كوميدية، لأدائها بعد رجوع الخال.

كانت له على الطريق محطات رائعة عند مارغراف (مركيز) بادي دورلاخ، ثم عند مارغراف هيسي دارمشتات التي رغبت في أن ترسم له صورة بعجينة الباستل (Pastel). وكتبت له، من بعد رحيله: «إني أستسلم للفكرة الرائعة بأن ذلك سيحول دون أن تنسى شخصية تقف في صفك. قد يكون ذلك وهمًا، لكن لا تحرمني منه يا سيدي، فأنا مفتونة بذلك». فكيف له ألا يحب ألمانيا الغالية!

لم يكن توجهه للقاء الأمير من أجل الإطراءات وحفلات الأوبرا وموائد العشاء فحسب، بل كان متوجهًا للقيام بصفقات مالية تتعلق بثروته وثروة السيدة دوني. إنها مسألة: الإيراد مدى الحياة، فكان يوظف مبالغ طائلة في توظيفات خاسرة، فيعطونه عليها فوائد ضخمة، ولا سيما أن سحنته كانت تقنع المقترضين بأنهم لن يدفعوا له طويلًا. فكان المقترضون يظنون أنهم يحققون صفقات ممتازة باقتراضهم من رجل مشرف على الموت. وظل الأمير الجرماني صديقًا له على الرغم من اضطراره إلى دفع إيراد باهظ طوال عشرين عامًا، وقد كتب له الأمير قائلًا: «كن واثقًا من التقدير الكامل الذي سأحمله طوال حياتي حيال 'السويسري الصغير'». وكان ذلك هو اللقب الذي أُطلِق على فولتير.

عاد في 24 آب/ أغسطس إلى جنيف مفعمًا غبطة من السفر، ومغتبطًا أكثر بالرجوع إلى بيته، لكنه بدأ استعدادات على الفور لقضاء فصل شتاء مريح. ولما كانت مونتريون بعيدة بعض الشيء عن لوزان، اشترى في المدينة المنزل رقم 6، في شارع غران شين (السنديانة الكبرى). «المنزل ذو واجهة من خمس عشرة نافذة، ولسوف أرى من سريري بحيرة ليمان الجميلة ومنطقة سافوا كلها، ناهيك بجبال الألب. وتتمتع السيدة دوني بموهبة تأثيث المنازل وإقامة المآدب الفاخرة فيها، فإذا ما أضفتُ إلى ذلك مواهبها الموسيقية والإلقاء المسرحي، خرجت بابنة أخت تصنع سعادة حياتي».

ولسوف نتناول من بعد المواهب الفنية لابنة الأخت. إنه يعاشر خيرة القوم في لوزان: يأتي «أسياد البلد» سيرًا ليتناولوا العشاء في بيته، فيقول له أحدهم: «ولِمَ تقوم بنظم ذلك الكم من الأشعار، إنها بلا طائل، فأنت تستطيع بما لديك من موهبة أن تصير شيئًا ما. وانظر إلي أنا، إني قاضٍ». إن ذلك ليُطربه. لكن أولئك الصحب الطيبين لا يفقهون بعض المزاح الذي هو تحديدًا الخطيئة الصغيرة لسيد الديليس. فالقاضي ينذره صراحة قائلًا: «يا سيد فولتير، يا سيد فولتير، يقولون إنك كتبت شيئًا ضد الله، وذلك أمر طالح، لكني آمل أنه سيغفر لك، ويقولون إنك كتبت ضد الدين، وذلك سيئ أيضًا، ويقولون إنك كتبت ضد سيدنا يسوع المسيح، فذلك سيئ جدًا جدًا، لكنه سوف يشملك بمغفرته الواسعة. لكن يا سيد فولتير، احترس من أن تكتب ضد أمرائنا، أصحاب السمو. لأن هؤلاء لا يغفرون أبدًا». فكان فولتير يقرأ هذا المقطع أمام الجمهور، وهو يقلد صوت القاضي ونبرته، وكان ذلك المشهد مما يميت المدعوين ضحكًا، لكن كان خيرًا له لو أخذ ذلك التهديد في الاعتبار.

الجاذب الأكبر هو المسرح الذي أقيم في أهراء كبير متاخم متصل بالصالون من بعد خرق الجدار الفاصل، وكان مع مدعويه اللوزانيين وإياه في حالة من الهذيان. فالإنكليزي غيبونز، وهو لا يزال شابًا، يمضي الشتاء في لوزان، وهو من المواظبين على المسرح، وشهادته إثبات لما نعرف عن فولتير الممثل: «كانت صياغة الإلقاء تعتمد على تفخيم المسرح القديم وإيقاعه (كان فولتير في عام

1759 يتأخر قليلًا، ويلقي كما في زمان آنسات سان سير)، ويعب من حماسة الشعر كلما عبّر أكثر عن عواطف الطبيعة».

وكان ذلك الإنكليزي الشاب الذي يجيد الحكم، يصفق تصفيقًا شديدًا وكانت حماسته ملحوظة: فتلقى بطاقة لحضور العروض كافة. ولقد لاحظ أن «فكر السيد فولتير وفلسفته ومائدته ومسرحه ساهمت مساهمة ملموسة في الارتقاء بمدينة لوزان وصقل عاداتها...».

تسبب الشاب غيبونز، على غير قصد منه، بواقعة مزعجة للشاعر الذي كان يرى، ضمن المنظر الجميل الذي يشاهده على الشاطئ المقابل، دير ريباي، حيث قيل إن دوقًا من سافوا أفرط في زمان قديم في القصف والشراب، قبل أن يتوب فيلتمس تاج القديس بطرس فيصير بابا روما. وقام فولتير بنظم قصيدة على طريقته في ذلك الموضوع، وأخطأ في إشراك أبيقور وريباي وواحد اسمه أميديه من سافوا بالحنين إلى التاج البابوي، ولم تتم كتابة تلك القصيدة ولا طباعتها: كانت تلقى على الخاصة فحسب. وواقع الحال أن غيبونز ذا الذاكرة الأسطورية سجلها أول مرة، وأعاد تلاوتها خارجًا فانتشرت، وعلم دوق سافوا بالأمر، فقدم بيانات إلى مجلس سافوا الذي يسمح بإهانته فوق أرضه، وطالب الدوق بفرض الصمت على الشاعر، لكن الأمركان جعجعة من غير طحن.

في أثناء أحد العروض كانت فتاة تتولى التلقين، فقالت سهوًا بيتًا من الشعر لم يكن في النص، لكنه بدا ممتازًا. فهتف فولتير قائلًا: «عوض الله عليك، فقد أعطيتني صدقة». وكانت المسكينة تدين بكل شيء لله، وذلك أكيد بسبب قصور في ذكائها إذا ما حكمنا عبر الإجابة عن فولتير يوم قدم لها واحدًا من كتبه، فرفضته قائلة: «كلا، يا سيدي، إني لا أريد أن أحرمك إياه»، ويبدو أنها كانت مكرسة للسماء.

يروي المغامر الفينيسي الشهير كازانوفا أن حسناوات جنيف كن يكرهن فولتير الذي يثير سخطهن بسورات غضبه، وإنه لأمر صحيح أن فولتير يثور لأتفه الأسباب، فينساق إلى استنزال اللعنات، ويرفقها بحركات مدهشة جدًا. لكن يبدو أن حضور إحدى سورات غضب فولتير هو، بخلاف ذلك، مشهد شديد التسلية والإمتاع. فربما كانت حيويته وحركات يديه وتشنجات وجهه كوجه القرد، تسيء إلى مقامه، إلا أنها مضحكة جدًا. فالأميرات الألمانيات يُصبن بالغشيان سرورًا

حين يتأجج على نحو ما يفعل. ناهيك بأنه كان يقع في شتائمه على اكتشافات خارقة لا تلبث أن تحقق له، هو نفسه، أكبر تسلية، فكان أول من يضحك من تشنجات سحنته. والأرجح أن جمهور مشاهديه المفضل، إضافة إلى فريدريك، إنما هو نفسه. ولكي يجد المرء ذكاء ومرحًا في شخصٍ ما، لا بد له من أن يتمتع هو نفسه بها، فما من أحد استمتع بنفسه على قدر فولتير.

هاوٍ لا يقبل الإصلاح، يريد إحلال السلام في أوروبا

استأنف فريدريك، الذي نجا بفعل قلة كفاءة سوبيز في روسباخ، تمسكه بالحياة. وما عادت مسألة الموت موضع بحث؛ فقد انتصر في معركة كوسترين، وتوجه مخاطبًا فولتير بلهجة مرحة، من فوق رؤوس الجماهير الغبية: «أنا شديد الامتنان لفيلسوف الديليس لما يولي من اهتمام لدون كيشوت الشمال الذي يقود حياة ممثلي الحملة، فيؤدون أدوارهم مرة على مسرح ما ومرة أخرى على مسرح آخر، فيحظى بالتصفيق في بعض الأحيان. ولست أدري ما سينجم عن هذا كله، لكني أعتقد مع الأبيقوريين الطيبين أن الذين يقفون متفرجين هم أكثر سعادة من الذين يقفون على السقائل الخشبية».

جاءت طعنة عنيفة، هي الوحيدة التي يمكن أن تنتزع الشكوى من صدر فريدريك، إنها وفاة «الأخت غيميت»، الدوقة الرقيقة المارغراف دو بايروت. لم تكن تعيش إلا من أجل أخيها، وكان فريدريك يعلم من دون ريب أنها الإنسانة الوحيدة في العالم التي أحبته حبًا حقيقيًا، فطلب إلى فولتير أن يكتب قصيدة لتخليد ذكراها: «أيها الظل المبجل، أيها الظل الحبيب، أيتها الروح البطولية الطاهرة...»، وهي أيضًا قصيدة مناسبات، فصاحتها لا تكاد ترى، وهي متكلفة وعادية. فيا لها من مسكينة، غيميت، إنها لن تعمر طويلًا حتى الجيل اللاحق، وهي لا تحمل سوى ذلك الزاد الضئيل. ووجه فريدريك انتقادات طالبًا قصيدة أخرى، فقام فولتير الذي يعرف خيرًا من سواه أين هي نقاط الضعف في عمله، بنظم قصيدة ثانية، فقبل بها فريدريك، وقال: «الحق أنها لن تقلل من قيمتك. فأرجو منك أن تطبعها وتوزعها في أرجاء العالم كافة». وكان قد قال له من قبل: «ينبغي أن تبكي أوروبا معي فضيلة قلما كانت معروفة»، ولئن لم يكن ذلك ألمًا فهو إعلان دعائي لا ريب فيه.

لم تستدر تلك المرثية دموع أوروبا، ولا دموع أي قارة أخرى، إلا أنها عملت على التقريب بينهما قليلًا. فقد مضت ست سنوات منذ أن اندس ظل فرايتاغ بينهما. لكن فريدريك تجرأ فذكر موبرتوي، طالبًا من فولتير أن يكف عن تنغيص حياة رجل مشرف على الموت. موبرتوي مشرف على الموت؟ يا لها من أكذوبة كبيرة! كان على علم بأن غريمه كان في مدينة بال حيث تُقام عليه دعوى بسبب فتاة استولدها طفلًا، فيا له من مشرف على الموت! وتوجه فولتير بدعاء صادق نابع من أعماق القلب: «سوف أتمكن، إن شاء الله من حضور تلك المحاكمة». لكن الرسالة تختتم بلهجة مختلفة تمامًا؛ لهجة انفعالية ومؤثـرة: «سوف أموت عما قريب من غير أن أراك، أنت لا تقيم وزنًا كبيرًا لذلك، وسأسعى من ناحيتي ألا أقيم وزنًا. أنا أحب شعرك ونثرك وفكرك وفلسفتك الجريئة والحازمة، وأنا لا أخاطب الملك أو البطل، فذلك شغل الملوك، إنما أخاطب الذي استهواني فأحببته والذي كنت مغتاظًا منه على الدوام».

فيا لها من صداقة، متعرجة ووعرة ومعذبة، أما في أعماقها فعميقة الجذور. يتكلم فولتير كلام صنو لصنوه، فهو ليس بكلام رجل بلاط، إنه أكثر بساطة وأقوى وأصدق، إنه الملك فولتير الذي ثار لديه الحنين إلى صديقه الملك فريدريك. والحال أن فريدريك ليس حساسًا حيال تلك الصراحة، لأنه، من ناحية الملكية، لا يعرف سوى ملكيته هو، فيشير إلى النبرة في رسالة فولتير، والإشارة شديدة: «تعلم، وأنت في سنك، بأي أسلوب يليق أن تكتب إلي، واعلم أن هنالك جوانب من الحرية مباحة ووقاحات من رجال الأدب والفكر، لا تطاق. فعليك أن تصير فيلسوفًا أي عاقلًا، وعسى أن تقوم السماء التي وهبتك فكرًا عميقًا فتهبك حكمًا متوازنًا».

إنه لكلام قاسٍ، والرجوع إلى الماضي ما عاد يسيرًا: «أنا أعلم علم اليقين أني تدلـهت بك ما دمت أيقنت أنك لست مناكدًا ولا لئيمًا... لكنك وجهت إلي الكثير من المنغصات من كل صنف ولون... وحسبنا كلامًا في هذا الموضوع. لقد غفرت لك بقلب مسيحي حقًا، وأنت في نهاية المطاف قدمت لي من البهجة والخير أكثر من الشر، وأنا أتسلى بقراءة مؤلفاتك أكثر مما أغتاظ من رسائلك».

يسعنا القول إن حساسية فولتير النسبية جدًا، وحساسية فريدريك أيضًا، ما

كانتا لتجعلا تلك المنغصات تتخذ منحى دراميًا، أما حساسيتنا نحن، الملوثة من دون شك بالرومانسية، فكانت ستتأثر تأثرًا بالغًا بالمنغصات، لذا فإن ذلك التعلق الذي لا يرضى بالموت، ولا يعيش إلا على نوع من العنف الذهني، يبدو لنا، من دون شك، أكثر إيلامًا مما كان يبدو لكل من فولتير وفريدريك، وفي أي حال فقد تكيفا مع ذلك الوضع تكيفًا لا بأس به.

لكن ذلك الكلام المهين لم يتسبب بقطيعة بينهما، فيسعنا أن نراهما يتبادلان البسمات حول الهزائم الفرنسية، وحرب السنوات السبع في أوج أوارها، وذلك يتسبب لنا بصدمة. أما بالنسبة إلى فولتير، وحين يصاب الجيش بهزيمة، فالهزيمة لم تصب فرنسا، بل أصابت جيش الملك، وليكن ما يكون بشأن الملك. وليس لنا أن ننسى أن نصف باريس التي كانت تهتف تهليلًا لانتصارات فريدريك، لكن فولتير، وبخلاف ذلك، لم يبلغ ذلك الحد. فقد كتب إلى تييريو قائلًا: «يرسل ملك بروسيا إلي على الدوام قصائد وهو يخوض المعارك، لكن كن على ثقة من أني أحب وطني أكثر من قصائده، وأني أحمل على الدوام المشاعر التي ينبغي لي أن أحملها».

لا بد في نهاية الأمر من أن نشعر بالراحة ونحن نسمعه يقول له ذلك.

في عام 1759، أوقعت مجاملة فولتير صديقه المقلق، في ورطة خطرة حيال بلاط فرنسا؛ إذ إن فريدريك كان يبعث إليه على الدوام بـ «غسيله القذر»، فأرسل إليه دونما احتراس رزمة من الشعر، أشبع فيها لويس الخامس عشر والسيدة دو بومبادور إهانات وشتائم كما لا يصدر إلّا عن أكثر الهجائين حِطة. وحين تلقى فولتير الرزمة انتابه إحساس، وما كان خاطئًا، بأنها قد سبق وفُتِحت، ولم تكن تلك الواقعة بالنادرة، فانتابت فولتير رعدة هلع. لو عرفوا في فرساي أنه يقوم بتصحيح مثل تلك البذاءات، ألا يمكن أن يتهموه بأنه يقوم بكتابتها أو بالإيحاء بها؟ فسلم الرزمة إلى سفير فرنسا في جنيف الذي عمل على إيصالها إلى وزير الخارجية، وكان يأمل على ذلك النحو أن يكون في مأمن من كل تواطؤ.

قال فريدريك في لويس الخامس عشر ما يلي:

«دمية السيدة بومبادور

الذابلة بتأثير أكثر من دمغة

من أشكال الخزي في العشق...».

أما عن المحظية: «السليلة الدنيئة لرجل مال مخلوع ومنفي»، فيكتب فريدريك قائلًا:

«وتلك المفاتن الربانية التي ما كنا لنعرفها
إلا في معبد معتم وتحت لواء فينوس».

لم يُخفِ فولتير عن فريدريك أنه يخشى التعاون معه في ذلك العمل، وقال له بالمنطق السليم لرجل من آل أرويه، إنه لكتابة مثل تلك الأشياء «لا تلزمه العبقرية فحسب، بل يلزمه أن يكون على رأس مئة وخمسين ألف رجل»، أما وهو أرويه لا أكثر، فلا يسعه أن يتنطح لكتابة تلك الأبيات، ولا حتى لقراءتها، ولا سيما أنه تحت أنظار الشرطة.

وأغرق فريدريك في الضحك لمخاوف فولتير، إذ وجده مفرطًا في الوجَل: «في وسع المرء أن يكتب ما يشاء ودونما عاقبة، من غير أن يكون تحت إمرته مئة وخمسون ألف رجل، بشرط ألا يقوم بطباعة ما يكتب». وإذا ما طبعها الناشر على غير علم منك؟ ومذيلة باسمك أنت؟ لكنه يواصل مبرهنًا على أنه كُتِب ما يفوق أبياته جرأة: «والبرهان مسرحيتك العذراء». أما وهو ماكر وظَنون كالشيطان، فهو يشك في إفشاء سر يصدر عن فولتير، ولقد قال له ذلك، فاحتج فيلسوف الديليس. فكيف يمكن الظن بقيامه بمثل ذلك الغدر؟ ويزيد الأمر إيضاحًا بقوله: «إن ابنة أختي المسكينة التي جعلتها تلك الكتابة ترتعد، قد قامت بإحراقها، فلم يتبق منها سوى آثار ضئيلة في ذاكرتها، وهي لم تحفظ منها سوى ثلاثة مقاطع جميلة جدًا».

إن ابنة الأخت، إذًا، تقدم في بعض الأحيان شيئًا من الفائدة؛ فهي تطمئن فريدريك على مصير أشعاره، وعلى جودتها أيضًا: ثلاثة مقاطع جميلة جدًا! إن عملًا رائعًا لا يموت كله، حتى ولو تحول إلى رماد. لكن فلنُطمئن أرواح الموتى عند فريدريك: إن مؤلفه لا يزال حيًا بكامله، لكنه يتربع على طاولة رئيس الوزراء، السيد دو شوازول. وكان دو شوازول ذا قلم سيال، فتطوع لأن يرد بنفسه على شتائم فريدريك، بقصيدة اجتمعت فيها باقة من أخطاء الملك البروسي ونقائصه. ولنذكر اللمسة الأخيرة، فقد كان فريدريك يستهزئ بفرساي، مملكة معاشرة النساء، وكان يستحيل رد تلك التهمة إليه، فجرى اختيار تهمة أخرى. إن اسم بومبادور في فرساي على قافية طمبور (طبال) في بوتسدام، فقـدم لفريدريك هذا الطبق:

«رقة الطبيعة وحنان العشق
هل يسعك أن تدين ذلك
أنت الذي لم تعرف النشوة
إلا بين أذرع الطبالين لديك».

أشاع السيد دو شوازول الاعتقاد بأن ذلك العمل من إنتاجه هو، لكننا نعرف أنه من نظم باليسو الشاعر المعروف. وكان فولتير متضايقًا بعض الشيء، فهم يأخذون عليه، لكن في مكان واحد «مغالاته في الإطراء». وراقه كل ما خلا ذلك، فعبّر عن سروره في مذكراته التي كتبها ضد فريدريك، لكنه استبدل بالمقطع الشائك بالنسبة إليه، مقطعًا صاغه على طريقته، ولقد قام بالاستبدال دونما وجل؛ تلك هي الأخلاق الأدبية في زمانه. ونحن نرى، على نحو ما يقول فولتير، أن فريدريك كان هو الإسكندر أحيانًا، وهو الأباتي كوتان أحيانًا أخرى. وكان فولتير يألف فريدريك كوتان، أكثر مما يألف فريدريك الإسكندر. ويعرف فريدريك من ناحيته، بوصفه رجلًا ابن عصره، بل وابن عصرنا أيضًا، أن ريشة كوتان يمكن أن تنجد سيف الإسكندر، وأنه يمكن من طريق الدعاية إصابة عدو وإضعاف قضيته على نحو ما تفعل القذائف تمامًا.

دارت دورة الطالع، فوجد فريدريك نفسه مهددًا من جديد. إنه يطمح إلى السلام، كما يطمح إليه فولتير الذي أخذ يسعى للتوسط، وكتب إلى دارجنتال كي يقترح على شوازول أن يستخدمه في سبر أغوار فريدريك، فمنحه شوازول الإذن بالكتابة إلى فريدريك. وهو شيء ضئيل، لكن تراسله لن يتسبب له بالرعدة بعد اليوم، وصار يأمل في المزيد: إنه يتمنى لو يكلفونه بمهمة سرية بهدف التفاوض للسلام، ولديه في الموضوع فكرة سوف يضعها دارجنتال بين يدي الوزير بالتلميح والإشارة من طرف خفي: «إن لوك راغب في السلام، فهل هنالك من ضير في منحه إياه مع ترك وزن معادل في ألمانيا؟». ثم يضيف: «إني أعلم علم اليقين أن لوك لا يساوي شيئًا، لكن هل يدمر المرء نفسه في سبيل القضاء على من لا يساوي شيئًا، والذي وجوده ضروري؟». وتقوم فكرته على إحلال السلام، وترك ألمانيا في حالة من عدم الانقسام بين بروسيا والنمسا: ستقوم بروسيا بعملية التوازن مع «البيت النمساوي»؛ فذلك هو «الداء الضروري». إن فولتير لا يزال عند

سياسة ريشوليو، لكنه متخلف عن الركب. وعلى ذلك فإن دوره مقتصر على جعل شوازول يقرأ رسائل فريدريك وعلى إطلاع فريدريك على رسائل الوزير. وبدأت النمسا ترتاب في تلك المعاملات التي تخشاها، وطار فولتير فرحًا: فهذا التآمر بمستواه العالي يملأه نشوة، إضافة إلى تلك المسحة من الباليه التهريجية التي يُدخلها عليه، وجرى الاتفاق على أن يقوم فريدريك بالتوقيع: فالآنسة بستريس مقيمة في غوتا (كانت مارغراف غوتا تقوم بدور صندوق البريد)، فحين تتكلم الآنسة بستريس على شؤونها وتطلب رأي «المصرفي»، علينا أن نفهم أنها تقصد شوازول. ويتظاهر فولتير بالتواضع، حتى لـيَقول المرء عنه إنه الصبي الذي يخدم في الكنيسة، وقد كلفوه بنقل بطاقات مغازلة: «أقِر أمامكِ يا سيدتي (المارغراف) بأني لا أفقه الشيء الكثير في تلك الشؤون. ولا أقوم بأكثر من نقل الكلام نقلًا بسيطًا وأمينًا لمصلحة الأسرتين أو الأسر الثلاث...». إن هذه اللعبة حوت كل شيء؛ من الطموح إلى العزة فالغرور والمنفعة، لكن فيها الأداء على وجه الخصوص والميل إلى وضع القناع، فهو المسرح الأبدي، ذلك الشكل السامي للحياة.

لكن السيدة بستريس تثور ثائرتها للاشيء، فهي مفرطة في حساسيتها وحدّتها مثل فتاة عانس، ولا يسع المرء أن يستخلص منها شيئًا لكنها تريد احتكار كل شيء. فيعبّر فولتير عن تلك الحال ويرفع الشكوى إلى دوقة غوتا. وتلك هي دبلوماسية لمصلحة قصر رامبوييه؛ فهم يقومون بتشريح أوروبا، من غير تشريح تباريح الهوى، إلا أن الطريقة هي نفسها، فالمرء يضيع ويعلق في حقول بوهيميا المتجمدة مثلما حاله في تعرجات خريطة الغرام [28]. فمن هم الجواسيس الذين تنقصهم الفطنة، ليستسلموا لخديعة تلك التهريجات؟

وكتب إلى المارغراف:

«لئن كانت مراسلتي الصغيرة مع الشخص الذي تعرفين تعرضت لبعض العقبات، فهي جديرة بأن تكافأ منك بالأزهار، يا صاحبة السمو الملكي، وأنا أظنها متبرجة بعض الشيء، ولست أنت، يا سيدتي، من أقصد بكلامي، بل هي الحسناء التي تقومين يا صاحبة السمو الملكي بمحاباة محاسنها وأشكال غرورها (كان

(28) إشارة إلى الخريطة التي وضعتها الآنسة سكودري (Mlle de Scudéry) في القرن السابع عشر، فوزعت فوقها المواقع المختلفة للتنوعات العاطفية والتدرجات الغرامية. (المترجم)

فولتير يلوذ بجنبيه ضحكًا لكلامه بتلك النبرة عن الحسناء فريدريك بستريس...). لقد باحت بعشقها (حيال سيليزيا) لصديق حميم ليس بذي قلب رقيق، وأظن أن عشيقها غدا بارد العاطفة...».

يسعنا أن نفهم أن العشيق البارد هو شوازول، والصديق الحميم القليل التفهم، هو الوزير الإنكليزي الرهيب بيت.

إذا ما نحّينا الممازحات، فإن فولتير كان راغبًا في رؤية تلك الحرب العبثية والمنهكة تضع أوزارها، فهو يرى فرنسا خاسرة على الوجوه كافة. فليس من خاتمة حسنة لصفقة بدأت بداية سيئة جدًا وأُديرت إدارة أسوأ؛ وهو ذو خبرة في عالم الصفقات. يبقى أن حجته ضد حرب السبع سنوات خارج نطاق الشك: فهو يكره الحرب، بأشكالها كافة، لأنها حرب ليس إلا. فهي تجر الخراب، وهي عنيفة، وهي قبل هذا وذاك مسألة حمقاء. فالحرب تمجد على وجه التحديد العكس تمامًا لكل ما يحب؛ فهي تهدم ما يهوى، وتشيد ما يكره. فالحرب تحديدًا عكس طبيعة فولتير. إن طبيعة الإنسان وجوه الحقيقي، في نظر فولتير، إنما هما المجتمع: المجتمع المتمدن والمهذب، والعقل والعلم والفنون والرفاهية، وهو باختصار، الذكاء ضمن هناء العيش، وإن ذلك الجو هو جو السلام.

وهو يعول كثيرًا على شوازول. ذلك أن شوازول، وفقًا لما يقول عنه، ذو روح طيبة، وهذا يعني أن أفكاره إنما هي أفكار فولتير. فليس رجلًا ذا فضيلة نفورة، لكنه ليس متعصبًا: إنه ذو نزعة إنسانية، ويريد الخير العام، ويريد خيره هو أيضًا، بكل تأكيد، لكن من غير حدة، فهو إنسان ظريف، أي إنه خالص التهذيب. وهو جدير بالحديقة الفولتيرية.

يبقى أنه لا يرد بانتظام على الآنسة بستريس، فيقول فولتير: «إن هذه الأخيرة تكتب أربع رسائل في مقابل رسالة واحدة من الدوق المحبوب».

ذهبت تلك المساعي كلها أدراج الرياح بفعل مناورة من أعداء فولتير، أو أعداء فريدريك الثاني، أي في نهاية المطاف، من أشخاص يريدون مواصلة القتال، وعملوا في باريس على طباعة أعمال فيلسوف سان سوسي. كانت تلك النصوص مخصصة لبعض الأصدقاء النادرين والحميمين الذين يلتقون على موائد العشاء

في سان سوسي، لكنها لم تكن موجهة إلى الناس علنًا. فوجهها التنويري ضئيل، وإن نشرها والحرب مستعرة، إنما يهدف إلى التقليل من اعتبار فريدريك وخلق تيار من الرأي العام العدواني الموالي لحرب الاستنزاف.

كان وقع الضربة قاسيًا على الذين يسعون إلى السلام، وواقع الحال أن فولتير بنى أوهامًا حول شوازول، فالوزير لم يكن راغبًا في السلام، وكان في وسعه وقف طباعة «أعمال» فريدريك، لكنه ترك الناشرين يقومون بعملهم. وكان فولتير هو الذي اتُّهم بالإعداد لعملية النشر تلك، وبدا ذلك مخالفًا للعقل والمنطق. فالنشر يحيل جهده كله وآماله كافة إلى العدم، وحتى فريدريك ارتاب فيه، فالظن لديه أمره يسير. يبقى أن الآنسة بستريس نظرت إلى الموضوع نظرة استخفاف: «أنا في غاية الاغتباط، لأن كل ما ألحقوا بي من شر اقتصر على طباعة أشعاري طباعة مستعجلة». وسواء أكان ذلك الدافع هو النزاهة أم الاحتشام، فإن القائمين على تلك الطبعة نقحوها من كلام الفجور. أما وقد أصبحت الأشعار أقل فضائحية، فإنها فقدت تقريبًا أهميتها كلها، والحق أن أعداء فريدريك في فرساي ما كانوا أكثر مهارة في الحرب الكلامية منهم في ساحة المعركة.

حينذاك، تحديدًا، ارتأى فولتير أن الخدمات التي أداها للآنسة بستريس تستحق تعويضات من صاحب الجلالة البروسية، عن الأضرار التي أصابته في فرانكفورت. أما فريدريك الذي ما كان يتمتع بذاكرة قوية مثل ذاكرة فولتير، فأجابه بأن لا علم له بشيء من تلك الأضرار المزعومة، وأن الشاعر إذا كان يسعى وراء تعويضات فحري به أن يتوجه إلى شميت. كانت الطعنة عنيفة. لكن لـمَ وجِّهت إلى شميت لا إلى فرايتاغ؟ ذلك أن فرايتاغ قضى نحبه. وهذه هي كلمة الرثاء التي قالها ملكه في تأبينه ليشكره على حماسته: «لا بد أنه كان مندهشًا من أنه مات ميتة طبيعية». إن ذلك الكلام يسلط على الخادم الأمين إضاءة عجيبة؛ فهل كان جديرًا بحبل المشنقة؟

خلاصة الكلام، ليس هنالك من تعويض. وتوارت الآنسة بستريس، ومن ذلك الحين والكلام يدور علنًا. فإما أن يكون تبادل ملاطفات مكشوفة وإما أن يكون استخدام المخالب. والأمر الأساس ألّا نحيد عن الهدف. ويحيطه فريدريك علمًا بنبأ موت موبرتوي، وبمكر متعمد يغمره بالأزهار، وهذه كلها طعنات حراب

موجهة إلى صدر فولتير. ولم يتوانَ فريدريك أيضًا عن تذكيره بفظاظاته حيال رئيس أكاديمية برلين الذي لا مأخذ عليه:

«وعليك أن تئن من السواد
الذي يغلف قلبك الفاسد».

فردّ فولتير: «لا أفكر أنا نفسي إلا بالموت وساعتي تقترب، فلا تعكرها علي بملامات ظالمة... لقد أسأت إلي بما فيه الكفاية، فجعلتني أدخل في قطيعة أبدية مع ملك فرنسا، وأفقدتني عملي وتعويضاتي، وأسأت معاملتي في فرانكفورت، أنا وامرأة بريئة؛ امرأة ذات اعتبار جُرت في الوحل وأدخِلت إلى السجن. وفي ما بعد، ومن طريق تكريمي برسائلك، جئت تفسد عذوبة ذلك العزاء بملامات مُرّة، فهل من الممكن أن تكون أنت الذي تعاملني على ذلك النحو، في حين أني لم أنشغل منذ ثلاثة أعوام، مع أنه انشغال بلا طائل، إلا بالسعي لخدمتك، ولا أقصد من وراء ذلك إلا أن أسلك درب طريقة تفكيري».

ما كان لشيء أن يكون مسليًا في نظر فريدريك مثل تلك الشكاوى التي كانت تروقه إثارتها، فيستمتع بها. فهل يكون هذا الخروج العنيف دليلًا على القطيعة؟ إن ذلك لمستبعد، وهذه عودة إلى الماضي، ويرد عليه فريدريك قائلًا إنه «لو لم يكن يعشق عبقريته عشقًا جنونيًا» لكانت انتهت واقعة فرانكفورت نهاية مريعة بالنسبة إلى الشاعر. ولا ريب في أن فولتير عرته رعدة من جراء ذلك... والواضح أن الذين يسخرون من توقيفه في فرانكفورت، يفعلون ذلك باستخفاف. لكن ما عجز فريدريك عن تحمله في ملامات فولتير إنما هو التعرض لذكر ابنة أخته التي يمقتها. «ابنة الأخت هذه التي تسبب لي السأم»، وكانت تلك الكلمة آنذاك قاسية جدًا. وليس فريدريك وحيدًا في رأيه حول هذه النقطة، فابنة الأخت كانت مصدر ضيق لأشخاص كُثر. ففولتير يفرط في الحديث عنها، ويبالغ في جعلها تحتل الصدارة، وقد رشقه فريدريك بسهمه حين قال: «يأتي الناس إلى ذكر خادمة موليير، لكن ليس من يذكر ابنة شقيقة فولتير».

وسط تلك المشاجرات كلها، يحلمون حلمًا دائمًا بالسلام، لكن ما كانت لندن ولا باريس راغبتين فيه. وإن فولتير وفريدريك وحدهما هما الطامحان إليه. وفي نيسان/ أبريل 1760، استقبل فولتير في الديليس، رجلًا إنكليزيًا اسمه المستر

فوكس، وهو ابن الخطيب الشهير، ومن بعد أن أصغى بكل لباقة إلى نشيد السلام الذي تلاه فولتير على مسمعيه قال له قولًا قاطعًا إن أمانيه عقيمة. وكان ذلك صدمة لفولتير، لكنه اعترف، من بعد أن أعمل تفكيره، بأن زائره يفضُله اطلاعًا على حقيقة الأمور، فالحرب سوف تتواصل. لقد أضاع فولتير وقته وذهب جهده سُدى، لكنها كان فترة استجمام لا بأس فيها.

منغصات جديدة في الديليس، وتغيير جديد للأجواء

جاءت في ذلك العام، 1758، قضية لتقض مضجعه، وتنغص عليه عيشه في لوزان، ولنقل إنه تدخل مرة أخرى في ما لا يعنيه؛ إذ قدّر أحد سكان جنيف، واسمه سورين، أن الوقت صار ملائمًا للعودة إلى فرنسا التي هجرها أهله لدى إلغاء مرسوم نانت[29]. وعاد فاحتل موقعه، لا في قلب موطنه فحسب بل داخل الكنيسة الكاثوليكية أيضًا. وتفجر الغضب بين صفوف الكالفِنيين في جنيف ضد المرتد، فوقف فولتير في صفه ومعه ثلاثة قساوسة، بوليبه واحد منهم. وأسوأ ما في الأمر أن الكالفِنيين حاولوا الانتقام من ذوي سوران الذين ظلوا في جنيف، فاتهموا والده العجوز بارتكاب سرقة قبل ذلك التاريخ بأربعين عامًا! وبدا الاتهام متأخرًا جدًا، فهل كانوا سيوجهونه لو أن الابن لم يرجع إلى فرنسا؟ وقف فولتير والقساوسة الثلاثة في وجه متهمي سورين، وها هو غراسيه المشبوه يظهر هنا. لقد دخل إلى الحظيرة مصممًا التصميم كله على الثأر، فوقف في الصف الملائم، وقام بطباعة أهجية أدخل فيها مسرحيات غير معروفة لفولتير، وردود دحض من شأنها أن تُظهِر لأهل جنيف حقيقة ضيفهم الشهير ومدى خطورته. فشعر فولتير بالخطر وسعى من جديد للعمل على نفي غراسيه، وكان يعول على دعم عالِم واسع الشهرة وعميق التبجيل، هو السيد هالر الذي كان مقيمًا في برن. ونحن نعرفه، فهو هالر ذلك الرجل الصالح والفاضل الذي غادر ألمانيا بعد حملة الافتراءات التي شنها عليه ذلك الأحمق لامتري. وكانت تلك الافتراءات، وحالة اليأس التي

---

(29) مرسوم أصدره الملك هنري الرابع في عام 1598، لتسوية وضع الإصلاح الديني في فرنسا ومنحه صفة شرعية، فصار البروتستانت (الكالفِنيون) أحرارًا في ممارسة طقوس عبادتهم. وبعد مئة عام تقريبًا، عاد الملك لويس الرابع عشر، فألغى مرسوم نانت، الأمر الذي أدى إلى هجرة حوالى ثلاثمئة ألف فرنسي إلى سويسرا وألمانيا. (المترجم)

انتابت هالر بسببها، مصدر تسلية كبيرة لفولتير آنذاك. لكن هالر لم ينسَ، وبناء عليه لم يكن يحب فولتير، وكان يعتقد أن خِفة الشاعر كوفئت مثلما تستحق، مقارنة بثقل معرفته التي لما تُكافأ البتة. وخلاصة القول إنه كان غيورًا؛ لذا كانت تصدر عنه كلمات مهينة جدًا بحق ضيف جنيف غير المرغوب فيه. هذا وفولتير لا يكف، وبكل مهارة، عن إزجاء المدائح لهالر الشهير والإشادة بعلمه وفضائله. وقد بلغ الأمر بأحد المسافرين، وكان سمع أقوال العالم الحاقد الشرسة، أنه لم يصدق أذنيه وهو يسمع مدائح فولتير وإطراءاته لهالر، فقال للشاعر:

«كيف يسعك أن تقول ذلك الخير كله في هالر الذي لا يقول فيك إلا الشر؟».

فأجابه فولتير قائلًا:

«ذلك أننا نحن الاثنين مخطئان على الأرجح».

هكذا، فحين طلب فولتير إلى هالر أن يعينه للعمل على طرد غراسيه، رد عليه العالم اللطيف قائلًا بعذوبة إن المرء، حين يكون فيلسوفًا، يجب عليه أن يُجيد كيف يتحمل فلسفيًا تلك المنغصات الصغيرة، وينبغي أن نعتبر أن السيد فولتير الذي وهبه الله العز والثروة، تلقى أيضًا - في سبيل شيء من المعاناة - الحساسية حيال الشتائم التي ينبغي تحملها بكل رضا. وكان بود فولتير لو يخنق بيديه الواعظ العجوز الذي كان فائق القوة في برن، على نحو لا يسمح لفولتير بأن يرد عليه بالصيغة نفسها، فتكلف اللطافة، وكرر الطلب. فردّ عليه هالر قائلًا: إن القانون في سويسرا كافٍ وحده لحماية المواطنين، وإن القانون، عند الضرورة، سوف يحمي فولتير. وكان ذلك الأمر مفروغًا منه، لكن امتهان فولتير بات مؤكدًا. وقام هالر بحيلة خبيثة حين عمد إلى نشر رسائله، خوفًا، وفق قوله، من أن يقوم أحدهم بتحريف نصوصها. وهكذا استهزأ ذلك الرجل الفظ المقيم في برن بفولتير، وها هو يبدي سخطه على أهل جنيف، وحتى على بولييه والقساوسة الثلاثة الذين لاموه لأنه استجرهم إلى قضية أحدثت ضجة كبرى، بسبب شهرة فولتير وجرأته المفرطة، خارج حدود جنيف التي أصابتها المذلة بسبب دعاية مزعجة جدًا. وجرى تصنيف بولييه وأصدقائه ضمن عداد المجتمع الصالح والقوامين على الشؤون الدينية، ملقين عبء المسؤولية كلها على عاتق فولتير، ومجددًا أيضًا يتلقى فولتير الطعنات. أما موقف القساوسة من سورين المسكين فأثار سخطه، في

حين حظيَ غراسيه اللئيم بأفضل دور. وكانت السرقة الأدبية مشروعة، واغتنت أمستردام ولاهاي بتلك المكتبة المغشوشة، فيما شرعت جنيف تستعذب تلك المتاجرة الصغيرة، فما الذي يدعو محاكم جنيف لأن تدين صاحب مكتبة يطبع أهاجي سوف تجني الجمهورية منها أرباحًا؟ وانتاب فولتير السخطُ من جراء ذلك، وفقدت لوزان سحرها فارتحل عنها. والحق أن السلام لم يكن من نصيبه.

لكن إلى أين سوف يذهب؟ أخذ يبحث سرًا عن منفى جديد، وكانت مقاطعة اللورين ترحب به على الدوام، باسطة ذراعيها. عرض عليه ستانيسلاس قصورًا وأراضي، كما عرضت عليه السيدة ميربوا والسيدة بوفليه قصر كراون الفخم. وما كان يجيب بنعم أو بلا، بل كان يحافظ على علاقة غنج مع الأب مينو، فيقول له إن المشاعر الدينية تستيقظ دومًا عند رجل جرت تربيته في «بيوتنا»، وإن من الواجب عليه ألا يموت في جنيف، وإن في حوزته هو مبلغًا - زهيدًا! - مقداره خمسمئة ألف ليرة (400 مليون فرنك فرنسي قديم) يريد توظيفها بشراء قطعة من الأرض! ويمكن هذين الاعتبارين أن يكونا مدعاة للتفكير بالنسبة إلى الأب وصديقه التائب الملوكي. وكان لستانيسلاس أن يستقبل عن طيب خاطر رجلًا على علاقة طيبة مع ربه، وشهيرًا جدًا... وغنيًا جدًا أيضًا، على أنه طلب رأي فرساي، فردّ عليه شوازول الذي حل محل برني، بأنهم لن ينظروا بعين الرضا إلى عودة فولتير إلى اللورين، وقد استغرق ذلك كله وقتًا طويلًا، فاتخذ فولتير ترتيبات أخرى.

استقبل في الديليس إيطاليًا هو الأب بيتينيلّي، الآتي من نانسي والذي كان على علم، من طريق الأب مينو، بالمساومات الجارية كافة. وكان شديد الحذر حيال فولتير، فلا هو ولا الأب كانا مخدوعين بالاحتجاجات التقية الصادرة عن مؤلف الـ هنرياد.

لم يعبأ فولتير كثيرًا بمشاعر الأب، فأمسك بخناقه صائحًا: «ماذا! إيطالي! يسوعي! بيتينيلّي! إن هذا لشرف عظيم يحل في كوخي. فأنا، كما ترون، لست سوى فلاح»، قال ذلك وأراهم عصاه التي كانت تنتهي بمنجل صغير من طرف ومعول صغير من الطرف الآخر، «فبمثل هذه الأدوات أقوم ببذار قمحي مثلما أبذر الخس، حبة وراء حبة، أما محصولي فأكثر وفرة مما أقوم ببذاره في الكتب من أجل خير البشرية».

يا له من إخراج جميل، ويا لها من سخرية جميلة. أما تأثيره في زائره فكان على النحو الآتي: «إن سحنته الفريدة والبشعة خلفت في نفسي انطباعًا ما كنت مهيأ له. فأنت ترى تحت قبعته المصنوعة من المخمل الأسود والتي تغطي رأسه حتى عينيه، باروكة تغطي ثلاثة أرباع وجهه (هي الباروكة الدارجة من أيام شبابه، وتعود إلى عام 1715، أي إلى عهد الملك العجوز)، الأمر الذي جعل أنفه وذقنه أكثر نتوءًا أيضًا مما هما عليه في صوَره، وكان جسده متلفعًا بفروة تغطيه من رأسه وحتى قدميه، أما نظرته وضحكته فكانتا ممتلئتين تعبيرًا».

إن ذلك كله شيء منظور، وليس بتصوير كاريكاتوري؛ ذلك أن فولتير كان، بوضعه الطبيعي، ذا قسمات كاريكاتورية. علاوة على ذلك، فهو يزيد في حدة قسماته، ويخرق التقليد بزيه المضحك لأنه يعيش «على خشبة المسرح». وكل ما في شخصه ذو تعبير عالي المستوى، فيغدو ذلك كله محفورًا في نفس الزائر، ولنقل في نفس المشاهد. وما كان بيتينيلّي ذاك بالأحمق، فهو متعلم وكاتب ممتاز، خالط علية القوم، وهو مربي الأمير الفتى دو هوهنلوهي، وقد وصل إلى حضرة مضيفه وهو يرتجف، فلم يجد في استقباله سوى البسمات والإشادة بالقصائد التي وضعها بين يديه. وشعر الأب المفتون بأنه صار فولتيريًا، فدعا فولتير إلى المجيء والإقامة لبعض الوقت في فيرونا، فآثر الشاعر عدم التوجه «إلى بلادكم لرؤية الإخوة الذين يتولون محاكم التفتيش»، ثم أضاف: «ستجد من الملائم عدم توجهي إلى بلد يستولون فيه عند أبواب المدن على الكتب التي وضعها مسافر بسيط في حقيبته»، فهو لا يزال يتذكر فرانكفورت!

سلّم بيتينيلّي إلى «فلاح الديليس» رسالة من ستانيسلاس، وكان العجوز الماكر يعرف، من قبل أن يفتحها، أن الأب جاء يفاوض بشأن إقامته في اللورين، وقد قالها باللهجة الأكثر لباقة، من غير أن يتعرض للموضوع إلا إلماعًا، فهو على ثقة من أن قصده مفهوم، فقال فولتير للأب: «إيه، يا صديقي العزيز، هيا ابق عندنا، فنحن هنا نستنشق هواء الحرية والخلود. لقد دفعت لتوي مبلغًا ضخمًا لشراء مِلكية صغيرة بالقرب من هنا، وما عدت أفكر إلا بتمضية نهاية حياتي بعيدًا عن اللصوص والطغاة».

كانت المِلكية الصغيرة هي فيرني، وستانيسلاس وصل متأخرًا جدًا.

«مِلكية صغيرة» اسمها فيرني وكتاب صغير اسمه كانديد

اشترى فيرني في بداية تشرين الثاني/ نوفمبر 1758، ولم يفهم أحد في باريس ما المقصود من تلك الحيازة التي عمل على نشرها بوساطة تييريو؛ فهو حين يريد من الطفيلي الأمين أن ينشر خبرًا ما، كان يدعوه باسم «تييريو البوق». واشترى في العام نفسه من الرئيس دو بروس، وضمن إجراءات شديدة التعقيد، الإقطاعية القريبة من تورني، قصرًا وأراضي. ففي العام السابق، لم يكن يملك سقفًا واحدًا يؤويه، أما في عام 1758، فبات يملك أربعة قصور، وهو متمسك بجوار جنيف، لكن دونما حرص على جنيف نفسها؛ «هنالك كهنة مثلما هي عليه الحال في أمكنة أخرى». وهو شديد الرضا لتمتعه في تورني بحقوق الأسياد كافة، ويلقب كونت المرتبط بالأرض. فما زال في فيرني بعض حقوق الأسياد لكن من غير لقب. وإن تلك الأراضي تعود عليه بريع يقارب خمسة في المئة، أما خارجًا، فيمكن أن يعود رأس ماله عليه بثلاثة أضعاف ذلك الريع أو أربعة أضعافه، لكن أراضيه منحته لقب سيد. أمتعه الأمر كثيرًا، والإمتاع جدي إلى أبعد الحدود. وحين أعلم ترونشان، في ليون، بأنه سوف يغادر جنيف، قال له: «إن قضاتكم وحكامكم جديرون بالاحترام، وهم عقلاء، وصحبة علية القوم في جنيف تساوي مثيلتها في باريس، لكن شعبكم متعجرف وكهنتكم على شيء من الخطورة». وإذا ما نزعنا الزخارف، بقي قوله: «لم أعد أشعر، في مدينتكم، لا بالحرية ولا بالأمان»، وهذه هي حقيقة الوضع: إن قلبه في سويسرا، لكنه يضع شخصه بأمان، في فرنسا، وإذا ما أقلقته فرساي، فإن الديليس سوف تضمن المباهج لرجل منفي.

لا يعرف أحد لِمَ راقته تورني. إن تورني على مقربة من فيرني، ويمكن الأراضي أن تتوحد... «إن قصره كوخ حقير ومسكن للبوم، وهو كونتية، لكن للإضحاك، وبستان لا تقع فيه إلا على الحلزون... وهاتان المجموعتان من الأراضي تكادان تلامسان مقري في الديليس. وأنا أقمت لنفسي مملكة جميلة داخل جمهورية».

تسمح له تلك الكونتية المضحكة أن يتزيا بلقب كونت، وهو يتمم لقبه الذي لم يُنسَ: لقب نبيل من بطانة الملك. ولسوف يحمل هذا وذاك، إضافة إلى المعطف الفاخر المصنوع من فراء الزيبلين والذي أرسلته إليه كاترين الثانية للتو، وهو يتألق

غبطة، فنشعر بذلك حين يكتب إلى تييريو قائلًا: «أنت مخطئ يا صديقي القديم، فلي أربع قوائم بدلًا من اثنتين: فواحدة في لوزان، داخل منزل جميل جدًا لفصل الشتاء، وواحدة في الديليس، قرب جنيف، حيث تأتي الصحبة الطيبة لتراني؛ هذا في ما يتعلق بالقائمتين الأماميتين. وأما الخلفيتان، فهما في فيرني وفي كونتية تورني التي اشتريتها بعقد إيجار حكمي [لمدة أقصاها 99 سنة]، من الرئيس دو بروس». وقد رغب في أن يؤدي، بتلك الصفقة، دور ابن الكاتب بالعدل، المعلم القديم للسيد ألان، مع داهية كبير، هو رئيس المحكمة العليا في بورغونيا، أما تلك المخادعات مع رجال القضاء فسوف تكلفه غاليًا...

ما كاد يجري توقيع عقد فيرني، حتى طالب بحقوقه السيادية على كاهن موان الذي يقوم باضطهاد أبناء رعيته. فقد تولى الدفاع عنهم، أليس هو سيدهم؟ وقام رجل من جنيف بالتعدي على أحد الدروب: عليه القيام بإصلاح الطريق. وكتب السيد الجديد إلى وزير المالية كي يلطف من عملية دفع الضرائب. وما إن يظهر، حتى تعود نسمة حياة إلى القطاع النائم في الروتين والبؤس.

كي نجعل الناس سعداء، علينا إغناؤهم، ذلك هو مبدأه. تهكم الناس في البداية على حكايته مع فحل الخيل؛ إذ كانت هنالك أفراس أصائل للاستنسال، لكن الفحل الدانماركي كان مسنًا وباردًا مثل صاحبه. وأراد فولتير أن يقدم البرهان، فبدت له تلك الأفراس التي لا تعمل، خالية من المعنى، إذ يلزمها فحل فعال، فكتب إلى المشرف العام على الاصطبلات الملكية: «إن الحرملك لدي جاهز يا سيدي، ولا ينقصني سوى السلطان الذي وعدتني به». كان ذلك بالنسبة إلى الأفراس، أما بالنسبة إليه هو فقد طلب اللقب المفخم لـ «القائمقام لمرابط الخيل في بلاد جيكس»، فرد عليه المشرف ردًا لطيفًا قائلًا إن من غير الممكن منحه اللقب، لأنهم وعدوا به رجلًا خبيرًا بالخيل، لا خبيرًا بالقلم، أما بشأن الفحل فسوف تحصل عليه الأفراس عما قريب. ومنذ أن صار سيدًا، شرع يقصف بالرسائل والعرائض، دارجنتال وشوفلان ودوق لافريليير والسيدة دو بومبادور، ملتمسًا العون لرجاله ولمصلحة أراضيه، وحين يلتمس فإنما يستخدم ذلك الفن القائم على أن يكون انتهازيًا وملحاحًا بحيث يتغلب في نهاية الأمر على التحفظات لأنه يجيد الابتسام وجعل الآخرين يبتسمون.

الناس يسمعون كلامًا في الوزارات عن فيرني على قدر ما يسمعون كلامًا عن كندا، لكن أليس ذلك أمرًا طبيعيًا؟ أليست فيرني مركز العالم المتمدن؟

إذا ما نحّينا الآلام المعوية، فقد كان فولتير، وهو في الستين من عمره، أكثر سعادة منه في الثلاثين: «إيه! يا لعصر الحديد هذا من زمان هانئ!». ويكرر قائلًا في مذكراته التي كتبها في تلك السنة، مستذكرًا بيتًا من الشعر ورد في قصيدة «الاجتماعي»: إن تسهيلات الحياة كافة متوافرة في منزلَي كليهما، فيملأ مجتمع لطيف المعشر ورجال فكر، الأوقات التي يسمح لي بها الدرس والعناية بصحتي».

إن ذلك التفاؤل الخاص والمنزلي ومصائب العالم المذهلة التي دمغته، هما اللذان صنعا مادة كانديد، التي نُشِرت في جنيف في آذار/ مارس 1759، فقد شكره فريدريك على الكتاب في نيسان/ أبريل، وكان فولتير يحمل في ذاته بذرة ذلك الكتاب من زمان طويل، فسبق لروح الكتاب أن تجلت في رؤيا بابوك (*La vision de Babouc*) المنشور في عام 1748. وفلسفته تضمنتها القصيدة حول كارثة ليشبونة، أما خلاصة القول فإن فولتير هو كله كانديد منذ ولادته، فذلك الكتاب هو هو؛ إذ ما سبق لعمل أن تجسدت فيه صورة مؤلفه حتى ذلك الحد. ففيه كل شيء من تفكيره ومن اعوجاجاته وعاداته المستهجنة، بل فيه الجواب عن رسالة روسو حول العناية الإلهية. ففي ما هو يسبح في اللذائذ بكل أناة وتعقل، تلك التي قوامها العمل والبذخ، يتراءى له طيف العالم المحيط به فتثور ثائرته: كارثة ليشبونة وحرب سبع سنوات التي تجتاح أوروبا وكندا والهند. وطيف فرنسا المدمرة وألمانيا الغارقة في دماء الجيوش الأوروبية كافة، ومحارق الإعدامات التي عادت لتشتعل في إسبانيا وإيطاليا، فتمتلئ بدخان بخورها الشيطاني سماء عصر الأنوار فتغدو كالحة السواد. ويتساءل فولتير هل كانت سعادته عبث أحمق في مثل هذا العالم، أو كان العبث والحمق يكمنان في بؤس بلا حدود ولا سبب، والعالم يقع فريسة بين فكيه. هنالك في أي حال فضيحة تمس العقل، ولا يمكن لهذا العبث الوحشي أن يزدان باسم العناية الإلهية. ومن تلك الفضيحة الشاملة صاغ كانديد، القصة الرشيقة والسريعة التي اعتُبِرت كتابًا إباحيًا، شعر هو نفسه بالخجل حياله، حتى إنه أطلق عليه وصف «حماقة» ليسود الاعتقاد بأنه ليس جادًا على قدر ما يبدو عليه؛ وباختصار، فإن تلك القصة هي عمل ناجم عن قنوط لا تكاد تقريبًا تُسبَر أغواره. وقلنا تقريبًا فقط، لأنه لو كان كليًا، لكان متطرفًا وكان خاطئًا. وواقع

الحال أن قصة كانديد ذات رنين مثل الكريستال تمامًا، فهي تستدعي الابتسام، فتهرب البشرية عبرها من وجه القنوط. فكل ما في الإنسان ضعف وهشاشة، وهو ضحية الأرباب أو الأقدار الدموية، بيد أنه يستطيع الاستهزاء بها لأنها حمقاء. وتلك لعبة وحشية بالنسبة إلى الإنسان، لكنها ليست مهينة إلا بالنسبة إلى الأقدار الغبية، إلا أن ذلك الكتاب الرائق أسيء فهمه. ففي القرن التاسع عشر، رأت فيه السيدة دو ستال، ومعها آخرون، دوي ضحكة جهنمية! والأمر الأكيد في نظرها أن كتابًا يائسًا يتناول المصير المأساوي للإنسان لا يمكن أن يُصاغ إلا في قلب العواصف، وبين الأشباح، على يد شاعر شاحب وأشعث، يجأر بالصراخ فيما تصدر عن قيثارته المشوشة بفعل العاصفة أنات تتمزق لها القلوب، وكثير من الصخب وسط الريح...

إنما قصة كانديد هي نعمة الروح، والرائعة التي لا يمكن تجاوزها، فليست رائعة رجل واحد فقط، بل رائعة لغة تخطت الألف عام فبلغت ذروتها، وهي فضاء بضع صفحات، يُسمِع زفيره قبل أن يهبط، وهي أيضًا الكمال الذي لا يمكن تجاوزه لرشاقة قصوى، تلك التي تُولد في الإنسان الذي فهم بؤسه كل الفهم، وفهم على وجه الخصوص أنه لا يتجاوزه إلا بالاستخفاف. ولقد تبلورت في تلك القصة، مرة وإلى الأبد، الحقائق الخالية من الأوهام، لكنها ليست بلا نعمة ولا جرأة، حقائق حضارة مشرفة على الغوص في الظلمات، والتي بحركة واحدة أنقذتها كانديد إلى الأبد.

العالم يتعرف الدرب إلى فيرني...

ما كانت أعمال البناء ونصب الغراس، ولا الأفراس أو الفحل لتملأ أيامه كلها، فهو يقوم بتجميع الوثائق بقصد كتابة تاريخ القيصر بطرس الأكبر. إن هذا العجوز ابن السادسة والستين، لأنه بلغ تلك السن عام 1760، وهي في ذلك الزمان سن رجل عجوز، يهب نفسه شعاعًا من الشباب منتشيًا بكتابة تراجيديا جديدة عنوانها تانكريد (*Tancrède*) التي بدأ بكتابتها في 22 نيسان/ أبريل 1759 لينجزها في 18 نيسان/ أبريل من العام التالي. عمل على تقديمها ثلاث مرات في تشرين الأول/ أكتوبر 1759 على المسرح الذي أقامه في «كوخ» توزني، وكانت مهداة إلى السيدة دو بومبادور. ولا ريب في أنه انتشى بـ تانكريد أكثر مما فُتِن بها الآخرون، فهو يعيش كما في أيام زايير الجميلة.

زاره في أيار/ مايو 1760 مرمونتيل المحبوب، وكان يرافقه صديق لطيف ومرهف الحس، هو السيد غولار. فلنشارك في هذه النعمة غير المتوقعة، ولنَزُر فيرني بصحبتهما.

عند وصولهما، أوعز سيد المكان بإبلاغهما بأنه يلازم الفراش وأنهما لم يحلا إلا ليشهدا احتضاره، فهل سينصرفان من دون رؤيته؟ ويمكن فولتير أن يوعز بالانتظار بسبب احتضاره، لكنه لم يغلق بابه قط في وجه أصدقاء له، من أجل ذلك السبب، فسوف يحتضر أمامهم. وها هو بطاقية النوم والمبذل، راقدًا في سريره. تعجب واهتز فاستعاد على الفور حيويته وتوقده، ويقول إن زواره وصلوا في الوقت الملائم للقاء رجل خارق، فهل عرفتموه؟ إنه طبيب الأسنان لملك بولونيا، وقد جاء للعناية بالسيدة الطيبة السيدة دوني التي يضايقها الإلقاء بسبب أسنانها الناقصة أو المخلعة، إنه دوليكلوز، فهل تعرفونه؟ إن مرمونتيل يعرف رجلًا اسمه دوليكلوز، وهو ممثل مسرحي في الأوبرا كوميك. لا بأس، إنه هو. ويمكن حدوث شيء من الإرباك بسبب ذلك الانتقال من طب الأسنان إلى الأوبرا. ويستخف فولتير بطبيب الأسنان لأن الممثل المسرحي هو الذي يستأثر باهتمامه في دوليكلوز، فهو يجده بلا مثيل في أدائه للأغاني السوقية، وها هو المشرف على الموت يهز قبعته وشناشله النسائية، وهو منتصب فوق سريره يقلد دوليكلوز، فيضبط الإيقاع مصفقًا بيديه، وهما يدا هيكل عظمي، مدندنًا بأغنية المجلّخ:

«لست أدري أين أضعها
بنيـتي الصغيرة
لست أدري أين أضعها
لأنهم قاموا بـ ...».

إن مشهد الوصول هذا يستحق القيام بالرحلة، الاستحقاق كله، وبسرعة يثب من على السرير، فيقومون بإلباسه ثيابه، وينتقل الجميع للجلوس إلى المائدة. إن السيد دوليكلوز هنالك، وهم يدللونه ويتوددون إليه فتتولاه الحماسة فيغني. وطفحت بفولتير الغبطة، وأخذ الضيوف يصفقون لإبهاج مضيفهم على وجه الخصوص. أما المغني فهو أقل إمتاعًا للحضور من فولتير وهو يقوم بتقليده.

خرجوا يتجولون في الحديقة ويتكلمون على باريس، وضربوا صفحًا عن ذكر اسم الشخص المكروه أكثر حاليًا، لو فران دو بومبينيان. فهنالك على نحو دائم شخص مكروه أكثر في الوقت الراهن، ولا بد من الإعمال في سمعته تمزيقًا. وإن المحافظة على الصحة الفولتيرية لها قواعدها: ينبغي الضحك في ساعة معينة، والغضب بحدة في ساعة أخرى، ثم إعمال المخالب والأنياب في جسد الحماقة. وقال لهم: إن طبيبه نفسه نصحه بأن «يذم لو بومبينيان ساعة أو ساعتين في كل صباح».

لعب غولار الشطرنج بكل كياسة مع فولتير الذي يعشق هذه اللعبة لكن يهوله أن يخسر، فعرف غولار كيف يخسر، فوجده فولتير ذا مناقب عديدة. وأشاد مرمونتيل إشادة حماسية بمناقب الممثلة المسرحية المدهشة الآنسة كليرون، فقاطعه فولتير قائلًا: «آه، يا صاح، إنها مثل السيدة دوني، وقد حققت تقدمًا مذهلًا، لا يُصدق!»، واستولت الدهشة على مرمونتيل فلاذ بالصمت. ونحن ندرك أن فريدريك نصح فولتير بالتزام الصمت حيال مواهب ابنة أخته. فكيف لرجل يحمل تلك المناقب أن يتحول إلى مثار للسخرية بمقارنة السيدة دوني بالآنسة كليرون؟ إنه مثل من يقارن الدجاجة الرومية بطائر الجنة!

يقيم مرمونتيل معرفة بيننا وبين جنيفيين من الذين يألفون فولتير، وهما الناشر كرامر والمصور هوبر. كان كرامر ذا قيمة كبرى في الكوميديا، وهو الشريك المفضـل لدى السيدة دوني، ونحن لا ندري إن كان يماثلها موهبة. أما هوبر، فيتألق في قص أشكال الأشخاص على صفحات من الورق الأسود، فهو يستخدم المقص بمهارة لا مثيل لها، ويثبت التشابه حتى درجة الكمال. وبلغ من المهارة حدًا أنه كان يعطي كلبه شطيرة من الجبن فيعض عليها بأنيابه، فكان يتوصل، وهو يشدها من بين شدقيه بحركات صغيرة وخفيفة أن يحصل على شطيرة من الجبن تماثل شكل فولتير. وكان ذلك المشهد يلقى إعجابًا شبيهًا بالإعجاب بمعجزة. وكان يقص الورق فيصنع أشكال المدعوين ويداه وراء ظهره، من غير أن ينظر إلى عمله بعينيه، وهكذا نرى أن فيرني كانت ملأى بالمنوعات المسرحية الجذابة.

اصطحب فولتير أصدقاءه ليريهم دوقية تورني، وحدّثه مرمونتيل، وهم في الطريق، عن فرساي حيث استقبلته السيدة دو بومبادور، فقال لفولتير: «إنها لا تزال

تحبك، لكنها فقدت كثيرًا من سلطتها، فالملك بدأ يُهمِلها»، فهتف فولتير قائلًا: «فلتأتِ إلى فيرني، ولسوف أكتب لها أدوارًا ملكية، فتقوم بالتمثيل معنا. إنها تعرف أداء أدوار تباريح الهوى»، فقال له مرمونتيل: إنها تعرف الأحزان والدموع على وجه الخصوص، فقال فولتير مصفقًا: «لا بأس، لا بأس! إنما ذلك هو ما يلزمنا!».

وما قيمة الواقع، فالاعتبار للمسرح أولًا.

في الأمسية الأخيرة، قرر المسافرون، وكان عليهم الانطلاق مع الفجر، عدم التوجه للنوم، وفعل فولتير مثلهم، فأمضى الليلة كلها متوقد الذهن، يفيض بهجة ونفائس جديدة، وقرأ عليهم أناشيد عدة من مسرحية العذراء. فكانوا ينتقلون من فتنة إلى أخرى، إلا أن مرمونتيل أخذ عليه في إلقائه التفخيم التراجيدي والرتابة: ولم يكن أول من قال ذلك. أما من جهة أخرى، فليس من يباري فولتير في الإيقاعات السريعة والخفيفة، «كان لصوته وابتسامته وعينيه من التعبير ما لم أره إلا لديه»، وهذه النقطة أيضًا يتفق حولها الجميع.

أنشا مسرحًا في تورني، فكانت خشبة المسرح ضئيلة حتى إن تسعة ممثلين يملأونها إلى حد العجز عن التحرك، وكان لا بد فوق ذلك من إدخال الرماح والخوذ والدروع لتقديم مسرحية تانكريد. ولكن يا له من تمثيل، على حد قوله! «أتمنى فوق كل شيء أن تقدم المسرحية في باريس على نحو ما جرى تقديمها في كوخي أنا»، وكانت الصعوبة الكبرى في جلوس مئتي مشاهد يهرعون من جنيف. فالجنيفيون هؤلاء مهووسون بالمسرح المحرم عليهم، بل هنالك استحالات حقيقية مثل دخول السيد بيتيه إلى خشبة المسرح بقامته التي تزيد على ستة أقدام، وهو يعتمر خوذة تانكريد المزدانة بالريش وطولها أكثر من قدم ونصف القدم، فكان يشق بها السقف ويصطدم بالديكور حتى التجاوز على مكان المتفرجين: وكان التمثيل يتواصل على الرغم من ذلك! وتتولى فولتير الشفقة على أهل باريس: فليس لديهم سوى الآنسة كليرون! أما في فيرني فلديهم السيدة دوني، وهو يعيد مرارًا وتكرارًا ذلك المديح المرهق، بل تجرأ فكتب إلى الآنسة كليرون التي كانت تشع موهبة ومجدًا وهي في السادسة والثلاثين، فتحملته لبعض الوقت، ما يبرهن على طبعها الرضي وسعة فكرها. ويقال إنها مع الاستمرار، رجت فولتير أن يحتفظ بابنة أخته احتياطًا لبلاد البحيرة وأن يكف عن الكلام عليها.

شرع الزوار في حدود عام 1760 يسلكون الدروب للقيام بالحج إلى فيرني، فجاء إليها القائم على شؤون بورغونيا بصحبة خمسين شخصًا. بكوا وانتحبوا وهم يصغون إلى إلقاء السيدة دوني، لكنهم أكلوا بإفراط أيضًا حين بُسِطت لهم المائدة. وقصدها سفير فرنسا في جنيف، السيد شوفلان، هو وحاشيته، فصفقوا وبكوا، ثم أكلوا بالحماسة نفسها، على العشاء الذي تلا العرض، سمك التروت الغالي الثمن. وأما دوق فيلار، حاكم مقاطعة البروفانس، وابن الماريشال والدوقة العزيزة التي سخرت قليلًا، في ما مضى، من أرويه الشاب، فتوقف هنالك. ولم تكن له مناقب والديه، فالشجاعة تنقصه، وهو مليء بالعيوب، لكنه يتمتع بفضيلة تساوي كل ما عداها في نظر فولتير، وهي أنه كان يهوى المسرح. وقد شارك السيدة دوني في الحوار المسرحي، وحين يقوم الدوق وشريكته بالتمثيل، فإن ذلك يجري «في الحجرة»: فليس هنالك من مدعوين جنيفيين.

أما وأن مجلس الكرادلة لم يقل شيئًا منذ زمان طويل، فقد استأنف فولتير العروض المسرحية في الديليس. فكل واحد ينال هنالك نصيبه، والجنيفيون يجدون الكوميديا عند أبوابهم، لكن وا أسفاه! صدر في 20 تشرين الأول/ أكتوبر 1760 تقرير عن مجلس الكرادلة حول قلة احتشام السيد فولتير الذي يعمل على تقديم الكوميديا في سان جان، على الرغم من الوعود التي قطعها عام 1755. وظهرت في تشرين الثاني/ نوفمبر 1760 شكوى جديدة عن مجلس الكرادلة، فأعلن فولتير أنه لا يتصرف على ذلك النحو إلا للترفيه عن ضيوفه، وأنه غير عازم مطلقًا على خرق قوانين جنيف، واستنزال غضب السماء على مدينة لا يقصد إفسادها أبدًا، ذلك أن جوهر الشكوى كامن هنالك. ولحسن الطالع فإن آراء المجلس كانت مقسمة: فبعضهم يريد فرض عقوبات، وبعضهم الآخر غير راغب في ذلك، مع موافقته من حيث المبدأ، إلا بتعليق العروض، من غير قطيعة مع فولتير... ومع أصدقائه الأقوياء في المدينة العالية. فكان في وسع فولتير إذًا، مواصلة القيام بالتمثيل في تورني، على الرغم من أن بعض المهتاجين أراد منع الجنيفيين من الدخول إلى أرض أجنبية بقصد الغواية، لكن من الذي كان يتوجه إلى فيرني؟ إنهم مواطنو جنيف من ذوي الباع الطويل، ودخلت القضية في سبات عميق.

وضعُ الموسوعة فوق المحرقة
أشعل الحرب مع لوفران دو بومبينيان

كانت المعركة كبيرة بحيث إنها تجاوزت لو فران دو بومبينيان وحتى فولتير. وعلينا في سبيل فهمها - ناهيك بالحكم عليها - أن نعب من هواء زمان انفجارها.

في 6 شباط/ فبراير 1759، صدر عن المحكمة العليا حكم بإحراق الموسوعة، فقد أمكن للمواد، حتى ذلك الحين، أن تظهر من غير عائق، بفضل حماية ماليزيرب والمستشار داغيسو. فالموسوعيون المفرطون بعض الشيء في الثقة بأنفسهم لم يموهوا اعتزازهم بانتصارهم، حتى إن كثيرًا من القراء شعروا، خارج حدود الدين، ومن غير أن يكونوا أتقياء، بأن النظام الاجتماعي بكامله يتهدم. ولم تتناول الإدانة الموسوعة فقط، بل مؤلفات أخرى أدنى أهمية ومن بينها قصيدة فولتير الدين الطبيعي. إلى النار! شم، وهو في جنيف، رائحة الحريق، وها هو يدخل الحرب! طالب بأن يرسل له دالامبير أسماء الأشخاص الذين ساهموا في الإدانة، وكذلك بملاحظات حول مؤلفاتهم ومواهبهم ووضعهم... ولسوف يقوم فولتير بالتنسيق بين تلك المعطيات كلها وفقًا لوصفة شخصية لديه. فعثر على بواييه المستدام، «حمار ميربوا»[30] الذي ارتمى على قدمي الملك باكيًا ليقول: «يا صاحب الجلالة، إن تواصل الموسوعة ظهورها، فعلى الدين السلام»، علمًا أنه هو الذي عين الرقباء المكلفين بتفحص المواد المعروضة على الموسوعة، واصطفائها أو إحراقها.

فماذا كانوا يفعلون إذًا؟ هل كان مغشى على بصر اللاهوتيين؟ أما أن الموسوعيين كانوا يقدمون لهم مواد ليست بذات قيمة ليقوموا بطباعة مواد أخرى؟ ذلك ما كان يُشاع، وكان واحد من أولئك الرقباء، واسمه الأب تامبونيه، مماحكًا لا نظير له، فكان يقول، بل إن فولتير هو الذي يتقول عليه: «يسعني أن أعثر على هرطقات في صلاة أبينا الذي في السموات».

---

(30) يُنظر الهامش رقم (44)، ص 327 من هذا الكتاب. (المحرر)

في ذلك الحين اكتملت القطيعة ما بين فولتير واليسوعيين؛ إذ جاءت صحيفة لوجورنال دو تريفو (*Le Journal de Trévoux*) التي يتولى الآباء الصالحون تحريرها، على ذكر المؤلفات المُفسِدة، وكانت تقوم بذلك بدرجات متفاوتة من المداورة. ولم يكن فولتير على الدوام راضيًا عنهم الرضا كله، إلا أنه كان، حتى ذلك الحين، ممتلئًا عرفانًا حيال أساتذته القدامى، حتى إنه لم يستخدم في مواجهتهم من أسلحة الحرب سوى الدبابيس. وكتب في عام 1749 إلى الأب فيونيه قائلًا: «منذ زمان طويل وأنا تحت لواء جماعتكم. وليس لديكم إطلاقًا من جندي أكثر نحولًا، لكن ليس لديكم من جندي أكثر وفاءً البتة». ومضت عشر سنوات، وامتلأ فولتير سخطًا على الدين. فما كان في عام 1749 قد تلفظ بكلمة المرذولة، أما في عام 1759، فهو يقولها. ولقد أضحت الفكرة الثابتة لديه. المرذولة؟ من هي المرذولة؟ يقول بعضهم إنها الكنيسة الرومانية، وتلك هي مقاربة كبيرة للواقع، لكن يبدو الأمر أقل بساطة، وهو لم يأتِ إلى تفسيره البتة، وذلك على الأرجح لأن المعنى كان أقل دقة مما يُقال؛ فالمرذولة أحيانًا هي الكنيسة الرومانية، لكن السفالة ليست حكرًا عليها. إن المرذولة هي التزمت وهي التعصب والاضطهاد، إنها التطير مصفحًا بالتعاويذ وشاهرًا حرابًا مسمومة وهو يمتطي الحماقة الكبرى.

كان الأب بيرتييه أول من لسعته السياط بوصفه مدير لوجورنال دو تريفو، فقد قرأ في تشرين الثاني/ نوفمبر 1759، وقرأت باريس كلها معه، ملزمة من ثلاثين صفحة، مغفلة الاسم، وعنوانها: «صلة المرض والاعتراف والموت بظهور اليسوعي بيرتييه»، ولم يمت إلا في عام 1782. واضطر الشقي إلى فقدان الوعي مرتين ليقرأ ذلك العنوان! فما شيء يفوق ذلك تسلية ومكرًا، وعلى حساب الأب. وما كاد يسترد أنفاسه حتى ظهرت نشرة أخرى عنوانها: «علاقة رحلة الأخ غاراسيز، ابن شقيق غاراسيز، وخليفة الأب بيرتييه». وعلت صرخة واحدة: إن ذلك من صنع مطابخ فيرني. ولم يعترف فولتير بذلك، كما أنه لم ينكر. وكانت القطيعة نهائية مع اليسوعيين. وكان حريصًا جدًا على القول إن تلك الحرب لم تكن برغبة منه، وإنه لم يقم إلا بالدفاع عن نفسه. وفي 24 أيلول/ سبتمبر 1760، كتب إلى باليسو قائلًا: «إنما المعتدي هو المخطئ الوحيد في كل حرب، حيال الله وحيال الناس»، ولدى فولتير الجرأة الكافية لأن يجعل الله يقف ويسانده في

معركته، أما بالنسبة إلى الناس، فقد كان محقًا، في أن المسكين بيرتييه ربما كان مخطئًا، ناهيك بأن الجميع كانوا يسخرون منه.

إن تلك الحرب الصليبية ضد الموسوعة وضد الفكر الجديد عثرت على بطل لها في شخص قاض من مونتوبان. إنه لو فران دو بومبينيان الذي كان لصيقًا بالأدب، ولم ينفجر نزاعه مع فولتير على الفور، فنحن نعرف كيف تتطور تلك العداوات: إن الأفعى كامنة داخل البيضة، فليس من يرتاب فيها، بل يجري احتضانها وتدفئتها باللباقات والمدائح والمودات. ويأتي من بعد خدش صغير من الغرور، فتنتصب الأفعى على ذيلها لتفح فتنفث سمها، إنه الاندفاع الجنوني. هنالك أمثال ديفونتين، وفريرون... وموبرتوي هو آخر من لفظ أنفاسه، فها هو البديل. ولا بد من وجود معادٍ دائمٍ لفولتير، فكان لو فران دو بومبينيان ضد فولتير في عام 1760.

إنه رجل نبيل ومستقيم جدًا من مونتوبان، ممتلئ الجسم، ومتعلم وشديد الرضا عن نفسه. وكان يظن أنه ولد ليكون شاعر العصر، لكن المنصب كان مشغولًا حين عمل الله على أن تتفتق موهبته الضئيلة على ضفاف التارن، فوجد أنه اغتصاب يثير السخط وواتته الجرأة على أن يقول إن المنصب يحتله شاعر رديء. ويشاء سوء طالعه أن يكون اسم ذلك الشاعر الرديء هو فولتير، وأن يكون ناثرًا ممتازًا. فمنذ عام 1739، ولوفران يقول إن تراجيديات فولتير لن تكون يومًا أكثر من تراجيديات فولتير، وقد يكون ذلك صحيحًا، لكنها أشياء لا تُقال حين يرغب المرء في أن يعيش بسلام. كان السيد بومبينيان راغبًا في الحلول محل فولتير، لكنه لم يطمح إلى تجاوزه إلا بالتفاهة وتقليد راسين تقليدًا ذليلًا. وتنازل فولتير بإلقاء نظرة أولمبية من علياء الانتصار الذي حققه زايير، على السهول الواطئة التي كان يلهث الشويعرون الصغار الآتون من الأرياف فيلتقطون أنفاسهم وهم يسيرون فوقها بمشقة. لكننا نعرف أن اللباقة نادرًا ما كانت تعوز فولتير. فحين التقى في عام 1739 بلو فران عند لا بوبلينيير، عامله بلباقة ومودة. وكتب إليه بعض البطاقات اللطيفة، ليستلم في المقابل بعض الانتقادات التي تظاهر بعدم سماعها، فقد كان ينشر في رسائله المدائح التي طالما طمح إلى تلقّيها كلها بنفسه. وكتب إلى لو فران يقول: «إن الطموح قائم لدى الناس كافة، وطموحي أنا، يا سيدي، هو أن أروقك فأحصل على رضاك أحيانًا وعلى صداقتك دائمًا».

كان الأمر منوطًا بلوفران فقط للحفاظ على تلك العلاقات الممتازة، فما كان فولتير يحب من شيء أكثر من أن يكون محبوبًا، فهو يبتسم كما يبتسمون له. أما إذا ما أسيئت معاملته، من بعد تلك التمهيدات كلها، والتي يقوم بها بكل أريحية، وأصيب في قلبه، فإنه يغدو متوحشًا، لكن تبقى إيماءته الأولى هي إحلال السلام: «إن كل رجل أدب، ما لم يكن لصًا، هو أخي. فأنا شغوف بالفنون الجميلة، بل أهيم بها. وهذا هو السبب الذي يجعلني أصاب بالغم حين يقوم رجال الأدب باضطهادي، ذلك أني مواطن أكره الحرب الأهلية ولا أخوضها إلا دفاعًا عن نفسي».

وشاء طيش لوفران وتهوره أن يتحدى فولتير: فنشبت الحرب بينهما، وكان قد حقق بعض النجاحات التي ملأته بالنشوة. أما في باريس، فتوارت تلك الانتشاءات سريعًا واحتوتها انتشاءات الآخرين، لكن لوفران رجع إلى منطقته الريفية من قبل أن يعرف النوم بعد السكرة الأولى. أما وهو في مونتوبان، صعدت نشوة الخمر إلى رأسه، وعلى الرغم من أنه ناظم أشعار ضئيل الشأن في باريس، فإنه ظن نفسه بمكانة فيرجيل، في ساحة السوق العتيق. ولما كان رئيس بلاط وغنيًا وحامل لقب وشاعرًا، قام بمحاولة أولى عام 1758 لدخول الأكاديمية. ولم يُنتخَب، لكنهم لم يثبطوا همته. وفي عام 1760، جرى انتخابه ليحتل مقعد موبرتوي. إنه مقعد مشؤوم خاص بأعداء فولتير! ولما كان يطمع في منصب مربي أطفال فرنسا، وكان يلزمه، كيما يروق وليّ العهد، أن يكون في غاية التقوى، فقد جعل من خطاب استقباله في الأكاديمية حملة شعواء على الزندقة وضد الموسوعة وضد الأدب وحتى على الأكاديمية التي تؤوي أسوأ أعداء الإيمان، وكان عنيفًا دونما مواربة، ولم يسبق للأكاديمية قط أن تعرضت لمثل ذلك التوبيخ في لبوس الشكر.

ألقى خطابه بقوة الطمع وبكل ما في لكنة مونتوبان من حرارة، فأصغى الأتقياء إليه بكل تقوى، وقارنه دوبريه دو سان مور بموسى! أما شقيق لو فران، وأسقف بوي، فقارنه بهارون... وقال إن الله اختارهما لاجتراء المعجزات لـ «بني إسرائيل»، أي على ضفاف نهر السين.

وكان في استقبال خطاب لوفران وتعليقاته انفجار ضاحك صاخب على ضفاف بحيرة ليمان، وما كان في وسع لوفران، أن يسمع ذلك الانفجار الضاحك

من فولتير، إلا وعرته رعدة، ولسوف تكون هنالك بعض الأصداء المترددة عبر الأهاجي وفي صفوف الجمهور. أما الحشد الفلسفي، فسوف يتحرك على الفور في وجه الأكاديمي الجديد. وشعر فولتير بأنه أصيب على قدر ما قام لوفران بإطراء موبرتوي، وما كان لوفران في شك من أمره، لكن خطابه الممل فتح أمامه أبواب الخلود: ما كان لنا أن نأتي إلى ذكره لولا أن فولتير أحله في الساحة العامة، شعرًا ونثرًا.

كتب فولتير يقول: «ما كان ينبغي التعرض لعجوزٍ اعتزل العالم، ولا سيما في الوضع الذي أنا فيه حيث عزلتي قسرية. هذا في تلك الحال امتهان لحالة الشقاء وهو تصرف جبان، ولست أدري كيف تحملت الأكاديمية أن تتحول خطبة استقبال مملـة إلى قدح لاذع».

الواقع أن لوفران، وهو يدقق في علاقات فولتير وفي الموسوعة، فهم ما حظوظ فولتير للعودة إلى باريس. ويبقى أن لوفران، وهو في معرض غطرسته، زاد في العيار، فبدأ يروي أن الملك قرأ خطابه فاستحسنه، واشتد ساعده بتلك الموافقة، فطالب ماليزيرب بطباعة خطابه، وبوضع جملة الإطراء التي قالها الملك وتبناها هو، حاشية للنص، فرفض ماليزيرب القيام بالطباعة ما لم يتلق الأمر بذلك من الملك، فقام لوفران بتجاوزه، وحمل النص بنفسه فتوجه إلى المطابع الملكية، فأخاف الطابعين وجعلهم يصفّون الحروف، فأبطل ماليزيرب ما كُتِب بوضع الملاحظة التالية: «أما أن الموسوعيين يستوجبون اللوم، فينبغي ألّا يعني ذلك عدم خضوع خصومهم لأي قانون». وهكذا نرى مدى صلف الرجل، فهو ما إن يحوز فتاتًا من الشهرة، حتى يتعين على الكل أن يزحف أمامه، وذلك تحديدًا ما كان يمقته فولتير.

وبات من الضرورة الآن جعله يدفع ثمن ذلك النجاح الأول.

أخذت كراسة ذات مظهر بسيط، وعنوان لاذع بغرابته، تتكاثر تكاثرًا مباغتًا في باريس، فتجدها في الأيدي كافة، وفي الصالونات، والمقاهي، والشوارع حيث يجري بيعها. الـ «عندما» (بصيغة الجمع)، ملاحظات مفيدة حول خطاب أُلقي في الأكاديمية في 10 آذار/ مارس 1760، بلا توقيع. وكان ذلك من أفضل ما كتب فولتير، أي من أسوأ ما سيحل بالضحية. إنها مقاطع صغيرة تتوالى كالمقاطع

الشعرية وكلها تبدأ بـ عندما. كان ذلك التكرار ذا أثر مُعـذِب، وكل مقطع طعنة من خنجر. والدبور يلسع هنا ويلسع هناك، فيذهب بصواب الشقي، ويسلـي القارئ بخفـته ورشاقة طيرانه في ذهابه وإيابه، حتى لـيَجعلـه شريكًا ومتواطئًا في لعبته العنيفة، فكل ما فيها صالح للقراءة، وهنالك كثير من الحكم الجديرة بالحفظ غيبًا:

«عندما» لا يرفع المرء رأس عصره بمؤلفاته فمن الجسارة العجيبة أن يحط من شأن عصره.

«عندما» لا يكون المرء رجل أدب إلا بشق النفس، وليس فيلسوفًا مطلقًا، فلا يليق به أن يقول إن أمتنا ليس لديها سوى أدب مغلوط وفلسفة باطلة.

ونلاحظ مهارة موقف فولتير؛ إذ يجعل من نفسه منافحًا عن الأمة الفرنسية وأدبها وفلسفتها التي أهانها ذلك «الفرنسي الضئيل لوفران».

فضلًا عن ذلك، لم يكن من اللائق البتة أن يقوم رجل تقي بالثناء على تقوى رجل مثل موبرتوي المعروف بوصفه نصيرًا للشيطان ولتلميذه فريدريك. وهكذا نرى أن المجال كان مفتوحًا أمام فولتير لينال من لوفران.

وهذه أخيرًا نصيحة نافعة: «عندما يُقبَلُ المرء عضوًا في هيئة ذات اعتبار، فعليه أن يموه في خطابه تحت أغطية من التواضع، العجرفة الوقحة التي هي نصيب الرؤوس الفارغة والمواهب الضحلة».

وليس من يدري، بادئ ذي بدء، من أين سقط ذلك البَرَد؛ لأن فولتير كان يُعتـبَر ميتًا، فقد قام صديق مخلص بنشر تلك الشائعة، ولـم تكن تلك هي المرة الأولى التي يُصار فيها إلى دفنه. (قيل في عام 1753، إنه قضى نحبه في كولمار. فهو الذي جعل أحد الورعين، والذي كان يرميه بوابل من الرسائل داعيًا إياه إلى الهدى، فتوسل فولتير إلى الرجل أن يكف عن الكتابة إليه بسبب الوفاة، لكنه حثه على مواصلة الصلاة من أجله، فذلك أقل إثارة للغيظ).

وبادر سريعًا إلى طمأنة أصدقائه في باريس، فهو على ما يرام، وكتب إلى دالامبير قائلًا: «عزيزي الفيلسوف، أعترف بأني لست ميتًا، لكن لا يسعني القول إني في قيد الحياة. إن بيرتييه بخير وأنا مريض، وشومكس يهضم الطعام أما أنا فلا، وعليه فليست يدي هي التي تكتب لك لكن قلبي يكتب...».

والحال أن بعض الوشاة السفهاء تجاسروا أيضًا فنسبوا إليه تلك الـ «عندما»: فاعترض بكل ما لديه من سلامة طوية: «لست أدري ما الذي يجعلهم يحشرونني في تلك النزاعات كلـها، أنا الفلاح، أنا الراعي، أنا الجرذ الذي اعتزل الدنيا ليقيم داخل قالب من الجبن السويسري. وإني لأتسلى بالضحك من غير أن أخالط أحدًا...».

إن التعلل بالعمل المضني مقبول بالنسبة إلى كل من عداه، لأنه في الحقيقة والواقع نهب لأعمال شتى: الزراعة وتربية المواشي والبناء في فيرني وفي تورني. ومن شأن الجميع ماعدا فولتير أن ينوء بتلك الأعباء التي تضاف إليها المساعي والدعاوى والشؤون المالية والمدعوون، إنها أو هي آلاف الهموم المضنية بدءًا من تلك اللصيقة بالأرض كتسميد الحقول، وحتى الأكثر رهافة وحساسية كالمساومات مع السلطات. وليس ذلك كل شيء، فهنالك المباهج من الصالون الأدبي إلى المائدة فالمسرح، ولا يمكننا أن ننسى حالة المغص لأربعة أيام في الأسبوع! فهل من يصدق أنه وجد الوسيلة لكتابة تلك الأهجية الـ «عندما»؟

مع ذلك فسوف يجد على الدوام الوقت للدخول في حرب كلامية، والضحك استهزاءً وفقًا لما يقول: «أريد أن أضحك: فأنا عجوز ومريض ومتمسك بالمرح، فهو دواء ناجع أكثر من وصفات صديقي العزيز ترونشان، ولسوف أسخر ما استطعت من الناس الذين سخروا مني، فذلك يبهجني ولا يتسبب بأي سوء، (زد على ذلك أن) الفرنسي غير المرح إنسان خارج بيئته».

أما هو، فحمل «بيئته» إلى جنيف، وربما لم ينجح في جعلها تتأقلم، أما هو فتأقلم. لأن عالَم فولتير ينشأ في أي مكان يتنفس فيه فولتير، إنها هبة العبقرية.

التقى، في خضم معركته، أحد الحلفاء: إنه الأب موريليه، وهو ساخر ولاذع مثله: إنه راهب، وإنسان على العموم غريب الأطوار ويرتدي الجبة! لقد كان مستشار الموسوعة اللاهوتي، ولسوف يسعده أن يلقن لوفران دو بومبينيان درسًا. وهكذا فإن فولتير الذي ظهر اسمه إلى السطح مع الـ «عندما»، عاود الظهور مع الـ «إذا». ولقد عرف جميع الضاحكين الأشرار في باريس وخارجها - وهم عدد لا بأس فيه من الناس، بل من الناس المرموقين - ساعات طويلة من الضحك، فيما عرف لوفران في المقابل، ليالي حالكة السواد، ثم من بعد الـ «إذا»، ظهرت الـ «لماذا».

كانت الـ «لماذا» من صنع الأب موريليه، وكانت رائعة في نظر فولتير نفسه الذي لعب على لفظة موريليه، فجعلها «مور ليه Mords-les»، وتعني «قُم وعضهم»، ذلك أنه اعتبر صورة الأب مجموعة من الأنياب. ويقول الأب ضمن شدته النقية: «تخيلت ضرورة جعل بومبينيان يمر عبر أصغر الأدوات اللغوية...». وهكذا، استعان بالـ «إذا»، والـ «متى»، التي تلاها كلٌّ من الـ «من؟»، والـ «ماذا»، والـ «لأن»، والـ «آه! آه!»، فيا للوفران ذاك من شقي، وهل سينوء بحمله فيسقط تحت تلك الغمامة من السهام الصغيرة؟ وقاموا بتنشيط ذاكرته: لم يكن على الدوام جليس نبلاء ذليلًا، فهو لم يتذلل إلا طمعًا. فقد انتقد في عام 1756 الملك والضرائب: «أشفِقْ على شعب مرهق، أُخرِجَ من ذلك السور للقصر الفاخر، وتلقى إمبراطورية سوف تغدو صحراء في القريب العاجل... فالأراضي مزروعة بالدموع»، وما كان يسعى آنذاك لأن يروق الملك وولي العهد! فيتساءل موريليه: «لـمَ ذاك الرجل هو في حالة تناقض مع نفسه؟ فليس ذلك أن وضع الشعب صار أفضَل، بل لأن وضعه هو تغير».

وجاء في الـ «لأن»: «لا تقل للملك بعد اليوم، في عريضة استرحام، إنه يعامل رجاله كالأرقـاء، لأنها ما عادت عريضة استرحام، فلم يبق سوى الأهجية».

ألا إن السيد بومبينيان قد دفع ثمن خطابه غاليًا! فماذا بقي من رجل الدولة الكبير هذا والأكاديمي والمثقف الريفي، وسيد القرية المحبوب من أبنائها حبًا جمًا؟ ظل تقيًا مزورًا وطماعًا وكاتب ترهات بلا قيمة، ومستخدمًا سوء إيمانه وسوء موهبته ووشاياته، في سبيل الارتقاء إلى مناصب لا يستحقها. ومضى فولتير إلى حد اتهامه بـالألهانية، فيا له من اتهام ورد تحت قلمه! والويل كل الويل لمن يجرؤ على التعرض للناسك المقيم في جنيف.

لم يلفظ لو فران أنفاسه بسبب ذلك، بل قام بالرد. لقد زها بأنه عمل على طرد فولتير من الأكاديمية، فسرت على الفور في باريس العبارة التالية: «إذا ما حذفنا اسم السيد فولتير من عدد الأربعين (عدد أعضاء الأكاديمية)، فإنما نقوم بحذف الرقم: لن يبقى هنالك سوى الصفر».

وانقلبت الأشياء ضد ذلك الأخرق العلني، فإذا ما جرى طرد فولتير، فإن السيدين دالامبير وديكلو سوف يتركان الأكاديمية. وكتب فافار في

22 أيار/ مايو 1760: «سوف يقومون في تلك الحال بتجنيد رهبان كبوشيين لحشدهم في الأكاديمية».

كان من نتيجة ذلك النزاع أن بعض الكتـاب صار في عام 1760، قادرًا على إثارة الرأي، حتى رأي الناس الذين ليسوا ضمن خط هؤلاء الكتّاب حكمًا. فنقول إن الرأي صار «حساسًا» حيال تلك الحروب الكلامية التي غدا الانزلاق منها نحو السياسة سريعًا. فليس أمام السلطة، وبومبينيان الذي جعلها تنخرط بغباء في تلك المعركة، سوى الخسارة في ذلك الجدل، بل إن بلاط فيينا نفسه اعتبر، وهو القليل التأييد للأفكار الجديدة، أن لوفران رجل أخرق، وبما أنه هو المعتدي، كما قال فولتير، فليس له سوى أن يتمتع على نحو متواضع، بالتكريم الذي شاءت الأكاديمية أن تشمل به موهبته المتواضعة.

إلا أن بومبينيان الذي اجتاحه الألم، لم يُشفَ من خيلائه شفاءً تامًا، فهو يمتدح نفسه بنفسه، ويطري مناقبه وموهبته، أما وقد امتُهِـن في باريس، فإنه توجه ليزهو بنفسه في قريته، فقام بنشر خبر رحلة السيد المركيزَ لوفران دو بومبينيان من بومبينيان حتى فونتينبلو. بلى، إنها رحلة انتصار، جديرة بكونتيسة ديسكاربانياس، بلى، فالملك رآه في فونتينبلو، بل نظر إليه، حتى إنه توقـف قرابة خمس عشرة ثانية ليقول له إنه على دراية بمواهبه! وكتب ومونتوبان من بعد، قائلًا: «استقبلوني في مونتوبان وأحاطوني بتكريم خارق حتى إن ذكراه ستظل محفوظة لزمن طويل داخل نفسي وفي تلك المنطقة». وذلك ممكن، غير أن ذلك الشكل من الغرور القروي أثار دائمًا الضحك في باريس. والمفروض أن تكون قصة تلك الرحلة موجهة إلى وكيل الضرائب في قرية بومبينيان، والحق أن تلك الكتابة هي أسلوب موليير، وموليير جورج داندان.

أما فولتير الذي لم يرو غليله بعد، فاستأنف الكفاح؛ إذ ظلت فرقعة الطلقات الموجهة ضد ذلك السيد المنكود الحظ دو بومبينيان مسموعة طوال عام 1760، وقد جعله فولتير يقول، في قصيدة حول الغرور، لم يكتبها لوفران قط، بل إن رسول جنيف الصالح نسبها إليه:

«أزعم أن بعض الهازلين قاموا يقمعون الفُجور
ومن أجل استساغة أشعاري ينبغي سن قانون

وفي معرض ذلك السبيل سوف أتكلم مع الملك».

أصاب فولتير عصفورين بحجر، فهو جعل من المغرور هزأة، وجعل الملك في الوقت نفسه متضايقًا منه؛ إذ سبق أن طلب لوفران من الملك حمايته من الذين يغتابونه. فمن هو الملك العاقل الذي سيتخذ عقوبات بحق كاتب أضحك باريس كلها على حساب شخص هزيل، فيما هو يحرص على مداراة العاهل؟ ويستعيد فولتير في نهاية القصيدة ذكرى بيرون الذي كان على حقٍ مرة واحدة في حياته في الأقل، حين طلب أن تُنقَش على حجر قبره هذه الكلمات: هنا يرقد بيرون الذي لم يكن شيئًا مذكورًا، وخرج منها بحكمة.

أيها البشر، أيها البشر الضعفاء، ذلكم هو شعاركم.

أما في معرض عزيمة فولتير على سحق غرور عدوه، وبعد أن أتى إلى ذكر الإمبراطوريات البائدة، وملوك الماضي الذي كانوا أقرب إلى الآلهة منهم إلى البشر، والذين لم يبقَ منهم شيء حتى الرماد، توجه سائلًا أين قبر الإسكندر؟ وأين قبر قيصر؟ ثم وجه فولتير هذه الطعنة النجلاء إلى سيد بومبينيان:

«ليس لقيصر من مأوى يَخلُد فيه طيفه إلى الراحة
فيما الصديق بومبينيان يرغب في أن يكون شيئًا ما».

حتى إن ذلك القول أضحك ولي العهد الذي ما كان يضحك البتة، فهو حامي بومبينيان! ولم يحظ لوفران بمنصب المشرف على أطفال فرنسا (الأمراء)، بيد أن المحيطين بولي العهد كانوا على الدرجة الأشد من التقوى، فتناولوا فولتير بالكلام الشائن. وغالبًا ما يقولون فيما بينهم إنه يستحق أعظم صنوف العذاب، وإنه لو أتيح لولي العهد أن يحكم يومًا واحدًا، لما توانوا عن نصحه ليوعز بإنزال ذلك بفولتير. وهنالك سيدة تدعى السيدة دو هوسيه، كانت تألف ذلك البلاط الصغير، فينتابها القلق من عدم التسامح الزائد فتخشى من تبعات ذلك في المستقبل، وتتفكر في أن لوفران، لو نال منصب المشرف على الأطفال (الأمراء)، لما توانى عن إثارة أحقادهم ضد فولتير وضد الفلاسفة. وفي ما لو تحالف مع شقيقه جورج، أسقف بوي، لافتتح عهدًا جديدًا من الاضطهاد. «إني مؤيدة لفولتير وقيامه بمطاردة بومبينيان، المركيز البرجوازي (أجل، فقد حصل لوفران

على لقب نبيل قبل فترة قصيرة)، فلولا الاستهزاء الذي أغرقه به، لربما صار مرشدًا لأطفال فرنسا (الأمراء)، وإن انضمامه إلى أخيه جورج سيجعلهما يفعلان أمورًا كثيرة حتى إنهما قد يشعلان المحارق».

ما كانت للسيدة دو هوسيه من رغبة في المحارق، ولا لفولتير أيضًا. وجاء من نقل إلى شاعرنا أن ميرابو سمع ولي العهد يتلو على مسمع لوفران نفسه البيت الأخير: «في ما الصديق بومبينيان...» ويسخر منه. وقد أطربت تلك القصة سيد فيرني: «تلكم هي فائدة الأشعار في بعض الأحيان، فهي تُتلى في المناسبات الكبرى».

أما المناسبة الكبرى، فهي الرفض في أن يصير بومبينيان مشرفًا، فالرضا البالغ أفعم صدر فولتير، لكن متعته الفضلى هي أن يتمكـن من سلخ غريمه الشقي حيًا.

وقدر فولتير أن المسلوخ يمكن له أن يتحمل فوق ذلك ذر الملح وسكب الخل على جروحه، وأضاف أهجية جديدة يعلِمنا فيها أن لوفران، وقد صار مجنونًا، أخذ يجوب شوارع مونتوبان صارخًا: يهوه! جوبيتر! المسيح؛ أي إنه يعترف بجريمة إيمانه بالآلهانية، ثم تتلو ذلك أغانٍ يدندن بها الناس على مسمعي لوفران. وهنالك مرة أخرى لافتة إعلان للمسح تجمع بمحض المصادفة: ديدون من تأليف السيد لو فران دو بومبينيان والمغرور المعاقَب، وكان من شأن ذلك إثارة الضحك، إذ صاروا في الشوارع يدلون بأصابعهم على الشاعر المغرور. ففولتير يجد باريس مضحكة جدًا، في حين يجد لوفران أن باريس هي عرين الأبالسة، فماذا يسعه أن يفعل؟ أن يهجر تلك المدينة التي لا تُحتمَل، فعاد إلى بلاده. ولحق به فولتير إلى هنالك.

كيف صار رجل شقي سلاحَ قتال؟

استطاع فيلسوف فيرني أن يصنع من سِمةِ خيرٍ أداةً للثأر، فقد آوى صعلوكًا مسكينًا، هو إنسان فاشل، كما قد يرى المرء من حوله، ممتلئ بالمواهب العقيمة والفطنة التي تدور في الفراغ. إن دالامبير هو الذي أوصى فولتير به، فها هو ذلك الشقي إذًا قد استقر في الديليس، مدللًا، يقدم لمضيفه قصة حياته الملأى بالمغامرات. فكان يجسد فكرة فولتير عن عبثية العالم وغباوة العناية الإلهية

أفضل تجسيد، وكان قد صاغ قصيدة من تلك الحياة البائسة؛ حياة الرجل الشقي، وكان في وسعه أن يضيف إليها عنوانًا آخر: المعاكس الناشط للعناية الإلهية. وأما بطله الذي يستحق الشفقة، فيدعى سيمون فاليت، والحال أن فاليت هذا ولد في مونتوبان، وعبر هذه البوابة سوف نلتقي مجددًا بمونتوبان، الذي يمكن خدشه في الأقل خلال العبور. علاوة على ذلك، تعرّف فاليت، فيما هو يجر أذيال البؤس في باريس، إلى فريرون. أليس من تدبير العناية الإلهية أن نقع هكذا على «رجل بائس»، جاء بفضله اثنان من أعداء فولتير الألدّاء فوضعا نفسيهما تحت رحمة مخالبه الانتقامية؟ وهكذا جعل ذلك الرجل البائس يتكلم، وهو حين يتكلم بريشة فولتير فإنه يغدو شيطانًا حقيقيًا. التقى فاليت، فيما كان يموت جوعًا في باريس، بشخص يثير الفضول:

«كان اسم ذلك الحيوان جان فريرون
وقد علمني طريقة القيام بتقطيع أوصال
كتاب بأكمله، وكيف نعيد خياطته من جديد...
فعملت لديه، وقمت بخدمة ذلك القرصان
فأنتقِدُ دونما تفكير ومن دون اختيار
المسرح والمنبر دونما عقاب
وأكذِبُ لقاء عشرة دنانير في الشهر».

على ذلك النحو، إذًا، يكسب المرء لقمة عيشه في مؤسسة فريرن، زد على ذلك أنه يحقق لنفسه بعض الشهرة:

«صرتُ إذًا شهيرًا، ولكن عبر أعمالي الشائنة».

وأدرك في نهاية المطاف الدور الذي يجعلونه يؤديه، فترك فريرون:

«كنتُ غارقًا في الذل والعار وأنا أغادر القرصان
الذي قام فاختلس مع ثمرة جهدي
شرفي، في ما هو يكلمني على الشرف».

وخرج من جحر العقارب هذا ليقع في جحر آخر:

«كنتُ خالي الوفاض، والغم يمسك بخناقي

فتوجهت للقاء لوفران دو بومبينيان

فهو مثلي أنا، مولود في مونتوبان».

ولم يجد الشاعر ذو الخطاب الرنان وسيلة لانتشال «ابن بلده» من ربقة البؤس، سوى أن يقدم له نسخة من شعره، بعنوان قصائد مقدسة.

«إن سوء حالك ليؤثـر في نفسي

فهاك، إليك أناشيدي المقدسة،

إنها مقدسة. إذ ليس من يمد يده إليها!».

انتقلت تلك الومضة مثل ضحكة مجلجلة ومعدية: لقد أضحت العبارة مثلًا، وأخذ لوفران يئن تحت وطأة الألم، فجعله فولتير يقول أيضًا:

«ذلك كنز، هيا امض فحقق ثروة».

لم يجد ذلك الشقي أمامه، وهو مزود بذلك الكنز، سوى الموت جوعًا، فبادر فولتير إلى إنقاذه، لكن على حساب كلٍ من لوفران وفريرون.

عاش لوفران معتكفًا في قريته حيث توفي في النسيان عام 1784، وهو ذلك النسيان الذي ما كان له أن يغادره، بل ظل متربعًا على كنبته الأكاديمية حيث لم يتقدم أحد قط ليوقظه من غفوته.

هكذا نُفذ بذلك الشاعر حكم بالنفي أصدره الملك فولتير الذي ثبت بتلك الطريقة أركان سلطانه التهكمي، فهو يزهو بالعيش منعزلًا عن ضوضاء العالم واضطراباته، لكنه لم ينقطع عن المشاركة فيها البتة. فهو مرهف الحس حيال حركات الرأي كافة، ويحيطونه علمًا بكل شيء، فيحشر نفسه في المكائد والأقاويل والتنظيرات، فهو يعرف ويتفهم ويتبين ويتألم ويستمتع بكل ما يستشعره العالم أو يصوغه. والواقع أن العالم الذي يقول إنه قام برفضه، يتملكه أكثر من أي وقت مضى، فيتباهى بأنه عثر على صفاء الذهن، وذلك ما كان يفتقر إليه أكثر. فهو، على نحو لا يتزحزح.

ويبدو أن تواري لوفران عن الساحة وضع حدًا لعدائية فولتير، بيد أنها تواصلت حيال رجال أدب أدنى قيمة منه.

فغريسيه، مؤلف أخضر - أخضر (*Vert-Vert*)، تعرّض لبعض الخدوش في قصيدة «الرجل البائس». إن فولتير لم يحب أخضر - أخضر مطلقًا، بل يجدها خفيفة خفـة مفرطة، وهزلية جدًا، كما اغتاظ من النجاح السريع الذي حققه غريسيه أكثر من ببغائه، فأخذ عليه أنه يستحضر التمارين المدرسية، وأنه يتمتع بـ «الامتياز المزدوج»، في:

«أن يكونَ في المدرسة رجل فكر اجتماعي
وأن يكونَ في المجتمع معلم مدرسة».

تتخذ انتقادات فولتير - صحيحة أكانت أم خاطئة - شكلًا يجعلها تنتشر، فتنفذ بعمق إلى أذهان الجمهور الذي يستمتع بها فيحفظها، وتنفذ إلى جسد الضحايا الذي يجأرون بالصراخ ألمًا. وما كان لفولتير أن يهاجم غريسيه الذي كان يعيش آمنًا مطمئنًا في مدينة أميان، مسقط رأسه، والتي آثر الاعتكاف فيها، متقززًا من أخلاق جمهورية الآداب. لكنه أخطأ بالخروج عن صمته لفترة قصيرة ليشن هجومًا على المسرح، فما كان في وسع فولتير أن يدع تلك الجريمة من غير عقاب، ولم يقرأ غريسيه ذلك الهجوم عليه إلا بعد نشره بأربعة عشر عامًا، وذلك لمدى بعده عن الاضطرابات الأدبية، ولم يقم بالرد، لكنهم عثروا بعد وفاته على صورة لفولتير تحمل الملامح التالية: «ليس فولتير الذي يظن نفسه غازي الأدب، سوى دون كيشوت الأدب... فقد التقط من هنا وهناك نتائج الفنون والأخلاق والأحاسيس والطبيعة كافة، ونسب إلى نفسه كل ما قام باختلاسه، فيتراءى للجاهلين أن كل ما يقوم بعرضه هو من عنده... إنه المنتحل الأبدي، فهو قدم ما كان منتشرًا خارجًا وفي كل مكان على الأغلب، على أنه شيء جديد ومن إنتاجه»، ويضيف أخضر - أخضر بلهجة حاسمة وباتة: «ولسوف يموت ميتة كاملة».

ليس لكم يا أنبياء الآداب، أن تتنبؤوا البتة، ولا سيما حين تدفع بكم أحقادكم للصعود على المنصة ثلاثية القوائم، لقد أوشك أخضر - أخضر أن يكون مصيبًا في نظرته؛ ذلك أن فولتير الرسمي والأكاديمي والشاعر التراجيدي مات، بل إن الذي كان يهاجم أخضر - أخضر نفسه، مات. وما كان يرى معاصروه سوى ناظم الأشعار، على الطريقة الدارجة، فيستسيغونه. لكن أخضر - أخضر نسي فولتير الآخر: فولتير القصائد الهجائية والحكايات والروايات والآداب والبحث

في الأخلاق والقاموس الفلسفي...نسي في نهاية المطاف فولتير، رجل العصر العظيم، والذي كان التجسيد الخالد لحضارة بحالها. فحين يلوم أخضر - أخضر فولتير على أنه نهل ثروته من كل مكان، فإن رؤيته صحيحة لكن حكمه خاطئ؛ فليس ذلك ضعفًا بل تلك هي عبقرية فولتير، فما ينهل من الغير ليس بذي قيمة ما دام لم يجعل منه شيئًا ذكيًا وإنسانيًا: أي شيئًا من فولتير.

كان آنذاك ضحية أخرى هو الأباتي تروبليه، الذي لم تكن تعوزه الثقافة ولا رهافة الحس، لكنه كان يريد، كما يقال، أن يُظهِر أكثر مما وافق الله على إظهاره، «إن الذكاء الذي نتمتع به يشوه الذكاء الذي نرغب فيه»، ثم يحاول الإجادة إلى حد الإفراط: «إنه يوغل في تضمين أسلوبه القاصر جهدًا كالذي تبذله المتبرجات في زينتهن». فهو يتمرغ في مصادر ثروته، وبما أنه كاهن في سان مالو، فإنه لم يكن يخفي أن كرسي الاعتراف ضمن له كثيرًا من النجاح. وإن مثل ذلك التصريح يجعلنا في شك من رهافة حسه، فهو يقول لدالامبير إنه كان، وهو يعظ النساء في سان مالو، يجعل الرؤوس كافة تستدير، فيردّ عليه دالامبير قائلًا: «ربما في الاتجاه الآخر»، ولم يكن ذلك مجرد مزاح بسيط، لأن تروبليه كان على درجة من الدمامة المنفرة، ويقول عنه غريم إن شخصيته وسحنته كانتا قميئتين ومفرفتين، علاوة على أنهما كانتا قذرتين على نحو يجعل «شخصه موضع ازدراء أكثر كثيرًا من مؤلفاته». ولكي نقدم لمحة عن الفكرة التي يكونها عن مواهبه، سنورد هذه السمة عن الكاهن: كان يزعم أن فنه في كتابة الفواصل يبلغ درجة الكمال، فيوجه إليه غريم بشأن ذلك السهم الآتي: «كان دابة على جانب كبير من الفطنة». والحق أن القراء كانوا يقعون في كتاباته على الفطنة أكثر من الدابة، فكان له معجبون ومن بينهم فولتير... إلى أن جاء يوم كتب فيه الكاهن بشأن الـ هنرياد: «لست أدري ما السبب الذي يجعلني أتثاءب وأنا أقرأها»، وربما لم يكن تروبليه هذا على خطأ تام حين أضاف يقول: «ليس الشاعر هو الذي يجعلني أتثاءب، بل هو الشعر، وربما الأبيات»، لكن لا يهم، فالجريمة فاضحة: ولا بد من القضاء على المجرم.

فحين علم فولتير بأن تروبليه ينام لدى قراءة شعره، حرص على إيقاظه:

«لقد جعلتني أنام، هكذا قال ذلك الرجل الصالح تروبليه

وأنا أقوم بإيقاظه على صوت صفرات حادة».

فيا للكاهن المسكين!

«فانتاب الغيظ حينها الأب ترويليه
لأنه في باريس شخصية ضئيلة».

بل كان على درجة من الضآلة جعلت الأب فوازنون يقول عنه: إنه كان يلتقط فُتات الأحاديث وفضلات قراءاته ليصوغ منها كتبه: «إنه عامل التنظيفات في دنيا الأدب»، واستولى فولتير على ذلك الحكم الرحيم:

«إن ضحالة الفكر لدى ذلك الرجل
جعلت فكر الغير يأتيه داعمًا
فيكدس قولًا مأثورًا فوق قول مأثور
وينضد ويكوم ويراكم
فتراه يكتب ويكتب دونما كلل
ما قد سمعه في ما مضى
ويرهقنا من غير أن يصيبه الإرهاق».

نقع دومًا على ذلك اللوم القائم على الاختلاس من الغير، والذي ما انفك الكتّاب كافة يتبادلونه. والحال أن أيًا منهم لم يكن على خطأ: فالكل يختلس من الكل، فلا يتبدل سوى الفن القائم على الاختلاس وتسوية أمر الغنيمة، لكن ذلك يغير كل شيء.

من ذا الذي كان مندهشًا بعد تلك السرقة؟ ليس، البتة، هو الأب الذي استقبلها بابتسامة، والذي شعر بأنه ازداد شهرة، ودخل إلى الأكاديمية بعد أن بعث إلى فولتير بنص خطابه مشفوعًا برسالة إطراء. وقد أُسقِط بيد فولتير من جراء ذلك، فرد بكياسة، وبشيء من المرح، لكن الرد كان متسامحًا، فهو لا يقوى على مقاومة السلوكات الطيبة. أما الكاهن الذي لم يكن طامحًا إلا إلى إحلال السلام، فعبّر عن رضاه، وحمَد فولتير بكثير من النزاهة على أقواله الشاكرة: «أشكرك ألف شكر، يا سيدي وزميلي الشهير على الجواب الذي شرفتني به، فهو جواب ذكي على قدر ما يتسم باللطافة، وفضلًا عن ذلك فهو جواب مرح. وفي ذلك دليل على

حسن صحتك، والشيء الوحيد الذي يبقى عليك إثباته، فهل يسعك الحفاظ عليه طويلًا، ومعه المباهج جميع وما في عبقريتك كلها من توقـد. إنها رغبة أعدائك أنفسهم، ولئن لم يكونوا يحبون شخصك، فهم يحبون أعمالك، وليس هنالك من استثناء حول هذه النقطة، والويل للذين ينبغي استثناؤهم».

بعد ذلك صدر عفو عن المجرم، فأعاد إليه فولتير حقوقه في الحياة الأدبية وموهبتها.

لكن بقي هنالك «مجرمون» آخرون، هم غير التائبين وأصحاب السوابق، وأسوأ مجرم فيهم هو فريرون. ففي عام 1759 أساء فريرون إلى كتاب **كانديد**، فكيف يسع المرء أن يسيء إلى كانديد؟ الويل للذين ينبغي حذفهم من عداد المعجبين. وبعد ذلك بعام تظاهر فولتير باكتشاف عدد قديم من جريدة فريرون، **السنة الأدبية**، التي بدأت في الظهور منذ عام 1754، «كانت مفاجأة لي أن أتلقى في نهاية كانون الأول/ ديسمبر ورقة من نشرة دورية هي السنة الأدبية التي كنت أجهل وجودها تمامًا وأنا في عزلتي...، فيا له من ناسك قديس لا يتلقى في عزلته شيئًا من العالم...، وعلمت أنه عمل يتولى الإساءة إلى أشهر الناس...». وتلا ذلك بعض الأقوال الغامضة حول ضعاف النفوس الذي يتنطحون رقباء على مؤلفات الغير، ولم يخطر في باله تجريم كاتب تلك الورقة... «الذي لا يعرفه على الإطلاق: فريرون! غير معروف لدى فولتير!»، وعبثًا يقولون لي إنه عدوي منذ زمن طويل، لكنني أؤكد لكم أني لا أعلم عن الأمر شيئًا»، أما اللهجة التي هي بين بين، فلا تبشر ذلك «المجهول» بالخير.

كان فريرون في موقع قوة ليندد بسذاجة فولتير المغلوطة، فضاعف من البراهين التي تثبت أن ناسك البحيرة كان يعرف **السنة الأدبية** ومحررها منذ زمن طويل، ناهيك بأن تلك الرسالة لا يمكن أن تكون بخط فولتير، فهي «على الأرجح» من تلك الرسائل المزورة التي تنسَب إليه؛ لأنها خالية من الأسلوب ومن الروح، وتأثر فولتير بذلك، فكان أن لاذ بالصمت.

بعد ذلك بمدة قصيرة، قدم في آب/ أغسطس 1760 مسرحية **الاسكتلندية** (*L'Écossaise*)، وكانت ذات سوية متواضعة، ونُسِبت إلى فولتير، فقال إنها مترجمة عن الإنكليزية، فهي ليست من تأليفه والكاتب جيروم كاريه ينسبها إلى نفسه. قام فريرون

بنقدها نقدًا شديدًا وكان محقًا في ذلك. ولما نبهوه إلى أن أحد شخوص المسرحية، واسمه «فريلون»، هو صورة عنه كتبها فولتير، أجاب بكل مهارة إنه لا يعتقد أن فولتير قادر على أن يكتب بتلك السوية المبتذلة، لكن ذلك لم يحُل دون أن يتذكر أن فولتير، أيام كان في برلين، أشاع النبأ بأن فريرون حكِم عليه بسجن الأشغال الشاقة.

كانت الاسكتلندية من تأليف فولتير حقًا، وقد حققت نجاحًا فابتهج لذلك، ويحث المشاهدون فيها عن الشتائم الموجهة إلى فريرون، ثم قام بتأليف مسرحية، ربما هي أفضل أو أسوأ، عنوانها موت سقراط، لكن ليس فيها شيء قديم، بل نقع فيها على أعدائه بيرتييه، وشوميكس، والأب نونوت. وسويتها هابطة وخالية من الألق، إنها قضية خاسرة. وعمل على تقديم الاسكتلندية مجددًا مع تغيير اسم فريلون[31] (Frelon) إلى غيب (Guêpe)، وابتهجت باريس كلها للنزاع الذي كانت تأمل بأن يحقق تطورات مسلية فملأت الصالة كي ترى فريرون يحضر شخصيًا تنفيذ الحكم فيه. وجرى تنظيم كل شيء لتنفيذ حكم الإعدام، وحشد كل من ديدرو وسودين أصدقاء الموسوعة وفولتير، ليصفقوا للردود التي سيصار فيها إلى تمزيق فريرون. وكانت مفردات العنكبوت والحقير والتافه واللص والأفعى واللئيم تزين النص الذي يصف السيد غيب، وطربت عصبة الفلاسفة إلى حد الهذيان، وأدهش فريرون الجميع بصفاء جسارته؛ فالمرء قلما يجرؤ على أن يتخيل سخط السيد فولتير وصراخه وزعيقه ونوباته العصبية في الأوضاع نفسها. أصيب فولتير بالخيبة بسبب ذلك الهدوء، كذلك كانت الحال بالنسبة إلى تحليل المسرحية القصير والمسموم الذي قام به فريرون، فيقول فولتير: «أما وقد تعرف فريرون سهوًا إلى نفسه في المسرحية، فإن الجمهور تعرف إليه أيضًا». ويضيف فريرون أن المسرحية لم تحقق نجاحها «إلا بفضل ألف ومئتين وحتى ألف وخمسمئة شخص من المتآمرين الذين كانوا يكرهونه ويزدرونه للغاية»، ألف وخمسمئة شخص جاءوا لإهانته: ذلكم هو التقدير الذي كان يحظى فريرون به في باريس. ويقول فولتير إنه التقى السيدة فريرون لدى الخروج من القاعة فكوفئ بقبلتين اعترافًا بفضله. قالت: «لَكَم أنا ممتنة لك لأنـك عاقبت زوجي، غير أنك لن تقوم بإصلاحه أبدًا».

---

(31) كلٌ من الكلمتين معناها زنبور. (المترجم)

لكن كم يبدو ذلك مغلوطًا! إلا أن فولتير لم يقم إلا بتزوير واقعة حقيقية. فالسيدة فريرون كانت تحضر العرض حقًا وكانت مضطربة بفعل الهجمات التي كان زوجها ضحية لها، فقال لها أحدهم، للتخفيف عنها: «كلا يا سيدتي، فليس المقصود هو زوجك، فهو ليس ساعيًا بالدسائس ولا مزورًا ولا واشيًا»، فألقت الشقية بكل براءة بهذا الحمل الثقيل: «إيه، يا سيدي، فليس وراء قولك من طائل. لأنهم سوف يعرفونه دومًا».

دخلت باريس كلها في خصومة كلامية وكتابية بشأن موضوع الاسكتلندية، وبذلك صارت نجاحًا، وجرى تقديمها في الضواحي. واقترح الممثلون، وكانوا حينها في آب/ أغسطس 1760، استئناف تقديمها في فصل الشتاء التالي. كان الصيف مشعًا على ضفاف بحيرة ليمان، وكذلك كان الشاعر العجوز «لقد تحققت هزيمة فريرون، لكن ذلك في منزلة الاغتباط لانتصار هزيل. في هذا العام، حمل جسمي العجوز، وجذعي العجوز بعض الثمار، فمنها ما هو حلو، والثمار الأخرى طعمها مر قليلًا». فالثمار الحلوة هي ثمار الثأر، ولو أنه لم يُثمر في حياته سوى تلك الاسكتلندية، لتركناه هو وبهجته الكئيبة، لكن ليس لهمتنا أن تثبط، أكثر من همته، ولنتمن له مناسبات أكثر انتقامًا وأجمل إشراقًا وها هو يخلد إلى الراحة: «إن رحيقي انتهى، فما عدت أعطي من ثمار ولا تنبُت أوراق على أغصاني، فينبغي الخضوع للطبيعة وعدم توجيه اللوم إليها. ولسوف يتوافر الوقت الكافي أمام الأغبياء والمتعصبين في هذا الخريف وفي الشتاء المقبل، لكن حذار من فصل الربيع!».

ذلك هو حقًا! فالفكرة التي تجعل الأغبياء والمتعصبين ينعمون في حياته بالراحة، سوف تجعله يخرج من راحته هو مثلما يخرج الشيطان من جرن المعمودية.

نجاح تانكريد السامي

حققت تلك التراجيديا القروسطية، الرهيبة والرقيقة والنبيلة، والسامية سموًا نبيلًا يقارب السخرية، نجاحًا كبيرًا يفوق ما حققت الاسكتلندية من نجاح. ولم يحتج فولتير، لبلوغ ذلك الأوج، إلا لأربعة أسابيع وخمسة فصول كتبها ما بين 22 نيسان/ أبريل و18 أيار/ مايو 1760. وقد عرضت في 13 أيلول/ سبتمبر 1760،

وليس لنا أن نظن أنه ظل ستة وعشرين يومًا فوق قمم البسالة والحب والأهوال، بل كان يضع قدميه على الأرض ليلاحق فريرون، والبساتنة في حدائقه والبنائين وأصحاب المكتبات، وليومئ من بعيد إيماءات صداقة تمتد حتى نصف مساحة أوروبا: كان يكتب أحيانًا حتى أربعين رسالة في اليوم الواحد، أما النصف الثاني من أوروبا، والذي لا يقوم بمراسلته، فيأتي هو لزيارته.

إن ذلك العمل الرائع عمل رائع إضافي! إن تلك التراجيديا الكلاسيكية لم تشكل فقط تلك الأماسي الجميلة للسيدة دوني والجنيفيين الذي كانوا يشهدون المسرحية في «الكوخ»، بل أيضًا أماسي الباريسيين الأكثر تشددًا. لقد غاص معاصرو فولتير عميقًا في بحر من الإعجاب بمسرحية تانكريد. وكان النجاح يُقاس طردًا بما يذرفون من دموع، وكان سيل الدموع عامًا وشاملًا حتى إن أفراد عصبة فريرون الذين جاءوا إلى الثأر من الزنبور، نسوا الصفير، وغرقوا، مثلهم مثل الآخرين، في فيض من دموعهم، فكان ذلك هو الفوز العظيم، وهو تكرار لفوز زايير.

كتبت السيدة ديبيني تقول، وهي التي لا تبدو بطبعها شديدة الرقة، إنها: «وجدَت الوسيلة لرؤية تانكريد ولأن تـُجهش بالبكاء. وفي المسرحية واقعة موت، فالأميرة تموت أيضًا لكنه موت لائق، وذلك تجديد مؤثـر يمضي بك من الألم إلى التصفيق. لقد قامت الآنسة كليرون بالمعجزات، ويرد فيها قولها (وماذا، يا أبي!) إيه! يا حبيبتي جان، لا تقولي لي أبدًا (وماذا) بتلك النبرة ما لم يكن في نيتك أن أموت، وأختم بقولي إن كان لديك من عشيق، فتخلصي منه بدءًا من يوم غد، ما لم يكن فارسًا مغامرًا، فليس سوى هؤلاء الناس من هم جديرون بتكريم السيدات».

نُقِلَ ذلك القول إلى فولتير، فأجهش بالبكاء، فهو يبكي أحيانًا على العزة الشقية للفرسان المغامرين، ويبكي في الأغلب لمجد فولتير المتفتح، لكنه ما كان يبكي إلا بعين واحدة، فالأخرى مفتوحة، وتراقب فريرون وعصبته: «قيل إن الشيطان كان جالسًا في قاعة المسرح متلبسًا شكل فريرون، وإن دمعة انحدرت من عين امرأة فسقطت على أنف الشقي، فأحدثت صوتَ (بش! بش!) وكأنها قطرة من الماء المقدس». وجلس ينتظر مقالة ثأر من «الشيطان»، لكنه لم يتلق منه

سوى المدائح مقرونة ببعض التحفـظات حول صياغة المشاهد وتسلسلها، وهي ملاحظات في محلها. وكان دارجنتال قد أشار إلى تلك الأخطاء، لكنه كان يظن أنه ما دام أبكى الجمهور، فإن هذا الجمهور لن يعود قادرًا على الرؤية بوضوح لاكتشاف الأخطاء، وهو أصاب في كل شيء إلا في نقطة واحدة: لم يكن فريرون يبكي، وهو نظر فأصاب، وأبدى ديدرو بعض التحفـظات أيضًا، فكرروها على مسمع فولتير الذي رجا ديدرو أن يعبر له عن انتقاداته بكل صراحة. وإنها لمغامرة خطرة أن يتنطح المرء لتلبية مثل ذلك الفضول لدى «شيخ الجبل». وكان ديدرو يخشى حساسيته المفرطة: فأحاط تحفظاته البسيطة بالمدائح وسار كل شيء على ما يرام. «آه! يا معلمي العزيز، لو رأيت الممثلة كليرون وهي مرتدة نحو الجلادين المحيطين بها، فركبتاها لا تحملانها، وعيناها مغمضتان، وذراعاها متراخيان كذراعي ميتة، وسمعتَ الصرخة التي تطلقها لدى رؤيتها تانكريد، لصرتَ مقتنعًا أكثر من أي وقت مضى أن الصمت والإيماء يثيران في بعض الأحيان من الشجى ما لا تقوى على بلوغه مصادر الفن الخطابي كافة».

تلك هي الكلمة قد قيلت: الشجى. لقد سبق لديدرو أن شعر بقوة الأحاسيس. شعر بحسية المسرح. وجرى بلوغ الذوق الكلاسيكي، وسار فولتير مع التيار، فأدلى بدلوه مع المَيل الناشئ الذي لم يكن على الأرجح موافقًا عليه إلا من حيث الشكل حين يبدون الإعجاب به في تانكريد، لكنه كان سيشجبه لدى مؤلفين آخرين.

رغب فولتير، كي يشكر السيدة دو بومبادور التي دعمته حين التمس شهادات السيادة على فيرني وتورني، في إهدائها تانكريد، وبدأ يتخيل استهلال الإهداء على النحو الذي يجيد صياغته، لكن دارجنتال أوحى إليه بأن استهلاله قد لا يُقابَل بالترحيب الذي يأمله. كان دارجنتال يخشى الأثر الذي يمكن أن يخلفه بعض الإلماعات الفكهة، التي فيها شيء من رفع الكلفة، بل الوقحة أحيانًا والتي كان فولتير يفرط في استخدامها، في حين أن بعض أصحاب السمو الملكي يستاؤون منها، وكذلك بعض الشخصيات المهمة، من غير أن يكونوا من أصحاب السمو الملكي. فطمأنه فولتير وبعث إليه بالإهداء، فقرأها آل دارجنتال قراءة مجهرية، وسبروا أغوارها، وتفحصوها تفحصًا دقيقًا. فهل يمكن تفسير هذه الكلمة تفسيرًا مزدوجًا؟ وهل يمكن فهم هذا الإطراء فهمًا ملتبسًا؟ فشعب البلاط شعب حساس

خصوصًا ضمن نطاق سوء النيات، وقاموا، في سبيل المزيد من الحيطة، بعرض الإهداء على الوزير، الدوق دو شوازول الذي لا يسلم الإهداء للمفضلة ما لم يكن كاملًا، لا تشوبه شائبة، فوافق الجميع، بمن فيهم الملك على النص. قام فولتير بالإطراء دونما تحفظ، ومن غير الإفراط في الرقة، والمبالغة في الألق، إنه الإطراء بتذلل، فأوعز بالطباعة، وبعث بنسخة فاخرة من تانكريد مشفوعة بإهدائه وانتظر، وظل ينتظر.

بعد مرور ستة أشهر أبدى دهشته، ثم تولاه القلق، فليس من جواب. كانت السيدة دو بومبادور والملك، وحدهما، يعرفان سبب ذلك من غير حرص على إشاعته. وتلقت المحظية رسالة مغفلة، وفيها تلميح إلى أن فولتير لا يُداهن إلا بتقييدات مسمومة، ولأن المحظية ليست جديرة بمدائحه، فهو يقيم لنفسه عذرًا لدى الذين سوف يأخذون عليه أنه مدح محظية غير شعبية، ففضلت السيدة بومبادور أن تدفن القضية قبل انفجارها، لخشيتها من نشوب حرب كلامية حول ذلك الإهداء، ولحذرها على الرغم من كل شيء من فولتير، لقد دفنتها بصمت مع موافقة الملك.

ووجد فولتير أن البلاط بلدٌ ذو نزوات وليس فيه شيء ثابت سوى شيء واحد هو الجحود.

لكن ذلك ليس مسوغًا للدخول في مزيد من النزاع معها. وعلى ذلك، فحين كتب الإنكليزي، اللورد ليتلتون يقول في مقدمة أحد كتبه إن فولتير يعيش منفيًا في سويسرا، احتج فولتير؛ إذ خشي أن يرتاب البلاط في أنه يقوم بدور الشهيد لكي يبرهن على عدم تسامح الوزارة، وكتب إلى اللورد قائلًا: «أنا أعيش في أملاكي، في فرنسا (لا في سويسرا!)، فالاعتكاف (ولا تخلط بينه وبين النفي) يلائم الشيخوخة، وهو يلائمها أكثر حين يقيم المرء في أملاكه (أليس أحد الأسياد؟). ولئن كنتُ أملك منزلًا ريفيًا صغيرًا قرب جنيف (الديليس!) فإن ممتلكاتي وقصوري تقع في مقاطعة بورغونيا (فهل تلك حال رجل منفي؟)، ولئن تفضل الملك بإقرار امتيازات أملاكي المعفاة من كل ضريبة (إنه الامتياز الذي استطاعت المحظية الحصول عليه لأجله) فأنا أشد ارتباطًا لذلك السبب بمليكي».

أوعز اللورد ليتلتون بحذف النفي وسويسرا من المقدمة، بيد أن الملك لم يدعُ فولتير إلى فرساي.

لم يكن الملك يظهر كثيرًا من الود حيال فولتير، لكن صاحبة مقهى في شارع كروا دي بوتي شان، أظهرت ذلك بدلًا منه. اسمها السيدة بوريت، وكانت تبيع عصير الليمون وأكواب النبيذ، وتجدل قصائد قصيرة محببة لا تلحق ضيرًا بأحد، بل تعود بكثير من المتعة على الشاعرة. وكانت تبعث بقصائدها إلى المشاهير من الكتاب، ويقوم هؤلاء في المقابل، فيرسلون إليها أحد مؤلفاتهم، مشفوعًا أحيانًا بهدية، وبشيء من المال. وهكذا، أرسلت إليها السيدة دوني مروحة جميلة، وبعثت السيدة بوريت بمجموعة جديدة من القصائد، فكلف فولتير ابنة أخته بأن تبعث إليها بهدية ثمينة، فجرى النقاش حول إرسال قارورة قيمتها ستون ليرة، ثم تحولت إلى هدية بست وثلاثين ليرة؛ ليتم الاتفاق في نهاية المطاف حول فنجان مزخرف بخيوط ذهبية، بنصف القيمة الأخيرة. زهت السيدة بوريت به حتى صارت تدعو رجال القلم إلى الحضور، وتأمل فنجان فولتير، وحتى إلى شرب القهوة فيه. أما السيد الفاضل جان جاك روسو، فبعث إليها بالرد الآتي: «سوف آتي يا سيدتي لزيارتك وتناول القهوة عندك، لكن أرجو ألا يكون ذلك في كوب السيد فولتير الذهبي. ذلك أني لا أشرب قط من كوب ذلك الرجل».

امتنع عن شرب القهوة في كوب فولتير، إذًا، وحسنًا فعل. لأنه لو شرب في «الكوب الذهبي» (لِمَ لم يطلق عليه اسم الفنجان؟) لربما عرض نفسه للإصابة بجرثومة اللباقة وبالتهابٍ مفزع يطلقون عليه اسم المَيل إلى البذخ، إذًا سوف يشرب قهوته في قبقابه[32] الخشبي، وتظل روحه نقية مثل مبادئه.

جاءت الآنسة رودوغون لإبهاج فيرني فأحزنها الأشرار

كان على فولتير أن يقوم بإلقاء أطفاله في الشارع، وفقًا للمبادئ «النقية»، لكنه استبعد تلك المبادئ، وبادر بأريحية، فاستقبل فتاة تحمل اسمًا عظيمًا هو كورناي لكنها تحمله وسط البؤس، فقد شق عليه التفكير في أن حفيدة شقيق مؤلف بوليوكت (*Polyeucte*) كانت تتقوت وتعيش من دون تربية.

---

(32) القبقاب الخشبي في أوروبا مجوّف كالحذاء. (المترجم)

إنها سليلة عم كورناي العظيم واسمه بيار، وهو الاسم الذي حمله ابن أخيه من بعد، وكان له ابن مولود في عام 1662، فهو أولًا ابن عم كورناي، وهو فليونه أيضًا[33]، وقد حمل بدوره اسم بيار. أصيب هذا الشقي الذي كان محاميًا في مدينة روان بالإفلاس، مثل آل كورناي كافة، بسبب زبون عديم الذمة كان قد كفله، وخلف خمسة أولاد رُزِق واحد منهم بصبي اسمه جان فرانسوا، ولد في عام 1774، هو أبو الفتاة التي آواها فولتير. وكان جان فرانسوا هذا ابن خال فونتنيل الذي كانت أمه، واسمها ماري كورناي، شقيقة الشاعر الكبير مؤلف السيد (*Le Cid*). وما كان جان فرانسوا، بسبب عوزه وجهله، يعرف قرابته بفونتنيل، لكن حين علم بها، قرر التقرب من الشاعر الكبير عسى أن يمد له يد العون. فيشاء سوء حظه أن يعاني فونتنيل الذي شارف على المئة، ضعفًا في الذاكرة؛ فهو نسي وجود اثنين حملا اسم بيار كورناي. وحين قدموا له حفيد بيار كورناي اعتبره غشاشًا. وخلاصة الأمر أن فونتنيل، حين توفي، ترك ثروته لبنات أخته، وتقدم جان فرانسوا بدعوى لكنه خسرها، فأشفقت عليه بنات أخت فونتنيل، ودفعن له نفقات الدعوى ومنحنه هبة، لكنهن لم يخرجنه من بؤسه، وكان يحصل على عيشه من صنع قوالب خشبية، فيكسب أربعين فرنكًا في الشهر لإطعام خمسة أشخاص. وفي ذلك الحين شرعوا يتحدثون عنه في باريس. وها نحن في بلد التعارف، فقد كان فريرون أول من تبنى قضيته. وجاءت بادرة السخاء الأولى من ممثلي المسرح الفرنسيين الذين قاموا بعرض مسرحية تراجيدية ثم كوميدية وأعطوا الأرباح لفرانسوا كورناي، لقد أعطوه دخل يوم الاثنين الذي تمتلئ فيه الصالة، فحصل على أربعين ألف فرنك، وسدد ديونه، ووضع ابنته البالغة ثمانية عشر عامًا في دير داخلي. وكان لا بد من إخراجها من هناك لأن الأب ما عاد قادرًا على تسديد نفقات الدير، فبادرت بنات أخت فونتنيل وآوينها في بيتهن، وكان عندهن الشاعر لو بران، الذي رآها فكتب حكايتها الحزينة شعرًا وبعث بها إلى فولتير، ولم يكن بحاجة إلى أكثر من ثلاثة وثلاثين مقطعًا ليطلب إلى الشاعر مد يد العون لتلك الشقية. والحقيقة أنه أضاف إليها رسالة طويلة، شرح فيها مجازات أشعاره وإبهامها، وكان ذلك رائعًا: لقد بكى فولتير لدى قراءتها.

---

(33) هو الطفل الذي يحمله العراب في العِماد، فيظل أبدًا ابنه الروحي، ولا يسعه الزواج من إحدى بناته، فكأنهن أخواته. (المترجم)

«من الملائم أن يسعى جندي عجوز لتقديم نفع إلى حفيدة سيده الجنرال»، إتُّخذ القرار، فجرت ترتيبات الأمور بالحيوية المعهودة. سوف تتوجه الآنسة كورناي إلى ليون، فتحل عند آل ترونشان، حيث سيبعث بعربة تأتي بها إلى فيرني. «ولئن كان ذلك يلائمها، فأنا رهن إشارتها وآمل أن يتاح لي أن أشكرك حتى آخر يوم في حياتي؛ لأنك شرفتني حين أتحت لي أن أقوم بما كان ينبغي على فونتنيل القيام به. ولسوف يتمثـل جزء من تربية هذه الآنسة في أن ترانا نؤدي بضع مسرحيات من تأليف جدها، ولسوف نجعلها تقوم بتوشية موضوعات سينـا (*Cinna*) والسيد (*Le Cid*)».

رأى نفسه في غمرة حماسته مربيًا، فنسي أن يستعلم عن درجة القرابة بين الفتاة وكورناي، وعن الفتاة نفسها وأبيها. وإن ذلك الرجل الشديد الحذر والداهية في مجال الصفقات والأعمال فتح منزله دونما حيطة أمام تلك الفتاة الفقيرة، التي تحيط برأسها هالة اسم كبير: لقد حدثه قلبه، وبدأ يطرح على نفسه أسئلة مؤثرة. هل ستحبه؟ ألن تشعر حياله بالرهبة؟ وماذا قالوا لها عن «شيخ الجبل»؟ عن ذلك الكافر! عن ذلك الرجل الشرير! إنه يعرض عليها «جميع التسهيلات، والمساعدات الممكنة لجميع الفروض الدينية»، وسوف يقدم لها جميع المعلمين الذين ترغب فيهم: «سوف نأتي بمعلم يشرفه كثيرًا أن يعلم شيئًا لحفيدة كورناي العظيم، لكن سيشرفني أكثر أن أراها أنا تقيم في منزلي». وبعد إعمال فكره، بدأ يساوره القلق، حدث ذلك بعد فترة قصيرة. فعلى من وقع؟ إنه لا يعرف شيئًا عنها. فهل كان لو بران الذي أوصاه بها جادًا؟ (لو كان يعلم فقط أن فريرون أدلى بدلوه في القضية!...) فطلب إلى السيدة دارجنتال أن ترى الفتاة، فهي أفضل مساندة من لو بران. فعبثًا كتب الشاعر ثلاثة وثلاثين مقطعًا حول حفيدة كورناي، فهو لا يزال أصغر سنًا من أن يقوم بدور مصاحبة الفتيات اليافعات، وقامت السيدة دوني بإعداد جهاز رائع.

وصلت الآنسة كورناي في كانون الأول/ أكتوبر 1760، كانت رقيقة ونشيطة ومرحة وساذجة، فقوبلت باستحسان. جلبت معها فتوتها السليمة وظُرفها، فأطلق عليها فولتير فورًا اسم رودوغون (بطلة مسرحية كورناي): «نحن في غاية السرور من الآنسة رودوغون، إذ نراها مرحة وعفوية وصادقة. فأنفها يشبه أنف السيدة دو روفيك، ولها وجه لطيف يشبه وجه جرو الدرواس، وهي ذات أجمل عينين، وبشرة رقيقة، وفم كبير وشهي يزينه صفـان اثنان من اللآلئ».

بادر فكتب إلى أبيها، ولم يكن ذلك بالأمر اليسير، ففي مناسبات من هذا النوع نرى فولتير على حقيقته: «إن الذين يرونها كلهم راضون عنها الرضا كله. فهي مرحة ومحتشمة ولطيفة ونشيطة، ولا يسع فتاة أن تكون أكرم محتدًا. وإني أهنئك ياسيدي، على أنها ابنتك، وأشكرك على أنك وهبتني إياها».

فمن هو الذي يشعر بالامتنان؟ ومن هو ذو اليد العليا؟ إن فولتير هو الذي يتقدم بالشكر، إن المحسن هو الذي يشعر بالامتنان؛ لأنه استطاع أن يقوم بالمعروف. وإن من الحسن الإحاطة بذلك كله مع الأسلوب والشجاعة.

لكن أعداءه سوف يهاجمونه - الأتقياء منهم وفريرون - حول نقطة لا تقبل الهجوم: حول السخاء. فقد قام ذلك الغبي لو بران، بعد إذ امتلأ غرورًا، بنشر قصيدته ذات الثلاثة والثلاثين مقطعًا، من غير أن يملك الحق في ذلك، وألحق بها رسالة فولتير التي يشكره فيها على أن أطلعه على مصير رودوغون، فارتمى فريرون على الطعم وقام بالرد، وقال إن الآنسة كورناي ليست سوى مسوغ ليقوم بتحسين سمعته، وإن لو بران عميل دعائي لفولتير. أما هو، فريرون، فرأى أن من الخير له، منذ أن علم باهتمام فولتير بتلك الفتاة، أن يكف هو عن الاهتمام بها، ناهيك بأن أباها رجل خسيس «ليس أبو الآنسة سوى مستخدم بسيط في البريد يقبض فلسين اثنين، وخمسين ليرة شهريًا، وابنتها خرجت من الدير لتتلقى في بيتها تربية مشعوذ في السوق». أما في حديثه عن فيرني، حيث ستجد فولتير والسيدة دوني والسيد دوليكلوز، طبيب الأسنان والممثل، فأضاف الـ «غيب» (الزنبور) يقول: «لا بد من الإقرار بأن الآنسة كورناي، وقد غادرت الدير، سوف تقع في أيدٍ أمينة». استبد الغيظ بفولتير حين قرأ ذلك الإعلان، ناهيك بأن محيا رودوغون الجميل هيأ لها من جاء يطلب يدها للزواج، وهو رجل نبيل يقيم في الجوار. ومع أنه فقير الحال (لكن فولتير سيدفع بائنة رودوغون)، فإنه في غاية النزاهة. ولدى قراءة مقالة فريرون، صرفت أسرة الشاب النظر عن مشروع الزواج.

سعى فولتير لاستنزال الصواعق كافة في باريس على رأس فريرون الدنيء، فكتب إلى دارجنتال والى السيد ماليزيرب ومفوض الشرطة السيد سارتين، ورفع لو بران شكوى قدح وتشهير. أما أنه لم يشأ أن ينتظر الدعوى ليثأر لنفسه، فقد مر على بيت فريرون - الفاسب - ولمّا لم يجده ترك له البطاقة الآتية:

«تشرف السيد لو بران بالمرور على بيت السيد فريرون ليترك له شيئًا ما». وكانت تلك البطاقة مدعاة ضحك الباريسيين، إذ رغبوا في إعطاء «شيء ما» للجمهور، وقد أجاب فريرون الذي لم تكن تنقصه برودة الأعصاب قائلًا: «أنا شديد التأثر حيال الاهتمام من جانب السيد لو بران، ويسعه أن يكون واثقًا من أنه لم يخدم أحد الجاحدين، وأنا أُعمِل التفكير كي لا أرد له ما يسعه أن يعطيني مضاعفًا مئة مرة. أما وأني كثير المشاغل، فإني أعفي السيد لو بران من أن يقدم لي هبات في بيتي، فأنا أخرج من بيتي يوميًا ما بين الظهر والساعة الواحدة، فيمكن لأريحيته أن تكون ذات ألق أكبر حين تُشاهَد آثارُها بين العامة».

لم يكن فاسب الجافي الطبع يفتقر إلى الرد.

لسوء الحظ، لم يحرص السيد ماليزيرب ولا السيد دو سارتين، على ملاحقة فريرون نزولًا عند مطالبة فولتير. وكان فولتير يشعر بالموسوعة شعورًا قويًا، في ما يقف ماليزيرب على الحياد بعض الشيء، لشعوره بأنه قد تورط بما فيه الكفاية. وهنالك أخيرًا قضية الاسكتلندية التي ما زالت في الأذهان ودعاوى فولتير التي سببت الضيق للجميع، فما عاد القضاة راغبين في قضايا أكثر. وكانت السيدة دوني تكتب الرسالة تلو الرسالة، مذكرة بأنها سيدة نبيلة، وزوجة حوذي الملك السيد دوني الذي توفي وهو يؤدي عمله (!) وأن فولتير رجل نبيل وسيد ذو سيادة على فيرني وتورني، وأن دوليكلوز لم يكن طبيب أسنان إلا في بعض المناسبات، وأنه سيد على أرض ليست معروفة كثيرًا، لكنها قائمة في غاتينيه، وأن الآنسة كورناي آنسة نبيلة، وكان آل كورناي قد صاروا نبلاء بفعل مهمتهم في محكمة النورمندي العليا منذ القرن السادس عشر، وأنها حفيدة شقيق الشاعر التراجيدي الأكثر شهرة في فرنسا، لكن ذلك كان بلا جدوى، فقد قام السيد دو سارتين باستدعاء فريرون ليقوم كما قال «بغسل رأسه الشبيه برأس الحمار»، وذلك كل ما وسعهم الحصول عليه.

أما الدسيسة الأخرى فكان من شأنها أن تحدث ضررًا كبيرًا، ولا سيما أنها أكثر خسة؛ فقد لمسنا مدى سهره على الآنسة كورناي واهتمامه بتربيتها، وحرصه على قيامها بأداء واجباتها الدينية. وكان يتولى بنفسه تصحيح موضوعات الإنشاء التي تكتبها: «يتمثل الهم الأول في جعلها تتكلم لغتها ببساطة ورقي، ونحن

نجعلها تكتب كل يوم فترسل إلي بطاقة صغيرة وأقوم بالتصحيح، وتوافيني بعرض لقراءاتها... فلا ندعها تستخدم تعبيرًا ركيكًا، ولا لفظًا مواربًا: فالعرف يقود نحو كل شيء، ونحن لا ننسى الأشغال اليدوية، فهنالك ساعات للمطالعة، وساعات للتطريز بالغرزة الصغيرة. وأنا أقدم لكم عرضًا دقيقًا بكل شيء، وليس لي أن أغفِل أني أصطحبها بنفسي إلى قداس الرعية، فعلينا أن نكون قدوة ونحن كذلك».

كانت رودوغون إذًا في أيدٍ أمينة، وفولتير لا يجعل من الإلحاد فصلًا تربويًا، فالأمر بخلاف ذلك، ولا يسع أعداءه أن يهاجموه في ذلك الشأن. فالإلحاد مظهر من مظاهر البذخ، وينبغي له ألّا يكون في متناول العامة ولا في متناول الأطفال. وعلى قدر ما يسخر من الأغبياء الكبار الذين يقلدون طرطوف (*Tartuffe*)، يكون متحفظًا حيال الأطفال، وحيال الشعب الذي يعيش حياة الطفولة. فالناس المتنورون في الطبقات الراقية هم بالغون فكريًا، فالتقوى بالنسبة إليهم مهزلة، ودليل على الطفولية. إن التقوى ضرورية للشعب، «علينا أن نكون قدوة ونحن كذلك». وكان يرى من المظاهر الصحية ذهاب سيد فيرني لحضور قداس الرعية متأبطًا ذراع ربيبته، فيذهب هو أيضًا لحضور القداس.

لم يكن الأتقياء راضين عن ذلك، فيتساءل عدد من ذوي النيات الحسنة ما إذا كانت تلك الفتاة الكورنيلية قد وقعت في وكر إبليس؛ لذا كانوا يتساءلون بكثير من التقى: هل ينبغي ترك تلك الروح على درب الضلال، أم ينبغي انتشالها قبل فوات الأوان؟ وما كان قد خطر ببال أحد حتى ذلك الحين أن الفرنسي الأخير الذي يحمل اسم كورناي السامي، لم يكن يملك ما يقوم بأود أطفاله؟ وما بادر أحد للاهتمام بالآنسة كورناي إلا حين قيام فولتير بالمبادرة التي كان على الملك القيام بها. وعلى ذلك بدأ يدور الحديث حول انتزاعها منه، فما عساهم يفعلون بها؟ هل يُصار إلى جز شعرها وإدخالها الدير؟ يقول فولتير: «إن من شأن ذلك ضمان مصير لها في هذا العالم أكثر إشراقًا منه في ذلك العالم»، وإن التكلفة أقل كثيرًا بالنسبة إلى تلك النفوس المحسنة. دارت أحاديث بشأنها في مجلس الملك، فأضحت بفعل ذلك خطِرة، وعُقِد اجتماع آخر في منزل الرئيسة موليه، فسُمعت جوقة من التأوهات حسرة على المصير المحزن لسليلة آل كورناي. ويبدو أن أحدهم واتته الجرأة على الاحتجاج فقال: «لمَ لا تقومون حيالها بما يقوم به فولتير؟»، فلم ينبس

أحد ببنت شفة. أما فولتير الذي نُقِلت إليه واقعة ذلك الاجتماع الذي زانه التقوى، فكتب يقول: «ما من شخص واحد تبرع بعشرة من الإيكو. وتذكروا أن بائنة السيدة موليه كانت أحد عشر مليونًا (خمسة مليارات من الفرنكات الفرنسية القديمة)، وأن شقيقها برنار، ناظر مالية الملكة، أعلن لي تفليسة بقيمة عشرين ألف إيكو، ولم تسدد لي الأسرة من بعد فلسًا واحدًا منها» (من رسالة إلى ديدرو، في كانون الأول/ ديسمبر 1760).

تلك هي مصادر الدروس في الفضيلة! فحين يخوض فولتير حروبه الكلامية التي لا تليق به، نتوجه إليه باللائمة، فما من شيء يبدو مقيتًا مثل بعض مساعيه. أما حين يشن هجومه - ليدفع عن نفسه - تلك الخسة الظاهرة، وذلك اللؤم الغادر، فلا يسعنا إلا أن نقف في صفـه. وأما الباعث على الضيق، فهو أن يستخدم الأسلحة نفسها في القضايا العادلة أو الواهية. ففي هذه المرة أيضًا، قام بنشر أهجية من السوية الرديئة، واسمها طرائف حول فريرون، لكنه أقسم أغلظ الأيمان على أنها ليست من نظمه، والدليل على ذلك أنه يعرف حقًا مؤلف الطرائف: «إنه لا هارب»، وقد كتب ذلك دون مواربة، بل إنه رأى المخطوط بيد لا هارب! بل هو يؤكد أن الوقائع كافة حقيقية.

سانده لو بران في معركته، فنشر كراسًا بعنوان الحمار الأدبي الذي استلهم العام الأدبي لفريرون. ويقال إن هذا الأخير قرأ تلك الحمرنات الأدبية بمرارة كالعلقم، وكانت رودوغون هي الخاسرة الوحيدة في ذلك كله: مضى خطيبها إلى غير رجعة.

فيرني: مشروع سلمي واسع وحرب صغيرة ضد الجوار

ما كان فوز مسرحية تانكريد ولا مسرحية الاسكتلندية، ولا بنت آل كورناي ولا الإهداء الذي أُسيءَ استقباله من المحظيـة، ولا الأشعار الهجائية، بكافية لأن تملأ وحدها أيام ناسك فيرني الذي لا مثيل له، فهو يعيد بناء القصر. جرت إزالة القديم الذي كان خرائب «قوطية» تحجب المنظر، وبنى قصر فيرني الراهن الذي نشاهده على حاله لما يُمس، وخارجيًا في الأقل، وقد بناه فولتير وفقًا لذوقه، أي ذوق عصره. فليس فيه شيء من الضخامة والمهابة، لكن فيه بساطة النبلاء، وصلابة فنٍ صادق ونقي. وليس من أثر شخص وصولي، إنه سيد ريفي، مرفـه وعاقل جاء

ليستقر، فهو يحترم المنظر المحيط، ويعتني بوسائل رفاهيته: إنه الكمال، ويقول فولتير: «من غير ذوق، ليس لشيء من وجود».

ليس الفن كل شيء في نظر فيلسوفنا، فهو قمة كل شيء. لكن كل ما تبقى ضروري للارتقاء بالفن إلى ذروته، وهذا الباقي الذي لا يُستغنى عنه، هو الثروة. أما الثروة الأكثر ضمانًا. أي الثروة الحقيقية والوحيدة، فهي العمل. لا بد إذًا من العمل، وجعل الآخرين يعملون، في سبيل إغناء فيرني التي هي بلد جميل لكنه فقير. لقد بنى قصرًا جميلًا، لكن لا بد له من قرية جميلة أيضًا. قرية يقطنها قرويون أصحاء ومرحون وشغيلة ويعيشون في نعمة: «إني أضيف إلى متعة امتلاك قصر جميل البناء، متعة القيام بغرس حدائق فريدة، والمتعة الراسخة في أن أكون ذا نفع للبلاد التي اخترتها لتقاعدي. لقد حصلت من المجلس البلدي على إذن بتجفيف المستنقعات التي كانت تُفسِد الريف وتسبب له العقم، وقمت باستصلاح أراضي الخلنج الرملية الشاسعة، وقمت، بكلمة واحدة، بوضع نظرية إيماني موضع التطبيق».

إن ذلك لصحيح، فتلك الأعمال كلّفته مبالغَ باهظة ومساعي لها أول وليس لها آخر، ومضايقات لا تنتهي. وكان لا بد من العناد الذي يتحلى به آل أرويه لتخطي تلك الحواجز الصادرة عن الأرض والمناخ والناس والإدارة. لكن أسوأها هي الإدارة، فليس من شيء أصعب من الحصول على إذن من المكاتب من أجل عمل الخير، وقد كتب يقول: «إذا ما استثنينا شق الحطب، فليس من مهنة لا يسعني القيام بها»، ولحسن الحظ، كان فولتير يتلقى الدعم من أشخاص قادرين، ومنهم شوازول الذي سبق ذكره وكانت له مساهماته. عزم إذًا على أن يجعل من قرية بائسة ومحاطة بأراض رملية تعج بالخلنج، وشديدة الضرر بالصحة، أرضًا من بلاد النعيم. ففي عصر الأنوار، كان بوسع رجلٍ غبي، جالسٍ وراء مقعد خشبي، ومسلحٍ بختم، أن يشل نشاط واحد مثل فولتير، لكن ما كان بوسعه أن يرغمه على التزام الصمت.

لم يكن القصر يحظى إلا بالمعجبين فحسب؛ فبعضهم كان يفضله أكثر ثراء، ورأى آخرون أن الصالون أصغر من أن يستقبل زهرة أوروبا الرقيقة، ويبدو أن فولتير، وهو الذي قام بدور المعمار، قد نسي أن يحذف سماكة الجدران، وهكذا فإن أبعاد الغرف نقصت بذلك المقدار.

وكانت أولى الحروب التي وجد نفسه مرغمًا على خوضها، تلك التي نشبت مع الكاهن المجاور. أي كاهن موان الذي كان يضغط على فلاحي فولتير مطالبًا إياهم بضريبة العشر التي لم يدفعوها منذ أعوام عدة. وفي أثر دعوى طويلة الأمد، جرى النظر فيها في ديجون، حصل الكاهن على حكم في مصلحته، وجاء رجال الدرك للقبض على القرويين الذين لم يكلفوا أنفسهم عناء الدفاع عن قضيتهم في حين أن الكاهن ذهب إلى ديجون لمداورة القضاة. كان الكاهن يطالب بمتأخرات ضريبة العشر، الممتدة على سنين عدة، بالإضافة إلى نفقات تنقلاته. وارتفعت صرخة يأس في القرية، فاقترح فولتير على الكاهن أن يدفع له نصف مبلغ الحكم بشرط أن يدع القرويين بأمان، لكن الكاهن رفض، وكتب فولتير إلى أسقف آنيسي التي كان كاهن موان تابعًا لها؛ ذلك أن فيرني التي تقع في بورغونيا بالنسبة إلى الإدارة الملكية، كانت تابعة لسافوا بالنسبة إلى شؤون الكنسية. وظن فولتير أنه كتب رسالة باعثة على التقوى، مستشهدًا بالأنبياء، ومستذكرًا آباء الكنيسة، لكن رسالته بدت أشبه بدرس يُعطى للأسقف. وفضلًا عن ذلك، قال إن ذلك الكاهن يقوم بما لا يمكن أي قس أن يسمح لنفسه بأن يقوم به، وإن من الضروري إعادته إلى جادة القداسة والمحبة. ولاحظ سيد فيرني بعد ذلك بوقت قصير أنه قد قام له عدو جديد في شخص أسقف آنيسي.

كتب إلى الرئيس دو بروس في ديجون ليعمل على إرجاء الحكم الصادر بحق القرويين في فيرني، الذين يعيشون في البؤس، لكن لا حياة لمن تنادي: فالكاهن على حق بصورة دائمة، وعلى الفلاحين أن يدفعوا أو أن يُلقى القبض عليهم فيرمون في السجن، فلم يقوَ فولتير على تحمل ذلك، فدفع من جيبه مئتي ألف ليرة ضريبة العشر للكاهن، وتنفس الشعب الصعداء، ودس الكاهن المال في جيبه، ولم يكن يراوده من شك في أنه سيجعل سيد فيرني يدفع ضريبة أكبر.

لا ريب في أن الكاهن لم يكن مشبعًا بروح الإنجيل، على نحو ما ستبين لنا القصة الآتية؛ إذ توقف بعض الشبان، وكانوا عائدين من الصيد، عند أرملة لينة العريكة، وكان كاهن موان مأخوذًا بها، فاستبدت به الغيرة حين علم بجرأة أولئك الشبان، وأمر بإحاطة منزل الأرملة بأزلام يأتمرون بأمره شخصيًا، ودخل المنزل عنوة، فقام أولًا بقتل كلب أحد الصيادين، ثم انهال على صاحبه ضربًا بالهراوة؛ لأنه صرخ في وجهه، ونال صديقاه النصيب نفسه، وصاح أحدهما وهو يسقط مغشيًا

عليه: «هل أموت من غير اعتراف»؟ فقال له المهووس، ذو الجبة الكهنوتية: «مت ميتة كلب»! وفي اليوم التالي أقام الكاهن القداس ولم يتردد، كما قال والد أحد الشبان الذين أوسِعوا ضربًا: «في أن يمسك القربان المقدس، بيديه المجرمتين».

وما كان لفولتير أن يدع ذلك الكاهن ينعم بانتصاراته، فما من شيء يمكن أن يلهب حماسته المعادية للإكليروس مثل ذلك البغي، فأراد أن يُرغم والد الشاب الذي لم يكن يجرؤ على الشكوى على رفع دعوى، فالشاب الذي أصيب بأكثر قدر من الجراح نُقِل إلى القصر، وأسعفه فولتير. ثارت ثائرة فولتير على الوالد الذي لم يجرؤ على رفع شكوى ضد الكاهن المجرم الذي يواصل إقامة القداس، وكان الجريح ما بين الحياة والموت، وواصل الوالد، وهو يزفر ويئن، رفضه توقيع الشكوى، وكان ينشج قائلًا:

«سوف يقتلونني».

فقال فولتير:

«لا بأس، فذلك سوف يعود بالنفع على دعواك».

إلا أن فولتير «ظل يتمسك بحرصه على تأمين وظيفة للكاهن في سجن الأشغال الشاقة»، وكان ذلك التطلع يملأ نفسه غبطة، لكن الكاهن أبعد عن أن يكون مجرمًا سليم الطوية، فهو يعرف كيف يتصرف ليرفض تلك الوظيفة التي يدفع به فولتير في اتجاهها. وكان للكاهن من يدعمه، فقد جرى توقيف أزلامه، أما هو الذي وجه الضربة الأولى فظل طليقًا، وكان فولتير يتأجج غضبًا بسبب امتناع القاضي عن الحكم. بناء عليه، فهو يتكلم كثيرًا، ويشغف بمطالبته ويؤدي خدمة للضحايا. وقد أسدى إليه الرئيس ديبروس، الذي لا تزال تربطه به علاقات طيبة، نصائح ذكية. فأسقف آنيسي يرغب في أن يقوم هو بمحاكمة الكاهن. ورفع فولتير الصوت صارخًا أن فيرني في فرنسا، وأن القضية من اختصاص المحاكم الملكية. وكان من شأن ذلك كله أن يحدث بلبلة كبيرة في بلاد جيكس. فالسلطات ليست راغبة في أكثر من إجراء مصالحة بين الأطراف وصرف النظر عن القضية، في حين أن فولتير ما انفك يصرخ قائلًا: سجن الأشغال الشاقة! سجن الأشغال الشاقة! وباختصار، حصل الشاب الضحية، الذي نجا من الموت بأعجوبة، على تعويض مقداره 1500 ليرة، في حين رد فولتير قائلًا: إن قتل المرء لا يكلف كثيرًا

حين يكون القاتل كاهن موان، كما أُرغِم الكاهن على رد الضريبة التي دفعها له فولتير، ولقد كان حقده على فولتير حقدًا قاتلًا؛ لأنه منعه، بوقاحة لا مثيل لها، من إفقار أبناء رعيته حتى الإفلاس ومنعه من ضربهم أيضًا.

تدخل في تلك الأثناء، من النقاشات الكئيبة، وسطاء غير رسميين، فنصحوا للكاهن بإرهاب والد الضحية وإعطاء درس للقضاة. إنهم اليسوعيون من أورنكس، فتابع فولتير مسرحيتهم، ولم يتأخر كثيرًا في الرد، فكتب إلى دارجنسون، في كانون الثاني/ يناير 1761 يقول:

«إني أحمل قضايا رهيبة على ذراعي، فأنا أقوم بطرد اليسوعيين من منطقة قاموا باغتصابها، وبملاحقة كاهن مجرم، لأنتقل إلى هداية امرأة بروتستانتية. أما مهمتي الأكثر مشقة، فهي تعليم قواعد النحو للآنسة كورناي التي لا يبدو لديها أي استعداد لهذا العلم السامي».

ما حقيقة تلك القضية مع اليسوعيين؟ لقد كانوا جيرانًا له، وكانت لفولتير في البداية، وفقًا للمنحى الطبيعي الذي يسلكه، علاقات ممتازة بهم، فهو، الميال دومًا إلى أن يُنشئ من حوله مجتمعًا وديًا من الناس المهذبين والمتعلمين، وقام بدعوتهم ومداهنتهم. أما هم الذين أطربهم حسن الطالع، فعثروا مغتبطين على أفضل ثمار «بيوتهم الصالحة»، فيقيمون له القداس حين يرغب في سماعه. وسارت الأمور على خير ما يرام، ثم ساءت الأوضاع كلها.

كانوا أربعة، ويبدو أن أحدهم كان يوجه الآخرين. إنه يدعى الأب جان فيسي، وهو الذي كان يتوجه إلى ديجون لحرف رأي القضاة في حال رغبوا في أن يحكموا بالعدل، وكانوا يملكون بالقرب من فيرني أراضي شاسعة، يرونها غير كافية، فأرادوا استلحاق أراضي عائلة نبيلة ومفلسة تتكون من ستة أخوة، هم السادة دو بريز دو كراسييه. وكانت الأراضي موضوعة تحت التصرف بسبب ديونهم، لكنهم احتفظوا بأولوية حق الشراء، وواقع الحال أنه ما كان بوسع آل بريز إعادة شراء أراضيهم. فتفاهم الآباء اليسوعيون مع الدائنين وهم جنيفيون، ولما كانت الإجراءات القانونية تدار بمهارة، صار الآباء سادة أراضي آل كراسييه ومالكين لها. ولما كان المالكون الأصيلون جميعهم ضباطًا، فهم في الحرب، وتألموا حين علموا، ما بين معركة وأخرى، بأن أراضيهم ضاعت منهم إلى غير رجعة.

وها هو دون كيشوت فيرني يهب للدفاع عن الأيتام الستة، وربما كان في شدة الصواعق، لكن لا يسعه أن يفعل شيئًا حيال أربعة رهبان يحملون سندات ملكية حقيقية. وعلى الفور صار الأب جان فيسي يُدعى، لضرورات الحرب: «جان فيس[34] (J. Fesse)». أثار فولتير ضجة حول قضية اغتصاب الأرض بلغت درجة من الصخب جعلت الآباء الصالحين يرون من الحكمة التخلي عنها. وظل يواصل الصراخ بقوة حتى بلغه ذات يوم أن ذلك الصخب بلا طائل، ما دام اليسوعيون قد تخلوا بصمت عن القضية، وأن بوسع آل بريز إعادة شراء أراضيهم من دائنيهم الجنيفيين. انتصر فولتير، فكتب يقول: «أكرر لك القول، إنه ينبغي عدم الخوف أبدًا من أولئك الثعالب (اليسوعيين) أكثر من الذئاب الجانسينيين، وينبغي المبادرة بجرأة إلى طرد تلك الحيوانات النتنة. فعبثًا يجأرون بالعواء بأننا لسنا مسيحيين، لكني سوف أثبت لهم أننا مسيحيون خيرًا منهم».

ذلك هو اكتشافه الجديد: ينبغي أن يكون مسيحيًا أكثر من اليسوعيين والجانسنيين مجتمعين. يبقى أن اليسوعيين حين طُرِدوا من فرنسا لم يتمكن الأشقاء بريز من إعادة شراء ممتلكاتهم فحسب، بل اشتروا فوقها ممتلكات اليسوعيين، وحينها فقط قال فولتير: ينبغي الاعتراف بوجود عناية إلهية؛ أي إنه لا يؤمن بها إلا حين يكون الكهنة هم ضحاياها.

من ذلك الحين أضحى سيد فيرني يتكلم بحرية سيادية، فيراوده وهو في منطقته شعور خارق بالاستقلال: فجرأته تتضاعف حِدتها، فيغدو قاسيًا حيال الرعاديد، من أمثال فونتونيل الذي ظل حتى آخر أيامه، على الرغم من أنه يحمل الأفكار نفسها، واحدًا من «أولئك الشيوخ المتحفظين، وكأنه لا يزال عليهم بناء ثروتهم... فيسع الراغبين في أولئك الشيوخ أن يتوجهوا إلى آخرين، وليس إلي». أما هو، فوعى مع بلوغه الخامسة والستين، مدى قوته وعيًا كاملًا، فيسعنا القول إنه صار مناضلًا، ولم يكن إلحاده حتى ذلك الحين أكثر من هواية؛ فهو الآن سيهاجم المرذولة هجومًا عنيفًا، ويحرص على الرغم من ذلك على أن يكون «مسيحيًا»، فهو يدافع عن الدين «الحقيقي» ضد الكهنة الذين استأثروا به وقاموا بتشويهه: «بلى، والله، فأنا أخدم الرب لأني أشعر بالهول من اليسوعيين والجانسينيين: ذلك

---

(34) الكلمة بالفرنسية تعني الأرداف أو الكفل أو القفا. (المترجم)

أني أحب وطني، وأني أتوجه لحضور القداس كل يوم أحد، ولأني أقوم بإنشاء المدارس، وإشادة الكنائس، ولأني سوف أفتتح مشفى، ولأنه لن يكون لدي فقراء على الرغم من جباة الضرائب. بلى، فأنا أخدم الله، وأومن بالله، وأريد أن يكون ذلك معروفًا».

ليس فعل الإيمان المدهش هذا حركة خطابية، فكل ما يقوله حقيقي، لقد تحولت صورة فيرني في غضون أعوام قلائل، وما عاد هنالك من فقير فوق أراضي فولتير. إنه أشاد وغرس ووقف من الدين نفسه موقف احترام، وذلك كله بادٍ للعيان. أما بشأن الإيمان، فنترك له أمر تأكيده، ويبدو ذلك الرب أول وهلة، هو الذي أولى وصاياه شن الحرب على الكهنة، محبًا للخصام بعض الشيء. أليس لديه مزاج عابده نفسه؟ أما بشأن أعدائه الراغبين في القبض عليه بشأن الإلحاد بالجرم المشهود، فسوف يوقع بهم في ورطة مدروسة: لسوف يتناول القربان المقدس احتفالًا بعيد الفصح! إن عام 1761 هو العام الأكبر! فهنالك عام ظهور المذنّب، وسوف يكون هنالك العام الذي تناول فيه فولتير القربان المقدس يوم الفصح، باحتفال كبير، مع السيدة دوني والآنسة كورناي. ولكَم سيكون ذلك باعثًا على التقوى! ولسوف يرى الناس ابنة الأخت - العشيقة، تتأبط ذراع خالها، وتتبعهما الربيبة ذات الاسم المبجتل، وهم يركعون أمام المائدة المقدسة في كنيسة السيد في فيرني، وهو ينذر إن دُفع به إلى ذلك، بأن يكتب الـ «Tantum ergo»(35) شعرًا! فمن يسعه بعد ذلك أن يرتاب في إيمانه؟

وهنالك اسكتش إضافي في كوميديا فولتير.

لقد نفـذه على نحو ما كان مقدرًا، حيث جاء كاهن كبوشيّ إلى فيرني وأصغى لاعتراف الجميع: السيدة دوني، والآنسة كورناي، والوصيفات، والخدم، والطباخين، والبساتنة. ونال الجميع الغفران، وكان الكبوشي على وشك أن ينسحب، فلاقى فولتير في بستان الخضار وهو يتحدث مع البستاني، فقال له: «يا أبتِ، منحت الغفران لكثيرين، ألا يسعك أن تمنحني إياه، لي أنا، الذي أعترف لك هنا أمام شهود بأني لم أرتكب إساءة بحق أحد، ولا سيما عن وعي؟».

---

(35) مطلع تلاوة باللاتينية تمجيدًا للقربان. (المترجم)

انخرط الأب الكبوشي في الضحك ومنحه الغفران، ولو كان إجماليًا كالاعتراف لكان قليل التكلفة. ذلك هو رأي فولتير الذي دس في يد الكاهن، وهو يصافحه، إيكو واحد بقيمة ست ليرات ذهبية، فتمنى الأب، متأثرًا، أن يواصل سيد فيرني الصالح حسناته لزمن طويل حيال ديره، حيث كان اسم فولتير مباركًا. فمن أجل ست ليرات! فيا له من اعتراف مضحك، بين مساكب اللفت والخس، وبين بستاني مبهور وكاهن كبوشي مغرق في الطيبة، ويا لها من مناسبة فصح مضحكة!

قام فولتير، في غمرة تلك الحماسة اللاهبة، ببناء كنيسة! وتلك هي أيضًا حقيقة واقعة: فالكنيسة إياها نشاهدها ونلمسها، فهي لا تزال هنالك على الدوام. وقد تطلب الأمر القيام بالهدم أولًا، ثم بالبناء من بعد. فالكنيسة القديمة كانت، مثل القصر، متداعية، فرغب في أن تكون الجديدة أكثر إضاءة وأكثر إشراقًا، وأن تكون على العموم فولتيرية أكثر. وفضلًا عن ذلك، كانت الكنيسة القديمة (ونقول ذلك قولًا عابرًا) تسد الطريق إلى القصر، فاستخدم فولتير حقه السيادي، وأطلق الرجال الذين تولوا الهدم، واستغل قيامهم بالأعمال فعمد إلى تسوية مسار جدار المقبرة، فكسب مساحة أقدام قليلة، وقام العاملون، كما قيل، بإزاحة بعض العظام القديمة. ولما كان يقوم وسط المقبرة صليب كبير، يبسط ذراعيه مقابل نوافذ القصر، فقد عمل فولتير على نقله إلى مكان آخر، قائلًا: «أبعدوا عني هذه المشنقة!».

في تلك الأثناء تحديدًا، بدأت أصداء شائعة مكتومة، تتجاوب بين أرجاء كنائس الضواحي، وتبجح كاهن بوينز الحليم، المعروف باضطهاده لأبناء رعيته، بأنه، عما قريب، سيبعث بفولتير إلى السجن. كان تهديد الكاهن قابلًا للأخذ على محمل الجد، أكثر من تهديد فولتير بإرسال الكاهن إلى سجن الأشغال الشاقة. وإن ما قام فولتير بإنجازه فوق أرضه، قام بمثله عدد لا يحصى من المالكين، وما من أحد رفع الصوت احتجاجًا، لكن أولئك المالكين لم يكونوا فولتير، ولا كان لديهم كاهن موان يترصد حركاتهم وسكناتهم، ولا أسقف آنيسي الكامن وراء الكاهن، وهؤلاء أخذوا على عاتقهم الإيقاع بباني الكنيسة.

طُلِب إليه بادئ ذي بدء تسويغ كلمة «المشنقة» المزرية التي استخدمها قاصدًا بها الصليب، فأقسم على أنه لم يقل ذلك. وكان هنالك ستة عمال شهودًا: فأكد الأربعة الأوائل أن الكلمة لم يُنطَق بها. أما الاثنان الآخران اللذان تحولا في

تلك الأثناء إلى أصمين أبكمَين، فلم يستطيعا التفوه بشيء، وقيل للكاهن أخيرًا إن تجميع الأخشاب يعني «مشنقة» بلغة النجارين الذين يرفعون السقائل الخشبية، إذًا، ليس في الكلمة ما يشين: إنها كلمة «تقنية». وسواء أكانت تقنية أم لا، فإن فولتير يعتبرها بريئة، فيما يعتبرها الآخرون تدنيسًا للمحرمات، فلم يكن في تلك التقنية من شيء ذي بال، فهم يريدون لها أن تكون شتيمة بحق الصليب لتصير مشنقة لفولتير. وكان كاهن موان يؤدي تقريبًا الدور الكوميدي نفسه الذي يقوم به خصمه، ويقف الشعب مساندًا فولتير، لكنه شعب مؤمن وقابل للتأثر. وبادر الكاهن إلى رفع أواني القربان المقدس من بين أنقاض الكنيسة المهدمة ليحملها إلى كنيسته هو، بموكب مهيب، فاعتقدت عامة الشعب بأنه دليل على أن فولتير يقوم بطرد الرب من أراضيه، فجرى إخطار القاضي الأسقفي، وانتقل الكهنة القضاة إلى فيرني للتحقيق في السلوكات الرهيبة للسيد الجاحد والكافر.

نظر فولتير إلى تلك الأمور كافة باستخفاف، فهدْم الكنيسة القديمة لا يعنيه على قدر بناء الجديدة التي كان راضيًا عنها الرضا كله، «لقد شيدتُ كنيسة جميلة، واجهتها من حجر ثمين كالمرمر. فأنا أقوم بتأسيس مدرسة».

ما عساهم يأخذون عليه أيضًا؟ «رفعوا ضده دعوى جنائية بسبب إزاحة جدار المقبرة مسافة قدم ونصف قدم، وبسبب ضلعين من عظم خروف اعتبروهما من الرفات الذي جرى نبشه»، لقد أشار على ذلك النحو إلى العظام التي نبشها الحفارون، ويقول إنهم يريدون حرمانه كنسيًا لأنه رغب في زحزحة صليب خشبي، لكنها لم تكن مجرد رغبة فقط، بل هو قام فعليًا بنزع الصليب من مكانه... فلنصغِ بالأحرى إليه حين يكون صادقًا: «ولما كنت شغوفًا في أن أكون السيد ألقيتُ بالكنيسة كلها أرضًا، ردًا على الشكاوى من أني هدمت نصفها».

قام بعد ذلك باستلام الناقوس ومائدة القربان وجرن المعمودية، وبعث المؤمنين لحضور القداس على بعد فرسخ من هنالك، وجاء المحققون: فصرفهم بالتي هي أحسن قائلًا لهم: إنهم حمير. وأحيط النائب العام في ديجون علمًا بالأمر، ولئن كانت ستُرفَع قضية ضده، فهو يريد لها أن تكون أمام محكمة ملكية، فهو يستهزئ بالكهنة وبالقاضي الأسقفي لينتهي وملء إهابه التفاؤل والمحبة: «أعتقد بأني سوف أتسبب بموت الأسقف، ما لم يمت مسبقًا من الإسهال والهزال».

ما سبب ذلك القدر من الثقة بالنفس؟ لأنه كتب إلى البابا. كتب إلى الحبر الأعظم تحت غطاء من السيد دو شوازول ومن الكاردينال بازيوني، وهو رجل علم وفيلسوف إلى حدٍ ما. وكان يأمل في أن النجاح الذي تحقق له مرة لدى إهداء كتاب محمد، سوف يتحقق أيضًا، ويأمل في أن يحقق من وراء التدخل البابوي ترضيات ضخمة، ليس أقلها سحق كاهن موان الضئيل والمشاغب. وشاء سوء الطالع لتلك الرسالة أن تضل طريقها، فلم تصل إلى البابا ولا إلى الكاردينال، وضاعت في متاهات الفاتيكان، وسط اللامبالاة والازدراء وربما الاستهزاء. فوا أسفاه! وهو يقول لنا إنه كتب قصة مسلية عن انتهاكه الحرمات! وكان يرمي إلى أن يروق السيد دو شوازول من ناحية، وإلى أن يضحك مجمع الكرادلة من ناحية أخرى، وكان مقتنعًا بأنه سيحقق نجاحًا لدى الكرادلة، بمداورات كلامية وتلاعبات لفظية. فهل كان يتخيل أن مجمع الكرادلة لم يكن مأهولًا إلا بأمثال برني وتلاميذ فولتير؟ ولم لا؟ ألم يقدموا له قبعة كاردينال؟ فلم لا يضم المجمع المقدس كرادلة آخرين من الصنف عينه؟ إنما كان اعتماده. عليهم أكثر من البابا آنذاك، والذي وصفه قائلًا: «إنه ثور لا يتقن كلمة واحدة من الفرنسية»، فهل يمكن المرء أن يحتل منصب الحبر الأعظم من غير أن يكون ملمًا بالفرنسية، وأن عرف فولتير؟ وكان يطلق عليه اسم السيد ريزونكو، وتلك هي التكلفة المترتبة على إلقاء رسالة في السلة (سلة المهملات) تحمل اسم السيد أرويه.

كان يجهل أن أعماله تسير على نحو أسوأ في ديجون، وأنه على وشك أن يخضع للتوقيف والمحاكمة، ولو طبقوا عليه القانون القديم، الذي كان أولئك الأسياد في المحكمة العليا يطبقونه في بعض الأحيان، الأمر الذي آل به إلى قطع لسانه وبتر يديه؛ أي لأصبح فولتير بلا لسان ولا قلم!... كانت ستبقى لديه نظرتُه الرائعة والرهيبة: إنها قاذفة لهب وقاذفة أفكار!

يقول صديقه ترونشان الذي كان آنذاك في ديجون، إنه ما من ضجة في عاصمة بورغونيا آنذاك سوى تلك القضية العجيبة، ولقد نجح في تهدئة خواطر القضاة، فهؤلاء الذين لم يكونوا موالين لفولتير على الإطلاق، وعلى نحو ما كانت سذاجته توهمه، لم يخضعوا إلا لترونشان الذي كان تأثيره فيهم أكبر من تأثير فولتير كثيرًا. وهكذا، فبفضل ترونشان، ضاعت الدعوى الجنائية المثارة ضد سيد فيرني وتلاشت وسط الرمال... وكان لتلك الدعوى أن تكون بغيًا إضافيًا ومصدر

ويلات على فولتير. لقد أدى ترونشان البروتستانتي خدمة عظيمة للكهنة حين جعلهم يتفادون الخيبة المذلة، وخدمة لعدو الكهنة حين وفر عليه عقوبات عنيفة.

المواطن الجنيفي المؤذي

لم يحرمه نزاعه مع يسوعيي أورنيكس، ولا دعواه الجنائية مع أسقف آنيسي، مناوشةً مع البروتستانت في جنيف. فهؤلاء في نظره يعيشون في حالة من الخطيئة الدائمة: الخطيئة ضد المسرح، فالإهانة التي ألحقوها بمسرح الديليس، ثم بمسرح تورني، لا يمكن أن تُنسى. فسعى، في سبيل أن يثأر، لأن ينشىء عند أبواب جنيف - لكن فوق أرض فرنسية من مقاطعة سافوا - في مدينة كاروج، فرقة من الممثلين المسرحيين، وكلهم فرنسيون وكاثوليك. وطلب من السيدة دو شوفلان، وهي سفيرة فرنسا في تورينو، الحصول على إذن لأولئك الممثلين كي يستقروا في كاروج. ونجح في ذلك فاغتبط به: «سوف تكون لدينا فرقة من البهلوانيين قريبًا من الديليس، فيصير العدد، مضافًا إلى فرقتنا، فرقتين اثنتين».

أما بالنسبة إلى مجمع الكرادلة البروتستانت، فالعدد اثنان عدد فائض، أما فرقة كاروج فهي استفزاز حقيقي.

ظهرت في ذلك العام 1761 رواية إيلوييز الجديدة (*La Nouvelle Héloïse*) لجان جاك روسو، فحققت نجاحًا خارقًا. كانت أكثر من كتاب يثير الإعجاب، إنها كشف عن عالم كان يُلمَح سابقًا لكنه انكشف حتى الأعماق: إنه عالم العاطفة. ولم يكن جان جاك على خطأ: «لم يكن في المجتمع سوى رأي واحد، وقد انتشت النساء على وجه الخصوص بالكتاب والكاتب إلى الحد الذي يؤهلني، فيما لو في رغبت، القيام بغزوات في صفوف الطبقات الراقية»، ثم يضيف قائلًا: «من الفرادة أن هذا الكتاب لاقى نجاحًا في فرنسا أكثر منه في باقي أرجاء أوروبا، على الرغم من أن تناول الفرنسيين له، رجالًا ونساءً، لم يكن تناولًا حسنًا جدًا».

نحن نعرف من قبل أنه جرت بين جان جاك وفولتير بعض الملاسنات الكتابية، فيشعر فولتير حيال روسو - الإنسان - بنوع من الشفقة الدونية. أما حيال الكاتب وأفكاره، فهنالك على وجه الخصوص شيء من عدم الفهم. فهذان الرجلان

ينتميان إلى عرقين متباينين: إن كلًا منهما منغلق حيال الآخر، ففي حين يكتب جان جاك قائلًا: «إن بلد الأوهام والخرافات هو الوحيد الجدير بالسكنى في هذا العالم»، فإن فولتير يجهد أربعًا وعشرين ساعة من أربع وعشرين، لفلاحة الأرض وتحسين الوضع الصحي، والقيام بالغرس والبناء، وعقد الصفقات التجارية برًا وبحرًا، والمضاربة وتقديم طعام الغداء لثلاثين شخصًا، وتزويج إحدى الفتيات والدفاع عن شخص بريء، ومعاقبة شخص عنيف، وهو على العموم يرهق نفسه في سبيل خلق عالم، يكاد يكون خاليًا من الأوهام، في سبيل الوصول إلى الهناء الأكثر إيجابية وإنسانية، ما أتاح له أن يؤكد قائلًا بطمأنينة: «إنما الفردوس الأرضي هو حيث أكون أنا». وحين يتساءل حول قيمة المستجدات التي شهد القرن الثامن عشر ولادتها والتي زادت من رغد العيش، - وباختصار ما يسمى «التقدم» - فهو يكتب قائلًا: «هل تؤدي لأن يكون المرء أسعد؟ إني أومن بذلك إيمانًا راسخًا، فهنالك منازل جيدة، وملابس جيدة، وطعام لذيذ، وقوانين صالحة وحرية، وكلها أفضل من المجاعة والفوضى والاستعباد»، فيرد جان جاك من بعيد بتلك الجملة التي لا مثيل لها، والتي تشوش الفكر: «ليس من شيء جميل جدًا إلا ما هو غير موجود».

كان بوسع سيد فيرني أن يتكيف مع ذلك الجنون لولا أن المجنون شن هجومًا عليه؛ إذ ظل فولتير طويلًا يداري روسو الذي يعتبره ضالًا فكريًا ورجلًا لا تمكن معاشرته اجتماعيًا، كما لم يكن يرى ملائمًا إبداء اهتمام زائد حيال جان جاك هذا، الذي يعيش خارج حدود العالم الذي يألفه فولتير، حيث يفكر وينفق المال ويضحك ويتنكر ويعمل ويحتضر ست مرات في الأسبوع. وكتب إلى دالامبير يقول: «تنازلتَ فأخزيتَ ذلك المجنون جان جاك لأسباب، أما أنا فأفعل مثل ذاك الذي لم يجب عن جميع الحجج التي تعارض الحركة، إلا بأن شرع يمشي. لقد برهن جان جاك على أن المسرح مستحيل في جنيف، وها أنا أقوم ببناء واحد».

ليس ما يُذل ويخزي مثل ذلك النوع من الازدراء، وكان جان جاك الشقي شديد الحساسية حتى إن موقف فولتير هذا منه كان موجعًا كالكي بالنار. وها هو روسو يستذكر ما كتب له في عام 1756، حول كارثة لشبونة، فلم يرد فولتير عليه إلا بكتاب كانديد، فيكتب له رسالة عدائية في 17 حزيران/ يونيو 1760، يفوح منها الحقد: «أنا لا أودك قط يا سيد، فلقد تسببتَ لي بآلام يمكن أن تكون موجعة

جدًا...» فما هي تلك الآلام؟ عمل فولتير على إساءة علاقات الجنيفيين بروسو. كيف؟ إن فولتير وهو يعرض المسرحيات الكوميدية على مسرحه فتن الجنيفيين، فأفسدهم فأثار حفيظة هؤلاء على روسو الذي كان راغبًا في حرمانهم من متعتهم المـُضِلـة. وما كان أمام هؤلاء الأشقياء الذين ما عاد بوسعهم الاستغناء عن السم الفولتيري، إلا أن يلفظوا مواطنهم الفاضل: «فأنت الذي ستجعلني أموت في أرض غريبة، محرومًا من جميع أشكال العزاء للمحتضر، ومرميًا في مِكب للقمامة». لقد كتب ذلك، حين كان يلقى دلال الأرستقراطية في مونمورنسي، فتحمله باريس على الأكتاف، وتلا ذلك سلسلة من عبارة «إني أكرهك...» لتنتهي بقوله: «وأكرهك أخيرًا لأنك أردت ذلك»، وهذا خطأ؛ ففي عام 1760، لا يقيم سيد فيرني الباذخ أي اعتبار لروسو على الإطلاق»، لكني أكرهك بوصفي رجلًا أهلًا لأن أحبك أكثر في ما لو أنكَ شئتَ ذلك»، وما كان لذلك الهراء العاطفي إلا أن يغيظ فولتير، إلا أنه يعني أن روسو كان سيتمسك بموافقة فولتير وبصداقته بكل شغف؛ إذ يقول «لو انك شئتَ ذلك...» لكنه لا يفهم أن فولتير لا يريد منه شيئًا: لا كرهًا ولا حبًا، وإن ذلك الازدراء بلامبالاة هو جريمة فولتير الكبرى في نظر روسو. وليس الباقي سوى المسوغ. وإن تلك الرسالة من روسو لتقارب الهيستيريا، فهو كالكلب المضروب، يكشر عن أنيابه، ويذرف الدموع في آن معًا، وإن موقفًا من ذلك النوع يغوص بالمرء في كآبة عصية على التعريف ومنفـرة.

لكن فولتير لـم يقم بالرد على تلك الرسالة، وهو رد فعل عجيب، نعرف أن السخط لديه لا يمكن احتواؤه. إنه إذًا ليس ساخطًا، والسبب أولًا أن روسو لم يبدُ له مع حقده الباكي جديرًا بالرد، لكن هنالك شيئًا آخر. فرسالة روسو بلبلت أفكاره، وهو تلقى من الرسائل وقصائد الهجاء والشتائم ما يساوي العدد الذي كتبه تقريبًا، لكن لـم تكن قط تلك النغمة العاطفية في رسالة روسو، فذلك الحقد الرخو والمتظلـم والفاضل يجتذبه نحو عالـم قليل الاحتشام، لا هو يعرفه ولا يريد أن يعرفه. وعلينا، كما يبدو، أن نفهم بهذا المعنى تقريبًا، اللوم الموجه إلى فولتير بأنه قصير «النظر». أما بشأن هذه النقطة، فهو كذلك: إن روسو هو الغرابة والتشوه وعدم اللياقة، وهو البلد الذي لا يغامر الإنسان المستقيم بالتوجه إليه. وهنالك ما لا ريب فيه أن نفسَ فولتير كانت تعاف حساسية روسو. لأنه لـم يكن يفهم تلك الحساسية، وتلك هي حدوده. فهو لـم يكن يعرف مع من يتعامل، وكان سيُغرِق

في الضحك في ما لو قيل له إن روسو هو المستقبل. روسو شمس؟ لو قيل له إنه شمعة أسيءَ وضعُ فتيلتها، لقبل بذلك. وهكذا فإن أذكى الناس، وهو منغلق على نفسه داخل ذكائه، لا يعرف كيف يرى بعض الأحوال بأفضل مما يراها أحمق منحبس داخل غبائه.

لكن روسو كان يأخذ بحمية على فولتير إلحاقه الضر بجنيف، إلا أنه يحمل في نفسه، إلى جانب «حبه الوطني»، شعورًا عميقًا لا يصرح به وهو الغيرة. فالنجاح الذي تحقق لفولتير في جنيف لا يقبل التسويغ، ولئن كان فولتير قد لقي الدلال في برلين أو في فيينا، فلا ضير في ذلك. أما في جنيف، في موطن جان جاك، ذلك الوطن الذي لا يريد الاعتراف بابنه الشاطر[36] والشهير، فأمر غير مقبول في نظر روسو. ولم يكن فولتير في نظره أكثر من دخيل في جنيف، فبأي حق جاء يجترئ على النخبة الكالفنية أحيانًا، ويفتنها أحيانًا أخرى؟ وبأي حق يقوم باستقبال النخبة الأوروبية؟ فيقدر روسو أن تلك المكانة. أي المكانة الأولى في مدينة كالفِن، هي حق شرعي له بعد أن أضحى شهيرًا في باريس. والحال، أن المكان الذي فيه السيادة لفولتير، لا يتسع لاثنين، وروسو يعرف ذلك ويعرف أيضًا أنه مهما فعل، فليس من المعدن الذي تُصنَعُ منه الملوك، وذلك هو السبب وراء حقده على فولتير. ولم يكن ذلك بحقد رجل أدب، بل هو لدى روسو، حقد دفين نابع من أعماق أحشائه، حقد بالطبيعة، وليس له من علاج، وهذه نبرة ذلك الحقد. «أنت تكلمني على فولتير هذا؟ لماذا يأتي اسم هذا المهرج ليلطخ رسائلك؟ إن ذلك الشقي قضى على وطني. ولسوف أكره نفسي كثيرًا إذا ما كرهته قليلًا، فأنا لا أرى في مواهبه الكبرى سوى مزيد من العار الذي ينتقص من قيمته بسبب طريقة استخدامه تلك المواهب. إيه، يا أهل جنيف! ألا كم يسددُكم لقاء المأوى الذي أمنتموه له: فهو لم يكن يدري إلى أين يتوجه لارتكاب الشر، فلسوف تكونون آخر ضحاياه، ولا أظن أن كثيرًا من الناس الآخرين سوف يُغريهم الحصول على ضيف مثله».

إن تلك اللعنة صبيانية، وهي ذات طابع مفرط في التنبؤ، لكنها سوف ترتد

(36) إشارة إلى مثل الابن الشاطر (أو السفيه) في الإنجيل، وهو الذي أخذ إرثه من أبيه فبدده فجورًا. لوقا 10/ 11. (المترجم)

على روسو: فهو الذي لن يعثر على مكان يلجأ إليه، ولسوف يتعرض للطرد من كل مكان، فيغضب على جميع الذين أحسنوا إليه، فيعيش ويموت من دون أصدقاء. أما فولتير، فالحق يقال إنه سيعاني بالأحرى بسبب وفرة الأصدقاء، وهو ليس بحاجة لأن يطلب ملجأ. إن منزله هو الملجأ الملوكي للذكاء والصداقة.

كما أن في حقد روسو جانبًا مَرَضيًا، فنحن نذكر أنه رفض أن يشرب في كأس مهداة من فولتير، وحين عاد من إنكلترا يائسًا، وبعد قطيعة مع الإنكليز، وهو لا يملك شروى نقير، عرض عليه سيد يدعى بارت أن يستضيفه في منطقة الألزاس، في مونستر. وكان الموقع جميلًا ورومانسيًا إلى أبعد حد، وكان روسو على وشك أن يقبل، لكنه عاد فرفض حين علم بأن فولتير أقام لفترة في مونستر في عام 1753، إذ بدا له المكان ملوثًا، وكان ذلك في عام 1761!

بعد الرسالة التي تكرر فيها «إني أكرهك»، كتب فولتير إلى تييريو يقول بلهجة هادئة: «تلقيت رسالة طويلة من ج. ج. روسو. لقد فقد صوابه تمامًا، وهذا أمر مؤسف». وحين ظهرت رواية **إيلوييز الجديدة**، لم يرسل روسو الكتاب إليه، لكن فولتير حصل عليه وقرأه. باغته النجاح، فسبب له ذلك كثيرًا من الضيق، وقال: «كانت قراءتها شؤمًا عليّ، ولها أن تكون شؤمًا عليه لو توافر لدي الوقت لأن أقول له رأيي بهذا العمل الوقح»، لقد احتفظ لنفسه بالإعياء الذي سببته له **إيلوييز الجديدة**. فلِمَ ذلك الصمت؟ لأن هنالك فيرني التي هي أكثر تشويقًا من الخطابات العاطفية لـ سان برو (بطل الرواية)، «لكن لا يتوافر لدى بناء ومُزارع ومربي الآنسة كورناي وحامي أسرة فقيرة أرهقها الكهنة، الوقت للحديث عن الروايات». ومع ذلك، وقع على جماليات في ذلك الكتاب: «هنالك مقطع مدهش حول الانتحار يولد لديك الرغبة في الموت»، إنها رغبة أفلاطونية تمامًا: إن فولتير يقف مع الحياة، وحتى مع الحياة المعقـدة. لأنه، وهو يؤكد أنه لن يقول شيئًا حول **إيلوييز الجديدة**، قام من طريق تييريو بنشر أربع رسائل تحمل أسماء مختلفة واعتباطية، ينال فيها ما وسعه من الكتاب والكاتب. وقد كتب على غلاف إحدى تلك الرسائل اسم المركيز كزيمينيس، أجل، هو نفسه. فمن بعد المنازعات والسرقات وحملات التشهير، جرت المصالحة، ثم جرى استقباله في فيرني، أليس تناسي الشتائم شعورًا مسيحيًا يوصَف لفولتير الذي يريد أن يكون مسيحيًا أكثر من اليسوعيين والجانسنيين مجتمعين؟ لقد قام المركيز المتساهل،

فعبر عن شكره لحسن الاستقبال، بإعارة اسمه لتوقيع الرسالة، فوصفه الماريشال دو لوكسمبورغ، وهو الذي كان يضع روسو في كنفه، بالحقير والتافه، مع معرفته بأن المذنب الحقيقي هو فولتير، ومرة أخرى يجري تبادل الإهانات والشتائم!

«فعلتُ شيئًا من الخير، وذلك أفضل مؤلفاتي»

بدا في الوقت نفسه على جانب مدهش من السخاء حيال الآنسة كورناي، فأخذ يطالب الأكاديمية مطالبة ملحة، لكي تقوم بإنجاز طبعتها لأعمال الكلاسيكيين الفرنسيين، وتطوع للقيام بتصحيح الطبعة الأخيرة من أعمال كورناي، بل سيقوم بطبعها على نفقته، فيبحث عن مكتتبين ليشكل الربح بائنة ربيبته. فيا لها من هدية ثمينة يوم زواجها، مسرحيات السيد وبوليوكت وسينا، وقد صارت ذهبًا، وهي مهداة من مؤلف ميروب وزايير وكانديد. ونجح في خلق تيار رأي عام مؤيد لابنة جان فرانسوا، ذاك النجار الذي هو ابن شقيق كورناي، فاكتتب الملك على متتي نسخة، وكذلك فعلت كاترين الثانية، إمبراطورة روسيا، وأخذ فولتير مئة نسخة والمركيزة دو بومبادور خمسين وشوازول مثلها، وكذلك فعل السادة الكبار وأصدقاؤهم، وجاء الأسياد الإنكليز على رأس القائمة، وقدم فولتير، وهو السيد الكبير، نسخة مجانية لكل واحد من رجال الأدب غير القادرين على الاكتتاب، إنه فولتير الزمان العظيم.

أعاد قراءة كورناي وتولى كتابة المقدمة؛ أعاد قراءته بنظرة ثاقبة وقلب ملؤه «العذوبة» الراسينية، وبدا له المعلم القديم خشنًا في بعض الأحيان فتراخى الإعجاب به، لكن كورناي واحد من الأرباب، فهل على المرء النظر إليه على أنه إله معبود، والقيام بفروض العبادة مغمض العينين؟ إن الصنمية لا وجود لها، ولسوف يقول فولتير فكرته بجلاء: «إني أتعامل مع كورناي بوصفه من الأرباب حينًا، وبوصفه حصانًا لجر العربات حينًا آخر، فصفاء الفكر وحريته، من أهم حقوقه وفضائله، لقد قلت الحقيقة عن لويس الرابع عشر، ولن أسكت عنها أبدًا حيال كورناي».

كان شعور المعجبين الذين يقدسون كورناي، عنيفًا جدًا، وهم يرون تحفظات فولتير حيال كورناي وحالات رفضه لأفكاره؛ إذ كان الشاعر الفرنسي التراجيدي الأول الذي يُعتبَر أحد الأركان الفولاذية في معبد الآداب، وإن أدنى

خدش يلحق به يعتبَر تدنيسًا للمقدسات، وها هو فولتير موضع اتهام بالزندقة من جديدا ولقد عبر دالامبير باعتدال عن شعور الأكاديمية التي أحست بالجرح: «بدا لنا أنك لا تشدد دومًا وبما فيه الكفاية على الجماليات لدى المؤلف وتشير أحيانًا بإفراط إلى الأخطاء التي قد لا يراها الجميع. ففي الأماكن التي تنتقد فيها كورناي، لا بد أن تكون على حق بديهي، فلا يسع أحدًا أن يعارضك. وأما في أماكن أخرى، فإما ألا تقول شيئًا بدهيًا وإما أن تقوله مرفقًا بالشك»، وهي نصيحة قيلت بشكل ممتاز وبكثير من الحكمة.

والحقيقة أنه عاد ليكتشف كورناي وهو في السابعة والستين من عمره، فهو لم يحتفظ حياله إلا بالإعجاب الحماسي لأيام شبابه. واكتشف وهو يعيد قراءته في السابعة والستين، والقلم بيده، ثآليل ونقاط ضعف، ومقاطع تبعث على السأم وأخرى ساذجة... وأشار إليها، فأثار فضيحة. فالصنميون الذين لم يقرأوا كورناي منذ أيام الدراسة يتكلمون على إعجابهم، فما قيمته؟ إنهم يكررون المدائح المدرسية. إن صدق فولتير لأفضل كثيرًا من تزلف الحمقى، وقد خرج كورناي من ذلك الامتحان النقدي، رجلًا عظيمًا وشاعرًا عبقريًا، فأي عملٍ سيصمد أمام نقده؟

في ذلك الحين كتب مسرحية دون بيدر (*Don Pèdre*) في ستة أيام، إنه رقم قياسي. «استولى عليّ الهوس يوم أحد ولم يفارقني إلا في السبت التالي، فكنت أمضي وأنا أنظم على الدوام وأخط على الدوام. وكان الموضوع يحلق بي باسطًا ذراعيه». وقام على الفور بإرسال الفصول الخمسة إلى آل دارجنتال: «وأخيرًا، أنجزت في ستة أيام ما أبعث به إليكم. فاقرأوا واحكموا لكن ابكوا». في 20 تشرين الأول/ أكتوبر 1761.

لقد بكوا في الواقع، لكن على العمل ونقاط ضعفه.

وفيما كانوا يحاولون ترقيع مسرحيته التراجيدية، كتب مسرحية كوميدية هي حق السيد (*Le droit du seigneur*)، ولما لم يكن متأكدًا من أنه كتب إحدى الروائع، فإنه نسب العمل إلى شخص اسمه السيد لو غو، وهو شاب يتولى رفع التقارير إلى مجلس الشورى في ديجون، ولم يرَ أي خدعة في ذلك التصرف، لكن عمه، وهو رئيس ديوان مدينة لا مارش، وصديق لفولتير، قام بإفهام هذا الأخير

أنه لا يستسيغ لعبة استعارة الاسم على ذلك النحو. ولم يجرِ التوقف كثيرًا عند ذلك الأمر، فقام رئيس الديوان نفسه بالعثور على «عراب» للمسرحية الكوميدية، وكان يدعى السيد بيكارديه، من أكاديمية ديجون. فقال فولتير «السوف يحقق بيكارديه مبتغاي». وهكذا وجد بيكارديه نفسه كاتب مسرحية كوميدية، لم يقم قط بكتابتها ولا بقراءتها، واستبدل بالعنوان الأول هذا العنوان: عَقَبَةُ الحكيم. ووضع كريبيون، وهو مراقب المسرح وعمره تسعون عامًا، ألف حجر عثرة قبل أن يعطي الإذن بالعرض: لقد استشم من هو المؤلف الحقيقي. وأخيرًا، وبعد ملاطفات لا تُحصى، أضاف العجوز إلى المسرحية مشهدًا كوميديًا من ابتكاره، وكاد فولتير يموت غيظًا. أما أغرب ما في الأمر، فهو أن تلك المسرحية المسخ عُرضت بنجاح.

لما كانت المفاجآت المفرحة تأتي متوالية، إذ علم أن الملك أعاد إليه جرايته المعلقة من تاريخ سفره إلى بروسيا، وسرت شائعة في باريس تقول إن فولتير استُدعي؛ وكان نبأ كاذبًا. ذلك أن لويس الخامس عشر لم ينسَ، لكنه تسامح حيال الدفع. أما فولتير الذي توقع الرفض، فكتب إلى الجهات كافة، وقبل أن يغدو الرفض رسميًا، مبينًا أنه ليس راغبًا في مغادرة فيرني: «أؤكد لكم أني أعيش هنا حياة كلها عذوبة، وأنا مدين للسعادة التي أستمتع بها، للحفاظ على ماكينتي الهشة».

توفي كريبيون بعد مدة قصيرة، فأسرع فولتير؛ لينشر - تحت اسم مستعار - رثاء للمتوفى، لم يطلبه أحد منه، وكان الرثاء، بكل تأكيد، مسمومًا. ولم تلقَ تلك الطريقة، لمهاجمة رجل ميت، أي قبول من أصدقائه الذين عرفوه تحت الاسم المستعار، فأصيب ديدرو بالصدمة، وأعلمه دالامبير بشعوره مع تظاهر بجهل الكاتب الحقيقي لذلك الرثاء غير اللائق: «على الرغم من رأيي المماثل بشكل مطلق لكاتب تلك الملزمة في مناقب كريبيون، فإني مستاءٌ جدًا من اختيار ساعة موته لرمي جثته بالحجارة، وكان ينبغي تركه يتفسخ تلقائيًا وما كان ذلك سيستغرق طويلًا».

لكنه طلب المستحيل، فلا يسع فولتير أن يدع جثث أعدائه تتفسخ، فهو يبعثهم من مرقدهم ليقوم بمهاجمتهم، ويديم وجودهم باستشرائه.

مع أن الحياة في فيرني والديليس تواصل سيرها المعتاد فإنه يشكو أن هذين المنزلين وحرب الإنكليز وخسارة الهند جعلته، مجتمعة، يفقد ثلث عائداته، ولا يبدو وفقًا لنفقاته أن ذلك الثلث أوقعه في العوَز. فما أجمل أن يكون المرء غنيًا، وخصوصًا أن يكون غنيًا كما ينبغي. فالسيد الدوق دو فيالار أصيب بالمرض، فأقبل ليستقر مع بطانته في الديليس، في صيف 1762. وها هي نشرة أخبار المجتمع كما جاءت في جريدة أوتريخت (*Utrecht*) في 17 تشرين الأول/ أكتوبر 1762: جنيف في 6 تشرين الأول/ أكتوبر 1762. مدينتنا اليوم من المدن الأكثر تألـقًا. فهنالك السيد الدوق دو فيلار وكونت هاركور والسيدة كونتيسة أنفيل، من بيت لا روشفوكو، والسيد الدوق ابنها، وعدد من الرجال الأجانب المتميزين. والسيد الماريشال الدوق دو ريشوليو قدم إليها في الأول من أمس. لقد وصل إلى منزل السيد فولتير في فيرني، في مطلع هذا الشهر، ترافقه حاشية من أربعين شخصًا، وقد حل في الديليس، فجاء للترحيب به عضوان من المجلس، وأوعز السيد فولتير بعرض تراجيديا من أجله، وعاد هذا السيد فانطلق يوم أمس إلى ليون.

لنتخيل منزلًا من بعد مرور زائرين اثنين على تلك الشاكلة، ولنتخيل أنه، ما لم يكن جميع الزائرين مثلهما، فهنالك رتل متواصل منهم، ولنخرج بالاستنتاجات حول نفقات هذا المضيف الرائع؛ ذلك أن المنزل كان ممتازًا، وأن دوق فيلار الذي تولى ترونشان علاجه، كان مقيمًا يأكل ويشرب، ويقوم فولتير بالترويح عنه، إلى حين سفره معافى ومتألقًا.

ومن بعد وصل الكونت دو لوراغيه وحاشيته. عرفه فولتير، طفلًا، عند جدته دوقة لوراغيه، وكان عجيبًا أمر ذاك السيد الكبير: إنه يكتب تراجيديات، وأعرب ديدرو عن دهشته لصدور مثل تلك الأشعار الجميلة عن مثل ذلك الرأس الغبي، فسأله قائلًا: «من أين جئت بها؟» وهو يغمز بعينه صوب سكرتير الكونت المدعو كلانشان، والذي كان من ناحيته، يجيد قرض الشعر. ولم يرَ الكونت ضيرًا في السؤال ولا في الغمزة، فلم تكن التراجيديا بالنسبة إليه أكثر من إحدى تزجياته للوقت: كان يعشق الكيمياء مثلما كان يحب نظم الشعر.

أي كان كيميائيان اثنان يعملان بخدمته، فكان يحبسهما في منزل صغير في سيفر قائلًا: «لن تخرجا من هنا إلا بعد أن تطلعا عليّ باكتشاف»، وليس من يعرف ما الاكتشاف الذي قاما به، أو ما إذا كانا قد غادرا المنزل على الإطلاق، ولم يكن أقل اهتمامًا بأمثلة الآنسة أرنو، لكن من غير وسيط. وقرأ فولتير واحدة من تراجيديات لوراغيه، فقام بإطرائها إلى حد جعل الكونت يكاد يُجَن فرحًا. وكانت تلك التراجيديا تُدعى أورست (*Oreste*). وكانت لدى فولتير أيضًا مسرحية باسم أورست على وشك أن توضع بين أيدي الكوميديين، وهو لم يقم بإطراب لوراغيه، إلا بقصد إقناعه بأن ينتظر إلى ما بعد تقديم مسرحيته هو، والتي سوف تطغى عليها أورست السيد لوراغيه. انتظر هذا الأخير طويلًا إلى حد أنه لم يعرض مسرحيته قط، إذ تبخرت من رأسه الذي كان خفيفًا، لا غبيًا. وكان استقباله في فيرني رائعًا، وطبع فولتير على وجنتيه مئات القبل، وجعله يطلع على مباهج القصر، وملحقاته كافة، وعلى البستان حيث أعرب لوراغيه عن دهشته لرؤية حمار يقضم العشب، فقال له مضيفه:

- ألم تتعرف إلى فريرون؟ فأجابه الكونت:

- بلى، فهنالك شيء ما في جسده... لكن الوجه مدهش، وأنا ما كنت أحسب أنك على تلك العلاقة الطيبة مع فريرون.

- أنا في حاجة في بعض الأحيان إلى الغضب، وهذا الوجه يزودني به حين أحتاج إليه.

ونحن نعرف مسبقًا تلك القاعدة الصحية لدى فولتير.

جعله يزور كنيسته، حيث قدم له شيئًا من الماء المقدس، وكلمة الإهداء التي أثارت فضيحة كبرى. وهو اختارها عمدًا ليثير حفيظة رجال الكهنوت على معبد أقيم تمجيدًا لله وحده، هذه الكنيسة التي بنيتها هي المكان الوحيد في العالم المُهدى لله وحده. فجميع الكنائس الأخرى مهداة إلى قديسين، وأنا أفضل من ناحيتي بناء كنيسة للسيد لا للعبيد.

إنه ليقضي على أسقفه بمثل تلك الكلمات، أما جرأته فمن قبيل الخارق. وأرسلوا إليه من روما ذخيرة من رفات القديسين لتوضع في كنيسته، وجاءته ديكورات من باريس لمسرحه: «لقد بنيت كنيسة ومسرحًا، واحتفلت بطقس ديني

على مسرحي لكني لما أحضر القداس في كنيستي. وتلقيت في اليوم نفسه رفات بعض القديسين من البابا، ووصلتني صورة للسيدة دو بومبادور...». وكتب إلى ابنة أخته، السيدة دو فونتين، يوم زواجها قائلًا: «أشعر بضيق شديد لأني لم أزوجك في كنيستي بوجود يسوع كبير ذهبي مثل كأس الخمر، وهو أشبه بإمبراطور روماني وقد نزعتُ عنه هيئتَه الحمقاء».

وروى زائر إنكليزي أنه جعل الفنان يضفي ملامحه هو على لوحة يسوع الذهبي الكبير، لينزع عنه هيئته الحمقاء!

كان مفعمًا غبطة بالزواج الثاني لابنة أخته، السيدة دو فونتين، من المركيز دو فلوريان، وهو ذلك الضابط الذي سعى لأن يصنع العربات الآشورية التي تخيلها فولتير بقصد سحق جيش المشاة البروسي. وهذا الزواج يضفي الشرعية على علاقة قديمة وحميمة، فقد كتب الخال الطيب لابنة أخته المحبوبة يقول: «ليس ما هو أعذب وأعقل من الزواج بالصديق الحميم». كانت المركيزة دو فلوريان البكر بين آنسات آل مينيو، ولم تستطع أن تكرس نفسها لخالها مثلما فعلت السيدة دوني؛ إذ كان لها وَلَدان، وهي لم تصبح أرملة إلا في عام 1756. ومما يؤسف له بعض الشيء أنها كانت فنانة أكثر من شقيقتها وتفوقها حيوية وبعدًا عن الجشع، وكانت ذات موهبة في التصوير، وتتمتع بحديث رشيق ومرح جدًا حتى إنه ما من أحد وجد يومًا أنها ذات حديث سطحي، فيثبت ذلك تفوقها على أختها تفوقًا كبيرًا، حتى وهي لا تتمتع بفكر عمها.

الرئيس دو بروس يربح ست حزم من الحطب
لكنه يخسر مقعده في الأكاديمية

في عام 1761، صار فولتير عضوًا في أكاديمية بورغونيا، ولم يقبل بأن يصير أكاديميًا في ديجون حبًا باللقب وبريقه، لكن مما لا ريب فيه أنه، وهو الذي له دعاوى في القضاء على نحو دائم، والقضاة كلهم أكاديميون، سوف يجد سهولة أكبر وهو يخاطب كلًا منهم بقوله: «أيها الزميل العزيز، وأيها الصديق العزيز».

أما الشخصية الأكثر إثارة للدهشة في تلك الأكاديمية فهي الرئيس؛ رئيس المحكمة العليا دو بروس، الذي نعرفه عبر كتابه المسلي رحلة إلى

إيطاليا عام 1739، وهو أحد الرجال الأكثر تمثيلًا لعصره. فهو علامة من غير تثاقل، وهازل وجاد، ويسيطر على غزارة علمه، ويلهو بحيوية خفاقة وسط معارفه الواسعة، وما من شيء يتسبب له بالضيق، ويُصدِر على ما يرى وما يقرأ، حكمًا سريعًا وأكيدًا. وبوصفه بورغونيًا ومن بلاد الغال، فما من حقيقة يمكن أن تخيفه، وأما الدعابات الشبيهة بدعابات رابليه فيتناولها ويسردها بالسهولة نفسها التي يلقي بها خطبة من ثلاث نقاط حول القانون الروماني، وهو يجيد، حسن العيش وسلامة التفكير. وأما من حيث شكله فهو قصير القامة جدًا لكنه ذو حِدة وقوة غير عاديتين، وهو شديد الحيوية. وقد كتب عنه ديدرو قائلًا: «إن الرئيس ديبروس الذي أحترمه وهو في ملابسه العادية، ليُميتُني ضحكًا وهو في ثوب القصر، فما من سبيل لرؤيته من غير أن تتسع زاويتا فمي، فهو ذو رأس صغير مضحك ومرح وساخر يضيع في غابة من شعر كثيف يأخذ بخناقه، وتنحدر تلك الغابة يمينًا وشمالًا لتجتاح ثلاثة أرباع ما يبقى من الوجه الصغير».

إلا أن ذلك الرجل القصير الذي يمكن لشَعره المستعار أن يغطيه من رأسه حتى قدميه، كان رجلًا رهيبًا، وأما فولتير الذي كان على مناكدة معه، فلم يكن صاحب الكلمة الأخيرة.

بدأت العلاقة بين الاثنين بشهر عسل في عام 1756. وكانا قادرين على التفاهم حتى بالإشارة، لكن ذلك لم يحل دون أن يمتد الحديث بينهما في لقائهما الأول، من الساعة التاسعة حتى الواحدة، وتعانقا وهما يفترقان، وأخذا يتبادلان الرسائل، وإن من يصغي إلى أحاديثهما يخلص إلى أنهما أفضل نورين في عصرهما؛ عصر الأنوار.

وأما تلك الحماسة التي أظهرها فولتير حيال الرئيس، فقد رفدتها حماسة كبيرة مماثلة حيال أرض تورني التي كان يملكها. فالرئيس يريد أن يبيعها وفولتير راغب في شرائها. فالمسألة، في ظاهرها، بسيطة، وبدأت الصفقة بنثر الأزاهير، قال فولتير: إن قيمة تورني لا تُقدر بمال، وأجاب الرئيس من جانبه أنه سوف يعطي أرضه وكونتيته لأشهر كاتب في العصر من دون مقابل. وفي ما خلا ذلك، فقد ضربت أطنابها كلّ من أساليب الخداع لدى آل أرويه وكل ما لدى قاضي ديجون من مكر، ففعل فولتير ما وسعه لإبراز عيوب الأرض، في سبيل التقليل من ثمنها،

وهي عيوب حقيقية: فالأرض فقيرة ومستنقعية وغير مزروعة، تقطعها أحراج عديمة القيمة، وأما القصر فهو «كوخ متداع». ويرد الرئيس قائلًا إنما ترتبط بتلك الأرض الحقوق الإقطاعية كلها، ولا سيما لقب كونت وحقوق القاضي الإقطاعي أيضًا. كان فولتير على استعداد لأن يشتري تلك الأراضي البور الموبوءة وذلك الخراب بثمن قصر حقيقي، وقد كرر ذلك القول كثيرًا لكنه ما عاد يريد إظهاره. وكان الرئيس يود التخلص من تلك الملكية التي ليست سوى عبء ثقيل، أما باستثناء فولتير، فليس هناك من يرى أحدًا على استعداد لإرهاق نفسه بمثل ذلك العبء الثقيل. وقام الرئيس بكل مهارة، اعتمادًا على الرغبة التي تساور فولتير في أن يقوم بدور سيد القرية، فرفع السعر من طريق إظهار العواطف الخاصة التي تربطه بالأرض منذ زمن طويل. أي من أيام عائلته وجدوده الذين ربوا أولادهم - وهات من يصدقه - فوق تلك الأرض التي لم تكن تهبهم لقب كونت فقط، بل تضمن لهم الخلود تقريبًا، أو ما يشبهه. هنالك طلسم مدفون في القصر يمنح ساكنيه طول العمر حتى مئة عام. فيسوق الدليل من حكايات روتها المرضعات، عارضًا سلسلة أنساب بأكبر قدر من الجد. وكان هذان الرجلان، في نهاية المطاف، يتنافسان في التدليس، بل إن الرئيس تفوق على فولتير، وجرى عقد الصفقة بثمن باهظ. وفضلًا عن ذلك، فإن بنود عقد البيع ضيقت الخناق على حقوق الشاري، فالمالك السابق احتفظ لنفسه بحقوق، ومن بينها إعادة الشراء. فالملكية ظلت مثقلة بأعباء باهظة، ومنها مثلًا إعادة إصلاح القصر، وإنفاق اثني عشر ألف ليرة ذهبية على أعمال الصيانة في الأعوام الثلاثة التالية للشراء وذلك يزيد على دخل الملكية.

كان على الشاري، وفقًا لما جرت عليه العادة، أن يقدم هدية، فقدم فولتير إلى السيدة الرئيسة محراثًا فائق الجودة مجهـزًا بآلة بذار! وكاد يُجَن جنونها غيظًا، فرفضت المحراث. كانت تتوقـع لآلئ أو فراءً أو مبلغًا من المال. وإننا لنتساءل عم كان يفكر فيه فولتير؛ إذ لا بد أن يكون لديه، بين العتاد الجميل الذي اشتراه لتوه، محراث ذو استخدام مزدوج، ولقد قام، على أثر تنبيه الرئيس إلى مساوئ هديته، باسترداد المحراث وإرسال خمسين ليرة ذهبية إلى السيدة، التي فضلت، وهي متوجهة لقضاء الشتاء في باريس، تلك الهدية على الآلة الزراعية.

أخيرًا نال فولتير مكافأته يوم تنصيبه سيدًا على كونتيته، فقد استـُقبِل وفقًا لجميع الأعراف القديمة المستوجبة حيال سيد جديد: كانت الأجراس تُقرَع على

مداها، والخيالة يطلقون النار ابتهاجًا، وأفراد الشعب يمرون من أمام منصة السيد الجالس على عرش تحت سرادق تحف به بنتا شقيقته، وهما في أحسن الحلل وعقود الماس، وحتى النبلاء في المناطق المحيطة كلفوا أنفسهم عناء المجيء، وذلك شيء لم يحدث في فيرني. ولا ريب في أن أرض فيرني كانت أقل نبالة، لكن فولتير المنتشي بتلك المظاهر الاحتفالية الريفية نسي لبعض الوقت السعر والخدمات. وكان يومًا جميلًا.

في اليوم التالي، تغير كل شيء، فقد كمن للذين كانوا يسرقون الجوز من عنده واحد من فلاحيه من تورني، مسلحًا بسيف قديم، وباغت السارق، فضربه بالسيف على ذراعه من غير أن يقضي عليه. فجرى توقيف السياف وسجنه وأوشك أن يُشنَق. وكانت تبعات ذلك كله تقع على عاتق السيد، أي على فولتير. أما وقد علم القضاة بوجود ضامن، فرفعوا الدعوى الأكثر تكلفة وتعقيدًا مما يستطيعون رفعه، وشرع فولتير، وقد جن جنونه، يصرخ ويكتب، واستأنف لدى السلطات القضائية كافة في جنيف وجيكس وديجون. فهو ما عاد راغبًا في أن يكون سيدًا ضامنًا أمام القضاء. وتركه القضاة يتأوه ويئن، فلسوف يدفع. وقد استدعى القضاة في جيكس، من أجل تلك الدعوى، اثنين وخمسين شاهدًا! جاء اثنان وخمسون شاهدًا على نفقة فولتير، ليشهدوا من أجل ست جوزات مسروقة، وضربة سيف وجهها أحد الحمقى فأصاب نذلًا في ذراعه. وجرى ذلك حين كان كاهن موان يتسبب له بكثير من الهموم. وقد يتهيأ لنا أنه كان على الرئيس والقضاة والنواب العامين أن يتراجعوا تحت ضغط الشكاوى، وردّ التهم، والالتماسات، وطلبات العون التي تقدم بها كونت تورني الشقي. لقد رغب في أن يكون سيدًا، فلا بأس، لكن عليه أن يدفع! ظن أن الإقطاعية قضية خارقة. بلى، لكن الغرور خارقٌ كذلك أيضًا.

كان الرئيس يهنئ نفسه، لأنه ألقى على عاتق فولتير تلك «الامتيازات» المرهقة، واحتاج هذا الأخير إلى وقود للتدفئة فعثر على حطب مقطوع فوق أرض فيرني، فأمر بنقله وإشعاله في موقده، ولو أنه قرأ العقد بتمعن، لاستطاع له أن يرى أن ذلك الحطب يخص المالك القديم، أو وكيل المالك في الأقل، واسمه شارلو. وطالب شارلو بأحمال الحطب، فحوله فولتير ليهتم بأراض أخرى غير تورني، فأخطر شارلو الرئيس بالأمر. وكان هذا الأخير على علم مسبق به، ناهيك بأنه سبق فلفت نظر فولتير، ضمن الطرائق اللبقة، لكن الدقيقة، على أن هنالك

إفراطًا في قطع الأشجار، وأن أحدًا لم يقم بالاستعدادات المتوقعة، وأن... وأن... لقد كان شارلو جاسوس الرئيس على أرض خاضعة لرقابة مالكها القديم، مع أنها ملكٌ لفولتير، وكان ذلك غير مقبول. فازدادت النبرة حِدة ما بين الرئيس وبينه، وقد طالب الرئيس، وهو البخيل المعروف، بمبلغ 281 ليرة لقاء أحمال الحطب المستهلكة، بينما كان فولتير مصممًا على عدم دفعها ولو برفع دعوى تمتد طوال حياته. وكان الطرفان مماحكين ومتصلبين وعنيدين سواء بسواء. وبلغ الأمر بفولتير حد القول إن الرئيس ديبروس يضع جميع قضاة بورغونيا تحت جناحه مخلصين، فلا يمكن حكم يصدر والرئيس طرف فيه سوى أن يكون بغيًا وتعسفًا. وكان السيد ديبروس مزمعًا على مهاجمة شارلو، ما لم يقم هذا الأخير بدفع مستحقاته، فلم يبق حينها أمام شارلو سوى الانقلاب ضد فولتير، وذلك ما كان الرئيس راغبًا فيه؛ إذ صار في وسعه على ذلك النحو مقاضاة سيد تورني من طريق شخص وسيط. وهكذا يمكن أن يغدو فولتير، الرجل الشهير وفائق الثراء، خاسرًا في القضاء بمواجهة خصم هو مدير مزرعة مغمور، وإن ذلك ليشرف القضاء أيضًا، حين جعل الثري المستأثر يدفع ثمن ستة أحمال من الحطب اختلسها من رجل مسكين.

كان ذلك كله من أجل 281 فرنكًا، وإن سوءَ النية والفظاظة، لدى هذين الرجلين القصيرين، وقد تلبسهما الشيطان، فالواحد مختفٍ تحت شعره المستعار، والآخر تحت قبعة من الفراء، وهما يدونان بغيظ شديد شكاواهما التعيسة، لمشهد يبعث على الذهول. فهذان الرجلان الغنيان جدًا، يعرضان نفسيهما أمام الناس من أجل بضع حزم من الحطب قام الخدم لدى كل منهما برميها في الموقد من غير أن يلقوا إليها بالًا. وقد بلغ السخط بفولتير أقصى مداه، لأنه فقدَ كل دعم ممكن لدى محاكم ديجون. وحتى لو كان الرئيس أو وكيله، من ناحية القانون الحصري، صاحب حق في تلك الحزم من الحطب، فإن فولتير يعتبر أنهم جعلوه يدفع غاليًا جدًا ثمن تلك الأرض، لكي يتخلوا له عنها. وهذا ما نصحوا للرئيس بأن يقوم به، وقد كتب يقول: «وذلك يعني ضرورة إعطائه إياها (حزم الحطب)، لأنه رجل وقح، ويقال في هذا الصدد: إنه رجل خطر، لكن هل ينبغي، بسبب ذلك تركه شريرًا من غير عقاب؟ وإنما الواجب، بخلاف ذلك، معاقبة ذلك الصنف من الناس. وأنا لا أخشاه، فلن أكون بومبينيان».

تدخّل في النهاية عدد كبير جدًا من الناس حتى إن الدعوى جرى تفاديها، ودفع فولتير مبلغ 281 ليرة للفقراء، فأعطاه الرئيس إيصالًا كأنه سدد قيمة أحمال الحطب، وتمت المصالحة. وهنا توفيت السيدة الرئيسة. وكاد فولتير أن يبعث بتعازيه لكنه تراجع، إذ قدّر أن المصالحة لا تزال في بداياتها.

لكن معرفتنا بصديقينا الاثنين لا تجعلنا نطمئن إلى انتهاء الضغينة. والواقع أن الرئيس الذي يتمتع بكثير من المواهب والمزايا كان يتشهى التوصل إلى احتلال مقعد في الأكاديمية، وقام باستمزاج الآراء ليرى إن كان ترشيحه سوف يلاقي قبولًا، فتدخّل فولتير آنذاك لإفهامه أن ستة أحمال من الحطب أغلقت في وجهه باب الأكاديمية إغلاقًا لا رجعة فيه.

ليس في ذلك كله من شيء مشرف. إذًا فلندع هنا أرويه الصغير، سليل قضاة سان لو، هو ودعواه، ولنعد إلى فولتير، إلى المدافع العظيم والكريم عن العدالة الحقيقية، وعن الحرية وكرامة الإنسان. ولنلقِ جانبًا بتلك الأحمال الستة من الحطب التي أضحت رمادًا، من أجل أن نعيش مع بطل قضية غير مسبوقة، ولما تُسبَر أغوارها؛ إنها قضية كالا التي هي في الوقت نفسه قضية فولتير.

قضية كالا

تشكل قضية كالا معلمًا في تاريخ أوروبا الحديثة، وإن فولتير، بانتصاره على عدالة راعبة، حقق لنفسه لقب شرف لا نظير له، وإن الناس الذين عاشوا من بعد أن أُعيد لكالا اعتباره كلهم، مدينون لفولتير بعدالة أفضل، وأكثر صفاء وإنسانية.

كم كان هنالك من حالات مشابهة لقضية كالا هذه؟ وكم هو عدد الجرائم الشرعية التي ارتُكِبت؟ ارتكِبت جرائم من بعد، وربما لا تزال جرائم أخرى ترتكَب، وقد تكون هنالك جرائم مماثلة في أيامنا؟ لكن التغيير الجذري، أن آل كالا، قبل فولتير، كانوا دائمًا على باطل، وكان القضاة دومًا على حق. فحين تجري الإشارة إلى الضحية، فالذنب واقع عليها لا محالة، لكن فولتير قال كلا للجريمة الشرعية.

القضية معروفة بخطوطها الكبرى، لكن الكلام عليها يدور منذ نيف ومئتي عام من غير أن يكون كل شيء قد انجلى، فالغموض لا يزال في أعماقها، بل هو

غموض مربك. وهذا ما نعرف عن تلك الأسرة الشقية؛ إنها أسرة من البروتستانت، وهم تجار ونزيهون جدًا، كانت تقيم في تولوز، في دار بشارع الغزل والنسيج، لا تزال قائمة حتى اليوم، فالطابق الأرضي يُستخدَم مخزنًا للأقمشة، ويقيم الأب والأم وأولادهما في الطابق العلوي.

في 13 تشرين الأول/ أكتوبر 1761، كان الأب كالا وزوجته يجلسان في بيتهما مع اثنين من أبنائهما: البكر مارك أنطوان والثاني بيار، وكان لهما ابن ثالث اسمه لويس، آمن بالكاثوليكية فما عادت تطأ قدماه أرض منزل والديه. ومن أفراد الأسرة أيضًا صبي صغير اسمه دونا، كان حينذاك في مدينة نيم، وفتاتان تمضيان يومًا عند أسرة صديقة في الريف. وكان آل كالا يستقبلان في بيتهما، في ذلك المساء، شابا اسمه لافيس رجع من بوردو فوجد منزل أهله مغلقًا بسبب السفر، فدعاه آل كالا إلى تناول العشاء في الحجرة الكبرى. وبعد العشاء، نهض الابن البكر عن المائدة فدخل إلى المطبخ، وقال للخادمة إنه يشعر بالحر، وسوف يخرج لاستنشاق بعض الهواء. وتداول الباقون أطراف الحديث لبعض الوقت، ولما أخذ الشاب بيار يغفو قليلًا، نهض لافيس عازمًا على الانصراف، فحمل كل من كالا وبيير شمعة واقتاداه حتى الباب الخارجي، وسمعت الأم، وقد ظلت وحدها في الطابق العلوي، صرخات وعويلًا مصدرها الطابق الأرضي. فلم تجرؤ على النزول وبعثت بالخادمة التي نزلت، ولم تصعد، فنزلت بدورها لكنها صادفت زوجها صاعدًا، فحال دون نزولها متوسلًا إليها أن تعود، فصعدت، لكنها ما عادت تقوى على الصمود أكثر فنزلت لتكتشف ابنها البكر، مارك أنطوان، ممددًا على الأرض، وظنت أنه مغمى عليه، لكن طبيبًا جرى استدعاؤه على الفور قال إنه مات مخنوقًا أو مشنوقًا. وواقع الحال أن كالا وابنه، حين نزلا، فوجئا إذ وجدا باب الشارع مفتوحًا، فمن فتحه؟ وحين اقتربا، شاهدا جسد الشاب مشنوقًا بعارضة خشبية كانوا يضعون عليها لفائف القماش، فحلوا عقدة الحبل لكن بعد فوات الأوان. وخرج الأب من تحت عبئه الثقيل ليقول لابنه بيار، وعلى مسمع من الطبيب: «لا تذهب لإشاعة الخبر بأن أخاك انتحر، وأنقذ كرامة عائلتك الشقية». كانوا في القرن الثامن عشر يحاكمون جثة المنتحرين، والوجه نحو الأرض، بجريمة قتل إنسان. وفكرة الأب هذه مفهومة تمامًا، لكنها سوف تقضي عليه، مع أنها قيلت بعيدًا من أي استجواب، ساعة لم يكن هنالك من متهم ولا دعوى. وحين اقتنع

آل كالا بأنهم كذبوا لتمويه الانتحار، صاروا يقولون الحقيقة، إلا أن الأوان فات، فقد أُخِذ كذبُهم برهانًا على أنهم مذنبون. وحين اكتشفت الأم جثة ولدها شرعت تطلق صرخات حادة جعلت الجيران والمارة يتجمعون أمام المنزل، وجاءت الشرطة، ثم جرى إعلام القضاة المحليين. ولسوف يقوم أحدهم، واسمه دافيد دو بودريج، بدور رهيب. أما لافيس الذي توجه لإخطار الشرطة، فوجد المنزل لدى رجوعه محاطًا بأربعين جنديًا منعوه من الدخول، فقال لهم إنه صديق أهل البيت، وإنه تعشى عندهم في المساء نفسه. وما كان يخطر بباله أنه خاطر بنفسه وهو يدلي بذلك القول، فسمحوا له بالمرور وسط جمهور متوتر ومحموم. فالناس يريدون أن يعرفوا كيف توفي الشاب، بل هنالك من بدأ يقول: «من قتله؟ من قتله؟» وبغتة ارتفع صوت ليوضح قائلًا: «لقد قُتِلَ مارك أنطوان على أيدي أهله البروتستانت. لأنه صار كاثوليكيًا». إن ذلك الصوت المجهول الذي ارتفع من وسط جمهور في حالة هيستيرية، وذلك الاتهام الشنيع، كان في منزلة صدور حكم بالإعدام على آل كالا، وقد التقطته أذنا القاضي بودريج، فجعل منه قضيته الخاصة. ورأى مذنبين، من دون أصغر دليل؛ إذ لم يكن هنالك من متهمين. فأمر من غير تحقيق، ومن دون تعليمات، وحتى قبل التعرف إلى الأمكنة، ومن غير مذكرة، بإلقاء القبض على جميع الأشخاص الذين كانوا في المنزل، في ذلك المساء، وتوقيفهم. فقد كان في وسع القتلة، إن كان هنالك من قتلة، أن يختبئوا فيه. ولم يعبأ بأن يعرف إن كان قد حصل عراك: فكيف لشاب ممتلئ قوة أن يستسلم للخنق من غير أن يدافع عن نفسه؟ ولئن كان صحيحًا أن مارك أنطوان كان مزمعًا على اعتناق الكاثوليكية، فلا بد من العثور في غرفته على كتب، ودلائل على اهتدائه القريب، وحتى الأوراق التي كانت في جيوبه، لم تقدم للقاضي، بل جرى رميها بعيدًا، وقيل إنها قصائد داعرة، ولم يجر الاهتمام بأي شيء. واعتقد آل كالا أنهم سوف يسمعون شهادتهم فيعيدونهم إلى بيتهم. ترك بيار شمعة مضاءة عند المدخل لتضيء لهم لدى عودتهم، فأمر بودريج بإطفائها قائلًا: «لن تعودوا بمثل تلك السرعة»، فلقد أضحت قناعته ثابتة. وأسوأ ما في الأمر أن الجمهور كوّن القناعة نفسها اعتمادًا على ثلاث كلمات قيلت اعتباطًا ولم يكن هنالك ما يثبتها.

هكذا انطلقت تلك الدعوى المذهلة عبر غباء العامة وطمع قاض ظن أنه سوف يقيم ثروته على قضية مدوية، ولم يكن يراوده الشك في أنها مدوية. وإن

اليقين المرتبط بالعناد تجلى في صوت بودريج ليقرر قائلًا: «سوف آخذ كل شيء على عاتقي»، وتوجه إلى قاض آخر كان يحثه على مزيد من اليقظة والتبصر، وأضاف: «إنما هنا تكمن قضية الدين»، وإن ذلك ليسبب الرعدة؛ فهو يشكو أن زملاءه لا يدعمونه إلا دعمًا رخوًا، فهُم كانوا أقل منه وثوقًا بشرعية حقهم. وأما في فرساي، فلـَم يخامر الوزيرَ الذي يقرأ التقارير الشك في أنه حيال رجل مهووس؟ ألم يقم أحد بتقديم تقرير معاكس؟ علمًا أن بودريج كان معروفًا تمامًا في تولوز: كان الذين في محيطه ينظرون إليه بحذر، وكان قد دخل في نزاع مع واحد من معارفنا، هو لابوميل، فعمل على نزع سلاحه وتوقيفه ضمن شروط لاشرعية، وهو حينذاك تحت تأثير دافع من الحقد، وليست تلك من صفات قاض عدل.

لكن من هو مارك أنطوان؟ وما عسى أن يكون دافعه لأن ينتحر؟ كان في الثامنة والعشرين، وهو يُعتبَر شابًا ذكيًا ومُجدًا، إذ نجح في دراسته للحقوق وكان يرغب في أن يصير محاميًا لامعًا. وكان لا بد له، في سبيل ذلك، من الحصول على شهادة اعتناق الكاثوليكية، وكان يمكن الحصول عليها من غير عناء؛ وذلك ما قام به والد صديقه لافيس، فهو بروتستانتي واقعًا وعاطفة، لكنه «كاثوليكيٌّ شهادةً». والحال أن كاهن كنيسة سانت إيتيان في تولوز لم يشأ تسليمه الشهادة، ما لم يحصل على بطاقة اعتراف، وكان ذلك إفراطًا في الطلب من واحد بروتستانتي، فأصيب مارك أنطوان بالقنوط، وصرح أمام واحد من تلاميذه بأن حياته المهنية تحطمت، ولأنه لن يقبل أبدًا باعتناق الكاثوليكية، وكان ذلك معاكسًا تمامًا لظن الجمع الغبي.

حينئذٍ انصرف بكلـيته نحو التجارة التي كان ينفر منها في أعماقه، وهنا أيضًا أُصيب بالفشل، لأنه كان يرغب في الدخول في شراكة بقصد توسيع أعماله، لكن الفرصة فاتته، لأنه لم يستطع أن يجمع المبلغ المطلوب في الوقت المحدد. فكانتا نكستين متتاليتين، وكان، فضلًا عن ذلك، مغرورًا ويحب الظهور، وأما أبوه فيدين تلك النزعات التي لا تتلاءم ومزاج أهله، بل رفض الأب الدخول في شراكة مع مارك أنطوان، لأنه، بحسب رأيه، ليس موهوبًا في حقل التجارة. وكانت خيبة جديدة، فانصرف هربًا من أحزانه إلى حياة المجون ولعب القمار في مقهى اسمه كاتر بيار، وكان يحب المسرح ويجيد الإلقاء ولا سيما المقاطعِ التي تتخذ الموت موضوعًا. لوحظ فيما بعد ميله نحو المقاطع الشعرية من مسرحية بوليوكت،

وحوارية هاملت، ومقطع لغريسيه من مسرحية سيدني (*Sidney*)، وهو تمجيد للانتحار.

كان من شأن ذلك كله مساعدة القضاة على تفسير تلك المأساة، لو كانت لدى أولئك القضاة رغبة في الحكم بالعدل، لكنهم كانوا راغبين في إرضاء الشعب الذي يهوى أن يرى في مارك أنطوان شهيد إيمانه الجديد. وقرأ الكهنة الموكلون بالموعظة يوم الأحد، لثلاثة آحاد متوالية، الدعوات لشهادات إحضار من شأنها مساعدة العدالة، لكن لم يجرِ الاحتفاظ إلا بالشهادات التي تُضِر بكالا.

مرت أسابيع ثلاثة بعد التعليمات الكاذبة، وجثة مارك أنطوان تنتظر، مغلفةً بالكلس. أمر بودريج، وهو يسيء استعمال السلطة إساءة مرعبة، إلى أن مارك أنطوان كاثوليكي، وكان يتردد على الكنيسة ويحضر القداديس، فينبغي أن يُدفَن بطريقة كاثوليكية، ولم يكن هنالك أي دليل على تلك الكثلكة، بل كان على كاهن سانت إيتيان الذي رفض إعطاءه شهادة الكثلكة، أن يرفض دفنه في كنيسته، فهو يعرف أن ذلك الرجل بروتستانتي. وماذا نقول عن مظاهر الأبهة الباذخة التي تمت بها مراسم دفن ذلك التعيس الذي عومل جثمانه معاملة جثمان شهيد. وهكذا أُعلِنت على الملأ كاثوليكية الضحية، وتجريم القتلة المزعومين. وكان بوسع الناس أن يروا قيام كاهنين، كاهن كنيسة سانت إيتيان وكاهن كنيسة دو تور، بتنازع تلك الجثة التعيسة: جثة رجل هرطوقي ومنتحر. فكل واحد يريد أن يحظى بشرف دفنها. وأحاط بالتابوت أربعون كاهنًا، يتقدمهم أعضاء أخوية التوبة بملابسهم البيضاء؛ إذ قيل إن مارك أنطوان كان عازمًا على الدخول في سلك هؤلاء، وليس من أثر واحد قُدم لإثبات هذا الزعم، لكن ذلك لم يحل دون قيام أخوية التائبين بإقامة قداس وجناز في ديرهم، دُعيت لحضوره ثلاث أخويات أخرى، وقد نصبوا في كنيستهم منصة نعش، وفي أعلاها هيكل عظمي يمثل مارك أنطوان حاملًا سعفة الشهيد بيد وباليد الأخرى لافتة: «رفض الهرطقة». وقيل إن لويس، الأخ التائب مسبقًا، أكد لأخوية التائبين أن أخاه كان مزمعًا على ارتداء الثوب والدخول في سلكهم، ثم عاد فتراجع عن أقواله. وإن لويس هذا لشخصية غريبة؛ فقد طلب استدعاء والده أمام القضاء للحصول على منحة بوصفه تائبًا، فالقانون كان يسمح له بذلك، فما الثقة التي يمكن أن نضعها في ذلك الابن الذي ما عاد يتوجه إلى ذويه إلا ليبتز مالهم؟

أما محامي آل كالا، الوكيل دوكو، فقد علق في الفخ الذي نصبه له القضاة الذين يتولى بودريج قيادهم نصبًا بارعًا، حتى جرى توقيفه عن عمله ثلاثة أشهر، وأرغِم على الاعتراف بندامته علنًا أمام القضاة. وكان من شأن ذلك تثبيط همة كل من يفكر في الدفاع عن آل كالا. وحاول المحامي سودر أن يعرض الوقائع التي من شأنها تبرئة آل كالا، فلم يفكر من في الإصغاء إليه.

كان المتهمون خمسة: الأب كالا وزوجته وابنه بيار، والصديق لافيس والخادمة جان فيغيير. وقرر القضاة، زيادة في الشطط والتعسف - زيادة أخرى - إخضاع كالا وزوجته وبيار للتعذيب، وكان هذا القانون مقتصرًا على المحاكم الملكية. وإن القضاة، وهم يعرفون ذلك حق المعرفة، انصرفوا للاستمتاع بالتعذيب الرهيب. أما لافيس والخادمة، فكان من حقهما الخضوع لـ «الاستجواب»، أي لنصف تعذيب. جرى ذلك كله في عام 1761، في أوج عصر الأنوار. لقد جعلوا من لافيس متواطئًا، بل جعلوا من والد لافيس نفسه متواطئًا. إنه التعصب الأعمى، فلافيس كان على درجة من التسامح حتى إنه وقع بنفسه على شهادة ابنه في اعتناق الكثلكة، وحرصًا منه على إظهار مدى التسامح لدى أسرة لافيس، عمل على تعليم ابنه عند اليسوعيين. وهكذا، فحين جرى تجريم عائلة لافيس، ارتعد جميع البروتستانت سخطًا، وشاركهم في ذلك عدد من الكاثوليك أيضًا.

أما الخادمة التعيسة، فاعتُبِرت متواطئة بسبب تعلقها الأعمى بأسيادها، فلم يقبلِ القضاة بأن يسلموا بأن خادمة على تلك الدرجة من الإخلاص لم تساهم في قتل الابن! وكان في وسعهم أن يعتبروا أن جان كانت كاثوليكية تقية، تذهب لحضور القداس كل صباح وتتناول القربان مرتين في الأسبوع، بل إنها سهلت تحول لويس إلى الكاثوليكية، فكيف لها أن تساهم في قتل الابن البكر الذي كان يريد أن يصير كاثوليكيًا؟ لقد كان لها في تلك الحال أن تندد بالجريمة، فتعرضت للمساءلة فلم تبح بشيء، وواصلت الاعتراف، وتناول القربان المقدس. ولو أنها، كما اتهمها القضاة، حلفت يمينًا كاذبة، فشهدت زورًا أمامهم، لما كانت حصلت من معلم اعترافها على حل من خطاياها، ولا استطاعت أن تتناول القربان وهي في السجن، لكن ذلك ما قد قامت به، ولم يكن لدى معلم اعترافها من مأخذ عليها. وإن فولتير في أثناء دراسته القضية، هو الذي اكتشف تلك الحجة ضد تواطؤ الخادمة، وفي نهاية الأمر ضد الوجود نفسه لجريمة آل كالا.

نُقِلت القضية إلى المحكمة العليا في تولوز، كان أولئك السادة متبحرين في العلوم، ويعرفون مجريات القضاء، وفكرتهم عن العدالة فكرة مسيحية. والحال أنهم سلكوا سلوك محكمة شعبية تتحرك تحت التهديد، وقد أعمت الأهواء أبصارها. كانوا في الواقع مشبعين بروح التعصب التي غزت المدينة؛ فالشوارع لا تعلو فيها سوى صرخة واحدة: «كالا قاتل!»، وهي صرخة القطيع المتعصب بتأثير من الرعاة الأشرار. وتمتع بالجرأة قاض واحد فقط، هو السيد دو لا سال، ليدفع بالبراءة، فصرخ به قاضٍ آخر قائلًا بسخط: «أنت، يا سيد، كلك كالا!»، فرد عليه دو لا سال قائلًا: «وأنت، يا سيد، كلك غوغاء»، فالرد يعبر أحسن تعبير عن الجو الذي جرت فيه المحاكمة: مدينة في حالة هستيرية، تريد موت كالا. ولئن كان الغباء جريمة، فهو في بعض الحالات جريمة مروعة بطريقة فريدة. وبعد تلك القضية بحوالى ثلاثين عامًا، قامت محاكم الشعب - وهي تحمل الشعور نفسه على الدوام - فأرسلت إلى المقصلة بالأبناء والأحفاد لرؤساء المحاكم أولئك، ذوي القبعات العالية وأولئك القضاة، والنواب العامين المزهوين جدًا بألقابهم.

وهاكم إلى أين مضى بهم مجدهم المزور: قُضيَ على جان كالا بالخضوع للاستجواب المألوف وغير المألوف، واستطاع الشقي أن يشهد جميع إعدادات الآلات التي سوف تُستَخدَم لكشط سلاميات الأصابع وانتزاعها وإحراقها وتفتيتها، واقتيد من بعد حافيًا وحاسر الرأس من السجن حتى قوس كنيسة سانت إيتيان. وهنالك حمل بيديه، وركع على ركبتيه طالبًا الغفران من الله ومن الملك ومن العدالة. وهي لحظة راعبة بالنسبة إلى شخص بريء، وأعيد من بعد إلى العربة الشائنة، واقتيد إلى ساحة نُصِبت فيها مشنقة، فرُبِط إلى دولاب وخضع للضرب بعارضة حديدية لتكسير ذراعيه وساقيه وظهره، وأدير وجهه نحو السماء ليسمع صوتًا يقول له إنه سيعيش في حالة شقاء وندامة على تلك الجرائم ما راق الله أن يمنحه الحياة. ويبدو أن إشراك الله في تلك القضية الجهنمية هو ذروة التجديف. أما في النهاية، إذ لا بد من الوصول بالشقي إلى النهاية، فقام الجلاد بخنقه ورمى بجثته فوق محرقة متأججة ليؤخذ رماده من بعد فيرمى به في مهب الرياح.

هكذا انتهى الأمر بجان كالا، الزوج الصالح، والأب العطوف، والتاجر المستقيم، والرجل الطيب من رعايا الملك. كان موته مذهلًا من حيث شجاعته

وصفاء ذهنه وحتى عظمته، فقد قال للأب بورج، الذي كان يحثه وهو تحت التعذيب على الاعتراف بجريمته: «ماذا، يا أبتِ، أتظن أنتَ أيضًا، أنه يمكن المرء أن يقتل ابنه؟». وضغطوا عليه للبوح بأسماء شركائه: «ليس هنالك من جريمة، فلا يمكن أن يكون هنالك شركاء»، أما كلمته الأخيرة فكانت: «لقد قلت الحقيقة، وأنا أموت بريئًا».

كان بودريج لا يزال يصيح به أن يقر بجرمه، فيما كان الجلاد يقوم بخنقه: كان القاضي المشؤوم بحاجة إلى ذلك الإقرار الذي سيريح ضميره من التأنيب المريع الذي يمكن أن يعرفه إنسان، فهل شعر بذلك؟ أما حين كتب تقريره للوزير ليعلمه بإعدام كالا، والحكم على الابن بالسجن المؤبد وإطلاق سراح المرأتين، قال: «لا يزال هذا الحكم يباغت جميع الذين كانوا يتوقعون شيئًا أكثر قسوة»، فهل يريد «الجميع» المزيد من التعذيب؟ وهل كان ينبغي القضاء على الأم وعلى بيار كالا؟ وعلى من أيضًا؟ على عائلة لافيس؟ إن في البشرية شيئًا شنيعًا، إذا ما نظرنا إليها من تلك الزاوية. فليس بودريج هذا شخصية من أساطير باريس، ولا هو بوحش اجتماعي، بل من علية القوم، وشخصية مريحة يحظى بالاحترام وعلامة أيضًا، بل إنه أحد «الأدمغة»: هو قاضٍ، ومن عاصمة مقاطعة اللانغدوك. والآخرون؟ ما قيمتهم؟ صحيح أن بودريج خُلِع من منصبه، بعد إعادة الاعتبار إلى كالا. ولقد تعللوا بأنه تدخل تدخلًا خاطئًا في مسألة دفن إنكليزيين اثنين توفيا في تولوز عام 1764. ولقد فهم الوزير سان فلورنتان، متأخرًا بعض الشيء، سفالة الرجل وأطماعه، ويبدو أنه، من بعد إقالته، وعى جريمته، وقد انتهى الأمر بحفيده دافيد ديسكالون على المقصلة في عام 1794، وهو الذي عزم على التصدي لشطط عهد الرعب، لكن قيل إنه لم يُظهِر من الشجاعة ما أظهر كالا.

سماع صدى القضية في فيرني...

عرف فولتير في بدء الأمر من هذه القضية ما كان يردده الجميع: قتل كالا ابنه؛ ليحول دون ارتداده، وكان ذلك النوع من القتل يدخل ضمن الطقوس الدينية، لكنه هول الأهوال بالنسبة إلى فكر مثل فكر فولتير. وقد كتب بلامبالاة كلها ازدراء: «ليست لنا من قيمة تذكر، لكن البروتستانت أسوأ منا. لأنهم علاوة على ذلك يشجبون المسرح»، ونعود لنلتقي ببطلنا: إن كل امرئ قابل لأن يزدري المسرح،

هو قابل في الوقت نفسه لأن يقتل ابنه، وجان جاك روسو يهاجم المسرح، فهو، بناء على ذلك، خليق بفعل أي شيء.

لم يدم هذا الموقف طويلًا. فنحن نعرف كم هي مصادر معلوماته سريعة ومكتملة؛ إذ جاءه رجل اسمه أوديبير، آتٍ لتوه من تولوز، فقدم له تقريرًا مستفيضًا عن الدعوى، وطار النوم من عيني فولتير. فالسفالة وضعت نفسها في خدمة المرذولة، فينبغي الكشف عن السر، لأن هنالك سرًا حقًا. فلا تجريم كالا ظاهر بوضوح، ولا براءته ظاهرة وصريحة. ولم يجرِ البرهان على شيء، لأن التحقيق كان معدومًا، فقرر فولتير البحث عن براهين تجريم كالا. ولئن لم يكن هنالك من إثباتات، فالقضاة أخطأوا، ولا بد من إعادة اعتباره وهو على العموم، سوف يباشر العمل الذي لم يقم به القضاة، وليس واثقًا منذ البداية، على الإطلاق، ببراءة كالا، وهنا تحديدًا تكمن قيمة عمله: إنه يقدر فقط أن الجرمية لم تثبت؛ وذلك مختلف. فنحن نعرفه شغوفًا بالعدالة، وهو في هذه الحال، أكثر منه في أي وقت مضى، مسكون حقًا بعزم كبير. لكن ها نحن نراه، بدلًا من اللجوء إلى حروب كلامية عنيفة، يطبق على هذه المهمة التي تفوق قدرة البشر، أناة وعنادًا ورباطة جأش وذكاءً وحذقًا، ورثها كلها من دون أدنى شك من آل أرويه كافة في سان لو، وهو يطلب من الكاردينال دو برني ما ينبغي... «التفكير في الواقعة الرهيبة لذلك الرجل كالا الذي جرى تعذيبه على الدولاب في تولوز لأنه شنق ابنه؛ لأنهم يزعمون هنا أنه بريء جدًا، وأنه اتخذ الله شاهدًا. إن هذه الواقعة تمسك بخناقي، فتحزنني وسط مباهجي، فتفسدها، فينبغي النظر إلى المحكمة العليا في تولوز أو إلى البروتستانت نظرة هول». أما وأن الأحزان لم تدخل ساحة برني، فهو لم يرد، وتوجه فولتير بعدئذ إلى ريشوليو. حاكم غويين، وهو يشعر بأن ضميره تسمم بتأثير تلك القضية، والتقى في تلك الأثناء بأبناء كالا المنفيين في جنيف. وكتب مجددًا إلى برني الذي رد عليه بوصفه رجلًا من المجتمع، غير منحاز إلى أحد ولا يحمل أي بغضاء حيال القضاة ولا حيال ضحيتهم، فهو لا يؤمن بشيء، ولا بالظلم أيضًا. إن بابيت، بائعة الأزهار، تقطف الورود من غير أن تخز أصابعها، وإن خطأ قضائيًا لا يهمها من قريب أو بعيد.

يمكن لرجل من مونتوبان، اسمه السيد ريبوت، ويسافر في العادة، أن يأتي بأخبار أفضل، وريبوت هذا ذو فكر متميز، ويراسل كلًا من بوفون ونيكر وجان

جاك. ولكم يصعب على المرء أن يعرف! وقد كتب فولتير يقول: «إن الذين بوسعهم تزويدنا بالكثير من النور، يلتزمون الصمت إلتزامًا جبانًا». وذلك ما قام به ريشوليو الذي رغب حقًا، بحكم صداقته لفولتير، في أن يُصار إلى القيام بتحقيق في تولوز، لكنه حرص بشدة على عدم تزويده بالنتائج. فلقد لمح حقيقة راعبة، هي واحدة من تلك الحقائق التي ينبغي دفنها حية! فطلب إلى فولتير، حرصًا على راحة باله، أن يهتم بشأن آخر، فلينصرف إلى العناية ببستانه وإلى نظم الشعر في فيرني! وأوشك فولتير، بعض الوقت، أن يلتزم جانب الهدوء.

كان ترونشان هو الذي أعاد كل شيء إلى انطلاقته؛ فهو برهن لفولتير، دونما عناء، على أن ريشوليو استعلم من المحكمة العليا في بوردو، التي كانت تأخذ معلوماتها من المحكمة العليا في تولوز. وإنه لم تكن لأولئك السادة أعضاء المحكمة من مصلحة في أن يُلحِق بعضُهم الضر ببعضهم الآخر، فليس للمرء أن ينتظر منهم شيئًا. وفي الوقت نفسه تمامًا، قام الرئيس ديبروس، كأنما هو يريد تأييد تلك الأقوال، فقدم دعمه القوي لأطروحة المحاكم العليا الأخرى. واسترعى ترونشان انتباه فولتير إلى أن الروح الجماعية، الشديدة القوة بين القضاة، سوف تقف في وجهه لا محالة، إذا ما طعن في قرار محكمة تولوز. ولسوف يستعدي فولتير على نفسه المحاكم العليا كافة، وجميع القضاة في فرنسا وفي نافار، فهنالك ما يدعو إلى التردد. وحينذاك أضحى فولتير مقتنعًا أكثر من أي وقت مضى بضرورة إعادة النظر في دعوى تولوز. فدخل من فوره في علاقة مع تجار ومحامين من مقاطقة لانغدوك، ممن تعودوا الذهاب إلى جنيف، وبدأ يستجوب، وأجرى مواجهات بين ابن كالا الشهود. وما إن يحيطونه علمًا بوجود مسافر من تولوز، حتى ينتقل من فيرني إلى جنيف. وقد كتب إلى أحدهم قائلًا: «أخبرني عن مواعيدك، وأنا أتوجه إليك أو إلى عند السيد ترونشان في الساعة التي تحددها أنت»، إنما هو مخلص لآل كالا.

لم يشاءوا أن يروا في شغفه للدفاع عن قضيتهم سوى شغفه بمقاومة الإكليروس، لكن ذلك ينتقص من قيمة القضية. ونحن نعرف أنه لا يتسامح حيال التعصب البروتستانتي كما حاله حيال كل تعصب، وليس لنا أن ننسى كم هي أفكار فولتير في غاية التلون، وكم هي رجراجة، فليس لنا أن نؤكد شيئًا يتعلق به، باستثناء شغفه الصادق بالعدالة والحقيقة... والمسرح.

ليس ذلك الشغف رومانسيًا، بل هو نابع من العقل، فعطفه على قضية آل كالا، هي أبعد ما تكون عن التلقائية. وأما الاندفاعات العاطفية التي لا يُحسب في الأغلب حسابها، فليست خطيئة صغيرة في نظر آل أرويه. وهكذا استحضر الشاب دونا كالا، وباشر باستجوابه، بل لنقل إنه بدأ يطبخه على نار هادئة بعيدًا من إثارة الريبة لديه. أما الأخ الآخر بيار الذي حضر كما قال القضاة، عملية الشنق، فيشكل تقدمًا، وهو في أي حال، شهد عملية فك الحبل عن عنق المشنوق، بل ساعد عليه، وهو الشاهد الأقرب، فهنالك شكٌ يدور من حوله، ولم يقاربه فولتير في البداية إلا بمنتهى الحذر: لقد كلف من يقوم بالتجسس عليه طول أربعة أشهر! فأي صبر هذا، وأي حماسة! إنه مثال على الضمير المهني الذي كان ينبغي لقضاة تولوز أن يقدموه، وهو يحكم على بيار كالا استنادًا إلى ما يُقَدم إليه حوله. وخلافًا للغوغاء التي يُجَن جنونها بسبب شغفها بالظلم، فإن شغفه بالعدالة جعل أعصابه باردة.

انتهى به الأمر إلى أن يعرف كل شيء عن كل واحد من أعضاء تلك الأسرة، وكان في عمليات استجوابه ينصب لهم شراكًا بمهارة محقق محنك. وبعد مرور أشهر عدة على ذلك التحقيق الذي قادته يد معلم حاذق، كتب يقول: «ليس من شيء لم أقم به في سبيل أن أصل إلى الحقيقة: لقد استعنت بأشخاص عدة كانوا محيطين بآل كالا ليعلموني بعاداتهم وسلوكهم، فأجرؤ على أن أكون على يقين من براءة هذا العائلة مثل يقيني من وجودي». في 13 شباط/ فبراير 1763.

أما الآن فينبغي إقناع العالم بتلك البراءة، وسعيًا منه وراء محاصرة الوزير، السيد سان فلورنتان، قام بتجنيد ريشوليو ودوقة دانفيل ودوق دو فيلار وكاتب في المحكمة اسمه مينار، وصولًا إلى طبيب الوزير نفسه الذي كان مكلفًا بإعطاء مريضه كل صباح جرعة مُقَيئ وجرعة من كالا. وقضّ مضجع المستشار السيد دو لاموانيون، والرئيس الأول السيد دو نيكولاي، وعاود الاتصال بالسيدة دو بومبادور، فاستذكر الماضي، وتظارف ومازح واستعطف، كل ذلك من أجل أن يظهر الحقيقة، ما دام لم يستطع أن ينقذ حياة كالا.

لم يكن القضاة واثقين من أنفسهم، فنهاية كالا سببت الإرباك لغير واحد: لقد كانت نهاية رجل بريء، وكانت الجريمة غير محتملة الوقوع، فكيف أمكن لذلك العجوز، وهو في الثانية والستين، أن يقوم وحده بشنق شاب في الثامنة

والعشرين، وهو في أوج قوته؟ فهل كان معه شريك؟ لا يمكن أن يكون سوى ابنه الثاني بيار. فلـمَ إذا جرت تبرئة هذا الأخير؟ وماذا عن تلك الكوميديا المتعلقة بالنفي؟ يجعلوَن المنفي يخرج من باب سان ميشيل ثم يجعلونه يدخل من باب آخر؟ ويؤوونه عند اليعاقبة ثم يعدونه بنيل حريته إذا ما اعتنق الكاثوليكية؟ فيا له من نسيج متنافر! فيقبل، وبعد أشهر أربعة يصل إلى جنيف لينضم إلى أمه ودونا اليافع. فما قيمة ذلك الاعتناق؟ وأين هو الظلم والبغي؟ هل هو لدى المرتد أم لدى الذي يرغمه على الاعتناق في مثل تلك الأحوال؟

تتولانا الدهشة من أن أول العوائق التي كان على فولتير أن يتخطاها هو نفور السيدة كالا من سماع كلام على إعادة الاعتبار، فعمليات احتجازها و«استجوابها»، وقتل زوجها بتلك الطريقة الشائنة سحقتها. ولكي يقوم فولتير بإقناعها بدأ يخاطب قلبها أمًا. فنحن نذكر أيضًا أن لآل كالا بنتين بقيتا بمعزل عن المأساة التي دمرت عائلتهما، فقد تم وضعهما في دير، وكانت الأم الشقية تعيش على الأمل الوهمي في رؤيتهما مجددًا. وواقع الحال أنه ما دام كالا مذنبًا فإن ابنتيه ستواصلان المعاناة من جريمة أبيهما وتظلان محبوستين في الدير. فحصل فولتير، على ذلك النحو، على موافقة المرأة المسكينة؛ فقد أخرجوها من جحرها ومن حدادها وعارها وغمها، وجاءوا بها إلى باريس. كان ينبغي للعالـم أن يرى ذلك التمثال من العذاب والبراءة المعذبة؛ إذ يجب على الشقية، في سبيل إقناع الجمع، أن تخاطر بصحتها، وأن تظهر علنًا، وأن يُستخدَم مشهدُ الدمار وسيلة دعائية لقضيتها. والجمهور يفرض ذلك النوع من الاستعراض: لكي تخرجوني من بكائي، لا بد لكم من أن تبكوا. وحين بدأ الباريسيون يذرفون الدموع، شعر فولتير بأن النصر بات قريبًا. ولـم يكن فولتير يتمثـل وحده سوى العدالة والحقيقة والذكاء والسخاء، وهي على العموم شيء ضئيل القيمة في نظر قضاة متعصبين. أما الجمهور، وهو في حالة غليان، فيشكل قوة. لقد دانت تولوز كالا على صوت صرخات الشارع: «الموت لكالا!» وينبغي، في سبيل إنقاذ ما يمكن إنقاذه، أن يبدأ الحشد في باريس يصرخ: «أعيدوا إلى كالا اعتباره! أنصِفوا كالا!» فهكذا يسير العالـم.

عمل فولتير، بفضل علاقاته القوية وحسن تدبيره، على إعداد استقبال حار للسيدة كالا في العاصمة الفرنسية. بذل آل دارجنتال ما تجاوز قدراتهم، وكتب إليهم فولتير يقول: «ما عسانا أن نطلب؟ لا نريد من شيء آخر سوى ألا تكون

العدالة بكماء مثلما هي عمياء، فلتتكلم، ولتقل لِمَ دانت كالا؟ فيا للهول في إصدار الحكم بالسر، والإدانة بلا موجب! فهل هنالك من استبداد أكثر شناعة من سفك الدم اعتباطًا ومن غير تقديم أي مسوغ؟ «وليس ذلك بعرف! فهكذا يقول القضاة». لكن آه! أيها الوحوش، لا بد من أن يغدو ذلك عرفًا، أنتم ملزمون بتقديم حساب للناس، عن سفك دم الناس».

تضمنت هذه الأحكام الأخيرة بذرة الإصلاح الأساس الذي تناول العدالة، إنه حق الإنسان في أن يتصرف بحياته وحريته، أو في الأقل، الحق في أن يعرف لماذا «سلطة ما» تتصرف بها.

وظلت السيدة كالا في باريس، ويا لسخرية المصادفة! كانت تقيم في شارع مورفوندو على نهر السين، وهي بلا موارد. فكان فولتير هو الذي يتولى أمر نفقاتها كافة، مثلما يتولى جميع النفقات المترتبة على التحقيق المعاكس. (ألا نذكر بخل فولتير الشديد؟) ولما كانت المنفعة (أو الفضول) تستدعي المنفعة، وكان النجاح يستجر النجاح، إذ تضاعف عدد أصدقاء السيدة كالا وتدفقت عليها المعونات، وفتحوا لها حسابًا في مصرف ماليه الذي كان يعمل على مدفوعات حُماتها. وأخيرًا لاحظت المرأة المسكينة أن الرأي العام مؤيد لها أشد التأييد، وأمكن آنذاك للكفاح أن يبدأ ما بين فولتير الذي كان على رأس أصدقاء كالا كافة، ومحكمة تولوز العليا.

كانت بعض المصاعب لا تزال تبدو غير قابلة للتجاوز، فما كان في وسع المحامي ماريت الذي يتولى الدفاع عن قضية السيدة كالا، أن يحصل على نسخة من إجراءات الدعوى من محكمة تولوز العليا. وتلك النسخة لا يمكن الاستغناء عنها، والمحكمة العليا لا تجيب. فما من حاجب واحد في محركات محكمة تولوز كافة قبل بالتدخل في سبيل الحصول على تلك النسخة. وجرى ذلك أيام كان القضاة يمثلون معارضة للملك، وكان الجمهور يعتقد أن قضاة المحاكم العليا يدافعون عن حقوق الأمة، في حين أنهم كانوا يدافعون عن امتيازات القضاة التي أضحت المعلم الأكثر عنادًا بين المحافظين. وباختصار، فالوقت لم يكن ملائمًا لإعادة النظر في الدعوى، بل كان والد الشاب لافيس نفسه، وهو محام، يرتعد حيال المبادرات التي قام بها فولتير. فهو سيترك عن طيب خاطر المحكمة العليا

والقضاة يقومون بشنق المدينة وضواحيها، خوفًا من إيقاظ تلك القضية الرهيبة التي أوشكت أن تؤدي إلى شنق ابنه، فلم يستطع فولتير أن ينتفع منه بشيء. ولنتذكر، قبل أن نلومه، السهولة المقلقة التي كان قضاة تولوز هؤلاء، يُخضعون بها متهمين عاديين لـ «الاستجواب». فقد كان يعرف خيرًا من آخرين، بوصفه محاميًا، المخاطر التي يتعرض لها، وفي المقابل، تبدو شجاعة فولتير لنا أكثر من رائعة ومدهشة.

ويعرف كيف يعزف فولتير في المواقف الحرجة على أكثر من وتر. أما وأن وتر العدالة لم يكن مطربًا في نظر لافيس، فإنه لوّح له بلحن المصلحة: سوف يأتي المحامي لافيس إلى باريس، وسوف يكون فيها بمأمن من أذية القضاة الأشرار، ويقابل عددًا من الأمراء الألمان، وشخصيات مهمة جدًا من فرنسا وإنكلترا وهولندا، من الذين أودعوا مبالغ ضخمة في سبيل قضية كالا، «وهذه المبالغ سوف تتولى إدارتها بنفسك، يا سيد لافيس»، وأضاف فولتير أن أولئك السادة المعتبرين لا يحصرون همهم في قضية كالا وحدها، بل لديهم آلاف القضايا التي تحتاج إلى من يدافع عنها، وهي أقل ضخامة وأقل خطورة من إعادة الاعتبار إلى محكوم بريء، إلا أنها تفوقها ربحًا، وحين أصغى لافيس إلى ذلك اللحن المطرب، شعر في داخله بومضة حب للعدالة.

وإنه لمما يثير الدهشة لدى فولتير، براعته في المزج بين مثالية الحس السليم ومهارته في استخدام أصدقائه وعلاقاته، فهو يبث النشاط في الوجلين، لكنه يخفف من اندفاع المتحمسين الذين يمكن لحماستهم أن تكون ضارة، فيعرف ما ينبغي أن يقوله لبعضهم، وما ينبغي أن يحيطه بالكتمان. فلنتحاشَ على وجه الخصوص أن نصنع لأنفسنا أعداء جددًا، من طريق تصريحات خرقاء، «ليس لنا أن نخاصم أحدًا، فنحن بحاجة إلى الأصدقاء»، وكان بحاجة على وجه الخصوص لعون آل كالا الذين ليس لهم أي سند، لكن ها هي السيدة كالا تصاب بالوهن، فتتخلى عن الكفاح، فأثار ذلك سخط فولتير: عليها أن تبكي وأن تنوح وأن تجأر بالصراخ، ولقد قال لها: «يبدو لي، لو أنهم عذبوا أبي فوق الدولاب، لصرخت بصوت أعلى قليلًا»! ونحن نصدقه حقًا، فلقد رأيناه يجأر بالصراخ لخدوش أصيب بها. فما الحال بالنسبة إلى تمزيق الأطراف! وها نحن لا نزال نسمع صراخه، بعد قرنين من الزمان، ومن أجل رجل ليس بقريبه!

حين قدر أن الرأي العام أضحى جاهزًا لسماع صوته، توجه إليه بالكلام، فنشر في آب/ أغسطس عام 1762 أهجية بعنوان: قصة إليزابيت كانينغ وجان كالا؛ فقد تحدى الجمهور بعشرين صفحة، من دون اندفاع عاطفي، وبوضوح ومنطق ودقة تعبير، وكلها مثال يحتذى. وتلت تلك النشرة رسالة الأخوة كالا حول محاكمة والدهم، وكان لها دوي كبير. وبدورهما قام المحاميان إيلي دوبومون وماربيت بنشر مذكرة، وعليه، أضحى ذلك الحدث، وهو من الحوادث المتنوعة، موضوعًا لمناقشات عامة، وما عاد يدعى محاكمة كالا بل أصبح قضية كالا. ويمكن للهامش الذي يفصل بين التعبيرين أن يكون كافيًا لمرور فتنة أو إصلاح وحتى ثورة. وبفضل تلك النشرات الصغيرة، اجتاحت الفضيحة فرنسا وتجاوزت حدودها، وشعرت أوروبا عصر الأنوار بالعيوب المذهلة لعدالة تعود إلى العصور الوسطى، وأحدث ذلك كله ضجة كبرى، لكن أولئك السادة أعضاء المحكمة العليا ظلوا حيالها في حالة من الصمم التام. فما يدعو أولئك السادة أعضاء المحكمة العليا، بقصر نظرهم، إلى أن يلقوا بالًا إلى أهاجي شاعر يتدخل في كل شاردة وواردة، وبمذكرات الأبناء والمحامين لرجل جرى خطأ تعذيبه حتى الموت؟ فأحكامهم باتة لا تُستأنَف! والنظام الملكي نفسه لا يقوى على جعلهم ينثنون. وقال أحد قضاة المحكمة العليا وهو يضحك ساخرًا إن تلك الحملة بلا قيمة تذكر لأن القضاة في فرنسا أكبر عددًا من آل كالا. ويمكن القول أن يكون مضحكًا لكنه صادر عن رجل غبي لمّا يفهم أن «كالا» يعني «فولتير»، وأن في وسع فولتير واحد، وهو يحدث ضجة ويهز باروكات القضاة، أن يوقظ المحاكم العليا كافة في فرنسا، ومعها السيد ديبروس.

ورغبة منه في دعم حملته لمصلحة رد الاعتبار، قام في عام 1763 بنشر بحث في التسامح، من دون توقيع، ورغب في أن يسود الاعتقاد بأن ذلك النص بريشة كاهن صالح، وهذا ما قاله لصديقه داميلافيل في 24 كانون الثاني/ يناير 1763: «لا يسعنا الحيلولة دون موت جان كالا على الدولاب، ويمكن جعل قضاته مكروهين جدًا وذلك ما أتمناه لهم... وإياك أن تعزو للعلمانيين هذا المؤلف الصغير الذي سوف يظهر عما قريب، فلنقل إنه من وضع كاهن صالح. هنالك مواضع تجعلك ترتعد، وأخرى تجعلك تنخرط في الضحك، لأن التعصب، والحمد لله، مريع على قدر ما هو عبثي»، ونحن نتعرف، في تلك الأرجحة ما بين الراعب والعبثي، وبين الجاد والساخر، على أحد الملامح العميقة في طبع فولتير.

وهو في ذلك البحث، يتناول المشكلة من علٍ، فتغدو قضية كالا قضية إنسانية، فهو يقوم بتسويتها لكل الأزمان وللشعوب كافة. فخمن كل واحد وجود مفكرٍ عظيم وذي قلب كبير، خمن كاتبًا عظيمًا اسمه فولتير. وأحدث ذلك الكتاب الصغير انقلابًا في الرأي العام: إنه هو الذي ربح دعوى رد الاعتبار، وأضحى شوازول مؤيدًا لقضية كالا، فكان ذلك أمرًا كبيرًا. لكن المحاكم العليا، ولا سيما في الجنوب، كانت مستعدة لإثارة الفتنة إذا ما جرى المس بحكم تولوز.

أخيرًا، نُقض القرار الحاسم في المجلس، وكان من بين الحضور وزراء عدة، والدوقان دو شوازول ودو برالان، وثلاثة أساقفة. لقد صدق المجلس على قرار جمعية من ثمانين قاضيًا في 4 حزيران/ يونيو 1764، ونقض بالإجماع الحكم الصادر في تولوز، وكان بينهم بعض القضاة في تولوز، فتقدم أحدهم مرتبكًا وخجولًا ليقول لدوق أيان بلهجة اعتذار: «سيدي، يمكن لأفضل جواد أن يكبو...»، فأجابه الدوق قائلًا:

- أجل، لكن... الاصطبل كله كبا!

وجرى استقبال السيدة كالا في فرساي، وشاهدت الملك، لكن الملك لم يرها، لأنه ساعة مروره بقربها، انزلق أحدهم فسقط، وأحدث ضجة اجتذبت انتباه الجميع: وكان الملك قد مر.

وكتب ساع في مجلس القضاة يقول: «يا للتناقض لدى أهل تولوز! فخدم القضاة كافة، وخدم حماة السيدة كالا، ينظرون إليها باحترام، وما من واحد فيهم إلا وقد قرأ مذكراتها...».

أحيطت نانيت، وهي إحدى ابنتي كالا، في أثناء إقامتها في الدير، بعطف لا يوصف من إحدى الراهبات التي اقتنعت من بعد استجواب رفيقتها ومراقبتها، ببراءة أسرتها، فكتبت إلى مستشار لاموانيون رسالة مدهشة بوضوحها ودقتها ورهافة حسها. أما بعد أن قرأها فولتير، فقد كتب يقول: «يبدو أن البساطة الفاضلة والتسامح لدى تلك الراهبة، التابعة لرهبانية العذراء، تدين إدانة رهيبة التعصب الدموي لدى القضاة القتلة في تولوز». أما حين رغبت نانيت في التعبير عن عرفانها حيال فولتير، فهتفت الراهبة الفاضلة وقد استولى عليها الهلع: «هل يمكن أن يكون من شيء عظيم لدى الرجل الذي يعارض من قام

بصنع كيانه...»، ذلك أن فولتير، هو الشيطان في نظر الراهبة الطيبة، لكن تبين أنها تعاونت معه على عمل صالح، وربما لأنه لم يكن شيطانًا مثلما لم يكن كالا قاتلًا.

وإليكم كيف شق نبأ نقض الحكم المتجه نحو رد الاعتبار، طريقه إلى فيرني. كان بيار كالا حاضرًا، وجاءوا برسالة من دارجنتال تحمل النبأ السعيد، مكافأة على بذل كثير من العناء وكثير من النفقات المالية، والوقت والجهد العقلي لمصلحة بشرية مهانة في شخص التعساء آل كالا. ووقع العجوز والشاب، كل منهما بين ذراعي الآخر وذرفا سيولًا من الدموع: «سالت دموعنا، أنا والفتى كالا، انفعالًا، فكنا نختنق، أيها الأعزاء آنج... ومع ذلك فالفلسفة وحدها هي التي حققت النصر».

إن فولتير هو الذي حقق النصر، لقد وضع أسلحة بين أيدي الفلسفة: العناد والمال والذكاء، فمن دونها، ما كان للفلسفة أن تصنع سوى العبارات.

إلا أن القضية لما تنته، فمحكمة تولوز العليا أشهرت جميع المصاعب الإجرائية التي يمكن تخيلها، فمن بعد التهديد بالفتنة، رفضت تسليم مجريات الدعوى. وفي أثناء انعقاد المجلس، طالب الملك نفسه بها، وجاء الرد بأنهم سوف يقومون باستخراج نسخة، لكن النفقات المترتبة سوف تقع على عاتق السيدة كالا. وكانت تلك النسخة تتطلب خمسة وعشرين ماعونًا من الورق المدموغ، وذلك يساوي مبلغًا باهظًا. وصرخ فولتير قائلًا: «ماذا؟ يقومون في القرن الثامن عشر، في عصر قيام الفلسفة والأخلاق بتعليم الناس، فيعذبون على الدولاب رجلًا بريئًا بأكثرية ثمانية أصوات مقابل خمسة، ثم يطالبون بألف وخمس مئة ليرة (مليون فرنك قديم) مقابل نسخ خربشات محكمة شنيعة؟ ويفرضون على الأرملة أن تدفع؟» وكان فولتير وأصدقاؤه هم الذين دفعوا بدلًا من الأرملة، وكانت في بعض الأحيان تريد أن تتخلى عن كل شيء، فيذكرها فولتير بابنتيها الحبيستين في الدير، فتستعيد قواها. كانت بحاجة إلى قواها لأن الإجراءات تفرض من بعد النقض استئناف الدعوى من نقطة البداية، فجرت إذًا إعادة توقيف الأظناء، ووضعهم في السجن من أجل إخراجهم وتقديمهم للمحاكمة. ونعرف الصورة التي نشرت شعبية عائلة كالا التي تجمعت مجددًا في السجن، من أجل اعتقال شكلي فقط في دار الحجابة، فلِمَ لم تقم العدالة بإعادة إحياء كالا لتكون منطقية

مع نفسها؟ ولكم وقع من البغي في تلك القضية! في تلك القضية التي نعرفها. لكن ما يتسبب بالرعدة، هو عدد القضايا، المماثلة لها تمامًا، والتي لا نعرفها. وأخيرًا، وفي 9 آذار/ مارس 1765، صدر الحكم النهائي بالإجماع: إنه يعيد الاعتبار إلى المتهمين كافة في قضية كالا، وينبغي شطب أسمائهم من قوائم المعتقل. وكان على كتاب المحكمة القيام بتلك الإجراءات وإلا فسوف يتعرضون للغرامة. وعلى الرغم من ذلك، فإن قضاة تولوز لم يستجيبوا. وليس سوى والد لافيس المحامي الذي استطاع وحده الدخول إلى قلم المحكمة في أثناء إحدى الإجازات، وقام بشطب اسم ابنه بنفسه. وكان من حق الذين استعادوا اعتبارهم، أن يطالبوا بترضيات وتعويضات من القضاة الذين دانوهم، لكنهم لم يجرؤوا على أن يطلبوا شيئًا. لأنهم كانوا سيستهزئون بهم ويرهقونهم بالنفقات، ولا يستطيع الملك نفسه أن يفعل شيئًا لهم. لقد قام قضاة المحاكم العليا هؤلاء بدور شائن في القرن الثامن عشر، فكانوا واحدًا من الأسباب الرئيسة في الشطط، ومن ثم في أشكال العنف التي زعموا أنهم يزيلونها. فكان الملك هو الذي قام بالتعويض على أسرة كالا، وقام بذلك بسرعة. أما الملكة التي قلما كانت ميالة إلى تهنئة «الهراطقة»، فقد استقبلت السيدة كالا وابنتيها، استقبالًا كان بمنزلة إعادة الاعتبار حقًا، ولقد ظهر العرش أكثر ليبرالية من محاكمه.

إن ما قام به فولتير من أجل آل كالا، أي في سبيل العدالة والحرية وكرامة الإنسان، لكافٍ لأن يجعله خالدًا، ولا ريب في أن فكره يفتننا، لكن ذلك لم يكن إغراء ساحرًا فقط: كان سلاحًا، وهو السلاح الأسلم والأمضى من بين الأسلحة كافة، وكان ديدرو مفتونًا بعمل فولتير. «إيه يا صديقتي، يا له من استخدام رائع للعبقرية! ولا ريب في أن هذا الرجل يتحلى بالروح ورهافة الحس، فالظلم يجعله يتمرد وهو يشعر بجاذبية الفضيلة». وينتهي ديدرو الذي يطفح بالعواطف الحرة إلى النطق بتجديف، لكنه تجديف نابع من أعماق قلبه: «تأكدي من أنه، حين يأتي المسيح، فإن فولتير سيكون ناجيًا».

وعلم فولتير بغبطة، في شباط/ فبراير 1765، أن بودريج المشؤوم أقيل من منصبه، فقال: «آمل أنه سوف يدفع غاليًا ثمن دم كالا».

وعاد فولتير للظهور في نهاية المسرحية، وقبل إسدال الستارة، ليهنئ

الممثلين والجمهور، كتب يقول: «أنت إذًا في باريس، يا صديقي العزيز، حين انتهى الفصل الأخير من تراجيديا كالالا تلك النهاية السعيدة. لقد جرت المسرحية ضمن قواعدها، وهذا حسبما أرى هو أجمل فصل خامس في العالم كله».

يؤسفنا أن البلاط لم يسمح له بالحضور إلى باريس ليشهد ذلك الإسدال للستارة. المسرحية حركت أشجاننا فأغنتنا وملأتنا حماسة، ونحن شعرنا بأن اعتبارنا رُد إلينا مع رده إلى كالالا كلها في العالم.

وقائع الحياة في فيرني

أما في أثناء جريان القضية، فلم تتباطأ الحياة، ولم تكن أقل بريقًا ونشاطًا، فعلى المرء، «حين يكون شابًا أن يُحِب كالمجنون، وعليه حين يكون شيخًا أن يعمل كالشيطان» (ولو طبقنا على فولتير حكمته لكان شيخًا على الدوام وشيطانًا على الدوام).

وعمل على إعادة طلاء مسرحه، فاستقدم في سبيل ذلك عمالًا من ليون، كانوا قد أعادوا طلاء مسرح تلك المدينة. وفي فيرني، رسموا له منظورًا، رسمًا تمهيديًا، حتى ليظن المرء أن الممثلين يبعدون عنه فرسخًا، في حين أنهم قاب قوسين منه أو أدنى. وحين جرى عرض مسرحية أوليمبي (*Olympie*)، كان على خشبة المسرح مِحرقة، وهي علاوة على ذلك مشتعلة! فكان فولتير مفعمًا غبطة. ولقد قاطع قساوسة جنيف دعواته، لكنهم أرسلوا بناتهم. فكتب في 9 كانون الثاني/ يناير 1762 يقول: «شاهدتُ الجنيفيين والجنيفيات يبكون في أثناء الفصول الخمسة. وأنا لمّا أشهد مسرحية بجودة ذلك الأداء، وتلاها عشاء لمئتي شخص، ثم الحفل الراقص: لقد ثأرتُ على ذلك النحو».

ذلك ما يدعو المشاهدين إلى الأسف على عدم مجيئهم إلى المسرح، لكِن متنا مدعو! فيا لها من سوية حياة! إنه الملك فولتير حقًا. وعاد الممثل لوكان إلى الظهور في فيرني، وفولتير لم يره منذ عام 1755؛ ازداد سمنة، وقال عنه فولتير: «إن له هيئة كاهن قانوني سمين»، وبلغ بموهبته الأوج. وإن لوكان، الذي كان دميمًا جدًا، كان يبدو وسيمًا في نظر فولتير وهو يؤدي عملًا من أعماله، لكنه يعود إلى دمامته في أثناء الفاصل. وفي نهاية إقامته وجده سيد فيرني أقل جزالة، لأن

السيدة دوني لم تستطع أن تشاركه الدور، فعبقرية ابنة الأخت الواهنة أوشكت أن تعرّض عبقرية لوكان للخطر! وتلك سذاجة لا تُصدق. وجعل فولتير الآنسة كورناي تصعد إلى خشبة المسرح، وعلى الرغم من كل ما لديها من حسن نية، فإن ذلك لم يبدُ نجاحًا، ولقد قال: «صوتها ضعيف ورخيم ورقيق»، فهو غير كافٍ بالنسبة إلى ممثلة مسرحية، لكنه كافٍ لفتاة مُقبلة على الزواج.

زواج كورنيلي - شيفون

رأينا كيف أن خطوبة الآنسة كورناي لم تُكلل في المرة الأولى بالنجاح، وكان فولتير يريد لها السعادة، فأحاط مسألة زواجها بعناية كبرى. كان ينتظر شهرة من نوع ما بحيث ترضي غروره، كذلك كان ينتظر السعادة لربيبته لأنه يحبها. وهي، بعد مرور عام على وصولها، بلغت التاسعة عشرة، وتتقن الكتابة فغدت مؤهلة للزواج. وكان دارجنتال هو المكلف بالبحث عن العريس المقبل، فوجده في شخص رائد في السادسة والعشرين من عمره، اسمه هنري كامي دو كولمون، ويدعى أيضًا فوغرونان. وكان فولتير مستعدًا للقيام بتنازلات عديدة، بشرط أن يكون في الزواج رجلًا شريفًا، وأن يكون فيلسوفًا بعض الشيء، بل مضى إلى حد القبول ببقاء الصهر في فيرني إذا كانت فلسفته حسنة المظهر حقًا. وجرى انتظار الخطيب طويلًا إلى أن ظهر في كانون الأول/ ديسمبر 1762، واكتشف أرويه البارع بسرعة أن ذلك الرائد ليس سوى نصف فيلسوف، وأنه في نهاية المطاف إنما يطمح على وجه الخصوص إلى الوصول إلى بائنة كورنيلي - شيفون. ويود فولتير حقًا أن يزوج ربيبته، لكن لواحد مغاير لنصف فيلسوف، لأنه اكتشف من بعد استعلام أن «هذا النصف فيلسوف ليس نصف فقير، بل هو فقير تمامًا»، وعلاوة على ذلك فإن له أبًا لا يريد إعطاء شيء مطلقًا: «ليس أبوه نصف قاس، بل هو عارضة حديدية»، وقد يوافق على إعطاء ثلاثة آلاف ليرة إذا ما دفع فولتير أربعين ألفًا. وبدا ذلك شططًا، فيضمن فولتير دخلًا لربيبته مقداره ألف وأربعمئة ليرة وحقوقها في كتاب تفسير كورناي، ويمثل ذلك رأس مال مقداره أربعون ألفًا. وسعى أيضًا لتأمين بعثة دبلوماسية للرائد، لكن هذا لم يكن يرى ما يدعو إلى الاستعجال، فقد استقر به المقام في فيرني، وأخذ يؤدي دور الصهر المفرط في التدلل. فما كان من الأب، العارضة الحديدية، إلا

أن قطع النفقة التي كان يصرفها لابنه، فماذا بقي؟ طالب زواج مغرور، بلا معرفة ولا نزاهة ولا حب حيال رودوغون التي لم تكن من ناحيتها واقعة في هواه، ولم يكن إلا على شيء من الوسامة، وكان عبوسًا، أما خطيبته فكانت تجده مكفهر الوجه، وقليل التهذيب، وخاليًا من اللباقة. وينبغي القول إن عائلة كولمون لم تكن تحمل شيئًا من أوهام فولتير حول شرف تسمية الآنسة باسم كورناي. فآل كولمون يرون أن ابنهم النبيل والرائد، سيتزوج من بنت ساعي بريد، وقد جرى تبنيها شفقة، وتلك أشياء لها اعتبارها، فآل كولمون يقدمون ولدهم، ولا شيء سواه، وبكثير من الاستعلاء! وخلُص فولتير، وقد كتب إلى دارجنتال، إلى القول: «لست إلا شبه متضايق، وإذا كانت الزيجات مكتوبة في السماء، فإن زواج السيد دو كولمون من بنيتنا جرى شطبه»، وبقي من المهمة شطرها الأصعب، فينبغي إقناع الرائد بأن هذا الزواج الذي يثير نفوره كثيرًا، يثير نفور خطيبته أيضًا، وهو انغرس عميقًا في فيرني، فيجب بشيء من المشقة اقتلاعه من جذوره والإلقاء به خارجًا.

دخل واحد آخر؛ إذ كان لديهم خطيب آخر كقطعة بديلة، اسمه السيد ديبوي دو لا شو، وعمره ثلاث وعشرون سنة، وهو حامل العلم في كتيبته، دخله جيد يبلغ ثمانية آلاف ليرة، ولديه أراض بالقرب من فيرني. فقام فولتير بترتيب الأمور، وكتب إلى دارجنتال في كانون الثاني/ يناير 1763 يقول: «الأمر مثل لعبة على العشاء. سوف أحتفظ به وبها، وأصير رب العائلة إذا ما وافقتني». وفي هذه المرة التهب قلب رودوغون حبًا، فكان فولتير ينظر بإعجاب إلى ذلك الغرام الفتي: «إنهما عاشقان بشغف، وذلك ينعش قلبي، ومع ذلك فهنالك احتقان في عيني... كنت أود لو يعود كورناي، ذلك الرجل الطيب، إلى العالم ليرى ذلك الرجل الطيب فولتير يقود إلى الكنيسة الشخصية الوحيدة التي تحمل اسمه».

إن اللوحة غير مطابقة تمامًا للفكرة الكاريكاتورية التي نحملها في الأغلب عن فولتير: ها هو واحد مثل غروز، وإنه لصادق، وفولتير سعيد جدًا بتلك السعادة التي ما كانت بسعادة لولاه.

وفي سبيل أن يساهم والد رودوغون في الفرحة المشتركة، بعث إليه بخمس وعشرين لويسة ذهبية. ولم يكن الرجل المسكين حسن المظهر، ولا مثيرًا للاهتمام. وسبق لفولتير أن استقبله في فيرني عام 1762. وكتب إلى دارجنتال

وهو يقيم مقارنة بينه وبين كورناي الكبير الذي يقوم الشاعر بإعداد كتاب التفسيرات عنه: «لن يكون لهذا من تفسير أبدًا، وإلا فأنا أكبر مخطئ في العالم»، ولم تكن للآنسة كورناي أي مصلحة في الظهور علنًا مع والدها، أما هذا الأخير فكانت له مصلحة في الظهور إلى جانب ابنته، فقد رغب في حضور الزواج، ونوى أن يخصص لويسات فولتير الخمس والعشرين لنفقات السفر إلى فيرني. وأرسِلت على الفور رسالةٌ إلى آل دارجنتال: فليمنعوا الأب من مغادرة باريس، وقد كتب فولتير: «إنها لحالة فريدة أن يكون الأب مصدر تعكير لحفل زفاف ابنته، لكن ذلك هو الواقع!... وليكن الله في حمايتنا. فنحن نرتمي على أجنحة ملائكتنا لكي يمنعوه من حضور الزفاف»، وكان فولتير يخشى الأثر السيئ الذي سيحدثه الأب في نفوس عائلة دوبوي، ويخشى، فضلًا عن ذلك، الدعابات الهازئة من جانب المدعوين، والفرنسيين منهم على وجه الخصوص. فأضاف: «لو لم أستشر سوى نفسي، لما أظهرت أي نفور، لكن ليس الجميع فلاسفة مثل خادمكم، وإذا ما تكلمنا بالصفة الأبوية، فسوف أستمتع كثيرًا بأن أجعل الأب والأم شاهدين على سعادة الفتاة».

وإن في ذلك كله ومضات إنسانية وحكيمة في آن معًا، فهو سيكون في غاية السخاء لو استقبل الأب، لكن أي قساوة ستعانيها الفتاة حيال مشهد سخريات المدعوين من والدها أو ازدرائهم له. وحرصًا منا على وضع اللمسة العاطفية الأخيرة على لوحة ذلك الزفاف، فلنقم بإضاءتها بالفرح الذي أظهره أبناء أخت فولتير وبناتها الذين كانوا على الرغم من كل شيء يشعرون بالغبن الذي لحق بمصالحهم بوصفهم الورثة الشرعيين. والحق أن زواج الآنسة كورناي كان نجاحًا للعواطف الصادقة.

دهش فولتير لذلك دهشة كبيرة، «إن عائلتي مفتونة بما جرى بدلًا من أن تغمغم، وإن ذلك لأقرب إلى الرواية»، وليس من قول يفضل ذلك. فأبناء موثق العقود يشعرون بالمفاجأة دومًا لرؤية الورثة يتفقون.

ترتبت على ذلك الزواج تبعات أخرى، فها هو رف من صغار آل كورناي، آتٍ من زوايا فرنسا الأربع، يحط بغتة فوق فيرني: فكلهم من آل كورناي وكلهم بائسون! وكانت الواقعة مصدر ضيق كبير لفولتير الذي ما انفك يؤكد أن ربيبته هي

الوحيدة والأخيرة في حمل اسم كورناي. وكان أولهم جنديًا هاربًا من الخدمة، وسليلًا مباشرًا لكورناي الكبير. وقال فولتير: «إنهم يهددوننا بحوالى دزينة من الكورنيين الصغار وهم أبناء عم بيرتاري الذين سيأتون، ليطلب الواحد تلو الآخر، نصيبه من الزقـة»، وإن ذلك ليتجاوز كل حد. إن كورنيًا واحدًا لشيء رائع، لكن رفًا من الكورنيين، سيغدو رفًا من الغربان. أفهمهم فولتير أن القدَر ذو أهواء، فيمكن حفيدة أخ أن تحقق ثروة وهي نائمة من غير أن يعفي ذلك الكورنيين الصغار الأخرى من مواصلة التسول، وبما إنهم فلاسفة رغمًا عنهم، سيطير الكورنيون الصغار نحو مصيرهم الكئيب.

فولتير يخوض مناقشات ضد المرذولة

ازدادت مشاعر فولتير المعادية للمسيحية حدة، في بحر السنين التي أمضاها في فيرني، فلِمَ ازدادت الاستثارة مع التقدم في السن، بدلًا من أن تهدأ؟ لا ريب في أنها تعود لأسباب شخصية بحتة، ولأسباب أخرى تعود للمجتمع في تلك الفترة. وكان يعرف شخصيًا أن إبعاده إذا ما تواصل، فالكهنة هم السبب في ذلك أكثر من الوزراء، الذين يعبرون، وحماستهم عبثية في الأغلب، وذاكرتهم ضعيفة بالنسبة إلى المسائل التي لا تتعلق بمصالحهم تعلقًا مباشرًا. وخلافًا لذلك، فإن ذاكرة رجال الكهنوت أقوى، وعلينا أن نضيف أن اضطهاد الزندقة أضحى أشد بعد عام 1750، وغدا عدم التسامح شديد النزق، وصار الدين، وهو يخسر مواقعه، مدققًا بل وعدوانيًا. أما محاكم القرن الثامن عشر، فأشد قسوة على الزندقة من محاكم القرن السابع عشر. وصار الاضطهاد استفزازيًا، أما صنوف التعذيب التي أُنزلت بكالا فهي نوع من التحدي لروح العصر. وقامت الفلسفة بردة معاكسة، فأضحت هجماتها أشد قسوة: فالتعابير مثل «التعصب» و«التطير» تعني المسيحية بكل وضوح، وأصبحت المرذولة تعبيرًا شائعًا في الأوساط الفلسفية، فكيف قاوم فولتير هذا التيار الفكري الذي كثيرًا ما ساهم في رعايته؟ بعث إليه فريدريك في عام 1759 برسالة قليلة اللطافة يأخذ فيها على فولتير فتوره: «ما زلت تلاطف المرذولة بيد وتخدشها باليد الأخرى. فأنت تعاملها مثلما تتعامل معي ومع العالم كله»؛ ذلك أن فريدريك، لم يكن من جانبه يخدش الدين، بل كان يتمنى أن يسحقه. وكان فولتير، بحسب تقديره يمعن في تخديشه، لكنه لا يقوم بطعنهِ طعنةً

قاتلة أبدًا، ولم يكن ذلك الرأي خاطئًا. وفولتير واحد من أبناء الكنيسة، وهو وقح ومتمرد. وهذا الولد المهووس عضّ أمه، لكنه لم يقتلها. والسبب من دون ريب أن ذلك لم يكن ضمن استطاعته، والأرجح أنه لم يكن ضمن نياته، فهو يتعامل مع الكنيسة مثلما يتعامل مع الطب: فينعت الأطباء بأنهم جهلاء، لكنه يتناول أو يأخذ كثيرًا من العقاقير ويلتزم بعلاجاتهم الأكثر سخفًا. ويكتب فلنسحق المرذولة (Ecrasons l'Infâme)، ويوقع رسائله في تلك الفترة باسم السيد إكرلنف (Ecrelinf): الاسم مركب من الكلمتين (Ecrasez l'infâme): فلنسحق المرذولة. أما وأن الرقباء على التراسل الذين يعترضون الرسائل، لم يعرفوا من هو إكرلنف، فقد لاحظوا أنه يُجيد الكتابة، ما يبرهن على أنهم يجيدون القراءة، لكن ذلك لم يمنع فولتير نفسه من القول «ليس المراد منع خدمنا من الذهاب إلى القداس أو سماع المواعظ، بل المقصود انتزاع أرباب الأسَر من طغيان الدجالين والحث على روح التسامح»، فالدين ضروري للشعب. وقد كتب إلى دارجنتال في عام 1765 قائلًا: «إن الدين، وفقًا لما أرى، هو أعظم خدمة يمكن تقديمها للجنس البشري، وذلك بفصل عامة الشعب عن الناس الأشراف فصلًا أبديًا، فلا يسعنا أن نتحمل صفاقة الذين يقولون لنا: أريد أن تفكروا مثلما يفكر خياطكم أو غسالة ملابسكم». فأفكار فولتير بعيدة جدًا عن نزعة المساواة لدى الطيب جان جاك روسو. وحين يشكر السيد دو لا شالوتيه على كتابه بحث في التربية الوطنية، يقول له: «أشكرك على تحريم الدراسة على الفلاحين. فأنا الذي أزرع الأرض، أتقدم إليك بالتماس للحصول على عمال يدويين لا على رهبان حُلِقت طرة رؤوسهم، فابعث إلي على وجه الخصوص بالرهبان الشعبيين لقيادة محاريثي وإسراج خيولي».

تبقى الفكرة هنا غير موضع شك، حتى لو تركنا حيزًا للفكاهة؛ فعلى الشعب أن يظل خارج نطاق التعليم. وكان صديقه داميلافيل يجد تلك الفكرة ذات مضمون فلسفي ضئيل، فهو يرى أن الفلسفة الحقيقية تحبذ التعليم الشعبي، فيرد فولتير على ذلك بقوله: «أشك في أن تجد هذه الطبقة من المواطنين الوقت للتعلم، وهم سيموتون جوعًا قبل أن يصيروا فلاسفة»، فينبغي إذًا، وفقًا للمنطق السليم، البدء بمنع الناس من الموت جوعًا قبل القيام بتعليمهم.

لا يريد فولتير حرمان الشعب من التعليم بدافع نزعة غير إنسانية، بل بدافع من الحس السليم، فهو مقتنع بأن في وسع صاحب الأوهام فقط أن يتخيل إمكان تعليم

الدهماء وهم في حالة من البؤس. فنحن في القرن الثامن عشر، ومستوى الحياة ما زال متدنيًا جدًا. فالمجاعة قائمة، حتى في فرنسا، وعلى ذلك كان همّ فولتير الأول في فيرني أن يؤمن لرجاله الخبز والعمل والمساكن الصحية والمياه الصالحة للشرب، لا المدرسة. فالمفردات التي يستخدمها تصيبنا بصدمة، فهو يقول «السوقة»، وليس ذلك بلائق، لكنه أشد عنفًا حين يتكلم على البلاط والمحاكم العليا، ناهيك بأنه لا يقصد ازدراء الشعب حين يرفض تعليمه، إنه يرفضه لأن التعليم طوباوي. فمجتمع زمانه كان، ماديًا، مفرطًا في الفقر ليقدم تعليمًا لائقًا، والتعليم الشعبي كان المظهر الباذخ لدى الأقوام الغنية في القرنين التاسع عشر والعشرين. لقد كان في وسعهم في القرن الثامن عشر أن يحلموا به، لكن ما كان في وسع أحد أن يحققه. والحال أن فولتير ما كان يحلم، ويعتقد، خطأً أو صوابًا، أن الحلم وقت ضائع، بل يعتقد أن الطوباوية تُفسِد التقدم. وكان يعرف أن البشرية تتقدم تقدمًا حذِرًا وبطيئًا، وبمخاتلات، فكانت جسارة جان جاك تفزعه، وتبدو له قابلة لأن تهدم الإنجازات الموثوقة التي حققها حكيم فيرني. إن فولتير، وهو ابن تاجر وموثق عقود، ومن سلالة فلاحين في منطقة بواتو، يؤمن بالتقدم، لكن إيمانه حذر ويحترمُ بطءَ التقدم.

ليس لنا أن نعتقد أن ذلك الإيمان الوجل يختلط بتلك الفكرة الظلامية لنبيل ريفي، فواحد مثل السيد لينغيه، وفي معرض اعتقاده بأنه يشاركه الرأي بقوله إن التعليم الشعبي يعني موت المجتمع، استحق جوابًا يبين لنا مرة أخرى كم كان فكر فولتير متحركًا ومتلونًا ومتأرجحًا، فقد رد على بطل الجهل الشعبي، متخذًا من مجتمع جنيف مثالًا؛ إذ يجيد الشعب القراءة، فكان المجتمع في وضع أفضل منه في فرنسا: «كلا، يا سيدي، فليس كل شيء بضائع حين نضع الشعب في حالة يلاحظ فيها أنه ذو فكر، لكن، وخلافًا لذلك، فكل شيء يضيع حين نعامله معاملة قطيع من الثيران. لأنهم سوف ينطحونك بقرونهم، آجلًا أم عاجلًا...»، وذلك واضح وله طابع النبوءة.

ولئن لم يكن صديقه داميلافيل ذا فكر عظيم، فهو ذو فكر قوي. وكانت له اثنتان من المزايا الكبرى: قناعات فلسفية لا تتزعزع، وإعجاب عظيم بفولتير، بل كانت له صفة ثالثة، فهو يدير منذ عام 1760 مكتب ضرائب الدائرة العشرين، وهو يرأس إلى حدٍ ما جباية تلك الضريبة المهمة. ويتصرف ضمن هذه

الصفقة، بختم الوزير لتحرير مراسلاته، من رسائل ورزم. وإذا كان فولتير خدومًا عن طيب خاطر حيال أصدقائه، فهو يطالبهم، في المقابل، بكثير من الخدمات، فترى أي نوع من الاهتمام يمكنه أن يولي ذلك الصديق الذي يستطيع أن يجعله يقوم بتسيير رسائل وكتب وأهاجٍ، وهي بمأمن من كل رقابة. ولقد استخدم، بل أفرط في استخدام ذلك الامتيازَ الذي لا يُقدر بثمن بالنسبة إلى كاتب، فكانت مراسلاته من حيث المبدأ مشبوهة. وقد استخدم ديدرو تلك التغطية أيضًا ومعه موسوعيون آخرون، لكن ما عسانا نقول عن موظف كبير تابع للتاج، يضع نفسه في خدمة أعداء الملكية؟

يمكن ملاحظة فريدريك حول ملاطفة المرذولة وخرمشتها أن تكون قد لاقت صدى في نفس فولتير، فبدأ يبحث عن مسوغ لاستئناف العداوات. وتذكر أن تييريو زوده بمخطوط لكاهن في الريف اسمه جان ميلييه، توفي في عام 1733. كان ذلك الشقي قد فقد الإيمان، وواصل ممارسة حياته الكهنوتية ضمن تلك الأوضاع التعيسة، خوفًا من البؤس ومن القمع على يد رؤسائه، فكتب قبل موته اعترافًا يعبر فيه عن حقده على البشر، وعلى المجتمع وعلى الدين. وما أثار اهتمام فولتير على وجه الخصوص، حجج ميلييه ضد الإيمان والكتاب المقدس، وقد استخدم ذلك المخطوط الرهيب في عام 1762 في نشرة بعنوان: مقتطفات من مشاعر جان ميلييه. ويسعنا أن نخمن ما ستكون عليه مشاعر ذلك الكاهن الطالح إذا ما أضيفت إليها أفاويه مطبخ فولتير، ولقد كان شديد الزهو باكتشافه وبطريقة استخدامه، وكتب إلى دالامبير ليهنئ نفسه قبل أن تصله تهاني الآخرين. «إن جميع الذين يقرأونه يغدون مقتنعين. فهذا الرجل يبرهن ويناقش، وهو يتكلم في ساعة موته. أي الساعة التي يقول فيها جميع الكاذبين الحقيقة: فتلك هي أقوى الحجج... وينبغي لجان ميلييه أن يهدي الأرض...»، لكن حجته ضعيفة. فلو كان المائتون لا يقولون سوى الحقيقة، منذ أن كان هنالك ناس يتكلمون ويموتون، لكنا اهتدينا منذ زمان طويل، فالمائتون لا يقولون سوى «حقيقتهم» أو ما يظنون أنه حقيقتهم. حجته هي حجة امرأة صالحة في وسع الكنيسة أن تجعلها تنقلب بكل يسر ضد الكفر، ولن تتوانى عن القيام بذلك وهي تستثير الميتات المثقفة، وتسليم الروح وسط الغبطة. فرؤى الساعة الأخيرة تلك، لا تنير إلا المستنيرين ولا تخيب سوى الخائبين. لكن فولتير متحمس فيضيف: «ألا كم أنتم فاترون

في باريس! فأنتم تضيئون المصباح وتضعونه تحت صندوق»[37]، وقدر من فوره أن الموسوعيين لا اعتبارًا كبيرًا اعتبار لصاحبه جان ميلييه، فرغب في أن يدخل الفلاسفة الحلبة، وأن تثير نشرته الهجائية حماسة مسعورة، ليُصار إلى تطويب جان ميلييه قديسًا من قديسي الزندقة، وأن يجلس عن يمين الرب فولتير. وذلك ما قام دالامبير بالرد عليه ردًا تميز بالحكمة والنزاهة: «أنت تلومنا على الفتور وأظنني قلت لك، فالخوف من أحمال الحطب منعش جدًا». وعلاوة على ذلك، فهو يذكر سيد فيرني الذي ينعم بالأمن داخل حدوده المزدوجة، بأن الاتزان خير من حالات الإفراط الحماسية، وأنه من غير المستحسن قيام المرء بالكشف عن الحقيقة دفعة واحدة، ولا عن النور أيضًا، لعيون تعودت الظلمة. وواقع الحال أنه يهزم فولتير بأسلحته الخاصة: «ليس الجنس البشري اليوم أكثر استنارة إلا بسبب الحرص على عدم إنارته إلا شيئًا فشيئًا، ولو أن الشمس ظهرت ظهورًا مباغتًا في أحد الكهوف، فلن يلحظ السكان سوى الألم الذي سوف تسببه لعيونهم».

لكن الحكم الجميلة تظل قليلة القيمة؛ إذ ليس لدى فولتير من رغبة في التزام جانب الحذر. أما وأن النشرة الهجائية كُتِبت، فلا بد من أن تظهر، ومن أن يقرأوها، فتُحدِث فضيحة؛ لقد أرغم رجلُ الأدب الفيلسوف على التزام الصمت. كان على استعداد لتحدّي المحرقة، في سبيل أن يرى جان ميلييه يؤجج العواطف. وماذا عن حكمة دالامبير؟ نحن نعرفها: «فهو جريء، لكنه ليس مخاطرًا البتة. لقد وُلِد ليجعل المرائين يرتعدون، لا ليعطيهم تأثيرًا فيه»، أما فولتير، فهو بخلاف ذلك، يعطي للآخر أن يؤثر فيه، فيقوم بالأحرى باستثارته، لكنه يقف من بعد ليعلن أن الظلم والنميمة يتكالبان عليه ظلمًا وعدوانًا. لقد ظهر مقتطف من مشاعر جان ميلييه في مطلع عام 1762، وتلقى داميفيل نسخته في 4 شباط/ فبراير، فحكمت المحكمة العليا في باريس على العمل بالحرق، ودانه بلاط روما في 8 شباط/ فبراير 1765.

بعد بضعة شهور، بدأ تداول نشرة هجائية جديدة: **موعظة الخمسين**، وتلقى داميلافيل نسخة منها أيضًا في تموز/ يوليو، وقرأها فولتير فوجدها مدهشة. وكان

(37) إشارة إلى ما ورد على لسان السيد المسيح: «هل يؤتى بالسراج ليوضع تحت المكيال أو تحت السرير؟...» (مرقص: 4/ 21). (المترجم)

كاتبها مجهولًا، ما سمح لناسك فيرني أن يمتدحها بكل حرية، فكتب إلى داميفيل يقول: «إن موعظة الخمسين تُنسَب إلى لامتري وإلى دو مارسيه، وإلى أمير كبير متبحر في العلوم. وهي ذات نفع كبير (ويشير من بين الكتاب المحتملين إلى فريدريك). وهنالك خمس وعشرون نسخة من هاتين النشرتين الصغيرتين في الزاوية التي أقيم فيها من العالم. ولقد أحدثتا ضجة كبرى. (بفضل من؟) وفي فرساي أربع شخصيات أو خمس لديهم تلك النسخ المقدسة. (كيف له أن يعرف ذلك؟) ولقد استوليت على اثنتين من ناحيتي، وأنا مغتبط لذلك الاغتباط كله»، وكأن هنالك من يشك في ذلك.

إن تلك الأهجية هجوم مهووس بروح يهودية - مسيحية، وحين ظهر بعد فترة قصيرة كتاب *Le Vicaire Savoyard* (**نائب أسقفي من سافوا**)، من تأليف جان جاك، أصيب الدين بطعنة جديدة أثقل من سهم فولتير المفولذ، وأشد منه خطورة أيضًا. وقيل إن فولتير بدا غيورًا من ذلك الدعم، لكن لا يبدو ذلك؛ إذ كتب بخصوص جان جاك إلى المركيز دارجان، قائلًا: «لقد أدخل في المجلد الثالث من **إميل**[38] كاهنًا من سافوا، وكان بلا شك النائب الأسقفي للأب جان ميلييه. فيقوم ذلك النائب بخروج على الدين المسيحي بكثير من الفصاحة والحكمة، فأين هي الغيرة في هذه الأقوال؟». وكتب في عام 1764، أي في أوج الحرب مع جان جاك: «لقد كان في وسع نائبه الأسقفي أن يفعل الخير... لكن ذلك الشقي أمره مستحيل حقًا»، وإن ذلك لمما يؤسف له. «آه! كم كنا سنحب ذلك المجنون لو لم يكن أخًا مغلوطًا وكان أحمق بتوجيه الشتائم للناس الوحيدين القابلين لأن يغفروا له».

لو بومبينيان، وقد وضع التاج الأسقفي، يتعرض لنقد عنيف كالآخر

لن يطول الأمر بالأخ المغلوط قبل أن يدور الكلام عليه بشأن عدو حقيقي ليس مجهولًا عندنا، والمقصود بذلك جان جورج، أسقف بوي وشقيق لوفران دو بومبينيان. لقد قام هذا النائب الأسقفي، بدافع من التهور أو الجرأة أو الشجاعة أو التعطش للاستشهاد أو التعطش لمرتبة أعلى، فنشر في عام 1763 رسالة تعليمية رعوية مكثفة ومتحذلقة، موجهة إلى أبناء رعيته في بوي

(38) إميل (*Émile*)، كتاب جان جاك روسو التربوي الشهير. (المترجم)

وفي الجبال المجاورة. وكانت علمية جدًا وعامرة بالورع، لكن ما فيها لم يكن يعني الناس الطيبين بشيء. وقد هاجم أسقف دوبوي فيها كلًا من لوك ونيوتن اللذين ما كان من أحد في أبرشيته يعبأ بهما. كانت تلك القطعة البطولية موجهة إلى باريس، لأجل السلطات الكهنوتية التي قد تطرب لها، وموجهة إلى الفلاسفة الذين سيؤججون فيها بكل تأكيد حقدهم على المرذولة. وأحس فولتير بأنه استُهدِف، وسمح الأسقف دو بومبينيان لنفسه بأن يشبِّهه بروسو، وأن يرى في جان جاك خصمًا أكثر جدارة من فولتير، وفيلسوفًا يفوقه عمقًا. أما وأن ذلك جرى في أثناء النزاع مع روسو، فإنه يدفعنا إلى التساؤل إن كان لو بومبينيان دو بوي قد اختار هذا الوقت عمدًا لإجراء تلك المقارنة غير المشروعة بين العدوين الاثنين. وكانت اللعبة ناجحة، فوقع الفيلسوفان كلاهما في الفخ، وكل واحد على طريقته، فشكر روسو بطيش، الأسقف على إطرائه، وملك الجرأة على القول: «إن السيد أسقف دوبوي، هو ضمن جميع الذين يعارضونني، الأكثر اعتدالًا والجدير بأكبر قدر من الاحترام. فذاك رجل يتكلم بصدق... والحقيقة أني ازددت علمًا بفعل محبته وصدق إيمانه». وكانت جعجعة كبيرة وطحن ضئيل! والأسقف كتب عن فولتير فقط: «ليس لنا أن نتوقع من عبقريته الشعرية التسلسل في الأفكار نفسه ومدى العمق اللذين يجيد جان جاك روسو وضعهما في مؤلفاته».

حرصًا من فولتير على إثبات أنه قادر على جعل أفكاره متسلسلة، استل من كنانته رسالة رمى بها الأسقف، وهي بعنوان رسالة من كويكر (مرتعد) إلى ج. ج. دو بومبينيان أسقف بوي، وقد ظهرت في عام 1764. والكويكر هذا مسيحي لطيف وساذج ونقي السريرة ومتمسك بالإنجيل، لكنه يعرف كثيرًا من الأشياء، ويكتب على طريقة فولتير، فيوجه توبيخات للأسقف الذي يحاول أن يُظهِر فصاحته أمام أبناء أبرشيته الفقراء فيرتكب الحماقات على وجه الخصوص، ويقوم بكتابتها. ويقول الكويكر: «حين تُرتكب الحماقات، يُصار إلى إدخالها بالافتراء، وتضيع المحبة مثلما يَضيع العقل: يمضي المرء بروحه إلى الهلاك بوضع نفسه موضع الاستهزاء». والفكرة عجيبة؛ إذ يضع فولتير على الصعيد نفسه، فكرة الاستهزاء من طريق النقد وفكرة هلاك النفس، وكأن شيئًا ما يستجر شيئًا آخر. والنقد ما كان قط مبجلًا على تلك الدرجة من السمو، ويضيف الكويكر قائلًا: «إيه! يا أخي، ألا ليتني أستطيع مساعدتك على التوبة، وجعلك متزنًا ومتواضعًا على نحو ما ينبغي

أن تكون، وعلى إنقاذك من الاستهزاء بك في هذا العالم ومن هلاك نفسك في العالم الآخر».

إنه يُحسن التحكم بفكرته: مؤلف يُقابَل بالصفير، ونفس هالكة، وباختصار، فإن الأغبياء هم الذين يذهبون إلى الجحيم... لو كان فولتير هو الذي سيتدبر أمرهم يوم الدينونة.

ويشير الكويكر إلى سخافة التحدث عن لوك وعن نيوتن إلى رعاة الغنم في فيلاي: «إن ذلك ليُدهشنا، ولا سيما أن هذين الرجلين الإنكليزيين مجهولان لدى سكان فيلاي على قدر جهل سيدنا المطران بهما، ونصرح أخيرًا بأن ما ينبغي لأسقف أن يتحدث به بعد الخطيئة الأصلية هو أن يتجنب الانزلاق نحو السخف». ويختتم الكويكر رسالته بقوله: «إنها لمخاطرة كبيرة أن يكتب المرء ضد عصره كله». ونشعر هنا بأن فولتير وأمثاله كانوا على قناعة راسخة بأنهم يجسدون عصرهم، وأن كل من يتصدى لهم إنما يسير بعكس منحى الزمان. وينسب أخيرًا، وبشكل مجاني، هذه الحجة الجميلة إلى ذلك التعيس، فيجعله يقول: «يا إخوتي، إن جميع رجال الفكر والعلماء يفكرون على نحو مغاير لتفكيري أنا، وهم جميعًا يسخرون مني، فآمِنوا إذًا بكل ما سأقول لكم».

ربما قدرت الكنيسة والسلطة أن الأسقف المسكين عانى بما فيه الكفاية بسبب قلم فولتير، فصار يستحق مكافأة، فجرى نقله إلى الكرسي الأسقفي في فيينا على نهر الرون، فانتقل من الجبال إلى السهل، بعد أن جعله فولتير مشهورًا تقريبًا.

أوشك فولتير أن يدفع الثمن غاليًا، فرسالة الكويكر جعلته يتعرض لخطر فادح جدًا، وتنبه للخطر من ناحيته حتى أنه انخرط، في سبيل تفاديه، بتلك الألاعيب التي يجيد القيام بها أيما إجادة. فالأخوان بومبينيان اللذان هوجما من قبله، لم يكونا وحيدين في هذا العالم. كان لهم أخوة من ضباط الملك، فأعلن أحدهم، وقد اغتاظ من أن أوراق فولتير جعلت اسم عائلته موضوعًا للسخرية، أنه في إجازته المقبلة سوف يمر عمدًا بالقرب من جنيف ليقوم بقطع أذني البطريرك، وارتعدت أذنا البطريرك لذلك النبأ الرهيب. وتذكر فولتير القضايا التي تعرض بسببها جسمه الهزيل للتعنيف والضرب بعصي هؤلاء وأولئك، ولقد ظل بسببها مفرط الحساسية تجاه العقوبات الجسدية، فتوجه فولتير من فوره بالنداء إلى

شوازول، عبر البطاقة التالية الجديرة بالقراءة: «لست أدري، يا سيدي، ما فعلتُ حيال الأخوة بومبينيان، فقام واحد منهم بخدش أذني، ويريد الآخر أن يقطعهما، فأطلب حمايتك يا سيدي من هذا المجرم. أما الذي خدشهما فأنا أتولى أمره، لأني في حاجة إلى أذنَي كي أسمع بهما دوي صيتك».

بينما هو في غمرة القلق الذي انتابه بسبب ذلك التهديد، استقبل ذات يوم في الديليس صديقه الناشر كرامر، الآتي من جنيف. وكان بطلنا قد انتهى لتوه من كتابة مقالة حول الجرأة للإشادة بتلك الفضيلة السامية وتمجيدها، وكان مزمعًا على أن يقرأها لناشره. وفي مجرى الحديث، قال له هذا الأخير، إنه لوحظ وصول ضابط فرنسي إلى المدينة، يتجول في الشوارع فيُسمِعُ طرطقةَ مهمازيه، ويقوم بتفتيل شاربيه. ولم يدرك كرامر شيئًا وهو يرى فولتير وقد انهار فوق كنبته. وكانت يداه ترتجفان، وركبتاه تصطكان على نحو مقلق. وهرعت السيدة دوني ومعها الخدم، فصرخ الشاعر مذعورًا: «أغلقوا الأبواب على جناح السرعة»، ثم التفت صوب كرامر الذي أخذته الدهشة: «كرامر، يا صديقي العزيز كرامر، عد إلى جنيف على جناح السرعة، وانشر فيها شائعة موتي موتًا مباغتًا».

ومضى الناشر ليؤدي المهمة التي كُلف بها، وعلمت المدينة بنبأ نهاية الشاعر، وفي تلك الأثناء، كانت السيدة دوني تقوم باستخبارت سرية عن الضابط: كان اسمه السيد دو ليبين، وقد سافر إلى أفينيون، فليس له من علاقة مع قاطع الآذان.

وعادت أبواب الديليس لتفتح على الفور، أما آلاف الزوار الذين جاءوا ليبكوا الميت، فإنهم استطاعوا بخلاف ذلك، أن يهنئوه على عودته إلى الحياة.

كتب في سبيل أن يشكر السماء على تلك المعجزة، مقالة شاؤول التي هي هجوم عنيف على العهد القديم. ولقد خلف ذلك الهجوم أعمق انطباع في نفوس المعاصرين، فلم تكن المسألة مسألة سهام ما بين الفكاهة والحدة، بل هو عنف خالص. وكان غوته حين قرأها لا يزال يافعًا، فاهتز لها إيمان شبابه، وقد كتب يقول: «أذكر ذلك بكل وضوح، فلو استطعت الإمساك بفولتير، وأنا في تلك المرحلة من تعصبي الطفولي، لخنقته بسبب شاول». ونحن نرى تأثير تلك المقالات الهجائية التي كانت تتطاير عبر أوروبا.

اعتقد فولتير أن من الحكمة التنصل من شاؤول، مثلما فعل بالنسبة إلى هجائيات الأخرى، فكتب إلى ابن شقيقه دورنوا: «لا أدري ما حقيقة تلك الهزلية المسماة شاؤول وداود... المأخوذة بدناءة من الكتاب المقدس، والتي كتبها بعض السفلة الإنكليز الذين لا يقيمون اعتبارًا للعهد القديم أكثر مما يفعلون حيال أساطيلنا».

وإن هذا ليدخل في نطاق الحرب العادلة: إن الذين يرمون بقذائفهم الملتهبة على مراكبنا وعلى العهد القديم، هم إنكليز. ثم ترتفع نغمة أخرى: إنه لا يخفي عن داميلافيل رضاه عن الأثر الذي أحدثته مقالة شاؤول. فالتعليقات على التوراة سيئة، والملك داود ذو صورة رديئة، فهو نيرون فلسطين. وكتب في 29 آب/ أغسطس 1763 يقول: «وما من أحد وجده شريرًا، فذلك شعب بغيض (أي العبرانيون)»، وفي تلك الفترة أيضًا كتب إلى الشخص نفسه قائلًا: «كلما تقدمت بي السن، صرت بلا رحمة حيال المرذولة»، ويبدو ذلك الاعتراف بلا طائل بعد الأهاجي الثلاث الأخيرة، والتي تفوق الثالثة سابقتيها الاثنتين عنفًا.

مخالطة جديدة مع يسوعي

تلون العنف بعد ذلك على الفور، فخفت حدته، وجرى طرد اليسوعيين من فرنسا عام 1762، وكان في وسع فولتير والفلاسفة إن يروا في ذلك الإجراء انتصارًا من جانبهم، فأطلقوا صيحات النصر، وصفق فولتير، لكنه لم يتهلل فرحًا، ثم استدرك، فكف عن التصفيق. فهنالك، كما نعرف، صلات عاطفية بين الجماعة وبينه، وألفة روحية وتجانس في الأذواق. فالهجمات المباغتة، وحتى القطيعة مع جريدة تريفو (*Trévoux*) لم تقوَ قط على محو ما لا يمكن إزالته. وكتب في 2 آذار/ مارس 1763 إلى المركيز دارجان، حول موضوع طرد اليسوعيين: «لست أدري إن كان ذلك خيرًا عظيمًا، فالذين سيأخذون مكانهم سيظنون أنفسهم ملزمين بتكلف المزيد من التشدد والتظاهر بالعلم، ولم يكن أحد أكثر نكدًا ووحشية من البروتستانت. لأنهم أرادوا محاربة التساهل في الأخلاق».

كان يعرف أنه مع أساتذته الصالحين (اليسوعيين)، في مأمن من التشدد والتظاهر بالعلم: إن المتنصرين حديثًا يخيفونه بفضيلتهم المستحدثة والقاطعة، ويتذكر ذلك الهم في الأغلب، فيعبر عنه بحوار بسيط: الثعالب والذئاب. فهو يندم

على الثعالب ويخشى ضيق أفق الذئاب ووحشيتهم، ويفكر في أخيه الجانسيني. وعلى العموم، فإن الشعور الذي ينتابه حيال طرد اليسوعيين شديد التعقيد، وإذا ما خرجنا منه باستنتاج، فلن نجد في النهاية سوى ما جاء في حكمة قديمة: إننا نعرف ما فقدنا، ولا نعرف ما وجدنا.

مع من يتلاقى على هذا الشعور؟ إنه يتلاقى مع جان جاك! فمن يصدق ذلك؟ لقد كان جان جاك يقول أيضًا: إنه لا ينقص الجانسينيين سوى أن يستلموا السيادة ليكونوا أكثر قسوة من أعدائهم وأشد منهم تعصبًا.

أما وأنه ما من شيء يظل نظريًا لدى فولتير، فإن شعوره حيال اليسوعيين المطرودين، سيجد نفسه من فوره على محك الواقع. فقد وصل إلى فيرني ثلاثة كهنة هاربين، فيهم واحد إسباني، فسألهم ضاحكًا إن كانوا آتين إليه بصفة خدم، فقبل الكاهن الإسباني العرض وكان لا يعرف المزاح. أما وقد جاءوا يطرقون ذلك الباب، فلا بد أنهم كانوا ساذجين جدًا، أو فقراء أو الاثنين في آن معًا، فأعاد فولتير توجيههم وأعطاهم معونة.

وإذا ما صدقنا رسالته إلى داميلافيل، في شباط/ فبراير 1763، فقد أدى مع زواره الثلاثة مشهدًا مرتجلًا، لكن لا يبدو أن علينا أن نصدق بلا روية ما سرده ليدهش عقلًا راسخًا. لقد جعلهم يمرقون من الدين في صالون فيرني: «هل تتخلون عن الامتيازات كافة، وجميع البراءات البابوية، والآراء السخيفة أو الخطرة التي تحرمها قوانين الدولة؟ هل تقسمون على ألا تطيعوا أبدًا رئيسكم المباشر أو البابا في أمر يخالف مصالح الملك أو أوامره؟ هل تقسمون من دون ضغط معنوي؟» يقول فولتير إنه طرح عليهم هذه الأسئلة، التي أجابوا عليها كلها بالإيجاب، فمنحهم براءة للوقت الراهن، أما بالنسبة إلى أخطائهم الماضية فحكم عليهم بالرجم على ضريح أرنو العظيم وبحجارة بور روايال.

أضحكه ذلك، لكن ضحكته ذات صرير، وما هي إلا تلك الانقلابات المفاجئة في الرأي المعروفة بكثرة لديه، وهذه هي التالية.

استقبل في الواقع، في عام 1764، كاهنًا يسوعيًا، كان أستاذًا في ديجون، عرفه من قبل في كولمار، اسمه الأب آدم، ولجأ إلى عرين الأسد، وهو لا يملك

شروى نقير، فتكيف مع الوضع، واختار أن يكون مغمورًا، فهل هو بلا قيمة تُذكَر على نحو ما يبدو عليه، أم أنه بلا قيمة تُذكر على نحو ما تقتضيه المصلحة؟ لسنا ندري. وكتب فولتير في 12 شباط/ فبراير 1764: «هذا هو آدم، أول بني البشر وآخرهم، ولقد نسيت أن أقول لك: إن لدينا يسوعيًا يقرأ لنا القداس، وهو أشبه بعبراني قمت باستقباله من بعد التهجير إلى بابل، إنه غير مزعج على الإطلاق، فهو يلعب الشطرنج، ويقرأ القداس على أحسن وجه، وهو في النهاية يسوعي، وفي وسعه أن يتلاءم مع فيلسوف».

لا يسع المرء أن يكون أكثر مرحًا، ليقول بصورة أكثر وضوحًا إن الأب آدم خفيف الظل وإنه بتقواه لا يُثقِل على أحد.

كانت جاذبيته الرئيسة أنه يُجيد لعب الشطرنج، بل ربما يجيده أكثر مما ينبغي، وكان فولتير يهوى تلك اللعبة، فالأحرى بنا أن نقول إن كاهن فيرني مكث في القصر ثلاثة عشر عامًا من أجل لعب الشطرنج، لا من أجل قراءة القداس. ويعترف فولتير بأن الأب آدم كان في الأغلب هو الرابح، ويبدو أنه يعترف بتفوق شريكه، وكان ذلك التفوق يضايقه في الواقع. ويشعر فولتير بالهول من الخسارة، لأنه يعتبر في هذه الحال أنه ضيع وقته، لكن شغفه كان على درجة من القوة تجعله يلعب دائمًا بالشطرنج: «أعشقُ الشطرنج وأهيم به، والأب آدم الذي هو غبي، يغلبني على الدوام، وبلا رحمة! لكن لكل شيء حدودًا! فما الذي يجعل من الأب آدم في نظري، الرجل الأول في العالم في لعب الشطرنج؟ ولِمَ أنا في الشطرنج بالنسبة إليه آخر رجل في العالم؟ فلكل شيء حدود...»، وعلى وجه الخصوص صبر فولتير. كان آدم يغلبه بلا رحمة، لكن ليس بلا قلق، وكان يجهد، بخلاف ذلك، أن يدع نفسه يخسر، إذ وقع في كثير من الورطات المؤلمة. فقد كان فولتير، حين تبدأ اللعبة تدور في غير مصلحته، يدندن ما يشبه «تم تام تام، ترم تام تام» والتي يصغي إليها الأب آدم، بوضعها نذيرَ شؤمٍ مرعب. فقد شوهد الأب أكثر من مرة يجري هاربًا من أمام فولتير الذي يلاحقه، فيقذفه بحجارة الشطرنج التي يعلق بعضها بشعره المستعار، ويلاحقه أحيانًا بعصاه، فيهرب ليختبئ في إحدى الخزائن الجدارية. وتهدأ العاصفة بسرعة، فيصيح فولتير سائلًا: «آدم، أين أنت؟» ويعود آدم إلى الظهور: لقد جرت مسامحته على فوزه اللاإرادي.

كان آدم يتولى أيضًا مرافقة الزائرين، فيرافقهم وهم يتجولون في البستان، بل أدى خدمة كبيرة جدًا، وفي الخفاء، لمن هو في كنفه. لقد واجه فولتير متاعب كبرى في استيفاء دين ضخم - هو واحد من تلك القروض الرهنية المعقدة جدًا، التي تدر ربحًا كبيرًا، وهو يملك وحده مفتاح أسرارها - وكان قد أقرضه للدوق دو فورتمبرغ، وكان ذلك الأمير يسدد مدينه عباراتٍ مهذبة جدًا ومنمقة لكنها تظل بلا أثر في نفس فولتير الذي استبد به القلق على طول الأمد، لكن كيف السبيل إلى جعل دوق يدفع وهو على سُدة الحكم؟ فخطرت بباله فكرة استخدام الأب آدم في مفاوضاتٍ فولتيرية جدًا، يتعاون فيها الشيطان والرب تعاونًا متناغمًا في خدمة مصالح سيد فيرني، وكان الدوق شديد الورع، وله معلم اعتراف يسوعي يجيد فن اجتذاب انتباه الأمير التائب عن خطاياه. فأوضح فولتير للأب آدم أن من واجبه أن يكتب لمعلمِ اعتراف الدوق؛ أخيه في لويولا أن فولتير ليس مطلقًا ذلك الزنديق على نحو ما يَجري به الظن، والبرهان على ذلك، أنه في حين يُصار إلى طرد اليسوعيين من كل مكان، وجد لنفسه، هو الأب آدم، مكانًا آمنًا في فيرني. وإنه هو كاهن ذلك الرجل الذي يرميه الوشاة بسهامهم، المؤتمن على أسراره ومعلم اعترافه. فتقتضي العدالة إذًا القيام بتسديد الديون المترتبة حيال ذلك الرجل تسديدًا نزيهًا، وإلا فالمرء ليس بمسيحي حقيقي ولا هو كاثوليكي صالح. فعليه باختصار أن يقترح على معلم الدوق الذي لا يفي دينه إلا مكرهًا أن يخيفه، وهو التقي، بأنه ما لم يسدد دينه لفولتير فطريقه إلى النار، في حين أنه إذا ما برأ ذمته، فهو بخلاف ذلك سوف يخدم جماعة يسوع المضطهدة، ويخدم العدالة والكنيسة، ويعد لنفسه مكانًا في الجنة. وقطع فولتير عهدًا على نفسه في مقابل وعدِ الأب آدم بكتابة رسالة إلى معلم اعتراف الدوق، بأن يحضر قداس الأب آدم، ونحن إذ نجهل التشعبات السرية لتلك المفاوضات العذبة، فإننا نعرف خاتمتها: لقد سدد الدوق ما عليه من ديون لفولتير.

أما حين قام الأب آدم بتذكير فولتير بوعده، فكان الفيلسوف قد نسي أقوال رجل المال: تكلم بفكاهة، وواصل تجاهل القداس الذي كان يقيمه «أول بني البشر وآخرهم».

ازدانت الدار أيضًا بشخصية أقل اعتبارًا من الكاهن، لكنها تفوقه حجمًا وصخبًا، إنها امرأة سويسرية اسمها بربارا، نشيطة جدًا، وعنيدة، وتظهر أكبر ازدراء

حيال الذكاء المزعوم لسيدها، فكانت تقول له إنه لا يسعها أن تدرك وجود ذلك العدد من الأغبياء في العالم الذين يقاسون كثيرًا من العناء ويتكبدون كثيرًا من نفقات السفر الطويل إلى فيرني، ليتأملوا رجلًا لا يتمتع في نهاية المطاف بذرّة من الحس السليم، وكانت تلك السلوكيات تثلج صدر فولتير.

تنافس ما بين الزيارات والعمل

أوشكت فيرني، في حدود عام 1763، أن تصير من الخانات الباذخة، لاستقبال النخبة الثقافية في أوروبا التي تسعى للإقامة فيها، بدعوة أو من غير دعوة.

إن ما يدعو إلى الدهشة هو أن يستطيع فولتير، في آن معًا، تحمّل نفقات ذلك النمط من العيش، وما يتسبب به من التعب وإضاعة الوقت، ذلك الرتل من الزوار الذي لا يعرف الانقطاع، لكنه كان يقوم بتلبية كل ما يترتب عليه، مهما تكلف في سبيل ذلك، لأنه كان يشبه كثيرًا من الناس في ذلك الزمان: كان يعشق المجتمع، أي حلقات الأحاديث والضيافة والأبهة والتمثيل الاجتماعي، ولم يكن لحاجة التجمع تلك من شيء مشترك مع روح القطيع: لقد كانت تلك الحلقاتُ حلقاتٍ من النخبة. فالمراتبية التوافقية المدعـمة باصطفاء أكثر تشددًا من اصطفاء المولد، كانت تتولـى عملية انتقاء زوار فيرني. فالدخول يكون مصحوبًا باسم كبير أو بشهرة، وإلا فبرسالة توصية، وأما في غير تلك الأحوال، فقد كان البوابون يقومون بأدوارهم، وعلى الرغم من كل ذلك، فإن الزوار الجديرين بالاستقبال كانوا أحيانًا على جانب من الكثرة والتسبب بالإرباك، ما يجعل الكيل يطفح بالشاعر. وأما بوصفه سيدًا كبيرًا، فقد كان يستقبل دائمًا أولئك الذين لهم الحق في أن يُستقبَلوا. تلك كانت مسيرة العالم، وذاك كان فولتير الذي شابه زمانه وطبقته شبهًا أمينًا. وأما أحد أسرار شهرته المدهشة فيكمن في أنه كان يُمَثل إلى حد الكمال، ما كان يتوقعه خيرة معاصريه من رجل يعتبرونه الذكاء الأكثر تحضرًا في عصرهم. وربما لم تكن عبقريته كامنة في عمق فكره وأصالته، وإنما في ذلك النجاح الخارق لرجل تجسد فيه مثلُ الإنسانية الأعلى في عصره، وتوصل لأن يفكر ويشعر ويتكلم مثلما كان يتمنى جميع الرجال المتميزين أن يفكروا واقية، ويشعروا به، ويتكلموا عليه.

كان الإعجاب به يفعمه غبطة، لكن موكب المعجبين أضحى مرهقًا، فقد

صار ذلك التزلف إجراميًا لأنه أخذ يمنع الشاعر من العمل، فكان يلجأ، في سبيل أن يستعيد نشاطه، إلى تمثيلية كوميدية لم تكن جديدة، لكنه سار بها في فيرني إلى حد الكمال. فقد قرر بدءًا من عام 1764 الكف عن حضور حفلات الغداء، فهو يريد إطعام الزوار، لكن ليس من كيان ذاته. ولسوف تقوم السيدة دوني والطباخون بالمقتضى من دونه، فكانت ابنة الأخت تؤدي في صالون فيرني دور الملكات على خشبة المسرح: وكانت شديدة الاغتباط بذلك. أما هو، فكان يلطو في مخدعه، بعيدًا عن الضجيج والبرد، فيعمل أو يقوم بمعالجة أمراضه. أما إذا كان في الصالون وبوغت بوصول شخص جديد، فكان يستغيث وهو يولـي الأدبار إلى غرفته قائلًا: «رباه! نجني من أصدقائي، وأما أعدائي فأنا أتكفـل بأمرهم». ويصرخ لدى الإعلان عن شخص في غير محلـه: «هلموا، أسرعوا، هاتوا ترونشان»؛ وذلك يعني أنه مريض وبين يدي طبيبه، فلا سبيل إليه. لكن حيَله كانت معروفة وغير مجدية أحيانًا، فقد وصل بعض الإنكليز بتوصية قوية: فقبِل بإيوائهم وإطعامهم، لكن من غير مقابلتهم. أما هم، فلم يتكبدوا عناء السفر إلا لمشاهدة الظاهرة: إنهم يريدون إذًا أن يروه. قيل لهم: إنه مريض، فأرادوا أن يروه مريضًا. فتوسل قائلًا: «قل لهم إني مشرف على الموت!» فأرادوا أن يشاهدوه وهو يحتضر. فأخذ يئن يائسًا: «قل لهم إني مت»، فأرادوا رؤية الجثمان، فصرخ ساخطًا: «قل لهم إن الشيطان مضى بي»، وأوعز بفتح باب الغرفة لهم فولجوها متدافعين، وكان الشيطان حقًا هو الذي جاءوا فشاهدوه.

هنالك دخلاء لا يمكن التهرب من مداورتهم، حتى لو كان غارقًا في علاجات ترونشان حتى العنق. وهكذا جاء دوق دو لورج، ودوق راندون للإقامة في فيرني، مع ممثلَين مسرحيين خاصين بهما، للتمثيل على المسرح الصغير. وبلغ من ضيق صدر فولتير بهؤلاء الأدواق الكوميديين أن اتخذ قرارًا بطوليًا: لقد أوعز بإغلاق المسرح الصغير، وتحويله إلى شقة سكنية. فيا له من تصرف يبعث على الحزن العميق!

يقع له، بين كل ذلك الذهاب والإياب، وفي أوج قضية كالا، والمشاغل المتعلقة بصانعي الساعات، والبساتنة، ورجال المصارف، وبومبينيان وجان جاك، أن يكون مريضًا كما هي حاله دومًا، وأن يكتب وهو في سريره، في بعض أيام الاحتضار، حتى أربعين رسالة في اليوم، موزعة ما بين الرسائل الودية ورسائل

الأعمال. وكتب أيضًا في عام 1763، مسرحية تراجيدية اسمها أولمبي (*Olympie*)، فأعلنها من غير إظهارها، وأعطاها إلى آل دارجنتال لقراءتها، فلم يجدوها على جانب كبير من الجودة، وجعلوه يعيد النظر فيها. وبالغ في الكلام على مسرحيته أولمبي، فما كان من فريرون إلا أن قام بتورية حين كتب يقول إن تلك التراجيديا التي لم تشاهَد قط، قد أطلق عليها الجمهور اسم «أوه، لمبي»[39]، ودافع فولتير عن نفسه قائلًا: إن تراجيديته عامرة بالتقوى وتصلح لأن تقوم الراهبات بتقديمها في يوم عيد رئيسة ديرهن. ولقد جرى عرضها في 17 آذار/ مارس 1764، فلم تُقابَل بالصفير، ولم تجرِ إعادة تمثيلها؛ فجمهور عام 1764، ما عاد جمهور عام 1730، فالأذواق تغيرت، واللهب التراجيدي لدى فولتير الذي لم يكن حارقًا قط، أضحى الآن شبه فاتر. ورغب في أن يبعث فيه الحرارة، فتعرض لموضوع جديد، هو التريومفيرات (الحكم الثلاثي (Triumvrat)) الذي كان كريبيون قد عالجه، فلم يوقع تلك المسرحية التراجيدية باسم، ونسبها إلى شويعر متوسط ومغمور اسمه بوازينيه الذي اعترض على ذلك بشدة، وجرى عرض التريومفيرات في 5 تموز/ يوليو 1764 على المسرح الفرنسي باسم أوكتاف والشاب بومبي، وبين الجمهور أن سطحية المسرحية أتعبته. كانت الضربة قاسية لكنها غير مثبطة للهمة: لقد أعاد فولتير صياغة مسرحيته، وقطع عهدًا على أن تكون من الروائع، فلم تكن سوى تمرين على شدة عزيمته.

لكن فشل المسرحيات لم يحل دون قيامه بكتابة تعليقه الشهير على أعمال كورناي. فحين يتناول الأعمال السامية، تستولي عليه الحماسة، فيعرب عن إعجابه دونما تحفظ. وما إن تختلط الأمور على محامي روان (المقصود هو كورناي) فيرتبك داخل فصاحته الغامضة، وما إن يغدو أسلوبه وعرًا ومعتمًا، «فيستعجم» على حد تعبير فولتير، حتى ينفذ صبر المعلق... فيأتيه، بالتعارض، شعر راسين الذي يرن في أذنه، فيسمع موسيقى فيدر وإيفيجيني التي تأتي لتفتنه. إنه الصفاء والنور والكمال الراسيني الذي لا يُبلَغ، فتأتي مجتمعة لتفرض نفسها عليه وتفرض عليه القيام بمقارنة يدفع كورناي ثمنها. يقول فولتير بحق كورناي أشياء قاسية، لكنها صحيحة وهي معتدلة على وجه العموم، لكن الموقف من

---

(39) «Olympie» و«O l'Impie!» جناس خاص بالفرنسية، والعبارة الثانية تعني: «هاكم الكافر». (المترجم)

كورناي آنذاك، كان كالموقف من جان دارك: كانا مقدسين ومنزهين عن العيوب. وإن العثور على أخطاء نحوية، وتباينات، ونقاط مبهمة لدى كورناي، لَيَعني تسليم المسرح لشكسبير وبلاد البرابرة، ومن يفعل ذلك يستحق عقوبات التعذيب على الدولاب أو بالنار أو عمود التعذيب، ولم يخفوا عنه ذلك.

«إن بيار كورناي هذا جعلني أمضي ربع ساعة من الضيق. وأنا مستاء منه لأنه يشبه التيوس البرية وغزلان الشاموا التي تقفز في جبالنا فوق الصخور الوعرة وتسقط في المهاوي». وحين يفكر في راسين يقول: «إن قمة الوقاحة القيام بتأليف مسرحية تراجيدية من بعد ذلك الرجل العظيم، وأنا، منكم، لا أعرف من بعده سوى مسرحيات رديئة وأعرف من قبله بعض المشاهد الحسنة»، وها قد جرى تنبيهنا: راسين وحده هو العظيم، ولا سيما أنه على ما يبدو، لم يسع قط لأن يكون كذلك، وهو ليس عظيمًا فقط: إنه كامل. وقد كتب إلى الأب فوازنون في عام 1763: «أبوح لك بأني، وأنا أقوم بشرح كورناي، صرت عابدًا لراسين. فأنا لا أستطيع تحمل التقعر في الأسلوب، والتعاظم المفرط في الزيادة».

الزيارات الجميلة

في تلك الأثناء، لم تأتِ حفيدة شقيق كورناي للعالم بشرح أدبي، بل بابنة صغيرة أطلق عليها فولتير اسم شيمين مارموت[40]، وكانت سمراء البشرة وسوداء الشعر مثل أمها، فأطلقوا عليها أيضًا اسم رودوغون الذي يتوافق بالقافية مع برون (سمراء) (brune). وجاء الفارس دو بوفليه في زيارة إلى فيرني، وقد أتم الثامنة عشرة لتوه، وتغمره الهبات كافة: فهو وسيم ولطيف وذكي، وكله خيالٌ مبدع ومرحٌ وحيوية، ويرسم بطريقة بديعة ويقرض الشعر، فكان باختصار فاتنًا وعلى النحو الذي يحلم فولتير بأن تكون عليه البشرية.

استقبِل الفارسُ بكل أشكال الترحاب، وذكرى أمه المركيزة الفاتنة ماثلة في الأذهان. عامله فولتير معاملة رفيق له، فكان لذلك منذ البداية، والفارس ذو مناقب، أعمق الأثر في نفسه، ولا سيما سلوك فولتير المتسم بالبساطة والعفوية. وإن يكن قد خلف أثرًا في نفسه ما لقي لدى استقباله من البذخ والسخاء، فقد كان

---

(40) شيمين هي بطلة مسرحية كورناي الشهيرة السيد (*Le Cid*). فيغدو الاسم: شيمين المرموطة. (المترجم)

أثرًا من المصاف الثاني. وكان بوفليه يسافر من غير أبهة، لكي يعرف البلد والناس معرفة أعمق، فكان يتظاهر أحيانًا بأنه مصور يقوم بالتجوال، ويدفع لقاء استضافته في القصور، صور السيدات اللواتي يقوم برسمهن، وكان يقوم أيضًا بمغازلتهن، فيلاحظ أن السويسريات التقيات لا يقاومنه إلا حفاظًا على المظهر. أنهى جولته في فيرني، من بعد أن جمع وفرة غنية من الذكريات عن سويسرا. وكان فولتير يهوى أن يجعله يتكلم على علمه الذي هو غاية في النداوة والعذوبة، وسأله ذات يوم: «أما وأنك تعرف السويسريين معرفة عميقة، فما رأيك بهؤلاء الناس؟»، فكان رد بوفليه: «هم أناس لديهم على ما يبدو كثير من المال وكثير من الذكاء، لكنهم لا يقومون البتة لا بإظهار هذا ولا ذاك»، فكان ذلك الشاب يجيد، على نحو ما نرى، فن القيام بالتحقيق بسرعة البرق.

رسم صورة للمرموطة الصغيرة السمراء التي كان فولتير يقول عنها: إنها ورثت من معنى اسم كورناي (الزاغة) أكثر مما ورثت من كورناي.

هذا ما كتب بوفليه إلى أمه عن قصر فيرني الصغير: «لا يسعكِ مطلقًا تكوين فكرة عما يقوم به من إنفاق وما يفعل من الخير، إنه ملك البلد الذي يقيم فيه وهو أبوه، فيصنع سعادة من يحيط به، وهو أيضًا رب أسرة صالح على قدر ما هو شاعر كبير... وعبثًا يجهد الناشرون لأنه سيظل أبدًا الطبعة الفضلى لكتبه... ويبقى أن المنزل ساحر والموقع رائع، والطعام لذيذ، ومسكني رائع».

وعثر بوفليه في السيدة كرامر، وهي زوجة الناشر في جنيف، على الشريكة التي قررت أن تلعب لعبته، فهي تضحك ملء فيها، وتمضي في المزاح إلى الحد الذي يريد بوفليه أن يدفع بها إليه، ولم يأسف أي منهما على ذلك اللقاء. وكانت السهرات في فيرني على جانب من المرح المتألق، وكانت السيدة كرامر باريسية، فتبدو جنيف كئيبة في نظرها. وحين وقعت على بوفليه، التقت باريس من جديد، فوجدت الشباب والفطنة والنعمة والحب، وكان ذلك الشتاء من عام 1764 هو الأخير في حياتها.

قام الفارس برسم صورة لفولتير، فكان المشروع شاقًا، لأن الشاعر لا يكف عن التحرك والابتسام والعبوس. كان بحرفية الكلمة غير قابل لأن يُمسَك به، ماديًا أكان أم معنويًا، إلا أنه هو الذي أمسك بالرسام، فما عاد الفارس اللطيف يفكر

في مغادرة فيرني، وقد كتب إلى أمه يقول: «لا يسعكِ أن تتخيلي كم هذا الرجل محبب في الأعماق، وكان بإمكانه أن يكون خير عجوز في العالم لولا أنه أول الناس، ولا عيب فيه سوى أنه شديد الانغلاق على نفسه».

إن تلك الصداقة بين شاب يافع وشيخ لذات طبيعة استثنائية، علمًا أن السن لا تشكل عائقًا أمامها، فكل شيء كامن في الفكر الذي لا يعرف الشيخوخة، وفي رقة العواطف والسلوكات. كان بوفليه، مثله مثل فولتير، منحوتًا من الماس: وذلك هو سر تفاهمهما.

***

وجاء أمير لين إلى فيرني في صيف 1763، فكان ذلك معجزة جديدة للساحر المسحور. دوَّن الأمير كل شيء من أجل متعته ومتعتنا نحن. وحين قدم نفسه، لم يكن فولتير يعرفه، ولم يكن أمرًا واردًا إغلاق الباب في وجه ذلك السيد الأوروبي الكبير، ولكن في معرض الخوف من ألا يجلب معه سوى السأم، قام فولتير، على سبيل الحيطة، بأخذ «شيء من ترونشان»، ولزم سريره مع شربة ملين. وكان فولتير هو الذي باح من بعد للأمير بأنه أضحى يخشى الزوار المزعجين حتى إنه من قبل أن يستقبل الذين يشك في أنهم سيضيعون وقته، يأخذ جرعته كيفما اتفق ليكون إلى حدٍ ما مرغمًا على رفع الحصار عنه حين يشعر بقدوم الملل... أو بسبب تأثير الجرعة.

تفاهم فولتير وإياه تفاهمًا رائعًا في جلساتهما الانفرادية المذهلة. وحين عرّفه فولتير على السيدة دوبوي، الابنة السوداء لآل كورناي، وجّه السؤال إلى الأمير عن رأيه في المرأة الشابة، رد بالقول: نيغرا، لكن غير فورموزا (سوداء، لكن ليست جميلة). وخلافًا لذلك، وجد شقيقة السيدة ديبوي فاتنة جدًا، بل فاتنة إلى حد أنها، وهي جالسة قبالته بنحرها المكشوف، سحرته حتى إنه ما عاد يسمع كلام فولتير. وكان سيد فيرني يستفظع تلك الأشكال من الشرود فوجّه إلى الشاردَين تنبيهات حادة. وفي يوم شديد الحرارة من صيف عام 1763، كانت السويسريات السمينات اللواتي يضعن على المائدة القشدة البيضاء، لكنها أقل بياضًا ونداوة من أكتافهن ونهودهن، قد تسببن أيضًا بشرود الأمير في ما كان فولتير يتكلم ويبح صوته في سبيل إخراج ضيفه من انخطافه، لكن بلا طائل. أما وأن الشاعر ما عاد

قادرًا على مزيد من الصبر، هب واقفًا ليرتمي على أول خادمة فيمسك بها من نحرها ويصرخ بها كمن أصابه مس من الجنون: «نحرٌ من هنا، ونحر من هناك! فليأخذكن الشيطان!»، ثم عاد، كأن شيئًا لم يكن، فجلس قرب محاوره الذي عاد إليه انتباهه في نهاية الأمر.

إن الأمير دو لين، هو الذي ترك لنا أفضل صورة لفولتير في تلك الفترة: «كان ينتعل دائمًا حذاء رماديًا، وجوارب بلون رمادي فاتح، مثنية، وسترة كبيرة من البازان (نسيج قطني)، تنزل حتى ركبتيه، وعلى رأسه باروكة كبيرة وطويلة وطاقية صغيرة من المخمل الأسود، وكان يوم الأحد، يرتدي أحيانًا ثوبًا جميلًا لونه بني وذهبي موحد وسترة وسروالًا من اللون نفسه، لكن السترة ذات ذيلين طويلين، والأكمام مزينة بجدائل ذهبية، وكشاكش وشرائط حتى أطراف الأصابع، لأنه بذلك، بحسب قوله، يبدو بمظهر النبلاء».

يبدو أن تلك الملابس انقضت درجتها، فيتخذ بها مظهر رجل من عام 1725 وليس عام 1764، إلا أنه ظل دائمًا أمينًا لطراز أيام شبابه. بشكل المطرقة يعود إلى عهد الوصاية عام 1746، أما الباروكة في ذلك العام 1764 فذات عقصة. كانت تلك الباروكات الضخمة تحجب نصف وجهه المتجعد والذي يكاد يكون في حجم قبضة اليد، فيسبغ عليه مظهرًا كاريكاتوريًا أو مسرحيًا يستأثر بانتباه زواره.

يدون الأمير، الذي هو مراقب لا يُبارى، أن كلام فولتير كان بصورة شبه حصرية، كلامًا عطوفًا ورفيقًا، وكان ودودًا حيال محيطه، وأقواله تتسم دائمًا بالإطراء لمن حوله، فيسعى لإضحاكهم ويسبغ جمالًا على جميع الموضوعات التي يتناولها. فكم هو بعيد الشبه عن فولتير الحاد! عن مشوه الصيت بعنف، وعن ملطخ الفضيلة... إلخ. وظن ذات يوم أن ضابط الألحان الذي جاء لإصلاح بيانو السيدة دوني القيثاري، إنما هو الإسكافي، وحين أدرك خطأه احمر خجلًا، وهتف قائلًا: «إيه يا سيدي، أنت ذو مواهب، لقد وضعتك في فكري عند قدمي، لكن ها أنا الآن عند قدميك».

يقول لنا الأمير: إن أحاديث فولتير وفلاحيه كانت على درجة من الهزل لا يمكن تصورها، فما كان الأمير يتخلف قط عن ذلك المشهد، ويستمتع به أيما استمتاع. كان الشاعر يتحدث إلى فلاحيه كأنه يحادث عددًا من السفراء. فهو

يبجل حارس الصيد لديه، بإدخال أسلوب مسرحية زايير في حديثه معه، وبدلًا من أن يقول له إنه متعجب، لأنه ما عاد يأكل حساء الأرنب البري، كان يخاطبه على النحو الآتي:

«يا صديقي، أما عاد هناك من هجرة للحيوانات من أرضي في تورني إلى أرضي في فيرني؟».

كان الأمير والشاعر ينخرطان في الضحك معًا، وفولتير على استعداد دائم للتحادث مع أول آتٍ، ويقول الأمير: إنه ينبغي للمرء أن يراه كيف يُدخِل روح الفكاهة والالتماعات الذكية في الأحاديث العادية جدًا؛ لذا كانت السويسرية الضخمة تجده يفتقر إلى الحس السليم: ليس الجميع هم الأمير دو ليني الذي يقول إن فولتير كان: «ميالًا لأن يرى الخير والجمال، ويؤمن بهما، فائضين في حسه وفي حس الآخرين»، وتلك شهادة جميلة تدل على نبل الروح.

يجيد فولتير الكشف عن الالتماعات الذكية في أبسط جملة تقال، بل ربما لم يكن قائلها متنبهًا إلى ذلك. وقد سأل ذات يوم زائرًا عن دينه، فردّ الآخر قائلًا:

«لقد جعلني والداي أنشأ وسط الديانة الكاثوليكية».

فهتف فولتير قائلًا:

«يا له من جواب عظيم، فهو لم يقل إنه كذلك...».

وفيما كانت الحرب معلنة بينه وبين روسو، قال أمام الأمير دو ليني: «إنهم لا يقومون بطرد رجل مثل روسو، بل يقومون بنفيه، وذلك أكثر نبلًا»، ثم أضاف قائلًا: «إن لم يجد ملجأ في أي مكان فليأتِ إلى هنا، وكل ما أملك هو له»، وإذا ما ضربنا صفحًا عن قسم من تلك الأقوال الجميلة، يظل هنالك الشعور بالشفقة والتضامن، ولو جاء روسو يقرع باب فيرني، لانفتح البابُ في وجهه.

قام أيضًا بإطلاق بعض السهام، وكان حينها في حالة من الغضب، وغضبه على المحاكم العليا ورؤسائها له ما يسوغه، فكان حين يلقى حماره في غدوه ورواحه على مماشي البستان، يقول: «أرجوكم، تفضلوا بالعبور، يا سيادة الرئيس».

حضر الأمير مشهدًا لا يُنسى: ظن نفسه في المسرح؛ دخل شخص مجهول إلى الصالون فارتمى على فولتير وكان عازمًا على بيعه حذاء رماديًا، وسعى فولتير للتخلص من ذلك المزعج لكن الرجل توسل إليه:

- سيدي، سيدي! أنا ابن امرأة نظمتَ فيها شعرًا.

- آه، إني لأصدقك، فقد نظمت كثيرًا من الأشعار للعديد من النساء...

وتملص منه فلجأ إلى مكتبه، لكن الآخر لحق به.

- سيدي، سيدي، إنها السيدة دو فونتين مارتيل!

فتوقف فولتير من فوره وقال:

- إيه، أيها السيد، لقد كانت جميلة حقًا.

وشعر الآخر بأنه قد كسب الجولة، فأردف على الفور قائلًا:

- من أين جئت بذلك الذوق الرفيع الذي نلمسه في هذا الصالون؟ إن قصرك لفاتن!

فعاد فولتير أدراجه إلى الصالون.

- آه، بلى. هذا كله من عندي، فأنا أعطيت الرسوم كافة، ثم انظر إلى هذا السلم...

وجعله يرى العمل مفصلًا.

فكرر الآخر القول:

- سيدي، أتدري ما الذي اجتذبني في سويسرا؟ إنه السيد هالر.

ونحن نعرف أن فولتير ما كان في وسعه تحمل العالِم العجوز، فاستدار، لدى سماعه ذلك الاسم، ودخل إلى مكتبه. لكن الآخر استعاد زمام المبادرة فورًا:

- آه يا سيدي، لا بد من أنك تكلفت كثيرًا من المال، فيا له من بستان رائع لديك!

فرجع فولتير إلى الصالون وهو شديد الاهتمام، فأجاب:

- إنما أنا الذي قمت بكل شيء. فالبستاني عندي ليس سوى بهيمة.
- وأنا أصدق ذلك. فالسيد هالر، يا سيدي، رجل عظيم.

فاستدار فولتير على عقبيه، وأسرع بالدخول إلى مكتبه.
- آه، يا سيدي! كم يلزم المرء من الوقت لبناء قصر جميل يماثل قصرك هذا؟

رجع فولتير إلى الرجل الذي كسب الجولة في نهاية المطاف.

يقول الأمير: إن فولتير هو الرجل الأكثر مؤانسة في الدنيا، فهل كان كذلك على غير علم منه؟ ربما، لكنه، في أي حال، كان يتلاعب بالحياة والأحياء وفقًا لمزاجه ونزواته ومصالحه. فهو تارة رجل أدب، وتارة أخرى سيدٌ كبير، ودائمًا شديد الجاذبية، ومثير للشجن في بعض الأحيان. ولقد ضحك الأمير دو ليني كثيرًا، لكنه عرف أيضًا كيف يوفي ذلك المفكر المتفوق حقه... وهو الذي يدفع نحو الكلام والتفكير بمن هم أهلٌ لذلك. ويمد يده بالمعونة للتعساء، ويشيد المساكن للأسر الفقيرة، وهو في أسرته رجل صالح، وهو رجل صالح في قريته، بل رجل صالح وعظيم في آن معًا، فالرجل ليس بهذا ولا ذاك على نحو كامل، ما لم تجتمع فيه الخلتان؛ ذلك أن العبقرية تعطي الصلاح مدى أوسع، والصلاح يهب العبقرية المزيد من العفوية».

إنه حكم مدهش من رجل صافي الذهن، وهو لن ينخدع بسهولة، ولا سيما أنه محنك ومتمرس بألاعيب الحياة الاجتماعية. ولقد منحه آل كالا وفلاحو فيرني الثقة، فهم يعرفون خير المعرفة تلك العبقرية التي تهب كثيرًا من «القيمة الكبرى للخير». أما عن «عفوية عبقريته»، فهي على درجة من التألق لم يجرؤ معها أي من أعدائه على النيل منها أبدًا.

دخلت الآنسة كليرون دخولًا متألقًا، وحققت الممثلة السامية معجزة بقدومها: أُعيدَ فتح المسرح، فما المُراد للقيام به من أجلها؟ لقد مثلت التراجيديا، وكان من الملائم جعلها تقوم بذلك لأنها كانت مريضة. ولم يستطع ترونشان الذي جاءت تستشيره، أن يضمن لها الحياة إذا ما واصلت التمثيل، ولقد قامت بالتمثيل؛ قامت المشرفة على الموت بالتمثيل لرجل محتضر: فيوم وصولها، كان فولتير يقوم بتسليم الروح. فالاحتضار هذه المرة لم يكن متصنعًا، فلو لم تبقَ لديه سوى

نسمة من حياة، لنهض من أجل كليرون، أما في ذلك النهار فكان يحشرج حقًا. شاهدت هيكلًا عظميًا بائسًا، مطمورًا في الفراء، وقبعته تكشف عن شعر مهمل، وعن أذنين أشبه بالرق، والوجه من عظم وشمع حُفِر فيه محجران أجوفان كانت تنطفئ داخلهما شرارة ذلك الذكاء المتعذر إخماده، لكنها شرارة شبه منطفئة، إلا أنها لم تنطفئ تمامًا، فهي شرارة حياة وشجاعة أقوى من العذاب. وتملك كليرون الاضطراب، حيال ذلك الجسد البائس، وحيال تلك الماكنة التي لا تني تعمل. أما وأنها لم تقوَ على تحقيق معجزة إحياء الميت بوجودها وحده، فإنها استعانت بالشعر وبموهبتها الساحرة: ألقت بصوت جهوري أمام الشاعر الذي تحول إلى جثة مسرحية يتيم الصين، ولم يطل الأمر بموسيقى الصوت السماوية وبموهبة الممثلة الرائعة، إلا وقد فعلتا فعلهما: تحرك الهيكل العظمي، وانفتحت العينان فبرقتا. جلس الشاعر في سريره فبكى وعبّر بحركات كثيرة من يديه، ثم انتصبت صورة الموت تلك لتتولى الرد على كليرون. وإن ذلك لأسطوري، لقد كان الأمر على درجة كبرى من الفرادة، وكان باعثًا على التشوش إلى حدٍ جعل الجمهور ينفجر ضاحكًا.

توقف على الفور: ساءه ذلك الضحك، فعاد ليرقد على نحو مباغت، فتدثر بالغطاء، وأرادهم أن يظنوا أنه حقًا مات. كان مستاء، وعلى الرغم من إصابته بأزمة في وركه، فإنه رغب بعد مرور بعض الوقت في أن يتوجه إلى الصالون. وجاء واهنًا، يتوكأ على عكازين، وتتولى سيدتان سنده، وكان رأسه مائلًا على كتفه، فأجلسوه في كنبة، وبدأ الحديث من دونه، لكنه ما لبث أن شارك فيه، فامتلأ حرارة، وبث الحرارة في الحضور، فصار كل واحد يدلي بدلوه. وبغتة، عبرت جسده شحنة كهربائية جاءته من الحضور، فنهض من مقعده والعكازان بيديه، ليقوم بما يميز الممثل من يسر وسهولة بأداء حركات إيمائية، ثم يقفز فيرقص، ما أثار ضحك الحضور كافة، فتذكر واقع الألم في وركه، فتوقف بغتة واسترد عكازيه، وأخذ يتأوه ويرجوهم أن يعيدوه إلى كنبته بكثير من الحيطة والحذر.

ولا يسعنا أن نراه في قيد الحياة إذا نسينا للحظة واحدة أمراضه الأبدية. ويقول ترونشان إنه التقى ذات يوم من عام 1722، بشاب هزيل تسبب له مظهره الجسدي بصدمة، وقد سمع ذلك الشاب وهو يرد على واحد سأله عن صحته بقوله: «متألم

على الدوام، ومداوم على الاستمرار»، وسأل ترونشان عن اسم الشاب، فقيل له: «فولتير!» وهكذا فإن أول كلمة سمعها من ذلك الرجل الذي سوف يتولى علاجه طول ستين عامًا، كانت الشكوى من سوء صحته.

وصار اللقاء مع الآنسة كليرون شعبيًا بفضل صورة نُقِشت له، وقد قيل إن إعجاب كل واحد منهما بالآخر بلغ حدًا جعل كلًا منهما يركع على ركبتيه في مواجهة الآخر ليتبادلا العناق، لكن لا بد لتلك الحالات الحميمة من التوق أن تكون نادرة، لأن شاعرنا إن كان قادرًا على أن يركع على ركبتيه، فهو، كما يقال، غير قادر على النهوض. أما وقد سقط ذات يوم، فإنه كان بحاجة إلى من يعيده واقفًا. تلكم هي حال بطلنا: إنه في ذروة السمو في لحظة ما، وهو هزلي في اللحظة التي تليها، وكان يجر نفسه على عكازيه من الصالون إلى غرفته، وارتأى أن ذلك غير كافٍ، فوجدناه ذات يوم متورطًا وهو عشي على عكازيه بعيدًا في الحقول التي تعود أن يجوبها وحيدًا، ماشيًا يعب الهواء، ويرصد ما حوله ويتألم، ويخطط، ويحسب ينظم الشعر، ويدندن بألحان (ناشزة بشكل مخيف). وكان طبيبه يصادفه أحيانًا في الريف، وهو يقود بنفسه عربة خفيفة، وإنها لجولة خطرة جدًا، إذ إن لديه حصانًا جموحًا يقوده على الرغم من المنطق السليم، فناداه الطبيب قائلًا: «ماذا تفعل هنا، أيها الولد العجوز؟». وعند المساء تلقى بطاقة من مريضه: «إن مشهد متحذلق فتي عمره سبعون عامًا لا يتكرر كل يوم، لقد كنت ذاهبًا إليك... لكن لا تخرج باستنتاجاتك الظالمة إلى أني بصحة جيدة، وأن لي جسدًا قُد من حديد... ولا تلُمني، بل أحبيني»، فكان يخشى أن يظنه طبيبه بصحة جيدة. ولئن اعتبره مجنونًا فلا بأس، لكن ليس بصحة حسنة. فالقول إنه بحال جيدة هو مثل اغتيابه، وتهنئته بحسن هيأته شتيمة له. ولكي تروقه عليك أن تبدي ارتياعك من هزاله وضعفه، وأن تقول: إنه يبدو أكبر سنًا من حقيقته، وإن جسده تالف أكثر مما هو عليه، وأن تتحسر على مصائبه وتتوقع قرب نهايته. وإن ذلك نوع من التطير: فالظن أنه ميت لا محالة، يعني إطالة عمره. ولم يُشاهد رجل قط أكثر منه طربًا، وهو يسمع أن أعداءه أشاعوا نبأ موته، ولم يُشاهَد رجل قط أكثرَ منه حزنًا وغمًا إذا ما ألقي القبض عليه متمتعًا بصحة جيدة؛ أي بالجرم المشهود.

***

جاء إلى فيرني في عام 1764 اسكتلندي اسمه بوزويل، ولم يكن يسافر إلا ليتعلم ويراقب وينسى أساه، فكان يجيد النظر، وقد جعلنا نعيش بضعة أيام في فيرني ضمن خليط عذب من الصفاء والدهاء، يصعب تحديده. ولا مجال لوضع صدقه موضع شك، فليس من نظرة مستقيمة أكثر من نظرة بوزويل.

توقف بوزويل لدى وصوله إلى بال في نزل قال له صاحبه، السيد إمهوف، إن فولتير نزل عنده وهو عائد من ألمانيا. سأل إمهوف خادم فولتير: «هل يريد سيدك أن يأكل؟» فأجاب الخادم: «لست أدري، ربما نعم، وربما لا»، فأوعز إمهوف في أي حال، بإعداد حساء وفروج. وبعد ذلك بوقت قصير استيقظ فولتير فشكا من أنه يموت جوعًا، فقدم إمهوف إليه الحساء، فشم فولتير رائحته ثم استبعده، ثم استعاده فتذوقه وقال مغتبطًا: «إنه حساء ممتاز». ودخل زبون في تلك الأثناء، فأكل نصف الفروج. وجيءَ لفولتير بالنصف الثاني. فأخذه وشم رائحته فاستبعده ثم استرده فقال: «إنه فروج ممتاز»، لكنه أسف لأنه لم يحصل على الفروج كاملًا، وشرع يهمهم بلا توقف فيما كان يلتهم نصف الفروج: «إن نصف فروج ليس بفروج؛ لأن نصف فروج ليس بفروج... إن نصف فروج...». وكان إمهوف يقول متباهيًا: إن فولتير كان راضيًا جدًا عن نزله. وهنا بدأ إمهوف يخشى، بوصفه اسكتلنديًا حقيقيًا[41]، من أن ترتفع قيمة فاتورته هو على قدر اغترار صاحب النزل بالرضا الذي أظهره فولتير، فكتب يقول: «وخلُصت من ذلك إما إلى أنه كان رجلًا نزيهًا، وإما إلى أنه كان نذلًا كبيرًا»، ويبدو أنه كان هذا وذاك بحسب رأي الزبون.

التقى بوزويل، وهو على طريق فيرني، بنحات يعرف فولتير، وقد روى له هذه الومضة: ذات يوم شاهد الشاعر الحجار وهو يمر في عربة يجرها حصان هزيل جدًا، وسُمِعَ وهو يخاطب الحصان قائلًا: «يا لكَ من جواد، فأنت هزيل، إنك هزيل مثلي أنا».

لدى وصول بوزويل، لاحظ، وهو الشديد التدين، الكتابة المدونة على جبهية

(41) لا يزال أهل اسكتلندا مشهورين بالبخل لدى الأوروبيين، مثل أهل مرو، في بخلاء الجاحظ. (المترجم)

كنيسة فولتير «Deo erexit»[42]. «القصر جميل جدًا، وقد استقبلني خادمان أو ثلاثة فأدخلوني إلى صالون أنيق جدًا»، وسلّم رسائل توصياته، وعاد الخادم ليقول: «السيد فولتير يتضايق إن أزعجه أحد، فهو في السرير»، وخاب أمل بوزويل، فتأخر في الصالون، ودخل زوار آخرون، فدارت بينهم الأحاديث، فخفف ذلك عنهم. وفتِح الباب على حين غرة، وظهر فولتير، فجحظت عينا بوزويل. «لقد استقبلني بذلك التكريم وتلك الكياسة التي يجيدها الفرنسيون إلى حد الكمال. وكان يرتدي مِبذلًا (روب دو شامبر) يشبه معطفًا طويلًا مصنوعًا من الجوخ الجميل الأزرق الأردوازي، ويضع باروكة ذات جدائل، وكان يقف منتصبًا فوق كرسي، وتتغضن تقاطيع وجهه وهو يتكلم».

أضحى المِبذل، منذ فيرني، الثوب الرسمي لصاحب الجلالة الفيرنوية، فهو يتغدى ويتعشى ويستقبل، مرتديًا المبذل، وينهض فيرقد يوميًا ست مرات إلى ثماني، والمبذل يجعل أمر اليقظة والنوم مرات ومرات يوميًا من الأمور السهلة، وكانت لديه مباذل باذخة للغاية.

تناول حديثهما اسكتلندا، فقال له بوزويل: أُنشئت مؤخرًا أكاديمية للتصوير، لكن بلاده لم تكن ميالة جدًا إلى التصوير، وذلك ما رد عليه فولتير بقوله: «لا بد، للتصوير، من أن تكون القدمان دافئتين، وإن لمن القسوة أن تكون القدمان باردتين». لقد كانت لفولتير على الدوام علاقات عجيبة بالفنون التشكيلية، فنرى هنا عينة من تلك العلاقات، وقال له بوزويل إنه عازم على زيارة جزر الهيبريد، الواقعة إلى الشمال من اسكتلندا، فعرت فولتير رعدة لذكر أماكن الصقيع تلك، وهتف قائلًا: «حسن جدًا، أما أنا فسوف أظل هنا، فهل تسمح لي بالبقاء هنا؟ - بكل تأكيد - سافر إذًا، فأنا لن أعترض على ذلك أبدًا».

وسأله بوزويل إن كان لا يزال يتكلم الإنكليزية، فقال فولتير:

«كلا، فلكي تتكلم الإنكليزية، عليك أن تضع لسانك بين أسنانك، وأنا لم يعد لدي أسنان». وسأله فولتير:

---

(42) العبارة باللاتينية تعني أن الكنيسة بنيت على اسم الله، لا على اسم أحد القديسين أو الأنبياء، كما هي حال دور العبادة كافة. (المترجم)

ممن هو ممثلكم في برلين؟

- ليس لدينا سوى قائم بالأعمال.

- القائم بالأعمال ليس قائمًا أبدًا.

وها هو الأب آدم يدخل، وكان رشيق الحركة دومًا على الرغم من شيب شعره، فقدمه فولتير بالإنكليزية. لقد استعاد أسنانه، بل أنيابه ضد الكاهن.

- أعرّفك يا سيد على شاب وعالم يقوم بتعلم لغتكم، إنه جندي مفلس من جماعة يسوع.

فقال الأب بحزن:

- شاب في الستين من العمر.

ولم يجلس فولتير إلى الغداء، لكنه رجا بوزويل أن يتناول الغداء مع السيدة دوني والآخرين، فقامت بتدليل ذلك الشاب الوسيم، الخجول جدًا والسريع الانفعال. وأُعجب من جانبه بابنة الأخت: أعطته نصيبًا مضاعفًا من فطائر السمك! فشكرها في اليوم التالي برسالة ودية جدًا ورجاها رجاء حارًا أن تجعله ينام في فيرني، وقال إنه يرضى بالنوم في كوخ فقير. كان قوي البنية، فهو قادر على تحمل البرد، لكنه ما عاد قادرًا على تحمل الافتراق عن فولتير وعن ابنة أخته التي لا نظير لها، وأضاف يقول: «أنا لن أتخلى أبدًا عن إيماني وعن صديقي وعن سيدتي وعن فطيرتي»، وقال أخيرًا إنه يرضى، لعدم وجود كوخ بالنوم فوق كرسيين، لكنه يفضل النوم في غرفة إحدى الخادمات اللواتي يقمن بالدوران حول مائدة الغداء. ونعرف أن فولتير كان يختار نساء جبليات ممن حبتهن الطبيعة بصحة جيدة، وقد تركت إحداهن انطباعًا عميقًا في نفس بوزويل، وكان يطيل الكلام لين تلك النهود السويسرية، ويقول إنه سيحضر طاقيته للنوم، لأنه حين قيل له إنهم سيعيرونه للنوم واحدة من طواقي فولتير، خشي أن يكون رأسه غير قادر على حمل مثل ذلك الشرف. وباختصار، كانت رسالته مصدر إمتاع لضيوف فيرني كافة حتى إنهم دعوه لينام، لا على كرسيين، بل في سرير مريح.

التقى في اليوم التالي بالفارس دو بوفليه، فقال عنه: إنه «ممتلئ حيوية، وطيب وذكي جدًا»، وكان مندهشًا من كثرة العاملين في القصر: فعددهم، كما قال، خمسون شخصًا، ويتولى فولتير السهر على جميع الأطفال وعلى معيشتهم.

كان الزائرون المجتمعون في الصالون يُحاطون علمًا، بين الساعة السابعة والساعة الثامنة، بأن فولتير قادم، وكان في تلك الساعة، يدق الجرس وهو في غرفته ويصيح: «اذهبوا فاستدعوا الأب آدم»، إنها ساعة الشطرنج؛ أي ساعة تعذيب الكاهن. وجلس بوزويل بجوار فولتير، فكانا يتحادثان بالفرنسية والإنكليزية. وأخذ عليه فولتير أنه يتكلم بسرعة كبرى، فرد عليه بوزويل قائلًا: «ونحن نأخذ عليك الشيء نفسه»، فرد عليه فولتير بلهجة حادة: «لا بأس، لكن لست أنا في أي حال. إني أتكلم ببطء. وذلك ما أقوم به».

ظل بوزويل بجوار فولتير فيما كان الآخرون يتناولون العشاء، من أجل أن يفيد من حديثه. وحين عاد الآخرون، انسحب فولتير إلى غرفته، وأوعزت السيدة دوني بإحضار عشاء خفيف لبوزويل في الصالون. ويقول: «أكلت وشربت بشهية، وبحضور صحب طيبين من حولي». لقد كانت تلك الضيافة وتلك اللباقة تأخذان بلبه: «إني أمثل الجلالة نفسها، فأنا آكل وحدي كالملوك»، وفي اليوم التالي أعرب له فولتير عن عميق أسفه لأنه لم يستطع أن يقدم له غرفة أفضل، لكن بوزويل وجدها رائعة: «غرفتي جميلة. فالسرير مغطى بقماش أرجواني مطرز بالحرير المبطن، والموقد من الرخام وقد عُلقت فوقه لوحة تمثل الزينة على الطريقة الفرنسية»، ولم يظهر فولتير في ذلك النهار: كان على أسوأ حال، وتوجه بوزويل إلى غرفته، فجاء خادم على الفور ليشعل له النار ويضيء عددًا من الشموع. وذلك كله يتم بنظام وذوق سليم. وطلب كتبًا لفولتير، فجيء إليه بها: «يجد المرء في فيرني الضيافة الحقيقية، ويتمتع وهو في غرفته بالحرية التامة فيفعل ما يشاء».

ذهل بوزويل من فصاحة فولتير بالإنكليزية، فهتف قائلًا: «أقسم على أن ذلك مدهش! فحين يتكلم لغتنا، فإنه يكون مسكونًا ببريطاني. فلديه تألقات جريئة وفكاهة ونوع من الغرابة في الأسلوب خارقة ومتينة حتى إن الأكثر فكاهة بين كتابنا المسرحيين لا يقوى على تجاوزه»، فتظهر إذًا تلك القريحة الكوميدية التي نعرفها مسبقًا لدى فولتير، بطلاقة في اللغة الإنكليزية.

بادر في مساء آخر إلى إطراء القوانين الإنكليزية، ثم تطرقوا بالحديث إلى الدين، وهنا ساءت الأمور كلها، فثائرته ثارت. وبادر بوزويل والتوراة في يده، إلى الدفاع خطوة فخطوة، وكانت حميتاهما متماثلتين، لكن فولتير المهتاج أضحى

مثارَ تهكـُم. ولقد بالغ إلى حد أنه جعل هيكله العجوز يرتجف ثم صاح على نحو مباغت: «آه! إني مريض، والدنيا تدور بي»، وجر نفسه إلى كنبته، ثم عاد إلى وعيه، وعاد بوزويل إلى موضوعات أقل رهبة.

حين اطمأنت نفس فولتير، اعترف بآلهانيته، وبتقديسه الكائن الأسمى، ورغبته في أن يشابه صانع كل خير. أما بشأن خلود الروح: فلا شيء! فلا هو مع، ولا هو ضد، وهو سؤال لا مجال لطرحه، وإلا فإن بوزويل سوف يعيد إشعال الحرب. لكن بوزويل الصافي السريرة يريد لفولتير أن يؤمن بخلود الروح، لكن الثعلب العجوز أصر على أن يهز رأسه بلا رحمة، وتوسل بوزويل إليه؛ إذ لا يسعه التسليم بأن لذلك الرجل العظيم أن ينفصل عن روحه الربانية، فسأله: «هل أنت صادق في الأقل؟»، فأجاب فولتير: «أجل، أنا صادق أمام الله»، ثم أضاف: «إني أتألم، إني أتألم كثيرًا، إني أتألم بصبر واستسلام، لا بوصفي مسيحيًا، وإنما بوصفي إنسانًا».

وتلك هي الكلمة الأكثر إيحاءً في حديثه مع الإيرلندي الجريء والفطن. لا بوصفي مسيحيًا، وإنما بوصفي إنسانًا.

وتحدثا عن شكسبير، فقال له فولتير: «لديه في الأغلب بيتان جيدان، لكنك لا تقع على ستة أبيات أبدًا، وهو مجنون بالله! ومجنون بالمعرض!» وجأر صارخًا بمقاطع (من شكسبير)، «سوف أخسر، قسمًا بالله، والجميع قديسو الجنة. آه! إني أركب ظهر كبش أسود فيا لي من داعرة...».

بوزويل: سوف أقول لك لماذا نحن معجبون بشكسبير.

فولتير: لأنكم بلا ذوق.

فحاول بوزويل أن يدافع عن قضيته.

فولتير: أوروبا كلها تقف ضدكم: فأنتم على خطأ.

بوزويل: ذلك لأننا نتمتع بأعظم خيال خارق.

فولتير: الخيال الأكثر انفلاتًا!

بوزويل: فما رأيك بالكوميديا لدينا؟

فولتير: كثير من الذكاء، وكثير من الدسائس، وكثير من الفوضى.

بوزويل: جونسون رجل مستقيم وتقليدي تمامًا، لكنه عالم كبير وذو عبقرية واسعة.

فولتير: إنه كلب إذًا! كلب متطير، فما من رجل ذي قيمة كان متطيرًا يومًا.

بوزويل: يقول جونسون إن فريدريك الثاني يكتب مثل سائس الخيل لديكم.

فولتير: فهو إذًا رجل حصيف، وهل أنت ذاهب لرؤية المطالب بالعرش في روما؟ (المقصود بذلك جاك ستيوارت المطالب بعرش إنكلترا والمنفي في روما).

بوزويل: كلا، فتلك خيانة عظمى (بحق سلالة هانوفر).

فولتير: أعدك بأني لن أقول ذلك لملككم، فأنا لن أغدر بك، ولسوف ترى رجلًا متعصبًا وكائنًا شقيًا. وإن ابنه لأسوأ منه، فهو مخمور على الدوام، ويضرب النساء، فينبغي أن يُصار إلى ضربه.

ذلك بشأن المطالب بالعرش: وأسوأ ما في الأمر أنه صحيح. أما بشأن الحيوية التي يقوم بها فولتير بقلب الكلمات، فإن هذا الحوار يقدم لنا مثلًا جيدًا؛ فحين يقول له بوزويل إن جونسون مستقيم وتقليدي، يفسر فولتير ذلك بكلمة «متطير»، ويضيف عليها الشتيمة: «كلب». والمعروف أن «الطيَرة» هي أم المفاسد الكبرى: الحقد على المسرح.

ولننتقل إلى السياسة.

فولتير: أنتم لديكم أفضل حكومة في العالم، وإذا ما صارت سيئة، فارموا بها في المحيط. إن تلك هي مهمة المحيط الذي يتعاوركم من كل جانب. وأنتم عبيد للقوانين، أما الفرنسيون فعبيد للناس، والإنسان في فرنسا إما أنه مطرقة وإما هو سندان، فهو يهوى أن يَضرِب أو ينبغي أن يُضرَب.

بوزويل: لكنها مطرقة خفيفة... ولطيفة...

فولتير: أجل، مطرقة توضع في الجيب. نحن مهملون جدًا حتى لـيَستطيعَ الذين يحكموننا أن يقطعوا رؤوسنا، نحن على سوية الأرض، فهم يطؤوننا بأقدامهم.

استوقف بوزويل الأب آدم لدى انتقاله من باب إلى آخر، وسأله عن رأيه في دين فولتير، فحصل منه على الجواب الآتي: «أنا أصلي للرب كل يوم من أجل فولتير، وقد يروق الرب أن يلامس قلبه وأن يمنحه الدين الحقيقي. إن من المؤسف ألا يكون مسيحيًا، فهو على جانب كبير من الفضيلة وروحه جميلة جدًا، وهو مليء بالسخاء والمحبة، لكن في موقف معاكس تمامًا للدين المسيحي. وحين يكون جادًا، أحاول أن أقول كلمة صغيرة، أما حين يكون سيئ المزاج ويرشق بسهامه، فإني أفضل التزام جانب السكينة»، ولا سيما أنه يرشق أحيانًا بعصاه وبكل ما يقع في متناول يده، وعلى الرغم من أن الأب لم يشعر بالدعوة إلى أن يسقط شهيدًا، فإنه منصف حيال من يصنع له الخير ويتسبب بإغاظته، فيبدو فولتير وقد صار معاديًا للمسيحية عداءً حاسمًا ونهائيًا. ويضيف الأب الصالح قائلًا: «لكنه على جانب كبير من الفضيلة وروحه جميلة للغاية...».

ولئن لم يكن بوزويل ذا روح جميلة، فقد كان بكل تأكيد ذا روح خيرة، لأنه يريد الخير لليسوعي، وكان يتمنى أن يجري تحسينًا على فكره بمنعه من الإيمان بالجحيم. وكان يلح، ويلح، في سبيل أن يشطب الكاهن الجحيم من معتقداته، وما كان الكاهن ليتراجع قيد أنملة، لكنه بدافع من الود حيال بوزويل، أذعن في النهاية، فقبل بأن يقول له إنه إذا لم يكن هنالك من جحيم حقًا، فسوف تكون سعادته بالغة.

قبل أن يغادر بوزويل فيرني، قام بالكشف عن مكنونات صدره.

بوزويل: حين جئت لأراك، كنت أظن أني سوف أرى رجلًا عظيمًا، ورجلًا شريرًا جدًا.

فولتير: أنت، إنك لرجلٌ صادق.

بوزويل: أجل، لكن الصدق يُلزِمني بالاعتراف بأني أخطأت. إن معجمك الفلسفي يسبب لي الاضطراب، ولا سيما مادة: الروح.

فولتير: إنها مادة جيدة.

بوزويل: كلا، اعذرني. أليس الخلود جميلًا في نظر الخيال؟ أليس أكثر نبلًا؟

فولتير: أجل. فلديك الرغبة النبيلة في أن تصير ملك أوروبا، فتقول: أتمنى ذلك، وأنا أطلب منك الحماية، لكن ذلك غير محتمل.

وبشأن الروح:

فولتير: قبل أن نقول إن تلك الروح قائمة، فلنعرف ما فحواها. أنا لا أعرف علتها، فلا يسعني أن أحكم... نحن جاهلون، وأنا مهرج مسكين.

بوزويل: ألا ترغب في عقيدة عامة؟

فولتير: بلى، إني أتمناها من كل قلبي. فلنجتمع أربع مرات في السنة داخل معبد كبير على وقع الموسيقا، ولنشكر الله على نعمائه كافة، فهنالك شمس، وهنالك إله. ولتكن لنا ديانة. وعندها فجميع الناس أخوة.

في يوم السفر، كان فولتير مريضًا جدًا، فأبلغه بوزويل بخالص التقدير، وطلب إليه أنْ يسمح له بالانصراف. فبعث إليه فولتير بتحياته، وأخبره بأنه سوف يراه قبل ارتحاله. ونزل فولتير وهو بالمبذل، ودام الوداع ربع ساعة. كان بوزويل متهللًا جدًا، وكذلك فولتير، لأن بوزويل قد أخبره بأنه دوّن أحاديثه كافة، وكان الفيلسوف العجوز سيطرب أكثر لو استطاع أن يقرأ ما تمكنا نحن من قراءته في مذكرات بوزويل بعد إقامته في فيرني، «غادرت ذلك القصر وأنا في حالة نفسية خارقة تمامًا. لقد فكرت تفكيرًا عميقًا، وتساءلت هل سأستطيع، من بعد رجوعي إلى اسكوتلندا، أن أواصل الإحساس بأحكامي الطفولية المسبقة»، فيا له من انتصار!

تلك كانت مشيئتك، يا جان جاك...

كانت الأمور بينه وبين جيرانه أهل جنيف على خير ما يرام، فما عاد يقف أحد ليخاصمه بشأن المسرح: فالمجتمع الراقي كله يدعمه. وكان القساوسة معارضين، لكنه بادر إلى تهدئتهم: لقد أنكر الـ هنرياد، وما قيمة ذلك، ما دام لم يوقعها باسمه قط! كما أنكر كانديد الذي لم يوقعه باسمه أيضًا. وهذا هو رأيه في القساوسة: «ما عاد في بلاد كالفِن سوى بعض الحمقى الذين ما زالوا يؤمنون بالمشترِك بالجوهر. فالفكر العلني هو كما في لندن. وإن ما تعرفون هو هزأة». فالمقصود بكل بساطة بعبارة «ما تعرفون» هي ربوبية المسيح، أي الدين المسيحي، وباختصار هو «الخرافي». ولما كانت جنيف تستهزئ بـ «المرذولة»، كان يهتف: عاشت جنيف، وهذا يعني المضي أسرع من المشية الرسمية.

كان النزاع مع جان جاك يدوي منذ وقت طويل وهو على وشك تعكير العلاقات بين فولتير وقسم من مدينة كالفِن. فحين جرى في عام 1762 إحراق كتاب إميل ونفي روسو، ما عاد الشقي يدري إلى أين يتجه، لأن لم يكن في وطنه من هو راغب فيه، وكان مقتنعًا بأن فولتير هو السبب في ذلك كلـه. ولم يكن ذلك صحيحًا في عام 1762، لكنه أضحى كذلك في ما بعد بسبب الضراوة التي أبداها روسو فاستدعت ازدراءه. لم يكن لفولتير من علاقة قط بإدانة إميل في جنيف في 18 حزيران/ يونيو 1762، والتي تلت الإدانة في باريس، لكن روسو رفع الصوت في كل مكان صارخًا بعكس ذلك، وقد أحدث ذلك الافتراء جرحًا عميقًا في نفس فولتير، إذ غالبًا ما كان عرضة للاضطهاد، فهل يسعه أن يكون متواطئًا مع دسيسة لتوريط جان جاك الذي لم يكن حتى ذلك الحين يكن له أي ضغينة، في حين أن ذلك الشقي أُدين لتوه في باريس في محكمة عليا جانسينية؟ فالجانسينيون حققوا أعظم انتصار لهم بجعل اليسوعيين يُطرَدون، فكان من واجبهم أن يظهروا أن عهد «الأخلاق المتراخية» زال، بإعلانهم أن على الزندقة أن تلزم حدها وأن المحارق سوف يُعاد إشعالها. ولم يأتِ جان جاك بجديد حين قال إن أسياد المحكمة العليا أخذوا يعلنون، وبأصوات مسموعة، أنه لا طائل وراء إحراق الكتب، فالكتّاب هم الذين ينبغي أن يُحرَقوا.

نعرف أن فولتير قام بعرض مأوى على روسو المضطهد، بدلًا من الحقد عليه، لكن روسو يقول تارة إن ذلك العرض لم يُقدم البتة، وتارة إنه نسيه، ويقول مرة ثالثة إنه يفضل الموت جوعًا على القبول بضيافة فولتير، وإن الموقف الأخير هو الموقف الأصدق. فشهود كثُر يذكرون ذلك العرض. ويدون دولوك، وهو صديق لروسو – وعدو لفولتير – أن فولتير كلفه بإقناع روسو بالمجيء والعيش في فيرني، وفي منزل سوف يتولى فولتير إعداده له. لكن دولوك وروسو ظنا وجود فخ يقوم الشيطان بنصبه! ومع ذلك كان دولوك مترددًا، لأن فولتير أحسن استقباله حتى صار يتساءل أحيانًا ما إذا كان فولتير يحب روسو حقًا، وكان على وشك الإيمان بذلك، لكن تلك الفكرة ما كان لها أن تخطر ببال روسو البتة، لفرط ما كان راضيًا بما يتعرض له من كراهية حتى بات يستثير تلك الكراهية ليجد نفسه في البيئة التي تلائمه.

أما في واقع الأمر، ولئن كان فولتير يحس بالشفقة حيال الرجل، فيتولاه

إعجاب حقيقي بكاتب أسقف من سافوا. ويروي السيد فيغوبر، وهو محام كان يتابع قضية كالا، أنه كان مرة في فيرني، جالسًا بين السيدة دوني وفولتير، وفيما هم يشربون القهوة وصل البريد من باريس. وقام فولتير بفتحه، «فتغير شكله واكفهر وجهه»، وناول الأوراق للمحامي، فقرأ نبأ الإدانة الجديدة لكتاب إميل. «ما عاد السيد فولتير يقوى على التحمل، فأخذ ينتحب، ثم قال بتلك النبرة شبه الرسمية والتي تميز صوته الأجش، هاتفًا مرات عدة: فليأتِ! فليأتِ! سوف أستقبله معانقًا، فيكون هنا هو السيد قبلي، ولسوف أعامله كأنه ابني». ربما يسعنا القول إن فولتير قام بأداء كوميديا من ابتكاره، إلا أننا نعرفه بما فيه الكفاية فنكون حذرين عند الضرورة. إلا أنه، في هذه الحال، وإذا ما نحينا المبالغة جانبًا، كان صادقًا. ولو كان فولتير يكره روسو، على قدر ما كان يتراءى لروسو، لما قام بأداء ذلك المشهد. ونحن نعرف أنه حين يكره، فبعنفٍ جنوني. فهل رأيناه يؤدي مشهد البكاء هذا لأن فريرون أو روسو الآخر، أو دولابوميل أو ديفونتين سوف يتعرضون للنفي؟ كلا، ولكن جان جاك هو الذي قام بتأجيج نار الحقد فالتهبت في نهاية المطاف، ونحن نعترف لفولتير بأنه مادة شديدة الاشتعال.

إن الإغراءات كافة التي قدمها فولتير لجان جاك، كان هذا الأخير يرد عليها قائلًا إن فولتير له مصلحة في المصالحة معه؛ ذلك أن جان جاك، ومن بعد إيلوييز الجديدة وبعد إميل، صار شخصية، صار شخصية أدبية، لكن تكبره أعمى بصره. فيا لمنظوره الخاطئ للمجتمع! فالسيد فولتير، من الناحية الاجتماعية، هو سيد فيرني، وهو الشخصية، فشهرته ذات أسس أكثر عراقة ورسوخًا، وهي «رسمية» أكثر إذا ما صح القول، ولم تكن لفولتير من مصلحة في التقرب من جان جاك. وليس المقصود هنا الحكم على عبقريتهما أو فضائلهما أو المزايا التي يتمتع بها كل منهما، بل المقصود اعتبار علاقاتهما ضمن المجتمع في العصر الذي هما فيه. فحين كان فولتير يميل نحو روسو، فليس له ما يكسبه. رفس جان جاك بقدمه العروض التي قدمها له من كان هو يطلق عليه لقب «المهرج» و«الفاسد» و«تلميذ اليسوعيين» و«سيد فيرني الثري»، وإن ذلك صبياني وسمج، فهو يعتبر أنه يحتكر حقوق الفضيلة كافة، بل الفضيلة الأسمى بين الفضائل كافة: الفضيلة الشقية، ومن ثَم السامية، ما يعني لا يمكن التعامل معها.

هنالك رجل من جنيف اسمه مولتو، كان يكره فولتير مع مواصلة التردد عليه،

وكان يدعم جان جاك، فكان يقول له إن سيد فيرني لديه شغف كبير بالمصالحة، وإنه يُخشى على المرء أن يؤخذ بأقواله المعسولة. وكتب يقول له مرة: «ما عدت أفقه ما حقيقة الأمر، فهو كوميدي بارع، وأكاد أقسِم على أنه يحبك»، فعلى ذلك النحو كان الأصدقاء المخلصون يعِدّون العدة للمصالحة.

لكن روسو التزم بدور ولم يتراجع عنه: «لو كان فولتير صادقًا، لفتحت له ذراعي، لأن من بين الفضائل المسيحية كافة، فضيلة نسيان الشتائم وهي أخفها علي، وأقسم لكم على ذلك»، لكن ذلك يستدعي الابتسام، فما الذي يمنعه، إن كان قد نسي الشتائم، من أن يهرع إلى فيرني التي فتحت له أبوابها؟ أما فولتير، فلا يقول من جانبه إنه نسي الشتائم، وهو لا ينسى أبدًا. والحق أنه نسي تمام النسيان تلك التي ألحقها بروسو، وهو في أي حال لم يشتمه: لقد أشفق عليه، أما الأسوأ في نظر روسو، فهو أن فولتير لم يبدُ عليه حتى التأثر بإهاناته، فقد اعتبرها فولتير شطحات لسان رجل تعيس جدًا ومشوش الفكر بعض الشيء، وبدت له العبارات: «إني أكرهك» المتكررة صرخات طفل مريض وقليل التهذيب على وجه الخصوص. أما التنازل المشوب بالشفقة من جانب فولتير، فردّ عليه روسو بقوله: «لا تمهيدات على الإطلاق! فذلك سيكون تخاذلًا»، لكن فولتير هو الذي قام بالتمهيدات! ومن دون أن يخشى المذلـة، فهو قد انحنى صوب روسو، لكنه لم يهُن. إنه يقوم بالتمهيدات بالسلوك العفوي الكامل، بل ربما لأن الأمر مع جان جاك ليس بذي أهمية. أما الآخر، المعذب، فيتصلـب في كبريائه وفي الغيرة من كل ما يمثـل فولتير ومما هو محروم منه، فيلتحف بؤسَه وعجرفتَه ويتفوه بتلك الكلمة التي تعبر عن العزيمة الواهنة لجنون العظمة: «من المؤكـد أن خير ما يستطيع القيام به في سبيل عزه، هو أن يتصالح معي».

لم يفقد فولتير في عام 1763 شيئًا من عزه بسبب نزاعه مع روسو. وهو من ثم لن يزداد قيمة بسبب المصالحة، ولو كان لأحد الاثنين أن يربح شيئًا من احتكاكه بالآخر، فهو روسو.

وفي عام 1764، انتقل روسو إلى الهجوم عبر رسائل مكتوبة من الجبل، فهو يهاجم فولتير هجومًا مباشرًا لأنه جعل وطنه محظورًا عليه. والحال أن روسو هو الذي قام بنفسه، وعلى نحو لا يقبله العقل، بالتخلي عن حقه البرجوازي في جنيف.

ووجد حينذاك في تلك المدينة أصدقاء لدعمه، أي لمهاجمة فولتير. ولفتت تلك الفئة النظر إلى الفارق الكبير في الطريقة التي يعاملون بها في جنيف نفسها أجنبيًا ملحدًا، هو فولتير، وواحدًا مؤمنًا وفاضلًا من أبناء جنيف، هو روسو. فما السبب؟ لأن الأول غني والآخر فقير. وذلك هو النزاع بعد إجادة طرحه واحتدامه. ولم يجد فولتير صعوبة في البرهان على إدانة الهنرياد وكانديد ومسرحه. وهنا وشى روسو للسلطات بـ شاول (*Saül*)، وشن هجومًا دنيئًا على الكتابات المقدسة وعلى مؤلفها فولتير، وقال لأهل جنيف: «هاكم من تستقبلون ومن تكرمون بين ظهرانيكم. أما أنا، ابنكم، أنا الذي أخدم وطني، فتغلقون أبوابكم في وجهي»، وانقسمت جنيف ما بين هذا وذاك، وقامت الفتنة ما بين أنصار جان جاك وأنصار فولتير؛ إذ حصلت فتنة.

ارتاع فولتير، واستبد به السخط بسبب وشاية روسو؛ فدناءة الطريقة جعلت منه عدو جان جاك اللدود. إن القيام، في زمان الاضطهاد، بالوشاية أمام سلطات القمع، بمنافس، وحتى بعدو شخصي، في حين أنك وإياه على وجه العموم في المصاف عينه، ليبدو من أشد حالات الغدر، وحينذاك أضحى جان جاك «الأخ المزيف». ولسوف يصير من بعد، كما حال فريرون وديفونتين، مستحقًا أشكال الانتقام كافة. وأشكال الغدر كافة مباحة حيال الغادر. وفولتير لا يتأوه، فهو يتوجه في بدء الأمر إلى الجنيفيين الذين يتكلمون دومًا على المبادئ الصالحة، والكتب السيئة، ويحركون موضوع النزاع من محلـه. فيعيده فولتير إلى صعيد أقل مثالية لكنه يبدو صادقًا أكثر وفي متناول الناس الإيجابيين الذين تتناغم لديهم في الأغلب المبادئ الصالحة مع الصفقات المربحة. وكتب فولتير يقول: «إن لب القضية أن عددًا من مواطنيكم أعربوا عن استيائهم لأن أحد المواطنين أُبعِد عن بلده وأن أجنبيًا حصل على قطعة من الأرض في بلدكم، وتلكم هي حجر العثرة».

لا يزال هنالك كثير من الناس الذين لم يسامحوا مجمع الكرادلة لديهم، لسماحه لأجنبي وكاثوليكي بالاستقرار في مدينة كالفِن، لكن ذلك لم يرهب الشاب، ابن آل أرويه، فهو يُذكـر في الرسالة نفسها بأنهم إذا ما أقلقوه في جنيف، فهو فرنسي، وأنه دفع ثمن أرضه (غاليًا جدًا!) وأن حقـه في الملكية معترَف به اعترافًا شرعيًا، وأن ليراته الذهبية اكتسبت الجنسية على الفور، وأن أحدًا لم يسأله، لدى رؤيتها، إن كان كتب كانديد أو شاول. وينهي الرسالة بقوله: «إن هذا الجهد

الأخير الذي قام به أعدائي يبدو لكم جديرًا بالازدراء على نحو ما يبدو لي، وأعتقد أن علينا عدم إلقاء بال إلى هذا المكر الضئيل، وإن كل انفجار من شأنه الانتقاص مني يدفعني إلى الرد عليه بانفجار مماثل».

إنه فولتير الداعية إلى الحرب: فهو يقترح السلام ويستعد للحرب. أما وأن تهديداته، حتى وهي مموهة، ليست قط باطلة، فإن المعاندين من الجنيفيين سيعرفون عما قريب الانفجار الذي وعدهم به، فهو اتخذ استعداداته وقام بتعداد حلفائه: سفير فرنسا في جنيف، وسفيرها في تورينو، ورئيس الوزراء الدوق دو شوازول، أما داخل الساحة فلديه آل ترونشان وبعض العائلات الرئيسة في جنيف.

بادر، من دون أن ينتظر اعتداءات جديدة، فرمى بقذيفته الأولى، فجمع عددًا من الموضوعات، وكان قد بدأ بكتابتها في برلين عام 1752، تحت عنوان **المعجم الفلسفي المحمول**، فعمل على طباعته في أمستردام وأغرق به جنيف، واحتاط لنفسه بأن تولى إحاطة مجمع الكرادلة علمًا بأن هنالك من أخبره بوجود نشرة هجائية كريهة عنوانها، بحسب ظنه، المحمول، وقد بدأ يدور الحديث عنها في فيرني، وأن بعض الأشرار نسبوها إليه، وإن الأمر يتعلق بافتراء على درجة من الوضوح تجعله راغبًا في وقاية جنيف من تلك المنشورة المؤذية. ولكي يبرهن على حسن نيته، قال إنه في موقع يسمح له بنصح السلطات في جنيف، وإعلامها بأن حزمة من هذه النشرات سوف تدخل في اليوم الفلاني والساعة الفلانية عبر الباب الفلاني. والواقع أن الحزمة احتُجزت على نحو ما كان متوقعًا، لكن من كان يخطر بباله أن فولتير عمل على إدخال ست حزم أخرى مماثلة في الساعة نفسها ومن أبواب المدينة الستة الباقية، وأنه فوق ذلك كله هو كاتب تلك النشرات؟ وقد أتخِمت المدينة بالنشرات حتى عُثِر على بعضها موزعة فوق مقاعد كنيسة المادلين، وكان ذلك هو التحدي بحق.

إن هذا النوع من النشرات معروفٌ تمامًا لدى السكان في فيرني، فصانعو الساعات الذين استقدمهم فولتير من جنيف ليقيموا عنده كانوا يتلذذون بها؛ فهُم كانوا يجمعون النشرات وهم يتخفـون لأن عمليات التفتيش كانت مخيفة ويمكن أن تكون ذات نتائج خطرة، ويقال إن امرأة تقية كانت تتحسر لرؤية ابنها نهمًا لتلك القراءات الملحدة، فقدمت له الطعام ذات يوم وسألته عن رأيه به، فقال:

- لذيذ جدًا لكنه حار جدًا.

فردت عليه قائلة:

- لئن كان حارًا، فذلك ما ينبغي أن يكون عليه، لكن اذهب وانظر المخبأ الذي أقمته لفولتير.

فهي اكتشفت المخبأ، وقامت بإحراق النشرات كلها. وتدل هذه الواقعة على أن الشعب كان يعرف أن المؤلف هو فولتير.

إلا أن صديقنا الهجّاء كان ساخطًا على النمّام روسو، فكان يقول: «لو أن كلبَ ديوجين[43]، وكلبةَ إروسترات[44] رُزِقا بجرو، لكان ذلك الجرو هو جان جاك»، ولم تكن تلك الشتائم التي تقال بين الخاصة إلا متنفسًا للغيظ، فتلزمه شتائم علنية، فنشر في كانون الأول/ ديسمبر 1764 شعور المواطنين، وهي نشرة جديدة جاءت ردًا على رسائل من الجبل. ويكشف ناسك فيرني فيها عن نفسه من وجهة نظر غير متوقعة، فها هو يدافع عن المسيح وعن القساوسة الصالحين ضد جان جاك، «هل يحق لرجل وُلِد في مدينتنا أن يلحِق مثل تلك الإهانات بقساوستنا الذين هم، بمعظمهم أقرباؤنا وأصدقاؤنا وهم الذين يتولون في بعض الأحيان مهمة تعزيتنا؟». ويتساءل الكاتب قائلًا من هو جان جاك هذا في نهاية الأمر؟ هل هو عالم؟ هل هو كاتب كبير؟ «كلا! إنه مؤلف أوبرا ومسرحيتين كوميديتين فاشلتين». وينسى فولتير ما تبقى: مقالة حول عدم المساواة، وإيلوييز الجديدة، وإميل... وهل هو في الأقل أحد رجال الخير؟ كلا أيضًا. «نصرح والألم يعتصر قلبنا، ونحن نحمر خجلًا بأنه رجلٌ لا يزال يحمل الآثار المشؤومة لحياته الفاسقة وأنه يتنكر في مظهر مهرج ليجر معه، من قرية إلى قرية ومن جبل إلى جبل، تلك الشقية التي تسبب بموت أمها والتي وضع أطفالها على باب أحد المشافي، رافضًا الرعاية التي عرض أن يوليهم إياها أحد الأشخاص المحسنين، كافرًا بعواطف الطبيعة كلها مثل تجريده عواطف الإنسان والدين».

---

(43) ديوجين الكلبي، فيلسوف إغريقي، عاش بين القرنين الرابع والخامس، ق.م. وكان يزدري الثروة، والاعتبارات الاجتماعية، فيراها عوائق في وجه الحرية. (المترجم)

(44) رجل نكرة من أفسس، في القرن الرابع ق.م. رغب في تخليد اسمه، فقام بإحراق معبد الربة أرتيميس، في أفسس. (المترجم)

إن ذلك الأمر لبغيض، وهو تقريبًا صحيح، لكن الطريف في الأمر - وربما لم يكن مسليًا في نظر روسو - هو النبرة. فالعبارة ذات نفَس وفصاحة وإثارة للعواطف خالية من السخرية، وهي كلها أقرب إلى روسو منها إلى فولتير، فهو يقلد العدو كي يُحسِنَ إصابته.

يمضي إلى أبعد من ذلك، فلا يدل المجلس على مؤلف روايات فاسدة فقط، بل يدل على عدو اجتماعي لا يهاجم الإيمان فقط بل الأساس نفسه الذي يقوم عليه المجتمع. مجتمع جنيف الصالح والموسر، والمستقر على أركانه استقرارًا صافيًا. والمسألة لا تتعلق بالأدب أو الفلسفة أو الميتافيزياء، بل تتعلق بالعصيان. ويسدد فولتير هذا السهم القاتل: «لكن ينبغي له أن يعلم أن العقوبة التي تُنزَل بروائي جاحد عقوبة خفيفة، أمّا العاصي الدنيء، فتُنزَل به العقوبة القصوى...»، ولا يتردد في أن يدل الجلاد على روسو... لقد أردتَ ذلك يا جان جاك... فهاك حقدك!

تسببت تلك الأهجية بألم رهيب لروسو، وهو لم ينسبها في بدء الأمر إلى فولتير، بل نسبها إلى قس فيرن من جنيف، من دون دليل آخر سوى «إحساسه الذي لا يُخطئ» وفقًا لقوله، فاتهم ذلك البريء فولتير الذي لم يدافع عن نفسه. وظل روسو يُعمِل في فولتير تمزيقًا في رسائله كافة، وسعى بوفون الذي أفزعه عنف روسو، إلى جعله أكثر اعتدالًا، وحثه على ترك مثل ذلك العدو الخطر راقدًا. لكن روسو عازم على الحرب، ويريد تعريض نفسه لمزيد من الاضطهاد. «بعد أن يكون المفتش (نسبة إلى محاكم التفتيش) فولتير قد أحرقني، فلن يكون الأمر مسليًا في نظري، وأنا أعترف بذلك، لكن عليك أن توافقني أيضًا على أنه لن يكون أكثر من ذلك بالنسبة إلى القضية».

ولنعترف من بعده أن تلك الصلابة كلها، في سبيل تلقي الطعنات، لجديرة بالمكافأة.

نجمة سميراميس تغشي على نجمة سليمان الشمال من غير أن تُطفئها

في آب/ أغسطس 1764، كتب فولتير إلى القس برتران يقول: «عزيزي الفيلسوف، قطعت، والحمد لله، كل علاقة لي مع الملوك»، لكن ذلك غير صحيح على الإطلاق. والحق أن فريدريك، ومنذ عام 1761، ما عاد يرد على رسائل

فولتير. وفي المقابل، بدأ فولتير مرحلة من التظارف مع كاترين الثانية، قيصرة روسيا. وحين يكون فيلسوفنا مرغمًا على تحمل تبعات استياء فريدريك، يطلق على ذلك «التخلي عن أباطيل هذا العالم».

«ما عدت أعرف سوى الاعتزال، فصرت أدع للسيدة دوني مهمة تقديم الطعام لستة وعشرين شخصًا وأداء المسرحيات للأدواق والرؤساء والوكلاء والشخصيات من العابرين الذين لن نراهم أبدًا. أما أنا فأستلقي فوق سريري وسط ذلك الصخب وأغلق على نفسي الباب»؛ وذلك لكي يتظارف على نحو أفضل مع سميراميس الشمال التي كانت في موضع ملائم لتحل محل «سليمان الشمال» المتخاذل (فقد حظوته، وفقًا لقول الملك فولتير).

بدأت الغزَلية مع ذكريات بطرسبرغ بتاريخ بطرس الأكبر الذي رغب فولتير في كتابة سيرته، وكتبها في الواقع، ضمن شروط سيئة؛ إذ لم يكن بحوزته سوى القليل من الوثائق، لكنه كتبها مع أفضل المشاعر لأنه كان راغبًا في جعل بطرس أكبر أيضًا مما كان. ومع ذلك، فإن الروس، الذين أثار اهتمامهم ذلك العمل، لم يرسلوا إليه سوى معلومات نادرة، ومتأخرة في الأغلب تأخرًا يثبط الهمة. وتحمل فولتير عناءً كبيرًا في سبيل نتيجة ضحلة. وظهر الكتاب في عام 1759، ثم أعيد نشره في عام 1763، واسترعى انتباهه مسافر عائد من روسيا إلى أن كتابه حياة بطرس الأكبر يعج بالأغلاط، فردّ بطريقة المداورة المألوفة لديه: «يا صديقي العزيز، لقد أعطوني عباءات مبطنة بأحسن الفراء وأنا شديد التأثر بالبرد»، فنلاحظ أنه لم يكن يقيم لذلك العمل ما كان يقيم من أهمية لكتابه عصر لويس الرابع عشر، وكان له أن يشعر بالسعادة فيما لو عرف أن إليزابيت، وهي آنذاك القيصرة، وابنة بطرس الأكبر، كانت راضية. وحين علم بذلك غمرته البهجة، وجاءته في المقابل رسالة من فريدريك، وهي من بين آخر الرسائل قبل فترة القطيعة، وتظهر أنه كان شديد الاستياء وهو يرى فولتير يضيع وقته في كتابة تاريخ عاهل بربري. وشكا فولتير ذلك إلى دالامبير: «يخبرني لوك بأنه مصدوم حتى الغضب؛ لأني كتبت تاريخ الدببة والذئاب، ومع ذلك كانوا في برلين دببة في غاية التهذيب»، كذلك شكا أمره إلى سفير روسيا، الكونت شوفالوف.

«سيدي، علي أن أبوح لمقامكم واهتمامكم الطيب بي، بأن ملك بروسيا كان

شديد الاستياء من قيامي بكتابة تاريخ بطرس الأكبر وإعلاء شأن إمبرطوريتكم. ولقد كتب لي مستخدمًا أقسى التعابير وتناول بالذم في رسالته كلًا من أمتكم والمؤرخ... لكنني مغتبط لأن إمبراطورتكم المبجلة، وابنة بطرس الأكبر، ستكون مسرورة للصرح الذي أقيم تخليدًا لوالدها على قدر ما كان ملك بروسيا مستاء منه». في 2 كانون الأول/ ديسمبر 1760.

هنا يعطينا رجل البلاط فولتير، ملخصًا صغيرًا عن موهبته، فهو يرمي بمهارة، إلى أن «الصرح» الذي تسبب له بحقد ملك بروسيا ينبغي أن يعود عليه في المقابل ببعض النعم من ابنة بطرس الأكبر، فما يخسره المرء في برلين يهبه الحق في أن يربحه في بطرسبرغ.

تلكم هي غارة أخرى يشنها عليه فريدريك، بروح استبدادية واضحة، فهو لم يتحمل قيام فولتير بإهداء تانكريد إلى المركيزة دو بومبادور. فتلك التراجيديا المكتوبة في 18 أيار/ مايو 1759، عُرضت في المسرح الفرنسي في 3 أيلول/ سبتمبر 1760، وكان فريدريك يروح ويغدو وهو يقرأ الإهداء والغيظ يأخذ بخناقه. والحق أنه لم يكن هنالك ما يستدعي ذلك. وكتب إلى فولتير رسالة قاسية ملؤها الازدراء، وهو يلومه على سطحيته وتراجعه، مذكرًا إياه ببعض الأبيات من الـ هنرياد حول المحظية المقيتة، ولم يكن ذلك كله خاطئًا... لكن هل كان من واجب فريدريك توجيه تلك الملامات إلى فولتير؟ فقد كتب فريدريك في رسالة إلى دارجان يقول على الفيلسوف: «إن كل ما يمسه لا يعنيني البتة». (وذلك غير صحيح، فقد كان يوعز بمراقبة فولتير ويستعلم عن المساعي التي يقوم بها كافة)، «فلندع هذا البائس يبيع نفسه في سوق العاهرات عبر بيع قلمه وغدر أحابيله وضلال قلبه».

حين يصير مكيافيلي قاضيًا، نلاحظ أنه متشدد حيال مكيافيلية الآخرين، والحق أنه يعبر بطريقة مكيافيلية أدنى من تعبيره بطريقة صديق أصيب بخيبة أمل: ذلكم هو الاستياء، وهو بعيد البعد كله عن اللامبالاة. كان فريدريك يعاني رؤية فولتير وهو يتقرب إلى فرساي، وخصوصًا رؤيته يتودد إلى القيصرة التي احتلت مكانه. وأرسلت إليزابيت إلى فولتير صورته مؤطرة باللآلئ: فسُرِقت على الطريق! فليكن ما يكون بشأن الصورة، إنما القيمة في صداقة القيصرة. وكتب وهو يتألق

طربًا: «الذي على أقل تقدير ملكة تنبسط بلادها ألفي فرسخ وتقف إلى جانبي، وذلك يخفف عني من حدة صراخ السوقة». في آذار/ مارس 1761.

وكان أحد أولئك الرجال السوقة يُدعى فريدريك الثاني!

بعد مرور عام على تلك الانطلاقة الجميلة، توفيت القيصرة إليزابيت، فكتب إلى ابنة شقيقته المركيزة دو فلوريان يقول: «خسرت خسارة فادحة»، لكنه قام بتعويضها من دون تأخير. ماتت القيصرة؟ عاشت القيصرة. فها هي كاترين الثانية: لم تكن الخسارة في التبديل، لكن التبديل لم يحصل من غير إثارة بعض الصعاب. اغتيالات، وحالات فجور ومؤامرات وعمليات غش وخداع لا يُبلَغ لها قرار... فماذا للفلسفة أن تفعل في تلك السفينة الموسكوفية؟ ينبغي للمرء أن يكون فيلسوفًا على طريقة سيد فيرني ليتجاوز ذلك كله، وأن يقوم، وهو يتهلل مرحًا، بالتوفيق بين تلك السياسة الروسية الراعبة والصداقة والإعجاب والمبادئ الفلسفية! أما المصالحة، فجرت على أحسن وجه: فالمصلحة والغرور قاما بإظهار المرونة.

عملت كاترين في البداية، وفي سبيل وصولها إلى العرش، على قتل زوجها القيصر بطرس الثالث، ويرجح أن هذا الأخير كان سكيرًا ومجنونًا، وعديم القيمة، وكان عنصر عرقلة في طريق زوجته التي عملت على خلعه عن العرش في 9 تموز/ يوليو 1762، ثم على تسميمه وخنقه بعد ذلك بأسبوع. ولم يرَ فلاسفتنا في ذلك من ضير يُذكر، ولم تقم البلاطات والطبقات الراقية في الأمم الأوروبية برفع السمعة الطيبة لكاترين، على قدر ما قام بذلك فلاسفة باريس. وإن كاترين التي كانت امرأة متفوقة، ليس فقط في فن الوصول إلى العرش وهي تخطو من فوق جثة زوجها، بل بالذكاء الاستثنائي والثقافة والذوق الرفيع، كانت تعرف فولتير، فهي قرأته وتعرفه كما يعرفه الجميع، عبر تقارير المسافرين والدبلوماسيين، وكان لديها حول الشاعر معلومات أكثر دقة جاءتها من السيد بيكتيه، وهو جنيفي وفي عداد الذين كانوا يألفون الديليس؛ إذ شارك في التمثيل. وفضلًا عن ذلك حصلت على معلومات ممتازة من سفير فرنسا في بطرسبرغ، من آل بروتوي، وهو ابن شقيقة لإميلي، وقد عرفه فولتير طفلًا مثلما كان يعرف عائلة بروتوي كلها. وشيئًا فشيئًا نما في خيال كاترين الخصب، ذلك الاعتقاد بأن فولتير هو أفضل كاتب مؤهل لإنارة النفوس المكتئبة في أوروبا حول سلوك إمبراطورة روسيا وفضائلها؛ إذ يبدو أنها لما تنل في أي مكان ما تستحق مؤهلاتها الطائلة من تقدير.

كتب بيكتيه إلى فولتير ضمن ذلك المعنى، وأما فولتير الذي كانت حساسيته تفوق أفضل الأجهزة في العالم لالتقاط الأنباء في اللحظة نفسها التي سيبرز فيها الحدث، لم ينتظر طويلًا ليكتب إلى بيكتيه رسالة تعج بالمدائح، وتعبّر عن توالي الحوادث السعيدة الذي جعل العناية الإلهية تختار كاترين الثانية لتتربع على العرش.

وركن بيكتيه الرسالة سهوًا من دون شك، إلى أن وقعت تحت نظر الإمبراطورة، فاستحسنتها كثيرًا، لكنها لم تكن تلك المرأة التي تكتفي بقصيدة غزلية: إنها تريد، إذا ما استخدمنا لغتنا الحديثة، قيام «حملة صحافية» متناغمة عبر العواصم كافة، وتحت إشراف قائد الأوركسترا فولتير. فمن الضرورة أن يقوم الملوك بتبادل المصافحة.

ولما لم يتلق بيكتيه جوابًا عن رسالته الأولى، وهي رسالة مقنِعة، لكنها صيغت بعبارات مموهة، كتب واحدة أخرى. وأما فولتير، الثعلب المرهف الحس، فلزم جانب الصمت، فهو ليس في عجلة من أمره ليشيد علنًا بمناقب امرأة عملت على قتل زوجها. وكانوا يعرفون في فيرني، كما الحال في البلاطات كلها الحسنة الاستعلام، بوجود خصم لكاترين، أسمه إيفان، هو منافس يطمح إلى تسلُّم العرش، متسلحًا بمسوغ، وزاعمًا أن لديه حقوقًا في العرش أكثر منها. وبات معروفًا أن له مؤيدين، وأن قسمًا من الشعب يقف إلى جانبه. وعلى ذلك كان عدد كبير من الناس، وبينهم فولتير، يرى أن تاج روسيا لمّا يستقر فوق تصفيفة شعر كاترين، واعتقدوا أن من الأفضل انتظار رسوخ أسس الانتصار كيما يهب لنصرتها. وذلكم ما كتب في 13 آب/ أغسطس 1772 إلى السفير شوفالوف لدى موت بطرس الثالث: «يدور الكلام على مغص شديد أودى بحياة بطرس فأنقذه من الغم البسيط المتمثل في فقدان إمبراطورية تمتد بطول ألفي فرسخ»، أما وقد جرى التخلص من القيصر على ذلك النحو، فها هي مشاعر فولتير حول تلك النهاية: «أصدقكم القول إني أخشى أن أكون ذا قلب فاسد ما لم يتسبب لي ذلك المشهد بالصدمة كما حال كل مسيحي مستقيم، ويمكن لذلك الشر الصغير أن ينجم عنه خير كبير. فحال العناية الإلهية، كما حال اليسوعيين في ما مضى، أن تستخدم كل شيء»، ولا يسع المرء أن يكون متمتعًا بالمرح والطلاقة لتبييض صفحة كاترين. أما وأن سفيرها لم يتوانَ عن إعلامها بمشاعر فولتير، فإنها باتت متيقنة من أن في وسعها الاعتماد عليه.

طلبتْ منه، في سبيل إغرائه، مسرحيات لتقديمها في البلاط، لا على خشبة المسرح، وكبار الأسياد هم الذين سيؤدون الأدوار في مسرحيات فولتير، فليرسل كل ما لديه، حتى الأعمال التي لما تُنشَر، وليكن على ثقة من الالتزام بالسرية. وكتبت له بخط يدها أنها «لم تُمسك بالريشة إلا لترجو السيد فولتير ألا يطري عليّ من قبل أن أستحق ذلك».

وأضحى أسيرًا على الرغم من تردده في أن يهتف عاليًا بتمجيد كاترين في بلاطات أوروبا كافة، وبانتظار ذلك، عملت من جانبها على اغتيال إيفان. وها إن العرش قد غدا مضمونًا لها، لكن صيتها صار مزريًا. وقال فولتير في مجالسه الخاصة إن النجاح ساحر يقوم بتسوية كل شيء، ويقوم بإطراء كاترين في رسائله وفي أحاديثه، فتنتشر أقواله، لكن ليس الجميع من رأيه. كتب في نهاية تموز/ يوليو 1763 يقول: «أخشى ألا يكن السيد دو برالان يحب إمبراطورتي الروسية؛ لأني أخشى أن يحرموني منها؛ إذ لم يبقَ لي سوى ذلك الرأس المتوج، وإني لفي أمس الحاجة إليه»، فكيف السبيل لأن يعيش، من غير عاهل ضمن خصوصيته، أليس كذلك؟

لم يكن الفيلسوف الوحيد الذي تستـر على جرائم القيصرة، فدالامبير الذي استدعته كاترين ليكون إلى جانبها، لم يكن على شيء من القسوة حيالها، ومع ذلك رفض الدعوة. وكان فولتير يقول عن دالامبير إنه لم يتمكـن قط، على الرغم من أنه مهندس ممتاز، من حل مشكلة بلاط كاترين، ويضيف إن «قضية إيفان جرى التعامل معها بطريقة بلغت من البشاعة ما يجعل المرء يقسم على أن توجيهها كان على يد الأتقياء».

عمد فولتير، في سبيل أن يعاقب كاترين على أنها تعاملت مع قضية إيفان المسكين بتلك الطريقة البشعة، إلى جعلها تنتظر إرسال المعجم الفلسفي المحمول مدة ستة أشهر، لكنه هو ظل ستة أشهر من دون تلقي رسالة من سميراميس: فكان ذلك فوق ما يقوى على تحمله فيلسوف اعتزل الناس. أما سميراميس فتعتبر من جانبها أن حرمانها ستة أشهر من فولتير، كان ثمنًا غاليًا تكبدته بسبب مقتل إيفان. ذلك الغبي الذي أراحت منه روسيا و«عصر الأنوار».

وقام دالامبير فنزع عن فولتير آخر وساوسه حين ضرب له هذا المثل: «من

الخير لنا أن نقتل الشيطان قبل أن يقوم الشيطان بقتلنا»، ومع ذلك، وجد فولتير أنه لأمر مؤسف، على الرغم من كل شيء، أن تنجر تلميذتهم كاترين إلى التخلص من ذلك العدد من الناس. فتلك السلسلة من الجرائم كانت سيئة، ليس بالنسبة إلى الأخلاق، بل بالنسبة إلى العصبة الفلسفية التي كانت كاترين زينة لها: «أوافقك الرأي على أنه ليس للفلسفة أن تُفرط في الزهو بهذا النوع من التلاميذ، لكن ما العمل؟ على المرء أن يحب أصدقاءه بعيوبهم».

ذلك أكيد، ولا سيما حين لا تكون عيوبهم إلا محببة، ولا يسع المرء أن يمضي إلى أبعد من ذلك في ميدان التساهل بشأن الصداقة. ويعلن فولتير قائلًا: «أنا فارسها حيال الجميع وضدهم، وأعرف حق المعرفة أنهم يأخذون عليها بعض الترهات بشأن موضوع زوجها، لكنها شؤون عائلية لا أتدخل فيها... وما كان لزوجها البشع أن يقوم بأي من الأفعال العظيمة التي تقوم بها محبوبتي كاترين كل يوم».

حين قرأت السيدة ديفان تلك الرسالة، اضطرت إلى معاودة القراءة مرتين اثنتين لتكون واثقة مما جاء فيه، فردت على فولتير قائلة: إن بطرس الثالث، لو قـُيض له أن يقوم من قبره فيقرأ «الترهات» و«تلك الشؤون العائلية»، لغرق في الضحك. أما والبول، عشيق السيدة ديفان، فكان أشد قسوة، «يجعلني فولتير ومعه كاترين أشعر بالهول، فيا لعملية قتل الزوج من موضوع للتندر...».

أضحت القيصرة، كما لاحظنا، «محبوبتي كاترين»، وما عاد من بعد يتصف برفع الكلفة بما يكفي، فتحولت التسمية في صالون فيرني إلى «محبوبتي كاتو»؛ ومن هنالك انطلق اسم «محبوبتي كاتو» ليبلغ أسماع أوروبا. وعلى ذلك انتشرت أسطورتها إمبراطورةً مستنيرة وليبرالية وذات نزعة إنسانية وخيرة، بل وعاطفية برقة، وبعيدة عن التكلف البعد كله!... كذلك انتشر شعور والبول: كاترين ذات سمعة منتقص منها ومعها فولتير أيضًا.

كانت الدوقة دو شوازول في غاية الاستياء من التفكه المضحك الذي يصدر عن فولتير بشأن «محبوبته كاتو»: «إنها نقية كالثلج، وموضوع محبة مرؤوسيها، وهي العز لإمبراطوريتها وموضع إعجاب الكون، وهي رائعة الروائع». وقالت السيدة دوفان للدوقة إنها أخجلت فولتير على سلوكه، ثم هتفت قائلة: «ألا ليته يحمر بسبب ذلك خجلًا!» لكن يبدو أن أمنيتها لم تتحقق.

حين اشترت القيصرة من ديدرو مكتبته ونظمت له مرتبًا ليتولى الإشراف على كتبه الخاصة، امتلأت نفس فولتير غبطة: «هل هجس ببال أحد خاطِر بأن يقوم السكيثيون (Scythes) ذات يوم بمكافأة الفضيلة والعلم والفلسفة في باريس بطريقة نبيلة، في حين أنها تلقى معاملة غير كريمة عندنا؟ فإليك أيها الفائق الشهرة ديدرو التعبير عن منتهى اغتباطي»، ومهما تفعل «محبوبتي كاتو»، فالحق دائمًا إلى جانبها. وماذا عن البولونيين الذين جرى استعبادهم؟ إنها إحدى الترهات الأخرى، ومع ذلك، ألم يكن للفلسفة أن تقول كلمتها؟ لا يهم، والبولونيون على ضلال، فهم لا يحبون سميراميس أو «محبوبتي كاتو».

حين تشن الحرب على السلطان التركي، لا يبقى من عذاب إلا ويتمنى فولتير لو يحل بذلك السلطان، فكل شيء ينبغي أن يغدو ملكًا لـ «محبوبتي كاتو» وعلى رأسها بلاد البلقان! فلتستولِ عليها! فيا له من هدف نبيل، لو تقوم سميراميس بإنقاذ موطن سوفوكليس! ولتأخذ اسطنبول لتعيد القسطنطينية إلى الحياة فتجعل منها عاصمة لها. وليس من شيء فائق العظمة أو فائق الجمال حيال «محبوبتي كاتو». وهو يعرب عن أسفه لبلوغه السبعين، وإلا... فهو يُلمِح إلى أنه كان سيمضي ليقاتل تحت لوائها، فيا له من مقاتل! ولِمَ لم يضع نفسه من قبل تحت تصرف وطنه؟ فالمناسبات كانت عديدة: فونتونوا! فونتونوا! صحيح أنه خرج بقصيدته من المعركة ظافرًا، فلِمَ لم يتوجه إلى ساح المعركة أيضًا؟ ذلكم هو فولتير. فالكوميديا لا تفارقه...

وهو أحيانًا ممثل عظيم جدًا في مسرحياته السامية مثل قضية كالا، وهو أحيانًا ممازح، بل مهرج عند الضرورة، فيقع تحت شجب جان جاك.

نحن نتذكر آلاته الحربية، ودباباته الآشورية التي أعاد إنشاءها، بناء على اقتراحه، السيد دو فلوريان الرائد في سلاح المدفعية، وعاد وزير الحربية، من بعد الدراسة، فرفضها. وشكل رفض فرساي صدمة له: فهو لم يخفِ أن هزائمنا في حرب السنوات السبع نجمت عن عدم وجود تلك الدبابات لدى الجيش الفرنسي، واقترح آلاته الحربية على كاترين الثانية، وفعل ذلك بحمية وإلحاح، ما جعل صاحبة الجلالة الإمبراطورية تنتهي بالرد... ردًا باهتًا جدًا. ولم يشأ أن يرى أن المُراد بذلك هو رفض مهذب، بل تظاهر بأنه فهم أنها بداية مفاوضات،

ورد على كاترين وهو يمنيها بانتصارات كبرى على الباب العالي، فأفسح المجال أمام خياله، ممثلًا فاشلًا، ليتيه، ورأى نفسه ملهم النصر لقيصرته وأداة ذلك النصر، وفضّل من جانبه، وهو الماهر في قراءة لغة البلاطات وفي تأويلها، إغماض عينيه حيال أضواء المنحدر، لأنه كان يمثـل أمام مشاهدة لا نظير لها: كاترين الثانية إمبراطورة روسيا بأرجائها كافة.

كل إنسان وله هذيانه، حتى العاقل جدًا، فرانسوا أرويه. وهكذا فإن دباباته الهجومية التي هُزمت في فرساي، عادت فمُنيت بالهزيمة في بطرسبرغ، لكن تلك الهزيمة بقيت سرًا.

إلا أن دبلوماسيته التي استخدمها لمصلحة «محبوبتي كاتو»، منيت بفشل أشد قسوة لأنه فشل علني.

صممت كاترين على تمدين أعوانها: فكانت تنسخ وتستعير ما وسعها الأمر، من أنظمة البلدان الغربية وعاداتها. وراودتها فكرة استعارة معلـماتٍ لتربية أطفال الطبقة الأرستقراطية الروسية.

وقع اختيارها على السويسريات، وعلى السويسريات الناطقات بالفرنسية، وكلفت فولتير بتبني ذلك التجنيد التربوي حيال السلطات الجنيفية.

جاء سفير روسيا إلى فيرني في عام 1765، ليشرف بنفسه على ذلك التجنيد. وعُثر على عدد من الفتيات اللواتي أبدين استعدادهن، بعد موافقة الأهل، للتوجه وحمل الأنوار إلى السهوب - أو إلى القصور - الموسكوفية، لكن سميراميس وإمبراطوريتها كانتا أبعد ما تكونان عن التمتع في جنيف بالسمعة الطيبة التي تتمتعان بها في فيرني. ولقد أبدى مجلس جمهورية جنيف ذلك بوضوح حين عارض سفر المعلمات معارضة حاسمة، وقام باستدعاء اللواتي كن قد سلكن الطريق، وثارت ثائرة فولتير فلجأ إلى آل ترونشان. لكن رد الطبيب الشهير جاء حاسمًا: «أيها السيد فولتير، يعتبر المجلس نفسه أبًا لجميع المواطنين، فهو، من ثم، لا يسعه القبول بذهاب أبنائه للاستقرار في بلاد تدور الشبهات حول ملكتها بأنها يسرت أمر قتل زوجها، وحيث تسود العادات المتحللة من كل وازع».

لم يكن فولتير يناقش المسألة من هذه الزاوية، فقد ذكّر بحق الناس في التصرف

بأنفسهم، وبلغت به الجرأة حد القول إنهم كانوا يدّعون الفتيات يسافرن إلى فرنسا وإنكلترا من دون معارضة... لكن أحدًا لم يكلف نفسه عناء الرد عليه بأن فرنسا وإنكلترا ليستا موسكوفيا، فترك له المجلس مجال الكلام وحُرِمت كاترين من المعلمات اللواتي وعدها فولتير بهن، وكأنما هو الذي يسن القانون في جنيف. وهكذا، لقنت الجمهورية الصغيرة، قيصرة عظيمة، درسًا لم يعرف فيلسوف كبير أن يلقنها إياه. ولقد قال: «كنت شديد الاستياء، ولا سيما أن الكونت شوفالوف كان عندي»، وأصيب السفير بالخيبة. فها هو فولتير يتدخل مجددًا في شأن ليس إلا من شؤون الجنيفيين، لكن هل يتراجع أمام القيام بشأنٍ يُهِم «محبوبتي كاتو»؟

بعث إلى كاترين، تعويضًا عن الهيئة التعليمية، بتراجيديا غير معروفة، مركونة تحت أوراقه، لتتولى أداءها الفتيات النبيلات، عنوانها قوانين مينوس. وكانت المسرحية خالية من العشق، مثل خلوها من الإبداع في أي حال، وذكر بحيطة وحذر أن المسرحية لشاب مجهول، إلا أنه موهوب جدًا، وتعرض لذكر دباباته: «وأقول مجددًا إني لست بقاتل، لكني سأغدو قاتلًا في سبيل أن أخدمك»، فيا له من فيلسوف مسالم يصير دمويًا حبًا بسميراميس.

فيما كان «يُكَتْرِن» (يهتم بشؤون كاترين) وفقًا لتعبيره، استغل المناسبة لإعادة وصل ما انقطع مع «لوك». فما علم ملك بروسيا حتى كتب إليه، وجاءه الجواب، الذي لم يكن حارًا جدًا، لكنه في النهاية خير من لا شيء. فقد كتب إليه فريدريك يقول: «ظننتك مشغولًا جدًا بسحق المرذولة، حتى لم أقوَ على الزعم أن في وسعك التفكير في شيء آخر». ومن حينها والرسائل تتواتر بسرعة وانتظام، بل يقع أن «السحر» يعود ليولَد من جديد، فيدع فريدريك نفسه تنساق معه. ويكتب قائلًا: «كلا، فما من شيخ يفوقك إمتاعًا... ولقد حافظت على كل ما في شبابك من مرح ودماثة»، وفي القول الآتي حماسة أكبر: «أنت تقوم بخلق كائنات فتسكن فيها: أنك بروميثيوس جنيف. ولو أنك لبثت هنا، لكنا نحن حاليًا شيئًا ما»، وإن تلك الـ«نحن» لعجيبة ومؤثرة. لكن ما عساها تكون تلك الـ«شيئًا ما»؟ ألم يحقق فريدريك النجاح الكامل؟ وهل كان ذلك الرجل الاستثنائي، وذلك العاهل الذي لا نظير له في القرن الثامن عشر، يعي أنه قد أخفق في حياته؟ «هنالك قَدَرٌ كامن في حيثيات الحياة لم يشأ لنا أن نتمتع بكثير من المزايا».

فيا لها من نبرة أسى وحنين! فبعد كثير من المنازعات والسلوكيات الخسيسة، كانت حيوية تقوم دائمًا باجتذابهما، الواحد بعد الآخر. ولسوف يقوم فولتير بالرد ليسحره مجددًا، وليزداد هو نفسه تعلقًا بفريدريك، لأنه يعرف أنه لا يسحر أحدًا كان بروسيًا.

ليس بين المعجبين بفولتير الذين لا يُمكِن إحصاؤهم كافة، من يمثل بالنسبة إليه صيدًا مهيبًا مثل ذلك الملك الذي يعُرف بقسوته وبطشه، لكنه خارق الذكاء. وإن عودة فريدريك تلك لتهبه نوعًا من الثقة والصفاء، وقد كتب إلى المركيز دو فلوريان في عام 1767، يقول: «إن هذا الملك يكتب لي كل أسبوعين مرة، وهو يقوم بكل ما أُريد».

قضية أخرى مظلمة

بينما قضية كالا تنتهي نهاية ظافرة لمصلحة فولتير وجماعة الفلاسفة، أُحيط فولتير علمًا بقيام قضية أخرى، على الشاكلة نفسها وفي المنطقة عينها، بدأت تقض مضاجع ذوي الضمائر الحية. حتى ليظن المرء بوجود تأثير سري يشجع قضاة لانغدوك على ممارساتهم الشنيعة.

ويتعلق الأمر بقضية سيرفان التي تعود حوادثها الأولى إلى عام 1760 في مقاطعة مازاميه. وتتكون أسرة سيرفان البروتستانتية من الأب، وهو مهندس مساح، والأم وثلاث بنات، الكبرى فيهن متزوجة. وكانت إحدى الأختين التاليتين، واسمها إليزابيت، ساذجة. وذات يوم توارت عن الأنظار. وبعد انقضاء نهار في البحث عنها، استُدعي الأب إلى دار المطرانية، حيث قيل له إن ابنته جاءت لاجئة تطلب اعتناق الدين (المذهب الكاثوليكي). أدخلوها على الفور إلى دير باسم السيدات السود (Dames Noires). والعجيب في الأمر أن تُبدي فتاة ساذجة مثل ذلك التصميم، ثم يتضح كل شيء حين نعلم أن مُرشدتها هي شقيقة المطران. وكانت تلك الشخصية تنصرف إلى نشاط شائع آنذاك يقوم على تجميع النفوس الضالـة. وكان التجميع يجري في بعض الأحيان خبط عشواء. ولم يُخفِ الأب أن ذلك الهروب (أو ذلك الاختطاف) يحز في نفسه، لكنه صرح بأنه على استعداد للرضوخ إذا كانت دعوة ابنته صادقة حقًا، بل سلم الرجل المسكين بأن ابنته أضحت في أيدٍ أمينة. فهل يسعه أن يقول ما هو أكثر تصالحًا؟

بعد فترة وجيزة صارت البنت الحبيسة مجنونة تمامًا؛ فهي تُصاب بهلوسة، فتتعرى من ملابسها تمامًا متوسلة أن يجلدوها. وترفض السيدات القيام بذلك، لكن إحدى الخادمات تأخذها بها الرأفة فتقوم بجلدها، فتبدأ الفتاة تجأر صارخة. إنهن يعذبنها. وباختصار، ما عاد من علاج لها سوى إلباسها ثوب الاحتجاز بالقوة، فوُضِعت سرًا داخل زنزانة. أما وقد غدا الإبقاء على تلك التائبة مستحيلًا، أعيدت إلى أهلها في 7 تشرين الأول/ أكتوبر 1760، بعد مرور سبعة أشهر على احتجازها، لكن ذلك لم يخفف من جنونها: كان الزواج هو الفكرة المسيطرة عليها، فكانت تقول لأول من تلقاه: «تزوجني!»، لكنها لم تقع على أحد، كاثوليكيًا أكان أم بروتستانتيًا. واستولى على أهلها الحزن العميق. فالفتاة تقع فريسة نوبات من الجنون المسعور فتهجم على أبيها أو على أمها، فما من سبيل سوى تقييدها. وما عاد في وسع الأب، وقد رأى بأي حال أعادوا إليه ابنته، سوى الكلام علنًا: لقد اتهم السيدات السود بإصابة ابنته بالجنون. وجرى تداول ذلك الكلام، فقررت السيدات والمطرانية الانتقام.

قامت السيدات برفع شكوى على سيرفان بأنه يسيء معاملة ابنته لأنها تريد اعتناق الكاثوليكية. ومن حينها وقع الشقي بين فكي الآلة الجهنمية التي سحقت كالا. فأرغموه على أن يقود ابنته بنفسه لحضور القداديس في الدير. وفيما كان في سفر قصير قاصدًا صاحب قصر في الجوار للتحقق من حدود أراضيه، جاء من يبلغه أن ابنته اختفت. وعاد ليجد بيته غاصًا بالناس، وامرأته استبد بها اليأس. وقيل له إن المجنونة نهضت عند منتصف الليل لتقول: طلع الصباح وهي ذاهبة لتأتي بشيء من الحطب. ولم تظهر. وقام الأب بالبحث عنها لكن لم يقع لها على أثر. وصدر عن كاهن المحلة قوله: «أينما كانت البنت المسكينة، فهو خير لها من عند أهلها»، فكانت العبارة القاضية! إنها المعادِلة للصرخة العدائية التي صدرت عن الغوغاء ضد كالا قاتلًا.

العبارة في ذهن الكاهن تعني أن البنت أخذتها السلطة الكنسية فوضِعت في الدير، لا كما سرى الاعتقاد بأنها قُتِلت. وانتشر في الأسبوعين التاليين الرأي القائل إن الفتاة أدخِلت إلى الدير مجددًا. وأيقن آل سيرفان أنفسهم بذلك. وذات يوم اكتشف بعض الأولاد الجثة في بئر قريبة من المنطقة. فلم يخامر أحدًا الشك في انتحارها.

لكن التعصب الذي يسمم كل شيء، شوه كل شيء. بدأت شائعة الجريمة تتجاوب أصداؤها شيئًا فشيئًا: آثر سيرفان قتل ابنته على أن يراها مرتدة. والحال أن سيرفان لم يكن في بيته عشية وقوع «الجريمة»، فقيل، إنها الأم. أما في حقيقة الأمر، فإن الأم استغاثت ساعة هروب المجنونة، فقيل من بعد إنها البنت البكر التي على الرغم من أنها حامل، قتلت أختها وقامت بجرها حتى البئر. ورُفِعت الحجة التي أثبتت نجاحها الكبير في قضية كالا: إن البروتستانت قتلة بفعل منهجهم، فتقوم إحدى عقائدهم على قتل أبنائهم الكاثوليك. وها نحن حيال جريمة مذهبية! فرفعت تلك الشائعة الشنيعة سعير التعصب لدى الغوغاء. وجرى العثور على قاضٍ حساس حيال الضغوط الخفية، ومستعد لأن يُعد مذنبًا كلًّ من يشار إليه بإصبع الاتهام. إنه يدين دونما وجَل، فصوت الشعب يسانده، مع دعم سلطة خفية لكنها قوية. وجرى العثور في مزاميه على مدع عام اسمه ترينكييه، هو تاجر سابق، تمكن في سبيل تأمين عيشه، من استحصال مرتب معلم في مدرسة مع أنه لم يمارس التعليم. وجرى تعديل التقرير الطبي الذي لم يجده القاضي ملائمًا للنطق بالحكم الذي قام بإعداده. وعلى الرغم من التساهل الكبير، دامت الدعوى أربع سنوات! ومن الصعوبة بمكان، في أي حال، إدانة رجل بريء مثل والد تلك المجنونة المسكينة.

صار الناس بالتدريج أكثر مسايرةً لآل سيرفان، إلا أن الذهول استبد بهؤلاء ذات يوم، حين أحاطوهم علمًا بأنهم مهدَّدون بالتوقيف، وبضرورة هروبهم. فتخلوا عن كل شيء، وتوجهوا ليلًا تحت المطر، فغاصوا في الأوحال للاختباء في الريف. وتوصلوا في أوضاع مريعة إلى قطع ستة كيلومترات في خمس ساعات. جرت مصادرة كل ما يملكون. أما وقد تمكنوا من الهروب، مضى كل واحد في سبيله. توجه الرجل سيرًا على قدميه، كالمتشردين، فانتهى بالوصول إلى لوزان عام 1762. أما النساء، فاختبأن في نيم. وضاعف القاضي في مازاميه من حماسته، فاستخدم الوسائل كافة للحصول على شهادة دامغة. ووقع حادث عجيب عرقل سير الدعوى: بدأت جثة المجنونة، المودعة في دار البلدية، بنشر رائحة كريهة إلى حد جعل الحرس الموكلين بحمايتها يبتعدون. وجرت الإفادة من ذلك - من جهة مَن؟ - لسرقة الجثة! وها نحن حيال جريمة قتل من غير جثة، لكن الحكم في الجريمة صدر على الرغم من ذلك: حكم على الأب والأم

بالإعدام شنقًا، وعلى الفتاتين الباقيتين في قيد الحياة بمشاهدة عذاب والديهما، ليُصار من بعد ذلك إلى نفيهما. أما وأن «المذنبين» هاربون - وحسنًا فعلوا! - فقد جرى التنفيذ تمثيلًا بعد خمسة أشهر على صدور الحكم. وجرى الاحتفال بذلك في ساحة بلو في مازاميه: قيل: إن الغوغاء المتجمعين لم يستسيغوا ذلك كثيرًا. لنتوجه بالشكر إلى أولئك الغوغاء.

قام مولتو بتقديم سيرفان إلى فولتير. وإن أمر مولتو هذا لعجيب، فكيف له، وهو من أكبر أصدقاء جان جاك، ويكره فولتير فيشهر به، أن يصطحب سيرفان إلى «مهرج» و«صديق لليسوعيين» و«فاسد»؟ ولـمَ لم يتوجه به إلى عند جان جاك؟ فهل صداقة فولتير أكثر جدوى وأكثر توقـدًا حيال الأشقياء من صداقة «الأكثر فضيلة وخيرة بين بني البشر»؟

ذلكم هو إطراء لا إرادي وذو دلالة كبرى على سخاء فولتير ومثاليته النضالية.

أما وقد أصغى فولتير لحكاية الحكم الدنيء الذي صدر في مازاميه، فقد لخصه على النحو التالي: «تخيلوا أربعة خراف - آل سيرفان - يتهمها الجزارون بالتهام حمَل: ذلكم ما رأيت».

وارتمى سيرفان على قدمي فولتير راجيًا ألا يكون حياله أقل سخاء مما كان حيال آل كالا. وقبـل فولتير بخوض المعركة، فكتب بتلك الرشاقة النضالية التي تزيده نشاطًا: «إن قَضية سيرفان لتضغط على صدري؛ فهي لن تتمتع بما كان لقضية كالا من ألق، فليس هنالك لسوء الحظ من أحد جرى تمزيق أوصاله على الدولاب. وهكذا بتنا بحاجة إلى أن يقوم بومون (محاميه) فيستدرك بفصاحته النقص الذي تعانيه الكارثة». في 7 تشرين الثاني/ نوفمبر 1765.

يا لسعد سيرفان الذي نجا برأسه، ويا لتعس القضية لأنه لم يُشنَق! ويغيظ ذلك صديقنا المماحك: كان واسع الاستعلام، حتى إنه كان يعرف أن القضية بتَّها قاض من رتبة دنيا، فينبغي قبل طلب إعادة الاعتبار، الاستئناف أمام محكمة تولوز العليا. ومرة أخرى! إنها، والحق يقال، لورطةٌ حقيقية. «ألا يُخشى على هؤلاء المساكين، آل سيرفان، إذا ما توجهوا إلى تولوز، من قيام القضاة الساخطين بتعذيبهم فشنقهم فإحراقهم، انتقامًا منهم بسبب الصفعة التي أصابتهم في قضية كالا؟» ولم تكن

الفرضية بعيدة عن الاحتمال؛ فقضاة المحكمة العليا أولئك قادرون على أن يدينوا مسبقًا، من هم في حماية فولتير.

ولحسن الطالع أن قضاة جددًا في المحكمة العليا حلوا محل قضاة 1760. فالرئيس باستار أبعد ما يكون عن المعاداة. وقام فولتير فسبر بمهارة أغوار أصحاب تلك القبعات والأثواب الفضفاضة كافة، فكان شديد الاطمئنان إلى ما علم به. ولسوف يخرج آل سيرفان سالمين!

لكن آل دارجنتال هم الذين باتوا غير راضين؛ فقضية سيرفان هذه أتعبتهم. وهم يجدون أن الناسك في فيرني مفرط في التحرك، حتى ليغدو مرهقًا. فها هو في سنه يباشر حملة على طريقة دون كيشوت، وعليه الخلود إلى الراحة، وأن يدع بسلام أصدقاءه الذين جندهم ضد قضاة مازاميه. ورجاهم فولتير أن يعذروه، فتلك القضايا تقبِل عليه إقبالًا طبيعيًا، وهو لا يسعى وراءها. وربما يقول قائل: «ذلك فيض هائل من الدعاوى المرفوعة بشأن قتل المحارم، ولكن، يا أحبائي، على من تقع تبعة ذلك؟» ليست عليه هو، ولا على القتـلة، ما دام المتـهمون ليسوا بقتـلة، بل على القضاة! إذًا فلنهجم على القضاة القتـلة! «سيرفان في بيتي، وهو في معرض كتابة براءته وهمجية الفيزيغوت، ونحن نوشك أن ننتهي، فالوقت يزحمنا». في 22 نيسان/ أبريل 1765.

وضعت العدالة العراقيل الممكنة كافة في وجه الاستئناف. وماتت الأم سيرفان المسكينة من شدة الألم، فأسف فولتير على ضياع شهادتها. «وأنتم ترون المصائب الرهيبة التي يسببها التعصـب». والتمس مساندة داخل محكمة تولوز العليا، لأنه بات يعرف كيف يجدها. وإن نشاطه عام 1765 ذاك لنشاط يسبب الدوار. فعدد الأشخاص الذين يراهم والذين يكتب إليهم والذين يرفع إليهم تقارير أو الذين يطلب إليهم موافاته بالتقارير، والذين يقوم بإطعامهم وتسليتهم وإطرائهم وعناقهم، لعددٌ يصعب تصديقه. وقام بين هذا وذاك، بإطلاق سراح بروتستانتي وضِع في سجن الأشغال الشاقة لأنه أصغى لموعظة ألقيت سرًا. فأفعمت الغبطة قلب فولتير لذلك النجاح: وأخبروه بحالات أخرى مماثلة. فاستأنف المساعي لإطلاق سراح أولئك التعساء. ولقد قبِل شوازول بالعفو عن الأول، لكنه رفض العفو عن الآخرين. وقال الوزير موجهًا كلامه إلى فيغوبر، محامي

فولتير: «ما كان ممكنًا بالأمس، ليس بالأمر المستطاع غدًا»، فيضيف فيغوبر قائلًا: «كان بوده إفراغ معتقل الأشغال الشاقة من نزلائه البروتستانت كافة، لكن ذلك لا يحول بينه وبين أشد التهكم عنفًا بحق كالفِن ورجالات كهنوته».

والأرجح أن ذلك عائد إلى أن كالفِن ورجالات كهنوته كانوا في نظره قيمين على «التعصب»، مثلهم في ذلك مثل الآخرين.

أبفيل الدامية: فولتير، في شدة من القلق، يعتزل في الطوباوية

تميز الجنوب بقضيتين شنيعتين، لكن الشمال لم يتخلف عنه؛ فقد عادل، بقضية واحدة، قضية تولوز ومازاميه. فيا له من عصر عجيب! فالقرن الأكثر تمدنًا والأكثر رقيًا، والذي ارتقى بفن العيش حتى الكمال، يذعن لاندفاع همجي يثير ذهولنا. إن عصر الأنوار والزندقة هو أيضًا عصر التطير الأشد سماجة. فازدهرت أكبر الشعوذات حماقة في أكثر الأوساط استنارة. وكان للساحرين كاليوسترو وسان جرمان كلمتهما المسموعة، فقد خدعا البعيدين عن السذاجة كل البعد. واتخذت النزاع الديني شكلًا سمجًا: فانصرف الجانسينيون إلى تشنجهم الهستيري وأشاعوا الإيمان بمعجزات حمقاء. والحق أن أنوار العصر لم تسطع إلا على القمم، في حين ظل السهل غارقًا في الظلمة بينما تمور الكهوف التي لا تحصى بعبقرية الظلمات البشعة.

لم يكن فولتير مخطئًا: «لست أرى من كل جانب سوى أشد المظالم همجية، فيتراءى لي أحيانًا، في أحلامي، كل من كالا والفارس دو لا بار. ويظنون أن عصرنا هزلي، بيد أنه رهيب. فتبدو الأمة أشبه ما تكون بقطيع من القردة، لكن بين تلك القردة نمورًا، وكانت تلك هي حالها دائمًا».

تلقت شرطة أبفيل، في آب/أغسطس 1766، أمرًا بإلقاء القبض على ثلاثة شبان من تلك المدينة، وهم: الفارس دو لا بار وغايار ديتالوند وفتى اسمه موانيل. فهرب غايار بحرًا، بينما قُبِضَ على كل من لابار واليافع موانيل. فما الداعي إلى تلك الملاحقة؟ لاحظ سكان أبفيل أن صليبًا مرفوعًا على جسر بون نوف، قد جرى تشويهه: هنالك أربع ضربات بأداة قاطعة أصابت الخاصرتين، وأصيبت إصبع في قدم. كما دُنِّس صليب آخر مرفوع في مقبرة بتلطيخه بالنجاسة. فأثار ذلك سخط الناس، لكن المَهم تحول إلى غضب

فلم يتوانوا عن طلب أشد أنواع العقوبة بفاعلي ذلك التدنيس. وبدأ التحقيق وسط هيجان جماهيري. ووردت أسماء سبعين شاهدًا: فما استطاع أحد منهم أن يأتي بدلائل. وأخيرًا حامت الشكوك حول شبان ثلاثة تميزوا بترهات ملحدة وبأقوال نابية ضد الدين. وجاء في تلك الأثناء أسقف أميان بناء على دعوة من سكان أبفيل، فوصل شخصيًا، حافي القدمين والحبل في عنقه، ليقر بالذنب جهارًا أمام المسيح الممتهن ليبعد المجازاة بالمثل التي لن تتوانى السماء عن إنزالها انتقامًا من المدينة. ويظن المرء أنه يحلم: المسيح يقوم بالانتقام مثل زيوس ونبتون وأرباب الوثنيين، ومن مواطنين أبرياء؟ لقد استنزل الأسقف، وهو رجل ذو قداسة، السماح الإلهي على المذنبين راجيًا الله «أن يُحِل عليهم أنوار نعمته». لكن ارتفعت، وللأسف، أقوالٌ أقل تُقىً لدى الحديث على أولئك الذين باتوا «يستحقون أقصى أنواع عذاب الدنيا». ومن المفهوم أن تكون كلمات الثأر تلك هي التي حفظها الرعاع، وهي التي تكررت على مسامع القضاة، ولما كان هؤلاء على أتم الاستعداد لإنزال «أشد العقوبة في الدنيا» بالمذنبين، فإنهم لم يتوانوا عن القيام بذلك.

استجوبوا موانيل، وكان في السابعة عشرة، فانهار. اعترف بكل ما رغبوا فيه، وحمّل نفسه حتى الإفراط، بل نسب إلى نفسه جرائم من اختراعه. وكان في حالة من الهلع تفوق الوصف، فكانت أجوبته بمنزلة الهذيان.

لم يكن لابار إلا في العشرين، فكان أكثر سيطرة على نفسه. ولم يعترف إلا بترهات، وبأقوال ملحدة، هي تلك التي يجري تداولها على مائدة خالته، وهي رئيسة دير فيلانكور وكانت تؤويه عندها. ولم يجد كبيرَ بأسٍ في تكرار أقوال اللاهوتيين الموقرين ورجالات المجتمع الذين تستقبلهم رئيسة الدير. وعثروا لديه على كتب بعيدة عن التقوى، وحكايات إباحية وعلى المعجم الفلسفي لفولتير. وعلى ذلك النحو التصق اسم الشاعر بالقضية. وهنا ارتفعت أصوات تطالب بتوقيف فولتير بوصفه متواطئًا ومحرضًا على التدنيس وأن يخضع للاستجواب كالمنفذين. وما لبث صدى تلك الأصوات أن وصل إلى فيرني، فعرت الفيلسوف رعدة ذعر تجمدت لها فقرات ظهره الهزيل. وكان التعذيب قائمًا فأخضِع له لابار فاعترف. ولو دفعت نزوة بأحد نواب الملك العامين للأمر بتوقيف فولتير وإخضاعه لـ «الاستجواب» بالماء والحديد والنار، لكانوا استجوبوه بكل يسر، ولكان عدد من الناس صفق لذلك التعذيب.

سارت الدعوى سيرًا شاذًا. فأحد القضاة خدعه رجل اسمه بيلفال، كانت رئيسة الدير قد أغلقت الباب بوجهه. وعدّ هذا السيد المحكمة مسؤولة عن ذلك الإجراء الرديء. فتصرف على نحو يمكّن موانيل اليافع من تبييض صفحته مع توريط لابار وأشخاص آخرين من الزمرة نفسها، فأذعن موانيل اليافع إذعانًا تامًا حتى أنه ورط ابن بيلفال نفسه الذي جرى توقيفه. ولقد تعلق الأمر بأشخاص يافعين جدًا أفسدتهم قراءة مبكرة، وخصوصًا - وتلك هي حال لابار الذي كان يتيمًا - بأولاد لُقطاء تركوا لأنفسهم في مجتمع من البالغين، كان يضرب لهم أمثلة مزرية. فكيف كانت رئيسة الدير تقبل بترك ابن أختها يجوب الطرقات والبيوت المشبوهة طول ليالٍ بحالها؟ ولِمَ كان السيد بيلفال يجهل أن ابنه عضو في العصابة؟ إن المشكلة معروفة. كان لابار وأصدقاؤه هم أصحاب «القمصان الذهبية» في ذلك العصر. ولا ريب في أنهم كانوا يستحقون الجلد والاستشفاء بالعمل، وكان ينبغي على وجه الخصوص وجود أهل ومستشارين جديرين بالاهتمام بهم.

لم تطرح محكمة أبفيل ذلك الكم من الأسئلة. وفي 28 شباط/ فبراير 1766 حكمت على لابار وديتالوند بالإقرار بالذنب جهارًا أمام مدخل كنيسة سان فولفران. فينبغي اقتيادهما أولًا في «طنبر»، والحبل في عنقهما، ليُصار من بعد إلى قطع لسانيهما، وهكذا جرى في عام 1765 إحياء تلك العقوبة القروسطية! أما بعد ذلك، فسوف يجري اقتيادهما إلى ساحة المدينة لإعدامهما بقطع الرأس ثم إلقاؤهما في النار.

لم يتعرض ديتالوند اليافع للتعذيب إلا تمثيلًا. وكان الحكم على موانيل وبيلفال الابن واثنين آخرين مع وقف التنفيذ، لكنهم يظلون خاضعين لوطأة الإدانة. ويبقى لابار...

لنقل، تخفيفًا عن سكان أبفيل، إنه ما من أحد صدق واقعية الذنب: لقد صدقوها شكلًا. وكان لابار وأسرته وأصدقاؤه والشرفاء في المدينة مقتنعين بأن محكمة باريس العليا لن تصادق على إدانة أبفيل. وكان الرئيس دومرسون، وهو نسيب آل لابار، على درجة من القناعة حتى إنه لم يشأ أن يعطي الحكم دعاية أكبر أو أن يوليه المزيد من الأهمية، فهو بالتالي لم يحرك ساكنًا في سبيل الحيلولة دون التصديق على حكم أبفيل. لكن قاضيًا اسمه باسكييه كان قد حظي بقطع رأس

لالي تولندال، طالب بضرب مثل من شأنه عرقلة تقدم الزندقة فحصل على الأمر بتنفيذ حكم أبفيل.

تحولت الآمال حينئذٍ نحو عفو ملكي. لكن العفو لم يصدر. ومات لابار بجرأة عظيمة؛ ذلك أنه، وهو الذي يفضُل الآخرين بحسن تربيته، سلك من بعد حماقة مرحلة المراهقة، سلوك رجل عزيز. وسعى فولتير ليجعل منه، في سبيل الدفاع عنه، عبقرية واعدة؛ فكانت تلك مبالغة. بيد أن لابار نم عن طبع صلب وذكاء عالي القيمة. وشعر في اللحظات الأخيرة بخيبة أمل عنيفة لرؤية الحشود تملأ النوافذ والساحة وقد جاءت تشهد تعذيبه كأنما هو عرض مسرحي. وآلمه أن يرى في المقصورات الأولى «أولئك الذين كنتُ أظنهم أصدقائي»، أي أولئك الذين كانوا يبكون لدى قراءة لانوفيل إيلوييز! وآثروا عدم قطع لسانه: لقد هدد بأنه لن يستسلم وأنه سيقاوم إذا ما باشروا ذلك التعذيب الشنيع. فتحولوا على الفور إلى قطع الرأس. واقتربوا منه ليقصوا له شعره، فقال: «هل تريدون أن تجعلوا مني صبيًا يخدم في الهيكل؟»، وسأل الجلادَ إن كان هو الذي أساء العمل لدى قطع رأس لالي في باريس، فقال الجلاد إنه هو نفسه حقًا، لكن التبعية تقع على لالي الذي لم يضع رأسه على النطع كما ينبغي. فقال لابار: «كن مطمئنًا. فسوف أقوم بذلك على خير وجه، ولن أتصرف تصرف الأطفال». فوضع رأسه على النحو الملائم، فلم يخطئه الجلاد؛ أطاح ببراعة جلية، ذلك الرأس الفتي والقوي، الذي بلغ العشرين عامًا. فصفقت السوقة لتلك المهارة، وأُسدِلت الستارة...

تلكم هي حكاية جريمة كان المجتمع كله مسؤولًا عنها. فلم يقل أولئك الشبان ولم يفعلوا إلا المثل الذي تعلموه من محيطهم. وكان دالامبير على علم بأن باسكييه، ذاك الذي طالب بضرب «مثل»، كانت لديه مكتبة فلسفية، فيها كتب زندقة، وكان يتلفظ بأشد الأقوال إلحادًا على موائد العشاء.

أما في فيرني، فالرعدة التي عرت كيان الفيلسوف لمّا تهدأ. وكان فولتير قلقًا جدًا، فهو يستعلم من هذا وذاك ليعرف إلى أين سوف تؤول القضية. ولقد راودته الرغبة في الهروب، فهو يشعر بأنه محاصر. كتب في تموز/يوليو 1766 قائلًا: «تراودني الرغبة في الذهاب لأموت في أرض حيث الناس أقل ظلمًا. فها أنا ألوذ بالصمت، مع أن لدي الشيء الكثير لكي أقوله». وكان يتكلم على ينبوع يعرفه

في منطقة فو، هو ينبوع رول الذي «تنفع مياهه الشيوخ الواهنين الذين هم بحاجة إلى وضع بلسم وطمأنينة في دمائهم»، ونحن نعرف ما يعني ذلك: إنه يسعى وراء معتزَل خفي، فتوسل كي يُصار لإعلامه بكل ما يجري في أبفيل. فهو خائف، لكن طاقته لمّا تُمَس، وكذلك حال روحه النضالية.

ويقع له أن يحلم: «من الممكن أن يقوم عما قريب حكم العقل والدين الحقيقي، فيجعل الجور والجنون يخرسان». ويعود فيستولي عليه الخوف من كل شيء من عالم المعتوهين، هذا الذي يعيش فيه: فيرى نفسه موقوفًا ومرميًا به في حفرة، حيث يجرونه وهو في قميصه، حافي القدمين والحبل في عنقه، وشمعة في يده، ليعلن توبته الصادقة أمام الحشود السادية من السوقة الذين من شأنهم أن يرجموه، وهم الذين هتفوا له في مسرحية زايير. أما خياله الرهيب وأعصابه الحية، فجعلته يعاني رعب التعذيب. وكانت تنتابه، كما في فرانكفورت، نوبات عنيفة من الغم حتى لتَرمي به في نوبة من الهذيان، كتلك التي أصابته يومًا، حين جعله الخوف من الاحتجاز بسبب العذراء، يغرق في هلوسة جعلته مجنونًا. فقد ارتعد فسقط وتدحرج على الأرض، ثم تسلق على الستائر وهو يجأر رعبًا. وتوصل ترونشان إلى تهدئته، فاسترد وعيه وقال للطبيب: «بلى يا صديقي، فأنا مجنون». وإن أكثر الناس وعيًا، كان جنونه كامنًا.

طلب حينها إلى فريدريك أن يمنحه ملجأ في إمارته في كليف. وأصيب هذا بالدهشة، غير أنه قبِل. «إن ذلك الملاذ مفتوح أمامك على الدوام. وكيف أرفض تقديم ذلك لرجل فعل الكثير في سبيل الآداب وفي سبيل وطنه والإنسانية: وأخيرًا في سبيل عصره؟». يبقى أن فريدريك لم يكن ساخطًا كما فولتير بسبب الحكم الذي صدر في أبفيل؛ فهو يرى أن القوانين وضِعت من أجل أن تكون موضع احترام.

ولئن كانت تعود إلى عهد قديم، فإن على الأمير القيام بتعديلها، لكن ما دامت قائمة فإن من واجب المحاكم أن تطبقها. وهو في نهاية المطاف يطرح المشكلة على بساط البحث طرحًا واضحًا: لم يبق من بعد فضيحة أبفيل سوى القيام بتغيير القوانين وتغيير المحاكم والأمير. وذلك على وجه العموم ما كان يأمل القرن الثامن عشر في تحقيقه من غير طرحه بمثل ذلك الطرح البسيط الذي قام به الملك البروسي.

توجه فولتير إذًا إلى مياه رول من أجل أن يختبئ وأن يحلم. فتخيل آنذاك، على قدر ما كانت نفسه تعاف المجتمع، نوعًا من حياة اصطلاحية، ومستوطنة من الفلاسفة يتم إنشاؤها في كليف وتستجيب لقوانين العقل. ولسوف تكون موطنًا للآلهة: سيكون ديدرو القاضي الأول، وكلٌ من دالامبير وداميلافيل رئيس جوقة. ولسوف يكون ممكنًا هنالك قول كل شيء وكتابة كل شيء، بل يمكن إلقاء المواعظ التبشيرية (باستثناء الديانة المسيحية)، فنرى إلى أين يمكن الخوف أن يدفع به: إنها طوباوية حقيقية. وقال: «على المرء أن يعرف كيف يهجر الزنزانة، فيعيش حرًا مكرمًا». هل فيرني هي الزنزانة؟ وكتب إلى ديدرو قائلًا: «لن تكون هنالك وحدك، فلديك رفاق وتلامذة، ويسعك أن تقيم فيها منبرًا سيكون منبر الحقيقة. ويمكن نقل مكتبتك في زورق، فليس هنالك أربعة فراسخ من درب بري. وأخيرًا فسوف تهجر العبودية قاصدًا الحرية». فهل كانت بروسيا هي أرض الحرية؟ وهل نسي فرانكفورت؟ وعرض على داميلافيل إقامة مطبعة في المدينة الفاضلة، «هي ورشة لصنع الحقيقة». وإن أمرهم لعجيب: فأولئك الناس الذين يصنعون الحقيقة مرهوبو الجانب على قدر الذين يفككونها. ثم يضيف: «كن واثقًا من أنهم سيدعون كل شيء في سبيل أن يلحقوا بنا». فمن عسى أن يكون هؤلاء؟ هل هم المستنيرون، أم العاطلون أم الثرثارون؟ فيا لوَهم الشاعر من وهمٍ جميل! أما كان يعلم خيرًا من سواه، أن الفلاسفة الباريسيين لن يغادروا باريس - إذا ما وافقوا على مغادرتها - إلا ليعودوا إليها سريعًا للعيش من سمومها الغالية؟ أما غريم؟ ودولباخ؟ لقد كان فولتير واثقًا من أنهما سيُقبِلان سريعًا، لفرط سعادتهما في أن يكونا ضمن الكتيبة الفلسفية.

وحتى الآنسة دو ليسبيناس سوف تأتي. فهل سيستقر بها المقام تحت الصفصاف الباكي؟

شرعت باريس كلها تنسج حكاية حول تلك النزوة لبطريرك فيرني. وسرى اعتقاد: «لا ريب في أن ملَكاته تنحدر». فما أن يكلمه أحد عن مشروعه حتى يُنكِره، صارخًا إنها نميمة. وصار يشير إليه في حديثه مع المطلعين على الأسرار تحت اسم «مشغل» (مانيفاكتورة). ويستهزئ المطلعون بـ «مشاغله»، فهم يقفون في صف الفلسفة بشرط أن تكون باريسية: ما إن يتم تجاوز أبواب مدينة الأنوار، حتى تتلاشى «الأنوار» بالنسبة إليهم. بناء عليه، ظل يحمل «مشاغله» على ذراعيه،

بل هنالك ما يدفع ببعضهم إلى التساؤل، إلى أي مدى ظل هو نفسه مؤمنًا بها. وعلينا أن نشير إلى أن فريدريك ما كان ليقبل باستقبال أولئك القوم المشاغبين إلا بشرط التزام جانب الاعتدال في آرائهم والسكينة في فضولهم. ولقد وعده فولتير بأن يكون كل شيء وفق مشيئته. فهل يسعنا أن نتخيل ذلك البلاط المحيط بالملك بيتو[45]؟ وما سيكون بشأن النزاع بين الأفكار ومظاهر الغرور والحساسية المفرطة بفعل التعايش، وأشكال المكر والنزوة ومزاعم الجماعة الفلسفية، وذلك الحشد المثقف كله، وكيف ستعلو حرارة الجو في فترة وجيزة؟ فالاستياء بين صفوف الفلاسفة سيبلغ أقصى مداه في غضون أسبوعين، فيبلغ الذروة: كنا سنراهم يستعينون بقضاة أبفيل لفك الاشتباك في ما بينهم.

أما وقد أخفق مشروع ذلك «المشغل» الذي لا يتلاءم كثيرًا مع عبقريته، وشمل النسيان المخاوف كافةً، عاد فولتير إلى فيرني قبل حلول الخريف. ووجد مجددًا «زنزانته» وفراءه، والوقت الكافي ليكرس نفسه لـ «مشاغل» أخرى، أقل خيالية من مشاغل فيرني تلك.

على المرء أن يعتني ببستانه

كان من مباهج فولتير أن يتوارى عن القصر، وأن ينصرف، أيًا كان الطقس، إلى التجول في الحقول، فيراقب الأغراس والزروع. وهنالك حقل خاص به، يقوم بفلاحته بنفسه. ولم ينقطع عن ذلك التمرين إلا في عام 1772، حين بلغ 78 عامًا!

كان يتولى بنفسه زراعة ذلك الحقل، فيجرب الأسمدة والبذور، فهو يعشق الأرض والزراعة وحتى الأدوات الزراعية. وأطنب في إطراء آلة جديدة للبذار. هتف قائلًا: «طوبى لمن يُخصِب الأرض!»، وصاغ على نمط مماثل وصفًا طويلًا ليس فيه تلك الشاعرية ولا تلك الرشاقة الساحرة إلى حد ما، والتي تتجلى في عبارة جان جاك التي تفعل نغمتها فعلها في النفوس بموسيقاها الصحيحة وأفكارها التي ربما تكون أحيانًا مغلوطة تمامًا. وأصر بعناد شديد، على الرغم من كثير من النكسات، على إدخال زراعة جديدة. ويعاند في بعض الأحيان، فينجح. لكنه لا

---

(45) كان الشحاذون الفرنسيون يعترفون بوجود ملك لهم بذلك الاسم (Pétaud)، من غير أن يتمتع بأي سلطة عليهم. (المترجم)

يهتف حينذاك قائلًا: يا للمعجزة! بل يقول صارخًا: «إنه خير العمل! ولم أتغلب على قسوة المناخ. ولقد دعاني السيد المراقب العام لأن أزرع الفوة، ففعلت: لكنها لم تنجح. وعملت على غرس أكثر من عشرين ألف شجرة جئت بها من مقاطعة سافوا، فماتت كلها تقريبًا. وغرست الجوز والكستناء، أربع مرات، على جانبي الطريق الرئيسة، فهلك ثلاثة أرباعها، أو قام الفلاحون باقتلاعها. ومع ذلك لم أشعر بالصدمة، وعلى الرغم من أني شيخ وعاجز، فسوف أواصل الغرس اليوم حتى وأنا واثق من موتي غدًا. الآخرون سوف يجنون الثمار».

ذلك فولتير مختلف كل الاختلاف عن «المهرج» في نظر هذا، وعن «السعدان» في نظر ذاك أو عن المخاتل الذي طالما باغتنا بتشنج وجهه، لكنه هو فولتير، ولو اتخذ مئة وجه. فسيد فيرني هنا بهيئة المواطن النشيط والكريم الذي يسعى بكل وقاره إلى منفعة قريبه.

لكن الزراعة في فيرني محكومة بالبقاء فقيرة، على الرغم مما كان يمحضها فولتير من محبة. فالمناخ قاس، والتربة قاحلة ومستنقعية في بعض الأماكن، فلا يسعها أن تنتج سوى محاصيل هزيلة. والمشروع الوحيد لتجفيف مستنقع واسع وموطن للأوبئة، تطلب من فولتير أعوامًا من العمل وثروة طائلة: فمن شأن تلك المكرُمة وحدها أن تخلد اسمه في فيرني. فالمساعي والأعمال والعراقيل التي رفعتها في وجهه الطبيعة والناس كفيلة وحدها بملء حياة نبيل ريفي. فخلص فيرني من بؤرة الحمى تلك ووزع أراضي جديدة على الفلاحين.

وفي حرص من فولتير على جعل الشغيلة كافةً يعيشون في البحبوحة المتواضعة التي هي، بحسب رأيه، حق من حقوقهم التي يطمحون إليها، واتته الفكرة المتمثلة في أن يضم إلى الزراعة المتهالكة، مصادر الصناعة. وذلك ما أطلق عليه اسم «المشاغل».

في أيام الاضطراب في جنيف والانشقاق على مجلس الكرادلة، عرف كيف يجتذب إلى فيرني بمهارة، العاملين في ورش صنع الساعات في مدينة كالفِن. وحين شعر بنفسه مهددًا إبّان قضية لابار، ظن أنه فقد كل شيء، لأنه لو تخلى عن مشاغله لانهارت وأصابها الإفلاس. وما إن انقشعت العاصفة حتى أعطى دفعًا جديدًا لصناعته. فنحن نعرف كم كان يحب المسرح، لكنه لم يتردد في تحويله إلى

مَقَزّة لتربية دود الحرير؛ إذ كان يريد أن ينتج الحرير بنفسه في فيرني فيقوم بغزله ونسجه، ولقد نجح في ذلك: فأول زوج من الجوارب الحريرية خرج من معمله، كان مخصصًا للدوقة دو شوازول: «إنها ديداني التي أعطتني ما أصنع منه تلك الجوارب، وهما يداي اللتان عملتا على نسجهما عندي، وهي الجوارب الأولى التي تُصنع في البلاد. فتفضلي بلبسهما سيدتي، واعرضي ساقيك من بعدُ ليراهما من تشائين، ولئن لم يعترفوا من بعد بأن حريري أنا أجمل وأقوى من حرير مقاطعة البروفانس وإيطاليا، فسوف أتخلى عن المهنة. ثم أعطيهما من بعد لواحدة من نسائك، لأنهما ستدومان لديها عامًا كاملًا:

أضع نفسي عند قدميك، فلي فيهما مآرب
وأرجوهما بكل تواضع أن تمنحاني البهجة
في أن أعرف أنهما تسكنان داخل النسيج الحريري
الذي كنت أحوكه بيدي الاثنتين وسط الصقيع».

رغب بعدئذٍ في أن يصنع الدانتيلا، خصوصًا الشقراء منها. فلديه من قبلُ عاملةٌ ماهرة، ولسوف يصير لديه ست، ثم اثنتا عشرة. فلتُرسَل إليه على الفور الطلبات مع النماذج، ولسوف يعمل على نسخها إلى حد الكمال، وبلا مقابل! فلنقل بنصف الثمن.

كانت السيدة دو سان جوليان هي من يتعهد ببيع ما لديها من قطع الدانتيلا: «المقصود، يا سيدتي، تفضيل الشقراء. ولست أدري ما إذا كنتِ أنتِ تفضلين الشقراء، لكن ليس المقصود هنا النساء الحسناوات ولا الشبان الوسيمين...» وليس المقصود المزاح بل بيع الدانتيلا بقصد شراء محاريث وبذار، وبناء مساكن لائقة لأهل فيرني.

لكن رائعة فولتير في ميدان الصناعة هي صناعة الساعات؛ فقد كانت جنيف حتى أيامه هو، تمارس نوعًا من الاحتكار على صناعة الساعات الجميلة. وكانت تلك الساعات التي لا مثيل لها، والتي تشتريها أوروبا من جنيف، تخرج من تحت أيدي صناع ساعات يلقون أسوأ معاملة على أيدي البرجوازية الجنيفية، ويُعرفون باسم «المولدين» (natifs). وما إن دخل هؤلاء في نزاع مع أرباب عملهم حتى

فتح لهم فولتير قلبه وبيوته ورصيده. وهكذا، حملوا إلى فيرني صناعتهم الثمينة. ونالت السيدة دو شوازول الامتياز من جديد بالحصول على أول ساعة من صنع فرنسي. وكان يجب أن تباع تلك الساعات في إسبانيا، وأن يتولى أمرها السفير الفرنسي هناك. وجرى التوجه بالرجاء إلى الدوق الرائع شوازول لإعطاء الأوامر في هذا الصدد. ولولا مساهمة أصدقاء قادرين على ذلك النحو لما قُدّر لتلك الصناعة أن تلاقي النجاح، إلا أن فولتير كان سيقوم بها على الرغم من كل شيء. ولم تتمثل الصعوبة في إنتاج البضاعة وإنما في تسويقها، وقد كان لديه أفضل يد عاملة في العالم، وتتوافر بين يديه الأموال اللازمة، لكن تبقى مسألة البيع. فجعل من نفسه وكيل مبيعات متجولًا ورئيسًا للدعاية. لكن لدى أي نوع من الزُبُن؟ لدى ملوك أوروبا وكبار الأسياد والوزراء والسفراء... فهو يكتب ويكرر الكتابة ويلح ويمارس الضغط فيفوز بالطلبية. فلذلك الرجل ألف صوت يجاوبها ألف صدى؛ فنحن نسمعه في كل مكان وهو يكيل المديح لساعاته: في روما، على الكاردينال دو برني أن يحمل منها صندوقًا ويبيعها إلى الكرادلة كافة، وهكذا فإن مجلس الكرادلة يسير في مواعيده وفقًا لساعات فولتير وتوقيتها الملحد. أما في بطرسبرغ، فعلى كاترين أن تستعجل بالاستيلاء على القسطنطينية، فتعيد إحياء بيزنطة لكي تتزود كنيسة الروم كلها بساعات فيرني.

هل هناك من سيفقد الحس السليم فيرفض تلك الساعات؟ هاتوا انظروا نقاء ميناء الساعة، وجودة التروس، ودقة الحركة، والمتانة، وفخامة علبتها، وافتحوها! سوف تبتسم في وجهك صورة صديقتك المصنوعة من الميناء، وذلك كله لقاء ثمن أدنى من ثمن ساعات جنيف. وهو في النهاية يرجو مجموع زُبُنه أن يتفضلوا فيضعوا في حسبانهم أنها ساعات فلسفية؛ فهي ساعات العصر وميناء الطليعة التي تحدد ساعة المستقبل. وهو ينبوع لا ينضب: يريد أن يبيع وأن يبيع ويبيع. وهو يبيع ويعيش ويجعل ناسه يعيشون. وإيه، أيها السيد فولتير! فأنت في هذه القضية، كما في قضايا أخرى كثيرة، ابن آل أرويه حقًا!

ساعاته، مثلما يقول عنها، من النوعية الفضلى: ففي وسع فولتير أن يخدع في كلامه، أما في عمله فهو لا يخدع البتة، فإنتاجه ذو صدقية تامة. وقد كتب رسالة دورية جرى تعميمها على السلك الدبلوماسي في باريس برعاية من شوازول. وهو لا يستطيع أن يمتنع، حتى في دعايته لها، عن تسريب بعض الدعابات. وهذا

هو مطلع نشرته الدورية: «سيدي، يشرفني أن أحيطكم علمًا بأن البرجوازيين في جنيف قتلوا لسوء الحظ عددًا من مواطنيهم، فكان أن لجأت أسَر عدة من خيرة صانعي الساعات إلى قسم من أرضي التي أملكها في منطقة جيكس ...إلخ». ويلي ذلك إطراء للساعاتيين الكالفنيين البارعين، حيث نقع على العبارة التالية: «فهم في حاجة إلى حمايتكم، ولا سيما أنهم يقيمون أكبر الاعتبار للدين الكاثوليكي». فالسيد فولتير يهوى المزاح.

أما الأمر الأشد تأثيرًا في النفس، فهو ذلك الانسجام السائد في فيرني بين الكاثوليك والكالفنيين؛ وإن فولتير لفخور جدًا بذلك التفاهم، فيقول: «لا يلحظ المرء وجود ديانتين». لكننا نتساءل ما إذا كان يفكر قائلًا: هل توجد ديانة واحدة في الأقل؟

لنعبر البحر لبيع الساعات هناك: «سوف أكون في غاية الامتنان للسيد دو برالان إذا ما تفضل بإرسال الساعات إلى الداي وجيشه في الجزائر وإلى الباي وجيشه في تونس». وقد اشترى الدوق دورا صندوقًا من الساعات ليقدمها هدايا لدى زواج كونت آرتوا. وقامت كاترينا بتخزينها، إذ كتبت إليه تقول: «لسوف آخذها كلها». فردّ عليها قائلًا: «نحن نتمنى جميعًا وبكل جوارحنا أن تكون الساعات كلها ملائمة لنا، وأن يُمضي مصطفى (السلطان العثماني وعدو الإمبراطورة) أربع ساعات شقية».

في الوقت عينه، قام بعرض ساعاته على مصطفى نفسه. ولحسن الحظ، فإن هذا الأخير لم يكن يقرأ رسائل فولتير إلى «محبوبته كاتو»؛ ذلك أنه كان في ذلك العام (1770)، في مرحلة من أطيب علاقة مع القيصرة. ولقد بعثت إليه بصندوق من العاج والذهب أنجزت صنعه بيديها. ولدى فتح الغطاء، انبهر برؤية صورة «سميراميس الثلوج» (مرصعة بالماس المضلع)، وتلك هدية لعيني الشاعر وقلبه. أما لكتفيه المرتعدتين بردًا، فوجد عباءة مبطنة بفراء الزبلين (سمور سيبيريا). تلك هي صداقة تبث الدفء في الروح والأوصال. وعلى ذلك، بات يهذي، فيجعل من نفسه البطل المنافح عن الصليب: فلتتنصر كاترين، ولترفع صليبًا فوق كنيسة آيا صوفيا، ولتنقذ أبناء سوفوكليس وديموستين. فيا لها من لوحة عجيبة: إن فولتير

يمثل مسبقًا صورة اللورد بايرون في ميسولونغي[46]. ولنعذره، فإن في وسع فروة من الزبلين، في نهاية المطاف، أن تجعل فيلسوفًا يهذي، حين تكون إمبراطورة روسيا هي التي تبعث بها إليه.

وجاءه إلى فيرني زائرًا سيد إيطالي شاب اسمه غوراني، كان يجمع إلى الحميّة والذكاء بعضًا من حب المغامرة. فأصغى إليه فولتير، وقد أمتعته حكايات الإيطالي التي يشوبها شيء من الخيال، فاستبقاه أيامًا عدة. وفيما كان يصغي إليه، خطرت في باله فكرة مدهشة: لمح إمكان المساهمة في إعادة إصلاح الإمبراطورية البيزنطية تحت سلطة «محبوبته كاتو». ولعلنا نتساءل عن علاقة السنيور غوراني بمثل ذلك الهدف الضخم، إذ لم يكن غوراني ابنًا لتيودورا، لكن شقيقته تزوجت لتوها في فيينا آخر واحد من سلالة الكومنينيين (كان في القرن الثامن عشر واحدًا من سلالة الكومنينيين!) والكومنيني هذا، واسمه الكونت أليكسي، سليل مباشر، على قدر ما هو معروف، من أباطرة بيزنطة ومن تريبيزوند. واعترت فولتير لذكر تلك الأسماء رعدة، هي رعدة أدبية وتاريخية وسياسية يعرفها الأشخاص العاكفون كثيرًا على القراءة. فارتمى على عنق غوراني، متوسلًا إليه أن يذهب من فوره إلى بطرسبرغ، فالإمبراطورة لا تنتظر سواه، إذ يلزمها الكومنيني هذا لتضعه على عرش القسطنطينية... وظن، وقد وقع في شرك الوهم، أنه شهد في سماء فيرني بريقًا عظيمًا شع صوب الشرق... فصرح غوراني، وقد استبد به الذهول، بأن صهره جبان، ثم عاد عن رأيه فقال إن الجبان قد يصلح ممولًا، بينما يتولى هو وشقيقته أمر الإمبراطورية. ولم تكن تلك إلا حماسة عابرة؛ إذ مضى غوراني ليأتي بشقيقته، لكنه لم يرجع البتة. وعاد فولتير إلى مواسم بذاره وإلى ساعاته، واستعاد حس أرويه السليم سيطرته على الأمور.

في تلك الأثناء راودت كاترين الفكرة نفسها؛ فعملت على استمزاج آراء الشعب اليوناني من طريق مبعوثيها، لترى ما إذا كانت فكرة إمبراطورية يونانية تحت حماية القياصرة مقبولة لديه. وعلينا التسليم بأن حلم الإمبراطورة لم يعمر فترة أطول من حلم شاعر فيرني.

---

(46) هو اللورد الإنكليزي والشاعر جورج غوردن بايرون (1788-1824). يمجد في قصائده الأبطال المتمردين. شارك في الثورة اليونانية ضد الاستعمار التركي، وقُتل في معركة ميسولونغي، ليغدو مثالًا للبطل الرومانسي.

بدأت جنيف تحقد على فولتير أكثر فأكثر: فالإلحاد ما عاد هو السبب، ولا المسرح الذي يفسد الأخلاق، بل بات الأمر يتعلق بالساعات. وحين بعث الأمير الجرماني إلى فيرني بمن يتولى السك لكي يقوم بحفر ميدالية تمثل صورة جانبية لفولتير، تبين أن ذلك يتطلب استخدام آلة موجودة فقط في دار سك النقود في جنيف. وفيما كان السكاك يستعد لحفر ميداليته، تجمع الجنيفيون الساخطون فاستولوا على مسكوكات «الشيطان» وهم يطلقون صيحات السخط والغضب. أما بونيه الحزين والمستعد دومًا للأنين والاحتجاج الصاخب، فكتب يقول: «إن فولتير لـيَـزدرينا، فهو يشيد منازل للإضرار بنا. وهو لا يبني إلا ضمن هذا القصد، لأنه يقوم بالهدم في كل مكان آخر. إن العناية الإلهية هي التي سمحت بوقوع الهزات الأرضية والفيضانات، وبقول الهرطقات، وبوجود أرويه».

صدر ذلك من جوزف برودوم[47] قبل الرسالة. وفي النهاية، لم يحصل فولتير على ميدالية مسكوكة في جنيف، لكن الأمير عمل على سكها في مكان آخر واستلمها فولتير بغبطة عظيمة؛ فاشترى منها أكثر من عشر وقام بتسليمها إلى جنيفيين... مرفقة بتمنياته.

فولتير يتدخل في شؤون جنيف فينال العقاب الملائم

كان حزبان يتقاسمان مدينة كالفِن أيام قام النزاع بشأن كتاب إميل (*Émile*). أحدهما هو حزب المجلس الذي يدير المدينة، ويقوم باضطهادها عند الضرورة، والثاني هو حزب المواطنين، أو البرجوازيين. وثمة طبقة ثالثة، هي طبقة العمال التي لم تكن تتمتع بحق المواطنة. وكان فولتير يتباهى بأن له رصيدًا ما في المدينة، وذلك من طريق صداقته مع بعض العائلات النافذة. ولم يتوانَ بعض المواطنين عن عد ذلك التدخل من طرف فولتير في الشقاقات الداخلية أمرًا غير مقبول. وجعله استعداده الدائم للتدخل في شؤون الغير يقدم نفسه وسيطًا في أثناء المجابهة بين الفرقاء في جنيف: «أنا أبعد ما أكون عن الاعتقاد بإمكان تقديم نفع، لكني أرى أن التقريب بين النفوس ليس بالأمر المستحيل». وفتح بيته للمصالحة

(47) شخصية هزلية، من إبداع الكاتب الفرنسي الساخر هنري مونييه (1799-1877)، تمثل البرجوازي المتبجح والأحمق. (المترجم)

بين المجلس الذي يمثل السلطة والبرجوازيين الذين يرغبون في هزها. «لا أرى من غير الملائم، في الأوضاع الراهنة، أن يلتقي من قضاتكم اثنان من أكثركم ميلًا إلى المصالحة، فيمنحاني شرف استقبالهما على الغداء في فيرني، وأن يصحبا معهما اثنين من أكثر مواطنيكم حكمة».

إنه يدعوهم إلى «مائدته المستديرة»، كلٌّ يحمل شوكته بيده. لقد وقف المواطنون في صف إميل وروسو، أما القضاة الذين يتشكل منهم المجلس، فدانوه، لأنهم يدافعون عن الدين الذي، حسبما قيل، قد امتُهِن.

وأحاط فولتير، بأقصى ما يستطيع من سرعة، قصر فرساي علمًا (وهو الذي ما كان يطلب منه شيئًا) بأنه سيعمل مخلصًا لقضية السلام ولعظمة فرنسا.

إلا أن سادة المجلس قابلوا وساطة فيرني بالازدراء. أما وقد رأى فولتير كبار قضاة المجلس يديرون له ظهورهم، وهو الذي لقي العون والدعم منهم على الدوام، فقد تحول نحو المواطنين، الذين كانوا يشتمونه في ما مضى. وأعد مخطط تسوية سلمية كي لا يلجأ الفرقاء إلى الفوضى، وحرص على إرساله إلى فرساي لتفحصه وإعطاء الموافقة. ويقول من بعد: «لن أتدخل في شيء بعد الآن. فأنا لا أقوم إلا بإعداد دروب الرب». وبدأ يشكو من أن تلك الحرب تجعله يبدد كثيرًا من وقته، ومن أنه بات ملزمًا بالتوجه مرات عديدة إلى جنيف، وأنه مريض... وذلك يعني أنه ما من أحد يرغب في وساطته. لكن ما همه، فهو سيقدمها على الرغم من كل شيء.

حين أحاط فولتير المجلس علمًا بأنه عرض مخططه على المواطنين الذين لاقوه بقبول حسن، جأر القضاة والحكام بالصراخ. فقام فولتير، في سبيل تهدئتهم، بتحول جديد وتهجم على المواطنين، فاحتج هؤلاء على الخيانة، لكنه عاد وطمأنهم بتوجيه لوم إلى المجلس.

في تلك الأثناء، كان ممثل فرنسا في جنيف، السيد هينان، وهو معجب بفولتير ويتردد على فيرني، متضايقًا جدًا من حماسة الشيخ المقدام. فذكّره، باحترام، بضرورة التزام قواعد اللياقة، فأضحك ذلك فولتير كأنه «عفريت» صغير. كذلك ضحك السيد هينان، لكنه ظل يشعر بشيء من القلق في أعماقه،

لأن فولتير يتصرف حيال القضية كأنها مزاح. وكتب الممثل الفرنسي إلى وزيره قائلًا عن الجنيفيين: «ليس هؤلاء ولا أولئك في وضع يفهمون معه الطرفة». وبدا واضحًا أن فولتير سيغدو على سوء علاقة بالجميع.

حصل في ذلك الوقت تغيّر عجيب؛ فحين علم جان جاك بأن فولتير يساند المواطنين، توجه إلى أصدقائه بالنصح ليقبلوا بذلك التحالف. «أنصحكم، بل أحثكم، فور سبركم أغواره بما يكفي، على أن تمنحوه ثقتكم. وأقول لكم، بكلمة واحدة، ألا تبتعدوا عنه ما دام ملاذكم الوحيد. فاهرعوا إليه إذًا من دون تردد وبصراحة، واكسبوا قلبه بهذه الثقة». في 30 كانون الأول/ ديسمبر 1765.

لم تكن البهجة تعمر قلب جان جاك، بقراره قبول دعم الرجل الذي كان يكرهه أشد الكراهية. فهو على العموم ينصح أصدقاءه بأن يتشبثوا بفولتير تشبث الغريق بلوح من الخشب المنخور، لكنه طافٍ دائمًا. فيا له من نفوذ يتمتع به فولتير، ويا للثقة بمهارته!

بلغ علمَ فولتير خبرُ تلك الرسالة، فتأثر بذلك، وطلب استدعاء روسو الذي كان في لندن وأن يُنقَل إليه رجاؤه بتناسي بعض الأوراق: «لقد كُتِبَت من قبل أن أعرف مشاعره».

رأى فولتير نفسه، بما يتمتع به من نشاط، وقد صار على درب المصالحة. بل إنه عرض على روسو المساعدة ليسترد حقوق المواطنة في بلاده، وذلك ما عمل على تفتيت المصالحة المزعومة. ماذا؟ قبول روسو بمثل تلك الخدمة من فولتير وهو الذي رفض أن يمس فنجانًا مقدمًا ممن لا يُمَسّ؟ وردَ روسو ساخطًا: «ما كان عليكم الظن أني أريد أن أدين للسيد فولتير بتسوية وضعي، فلقد قام بكل الأعمال الباطلة، وسيكون عليه أن يقوم بالمبادرات التمهيدية كافة، وهذا ما لن يفعله أبدًا (الحق أن فولتير قام بالكثير...) إنه يريد المسامحة وتأمين الحماية، فيما نحن بعيدون عن تسوية الحساب». بلى. فهنالك بالتأكيد أمر جارح، إذا كان روسو سيتسلم من يدي فولتير حقه في الرجوع إلى وطنه. أما نزاعهما، فالحق أن لا سبيل إلى الخلاص منه.

قررت فرساي، وقد رأت الأمور في جنيف تسير من سيئ إلى أسوأ، أن

تقوم بإرسال مفاوض. توسل فولتير أن يُصار إلى تعيينه لتلك المهمة. لكن دوق برالان، الحريص على أن يجنّبه فشلًا محتومًا، لم يشأ أن يوكل إليه أداء ذلك الدور، فجرت تسمية السيد بوتفيل. وما إن وصل حتى استأثر فولتير به، وقال: «سوف أبسط له المائدة». لم يقوَ السفير على المقاومة، فقد أغراه الوضع. كذلك تم إيواؤه. وخرج فولتير المشرف على الموت من سريره، ليجلس على رأس المائدة. وجاء بباروكته الكبيرة وهو يرتدي المبذل الفاخر، المصنوع من الأطلس الثقيل المطرز بالقصب مع ثنيات حادة، ولون لازوردي، وقد تناثرت فوقه نجوم ذهبية!

لم يطل الأمر بين دو بوتفيل، من بعد مناقشة المصالحة، والإرهاق الذي استبد به على أثر تبادل الاتهام العنيف بين الطرفين، فكانت وجوههم بمظهرها العطوف تخفي تحتها عنادًا مستعصيًا على العلاج. وطفح به الكيل ذات يوم فردّ عليهم ردًا عنيفًا وقام بصرفهم من غير أن يحكم لطرف على آخر، فكانت الفضيحة مدوية.

ظل فولتير، على نحو استثنائي، بمنأى عن هذه الفضيحة. لكنه كان في صدد الإعداد لأخرى.

كان المولـدون الذين أتينا إلى ذكرهم أبناء لاجئين أجانب في جنيف، أو من سلالتهم. فلم يكونوا مواطنين، وما كان لهم الحق في ممارسة بعض المِهن، ولا في استلام مناصب في الإدارة. وهم في المقابل مثقلون بالضرائب، وعرضة للازدراء. فاستغلـوا الانشقاق الحاصل ما بين المواطنين البرجوازيين والمجلس، في سبيل تحسين وضعهم البائس: فهم العدد الأكبر وهم الذين يعملون. الآخرون يتولـون إدارة الثروة في جنيف، فيما هم الذين ينتجونها. ولنأخذ الساعاتيين على سبيل المثال؛ فقد كان بعضهم يجيد القراءة، ويحسن بالتالي الكلام. فقرروا أن يتجمعوا وأن يطالبوا بحقوقهم. وكتبوا مذكـرة يطالبون فيها بحق المواطنة. وحملوها فمضوا بها - وكأن الأمر مصادفة - إلى السيد فولتير، لأنهم اختاروا التكلم بصوته هو ليجدوا من يصغي إليهم. وقضى فولتير بأن المذكرة مشوشة، فجعلهم يعيدون صياغتها، وكان أبعد ما يكون عن تثبيط همتهم في مطلبهم، فقبل عن طيب خاطر بأن يكون بطل «البروليتاريا» الجنيفية. فأما أن تكون مطالب

المولدين محققة، فذلك أمر أكيد، وأما أن يأتي فولتير، الأجنبي، ليجعل من نفسه بطلهم، وأن يأتي ليزيد في اضطراب المدينة، فذلك أكيد أيضًا. ثم ارتأى أن يجعل من هاتين الفكرتين الواضحتين فضيحة مدوية. فقال: «أيها الأصدقاء، أنتم تشكلون القسم الأكبر من شعب حر ونشيط، وتعيشون في حال من العبودية. وأنتم لا تطلبون سوى أن تستطيعوا التمتع بحقوقكم الطبيعية، ومن العدل أن يمنحوكم مثل هذا المطلب المعتدل. ولسوف أساعدكم بكل رصيدي لدى الأسياد مطلقي الصلاحية والتنفيذ. ولئن طُلِب إليكم أن تغادروا وطنًا تصنعون ازدهاره بعملكم، فيسعني أن أعينكم أيضًا وأن أتولى حمايتكم في غير هذا المكان».

كان ذلك تعهدًا كبيرًا من جانبه. فاستقدم ممثلين عن المولدين، ثم كتب لهم رسالة تقدير إلى سفير فرنسا. لكن ذلك المسعى لم يمضِ كما ينبغي؛ إذ وصل أربعة مندوبين إلى المكان الذي حدده السفير، متأخرين ساعة ونصف الساعة عن الموعد. تأنقوا فجعدوا شعورهم وأكثروا من استعمال المساحيق على نحو مخيف. ونسي أحدهم في بيته نص خطاب الإطراء الذي كان عليه أن يقرأه، فتلجلج أمام السفير المنزعج، ثم انطلق لسانه باتهام عنيف. فأجابه السفير بأنه ليس مكلفًا بتسوية نزاعاتهم مع المجلس، وانتهى اللقاء على ذلك النحو. فمضوا ليقصوا مغامرتهم الخائبة على فولتير. فسخر منهم، إلا أنه وعدهم بعريضة استرحام، شريطة ألا يقوموا بإدخال اسمه في قضيتهم. وتخيل أن دوره يمكن أن يظل قيد الكتمان! وقال لهم: «قوموا بقراءتها على أمثالكم، واكتفوا بالقول إنها من شخص قوي ومتكتم. فالشعب يحب تلك الكلمات». وكان السيد فولتير يحب تلك الألاعيب. بناء عليه، تجمع ألف وخمسمئة «مولد» للإصغاء إلى رسالة حامي طبقتهم السري. وواقع الحال أن «المولدين» صُدِموا بأسلوب المذكرة، وبعنوانها «يا أسيادي»، وبلهجة الاسترحام والمداهنة. إن فولتير الذي تصرف بديماغوجية مع البروليتاريين، واصل استخدام لغة البلاط. لذلك السبب رفض المولدون عريضته زاعمين أنها تجرح كبرياء المجلس والمواطنين الذين لن يوافقوا إلا على «الأسلوب الجمهوري». وإن ذلك الموقف ليستدعي مراجعة للنفس: لقد رضي المولدون حتى الآن بأن يكونوا منبوذين «بالأسلوب الجمهوري»، لكنهم احتجوا على الذي يريد تحريرهم «بالأسلوب الأرستقراطي». ولكم كان ممتعًا لو استطاع فولتير حضور تلك الجلسة! لقد أوشك «المُدافع الشرس» أن يتعرض للشتيمة

من «العبيد» الذين يسعى إلى تحريرهم، أكثر من تعرضه لها من «البرجوازيين» الذين كانوا يستبقونهم في حالة العبودية. ولم يكن المندوبون مطمئنين حين جاءوا مجددًا لمقابلة فولتير؛ فقد كانوا يظنون أنه سوف يطردهم لمجرد سماعه بما جرى. لكن ذلك لم يحصل على الإطلاق لأن فولتير، وهو الديماغوجي البارع، قبل بحكم الشعب، فغيّر الأسلوب وأعاد صوغ المذكرة التي سيقوم المندوبون بحملها من منزل إلى آخر. لكن لم يشأ المواطنون ولا المجلس ولا السفراء الأجانب أن يولوها أي اعتبار. ذلك أن «المولدين» تميزوا بالرعونة وعدم الثقة بالنفس، وكانوا منقسمين إلى ثلاث فئات! فكانوا يأتون بعد كل فشل إلى فولتير متظلـمين. وكان سلوكهم مثبطًا للهمم إلى الحد الذي جعله يواجههم ذات يوم، بهذا الجواب المخيب للآمال، والذي يصلح لجميع «المولدين» في جنيف وخارجها: «أيها الأصدقاء، أنتم أشبه ما تكونون بتلك الأسماك الطائرة، التي ما إن تقفز خارج الماء حتى تلتهمها الطيور البحرية، وما إن تعود إلى الغطس مجددًا حتى تلتهمها الأسماك الكبيرة. فأنتم تقعون بين فريقين قويين على حد سواء، ولسوف تكونون ضحايا مصالح هذا الفريق أو ذاك، وربما مصالح الاثنين معًا».

ذلك ما حصل. فما إن رأى المواطنون وقضاة المجلس تحرك «المولدين»، حتى تفاهموا في ما بينهم، لإعادتهم إلى جادة الصواب؛ لقد وقعت الأسماك الطائرة ضحايا مرة أخرى.

مع ذلك، أثاروا ضجة. فالمجلس الذي علم بأن سفير فرنسا استقبلهم ثار وانفعل، ولا سيما أن المولدين تباهوا بحصولهم من السفير على وعد بدعمهم دعمًا قويًا. فاستدعى السفير المندوبين الأربعة، وكان مستاء من الكذب، وهددهم بالسجن، فتولاهم الهلع واعترفوا بأنهم كذبوا. فسألهم بخشونة: «ومن الذي كتب لكم مذكرتكم؟». فرغبوا في الاحتفاظ بالسر الذي وعدوا به فولتير، وأجابوا بأنه ينبغي إيجاد العذر لعمال فقراء على قيامهم بمثل تلك الكتابة الرديئة وعلى الافتقار إلى الذكاء.

«ليس الافتقار إلى الذكاء هو ما جعلني أشك في أن المذكـرة من عملكم، وإنما لأني وجدت فيها، بخلاف ذلك، ذكاء خارقًا جعلني مقتنعًا بأن أحدًا أعاركم قلمه».

لاذوا بالصمت، فثارت ثائرة السفير.

«هل تدرون أن في وسعي أن أضعكم في زنزانة حتى الموت إذا ما تجاسرتم فأخفيتم الحقيقة؟».

عندئذٍ وشوا بفولتير، فابتسم السفير. لقد استعاد صورة سيد فيرني وهو يرتدي المبذل بلونه اللازوردي المذهب، والضيوف الخمسة عشر على مائدة الغداء، والخدمة التي كان يتنطح فولتير لأدائها للدبلوماسية، خبط عشواء، والتي كانت أبعد من أن تعادل قيمة ما يقدم للأدب.

بعد إعمال الفكر، استبد الغضب بالسيد بوتفيل. ولم يكن المجلس أقل منه سخطًا على مؤلف كانديد الذي قام بدور المحرض حين سعى إلى إثارة الرعاع. إلا أنه اعترف في جلسة 30 نيسان/ أبريل 1766 بأن السفير طاهر الذيل وأنه كان مخلصًا حيال جنيف. بل اعترف، برضى واضح، بأنه كان قاسيًا حيال فولتير. «لقد بعث به ليتلقى التوبيخ على يد رجل (هو السيد توليس، السكرتير في السفارة) الذي أدى المهمة خير أداء: فبكى وتأوه ووعد بكل ما طُلِب منه». حسن جدًا! عوقب السيد فولتير فوُضِع في الزاوية، وعلى رأسه قبعة حمار، فصار يبكي.

اتصفت قسوة التوبيخ الذي وجهه السفير بالمبالغة، من أجل تهدئة حكام جنيف. فالسفير يقلـل من شأن ذلك التأنيب في رسالته إلى السيد دو برالان، من غير أن يموّه ما يستحق الشجب في موقف فولتير. وقال إن البطريرك بدا حزينًا جدًا وهو يعترف بغلطته. أما البطريرك، فيعبر من جانبه عن ذلك الغم على النحو التالي:

«جاء ليقابلني قرابة عشرين من المولـدين مثل النساء السوقيات في باريس، اللواتي منحنني في ما مضى الشرف نفسه: لقد كتبت لهن كتاب تقدير صغيرًا موجهًا إلى الملك فقوبل بالاستحسان. وقمتُ بالشيء نفسه حيال المولدين لكن الكتاب لم يلقَ الاستحسان نفسه؛ فالظاهر أن السادة الخمسة والعشرين (أعضاء المجلس)، هم أسياد أكثر أهمية من الملك. وأنا أجهل ما إذا كانت للنساء السوقيات امتيازات أكبر من المولدين». في 30 نيسان/ أبريل 1766.

نجحنا[48]! وما عاد هناك من مشكلة. عبارة وقحة عابرة موجهة إلى المجلس،

---

(48) عبارة يستعملها المشعوذون لوصف نجاح عملهم. (المترجم)

وذلك هو الفن القائم على تبييض الصفحة. وقد كتب إلى القائم بالأعمال الفرنسي في جنيف قائلًا: «ما أنا سوى رجل شقي، فلاح وبستاني، أنوء بحمل اثنتين وسبعين سنة ونصف سنة، ومريض فلا يسعني أن أخرج (ولكن رأيناه للتو)، فألهو ببناء قبر صغير ونظيف في مقبرتين من دون أي بذخ. وأنا ميت في العالم (علمًا بأن ما يسبب من صخب يصم آذان العالم) فلا يلزمني سوى أن أنزل إلى العمق (De Profundis)...».

وكان ذلك لجلب خبر الزيارة التي قام بها المولدون إلى مقره، لكن ذلك الخبر لم يصل إلا بعد مرور شهر. فلِمَ جاء أولئك المولـدون إليه؟ ها هو يحيطنا بالأمر علمًا: «جاءوا يرجونني تقصير خطاب مزعج. فأخذت مقصي بوصفي أكاديميًا وقصيت الخطاب». وذلك كل شيء: لقد أثيرت ضجة كبرى بسبب حركة من مقص في ورق رديء. «إني لأجهل من هو على جانب أكبر من الخطأ، البرجوازيون أم المجلس أم المولـدون. فأنا لا أتدخـل في أي مسعى من مساعيهم».

إيه! ويا له من ناسك قديس! بل إنه على غير دراية بشؤون جنيف. فأي حصة يمكن أن ينالها منها؟

كلا، فهو لن يبكي أبدًا على غلطة ارتكبها. ومع ذلك لن يغامر بالتحرك في شوارع جنيف أشهرًا عدة، فكان يرسل السيدة دوني «لتضعه متوسلًا عند قدمي السفير». وأما بشأن المولدين الراغبين في النزوح، فقد أحاطهم علمًا بأنه على استعداد لاستقبال البارعين منهم في فن صناعة الساعات. وعلى ذلك النحو، انتفع بفشله الدبلوماسي انتفاعًا مدهشًا بإقامة صناعة الساعات في فيرني، أي في فرنسا. وإنه لفضل قلما يذكره له الفرنسيون.

القس المتمرد

كان السيد القس فرنيه رجلًا جديرًا بالتقدير، ذا معرفة واسعة، وعضوًا في مجلس جنيف. وكان يكتب، فيثور قلمه أكثر مما ينبغي لقلم أحد رجالات الإنجيل أن يفعل، حين رسم صورة لفولتير، جرى نشرها، فكان لها على الفيلسوف تأثير لسعة زنبور. وهذا يجعلنا نشير إلى أي أشكال من الثأر عرّض القس المتهور نفسه له.

تعارف فرنيه وفولتير في باريس عام 1722، فكانت البدايات كما حالها دائمًا كالسمن والعسل. وكان فرنيه على جانب من الفطنة، فكتب هجائية تجلت فيها فطنته: رسالة إلى القمر، لرجائه بعدم الطلوع في ليالي الوحي والإلهام. وأعجب فونتونيل بها. وحين نشر فولتير عام 1744 بحثًا بعنوان بحث في التاريخ الكوني (الشامل)، ساندره فرنيه في وجه الناقدين، فقدر له فولتير موقفه الجدير بالعرفان. وكانت تربط الفرنسيين المقيمين في جنيف بفرنيه أطيب علاقة ودية، وقد عهد إليه مونتسكيو بأمر الإشراف على طباعة روح الشرائع. بناء عليه، لم يكن القس فرنيه شخصًا عاديًا.

أما حين دخل فولتير في تلك الحال المحمومة ضد المرذولة، وأضاف إلى بحثه في التاريخ سخرية من العهد القديم والعهد الجديد، رأى القس فرنيه أن السيد كالفن تعرض للإساءة كما الحكام الرومان، وحينذاك احتج فرنيه فاتهمه فولتير بأنه أحرق ما كان يعبد. وحين استقر فولتير في الديليس، كان فرنيه في عداد الذين تحفظوا حول رفعة ذلك المجتمع الجديد. وفي عام 1761، نشر فرنيه رسائل نقدية لمسافر إنكليزي، كانت نقدية بالنسبة إلى فولتير على وجه الخصوص وكانت تتضمن الصورة المشؤومة. ولم تكن البداية سيئة جدًا؛ فقد نُسِبت إلى البطريرك موهبة نظم الشعر، لكن حُجِبت عنه صفة الفيلسوف.

أضحت الضربات من بعد أكثر غدرًا: «إذا كان صحيحًا أنه مؤلف قصيدة تدنس المقدسات وفيها قدح وبذاءة كقصيدة العذراء، فأنا أراه رجلًا فاقد الحياء. لكن ليس لنا أن ننسب إليه ما يتنصل منه». وما إن قرأ فولتير تلك الرسائل، حتى تشنجت قسماته ألمًا. وكان هناك ما هو أسوأ... «ذلك كاتب وُلِد ليُبهِج النفوس، لكن تنصيبه عالمًا أو حكيمًا، على نحو ما يفعل أنصاره، هو من قبيل الاستهزاء بالناس. فكلما تجلى فكره، جعله سوء استخدامه أكثر خطرًا».

الشيء الأكيد أن السيد فرنيه لا يسعه إساءة استخدام فكره، لأنه أعاد بحذر تخزين ما ناله في شبابه. أما فولتير الذي لمّا يكف عن أن يكون شابًا، فردّ على تلك التهجمات ردًا عنيفًا؛ فهو اتهم فرنيه بأنه لص ومزوِّر للأوراق، وهو أبعد ما يكون عن ارتكابه؛ كان رجلًا طاهر الذيل تمامًا! وبلغ المسكين حدًا من التأثر جعله يطلب من المجلس شهادة بنزاهته، فنالها من فوره. لكنه شعر بالمهانة لدى طلب

تلك الشهادة. وهاكم كيف يأتي فيلسوفنا إلى ذكر الواقعة: «تظلم اللاهوتي فرنيه أمام المجلس بسبب السخرية منه. فقدم له المجلس شهادة حسن سلوك على طول الحياة بأنه لم يمارس السرقة على الطرق الكبرى ولا اختلس شيئًا من جيوب الناس. وإن هذا القسم الأخير من الشهادة يبدو في غير محله». في 18 تموز/ يوليو 1766. وكانت سرعة سهمه ووقاحته أكثر وضوحًا من صدقه. فبات يلزمه انتقام أفضل من لسعة الزنبور تلك: نشر، من غير اسم الكاتب، قصيدة هجائية عنوانها **إطراء النفاق**، كتبها في كاروج، قرب جنيف، في عام 1766.

«لكن إذا ما لمحتُ وجهًا كئيبًا
وجبهة بشعة، والهيئةَ النتنة لمتحذلقٍ
والعنقَ المصفر معلقًا فوق جذع
وعين خنزير مربوط بالعارضة
(وكلها مرآة روحٍ وقعت فريسة للندم
يغشاها الخوف الدائم من أن يراها أحد)
فأقول لكم قولًا قاطعًا، دونما تردد،
إن ذلك القرد القبيح هو طرطوف أو فرنيه».

تلك هي أنماط الانتقام لدى ذلك الشيخ الذي بلغ اثنتين وسبعين سنة (ونصف). فلتتمنَّ أن تكون قد مَنَحته من الرضى على قدر ما تسببت له من حقد. وهذا راجح، لأنه سوف يواظب على سلوك ذلك الدرب بحمية لا تجعلنا نخطئ في تقدير مدى المتعة التي يجدها في ذلك.

حماقات جديدة في حق جنيف

ما كاد البطريرك المشاكس يتعرض للتوبيخ من جانب السفير الفرنسي، حتى ارتأى بمكرٍ شيطاني، وفي مناسبة جديدة، أن يثير سخط جنيف التي كان يلقبها في فترات القطيعة بتعبير «Parvulissime République» (الجمهورية الضئيلة)؛ فهو استفاد هذه المرة من حدث سمج، ليجعل من قضاة جنيف وتشريعها مثارًا للسخرية. وهاكم ما حصل: مثل رجل اسمه روبير كوفيل أمام مجلس الكرادلة،

لأنه استولد امرأة تدعى كاترين فيرلوز طفلًا، والمرأة من «المولدين». وقد اعترف بواقعة الزنا لكنه لم يعترف بالطفل. أما السيدة كاترين، فاعترفت بالزنا والطفل في آن، وبأن كوفيل هو والد الطفل.

قام القساوسة، الذين ثارت ثائرتهم على تلك الجريمة التي لا سابقة لها، فحظروا على كوفيل القربان المقدس، وحكموا عليه بأن يستغفر الله جاثيًا على ركبتيه.

وطلب كوفيل مهلة ثمانية أيام من التفكر قبل أن يركع، فمُنِحَ تلك المهلة.

ورفع القساوسة القضية إلى مجلس الكرادلة. أما بعد أن أعمل كوفيل فكره - وآخرون معه - ارتأى أن القساوسة ليسوا بقضاة وأنهم غير مؤهلين لفرض العقوبات، فرفض الركوع. وهنالك مصادفة لا يسع أحدًا تفسيرها سوى فولتير، جعلت نشرةً مطبوعة في لندن في ذلك العام 1768، توضع قيد التداول في جنيف. وكان عنوانها على وجه التحديد: الحرب الأهلية في جنيف أو مغامرات روبير كوفيل الغرامية.

فأمر المجلس بمصادرتها، لكونها تتضمن «عبارات قذف بحق مجلس الكرادلة، وبدا أن الهدف منها تعكير صفو السلم الأهلي». وكان من نتيجتها، في أي حال، منع كوفيل من الركوع. أما وقد جرى الضغط على الزاني لكي يعترف باسم الذي وجّهه، ومن الذي كتب النشرة، فلم يبدِ أي حرج أمام الإقرار بأنه فولتير. أما جانب القوة في تلك القضية، فهو أن عناد ذلك الغبي الذي تلقى الكثير من النصح، قُيِّض له النجاح. وفي عام 1769، وبعد تلك التمثيلية الهزلية، جرى إلغاء عقوبة «التركيع». تلك هي منافع الدمية المتحركة حين يتولى شد خيوطها مهرج فيرني.

اصطحب كوفيل إلى فيرني جنيفيون كانوا يريدون وضع حدٍّ لتدخل القساوسة في شؤون العدالة. لم يكن كوفيل سوى دمية بين يدي فولتير، ولم يطل الأمر بذلك الغبي حتى ظن أنه شخصية مهمة، إذ عد نفسه المنتصر على الاستبداد الديني. فمضى متوجهًا بخطابه إلى سفير فرنسا، السيد هينان، فقام بخلط الحابل بالنابل. من المرأة كاترين، إلى بطولته، فمجلس الكرادلة، مرورًا بالزنا وحتى

الطغيان. واستمتع السفير في بدء الأمر بالتهريج ثم تبين له أن المهرج تفوح منه رائحة الخمر. وخلص من زيارة كوفيل إلى التقرير التالي: «أظن أنه احتفل بعيد باخوس (إله الخمر عند الرومان)، أكثر من احتفاله بالآنسة كاترين». وكتب فولتير من جانبه إلى السفير قائلًا: «لا بد من أن تكون في غاية السعادة لرؤية الزاني كوفيل، وذلك فأل حسن، فهو يستولد أقبح ما في جنيف أطفالًا ويشرب أردأ خمر كأنه من خمر مقاطعة الشامبرتان، زِد على ذلك أنه سياسي كبير لكنه يفتقر إلى الحس السليم».

قام فولتير، في سبيل أن يزيد القساوسة غيظًا، بإقامة احتفال على شرف «الدمية»، فأعلن عنه باسم «السيد الزاني»، فصاروا ينادونه باسم السيد الزاني بكثير من الاحتفالية. وكان فولتير يقول إن ذلك منصب جديد جرى إحداثه مؤخرًا في جمهورية القساوسة. فكانوا يتوجهون بالرجاء إلى السيد الزاني مثلما يرجون سعادة السفير أو السيدة لا بابيف. فكان كوفيل يزهو ويتبختر.

وغدا بسرعة ملحاحًا، فأوعز فولتير، في سبيل التخلص منه، بأن يقال له إنه مات. وأُحيط علمًا أيضًا، في سبيل إقناعه بذلك، بأنه أوصى له بريع قيمته ثلاثمئة ليرة، جرى دفعها إلى السيد الزاني! وإن إجراء ريع للزاني الرسمي في جمهورية جنيف لهو إجراء خارج عن السطحية. وما عاد فولتير في حاجة إلى نموذج ليكتب ملحمته السمجة التي اعتمدت السخرية من مِقرأ الترتيل، والحرب العبثية: إنها تتضمن خمسة أناشيد تتغنى بـ «مجد» جنيف:

«يا حاضرة نبيلة وغنية ومزهوة وماكرة:
فناسها يُدققون في حسابهم ولا يضحكون أبدًا:
ففن جدول الحساب هو الوحيد المزدهر فيها».

ويناكد الجنيفيين حول ميلهم إلى القطع النقدية ميلًا لا يُقاوَم دونما تمييز في السك، بشرط أن تكون ذهبًا. ويقول إن كاتو المسكينة - صاحبة كوفيل، لا الإمبراطورة الموسكوفية - غرقت فيها، وما عادت إلى الحياة ثانية. ويمر ميلور فيقترب ويسأل: هل هي جنيفية؟ فيقول كوفيل: أجل. فيرد الميلورد قائلًا: لا بأس! ولسوف نرى. ثم يضع في يدها:

«صرة كبيرة من مئة ليرة استرلينية
فتقبض الجميلة عليها وتعود بغتة إلى الحياة».

عاشت كاتو، الجنيفية الصالحة! ثم جرت مهاجمة الركوع. وهكذا ينتقم فولتير من فرنيه:

«أما مجلس الشيوخ الأسود، فمديره الخطِر
هو جان فرنيه مؤلف كثير من الكتب
فالشيخ فرنيه مجهول من القارئ
لكنه معروف من الأشقياء أصحاب المكاتب...
وفي روحه العجوز المضطربة تولد
ذكريات أزمنة اللهو السعيدة
التي أمضاها في ربيع حياته، مع جافوت».

يبقى أن فرنيه حكم على كوفيل بالركوع:

«روبير كوفيل، اصغِ وأنت راكع على ركبتيك!
على ركبتي؟ أنا؟ - أنت نفسك! - من، أنا؟ - أنت!
فارفقوا فضائلكم بالطاعة.
وحينها يقوم كوفيل بفصاحته الذكورية
فيعطي الانطلاقة...».

ويرفض كوفيل ويذكّر قضاته بأنه إذا كان لوي لو ديبونير (الطيب) قد تلقى الجلد على قفاه من ثلاثين أسقفًا، فذلك لأن:

«لويس كان أكثر غباءً مما كان تقيًا.
وذلك الزمان قد انحسر...».

واشتعلت شرارة الحرب في جنيف. فرغب الحكيم ترونشان في تهدئة الخواطر. لكن ليس من يصغي إليه؛ فكلامه من ذهب لكنه يخاطب الحمير.

«تلكم هي جنيف: فلا تستطيع أن تقبل

بأن يزعم طبيب القيام بشفائها».

فتخلى ترونشان عنهم وانضم إلى ذوي الأفكار النيرة في باريس.

وكان لجان جاك نصيبه من الاستهزاء في تلك الملحمة الهزلية، وكان نصيبه الأكثر إهانة وتحقيرًا. فيستذكر فولتير فال ترافير حيث لجأ روسو:

«فهنالك وقف ذلك الأرعن الكئيب
ذلك العدو للطبيعة البشرية».

ويقول فولتير إن روسو، كي يطرد عنه السأم، قد عثر على الحب. لكن حب من؟ حب المرأة لوفاسور:

«كانت تلك الساحرة الجهنمية البشعة
تلاحق في كل مكان ذلك القرد الجوال
فمثلها كالبومة التي تنضم إلى طائر الخبل.
وإذا ما وقع لهما في غرامهما الخفي
أن لاصقت عظامهما المدببة هيكليهما العظميين
فسوف ينتشيان بغتة في ملذاتهما
بالمتعة الوحيدة، متعة الإساءة إلى الجنس البشري».

وإنه لمن المؤسف جدًا أن يكون سلوك روسو قد أوحى بمثل تلك الأبيات، أما أن يكون فولتير هو الذي نظمها وقام بنشرها، فيستدعي المزيد من الأسف. ولنقل إنهما كانا عملة رائجة في جمهورية الأدب.

وتنتهي القصيدة بمصالحة عامة، فتتبادل الأطراف العناق وسط الحماسة، باستثناء ذلك... الملعون في فال ترافير.

«أما العجوز روسو، وقد أعياه السخط عن الكلام
فهام على وجهه مع صديقته الفاجرة
وهرب مسعورًا فعقد معاهدة سريعة
ضد السلام الذي جاءوا لإحلاله».

ويسعنا أن نتخيل كيف استقبل الجنيفيون تلك السلة؛ فالكل نال نصيبه من الإساءة باستثناء آل ترونشان. لكن ما هَمّ، ما دام السيد فولتير تسلى وشعر بأنه انتقم.

جاءه أيضًا أحد «المولدين» زائرًا، وكان من حيث مهنته صانع باروكات، وقد كتب ملهاة رغب في أن يقرأها فولتير فيقوم بتنقيحها. بعد أداء مثل ذلك العمل لأحد الملوك، يُطلَب منه الآن أداؤه لأحد الحلاقين. فقال «تعال غدًا» لصانع الباروكات الذي لم يفهم من وراء ذلك رفضًا. وجاءه في الغد عند مطلع النهار، فقال له فولتير دونما تكلف: «وما صنعتك؟»، فرد الرجل قائلًا: «صانع باروكات». فدفعه فولتير في اتجاه الدرج وهو يصيح به بشدة: «اصنع باروكات! اصنع باروكات!».

أما الغريب في المسألة فهي الفكرة التي خطرت في بال صانع الباروكات: لقد تراءى له أن فولتير وجد نصه على جانب من الجودة، جعله يشعر بالحسد، وهو لم يرد عليه بذلك الرد المباغت إلا ليزيح عن دربه منافسًا خطرًا.

ساءت علاقاته بجنيف، وبآل ترونشان أيضًا. فلقد طفح الكيل بترونشان من تقلبات فولتير وغدا سئمًا من تبرئة ساحته. وعبثًا دافع فولتير عن نفسه أمام آل ترونشان، نافيًا كل تدخل في شؤون جنيف الداخلية. وقد كتب يقول: «إنما أنا حيال جنيف كأني على بعد مئة فرسخ منها». لكن ما كان في وسع أحد أن يصدّقه. «إني أتبع نصيحة فيثاغورس بكل دقة: في هبوب العاصفة اعبدوا الصدى»، وما كان ذلك القول صحيحًا البتة؛ إذ كان في العاصفة يشعل حريقًا.

أما وقد توجه ترونشان إلى باريس ليعاين حال ولية العهد، فإنه صادف الملك الذي سأله ما إذا كان لا يزال صديقًا لفولتير، فكان ردّه: «لست صديقًا لرجل ملحد». ونُقِل القول من فوره إلى فولتير الذي لم يشأ أن يصدّقه. والحق أن ترونشان لم يكن صديقًا صدوقًا لفولتير.

ذات ليلة من شباط/ فبراير 1768، التهب المسرح الخشبي المشيد فوق ساحة في جنيف، كأنما لتحويل الأنظار بعض الشيء عن الهموم التي تعتمل داخل المجلس. وكان ذلك المسرح متعة فولتير، فهو الذي جعله يتأقلم مع مدينة كالفِن،

مثيرًا أشد السخط لدى جان جاك. وكانت قاعته تمتلئ تمامًا عند كل عرض. أما حين تعرض مسرحية طرطوف، فكان الشعب يصفق للمقاطع كافةً التي يتعرض فيها الرياء الديني للهجوم. وفي عام 1766، عُرِضت على خشبته مسرحية فولتير أولمب (*Olympe*). ولقد أُفعِمَ طربًا، ذلك أنه كان يشعر حيال تلك المسرحية الرديئة شعور أب بالضعف حيال طفله غير المرغوب فيه.

كانت المحرقة تطرب الجمهور، وربما أكثر من الأشعار. «إن المحرقة لتدير الرؤوس: لم يكن الناس بذلك العدد يوم محرقة جان سيرفيه حين أوعز خمسة وعشرون شخصًا حقيرًا بإحراقه». وحين شوهدت ألسنة اللهب في تلك الليلة الشتوية ترتفع في السماء، هرع الناس حاملين دلاء الماء. أما وقد رأوا أن المسرح هو الذي يحترق، فقالوا: «لا بأس، يا سادة، فليبادر الذين فعلوا ذلك إلى إطفاء النار». وتركوا المسرح يحترق. رأى فولتير أن الشعب متقلب الأهواء، وجاحد. لقد كان في وسعه أن يفهم لو تعلق الأمر بمعبد يحترق، أما المسرح! فيا لها من بربرية! وكتب يقول: «إيه، يا لجنيف هذه! فحين تظن أنك تمسك بها، ترى كل شيء يُفلِت من بين يديك: الشعور الكثيفة والباروكات، إنها لَشيء واحد». وهو يؤكد أن النار أُشعِلت في المسرح عمدًا. ويبدو ذلك محتملًا، لكن لم يُعثَر على المذنب. فقام فولتير على الفور باقتراح أحد الأسماء: إن مُشعِل الحريق هو جان جاك. ومن المرجح أن يكون ذلك المسرح المحترق قد بدا في نظر فيلسوف فال ترافير تطهيرًا من النجاسة.

أخلاقيون وميتافيزيقيون مع فولتير وأخلاقه

هنالك وجه غير عادي في جنيف، من بين الشخصيات المهمة أو الدمى المتحركة، ممن يأتي فولتير إلى ذكرهم، وهو واحد من أولئك البروتستانت المتشددين والمتزمتين الذين لا تشوبهم شائبة. وكان هذا على درجة من التعصب الخالص، إلا أنه نزيه ومستقيم إلى حد الذهاب بنفسه إلى فولتير ليقدم له مخطوط الهجمات التي يستعد لنشرها ضد الملحد دولوك، بل الشيخ دولوك على نحو ما يدعوه فولتير، وهو صديق لروسو ومنتقد شرس لفولتير. فاقترح على فولتير أن يعترف بنفسه من نسل إبراهيم، وأن يتخلى عن إلحاده، وأن يعلن ألوهية المسيح؛ وفي المقابل، فإنه هو، النبي دولوك، سوف يعلق نشر مقالاته الهجومية

(وهي عملية باهظة التكاليف، أليس كذلك؟). ونحن نعرف المشهد حين يقوم دون جوان باستقبال السيد ديمانش، فيثقل كاهله بالمدائح ثم يصرفه مفتونًا وخالي الوفاض. لقد استخدم فولتير الأسلوب نفسه مع النبي العجوز، فتملقه بمداهناته، وباعتراضات المودة، وبالاحترام والإعجاب، فقرأ له شيئًا من أشعاره فعلق عليها وبالغ في الإعجاب بها، واستشهد بشريعة موسى وبالأنبياء، وتألـق في حفظه لسفر التكوين فبلغ حدًا جعل العجوز يظن أنه أخطأ أو أنهم خدعوه بما قالوا على فولتير.

فباح حينذاك للشاعر بأنه خصص سبعة فصول للإساءة إليه. ثم قال له: «وها هي!»، وبدأ يقرأ له من الرزمة الضخمة. فتوسل إليه فولتير، وقد ذُعر من ضخامة العقاب المتمثل في تلك القراءة، كي يدع له مخطوطته التي سوف يقرأها في يوم واحد. فقال له العبري العنيد: «سأدعها لديك ثلاثة أيام لتقرأها ثلاث مرات»، فوعده فولتير بذلك ليفلت من تعذيب القراءة. وعاد فرافق جلاده الشريف وهو يلاطفه بكل مودة. ولم يحرص على قراءة سطر واحد من ذلك النقد المرهق. وكان يقول عنه إن دولوك «جاهل ساذج يشبه رسل المسيح». (لكن قبل حلول الروح القدس عليهم، بكل تأكيد).

كان دولوك شديد الإزعاج إلى حد أن جان جاك روسو الذي كان يُطنِب في إطرائه لمهاجمته فولتير، كان يعجز عن تحمله. وقد كتب يقول: «إني أكنّ له الود والاحترام والتقدير، لكني أتهيب لقاءه على الدوام... مع ذلك، وجدته أقل إزعاجًا بقليلٍ منه في جنيف. ولقد ترك لديّ كتابين. فيا رب السماء! يا له من عبء. صار لديّ، أنا الذي لا أعرف طعمًا للنوم، كمية من الأفيون تكفي شهرين في الأقل».

كان دولوك هذا يسلك سلوك خطيب شعبي، ويريد تأسيس ما يشبه الجمهورية التوراتية. فكان فتيلة إشعال الحروب الأهلية في جنيف. وقد جعله فولتير مسؤولًا عن سوء تموين المدينة وعن حالة شبه المجاعة السائدة فيها. وما همّ دولوك ألا يجد الناس ما يأكلون بشرط أن يقوم بوعظهم؟ فكان يطرق الأبواب، الواحد تلو الآخر، ويعظ الناس في بيوتهم. وكان من أولئك الأشخاص الذين يشعر فولتير حيالهم بالرهبة، والذين يزعمون أنهم يوصلون أمثالهم إلى الفردوس بتقصير حياتهم على هذه الأرض بجعلها ما ينبغي أن تكون عليه «واديًا من الدموع».

تلك هي قضية فيلسوف فيرني! فهو الذي يكافح كفاحًا جنونيًا ليجعل من ذلك الوادي فردوس المباهج، حتى لو فاته الفردوس الموعود.

إنه لأمر واسع الدلالة أن ننظر إلى فولتير عبر دولوك وأمثاله وآخرين، ممن يقومون بدور الصد والعرقلة. وكان له عدو آخر هو بونيه، صاحب الفكر المتميز، الشديد التدين والذي يمقت فولتير بشدة بسبب فكاهاته الإلحادية. فما إن وصل فولتير إلى جنيف حتى قام بسلسلة من الزيارات. ولم يشأ بونيه أن يستقبل الشيطان في بيته، بل آثر أن يتوجه هو لرؤيته في عرينه. لذا، بدأ يتردد إلى الديليس، بنفور ومواظبة في آن! فهل يُسمح للمرء بأن يعيش في اللذائذ، على هذه الأرض؟ لقد كان فولتير هذا يشكل تحديًا لروح التوبة والتواضع والبساطة. ولذلك، لم يكن بونيه يعاشره إلا ليُحسِن مراقبته، وليأخذه بالجرم المشهود من حيث الاستخفاف والجهل، وحتى المكر. أما وقد رأى بونيه كتابًا لكونديياك على إحدى الطاولات، فقد حاول إيقاع فولتير في الفخ: «ما رأيك بهذا العمل؟»، فرد عليه فولتير قائلًا إنه لم يفتحه، وإنه لا يقارب تلك الفلسفة مطلقًا، مكتفيًا بنظم بعض الأشعار الرديئة. لاحظ عليه الآخر بعض الضيق، مع أن الجواب عبّر عن التطلق. وكان كونديياك يسبب الضيق لفولتير، ما لم يكن لبونيه، وربما للاثنين معًا. وتوجها إلى قاعة مجاورة حيث كان السيد دو بومون يتحدث عن كونديياك، فأصغى فولتير إلى حديثه. أما بونيه الذي كان يعاني وقرًا في سمعه، فلم يتابع الحديث. بعد ذلك بوقت قصير، شد فولتير أذن بونيه محدثًا إياه عن كونديياك بحماسة مدهشة، فأصيب بونيه بالذهول. ثم التقى السيد دو بومون بونيه بعد ذلك بأيام، فسأله إن كان قد استمتع بزيارته لفولتير، فأجابه بونيه أنه كان شديد الاهتمام بما قال له الشاعر عن كونديياك. فقال له دو بومون ضاحكًا: «وأنا كنت أكثر منك استمتاعًا»، ثم روى له كيف جرت الأمور.

كان بونيه، وهو صديق هالر ودولوك وعلماء لاهوتيين آخرين، يقومون بما وسعهم لتأكيد الشائعة القائلة إن فولتير جاهل. فهو لم يكن بالتأكيد، على الرغم من مطالعاته الواسعة، عالمًا ميتافيزيقيًا مثل بونيه أو دولوك، لكن سعة ثقافته لا يطاولها الشك. أما بونيه الذي يشكك فيها، فكان في ميدان العلوم واللغة الإنكليزية والإيطالية والتاريخ والشؤون المالية والسياسة والزراعة والإجراء القانوني، وحتى في اللاتينية، جاهلًا بالنسبة إلى فولتير.

وإن ما يأخذونه على سيد فيرني هو رغد عيشه ومرحه واستخفافه واستهتاره؛ فهم لا يقبلون بأن يكون العبقري محببًا واجتماعيًا وأنيقًا، إذ إن الكِبَر في نظر أمثال بونيه هي أن يكون المرء باعثًا على الضيق. «أنا في غنى عن مواهب السيد فولتير كافة مقابل ثمن استمتاعه بها: إنه بحسب ما أرى أحد الكائنات الأكثر شقاءً على وجه الأرض».

ذلكم هو أرميا[49]! ومن قال لك، أيها التعس بونيه، إن السيد فولتير يرغب في استبدال مواهبه بمواهبك في سبيل أن يكون سعيدًا في عالمك أنت؟ إن التبجح والحماقة يخفيان الحسد. والعيش يستهوي فولتير: فكل شيء يسليه، حتى الحمقى الذين يثيرون غضبه، لأنه يعرف كيف يستمتع بغضبه الخاص. فهو يقدم لنفسه، بين وقت وآخر، تجليات ممتازة لسخطه الانتقامي حيال الحماقة.

حين أُحرق المعجم الفلسفي، تفجر الفرح لدى السيد بونيه الذي عبّر عن نفسه بكثير من الحميّة وفساد الذوق: «إنه الكتاب الأسوأ لدى ذلك الكاتب النتن، وفضلًا عن ذلك فإنه بالنسبة إلى الضمير مثل الزرنيخ بالنسبة إلى الأمعاء». آه! يا له من نقد بارع لدى أولئك الحمقى!

علاوة على ذلك، يلاحظ بونيه أن تلك الأنواع من الإعدامات لا تؤدي إلا إلى زيادة نجاح الكتاب. وليس ذلك خطأ. ورسم صورة كئيبة على وجهه لدى رؤية فولتير يضحك هازئًا لأنهم يحرقون كتابه. إذ ذاك استبد به الغضب: «ما عاد ذلك الرجل ينتج سوى الفضلات، وهناك عدد لا يحصى من الناس يقومون بالتهامها». تبًا لك، أيها القس! لقد سقط قلمك داخل القصرية.

ويلاحظ السيد بونيه أنه يُصار إلى تفنيد افتراءات فولتير التي يقرأها الجميع، بوساطة مؤلفات ضخمة، ليس من يكلف نفسه عناء فتحها.

«ينبغي أيضًا وضع الترياق في علب صغيرة مذهّبة». لقد أحسنت قولًا يا سيد بونيه، فما عاد ينقصك سوى الذهب لصنع العلب والقيام بالنقش الفني عليها.

---

(49) من أنبياء التوراة بين القرنين السابع والسادس ق.م. تتميز مراثيه التي قالها في سقوط أورشليم في عام 570 ق.م. بالنواح، لكنها لا تقوم على أساس تاريخي. (المترجم)

حين نشر دولباخ كتابه المادي منظومة الطبيعة، دُهِش بونية لرؤية فولتير يدحض آراء دولباخ بحجج تؤيد وجود الخالق، وقد باغتت تلك الحجج بونيه وأطربته؛ ذلك أنه لم يكن يعرف فولتير على حقيقته، لأنه لم يكن ماديًا. ويقول فولتير في بيت من الشعر أضحى يُضرَب مثلًا: «لو لم يكن الله موجودًا، لوجب اختراعه». فوجود الله ضرورة فلسفية للكون على نحو ما يتصوره فولتير. وفي ما خلا ذلك، فهو العدو اللدود للعقائد والطقوس والديانات المعلنة، فذلك كله مدان كيفما كان، تحت اسم «التطير» الشائن، ذلك أن التطير هو الذي يؤدي إلى التعصب حتى قتل الإنسان للإنسان. بيد أنه كان في نفس فولتير حنين إلى الإيمان، فطفولته كانت مجبولة بالدين. فلـمَ قام بإنشاء كنيسة في فيرني؟ إذ كان لرجل ملحد أن يدع الكنيسة القديمة تنهار ركامًا، ولكان تجنب الكثير من المتاعب مع أسقف الأبرشية. لقد كان معاديًا عداءً عنيفًا للكهنة والتوراة والكهنوت والماورائيات، لكنه آلهاني وروحاني؛ فقد انطلق ذات يوم على مائدة الغداء، كل من كوندورسيه ودالامبير في نقاش صاخب حول وجود الخالق. فأمر فولتير جميع خدمه بالخروج وقال لصديقيه: «يا صاحبيّ، واصلا الآن أقوالكما في حق الرب، أما وأني لا أريد الليلة أن يقوم خدمي بذبحي، فمن الخير ألا يصغوا إلى ما تقولان». وهكذا فإن الله ضرورة أساسية للأخلاق الفولتيرية. أما وقد أجابه أحدهم بأن النساء التقيات يقمن أيضًا بخيانة أزواجهن، اغتاظ فولتير للحجة ورد عليه قائلًا: «وأنا أعرف امرأة ردعها عن فعل ذلك خوفها من الله، وإن ذلك لَيكفيني».

يتمسك كثيرًا بتلك الأخلاق القائمة على الخوف من الله. «إنما الإلحاد وحش خبيث في نفوس الحاكمين (وما حال سليمان الشمال؟)، فيسعه مهما قلت تشجيع أمثال نيرون والإسكندر. والرأي المعاكس يستطيع قمعهم. فلولا هذا الكابح، لنظرتُ إلى الملوك ووزرائهم نظرتي إلى وحوش مفترسة...». ويبدي دهشته، وهو في السادسة والسبعين، من أن الناس يتعرضون باستخفاف كبير لأخطر موضوع في العالم: «وجود الله هو الشيء الأكثر إثارة لاهتمام الجنس البشري».

فهو يتمتع بروح دينية، لكن من غير دين: «... لِمَ نحن موجودون، ولِمَ الكائنات موجودة؟ ما الفكر؟ يا ذرات عمرها يوم واحد، يا رفاقي بصغركم اللامتناهي، والمولودين مثلي لتحمُّل كل شيء وجهل كل شيء، هل من مجنون

بينكم ليعتقد أنه يعرف ذلك كله؟ كلا، ليس ذلك البتة، فأنتم تشعرون في أعماق قلبكم بالعدم، مثلما أشعر أنا، لكنكم على جانب من العجرفة يجعلكم ترغبون في أن نتبنى منظوماتكم السوداء».

كي يؤكد ألوهيته، أوعز بحفر العبارة التالية باللاتينية على مدخل كنيسته في فيرني: «Deo Soli» (الله وحده). أما عن الروح، فنحن نعلم أنه لا يسعه الإيمان بها. «إن ما لا أدري كنهه ويُدعى المادة، يسعه التفكير كالذي لا أدري كنهه ويسمونه الروح... لقد بحثوا على الدوام كيف أن الروح تؤثـر في الجسم، لكن كان ينبغي أن نعرف أولًا إن كانت لنا روح... ولِمَ نحن نحرص ما وسعَنا على أن تكون لنا روح؟ قد يكون ذلك بفعل الغرور. ولو كان في وسع الطاووس أن يتكلم لقال إن له روحًا وإن روحه في ذيله».

أما حين يرغب في بعض الأحيان في معاقبة العظماء في الحياة الأبدية، فإنه يتظاهر بالإيمان بالروح وبالعذاب الأبدي، إلا أنه مجرد رضًى عابر. أما فكرته الثابتة، فهي أنه من غير الضروري أن يؤمن المرء بالحياة الأبدية ليكون امرءًا فاضلًا. فهناك حسبما يرى أخلاق كونية، مستقلة عن الأديان والأعراق. «هنالك أفعال جميلة في نظر العالم أجمع: صديق يفتدي بروحه صديقًا له. ولسوف يقول كلٌّ من الهندي الأحمر في كندا والفرنسي والصيني إن ذلك رائع جدًا». إن الحكماء كافة، والناس الشرفاء كافة في العالم أجمع يشكـلون مجتمعًا فاضلًا يتوافق حول المبادئ نفسها: الحقيقة والحرية والفضيلة.

ويأتي إلى ذكر القديسين الحقيقيين لهذه الأخلاق: «فلنتوجه بصلواتنا إلى القديس زينون والقديس أبيقور والقديس ماركوس أوريلوس والقديس أبيكتيتوس والقديس بايل». ولديه تفضيل للقديسين الرواقيين، الذين كما قال «جعلوا الطبيعة البشرية شبه إلهية». وتجاسر دولباخ فكتب يقول إن من الخطورة أن نطلب من المرء أن يكون فاضلًا، إن كانت الفضيلة ستجعله شقيًا، وأضاف: ما إن يجعل العيب المرءَ سعيدًا، حتى يتوجب عليه أن يحب العيب».

فردّ فولتير قائلًا: «إن هذه لحكمةٌ دنيئة. فحين يكون صحيحًا أن المرء لا يستطيع أن يكون فاضلًا من غير أن يتألم، فينبغي تشجيعه على ذلك. فرضى المرء عن نفسه لقهره عيوبه أعظم بمئة مرة من ارتكابها، إنها لذة مسمومة أبدًا، لذة

تقود إلى الشقاء. ويقولون للجندي في سبيل تشجيعه: 'فكر في أنك من كتيبة شمبانيا'، فينبغي أن نقول لكل فرد: 'فكر في كرامتك الإنسانية'».

نخطئ إذا ما وصفنا بعض أقوال الاستخفاف التي تصدر عن فولتير تراخيًا في أخلاقه. كما نخطئ حين نخلط بين عدائه الكنسي والبعد عن الأخلاق. غير أن كل شيء متماوج في فكره ومتلامع، إلى حد يصعب معه الإمساك بأعماق فكره. فحين يؤكد زاديغ أن على المرء كي يكون حكيمًا، أن يكون بلا أهواء، فإن الناسك العجوز - ولا ريب في أنه ناسك فيرني - يجيبه بأن الأهواء: «هي الرياح التي تدفع أشرعة المركب. وقد تغرقه أحيانًا، لكنه لا يستطيع الإبحار من دونها».

يهمّ فولتير «الإبحار» أكثر كثيرًا من أن يكون أبيقوريًا أو رواقيًا... أو مسيحيًا. فينبغي الإبحار إذًا، وعيش الأيام بملئها، والإنسانية بملئها، والحياة بملئها. وربما يكمن في تلك الانطلاقة الحيوية سر أخلاقه. ولئن لم نشأ أن نؤمن بأخلاقه، فينبغي الاعتراف بأنه - وهو ابن أرويه الجدير بالاسم، ومدرسة لُوِي لو غران الجدير بكونه تلميذها - ذو قيم أخلاقية عميقة.

البطريرك وقبيلته

كان فولتير يهوى رفقة الشبيبة ويجيد الاحتفاء بهم.

فقد استقبل الشاب ماليه دو بان، وهو من أسرة مرموقة في جنيف، كان قد دافع عن إميل مثلما دافع عن المعجم الفلسفي، وذلك دليل شجاعة بيّنة. وأوعز فولتير باستقباله بوصفه مدرسًا في بلاط المارغراف دوهيس. وكان الشاب ماليه يدرس التاريخ والأدب، وقد بلغت به السذاجة حد تصديق أن من شأن الأمراء، ولكونهم يزعمون بأنهم أصدقاء الفلاسفة، أن يصغوا إلى «أفكار» جديدة. فأفهموه بأن عليه أن ينسى المعجم الفلسفي وأن يقف عند حدود «الأفكار المقبلة». فرجع إلى جنيف ولم يكن محملًا بالمجد وإنما بتجربة نافعة.

كان شاب آخر يتردد إلى فيرني، هو أشبه ما يكون بولد عبقري، واسمه جان دو مولر. كان وقد بلغ السابعة عشرة يلم بعلوم عصره كافة، في حين كان يبدو في الخامسة عشرة. فيسعى إلى الظهور بمظهر أكبر سنًا بوضعه باروكة ضخمة تخفي وجنتيه الطفوليتين ولا تظهر سوى أنفه وعينيه. شكلت

أول زيارة قام بها إلى فيرني خيبة أمل له، إذ لم يرَ الشاعر؛ ففي ذلك اليوم كان فولتير مشرفًا على الموت، فتناول العشاء مع السيدة دوني وزائرين آخرين خاب أملهم. في المرة الثانية استبق وصوله برسالة من ترونشان وبقصيدة مديح، فاختفى المرض. كان في استقباله عجوز متحمس، ملء إهابه الحيوية والفتنة. وما كان في وسع موليه الشاب تصديق ذلك؛ لقد كان مبهورًا. وجرى الإعلان في ذلك اليوم عن وصول أميركي شاب يسافر طلبًا للعلم، وهو لشيء نادر في ذلك العصر. وجدوه فاتنًا بعد تقليبه على الوجوه كلها. وقدّمه فولتير مستخدمًا العبارات الآتية: «سيداتي، أنتن تشاهدن هنا رجلًا آتيًا من بلاد المتوحشين من غير أن يبدو ذلك عليه». الحق أن الأمر أدهش السيدات كثيرًا. والمؤسف أنه لم يكن عليه بعض الريش مغروسًا في هذا الجانب أو ذاك. أما بالنسبة إلى موليه، الذي بدا بهيئة طفل، فقد توجه إليه فولتير سائلًا: «أين هو ولي أمرك؟»، ثم أضاف: «هذا الفتى ابن الخامسة عشرة هو ولي نفسه بنفسه، وهو في الوقت عينه مؤرخ سويسرا».

دخل الاضطراب إلى تلك الحياة العذبة بسبب تبعات حرب جنيف.

تعبت فرساي من تحمل مناكدات الطرفين. وحين أخفق السيد دو بوتفيل (Beauteville) في مهمته (ما عاد أحد يطلق عليه سوى اسم السيد دو برويفيل (Brouilleville))[50]، أمر شوازول في شتاء 1766-1767 بأن يقوم الجيش بفرض الحصار على جنيف لعله في ذلك يعيدها إلى جادة الصواب. وأدرك فولتير أن الضحية الأولى لذلك الحصار هي فيرني، إذ كانت جنيف تحصل على تموينها من مقاطعة سافوا، في حين فُرِض التجويع على فيرني. وكتب إلى ريشوليو في كانون الثاني/ يناير 1767 يقول: «لدي ثلاثون من جنود الخيالة يحيطون بحظيرة دواجن اسمها تورني. وليس لدي من جيش في فيرني، لكن يتراءى لي أنهم سيشربون من النبيذ في هذه الحرب أكثر مما سيسفكون من الدماء». فالجنود يقطعون أشجارها لكي تغلي قدورهم على نارها، ويسرقون لملء تلك القدور. أما النبيذ الذي يشربونه فلا يدفعون ثمنه. وهكذا «ما عاد في وسع الأم دوني أن تقدم على مائدتها لحم

(50) هنالك تلاعب باللفظ الفرنسي؛ فالاسم الذي يعني جمال المدينة، يصير معناه شِقاق المدينة. (المترجم)

العجل الممتاز، وصارت ترسل إلى جيكس لشراء لحم البقر». لحم بقر! ولضباط الملك الوسيمين الذين يُدعَون إلى فيرني! وإن شتاء ذلك العام 1767 لشتاء رهيب، فالثلج لا يذوب. «نحن نفتقر إلى كل شيء، باستثناء الثلج. آه! فهذه المادة لا تعوزنا، بل يسعنا أن نزود بها أوروبا كلها؛ فسماكة الثلج في الحدائق عشر أقدام وفي الجبال ثلاثون». والأب أدور المشرف على الموت لا يجد طبيبًا ولا علاجًا. أما الأغنية التي شاعت فهي: «ينقصنا كل شيء... أما أولئك الجنيفيون فيأكلون من فراريج سافوا اللذيذة. وهم يتخيلون أنهم عاقبوهم، لكن إنما نحن الذين يعاقَبون».

كتب إلى الوزير. ألن يجرؤ على أن يطلب منه رفع الحصار الذي أقفر مائدته؟ ردوا عليه بعدم إزعاج الوزير، ومع ذلك أرسلوا إليه جواز سفر بلا حدود، كي يذهب ليتمون من جنيف عبر الحصار. فصار في وسع فولتير أن يعبر الخطوط للحصول على التموين من المدينة المحاصرة! فكتب إلى السيد دو بوتفيل:

«استثناني الدوق من القاعدة العامة لأني مستثنى بلا نهاية داخل قلبه. فلدي جواز غير محدود لي ولرجالي. تعال، تعال، فالأم سوف تعد لكم طعامًا لذيذًا في الوقت الحاضر، وسوف يتوافر لدينا لحم عجل لا لحم بقر».

من بعدها سيعود الزائرون إلى اجتياح فيرني مجددًا، أما هو فظهوره سوف يزداد ندرة. كانوا يباغتونه أحيانًا عند منعطف إحدى الطرق. فيرى الزائرون باروكته الضخمة وطاقيته ومعطف الفراء الذي يلامس ساقيه اللتين تبدوان من خشب. وإذا ما راقه أحد الأسماء، يقترب ليقدم عرضه الساحر في الأحوال كافةً، فكان يعشق أن يعتذر على ذلك النحو عن استقبال اتسم بالكآبة.

مثلما كان لفيرني حظيرتها الراقية المتميزة بضيوف من علية القوم، كان لها أيضًا قن دواجنها. أما السيدة دوني، فهي أفضل ما يزينها. ولقد صارت نزقة غضوبة، بحيث يطفو على السطح، وسط أزماتها العصبية، الغباءُ والسوقيةُ الكامنان في أعماقها. فحين تبدأ الدجاجة الرومية بالصياح، كانت صرخاتها تستنفد صبر خالها حتى يقع له أن يدعوها بـ «الخنزيرة الكبيرة». والأرجح أن تكون المرأة الوحيدة التي سمح فولتير لنفسه بمعاملتها على ذلك النحو. فكان هذا أحد امتيازات دجاجة دوني الرومية، فضلًا عن امتيازات أخرى أكثر ضرورة لشهوتها للمال، وهي شهوة لا ترتوي. وكان هناك قريبه دومار، وهو إنسان محطم يقوم

فولتير بإيوائه ورعايته وتحمله بمشقة طوال تسع سنوات إلى أن يتوفاه الله. فحسبنا الإصغاء إلى من يقول لنا إن فولتير لا يعرف الرحمة ومقتّر... وفي وسع المرء أن يكرهه، وأن يشتمه أيضًا إذا ما شاء. والمؤسف أنه يعرض نفسه لذلك أيضًا. لكن فليشتمه لأسباب لها ما يبررها.

الإنسان الطفيلي أيضًا يجد مكانًا له في فيرني، وهذا دليل على رخائها. فثمة واحد يُدعى غاليان، وهو بمنزلة هدية مسمومة من ريشوليو. كان غاليان رجلًا خسيسًا غدر بولي نعمته مرارًا وتكرارًا. وهنالك شخص حقير آخر، هو شقيق باستيان الأصغر، وقد هرب من دير في سافوا، فعُرِف لدى سوقة فيرني باسم ريكار، وقد توارى عن الأنظار ذات يوم بعد أن سرق جواهر ومبلغًا من المال ومخطوطات لفولتير. تركه فولتير يولي هاربًا، وقد كان في وسعه أن يوقفه. وقال فولتير: «إنه لا يزال يرتدي الثوب الأحمر الذي أعطيته إياه».

ما كان فولتير ليثأر من شخص كان صديقًا له، فشاركه في حياته وأقام في بيته: قد ينبذه لكنه لا يلاحقه.

هناك طفيليون محببون مثل دوري دو مورسان، ابن الجابي العام. كان باذخ الثراء، ثم انساق وراء تجارات مشبوهة فخسر كل ما يملك. أما عجزه عن تدبر أموره بنفسه، فيقابله قدرته على أن يروق المجتمع بسلوكه وسعة ثقافته: كان طويل الباع باللاتينية، وينظم الشعر بمهارة وفقًا لما كان شائعًا في عصره. وكان محبوبًا من فولتير الذي كان يحاوره ويحاول تسوية الأمور بينه وبين شقيقته السيدة دو سوفيني، زوجة معتمد تموين باريس. كان دوري ينسخ المخطوطات فيساعد المسكين فانيير الغارق في مشاغله. وكان فولتير يُملي إملاء أسرع من أن يقوى ثلاثة سكرتيريين على متابعته كتابة. وكان يرى في دوري الطيب ذاك عيبين، إضافةً إلى تلك التي أفلسته: كان تقيًا وكان يحب جان جاك. ودخل فولتير ذات يوم إلى غرفة دوري فوجد صليبًا معلقًا وتحته صورة جان جاك. فاكتفى بأن كتب على الجدار عبارة صغيرة ماكرة حول الأصنام التي هي في غير محلها. ثم لم يعد إلى الحديث عن ذلك قط.

أما أحد المقيمين الذي كان يتسبب للسيدة دوني بالخوف، فهو ذلك الشخص الغامض، الأب آدم. فكان البعض يراه ثقيل الظل وساذجًا، إلا أنه متعطش على وجه الخصوص للتمتع بالحياة في القصر. وتتهمه السيدة دوني بالرياء؛ فبلادته

ليست سوى قناع، وتتمتم وهي ترتجف بأنه لو تُركَ للأشياء أن تسير على هواها، لرأينا ذات يوم فولتير بين يدي صاحبه «الكاهن»، أي بين أيدي اليسوعيين. بل إن دالامبير خامره الشك نفسه. وكان لا هارب يكره الأب آدم الذي كان يرى بالتأكيد ألاعيب ذلك الآتي الجديد حتى أغوارها. فتلك الزنابير التي تطن تعرض له بكل تأكيد المشاهد التي تروقه. وهاكم ما كتبت السيدة دوني عن الأب آدم وهي منفية في باريس. نحن لن نقارن أسلوب السيدة دوني بأسلوب خالها فقط، بل بأسلوب أي واحد آخر من الزنابير التي تطن في الخلية. «أخبروني بما يفعل ذلك اليسوعي، إنه دابة متذللة، ولو تمتع خالي بالذكاء لالتزم جانب الحذر منه، فما يقول له ذلك الأحمق، وفقًا لاعتقاده، يمكن أن يترك أثرًا فيه، فالحيوانات الشريرة خطرة جدًا». أما الحيوانات العادية فتسبب السأم، وهي شريرة فوق ذلك.

أما حين كان فولتير يستهزئ بالأب في صالونه، يظل هذا الأخير عديم التأثر. فيقول فولتير: «هاكم الأب آدم، لقد كان يسوعيًا وأنتم ترونه يضحك لطرائفي كافة على المرذولة. لا بأس، فأنا أشك في أن يكون هذا الخبيث مسيحيًا. إنه مراءٍ».

كان الكاهن على علاقة سيئة جدًا برهبانيته؛ فقد ذهب إلى ديجون ليستأنف اتصاله برؤسائه، فلم يقبل أحد منهم أن يستقبله. ومع ذلك، كان يقيم القداس بانتظام. وفولتير لا ينفك عن التكرار «أبتي الكاهن»، «كنيستي»، «قداسي». وكان بعض المدعوين يوجه سهامه إلى الأب آدم: «ما عساك تفعل هنا؟ هل هذا هو مكانك؟»، فيجيب الأب آدم بكل صفاء: «إني صابر، وأنتظر حلول ساعة العفو». كان ينتظر على وجه الخصوص ساعات الطعام. وكان فولتير شديد الغبطة بوجود يسوعي في بيته: كان يستمتع بالإثارة التي توفرها تلك الأوضاع.

كان الأب آدم يخرج أحيانًا عن بلادته؛ إذ كان في فيرني ناسخ ثالث هو السيد بيجكس. فقد التقى طاهي فولتير، في أثناء سفره إلى باريس، بيجكس هذا في بيت غريم، فاختاره ليأتي إلى فيرني! وقد كان بيجكس، وهو من سافوا، شغيلًا لا يعرف الكلل. فأخذ على عاتقه، إضافةً إلى عمله في الديوان، مهمة العمل وصيفًا... وألبسه فولتير فضلًا عن تلك المهمة الأخيرة أهجية عنوانها: وسيط وحي المؤمنين. فكان اسم سيمون بيجكس ظاهرًا على الغلاف. حينئذٍ أضمر له الأب آدم الكراهية. فهو الذي لا يتكلم البتة، تكلم ليقول شيئًا رهيبًا: اتهم بيجكس بأنه يسرق الفواكه من البستان. فاستاء بيجكس كثيرًا فرفع شكوى وطالب بالنظر في القضية.

نظم أشعارًا باللاتينية للاستهزاء بالأب آدم؛ فتنقلت الأهجية في فيرني من القبو حتى السقيفة. فترك فولتير للأمور أن تتخذ مجراها، وقال إنه يريد أن يُصار إلى النظر في القضية. وضاعت الأوراق، فنحن لا ندري ما جرى، لكننا نعرف أن بيجكس ولى الأدبار وأن الأب آدم احتفظ بمنصبه. وكانوا في حاجة إلى ناسخ، فكان لاعب الشطرنج هو الذي حصل على المنصب.

كلب الهراش والدجاجة الرومية يُطرَدان من الحظيرة

يا لصبره على أولئك الناس كلهم! فماذا كان ينتظر منهم؟ شيئًا من التسلية وشيئًا من الصداقة والرضى لقيامه بمساعدتهم. وكان من بين المدعوين في عام 1768 كل من لا هارب وشابانون. فهما مرحان وفتيان ويقرضان الشعر، وكان فولتير يحبهما لتلك الأسباب مجتمعة. فقد جاء إليه شابانون بتوصية من دالامبير، وكان يتمتع بمواهب نظم الشعر والموسيقى والفلسفة. أما لا هارب الذي كان يحسده، فيقول إنه يعزف على الكمان أفضل من القيثارة. وكان يحمل كنزًا في حقيبته: إنها تراجيديا! فكانت غبطة فولتير لا توصف وهو يرى هؤلاء الشبان يبثون طاقة جديدة في ربة التراجيديا العجوز. واعتقد أن لا هارب وشابانون سوف يطيلان نجاح زايير وميروب، مثلما فعل هو، فولتير، حين أطال نجاح راسين. لكن لسوء الحظ، فلئن تمتع هذان الشاعران اللطيفان بموهبة نظم بيت من الشعر الكلاسيكي ما يكفي من المرات لملء خمسة فصول، فإنهما لم يكونا يتمتعان بما يكفي لإعادة انبعاث مسرحيات مثل فيدر ولا حتى زايير.

كان الشاعر العجوز يتوقد سرورًا وهو يصغي إلى تلك السطحيات. إلا أنه كان يحث شابانون قائلًا: «واصل الطهو.. واصل طهو ذلك كله». فيفهم من ذلك أن الطبخة لمّا تنضج.

ثم أشركهما في أداء تراجيديته السكيثيون (*Les Scythes*)، وقد أدى هو نفسه دورًا فيها. قال شابانون، بدافع من اللطافة، إنه لم يقوَ على الحكم على أداء فولتير لأنه كان هو أيضًا يؤدي دوره في تلك الأثناء وإنه لم يكن يراقبه. واغتمّ فولتير حين تأكد له أن مسرحية السكيثيون لم تحقق نجاحًا يُذكر حتى على مسرحه هو.

وقدموا أيضًا مسرحية أديلاييد (*Adélaïde*) التي لم تكن أفضل من تلك لكنها قوبلت بالإطراء في كل مكان. وتساءل فولتير عن سبب تفضيلها على السكيثيون: ألأنها كانت أقل منها إزعاجًا بقليل؟

مع ذلك امتلأت الصالة عن بكرة أبيها: فضباط الملك، والمدعوون من جنيف (الذين سُمح لهم بعبور الخطوط!)، ورماة القنابل من فيلق كونديه قاموا بأدوار الممثلين الصامتين. ولقد وجدهم فولتير رائعين، فأوعز بإعداد عشاء لهم، وأمر بإعطائهم المكافأة التي يطلبون، مهما تكن عالية. وكان ذلك انتشاؤه بالمسرح، الذي يُخشى أن يتبعه انهيار عصبي رهيب ربما يدوم ست ساعات أو اثنتي عشرة أو أربعًا وعشرين ساعة، والذي قد يُشاهَد وهو يثب منه ما إن تصله بُشرى سارة أو رسالة لطيفة، أو يصغي إلى حكاية أُحسِنَت روايتُها، أو يأتيه زوار ارتاح للقائهم. وجعل أحد الجنود بهجته تبلغ الذروة، حين رفض المكافأة المالية، قائلًا: «لن نقبل شيئًا، فلقد رأينا السيد فولتير، وهذا هو أجرنا». وبلغت الغبطة بفولتير حد تقديمه قصره: «تعالوا أيها الجنود الشجعان فتناولوا الطعام متى شئتم! هلموا، فمائدتي مبسوطة لكم، ولئن راقكم أن تعملوا، فسوف تحصلون على الأجر الذي تطلبون».

كان فولتير على أطيب علاقة مع السادة الضباط وجنودهم. ولئن كان الجنود لصوصًا في بعض المواقف، فهُم يبادرون إلى تسوية الدروب، ويقومون بغرس الأشجار بدلًا من تلك التي يقطعونها. وأما السيدة دوني التي كان زوجها وكيل التموين في مدينتي لاندو وليل، فقد استعادت بكثير من البهجة أيامها في الحامية. لكن فولتير أصيب بخيبة أمل؛ فالعقيد شابريان وضباطه الذي قُدم إليهم في فيرني المأكل والمسكن، غادروا القصر من دون التوجه بكلمة شكر واحدة إلى مُضيفهم. وفولتير حساس حيال تلك المخالفة لقواعد اللباقة، فشكا أمرهم إلى الوزير. فتوجه إليه شوازول بالرجاء أن يعذر الضباط وأن يقبل الشكر منه هو بدلًا عنهم: «إني آخذ على عاتقي واجب شكرك على الرعاية التي قدمتها للضباط، والأغطية التي أوعزتَ بإعطائها للجنود». كذلك أقرض فولتير المال لدفع مرتبات العسكريين. فكتب إلى السيدة دوفان يقول: «إن الضباط يقومون بخدمة ملكهم بتفانٍ جعلهم لا يجدون الوقت ليكتبوا إلى السيدة دوني وإليّ أنا».

كان يحرص كثيرًا على الاعتبار الواجب تقديمه للسيدة دوني. وإن أعنف لوم وجهه إلى فريدريك، كان على العنف الذي تصرف به جلاوزة فرانكفورت حيالها. والحق أنه «مفاتنها الشفافة» ما عادت هي التي تستهوي الخيال! بل هو استهواء تراجيدي. فليس سواها من أحب مسرحية السكيثيون وفهمها. ولقد حاولوا تقديمها في باريس أربع مرات، وسط جلبة تصم الآذان. فقال إنه ما من أحد يعرف أن مسرحيته مدهشة. والبرهان على ذلك أن السيدة دوني ما انقطعت عن البكاء طوال الفصول الخمسة، فبكت حتى أصيبت بالمرض. وكتب يقول: «إنها مرتعبة منها ولا تستطيع استعادة رباطة جأشها». هل ينبغي للجمهور أن يكون بربريًا؟ فهو لا يحترم حتى شيخوخته. وهل ينبغي للجمهور أن يصفق فقط لأن المؤلف يبلغ الخامسة والسبعين؟ وكتب الناقد كوليه، وبشيء من العنف: «ليس ذلك العمل من فترة شيخوخته، بل هو من مرحلة هرمه». ومع ذلك، بعث فولتير بالمسرحية إلى فريدريك.

قام الزوجان لا هارب بالتمثيل في مسرحية السكيثيون. وكان لا هارب يتمتع بشيء من الموهبة، وكانت لديه، فضلًا عن ذلك، زوجة جميلة. فقد تزوج من ابنة صاحب البيت، الذي يقيم فيه، وهو صاحب مقهى. وكان قد تودد إليها بحمية كبيرة حتى أن لهيب هواه تُوج بالزواج وبالتعميد. ولم يأسف فولتير على توجيه الدعوة إليهما لأن السيدة لا هارب كانت تجيد إلقاء الأشعار، وتبكي على قدر السيدة دوني تقريبًا. وكانت أيضًا تنطق بحرف الراء (R) نطقًا رائعًا وتتلاعب أيضًا بتحريك بؤبؤ عينيها. وباختصار، وجدها فولتير أفضل من الآنسة كليرون التي لم تكن تبكي إلا بكثير من التقتير.

كانت تلك المرأة تشكل ورقة رابحة في اللعبة التي ينوي لا هارب أن يلعبها مع فيلسوف فيرني. وكان لا هارب يتمتع بمواهب أدبية أكثر من شابانون، فكان فولتير يراهن عليه. وكتب إلى صديقه سيدفيل يقول: «أمضى لا هارب بضعة أيام في منسك كنت أقيم فيه، ولما كنتُ أهوى إفساد الشبيبة كثيرًا، فقد شجعته على اللحاق بمهنة الشِّعر المكروهة. إنه رجل، ولا ريب في أنه سوف يخرج بمؤلفات جيدة يكون من شأنها أن تجعله يموت جوعًا، وأن يلحق به الاضطهاد والكلام الشائن، لكن لا مناص من أن يسلك كل امرئ درب أقداره».

كان يلوم ربيبه ذاك على أنه لا يعمل بما فيه الكفاية. فالحياة في فيرني حافلة بألوان اللهو، أما النهارات فتملأها المناسبات الاجتماعية. وكان فولتير وحده الذي يتوصل إلى العمل وسط تلك الحظيرة التي يستثيرها ويسحرها. فالجميع يتكلم بإفراط ويقوم بخلط الأفكار ويظن نفسه غاية في الذكاء. أما هو فيتوارى عن الأنظار مع سكرتيره، فيملي ويكتب ويفكر. ويقوم بظهور مباغت، فيقذف بنيرانه ثم يتوارى. أما لا هارب الذي لم يكتب قط في فيرني، فكان يجني منها فوائد أخرى، إذ رغب فولتير في جعله ينال جائزة من الأكاديمية. فكتب إلى دالامبير، وسرب إليه الشعار الذي اختاره لا هارب للتمكن من معرفة مخطوطه. وفاز لا هارب بالجائزة، فطار فولتير فرحًا: «أنا أضع شهرتي في شهرة تلاميذي، وإني لأتوقع منه الكثير». ولسوف يتلقى من ذلك التلميذ شيئًا ما كان ليتوقعه.

كثيرًا ما قيل إن المدائح التي يغدقها فولتير بسخاء على الذين في كنفه ليست سوى عملة زائفة، بل زعموا أنه يقوم بإطرائهم إطراء زائفًا ليجعل إخفاقهم أكثر عنفًا. لكن الفساد في الارتياب، وليس في سلوك فولتير. فلِمَ كان ينفعل إلى ذلك الحد في سبيل ضمان نجاح الذين يرعاهم، إن كان راغبًا في الاستمتاع بإخفاقهم؟

صحيح أن إغداق الإطراء سهل عليه، لكن ذلك من آداب البلاط. ففولتير ليس ألسيست[51]. ولئن ظن أحمق ما – والأحمق وحده قمين بذلك الظن – أن في وسعه كتابة مسرحية فيدر (*Phèdre*) لأن فولتير قال له إنه ينظم شعرًا يشبه شعر راسين، فليس لذلك الظن أي قيمة. وإن ما ينبغي حفظه من إخلاص فولتير لمن في كنفه، إنما هو الصدق. ففي عام 1733، ولم يكن آنذاك غنيًا بما فيه الكفاية ليكون المجدد لملكية أحد الأسياد، والداعم للمعوزين والكتّاب الشباب، كتب يقول: «أفضّل أن يكون لي أصدقاء على من لا طائل وراءه، وأفضّل الأديب على طاهٍ ماهر أو على جوادين لجر العربات». ولقد أعان آنذاك الكسول الضخم لينان، وواحدًا من أصدقائه توفي بداء السل بعد زمن قصير؛ فعل ذلك من دون منفعة.

إن لا هارب هذا لم يكن متخلقًا بأخلاق البلاط، فهو نزق وحاد الطبع،

---

(51) هي في الأساطير الإغريقية ابنة بيلياس، وزوجة أدميت. قبلت أن تموت بدلًا من زوجها، لكن الإلهة برسيفوني أعادتها من عالم الظلمات إلى عالم النور. (المترجم)

وعدواني في بعض الأحيان. ولقد سمح لنفسه بأن يقول لفولتير ملاحظات بلهجة كلب مهارش، هو مثله في قامته وحدة طبعه. ولم يكن فولتير يأخذ عليه ذلك التطابق إلا على خشبة المسرح. ثم ينسى من بعد، فلا يرى سوى السيدة لا هارب التي كانت من ناحيتها طويلة القامة؛ فهذه تعوض عن ذاك. وعلى قدر ما كان لا هارب فظًا، كان فولتير مهذبًا وهو يقوم بتوجيه تلميذه: «شكرًا يا بني، لكنك ستقتلني ما لم تغير هذا المجاز». وكانت رحابة صدر فولتير تفاجئ من هم في محيطه. وكان فولتير، وسط الأسرة، يناديه تحببًا: يا صغيري. فيرفض لا هارب بفظاظة، فيضحك فولتير ويكتفي بالقول: «آه! إن الصغير غاضب!». ولدى الجلوس إلى المائدة، كان كلب الهراش يحرَد. أما وأنه أشد ميلًا إلى لذائذ الطعام منه إلى أساليب اللباقة، فإنه يعود لينكب على طبقه ويُعمِل فيه التهامًا.

فكيف كان لفولتير أن يتحمل أولئك الناس، من أمثال تييريو ثم أمثال لينان وآخرين، ثم لا هارب في الوقت الراهن؟ أولئك الأوغاد الذين هم النقيض التام لما هو ولما يحب؟

ذات يوم، وردًا على نداء يا صغيري، قال لا هارب: يا بابا. فتركه فولتير وشأنه. وغير الصغير أبياتًا في تراجيديا لفولتير، فشكره الأخير. وشعر الصغير بأنه على درجة من القوة جعلته يغامر بمزاح كان من شأنه أن يكلفه غاليًا. فذات مرة، تلا الصغير أبياتًا على المائدة، من غير ذكر اسم الشاعر، فوقع فولتير في الفخ على الفور حين أبدى إعجابه بها. ثم سأل عن القائل. فرد كلب الهراش: «لوفران دو بومبينيان!». وسادت فترة من الذهول، شحب خلالها لون فولتير. وتوجهت أنظار الجميع إلى البطريرك، وانتظروا. فقال أخيرًا: «كرر هذا المقطع!»، وأصغى إليه بصمت مرهق: «المقطع جميل جدًا، وليس هنالك من مزيد». وانسحب من بعد. وكذلك فعل لا هارب.

كان استياء فولتير منه ضئيلًا جدًا حتى إنه قام حياله بإجراءٍ ظل لا هارب يجهله طوال حياته: أما وأن لا هارب بلا منحة، فقد كتب فولتير إلى المراقب المالي العام طالبًا منه تحويل نصف منحته هو إلى لا هارب. ورجا الوزير الحفاظ على سرية الإجراء. وأضاف فولتير: «لسوف يتأكد له بكل يسر، كما للجميع، أن تلك المنحة هي المكافأة العادلة على الخدمات التي أداها للأدب».

ما كانت تلبية ذلك الطلب بالأمر الممكن. لكن مبادرة فولتير تمت. كان ذلك في عام 1767. في الفترة نفسها، عبّر فولتير، في رسالة وجهها إلى دالامبير، عن قلقه بشأن لا هارب: «إن مواهبه سوف تنقذه من العوز الشديد، وذلك هو كل ما يسعه انتظاره». ثم تحدث عن نفع المنحة، من غير أن يذكر ما سيقوم به ليجعل لا هارب يحصل عليها.

ولئن أغفل فولتير أن ينتقم من وقاحات ربيبه، فإن هذا الأخير لم يتوانَ عن الانتقام من أفضال ولي نعمته بسرقته والغدر به.

حين كتب فولتير قصيدته الهزلية «حرب جنيف»، كان يرمي فقط إلى الاستهزاء ببعض الجنيفيين، من غير أن ينسج أوهامًا حول القيمة الأدبية لقصيدته التي كانت تقتصر على أصدقائه الذين يرغب في إضحاكهم. وكان يتخيل أن ما قد كُتِب - مثل كتابات كثيرة أخرى - لن يخرج عن نطاق حلقة المقربين. لكن التجربة أثبتت له، للمرة المئة، أن كل ما يخطه قلمه لا يمكن أن يبقى سريًا. لكن الحذر لم ينفعه قط؛ فقد جاءه البرهان لدى بلوغه الرابعة والسبعين، وللمرة الواحدة بعد المئة، على استخفافه. وباختصار، علم أن قصيدته الهزلية والمهينة تروح وتغدو في باريس، مثلما تجوب أرجاء جنيف. وأما التبعة فمعروفة: سخطٌ وشتائم وحمى وحشرجة. ورقد في سريره. لقد تجمع على نفسه وشرع يفكر. فمن هو المذنب؟ وكيف السبيل إلى إنكار القصيدة؟ وما المخاطر التي قد يتعرض لها؟ وهنالك الخوف... خوفه من الملاحقة.

تحول بشكوكه في بدء الأمر نحو الراهب باستيان. فأمسكوا بالشقي وجروه إلى حضرة فولتير، وأرهقوه اتهامًا وشتمًا. فصرخ وبكى ودافع عن نفسه... وتبرأ من التهمة. وكانت تلك نسخة مكررة للمشهد الرهيب مع السيدة دو غرافينيي في سيري. فلم يبق سوى البكاء معًا وتبادل العناق والمسامحة والنسيان... والبحث عن المذنب في مكان آخر.

تولى فولتير أمر التحقيق بنفسه، وشيئًا فشيئًا بدأ الارتياب يتبدد. وكلما اقترب من الحقيقة، رغب في الابتعاد عن تصديقها. وفرض اليقين نفسه في النهاية: المذنب هو لا هارب، والسيدة دوني متواطئة معه. ولم يكتفِ لا هارب بالسرقة فحسب، بل كذب لإبعاد التهمة عن نفسه أيضًا. فاتهم نحاتًا شابًا من باريس بأنه

قد سلمه المخطوطة المسروقة. وسعى فولتير من فوره للعمل على استجواب النحات، فجاءه رده: إنه يعترف صادقًا برؤية المخطوطة... لكنها كانت بيد لا هارب الذي أراه إياها. ولما وجه إليه فولتير ذلك الدليل... «علا وجه لا هارب شحوب ليس هو بشحوب البراءة»، وفقًا لما لاحظ ولي نعمته، مغتمًّا، وقد وقف يقاضيه.

لم يتخذ فولتير بحق لا هارب من عقوبة سوى أنه قام بصرفه. وكان في انتظار أن يبلغ به السخط مداه بسبب الوقاحة اللفظية التي صدرت عن لا هارب والتي أرسلها إلى غرفته مكتوبة على بطاقات.

أما مع السيدة دوني، فكانت مشادته مرعبة. فكيف لذلك العجوز الهش أن يصمد حيال تلك الهزة القوية؟

كانت ابنة أخته الأكثر ذهولًا بالمجرى الذي سلكته الحوادث وهي تسمع الأمر بانصرافها. كان ذلك الإجراء غير مسبوق: أن تقوم بحزم حوائجها وتنصرف! أضحى مرهقًا من صراخها المتواصل ومن نذالتها واختلاساتها في عملها كطاهية. وكان على لا هارب أن يسلك الدرب عينه. وقامت السيدة الصغيرة كورناي، وزوجها دوبْوِي، بالسير على خطى الآخرين لجعل فيرني تتخفف بصورة كاملة.

يقول السكرتير فانيير إن في 3 آذار/ مارس 1768 ارتحل سبعة أشخاص؛ فقد ارتأى بعض المدعوين الذي كانوا هناك عند انفجار نوبة الغضب، أن من الأفضل تقليد المرتحلين... «فعلى الرغم من كياسة فولتير القصوى حيالهم، لاحظوا كم كان في حاجة إلى أن يخلد إلى الراحة والعزلة على أثر ما استبد به من اضطراب وقلق بفعل ذلك الحدث. فوجد نفسه في غضون بضعة أيام وحده في القصر، معي أنا والعاملين في البيت». ولقد نسي أن يذكر الأب آدم الذي نجا من الغرق بعد أن عام متشبثًا برقعة الشطرنج.

أخذت كل من جنيف وديجون وباريس علمًا بأنباء تلك الثورة التي جرت داخل القصر في مملكة فيرني: فبنت الأخت طُلقت، وولي العهد لا هارب طُرِد ليغدو شريدًا على الطرقات. فما الدافع الكامن وراء تلك البلبلة كلها؟ كانت السيدة دوني، بين مرحلة وأخرى، تقسم أغلظ الأيمان لمن يرغب في سماعها، على أنها

ليست على دراية بالسرقة، وأنها بريئة، وأنها سوف تكشف القناع عن وجه السارق فتعيد الأوراق إلى خالها. ولم تُسرَق منها، في واقع الأمر، قصيدة جنيف فحسب، بل هنالك ما هو أخطر من ذلك، وهو أن المذكرات السرية حول ملك بروسيا سُرقت، لكن السارقين لم يقوموا، لحسن الحظ، بنشر ذلك النص الحاقد.

انتشرت في باريس أخبار مئات من الأفعال الخبيثة وآلاف من الحماقات؛ فقيل إنه دبر سرقة نفسه بنفسه، كي يجد مبررًا فيطرد الجميع. وجاء السيد هينان إلى فيرني ليتولى الدفاع عن لا هارب، فأصغى إليه فولتير صامتًا، وقناعته غدت راسخة: «لقد أخذها من مكتبتي من غير أن يقول. فكان لتلك الحماقة تبعات مؤسفة جدًا بالنسبة إلي. وإني لأسامحه من كل قلبي، فهو لم يخطئ بدافع شرير. وأنا أديتُ له بعض المنافع، وسوف أؤدي المزيد منها أيضًا ما دمت في قيد الحياة». وهكذا، بعد بضعة أشهر، أضحت السرقة التي ارتكبها لا هارب وكذبه وجحوده، «حماقة» بقلم فولتير. فلا يسع المرء أن يكون أكثر عفة نفس ولا أكثر تسامحًا: لكن يبدو أن ابنة أخته لم تفقه فحوى تلك الطرائق الحسنة.

لم تكن تلك الأفعال الأولى للسيدة دوني. ففي عام 1755، قامت ببيع مخطوطات سرقتها من خالها... وكان من الخال أن سامحها. أما الآن، فهي وحدها التي تثير لغطًا حول هذه القضية الجديدة التي يحرص خالها، بخلاف ذلك، على إحاطتها بقدر من الضبابية. لم يتهمها خالها بالسرقة البتة. فكتب إلى ريشوليو قائلًا إن صحة السيدة دوني لا تتكيف كما ينبغي مع مناخ فيرني القاسي. وليس في فيرني من طبيب، وأخيرًا... «فإن غيابًا دام عشرين عامًا أثر في ثروتي، ولم يقدم تحسينًا على ثروتها هي. وابنتي كورناي ترافقها إلى باريس حيث ستشهد إعدام مسرحيات عمها الأكبر. أما أنا، فسأبقى مقيمًا في صحرائي».

نحن نعرف هذا النوع من الأعذار: فتارة هو المرض، وتارة أخرى هو الإفلاس. أما وأن الحال خطرة الآن، فينبغي التعلل بالعذرين معًا. صحيح أنه كان يعاني بعض المتاعب مع مدينيه، لكون العائدات السنوية لا تأتي كما ينبغي، وكان راغبًا في أن يوحي بأن السيدة دوني ذهبت إلى باريس سعيًا وراء حث المتخلفين على التسديد، لكن من يسعه أن يصدقه؟ ونحن نعرف أن السيدة دوني شحيحة، لكنها شحيحة وغبية. فهي تأخذ ما في متناول يده من مال، لكنها تبدده دونما

مبرر، أو تقوم بطمره مثل فلاحة. فإنفاقها الفوضوي يعاكس إنفاق خالها الذي كان يستطيع أن يكون رائعًا في كل شيء، مع بقائه شديد الدقـة في حسابه. والحال أن ثروة الناسك لم تكف عن الازدياد؛ فكانت تأتيه في عام 1768 ثمانون ألف ليرة إيرادًا مدى الحياة، وأربعون ألفًا إيرادًا من ممتلكات منقولة وست مئة ألف من الدخول النقدية. فيمثل ذلك كله ما يقارب المليار من الفرنكات الفرنسية القديمة. أما المدينون المشاكسون، فيأتي على رأسهم الصديق الدائم، والدوق الرائع ريشوليو - البخيل جدًا - والذي يقصده فيشكو إليه بؤسه.

سعيًا منه وراء تفسير رحيل السيدة دوني تفسيرًا لائقًا، كتب في 4 نيسان/أبريل 1768 إلى بنت شقيقته الأخرى، المركيزة دو فلوريان، يقول: «من الحق والضرورة أن أكتب لكم بثقة، يا أحبائي البيكارديين. فأنتم ترون التبعة المحزنة المترتبة على سوء المزاج. وتعرفون كم بدا ذلك على السيدة دوني حيالكم، في بعض الأحيان. وتذكروا المشهد المحرج الذي تعرض له السيد دو فلوريان. لقد جعلتني أعاني موقفًا أشد عنفًا. ومن المحزن أن نقرر أن عقلها لم يقوَ، وكذلك حال لطافتها، على استبعاد تلك العواصف العنيفة عن روحها، فهي عواصف تحدث انقلابًا في المجتمع المحيط بها، وتدفع به إلى حافة اليأس. وأنا على قناعة بأن السبب الكامن وراء ثورة الغضب والعنف تلك، والتي تقع فيها بين فينة وأخرى، إنما هو ناشئ عن نفورها الطبيعي من حياة الريف، وهو نفور لا يمكن التغلب عليه إلا بفعل تدفق اجتماعي كبير واحتفال وحياة باذخة. وما عادت تلك الحياة الصاخبة لتتلاءم مع سنوات عمري الأربع والسبعين، ولا مع ضعف صحتي».

لم يأتِ إلى ذكر السرقة؛ فالسبب الذي يسوقه سبب مقبول: السيدة دوني لا تحب الريف، لذلك عادت إلى باريس. وليس اللوم على حبها للمجتمع سوى لوم عابر، فالكل يعرف أن الخال يحب الاختلاط بالمجتمع، مثله في ذلك مثل ابنة أخته. ولئن تحولت فيرني إلى نزل لأوروبا، فليس ذلك ناشئًا عن رغبة السيدة دوني، بل هو الذي أراد ذلك.

لقد تصرف فولتير في تلك القضية بكثير من الشهامة والأريحية. ولطالما رأيناه يفقد من هيبته، حتى لا يغدو من العدل ألا نصفق له في أجود دور له: دور الصديق.

السلوك الماكر للفيلسوف العجوز يصيب كاهن فيرني بمغص قاتل ويثير غضبًا في أوروبا

فيما كان راهب يزور فيرني في أسبوع الآلام في عام 1768، فاجأه فولتير بالقول: «لدي الرغبة، من أجل أن أضرب المثل الصالح، في أداء واجباتي الدينية في عيد الفصح، وأظن أنك سوف تمنحني الغفران من أجل ذلك، أليس كذلك؟»، فأجاب الكاهن بكل دماثة: «حبًا وكرامة، ولسوف أفعل».

تناولا فطورهما معًا ومضى الراهب في سبيله.

في يوم الفصح، صمم فولتير على أن يعظ أبناء أبرشيته حول السرقة، بعد أن جرى بعض الاختلاس في أراضيه. واسترعى فانيير انتباهه، على الرغم من أنه بروتستانتي، إلى أنه لا يحق له وعظ المؤمنين في الكنيسة. فتجاهل فولتير تلك الملاحظة. وبوغت الكاهن، في أثناء إقامة قداس الفصح، برؤية فولتير وسماعه يتوجه إلى المؤمنين بذلك الصوت المسرحي المؤثر الذي كان يجيده في المناسبات. أما وقد انتهت المباغتة، صعد الكاهن درجات الهيكل مجددًا، واستأنف تلاوة القداس. وتوجه إليه فولتير ببعض العبارات المعسولة ليمتدحه ويطلب منه المعذرة. لكن الكاهن لم يَعبأ بذلك. أما أصداء تلك الموعظة غير الملائمة فدوّت بعيدًا جدًا، ونُسجت من حولها الحكايات؛ إذ قال بعضهم إن فولتير دخل الكنيسة يحف به رجال حرس الصيد وهم يحملون الشموع، بل كانوا يذكرون عبارات هي محض افتراء، لكنها عبارات فاضحة. وأضاف آخرون أنه كان مصحوبًا بقارعي الطبول. لكن العجيب في ذلك كله مقدار التندّم الذي اتسمت به تلك الحركات كلها. وبعد مدة قصيرة، أُحيط كلٌّ من أسقف آنيسي والبلاط علمًا بتلك المآثر.

استُقبِل النبأ في فرساي، في بدء الأمر، استقبالًا حسنًا، إذ شاع الظن برجوع فولتير إلى الإيمان. أما من بعد معرفة التفصيلات، انقلب الجميع على فولتير. وصرخ الأتقياء منددين بتدنيس المقدسات، وندّد الفلاسفة بالردة. ودافع فولتير عن نفسه: فقال لدارجنتال إنه عالق بين أسقفين اثنين من القرن الرابع عشر، وهما أحمقان ومتعصبان، فعليه والحال هذه أن يساير الذئاب في عوائها. لكن حجته في ذلك كله بدت ضعيفة. أما في واقع الأمر، فقد استبدت به الرغبة في أداء دور

مسرحي على أن تكون الكنيسة خشبة المسرح، وفي يوم إقبال الناس. فرضخ لميله في الظهور علنًا، وفي تقمّص شخصية جديدة.

ظل ذلك العجوز طفلًا لا يُطاق. أما حين يرفع الصوت مناديًا في فيرني، فهو دومًا صوت فولتير الذي تتردد أصداؤه ما بين فرساي وبطرسبرغ.

كتب إليه أسقف آنيسي رسالة اتسمت بالوقار والاعتدال: «ما دمت أديت طقوس الفصح بملء إرادتك، فأنا أعدّك رجلًا صادقًا. والإنسان المستقيم، حتى لو كان غير مؤمن، لا يؤدي تلك الملهاة من غير أن يشعر بالعار، فأنت إذن مسيحي. ولا يسعني أن أعدّك عدوًا للمذهب الكاثوليكي. يبقى أن تناولك القربان المقدس تم من دون استغفار، ومن دون تصويبات مسبقة لكتاباتك وأفعالك في ما مضى، فلا يسعك والحال هذه أن تتقدم من مائدة القربان المقدس من غير تقديم ضمانة على صدقك، ولا يسع أي كاهن أن يُجيز لك ذلك باستخفاف».

رد عليه فولتير بجواب تسويفي، لكن الأسقف كان قد وضع له النقاط على الحروف. فكان فولتير يتكلـف طيب الخُلُق، ويُطالب بإقامة الصلاة ويحتج بصدق إيمانه. لكن الأسقف قال له إنه لا يكتفي بالأقوال، بل يريد أفعالًا: «الإيمان في الأعمال». والمسألة وضوحها قاطع، لكن فولتير وجد ذلك القول قاطعًا: إن ذلك الأسقف لا يُجيد المراوغة. كان فولتير راغبًا في لطافة لاهوتية متكلفة، وبلهجة ساخرة من شأنها أن تجتذب الأسقف إلى ملعبه عسى أن يستهزئ به. لكن سقطته كانت على رأسه، فثارت ثائرته. فالأسقف الذي كان حذرًا من مراسله الشهير، حرص على موافاة فرساي بجميع الرسائل التي يبعث بها إلى فولتير وبإجابات فولتير عليها. وقد كتب الأخير إلى دارجنتال رسالة فيها من السخط على قدر ما فيها من الظلم، فهذا هو فولتير الذي لا يطاق: «كنتُ غاية في الدهشة حين أعلموني بأن ذلك الغبي المتعصب في آنيسي، والمدعو مطران جنيف، وهو ابن ماسوني شرير، قد بعث إلى الملك برسائله وبإجاباتي عنها. وإن تلك الإجابات لهي رسائل أحد آباء الكنيسة وهو يقوم بتعليم أحمق».

وذلك خطأ؛ فليس الأسقف هو الأحمق في هذه الحال، أما كاهن كنيسة فيرني فسلك سلوك غلام عجوز. وما إن انطلق، حتى أضحى كل ما في متناوله صالحًا للانتقاص من اعتبار الأسقف. فروى أن الأسقف طلب رسالة مختومة ضد

سيد فيرني. وقد فعل ما وسعه ليسوّد صفحته: «إنه جبلي غريب ويلائمه تنظيف المداخن أكثر من توجيه الضمائر».

قال إن الأسقف توسل إلى الملك «بأن يسعده بطرد شيخ بلغ الخامسة والسبعين وهو مريض جدًا، من بيته الخاص الذي بناه، ومن حقوله التي استصلحها، وانتزاعه من بين مئة أسرة لا تقوم لها قائمة من دونه. ووجد الملك الاقتراح خبيثًا وبعيدًا من الروح المسيحية، فأبلغ المتجني بذلك».

فيا له من شيخ مسكين! وشديد التقوى! لكنه نسي أن يقول إنه تلقى رسالة توبيخ من الملك على فرطٍ في التقوى وطلب خدمة في غير محلها.

لكنه أبقى عليها طي الكتمان. إلا أن الأسقف نشرها على الملأ. فكيف تكون عقوبة إذا لم تُنشَر علنًا؟ فالصمت قد يغدو شبيهًا بالموافقة. واستبد السخط بفولتير من تصرف الأسقف فعقد العزم على القيام بما هو أفضل في فصح العام التالي.

والحال أنه ذات يوم من آذار/ مارس 1769، لمح وهو جالس في سريره شخصين يتجولان في أحد مماشي حديقته، فأرسل فانيير ليستطلع الخبر: إنه كاهن فيرني يصحبه كبوشي مسكين جاء ليعينه على سماع الاعتراف في أسبوع الآلام. وكان المواطنون الأتقياء يتزاحمون عند باب كرسي الاعتراف استعدادًا للفصح. وليس ثمة ما يوحي لإبليس أكثر من التقوى المتشددة. وشعر فولتير بالتماعة على حين غرة.

فتوجه سائلًا فانيير: «هل صحيح أن أسقف آنيسي حظر الإصغاء إلى اعترافي ومنعني من تناول القربان المقدس؟».

كان يعرف ذلك حق المعرفة ما دام هو الذي نشر تلك الشائعة. لكنه يريد أن يُظهر أنه يتصرف بطريقة التحدي. وعليه ينبغي لنا فهم ما تلا ذلك: لم يكن الأمر خرقًا للمقدسات، بل هو تمرد. «لا بأس، وما دام الأمر كذلك فسوف أعترف وأتناول رغم أنفه. ولن أذهب إلى الكنيسة أبدًا وإنما سيجري كل شيء في غرفتي وفي سريري إرضاء له. وسيكون الأمر ممتعًا جدًا ولسوف نرى من الغالب الأسقف أم أنا. هيا ائتني بذلك الكبوشي. وهل معك شيء من المال؟ - أجل. إذن ضع إيكو جديدًا على طاولة سريري كي يتمكن صاحبي من رؤيتها».

إنه مجرد إخراج مسرحي بسيط لإغراء رجل الله. ورُفعت الستارة: أدخل فانيير الكبوشي إلى الغرفة، وقام فولتير بأداء أفضل أدواره، فاصطنع هيئة المشرف على الموت: نظرة جامدة، صوت أجش كأنه يأتي من أعماق كهف ليتلاشى على شفتيه، ويدان معروقتان شبيهتان بيدي مشعوذ تعبثان بطرف النسيج المخرَّم بحركة عصبية. أما حديثه فليس أقل إثارة للشجى: «يا أبتِ، ها إن الفصح المقدس أقبل، وأنا أود في هذه المناسبة القيام بواجباتي كفرنسي ومن خاصة الملك وكسيد أبرشية، لكني في حال من المرض لا تمكّنني من الذهاب إلى الكنيسة، فأرجو منك سماع اعترافي هنا».

ووضع في تلك اللحظة القطعة النقدية في يد الكبوشي الذي قبض عليها من دون تردد متلمسًا خلاصة ذلك الحديث الجميل. وبدا الراهب كمن تحجَّر. وأخيرًا اعتذر عن عدم قدرته على التصرف الفوري لأن أشخاصًا عديدين ينتظرونه في الكنيسة، لكنه وعَد بالعودة في غضون ثلاثة أيام إذا ما أدام الله السيد الصالح على حال التقوى التي هو الآن فيها. ثم انطلق مرتعدًا كمن أفلت من بين براثن إبليس. وخلُص فولتير إلى أنه خسر قطعة جديدة من فئة الإيكو قيمتها ست ليرات.

ظل مثابرًا على رأيه. وعمل طوال ثلاثة أيام على نشر الخبر بأنه مشرف على الموت. لكن الكبوشي لمّا يظهر بعد، وينبغي سوق دليل. فأرسلوا في طلب الجرّاح دوغرو الذي جس نبضه، فوجد ذلك الكافر على أحسن حال! فقدم التهنئة للمريض. فجلس هذا في سريره وأمر دوغرو بصوت راعب بأن يجد أنه مصاب بالحمى. وعاد فجس النبض. لقد كان نبض الجرّاح أكثر اضطرابًا من نبض المريض، إلا أنه فهم المغزى. فأعلن قائلًا: «الحرارة مرتفعة!»، فقال فولتير: «أقسم بالله إنني كنت أعرف ذلك، فمنذ ثلاثة أيام وأنا أحتضر. إذهب من فورك فقل للكاهن، وعليه أن يعرف ما يفعله حيال مريض يتهدده خطر الموت».

على الرغم من إلحاح الطبيب، مرّت ثلاثة أيام أُخر من غير أن يظهر الكبوشي من جديد. فبعث إليه فولتير ببطاقة تهديد: إنه سيلجأ إلى القوانين الملكية، لا إلى المحبة: «تنص التوصية على أن القربان المقدس يقدم للمريض مع الجائحة الثالثة للحمى. والسيد فولتير تعرض لثماني نوبات عنيفة، فهو ينذر كاهن فيرني».

ما من جواب. فالكهنة تلقوا الأوامر من الأسقف، وكانوا ينتظرون الأمر المعاكس ليتحركوا. وبعثوا ببريد سريع إلى آنيسي، وفقدوا صوابهم لأنهم لا

يدرون بمن يلوذون: أبالرب المقيم في آنيسي؟ أم بالشيطان القابع على بابهم؟ صحيح أن الرب كان قويًا، لكن الآخر قريب جدًا! إنهم واقعون تحت التعذيب. ويا لها من مهنة: كاهن لدى فولتير! بعد ثلاثة أيام أخرى من الانتظار، أيقظ فولتير في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل جميع الخدم لديه، وأرسلهم إلى الكاهن راجين منه الحضور: «إن السيد مشرف على الموت، وهو يريد أن يُدخل إلى روحه السلام». وذهب فانيير بصحبتهم، فكان من واجب السكرتير، في حال الرفض، تذكير الكاهن علنًا بقوانين المملكة، وأوامر المحكمة العليا والقوانين الكنسية. وعليه أن يؤكد للكاهن أن سيده على استعداد للإدلاء بالتصريحات والاعتراضات كافة التي تطلبها الكنيسة منه، وأن يقوم بذلك أمام الملأ إذا ما طلب منه ذلك. وهو يقدم بذلك وعدًا مكتوبًا وموقعًا من فانيير وديج.

لكن، لا الكاهن تزحزح ولا الكبوشي أيضًا.

مع طلوع النهار، أرسل فولتير إليهما مأمور المحكمة وإخطارًا رسميًا يتهددهما بالملاحقة أمام المحكمة العليا في حال رفضهما منحه الأسرار المقدسة.

استولى الهلع على الكاهنين المسكينين، ووقع الأب بيرت ضحية مغص على درجة من الشدة لم يقوَ على الشفاء منه، ثم توفي من تبعته بعد بضعة أشهر. وكرر منذ ذلك الحين أنه لن يتعافى أبدًا من الاضطراب العنيف الذي انتابه على أثر إخطار السيد فولتير. فكان رد فولتير عليه بأنه ليس سوى سكّير سفيه دأب على شرب الخمر المخصص للقداس. ذلك كان القربان الزاد الذي ناله كاهن فيرني المسكين. أما بعد انتهاء ذلك الهجوم، أهداه فولتير كأسًا جميلًا للقربان المقدس. من دون ضغينة؟

بناء على ذلك، لزم السرير حيث ثابر على الموت وفق أفضل الأشكال، متوسلًا إلى الأم الظالمة، الكنيسة الرومانية، أن تمنحه الأسرار. وسوف يقنعها أمام موثق العقود. فقام باستدعاء السيد روفو، وهو كاتب بالعدل في فيرني، ورجاه أن يوثق عقد إيمان كاثوليكي وباستقامة لا تقبل الشك، وأن يُقِر بتوقيع من الأب آدم. وفي غضون ذلك التصنع والرياء، وصل جواب أسقف آنيسي. فالكهنة لديهم الإذن بالذهاب لمساعدة المريض. لكنه إذن مرفق، من دون ريب، بتوصيات لا حصر لها.

كان الكبوشي يرتعد خوفًا. وبدأ فولتير يتصنع دور الطفل، فزعم أنه نسي قانون العقيدة (أومن)، وفعل التوبة (أنا أعترف - confiteor) (كان قد أملاه لتوّه على موثق العقود)، وقوانين الإيمان. فجرى الهمس بها في أذنه فكررها بكثير من الترصن. وكان الكبوشي على درجة من الاضطراب، بحيث كان يخلط أحيانًا بين نصوص الصلاة، فيبادر فولتير بكثير من التقوى برده إلى النص الصحيح. وهنالك من اللوحات ما لا يجرؤ سوى قلة من المخرجين على عرضها خوفًا من التنديد بشكلها الكاريكاتوري. أما في هذه الحال، فليست المسألة بذات بال. أليس فولتير هو مخرج نفسه بنفسه؟

ثم نطق شفويًا بإعلان إيمان لم يكن سوى إعلان تأليهي، وليس من الكاثوليكية في شيء. «إني أعبد الله في غرفتي، ولا أرتكب شرًّا بحق أحد». إلا أن الكبوشي كان مسلحًا: فهو لا يقبل بتلك الترهات ما دام يحمل في جيبه تصريحًا إيمانيًا مكتوبًا وجاهزًا ما على فولتير إلا أن يوقعه. حينئذٍ، أفاق فولتير من غيبوبته وجلس منتصبًا على نحوٍ لافت، وبرهن للراهب على أن قانون الإيمان يتضمن كل شيء! ويُخشى، بخلاف ذلك، من أن يؤدي إعلان الإيمان إلى إدخال تجديد يضر باستقامة ذلك الطقس الديني المؤثر. لكن الكبوشي لم يتراجع، فكان يريد من المُحتضَر التوقيع على الورقة. وعاد فولتير لينتصب غاضبًا من ذلك الإصرار كله، فخلع معنويًا عن نفسه عباءة سكابان[52]، ليضع الجبة الكبيرة لأسقف مو (أو l'Aigle de Meaux)[53] وشرع يردد مُوقعًا الإلقاء توقيعًا! لقد انطلق صوت الممثل فطار وحلّق فوق قمم الفصاحة، وتطورت عبارته فجرت باتساع شجي. والتمعت الصور، فاخترق المستمعين سهم خاطف. وكما قال فانيير، كانت اللحظة رائعة. كانوا جميعًا مفتونين. والممثل الشهير يرقب بطرف عينه أثر إلقائه المسرحي، وحين ثبت لديه أن الكبوشي صار جاهزًا، صاح به بصوت جهير ومجلجل: «امنحني الغفران على الفور!». لقد أجهز عليه، فغمغم الكبوشي وقد نسي ورقته

(52) بطل مسرحية لموليير، يمثل المكر والخداع والألاعيب. (المترجم)

(53) هو جاك بنين بوسويه (1627-1704) رجل دين وأديب وأسقف مدينة مو الفرنسية، وهو أيضًا خطيب مفوّه. لقّبه فولتير بـ «صقر مدينة مو» لجرأته على مواجهة الملك لويس الرابع عشر الملقب بالملك الشمس، بعظة تناولت واجبات الأغنياء تجاه الفقراء، فكان كمثل الصقر الذي يحلق في مواجهة الشمس من دون أن يبهره نورها. (المحرر)

وتعليمات أسقفه، فتلفظ أمام الشهود بصيغة الغفران. استلقى فولتير على مخدة وقد تألق وجهه. وخرج الكاهنان يجران نفسيهما جرًا، معتمدَين على الطبيب وفانيير والكاتب بالعدل.

وأُسدِلت الستارة، فهنالك فاصل.

ثم عاد الكاهن والكاتب العدل، فأعطى الكاهن فولتير القربان المقدس. وسجل السيد روفو المحضر فدوّن تصريح التائب الشهير: «أما والقربان المقدس قد دخل فمي، فإني أسامح صادقًا أولئك الذين كتبوا إلى الملك افتراءً بحقي فلم ينجحوا في مساعيهم الشريرة».

غادر الجمهور الغرفة. وما كاد الزائر الأخير يتخطى عتبة الباب، حتى رأى فانيير سيده يثب من السرير حيث كان قبل قليل جثة هامدة. «لقد عانيتُ بعض الشيء من هذا الكبوشي المزعج، لكن الأمر عاد أيضًا بالتسلية وله نفعه. فهيا بنا نقوم بجولة في الحديقة». هو إذًا يقوم بتلك الألاعيب بدافع صحـي؛ إذ يعود ذلك على صحته بالنفع. فذلكم ما كان يلهو به رجل عظيم من بعد أن طرد ابنة أخته المشاكسة ومرتكبة المحرمات!

وهنالك الأثر الذي خلـفته الواقعة على الجمهور، حيث تناغمت تعليقات الأصدقاء والأعداء هذه المرة، بل إن دارجنتال نفسه أصيب بالصدمة. وباريس وفرساي تتهكمان أو تغمغمان أو تصُرّان على أسنانهما. والشجب كامل وبالإجماع.

كتب ترونشان يقول: «بعثوا إلي بإعلان إيمان فولتير، ولا بد من أن يكون قد تجرع المهانة. فبمن يظن أنه يوقع بمثل ذلك الهذر؟ بالحمقى؟...». والحق أن فولتير أراد أن يستهزئ بأسقف آنيسي، لكن أوروبا كلها شهدت خديعته. «ها هو قد اضطر، في سبيل أن يكون في أمان، إلى الوسائل النفعية الأكثر دناءة ومثارًا للسخرية». وإن ذلك لخطأ؛ فهو لم يسعَ إلى مداهنة الكنيسة والسلطات، وإنما بخلاف ذلك، إلى تحديها، لكن الطريقة كانت مؤسفة: «لم تكن المسألة تتجاوز سفاسف فولتير مع كاهنه...».

حين علم ما الرأي السائد بشأن جسارته السوقية، كتب في سبيل إيضاح

سلوكه وتبييض صفحته، غير أنه لم ينجح في ذلك البتة. «تلقيت الزاد القرباني على الرغم من الحسد، وأعلنت بصريح العبارة أني سأموت على دين الملك المسيحي ودين وطني فرنسا!».

لكن ما الذي كان يجعله يكتب رسائله المذيلة بشعار: فلنسحق المرذولة؟ إن قضيته غير نزيهة. وكان فريدريك شديد القسوة عليه من بعد تلك المهزلة. ومع ذلك واصل فولتير لعبته: طلب في أثناء جلوسه إلى المائدة سماع قراءة الصوم الصغير من تأليف ماسيون[54]، فكان يقول بلهجة فيها تسامح وملاطفة: «إن الأسلوب جميل جدًا». ثم يهتف صارخًا وهو يقطع القراءة: «آه! يا له من أسلوب! يا لها من موسيقى!». ثم يصيح: «أوقفوا ماسيون!»، وينطلق في الحديث ضاحكًا، مدهشًا، فتيًا على نحو لا يقبل الإصلاح: إنه باهر.

السلام يحلّ من جديد: العجوز الشاب يجرب كتابة الأوبرا الساخرة

كانت تلك الحقبة في غاية الخصوبة: فقراءة ماسيون تسد ثغرات الحديث لأن المنزل كان أكثر هدوءًا. ولقد توافر لديه وقت أطول كثيرًا للإملاء وللكتابة، فكتب تلك الحكاية الرائعة: الرجل ذو الأربعين إيكو (*L'Homme aux quarante écus*)، والتي أدى ما فيها من إلماعات إلى الجشع الرهيب لدى رجال المال، إلى قطيعة بينه وبين الجباة العامين. ثم كتب رائعة أخرى كلها خفة وأناقة: أميرة بابل (*La Princesse de Babylone*) التي يتحدث عنها في رسالته إلى السيدة دو ديفان، في 3 آذار/مارس 1768. ثم نشر رسائل أمابعل (*Lettres d'Amabaal*) في عام 1769، وبها عدد لا يحصى من الرسائل التي تحمل واحدة منها اسم رسالة إلى مركبي، وهي مهداة إلى متعهّد مراكب من نانت أطلق اسم فولتير على واحد من مراكبه. وذلك ما أوحى إلى بيرون، وهو في المرقب على الدوام، بهذين البيتين المتكاملين:

«لو كان عندي مركب يحمل اسم فولتير
لدفعني حسن الطالع إلى جعله زورقًا للقرصنة».

---

(54) Jean-Baptiste Massillon (1663-1742) أسقف، ومن رجال الكنيسة الفرنسيين. (المترجم)

وجاءت لتُضاف إليها ستة أعمال أخرى سريعة: تطويب القديس كوكوفان (Canonisation de Saint-Cucufin)، وعمل أكثر أهمية هو تاريخ محكمة باريس العليا (Histoire du Parlement de Paris) كُتِب في سبيل تحريض الوزارة على إبطال مزاعم أعضاء المحكمة. ولم يكن ذلك الكتاب يحمل توقيعًا، لكن الجميع عرفوا مَن الكاتب. ولقد تنصّل من كتابته لأنه كان يخشى غضب قضاة المحكمة.

في 7 تموز/ يوليو 1769 كتب إلى دارجنتال: «أما بشأن التاريخ الذي حدثتني عنه، يا ملاكي العزيز، فمن المستحيل أن أكون مؤلفه، ولا يسعه إلا أن يكون من تأليف رجل أمضى عامين متواصلين بين مصنفات علاها الغبار». أما وقد شعر بأن الخطر يجدّ في أثره، كتب إلى دالامبير، بعد ذلك بيومين: «يبدو لي من الخطل أن ينسبوا إلي عملًا فيه قطعتان أو ثلاث مأخوذة من مصنفات محكمة علاها الغبار، حيث لم أضع قدمي بكل تأكيد، لكن الافتراء قصير النظر». ولنا عودة إلى هذه القضية التي جعلته ينخرط في سياسة عصره.

كتب تراجيديا إضافية عنوانها *Les Guèbres* (الزاردشتيون)، لم تستغرق منه سوى ستة أيام لإنجازها، لكنها تبعث على السأم كما مسرحية *Les Scythes* (السكيثيون). وإذا ما أصغى إليها المرء، فهي أفضل مسرحياته، ونحن نعرف ذلك؛ فالأخيرة دائمًا هي الفضلى. لكن الاكتشاف في ذلك العام هو الأوبرا الكوميدية؛ فقد ظل، حتى ذلك الحين، ينظر إلى ذلك النوع من الفنون نظرة ازدراء، واصفًا إياه بمسرح الأسواق مذ أن سخر الناس منه في معرض سان جرمان. وها هو في الخامسة والسبعين يقيم تعارفًا مع غريتري اللطيف الذي كان مارًّا بفيرني، فأضحى عاشقًا للأوبرا الكوميدية. وكان اللقاء مُبهجًا، إذ كان فولتير يشعّ ألقًا لأنه التقى الموسيقي: «أنت موسيقيّ، وذكيّ، وهذا فائق الندرة يا سيدي، ما يجعلني أوليك أشد الاهتمام».

وعرف غريتري كيف يبتسم للوخزة بحق فكر الموسيقيين، واتفقا على القيام معًا بتأليف أوبرا كوميدية. سأله فولتير عن الأوبرا التي يقوم بتأليف موسيقاها آنذاك، فقال غريتري: «الإسكافي الفيلسوف». فأجاب فولتير: «آه! إن ذلك ليشبه قولنا إن فريرون[55] فيلسوف».

---

(55) إيلي فريرون (1718-1776) صحافي وناقد أدبي فرنسي، له سجالات كثيرة وخصومة مع فولتير في مجالي الأدب والسياسة. (المحرر)

اختارا كتاب فولتير *L'Ingénu* (الساذج) مخطط عمل للأوبرا المقبلة، على أن يصير اسمه *Le Huron* (إنسان من شعب الهورون)[56].

ذات يوم، وبعدما شعر فولتير بنوبة من الكآبة تنتابه - على نحو ما يقع أحيانًا من بعد تألقه - استحضر من جنيف فرقة أوبرا كوميدية. ولا بد للمرء من أن يكون غنيًا مثل فولتير ليستضيف فرقة من تسعة وأربعين ممثلًا وعازفًا. فجاءوا إلى فيرني وقدموا أربعة عروض متتابعة من الأوبرا الكوميدية!

وضع كتيبًا لأوبرا كوميدية عنوانها بارون أوترانت (*Le Baron d'Otrante*). وكان الحوار مقسومًا إلى نصفين، واحد بالإيطالية والآخر بالفرنسية. عرضها غريتري على الممثلين الإيطاليين، فكان هؤلاء سيقبلون بها، لكنهم يرفضون نصًا بالإيطالية. وتلقى غريتري الأمر بأن يقول إن الأوبرا من تأليف شاب من إحدى نواحي المحافظة، وإنه يرفض تعديل شيء فيها. فقوبلت المسرحية بالرفض. ولو ذكر غريتري اسم المؤلف لقام الممثلون بأدائها، لكنه لم يجرؤ على مخالفة التعليمات. وهكذا لم يهنأ مؤلف الأوبرا الكوميدية الشاب، ابن الخامسة والسبعين، برؤية عرض عمله الكوميدي الأوبرالي.

مناوشة مع عالِم يسوعي: السيد دو بوفون يُصاب بجرح

واتت الشجاعة في ساعة صفاء الأب نيدهام، وهو يسوعي إيرلندي ورجل علم، وصديق بوفون ومساهم معه، على رفض بعض الأفكار في المعجم الفلسفي. كان يعرف «مُضجِر جنيف» ذاك، الذي لم تهذب تلك المدينة تهوّره في الكلام. وانطلق اليسوعي في حملته، ظنًّا منه أنه ناضج بما يكفي للدفاع عن تجاربه العلمية في مواجهة هجّاء ليس أكثر من شاعر. لكنه ينسى بذلك فولتير الشمولي، الذي عادت عليه عشرته للسيدة دو شاتليه طوال سبعة عشر عامًا، وأعمالهما المشتركة، بثقافة علمية تفوق كثيرًا ثقافة أبناء عصره من الشعراء أو الفلاسفة. بناء عليه، تلقى الأب نيدهام إصابة خشنة، فيما نال صديقَه بوفون شيءٌ من الخدوش. ذلك أن فولتير لا يريد لأحد أن يكون صديقًا لأعدائه.

---

(56) الهورون هم من سكان جنوب شرق كندا الأصليين، ويعيشون اليوم في كندا والولايات المتحدة. (المحرر)

بناء عليه، فإن بوفون الذي كان في الوقت نفسه صديق الأب نيدهام وصديق دو بروس رئيس المحكمة، معرض للإصابة. ولما كان ذا مزاج معتدل، عرف كيف يتفادى تسميم النزاع، ولم يرد على فولتير، لكنه لم يكن واهمًا بشأن مشاعر فيلسوف فيرني حياله. «أما وأني لا أقرأ أي واحدة من حماقات فولتير، فلم أعرف إلا عبر أصدقاء عن طبيعة السوء الذي قاله في حقي... فقد اغتاظ لأن نيدهام أعارني مناظيره المكبرة ولأني وصفته بالملاحظ الجيد. فذلك هو حافزه الخاص الذي يُضاف إلى حافزه العام والماثل دومًا في مزاعمه حول الشمولية وغيرته حيال كل شهرة، ما يزيد في تعكير مزاجه فوق ما عكّرته الشيخوخة، حتى ليبدو أنه وضع مشروعًا لدفن معاصريه كافة في أثناء حياته». وكان من شأن ذلك المقطع أن يدخل البهجة على قلب الرئيس دو بروس، فهو موجّـه إليه. والحق أن فولتير أخذ على بوفون أيضًا انسياقه للوقوع تحت سحر «أنقليسات» نيدهام[57] الذي كان يجعل من هذا السمك يولد عفويًا من الطحين المبلل بمرق لحم الضأن المغلي. كان ذلك «العِلم» يُثير ضحِك فولتير، وهو شعوذة امرئ ساذج. ولقد حزن اليسوعي المسكين حزنًا شديدًا: فالسيد فولتير لا يؤمن بأنقليساته! كذلك تنازع نيدهام وفولتير حول وجود قواقع متحجرة في أعالي الجبال؛ فكل واحد يساند نظرية تشبه أحلام اليقظة. كان فولتير يريد أن يبرهن على أن التكوين حماقة، فكان حقده على التقاليد يشحنه بتعصب جديد.

وظلت الحرب الكلامية ضمن حدود اللياقة.

كان فولتير على ثقة من أنه خير الأدمغة في عصره، وأنه أعلى مرتبة من أمثال مونتسكيو وبوفون. ألم يعلن الراقص فستري قائلًا: «ليس في أوروبا سوى ثلاثة رجال عظماء: أنا وملك بروسيا وفولتير». ولم يكن ذلك الراقص غبيًا، فكان جوابان، من بين أجوبة ثلاثة صحيحين. ووجد فولتير من الممتع أن يكون مقرونًا مع ذلك الراقص، لا مع مونتسكيو ولا مع بوفون. وكان أحدهم يقوم أمامه بإطراء مؤلف بوفون الضخم: **التاريخ الطبيعي** (*L'Histoire naturelle*). فرد فولتير قائلًا: «ليس طبيعيًا على قدر ما تقول!».

في نهاية عام 1768، وصله نبأ طيب: كان ملك الدانمارك على درجة من

---

(57) المقصود هنا ألاعيبه. (المحرر)

الجسارة مكّنته من أن يقول في فونتينبلو، أمام الملك وأمام رجال بلاط غير موافقين: «إن فولتير هو من علّمني أن أفكر». ولقد غمر ذلك النبأ صديقنا الناسك بغبطة لا تقل عن غبطته بغفران الكبوشي.

بعد مدة قصيرة وصله خبر أحزنه، إذ توفي صديقه داميلافيل في 13 كانون الأول/ ديسمبر 1768. وقيل إن داميلافيل قام بجمع أصدقائه بعد أن أعلمه أطباؤه بدنو أجله، فقدم لهم الشمبانيا، وشرب مغتبطًا وإياهم للمرة الأخيرة، ثم توفي بعد ذلك بساعات قليلة. لكنه حديث خرافة؛ فهو توفي في سريره على أثر مرض رهيب، تاركًا زوجة لم يكن أحد قد سمع شيئًا عنها، وهي لم تظهر إلا لتقوم على عجل بجمع الأمتعة العتيقة لزوجها الراحل. وهو لم يخلّف شيئًا، حتى ما يكفي لدفع أجر خادمه الأمين الذي تكفل فولتير بأمره. قام إذًا بتأمين راتب إضافي! كما أنه هو الذي تلقى العزاء من الذين كانوا يعرفون مدى صداقته لداميلافيل. وكتب إلى دالامبير قائلًا: «لسوف أحزن على داميلافيل طوال حياتي، فقد كنت أعول عليه ليأتي في النهاية فيشاطرني تقاعدي». لكن داميلافيل لم يبلغ سوى السابعة والأربعين. أما غريم الذي تكلف الحزن مسايرة لفولتير فكتب يقول: «تلقى المفجوع في جبال الألب رسالة نبي بوهيميا (أي غريم). فهما، على الرغم من مئة فرسخ تفصل بينهما، يبكيان معًا المدافعَ العنيد عن العقل والعدو الفاضل للتعصب. لقد مات داميلافيل فيما يحيا فريرون بشحمه ولحمه».

أما رسالة تييريو، فردّ فولتير قائلًا: «سُررتُ لقولك 'صديقنا العزيز داميلافيل'. لكني كنت أظن منذ أكثر من عامين أنك لم تعد على صلة به... فلقد كان مقدامًا في صداقته». والأكيد أنه كان أكثر إقدامًا من تييريو الذي لم يتفق مع الراحل إلا إرضاء لفولتير.

باروكة الأب آدم تجعل الحبر الأعظم يبتسم

كان الأب آدم أصلع، وغالبًا ما كان في شتاء 1769 يصاب بالزكام في أثناء إقامة القداس (لم يكن مسموحًا للكهنة إقامة القداس وهم يضعون الباروكة).

أخذ فولتير على عاتقه جعل الأب آدم يعتمر الباروكة في أثناء القداس، لكن ذلك كان يقتضي سماحًا بابويًا. وها هو صديقنا الجاحد يقيم علاقة غزلية مع

الكرسي الرسولي، فجرى تكليف الكاردينال دو برني بذلك المطلب الحساس. كان الكاردينال يقيم في روما: فهو إذًا في مكان العمل. وكان مجمع الكرادلة قد انتخب لتوّه البابا الجديد كليمان الرابع عشر. وهاكم ما كتبه فولتير إلى الكاردينال في 12 حزيران/ يونيو 1769.

«لا أظن أن كليمان الرابع عشر مثل بيمبو[58]، لكن ما دمتم اخترتموه فهو جدير، وبكل تأكيد، بالمنصب الصغير الذي أسندتموه إليه. والحال، يا صاحب السيادة، وكما في وسعنا القيام بصدقة صغيرة في الأماكن الصغيرة، فإنه ينبغي أن تقوم حيالي بواحدة، وأنا أطلب حمايتك... وليس المقصود سوى السماح بوضع باروكة. ولست أطلب تلك الصدقة وقاية لدماغي المسكين، بل من أجل عجوز آخر...». ويلي ذلك وصف لصورة الأب آدم، الكاهن النزيه والمرتجف بردًا. وإذا ما حصل على باروكته... «فلسوف يدعو الله من كل قلبه ليحفظ سيادتكم، إذا ما تكرمتم باستخدام سلطة نائب السيد المسيح لتغطية صلعة ذلك الرجل المسكين. ولسوف أكون شديد الامتنان لكم، يا صاحب السيادة، إذا ما تفضلتم بإرسال رسالة بابوية كريمة بشأن الباروكة». من فيرني، في 12 حزيران/ يونيو 1769.

تباطأ وصول الجواب، فأُسقِط في يد فولتير؛ ليس من أجل صلعة «أتعس خلق الله»، بل من أجل عباراته الجميلة التي خاطب بها البابا. وكتب إلى دارجنتال قائلًا: «بدأت التفاوض مع البابا من أجل باروكة، ويبدو أني سوف أُمنَى بالخيبة».

لكنه لم يُمنَ بالخيبة قط: فقد تلقى رسالة بابوية بشأن الباروكة. لكن بقي على الكاهن أن يطلب الإقرار من مطرانه. لكن المطران كان أسقف آنيسي: الأسقف الذي لا يمكن مقاربته! فجرى الاستغناء عن الإقرار، وكان فولتير سعيدًا بتلك الباروكة أكثر من سعادته بإكليل الإمبراطورية المقدسة. ونظم احتفاء بها عددًا من الأشعار الرديئة، كهذه الأبيات الموجهة إلى برني:

«حين يكون المرء مكللًا بالغار
يسعه إعطاء باروكة

---

(58) بيترو بيمبو (1470-1547): كاردينال إيطالي ذو نزعة أدبية إنسانية، وكان سكرتير البابا ليون العاشر. (المترجم)

فأعيروني بعض القوافي الملائمة
لتزدان بها أبياتي العادية
إذ ليس لدي سوى أبيات خصيّ
فهذه الكلمة تلائمني بما يكفي.
لكنها كلمة حمقاء
وأمراء الكنيسة الوسيمون
قد يقفون منها متأففين».

يا له من شيخ في السادسة والسبعين ذاك الذي يمرح بطرًا على تلك الحال! كتب إلى برني قائلًا باللهجة الساخرة نفسها: «الحق أن البابا، حبركم، يبدو لي رجلًا عاقلًا. فكيف حقًا لم يرتكب أي حماقة منذ بدء ولايته؟». لكن أغرب ما في الأمر قيام برني بعرض الرسالة على البابا التي يدعوه فولتير فيها، دونما تكلف، باسم عائلته غانغانيلّي. فيردّ عليه برني قائلًا: «لقد قابل قداسته تلك الطرفة ضاحكًا، وتحدث إلي عن مواهبك بإطراء، وإذا ما انتهى بك الأمر بأن تصير كبوشيًا صالحًا، فسيجرؤ قداسته على أن يمحضك محبة على قدر ما يقيم لك من اعتبار».

فذلك هو من الأحبار الذين يميل إليهم قلب فولتير، وهو بخلاف أسقفه، ابن البنّاء، الذي ينظر إلى الكهنوت نظرة جادة. فذلك هو الشيء الأكثر سخفًا في العالم، وبئسًا له!

أما تلميحه بقوله «أن تصير كبوشيًا صالحًا»، فليس مجانيًا، بل هو مسألة أخرى ربما تبدو بعيدة الاحتمال، لكن لا يهم، فهي صحيحة. وذاك هو فولتير.

صار فولتير لتوه كبوشيًا، وكبوشي شرف إن شئنا القول، لكنه كبوشي على الرغم من كل شيء. وكان في وسعه أن يرد على الكاردينال قائلًا: «لن أتوانى عن منحك بركتي، فاقبلها بكل ما أهبك إياه من ود. ولئن كنت أنت كاردينالًا، فأنا كبوشي».

والواقع أن الرئيس العام لسلك رهبان سان فرانسوا بعث لتوه بشهادة صريحة إلى سيد فيرني، اعترافًا منه بالخدمات التي طالما أداها إلى جيرانه الكبوشيين في

جيكس. فلقد أساء فولتير معاملة جيرانه اليسوعيين، لكنه ساعد الفرنسيسكان المساكين. كانوا غاية في صفاء النية... بل إن حماقتهم كانت تضحكه حتى تسيل دموعه، كما حال رتبته الجديدة: «إن الفتاة البتول جان (Jeanne)، وأنييس سوريل الرقيقة، ذُهلتا جدًا من رتبتي الجديدة». وهنأه فريدريك بلهجة حادة، وقال إنه مغتبط لرؤيته مع تلك الصحبة الصالحة، لكنه استرعى انتباهه إلى أن «الحبر الأعظم سوف يحرقك في روما». وذلك صحيح؛ إذ أحرقوا في روما كمية من الأهاجي التي كتبها. وهو في أثناء «ذلك الإحراق» كان يرتدي ثوب القديس فرانسوا. وكان يضحك. لكن كثيرًا من الرهبان الغاليكانيين الشرفاء ما كانوا، حيال الهزلية الرومانية، يضحكون.

فكيف لنا، ونحن نتابع خط سير تلك الحياة العجيبة التي تتنازعها الحوادث والتقلبات والتحولات على مدى النظر، كيف لا يتبادر إلى ذهننا مشهد مليء بالدسائس، وإخراج يسبي العقل فينتزعنا من إيقاع جنوني؟ ربما تنتابنا الأحاسيس والمشاعر كافة في الدنيا حيال ذلك الممثل المسرحي؛ كلها، باستثناء شعور واحد: السأم.

قضايا فولتير العظيم الكبرى ومسائل الصغير الصغرى

علم فولتير في عام 1771 بكثير من الغبطة بأن مساعيه لإعادة الاعتبار إلى عائلة سيرفان تكللت بالنجاح. وجاءت تلك العائلة الشقية إلى فيرني كي تشكره، فلولاه لحملت صليب عذابها المرهق حتى الموت. لكن كم تكبدت من مشقة، وكم أمضت من وقت وأنفقت من مال: «فكروا في أن الحكم بإدانة تلك الأسرة لم يستغرق سوى ساعتين، فيما تطلب الحكم لها بالبراءة تسع سنين». لقد تطلب الأمر أيضًا مجابهة السحنات البشعة، سحنات الغباء والغرور والتعصب، لكي ينتاب الخوف الجريمة المستوطنة في السلطة، والتعذيب الكامن في العدالة، والنزوة القائمة في القوانين.

أوشك أن يخفق. لكن الأمر الأساس تمثل في خلق رأي عام مناصر لذلك الكفاح، وقد جعل العالم يعرف بوجود أبرياء يعاملهم القانون معاملة المجرمين. وبعث الملوك الأجانب بمعونات: فأرسلت كاترين الثانية عطيّتها طالبة أن تظل قيد الكتمان. ولما كان فولتير يعلم أن القيصرة لا تعطي إلا في سبيل تحسين صيتها

لدى جماعة الفلاسفة، أعلن بصوت البوقِ سخاءَ صديقته كاتو. كذلك فعل حيال فريدريك. ثم انضم إلى الاثنين الأولين كلٌ من ملك الدانمارك وملك بولندا، ما جعل فولتير يقول: «الدي ثلاثية[59] وملك رابع، لكن ينبغي لي أن أربح الجولة». لكن أصعب ما في القضية كان إقناع سيرفان بالتوجه لتسليم نفسه إلى قضاة تولوز من أجل إعادة المحاكمة. وكان في وسع ذوي القبعات المربعة إخضاعه للتعذيب. والحال أن التعذيب، حتى بصفة احتياطية، أمر يقض المضاجع. وانتهى الأمر بالرجل المسكين إلى الاقتناع، إذ لا بد له من الوثوق بالمدافع عنه! لكن ذلك المدافع لم يكن واثقًا على قدر ما يُبدي، بل كان يعاني أزمة ضمير رهيبة: إنه يتساءل مغتمًّا: «وماذا لو قام القضاة بإخضاع سيرفان للاستجواب؟». لكن تصميمه وحميّته جعلاه لا يُقهَر، فكانت الغلبة له.

ثم عُرضت عليه قضايا أخرى، لا تقل هولًا لكن أقل منها شهرة: حَكَم قاضٍ في الريف على فلاح بالإعدام وبعث بالملف إلى المحكمة العليا في باريس، فأبرم الحكمَ أولئك السادة الذين يزعمون أنهم يشرّعون لفرنسا، من غير أن يفتحوا الملف! وإلا لرأوا أن الشقي الظنين بالقتل عُرِض أمام الشاهد الوحيد الذي قال: «ليس هو»، فقال البريء: «آه، إن هذا لم يعرفني!». وكان من شأن ذلك التعجب الأخرق أن جعلهم يعدّونه القاتل. وبناء عليه رُبط حيًّا إلى الدولاب وهو يجأر ببراءته. بعد ذلك بعام، جرى القبض على أحد المتشردين الذي اعترف، بالإضافة إلى جرائم أخرى، بالجريمة التي قضى من أجلها ذلك البريء بعد تعذيبه على الدولاب. عمل فولتير على إعادة النظر في القضية. أما أسرة ذلك الشقي، فهربت إلى هنغاريا، وهي مثقلة بالعار ومحطمة وتائهة. ولم تجرِ إعادة الاعتبار البتة. فيا للعمل الرائع الذي تقوم به المحكمة العليا في باريس!

جاءت من بعدُ قضية مونبايي. إن ذلك القرن بواجهته الصقيلة والبرّاقة لذو خلفيات شنيعة؛ إذ استيقظ الزوجان مونبايي ذات صباح على طرق عاملة تريد أن تتحدث إلى الوالدة التي تنام في الغرفة المجاورة. فدقت على الباب ودخلت إلى غرفة الأم: كانت ممددة على الأرض، وفي رأسها جرح لارتطامها لدى سقوطها بقطعة أثاث. وأطلق مونبايي صرخة: «آه! يا إلهي، ماتت أمي!»،

---

(59) الملك، في لعبة الورق، هو «الختيار»، والمقصود لعبة البوكر. (المترجم)

وأُغمي عليه. وجاء الجيران، فأكد طبيب واقعة الوفاة. وثاب الابن إلى رشده. لكن سوء نية الرأي العام استولى على الواقعة ليفسرها: كانت الأم تتعاطى الخمر. تشاجرت مع ابنها وزوجته فقتلاها. وكان التفسير عبثيًا لأن الأم بعد موتها لم تخلف سوى الديون، فليس للابن وزوجته من مصلحة في موتها، والحال بخلاف ذلك: إن المشغل الذي يستثمرانه كان متروكًا للأم؛ فموتها يحرم الأسرة مورد رزقها. لكن ذلك غير مهم: جرت محاكمتهما، إذا صح القول، وتعذيبهما، والحكم على الرجل بقطع يده والموت على الدولاب، وعلى المرأة بالإعدام شنقًا، وحرق الجثتين بعد ذلك. حين قطعوا يد الرجل قال: «ليست هذه يد قاتل أمه»، وظل يحتج ببراءته حتى النفس الأخير. ولما كانت المرأة حاملًا، أُجِّل إعدامها وإطالة عذابها ستة أشهر، وهي حال ملائمة لتضع حملها! في تلك الأثناء تدخّل فولتير بمساعدة موبيو، فأصدر مجلس قضاء آراس بالإجماع حكمًا ببراءة من بقي في قيد الحياة «وكان أكثر نبلًا وشهامة من محكمة تولوز، حين عبّر عن الأسف على المصيبة التي لا تعوَّض والمتمثلة في إعدام رجل بريء». وعادت المرأة إلى قريتها. أما الرعاع الأغبياء الذين تسببوا بنكبتها، فانقلبوا مبتهجين ومهلّلين برجوعها.

سعى فولتير أيضًا إلى الحصول على رد اعتبار لالي تولندال، ثم اهتم بقضية مورانجي، ومن بعدها بتحرير أقنان سان كلود في محافظة جورا. إن ذلك التشابك في الإجراءات لمتاهة غريبة بالنسبة إلينا: كان ابن أرويه يجيد تفكيك خيوطها، وإعادة تشبيكها عند الضرورة، إذا ما اقتضت ذلك مصلحة الضحايا الذين يتولى الدفاع عنهم. كان يحدد هدفًا لنفسه، ثم يتوجه إليه مسلحًا بالغضب والعزم على تكسير العقبات وحفر الخنادق للوصول إلى النصر. وكان ذلك العمل الخفي يؤدي إلى النور. لكن يا له من عمل واحد من الجبابرة!

ما كانت المشاعر الدنيئة هي التي تعطيه الطاقة اللازمة لأداء تلك المهمات، التي ما كان ينجزها بدافع من المنفعة أو الغرور أو الحسد. وإن رجلًا أربى على الثمانين، وهو يرفل في الثروة والجاه، لا يسعه التصرف تحت تأثير دوافع ضحلة. وهو غالبًا ما كذب - كذب ببراعة - وتملق كثيرًا وداهن، حتى ليسعنا في نهاية المطاف أن نشك أحيانًا في نياته، لكن لا يسعنا أن نشك فيها كلها. ولا يسعنا أن نرتاب في أريحيته ولا في حسه بالعدل، ولا في مشاعره الإنسانية.

فهل هو الرجل ذو «البسمة البغيضة» حقًا، وفقًا لقول موسيه اللطيف؟

كان أمثال هوميه[60] في القرن التاسع عشر يُعدّون وحدهم تلاميذ فولتير الحقيقيين. ولما كان موسيه شاعرًا على الطراز السائد، فعليه أن يشهّر بفولتير، من غير أن يكون في نهاية المطاف أفضل منه. فهل كان فولتير، حين كتب الرسالة التالية، ذا ابتسامة بغيضة؟ إنه يتوجّه فيها إلى كاتبه بالعدل بشأن آل سيرفان، في 4 آذار/ مارس 1772. «أرجو السيد دولالو أن يتفضل بدفع النفقات المستوجبة لوزارة العدل بشأن قضية السيد سيرفان وعائلته، بعد أن أعيدت إليهم حقوقهم. وأنا له في غاية الامتنان». وعلينا أن نعلم أن سيرفان، الذي أعيدت إليه حقوقه، ملزم أيضًا بدفع نفقات المحكمة التي دانته ظلمًا. أليست تلك من روائع الظلم؟ وقد كتب فولتير إلى موثق العقود نفسه، في 13 نيسان/ أبريل 1773: «إن كان يلزم دفع المزيد من المال، فسوف ندفع كل ما هو مستوجب». إن ذلك الرجل الذي يداهن الناس ذوي المناصب، ويقوم بدور المهرج في الصالونات، كان ذا سخاء بلا حدود حين يقتضي الأمر الدفاع عن الحرية والعدالة.

ففي عام 1772 كان الناس يموتون جوعًا في بلاد جيكس؛ فاستورد قمحًا من صقلية، وباعه دون سعر الشراء. وليس هو من تباهى بذلك، لأنه لم يأتِ إلى ذكر تلك المكرمة البتة. وبدأ يلحّ على السيد أرنولو، معتمد التموين في ديجون، قائلًا له: «إني في حالة من العوز، فلدي ثمانون شخصًا عليّ إطعامهم». ثمة جائعون يصلون على الدوام من مقاطعة فرانش كونتيه، فما العمل؟ إنه يطلب الإذن لشراء القمح المُصادَر والمخزَّن من غير فائدة. وحين نقل كوندورسيه مطالبة فولتير إلى تورغو، قال له: «أود مناقشة القضية في المجلس، وليعلم الملك أن أعظم كاتب في الأمة هو أيضًا أحد الرجال الأكثر إحسانًا، وهو خير مواطن».

إلى جانب فولتير هذا، يقف على نحو دائم فولتير الآخر المنصرف إلى أمثال فريرون ولابوميل، والذين يحرص أعداؤه على وضعه في مصافهم. وكان أصدقاؤه ينصحونه بالاعتدال وعدم المبالاة حيال أولئك الناس الذين كان دالامبير

(60) أحد شخوص رواية مدام بوفاري لفلوبير، وهو يجسد الغباء البرجوازي. (المترجم)

يدعوهم «اليرقانات». لكن الأمر كان يتطلب منه مواصلة المناقشة أيضًا. وتمثل اكتشافه في عام 1772، في وقوعه على متحذلق أحمق اسمه ساباتييه، بعد طرده من إكليريكية كاستر. ولسوف يقرض الشعر في تولوز، ويحظى بدعوة من هلفيتيوس إلى باريس، ويعيش على نفقة الزمرة الموسوعية. لكن ما إن أحس بالشبع، حتى تنكر للمحسنين إليه وانتقل إلى الهجوم، فبدأ بفولتير أولًا. وما كان لذلك من أهمية تذكر لولا أن البلاط ارتأى الاهتمام بالأب ساباتييه وخصّه بمنحة. فماذا هم في فرساي فاعلون بهذه «اليرقانة»؟ لا يسع أحدًا يتحلى بذلك القدر من الذكاء أن يكون أكثر عمى بصيرة من ذلك البلاط. وقد أتى فولتير إلى ذكر ساباتييه بالعبارات التالية: «ماذا تقول في ذلك التعِس الذي وثب من مكانه الموحل في حجرة خُدام الكنيسة ليحصل على منحة...؟ ذلك هو الرجل الذي يجعل من نفسه أبًا للكنيسة في البلاط، وهؤلاء هم الناس الذين يكافئونهم. إن ذلك الرجل المهذار صار كاهن اعتراف، وربما يستحق بالتأكيد أن يغدو شهيدًا في غريف». إن ساباتييه، الذي جرى طرده من إكليريكية كاستر، والكاهن المزور في فرساي، صار ينام في شقة الوزير فيرجين ويتولى تربية أطفاله. وفيما هو يقوم على تربيتهم، كان يترجم حكايات بوكاتشيو[61]. وفي زمن الثورة راكم أربعة ألقاب، كلٌ منها يعود عليه بمنحة، وأضاف إليها لقب شرف ناله من أُهجِيّته لفولتير: لوحة فلسفية لذكاء السيد فولتير. وكانت تلك الأُهجِيّة على درجة من السفالة جعلت جان جاك روسو نفسه يأنف مواصلة قراءتها. لكن فولتير قرأها! وأخضع نفسه للتعذيب. فيا له من رجل مسكين!

ترتب عليه أيضًا التعرض لهجوم جديد من لابوميل الذي لزم الصمت والحذر ردحًا من الزمن، بعد أن أقام مرات عدة في الباستيل. وانهال وابل من الرسائل المُغفَلة على فيرني. وبدءًا من الرسالة الأولى تثبّت فولتير من الحقيقة؛ فالرسائل مصدرها ليون، وهي تتوالى بانتظام شديد، وكل رسالة تغرز إبرتها المسمومة. تلقى منها أربعًا وتسعين، وفي الخامسة والتسعين جُنّ جنونه. لقد أصيب بنوبة صرع بثّت الهلع في نفوس المحيطين به. وما إن استعاد وعيه حتى تناول ريشته وكتب رسالة إلى مفوض الشرطة في باريس السيد سارتين، وإلى

(61) كاتب إيطالي من القرن الرابع عشر، وله مجموعة شهيرة من الحكايات الداعرة. (المترجم)

الوزير السيد دو سان فلورنتان. وقد اقتنع هذا الأخير بأن كاتب الرسائل هو حقًا لابوميل الذي تزوّج شقيقة لافيس (أجل، صديق آل كالا)، والمقيم في كونتية فوا (Foix). إن لافيس هذا الذي انتزعه فولتير من السجن ومن التعذيب، انتقل الآن إلى الصف المعادي. فيا له من عرفان! فلنراهن على أن هذا الشقي كان يكتب الرسائل التي يمليها عليه لابوميل. وكتب الوزير إلى وكيل كونتية فوا بأن يذكر لابوميل بقواعد النظام وأن يدع فولتير وشأنه، وإلا فسوف يتعرض لمتاعب جمّة. أقسم لابوميل على أنه لم يطبع شيئًا بحق فولتير منذ خروجه من السجن. وهذا صحيح، لكن الرسائل المغفلة كانت مخطوطة. وباختصار، لم تتلُها رسائل جديدة. بيد أن لابوميل كان يُعِدّ في تلك الأثناء تعليقًا على مؤلفات فولتير من شأنه أن يحرم عيني مؤلف كانديد النوم ليالي عدة. لكن لابوميل توفي في بحر ذلك العام، 1773، فلم يتيسر له سوى إلحاق بعض التجريح بالـ هنرياد. وحينذاك نجح فولتير في الحيلولة دون نشر التعليق. بيد أن ذلك الإزعاج أتيح له الظهور في عام 1775، وقد غذّته جهود فريرون بكتاب من بنات أفكاره أسماه حياة فولتير. وبدا فولتير على ذلك النحو بين فريرون ولابوميل، كأنه بين لصين: فمن منهما اللص الصالح[62]؟

في ذلك العام أيضًا (1773) توفي بيرون عن عمر ناهز ثلاثة وثمانين عامًا. لم يبكه فولتير البتة. لقد أراحته تلك السنة من عدوّين، فيما بقي فريرون. كان الأخير يقظًا على الدوام، وقد وجد الوسيلة الملائمة لإغاظة فولتير وحرمانه من راحة البال التي قد يغمره بها موت بيرون. فنشر شائعة مؤداها أن بيرون قال إن فولتير الذي ما كان ليجرؤ على مهاجمته وهو حي، لن يتوانى عن شتمه وهو جثة هامدة مثلما سبق أن فعل حيال كريبيون. ومن أجل معاقبته على تلك الشتائم بعد مماته، خلّف بيرون قنبلة تنفجر بمفعول مؤخّر ما إن يقوم فولتير بمهاجمته؛ فهو أودع لدى منفّذ وصيته صندوقًا يحتوي على مئة وخمسين قصيدة هجاء في حق فولتير، وكلفه بأن يستلّها بمعدل واحدة كل أسبوع فيرمي بها نحو فيرني. «من شأن ذلك إدخال البهجة على قلب ذلك الشيخ الوقور في عزلته طوال ثلاث سنوات». إنها لفكرة جهنمية.

(62) إلماع إلى أن المسيح على الصليب كان معلقًا بين لصّين، كان أحدهما صالحًا. (المترجم)

فهل عرف فولتير، الذي أُحيط بالأمر علمًا في الوقت الملائم، كيف ينتفع بالإنذار؟ يبقى أن أي سهم مسموم من تلك المئة والخمسين لمّا يصل إلينا. لكن بيرون، وقبل أن يموت، رمى فولتير بسهام حقيقية، لأنه كان يأخذ عليه، من بين مآخذ أخرى أقدم كثيرًا، قيامه بصرف نظر فريدريك عن دعوته إلى برلين. وإن ذلك لممكن. لكن فولتير دافع عن نفسه قائلًا إنه لم يكلم فريدريك البتة عن شاعر رآه ثلاث مرات من زمن بعيد وكان في نهاية المطاف لا يعرفه. لكن بيرون نشر هذا المقطع على سبيل تنشيط ذاكرته:

«عن الشاعر الذي بشرته
لاصقة جدًا بعظامه
لقد تلكأ الموت في الضرب ضربًا قويًا
خوفًا على منجله من الفلول.
أما حين ستُغمَض عيناه
وذلك آتٍ لا محالة
فوداعًا للشهرة والضجة
وإن الزمان سيفعل فعله».

فبيرون يتمنى الموت لفولتير، وفولتير يغتبط لموت بيرون. والنتيجة هي التعادل.

لكن فولتير ظل، ببقائه حيًا، متفوقًا على غريمه الميت. فعرف كيف يضيف إلى ذلك الواقع - والنادر لا حكم له - حكمة التزام الصمت أمام تابوته.

باريس... باريس حاضرة دومًا في فيرني

كانت السيدة دوني تعيش في شارع برجير عيشة باذخة، بفضل المنحة السخية التي يغدقها عليها خالها. إلا أنها كانت تعاني نفاد الصبر، والقلق يرهقها: كانت تخشى من أن يؤدي الغياب الطويل إلى ظهور تأثير آخر يطغى على تأثيرها في الفيلسوف. ولم يكن يتولاها ذلك القلق خوفًا منها على الفلسفة، بل خوفًا على الميراث.

كانت تشعر به مهدَّدًا، فتقف بكل قواها في وجه كل تسوية ينوي فولتير القيام بها مع الدوق دو فورتنبرغ الذي كان مدينه الأكثر اعتبارًا. فيريد فولتير جعل الدوق وارثه الوحيد في مقابل قيامه بدفع ريع لفولتير مدى الحياة، لكنه ريع ملوكي! فتسمح تلك التسوية لفولتير بأن يرتاح من جميع مدينيه وأن يلقي عبء قضيتهم على كاهل الدوق: فعليه هو أن يجعلهم يسددون. وهي نتيجة ممتازة تؤمّن راحة باله. إلا أن السيدة دوني لا تطمح إلى راحة البال التي يتطلع إليها خالها، بل إلى أملاكه الشاسعة التي يُخشى عليها من التبدد بسبب تلك التسوية الكارثية. هنا يكمن سر مجادلتهما العاصفة في فيرني، ذلك أن المشروع يعود إلى سنين عدة خلت، بل تطرق الحديث ذات مرة إلى موضوع بيع فيرني.

كان من شأن بيع فيرني تأمين أكثر من ريع واحد لـ «ماما» دوني، لكن «ماما» دوني اللطيفة تريد فيرني مثلما هي، مع رؤوس الأموال ومع أشكال الريع كافة. فكانت وهي في باريس، تتوجه من موثق عقود إلى آخر سعيًا وراء ثني خالها عن تنفيذ مشروعه المدمِّر.

طلبت مئة مرة أن تسترد مكانتها في فيرني، لكن دون جدوى. لكن المرة الواحدة بعد المئة أصابت الهدف؛ فقد سمح لها فولتير بالعودة في تشرين الأول/ أكتوبر 1769. وهكذا يكون نفيها قد دام سنة ونصف السنة. تمت العودة على خير ما يرام؛ فاستقبلها فولتير متهللًا وباسطًا ذراعيه، وذرفا الدموع وفقًا لمقتضى الحال، ثم استأنفا الحديث الذي انقطع قبل أكثر من عام مضى وكأن شيئًا لم يكن.

عادت إلى الحياة انطلاقتها التي لم تفقدها فقدانًا تامًا البتة؛ فحيثما هو فولتير ترى كل شيء يرقص ويضجّ ويتألـق. وصارت الزيارات أكثر عددًا، والمائدة مبسوطة كل يوم. وكان فولتير يختبئ أكثر فأكثر، ليقوم أحيانًا بظهور عجيب في الصالون الغاص بالناس، بحيويته الشبيهة بحيوية الحرذون، وهو يرتدي الحرير المقصَّب المتوهّج أو معطف الفراء «الإمبراطوري».

ما كانوا في باريس لينسَوه. ففي عام 1770، كانت السيدة نيكر، وهي جنيفية تعيش في باريس، تجمع لديها خيرة الأدمغة الفلسفية، ممن يحبون لذائذ الطعام. وعند انتهاء الغداء الفاخر، أبدى أحدهم دهشته من أن فولتير ليس له من تمثال بعد، وأبدى الآخرون استياءهم كلٌّ من ناحيته. فقرروا حينئذٍ التعاون على صنع

تمثال لفطريك فيرني. ووقع الخيار على بيغال «Pigalle»، وهو أعظم نحات في ذلك العصر، كان فولتير يلقبه بفيدياس الفرنسي. كان ينبغي أن يقتصر الاكتتاب على الكتاب وحدهم. أما وأنهم ليسوا في ذلك العصر عديدين ولا شديدي الغنى، وكثيرون منهم ليسوا بأصدقاء لفولتير، فقد فتح باب الاكتتاب أمام شخصيات مهمة ليست من عالم الأدب، لكن كان في وسعها أن تكون كذلك. مثل ريشوليو الذي دفع خمسين لويسة، فقيل له إنه بذلك يسحق باقي القائمة، فهبط بالمبلغ حتى العشرين. وكان الحد الأدنى لويستين. وقد تقدم ملكان باكتتابهما: ملك الدانمارك وفريدريك، الذي سأل حذرًا كم ينبغي أن يدفع؟ فقيل له: «اسمك، ومعه إيكو واحد، يا صاحب الجلالة». وكتب عن فولتير يقول: «لو كان في اليونان الوثنية لجعلوا منه ربًا، وبنوا له معبدًا. ونحن لا نرفع له سوى تمثال، وهو تعويض ضئيل عن جميع أشكال الاضطهاد التي تعرض لها؛ في فرانكفورت، على سبيل المثال...

توجه بيغال إلى فيرني فكاد كل شيء أن يفشل. كان بيغال عازمًا على تمثيل فولتير «على منهج الأقدمين»، أي عاريًا ومتلفعًا بوشاح. ولئن أطربت فولتير فكرة إقامة تمثال له، فقد أصابته بالذعر فكرة جلوسه عارضًا. فماذا سيعرض؟ إنه حطام رجل، رجل كان فولتير قبل ثلاثين عامًا. وعاريًا أيضًا! كان في حالة ذهول فكتب إلى السيدة نيكر إنه بلغ السادسة والسبعين، وإن مرضه الأخير أتلفه بصورة نهائية: «قيل إن السيد بيغال سوف يأتي ليقولب وجهي، لكن ينبغي يا سيدتي أن يكون لي وجه، فهم سيعثرون على موقعه بمشقة. إن عيني غائرتان بعمق ثلاث بوصات، وخدي من الجلد العتيق الملتصق بعظام لا ترتكز على شيء. وإن القلة القليلة من أسناني مضت في سبيلها... ولما يقع قط أن مثّلوا رجلًا مسكينًا على مثل تلك الحال».

كتب دالامبير يطمئنه في رسالة جميلة جدًا: «ما دام العبقري يتنفس فله دائمًا وجه يستطيع زميله العبقري أن يعثر عليه، وإن السيد بيغال سوف يأخذ من العقيق الأحمر الذي صنعت الطبيعة منه عينين لك، النار التي سوف تضيء تمثالك. ولا يسعني أن أقول لك، يا زميلي العزيز والمحترم، كم كان بيغال مزهوًا بسبب الاختيار الذي وقع عليه ليقيم ذلك الصرح تكريمًا لك وله وللأمة الفرنسية».

بيد أن فولتير كان ينظر في المرآة، ولا يقتنع بما يكتشف فيها، فيسعى إلى التملص. فيلاطف بيغال ويحتفي به ويجعله يضيع وقته، إلى أن جاء يوم وجب عليه الجلوس فيه عارضًا. لكن ما كان من عادة فولتير أن يستقر في مكان، فهو على الدوام مضطرب، متشنج القسمات ومنشغل الفكر، يملي على فانيير، ويروح ويغدو وهو يمضغ حب الحمص ثم يقذف به في الهواء كما يفعل تلامذة المدارس. بات بيغال مرهقًا ومثبط الهمة، ولم يكن عشية سفره قد قام بشيء ذي بال. أخيرًا، وفي أثناء الجلسة الختامية، تناول الحديث قصة «العجل الذهبي التوراتي». كان فولتير يرى أن تلك القصة لا تعدو كونها كذبة مثل كذبات أخرى، إذ لا يمكن صهر تمثال في أربع ساعات. فأوضح له بيغال كيف يكون العمل في صهر معدن لصنع تمثال، وأن العملية تتطلـب ستة أشهر. أما وقد وقع فولتير أسير شروح الفنان، وكان متعلقًا بحركات شفتيه، وجامدًا انتباهًا، فقد منح بيغال فرصة ما كان يحلم بها ليتمكن من قولبته. وكانت فرصة حقًا! وإن الفنان أفعمته الغبطة. كذلك كانت حال فولتير، لكن لأسباب مغايرة: أخذ القلم وكتب أن النص التوراتي ليس سوى محض افتراء، وأن بيغال زوّده للتو ببرهان جديد.

حين عرض بيغال عمله الرائع في باريس، صاح البعض «يا للمعجزة»، في حين صاح البعض الآخر «يا للهول». وشعر ديدرو الذي كان يدعو إلى العمل على «منهج الأقدمين»، بالنصر المؤزر، فالتمثال بالنسبة إليه بلا نظير. وكان فولتير يوافق بطرف شفتيه، فقد كان يفضل الظهور بملابس لائقة. وكان يخشى، وهو على حق، من التعليقات الهازئة. فسعى كي يتهكم على نفسه بنفسه، لكن الأشرار فعلوا أكثر:

«رأيت اليوم عند بيغال
نموذج تمثال طالما مجّدوه،
فهو ذو نظرة صاعقة، وضحكة قاتلة،
وله هيئة غم كبير لمجد الآخرين
فصرخت قائلًا: كلا، ليس هذا فولتير
إنه مسخ!... فقال لي صحافي فاشل
لئن كان هذا مسخًا، فإنـه هو حقًا!».

لقد شعر بقوة بتلك النيات السيئة، فلعن التمثال الذي كان السبب فيها. «إن تمثالًا لا يبعث على العزاء حين يتآمر ذلك العدد من الأعداء على تلطيخه بالوحل». وإن ذلك السهم المقيت آلمه كثيرًا:

«لو لم يكتب، لقام بالقتل».

في المقابل، دافع أصدقاؤه عنه دفاعًا مؤثرًا جدًا:

كانت الآنسة كليرون، المقيمة في شارع باك، تستقبل كل ثلاثاء نخبة المجتمع الباريسي. وذات ثلاثاء من شهر أيلول/ سبتمبر 1773، اعتذرت من أصدقائها الذين في الصالون، ثم عادت بعد قليل ترجوهم أن ينتقلوا إلى الحجرة المجاورة: فاكتشفوا هيكلًا عليه تمثال نصفي مضاء لفولتير، وكانت إحدى الربات تضع على رأسه إكليلًا من الغار، وهي تتلو إطراءً للشاعر، قصيدة غنائية ألّفها الصديق الوفي والمحبوب مرمونتيل. وكان مقطع منها موجهًا ضد الحسد:

«أنت تلاحقه حتى القبر
أيها الحسد الأسود، وتتأمله بإعجاب
تقول: فلننتظر عسى أن يسقط
وأن يأتي أخيرًا فيلفظ أنفاسه...».

أحدثت الاحتفالية الطقسية شبه الدينية، وحماسة النشيد وجمال السيدة التي تولت الإلقاء، كما صفة الحضور وإعجابهم، دويًا كبيرًا. وارتفعت أصوات تندد بالمس بالمقدسات وبالتأليه... مقابل أصوات عديدة عبّرت عن الإعجاب. وأحدث الفرح انقلابًا في نفس فولتير. فقد كتب إليه لا هارب، ويسعنا أن نرى من اللهجة التي رد عليه بها البطريرك، أن القطيعة انتهت: فلا يحمل فولتير حيال كلب الهراش سوى الصداقة والود. «لقد جربوا إذن حيال صورتي، يا خليفتي العزيز، ما سيقومون به يومًا حيال شخصك (على لا هارب إذًا أن يتوقع مستقبلًا ظافرًا!). وأضحى منزل الآنسة كليرون إذًا، معبد المجد؟ إن عليها هي أن تهب الغار ما دامت مغطاة به تغطية تامة».

كان حينذاك في التاسعة والسبعين. ولكم يجيد أن يكون محببًا حين يكتب إلى الآنسة كليرون ليشكرها:

«إن أجمل أوقات حياتي إذًا
هي تلك التي لم أشهدها قط!
لقد زينتِ صورتي
بالغار النامي في بيتك
إن مجدي، رغم أنف الحاسدين
كان على الدوام من صنع يديك».

بدت له تلك الاحتفالية في شارع باك دفقة من هواء باريس، فجعلته ينسى مضار الحسد. فلقد جاءته من باريس، مع إطراء الصداقة السماوي، نفحة من عطر الشباب الباريسي. وإن تلك النشوة، في التاسعة والسبعين، لمثيرة للإحساس.

حين تغير فرساي وزيرًا، فإن فولتير لا يغير سياسته

تلقى فولتير في 25 كانون الأول/ ديسمبر 1770 هدية كئيبة في عيد الميلاد، حين علم بأن حاميه، الدوق دو شوازول، صُرِف من الوزارة: إن السيدة دو باري استطاعت في نهاية المطاف النيل من الوزير. وكان هزيم رعد في فرساي، اهتز له فولتير في فيرني. وهنالك ما يستدعي ذلك. «لقد خسرتُ خسارة عظمى مع السيد الدوق والسيدة الدوقة دو شوازول. فلا يسع المرء أن يثق بشيء من كل ما يتعلق بالبلاط، وإن الرجل الأول في الدولة ليس على ثقة البتة من أنه سوف ينام في بيته». ها هو يتودد بكل شجاعة إلى الوزير المنصرف، فذلك الدور يروقه: يطيب له أن يبدو وفيًّا. ولم يكن وحيدًا في ذلك؛ فيوم عيد الميلاد، كان صالون السيدة دو باري فارغًا. أما طريق شانتلو حيث المكان الجديد لإقامة الدوق، فكان يعج بالعربات. قلة من أصدقاء شوازول هم الذين أجادوا التعبير عن وفائهم بمثل الرقة التي تظهر في هذه الرسالة إلى السيدة دوفان التي كانت من أقرب المقربين إلى الوزير. لقد كتب يقول: «هل يسعني أن أزهو بأن تتفضلي فتخبريه بأني الأقل نفعًا والأشد حزنًا من بين العدد الكبير جدًا من خدمه، ولو كان في وسعي القيام من سريري، لوددت أن أطلب منه الإذن بالحضور إلى جانب سريره كي أكون له قارئًا».

مع ذلك، فحين قام لويس الخامس عشر وموبيو بنفي أعضاء المحكمة

العليا الذين ساندهم شوازول، صفق فولتير فرحًا. فذلك الإجراء أفعم أمانيه، وفي سبيله كتب في عام 1769 كتابه الشهير: *Histoire du Parlement* **(تاريخ المحكمة العليا)**، الذي كان وقعه عنيفًا على مزاعم القضاة لأن فولتير لم ينسَ وحشيتهم قط، ولا تعصّبهم. وكانت فرنسا بين أيدي أولئك السادة تشهد، تحت شعار الحد من امتيازات الملكية، إعادة اشتعال المحارق، وإحراق الكتب ومؤلفيها، وإعادة إحياء الحقوق الإقطاعية التي كانت تلفظ أنفاسها، وإنعاش العادات البالية. لقد استطاع فولتير أن ينفذ عميقًا ليكشف علنًا ألاعيب أولئك القضاة الذين يؤكدون، من غير سند، أن لديهم وكالة من الأمة كي يكونوا مشرّعين. فقد مضى زمن طويل وهو يحمل الحقد القديم عليهم عبر أخيه أرمان. كذلك أدرك بحق أن الملكية، بالنسبة إلى فرنسا آنذاك، هي الضامنة للحرية، وأن تلك الحرية لا يمكن ضمانها إلا بخضوع الطبقات والهيئات ذات الامتياز للإرادة الملكية. فلم يكن الإصلاح القضائي المزعوم، في نظره، إلا تراجعًا عبثيًا: إنه عودة إلى أشكال الطغيان القديمة وسط إدارة فوضوية. ولئن كان على فولتير الخضوع للطغيان، فهو يفضل طغيان النظام على طغيان الفوضى. وعبّر عن تلك الفكرة بلمعة على طريقته: «أفضّل أن أطيع طاغية واحدًا على ثلاثمئة جرذ على شاكلتي». ولم تبدُ عليه شدة الميل نحو النظام التمثيلي، لكنه كان فائق الميل نحو تقدم التنوير ورغد العيش والحرية.

نحن نلتقي، ضمن ذلك الكفاح الذي انخرط فيه فولتير ضد المحاكم العليا، ابن أخته الأب مينيو، شقيق السيدة دوني. فقد كان الأب مكلفًا بكتابة خطابات الرئيس الأول بيرتييه دو سوفيني. فكان يكتبها ويقوم بتلقينها إياه همسًا، لأن بيرتييه لم يكن يقوى على حفظها غيبًا. وهي مهمة شاقة، لأن بيرتييه أصم. فذات يوم أُرتِج على بيرتييه في حضرة الملك، فيما الأب يرهق نفسه وراء الثوب الفضفاض الذي يرتديه الرئيس الأول: كان الجميع يسمعون باستثناء بيرتييه. وانتهى الأمر بالملك لأن يسأل عن ذاك الذي يتحرك ويضج وراء الرئيس. فأُخبر من هو الأب مينيو وما طبيعة عمله، كان الأب الصالح مكلفًا بالقراءة، وكان يكتب. وهو لم يتفادَ صخرة الشعر إلا ليحطم سفينته على صخرة التاريخ؛ فكتب تاريخ الأتراك الذي لم يكن سوى كتاب خفيف وجد الناس تسلية في قراءته. قال غريم إنه ليس من شيء مشترك ما بين الخال وابن أخته: فالأول هزيل والآخر مستدير كالبرميل؛

كما أن الخال لديه نظرة صقر، فيما لابن أخته نظرة خلد. لكن الأب مينيو رجل نزيه وشهم؛ فقد أخذ على عاتقه تربية صبي أوصاه به أحد أصدقائه، وقد مات بلا ثروة. فكان يمضي ماشيًا[63]، وتقاسم ما يملك مع ذلك اليتيم المجهول، وفاءً بوعد قطعه لرجل على فراش الموت. وعلم فولتير بذلك الإحسان السري فطلب منحة من الوزير للأب مينيو. وكان هذا الأخير في موقع يؤهله لنيل الحظوة، إذ هو في معسكر الوزير الجديد دو موبيو المعادي للمحكمة العليا، والتي كان الأب عضوًا فيها. في المقابل، كان ابن شقيقة فولتير الآخر، ابن دومبيير هورنوا، ينتمي إلى المعسكر المعارض - معسكر القضاة - وبناء عليه، فإنه كان منفيًّا. ثم دارت العجلة، فحظي السيد هورنوا بعفو المحكمة العليا. وظنًا من فولتير أن في وسع المحكمة التي تستطيع إلحاق الضرر أن ترفعه أيضًا، طلب إلى ابن شقيقته العمل على إعادة الاعتبار إلى الشاب إيتالوند، الذي لا يزال هاربًا. لكن مطلبه ذلك لم يتحقق.

يبقى أن موقف فولتير من المحكمة العليا أُسيء فهمه والحكم عليه من آل شوازول؛ إذ ظنوا أن فولتير، وبدافع دنيء تصعبُ تسميته، انقلب نحو الرئيس الجديد موبيو وبدأ بمداهنته، قالِبًا ظهر المجن لوزير الأمس الذي فقد حظوته بسبب سياسته المحابية للقضاة. فما عاد لسخط شوازول على فولتير وازدرائه له من حدود، بعد أن قرأ الرسائل التي كتبها فولتير إلى الوزير الجديد في كفاحه ضد المحاكم. وكانت تلك الرسائل موضع تداول، وكان موبيو يستخدمها دعمًا لسياسته. أما آل شوازول، الذين كثيرًا ما دعموا فولتير، فلم يروا في سلوكه سوى أبشع أشكال الجحود. وعلم فولتير بمشاعر شوازول حياله من طريق السيدة دوفان، فكتب على الفور إلى شانتلو مؤكدًا على إخلاصه. لكنه ما عاد يجد من أذن صاغية، وقد كتبت الدوقة: «ما عاد فولتير المسكين يدري كيف يتصرف، فهو يريد أن يداري الذئب والحمل. أما وأنه ما عاد يخاف أو يأمل شيئًا لا من هذا ولا من ذاك، فهو يوجه الإطراء إلى الرئيس وإلى السيد دو شوازول... لكني أصدقك القول، ومن يوم كتابة رأي إلى النبلاء، غدت رسائله تثير اشمئزازي، فما عدت أصغي إليها. وهذه الأخيرة بدت لي هراءً بهراء».

---

(63) أي إنه لم يشترِ عربة. (المترجم)

والحال أن موقف فولتير قابل للفهم تمامًا: إنه يحب الوزير المعزول ويحترمه، لكنه مقتنع، وقناعته ليست وليدة اليوم، بأن سياسة خلفه أكثر ملاءمة لمصالح الأمة، أو لفكرة فولتير عنها في الأقل. فهو من ناحية مخلص للرجل، ومخلص من ناحية أخرى لسياسة بعينها. لكن آل شوازول الذين عانوا ذلك الإخلاص، يندّدون بغدره ويقولون إن ما يكتبه فولتير «هراء بهراء». وذلك أكثر يسرًا من أن يجهدوا لفهم وضعه أو قناعاته.

من ناحية أخرى، يحمل فولتير على ذراعيه عبء مستوطنته في فيرني. ولئن صرفت الوزارة النظر عن الساعات والجوارب، فمن عساه يعيل مئة أسرة من عمّاله؟ إن فولتير يرى أنه لدى انصراف وزير ما، فهنالك وزير آخر يدخل، وأيًّا كان الوزير الجالس على كرسيه، فإن عليه أن يدعم فيرني.

كتبت السيدة شوازول تقول ساخطة: «كان دومًا رعديدًا من غير خطر، ووقحًا من دون سبب، ودنيئًا بلا غرض». وإن ذلك لقاسٍ. ولئن كانت تلك حاله على الدوام، فلِمَ قمتم يا سيدتي بالتعامل معه في ما مضى على ذلك الوجه الحسن؟ وفي الختام قالت: «ينبغي تبجيله وازدراؤه، فذلك قدر الموضوعات المعبودة كافة». ودافع فولتير عن نفسه، فكتب إلى السيدة دوفان المأخوذة بالقضاة: «أنا وفيّ لأهوائي كلها. فأنت تكرهين الفلاسفة وأنا أكره الطغاة البرجوازيين. لقد سامحتك على الدوام بسبب سخطك على الفلاسفة، فسامحيني على سخطي على فوضى التحقيقات». وهو يتحدث بصراحة إلى دوقة شوازول: يُخلي الفيلسوف الملتزم المكان لرجل البطانة في قضية سياسية، ولا يقبل بأي تساهل حيال ملة خطرة على الأمة: «أموت ملتزمًا بالإيمان الذي صدقته أمامك، التزامي بالحقد على الناس الذين اضطهدوني على قدر ما استطاعوا والذين لو استطاعوا لواصلوا اضطهادي. فليس علي أن أحب أولئك الذين قاموا حيالي بتلك اللعبة الدنيئة في كانون الثاني/ يناير 1770 (الملاحقة بسبب كتابه **تاريخ المحكمة العليا**)، وكذلك الحال بالنسبة إلى الذين يسفكون الدم البريء (كالا)، والذين يأتون بالبربرية إلى داخل التهذيب (التعذيب)، وأولئك المنشغلين فحسب بغرورهم الأحمق فأرخوا العنان لوحشية بلا وازع، فضحّوا تارة بكالا على الدولاب، وتارة أخرى بجعل شاب نبيل يلفظ أنفاسه في التنكيل من بعد التعذيب (لابار) الذي كان يستحق تمضية ستة أشهر في سان لازار، والذي تفوق قيمته قيمتهم مجتمعين. لقد تحدوا

أوروبا الساخطة كلها على تلك الوحشية، وقاموا بجر جنرال في عربة تحميل، واضعين كمامة على فمه (لالي تولندال) المكروه بحق، لكني تثبت من براءته من طريق أوراق الدعوى نفسها. ويسعني أن أذكر لك عشرين عملًا همجيًا مماثلًا يجعلهم موضع ازدراء الأجيال الآتية، وإني لأفضل الموت في مقاطعة مثل زوغو أو بين قبائل السموانيين (Samoyèdes) على أن أكون متعلقًا بمواطنين من تلك الطينة».

على الرغم من حقده القديم على القضاة، ظل لا يتزحزح عن موقف الوفاء لآل شوازول، رافعًا لواءهم أينما كان. وما كان موقف كهذا لينفعه لدى الملك أو المستشار. لكن ما عساهم يريدون منه؟ أن يتنكر لأفكاره؟ أم لأصدقائه؟ لقد عمل شوازول على قص قطعة من الصفيح لتصير شكلًا جانبيًا يمثـل فولتير، وثبّتها على قمة أحد السطوح حيث الريح تجعلها تدور... فتهكـمت باريس على دوارة فولتير طوال شهر أيار/ مايو 1772.

أيام فيرني الجميلة لا تعدل جواز سفر إلى باريس

كتب في خريف ذلك العام تراجيديا عنوانها: **قوانين مينوس** *(Les lois de Minos)*، وهي سلاح حربي ضد التعصب. فالمقصود تلك القوانين البالية التي ينبغي إلغاؤها حين تكف عن الانسجام مع العادات. استغرقت تلك التراجيديا منه وقتًا طويلًا: استغرقت شهرًا! كان يتم إنجاز الأخريات في ستة أيام، أو ثمانية، أو عشرة. لكن لا فرق، فهذه الأخيرة كانت مملـة، مثلها مثل سواها، إلا بالنسبة إليه، فهو وجدها رائعة، وكان كيانه كله يهتزّ لدى إعادة قراءتها! ولئن لم يكن الفيلشيون[64] مبهورين بها، فلتحل عليهم اللعنة الأبدية! والحق أن الفيلشيين تولّاهم في عام 1772 السأم من التراجيديات، ومن أعماله هو على وجه الخصوص. وكان من جانبه يتوقـع نجاحًا صارخًا، تخالطه فضيحة أو تجلـيات عنيفة من جانب فريرون ولابوميل. ووقع الأسوأ: فالتراجيديا لم تُعرض، فهو أرسلها إلى كاترين!

(64) «Velche» أو «Welche»: صفة انتقاص يطلقها السويسريون الألمان على أبناء الكنتونات الأخرى الناطقة بالفرنسية. (المترجم)

كان فولتير يهتم بكل شيء، حتى بإعادة تزويج زوج ابنة أخته المتوفاة. وعلى ذلك استقبل السيد دو فلوريان، أرمل إليزابيت مينيو، وهي نفسها أرملة السيد دومبيير دورنوا. وكان فولتير يحب ذلك الرجل الطيب فلوريان الذي قدِم غارقًا في دموعه. وكان يبدو غير قابل للعزاء فأُحيط بالرعاية، وعرفه فولتير من أجل أن يخفف عنه على سيدة لطيفة وصغيرة، هي السيدة رِييه المنفصلة عن زوجها العنيف، وهو كالفني وسياسي من جنيف. كانت السيدة تعرج بلطافة، وتغني وتتكلم وتلقي الشعر وتؤدي الأدوار وتضحك وتبكي وتقوم بتقلبات جميلة. فرغب السيد فلوريان في الزواج منها على الفور، لكن كان يلزمه سماح من روما. فبوصفها كالفنية، ولها زوج في قيد الحياة، كانت تلك المرأة اللطيفة في وضع معقّد. وكان فلوريان على أحر من الجمر. وتصنعت السيدة دوني التكلف إذ وجدت من غير اللائق التكلّم معها على ذلك النحو المكشوف بشأن حلولها مكان المرحومة أختها. ورقّ قلب فولتير لتلك العودة من جانب فلوريان الطيب إلى أشكال التوقد الفتية. والحق أنه توقد بعض الشيء حيال رييه الصغيرة، لكنه توقد بنيران مجازية، بيد أنها تخلف شيئًا من طعم الرماد لدى النفوس الحساسة. ولما كانت الغيرة، ضمن ذلك المجال، شعورًا بعيدًا من قلب فولتير، فإنه كان مفعمًا بالغبطة لأن فلوريان سوف ينال ما لم ينله هو. كان يودّ أن يزوجهما بنفسه وينقلهما إلى سريرهما، لكنه فضّل أن يطلب السماح من روما وأن يجعل الأب آدم يتولى طقوس القداس. وقصد برني مجددًا وهو يرجوه العمل بسرعة، إذ يُخشى على العاشقَين من الوقوع في الخطيئة بين لحظة وأخرى لشدة اللهفة والشوق لديهما. فردّ عليه برني بأن السماح لا يجري التعامل بشأنه كما بشأن باروكة الأب آدم، وأن وضع السيدة رييه يواجه عائقًا مطلقًا. فاصطحب فلوريان معشوقته إلى مدينة لوثرية حيث لم يطلبوا منه شيئًا على الإطلاق. لقد توجها إلى كونستانس، وعقدا قرانهما على شاطئ البحيرة «على طريقة بلاد البربر، يا صديقي!».

كتب فولتير إلى برني يقول: «قلت لغبطتكم ولقداسته إنكما ستكونان أنتما الاثنان مذنبين بسبب خطيئة ذلك المسكين فلوريان. لقد تزوج كيفما اتفق، ويزعمون أن زواجه باطل لكن الشريكين جعلاه أمرًا واقعًا. وإنه لعبء أن يصير المرء بابا من غير أن يكون له الحق في تزويج من يشاء».

أما «الشحرورة الصغيرة»، على نحو ما كان فولتير يدعو مركيزة دو فلوريان الجديدة، فقد أصيبت بمرض، فتوجهت إلى مونبلييه للعلاج بصحبة زوجها، في حين كان فولتير يتولى في فيرني بناء جناح صغير ورائع لهما على جانب الطريق. وما كادت «الشحرورة الصغيرة» تستقر في قفصها الجديد حتى قضت نحبها. وها هو فلوريان محزون مجددًا. ولقد تم شفاء شقائه اللامتناهي بالعلاج نفسه الذي شفى شقاءه السابق اللامتناهي؛ إذ تزوج من الآنسة جولي. فأقاما في الجناح الجميل، ولدى رجوعهما من باريس، سلمت المركيزة دو فلوريان الرابعة فولتير رسالة لطيفة من السيد بوفون مع الطبعة الضخمة لكتابه التاريخ الطبيعي، والتي أعطاها إياها العالم الشهير لدى مرورها في مونبار. وتم بذلك إحلال السلام مع بوفون: فقدم فولتير الممتلئ غبطة إلى الرسولة الفاتنة ساعة ذهبية صُنِعت عنده، ثم شكر بوفون واصفًا إياه بأرخميدس الأول. وردّ عليه بوفون وهو يدعوه فولتير الأول. وأوشكت فيرني أن تشع بالأنوار! وذكّر فولتير بموضوع خلافهما بشأن متحجرات قائلًا: «كنت أعلم أنه لا يَسعني البقاءُ مستاءً من السيد بوفون من أجل قواقع».

كان فولتير في السنة السابقة قد استدعى لوكان، فأقيمت في فيرني أيامٌ مسرحية مشهودة. ونحن نعرف أن مسرحه بات يؤوي دود القز. فعمل على بناء مسرح آخر على طريق جنيف في الشاتلين. وفي نهاية القرن الماضي [التاسع عشر]، كان المبنى لا يزال قائمًا، ففُتحت نوافذ في المبنى الأصلي وقُسِّم الفضاء إلى مساكن. وغالبًا ما كانت فرقة مسرح جوال تؤدي فيه عروضها في زمان فولتير، فهي من بعد ديجون تمضي في فيرني أطول فترة لها؛ ذلك أنها تجد هناك صالة ذات تجهيز حسن إلى جانب الجمهور الجنيفي الغني.

كان الجنيفيون في الفصل الجميل يقصدون المكان سيرًا على الأقدام، ويرجعون على النحو ذاته فيتوقفون في الحانات الريفية، ليعودوا أحيانًا فيجدوا أبواب المدينة مغلقة، وحينئذٍ يقومون بتنظيم حفلات رقص ليلية فلا يرجعون إلى بيوتهم إلا مع طلوع النهار. وجرى افتتاح حانة وقاعة بلياردو إلى جوار المسرح. وحين وصل لوكان، مثّل وصوله في نظر فولتير حلول الروح القدس، لكن جرت المنازعة بادئ ذي بدء حول الأجر الذي طلبه لوكان. «لقد أفلست في البناء وفي المستوطنة، وزاد طيني بلـة بناء منزل السيد دو فلوريان». لكن لوكان لم يتزحزح؛

فدفع فولتير المطلوب. بيد أنه لم يأسف على شيء، فلقد جُن فرحًا وإعجابًا. وكانت هجرة من الجنيفيين نحو أمكنة الجنوح تلك.

كان ذلك كله غير مقبول في نظر المجلس، وحتى في نظر اثنين من الإنكليز، هما اللورد ستانهوب وابنه اللورد ماهون، دفع بهما حقدهما على فرنسا إلى تحريض الجنيفيين على فولتير وفيرني وفرنسا. فاستأجرا بعض السوقة وجعلاهم يتمركزون عند أبواب المدينة مع تكليفهم بكيل الشتائم للناس العائدين من مشاهدة العروض المسرحية. وكانت فضيحة كبرى؛ إذ كان من بين الناس الذين تعرضوا للشتائم عدد من أفراد العائلات الأكثر نبلًا، بل كان بينهم سفير لإنكلترا. ارتأى المجلس أن الطريقة غير لائقة، وكان أبناء جنيف من الرأي نفسه: فهم على اتفاق معًا لمرة واحدة في الأقل. وأعلن الجنيفيون أنهم لو رغبوا في إحراق المسرح - ولم يكن البعض ليخفي تلك الرغبة - فهم يريدون إحراقه بأنفسهم ولا يقبلون بأن يأتي غرباء ليتدخلوا في منازعاتهم مع فولتير. وتُظهر ردة الفعل هذه بجلاء أن النزاع مع فولتير اتخذ صفة الخلاف العائلي - لكن ذلك لا يجعله أقل شراسة - فهو خلاف يتطور وينتهي ضمن قاعة مغلقة. فوجّه سفير فرنسا إلى المجلس ملاحظة لاقت قبولًا حسنًا، وتلقى الإنكليزيان توبيخًا خفف من حدة حماستهما.

ما كان لشيء أن يغشي على نجاح لوكان: كان خارقًا إلى حد جعله يحدد على الأرجح نهاية أفكار جنيف المسبقة ضد المسرح. فقد جاء بعض القساوسة لحضور العروض، وكان من بين الأكثر تشددًا من اعترف بعظمة التراجيديا ونبلها وكرم محتدها. فيا له من نجاح رائع تحقق لفولتير! وكان يجلس في مقصورة قرب خشبة المسرح فلا يتخلف عن أي عرض. ويا له من حضور! فهو لا يستقر في مكانه: كان وهو في الثامنة والسبعين يثب أحيانًا إلى الخشبة فيهرول بين الممثلين. أما على كنبته، فيبدي عجبه ويتأوه ويبكي ملوّحًا بمنديله، أو يرتد إلى الخلف مغشيًا عليه. فالممثلون لا يؤدون أدوارهم أمامه بل داخل كيانه، فكان هيكل جسمه الهزيل هو المسرح الحقيقي للأبطال التراجيديين، فهم يزعزعونه بخبط أقدامهم وصيحاتهم، أما طعنات خناجرهم فتخترق قلبه. فيا لها من حياة سامية، تلك التي كان يحياها! أما إذا تجاسر أحد في الصالة وتحرك، فكنتَ ترى البطريرك وقد ثارت ثائرته، فينحني بجسده فيوشك على السقوط. وكان يشهر عكازه ويجأر صارخًا: «أيها السادة الطيبون والأشراف! أنا هنا في بيتي، ولئن لم

تلتزموا جانب الصمت، فسوف أعمل على جلدكم بطريقة لمّا تعرفها جمهوريتكم على الإطلاق». ولم يكن ذلك على سبيل المجاز، إذ كان يقف على بابه حرس من المحاربين القدماء الذين يجيدون استخدام الهراوات التي يمسكون بها علنًا أمام أعين الجمهور. وكتب إلى دارجنتال قائلًا: «يا صديقي العزيز، أنا في حالة انخطاف. لقد جعلني لوكان أعرف ‹سميراميس› التي ما كنت أعرفها على الإطلاق. إن جميع أصحابنا الجنيفيين صرخوا ألمًا ولذة، ومن النساء من شعرن بالأوجاع ثم بالراحة الكبرى... ولست أدري مدى التكريم الذي كان يُسبغه على أعمالي الخاصة وكيف كان يُبدِعها...» فيا له من إطراء يوجَّه إلى ممثل. وإذا ما ظننا أن ميله إلى المبالغة يمضي به بعيدًا بعض الشيء، فهذه شهادة قس من جنيف غامر بالوصول إلى المغارة الشيطانية. فهو يتكلم عن الجنون المسعور الذي يستولي على الجمهور كي يحث الخطى إلى فيرني. ففي الأسبوع الذي تُعرَض فيه مسرحية محمد، كان الجنيفيون ينسون اليانصيب! وشوهد أشخاص يدفعون لويسة واحدة لاستئجار عربة. ويقول ذلك المدعو أنطوان موشون مغتمًّا: «لقد ساهمتُ، أنا الذي أتكلم إليكم، في ذلك الجنون العام». وتوجب عليه العمل طوال يومين متتاليين لاستدراك الوقت الذي أضاعه في فيرني. لقد قام في الأقل بترتيب حوائجه قبل أن يذهب ليخسر نفسه، ويخسر لويسة أيضًا! لكنه رأى في الصالة قساوسة آخرين عديدين. فيا لراحة نفسه! ويا لها من طعنة! كانت النفوس الصالحة تضلّ بالعشرات. فليكن! «وقد رأيتُ أشياء سامية تتجاوز الفكرة التي أعطوني إياها عن ذلك الممثل العظيم... (ويلي ذلك إطراء للممثل لوكان، فيه من الهذيان على قدر ما فيه الإطراء الذي قاله فولتير). كان ذلك هو انتصار الطبيعة، وبناء عليه كانت الرعدة عامة وشاملة».

فيا لها من ساعات لا تُنسى، تلك التي منحها فولتير لهؤلاء الجنيفيين! كانوا يكرهونه لكنه طبَعهم بطابعه. وكانوا يودّون لو تخلصوا منه، لكنهم وقفوا عاجزين دون الاستغناء عنه. فيا للعذوبة التي أسبغها على حياتهم!

يتكلم موشون النزيه عن المقدَّم الذي لا نظير له: «لكن الذي لم يكن أحد الأجزاء البسيطة من العرض كان فولتير نفسه، الجالس مستندًا إلى القسم الأول من الكواليس، يصفق كالممسوس، إما بطَرق عكازه، وإما بإطلاق صيحات التعجب». ونهض نهوضًا مباغتًا، فأمسك بيدَي أحد الفنانين. وضحكت الصالة

لكنه لم يرَ ولم يسمع شيئًا. كانت جواربه تتجعد حول ساقيه وتتهدل حتى عقبيه، وكان يرتدي بزة تعود إلى عهد الإدارة، فيما ركبتاه ترتعشان من تحته. كان يسعه السماح لنفسه بأي تصرف، حتى المثير للسخرية. أما حين كان يصيح بأعلى صوته «أنا في بيتي!» فإنه لم يكن يقصد المبنى فقط، بل يقصد مملكته - التي ليست من هذا العالم تمامًا - إنها مملكة المسرح، مملكة خشبة المسرح الخيالية الفاتنة، هو ذلك العالم السحري وهو فيه الساحر. إنه يصيح صيحة الملوك: «أنا في بيتي، وانخطافكم بالروح يجعل منكم جميعًا رعيتي، لأن سلطتي تقوم على السحر». ذلكم ما يريد أن يقوله فولتير، فولتير الملك، والساحر الذي علق في سحره الخاص.

وسط تلك النشوات كلها، جاءت صدمة مؤلمة: توفي الصديق تييريو. كان الحزن حقيقيًا، على الرغم من أنه حزن من صنع الخيال: لقد رأى مجددًا صديق الفتوة، ودروس المعلم آلان، وقصة التلاعب، وحالات الغدر من جانب تييريو، والمسامحة المتكررة من جانب فولتير. وكان فولتير قد وصف تييريو في رسالة كتبها في عام 1764 إلى داميلافيل، بقوله: «صرتُ كسولًا مثل الأخ تييريو، لكني لا أبدّل سيدًا بآخر على نحو ما يفعل». كان تييريو يتنقل من مكان إلى آخر، فيخدم من يستمتع بصحبته وينقده مالًا. فكان أسياده يتغيرون لكنهم جميعًا أغنياء جدًا. لقد تناول الفطائر في الأطباق القرمزية في قصر لابوبلينيير، وطاولت يده مدخرات الكونتيسة دو فونتين مارتيل، وأقام في قصر الكونت دو مونمورنسي وعند أسياد آخرين كبار، بل صار يومًا المتطفل عند الأسقف دو كامبريه. ولم يكن هذا الأخير يشبه فينيلون الشهير بشيء؛ فبجعة كامبريه خلفتها قبرة: إنه الأب شارل دو سانت ألبان، وهو الابن الطبيعي للوصي على العرش من ممثلة مسرحية. وكان سيدًا شديد المرح في نظر تييريو الذي رأى أن كل شيء في ذلك القصر الأسقفي كان رائعًا، والشمبانيا على وجه الخصوص. ولم ينفصل فولتير عن تييريو قط، لكن حين توفي الصديق المزور لم يتأثر قلب فولتير تأثرًا حقيقيًا. فقد ارتكب تييريو من الأخطاء ما يفوق بقاءه شخصًا محببًا. لكن لم تكن أخطاؤه السبب في برودة الصداقة، بل كان افتقاره إلى الصداقة هو السبب.

تذكر فولتير على حين غرة الجانب الجاد من المسألة: إن في حوزة تييريو كمية من الرسائل والمخطوطات والقصائد غير المنشورة. ومن شأن ذلك كله

أن يشكل خطرًا إذا ما وقع في أيدٍ معادية. وجرى إرسال دارجنتال على عجل لاسترجاع تلك «المتفجرات» وبأسرع ما يمكن، قبل أن تراود الرغبة آنسة اسمها تاشان (Taschin) كانت تعيش في حميمية مع تييريو، في الاستفادة ماليًا من تلك الأوراق. «لكم أنا مدين لك بالحيلولة بين الآنسة تاشان وبين أن ترث شيئًا مني! ذلك أن تلك الآنسة التي قتلت تييريو تُدعى تاشان...» وإذا ما صدّقناه فإن تييريو مات لفرط معاشرته تاشان. أما هو فيزهو ببقائه (حيًّا) وقتًا أطول لأنه ليس لديه من تاشان. فعرض عليه دارجنتال أن يبعث بواحدة إليه. لكن لتطمئن نفوسنا، فالمسألة لا تعدو لهوًا خفيفًا ضمن الذوق السليط للعصر... فهي كلمات تتطاير، لكن يا له من ريش!

في تلك الأثناء كانت شائعة تسري في باريس وفي جنيف: فيما كان فولتير في غرفته بصحبة امرأة فتية حسناء وجريئة... سقط مغشيًّا عليه! أوشك أن يلفظ أنفاسه، ولم يكن الأمر هذه المرة بسبب عسر الهضم. كانوا يروون بتظارف أنه فقد الشعور مرات عدة بسبب فرط إحساسه، وأنه سلك درب الورود للنزول إلى الجحيم، وأن قبره فُتِح لدى نزوله من السرير...

فما نصيب الحقيقة في تلك الحكاية؟ إن فتاة هي الآنسة دو سوسور جاءت في الواقع إلى غرفته (هي بنت شقيق الفيزيائي الجنيفي الشهير)، وإن فانيير كان حاضرًا، وإن السيدة دوني دخلت وخرجت، دليل شعورها بشيء من الغيظ لتلك الزيارة. ويقول لنا فانيير إن الغيرة الحمقاء من جانب ابنة أخته، وما عبّرت عنه ببعض الكلام السخيف، كانا الأصل في ما نُسج عن تلك الحكاية؛ إذ كانت تأمل في أن تغيظ السيد دو سوسور وفولتير في آن وأن تضع حدًّا لزيارة بنت شقيقة العالِم الجميلة، التي كانت تثير حفيظة بنت شقيقة الشاعر الدميمة. ووجد ريشوليو أن تلك الحكاية ذات وقع حسن فرجا فولتير ليقول له ما إذا كانت حقًّا خرافة: إن تلك الظبية في سرير البطريرك قد أثارت في نفس الرب الريفي العجوز الرغبة في الحج إلى فيرني. ولم يخفِ فولتير عنه شيئًا: كانت تلك الفتاة سوسور مثل الربة جونون (Junon)؛ فهي طويلة القامة، وجميلة جدًا، وفائقة البهاء وباردة جدًا. إن مون بلان (الجبل الأبيض) وقد وضع ثلوجه في الغرفة، لم يمسك كثيرًا بالشاعر الشديد التأثر بالبرد فأغمي عليه... لكن بتأثير رعشة الانفعال. «أقسم لك أني كنت سأكتب لتلك الفتاة الجميلة مشهدًا من مسرحية سيلا (Scylla) لا مجرد مقطع شعري».

أما ذلك المقطع الذي لا يستطيع إنشاده، فسوف يكتبه. لكن إلى من؟ إن الدهشة ستظل تستولي علينا، إذ لديه على الدوام براعة جديدة في صندوق دهائه. لقد كتبه إلى السيدة دو باري. كان فولتير على علم بألاعيب فرساي؛ فهو على خلاف مع الملك، لكن الصلة ليست مقطوعة تمامًا. فالملك والفيلسوف يتواصلان عبر وسطاء: وزراء ومحظيين. فـ«المقطع» الموجه إلى السيدة دو باري يشكرها على رسالة لطيفة أوصلتها إليه بواسطة السيد دو لابورد، وهو مصرفي مسافر قدِم متوددًا إلى فيرني. وأرفقت الرسالة بميدالية فيها صورة الكونتيسة الحسناء. وأضاف السيد دو لابورد أن المحظية حمّلته أيضًا قبلتين إلى المُرسَل إليه، فأوشك الأخير لدى سماع تلك الكلمات أن يقع مغشيًا عليه مرة أخرى. ثم ارتمى على الميدالية وعلى ريشته ودواته فدوّن الشكر التالي:

«ما القبلتان عند نهاية حياتي!

وما جواز السفر الذي تكرمتِ بإرساله!

قبلتان! ذلك فائض، أيتها المعبودة إيجيري؛

فأنا سأكون ميتًا بعد القبلة الأولى!».

كان لذلك القدر من المتعة أن يتلوه شيء من الفائدة. فلم ينسَ أن مستعمرته ما عاد لها من حامٍ، وبدت الفرصة مواتية ليجد لها حامية. فأرسل إلى المحظية ساعة جميلة مزينةً بالماس، وكتب إليها يقول: «هذه الساعة مزدانة بالماس، ولا يطلب السيدان سيريه ودوفور اللذان صنعاها تحت إشرافي أنا، سوى ألف فرنك». وليس من يدري إن كانت الكونتيسة الحسناء قد فهمت؛ إذ عُثِر على الفاتورة بين أوراقها، وليس ما يدُل على أنها سُدّدت. لكن ربما قامت السيدة دو باري بطلب صندوق من الساعات...

لم يكن فولتير في تلك الأثناء سعيدًا، فثمة حنين يزيد من خطورة أمراضه المتواترة: إنه في حاجة إلى فرنسا، أي إلى باريس. إنه يعمل على محاصرة المحظية التي ينبغي لها أن تحصل على رفع الحظر على إقامته. لكن وا أسفاه! إن في وسعها أن ترسل إليه ميداليات وقبلات، لكن لا يسعها أن ترسل إليه جواز سفر.

وجهد كلٌّ من ريشوليو ودارجنتال حتى أوشكا على النجاح، حين ظهرت في عام 1773، وعلى غير علم من فولتير، مسرحيته قوانين مينوس (*Les Lois*

de Minos) التي نشرها أصدقاؤه دارجنتال وتيبوفيل وآخرون. فقاموا بتعديلها بكل وفاء ممكن، فاقتطعوا منها وأضافوا إليها وعدّلوا عددًا من الأبيات. لكن على الرغم من تلك الاحتياطات، اعترضت الرقابة. فالرقيب الذي قام فولتير بمداهنته والتزلف إليه ومكافأته، لم يزدد إلا صفاقة. وكتب إلى فولتير رسالة غير مقبولة لكن فولتير أحسن استقبالها. فمن شأنه أن يقبل بكل شيء في سبيل الحصول على جواز سفر. وكان ذلك الرقيب، واسمه ماران، كاتبًا ضحلًا، أخذ الغرور بعقله، وكان يُرهِب أصحاب القلم كافة ويُحمل فولتير ترشيحه لعضوية الأكاديمية الفرنسية. والحمد لله أن ماران لم يُنتَخَب. ولنقل في سبيل قول الحق، إن فولتير ساند ترشيح ماران لا من أجل الحصول على جواز سفر فحسب، بل من أجل معارضة ترشيح الرئيس دو بروس أيضًا؛ فثمة إشباع رغبة لا يمكن رفضه...

وحين واصل بومارشيه، المتهم بمشاجرة، تجواله في باريس دونما عقوبة، دُهِش فولتير من عدم تطبيق العقوبة، أكثر من اندهاشه للنجاح الصاعق الذي تحقق لزميله الشاب. فبدا له أن السلطة أشد قسوة حيال عجوز منفي منها حيال كاتب شاب ظافر. صحيح أن القمع ما عاد شديدًا مثلما كان في مطلع القرن، فنوابض الدولة باتت رخوة، بل أكثر رخاوة كثيرًا مما كان يظن فولتير.

كتب يقول: «من المضحك أن يكون في باريس خادم ساعاتي متّهم بالعراك مع شخص آخر، وألا أكون أنا هناك». هو ليس معاديًا لبومارشيه، بل الواقع هو بخلاف ذلك: «إن مذكرات بومارشيه هي الأقوى والأكثر جرأة والأكثر طرافة والأكثر إمتاعًا والأكثر امتهانًا لخصومه، من بين كل ما وقعت عيني عليه. فهو في النهاية يدخل في عراك ضد عشرة أشخاص أو اثني عشر فيمرغهم بالتراب مثل أرلكان[65] متوحش وهو يجندل شرذمة من العسس».

ليس لنا أن نكرر القول إن كل موهبة أخرى هي شيء لا يُحتمَل في نظر ذلك الشاعر العجوز الذي تنهشه الغيرة.

---

(65) اسم شهير في أوروبا لمهرج في المسرح الكوميدي الإيطالي في القرن السادس عشر. (المترجم)

علم في نهاية المطاف أن عدم حصوله على جواز سفر عائد إلى ماران الذي غدر به. فحين فقد الرقيب الحظوة، قام بومارشيه بكشف مناورته وكانت الآنسة دو ليسبيناس التي تنظر إليه برعب تلقبه بـ «الوحش البحري»[66]، فيما يطلق عليه بومارشيه لقب «فرس النهر». والواقع أن فولتير لم يكن في حاجة إلى ماران من أجل الحصول على جواز سفر، لكنه سلم أمره إلى «فرس النهر» الذي ما زال يخشاه على الرغم من أنه فقد الحظوة، ذلك أن فولتير أخطأ بائتمانه على أوراق خطرة. وهكذا، كتب إلى كوندورسيه قائلًا: «وزاد الطين بلة اضطراري إلى التزام الصمت، وذلك يتسبب بكثير من الضيق حين يكون لدى المرء ما يقول وحين يحب الكلام». لقد انتابه الغم من وجوب التزام الصمت، ومن مواصلة انتظار جواز السفر إلى باريس.

أخطار جديدة: علجوم برناس وحمّامات الشتاء عزاء: السيدة دوني يجري اختيارها بأغلبية ساحقة

يأتي أعداء جدد ليحلوا محل الموتى. ها هو واحد من طينة فريرون ولابوميل. وإنه لحقير بوصفه رجلًا، أما بوصفه كاتبًا فهو أفضل كثيرًا، إذ يتمتع بالتميز والنقد اللاذع والذوق. اسمه كليمان، لكن فولتير يسميه «كليمان[67] غير الرحيم» (l'Inclément Clément) لتمييزه من آخرين باسم كليمان هم «الرحيمون الوضيعون». وكتب ذلك الفتى اليافع إلى فولتير رسائل تبجيل، وهو في السابعة عشرة، لينال مساعدته ونصائحه، بل حصل بفضل فولتير على منصب معلم في مدرسة داخلية في ديجون. لكن «علجوم برناس الصغير»، على نحو ما دعاه فولتير من بعد، ما لبث أن فقد وظيفته على أثر حكاية مشبوهة مع زملائه. ولقد ترك لهم، وهو يغادر المدرسة، رسالة استقالة على درجة من الشناعة، جعلت هؤلاء يسلمونها إلى المدير الذي رفع دعوى توقيف بحق «العلجوم». كان نجمه قد بدأ يسطع في باريس. قابل لا هارب بتوصية من فولتير، فانتفع من الشاعر على قدر ما استطاع، ثم قاطعه. وأخيرًا دفع به فريرون نحو جادة الصواب؛ فهاجم بادئ ذي بدء الأباتي دوليل (Delille)، ثم سان لامبير الذي ظل فولتير يكن له صداقة

(66) اسم ماران (Marin) بالفرنسية يعني البحري، أو البحار. (المترجم)

(67) اسم كليمان (Clément) بالفرنسية يعني: رؤوف أو رحيم. (المترجم)

حميمة، وأخيرًا هاجم فولتير. وكتب كليمان يقول إن «تراجيديا فولتير هي فانوس سحري»، وإنه قام بسرقة راسين، وإن الجمهور على درجة من الفساد حتى إنه يفضل «بريق فولتير الخادع، أو حليته المزيفة، على ذهب راسين كله».

لم يكن سان لامبير ليّن العريكة. فحين علم بهجمات كليمان، سعى إلى البحث عنه ليطبق عليه تصويبًا لا علاقة له بالصرف ولا بالنحو. كما أحاط الوزير بالأمر علمًا، فجرى احتجاز الأهجيّة واحتجاز كاتبها أيضًا، ووُضِع في قلعة فور ليفيك فصار في مأمن من التعرض للجلد.

هنا تنطّع جان جاك ليرفع صوته بالصراخ الحاد: واحد اسمه كليمان في السجن. فأثار ضجة كبيرة جدًا وفلسفية جدًا، بحيث جرى إطلاق سراح كليمان. إن الدفاع عن الحرية لجدير بالثناء، وقد كان لجان جاك الذي تنطح ليغدو بطلًا في ذلك الميدان أن يحظى بالثناء، لولا أننا نعرف أنه لم يدافع عن حرية كليمان إلا لأن سان لامبير هو الذي أوعز بتوقيفه، وسان لامبير هو العشيق السعيد للسيدة هودتو التي رفضت توددات روسو، فجاء الأخير ينتقم! ما كان جان جاك يرى في حياة فولتير وسان لامبير سوى رياء الحضارة وانحرافًا مزريًا. ويتجابه هناك عالَمان اثنان، لا يقبلان التصالح، كلما شاءت نزوات القدر أن تضع هذين الرجلين الواحد في وجه الآخر. وقد كتب فولتير من بعد أن أحاطه سان لامبير علمًا، فقال: «إنه مزهو حقًّا بكليمان الضئيل هذا. وهو يرفع قضايا على المحكمة العليا من دون مبرر. ولسوف يسعدني أن أواصل تسديده حقه وبالكيل الوافي». ها هو كليمان النكرة وقد غدا شهيرًا بفضل الضجة التي أثارها سان لامبير وأهجيّة فولتير المتآمرون (*Les Cabales*) التي ظهرت في عام 1773. فصار الكل راغبًا في معرفة ذاك الذي استحق هذه الأبيات:

«ما كنت أحسب أن يقوم علجوم في البرناس
بالانتفاخ بتلك الجرأة كلها
فاسمعني، يا سيد، أنا آتٍ من ديجون
وليس لدي من مأوى ولا ثروة ولا شهرة
لقد نظمتُ أبياتًا رديئة، ويسعك أن تصدق
أني لا أملك جرأة الطموح إلى المجد

فلا أريد سوى انتزاعه من كل من ينعم به.
وإن صديقي فريرون لخيرُ عونٍ لي في تلك المهمة
فالأباتي بروبري (مابلي) يقدمني إلى السيدات
فنقوم مع أهل الأدب بحبك شباكنا
لنصير في غضون شهرين واحدنا يعادي الآخر
لكن الحاجة تبقي علينا متضامنين.
فأنا أترعرع وسط فن التضييق عليهم
فتلك هي موهبتي الوحيدة: هي المجد الذي أطمح إليه».

وهنا انفلت لسان كليمان من عقاله، فهاجم فولتير هجومًا شخصيًا: «فيا لفكرك الثاقب وأنت تدقق في حسابات البخل الصغيرة. ولسوف أسكت عن الشكاوى كافة التي ترتفع بها أصوات أصحاب المكتبات، واليهود الذين بوغتوا بمن تغلب عليهم في ميدانهم الخاص».

تلكم هي خرافة البخل التي كان فولتير ضحية لها، وهي صادرة عن الذين مدّ إليهم يد العون. وإن ما لا يُسامَح عليه في أوساط الدساسين الجائعين، هو ثروته وعزه، حيث يلقي أحدهما بإشعاعه على الآخر. «إنه الأفضل دخلًا من بين الأدباء كافة». وذلك ما لم يكن مقبولًا.

شاعت من بعد كذبة بشعة، وعبثية على وجه الخصوص. فقد ذكر كليمان أن السيدة مينيو، شقيقة فولتير، تزوجت مينيو صانع السموم، الذي يتحدث عنه بوالو في واحدة من أهاجيه. بناء عليه، فإن السيدة دوني والأباتي مينيو والسيدة دو فلوريان هم أبناء صانع السموم. أما وأن الأباتي مينيو هو مستشار في المحكمة العليا، فقد اشتكى إلى الوزير الذي استدعى كليمان، فوبّخه، وأرغمه على تقديم اعتذار للأباتي. فتخلص كليمان من الأمر بوقاحة وعاد فجدد هجماته.

فلمَ لم يفعل فولتير مثل بوفون الذي لم يكن يرد على تلك الهجمات البتة؟ يقول بوفون: «لكل امرئ رهافته، أما رهافتي أنا فتبلغ حد الاعتقاد بأن بعض الناس لا يستطيعون حتى الإساءة إلي». لكن وا أسفاه! لم تكن تلك حكمة فولتيرية.

في كانون الأول/ ديسمبر 1776 أوشك أن يقضي نحبه، وليس على سبيل المزاح. فقد وصفوا له الحمامات الشتوية. «أضحت ساقاي الهزيلتان في ضخامة البراميل». فبدأ يُشفى شفاء بطيئًا. وجاءه في أثناء فترة نقاهته نبأ جعله يثِب قافزًا: قيل له إن فريرون مات. لكن النبأ كان كاذبًا، فعاد فولتير إلى السرير.

انتاب الخوف من هم في محيطه، ولا سيما الناس الذين يتوقف عليه عيشهم، والساعاتيين على وجه الخصوص. لكن سفير فرنسا السيد هينان كان واثقًا من شفائه، فقال إن فولتير سوف يعيش مئة عام. واستشاط فولتير غيظًا فهتف قائلًا: «بلغت الهمجية ببعض الناس حد القول إني بصحة جيدة!». وحسبُ من يرغب في إثارة غضبه أن يوجه إليه ذلك النوع من الإطراء.

جرى بحث الإجراء الواجب اتخاذه في حال وفاته؛ فالأختام سوف توضع في كل مكان، ويتم وضع اليد على الأوراق كلها. فالدولة ترغب في أخذ الوثائق كافة المتعلقة بالشؤون السياسية التي خاض فيها فولتير منذ وزارة الكاردينال دوبوا. وقد وجهت مارلي تلك التعليمات المفصلة من البلاط، في تموز/ يوليو 1774، إلى كلٍّ من حاكم مقاطعة بورغونيا، ووكيل الحاكم في جيكس، والسيد هينان. وهي تحمل توقيع لويس السادس عشر، وهو من أوائل تواقيع الملك الشاب. ودوّن في أسفل الصفحة بخط يده كلمة «طيب».

لم يعكر موتُ لويس الخامس عشر بشيء صفوَ عيش سيد فيرني، الذي لم يكن يجد فيه شيئًا يستحق الثناء. وقد حالت أصول اللياقة دون إظهار بهجته بتلك الوفاة، إلا أنه أظهر، كما كثير من الفرنسيين، الآمال كافة التي علقتها الأمة المريضة على الملك الجديد. أما وقد اختار موربا وزيرًا له، فإن لويس السادس عشر لم يؤثر فولتير البتة. فقد كان موربا واحدًا من أقدم أعدائه، ورجلًا خبيرًا بكافة حبكات البلاط والمدينة. أخيرًا ظهر تورغو، فسرى الاعتقاد بأن أنوار القرن سوف تضيء متاهات الإدارة والسياسة كافة. ووُلد أمل كبير، فباركه فولتير من مكتبه. لكن ذلك الأمل، كما يحدث مرارًا، سوف يلفظ أنفاسه عما قريب.

عادت ورشة فولتير لصنع الساعات لتجد نفسها عرضة للتهديد مجددًا. فمدينة جنيف، وقد تعافت من حروبها الداخلية وعاد إليها السلام، وتفكرت في الضرر الذي أصابها نتيجة طرد خيرة صناعها، بدأت تفهم أنه قد آن الأوان

لاستدعائهم ومنحهم المزايا التي طالما طالبوا بها. فصناعة فيرني لم تكن قوية جدًا: إن كل ما فيها يرتكز على إرادة فولتير ورأس ماله وعلى الدعم الذي يحظى به من جانب الوزراء، حين يكون هؤلاء أصدقاء له.

كانت السيدة دوني تقف إلى جانبه. إنها تهتم بعائلات العمال، فتقوم بـ«النشاط الاجتماعي»، على نحو ما نقول في أيامنا. وكان السكان يعلمون أنها سوف ترث من فيرني، فباتوا يداهنون سيدتهم في المستقبل بإظهار عرفانهم حيالها. كان فولتير في الثمانين من عمره، وهو مريض أكثر من أي وقت مضى، لذلك أضحى عهد السيدة دوني قريبًا. والحال أنها هي التي أوشكت أن تقضي نحبها، فساد قلق كبير. وحين استردت عافيتها أقام لها السكان احتفالًا كبيرًا في 18 أيار/ مايو 1775، وأقيم لها عرض عسكري شارك فيه مشاة وخيالة، ورُفِعت أعلام ورايات ولافتات وشعارات، ترافقها موسيقى عسكرية: صنوج وطبول وأبواق متألقة. واختُتم العرض بمائدة ريفية في الحقل بُسِطت لثلاثمئة شخص. أما حلوى ما بعد الطعام فكانت خطبة رائعة ألقاها السيد دو فلوريان. فقال الخطيب: «حولتنا الغبطة إلى عسكريين، فهذا التزيين الجديد يلائم رجالًا مولعين بأن يضحوا بحياتهم حفاظًا على حياة أسيادهم». فتملكت السيدة دوني نشوة عارمة، وأصغت وهي تذرف الدموع إلى خاتمة الكلام المطنب: «فتفضلي سيدتي بإسباغ فضائلك دومًا على هذه المستعمرة الوليدة التي أسسها فولتير الخالد. ولسوف نسعى لأن نكون جديرين بها عبر أعمالنا ودقة صناعتنا».

زيارات محببة، وأيام هانئة

ما إن عادت السيدة دوني فوقفت على قدميها، حتى استؤنِفت الزيارة إلى فيرني. وشوهِد ثنائي جدير ممتِعٌ جدًّا هو المركيز والمركيزة دو لوشيه. كانت المركيزة تضحك باستمرار، فتبتكر، حتى لا تكف عن الضحك، بعض المناسبات الضاحكة التي لم تكن شديدة اللياقة. وتعود كلمة «خِداع»، أو «مُخاتلة» (mystification)، إلى تلك الفترة ويبدو أنها ولِدت في صالون المركيزة دو لوشيه التي كانت تستقبل أناس المجتمع الراقي، وآخرين لم يكونوا منه. باختصار، استجرّت إحدى المخاتلات شكوى رفعتها سيدة من المجتمع الراقي فاستدعت الشرطة السيدة دو لوشيه التي تلقت توبيخًا شديدًا. وكتب غريم يقول:

«إن سيدة تقوم الشرطة باستدعائها لا يعود ممكنًا استقبالها في أي مكان». وفي ذلك الحين شعر المركيز بالرغبة في زيارة مناجم في منطقة سافوا مصطحبًا زوجته. نحن لا نعرف ما المناجم المقصودة، لكن مهما كان ما بحث فيه، فهو في حاجة إلى المال. فالأمر بادٍ للعيان، وقد قال فولتير الذي كان يصغي إلى اعترافهما الطريف: «ثمة خطيئة في كل اعتراف لا يتم البوح بها». والخطيئة بالنسبة إلى آل لوشيه هي الإفلاس. «لا يسع السيدة لوشيه أن تكتب شيئًا يتعلق بأعمالها هي أو بأعمالك، والسبب أنها لا تفقه الشيء الكثير في ذلك الميدان. فهي لم تفكر قط ولن تفكر أبدًا إلا في الضحك. لكن الضحك دومًا على نحو ما تريد الزوجة، أو الإثراء في المناجم على نحو ما يريد الزوج، إنما هو حجر الفلاسفة. وذلك ما ليس له من وجود أبدًا». وقامت السيدة دو لوشيه في أثناء فترة إقامتها برعاية الجميع: فولتير والسيدة دوني والخدم. كانوا جميعًا يلزمون الفراش، فأضحت فيرني مشفى. وكانت تضحك فتجعل مرضاها يضحكون فتشفيهم جميعًا، وهكذا فقد أدت مهمتها على أكمل وجه. أما زوجها فلم يؤدِّ مهمته؛ إذ لم يعثر على شيء في مناجمه. وانطلقا ضاحكين على نحو ما قدِما.

وجاءت السيدة سوار فحلّت محلهما. لقد كانت طائرًا من نوع مغاير ومن ألطف الطيور التي جاءت تغرد في فيرني. وكان يرافقها أخوها بانكوك الشهير، من ليل، وقد جاء تحت إمرة شقيقته الفاتنة ليعرض على فولتير مشروعًا ضخمًا لإصدار طبعة كاملة لأعمال الفيلسوف. كانت السيدة سوار تقيم في باريس، ولديها صالون تجتمع فيه نخبة البرجوازية حيث كان فولتير محبوبًا حتى العبادة. كانت تلك السيدة المحببة والجميلة رقيقة دونما تكلف، مثقفة من غير ادعاء، وكلها كياسة وعفوية. وكانت معجبة بفولتير وتحبه حبًا غامرًا، إلا أنها كانت تعرف كيف تجعله، بلطافة وحزم، يلتزم حدود الاحترام حين يبدأ بالسخرية من يسوع المسيح في حضرتها. فيرد فولتير على طلقة الإنذار بالإطراء. وإذا ما هاجم فولتير أحد المؤمنين الذين يترددون إلى صالونها، كانت السيدة سوار توقفه أيضًا: «إنه صديقي، وأنت لا تتقوّل عليه إلا بما سمعت، أما أنا فأعرفه». وكان فولتير يجد ذلك رائعًا: فهو يلمس فيها صديقة صدوقة. وهي، ضمن تلك الشروط، مخولة بحقوق الصداقة كافة.

أما يوم وصولها، فكانت على درجة من الوجل وهي تتفكر في لقاء صنمها

المعبود، حتى كادت تقفل راجعة من حيث أتت. قيل لها إن فولتير في الحديقة الكبرى. فانتظرته في الصالون مع أشخاص آخرين، وهكذا أتيح لها الوقت لتستعيد رباطة جأشها. ودخل على حين غرة، حاملًا بيده ورقة تعْلمه بوصول السيدة سوار، فناداها وهو يتقدم منها:

- أين هي تلك السيدة؟ أين هي؟ قيل لي إنك كلك روح، وإني جئت بحثًا عن تلك الروح.

- إنما تلك الروح، يا سيدي، ممتلئة بك تمامًا، وهي تسعى منذ زمن طويل كي تسعد بالاقتراب من روحك أنت.

كان في عداد الزوار أيضًا أوديبير، وهو من مرسيليا، وصديق آل كالا الشاب الوسيم ديتالوند الذي كانت إعادة اعتباره الافتراضية تظل ممسكة بخناقه، وآل كرامر وهم أصحاب مكتبة في جنيف، وكانوا يؤدون التمثيل الكوميدي على أحسن صورة، ويعقدون صفقات تجارية رابحة بكتب فولتير. وكان هناك أيضًا روسي اسمه سولتيكوف، ورجل اسمه بواسونييه، هو طبيب كاترين الثانية، عالِم ومهذار جدًا. فترينا السيدة سوار ذلك المتحذلق وهو يستأثر بفولتير، فيهنئه فولتير على علمه وعلى الخدمة العظمى التي أداها للبشرية بعثوره على طريقة لتحلية مياه البحر. فيقول العالِم: «آه! ليس ذلك بشيء مقارنة بما انتهيت إلى اختراعه؛ ففي وسعي الحفاظ على اللحم سنوات عدة من دون تمليحه».

أجرت السيدة سوار مقارنة بين التهذيب الرفيع الذي يتحلى به فولتير والغرور السمِج للعالِم المزعوم الذي شرّفه فولتير بالإصغاء إليه. وقد دُهشت من أن فولتير لم يبدُ لها هزيلًا وشاحبًا ومتيبسًا على نحو ما وصفوه لها. فهي تقول: «إنه ليستحيل وصف صفاء عينيه وسماحة محياه. فيا لبسمته الساحرة! وليس من تجعد واحد إلا وله بهجته. فإيه! كم فوجئت حين ظهرت أمامي بدلًا من الوجه المتهالك الذي ظننتني سأراه، تلك الطلعة الملأى بالتوقد والتعبير؛ فلقد رأيت، بدلًا من شيخ محدودب، رجلًا ذا قوام مستقيم، مهذب ونبيل، على الرغم من بعض الإهمال، بمشية فيها عزم بل رشاقة، وهو ذو إيقاع وتهذيب مثله مثل عبقريته، فهو نسيج وحده».

الشيء الأكيد أنها رأت فولتير بعيني الإيمان. ولكَم كان سيُغرِق في الضحك لو علم أن كل واحد من تجاعيده له لطافته. أما أن التعبير المدهش لنظرته يطغى على نكبة التجاعيد، فذلك أمر أكيد. وإن نار العبقرية لتغير كل شيء، وكذلك لطافة السيدة سوار. يبقى أن نعرض صورة أخرى رسمها لنا غريم قبل صورة السيدة سوار بوقت قصير. «إن السيد فولتير ذو قامة دون قامة الرجال الطوال، أي تحت الوسط بقليل... وهو نحيل وذو طبع حاد ومزاج ملتهب ووجه معروق وهيئة ذكية وساخرة وعينين متقدتين وماكرتين. وكل الدفء الذي يجده المرء في مؤلفاته، ماثل في حركته: فهو حيوي حتى التسبب بالدوار، وحيويته تروح وتغدو فتبهرك وتظل خفاقة. وإن رجلًا على تلك الشاكلة لا يسعه إلا أن يكون سقيمًا: فالنصل يُبلي الغمد. فهو مرح في جبلته، وجاد في نظامه...» ونحن حتى هذه النقطة نعرف بطلنا، لكن غريم يريد من بعد الغوص إلى الأعماق. «إنه منفتح دونما صراحة، وسياسي بلا رهافة واجتماعي دون أصدقاء، فهو يرى المجتمع وينساه». فولتير بلا رهافة؟ وبلا أصدقاء؟ إن سوء النية يعمي بصيرة غريم. «فهو يحب العظمة ويزدري العظماء»، «وهو متساهل معهم لكنه يقهر أمثاله». ذلك أنه من مصاف العظماء، وأعلى مرتبة من الذين يظنون أنفسهم مساوين له، فأنت، يا سيد غريم، لستَ بصنو فولتير: «فيبدأ بالتهذيب ويواصل بالبرود وينتهي إلى الاشمئزاز». إنه لبِق دائمًا مع الجميع، لكن ليس الناس جميعًا جديرين بلباقته، وإذا ما ظن أحد الحمقى أن من حقه أن يتخطى الحدود فيتطاول على حريته لأن فولتير كان مهذبًا معه، فإن فولتير يثبط من همة ذاك المتطفل، وليس مخطئًا في ذلك. وهو «يحب البلاط لكنه يشعر فيه بالسأم». إن مثله في هذا المجال مثل الجميع. لكن إذا ما أحب نغمه وفخامته ورياشه، فإن تفاهة رجال البلاط ورياءهم يسببان له الضيق. «ولا يتمسك بشيء اختيارًا وبكل شيء تقلبًا». بلى، إنه يحب كل شيء... وليس وفيًا إلا للعمل والمسرح ولأصدقائه. وحسبه ذلك لمنحه الحق في نيل شهادة وفاء. «إنه حساس دونما تعلق، وشهواني دونما هوى». إن ذلك لمؤكد أكثر، فالآنسة دو ليفري فهمت كل شيء، وفي وسع السيدة دوني أن تقول لنا إنه بلا عاطفة وحتى بلا فيض من الحنان. لكن ذلك من شأن السيدة دوني وحدها. «أما وهو يأتي ببراهين بلا مبادئ، فيغدو لعقله شطحات كالجنون». وتلك هي سمة جميلة؛ أي إن فولتير كانت تنتابه نوبات عقل، مثلما تنتاب آخرين نوبات جنون... مع أنه يبدو، بخلاف ذلك، أنه كان مستقرًا في العقل، وغالبًا في جانبه

الأكثر إيجابية، وأنه كان يهرب منه أحيانًا في نوبات من النزوة بل حتى من الجنون، ومثله في ذلك على العموم، مثل الجميع. وإذا ما صدّقنا قول غريم، فإن فولتير كان يعيش في نوع من الظلمة ليخرج منها بطلعة مبهرة. وإن في ذلك انتقاصًا من ذكاء فولتير؛ فنحن نميل إلى الاعتقاد بأن ظلمة فولتير تشكل شمسًا ساطعة بالنسبة إلى كثير من الناس من أمثال غريم. أما تتمة الصورة فقد رُسِمت بضربة مخالب: «إنه مغرور حتى الإفراط، لكنه مكب أكثر على اهتماماته؛ فهو لا يعمل من أجل الشهرة على قدر عمله من أجل المال، لأنه حياله جائع ومتعطش»، وثمة لوم على بخله! «أخيرًا فهو يستعجل العمل كي يستعجل العيش. ولقد خُلق ليستمتع: إنه يريد تكديس المال. ذلكم هو الرجل». وذلكم، على وجه الخصوص، هو الرجل غريم. إن ذلك كله مبالغ فيه، وقد قيل بسوء نية مدروس. لكن سهامك، يا سيد غريم، تخطئ في الأغلب هدفها.

غداة قيام السيدة سوار برسم تلك الصورة الساحرة لفولتير، ما عادت تتعرّف نموذجها الأصلي. فالذي أمامها رجل مائت، واجتاح الوجع والإرهاق وجهه، وانطفأت نظرته. فارتمت على قدميه وقبلت يديه. كان ذلك ديدنها؛ فقد كانت تقبّل يديه ثلاث مرات كل ربع ساعة. كانت تمسك بهما على الدوام، فيظن نفسه ملزمًا بأن يفعل مثلها. فما الذي جرى منذ يوم أمس؟ ولماذا قناع الميت هذا؟ ثم اعترف لها: لقد حشا معدته يوم أمس بالفريز، فأُصيب بعسر هضم. والتزم من بعد بحمية قاسية جدًا؛ فبات يعيش على القهوة والقشدة. لكنْ ثمة فروج جاهز على الدوام إذا ما استبد به جوع مسعور، ومطبخ القصر تحت ضغط دائم، فضلًا عن أن الفلاحين والقرويين يدخلون إليه ويخرجون بحرية، فيأكلون في المطبخ كل ساعة، زد أنهم يتلقون في بعض الأحيان قطعة نقود لقاء عناء قدومهم. وهكذا غدا قصر فيرني هذا، ما بين زوار المطبخ وزوار الصالون، خانًا حقيقيًا للمسافرين.

أما بعد اعترافه بعسر الهضم بسبب الفريز، وكيف أوشك أن يودع الحياة، تكلم، وأصغت إليه وهي منتشية. فقال عن وزيره المعبود: «يواجه السيد توربو ثلاثة أشياء رهيبة: رجال المال، واللصوص، وداء النقرس». هي تفضل نيكر على توربو. فعاند فولتير، فأرخت يديه ودافعت عن نيكر. «هيا يا سيدتي، اهدئي، فليباركنا الله، أنت تعرفين كيف تحبين أصدقاءك». وقام كل منهما بتقبيل يدي الآخر. فهتف قائلًا: «لقد أعدتِ إلي الحياة»، ثم أضاف: «آه كم هي لطيفة!

يسعدني أن أكون بائسًا إلى هذا الحد، فهي ما كانت ستعاملني على هذا النحو لو كنت في العشرين من عمري». فكررت ذلك كله على مسامع زوجها وأضافت: «الواقع أن أعوامه الثمانين تجعل هواي ينعم بالراحة».

لم يكن فولتير في الأيام الأولى على يقين من أن صدق المدائح وتقبيل الأيدي مضمون بصدق العاطفة. وعلى ذلك لم يشأ أن يؤويها في القصر. لكن ما إن غدا واثقًا من صداقتها، حتى أوعز بإعطائها غرفة، وبلغت بها السعادة حدًا جعلها في الليلة الأولى لا تعرف النوم. فمنذ الساعة السادسة، جاءت لتتمركز في الصالون لتشهد ساعة إحضار القهوة والقشدة للبطريرك وتطلب أن يستقبلها. دخلت إلى غرفته في الساعة الثامنة مع القهوة، فوجدت فولتير جالسًا في سريره مستقيم الظهر. كان السرير بسيطًا، ونظيفًا جدًا وحسن الترتيب. وكان الشاعر يضع صدرية من الحرير، وطاقية للنوم مربوطة بشريطة من الحرير الناصع البياض. كان كل ما في الغرفة على درجة تامة من النظافة والترتيب، والكتب والأوراق حسنة التصنيف. وطلب من فانيير إعطاءه مصنفًا: المصنف الثالث فوق ذلك الآخر إلى الشمال. فعثر عليه فانيير دونما تردد وأتى به. وكان الشاعر يكتب وهو في السرير، فيستخدم رقعة شطرنج فوق ركبتيه مسندًا. وكانت على الطاولة مجموعة كبيرة من الريَش. فطلبت منه واحدة – إنها ذخيرة من القديس فولتير! – فاختار لها تلك التي استخدمها أكثر: فيا للاغتباط! وعلى ذلك تبادلا التقبيل على اليدين. وتطرق الحديث إلى كوندورسيه: إنه الرجل الأكثر لطافة في الدنيا، وفولتير يقدّره ويجلّه، فهو يتميز بالذكاء والمعرفة والفضيلة. وقد انتهى من كتابة إطراء إلى باسكال على درجة من الجمال والذكاء أطربت فولتير وأخافته. فقال فولتير: «لئن كان كوندورسيه يعتقد بأن باسكال صادق في إيمانه، فنكون نحن، من جانبنا، من أكبر الحمقى، لعدم قدرتنا على التفكير مثله. فليس بالأمر الخارق أن راسين كان مسيحيًا، لأن راسين شاعر، ورجل خيال، أما باسكال فهو رجل حجة وبرهان، فليس لنا أن نضع أولئك الناس في صفٍّ معادٍ لنا، ولقد كان في أي حالٍ مريضًا متحمسًا وذا إيمان ضعيف مثل خصومه». تلك هي أطروحته: لئن كان شاعرٌ ما مؤمنًا، فليس للأمر من أهمية تذكر، والحالم ذو الخيال لا يثبِت شيئًا. لكن أن يقوم رجل مثل باسكال، وهو رجل عقل وعلم، بتقديم حجة وبرهان، فالأمر يغدو خطرًا على الكفر. ولقد نسي فولتير خيال باسكال الذي كان خيالًا خارقًا، فارتد

إلى الوراء بانقلاب كامل قائلًا إن الحماسة الباسكالية حماسة مَرَضيّة إلى حدٍّ ما. أما بشأن صدق إيمان باسكال في نزاعه مع اليسوعيين، فليس أكثر يقينًا من إيمان خصومه. ولقد انتاب السيدة سوار الطيبة حيال تلك المسائل شيءٌ من الدوار، فتركت فولتير يتكلم ولاذت بالصمت.

ظل فولتير راقدًا طوال النهار تقريبًا. وكان يسعدها أحيانًا أن تراه يظهر في حدود الثامنة تقريبًا، وأن تنظر إليه وهو يأكل بيضًا مخفوقًا من بعد أن صار ذلك عشاءه منذ ثلاثة أشهر. استقبل موظفًا من بلاد جيكس جاءه طالبًا منه حماية واحد من أصدقائه بعد أن طرده تورغو. ورأى الملتمس أن تورغو هو في معرض خسارة فرنسا بطرد الأشخاص ذوي الجدارة كافة. وأصغى فولتير إلى الشكوى ثم أجاب: «أنت تشبه تلك المرأة التي كانت تشتم كولبير كلما قامت بقلي البيض لأن ذلك الوزير فرض ضرائب على البيض».

كانت السيدة سوار تفضل تلك الفلسفة على فلسفة باسكال. وكان فولتير يغادر سريره عصرًا في بعض الأيام، فيأتي إلى الصالون ليقوم بأداء دوره مثل الدمى المتحركة. فتهرع المرأة الغالية إلى ملاقاة معبودها فتلعق يديه، وتظل ممسكة به فتجعله يتكلم. وهذا أمره يسير: فهو لم ينزل إلا لتلك الغاية. أما وأنها واصلت تقبيل يديه، هتف ذات يوم قائلًا: «هاتِ قدمك، أعطني قدمك!»، فأدارت له خدها. فأخذ عليها أنها لم تأتِ إلى فيرني إلا لإفساده. فقالت له إنها لا تخشى سوى شيء واحد وهو أن يصيبه التعب. فقال لها بانحناءة رأس فيها من الغنج ما لا سبيل إلى وصفه: «سيدتي، لقد سمعتك، فذلك بالنسبة إلي مستحيل».

في المساء، كانت السيدة دو فلوريان وأختها الأصغر التي كانت شديدة المرح، تتوجهان إلى غرفته لتتمنيا له ليلة سعيدة. فيلوم بعد ذلك هاتين الحسناوين على قساوة قلبيهما، لأنهما تتركان رجلًا فتيًا جدًا مثله ومليح الوجه، في مرقده وحيدًا.

اكتشفت السيدة سوار في مخدعه، وبتأثر، صورة تمثل عائلة كالا وهي تودع الأب قبل خضوع ذلك الشقي للتعذيب. فأبدت دهشتها من أنه يحتفظ في مكانه الحميم بمثل ذلك المشهد المؤلم. «إيه! يا سيدتي، لقد لبثت منشغلًا إحدى عشرة سنة بتلك الأسرة الشقية وبأسرة سيرفان، وكنت طوال تلك المدة

ألوم نفسي على أصغر ابتسامة تبدر عني، كأنما ارتكبت جريمة». وقال لها ذلك بدرجة من التأثر لم تتمالك نفسها معها إلا وهي تقبل يديه مجددًا. وكان بالقرب من صورة آل كالا صورة أخرى تمثـل إميلي، السيدة دو شاتليه، التي لا نظير لها، والتي لا تُنسى.

أوضح للسيدة سوار أن انتصار التنوير لا يزال غير مضمون، وأن التعصب سائد في كل مكان، وأنه لما يُقهَر بعد، ما لم نقل إن قهره متعذّر. وأوضح لها أن التربية المتعصبة هي التي تديم التعصب، ومن هنا انطلق في الهجوم على المسيح أمام السيدة سوار الرقيقة التي عارضته. فبدا أنه استمتع بذلك وتأثـر. وتكرر السيدة سوار كلامها. لقد قال لي بنظرة وبسمة ملؤهما المكر العذب: «إيه! بلى، بلى، لقد أحسن معاملتكن، أنتن النساء، حتى صار من واجبكن الدفاع عنه دائمًا».

كانا في بعض الأحيان يتناولان في أحاديثهما الأصدقاء المشتركين: سان لامبير فغمراه بالأزاهير؛ لا هارب الذي عساه ينعم بالسلام؛ كوندورسيه الذي كللاه بالغار وأحرقا من حوله البخور؛ الأمر نفسه مع دالامبير؛ مرمونتيل الذي نال حصته من أزهار البنفسج؛ وأخيرًا ريشوليو! لكن ريشوليو عارض دخول أصدقاء للسيدة سوار وفولتير إلى الأكاديمية. وإنها لجريمة! لذا تناوله الاثنان باللوم على حياته المنحلة، هو العجوز الماجن. أما لو أنه صوّت لمصلحة الأصدقاء، لما أخذا عليه بلوغه سن الشيخوخة بطيش مرحلة الشباب. ثم تلت بيتين لفولتير:

«من لا يعيش روح سنّه
ينَل من سنّه كل المصائب».

فتنهد قائلًا: «أواه! يا سيدتي، إنما ذلك صحيح». بيد أن ريشوليو لم يبدُ عليه قط أنه يعاني بسبب بقاء نفسه خضراء خارج موسمها.

كانت السيدة سوار شديدة التأثـر بالحفاوة البالغة التي يبديها فولتير، وقدرته على التطرق إلى الموضوعات كافة، حتى الأكثر ضحالة، والتي كان يجددها ويجمّلها بكلمة جديدة. فسألته قائلة:

– ماذا أقول لأصدقائنا، حين سيحيطون بي للكلام عنك؟

– قولي لهم إنك وجدتِني في القبر فانتشلتِني من بين الأموات.

وجاء ذات مساء يرفل في مبذل باذخ ويعتمر طاقية جميلة جدًا. فارتفعت صيحة إعجاب من جانب السيدات. وكانت السيدة لوشيه لا تزال هناك. تقول السيدة سولر إنها جاءت لترى تمثال بيغال، وإنها وجدته في ذلك المساء وسيمًا مثل ذلك التمثال. وتقول السيدة لوشيه إنه ارتدى ذلك المبذل كي يُسمِع السيدة سولر بضع كلمات غزلية. وقد تأثرت هذه بها حتى فاضت دموعها. فما عساها فعلت؟ لقد قبّلت يديه وقالت إنها حين وجدت نفسها إزاء التمثال طبعت عليه قبلة. قهقه فولتير وهو يفيض غبطة: «قولي إنه بادلك إياها؟». ثم أضاف: «كلا؟... لكنه كان راغبًا فيها؟».

ذُهل سولتيكوف لرؤية فولتير محبوبًا على ذلك النحو. ولما هنأه على ذلك، همس فولتير في أذنه قائلًا: «إنما ذلك عائد إلى سني عمري الثمانين».

لاحظت السيدة سوار أن السيدة دوني ما كانت تحيط فولتير بكل الحنان الذي من شأنها هي أن تحيطه به في ما لو أنها مكانها. فحين يتشكى من أنه مرهق، وحين يريد التوجه إلى غرفته، كانت ابنة شقيقته تعامله بشراسة. واهتزت مشاعر السيدة سوار حيال ذلك: «إنهم تقريبًا لا يريدون أبدًا أن يصدقوا أنه يتألـم، ويبدو أنهم يريدون منعه من الشكوى». لكن السيدة دوني تكيفت منذ زمن طويل مع العجوز المتوجع، وذلك ما ليس للسيدة سوار الرقيقة أن تعرفه... وما كان لأحد قط أن يحول بين فولتير والشكوى، لأنه ما لم يتشكَّ من أمراضه الافتراضية، فإنه سيقع مريضًا حقًا. فما إن ينتهي من التوجع لتلف صحته، ويستنجد بالموت ويلفظ النفس قبل الأخير، حتى ينطلق وهو على خير ما يرام. وكتبت السيدة سوار تقول: «ليس في حياته من فراغ». ولكم كان ذلك القول صحيحًا!

قص عليها كيف زاره ذات يوم سيغييه، رئيس المحكمة العليا. «هنا يا سيدتي، وفي هذا المكان حيث أنت تجلسين، هدّدني سيغييه هذا بأن يبلغ عني المحكمة العليا التي سوف تحرقني إذا ما تم القبض علي». فصاحت وقد شعرَت بالهول:

- سيدي! إنهم لا يجرؤون على فعل ذلك.

- ومن يقدر أن يمنعهم؟

- عبقريتك وسنّك والخير الذي قدمته للبشرية، وصرخة أوروبا وكل ما هنالك من نزاهة، وإن كل ما قمت به من عمل إنساني ومن تسامح سوف يهب

واقفًا بجانبك.

فقال وهو يهز كتفيه:

- سوف يأتون ليشاهدوني وأنا أحترق، وقد يقولون مساء: إنه لأمر مؤسف في أي حال.

سمعْنا الناس يصفقون لجلاد لابار فتبدو رواية فولتير قابلة للتصديق. ولسوف يتوجه الباريسيون، من بعد ذلك الحديث بثماني عشرة سنة، ليصفقوا للمقصلة. مع ذلك كانت السيدة سوار الطيبة مضطربة كل الاضطراب. فهتفت المرأة الغالية، متمثلة مسبقًا شارلوت كوردي[68]: «كلا، لن أتحمل ذلك أبدًا، ولسوف أتوجه بنفسي لأطعن الجلاد بخنجر». وما كان في وسع فولتير أن يظل متبلد الإحساس حيال تلك الحماسة الجديرة بخشبة مسرح، فقبّل يدها (تلك التي ستحمل الخنجر من دون شك) وقال لها: «إنما أنت بنتٌ حبيبة، بلى، وإني لأعتمد عليك».

ومن نافلة القول أن نذكر البكاء الكثير لدى الفراق. وقالت السيدة سوار الطيبة إن العناق كان صدرًا لصدر. وقد جرى ألف اعتراض واعتراض. وكان المشهد على درجة من «الحساسية» الناجحة من كل جهة.

صوت ناقوس مغاير تمامًا

لم تكن السيدة دو جنلي من ذلك الطبع. كانت تُعَد امرأة عالمة لكنها كانت على وجه الخصوص مربية، أو كانت تحمل في الأقل أفكارًا وتعتنق مبادئ تربوية، فكانت تؤكدها تأكيدًا قاطعًا كما كانت تكره فولتير. وعلى الرغم من ذلك كله، كانت لديها مسحة المجتمع الراقي. ولولا أنها تميزت بالتربية التي اكتسبتها من وسطها ومن عصرها، لكانت غير محتملة على الرغم من مزاياها الراسخة. ولقد أوكل إليها دوق أورليان أمر تربية ابنه، فكانت إذن معلمة من سيحمل في المستقبل اسم لوي فيليب.

---

(68) شابة فرنسية اغتالت جان مارا (J. Marat)، وهو من قادة الثورة الفرنسية، فحوكمت وأعدِمت على المقصلة. (المترجم)

قامت بثلاث زيارات إلى فيرني أو أربع، بمناسبة إقامتها في جنيف. ووجهت رسالة إطراء إلى فولتير في سبيل الحصول على دعوة منه، مع مواصلة إسماعه أنها لن تقوم حياله بأي تنازل. فهل طلب إليها ذلك؟ وحرصت، في سبيل إظهار استقلاليتها التي ما كان فولتير يتهددها بشيء، على تأريخ رسالتها مستخدمة اسم آب (Août)، وليس أغسطس (Auguste) على نحو ما كان يرغب فولتير. وانتظرت أن يلفت نظرها إلى ذلك، بل أعدّت الرد على الملاحظة. بيد أنه لم يبدِ أي ملاحظة. واستقبلها، خلافًا لذلك، بلطافة خالصة فدعاها إلى الغداء. وخلع مبذله وطاقيته وجاء بملابسه. ولقد أعدت مخططًا للحوار بينها وبينه، وهي تعرف ما سوف تقول ولا تريد أن تقول سوى ذلك... وحرصت على عدم الظهور أمام البطريرك منفعلة أو مهتمة. وجعلت رسامًا ألمانيًا هو السيد أوت (Ott)، يرافقها، فكان من جانبه يفيض شغفًا، ما تسبب بإزعاج جلي لمربية أمراء أورليان. انشغلت انشغالًا فائقًا بتحضير الدرس الذي سوف تلقيه على مضيفها حتى إنها نسيت أن تنظر إلى ساعة الحائط لديها، فوصلت إلى فيرني قبل الموعد بساعة، فأُخِذت ربة البيت السيدة دوني على حين غرة، فانتدبت ضيفة عندها اسمها السيدة سان جوليان لتستقبل السيدة جنلي، ورجتها أن تقوم بتسليتها ريثما يحين الموعد. فاقتادت السيدة سان جوليان القصيرة القامة، وهي بتنورة بسيطة وحذاء الصباح الأملس، تلك الضيفة الشبيهة بالسيدة مانتونون، فجعلتها تهرول تحت خمائل الحديقة الكبرى. ولسوء حظ هذه السيدة، كانت الخمائل مقصوصة على مستوى منخفض بالنسبة إلى سيدة فارعة الطول ترتدي فستان البلاط الملكي، وتعلو رأسها رياش وأزهار ارتفاعها قدمان. فكانت تلك «السقالة» تعلق بالغصينات، فتتأرجح وتتخلخل وترغم السيدة جنلي على المشي مقوسة الظهر ونصف مقرفصة، فكانت المسألة باختصار تعذيبًا حقيقيًا ما كانت سان جوليان القصيرة، والمنشغلة بهذرها، تخمّن حصوله.

أخيرًا حانت الساعة. فجرت إعادة تنسيق التسريحة، وغرز الدبابيس في الكشاكش المقتلعة، وتجمع الصحب في الصالون وسط ذلك الجو الطقسي الذي كان فولتير يسبغه بطيب خاطر على استقباله. قبّل يد السيدة جنلي باللطافة المعهودة، وأحاطها بالإطراء، فكسبها إلى صفه كما حاله مع الجميع. لكن جو السحر سوف يتعكر بعد قليل؛ ففيما كانوا يتأملون لوحة تمثل «السيدة العذراء

والطفل بسوء»، ساق فولتير بضع ملاحظات غير لائقة البتة عن عذرية الأم وربوبية الطفل.

فأدارت السيدة جنلي له ظهرها على نحو مباغت. ولقد سعى بنفسه إلى تلك النتيجة. وهكذا فإن الصورة التي رسمتها له أحسّت بها عبر ذلك الانطباع السيء. فقالت عنه إنه طلَل إنسان، وإنه يلبس على الطريقة القوطية، وإن صوته يتأرجح ما بين الأجش الخارج من القبر، والحاد جدًا ذي التأثير المنفر، فلا يقبل أي تفنيد. وأضافت أخيرًا: إن تعوّده على العزلة جعله يفقد عادة التواصل مع المجتمع! وهنا يبلغ سوء النية الذروة: الكلام على العزلة في فيرني! لكن كل من تعدّه أوروبا متميزًا مر في فيرني فأقام فيها؛ فالغرف كانت مشغولة على الدوام، والمائدة مكتملة العدد دائمًا، وكذلك حال المسرح. أخيرًا، وبشأن مخالطة المجتمع، فإننا نعرف أن أعداء فولتير أنفسهم يعترفون له بتلك الكياسة الآسرة، والتي ربما كانت لديه وراثة، فأغناها وزادها رهافة بمخالطة المجتمع الراقي.

ذلكم هو فولتير على الدوام؛ فنراه تارة عبر الطيبة القصوى للسيدة سوار، وتارة أخرى عبر سوء النية الأقصى للسيدة جنلي. يبقى أن هذه الأخيرة، كما حال تلك، استسلمت أمام نظرته. فهاتان العينان سحرتاها: «كانتا في الواقع أكثر العيون ذكاء من بين كل ما رأيت، لكن فيهما، في الوقت عينه، شيئًا ما مخمليًا، وعذوبة يصعب التعبير عنها: كانت روح زايير كلها كامنة في هاتين العينين». واستسلمت أيضًا حيال ضخامة الأعمال التي قام بها فولتير في البلد، والتي اكتشفتها في أثناء جولة قامت بها فكتبت تقول: «إنما عظمته ماثلة هناك، في كتبه، حيث يقع المرء أينما كان على طيبة ذكية فلا يسعه أن يقتنع بأن اليد التي كتبت كثيرًا من الزندقات قامت بأشياء على تلك الدرجة من السمو والحكمة. وكان يصحب الزوار كافة إلى القرية وبكل أريحية؛ فيتكلم عنها ببساطة وطيبة، فيعلمك بكل ما صنع لكن دونما غرور، ولست أعرف أحدًا قادرًا على القيام بمثل ذلك».

وإنها لعلى حق تمامًا حول تلك النقطة، فهي في الختام، لم تفقه الشيء الكثير من أفكار مضيفها. وإنها لتتحدث عنه مثل حديث بالزاك في ما بعد عن طبيب في الريف، أي عن «امرئ صالح» في عهد الإصلاح. وهي تنسى بكل بساطة أنه فولتير صاحب كتاب الرسائل الإنكليزية، وكتاب الرسائل فقط، والمعجم الفلسفي،

ويحث في الأخلاق، وأنه مؤلف كانديد. إنه أعظم كاتب في عصر الأنوار. لقد قامت بوصف مساعدة اجتماعية مرموقة. فهي تتمتع سلفًا بـ «الروح الطيبة» البرجوازية للقرن التالي، لكنها متخلفة جدًا بالنسبة إلى عصر الأنوار.

حكاية صورة رديئة

تتعاقب الزيارات ولا تتشابه(69). تلقى فولتير في آب/ أغسطس 1776 ما يشبه إنذارًا نهائيًا: «سيدي، لدي رغبة لامتناهية في الإعراب لك عن تقديري. قد تكون مريضًا، وذلك ما أخشاه. وأعرف أيضًا أنه ينبغي في الأغلب أن تكون كذلك، وهذا ما لا أريد في هذا الوقت. أنا نبيل عادي من بطانة الملك، وأنت تعرف أكثر من سواك أنه ما من أحد يغلق بابه في وجهنا. فأنا أطالب إذًا بكل الامتياز لجعل بابكم مفتوحًا على مصراعيه». ويوقع الكاتب باسم فيفان دونون، تلت التوقيع ألقابه وإنجازاته وأسفاره. وعلى الرغم من تلك الثقة ذات النغمة النشاز، فُتح له الباب: ثمة أمل في التسلية. ورد عليه فولتير قائلًا: «السيد رفيقي المحترم، لا يمكن فقط أن أكون مريضًا، بل أنا كذلك منذ حوالى ثمانين عامًا. لكن رسالتك، حيًا كنتُ أم ميتًا، تمنحني رغبة قصوى للانتفاع بأفضالك. وأنا لا أتغدى أبدًا، بل أتعشى قليلًا، فأنتظرك إذًا على العشاء في مغارتي».

كان فيفان دونون هذا بعيدًا عن التحفظ على نحو لا مثيل له، فهو ظل يقف على طريق الملك وقتًا طويلًا، ما جعل لويس الخامس عشر يقول له ذات يوم: «ماذا تريد؟ - أريد أن أراكم، يا صاحب الجلالة!»، وانكسر طوق الجليد. كان على جانب من الذكاء، وذا وسامة بيّنة جدًا، وكان يتوسط بين السيدة دو بومبادور، والفنانات اللواتي تقوم بتشغيلهن. أخيرًا استقر به المقام في فرساي. وحين بلغ الثانية والعشرين سُمّي نبيلًا من بطانة الملك، بل كُلِّف بمهمة إلى بطرسبرغ، التي كان عائدًا منها حين كتب تلك الرسالة إلى فولتير. وما كان للثورة أن تعكر عليه صفو حياته: فقد صار برتبة بارون في الإمبراطورية، وهو رجل لا تجعله الأوضاع يضل طريقه.

---

(69) يقول مثل فرنسي: تتعاقب الأيام ولا تتشابه، بمعنى: لا يذهب يوم ويأتي مثله. (المترجم)

قام بتسلية فولتير ومن معه بقصة أسفاره والشائعات والأقاويل عن فرساي وبطرسبرغ. ثم طلب إلى فولتير أن يعطيه واحدة من صوره. لم يكن لدى فولتير من صورة، فردّ عليه كما حاله دومًا في الرد على الذين يتوجهون إليه بالطلب نفسه: «قوموا بنسخ تمثالي النصفي في سيفر». وما كان فولتير يحب أي صورة من صوره، وكان يكره أن يقوم أحد بتصويره. فهو لا يتخذ الوضعية الملائمة، ويعرف أنه «غير قابل للتصوير»، والحق أنه لم يكن حريصًا، وهو يرى نفسه على حقيقتها، على أداء دور نرجسي. وعلينا أن نعرف أيضًا أن فولتير لم يكن شديد الرهافة حيال الفنون، فكان سيئ الإنشاد ولم يتمتع بأذن موسيقية. كان في التصوير يحب «الموضوعات»، ويحب في النحت «النبالة» و«التماثل»، وذلك ما يطلِق عليه اسم «الطبيعي». أما في العمارة، فهو متأثر بذوق عصره الواضح والمتناغم، بل متقدم على عصره لأنه يفضل طراز لويس السادس عشر الجامد والقاسي الذي يستبق طراز عصر الإمبراطورية بعشرين عامًا، بل أضحى كذلك. مهما يكن من أمر، فإن دونون هذا أحس بوخزة الرفض وارتحل عن فيرني. وبعد أشهر عدة، تلقى فولتير لوحة تمثله. لقد صنع دونون، اعتمادًا على ذاكرته، صورة لفولتير: إنها شيء رهيب! فهي تمثل فولتير على نحو أسوأ. ولو رأتها السيدة الرقيقة سوار لبكت لمشهدها. فهل كانت ستطعن جلادَ بطريركها الغالي بخنجر؟ وجأرت فيرني كلها بالصراخ: فالإهانة لحقت بصنمها المعبود. وانتظر فولتير أن تهدأ ثورة سخطه هو كي يقوم بالرد. لقد شكر دونون وأرسل إليه علبة صغيرة من خشب البقس صنعها حرفي ماهر من المناطق الجبلية، وزينها بصورة لفولتير. «اسمح لي يا سيدي بأن أبعث إليك بعلبة صغيرة من خشب البقس، مبطنة بالصدف ومصنوعة في قرانا. وسوف ترى فيها وضعية لائقة وشبهًا تامًّا. وإنه لمن الشقاء الكبير البحث عن الشاذ والهروب من الطبيعي في أي شأنٍ كان». لقد كان ذلك اقتراحًا على النبيل في بطانة الملك، ليتخذ من رجل جبلي قدوة. فكان أن جن جنون ذلك النبيل فردّ على فولتير بصفاقة، وعاد فولتير يرجوه ليصلح الصورة، بل أرسل إليه أيضًا نصائح نحات من روما. لكن دونون لم يعبأ بها، وقد عمل على إعادة نسخ الصورة الكاريكاتورية ونشرها في باريس حيث صاروا يسخرون لرؤية فولتير «دميمًا كأصحاب المعاصي». تلك هي إذًا ألوان اللياقة التي كان يقابَل بها أحيانًا من ضيوف أحسن وفادتهم كثيرًا.

كان يجري أيضًا في ذلك العام، 1776، تداول نسخة من صوره وجدها صادمة: «فطور فولتير». كانت الصورة تمثـله جالسًا في سريره، هزيلًا ومتشنج التقاطيع، وبدت السيدة دوني سمينة إلى جانبه، بل مستديرة ومنتفخة. لقد جعله ذلك يتأوه. لكن، لحسن الحظ، كان صديقه الحرفي في الجبل يصنع له تماثيل صغيرة من العاج والبقس والجبس، فيجدها تلائم ذوقه تمامًا، بل ذوق أناس ذوي اعتبار أيضًا، لأن تلك التماثيل النصفية الصغيرة كانت تباع في البعيد لكل من كاترين الثانية والأمير بونياتوفسكي وملك بولونيا، الذين يشترونها بالعشرات.

زائر من العيار السليم

استقبل في العام نفسه رجلًا إنكليزيًا هو المستر شرلوك، وهو كاهن لدى الكونت دو بريستول. ولئن لم يترك لنا المستر شرلوك تفصيل تفكراته عن فولتير، مثلما فعلت السيدة جنلي، فقد نقل إلينا ردود فولتير بحرفيتها. فكلما خرج من القصر، دخل إلى أول نزل ليدوّن أقوال البطريرك التي ما زالت ترن في أذنيه. ولقد رآه أول مرة متكئًا على ذراع ابن أخته السيد هورنوا. كان فولتير منهكًا، وصوته شبه منطفئ، إلا أنه كان يعرض على زائريه القيام بجولة في الحديقة. ولفت نظره إلى أنها: «على الطريقة الإنكليزية، ولسوف تروقك، فانا أول من أدخل هذا النمط إلى فرنسا». لكنه أضاف أن الفرنسيين قاموا بتصغير أبعادها: «إنهم يضعون ثلاثين فدانًا في ثلاثة». ثم تحدثا عن شكسبير، فقال فولتير إنه تُرجِم ترجمة رديئة. ثم جاء دور الحديث عن إسبانيا: «إنها بلاد لا نعرف عنها أكثر مما نعرف عن الأجزاء الأكثر توحشًا في أفريقيا». وعلينا أن نقول إن محاكم التفتيش تلاحق مؤلفاته في إسبانيا، وإنه يعد تلك البلاد أكثر تخلفًا من إيطاليا وأشد خطورة منها. فضلًا عن أن ما من تجاذب يمكن أن يقوم بين شبه جزيرة إيبيريا وبينه؛ فأوروبا، بالنسبة إليه، هي باريس ولندن وأمستردام وبروكسل وبرلين وفيينا. وأضاف قائلًا: «ليست تلك البلاد جديرة بأن تُعرَف. ولئن رغب امرؤ في السفر إليها، فينبغي أن يحمل سريره معه. وحين يدخل مدينة ما، فعليه الذهاب إلى أحد الشوارع لشراء زجاجة من النبيذ، وإلى شارع آخر لشراء قطعة من لحم البغال (!)، وأن يقع على مائدة في شارع ثالث ليتناول هناك عشاءه. وكان سيد فرنسي يعبر بمبلونة فبعث يطلب سيخ شواء، فلم يكن في المدينة سوى واحد، وكان معارًا لأحد الأعراس».

لدى عبور قرية فيرني، مال فولتير نحو زائره قائلًا: «أجل، نحن أحرار هنا. اقتطع زاوية صغيرة من الأرض فنصبح حينئذٍ خارج فرنسا. ولقد طلبت امتيازًا لأبنائي هنا فمنحني الملك كل ما طلبت وأعلن بلاد جيكس مُعفاة من ضرائب الجباة العامين كافة، حتى إن الملح الذي كان يباع الرطل منه بعشرة فلوس سابقًا، صار حاليًا بأربعة. وليس من شيء آخر أطلبه باستثناء العيش».

كان ذلك كله صحيحًا كل الصحة؛ فقد انتزع بلاد جيكس من جشع الجباة العامين. ولم تكن المسألة بالأمر اليسير لأن الجباية العامة كانت تمثل قوة يُحسَب حسابها في العهد السابق. وبعد آلاف المساعي، نجح في تخليص فلاحيه التعساء من «النهابين» وفق قوله، في مقابل دفع نوع من الاشتراك قيمته ثلاثون ألف جنيه في السنة. أما المنفّذ الحقيقي لتلك المكرمة فهو تورغو، مدعومًا من السيد ترودان. فلقد توجه فولتير بنفسه إلى حكومة بورغونيا لتثبيت الإجراء من أجل تطبيق الإعفاء من الضرائب. ولدى عودته، هب السكان جميعًا لاستقبال فاعل الخير. فكان البرجوازيون بخيولهم يحيطون العربة، والفلاحون مشاة يلوحون بالأغصان وينثرون على العربة الزهور وأوراق الغار. وأوشك هو والسيدة دوني أن يموتا اختناقًا تحت العناق. فكان يبكي فرحًا ويقول للقرويين «يا أبنائي».

كان من شأن ذلك النجاح أن يتسبب له بمؤامرة.

إن السيد فابري، وكيل الموفد إلى جيكس، والذي كان حتى ذلك الحين نزيهًا ومخلصًا، قد ارتاع من تلك الشعبية، فظن أنه سوف يفقد منصبه، وأن فولتير سوف يستولي على أقسام الإدارة كافة. وثمة موظفون آخرون راودتهم الوساوس نفسها؛ فالسيد فولتير أفرط، وأفرط كثيرًا، في فعل الخير. ولقد وجد هؤلاء حلفاء لهم بين الذين كانوا يرون أن فولتير لا يقوم بما يكفي، وأنه فائق الثراء. وسعت تلك الجمعية من الجرذان وراء صوت مسموع، فوجدوا ضالتهم في الرئيس دو بروس. أقنعوه بكل يسر بأن فولتير يؤسس لطغيان حقيقي في بلاد جيكس، وأن الناس يعيشون مرتاعين خوفًا من نفوذ سيدهم لدى الوزراء، وأنه يستهتر بسلطة الملك فيقضي على سلطة ممثلي التاج بوضع نفسه مكانهم. وهكذا يظن من يصغي إليهم أن سكان فيرني غارقون في البؤس والرعب.

اغتاظ الرئيس دو بروس، ولا سيما أنه ما زال تحت تأثير خسارته في الانتخابات الأخيرة، فتوجه قاصدًا فرساي ليتوسل إلى الوزير ماليزيرب عسى أن يشل حركة فولتير «بالوسائل كافة التي تمنحه إياها السلطة». فقام السيد ماليزيرب بكل ما يتوجب على رئيس محكمة أن يقوم به، قبل أن يدين متهمًا، برفع شكوى دو بروس الذكي والحقود. وما كان من سفير فرنسا في جنيف، السيد هينان، سوى توجيه تقرير على درجة من الإطراء والتمجيد بسيد فيرني، حتى إن السيد ماليزيرب لم يتخذ أي إجراء بحقه. غير أن ذلك لم يكن كافيًا؛ إذ كان ينبغي عليه توجيه تهنئة إلى فولتير.

ولنواصل زيارة فيرني بصحبة شرلوك الرائع. ها هو في المكتبة أمام رف الإنكليز. الكتّـاب عديدون ومتألقون، وبعضهم حظي بكلمة عابرة. «لورد تشسترفيلد؟ لديه الكثير من خفة الظل. لورد هيرفي؟ لديه الكثير من الألق، لكن صلابته أكبر. بولنبروك؟ يقول إنه ليس لديكم من تراجيديا جيدة. مسرحية كاتون لأديسون، مكتوبة كتابة حسنة وبكثير من الرهافة. وثمة بون شاسع ما بين العبقرية والذوق. فشكسبير عبقري لكنه بلا ذوق على الإطلاق. لقد أساء إلى ذوق الأمة طوال مئتي عام، وإن ما يمثل ذوق الأمة مئتي عام سيدوم ألفين؛ فذلك الذوق يغدو ديانة. وفي تلك البلاد متعصبون كُثُر لهذا المؤلف».

شرلوك: هل عرفتَ لورد بولنبروك معرفة شخصية؟

فولتير: أجل، كان ذا وجه مهيب، وصوت رزين أيضًا. وفي مؤلفاته كثير من الورق وقليل من الثمر.

فأي صحافي رائع كان لفولتير أن يكون! ثم شاهدا القرآن، فقال فولتير: «إن قراءته نافعة». ولوحظت في الواقع علامات كثيرة بين الصفحات.

فولتير: انظر صورة ريتشارد الثالث ترَ أنه كان شابًا وسيمًا.

شرلوك: إنك قمتَ ببناء كنيسة؟

فولتير: هذا صحيح، وهي الوحيدة المُقامَة على اسم الله في الكون كله؛ فلديك كنائس باسم القديسة جنفياف، والقديس بولس، لكن ما من واحدة على اسم الله.

شرلوك: الإنكليز يفضلون كورناي على راسين.

فولتير: ذلك أن الإنكليز لا يعرفون اللغة الفرنسية معرفة تكفي لجعلهم يشعرون بجمال لغة راسين وموسيقى نظمه الشعري.

ثم قام بتلاعب لفظي حول جناس بين كلمتين: شير (chère) وتعني طعام، وشير (chair) وتعني لحم أو بشرة.

شرلوك: وكيف تجد الطعام الإنكليزي؟

فولتير: طازج جدًا وشديد البياض.

طرب صاحب المقابلة لأن السيد العجوز يستخدم الألفاظ الجريئة وهو في الثالثة والثمانين.

شرلوك: ولغتهم؟

فولتير: حيوية وواضحة وبربرية؛ فهي الأمة الوحيدة في العالم التي تلفظ حرف «A» مثل «E».

ثم وثب صوب سويفت وروى طرفة عن الإيرلندي الشهير. إن ميليدي كارترايت، زوجة نائب ملك إيرلندا آنذاك، قالت لسويفت: «إن هواء هذا البلد منعش جدًا. فارتمى سويفت على قدميها متوسلًا: رحماك يا سيدتي، لا تقولي هذا في إنكلترا، لأنهم سيفرضون عليه ضريبة». ثم سأله فولتير بدوره: «وكيف وجدتَ الفرنسيين؟».

شرلوك: لطفاء وأذكياء، ولم أجد لديهم سوى عيب واحد: إنهم يُفرِطون في تقليد الإنكليز.

فولتير: ماذا، أنت إذًا تجدنا جديرين بأن نكون متميزين؟

شرلوك: أجل، يا سيدي.

فولتير: وأنا أيضًا. غير أننا نغبطكم على حكومتكم.

شرلوك: لقد وجدت الفرنسيين أحرارًا أكثر مما كنت أظن.

فولتير: أجل، فالفرنسي حر حين يتعلق الأمر بالتجول، وبتناول ما يروقه من طعام، وبأن يجلس في كنبة مريحة. أما بشأن الضرائب!... آه يا سيدي، لكَم أنتم

سعداء، فبوسعكم القيام بكل شيء. أما نحن فمولودون في العبودية. ولا نستطيع حتى أن نموت كما نشاء، فلا بد من وجود كاهن...

كان حب إنكلترا متمكنًا منه كل التمكن. «الإنكليز يبيعون أنفسهم، وذلك برهان على أنهم ذوو قيمة، أما نحن الفرنسيين فلا نبيع أنفسنا. ذلك أننا، وفقَ ما يبدو، لا نساوي شيئًا».

الأكيد أن شرلوك هذا كان غاية في الرهافة، لأنه حرص على عدم السقوط في المزاودة حول ما يرى فولتير في الفرنسيين من سوء. ولو ارتأى أن يضيف شيئًا، لتلقى على الأرجح رشقة من الملاحظات لتذكره بأن الفرنسيين يستمتعون بتمزيق أنفسهم بأنفسهم، وبأنهم يستخدمون كل أشكال الفظاظة للتشهير بما هم عليه، لكنه عمل يريدون القيام به وحدهم لأنهم يُظهرون فيه موهبة لا تجارى. وفي ذلك المجال، يظهر فولتير أنه من هذه الأمة الفيلش (Welche)، التي طالما سخر منها.

شرلوك: ما رأيك بإيلوييز الجديدة؟

فولتير: سوف يكف الناس عن قراءتها في غضون عشرين عامًا.

شرلوك: أحسنت الآنسة لانكلو كتابة رسائلها، أليس كذلك؟

فولتير: إنها لم تكتب رسالة واحدة، بل هو ذلك الشقي كريبيون.

أما الإيطاليون، فقال فولتير عنهم «إنهم أمة من باعة الرثاث، وإن إيطاليا خزانة ملابس يقع المرء فيها على ثياب عتيقة فُصّلت بذوق رفيع». ثم أضاف: «يبقى أن نعرف من هم الرعايا الأكثر خسة من بين رعايا السلطان العثماني أو البابا».

ثم جرت العودة إلى الإنكليز: «حين أرى إنكليزيًا ماكرًا ويحب التقدم، أقول في نفسي: ذلكم نورماندي جاء مع غليوم الفاتح. وحين أرى رجلًا رقيقًا ومهذبًا أقول: ذلكم جاء مع سلالة بلانتاجونيه، وإن كان فظًا، فدانماركي. ذلك أن طبيعتكم، مثلها كمثل لغتكم، خليط ملتبس من آخرين كثيرين».

انتقلا بعد الغداء إلى صالون فيه كثير من صور الأشخاص والتماثيل النصفية. فأبديا إعجابهما بتمثال دوقة كوفنتري، ثم اقتاد فولتير ضيفه من ذراعه ليتوقف أمام تمثال آخر قائلًا: «هل تعرف تمثال من هذا؟ إنه أعظم عبقري على الإطلاق. وحين يتجمع عباقرة الكون كافة، فهو الذي سوف يقود الجماعة». إنه نيوتن.

لاحظ شرلوك عند باب الصالون شعار عائلة أرويه فولتير «بلونه الأزرق السماوي مع ثلاثة ألسنة لهب ذهبية»، وهي تُشاهَد أيضًا على الأواني والأطباق الفضية، فيما كانت أطباق الحلوى قرمزية اللون. كانت الأطباق تتبدل مرتين مع كل وجبة طعام، بوجود خمسة من الخدم، ثلاثة منهم بملابس موحدة. ولا يُقبَل أي خادم غريب في أثناء تقديم الطعام.

ومن ملاحظات شرلوك: «كان ينتعل، في اليومين اللذين رأيته فيهما، خفّين أبيضَين من الجوخ الأبيض وجوارب صوفية بيضاء، وسروالًا أحمر، وصدريتين ومبذلًا، وسترة من الجوخ الأزرق تزينها أزهار صفراء مبطنة بالأصفر. وكان يضع باروكة بضفيرة طويلة وعقدتين تعلوها طاقية نوم حريرية موشاة بالذهب والفضة».

لم يكن ذلك كله مجموعة ثياب رثة لرجل مريض وكئيب. ولقد حمل شرلوك من زيارته هذه الملاحظة الثاقبة التالية: «إن روح ذلك الرجل روح خارقة؛ فلقد أراد أن يكون رجل أدب شموليًا، كما أراد أن يكون غنيًا وأن يكون نبيلًا، وقد نجح في ذلك كله».

فراشة فيلسوفة ويمامةٌ أنقذها من العزلة ماكر من باريس

سبق لنا التعرف إلى السيدة دو سان جوليان التي جعلت السيدة جنلي تهرول وراءها تحت الخمائل المنخفضة في فيرني. كانت لها مكانة متميزة في صداقتها لفولتير. وحتى لو لم تقم بشيء، فهو سيحبّها لأنها من معدن جميع الأشخاص الذين سحروا فولتير طوال حياته. فكان يطلق عليها لقب «الفراشة الفيلسوفة»، لأنها أقل وزنًا من السيدة جنلي الثقيلة. كانت شديدة الحيوية ومرحة، ورياضية لا تعرف التعب. لقد ولدت في عائلة لا تور دوبان (La Tour du Pin)، وهي ابنة شقيق مركيز لاتور دوبان غوفرنيه الذي تزوّج من سوزان دو ليفري (Suzanne de Livry)، يوم كانت تعيش بلا هدف في إحدى حانات لندن. كان اسمها ديانا[70] (Diane)، ولم تكن التسمية بلا سبب؛ فهي تمارس الصيد دونما توقف وعلى نحو مدهش، فترمي بدقة فائقة، وتمتطي الخيل أيامًا بطولها، ثم تعود إلى فيرني بعد جولاتها نضرة ونشيطة، تشع صحة وذكاء. كان فولتير يحبها حبًا جمًّا، فهي كانت تقرأ كثيرًا

---

(70) هي ربة الصيد عند الرومان. (المترجم)

فتجيد التطرق إلى أي موضوع من الموضوعات التي تروّج لها كتبُ العصر. وقد وضعت في تصرف فولتير أصدقاءها في البلاط كافة. وكانت مساعدتها له مجدية، ولا سيما في قضية الضرائب. وحين أقيم الاحتفال الكبير في فيرني احتفاء بذلك التحرر، أوعز فولتير بصك ميدالية ذهبية تحمل صورة تورغو. وقد كان من شأن تلك الميدالية أن تكون مكافأة لأفضل رامٍ في بلاد جيكس. كان العمال الذين استقدمهم فولتير من جنيف يحبون الرماية ويمتازون بها. ومع ذلك فإن «الفراشة» هي التي فازت بالميدالية؛ فقدمها العمال إليها باحتفال كبير. وتقدم فولتير نحو «فراشته» فقبّلها قائلًا: «إن هذا الفوز لجدير حقًا بجائزة من الأكاديمية».

باتت تعشق ميداليتها وتحملها في كل مناسبة. ثم سألتها السيدة دو جنلي إن كانت الميدالية من مرتبة أجنبية. وحين علمت بحقيقتها، تحولت إلى حديث آخر. أفٍّ! لقد أوشكَت أن تهتم بالترهات.

وأدت السيدة سانِ جوليان خدمات أخرى في فيرني؛ إذ أوصت بكاهن شاب ذي جدارة ومن أسرة فقيرة، اسمه روف دو فاريكور، آل به المطاف إلى أن يصير أسقف أورليان في عام 1822. وكان في تلك الأسرة أيضًا فتاة اسمها رونيه فيليبرت كُرِّست للدير وتُركت تستنشق الهواء قليلًا قبل انتقالها إلى حياة العزلة. فكانت ترافق أهلها في الزيارات التي يقومان بها إلى فولتير، فتسمع هناك دعابات العجوز الماكر من غير أن يظهر عليها التأثر بها مطلقًا. كانت في الثامنة عشرة، وذات وجه حسن، ومظهر نبيل، وطبيعة محببة، وكان فولتير ينظر إليها باستمتاع كبير. فقرر أن ينتزعها من حبس الدير، وطلب من أهلها أن يوكلوا إليه أمرها. وهكذا أتيح لها أن تلتقي المركيز الشاب دو فيليت. فقد استمتع ذلك الخبيث في بدء الأمر بمظهر البطريرك وهو في حالة افتتان بربيبته. وكتب فيليت يقول: «لا يسعكم أن تتخيلوا مشهدًا أكثر تأثيرًا من رؤية الملاطفات التي كانت تغدقها عليه مساء، وهيئة الاقتناع التي يقبّل بها يدي تلك المربية الجميلة». وبلغ به التأثر حدًّا جعله يطلب الزواج منها.

لكن من عساه يكون فيليت هذا؟

كان فيليت ابن مصرفي فائق الثراء، شعر متأخرًا بالرغبة في أن يصير مركيزًا. وكان من السهولة تحقيق ذلك الطموح انطلاقًا من رقم معين في الدخل. كان

فولتير يستمتع غاية الاستمتاع بالحكاية التي كان الباريسيون يسردونها على مسامع البطريرك حول نفقات مركيز المال: «هل برونوا مركيز؟ أجل.- وفيليت، هل هو مركيز؟ أجل.- وبييفر، هل هو مركيز؟ بلى.- إنهم إذًا ثلاثة؟ - كلا، بل هي حكاية[71] (conte).

كانت أشكال الفجور لدى فيليت مكلفة ولم تكن تنقصها الأناقة ولا معاشرة الأوباش أحيانًا، فكان سيئ الصيت. لكن ذلك لم يحُل دون قيامه بنظم جيد للأشعار وميله نحو فلسفة الأنوار. كان يراسل فولتير الذي وجد رسائله جديرة بردود لبقة.

غادر فيليت باريس متعجلًا على أثر إحدى القضايا؛ فقد كان يتجول ذات يوم بصحبة حسناء أنيقة من السوية العليا، تقاطع دربهما مع حسناء أقل أناقة ومن المرتبة الدنيا، فصاحت به: وداعًا يا فيليت! وعلى الرغم مما تسبب له ذلك من ضيق، فإن كلاً من فيليت و«صاحبته» لم يتوقف عند الواقعة. لكن الأخرى ارتدّت على عقبيها واستثارته استثارة فظة، فنفد صبر فيليت فوجّه إليها ضربة بعصاه. فما كان من «السيدة» التي ثارت لكرامتها إلا أن توجهت بشكواها إلى ضابط سويسري كان يتولى حمايتها، فآل على نفسه أن يبارز فيليت فيشطره شطرين. ثم جرى تحديد موعد. فحضر فيليت قبل الموعد بثلاث ساعات، وانتظر ساعة بطولها فثبت لديه أن خصمه لم يحضر، فسلك الدرب سراعًا إلى فيرني، واستُقبل هنالك استقبالًا لائقًا. إن حياة الفجور لم تفسِد طبيعته، فظل متمدنًا ولطيفًا ومرهف الحس أيضًا. ولقد علمنا من طريقه بانفعال فولتير وغضبه مساء الاحتفال الشعبي الكبير، حين وصل إلى علم الشاعر أنهم ذبحوا حمامتين مدجَّنتين، فطبخوهما وأكلوهما مع الطيور الأخرى. وكان تأوه البطريرك على درجة من الرقة جعلت ذلك الماكر يذرف دمعة على الحمامتين الشهيدتين. كان فولتير يستعير منه ملقط نزع الشعر، فالخصوصية المشتركة بينهما أن كلًا منهما كان أجروديًا، فكانا يستخدمان الملقط بدلًا من موسى الحلاقة، بل كانت تلك تزجية للوقت، فيقوم فولتير بنزع شعر من ذقنه فيما هو يتكلم. ولم يجد ملقطًا في جنيف ولا في ليون، فطلبه من فيليت:

---

(71) هنا أيضًا تلاعب باللفظ الفرنسي بين Comte وهو لقب نبيل رفيع المقام، وconte الذي يعني حكاية. (المترجم)

«أنا أشبه بسكان مستوطناتنا حين لا يعودون قادرين على تدبر أمورهم في أثناء انتظارهم وصول إبَرِ الخياطة والأمشاط من أوروبا. فضلًا عن أن الهدايا الصغيرة تتعهد الصداقة بالرعاية». وقام بينهما بسبب ذلك الملقط شيء من تواطؤ استمتع به العجوز كَحالِهِ مع كل شيء. كان فيليت يميل إلى إشاعة الاعتقاد بأن فولتير، وقد عرف أمه السيدة دو فيليت، هو أبوه. وثمة أشخاص وقعوا في الفخ... ألم يكن فولتير يقول في شبابه إن أباه الحقيقي هو الأباتي دو شاتونوف؟ والتقى فيليت في فيرني الآنسة دو فاريكور، فاكتشف لديها كنوزًا من العذوبة والفضيلة التي لم يقع عليها قط في باريس، فقرر الزواج منها على الفور. وذلك ما حصل بعد ثلاثة أشهر.

«سوف أقترن في قصر فيرني بآنسة فتية هي ربيبة السيد دو فولتير. أما البائنة التي سوف تأتيني بها فوجهٌ مشرق وقامة هيفاء وقلب نديّ وروح ممتعة. ولقد فضلت ذلك على مليون فرنك خالص وجدتها في جنيف. وكان من شأن آباء الكنيسة أن يخفقوا في هدايتي. أما هي فمنذورة لوالد الكبوشيين الزمني (فولتير)، الذي هو الآن الأب الروحي لأوروبا». وقد تزوج ذلك الماكر من راعيته «راعية جبال الألب» عند منتصف الليل، في كنيسة فولتير الصغيرة. «لقد كان من الممتع، وربما هي حالة فريدة، أن تراه (البطريرك) وقد تقدمه ستة أعمام كلهم إخوة، أحدهم هو فارس سان لوي. وكان اثنان يسندان البطريرك في حلته الجميلة المهداة من إمبراطورة روسيا، فبدا كصاحب قصر كبير يقوم بتزويج أبنائه. وكان أتباعه من الفلاحين يسدّون أبواب الكنيسة ويؤدون له فروض الاحترام التي كان لويس الثاني عشر يتلقاها من رجال بلاطه».

كان فولتير في أداء دوره لا يُبارى. فهو يقوم، مع حسّه بالإخراج المسرحي، بدور لوزينيان العجوز، لا في التراجيديا وإنما في الدراما البرجوازية. فكان المنفعلَ الأول والمزهو بالدور الذي يؤديه. وكتب يقول: «ليس كوخنا في فيرني قائمًا لحبس الفتيات، فلقد زوجنا ثلاثًا: الآنسة كورناي والآنسة دوبوي والآنسة دو فاريكور. هي لا تملك فلسًا واحدًا لكن زوجها صفقة ممتازة. وما همَّ، فالسيد فيليت لديه ريع يصل إلى مئة وخمسين ألف جنيه. أما أنا فألبث وحيدًا في سريري، أهذي شعرًا ونثرًا». ويعود فيضيف: «ويحرص المتزوجون حديثًا، ليلًا ونهارًا، على أن يجعلوا مني فيلسوفًا صغيرًا. فيبعث ذلك فيّ نشاطًا وسط أوجاعي الرهيبة».

توفي فريرون في آذار/ مارس 1776 ولم يكن قد تجاوز السابعة والخمسين. وفاز فولتير بقصب السبق، وقيل إن فريرون توفي نتيجة التخمة؛ إذ علم لدى خروجه من عشاء فاخر جدًا أن جريدته، **العام الأدبي**، حُظِرت. وكانت الضربة قاضية في الوضع الصعب الذي كان فيه. فتوجهت زوجته ترجو الوزير، وحين رجعت وجدت زوجها جثة هامدة.

ما كان فولتير ليقول شيئًا لولا وصول رسالة عجيبة أيقظت حقده. فالرسالة المغفلة تطلب إليه أن يُشفِق على ابنة فريرون التي صارت تعيش في العوَز. فما قام به حيال ابنة كورناي، عليه أن يقوم به حيال ابنة فريرون البريئة. وهب غاضبًا، وارتاب في أن تكون زوجة فريرون هي التي قامت بهذا النوع من الضغط. تلك كانت حيوية خياله، التي تحول الشك سريعًا إلى يقين، فأشاع في كل مكان أن أرملة فريرون تطلب منه العون. «فأجبتُ لو أن فريرون كتب مسرحية السيد (*Le Cid*) أو سينا (*Cinna*)، فسوف أتولى تزويج ابنته دونما عناء».

فكتب أبناء فريرون مقالًا عنيفًا ومهينًا هاجموا فيه ذلك العجوز المجنون الذي تخيل أن عائلة فريرون تقبل منه صدقة. والحق أن الرسالة كانت سيئة جدًا. وأما المرء الذي بلغ الثالثة والثمانين، وبقي طوال عمره يتلقى رسائل مغفلة، فينبغي أن يعلم أن الجواب الوحيد عليها هو إحراقها على الفور. بلى... لكن فولتير يظل فولتير، حتى في الثالثة والثمانين: ملحَ بارود جاهزًا دومًا للاشتعال.

جاءت مناسبة جديدة لتزيد النار سعيرًا: لقد تطاولوا على راسين! وهناك من أشاد بشكسبير! وقد ظهرت ترجمة لشكسبير في عام 1773 زعموا أنها أمينة. لم تكن أكثر أمانة من ترجمة فولتير لكن دونها بقليل. ونحن نرى أن تلك الترجمة التي قام بها لوتورنور، بدت كأنها تُخرِج عُطَيل (أوتيلّو) من حظيرة تريانون[72]. أما الأثر حينذاك، فكان مغايرًا جدًا؛ إذ ساد الاعتقاد بأن بربرية وليام الكبير[73] (Grand Will) كلها وثبت هاجمة عبر غزليات اللغة الفرنسية، وأن إعصارًا اجتاح مسرحنا الكلاسيكي النبيل.

---

(72) اسم قصر في حدائق فرساي. (المترجم)

(73) المقصود هو وليام شكسبير. (المترجم)

شعر فولتير وهو في أعماق عرينه في فيرني بأن طعنة أصابته في الصميم، فاستبد به الغيظ الشديد. كان ذلك السخط عبثيًا ورائعًا: فها نحن نراه وهو في الثالثة والثمانين، على وشك أن يُصاب بنوبة عصبية، لأن شخصًا مجهولًا ارتأى أن يكتب قائلًا إن شكسبير هو أعظم عبقري في المسرح. وكتب إلى دارجنتال قائلًا: «هل قرأتَ المجلدين اللذين كتبهما ذلك البائس، والذي يريد فيهما أن ننظر إلى شكسبير على أنه أنموذج التراجيديا الأوحد؟ لقد أطلق عليه اسم رب المسرح». أليست جريمة موصوفة النيل من هيبة راسين والنيل من هيبة فولتير؟ فهيا بنا إلى القضاء وإلى الجلادين!... «وإنه لَيضَحي لصنمه بالفرنسيين كافة مثلما كانوا في ما مضى يضحون بالخنازير لسيريس[74] (Cérès). وهو لا يتنازل فيأتي إلى ذكر اسم كورناي وراسين. فهل تحملون ما يكفي من حقد عنيف على هذا الغبي الوقح؟ وهل تتحملون تلك الإهانة الموجهة إلى فرنسا؟ فأنت والسيد تيبوفيل مفرطان في اللطافة. وليس في فرنسا كلها ما يكفي من الإهانات لتوجيهها إلى مثل ذلك السافل أو من قبعات الحمير لإلباسه إياها، أو من أعمدة التشهير لربطه إليها[75]. وإن الدم ليغلي في عروقي الهرمة وأنا أقول عليه ما أقول...».

إن ذلك الحقد على شكسبير ليثير دهشتنا، فهو يستولي على فولتير استيلاءً تامًا. وليس وليام الكبير بالنسبة إليه ميتًا شهيرًا، أو صنمًا يكرمونه هنا ويذمونه هناك، كلا، بل هو عدو شخصي: إنه فريرون، أو ديفونتين ما وراء المانش. وهو ماثل، مكافح، لا يُطاق. فليس في نظر فولتير من رجلٍ ميت، فكل من يهمه أمره يقوم فيعود إلى الحياة. ألم يكتشف في حربه الكلاميةً ضد شكسبير، ولكي يبلغ به الغيظ أقصى مداه، أن تلك الشهرة الإضافية لمؤلف هاملت كان على رأسها رجل إيطالي؟! إنه يُدعى باريتي، وقد أظهر حماسة لشكسبير ليصير إنكليزيًا بسرعة أكبر فيستوطن إنكلترا. فما هي الجرائم الأخرى التي لم يرتكبها باريتي هذا؟ لقد ارتكب جرائم أخرى لا تُغتفَر؛ ألم يقل إن فولتير لا يُتقِن الإنكليزية، في حين أن بولنبروك ووالبول وهيوم كانوا مفتونين باللغة الإنكليزية التي يتكلمها فولتير؟! ألم يجرؤ على تأكيد أن فولتير يتكلم الإيطالية بشكل رديء، في حين

(74) هي ربة الطبيعة والمراعي عند الرومان. (المترجم)

(75) عمود كان يُربَط به المتهم أو المحكوم عَلَيه لعرضه أمام الناس. (المترجم)

أن فولتير كان يراسل بتلك اللغة أكاديمية مدينة بولونيا التي صرحت أنها ذُهِلت بأناقة لغة فولتير الإيطالية؟ ذلكم هو الوحش التي تنطح للتمجيد بشكسبير! فها هو صحافي فاشل مجددًا، جعله فولتير يعتمر قبعة حمار هائلة الحجم.

فبماذا سيجابه ذلك المد الشكسبيري؟ بخطاب من ثلاث نقاط سوف يتولى دالامبير قراءته في الأكاديمية. وإنه لأمر مدهش أن تعود موجة المد الكبرى القهقرى أمام ذلك الجدول الصغير من فصاحة دالامبير، والذي نضب حتى النصف في أثناء قراءته. فالواقع أنه سمح لنفسه بحذف معظم الشواهد التي اختارها فولتير من شكسبير بقصد إظهار فظاظة ذلك العبقري البربري، إذ ما كان للأكاديمية أن تتحمل قسوة تلك النصوص. وبناء على ذلك، ارتأى دالامبير أنه، إن كان ملائمًا إعطاءُ الانطباع بوجود «بربرية»، فمن غير اللائق تقديم البرهان على ذلك.

وكان اغتباط في فيرني، على شيء من السذاجة، لنجاح خطاب الهجاء. وهكذا كانوا يظنون أن وليام الكبير، الذي جرى توبيخه على ذلك النحو، سوف يقعد هادئًا في جزيرته، أما الأغبياء الذين تجاسروا فأعجبوا به، فسوف يشعرون بعد اليوم بالمذلة بسبب غلطهم، فيرجعون إلى راسين.

تلكم هي المأساة؛ ففولتير يعتقد أن محبة شكسبير تدنٍّ في الذوق، فيعالجه بدرس في الذوق السليم يلقيه في معبد الذوق: الأكاديمية. أما في الواقع فالمقصود شيء آخر: إن محبة شكسبير إنما هي اختيار لعالم جديد. عالم تغدو فيه مسرحيات مثل زايير ومحمد، أضحوكة للماكرين ومصدر تقزز لـ«الرومانسيين». وتكمن المأساة في عدم فهم أن ثمة قرنًا أشرفت شمسه على المغيب، وأن فولتير أفل نجمه، ليصبح هناك ميل إلى ذوق غريب عن هذا وذاك. كان فولتير يعتقد بتحول بطيء للعالم، ولم يكن يعتقد بوقوع زلزال مدمر سوف يدفن القيم التي ظنها أبدية مثل التراجيديا الكلاسيكية والقصيدة الغنائية والحكاية الخرافية والشعر المسمى بالإسكندري (Alexandrin) الذي ينظمه ماليرب.

أما الذي يؤجج غضبه حتى الذروة، فهو أنه أول من جعل الفرنسيين يعرفون شكسبير. فلا يجد من تعزية على قيامه بجلبه من لندن مع حوائجه. لكن الزمان تغير.

ففي عام 1734، كان الهوى الإنكليزي نمط حياة جديدًا يزهو فولتير بإظهاره علنًا، ولو لإغاظة الفرنسيين على أقل تقدير. أما في عام 1776، فقد ازداد الذوق العام اتساعًا، وصار كثير من الفرنسيين يجيدون قراءة الإنكليزية. وصار ثمة مريدون لشكسبير والحدائق الإنكليزية والشاي. بعد ذلك بخمسين عامًا، سوف يقوم ستاندال بإغناء راسين وشكسبير بأفكار كان الناس في أجوائها منذ عام 1776.

وإن فولتير، والحق يقال، لم يقف كثيرًا في وجه ترجمة أقل أمانة من ترجمته هو، وإنما ضد نمط جديد، وحتى حضارة جديدة. أما هيكل جسده المسكين الذي يئن ويتأوه، فهو هيكل الكلاسيكية ورهافة الحس والروح الإنسانية، الذي تستعد موجة المد العاتي لكنسه مع العالم القديم. وكان لسخطه بصفته رجلًا عجوزًا أن يجعلنا نبتسم، لولا أنها تشنجات وجه كوميديٍّ عتيق. لكن لو نظرنا في أعماق قلبه الجريح، لاستطعنا أن نميز إدراكه المسبق لأضخم تراجيديا سوف تقلب المجتمع والعادات رأسًا على عقب. إن صرخة شيخ فيرني تلك حيال الذوق الجديد، إنما هي أول صرخة رعب للكلاسيكية حيال الموت.

مناخ فيرني يتدهور

ظهر عدو جديد، إلا أنه عدو حي. لم يحل محل فريرون الذي لا بديل له، بل جاء ليوقظ المكافح القديم. وقد كان عدوًّا يسبب الارتباك: فهو مهذب وهادئ وجاد وفي غاية الثقافة وأكثر فاعلية من الذين سبقوه كافة. وسوف يجد فولتير نفسه منهكًا وهو يرد عليه. كان خصمه يدعم رأيه، فلا يشير إلى السخريات إلا حين تتعلق بوقائع مغلوطة ونصوص مزورة وتواريخ خاطئة، وذلك ما لم يكن استثنائيًا بقلم فولتير.

حين تلقى البطريرك رسالة بعض اليهود البرتغاليين الذين أشاروا إلى أخطائه حول النصوص التوراتية، تساءل من عساه يكون الكاتب. فأجابه دالامبير: «إن سكرتير هؤلاء اليهود مسيحي مسكين اسمه الأب غينيه، كان في ما مضى أستاذًا في كلية بليسي، وصار الآن خادمًا في كنيسة فرساي الصغيرة. وقيل إن تلك الرسائل عادت عليه بإكرامية صغيرة من كاردينال روش إيمون، وهو أحد أساقفة الكنيسة المتميزين الذين لا ينقصهم شيء سوى أن يعرفوا القراءة والكتابة».

فكتب فولتير إلى دالامبير، في 8 كانون الأول/ ديسمبر 1776: «لا يفتقر السكرتير اليهودي إلى الفكر أو المعرفة، لكنه ماكر مثل القرد، فهو يعض اليد حتى يدميها متظاهرًا بأنه يقبلها؟». فهو إذًا لم يقلل من قيمة عدوّه، ولم يستطع التغلب عليه. ولا يبدو، عند نهاية حياته، أن أسلحته فُلّت. لكن الأمر الأكثر خطورة أنها ما عادت تصيب الخصم، وما عادت تجرحه، لأنه ما عاد ثمة مبرر لوجودها. فنمط الحياة والعالم تغيرا، أما فولتير فلا. فالمرء لا يشيخ دومًا لأنه يفقد مواهبه، بل غالبًا ما يشيخ لأنه يحتفظ بالمواهب نفسها في عالم ما عادت فيه موضع تقدير. وعلى الرغم من حيويته التي لمّا تُمَسّ، صار فولتير عام 1776 شيخًا لأنه ظل مفرطًا في شبهه بفولتير عام 1730. فهو يتمتع على الدوام بالروح الفتية والمتألـقة نفسها، لكن تلك الروح التي كانت جديدة في عام 1730 صارت عجوزًا بعد ستة وأربعين عامًا. لذا فإن الحساب الذي كان الكاهن الصغير غينيه يحسبه لسهام البطريرك المسمومة يماثل ما تحسبه طائرة لطلقة بندقية قديمة العهد.

أما حين يقول فولتير «إن الأب سوف يتعرض للعض، مثلما قام هو بالعض»، فإنه على خطأ.

والحال أنه تعزّى بسرعة. كان مريضًا يرقد في سريره، فشرع يُعمِل تفكيره في مشروع كبير: كان يريد مغازلة ماري أنطوانيت، وكان يرغب في وضع نفسه تحت حمايتها، فطلب منها في بدء الأمر إسداء معروف إليه: رجاها أن تُعيره لوكان. إن لوكان يلزمه؛ فبعض الجلسات التراجيدية ضروري جدًا ليستعيد عافيته. وإن فورات الفرح والدموع والحركات الجميلة والتأوهات النبيلة من شأنها أن تسخن دمه فتمنحه الحياة لسنة أخرى في الأقل. فكتب إلى الأمير هينان، وأعلن خطوته عبر الفراشة الفيلسوفة، فكتب قائلًا: «سيدتي، شرفتني السيدة سان جوليان بإعلامي بأن عليّ، إذا ما شئت أن أتقاسم لوكان مع الملكة، أن أطلب حمايتك. فهرعت من فوري إلى معبد النعم لأرتمي عند قدميك...».

حط لوكان الرحال في فيرني، فعادت من جديد «حفلات الجنون» المسرحية. فالجماهير الجنيفية تملأ الدروب في تدفـقها لتنحشر في مسرح الشاتلين. وكانت العروض تقدَّم في فيرني أيضًا. فهل ارتحلت ديدان القز؟ أما هو، فما عاد يمثّل وما عادت أنفاسه تساعده. كما فقد أسنانه وصار نطقه مشوهًا. لكنه واصل الكتابة على

المنوال ذاته، وتوسل إلى دارجنتال أن يتحدث عن فولتير إلى الملكة وأن يجد الوسيلة للإشادة بمناقب البطريرك في البلاط كله. وها قد حانت الفرصة! فالسيد الكونت دو بروفانس سوف يقيم احتفالًا للملكة في برونوا، وقصد وكيله فولتير ليسأله عن مشروع تسلية. فاستعاد فكرة احتفال نمساوي أقامه الملك ليوبولد في ما مضى لبطرس الأكبر: لعبة المضيف والمضيفة. فكانت تلك الفكرة ممتازة لإطراء الملكة وتذكيرها بوطنها.

أما الخطوات باتجاه عطف الملك، فكانت، للأسف، بطيئة! إذ ما كان في وسع لويس السادس عشر، وهو عميق التديّن ووجل، أن يحب كاتبًا صوّره له معلّموه والمحيطون به صورة مقيتة. لكن بدا لويس السادس عشر أكثر ليونة حين نشر فولتير مجددًا مديحه للملك لويس الخامس عشر. وليس لنا أن نتساءل عن صدقية الإطراء... لكن علينا إبداء إعجابنا بملاءمة إعادة النشر. إيه! فمتى ستقوم فرساي بفتح أبوابها من جديد؟ وهل سيموت قبل أن يشهد ذلك الفردوس الأرضي؟

عاد في عام 1777 فحمل قلمه صحافيًا. وكان قد كتب منذ عام 1764، بناء على طلب من السيد دو برالان، مقالات في **المجلة الأدبية** (*Gazette littéraire*). ووجّه في ذلك العام نقدًا قاسيًا جدًا إلى كتاب عنوانه: **عن الإنسان، أو عن المبادئ والقوانين لتأثير الروح في الجسد والجسد في الروح**. وكان الكاتب يدعى ج. ب. مارا[76] وهو عالم في الطب، كان له أن يتميز، كما نعلم، في فن شفاء الناس من ألم العيش، من غير اللجوء إلى الطب. إن إعلان السيد مارا الدعي والمشوش لا يروق السيد فولتير مطلقًا. والأرجح أنه لو عاش مدة أطول لكان لمقالته أن تسبب له متاعب شتى بعد ذلك التاريخ بخمسة عشر عامًا. فالسيد مارا يُطري نفسه في كتابه إطراء خاصًّا وينتقد فولتير مع آخرين، لأن نظريته تقوم على أن البنية الهشة لا يسعها أن تؤوي سوى موهبة ضحلة، وأن العبقرية لا تسكن إلا في الأجسام الهرقلية!

أما في فيرني، فكان فولتير يلازم غرفته أكثر فأكثر. وصار الزائرون يزدادون عددًا، لكن مستواهم تدنى وثرثرتهم ارتفعت بالنسبة نفسها؛ فكثيرون لا يأتون إلا

---

(76) هو الذي ورد ذكره، من قبل وصار من زعماء الثورة الفرنسية، فاغتالته شارلوت كورديه. (المترجم)

إرضاء لفضولهم لأنهم عاطلون من العمل. وواصلت السيدة دوني بسط المائدة المفتوحة، فيما لا يظهر السيد إلا في ما ندر. وجاءت سيدة ضخمة، هي زوجة الجابي العام، يحدوها الظن بأن لها الحق في رؤية سيد البيت، ومؤكدة على أنه سوف يستقبلها لأنها ابنة شقيق الأب تيري، وزير المالية السابق. لقد كان ذلك الوزير مكروهًا من فولتير. وهكذا، فحين أعلم بمزاعم تلك السيدة وقرابتها، طلب إبلاغها ردّه: «قولوا لتلك السيدة إن سنًا واحدة بقيت في فمي، وإني محتفظ بها سلاحًا ضد عمها».

وكان ثمة كاهن اسمه الأب غوايبه، وجد نفسه في عرين الزندقة فآثر البقاء وعدم مغادرته مطلقًا. وقد قال له فولتير على سبيل تذكيره بضرورة انصرافه: «أنت لا تريد أن تصير شبيهًا بدون كيشوت؛ فهو كان يعد النزُل كلها قصورًا وأنت تعد القصور نُزُلًا».

كانوا يفرضون عليه أحيانًا ضيوفًا مزعجين. فالصداقة التي كان يكنّها للسيد مولتو من جنيف، جعلته يستقبل شابًا من مرسيليا جاء خصيصًا من مدينته ليقرأ للبطريرك مسرحية كوميدية انتهى من تأليفها. فاستقبلوه على العشاء، واستبقوه للمبيت، لكن بين المائدة والسرير، كان عليه أن يتحمل القراءة. وتشنجت سحنة فولتير لدى سماعه البيت العاشر، فتثاءب وتحرك ثم شرع يتلوى وجعًا فوق كنبته... لكن الكاتب لم يتنبه لشيء. وعند نهاية الفصل، ساد صمت قاتل. فباشر الكاتب قراءة الفصل الثاني، فكاد فولتير أن يختنق، واستولى عليه التشنج فساءت حاله. فحملوه. وشعر المرسيلي بالأسف: فمسرحيته الكوميدية قتلت البطريرك! لكن قد يكون البطريرك قتل موهبة المرسيلي.

قامت السيدة دوني باستدعاء مولتو، واستحلفته أن يصطحب المرسيلي وكوميديته وحقائبه. وقامت في موازاة ذلك بوضع ذلك كله داخل إحدى العربات. كان فولتير يرتجف ويصر بأسنانه وهو في غرفته، ويهدد بإثارة ضجة صاخبة حيال الكاتب اليافع.

في اليوم التالي استعاد فولتير هدوءه، فشعر ببعض الأسف، وكتب إلى المرسيلي كثيرًا من الإطراء وعرض عليه أن يستأنف القراءة. وما كان الأمر يتعدى عبارات المجاملة الأرستقراطية. لكن المرسيلي ما كان يعرف سوى مزاحه هو،

ويجهل ألوان المزاح في فيرني. وعاد الأحمق ومخطوطته في يده، فارتعد فولتير وهو يراه مقبلًا، لكنه استطاع أن يضبط نفسه. بذل جهدًا فوق طاقة البشر حتى نهاية الفصل الأول، وهو ممتقع اللون ويصرّ على أسنانه. ومع بداية الفصل الثاني، تدحرج على الأرض مغشيًا عليه! فأنعشوه، فاستولى عليه التشنج. ثم علا الصراخ من حوله، فانتاب المرسيلي الهلعُ فجمع أوراقه على جناح السرعة وولّى الأدبار. وفتح فولتير عينًا واحدة ليقول: «لولا أن الله قد هبّ لنجدتي، لقُضي علي». وكان ذلك هو فن الإغماء قبل الفصل الثالث.

أمل بانقشاع جميل تتلوه خيبة أمل

ما كان كثير من الزوار الباهتين ليعدِلوا ذاك الذي كان ينتظره خفية. فتلك الزيارة التي أُحيط بها علمًا، والتي كان يتظاهر بعدم تصديقها فيما هو ينتظرها بنفاد صبر طفل، تلك الزيارة التي كانت تجعل قلبه، وهو رجل بلاط عجوز، يخفق، هي زيارة جوزف الثاني، الإمبراطور، وشقيق ماري أنطوانيت. ففي حزيران/ يونيو 1777، كان جوزف الثاني في فرساي، وكان عليه أن يعود إلى فيينا مرورًا بجنيف... أي بفيرني. هذا في الأقل ما فهمه الجميع، وعلى رأسهم فولتير. يبقى أنه من غير الملائم الاتفاق على ذلك. فيكفي ترك المجال للقول، والله وحده يعلم، إن كان ما يُقال من أن الكونت فالكنشتاين - وهو الاسم الذي يستخدمه جوزف الثاني في سفره - سيحل لبعض الوقت في فيرني، سوف يتحقق. وفي 17 حزيران/ يونيو 1777 كتب فريدريك الثاني إلى فولتير يقول: «إن سياسة صاحب المجلة تُخلِد الآن إلى الراحة، وليس من مسألة سوى سفر الكونت دو فالكنشتاين إلى باريس. إن هذا الأمير الشاب يتمتع بتأييد الجمهور؛ فالناس يصفقون للطافته ويندهشون لذلك الكم من المعارف لدى واحد من أول ملوك أوروبا... وهذا الذي يحمل اسم كونت سيعود إلى بلاده عبر طريق ليون وسويسرا. وأنا أتوقع أن يمر في فيرني راغبًا في أن يرى ويسمع «مفخرة القرن»، فيرجيل وشيشرون زماننا. ولئن جرت هذه الزيارة، فإني آمل أن المعارف الجديدة لن تجعلك تنسى القديمة (إن وخزة من الغنج لا تضر بصاحبينا)، وإنك سوف تتذكر من بين جمهور معجبيك، واحدًا يعيش منفردًا في سان سوسي، وإنه ينبغي تمييزه من باقي الحشد».

كان دالامبير في باريس مقتنعًا بأن الإمبراطور سوف يتوقف في فيرني: «أعتقد في هذا الوقت أن الإمبراطور هو في دربه نحو ولاياته، ولا بد من أن يمر في جنيف، وأتخيل أنه بعد أن يرى أشياء كثيرة، وبعضها لا يستحق العناء، سوف يرغب أيضًا في رؤية بطريرك فيرني، الذي سوف تهبه هذه الزيارة الإمبراطورية أعوامًا عدة من الحياة».

ولكَم كان ذلك صحيحًا! إمبراطور تحت سقفه، وعلى مائدته. إمبراطور من أجله وحده، فيا له من منشّط ومنعش!

كان فولتير يأمل في تلقي ذلك التكريم الإمبراطوري. ألم يقولوا له إنه في أثناء عرض أوديب، أثار بيت من الشعر لدى العاهل الشاب الذي كان حاضرًا، موجة من الحماسة في القاعة؟ ينبغي القول إن جوزف الثاني كان يقوم في سفره بشيء من الديماغوجية، فيتصنع إيقاعًا من عدم التكلف والبساطة. فيروق ذلك بعضهم ويسوء بعضًا آخر. باختصار، حين أعلنت جوكاست قائلة:

«كان هذا الملك، وهو أكبر من ثروته
يزدري مثلكم الأبهة الزائفة».

هبت القاعة واقفة تصفق وتستدير صوب القسم حيث يجلس جوزف الثاني. كان قلب البطريرك يخفق لتلك الأخبار الطيبة، لكن ذلك لم يحل دون تكلفه التواضع. فكان يقول: «وما عسى ابن القياصرة يأتي ليفعل في كنيسة صغيرة، وهو الذي ينبغي أن تكون كاتدرائية القديس بطرس في روما أبرشية له؟ أما بشأن ورشتي لصنع الأشعار الفرنسية، فقد مر زمان طويل وهي على الحضيض».

نحن نعرف ما ينبغي تصديقه من ذلك كله. ففي نهاية المطاف، سيغدو ذلك الكم من التحفظ بلا طائل، إذا ما أحرق جوزف الثاني مرحلة فيرني. وكيف سيبدو عليه الحال إذا ما أنيرت المصابيح لشخص غائب؟ ولم تجرِ إضاءة المصابيح، لكن رُفِعت الحجارة من الدرب إلى فيرني. وقعد فولتير ينتظر... لم يسعه منع السكان كافةً من ارتداء ملابس العيد، ومن التجمع والوقوف سياجًا ساعات وساعات. وإذا ما استثنينا القصر الذي ربما قام بتحضيرات سرية ولبث صامتًا، فإن القرية بحالها كانت تعيش في جو محموم وتنتظر زيارة العاهل على

أنها شيء مسلَّم به وواجب حيال رب الأسرة الجليل. وواقع الحال أنه حين أعلن الحوذي المساعد لجوزف الثاني أنه على وشك عبور فيرني، هتف العاهل قائلًا: «انطلق بأقصى سرعة، أيها الحوذي!»، وعبرت عربته القرية الذاهلة بسرعة قصوى، ودخلت إلى سويسرا. شعر الشعب بالإهانة أكثر مما شعر بها فولتير؛ لقد قصر أحدهم بواجب التكريم حيال وليّ نعمتهم! وكانت الطعنة عنيفة، لكنها كانت مدبّرة. والأرجح أنه كان في وسع جوزف الثاني أن يتوقف، لكن أمه ماري تيريز حظرت عليه زيارة من شأنها أن تُعد نوعًا من التشجيع على المروق من الدين. وذلك ما أوضحه فريدريك لاحقًا لفولتير. أما فولتير فبلغت به سلامة الطوية حد الاعتقاد بأن جوزف الثاني عاهل «مستنير»! مستنير؛ ذلك أكيد، لكن ليس بالأنوار نفسها. وكان فولتير قد كتب إلى دالامبير قبل أعوام: «يؤكد غريم على أن الإمبراطور واحد منا، وذلك مدعاة سعادة، لأن شقيقته دوقة بارم تقف ضدنا». وكتب إلى فريدريك الثاني: «هنالك بوهيمي عميق الفكر اسمه غريم، قد أخبرني أنك دربت الإمبراطور على أسرارنا المقدسة»، وهي أسرار الزندقة التي لها مريدوها أيضًا، وأضاف: «أطربتَني أيضًا بأن الإمبراطور يسلك درب الضلال، وتلك هي دفعة ممتازة من المجندين للفلسفة».

لكن وا أسفاه! ولى المجندون الجدد هاربين!

لم يحرق جوزف المرحلة لأن أمه طلبت إليه ذلك فحسب، لكن لأنهم أفرطوا في باريس أيضًا وهم يكررون على مسامعه ضرورة التوقف في فيرني. وفي أثناء خطاب ممل أصغى إليه جوزف على الطريق، أمره أحد المتحمسين المفرطين في إعجابهم بفولتير بضرورة التوجه إلى فيرني. وقد تلقى فولتير نسخة من تلك الغلطة الخرقاء، فصرّح قائلًا: «صرت شبه متأكد الآن من أن الإمبراطور لا يسعه التوقف عندي». كان يَفضُل في حكمه مريديه الأغبياء، فكانت مناسبة جديدة يكرر فيها ما قاله مرارًا: «رباه، احمني من أصدقائي، وأما أعدائي فأنا بهم كفيل».

يبقى أن سلوك جوزف الثاني كان مهينًا؛ إذ قام وهو في باريس بزيارات تفوق في عدم لياقتها تلك التي امتنع عن القيام بها إلى فولتير. فقد التقى نجمة الرقص الآنسة غيمار، ولم يتفوّه أحد بكلمة. فهل كانت تقية؟ كما التقى السيدة

دو باري[77] في لوفسيين. فهل كان سلوكه لائقًا حيال لويس السادس عشر وحيال البلاط، اللذين ما كانا يريدان رؤيتها؟

إن سلوكه لعجيب إذ يصدر عن عاهل هو بطل الكاثوليكية وشديد الطاعة لأمه. أما الحقيقة، فكان المقصود في الحالة التي تهمنا توجيه إهانة إلى فولتير، وثمة تفصيل يثبت ما نقول: ذلك أن جوزف الثاني، وبعد أن اجتاز فيرني وتوقف في برن، قام بزيارة طويلة إلى هالر الذي كان عدوًّا معروفًا ولدودًا لفولتير. ولقد استقبل ذلك العالِم والرجل الجدير بالاحترام ضيفه الإمبراطوري من دون أي مداهنة، إذ كان بعيدًا من الغرور، فذهب عناء جوزف الثاني أدراج الرياح. لكن فولتير تعرض للمهانة وكانت المهانة قاسية. فجهد أن يخفف من وقعها من أجل الجمهور باختلاق الحكاية الآتية: اعترض رجلان مخموران من صانعي الساعات طريق العربة الإمبراطورية، وسألا الإمبراطور بفظاظة عن أسفاره وأفكاره وهما يدعوانه بالسيد الإمبراطور، وقالا له: إن الناس هنا جمهوريون. فدفعت الواقعة بجوزف الثاني إلى أن يصرخ بالحوذي: «انطلق بأقصى سرعة، أيها الحوذي».

وظلت الواقعة قاسية، ولا سيما أن أعداءه عبّروا عن اغتباطهم بصخب؛ فهم لا يوفرون عليه المهانات.

من باب المسرح الفرنسي عاد المنفي إلى باريس

وما عساه يفعل فيما هو يعاني اليأس والملل؟ تراجيديات. كان «معمل الشعر الفرنسي» يدور على الدوام. لقد ألف وهو في الثالثة والثمانين مسرحيتيّ إيرين (*Irène*) وأغاتوكل (*Agathocle*). وهذه الأخيرة لمّا تكتمل، لكن لا بأس. أما بالنسبة إلى إيرين، فالأمر مختلف. فكتب إلى المركيز دو تيبوفيل الذي كان يتولى شؤون المسرح الفرنسي، أن عليه أن يكون مستعدًا لتلقّي إيرين وقراءتها وعرضها. وكانت فصول ثلاثة منها فقط قد غدت جاهزة، أما الاثنان الأخيران فسوف يكونان جاهزين عما قريب. انقضت أشهر ثلاثة وهو يعمل في تلك التراجيديا. فكم كان ذلك طويلًا! تلكم هي أهوال الشيخوخة؛ فقبل عشرين عامًا، وحين كان مشغل

---

(77) عشيقة لويس الخامس عشر. أُعدمت في الأعوام الأولى من الثورة الفرنسية [وبالتحديد في 8 كانون الأول/ ديسمبر 1793]. (المترجم)

عقله يعمل بكامل طاقته، كانت حياكة تراجيديا تتم في أسبوع واحد. ولقد أعلن أن موضوع إيرين على درجة غير مسبوقة من الحداثة والجرأة، فهو يتناول مسألة الندم! إنه تبكيت ضمير امرأة ظلت تحب قاتل زوجها. خمسة فصول عن ندامة امرأة عاشقة؛ إن ذلك يجعل المرء يتوقع أكثر من مشهد فارغ وكثيرًا من الأبيات التي لا طائل من ورائها. ولقد وعى ذلك فمزقها، لكنه عاد إلى النهج ذاته.

كان يواصل العمل دومًا تحدوه شجاعة شبابه، فكتب يقول: «ذلك يمسّني ويقلل من شأني. فلا يُريح أبًا قيامُه بدق عنق ابنه. ها هي أشهر ثلاثة ضاعت والوقت في سنّي ثمين». وعثر على الراحة بالقرب من السيدة دوني؛ فلقد بكت لدى قراءة المسرحية، وهي لم تسأم يومًا من تلك الخطب المفخمة. ولم تكن وحدها في ذرف الدموع: بكى معها أيضًا كلٌّ من فيليت وفيايفيل. وكتب فيايفيل ذلك إلى كوندورسيه. لكن ذلك المركيز كان على درجة من التربية الصالحة، حتى إنه كان عليه أن يضحك وأن يبكي كي لا يخالف قواعد اللعبة. وتلقى كوندورسيه مسرحية إيرين، فقرأها ولم يبكِ. ووقع فيها على مقاطع جميلة وعلى إطالات وأخطاء؛ فارتأى إعادة كتابتها. وأعاد فولتير كتابتها. لكن ثمة كارثة؛ فالمسرح الفرنسي اعتمدها، والسيد دو تيبوفيل أعطاها للممثلين، والأدوار جرى توزيعها... مع ذلك، هنالك ممثل رفض التمثيل في إيرين، ممثل وحيد! إنه السيد لوكان! كان فولتير قد كتب الدور من أجله؛ من أجل صنمه المعبود! والصنم لم يتزحزح عن موقفه. قال كلا، ولم يتراجع. قام أصدقاء فولتير بالترجي وسخطوا وهدَّدوا. لكن لوكان ظل مصرًّا على موقفه؛ ذلك أن لوكان، وهو في سن النضج، قد غدا عاشقًا! ولسوف يتزوج من السيدة بِنوا التي جاء نورها ليحجب كل إيرين وزايير وهرميون وإيفيجيني من قائمة الروايات المسرحية. أما الوحيد الذي فهم الانجذاب الحاسم لشغف لوكان بموضوع آخر غير المسرح، والوحيد الذي سامحه على رفضه، والوحيد الذي أراد أن يعتقد بأن هذا الجنون عابر، وأن لوكان سوف يستعيد ذات يوم دوره في مسرحية إيرين التي سيعاد تجديدها، والوحيد الذي لم يتهم لوكان بالخيانة أو الجحود، فهو فولتير. كان لوكان صديقًا له، فهو إذًا خارج نطاق الشك. وتلك معجزة أخرى من معجزات الصداقة! بل إن فولتير بلغ حد الخشية من أن يكون أحد قسا على لوكان. ألا يمكن أن يقوم تيبوفيل بمضايقة الصديق العزيز؟ كان ينبغي، خلافًا لذلك، القيام بمداراته: أليس من حق كل ممثل

أن يرفض الدور الموكل إليه؟ فمن عساه هنا أن يفهم الكاتب العنيد الذي رأيناه يدخل في صراعات مع مترجميه أو ناشريه أو منتقديه؟

كان يتلقى في فيرني آيات التقدير والاحترام فتطمئن إليها نفسه. وقام لا هارب، الذي كان من المفترض أن تُعرَض تراجيديته البرميسيد (*Les Barmécides*) قبل مسرحية فولتير، بالتنازل عن دوره لمصلحة البطريرك، فرفض فولتير ذلك التفضيل. لكن لا هارب فرضه في النهاية فرضًا، وما كان ذلك التنازل بالبسيط من كاتب مبتدئ. وجاءت مبادرة أخرى مدهشة أكثر، فأثّرت في نفس الكاتب العجوز حتى سالت دموعه. إنها مبادرة بارت، المرسيلي، الذي سوف يعرضون مسرحيته **الإنسان الشخصي** (*L'homme personnel*) على خشبة المسرح الفرنسي؛ حيث قام بارت بسحبها ليخلي المكان لـ **إيرين**. ولا ريب في أن ذلك الشاب المبتدئ قام بمساعٍ لا تُعَدّ في سبيل قبول مسرحيته، فأزاحها بكل سخاء من أمام مسرحية فولتير، الذي ما كان للاستقبال الذي لقيه منه في فيرني أن يخلف في نفسه ذكرى طيبة.

كتب بارت في تلك المناسبة للسيد دو تيبوفيل: «كنتم على استعداد لتقديم مسرحية **الإنسان الشخصي**، لكن لديكم قرار تتخذونه، وهو صرف النظر عنها. أنا أعلم أن المسرحيات الجديدة يجري تقديمها وفق ترتيب تلقيها وأن هنالك أنظمة، لكن أي رجل أدب يجرؤ على المطالبة بتطبيقها في مثل هذه الحال؟ إن السيد دو فولتير لشبيهٌ بالملوك، فهو فوق القوانين. وإذا لم أحظَ بشرف أن أقاسم الجمهور مباهجه، فلا أريد في الأقل أن أساهم في تأجيلها وأدعوكم إلى إمتاعه على الفور بعمل لمؤلف زايير وميروب. وعسى أن يظل قادرًا على تأليف مسرحيات وهو في المئة من العمر مثل سوفوكليس، وأن يحيا مثلما تحيون أنتم يا سادتي، على صوت التصفيق».

حدث أن صادفنا على درب فولتير من ضروب الدناءة والغدر ما يدعونا إلى أن نحيي ذلك القدر من الاعتبار والإعجاب ونكران الذات.

حان الوقت الذي كان ينبغي فيه عرض **إيرين** بوجود لوكان أو من دونه، وكان فولتير قد عيل صبره وغدا منهكًا. كانت **إيرين** مسوّغ عودته إلى باريس. وكان أحيانًا يسأل نفسه لِمَ انتظرَ ذلك الوقت الطويل كله، إذ لم يكن ثمة أمر نفي

في حقه على الإطلاق. وكانوا قد أحاطوه علمًا - وشدّدوا على إعلامه - بأنه إذا ما عاد إلى باريس فسوف يُتخَذ إجراء صارم في حقه: السجن أو النفي، بل العقوبة الأولى في البداية، والثانية من بعد. لكنها لم تكن كلها سوى آراء لفظية، بيد أنها ذات خطورة. فذلك الملك الذي كان قليل الثبات حيال الشؤون الكبرى، أظهر كثيرًا من التشدد في قسوته على فولتير. وارتفعت أصوات المسؤولين في أعلى المناصب - وحتى الأصوات الغالية - فتكلمت في مصلحة المنفي. وكان الكلام على الدوام بلا طائل... تكلمت السيدة دو بومبادور والسيدة دو باري وريشوليو ودارجنتال وآخرون، ليصطدموا برفض الملك. وكانوا جميعًا حاسمين في نصح البطريرك بعدم خرق المنع والظهور في باريس...

أما لويس السادس عشر، الملك الجديد، فكان ميالًا نحو الإصلاح. لذا، فثمة ما يدعو المرء إلى أن يتوقع منه تسامحًا أكبر حيال فولتير. غير أن مؤلف الهنرياد كان - للأسف - يثير في نفسه الرعب. أما بالنسبة إلى الملكة ماري أنطوانيت، فكان في وسع الشاعر أن يتعلل بأمل أكبر، على الرغم من أن الملكة لم تتولَّ مقاليد السلطة إلاّ في ما بعد. وهناك أخيرًا تورغو والرأي العام، وهو رأي أكثر ضجيجًا، وصوته بات مسموعًا أكثر منه في عام 1750، وهو على العموم مؤيد لفولتير. فكان تورغو والرأي العام من أفضل الأوراق الرابحة بيد فولتير. لكن ينبغي للبلاط أيضًا أن يكون حساسًا حيال تلك السلطة.

خاطب فولتير لويس السادس عشر باسم «سيزوستريس»[78] (Sésostris). والمؤسف أن «سيزوستريس» لم يصغ إلى ذلك النداء ولم يعطِ فولتير إشارة بالقدوم. مع ذلك لا يزال البطريرك يتمتع بألقابه «نبيل الملك» و«مؤرخ فرنسا الرسمي»، فيسعه أن يطلب القيام بأداء مهامه. ويدور التساؤل في فيرني وينفد الصبر، وكلما مر الوقت أضحت الرغبة الملحة في باريس أكثر إيلامًا. في بعض الأحيان كانت أرض فيرني تغدو ملتهبة تحت قدمي الخال وابنة أخته، فهما على استعداد للمخاطرة بكل شيء في سبيل الرجوع إلى باريس. وكان نفاد صبر ابنة الأخت الأشد عنفًا. فإقامتها التي دامت ثمانية عشر شهرًا في العاصمة لم تجمل

(78) هو الاسم الإغريقي لأربعة فراعنة (باسم سنوسرت) من السلالتين الثانية عشرة والثالثة عشرة. الأكثر شهرة من بينهم هو سنوسرت الثالث، الذي نسج التراث اليوناني حوله الأساطير. (المترجم)

صبرها، بل الواقع بخلاف ذلك؛ فالسأم يكاد يقضي عليها وصارت تحت خالها صارخة: فلنرحل! فلنرحل! ليس لنا أن نموت هنا. وكان ذلك هو رأي فولتير أيضًا، لكن إن لم يكن عليه الذهاب إلى باريس إلا ليموت في السجن، فهو يفضل الموت في سريره في فيرني. هي أيضًا لا تنوي الذهاب للموت بل للحياة.

قام كل من فيليت ودارجنتال وتيبوفيل ببذل أقصى الجهد لسبر أغوار الأصدقاء، وعلى وجه الخصوص الأعداء وسلطاتهم. فكانوا يطرحون عليهم هذه الأسئلة: ماذا ستفعل السلطة إذا ما ظهر فولتير، ذات مساء، جالسًا في مقصورته في المسرح؟ أو إذا ما توجه لحضور جلسة في الأكاديمية الفرنسية؟ أو أقام حفلة غداء؟ وحين ثبت لدى الملائكة الذين يسهرون عليه أن أغلبية الباريسيين سوف تصفق مغتبطة وأن السلطات سوف تغض الطرف وكأنها لم ترَ ولم تسمع، قالوا له: «تعال!»، فلم يدعهم يكررون ذلك ثانية.

في 4 شباط/ فبراير 1778، صعد إلى العربة بصحبة سكرتيره فانيير. أما السيدة دوني فقد سبقته؛ فهي على الطريق منذ يومين. ولم يكن لفرحة الرحيل أن تنطلق، إذ شابها حزن الفراق والوداع. وكان بسطاء الناس كافة التابعون لفولتير يذرفون الدموع، إذ كانوا على قناعة بأن «أباهم» راحل إلى غير رجعة. ووعدهم بالعودة في غضون ستة أسابيع، وكان يعتقد ذلك حقًا، بل بلغ به ذلك الاعتقاد حدّ ترك أوراقه كافة في غرفته على حالها، وهو المنظم جدًا والمتشدد في التنظيم. لا ريب في أن ذلك السفر لم يكن في ذهنه سوى هروب موقت، فهو يعرف أن «أبناءه» لا يستطيعون العيش من دونه، وأنه هو نفسه سوف يكون سعيدًا بلقاء فيرني من جديد بعد أن يقوم بـ «الظهور» على الساحة الباريسية، وربما على ساحة فرساي.

فكان يقول: «إني أستعد للقيام بسفر قصير إلى باريس وإلى الأبدية». وغالبًا ما تكلم عن سفره إلى الأبدية، حتى بات ضروريًا أن يقوم به بعدما تأجّل مرات عدة.

لم يكن للأب آدم من وجود ضمن حقائب سفره، بعد أن قام بطرده. وكان لذلك أيضًا أن يقع: فالسيدة دوني الطيبة كان لها دورها في ذلك الإجراء. فالأب آدم صار مزعجًا وكثير المطالب. غير أن فولتير لم يتخلَّ عنه، بل عين له ريعًا يبلغ سبعمئة ليرة.

مع المساء الأول من السفر، توقفت عربة البطريرك في نانتوا حيث كان المبيت. فقام المسؤول عن المربط بتبديل حصان شموس كان قد رُبط إلى عربة الشاعر، وقال للحوذي: «اقتل خيولي، فذلك لا يهمني في شيء... لكن واصل السير على خير ما يرام، فأنت تصطحب السيد دو فولتير». في 7 شباط/ فبراير وصلوا إلى ديجون. وانتشر نبأ وصوله. لم يرَ فولتير سوى محاميه، وهو أستاذ في الحقوق، ورجلٍ آخر من رجال القانون، فمماحكاته بشأن أراضيه في تورني وفي فيرني لمّا تنتهِ. عند المساء، وعلى العشاء، تسلل إلى الفندق عدد من شبيبة ديجون، بعد أن قاموا برشوة الخادمات لترك الأبواب مواربة، ما سمح للمعجبين الشبان برؤية البطريرك على المائدة. ولقد اتخذ بعضهم دور النوادل. أما بلدة جوانيي، فتأخر الوصول إليها بسبب انكسار محور العربة. فأقبل السيد دو فيليت خصيصًا من باريس لاستقبال الشيخ الجليل الذي أضر به ذلك الحادث، وأوعز بالسير المتمهل ليكون على ثقة من الوصول في أفضل الشروط. وفي الساعة السادسة من مساء العاشر من شباط/ فبراير 1778، وصلوا إلى أبواب باريس، وتوقفوا عند حاجز تفتيش المسافرين والبضائع. وسأله المأمور إن كان لديه ما يصرّح عنه، فقال له فولتير:

«أصدقُك القول، فليس من شيء مهرب سواي أنا».

عرفه الموظفون، وذلك يشيع الظن أن الصور التي تمثله والتي كان يجري تداولها في باريس حتى بين أيدي العامة، كانت ذات شيء من الشبه مع الأصل. فكان ذلك يثير غيظه، فيتأوه قائلًا: «إنهم يمثلونني قردًا، قبيحًا كالشيطان، وفي عبوس الخطايا». ذلك هو التناقض الدائم بين ما يقول المرء عن نفسه وما يظن نفسه في الواقع. فلقد ذكر فولتير آلاف المرات هزاله وتجاعيده وفمه الذي بلا أسنان. لكنه لا يصدق ذلك إلا بمشقة، ولا يريد لأحد أن يصف ملامحه، وخصوصًا أن يقوم بتصويره كما هو. باختصار، كان معروفًا جدًا.

قال الموظفون مندهشين: «قسمًا إنه السيد دو فولتير!». أما هو، الفائق التهذيب على الدوام، فاستعد للنزول كي يتيح لهم تفتيش العربة، لكن الموظفين رجوه بأدب أن يواصل سيره.

قامت السيدة دوني وفيليت بإعداد كل شيء. فقصد فولتير شارع بون، ليحل

في قصر المركيز دو فيليت، حيث جرى إعداد جناحه إعدادًا فائق الجودة. هنالك سوف تتزاحم باريس لتقديم طقوس العبادة لصنمها، ولكي تقتله.

باريس: نشوة المجد لا تقصي معوقات التقدم في السن

كانت زيارة فولتير الأولى إلى دارجنتال، وقد خرج هذا الأخير للقائه. فما كاد الشاعر يدخل شارع بون حتى انضم إليه دارجنتال. كان الصديقان من سن واحدة، وقد ارتبطا منذ الطفولة بصداقة لم تتراخَ عراها يومًا واحدًا. فهما لم يتقابلا إلا بشكل متقطع إلا أنهما لم يكفّا عن العيش معًا. أما مشهد لقائهما، فإن غروز (Greuze) هو الذي ينبغي أن يصوره ضمن مَيل عصرهما، وهو المَيل الدامع والشجي. وبعد أن بسطا ثم طويا منديليهما ومسحا دموع الفرح وكفّا عن النشيج، باشرا حديثهما. فأعلمه دارجنتال بآخر نبأ في باريس: توفي لوكان بالأمس! فأطلق فولتير صرخة كبرى وأعرب عن ألمه بكل القدرة التي تستوجبها نهاية ممثل عظيم مثله. وسعى كل واحد إلى أن يغطي بدموعه حزن البطريرك الذي كان ينتقل من بين ذراعي واحد إلى ذراعي آخر. وقد شكل ذلك النبأ بالنسبة إلى وصوله مشهدًا جميلًا من «الحساسية المرهفة». قالوا له إن لوكان أسلم الروح من بعد أداء دوره في مسرحية أديلاييد دوغسكلان (*Adélaïde Duguesclin*)، فالممثل قد بدأ حياته بأداء مسرحية بروتوس (*Brutus*). وهكذا، دشن حياته مع فولتير وأنهاها مع فولتير. ثم أطلق الشاعر صرخة أخرى، ظنًّا منه أن لوكان مات وهو يؤدي أديلاييد. كلا، فلو وقع ذلك لكان الأمر رائعًا! وقد صحح له ترونشان الخطأ: لم يمت لوكان بتأثير أديلاييد وإنما بتأثير السيدة بِنوا. فالطبيب قال إن الممثل قضى نحبه من فرط الجوى ونوبات الفرح التي تلهمه إياها تلك السيدة، والتي هي بالنسبة إلى رجل مثله في الثامنة والخمسين، أشد خطورة كثيرًا من تلك الناجمة عن أدائه أديلاييد دوغسكلان.

بدأ الموكب الباريسي على الفور، وكان كل شيء منظـمًا. فهذا الشعب الموهوب بشكل رائع بالحياة الاجتماعية والعرض، كان يجيد كيف ينظم ضمن جو طبيعي ووفق الأصول، تعبيره عن عواطفه، وتتابع زياراته، وحتى ضروب المزاح والتهريج. وقد كانت هذه الضروب، في الأساس، مسألة أسلوب عظيم وعقيدة اجتماعية تُجِل الذكاء، بل كانت هي نفسها مسألة ذكاء.

استقبلت السيدة دوني والسيدة دو فيليت الزوار في الصالون الأول. كانت «الجميلة والطيبة» (Belle et Bonne) تحمل لطافتها وعذوبتها، فيما كانت دوني السمينة تمثل العائلة، وتمثل أيضًا «غرفة انتظار» المجد، إذ كانوا يجربون على ابنة الأخت الإطراء المُعَد للخال؛ فمن المفترض، على وجه العموم، مسح الأقدام قبل الدخول.

وفّر ذلك الانتظار المسبق الوقت للحاجب كي يحيط فولتير علمًا بنوعية الأشخاص الذين ينتظرون في البهو، فيقوم من ناحيته بالاستعداد، ليتولى من بعد كلٌّ من السيدين دو فيليت ودارجنتال استلام الزائرين من السيدتين وإدخالهم. وبين زيارة وأخرى كان فولتير يتوجه إلى فانيير في الغرفة المجاورة ليملي عليه رسالة أو تعديلًا على مسرحية إيرين.

كانت النهارات التي تبدأ باكرًا تنتهي متأخرة ومثقلة ومحمومة، وهي تلزم العجوز التصدي لمئات الموضوعات المختلفة، وإعطاء آراء والرد على إطراء كل واحد بمثله، واسترجاع أسماء وتذكّر وجوه واستعادة ذكريات طويت تحت آلاف الذكريات الأخرى، وباختصار بذل نشاط منهك ليروق الآخرين، ويتألق من غير إبداء إشارة تعب أو قلة انتباه. ولقد نجح في ذلك حتى درجة الكمال لأن تلك هي طبيعة عبقريته، ولأنه متدرب منذ زمان سحيق على ذلك النشاط الاجتماعي. إلا أنه بلغ الرابعة والثمانين...

حينذاك كتب المحامي لينغيه يقول: «غادر السيد دو فولتير على حين غرة غابات فيرني التي قام بغرسها، والمنازل التي بناها، وتلك الراحة التي كان ينعم بها هناك، ليأتي إلى وحول باريس وصخبها ومداهناتها. وهو وحده قمين بأن يقول بعد وقت قصير إن كان قد ربح بتلك المبادلة».

كان طوال يومه يرتدي المبذل ويستقبل على ذلك النحو. وقد وجد لا هارب أنه لم يتغير منذ فورة الغضب تلك التي طواها النسيان الآن. كان يقرأ أمام زواره فصلًا من إيرين، وحين يجدهم جمهورًا يقوم بالتمثيل أمامهم.

بعثت إليه الأكاديمية بوفدٍ مكوّنٍ من الأمير دو بوفو والسيدين سان لامبير ومرمونتيل، الذين أعلموه بأن الأكاديمية ستعقد من أجله جلسة فوق العادة، وذلك

شيء لمّا يحصل حتى ذلك التاريخ. فتأثـر بتلك الخطوة حتى سالت دموعه، ورجا السيد دو بوفو أن يعبّر عن امتنانه للأكاديمية. ولسوف يتوجه ليقدم الشكر بنفسه حين تسمح له صحته بذلك.

جاء ترونشان بدوره. لكنه لم يأتِ بشكل عفوي، بل انتظر أن يقوم فولتير باستدعائه. كان الشاعر غير واثق كثيرًا بصداقة ترونشان حتى خشي لبعض الوقت أن يشعر الطبيب الشهير بالانزعاج. ولم تكن مخاوفه بلا مبرر، إلا أنه فضّل، كعادته دومًا، وضع الثقة في الصداقة، فاستقبل ترونشان فاتحًا ذراعيه. وفي أثناء تلك الزيارة الأولى، وجد الطبيب أن فولتير بصحة ممتازة. لكنه سوف يغير رأيه عما قريب.

من بعده جاء الموسيقي الشهير غلوك ليقدم التحية للعبقري. ولم تكن تلك بالتحية البسيطة؛ ذلك أن غلوك كان يعتقد بأنه ليس في العالم سوى عبقري واحد اسمه غلوك. وقد عرف فولتير كيف يُشعِره بأن تحيته لامست شغاف قلبه. وكان في ذلك الوقت نزاع بين أنصار غلوك وأنصار بيتشيني. وقال فولتير لغلوك، بسرعة بديهته في اقتناص المناسبات لتزيينها بإطراء، وذلك فيما كان غلوك خارجًا وبيتشيني داخلًا: «بيتشيني من بعد غلوك، فالمسألة منظمة».

لم تكن من أحاديث تدور في الصالونات وحتى في المخازن التجارية، إلا عن عودة فولتير. وقد كان لذلك الحضور تأثيره المحرك للرأي العام، وتسبب بإثارة القلق لدى بعض الأتقياء وبعض السلطات، الذين ظنوا أن في موقف فولتير ومريديه شيئًا من التحدي. وأملوا في أنهم إذا ما استعانوا بقرار طرده فسوف يعملون على نفي البطريرك، ذلك أن الجميع كان مؤمنًا بوجود ذلك القرار. لكن جرى البحث عنه بلا طائل. فماذا لو عُثِر عليه؟ وهل سيرون البطريرك الفائق الشهرة يُطرد من باريس التي كان يصنع مجدها؟ يمكن الشك في ذلك. فلا بد لمثل ذلك الإجراء من إثارة هياج شعبي في الشارع وانتقاد عنيف في الصالونات. مع ذلك، ساور فولتير وأصدقاءه خوف شديد.

فكروا بماري أنطوانيت، فبعثوا إليها برجاء مع الأميرة دو بولينياك لتبادر إلى حماية الشاعر. فأدت الأميرة مهمتها، وجاءت بنفسها إلى شارع بون لتطمئن البطريرك، فاحتفوا بها كأنها المسيح.

في 14 شباط/ فبراير، استقبل فولتير وفد المسرح الفرنسي برئاسة السيدة فستري التي ينبغي أن تؤدي مسرحية إيرين فيما لا يزال يعمل على إنجازها. وقد أتاحت له تلك الرسالة أن يزجي إلى الممثلة هذا الإطراء: «سيدتي، لقد عملتُ من أجلك هذه الليلة عمل شاب في العشرين من العمر». وألقى الممثل بلكور قصيدة مديح فيها الكثير من الإطراء والإطناب فلاقت استقبالًا حسنًا، فردّ عليه فولتير باللهجة نفسها. ولما لاحظ أحدهم أنه كان لتلك المدائح أن تبدو أكثر جودة لو كانت أكثر خفة، رد عليه فولتير قائلًا:

«بلى، لكننا أدينا، أنا وإياه، أدوارنا الكوميدية على أحسن وجه».

كان في غاية التألق، فأنهك نفسه من غير حساب. تكلم بغزارة عن مئات الموضوعات: عن السياسة، وعن ديكارت، ونيوتن، وحتى عن مدينه الدوق دو فورتنبرغ الذي كان يسدد ديونه متأخرًا على الدوام، لكنه يسددها بفضل الحيلة الصغيرة التي أتقن أرويه حبكها، أيام كان الأب آدم لا يزال في بيته.

في يوم الاثنين التالي كان عليه التوجه إلى المسرح حيث وعده الممثلون بأداء أدوار من أجله. لكنه للأسف وقع مريضًا نتيجة التهاب شديد في المثانة، فحظر عليه ترونشان المسرح والزيارات. فأطاع بشأن المسرح وخالف بشأن الزيارات.

ساهم إعلان المرض في ازدياد أعداد الفضوليين. أليس من الممتع أكثر خلع بابٍ موصَد على الدخول من باب مفتوح؟

فما كان الصالون يفرغ طوال النهار: حشد من الناس يمرون رتلًا كما الحال من أمام صندوق ذخائر القديسين، فيُحيّونه وينظرون إليه ثم يفسحون المجال لآخرين. وكانت السيدة دوني في قمة الغبطة؛ فلقد تمنت أن ترى الناس، وها هي تراهم! وكان فيليت يشاطرها ذلك الفوز، فلقد أضحى فجأة ذا شهرة. وكثير من الناس الذين كانوا ينظرون إليه شزرًا، على أثر أنباء طيشه ومجونه، عادوا من بعد إقامة فولتير في شارع بون يلتمسون منه السماح بأن يستقبلهم. وكانت وقاحة فيليت تجعله يقول: «لا بد لرؤية فولتير من المرور بين يدي: إن كنتم تريدون فولتير، فها هو. لكن عليكم الانحناء أمام فيليت...».

قامت السيدة نيكر بالزيارة متأففة؛ إذ كانت تعرف، بوصفها جنيفية، عائلة

فاريكور، فلا تروقها رؤية آنسة من آل فاريكور متزوجة من ذلك السافل فيليت. لكن فولتير لم يعبأ كثيرًا بذلك الاستياء، أليس السيد نيكر وزيرًا للمالية؟ إن سمو مكانة الزوج تكفي لجعل زوجته محبوبة.

استقبل أيضًا مواطنًا أميركيًا هو الدكتور فرانكلين. فتعانقا عناقًا فلسفيًا، وذرفا الدموع بالتأكيد. أليسا من سن واحدة وعلى الدرجة نفسها من الزندقة؟ فتكلم فولتير بالإنكليزية. وقد أخذ أحدهم عليه ذلك، فرد فولتير على الفور:

«أطلب منك المعذرة، فقد سعِدتُ بشرف الكلام بلغة فرانكلين نفسها».

وكان فرانكلين قد اصطحب حفيده البالغ خمسة عشر عامًا، فطلب إلى البطريرك أن يهب الصبي بركته. فيا له من مشهد!

صعد فولتير فوق منصة، وأدى دور الكاهن الكبير أحسن أداء، فبسط يديه المعروقتين فوق رأس الصبي وقال بالإنكليزية: «باسم الله والحرية» (God and Liberty). وكان عشرون شخصًا يحضرون ذلك المشهد بتأثر عميق، وكثيرون ذرفوا الدموع مدرارًا؛ فليس من شيء يعدل في نداوته ذلك الجو «الفلسفي». ثم جاء اللورد ستورمونت، سفير إنكلترا، ليصغي مبتسمًا إلى هجمات فولتير على شكسبير. وقيل إنها ما كانت تفتقر إلى الحيوية ولا إلى المجون. وكان في أثناء ذلك يعاني الكثير من مثانته. وجاء عازف بيانو قيثاري ليفتنه بعض الوقت وينسيه أوجاعه بالعزف على بيانو السيدة دو فيليت. أما في نهاية ذلك النهار، فكان فولتير منهكًا، وانتفخت ساقاه. وبدا ترونشان مستاء جدًا. ولقد عبّر عن استيائه، بل قام بنشره. فقد بدا له تصرف السيدة دوني والسيدة دو فيليت مقيتًا جدًا. إنهما تنالان البهجة بقضائهما على العجوز! فالأمر بادٍ للعيان. فلم تكن تساور ترونشان أي أوهام حول المحيطين بفولتير، وبناء على ذلك ظل في منأى عنهم. ثم قام بتسريب الملاحظة الآتية إلى صحيفة باريس: «كنت أود أن أقول شفويًا للمركيز دو فيليت، إن السيد دو فولتير لا يحيا منذ وجوده في باريس إلا على حساب قواه. وإن على أصدقائه كافة أن يتمنوا له ألا تظل حياته مقتصرة على ذلك الريع. فوفقًا لمجريات الأمور، سوف تُستنفَد قواه قريبًا، لنغدو جميعًا شاهدين، فضلًا عن أننا متواطئون، على موت السيد فولتير».

كان ترونشان يؤدي عمله، فهو يتحدث عن الذهب، وإنما إلى طُرشان. فما كاد الورم يخف عن ساقي فولتير، حتى استؤنِفت الوتيرة الجهنمية. وكان عليه الانتهاء من إنجاز مسرحية إيرين دونما تأخير ليبدأ توزيع الأدوار. وقد كانت للدوق ريشوليو مرشحته وهي السيدة موليه، في حين صار فولتير يتمسك بالآنسة جنفال. وينبغي للمرء أن يرى مجابهة بين هذين الطيفين الهزيلين وجدالًا حول مناقب كل من المفضلتين لديهما: فالأول في مبذل من الدمقس، وقبعة ذات شرائط، والآخر مغطى بالذهب والأوسمة، وكل منهما مستبسل في النزاع وهزيل مثل إبليس. ويشنّان الهجوم في ذلك النزاع الحاد المتسم بكياسة رائعة. وكان قصب السبق من نصيب الماريشال. لم يشأ فولتير أن يقول كلّا لرفيق الطفولة وولي النعمة وناقل الأخبار!... لكنه قام بما ينقذ ماء الوجه للإعادة. فقدم وعودًا مدهشة للسيدة موليه، بأن يكتب من أجلها دورًا يفوق دور إيرين في جماله، إذا ما تخلت عن هذا الدور. فتنازلت. وحصل، في سبيل تسوية الأمور كلها، أن وقعت نجمة ثالثة من السماء، هي الآنسة أرنو. لقد كانت من العيار الثقيل، لذلك، اجتذبت إيرين والكاتب والماريشال إلى فلكها. ولو كانت لدينا فكرة عما يمكن أن يمثل نقل مماثل للأدوار من كلام ومساعٍ وحيرة وإرهاق أعصاب، لسلمنا بأن أيام فولتير كانت مُهلِكة. وعبثًا يقال إنه ينعَم بمواهب السماء كافة ليعيش تلك الحياة؛ فهو يستقبل مئتي شخص يوميًا، وهو بمثانة نازفة وحوالى قرن من العمر يثقل كاهله.

أخذ فانيير نفسه يشكو من أنه لا يجد الوقت الكافي لارتداء ملابسه. أما سيده فيظل مرتديًا المبذل، لكن عليه أن يضع الباروكة ويلبس ثيابه ليستقبل السيدة دو باري. ونجهل ماذا تبادلا من قول، لكنه يقارن «السجية» التي هي سجية حقًا لدى «الجميلة والطيبة»، بالسجية المصطنعة لدى المحظية الكبرى. فنالت «الجميلة والطيبة» قصب السبق. بيد أنه اعترف بأن المحظية تجيد مهنتها إجادة مدهشة؛ ذلك أن المتكلم خبير.

ترك السيد لوبران بعض الملاحظات حول زيارته لفولتير الذي قال له: «عمري أربعة وثمانون عامًا وقد ارتكبت مئة حماقة»، فلم يعرف السيد لوبران كيف يرد. لكن الآنسة أرنو أجابت أنها لم تبلغ سوى الأربعين، وقد ارتكبت ألف حماقة وهي على خير ما يرام.

تلقى فولتير في 20 شباط/ فبراير رسالة من كاهن، هو الأب غوتييه، يطلب منه أن يستقبله. كانت الرسالة لائقة ومتواضعة، وهي لا تخفي رغبة الأب في مساعدته على إنقاذ روحه، وأنه سوف يصلي من أجله، وأنه ينتظر رسالته من غير رغبة في المضايقة.

فعلت تلك الرسالة فعلها في نفس فولتير. فوجّه دعوة إلى الكاهن ذكر فيها الاحتفال الذي قام في أثنائه بمنح بركته إلى حفيد فرانكلين. صحيح أن ذلك السلوك لم يكن قويمًا جدًا، لكنه ترك في النهاية الباب مفتوحًا.

كان ذلك الكاهن يسوعيًا سابقًا. فهنالك بالتأكيد أحد أبناء القديس إينياس[79] يمشي على خطى فولتير. فكثرة المصادفات لا تعود مصادفة؛ إذ حين يتجاذب أشخاص على ذلك النحو يكون ذلك مدى الحياة وحتى ما بعد الحياة. فحين يسمع بكلمة «يسوعي» يرتعش وترٌ داخل كيانه: إن الطفل الذي لم يعرف أمه، والذي ما أحب أباه ولا أخاه، كان معلموه يحبونه وهو أيضًا يحبهم. لقد أضحى الولدَ المتمردَ، لكنه كان ابنهم الأكثر رهافة في الحس، والأكثر عصبية، والأكثر زهوًا أيضًا. فماذا كان على أولئك المعلمين الصالحين أن يفعلوا من أجل الاحتفاظ به؟ المستحيل. كان عليهم أن يصفقوا لوقائع مجونه وتدنيسه المحرمات. فكان في وسعه، ببسمته التي لا تُقاوَم، أن يغمز: «ما نحن بمخدوعين، نحن أهل الذوق والفكر، ونحن نتفاهم... وما همنا من رياء الأغبياء، والرث من الثياب الرومانية، والدمى المتحركة للتسلسل الكنسي... آه! فلنضحك! فنحن بصحبة كاردينال مثل بابي لا بوكتيير». ذلكم، بحسب ما يرى، ما كان على أساتذته القبول به من تلميذهم، لو كانوا جديرين برأيه فيهم.

لقد وضعه الآباء الصالحون في مكانه، فاغتاظ من ذلك، ولا سيما أنه كان مقتنعًا بأن الأغلبية بينهم ما كانوا أكثر منه وهمًا حول «الأسرار المقدسة».

كان الحديث الأول مع الأب غوتييه وديًا. سأله فولتير من فوره عمن أرسله إليه، فأكد له الأب أنه جاء من تلقاء نفسه، لكنه لم يخفِ عنه أنه سوف يقدم

---

(79) إينياس دو لويولا (1491-1556)، مؤسس الحركة اليسوعية في عام 1534. (المترجم)

عرضًا لزيارته إلى رئيسه الأب دو فرساك، كاهن سان سولبيس. فراقت فولتير تلك الصراحة. ثم جاء ثلاثة أشخاص فقطعوا ذلك الحديث، ومنهم السيد دو فيليت، فأعيد إلى مكانه: «هيا! أيها السيد، أرجوك أن تدعني مع صديقي الكاهن، فهو لا يداهنني». ودخلت السيدة دوني وفانيير متعلّلَين بحجج شتى، ثم قالا أخيرًا إن تلك الزيارة تتعب فولتير لأنها تثير قلقهما. وكرر الأب غوتييه الزيارة، فكررا التدخل والمقاطعة. وظهر بين هذا وذاك كاهن ذو رؤيا اسمه الأب مارت، تقدم تقدمًا مباغتًا صوب فولتير وقال له: «ينبغي أن تعترف لي على الفور، فذلك ضروري ضرورة مطلقة، وليس من مجال للتراجع، فأنا هنا من أجل ذلك».

فأقنعوه بلياقة أن من الخير له الخروج واستنشاق الهواء الطلق. ولقد عاد مرات عديدة ليجرب حظه، أو بالأحرى ليفرضه. فكان لفولتير بعض التفكر في ذلك الشأن: لقد ارتأى أنه سيغدو في باريس موضع رهان بين أطراف شتى، وأنهم سوف يتنازعون بشأن روحه. وإذا ما أصابه الضعف، فلن يعرف من سيمضي بها؛ فقرر أن يحتفظ بها لنفسه. لكن عليه، في ذلك السبيل، ألا يقع مريضًا. أما واقع الحال، فقد كان كذلك وعلى درجة أكبر مما كان يظن. إلا أنه كان نشوان بالمداهنة. وهو ما عاد يقيس قواه، ولا مدى ضعفه.

جاءت السيدة دو ديفان مرتين، فردّ فولتير على البطاقة التي وجهتها إليه فور وصوله: «لقد وصلتُ ميتًا لكني لا أريد القيام من الموت إلا لأرمي بنفسي على قدمي المركيزة دو ديفان». فهي التي جاءت مع خشيتها من الاختلاط بأهل الفكر كافةً من الممثلين الرديئين الذين تعج بهم العاصمة. ولكَم كانت نظرتها صائبة! فقد قال واحد اسمه فيار قام بزيارته في اليوم الأسبق، إنه التقى ثلاثمئة شخص: «لقد كان هناك قاطنو برناس جميعًا من الحضيض حتى القمة. وهو لن يقوى على الصمود في وجه ذلك الإرهاق، وربما سيموت قبل أن أحظى بلقائه». بناء عليه، استعجلت السيدة دو ديفان رؤية فولتير - أو بالأحرى سماعه - فمن المعلوم أنها كانت مكفوفة. والتقت السيدة دوني: «امرأة فاجرة». ثم فيليت: «كوميدي سطحي وتافه، بل من النوعية المرذولة». فقد كانت، على الرغم من أنها مكفوفة، ترى بصفاء. وجعلها فولتير تنتظر ربع ساعة قبل الخروج من غرفته. فهل مثانته هي السبب؟ أم هي إيرين؟ فهو لم يتحدث إلا عن إيرين. وقالت المركيزة: «ليس في ذهنه سواها». قص عليها زيارة الأب غوتييه، فيما كان فيليت يرغب

في روايتها بدلًا منه، فأسكته فولتير بقوله إنه يهرف. ويبدو أنه وهو في باريس كان يتحمل فيليت بمشقة أكبر مما كانت عليه الحال في فيرني. وخلص في ختام حكايته عن الأب إلى القول: «ولسوف ينقذني ذلك من السخرية أو الفضيحة».

علموا بنبأ حسن: لقد قام الملك بتكليف بيغال بصنع تمثال نصفي لفولتير. فظن أنه حظي بالنعمة. لكن للأسف! لم يكن الأمر سوى توصية على عدد كبير من التماثيل النصفية التي أجازوا أن يكون واحدًا منها لفولتير. وما كان للملك من يد في ذلك.

في 25 شباط/ فبراير، وبينما كان في سريره يملي رسائل على فانيير، باغتته نوبة عنيفة من السعال، وتدفق الدم من أنفه وفمه، فصرخ يقول: «آه! إني أبصق دمًا».

استدعت السيدة دوني ترونشان. وأعطى فولتير لفانيير بطاقة لاستدعاء الأب غوتييه، لكن فانيير رمى بالبطاقة جانبًا. وفي 26 شباط/ فبراير، أعاد فولتير استدعاء الأب. لقد أوعز بالكتابة إليه قائلًا للأشخاص الذين كانوا يملأون غرفته: «أيها السادة، ستكونون في الأقل شهودًا على أني طلبت ما يطلقون عليه هنا اسم تتميم واجبات المرء الدينية». وأضاف إنه لا يريد أن يُصار إلى إلقاء جثمانه في مكب النفايات.

جاؤوه بشاب يشرف على تمريضه فعرف كيف يستبعد الزيارات كافة، وجاء جرّاح ليبيت في غرفته كل ليلة. يبدو أن المحيطين به أدركوا أخيرًا مدى ما يتهدده من خطر.

لم يأتِ الأب غوتييه إلا في اليوم التالي. وفيما هو يهم بالدخول صادف ذلك الشيطان العجوز، الدوق ريشوليو، خارجًا، فوجّه الأخير توصيات إلى الأب بأن يحرص على عدم إخافة «صديقه رفيق لويس الأكبر». واستقبل فولتير الأب أحسن استقبال، وذكّره بوعده له بأنه سوف يعترف قبل موته. أما وقد بدا أن الساعة حانت، أضاف: «وإذا ما رضيت فسوف نقوم بعد قليل بتسوية هذه المسألة الصغيرة». فأعلمه الأب بأن كاهن سان سولبيس سمح له بسماع اعتراف فولتير، لكنه يطالب مسبقًا بالتراجع عما سبق وقاله. فقبل فولتير راجيًا

الحضور أن ينسحبوا. وقام فانيير، كما هي عادته، بإلصاق أذنه بالباب الذي لم يكن سوى إطار خشبي شُدَّ من فوقه قماش وورق. وهو ابتكار ممتاز بالنسبة إلى سكرتير أمين، إذ يقول لنا فانيير إنه كان سيعدّ نفسه أنه خرق أوامر سيده في ما لو أطاعه بتركه وحيدًا؛ فواجبه يقوم على عدم تركه مطلقًا. وعلى العموم، فهو يؤدي واجبه لدى قيامه بالتجسس عليه. وها هو السكرتير وقد استبد به اليأس لدى سماعه ما طلب الأب من سيده. فصار فانيير يصطنع حركات لمنع الآخرين من السماع، إذ لم يكن وحيدًا وراء الباب، فهنالك الأب مينيو والسيد دو فيايفيل. لكن هذين الاثنين كانا خجلين من تنصتهما. واستدعى فولتير فانيير طالبًا منه ما يكتب به. وكان السكرتير على درجة من السخط تمنى معها لو يكسر المحبرة. ثم قدمها له ويداه ترتجفان. فكتب فولتير بيان الرجوع إلى الإيمان من دون ارتجاف، ثم دخل مينيو وفيايفيل ليوقعا البيان بصفة شاهدَين.

طُلِب إلى فانيير أن يوقع بدوره، لكنه أبى. وحين سئل عن سبب ذلك أجاب إنه جنيفي وبروتستانتي، فاعتذروا منه ولم يطالبوه بشيء من بعد. وحين صار فانيير وحده مع سيده، سأله أن يكشف له عما يجول في فكره. ماذا سيقال عن ارتداده؟ وماذا في وسع سكرتيره الوفي أن يقول دفاعًا عن ذكراه؟ فتناول فولتير ورقة وكتب فيها: «أموت وأنا عابد لله، ومحب لأصدقائي، وغير كاره لأعدائي، وأنا أزدري الخرافات والأوهام».

لم يتناول فولتير القربان. فقد انسحب وفق قول فانيير وهو يقول للكاهن: «سيدي الكاهن، انتبه جيدًا إلى أنني أبصق دمًا، لذا ينبغي أخذ الحيطة من عدم امتزاج دمي بدم الرب». أما دالامبير، فكتب إلى فريدريك الثاني شيئًا مماثلًا، لكن بفظاظة أكبر. فقال إن فولتير رفض تناول القربان «بسبب أنني أبصق دمًا وإن من الممكن أن أبصق شيئًا آخر». وطلب فريدريك أن يعرف كل شيء في أدق التفصيلات. رسم دالامبير للأب غوتييه صورة محببة: إنه كاهن مسكين، جاء تحدوه طيبة روحه لينقذ روح فولتير. وإن تلك الطيبة هي التي فتحت له قلب فولتير. مع ذلك، فحين أقبل الأب بعد مرور يومين، قيل له إن المريض ليس في وضع يسمح له باستقباله. واعتقد أنه فهم، إذ ظن أن اللكمة جاءت من «فلاسفة» عدة رآهم في الصالون، وبينهم دالامبير. لكن الأب المسكين أخطأ خطأ فادحًا: لقد جاءته اللكمة من كاهن سان سولبيس! فالسيد فرساك ارتأى أن مرؤوسه مضى

بعيدًا وبسرعة مفرطة؛ فاشتكى إلى كل من فيليت وفولتير. فينبغي أن يعود إلى ذلك الكاهن شرف إعادة إنقاذ تلك الروح الملحدة والفائقة الشهرة. فتبين لفولتير على الفور أن المسألة سوف تتفاقم، وفي سبيل أن ينعم بالراحة، استبعد الأب غوتييه، الذي أكد أنه لم يتصرف إلا بموافقة رؤسائه، لكن نفى هؤلاء ذلك. فمن عسانا نصدق؟ وجاء كاهن سان سولبيس وحده في 13 نيسان/ أبريل، ولم يُخفِ غمه لأن كاهنًا مغمورًا سبقه. فتلقى بواب قصر فيليت أمرًا بعدم السماح لكاهن آخر بالدخول سوى كاهن سان سولبيس.

أما وأن الكهنة أتعبوا فولتير أقل مما فعل مهرجو برناس، فإن صحته تحسنت. وعلم أن الأب غوتييه لديه تائب آخر، وهو جاحد أيضًا اسمه أتينيان، أحس بدنو أجله فتراجع عن جحوده واعترف فشفي. ولما كان الكاهن مرشد غير القابلين للشفاء، جرت مقارنة ما بين مهماته واعتراف الزنديقين:

«إن تكريم الكاهنين المتماثلين

ظل محفوظًا بحقّ

لكاهن غير القابلين للشفاء».

ما إن شعر فولتير بأنه صار أفضل حتى بدأ يأسف على ردّته. لكن ما كان في وسعه التخلص من ذلك الخوف الرهيب الذي ظل يمسك بخناقه: الخوف من أن يُدفَن مثلما تُدفنُ الكلاب. فيقول: «والخلاصة أني لا أريد أن يُرمى بجسدي في مكب النفايات. فهذه الحثالة من الكهنة ترهقني لكني بين أيديهم، وينبغي لي أن أنسحب. وحين أغدو قادرًا على الانتقال، فسوف أمضي. وآمل ألا تلاحقني حماستهم حتى فيرني. ولو أني كنت هناك لما نالني كل ما نالني».

لكن ذلك كله غير لائق. صحيح أننا تعودنا على تلك الأشكال من التمرد والثورة، إلا أننا قريبون جدًا من الخاتمة الحاسمة، حتى إن تعبير الكوميديا ما عاد ملائمًا: فكل نهاية هي تراجيديا. والمرء لا يتخلص من الحال التي هو فيها آنئذٍ بكلمة طيبة مثل: «حين يموت المرء في سورات فإنه يموت بصخب وضجيج». وحين يموت المرء في باريس فإن في وسعه في الأقل أن يغلق الباب على نفسه وأن يموت بصمت. ويكون ذلك، لعدم وجود شعور آخر، شكلًا من

الكرامة. وأما الصمت، فهو ما لا يأمل أحد في رؤيته ملتزمًا به. لقد عاش في الصخب وسوف يموت كذلك.

بعد النزاع بين الكهنة، زاد الطين بلة نزاعٌ بين الأطباء؛ إذ استدعى فيليت، الذي لم يكن يحب ترونشان، طبيبًا عصريًا هو السيد لوري. فالتقى الطبيبان وتوافقا على ما فيه مصلحة المريض. لكن فيليت ما عاد راغبًا في رؤية ترونشان، إذ إن الأخير هو الذي جعل فيليت يُطرَد من غرفة فولتير.

كانت المنازعات بين الطبيبين والسيدة دوني وفيليت وزوار شتى، تبلغ في بعض الأيام درجة من الحدة، تغدو معها غرفة فولتير أشبه بنزل للمسافرين. فكيف له أن يعرف الشفاء في جو مماثل؟ وباتت حاله أفضل، إلا أنه ما زال يبصق دمًا. واستؤنِفت الزيارات. فقرأ عليه لا هارب فصلًا من المسرحية التي انتهى مؤخرًا من كتابتها، وكان موضوعها معركة؛ فيجأر لا هارب بالصراخ، ويكر ويفر ويطاعن. فيتوقف المارة في الشارع للإصغاء إلى تلك الجلبة. وتحمّل المريض حتى النهاية. وأخيرًا قال: «عليكم أيها السادة أن تطلبوا لي صليب سان لوي[80]»، فظنوا أنه مصاب بالحمى. فقال: «كلا، لكني جدير بأن أتقلده لأني تحملت بشجاعة تلك المعركة الرهيبة».

وأتى حينٌ ظهر فيه شعور جديد تمامًا، ليضاف إلى المشاعر كافة التي أوحى فولتير بها إلينا: إنه الشعور بالشفقة. وإنه لجدير بها، فما من مخلوق موضع إهمال ولا موضع معاملة أكثر عنفًا في عزلة أوجاعه، من صنمٍ معبود تجري التضحية به من أجل جمهوره.

على الرغم من وضعه مشرفًا على الموت، كان لا يزال يحلم بتحقيق فوز جديد: إنه يريد الذهاب إلى فرساي! فذلك هو حلم حياته وتاج مجده! فكان في أوروبا ملوك وأباطرة وإمبراطورات، لكن هنالك على وجه الخصوص الملك الحقيقي، ملكه هو. والملك يشيح بوجهه عنه. فكان ذلك بالنسبة إليه وضعًا غير مقبول، حتى ليماثل موته من دون جنازة مسيحية. وحسبه بسمة من الملك أو كلمة

(80) وسام ملكي وعسكري، من عهد لويس الرابع عشر. (المترجم)

قبل أن يموت... وكان أصدقاؤه كلهم يصرفون نظره عن السعي وراء تلك النزوة. أما الذين يترددون إلى فرساي مثل ترددهم إلى بيوتهم، فيقولون له إنها المكان الأكثر انزعاجًا في الدنيا، وإنه ليس لدى الملك ما يقوله له، وإن الملكة... وإن السيد... وإن السيدة... باختصار، فقد كان أولئك الناس كلهم تافهين. ربما... لكن في نظره هو، فكل ما تحقـق له من مجد كان هجينًا، لأن ملك فرنسا لمّا يعترف به. وإن هذا الموقف من رجل ينظرون إليه، بحق، على أنه تحدى كل سلطة، ليفتح الأفق أمامنا فنرى مدى رسوخ مكانة الإيمان الملكي في النفوس، قبل الثورة الفرنسية بأعوام قلائل.

وإن كل ما يمكن نيله من فرساي هو أن يواصل الملك «تجاهله» وجود فولتير. ولنا نحن أن نأسف على أن يكون لدى ملكِ بلادٍ على تلك الدرجة من الاستنارة ذلك المقدارُ من «الجهل».

إرجاء جديد، وبسمات من باريس ومشاحنات بيتية

ما كاد يقوى على الوقوف منتصبًا حتى دفعت به السيدة دوني إلى وسط حياتها المضطربة بوصفها نجمة اجتماعية. وكرر ترونشان تحذيره، ناصحًا بحزم العجوز وحقائبه وإرساله إلى فيرني. لكن لم يقم أحد بتنفيذ ذلك، بل فُتحت الأبواب على مصاريعها وعادت الأرتال تتوالى.

جاء أستاذ في علم البيان اسمه فاريان دو سانت انج، كان قد أعد خطابًا بليغًا، فبدأ بإلقائه قائلًا: «ما جئت اليوم لأرى غير هوميروس، ولسوف أجيء في يوم آخر لرؤية يوريبيد، ثم سوفوكليس، ومن بعده تاسيت...».

فقاطعه فولتير قائلًا:

«أرجوك يا سيدي، ليتك تقوم بزياراتك كلها دفعة واحدة، فأنا مسنٌّ جدًّا».

وقام آخر بتهنئته على طول عمره، متوقعًا له: «لسوف تتجاوز فونتونيل في فن العيش الطويل...[81]». فهتف فولتير قائلًا: «آه يا سيدي، لقد كان فونتونيل

---

(81) عاش الكاتب فونتونيل مئة عام (1657-1757). (المترجم)

نورمنديًا، فخدع الطبيعة». واستقبل أيضًا الفارسة[82] إيون التي كانت تحمل توصية من وزير الخارجية. فكان الخدم والزائرون كافة يقفون مترصدين: هو! هي! وفشلت الزيارة بسبب ذلك الفضول الفاضح، فغطت «الفارسة» وجهها بكمها وانصرفت سريعًا بعد بضع كلمات مجاملة.

استؤنفت التدريبات على مسرحية إيرين، فكانت بالنسبة إليه سببًا لانفعالات مفرطة وخطرة. لم يكن يشهدها كلها، غير أن تلك التي يشهدها تجعله لاهثًا ومنهكًا. كان الممثلون على شيء من الرخاوة، فما عادت تلك «الحمية المتأججة» تظهر عليهم كما في أيام الآنسة دوكلو. ورغبت السيدة دوني، التي لا يُروى لها غليل، في أن يحضروا ليتدربوا في غرفة خالها. فكان في ذلك قضاء عليه. لكنها لم تكن تفكر إلا في «العرض الأول»؛ في الانتصار الحاسم. فبمَ تهمّها صحة الرجل العجوز وأوجاعه؟ ووجد لديه القدرة على التمرد حين جاءت الآنسة كليرون لرؤيته، فتظلم أمامها من أنهم يسيؤون تمثيل إيرين، وقرأ عليها فصلًا بصوت تفوق قوته التصديق، بالنسبة إلى رجل مشرف على الموت. فقالت الآنسة كليرون إنه ليس هناك من ممثلة تتمتع بقوة ذلك الأداء، وإن طلبَ ذلك من السيدة فستري يعني قتلها.

فأجابها الكاتب العنيد: «ذلك ما أزعم، يا آنسة، أريد أن أؤدي تلك الخدمة للجمهور».

قال له دوقٌ باستخفاف إن أداء الممثلين كان جيدًا جدًا. فردّ عليه قائلًا: «ربما يكون جيدًا بالنسبة إلى دوق، أما بالنسبة إلي فهو بلا قيمة تُذكَر». ولقد حمل من الهموم ووجّه من التوبيخ والتحذير ما جعله يقع مريضًا من جديد. وظل طوال أربعة أيام كمن سيقضي نحبه، فلم يفارقه أصحابه وظلـوا بقربه. وكان يهمس قائلًا للزائرين: «فولتير يموت، فولتير يبصق دمًا»، ويعود فيسقط في الوهن والانحطاط. ثم تعود إليه الحياة، لكنه في بحر أربعة أيام شاخ كما في عشر سنين. لقد خرج من السرير مثل شبح خارج من القبر.

(82) تحمل المرأة الفرنسية الرتبة العسكرية لزوجها. فهنالك: الجنرالة، والماريشالة، والفارسة... (المترجم)

على الرغم من ذلك كانت باريس كلها تضج بالمدائح: غزليات وقصائد ومقالات وأقوال تقريظية على وجه الخصوص. وكانت تصله بالبريد بعض النفايات المغفلة. ولاحظ، وهو الفيلسوف، أن تلك الشتائم كانت تصله في فيرني بطريقة مستحق الدفع، أما في باريس فأجر تلك النفايات مسبق الدفع. فقال: «إني لأكسب مالًا».

جرت في 14 آذار/ مارس المراجعة العامة لمسرحية إيرين. لم يحصل قط أن رافقت احتفالية مماثلة «العرض الأول» في المسرح الفرنسي. حضرت الملكة والأمراء والبلاط كله والسفراء، وكانت الصالة لا تقل تألقًا عن المقصورات. كانت الأجواء مبهرة، فلا يدري المرء بمَ يُبدي إعجابًا أكثر: أبمجد فولتير، أم بخير عمل الجمهور الذي اعتزم أن يصنع فوزًا بأي ثمن لمسرحية ضعيفة، وفولتير لا يخفي ذلك. وكانت دوني التي لا يُستغنى عنها جالسة في مقصورة، تمثل الخال الذي كان راقدًا. وقيل إن الملكة دوّنت بعض الملاحظات بقلمها. وبين كل فصل وآخر، كان ينطلق مراسل وهو يسابق الريح إلى شارع بون، ليحمل نشرة الفوز إلى الرجل المائت. كان الوضع رائعًا بعد الفصلين الأول والثاني، وبعد الثالث والرابع اتسم سلوك القاعة بالتهذيب. أما الفصول الأخيرة فكانت سطحية، إلى حدّ أن صبر الجمهور شكل الروعة الحقيقية للأمسية.

في الأيام التالية، قام فيليت والسيدة دوني بعرض شبح فولتير مرة أخرى. وكانت هاتان الدميتان المتحركتان تتبختران تبختر الطاووس، وكأن إطراء الجمهور مُوجَّه إليهما. وقام دوق برالان بزيارة رائعة للشاعر. كما أرسلت إليه الأكاديمية وفدًا جديدًا، فطلب من المجمع بكل احترام أن تتكرم بقبول إهداء مسرحية إيرين. ووضع النص بين أيدي زملائه راجيًا منهم القيام بتصحيحه، فأدخلوا عليه بعض اللمسات الخفيفة وأعلنوا افتتانهم بتلك الخطوة. وسار كل شيء على ما يرام من ذلك الجانب.

أما من ناحية المثانة، فاستجد بعض التحسن، فشعر بأنه عاد إلى الحياة من جديد، فطالب بخيول وعربة. فهو على الرغم من عدم رضاه عن تلقي الزيارات، رغب في القيام بها. عاد في 21 آذار/ مارس ليتعرف إلى باريس من جديد، وحرص بادئ ذي بدء على زيارة ساحة لويس الخامس عشر، ساحة الكونكورد حاليًا،

والتي لما يكن رآها. وأفعمه عمل غابرييل غبطةً، فهو معماري العصر، وذلك هو ذوقه الكلاسيكي، السامي والنقي. ولقد عرفه الجمهور فرافقه حتى شارع بون.

عند عودته، سعد بلقاء وفد من «محفل الأخوات التسع» الذي كان في انتظاره. ولقد جاء السيد لالاند، الأستاذ الأعظم في المحفل، ليوجه إليه دعوة. وقد أعلمه بأنه لدى اجتماعهم - اجتماع الإخوة الماسونيين - أُلقيت أبياتٌ نظمها أحدهم على شرف فولتير، ثم شرب الجميع نخب صحته. لم يكن فولتير ماسونيًا، لكن عشقه للحرية والتسامح، ومعاركه ضد الظلم والتعصب، جعلته ماسونيًا بعاطفته. أعادت جولته إليه بعض الجرأة، وعرف السيد لالاند كيف يستخدم في إطرائه كلمات طبيعية وحارة، فاستعاد من فوره السنين العشر التي خسرها لتوّه، وعاد متألقًا ورشيقًا وقاسيًا ورقيقًا. وتوجه إلى كل فرد من أعضاء المحفل بإطراء جعلهم يظنون أنه يعرفهم منذ زمن طويل، ووعدهم بزيارتهم في المحفل. وتفارقوا أصدقاء، لا بل «إخوة».

ومن بعد تلك العذوبات، هبت العاصفة. فلقد رغب فولتير، قبل أن يذهب ليحضر إيرين في المسرح، أن يعيد قراءة النص؛ النص الذي حفظه الممثلون وأخذوا يلقونه. كان لديه شيء من الارتياب. ولكي يكون واثقًا من الاطلاع على نص الممثلين نفسه، بعث إلى الملقن طالبًا منه نصه. ويا للأسف! فقد كانت تلك القراءة مرهقة؛ إذ أُجريت تصحيحات خرقاء وشاذة على غير علم منه، فمن الأبيات ما جرى حذفه، ومنها ما جرى تعديله. فاستبد به غضب جنوني، كان أكثر خطورة على صحته الهشة منه على المذنبين، لكنه ما عاد قادرًا على تمالك نفسه. واستدعى ابنة أخته، فاستولى الهلع على هذه بسبب صراخه وتهديده، وعرفت أن مسرحية إيرين شُوِّهت بتحريض منها. قال فانيير إنه طوال أربع وعشرين سنة لم يرَ فولتير على تلك الحال من الغضب المسعور. فارتمى على ابنة أخته ودفع بها بكل عنف، فتراجعت لتسقط على قفاها بين ذراعين - ولم تكونا ذراعي كنبة - بل ذراعي رجل اسمه دوفيفييه، كان جالسًا على الكنبة. ولقد أحسنت الاختيار في سقوطها! ذلك أن دوفيفييه هو الرجل الذي سوف تتزوجه بعد مدة قصيرة. والحق أنه لم يكن ذلك وقوعها الأول بين ذراعي ذلك الرجل، لكنه الأول على مرأى من الناس. وأتاحت تلك الواقعة للسيدة دوني أن تقول في ما بعد إنها تزوجت من دوفيفييه لأن خالها هو الذي ألقى بها بين ذراعيه.

ربما لا يكون التعديل الذي جرى إدخاله على إيرين قد شوّه عملًا رائعًا، لكنه أوشك أن يقتل فولتير. وأسوأ ما في الأمر أن كلًا من دارجنتال وتيبوفيل ساهم أيضًا في التلاعب بالنص. وعمل الجميع، بدافع من الحيطة، على إخفاء ذلك في أثناء ثورة الغضب. وتصرف دارجنتال تصرفًا طائشًا، حين تنطح بالظهور بعد أن سمع اسمه يُذكر في موضع اتهام؛ فثار الإعصار مجددًا. وأخذ فولتير عليه قيامه بتعديل منذ أربعين عامًا مضت! وطالبه بمخطوطات جرى تعديلها ثم تهريبها من جانبه، وهو يريد منه إحضارها على الفور. وأنذر السيدة دوني بالتوجه لتأتي بها فورًا، وأن تمضي سيرًا. وكانت تمطر. لا بأس، فلتذهب تحت المطر!

ثم صاح قائلًا: «عاملوني كما لم يُعامَل ابن بارت». ويا للكارثة! لقد كان السيد بارت هناك، واقفًا وراء أشخاص آخرين، لأن المشهد كان يجري على مرأى من رتل الزوار؛ فكان هنالك ثلاثون شاهدًا. وأُنهك فولتير فانهار، فقاموا باصطحابه. لكن المرسيلي بارت شرع في تلك الأثناء يضرب الأرض بقدميه معتبرًا أنه تعرض للشتيمة. ويبدأ يصرخ متهددًا: «سوف أثأر! أمسكوني!». كان يريد أن يصارع رجلًا على وشك أن يلفظ أنفاسه. وظهر فولتير مجددًا، فتودد إلى بارت، وقال له إنه ليس من شيء جارح في كلامه، بل الواقع على العكس من ذلك. وضحك الجميع، وضحك بارت أيضًا.

الملاحظ أن الناس المحيطين بفولتير يشكلون فرقة متماسكة، سواء أتعلق الأمر بمسرحية درامية أم كوميدية أم هزلية. وإنه لأداءٌ مدهش بالنسبة إلى رجل باتت إحدى قدميه في القبر. والأمر معاكس للملل تمام المعاكسة. في تلك الأثناء، دخل مهندس اختصاصي بالجسور والطرق. فقال له: «آه يا سيدي، أنت رجل سعيد، فأنت تبني جسورًا قوية، وليس هناك دارجنتال ليرتئي بناء قناطر فيها».

وشرع في اليوم التالي يقدم اعتذاراته: «اعذرني يا ملاكي الحبيب، فرأسي الذي بلغ الرابعة والثمانين، لمّا يتجاوز الخامسة عشرة...».

فكيف للمرء أن يلوم شخصًا كدارجنتال؟ ثم قام بالملاطفات نفسها مع تيبوفيل. ومرّت العاصفة.

توجه لرؤية «سولي الغالي»، أي تورغو. ويذكر كوندورسيه أن إعجاب

فولتير بتورغو يتجاوز حدود الكلام، إذ كان يرى فيه البرهان على أن عصره لم يكن عصر انهيار على قدر ما قيل عليه. وقبّل يد الحكيم هاتفًا بصوت يقطعه النشيج: «دعني أقبّل هذه اليد التي وقّعت على خلاص الشعب». وقال وهو يقترب منه: «حين أرى السيد تورغو أعتقد أني أرى تمثال نبوخذ نصر». فقال الوزير الذي فقد الحظوة مؤخرًا: «أجل، لكنه ذو قدمين من الصلصال». فهتف فولتير قائلًا: «وأما الرأس فمن ذهب! الرأس من ذهب!».

التأليه

في 30 آذار/ مارس، كان فولتير هو الملك المكرّس والمتوّج من باريس.

فقبل أن يذهب لحضور إيرين، توجه بزيارة إلى الأكاديمية التي كان مقرها آنذاك في اللوفر. فركب عربة جميلة مبطنة بلون لازوردي ذي نجمات ذهبية. وكانت العربة تتقدم بصعوبة بسبب الحشد الذي كان يزاحم الخيول والعجلات هاتفًا بحياة فولتير. وكان في باحة اللوفر آلاف عدة من الأشخاص ينتظرونه مصفقين. وبدا المشهد مذهلًا عندما اصطفّت الأكاديمية الفرنسية في موكب خارجة لاستقباله. إن مثل ذلك التكريم ما جرى من قبل قط لأي عضو في المجمع. لكن لا بد من ذكر الحقيقة: كان ثمة عدد من المتغيبين، إذ امتنع الأساقفة عن الحضور. كان على فولتير أن يقبل بمنصب المدير الذي قدمه له الحضور بالإجماع. ثم قرأ دالامبير خطاب إطراء موجَّهًا إلى بوالو، وعرف كيف يضمّنه بعض المديح للزميل الفائق الشهرة الذي لم يجلس إلى جوار زملائه منذ ثمانية وعشرين عامًا. وأنهى بقصيدة مديح اهتز لها الحضور حين دمج فيها العباقرة بوالو وراسين وفولتير.

شكرهم فولتير بأسلوبه المعهود، أما وأن الوقت صار ضيقًا، فقد توجه إلى المسرح الوطني. لم يكن قطعُ المسافة بالأمر اليسير، فالحشود ازداد حجمها وحماستها أيضًا. لقد كانت مسيرة النصر، بخطى محسوبة، حتى باب المسرح. وكان نصرًا شعبيًا عفويًا من غير تكلـف، ومفعمًا باللطف. فالناس يتسلقون العجلات والنوابض، ويندسّون عبر الباب. وطلب رجل الإذن في تقبيل يده، ومن دون أن ينتظر الجواب أمسك كيفما اتفق بيدٍ وقبّلها. ثم هتف قائلًا: «أقسِم على أنها يد بضّة حقًّا بالنسبة إلى رجل في الرابعة والثمانين». لقد كانت يد «الجميلة

والطيبة» (بيليبون)؛ فلربما أجاد الاختيار أكثر مما كان يظن. وكان إعجاب السيدات هو الأكثر عنفًا؛ فكن ينتزعن ملء قبضاتهن من وبر فروته: فروة زيبلين القيصرة الروسية!

كان يرتدي ملابس تشبه أزياء عهد الوصاية، فبدا آتيًا من قرن آخر، أو خارجًا من مذكرات سان سيمون. فباروكته الضخمة التي يضعها منذ عام 1720، والتي يقوم بتمشيطها بنفسه كل صباح، يمكن أن تثير الضحك. لكن ليس ثمة ما يضحك في رجل صنع له المجد تمثالًا. دخل القاعة فارتفع هتاف بلا نهاية. جلس في مقصورة نبلاء غرفة الملك المواجهة لمقصورة الأسقف كونت أرتوا، وكانت السيدة دوني والسيدة فيليت تحتلان مقدمة المقصورة، فهمّ بالجلوس على المقعد الخلفي، لكن صيحات الجمهور في الصالة ارتفعت مطالبة بأن يجلس في المقدمة، فجلس بين السيدتين. كانت الصالة حارة وصاخبة، تلتهب حماسة، وبدأت تهتف بإيقاع: الإكليل! الإكليل! كانت باريس كلها على اطلاع على سر التدبير بشأن تكريم فولتير في ذلك المساء. في ذلك الوقت، شوهد الممثل بريزار بجانب فولتير وهو يقوم بوضع إكليل من الغار على رأسه. وبدت القاعة في تلك الساعة وقد استولى عليها الهذيان، ودوى داخلها رعد من الهتافات بحياته. كان فولتير في حالة من الاضطراب، فهو يبكي ويضحك في آن معًا، ويتمتم قائلًا: «آه يا إلهي، أنتم تريدون قتلي من شدة التكريم». والحق أن أعصاب العجوز، ما بين غضب مثل غضب الأمس، وغبطة مثل التي يعيشها اليوم، تعرضت لامتحان قاسٍ. ورفع التاج فوضعه على رأس السيدة فيليت، لكن الجمهور أخذ يجأر بالصراخ مطالبًا بأن يسترجعه. حينئذٍ دخل الأمير دو بوفو إلى المقصورة، فرفع التاج عن رأس «الجميلة والطيبة» وأعاد تتويج فولتير الذي حاول منعه. فزمجر الجمهور وأذعن فولتير، فكانت الغلبة للأمير. كان الصخب يصمّ الآذان، وبدت القاعة وسط ضباب من الغبار بسبب حركة الجمهور واضطرابه. أخيرًا رُفعت الستارة، وكانت القاعة تغصّ بالحضور.

لم تُسمع مسرحية إيرين إلا بمشقة؛ فما كانت تعلو سوى أصوات التصفيق. فالناس ما جاءوا من أجل المسرحية بل من أجل واضعها. وساد شعور بأنه عرض أخير، وإسدال مهيب للستارة، وبأنه لا بد من النجاح مهما كان الثمن. وما كان الناس يعرفون ما يفعلون، لكن واحدًا تذكر الاحتفال الذي أقامته الآنسة كليرون

قبل ذلك بأعوام قلائل، فهرعوا لإحضار تمثال فولتير النصفي وقاعدته ونصبوهما في وسط خشبة المسرح. فاستولى الهذيان على القاعة من جديد. وشعر الجمهور بأن ما ينتظره سوف يحصل. وتراءى للآنسة لا شاساين ما ينبغي فعله: واحدة من الحركات الطقسية التي تخلق العبادات. فأحاطت التمثال النصفي بشرائط من الزهور، وشكل الممثلون نصف دائرة من حوله كالكهنة، فيما كان بريزار يرتدي ثوب راهب! فبدأوا يرمون التمثال المقدس بحفنات من بتلات الأزهار. أما فولتير، فأخفى وجهه بكفيه كالمذعور، واختبأ في صدر مقصورته إلى أن استدعته الصالة بصياح هائل استمر حتى ظهوره. فاق ذلك قدرته على التحمل، فشعر بأنه مسحوق. وتقدم وهو عاجز عن مقاومة الصراخ والاضطراب وذلك الاندفاع الساحر المتصاعد من الصالة، فنكس رأسه واستند بجبهته مصعوقًا إلى سور المقصورة. وأخيرًا رفع رأسه وقد غسلت الدموع وجهه.

هنا تقدمت السيدة فستري من مقدمة خشبة المسرح وهي تحمل ورقة بيدها، فساد الصمت. فقرأت هذه الأبيات التي ارتجلها السيد سان مارك:

«أمام عيون باريس المفتونة
إليكَ اليوم هذا التكريم
الذي سوف تؤيده من عصر إلى آخر
الأجيال اللاحقة العيّابة(83)
كلا، فلستَ في حاجة إلى بلوغ الشاطئ المظلم
لتتمتع بتكريم الخلود.
فولتير، تناول الإكليل
الذي قُدم إليك
فما أجمل أن تستحقه
حين تكون فرنسا هي التي تمنحك إياه».

وارتفعت الهتافات مطالبة السيدة فستري بالإعادة. فأعادت قراءة تلك

---

(83) الميالة إلى النقد القاسي. (المترجم)

الأبيات التي حفظتها الصالة في طرفة عين. وحدث أن نهضت ممثلة استبدت بها الحماسة، فقبّلت التمثال النصفي. وهرع الآخرون جميعًا ففعلوا مثلها. وكانت الحمى الجنونية التي استعرت في القاعة تفوق الوصف. ولو أن أجنبيًا دخل قاعة المسرح في ذلك الحين لحكم بأن الفرنسيين مجانين وينبغي تقييدهم.

جرى من بعدُ عرض كوميديا متوسطة المستوى هي نانين (*Nanine*). قلّما كان يتم الاستماع إلى النص، لأن عواصف التصفيق طغت عليه. وعند خروج فولتير من المسرح، عبَرَ الممرات بين رتلين من النساء المتألقات اللواتي كن ينحنين له احترامًا: لقد كان حقًا خروجًا ملكيًا. ولم يكن هنالك أي تدافع، فشعر بأنه محاط بالإعجاب والاحترام والإجلال.

أبقى الاحترام الناس على مسافة منه في المسرح، لكن ما إن صار في الشارع حتى ارتمى الحشد عليه، فكاد أن يموت اختناقًا. والناس الذين عجزوا عن تقبيل السيد، صاروا يقبّلون خيوله. ثم رغبوا في حل سيور العربة ليجرّوها بأنفسهم، لكن خوفًا شديدًا استبد به من الحشود فتوسل إليهم أن يدعوه يعود إلى البيت بخيوله. وتفاوض الحوذيون مع المهتاجين ووعدوهم بالسير الهوينى حتى يتسنى للجميع أن يروا فولتير على طول المسار. وصل أخيرًا بخير وأمان إلى شارع بون، وسط غوغاء يصعب تخيلها. ثم بكى طويلًا، فكان من شأن ذلك التخفيف من حدة التوتر الذي أرهقه. وما عادت لديه من قوة للتفوه بكلمة واحدة، فانهار ليغرق في سبات عميق كالموت.

ما إن نزل من جبل الأولمب، حتى استأنف حياته العادية

طلع اليوم التالي فوجد نفسه وقد صحا من أوهامه، فهو يعرف ما قيمة تلك الضروب من الهيجان. ولقد كتب قائلًا: «إيه يا صديقي! أنت لا تعرف الفرنسيين. لقد فعلوا مثل ذلك حيال جان جاك... ثم رفعوا ضده دعوى بتهمة الشجار فغدا مرغمًا على الهروب». إنه تأرجح الطبائع العصبية، ما بين الحماسة الصاخبة والتعلق.

بلغه أن الملكة التي توجهت إلى الأوبرا في اليوم السابق، كانت تنوي الذهاب إلى المسرح لكي تلتقي فولتير، لكن أمرًا ملكيًا منعها من ذلك. وفي 2 نيسان/

أبريل، جرى عرض إيرين في البلاط، إلاّ أن فولتير لم يكن في عداد المدعوين. لقد كان من الخير للبلاط عدم عرض إيرين، إذ استفاقت باريس كلها لتعلق على ذلك العمل الأخرق الذي قام به البلاط مجددًا؛ فالملك يهين صنم العاصمة. لكنها مضايقة هزيلة، وليست دليل قوة. ولقد جعلت تلك الومضة الأخيرة فولتير يشعر بأنه عاش أجمل ساعات رحلته وأن من الحكمة اختصار فترة إقامته.

لكن كان عليه أيضًا أن يحسب حساب السيدة دوني، فهي تستمتع كثيرًا وتريد للاحتفال أن يتواصل. وحين سمعت كلمة العودة ارتدّت مجفلة، ودعمها في موقفها كلٌ من دارجنتال وتيبوفيل وزمرة الفلاسفة الذين كانوا راغبين في استثمار فوز رجلهم العظيم حتى النهاية.

«رباه، احمني من أصدقائي...».

رأى آخرون الخطر الذي يتعرض له فولتير: كان ترونشان والسيد دوبوي، زوج الآنسة كورناي، يدعوانه للرجوع إلى فيرني، بل أمّنا له عربة تُسمّى «النائمة» وتتيح للبطريرك السفر في أفضل الشروط. أما السيدة دوني، فلن تسامح ترونشان أبدًا على تلك الطعنة؛ إذ إنها عدّت نفسها مهزومة، غير أنها كانت تعتمد على حليف لا يمكن هزيمته: إنه غرور فولتير. فحين كان يشعر بضعفه، يقرر الرجوع، لكنه يكون آنئذٍ في حال لا تمكنه من السفر. وحين يشعر بأنه قوي، ويستطيع السفر، يرفض أن يسافر. وهو في الحالين يظل مقيمًا، وتكون السيدة دوني هي الرابحة، بل إنها نجحت أيضًا في جعله يشتري قصرًا خصوصيًا فخمًا له حديقة، في شارع ريشوليو، بالقرب من قصر السيدة دو سان جوليان وفي مواجهة قصر شوازول: إنه قصر فيلارسو.

في 6 نيسان/ أبريل توجه إلى الأكاديمية لحضور جلسة عادية، فذهب ماشيًا. كان الناس يتحدثون إليه فيردّ عليهم، وبعضهم أحاط به ورافقه. عند مدخل حديقة تويلري كانت امرأة تبيع كتبًا على بسطة، فهرعت إليه وقالت متوسلة: «سيدي الكريم دو فولتير، إعمل لي كتبًا، وأعطني إياها لأبيعها، تغدُ ثروتي مضمونة. لقد فعلت ذلك حيال آخرين، وأنا امرأة فقيرة». كان يتراءى للناس الطيبين أنه ينشر الحسنات كالمعجزات. وإنه لتعارض عجيب بين صيته الشعبي المتسم بالطيبة والسخاء، وسمعة أدبية ورسمية عن لؤمه وبخله الشديد.

كان يتظاهر بأنه موقن بقرب رجوعه إلى فيرني، فيقول إنه ذاهب ليمضي هناك شهرين. وكان دوق كونديه، حاكم بورغونيا، ينتظره في ديجون ليقيم له احتفالًا، وقد وعدت الفراشة الفيلسوفة بمرافقته. فلِمَ تخلّف عن هذا البرنامج؟ كان ترونشان يقول إنه لو رجع إلى فيرني ليعيش حياة النسك التي اعتاد عليها، لكان من المقدر له أن يعيش عشرة أعوام أخرى.

مباهج باريس الكبيرة والصغيرة

في 7 نيسان/ أبريل توجّه إلى «محفل الأخوات التسع» ليردّ الزيارة الودية التي سبق أن قام بها «الإخوة» إليه. لم تكن هذه مجرد زيارة، بل كانت احتفالًا حقيقيًا. كان المحفل يقع في شارع بودفير بالقرب من سان سولبيس، في دار الرهبان القديم للآباء اليسوعيين. يا لها من مصادفة أيضًا! ها إن ديانته الجديدة تقيم بين جُدُر تلك القديمة، وبات عليه أن يوقّع عقد إيجار مع القديس إغناطيوس. وأعلن الأخ كوردييه دو سان فرمان أمام المحفل بأنه يتفضل بتقديم السيد دو فولتير تلميذًا ماسونيًا... وكان الأخ لالاند الكلي الاحترام قد جمع مسبقًا آراء الفائق الاحترام الأخ باكون دو لا شوفالري، الخطيب[84] في محفل الشرق الأعظم الماسوني، بالإضافة إلى آراء جميع الإخوة في المحفل، والتي أجمعت كلها على تأييد الطلب المقدم من الأخ كوردييه. واختار الإخوة السامي الاحترام، وهم الكونت ستروغونوف، وكيلافا، والرئيس ميلي، والمركيز لور، وبرينون، والأب روني وسواهم، لاستقبال المرشح وتحضيره.

«بعد تلقّينا الكلمات والإشارات والآراء المشجعة، خُصص مكانٌ للأخ فولتير في محفل الشرق بجانب الأستاذ الأعظم الكلي الاحترام. ووضع أحد الإخوة من محفل 'كولون دو ميلبومين' إكليلًا من الغار على رأس المحتفى به، فسارع إلى خلعه (لكَم استُهلِك من ورق الغار في أسبوع واحد!). إن الأستاذ الأعظم قد طوّقه بمئزر الأخ هلفيتيوس الذي أودعته أرملة الفيلسوف لدى محفل الأخوات التسع». كان المركيز فيليت حاضرًا. وعندما أُعطي فولتير قفازَين نسائيين، قدّمهما بدوره إلى فيليت. «بما أنهما يفترضان وجود عاطفة رقيقة ومجردة ومستحقة،

(84) هو الموكل بحفظ القوانين وتقديم أوراق المنتسبين الجدد. (المترجم)

فإني أرجو تسلميهما إلى 'بيليبون' (الجميلة والطيبة)». كان ذلك قمة في اللياقة؛ فهل هو إفراط في الماسونية؟ من ثم ألقى السيد لالاند خطابًا فيه كثير من التبجيل، بدا فولتير في أثنائه منتشيًا.

«هكذا، يا أيها الأخ الغالي، كنتَ بنّاءً حرًّا من قبل حتى أن تُطلَق عليك تلك الصفة، ولقد أدّيتَ واجباتك من قبل حتى أن توقع التزامًا بيدك».

تبعت ذلك كلمات الإطراء وآيات الشكر. ثم طلب عدد من الإخوة الإذن بتلاوة بعض الأبيات، فانبروا تباعًا يقرأون الأفضل من أعمالهم، اتّسمت جميعها بجزالتها. ومرّ الوقت، وعبّر فولتير عن امتنانه لأن ما أُغدق عليه من مديح وتبجيل جعله يشعر بأنه أحد الحكماء. بعد هذه القراءات المستفيضة، تم عزف بعض السيمفونيات، ومن ثم توجّه الجميع إلى المائدة. بالنسبة إلى فولتير، فإن ولائم الأصدقاء هذه تُختصَر بازدراد بضع ملاعق من هريس الفول، وهو ترياق أرشدته إليه سيدة ذات تفكير خلاق ومبدع.

كانت الوليمة أقل دسمًا من الخطب المطولة، وقد تمكن في النهاية من العودة إلى شارع بون. وظهر على الشرفة ما بين دارجنتال وتيبوفيل ليكافئ الجمهور المحتشد طوال النهار، في الشارع وعلى الرصيف، فصفقوا له طويلًا.

كان إجماعهم تامًا: فما إن يظهر حتى يتألـق الناس فرحًا. أما السيدة دوفان التي تعرف كل شيء، فكتبت، وبكثير من الأسف، أن فرنسا كلها تهتف تحية لفولتير، باستثناء البلاط. وذلك شيء جديد في فرنسا: إن البلاط يقاطع الأمة. فهل ثمة عاهل يتولى قيادة أمة، يقوم بمقاطعة رجل هو معبود تلك الأمة؟ حريّ بنا أن نجعل أنفسنا معبودين من خلاله. وكم كان سيبدو الأمر يسيرًا! إذ لم يكن فولتير ينتظر أكثر من إشارة. فهل نتخيل لويس السادس عشر وفولتير يقوده إلى مقصورته في المسرح الوطني؟ كم سيكون الهتاف الذي كان سيسمعه الملك حماسيًا؟ ولو أنه قال لفولتير: «سأحضر يوم غدٍ القداس الاحتفالي في كاتدرائية نوتردام، وأنت سوف تناولني الماء المقدس»، أما كان فولتير سيقدمه له جاثيًا على ركبتيه؟ إن كل التكريم الذي كلّل هامة البطريرك كان سيكلّل الملك، في حين أن شعبيته التي ازدراها البلاط انقلبت نقمة على العرش.

توجه مساء إلى عند سيدة جليلة هي الكونتيسة دو مونتيسون، التي قيل إنها متزوجة سرًّا من دوق أورليان. كان لديها واحد من الصالونات الأكثر تألقًا في باريس، فكيف لفولتير ألّا يستمتع هناك؟ كانوا يقدمون لديها عروضًا كوميدية. وكانت السيدة دو مونتيسون ممثلة كاملة الأوصاف وفرقتها لا تفتقر إلى الموهبة، فذكّر ذلك فولتير بالاحتفال المسرحي في فيرني، لكن على وجه أفضل. كانت المواهب والفطنة واللباقة، في المجتمع الأكثر تألقًا في باريس والأجمل في تاريخها على الإطلاق، تقدم لفولتير المناخ الملائم لتتفتح مواهبه. فتلك هي الحياة المثالية في نظره. فكيف فكر في ذلك المساء في الرجوع إلى فيرني؟ لقد امتلأ بالرضى في ذلك اليوم، فشعر بأنه على ما يرام. وكان ذا حيوية ساحرة، فالكونتيسة استقبلته كأنه ملك معبود. إذًا عاشت باريس! ولسوف يدوم الاحتفال على قدر ما تدوم...

مضى شهر وهو عازم على زيارة السيدة دو ديفان. كانت تنتظره فترى أنه ليس في عجلة من أمره، وقد استقبلته في الدير الذي لجأت إليه. لم يكن هناك سواها مع سكرتيرتها، وسيدة أخرى مقيمة في الدير نفسه. فما الذي جرى؟ وهل تفوّه فولتير بكلمات غير لبقة ومعادية للدين، نقلتها صديقة للسيدة ديفان إليها؟ وهل بدا وجوده في الدير تدنيسًا للمقدسات في نظر النساء التقيات اللواتي يقمن فيه؟ مهما يكن من أمر، كان على السيدة ديفان أن تتعرض للملاحظات الساخطة التي وجهتها النساء الغاضبات. أما يوم توفي فولتير، وعلمنَ بأن الكافر لن يحظى بطقوس جنازة دينية، جنن وأحدثن صخبًا شديدًا تحت نوافذ المركيزة العمياء. ولقد سمعت أشياء أخرى لم تحملها على محمل كبير من السوء، بل استمتعت في قرارة نفسها بتلك الأمثولة الوقحة التي جاءوا يعلّمونها إياها - وهي في تلك السن! - بشأن السلوك السيئ الذي ألفت ممارسته.

وواصل العجوز القصير، الرشيق والملحد، هرولته في شوارع باريس. وفي نهاية نيسان/ أبريل، وفيما كان عائدًا من ترغيب السيد فيلارسو الذي ظل مترددًا في أن يبيعه قصره في شارع ريشوليو، ساورته الرغبة المفاجئة في القيام بجولة في القصر الملكي. فلمح صبيين صغيرين وجميلين يلعبان مع مربيتهما، أما وقد دقق النظر فيهما، أذهله شبه أحدهما بالوصي الذي صادفه، حسبما نتذكر، في تلك الحديقة نفسها قبل ما يقرب من ستين عامًا. وعرف أن ذلك الصبي هو دو

قالوا، ابن دوق أورليان، وابن حفيد الوصي. كان الصبي آنذاك في الخامسة من عمره، وهو الذي ينتظره مستقبل مشرق باسم لوي فيليب الأول، ملك فرنسا. فهل تذكّر أن فولتير شدّه من أذنه عام 1778؟ لقد أدخلت المربية فولتير إلى القصر لتجعله يرى الأطفال الآخرين الذين كانوا نيامًا. أما دوقة أورليان التي كانت تعتني بهندامها، فعند سماعها أن فولتير يهدهد أطفالها، هرعت وهي بالمبذل والتنورة، والشعر المبعثر، وقد غمرتها فرحًا فكرة أن تتعرف إلى فولتير، فبادرته بإطراء ترك أثرًا طيبًا في نفسه. لم يكن الدوق هناك، فقدمت الدوقة خالص اعتذارها إلى البطريرك. تلكم هي مفاجآت باريس. كان فولتير مفعمًا بالغبطة كما الدوقة تمامًا، وهي زوجة الأمير الأول لولاية العرش، والتي تركت القائمة على زينتها، لتهرع لإطراء الأديب الأول في ذلك القرن، والذي كان في حضانة الأطفال ينظر إليهم وهم نيام. تلك كانت الألفة الفاتنة في العادات عند نهاية العهد الملكي القديم.

في الحي نفسه، صعد الطوابق ليرى صوفي أرنو، وهي أميرة مسرح كانت في نظره تساوي الأخريات، لأن الأساس أن تكون أميرة. ثم قام بزيارات أخرى، أو بالحج إلى عند أشخاص ينتمون مثله إلى القرن الماضي. وهكذا التقى الكونتيسة العجوز سيغور التي شرعت تحدثه عن الله وعن كنيسته. أما وهو في يوم سعد، أي في وئام مع جسده، فقام بدور إبليس، فباشر توجيه نيرانه كلها بتلك الحيوية والفصاحة الحارقة، وتلك الوقاحة التي كانت تفتن بعضهم وتثير ثائرة بعضهم الآخر. وكان يجتمع هناك ما يقرب من ستين شخصًا تحلقوا للإصغاء إليه. فلم تَضِع كلمة واحدة والكثير من كلامه جرى نقله إلى الأمكنة الملائمة. ألا إن فولتير غير قابل للإصلاح!

كان يقول بمكر: «لست إلا في الخامسة عشرة...». فقبل أيام كان يعترف أمام الكاهن، ويقوم بتوقيع صك ارتداد. أما اليوم، فهو يثور علنًا متهددًا الكهنة الذين استقبلهم وأقرّ أمامهم بالذنب جهارًا. وليس لنا أن نبحث في مؤامرات غامضة عن السبب الذي يحول دون أخذ ردته في الاعتبار. والمؤكد أن الأسقفية أخذت علمًا بذلك الخروج اللامع ضد الدين، وذلك يكفي لتفسير اللاحق. أما بعد أن انتهى، استعاد دماثته الطبيعية وقام بأداء واجباته حيال الكونتيسة المسكينة التي كانت تموت ضعفًا. وكما تعلّم هو من أحدهم فوائد هريس الفول، قام بتعليم العجوز علاجًا ناجعًا تمكّن بفضله، وهو في فيرني، من التغلب على وهن خبيث: يكفي

ابتلاع صفار بيضات عدة بعد مزجها بطحين البطاطا. كانت البطاطا تمثل آنذاك قمة التقدم، والتجدد الباهر. ويبقى على الحضور أن يُعجَبوا بشمولية عبقريته، فصاح أحد الأغبياء: «يا له من رجل! يا له من رجل! فهو لا ينطق بكلمة من غير سهم».

أما بشأن هريس البطاطا، فنرى من المقصود، إنه واحد من أولئك الذين كانوا سيصفقون في الغد اغتباطًا في ما لو قام جلاد بقطع رأس فولتير.

بقي عليه أن يرى السيدة المركيزة دو لا تور دو بان غوفرنيه، سوزان دو ليفري التي استقبلها في ما مضى تحت ظلال سولي وحملها إلى باريس مثل زهر النسرين، وقد كانت ندية وساذجة. ونعرف أنها بعد تلك المغامرات الشقية في لندن تزوجت المركيز، ورغبة منها في نسيان بداياتها في المسرح وعشاقها، أوعزت بعدم استقبال فولتير في بيتها. لكنه سامحها على الإهانة، وهي أيضًا. فهي ترغب حقًا في استقباله. هرول مسرعًا نحو سوزان، لكن يا لها من كارثة! لم يعرف أيٌّ منهما الآخر؛ فقد ذُهل لمظهر عجزها وشيخوختها مثلما أذهلها مظهره. إلا أنه احتفظ في الأقل بتلك الشرارة في نظرته، وبتقليده الإيمائي وتشنجات وجهه، أما زهرة النسرين فلم يبقَ منها شيء، سوى بقايا إنسان يثير الشفقة. وقد استطاعا بمشقة أن يتبادلا بضع كلمات. ورأى فوق قطعة أثاث صورة شاب يتألق ذكاءً مع ومضة صغيرة من الجسارة: إنه هو، بريشة لارجيليير. كان ذلك الشاب هو من ظنت سوزان أنها سوف تلقاه: فلم تلق سوى رماد طائر الفينيق. وتفارقا مكتئبين. لكنها قامت بمبادرة طيبة: لقد بعثت إلى بيت السيد فيليت بصورة لارجيليير التي احتفظت بها طوال ذلك الوقت، وربما أحبتها.

كانت الصورة بالنسبة إليها صورة رجل ميت. أما بالنسبة إلينا نحن، فهي أفضل صورة لفولتير تقع بين أيدينا. وهو أكثر حياة في نظرنا مما هو في نظر سوزان. أما فولتير، فقد رجع من الزيارة بانطباع من تأمُّل الموت مرتين: موته هو، وموت سوزان. وقال:

«رجعت من ضفة ستيكس[85] إلى الضفة الأخرى».

---

(85) هو النهر الذي يعبر الجحيم. (المترجم)

ما إن عقد صفقة شراء قصر فيلارسو في 29 نيسان/ أبريل حتى صرف فانيير ليرجع إلى فيرني، وكلّفه بمهمة الإعداد لعودة البطريرك. وبين حفلات المديح طرق سمعه لحن نشاز: ففيما كان الأب بوروغار يلقي عظته في فرساي، شنّ هجومًا عنيفًا على الفلاسفة، مشيرًا إلى أنهم كوفئوا على إلحادهم بعقد الأكاليل لتتويجهم. لقد كانت الطعنة مباشرة. فالسيدات عمات الملك كن يتولّين قيادة الحزب الديني بدعم من لويس السادس عشر. وتساءل ذلك الحزب عن السبب الذي جعل الهجوم على الإلحاد يتوقف من حين عودة فولتير، إذ لم يتم نشر أي هجوم. والواقع أن ذلك كان بإيعاز من حامل الأختام، السيد ميرومينيل، الذي قرر على سبيل التهدئة عدم السماح بنشر شيء ضد أمير الإلحاد، طوال فترة إقامة فولتير في باريس. فانتاب الذعر السيد ميرومينيل من تلك الدعوة لإحلال النظام والصادرة من الأعلى، فأمر بإلغاء التعليمات كافة التي أصدرها إلى الرقابة. وتساءل فولتير ما عساه يفعل؟ أن يسافر إلى فيرني؟ سيكون ذلك هروبًا أمام مرشة الماء المقدس التي أشهرها الأب بوروغار، فقرر البقاء. وكان ذلك بالنسبة إليه خير مبرر لمخالفة آراء الأطباء. زد على ذلك أنه كان بصحة جيدة: فالحياة تبتسم له في باريس حتى لو عبس في وجهه وجه فرساي.

بل إنه عاد إلى المسرح في الخفاء. وذات يوم كانوا يقدمون مسرحيته **ألزير** (*Alzire*)، فجلس يصغي لاطيًا في صدر مقصورة، والنشوة ملء إهابه. وفي الفصل الرابع، ما عاد قادرًا على تمالك نفسه، فاندفع إلى حافة المقصورة ليصرخ قائلًا: «ألا كم هذا جميل! آه، كم هذا جميل!». وعرفته الصالة، فهتفت له. وكان الفصل الخامس انتصارًا جديدًا: فالممثلون المنتعشون بحماسة الجمهور وحضور فولتير تجاوزوا الحدود. وإذا ما وضعنا التاج جانبًا، فإنه عرف تمجيدًا لا يقل صخبًا عن تمجيد إيرين. وخرج من هناك نشوانَ ومنهكًا.

الأعمال الأخيرة

إن ما كان يشغله أكثر مما عداه، مذ أن انتهى من إيرين، هو الأكاديمية. فيسعنا القول إنه كرس همه الأخير واستنفد قواه للمهمة الأساس في الأكاديمية، ألا وهي المعجم. كان مواظبًا على الجلسات، وبيّن لزملائه ما فحوى مهمة المجمع الشهير: لقد حثهم بشغف أدهش الجميع، على التصدي لإعادة صوغ المعجم، وبيّن لهم

أن اللغة الفرنسية تزداد فقرًا بسبب قلة المصادر الجديدة. كان ذلك الكلاسيكي الصرف و«المحافظ» جدًا يقول: «إن لغتنا متسولة، وعلينا تقديم الصدقة لها رغمًا عنها». كانت تقع على عاتق الأكاديمية إذًا مهمة اختيار الكلمات الجديدة التي ينبغي أن تجدد شباب اللغة. وذكر على سبيل المثال كلمة «تراجيديان» (tragédien)، التي ما كانت مقبولة ضمن المعنى المراد وهو الممثل الذي يؤدي التراجيديا. ورسم مخططًا لعمل على درجة من الضخامة جعلت زملاءه مذهولين؛ إذ كان هناك سادة كبار لا يفكرون مطلقًا في أن يتصدوا لمهمة يمكن أن تدوم أعوامًا. وما كان يسع أحدًا سوى الإعجاب بروح المشروع تلك، وتلك الجسارة وذلك العناد والنظرة البعيدة لدى رجل بلغ الرابعة والثمانين، ويضع مشروعات كأنما هو في الثلاثين. وما كان ليرضى بوضع المشروع، بل كان يسوق المثل، ويوزع المهمات. وقد أعجبوا به في بداية الأمر، أما وقد رأوه ينتقل إلى الأفعال، بوغتوا، ثم استبد بهم القلق. وحين حدد لكل واحد مهمته، بدأت الغمغمة. وقد اختار لنفسه المهمة الأصعب: الحرف A، فهو يشكل الكتلة الأكبر في المعجم. وكان ينبغي إعادة تناول كل كلمة ودراستها من الناحية الاشتقاقية وفي شتى استخداماتها المعتمدة، مع شواهد مأخوذة عن خيرة الكتّاب. كما ينبغي إيراد تصريف للأفعال الشاذة، أي إنه معجم ليتريه (*Littré*) قبل ليتريه بمئة عام؛ إنه معجم فولتير. وفي النهاية تغلبت حميّته على لامبالاة زملائه، فاعتمدوا مشروعه. وحين تبنّى كل واحد حرفًا من حروف الأبجدية، قال لهم: «يا سادتي، إني أشكركم... باسم الأبجدية». فرد عليه الفارس دو شاستيلو قائلًا: «وأما نحن، فنشكرك باسم الآداب».

رجع إلى شارع بون منهكًا، فشرب خمسة فناجين من القهوة.

لم يحل ذلك دون توجهه بعد يومين لحضور جلسة في أكاديمية العلوم. وانتشر نبأ زيارته، فأسرعت سيدات جميلات بالحضور. وكانت جلسة رائعة أيضًا إلا أنها منهكة، وقد ذكّرته تلك الزيارة بأيام سيري (Cirey) حين حصل على مقعد في تلك الأكاديمية فقدم مذكرة حول طبيعة النار. وجاءت مصادفة لتلقي كذلك مزيدًا من الألق على تلك الجلسة لأن فرانكلين حضر أيضًا. ومن جديد التقى العجوزان الأكثر شهرة والأكبر «فلسفة» في ذلك العصر، ليرتمي كلّ منهما بين ذراعي الآخر.

تولى السيد دالامبير الكلام، فبدأ بتأبين ترودين، صديق تورغو وصديق فولتير. واستفاد دالامبير من المناسبة ليقرن اسم ترودين باسم فولتير الذي نال نصيبه من المدائح في أثناء تأبين المتوفى. وتألـق الحضور فرحًا. أما نهاية الجلسة فكانت مملة: لقد أصغى الحضور إلى قراءة مذكرة علمية - إذا ما صح القول - عن «طريقة صنع نبيذ من الحصرم، لا يكون له طعم الحصرم». فاستولى النعاس على الحضور، وعلى فولتير أيضًا. وقد أتاح له الحصرم العودة إلى شارع بون نشيطًا بعض الشيء.

استأنف في اليوم التالي زياراته الاجتماعية، فتوجه إلى ماريشالة لوكسمبورغ. وكانت تبسط حمايتها على جان جاك، لكن فولتير لم يشعر بأي غضاضة. تناول الحديث الحرب مع إنكلترا، فكان القلق يستبد بكل واحد بسبب تلك الحروب التي لا تنتهي، والمنهكة بلا طائل. لكن كيف السبيل إلى الانتهاء منها؟ كانت الماريشالة تؤيد السلام بأي ثمن. وشعر فولتير بجسده الهزيل يرتعش غضبًا، فقال بلهجة صاعقة وهو يشير بإصبعه إلى سيف الماريشال دو بروي الذي كان معلقًا بالقرب منه: «سيدتي، تلك هي الريشة التي ينبغي استخدامها لتوقيع السلام».

كان هو أيضًا معارضًا للحرب، لكن لم يكن يؤيد سلامًا مُذِلًّا. في الأيام الأولى من شهر أيار/ مايو لم يستطع التوجه إلى الأكاديمية، إذ إنه عجز عن النهوض. واستبد به القلق لارتيابه في أن زملاءه لم يقبلوا بمشروعه إلا باندفاع عابر من الحماسة والكياسة.

فولتير في نزاع مع الأطباء والصيادلة والأصدقاء

خرج من جديد في 11 أيار/ مايو، لكن من غير همة. فالتقى السيدة سان جوليان والسيدة دوني وقال لهما إنه عائد إلى السرير. كان يعاني آلامًا حادة في الكليتين ويشكو انحباسًا في البول. ويقول لنا فانيير إنه شرب في ذلك النهار خمسة وعشرين فنجانًا من القهوة، في سبيل أن يستعيد عافيته.

ورأته السيدة دو سان جوليان بعد ذلك بيومين فلم تعجبها هيئته، فنصحت باستدعاء ترونشان. وكان على السيدة دوني أن تقوم بذلك، لكنها كانت تنفر من

ترونشان، فلم تستدعه. وبعد يومين آخرين ازدادت حالة المريض سوءًا، فاكتفى فانيير باستدعاء عطار قريب. فعرض هذا الأخير شرابًا من إعداده، لكن فولتير رفض تناوله، وحسنًا فعل. ذلك أن السيدة دو سان جوليان التي تذوقت منه القليل، شعرت بأن لسانها احترق، فلم تستطع أن تتناول العشاء. وجاء دوق ريشوليو في السهرة، فأشار بدوره إلى شراب يعتمد على الأفيون، كان هو يستخدمه لتسكين أوجاعه. فما كان من فولتير الذي يعاني وجعًا رهيبًا في الكليتين والمثانة، إلا أن طلبه منه. وتجاسر الحضور على القول إن دواء الماريشال دو ريشوليو دواء خطر، وإن فولتير لا يستطيع تحمّله. لكن السيدتين دوني وفيليت وقفتا إلى جانب استعمال الدواء، بل أضافت فيليت أن كل ما يُخشى منه على فولتير هو أن يصير كالمجنون بضعة أيام، ثم يُشفى من بعد. وهكذا تناول فولتير، برعاية ابنة أخته ودو فيليت، جرعة قوية من ذلك الدواء. وقال بعض الأشخاص إن دو فيليت كسرت القارورة الصغيرة بعد ذلك، في حين قال آخرون إن فولتير نهض فشرب محتويات القارورة كلها. وقد علقت السيدة دو سان جوليان على ذلك بسخط قائلة: «أوَلم تفعلوا شيئًا لمنعه من ذلك؟». وليس من شيء دقيق، ولا من شيء أكيد، في تلك الأقاويل. لكن ما ليس موضع أي شك، هو أن تصرف كلٍّ من السيدتين دوني وفيليت بعيد كل البعد عن المحبة. ولئن لم نشأ أن نوافق فانيير على قوله إن ذلك الدواء قتل سيّده، فيسعنا القول إن رعاية فولتير كانت على أسوأ حال. ولا ريب في أنه كان منهك القوى، لكن لم تُبذَل أي محاولة لإطالة حياته أو للتخفيف عنه، بل الأمر بخلاف ذلك. وليس الذنب كله ذنب المحيطين به، لكن لا ريب في أن نظام الزيارة، والانفعالات الرقيقة والعنيفة، ونظام الانتصارات، كان الأسوأ، وفي حقيقة الأمر فهو النظام الأكثر فولتيرية بين كل ما خلاه. في المحصلة، مات فولتير بسبب ما كان يجعله يعيش: الاضطراب. أما وأنه عاش عيشة مدهشة وسط ذلك الاضطراب طوال أربعة وثمانين عامًا، فهل ما يدعونا إلى الأسف على أنه مات جراء ما نعِم به من فرح حتى يومه الأخير؟

إنه مريض جدًا غير أنه لمّا يمت، فما تزال لديه بضع كلمات يقولها.

حين ابتلع عقار ريشوليو، صار الوضع فظيعًا. أحس بشريط ناري يسري من حلقه حتى أحشائه، وأضحى مسعورًا طوال يومين. أما اعتقاده بأن ريشوليو سممه، فجعله لا يشير إلى رفيق طفولته إلا باسم «الأخ قايين». كان لا بد من استدعاء

ترونشان، لكن هذا لم يستطع شيئًا سوى التيقن من الكارثة، وتهدئة المريض بعض الشيء. غير أن الإفراط في جرعة الأفيون ربما تسبب للمعدة بالشلل، فما عاد في وسع المريض أن يتناول شيئًا، صلبًا أكان أم سائلًا. ثم صار ضعفه راعبًا. ولم يكف عن المطالبة بفانيير الذي رغب له أن يرجع. لكن السيدة دوني تصدت لرغبته، فبادر السيد هورنوا إلى استدعائه. ولما رأت ذلك، كتبت إلى فانيير بأن يهتم في فيرني بالشؤون الخدماتية، ومضيفة على وجه التحديد، وبلامبالاتها المعهودة: «وبكل ما يخصني». وأكدت له أن فولتير في حال أحسن. ولئن كان ذلك هو عكس الحقيقة، فإنه يحول دون رجوع فانيير على جناح السرعة، ويفسح المجال أمامه لإحضار الأغراض التي تطالب بها كافة، والفضيات على وجه الخصوص.

فيما كان فولتير غارقًا في عذابه وأوجاعه، همسوا له بنبأ مدهش: حصل ابن لالي تولندال على إبطال الادعاء الذي كان يدين والده. فجلس، وشعّت نظرته. وأملى هذه السطور الثلاثة: «إن المائت العائد إلى الحياة (كم من مرة استخدم صيغًا مماثلة!)، وقد علم بهذا النبأ العظيم، لَيُعانق السيد دو لالي بكل رقة، ويرى أن الملك هو المدافع عن العدل، ولسوف يموت مغتبطًا».

نرى إذًا إلى أي حد وصل الشغف بالعدل لدى ذلك الرجل. لقد كان ثلاثة أرباع ميت، وكان لا يتمتع بصفاء الفكر سوى بضع ساعات في اليوم. فما الذي يبقى بعد الهلاك؟ إنه حب العدالة. وأوعز بأن تعلق أمامه ورقة مكتوب فيها: «في 26 أيار/ مايو 1778. إن الجريمة القضائية التي ارتكبها باسكييه، المستشار في المحكمة العليا (كم هي ذاكرة المائت أمينة في استرجاع الأسماء!)، بحق شخص لالي، قد جرى الثأر لها على يد الملك».

إن الإخلاص للملك، على الرغم من الضغائن كافة، ظل صامدًا حتى النفس الأخير.

من الصعب التأكيد أنه لم ينصرف إلى معاركه الرهيبة ضد الظلم والتعصب، إلا إرضاء لغروره وذيوع صيته وعجرفته. ولنسلم بأن المرء قادر على التظاهر طوال أربعة وثمانين عامًا، أما وهو راقد على فراش الموت، يتلوى من الأوجاع، فإنه يكف عن ذلك. وإذا ما تناولنا حياته بمنظورها الطويل، فلن نجدها خديعة متواصلة ومتماثلة، فهو لم يخدع إلا في كثير من التفصيلات، أما الكل، والجوهر، فكان واضحًا وحقيقيًا: إنه فولتير الحرية والعدالة. أما تلك الورقة الصغيرة المعلقة

فوق سرير موته فهي صرخة حرية، إنها صرخته الأخيرة، وهي التي يتجاوب صداها فينا.

نهاية الصنم المعبود

منذ أن ساءت حاله كثيرًا، كفَّ كلٌّ من فيليت ودوني عن إظهاره للجمهور. لكن الزيارات لم تتوقف، فاستأثرت السيدة دوني بها لنفسها. فكانت تتعجرف، «كما البرميل بضخامته»، فتتلقى الثناء والتكريم وتتصنع الذكاء، فيما كان خالها يصارع الموت وسط أوضاع رهيبة. وقد استبعدوه فرموا به في بيت صغير في طرف حديقة قصر فيليت، فأضحى بعيدًا عن الأنظار. ولم يكن لابنة الأخت سوى همٍّ واحد: أن تأخذ الأوراق كافة التي قد يكتبها في لحظات هدوئه: كانت تموت هلعًا من أن يرجع في وصيته التي تجعل منها الوريثة العامة. أما فيليت، فكان يفكر في المتاعب التي سوف تسببها له وفاة ضيفه الذي، وهو فائق الشهرة في حياته، سيغدو بعد موته موضوع خلاف وفضيحة. وكان فيليت يتساءل كيف له أن يتخلص من الجثة.

بدأوا بكسب الوقت، فصاروا يخدعون الرأي العام؛ إذ أشاعوا الاعتقاد بأن فولتير مصاب بأحد أوجاعه المألوفة التي يشفى منها دائمًا؛ بل صاروا يخترعون، في سبيل تسلية الجمهور، بعض الدعابات فينسبونها إليه. لكن الجمهور عيل صبره، ورأى أن الفاصل (في المسرحية) طال أكثر مما ينبغي، فصار راغبًا في رؤية نجمه المحبوب كي يقوم بأداء دوره.

أما في الكوخ المعتم، حيث يحتضر تحت رقابة سيدتين اختارتهما السيدة دوني: الطاهية باردي، وروجيه التي تسهر على المرضى، وهما كانتا في هذر متواصل فتضحكان وتشربان، كان يتلقى في بعض الأحيان زيارة ترونشان الذي يأتي ليتفحص الوضع من غير أن يفعل شيئًا، إذ ليس من شيء يسعه أن يفعله. وربما كان في وسعه أن يطالب في الأقل بأن يموت صديقه فولتير في أوضاع لائقة وأن يتخلص من هاتين الشريرتين. لكن ترونشان استعاد تفكرًا لم يكن وديًا. تذكر أن فولتير قال له: «سوف أموت، إذا ما استطعت وأنا أضحك». فزوّدته تلك العبارة بموضوع تهكمه: «لئن مات مبتهجًا على نحو ما وعد، فسأكون أنا المخطئ: فهو لن يأبه بأصدقائه، بل ينساق في تصرفه وفق مزاجه، نحو خوفه الغريزي، الخوف

الذي يتملكه من مغادرة الشك إلى اليقين... ولسوف تكون النهاية بالنسبة إلى فولتير لحظة خارجة عن المألوف. ولئن احتفظ بوعيه حتى النهاية فسوف يكون مائتًا باهتًا».

إن من المفيد سماعَ كل شيء عن رجل كان موضع ملاحظة، وموضع ترصد، وكان مبجلًا ومكروهًا، مثل فولتير. فينبغي التقاط الحقيقة أينما وجدت، أبين الأزهار كانت أم فوق كومة الدبال. وفي كلام ترونشان نرى الوجهين. ولكم سيبدو مضحكًا في نظر ترونشان التقطيب الأخير الذي سيواجه به الموت ذلك الرجل الجهم! وبدأ ترونشان يستمتع بذلك مسبقًا. هذا كل ما وجد ليقوله حيال احتضار ذلك الرجل الذي مثّل الذكاء الألمع في عصره والذي قام مدافعًا عن كالا، أخي ترونشان في الدين.

فهل نسي ذلك؟

وانتهت الحقيقة عن وضع فولتير بالتسرب. علم الأب غوتييه بالأمر، فكتب إلى فولتير وصرح بأنه على استعداد للإصغاء إلى اعترافه وإعداد المريض لميتة صالحة. وأما ابن الأخت الأب مينيو، الذي كان هناك، فقد تطوع للذهاب وإحضار الأب غوتييه ليكون بقرب المائت. واتخذ الأب احتياطاته في هذه المرة، فجاء ببيان رجوع إلى الإيمان أكمل من الأول مع وثيقة غفران وإعلان إيمان أكثر تفصيلًا. كما طالب من بعد بأن يرافقه الأب فرساك؛ فالتوبيخ السابق أعطى مفعوله. فقبل الأب مينيو بذلك كله. وحين رأى فيليت الكهنة في منزله طلب منهم بيان الرجوع إلى الإيمان فقرأه ووافق عليه. فأين هو يحشر نفسه؟ وجرى إدخال الكاهنين إلى المريض، فلم يتعرف إلى الكاهن لكنه عرف الأب غوتييه، فأمسك بيده وعبّر له عن مودته. وحين كلّماه عن بيان الرجوع إلى الإيمان، شرع يقول ويكرر: «الأب غوتييه يبلغ تحياته للأب غوتييه...»، وعبارات أخرى بلا طائل. وظن الأب أنه يهذي فانسحب قائلًا إنه سيعود مع عودة فولتير إلى صفاء ذهنه. جرى ذلك بعد الظهر من يوم 29 أيار/ مايو 1778. وبعد ذلك بيومين أعلموا الأب أن فولتير قضى نحبه بالأمس، في الساعة الحادية عشرة مساء، فقال: «لو ظننت أنه سيموت باكرًا هكذا لما تركته، ولكنت فعلت كل ما في وسعي لإعانته على أن يموت بسلام». ها هي أخيرًا كلمة تعبّر عن المحبة! وهي كلمات نادرة حقًا في تلك المسألة.

غير أننا حصلنا من طريق لا هارب وغريم على رواية مغايرة لتلك الزيارة التقية. هما لم يشهداها، لكنهما حصلا على تقرير أمين عنها. فيبدو أن الأب غوتييه الصالح لم يقل كل شيء أو لم يرَ كل شيء ولا أحاط بكل شيء؛ فهذيان فولتير لم يكن على مثل ما ظن من العمق. فحين سأله الأب غوتييه: «هل تعترف بألوهية يسوع المسيح؟» كرر المريض القول: «يسوع المسيح؟ يسوع المسيح؟ دعني أمُت بسلام!»، وقام بحركة ليبعد الأب عنه. فكان كاهن سان سولبيس على جانب من حسن النية إذ قال: «أنتم تلاحظون أنه ليس في كامل وعيه!» وخرجا. وفي تلك اللحظة بسط فولتير يديه نحوهما وقال: «إني مائت».

تبدو هذه الرواية ذات طابع نزيه. وقد جرت من بعد إعادة ترتيب «الكلمات»؛ إذ روي أنهما حين سألا فولتير عن ألوهية المسيح، أجاب: «لا تحدثاني عن ذلك الرجل!» أو أنه قال: «أستحلفكما بالله، لا تحدثاني عنه». ويقول المثل: لا يُقرض المال سوى الأغنياء، لكن هل كان فولتير قبل موته بساعات على تلك الدرجة من الغنى بالهزليات؟ إن عبارة «دعوني أمُت بسلام» لتبدو مقبولة أكثر.

أما بشأن السلام، فها هو ما أحاط باحتضار فولتير.

إن طبيبه ترونشان الذي رأى كل شيء، كتب في الشهر التالي إلى بونيه، من جنيف. ولم يكن هذا ولا ذاك صديقًا لفولتير. وعلى الرغم مما في تلك الشهادة من سوء، فإنها شهادة جوهرية. كتب ترونشان بأسلوب مبطّن قائلًا إن ثمة فارقًا كبيرًا بين نهاية ذلك الحكيم، والتي هي مثل ما يعرف كل واحد صافية ورائقة مثل نهاية نهار جميل، و«العذاب الرهيب لذاك الذي كان الموت بالنسبة إليه ملك المرعبات!»، فالأمر يتعلق بنهاية فولتير الجاحد. لكن قبل أن يتحدث ترونشان عن فولتير نراه يتكلم عن نفسه وعن الإطراء الجميل الذي وجهه إليه فولتير المائت. ولسوف نرى كيف سيشكره على ذلك. ثم تناول بالحديث مريضه الذي قال له: «ارحمني، فأنا مجنون... اطلب لي طبيب المجانين». والصحيح تمامًا أن العقار جعله مختل العقل. وكان المشهد الذي صوّره «عن الاختلال وعن اليأس» مشهدًا مرعبًا، فيقول طبيبه: «لا يسعني أن أتذكره من دون أن أشعر بالهول». ولئن كان فولتير قد تسمم بسبب عقار، فهل ذلك يبرر التعامل معه على أنه كائن بلا روح ولا شجاعة ولا أخلاق؟ يقول ترونشان إن مريضه استبدّ به غضب مسعور لأنه رأى

أنه يموت. فهل ذلك صحيح؟ لقد رآه الشهود الآخرون جميعًا يعاني آلام الحرق الداخلي، لكنه فاقد الوعي طوال الوقت تقريبًا. وكان يتوسل إلى ترونشان قائلًا: «نجّني من هنا، يا سيدي». فيردّ عليه ترونشان ردًّا شديد الصرامة: «ليس في يدي من حيلة، يا سيدي، فعليك أن تموت».

كان تقرير ترونشان كله يرمي إلى البرهان على أن موت الملحد هو بالضرورة موت رهيب، وعذاب يغدو مضرب مثل، فهو إذًا درس وعبرة. وهذا هو درس ذلك الصديق الحميم: «بودّي لو أن كل الذين سحرتهم كتبه، كانوا شهودًا على ميتته. فليس في وسع المرء الصمود حيال منظر مماثل». ولم يذهب الدرس أدراج الرياح؛ فقد استلمه مراسل **صحيفة كولونيا** (*Gazette de Cologne*) الذي زايد على تقرير ترونشان فأعطى «تفصيلات» في شأن الموت مخصصة لأمثال فولتير. وها هو أنموذج منها: «قبل موته بوقت قصير، دخل فولتير في اضطراب رهيب، فكان يصرخ بسخط مسعور: 'أنا مُهمَل من الله ومن البشر!'. إنه أسلوب الميلودراما الذي يجري صوغه مع المنتوجات الكاسدة لـ «**إيلوييز الجديدة**» والرومانسية الناحبة. «كان يعض على أصابعه ويمد يده إلى قصرية السرير فيقبض على ما فيها، ويأكله».

كان من شأن ذلك التفصيل الدنيء أن يقلب النظرة إلى فولتير إلى شعور بالاشمئزاز حتى لدى خيرة النفوس في العالم. ولقد أضيفت إلى ذلك تفصيلات أخرى؛ فزعم كاهن اسمه دوبيري أنه سمع من السيدة فيليت (بعد موت فولتير بخمسين عامًا) أن الشاعر الشقي كان يرى الشيطان في الممر بجانب سريره فيصرخ مثل من حلّت عليه اللعنة: «إنه هنا، إنه يريد الإمساك بي، إني أرى الجحيم...».

الجحيم؟ في ذلك الممر الذي فيه ورقة كتب عليها: «الملك يثأر للبراءة»، على أنها رسالة أخيرة؟ ويؤكد الأب نفسه الخبر الذي شاع أنهم كانوا يمنعون الكهنة من دخول غرفته وأن الفلاسفة طردوهم. كان الأب غوتييه يجيد الكلام والكتابة. ولم يكن كاهن سان سولبيس بالرجل الأحمق، بل كان خلافًا لذلك يملك القدرة على الدفاع وعلى إسماع صوته لدى أعلى السلطات. لم يقل الاثنان شيئًا مماثلًا، بل قالا، خلافًا لذلك، إن استقبالهما في قصر فيليت كان يتسم دائمًا بالتهذيب واللباقة.

ولئن كان الجحيم قد ظهر في تلك الساعات العصيبة، فلم يكن بالضرورة قرب سرير فولتير، بل ربما نكتشفه في شهادة الزور التي تقدم بعضهم بها، وفي الشح البشع لدى السيدة دوني وقسوة قلبها. فلا حاجة لنا إلى قراءة الشناعات في صحيفة كولونيا، ولا الرؤى الحمقاء للأب دوبريه، ولا المواعظ التي تقدم بها ترونشان لكي تنتابنا الشفقة والفزع حيال السرير الحقير الذي مات عليه الملك فولتير. إن الحقيقة لتدعو إلى الذهول: لقد مات فولتير مهمَلًا.

كان الخدم في غدو ورواح إلى كوخه الحقير من دون أي عائق. أما المرأتان المكلفتان برعايته فتستقبلان من تشاءان. ودخل فانيير مرة، فاعتقد أن «الغرفة تغص بالفلاحين السكارى وهم على وشك التشابك بالأيدي». ما كانوا يلتزمون بأي تعليمات طبية. وفي إحدى ساعات الصحو، حسِب فولتير أنهم يقتلونه. لم يكن ذلك صحيحًا تمامًا، لكنهم يعجلون في موته وبطريقة أكثر قسوة مما قد تتحمله البشرية البسيطة. وتوصل السيد راكل، وهو طبيب من جنيف، إلى أن يتسلل إلى داخل ذلك الكوخ حيث كان الرجل العظيم يحتضر، فوجده في حالة رهيبة من القذارة. هو النقي أبدًا! فأي امتهان ذاك بحق السنجاب المفرط في الأناقة! لا يذكر السيد راكل الأشياء بدقة، إذ يقول: «إن القلب لَينزف حزنًا وهولًا». ولقد قال فولتير لترونشان، وهو لا يزال قادرًا على الكلام: «لو أني اتبعت نصائحك الحسنة، لما كنت في الحالة الرهيبة التي أنا عليها، ولكنت رجعت إلى فيرني، وما كنت سكرت بذلك الدخان الذي أودى بعقلي... بلى، فأنا لم أتجرع سوى الدخان».

كان يمقت من هم في محيطه. وما كانت السيدة دوني تتوجه لرؤيته. ولو أنه عرفها لانهال عليها بالشتائم. ولقد واصلت إتخام نفسها «بالدخان» المخصص لخالها، وبعشق صاحبها دوفيفييه.

أما المرأة روجيه، فكانت مهمتها التقاط كل الشتائم التي يمكن أن تفلت من فم العجوز، لتصنع منها شهادة ضد الزنديق في حال طالبت العائلة بجنازة دينية. فكانت تلك المرأة الشريرة تراقبه بلؤم، لكنها لا تعتني به حين يسترد وعيه، فكان يشتمها ويتوعدها، ويرميها حتى بإناء على رأسها. أما في أثناء النوبات، فكانت تصغي إلى فصاحة سخطه وخصبه وتكرر أقواله وتبدي إعجابها بها. وكان يتملكه

على الدوام ذلك الشعور بنار تضطرم في داخله. فكان يطلب لتلطيفها «مستنقعًا من الجليد». ويطلب ماءً ليشرب، فلا يعبأ بطلبه أحد. وفي إحدى النوبات التي استبدت به، مد يده إلى المبولة عسى أن تلمس سائلًا. فمن هو المخطئ؟ لقد كانوا يجعلونه يموت عطشًا، ويفضلون القول إنها حركة إنسان مسكون بالشيطان. وأما المرأة روجيه التي ترفض إعطاءه كوبًا من الماء، فبمن كانت مسكونة؟ والسيدة دوني التي قصوا عليها الحكاية، فلم تجد سوى أن تقول: «حقًا! إن السيد دو فولتير هو أكثر الرجال نظافة فكان يبدل ملابسه الداخلية ثلاث مرات في اليوم على أن يتحمل أي لطخة، فإلى أي سفالة جرى الانحدار به؟ وأي انقلاب هذا؟»، فبمن كانت مسكونة، السيدة دوني هذه؟

في 30 أيار/ مايو، الساعة العاشرة ليلًا، كانت النهاية. دخل إلى الغرفة الطبيبان لور وتييري. كان النبض ساكنًا تقريبًا. فقاما بفرك عنيف للصدغين، ففتح عينيه وقال: «دعوني أمُت»، فخرج الطبيبان. فبقي وحيدًا هنيهة، ثم عادت المرأتان. وفجأة أطلق فولتير صرخة، كانت صرخة فظيعة ورهيبة بلا نهاية. وكانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة. وخافت المرأة روجيه، أما الأخرى فظلت مأخوذة، حسبما قيل، شهورًا عدة. فيا للروح الصالحة! واستُدعيَ ترونشان، فحضر اللحظات الأخيرة. فكان يقول مستذكرًا العذاب البشع الذي كابده فولتير كي يموت: «يا لها من ميتة! لا يسعني التفكير فيها إلا وأنا أرتعد».

هكذا، وبعد أن استنفد قواه كافة بعزيمة لا تعرف التعب، انطفأ نور العصر.

هل مات فولتير؟

ماذا بقي في ليل 30 أيار/ مايو 1778 من أشد الناس ألقًا، وأكثرهم إثارة للصخب؟ بقيت جثة، وثروة ضخمة، وجبل من الكتب المشهورة، وضجيج مجدٍ مدوٍّ ظل يملأ شارع بون والشارع الموازي لنهر السين، ولا شيء، لا شيء تقريبًا: نسمة من روح تجوب العالم.

فما مصير ذلك كله؟

لا تزال الجثة فوق السرير الحقير. وواقع الحال أن هذه الجثة التي لا تزال فولتير، سوف يتبين أنها الجثة الأكثر اضطرابًا والأكثر شغبًا في العالم: إنها الأكثر

فولتيرية بين الجثث. والكوميديا الجنائزية تكمل هي الأخرى: سوف يواصل هذا الميت المسيرة الأكثر إثارة للدهشة بوصفه راقصًا وإيمائيًا، من بين كل ما عرفت جثة شاعر. فلنتابعها، ولسوف نظل بصحبة فولتير على الدوام.

لقد مات، لكن الحشود ما زالت تهتف له وتطالب بظهوره من الشرفة. أما المحيطون به فأخفوا سر نهايته التي تطرح عليهم مشكلات خطرة. وواقع الحال، أنه بينما كانت الجماهير لا تزال تصفق له في شارع بون، كان السيد دو فولتير يمضي في عربة بريد على طريق تروا. وأما فكرة الخوف المشؤوم التي ظلت تلازمه طوال حياته، وهي أن يموت ميتة الكلاب وأن يُصارَ إلى رمي جثته في مكب القمامة، فأوشكت أن تتحقق. وفعل ابنا شقيقته، الأب مينيو والأب دورنوا، ما وسعهما لتفادي مثل تلك الفضيحة. فتوجها بالرجاء إلى السلطات الكنسية، قبل حلول نهايته، أن تهب خالهما جنازة دينية، واستشهدا بيان الرجوع إلى الإيمان الأول والاعتراف؛ لكننا نعرف جيدًا أن الأقوال التي صدرت عن فولتير بعد تلك الجولة من التوبة أفقدها كل قيمة. ثم تدخلا لدى السيد لونوار وكيل الشرطة، والوزير السيد أملو، اللذين توسطا لدى الأسقفية والسيد فرساك: فاصطدما برفض قاطع. وكان كل من الأب مينيو ودورنوا عضوًا في محكمة باريس العليا؛ فجرى إفهامهما أنهما إذا ما قاما بوساطة رسمية وقوبلت بالرفض، فسوف يصيران في وضع الإعفاء من منصبيهما. وجرى الاتصال بالملك نفسه، فترك جوابُه الباب مفتوحًا أمام أجوبة أخرى أقل ملكية: لقد غسل يديه من القضية، وأجاب «إنه ما من سبيل سوى ترك الكهنة يقومون بمهمتهم». لقد عرف لويس الرابع عشر كيف يتخذ قرارًا لإنقاذ موليير من أن يُدفن في مقبرة جماعية. أما بخصوص فولتير، فلم يكن الكهنة هم الأشد تعصبًا. كانت زمرة النساء الورعات بقيادة السيدة نيفرنيه والسيدة جيزور، تتميز باندفاعٍ من التقوى تشبه الحقد الأشد سخطًا.

لم يكن الأب فرساك يريد إقامة احتفال جنائزي، لكنه لم يكن يعارض نقل الميت إلى فيرني، ما دام فولتير قد أعدّ هناك ضريحًا له. ويا لغرابة ذلك الضريح! فنصفه في الكنيسة ونصفه خارجها. ما يجعل فولتير يرى أن الماكرين سوف يلاحظون أنه «ليس داخلًا وليس خارجًا».

ما كان من الأب مينيو إلا اتخاذ قرار بطولي بالتوافق مع الأب دورنوا: لقد قرّرَ حملِ الجثمان سرًّا إلى دير سيلبير، بالقرب من تروا، حيث هو رئيسه الأعلى. وكان واثقًا من أن رئيسه سيوافق على دفن فولتير دفنًا دينيًا، وهكذا يجري تفادي الفضيحة. ولسوف يرقد خاله بسلام، وفقًا لرغبته.

لكن قبل أن يقوم فولتير بأداء دوره الأخير - أو بأداء واحد من أدواره ما قبل الأخيرة - احتاج بعض الاستعداد وبعض الإخراج المسرحي. وبناء عليه استدعوا إلى غرفة الميت جرّاحًا، هو السيد تري المقيم في شارع باك، وصيدلانيًا هو السيد ميتوار الذي كان له مكتب صغير في شارع بون، وشخصًا مساعدًا هو السيد بريزار. فجاءوا في ليلة 30-31 أيار/ مايو. كان فولتير قد توفي بالأمس، وكانت باريس لا تزال تجهل ذلك. فقاموا بتشريح الجثمان وتحنيطه. ويا له من مشهد! لم يكن في حوزتهم سوى السرير الحقير وشمعة وبعض الأوعية. لقد اكتشفوا أن الكليتين والمثانة متعفنة على نحو مروّع ومثقّبة. ثم قام الصيدلاني بفتح الجمجمة. ويبدو أن طبيبًا ثالثًا كان حاضرًا أيضًا، هو السيد روز دو ليبينوا، من أكاديمية الطب، الذي لاحظ أن جمجمة فولتير الصغيرة ذات غلاف عظمي رقيق جدًا (لا يسع المرء التفكير بضربات العصا التي وجّهها روهان من غير أن تعتريه رعدة)، لكن كتلة الدماغ كانت تفوق المعهود كثيرًا. وطلب السيد ميتوار الاحتفاظ بالدماغ. فعمل على غليه في الكحول، ثم وضعه في وعاء زجاجي وحمله معه. أما السيد دو فيليت، فاستبقى القلب، بوصفه مضيف المرحوم وصديقه. ولم يقم بغليه، بل أغلق عليه في قراب فضي مذهب.

من بعد قيام الأطباء بالقص، كان ينبغي القيام بالخياطة. فأدوا المهمة على قدر ما هو ممكن. وأعادوا إغلاق الجمجمة بقوة، فحصروها في طاقية مشدودة، وألبسوا الجثة الثياب، إضافة إلى مبذل جميل وقع عليه نظر السيدة دوني فأحسّت بحسرة. ثم قاموا بقص ثلاثة أغطية جميلة من أغطية الأسرة، ليصنعوا منها أربطة تلف الجسد بقوة فتبقي عليه مستقيمًا. لقد أدى السيد فولتير آخر أدواره على شكل مومياء. ثم وضعوه في العربة الجميلة المبطنة باللون اللازوردي والمزدانة بنجمات ذهبية، وشدوا إلى العربة ستة خيول، إذ كان ينبغي التحرك بسرعة. مضت على موته ثمانٍ وأربعون ساعة، وكان الطقس حارًا، ولم يكن المحنطون على ثقة

كبيرة بتحنيطهم. كان السيد فولتير جالسًا، مشدودًا بقوة على وسادات ومقيدًا بأحزمة مموّهة. وقد جلس إلى جانبه خادم ليكون رفيق سفر حتى سيليير.

وتبعه ابنا الأخت في عربة أخرى.

أدى الموظفون عند الحاجز على أبواب باريس، تحية متكتمة للسيد فولتير بتجهيزه الجميل، وانطلق الموكب بأقصى سرعة! وسار كل ما في الرحلة على خير ما يرام، إلا بالنسبة إلى الخادم الذي وجدوه شبه ميت تقريبًا؛ إذ أوشك أن يلفظ أنفاسه بسبب ما تولاه من رعب، وبسبب الرائحة القوية التي كانت تنبعث من الجثة. فأزاحوا المومياء عن المقعد، ووضعوها كيفما اتفق، فوق منضدة في مقصورة الحراسة.

كان الدير شبه مدمر. ولم يتردد الرئيس في الموافقة على ما طُلِب منه، فاختاروا أن يُدفن فولتير في الكنيسة، قرب المذبح. فقاموا برفع حجر كبير وحفروا قليلًا. وصنعوا تابوتًا من أربعة ألواح، مددوا المتمرد داخله. واستغرق منهم ذلك طوال فترة بعد الظهر. وكانوا قد طلبوا من السيدة دوني تابوتًا من الرصاص، فردت قائلة: «وما نفع ذلك؟ إن ثمنه باهظ جدًا وهو لا يفيد في شيء». وجرى الاتصال بالحفار في قرية روميلي المجاورة، وبالكهنة والرهبان، وأحيط الجميع علمًا بالموعد، وهو الخامسة صباحًا من يوم الغد. حضر الإكليروس بالثياب الطقسية، وبدأت تلاوة قداس الموتى. وقد رغب الكهنة جميعًا في قراءة القداس. وهكذا فإن فولتير، الذي رفض تلاوة قداس واحد من أجله في باريس، قداس بسيط في قاعة جانبية، قد نعم بستة قداديس علنية أُنشِدت في الريف. ثم ووري التابوت وغُطّي بالحجر. ووضعوا فوق التابوت، في سبيل تعرّف موقعه لاحقًا، حجرًا نُقش عليه: A 1778 V.

بعد مدة قصيرة، علم أبناء الشقيقة بأن جثة خالهم جرى تقطيعها، فاحتجوا. واحتج الرأي العام أيضًا؛ بل إن الرأي العام هو الذي أرغمهم على رفع دعوى لكي تعاد إليهم تلك الأعضاء المنتزعة. لكن ما جرى قد جرى، فلم يعاودوا الإلحاح كثيرًا.

ما كانت السيدة دوني لتعبأ، من ناحيتها، بتلك الترهات: إنها منصرفة انصرافًا

كليًا إلى متاعبها بوصفها الوريثة الشرعية، وإلى السيد دوفيفييه، وإلى السعي نحو تجميع كل ما تستطيع تجميعه من أغراض كانت ملكًا لخالها، فالأشياء تتبعثر سريعًا... قلب، ودماغ، فضلًا عمّا تبقى. لكن هناك الفراء والجواهر والمقتنيات المجهولة...

علم أسقف باريس، في الوقت نفسه، بأن فولتير مات في باريس ودُفِن في سيليير. فأحاط من فوره أسقف تروا علمًا بما جرى في أبرشيته. فطلب الأسقف محاسبة الأباتي رئيس الدير والقيام بنبش جثة فولتير. فاصطنع الأباتي دور الساذج، واحتج بصدق نياته: لقد قدموا له بيان رجوع إلى الإيمان حسن التوثيق، وإعلان إيمان. وعاد فذكر بحق - لكن من غير طائل - بأن فولتير الذي لم يصدر في حقه حرمان قط، له الحق في الدفن. أعرب الأسقف عن سخطه حفاظًا على المظاهر، وجرت إزاحة الأباتي، أما رئيسه الأب مينيو فبقي في منصبه. وتلقى الأباتي من أبناء الشقيقة تعويضات سخية جدًا، واستطاع فولتير أن يرقد بسلام، لكن إلى حين...

وُجِّه رجاء إلى الصحف بالتزام الصمت حيال فولتير، وإلى الممثلين المسرحيين بعدم تقديم مسرحياته. ودام ذلك شهرًا. إن شهرًا لزمان طويل بالنسبة إلى فولتير، حتى وهو ميت. وفي تموز/ يوليو أعلن المسرح الفرنسي عرض مسرحية محمد. وحضرها الجمهور، فلم ترتفع هتافات ولم يُسمع أي صفير: إنه السلام.

لكن ما كانت تلك سوى هدنة؛ فقد أعربت الأكاديمية عن رغبتها في إقامة قداس عن روحه في الكوردولييه، على نحو ما جرت العادة. لكن جاء حظر من المطرانية. فمن الذي تطوع ليتولى بطولة الاعتراض على عدم إقامة القداس؟ إنه واحد من أبناء الجماعة نفسها: دالامبير. وها هو حزب الموسوعة كله يهب مطالبًا بإقامة قداس من أجل فولتير! وقد أثارت القضية ضحك بعضهم، لكنها أغاظت الأسقف بما فيه الكفاية؛ لا ريب في أن ذلك ما كانوا يرمون إليه. ولم يشاطر كثير من الكهنة المرجعية رأيها، فكثيرون قالوا إنهم كانوا سيشاركون في جنازة دينية لفولتير في ما لو طُلب منهم ذلك: لقد كتب دالامبير إلى فريدريك الثاني أن كاهنًا من كنيسة سانت إيتيين دومون كان سيساهم في جنازة فولتير ليدفنه في كنيسته

علنًا، ما بين باسكال وراسين، وينقش إعلان إيمانه على حجر شاهدة. وكان من شأن ذلك أن يُجَنب الكنيسة هجومًا كالتالي:

لم ينقصه شيء من المجد
فالكهنة شتموه والملوك أحبوه

أقام «محفل الأخوات التسع» احتفالية جليلة حلت محل تلك التي رفضتها الكنيسة، وكان ذلك في 28 تشرين الثاني/ نوفمبر 1778. حضرت السيدة دوني والسيدة فيليت، لكن ظهور فرانكلين هو الذي استأثر بالانتباه. كان ذلك الاحتفال رائعا جدًّا ومفرطًا في الطول ومضجرًا. فالفنون كافةً دُعيت: كانت الموسيقى تتناوب مع المدائح شعرًا ونثرًا. وما تكاد سمفونية تنتهي حتى ترتفع قصيدة غنائية، وأناشيد تنشر حتى اللانهاية سحر الشعر الممتزج بالموسيقى. وكان طيف مورفيوس[86] يحوم فوق الحضور. أما روح فولتير فلا ريب في أنها ارتحلت قبل النهاية.

وثمة تكريم آخر - لكَم كان دينيًا! - أقامه فريدريك الثاني لصديقه الشهير؛ فلقد أقام الملك البروسي، نزولًا عند إلحاح دالامبير، قداسًا في كاتدرائية برلين. ومع ذلك، استوجب الأمر إرسال نسخة عن بيان الرجوع إلى الإيمان إلى الكهنة البرلينيين. وهاكم ما كتب فريدريك بشأن ذلك: «باشرتُ في برلين المحادثات الشهيرة من أجل صلاة جناز لفولتير، وعلى الرغم من جهلي كل فكرة حول خلود الروح، فسوف يقام قداس لروحه. أما الممثلون الذين سيؤدون عندنا هذه المسرحية الهزلية، فمعرفتهم بالمال تفوق ما يعرفون من الكتب النافعة».

أما النفع الكامن وراء تلك «المسرحيات الكوميدية» كلها، فهو أن يعرف العالم أن أسقف باريس، وكنيسة فرنسا، وتاليًا فرنسا، كانا وحدهما في العالم في رفضهما إقامة الجنّاز المسيحي، للمسيحي الفائق الشهرة الذي يدعى فولتير.

كان السيد دو فيليت منصرفًا من جانبه إلى صنمه المعبود: كان يؤدي فروض العبادة للقلب الذهبي محيطًا عبادته بكل دعاية ممكنة. فقد حمل ذخيرته إلى

---

(86) هو أحد كهنة النعاس في الميثولوجيا الإغريقية، يلامس الناس بزهرة خشخاش فينامون، فيريهم الصور في الأحلام. (المترجم)

فيرني، إلى غرفة الفيلسوف التي ظلت على حالها لمّا تُمَس. وكان يزهو بإقامة نصب من الرخام في الغرفة نفسها: هو عمود مخدّد ومقطوع، وُضع في محراب مجلل بالسواد. وكان القلب في حرز أمين. أما فانيير الذي ما كان لديه من دافع لمراعاة مشاعر فيليت، فقال إنه مزور وهو من الفخار الملون وأُلصق عليه رخام مستعار حتى إنه لم يكلف لويستين. لكن لا يهم، فالكتابة التي صاغها فيليت كانت أصيلة، وهي تعلو باب الغرفة التي تحولت إلى مصلّى: «قلبه هنا، أما روحه ففي كل مكان».

اشترى فيليت لاحقًا مِلكية فيرني من السيدة دوني، فأقام فيها بعض الوقت، ثم أرغمته تقلبات الثروة على تأجيرها لرجل إنكليزي. فلامه ذوو القلوب الرقيقة على أنه أجَّر «قلب» فولتير مع باقي الأثاث. وعاد فباع فيرني، لكنه استرد «القلب» الذي حمله إلى ملكيته في فيليت. وهكذا فنحن نرى أن فولتير، حتى وهو قِطع، كان دائم الترحال، مثلما كانت حاله في حياته.

ما إن قامت الثورة، حتى سار فيليت في تيارها، وقام في اندفاعه فألقى بلقبه إلى الشيطان. وقال عارفوه إن لقبه، المركيز، كان حديث العهد وقد كان في وسعه مواصلة استخدامه، مع أنه لم يكلفه غاليًا. أما وأنه لا يتراجع أمام أي تضحية، فقد استبدل باللوحة المثبتة على جدار قصره وتحمل اسم «شارع تياتان»[87] لوحة تحمل اسم «شارع فولتير». وكانت الفكرة ذكية؛ إذ عاش فولتير هناك في طفولته، ثم عاد إلى المنطقة نفسها ليموت فيها. بيد أن السلطات اعترضت، يدفعها أعداء فولتير. فما كان من شارل فيليت إلا أن ترك اللوحتين جنبًا إلى جنب، قائلًا إن كل واحد يستطيع أن يسمي الشارع وفقًا لما يروقه. لقد كان شارل ثوريًا متساهلًا جدًا.

التمعت فكرة أخرى أكثر سموًّا في ذلك الدماغ الذي يغلي فيه حس المواطنية: ماذا لو يُصار إلى نقل رفات فولتير إلى باريس؟ لقد طرح فكرته في صحيفة صغيرة آنذاك اسمها لا كرونيك (*La Chronique*). وجابت تلك الفكرة باريس كلها، فصار عدد الصحف المطالبة بتبنيها عشرًا. فضلًا عن أن دير سيليير كان على وشك أن يُباع بوصفه مِلكية رسمية. وكان الدير خرابًا، فلا محيد عن إكمال هدمه، ويمكن

(87) اسم رهبنة أسسها في إيطاليا في القرن السادس عشر أسقف، صار لاحقًا البابا بولس الرابع. (المترجم)

لرفات فولتير أن تُرمى في مقبرة جماعية مع رفات باقي الرهبان. لكن أين يمكن دفن فولتير في باريس؟ فالبعض ممن يرى فيه أبًا للوطن والثورة، اقترح وضعه تحت هيكل الاتحاد، كما حال القديس بطرس تحت العرش البابوي. وما حدث قط لرجل قليل التقوى مثله أن استُخدِمت رفاتُه ذخائر. أما الآخرون الذين يحترمون فيه مؤلف هنرياد، فكانوا يريدون دفنه تحت حافر حصان هنري الرابع عند الجسر الجديد (Pont-Neuf). كما فكر بعضهم أخيرًا بنوع من ساحة مستديرة عند نهاية الشانزيليزيه، لإقامة ضريح له. ولسوف تكون ساحة النجمة، الساحة التي يشغلها تمثال الجندي المجهول.

ظل فيليت متمسكًا بتمثال هنري الرابع. لكن كاميل ديمولان صرف أنظار الشعب بعبارة واحدة سرت على كل لسان؛ فقد هتف الخطيب قائلًا: «ألا بئس ما تبغون! إنه وضع الخالد تحت قدمي القديس كريبان»(88). وقد كان لتلك الومضة الرائعة من النجاح أن ذهبت مثلًا.

في أثناء عرض لمسرحية بروتوس لفولتير، حيث كان الجمهور آنذاك يستبسل في سبيل العثور على إيماء سياسي في كل بيت من الشعر، وقف فيليت، المستعد دومًا للظهور من طريق تكريمه لذكرى فولتير، ليرتجل على خشبة المسرح خطبة قصيرة. فقال عن الباريسيين إنهم «رومان» وإن فولتير هو «بروتوس»، وذلك ما يلائمه ويلائم الآخرين. وأما في فيض من الفصاحة التي اختلط فيه الكذب بالديماغوجية، فإنه وصل إلى نتيجة كانت طبيعية جدًا: قال إن رفات فولتير ينبغي أن توضع في البانتيون؛ أي في كنيسة القديسة جنفياف.

وفي سبيل أن يتغلب على آخر المترددين، تعهد بأن يدفع التكاليف من حسابه الشخصي. فقوبل بالهتاف.

وها هي رحلة أخرى مرتقبة للجثمان المتحرك، لكنها هذه المرة رحلة وطنية.

تقرر في 3 أيار/مايو 1791 بيع دير سيلبير. ولئن لم يجر اتخاذ أي قرار قبل ذلك التاريخ، فإلى أين كان سيُبعَد ذلك المنفي الأبدي؟ من الواضح للعيان أنه، وهو ميت، لم يكن واثقًا من مكان إقامته أكثر منه وهو حي. وكانت بلدة

---

(88) قديس من القرن الثالث، هو شفيع الحذّائين. (المترجم)

روميلي (Romilly) تنوي منحه مكان لجوء. وتنوي ذلك أيضًا بلدية باريس، بتأثير من فيليت. كذلك زعمت جمعية أصدقاء الدستور في تروا أن لها حقوقًا في الرفات. ولما كان على الصغار الانحناء أمام الكبار، حتى في عهد الثورة، فإن روميلي تراجعت أمام تروا، وتنازلت تروا من ناحيتها لباريس... لكن كلا الطرفين كان يريد بعض الذخيرة في الأقل: فرضيت روميلي بالذراع اليمنى، وقالت تروا إنها ستأخذ الرأس (كانت الجمجمة فارغة، لكن ذلك لما يكن معروفًا). وثمة من أبدوا سخطهم من أن ذلك التقطيع يذكر بعادات الكنيسة الرومانية.

أما الحجة النهائية التي استبعدت مزاعم كل من روميلي وتروا، فهي أن ذكرى ذلك الرجل العظيم ملك للإنسانية جمعاء، وبالتالي ليس مجديًا جعل هيكله العظمي قطعًا.

ونجا هيكل بطلنا من التقطيع، لكنه لم ينجُ من نقل المسكن. في 10 أيار/مايو 1791 جرى نبش ضريحه، وقد انقضت ثلاث عشرة سنة وهو يرقد تحت ذلك الحجر. ويا لها من عملية نبش! كان أبناء تروا يقومون بالعمل ومعهم أبناء روميلي أيضًا. فكان لأول من كان يحفر ويضع يده على الهيكل العظمي، أن يستولي عليه. فكان أبناء تروا الأكثرَ استبسالًا. في تلك الأثناء وصل قرار الهيئة التأسيسية الذي جعل من هيكل فولتير العظمي، ثروة وطنية. فارفعوا أيديكم في تروا وفي روميلي! لقد ألقت باريس والأمة على الهيكل بمخالب الأسد، ورفع الحفارون البلاط الحجري بحثًا عن الحجر A 1778 V. كانت تحركهم حماسة منقطعة النظير، وربما انهال بعضهم على البعض الآخر بالضرب في سبيل أن يكون الأول في الوصول إلى التابوت. ثم علت صيحة فرح «ها هو! ها هو!»: لقد خرق معول دفوف التابوت.

سحبوه من الحفرة، فاقترب جرّاحان، وأعلنا أن الجثمان لم يمس - يا لهما من كاذبين - باستثناء جزء من القدم اليسرى، وأوضحا أنه ما من أحد وقع لها على أثر. أما الحقيقة فهي أن القدم سُرقت لتوها، فليس من يرغب في الدخول في متاعب مع السلطات في باريس. وأوضح المحضر أن الكفن لونه أسود ومتعفن وملتصق بالجثمان كأنه قطعة منه. وكان الجسد جافًا تمامًا وملتصقًا بالدفوف السفلى التي لا يمكن انتزاعه عنها. ثم قاموا بحمل الجثمان، وأطلق الحرس

الوطني في روميلي طلقة تحية، فأحيطت الجثة المحنطة بورق السنديان، وحُمِلت على مرأى من الجميع إلى القرية المجاورة. كان الدرب غاصًا بالنساء من الجوار، فكن يلقين بالأوراق والأزهار. وكان بعضهن يجعلن أطفالهن يقبّلون ذلك الشيء الرهيب.

قدموا في روميلي إلى المومياء تابوتًا جديدًا وحرس شرف. والحق أن ذلك لم يكن احترامًا للمومياء على قدر ما كان لحمايتها؛ فقد كان رجال الحرس بكامل أسلحتهم يقومون بالدورية وهم مرتابون. كانوا يخشون قيام جماعة مسلحة من المناطق المجاورة بمحاولة الاستيلاء على الذخيرة، كما كانوا يخشون أيضًا «أشرار الخرافات الوهمية» الذين كانوا قادرين على سرقة الجثة لرميها في النهر. فالريبة تشمل إذًا الأصدقاء والأعداء على حد سواء. ولم يكن ذلك بلا سبب؛ فعظم العقب اختفى، وكذلك حال الوظيف[89] (مشط القدم)... (يبدو أن قدم فولتير شوهدت في فترة ما في متحف تروا ثم اختفت). وقام أحد الماكرين بسرقة اثنتين من الأسنان.

أعطيت إحدى السنَّين لموظف في مدينة باريس اسمه شارون، كان في مهمة بوصفه «منظم احتفال نقل رفات فولتير»، فكانت تلك الهدية ذكرى له. وأعطيت السن الثانية لشخص اسمه لوميتر، وهو صحافي «مستنير»، من أجل أن يتكتم على اختفاء القدم. ولوميتر هذا هو من شخصيات ذلك العصر، وهو جدير بأن يُعرَف. وقد صنع من السن تعويذة؛ فكانت تتدلى من سلسلة تحيط بعنقه، وهي ضمن غمد كتَب عليه هذين البيتين المتكاملين في المعنى:

تسبب الكهنة بشرور كثيرة على الأرض
حتى إني أعددت لهم سنًا من أسنان فولتير.

هناك ما يدفع بنا إلى القول إنه كان حريًا بفولتير هو أيضًا أن يَحتفظ له بسن،

---

(89) يبدو أن هذا الميل الراغب نحو الذخائر ليس استثنائيًا والشغف بأسنان فولتير يذكرنا بحالات أخرى: فقد بيعت جمجمة ديكارت بمئة فرنك في عام 1820. وأثناء نقل رفات أبيلار (Ahélard) وإيلويز (Héloïse) إلى دير القديس أغسطينوس، عرض أحد الإنكليز مبلغ مئة ألف فرنك لقاء سن واحدة من أسنان إيلويز. كما اشترى إنكليزي آخر هو اللورد شفاتربورغ، بمبلغ 16595 من الفرنكات، سنًا من أسنان نيوتن ووضعها في قلب خاتم.

لأن هذا الشخص، الذي كان مبهورًا على الأرجح بـ «أنوار» العصر، مات مجنونًا داخل زنزانة في بيسيتر. أما سن فولتير فلم تضع، بل انتقلت إلى ابن عم له كان - وهات من يخمّن - طبيب أسنان في باريس، وهناك ضاعت آثارها. فهل أنهت مهمتها في فك واحد من زُبُن لوميتر؟ وهل عضت أحدًا ما؟ إن المرء ليحلم طويلًا في شأن مسيرة واحدة من أسنان فولتير... لكن من يجرؤ على أن يؤكد أن جثة فولتير نعمت بالراحة؟

سرَت في روميلي حكاية خرافية: ففي أثناء الليل، تسلل رجل طويل جدًا فوصل إلى القرب من التابوت وقام باختلاس الجثة. فبلغ الخوف بالحرس والعمدة من النتائج الوخيمة لإهمالهم حدًا - ولا سيما أن خوفهم من باريس كان كبيرًا جدًا - جعلهم يقررون تضمين التابوت جثة جديدة لبستاني نُبِشت من المقبرة. ثم ازدانت الحكاية الخرافية بالتفسير الآتي: كان ذلك الرجل العملاق روسيًا بعثت به كاترين الثانية ليسرق فولتير ويقوم بتسليمه إلى القيصرة. ولئن كانت تلك الحكاية بلا قوام، فإنها تظهر إلى أي حدٍّ بلغ التشوشُ بالأفكار، بسبب تلك الجثة الساحرة.

جرى تحديد يوم 11 تموز/ يوليو 1791 موعدًا لنقل الرفات. فيا له من توافق عجيب. لقد جرى ذلك وقت هروب الملك، وتوقيفه في فارين وعودته المزرية إلى باريس. وأوشك الموكبان أن يتقابلا، ويا له من لقاء! كان الملك لويس السادس عشر أسيرًا في عربته الموصدة والمحاطة بقوات مسلحة، فيما الملك فولتير، ميتًا لكن منتصرًا، يدخل باريس محمولًا على نعش يحف به الحرس الملكي في باريس التي قامت الملكية في ما مضى بنفيه منها. إن المسرحية الهزلية تلتها التراجيديا.

تمت رحلة النعش من غير متاعب: كانت كل بلدية تلقي عليه الأزهار وتطلق النار تحية، وتلقي الخطب على الطريقة «الرومانية»، تمجيدًا لأقل الناس رومانية. وعند حدود باريس، أقبل العمدة بايي بموكب مهيب لاستقبال النعش. كانت مسيرة الموكب في باريس مهيبة حقًا: فقد تجمع مئات آلاف الباريسيين ليهتفوا تحية للتابوت، مثلما فعلوا من قبل تحية لمؤلف إيرين. فكان الخيالة يتقدمون الموكب، فيما يحيط المشاة بأرتال لا نهاية لها. لم يصل الموكب إلى البانتيون إلا في السابعة مساء، ولم ترتفع على المسار سوى صيحة نشاز واحدة، إنها صرخة

كاهن شعر بالسخط على تلك الطقوس الوثنية، فهتف قائلًا: «رباه، لسوف يؤخذ بثأرك!»، واكتفى الجمع بصيحات الاستنكار. ذلك أن الاهتياج الدموي لمّا يبدأ، فنجا من الورطة بيسر.

كان تمثال لفولتير يتقدم النعش، ثم يتبعه مجسم صغير للباستيل مصنوع من الكرتون. واستعاروا من الأديرة والكنائس - بالقوة تقريبًا - حلل الكهنة ودروعهم كي يظهر بها «على منهج الأقدمين» مئات المرتلين الذين سوف يترنمون بأناشيد وطنية، فيما حمل كثيرون يافطات «فلسفية». فكان في وسع المرء أن يقرأ على الواحدة منها: «ما دام الإنسان قد وُلِد حرًّا، فينبغي أن يحكم نفسه بنفسه»، وعلى الأخرى: «إن كان المرء خاضعًا لحكم طغاة، فعليه أن يخلعهم» (وهذا من شعر فولتير في قصيدة له عن الحسد). لكن هذا البيت في القصيدة متبوع بآخر يعدل من معناه: «نحن نعرف حق المعرفة أن طغاتنا هم مفاسدنا». لكن لا يهم؛ فنحن دومًا حين نشيد بشخص ما، نغدر به بعض الشيء.

مر الموكب أمام حديقة التويلري ليعبر السين عند الجسر الملكي (Pont-Royal). كانت نوافذ القصر كلها مفتوحة، تغص بالناس العاملين في بيت الملك، والواجهات كلها تهتز بالهتاف، ما عدا نافذة واحدة مغلقة يقف وراءها اثنان صامتَين دونما اكتراث، هما الملك والملكة. فبمَ كانا يتفكران؟

كان ملك ذلك النهار والشارع، وهو السيد بايي وحاشيته، يسيرون في موكب وراء النعش المصنوع من الرخام السماقي على الطريقة القديمة، والذي أضفى تأثيرًا كبيرًا. كانت باقات الورد تُرمى من النوافذ، فيُخطئ بعضها النعش ويسقط في عربة البلدية. وقد لاحظ أحدهم بشيء من المكر «أن السيد بايي كان يشكر بإيماءة تأثر كأنما هو انتصاره الخاص».

كان ذلك الزياح، وهو في الواقع كذلك، منسوخًا عن الزياح الذي يجري يوم عيد الرب (خميس الجسد)، وقد توقف أمام منزل السيد فيليت الذي حوّله إلى ما يشبه الاستراحة، وقد رفع لقيته على لافتة كبرى: «قلبه هنا، أما روحه ففي كل مكان». علاوة على ذلك، كانت الواجهة حتى الطابق الأول محجوبة بسقالة على شكل مدرج، اعتلتها فتيات جميلات يرتدين البياض «على الطريقة الإغريقية»، وينشدن بأصوات كأنها أصوات عرائس البحر، أناشيد من تأليف شينييه. وحين صار التمثال مقابل السقالة ظهرت، مثلما يحصل في الأوبرا، شبه ربة يحملها

راقصو الأوبرا. فقد خرجت من نوافذ الطابق الأول فأضحت على سوية التمثال الذي توقف ساكنًا أمامها. كانت الربة هي المواطنة فيليت التي حملت التمثال بين ذراعيها وغمرته، وفقًا لتعبير الراوي، بـ «دموع العطف العذبة»، ثم كللته بالغار. في تلك اللحظة عينها، كان خمسمئة ألف باريسي تجمعوا في الشوارع المحاذية للسين وعلى الجسور وفي اللوفر، يذرفون الدموع ويهتفون فرحًا. بعدئذٍ حملت السيدة فيليت طفلتها التي كانت في الرابعة، ووضعتها بين ذراعي التمثال. ويضيف الراوي: «لقد نذرتها إذا ما صح القول، للعقل والفلسفة والحرية». وفي المحصلة، اتخذ كل شيء طابعًا دينيًا، باستثناء الدين.

توقف الزياح لاستراحة أخرى في شارع فوسيه سان جرمان، في مواجهة بروكوب، وأمام المسرح الفرنسي القديم. كان على الواجهة تمثال نصفي لفولتير، مكلل بالغار كالعادة، وتحته الكتابة التالية: «في السابعة عشرة، قام بتأليف أوديب». ووصلوا إلى الأوديون في السابعة مساء، حيث يمكن المرء أن يقرأ: «في الرابعة والثمانين، قام بتأليف إيرين». وانتدبت دار الأوبرا جوقاتها. وكان ذلك كله غاية في الجمال، لكن ربما كان طويلًا إلى حدٍّ ما. في تلك اللحظة عينها انفجرت عاصفة مطرية فوق باريس، وفتحت السماء أبواب سدودها. كانت شلالات من المياه تنحط من السماء فوق السطوح ومن السطوح على الموكب، فكان هروب مذعور. ما عاد على أجساد النساء اللواتي قمن بدور الربات سوى قميص مبلل ملتصق بالجسم، أما السيدات الأنيقات المزدانات بقبعات الريش، فهربن كالدجاجات المبللات للاحتماء تحت الأروقة. وفي اليوم التالي، كتب صحافي أغاظه انفجار الرعود وذلك الطوفان الذي بدد الموكب الرائع، فأكد ساخطًا: «لقد عزمت السماء الأرستقراطية على الثأر». فهل هناك عواصف «أرستقراطية» وعواصف من «عامة الشعب»؟ ويبقى أن أولئك «الرومان» جميعًا هربوا من أمام المطر المنهمر هروب الأطفال الصغار. وظل النعش وحيدًا تحت المطر. وفور حصول الانقشاع، واصل السير فوصل ليلًا إلى سانت جنفياف، يحف به عدد ضئيل من الحرس. وجرى إنزال التابوت إلى مدفن الكنيسة في القبو، من دون أي احتفال آخر. وبدلًا من الماء المقدس، كان يقطر بماء المطر.

فلندعه يرقد بسلام؛ إذ كانت فرنسا وأوروبا مقبلتين على مرحلة من التمزق سوف تدوم خمسًا وعشرين سنة. فالأحياء سوف يتمرغون في الدماء، والشاعر لميت سوف يعرف الراحة أخيرًا.

ماذا جرى للقلب؟ لسوف تحتفظ به «الجميلة والطيبة» (بيليبون) في شقة صغيرة لجأت إليها في أثناء فترة الاضطراب، وتقع في زقاق فيرو المسدود بشارع فوجيرار. وسوف ترجع من بعد إلى قصر فيليت الذي صار شبه متحف لفولتير، وهو بالتالي مقدس لدى اليعاقبة[90]. فأفادت السيدة فيليت من تلك الحصانة وجعلت من القصر مأوى للكهنة المنبوذين في أثناء مرحلة الرعب. فمن عساه يأتي ليبحث عن كاهن منشق تحت قلب فولتير؟

والحق أن بطلنا لمّا يقل كلمته الأخيرة وهو يلفظ النفس الأخير. فلنتعرف إذًا إلى آخر دعابات السيد فولتير بعد موته. ففي عام 1819، صارت السيدة فيليت، التي صار شقيقها آنذاك أسقف أورليان، رئيسة محفل ماسوني اتخذ اسم «بيليبون». وكان ذلك أمرًا جريئًا بالنسبة إلى شقيقة أسقف، في ذروة عهد الإصلاح. كانت في حوزتها أوراق لفولتير، وملابس، وعلى وجه الخصوص المبذل الحريري الذي كان يرتديه وهو ينزل من السرير إن كان عليه التوجه إلى الصالون. وهي التي كانت تحتفظ بالصورة التي رسمها له لارجيلير. وبعد وفاتها، انتقل ذلك كله إلى ابنها المركيز دو فيليت، الذي توفي من دون ذرية فخلف ممتلكاته كلها في عام 1860 للأسقف درو بريزيه، مطران مولان. فما الذي سيفعله ذلك الأسقف بتلك الذخائر الملحدة؟ إنه لم يمدُد إليها يدًا فأوعز بحملها إلى قاعة المبيعات. وهناك تبعثر كل شيء؛ فالصورة بيعت بستة آلاف فرنك[91]، أما القلب الذي يهمنا أمره على وجه الخصوص، فأُعطيَ للدولة. وقد أوعز نابوليون الثالث بوضعه في المكتبة الوطنية، حيث لا يزال هناك.

وماذا عن الدماغ؟ لقد أبقى عليه الصيدلاني ميتوار في حوجلته، طوال حياته. أما ابنه، الذي حصل عليه بالوراثة، فقد ارتأى أن من الأفضل وضعه ضمن مجموعة الدولة، وعرضه على حكومة المديرين فرفضته. وهكذا فقد احتفظ آل ميتوار بـ «معقل عبقرية السيد فولتير» على نحو ما كان يُقال آنذاك. ومر الوقت، وانقضى أيضًا عهد الإمبراطورية. وكان ميتوار يعرف أن عهد الإصلاح لن يعبأ كثيرًا بهدية من ذلك النوع: فجرى ركن الدماغ في خزانة جدارية.

---

(90) اليعاقبة (جاكوبان): جماعة من الثوار صاروا يعقدون اجتماعهم في دير يحمل اسم القديس يعقوب (جاك). (المترجم)

(91) هذه الصورة ملك للسيد ماسيمو أوبري (M. Ubri)، وهناك نسخة في كارنافاليه (Carnavalet).

في عام 1830، ظن الصيدلاني أن الملكية الليبرالية سوف تقبل به، فعرضه عليها. فقوبل بالصمت. وفي تلك الفترة، جمع السيد ميتوار في بيته ذات مساء، بعض العلماء، وقدم لهم الدماغ الشهير. فخطر في بال كل علّامة من تلك الشخصيات أخذ بضع خزعات وتعريضها للهب شمعة. فلاحظ أحد الشهود ملاحظة جادة وجديرة بديافواروس[92] حين علت علائم الدهشة والعجب وجوه أولئك السادة؛ ذلك أن «ذلك الدماغ ما زال يطلق وهو يفرقع إشعاعًا من نور». إن كلمة «ما زال» لقول جميل. ثم أضاف: «لسوف يخلف ذلك الدماغ آثارًا للمستقبل».

في عام 1858، وجد قريب لآل ميتوار ووريث لهم، أن الحوجلة صارت في حوزته. فقدمها إلى الأكاديمية الفرنسية، فرُفضت، إذ «ليس لديها مكان مخصص للذخائر لتضع فيه تلك الحوجلة غير المنتظرة».

غير منتظرة، أما هو فسوف ينتظر. وفي عام 1870 ورد ذكر للدماغ: إنه في حوزة آنسة عجوز من آل ميتوار، في شارع بونزانفان، في باريس. وقد خلّفته بعد موتها لموظف في صيدلية ميتوار، بشارع كوكيليير. فيا لذلك الدماغ من متشرد! وتوفي ذلك الموظف، واسمه لابروس، في عام 1875، فتبعثر ما خلف من أغراض في قاعة المبيعات. ولدينا أسماء الذين اقتنوا أغراضه كلها، باستثناء ذاك الذي اقتنى الحوجلة والدماغ. وهكذا توارى بعد وفاته بمئة عام تقريبًا «معقل عبقرية السيد دو فولتير».

لكن بقي لدينا، بحسب ظننا، الهيكل العظمي في الأقل. فلنحاول العثور عليه.

كان يرقد كما نعرف في قبو البانتيون. وواقع الحال أن متطرفين انشغلوا في عام 1814 بمسألة ضريح فولتير؛ إذ عدوا وجود رفات الملحد في كنيسة غير مخصصة لذلك الغرض، إنما هو إهانة للأمة. فقرروا سرًّا رفع تلك الرفات من دون إثارة ضجة وتحويلها إلى مصيرها، أي رميها في مكب النفايات.

حدث ذلك في إحدى ليالي أيار/ مايو 1814. فجرى فتح تابوتي فولتير

---

(92) هو اسم الطبيب في كوميديا موليير مريض الوهم. (المترجم)

وروسو المتجاورين، وإفراغهما بعناية ثم إعادة إغلاقهما. ولم ينبس أحد ببنت شفة في شأن القضية. فهل انكشف سرّها؟ أقسموا أن لا. فقد حُمِلت أنقاض الضريحين إلى أرض مهملة تُستخدم مستودعًا للنفايات والأنقاض، في موقع اسمه لاغار، في برسي. فدُفِنت تحت كمية من الكلس الحي وجرت تغطيتها بالأنقاض. وسوّى المشبوهون التربة بأقدامهم لتمويه أعمالهم. وألقى القمر بضوئه الرومانسي على متآمرين بمعاطف مموهة وقبعات مستديرة أنزلوها حتى عيونهم، ثم قالوا في سرهم: ها قد نجحنا.

لزم انتظار عهد الإمبراطورية الثانية ليقوم صحافي بتفجير فضيحة ما كان لأحد أن يظن إمكان وقوعها: لقد أعلن سخطَه من جعل الزوار يمرون بتهيب وإجلال أمام رفات فولتير في حين أن ضريحه فارغ! فجرى بأمر من الإمبراطور نفسه فتح تحقيق في الأمر وفتح التابوت أيضًا، فتبيّن أنه فارغ حقًا. وما كان لأحد أن يدري قط ما قد جرى، لولا أن ابن واحد من المتآمرين، وبعد قيام الشرطة بالبحث طويلًا، قص ما سمعه من والده. وتمت من طريقه معرفة ما قد جرى في إحدى ليالي أيار/ مايو 1814. وبات مستحيلًا العثور على بقايا رفات فولتير التي أتلفها الكلس. فضلًا عن ذلك، انقلب عالي الأرض سافلها بسبب عمليات البناء. ومن بعد ذلك جرى هناك بناء أسواق بيع النبيذ بالجملة.

فكم من المغامرات خاضت تلك الجثة، التي كانت أكثر تحركًا من كل ما نعرف! إنها حتى آخر حفنة من الرماد، تظل تشبه فولتير. لذا تابعنا تواريها حتى النهاية.

وإذا ما استثنينا القلب الذهبي، فلم يتبق شيء من فولتير[93].

***

(93) يظن بعضهم أن الهيكل لا يزال في التابوت، إذ قامت لجنة برئاسة هامل، عضو مجلس الشيوخ، بفتح تابوتي فولتير وروسو، في 18 كانون الأول/ ديسمبر 1878، فأكدت أن الهيكلين في مكانهما. فكيف لهما أن يعودا، في حين أن لجنة لا تقل عنها من الناحية الرسمية أكدت في عام 1864، وبكثير من الضيق، أن الهيكلين مفقودان؟ (ملاحظة ل. فلاندران، في: *Voltaire. Oeuvres choisies*, disposée d'après l'ordre chronologique, avec introduction, bibliographie, grammaire, lexique et illustrations documentaires par Louis Flandrin (Paris: A. Hatier, 1946).

أما ثروته الطائلة، فماذا بقي منها؟ إن تلك الثروة التي جُمعت بمهارة، والتي يمكن قصتها أن تشكل في حقيقتها تاريخًا اقتصاديًا وماليًا للقرن الثامن عشر، صارت ملكًا لماري لويز مينيو، أي الأرملة دوني، التي ستتزوج عما قريب من السيد فيفييه فتغدو السيدة دوفيفييه.

بيّن كشف بأملاك فولتير في عام 1775، أن عوائده تبلغ 197 ألف ليرة، من دون أن نحسب دخل فيرني البالغ ثمانية آلاف. فيساوي ذلك ما يقرب من 120 مليونًا من الريع السنوي بحسب أيامنا، أي رأس مال يقارب مليارًا من الفرنكات القديمة.

لم ترث السيدة دوني المال كله، لأن فولتير، وفي سبيل الحصول على عوائد كبرى، وظف مبالغ ضخمة لدى مدينين معسرين. لكنها ورثت ما يقرب من نصف الثروة، فكانت على الرغم من ذلك في مأمن من العوز. وإن وصية فولتير التي كتبها في 30 أيلول/ سبتمبر 1776، تعطي مئة ألف ليرة لكل واحد من ابني شقيقتيه مينيو وهورنوا، فكانا مغبونين مقارنة بابنة أخته المسرفة. وترك ثمانية آلاف لفانيير، وذلك قليل بالنسبة إلى سكرتير على تلك الدرجة من الوفاء، لكن فانيير لحق به الضر من السيدة دوني. وتلقى كل خادم ريعًا يعادل أجره السنوي. أما فقراء فيرني، «إن بقي هنالك فقراء»، فلهم بحسب قول الوصية أن يتقاسموا 300 ليرة، فبفضله لم يتبق سوى قليل من الفقراء. ويبدو أنه كان يحسب أن السيدة دوني سوف تبقي على فانيير وعلى رجال بيته، لكنها لم تفعل ذلك.

قامت في بداية الأمر ببعض الحسابات الخاطئة؛ إذ كان عليها استرجاع ملكية تورني من عائلة دوبروس. فقامت هذه على الفور برفع دعوى «استغلال مفرط» وسوء صيانة، وطالبت بتعويض يبلغ 71 ألف ليرة. وحسبت السيدة دوني أنها ستفقد صوابها. لكن فانيير، بصبره وحسن تصرفه، عمل على تخفيض المبلغ إلى 41 ألفًا وتفادى الدعوى. وبدا أن السيدة دوني لم تلحظ ما أدى إليها فانيير من خدمة فقامت بتسريحه. وكانت منصرفة كل الانصراف إلى زوجها الشاب الذي كلّفها أكثر من عائلة ديبروس. لكنه جعلها من ناحيته تتجول في البلاد.

في حزيران/ يونيو 1778، وبعد وفاة خالها بأيام، قامت بزيارة للسيدة دوفان التي وجدتها «امرأة بسيطة وسمينة خالية من الذكاء لكنها حساسة وتجيد

تبادل الحديث، وهذا ما ورثته من خالها من دون ريب». ولاحظت أقوال الوريثة بشأن كتب فولتير وأوراقه، إذ قالت: «إنها ثمينة حقًا في الواقع. ولسوف أبيعها كلها، لكني مصممة على عدم التخلص منها». فكانت أول الأشياء التي قامت ببيعها! صحيح أن الشاري كان اسمه كاترين الثانية، إمبراطورة بلدان روسيا كافة. فمكتبة فيرني لم تكن ضخمة: كان فيها ما بين ستة إلى سبعة آلاف مجلد، وكلها تحمل ملاحظات مدونة وتتضمن تصحيحات وتعليقات غاية في الفطنة. وما كانت تلك مؤلفات مغرم بالكتب، بل أدوات عمل وبحوث. أما فضوله الشديد في البحث، فجعل تلك الكتب تتقطع بين يديه ويعاد جمعها؛ إذ جعل فولتير من كتبه أشكالًا من «المختارات»، فكان يقرأ وبيديه المقص والصمغ، فيحيل مجلدًا ضخمًا إلى خمس عشرة صفحة أو عشرين أو خمسين، ليعيد تجليده. فتحولت مؤلفات رابليه إلى عُشر حجمها. كانت المكتبة لديه نوعًا من «معبد الذوق». وكان يكتب على الهوامش وبين السطور، ويدخِل أحيانًا بين الصفحات صمغًا لإلصاقها.

حين تقدمت كاترين بعروضها الأولى، ردت عليها السيدة دوني أولًا بشيء من الغنج الشكلي. وكانت تنتظر سخاء القيصرة، وإعلان الرقم. فكان رقمًا إمبراطوريًا: 135 ألف ليرة. إنه يزيد على نصف المبلغ الذي ستناله من ملكية فيرني كلها: القصر والأراضي والقرية وورش العمل... فتظارفت، ثم قبلت إضافة إلى المبلغ، بعلبة من الماس فيها صورة للإمبراطورة، وعدد من الفراء الفائق الجودة. واستُدعي فانيير إلى بطرسبرغ ليقوم بترتيب الكتب والأوراق على نحو ما كانت عليه في فيرني.

قالت كاترين، وهي تستقبل السكرتير أمام تمثال فولتير النصفي، الذي قامت نحوه بانحناءة:

«أيها السيد، ذاك هو الرجل الذي أدين له بكل ما أعرف وبما أنا عليه».

أما حين غدت واثقة من أن السيدة دوني قبلت بالمبلغ والماس والفراء في مقابل التخلص من أوراق خالها، كتبت إليها هذه الرسالة:

«ما من أحد قبله كتب مثله. فهو سيكون للجنس الآتي بمكانة المثل والرصيف

البحري. وأنا أشعر حقًّا بما أوليتني من ودّ وثقة، ويسعدني أن أرى ذلك وراثيًا في عائلتكم. إن نبالة سلوكك هي الضامن لما أمحضك من ود. ولقد كلفت السيد غريم بأن يسلمك بعض البراهين البسيطة على ذلك والتي أرجو أن تفيدك».

كاترين

وكان العنوان:

«إلى السيدة دوني، بنت شقيقة رجل عظيم كان يودّني كثيرًا».

فلنبدِ أسفنا على أن هذه السطور لم تكن بتوقيع لويس السادس عشر. أما بشأن ملكية فيرني، فإن السيدة دوني تخلصت منها في عام وفاة فولتير نفسه؛ إذ باعتها من فيليت بمبلغ مئتين وثلاثين ألف فرنك. وكان للجاحدة أن تجعل منها معبدًا! ولدينا ما يدفع بنا إلى الاعتقاد بأن فولتير لو أورث الملكية إلى الآخرين من أبناء شقيقاته، لحافظوا عليها وعلى أوراقه أيضًا. فمنذ 29 أيلول/ سبتمبر، وبعد ثلاثة أشهر على وفاة خالها، كتبت إلى فانيير تقول: «كنت أودّ لو أن المرحوم كان في فيرني». والمسألة واضحة؛ فلقد بلغ بها الضيق أشدّه في تلك «الجبال»، والمصلحة وحدها هي التي ربطتها بالبطريرك. وعلى الرغم من قابلية تلك المشاعر للتفسير، فإن التسامح حيالها مسألة شاقة.

لقد تخلـصت من كل ما وسعها التخلص منه: لم تكن تهوى من شيء سوى المال، لتستمتع بنهم خلال الأعوام المتبقية أمامها، بزواجها العجيب.

يبقى أن زواج دوفيفييه، الأشبه بقرن دابتين تحت نير واحد، والمضحك أكثر من وجه السوء فيه، هو اقتران امرأة ضخمة تجاوزت الستين، بجندي سابق في الخيالة يصغرها بثلاثين عامًا، لكن دخلها يفوق دخله ألف مرة. كان المفوض العسكري في سانتو دومينغو (الدومينيكان)، التي عاد منها بالشيء القليل من المجد والنزر اليسير من النفع. وحين علمت باريس بنبأ الزواج انفجرت كلها ضاحكة (باستثناء بعض الأشخاص الذين رأوا أن تلك الهزلية لا تنتقص من كرامة ابنة الأخت، بل من قيمة الخال الشهير). وواقع الحال أن في الأمر ما يثير الضحك: كان فيفييه هذا معروفًا في الجيش الملكي بلقب «نيكولا توبيه» (أي نيكولا الماشط)، لأنه كان أكثر مهارة في تمشيط شعر رفاقه وفرز ذؤاباتهم، من توليه مهمات جيش الخيالة. ولقد كان متعدد المواهب: كان يكوي شعر رفاقه

الجنود كافة في المهجع، ويقوم بدور السكرتير ويزوّر الحسابات. وكانت السيدة دوني تحبه حبًا طاغيًا، مثلما عشقت جميع سابقيه. أما هذا فكان نزوتها الأخيرة، فتزوجته.

عاندها ذات يوم، فكتبت إليه وقد خرجت عن طورها: «أعلن لك عن رغبتي في مشاركتك في كل شيء، من فكري إلى حياتي وحتى كل ما أملك. وإلا فهبني طلقة مسدس في رأسي تمنحني معروفًا».

ولم يكن هناك ما يدعو الضابط المرح إلى بلوغ تلك التصرفات الحمقاء؛ إذ فضّل أن يشاطرها كل ما تملك. أما بشأن فكرها وحياتها، فقد ترك لها حرية التصرف الكامل بهما.

لكن الأكاديمية هي التي نظرت إلى المسألة من جانبها المظلم. فهناك جرح أصاب الأكاديميين بسبب إعجابهم بزميلهم وتعلقهم به. ولم يخفوا معارضتهم، فانقطعت العلاقة ما بين ابنة الأخت الحمقاء والأكاديمية. وكان دالامبير أول من كف عن لقائها. والتقاها لا هارب في الشارع بعد زواجها بوقت قصير، فسألها بهيئة مكتئبة إن كان ذلك الزواج الهزلي قد جعلها سعيدة في الأقل. فردت البلهاء متعجبة: «سعيدة؟ إن برهاني على ذلك ربما يسبب لك الدوار». ولقد وصفت نفسها بتلك الصيحة.

ولوحظ أن طريقتها في الكلام تغيرت: فهي ما عادت تتكلم لغة فولتير، بل لغة دوفيفيه. فضلًا عن أنها لم تنعم بالسعادة طويلًا، فكانت مرغمة على العيش على طريقة النقيب الماشط، لا على طريقتها هي؛ فعليها أن تأكل وتشرب وتنام وفقًا لأهواء ذلك الرجل الذي كان يأتيها بجمع غفير من الصاخبين والجياع والعطاش، فصارت تأكل وإياهم بنهم وأضحت أكثر بدانة. وقيل إنه كان يجعلها تتبع ذلك النمط من العيش عسى أن تصرعها إصابة بالتخمة على جناح السرعة.

كان دالامبير يروي عن الثنائي حكاية مضحكة يؤديها بإيماء رائع وينتهي دومًا بعاصفة من التصفيق. وينبغي القول إن السيدة دوني وهي تزداد سمنة، صار صوتها خشنًا، وهي ظاهرة معروفة. وبدأ ينبت لها شعر على وجهها الذي ما لبث أن ازدان بشاربين جميلين. وذات صباح، جاء أحد المزارعين مع الفجر، ليسدد

للسيدة قيمة اكتراء الأرض، فوجد أنها ما زالت نائمة. وقيل ذلك للرجل، وكان في عجلة من أمره، فرفض أن ينتظر أو يعود ثانية. وأعلن أنه مصمم على الرجوع بكيس الإيكوات إلى بيته ما لم يجرِ استقباله على الفور وإعطاؤه إيصال براءة ذمة.

أما الخدم الذين يعرفون شح السيدة، فأخذوا على عاتقهم مسألة إيقاظها. وفيما كانت مقطبة الجبين، قبلت باستقبال الرجل واستلام ماله على وجه الخصوص. وأدخلوا المزارع إلى غرفة النوم، فتقدم وسط العتمة الخفيفة نحو سرير الزوجين، حاملًا بيده كيس الإيكوات. ولقد لمح رأسين اثنين، فكان لأحد الرأسين شاربان عاديان وللآخر اثنان دقيقان، فارتبك الرجل كثيرًا. وإذ عزم على تسليم الكيس إلى سيدته، فقد جعله ذلك يقول:

«أرجو المعذرة من السيدين، لكن من عساه منهما أن يكون سيدتي؟».

وظل دالامبير لمدة طويلة يثير بتلك الطرفة مرحًا في الأكاديمية وفي باريس كلها. وغالبًا ما كان يُطلب منه أن يروي حكاية شاربي السيدة دوني.

لم يبهج ذلك السيدة دوفيفيه، فانتقمت. إن تمثال فولتير الذي صنعه هودون والذي وعدت بإعطائه للأكاديمية، أعطته لممثلي المسرح الوطني الذين لم ينسجوا الحكايات. وأما صورته التي رسمها لارجيلير، فأعطتها للسيدة فيليت.

هكذا وجد فولتير الذي صنعه هودون ملجأً له في المسرح الوطني حيث يسع الجميع أن يروه، على نحو ما رآه موسيه، والذي كان بـ «بسمته البغيضة» يثير الرهبة في نفسه. فلنعذر موسيه الذي عانى وهو صبي داء عصره الغبي، والذي لم يُشفَ منه إلا نصف شفاء.

أما من فيرني فبقي: الكنيسة الصغيرة ذات الجبهية التي تحمل اسم فولتير بحروف أكثر بروزًا من اسم الله، والقصر وحديقته الكبرى اللذان هما موضع عناية فائقة، فهما ملكية السيدة لامبير دافيد. وفي إمكاننا أن نرى هناك صورة فولتير بريشة لا تور، وصورة فريدريك الثاني، وصورة إيميلي بريشة ناتييه. ونكتشف هناك أيضًا الخمائل التي غرسها فولتير. أما في الديليس، في جنيف، فعادت الحياة إلى مجراها: لقد جرى إحياء المسكن، وفولتير يقيم فيه أو يعتاده، حسبما نشاء، وتلك هي معجزة بسترمان: لقد انتشل الديليس من العدم. بصورة عامة، فإن الإنسان هو

الذي يأخذ اسم المكان الذي يقيم فيه. أما في فيرني، فليس فولتير هو الذي دُعي باسم السيد دو فيرني، بل هي القرية التي سميت فيرني فولتير. وليس سوى اسم، أما الروح فتلاشت. كذلك لقي المال المصير نفسه بين يدي السيدة دوني ودو فيفييه: لقد تبخر. فلم يبق من الوارثة ومن الثروة أي شيء: لا شيء، لا شيء.

لم يكن الكشف بتوارث الثروة حتى الآن إيجابيًا. فلنلتفت صوب الأوراق. فماذا بقي من ذلك الجبل من الكتب التي خلفها فولتير: القصائد الملحمية وغيرها، والتراجيديات بالعشرات، ومئات القصائد الهجائية، والقصص المنتقاة كحبات اللؤلؤ، والرسائل بالآلاف، بل بعشرات الآلاف وقد تناثرت في العالم كغبار الماس وبإفراط ملكي؟ كان ينبغي أن يُقام من ذلك الجبل نصبٌ، هو النصب الحقيقي لفولتير. فليس التابوت الرخامي السماقي، ولا حوجلة الصيدلاني، ولا الأشياء الذهبية التافهة، هي التي تمثل فولتير. إن مؤلـفاته هي التي تمثله. وكان ينبغي في بدء الأمر إنقاذ كل شيء عند وفاته، كيما يتوصـل الأفضل من بعد إلى إنقاذ نفسه بنفسه.

كان بانكوك أول من تطوع للقيام بتلك المهمة الضخمة. فحصل بفضل شقيقته، السيدة سوار الرائعة، على موافقة الكاتب للاطلاع على مخطوطاته، لأن الطبعات السائدة كانت في الأغلب مزورة. وقد بادرت السيدة دوني بإرسال صناديق عدة من أوراق خالها. وتمثلت جدارة بانكوك في اكتشافه الفوري أن أفضل عمل لفولتير هو رسائله. وما كان من شأن فولتير نفسه أن يصدق ذلك، بل كان يرتاب في حكاياته، فيخشى ألا تعود عليه بصيت من الخفة. ومع ذلك، كان جمع المراسلات المهمة الأصعب بين كل ما خلاها. وكانت أيضًا الأكثر ضرورة، لأننا نعثر فيها تحديدًا، على فولتير. وإن تلك الرسائل هي الأكثر كشفًا، وبعمق، عن الرجل وعن العصر؛ فهي التي عرضت لمعاصريه مرآة عصرهم وحضارتهم وأفكارهم وتطلعهم. فلقد رأى الجميع - ملوكًا كانوا أم أمراء وسيدات مجتمع، أم كتابًا عند موثقي العقود أو القضاة - صورهم معكوسة في تلك الرسائل الرشيقة، والمتسمة بلباقة لا مثيل لها، والباسمة مثل لوحات لا تور، أو اللاذعة والسريعة والتي صفاؤها لا يرحم. وأمسكت أوروبا والقرن الثامن عشر، في تلك الرسائل التي كانت تطير عبر العواصم، بوحدتها وبطبعها. فهو الذي، وقد توجه مخاطبًا نخبة الحضارة، وجد النبرة الأكثر صدقًا في صوت

أوروبا عصر الأنوار بين عامي 1715 و1778. وكان معاصروه كافة مدعوين إلى التفكير أو الإحساس، لدى قراءة رسائله بـ هو أنا، وأنا هو. ونحن نتفاهم كما لم يتفاهم الناس من قبلنا البتة».

كان يفكر لأجلهم ومثلهم ومعهم، لكن متقدمًا عنهم بلحظة واحدة هي اللحظة الضرورية لإثارة الدهشة من غير التسبب بصدمة، وأن يظهر على الدوام بمظهر جديد في حين أنه لم يكن يقوم دومًا إلا باستباق فكرة الآخرين. كان يفكر عن العالم الذي هو عالمه، إنما كان يفكر بسرعة أكبر وبرهافة أعلى ووضوح أكثر. وكان على وجه الخصوص يعبّر بالضبط مثلما كان يرغب أولئك الأشخاص المستنيرون أن يعبّروا، ومثلما كانوا يعتقدون جميعًا أن في وسعهم أن يفعلوا ذلك. ولقد ولدت رسائله لدى ذوي الشهرة الفائقة من مراسليه كما لدى المغمورين تمامًا، الانطباع غير المسبوق بأنهم يسمعون بدقة فائقة فكرتهم الخاصة، ضمن التعبير والنبرة نفسها التي كان فولتير يسبغها على فكرته والتي كان كل واحد يتبناها على الفور مثل الهواء الذي نستنشقه والينبوع الذي نرتشف ماءه. والمعجزة هي أنه كلما كان هو فولتير، كان تألـقه أكبر وكان أكثر صفاء، وشعر مراسلوه بأنهم أشد قربًا إليه. ولقد رغب منتقدوه النمامون أن يجعلوا من تلك القدرة العجيبة على الإشعاع صفة مبتذلة لفكر ينزع إلى التبسيط، له جمالياته طبعًا، لكن بلا عمق ولا مدى، فهو على العموم زخرفة مجتمع راقٍ وسطحي.

قال أحد الأغبياء لنابليون بنبرة من التنازل المتعجرف:

«على العموم، فإن فولتير هو الناس جميعًا».

فردّ القيصر بلهجة جديرة بالذي كان يدافع عنه:

«ولكن ليس الناس جميعًا فولتير».

ولئن اعتقد عدد كبير من الناس بأنهم مساوون لفولتير، فذلك لأنه بث فيهم روحه. لقد تولد لديهم الوهم بقدرتهم على تأليف كانديد، لكنهم لم يكونوا سوى انعكاس. وإنها لهِبَة إلهية من هبات العبقرية في إعطاء الفكر للذين هم بلا فكر. وكان يقول إنه وقع له أن جدّف على يسوع المسيح، لكن ذلك سوف يُغفَر له. وأما الذين جدفوا على الروح القدس، فسوف يدانون.

أوشك بانكوك المسكين أن يتعرض للإدانة على هذه الأرض في معرض بحثه عن رسائل فولتير؛ فكثير منها كان لا يزال طازجًا ليُصار إلى نشره. وكثير من الناس الأحياء ورد فيها ذكرهم ورأيه فيهم، كما أن كثيرًا من العائلات كان يكتوي بالنار، وكثيرًا من الذين يحتلون المناصب كانوا راغبين في التزام الصمت. وإن فريدريك الثاني، الذي لطالما طالب بتلك الطبعة الكاملة، أصم أذنيه حين طُلِبت منه الرسائل التي في حوزته. وكانت لديه مبرراته؛ فقد علم للتو أن في مؤلفات فولتير غير المنشورة - والتي لن يطول الوقت حتى تُنشر - «مذكرات سرية مخصصة لمصلحة حياة فولتير»، وأنها ليست مخصصة على الإطلاق لخدمة صيت فريدريك. فقد كتبها فولتير في عام 1759، ليثأر من الإهانة التي تلقاها في فرانكفورت، واحتفظ بتلك الحراقة[94] على سبيل الاحتياط. أما السيدة دوني التي راقها أن تسيء إلى فريدريك، فقد أعطت المخطوط اللاهب لبانكوك. وإن قراءة تلك المذكرات ممتعة قدر الإمكان، وتتسم شراسة الحقد فيها بأناقة وخفة لا تُباريان. لكن الكمال النادر لذلك الانتقام يجعله غير قابل للفهم في نظر الضحية، أي فريدريك. ومن المفهوم أن يقوم أحد المخبرين بإرسال نسخة إليه. فما كان من غيظه الشديد والصامت إلا أن ظهر في حركة شديدة الدلالة. لقد اشترى من باريس تمثالًا نصفيًا لفولتير من صنع هودون. ووصل التمثال إلى برلين بعد وقت قصير من علم فريدريك بوجود المذكرات، فمنع فتح الصندوق، فظل فولتير محاطًا بالقش. تلك كانت عقوبته. ولم يُفرَج عنه إلا بعد وفاة الملك. فكان فولتير، لدى خروجه من الصندوق، يبتسم بوقاحة.

ليس المراد كتابة تاريخ تلك الطبعة الأولى، وهي الصرح الوحيد القيّم الذي رفعه معاصرو فولتير تمجيدًا حقيقيًا له، بل الإصغاء إلى خفقان قلبه الذي لم يقوَ الموت على وقفه. إنه يحيا في تلك التلال من الورق. والبرهان على ذلك أنه، بوصفه الشغيل العنيد الذي لا مثيل له في العالم، أنهك أيضًا أولئك الذين عملوا له، فكاد أن يقضي على بانكوك وفريقه الذي بات مرغمًا على اختيار شريك. فأحسن بانكوك الاختيار، فالرجل قادر وماهر وغني ومن معدن فولتير، إنه بومارشيه، الرجل المدهش في تصريف أعمال كثيرة. وغدت تلك الطبعة الكاملة

---

(94) حَراقة: سَفينة كانت تُستعمل قديمًا لإحراق سفن العدو. (المترجم)

صفقة مالية كبيرة. فاقتنى بومارشيه ثلاثة معامل للورق في منطقة الفوج. واشترى بسعر باهظ حروف طباعة باسكرفيل الممتازة. أما وقد وظف تلك الأموال الباهظة، فإنه بوغت بمفاجأة مزعجة تقول إن رجال الإكليروس والمحكمة العليا سوف يمنعون الطبعة. إن فولتير الميت هو موضع ملاحقة مثل فولتير الحي على حد سواء. ولم يدع فولتير لأحد أن يأخذه على حين غرة. فحصل من المارغراف في باد على إذن بوضع مطبعته في مواجهة ستراسبورغ، على الضفة الثانية من نهر الرين، في قلعة كيهل. ولقد كان ذلك الأمير يؤدي خدمة للأدب بجعل المال الذي تخسره فرنسا يعود إليه. فكان أن تمت الطباعة في كيهل. فدخلت الطبعة إلى فرنسا سرًّا وجرى توزيعها على المكتتبين أنفسهم. وإن تلك الطبعة المؤلفة من 72 مجلدًا منسقة ومرقمة، ومطبوعة ما بين عامي 1784 و1789. وقد أخذ كوندورسيه على عاتقه وضع الحواشي.

أما مقارنة النصوص والوثائق والتصحيح، وحتى الصوغ، فكان بومارشيه يريد لها ابن مهنة خارجًا عن المألوف. وإن بومارشيه، ذلك الرجل الخارج عن المألوف، وضع يده بيد رجل آخر خارج عن المألوف، هو ريستيف دو لا بروتون، رجل طباعة من حيث مهنته. ولسوء الحظ، فإن ذلك المجنون، التي تهبه الهستيريا ومضة من الإضاءة أحيانًا، كانت له من حيث الكتابة والنحو أفكار عصامي مسعور. فصار بومارشيه مرغمًا على الاستغناء عن خدمة «الفلاح الضال» الذي كانت كتابته لا تختلف في الضلال عن أخلاقه، وهي مسألة خطرة في طبع الحروف. فأوشكت كانديد أن تصاب بالتشويه.

بيد أن تلك الطبعة المدهشة كانت، وللأسف، السبب في إفلاس بومارشيه. فمن بين الأعمال كافة التي قام بها رجل الأعمال هذا، فإن العمل الوحيد المدهش والمشرّف من بين أعماله كلها، قد آل به إلى الإفلاس... خسر مليون ليرة! فالمكتتبون لم يكونوا على جانب كافٍ من الكثرة، زد أنهم أساؤوا التسديد. فما عادت التراجيديات ولا القصائد الملحمية ولا الهجائيات تستحوذ على الاهتمام. أما الحكايات والرسائل، فلمّا يحن الاهتمام بها؛ فهناك فارق كبير وبعيد ما بين الهتاف الجماهيري طوال ثلاث ساعات لكاتب مكلل بالغار، والاكتتاب على طبعة لأعماله.

يبقى أن بومارشيه هو الذي كان جديرًا آنذاك بأن يكلل بالغار. أما في أيامنا، فالغار من نصيب السيد بسترمان؛ فهو الذي قام في الديليس بإعادة الحياة إلى تلك المراسلات التي لا نظير لها، وإلى المراسل الساحر.

من عساه يجرؤ على القول إن فولتير مات؟ فهو من طبيعة النار والنور. وكما الحال في شعار آل أرويه المتنبي، حيث ألسنة اللهب الذهبية للروح القدس تجري وتطير وتولد من جديد في حركتها البعيدة المنال والخالدة، كذلك هو: شعاع ذكاء لا يتغير، ونسمة روح تنفذ إلى جميع الأرواح التي تعشق الحرية والعدالة. إنه الحياة.

المراجع

Les Anti-voltairiens: Fréron, Guyot-Desfontaines de la Beaumelle, Nonnotte, Guénée, Guyon, Sabatier de Castres. Introduction et notices biographiques et littéraires par Charles Simond. Paris: H. Gautier, [1889]. (Nouvelle bibliothèque populaire)

Aubert, François. *Réfutation de Bélisaire et de ses oracles, Messieurs J.-J. Rousseau, de Voltaire, etc.* Basle; Paris: A. Boudet, 1768.

Banières, Jean. *Examen et réfutation des Élémens de la philosophie de Neuton de M. de Voltaire, avec une dissertation sur la réflexion et la réfraction de la lumière*. Paris: Lambert; Durand, 1739.

Beaune, Henri. *Voltaire au collège: Sa famille, ses études, ses premiers amis: Lettres et documents inédits*. Paris: Amyot, 1867.

Bellugou, Henri. *Voltaire et Frédéric II au temps de la marquise Du Châtelet: Un trio singulier*. Paris: M. Rivière et Cie, 1962.

Bengesco, Georges. *Voltaire: Bibliographie de ses œuvres*. Paris: E. Rouveyre et G. Blond, 1882-1890. 4 vols.

Bersot, Ernest. *La Philosophie de Voltaire: Avec une introduction et des notes*. Paris: Ladrange, 1848.

Besterman, Theodore (ed.). *Studies on Voltaire and the Eighteenth Century*. Genève: Institut et musée Voltaire, 1956-1959. 4 vols. (Studies on Voltaire and the Eighteenth Century; 3-4, 6, 10)

______. *Voltaire, discours prononcé par Théodore Besterman à l'inauguration de l'Institut et musée Voltaire*. Genève: Institut et musée Voltaire, 1954.

Boswell, James. *Les Papiers de Boswell: Boswell chez les princes: Les Cours allemandes, Voltaire, J.-J. Rousseau, 1764*. Préface de André Maurois; texte français de Celia Bertin. Paris: Hachette, 1955. (Récits et souvenirs)

Bouvy, Eugène. *La Critique dantesque au XVIIIe siècle. Voltaire et les polémiques italiennes sur Dante*. Bordeaux: Féret et fils, [s. d.].

______. *Voltaire et l'Italie*. Paris: Hachette, 1898.

Bury, Richard de. *Lettre sur quelques ouvrages de M. de Voltaire*. Amsterdam: Arkstée et Merkus, 1769.

Campardon, Emile. *Voltaire: Documents inédits, recueillis aux Archives nationales*. Paris: Le Moniteur du bibliophile, 1880.

Caussy, Fernand. *Voltaire, seigneur de village: Ouvrage illustré de trois portraits de Voltaire et de quatre cartes*. Paris: Hachette, 1912.

Chaponnière, Paul. *Voltaire chez les Calvinistes*. Genève: Editions du Journal de Genève, 1932.

Chardonchamp, Guy. *La Famille de Voltaire, les Arouet*. Paris: H. Champion, 1911.

Charrot, Charles. *Quelques notes sur la «correspondance de Voltaire»*. Paris: A. Colin, 1913.

Chaumareix, Duroy de. *Appel à Michel Montagne, suivi de Voltaire aux Champs Élisées, poëme, et précédé d'une adresse en vers aux Français républicains*. Paris: Imprimerie de la Gazette de France nationale, 1793.

Chérel, Albert. *Déceptions et confiances de Voltaire*. Paris: R. Picquot, 1941.

Collins, John Churton. *Voltaire, Montesquieu et Rousseau en Angleterre*. Traduit de l'anglais par Pierre Deseille. Paris: Hachette, 1911.

Condorcet, Jean-Antoine-Nicolas de Caritat. *Vie de Voltaire, suivie des Mémoires de Voltaire, écrits par lui-même et des pièces justificatives*. Paris: Lefèvre et Deterville, 1818.

Cornou, François. *Trente années de luttes contre Voltaire et les philosophes du XVIIIe siècle. Elie Fréron (1718-1776)*. Couronné par l'Académie française. Vannes: Impr. Lafolye frères et Cie; Quimper: Ad. Le Goaziou; Paris: Libr. Champion, 1922.

Cosme, léon. *Un Bordelais chez Voltaire. Extrait des manuscrits de françois-de-paule latapie*. Bordeaux: Imprimerie G. Gounouilhou, 1898.

Cresson, André. *Voltaire: Sa vie, son œuvre*. Paris: Presses universitaires de France, 1948. (Les Philosophes)

Crouslé, Léon. *La Vie et les oeuvres de Voltaire*. Paris: H. Champion, 1899. 2 vols.

Desnoiresterres, Gustave Le Brisoys. *Voltaire et la société française au XVIIIe siècle*. 2ème éd. Paris: Didier, 1871-1876. 8 vols.

Donvez, Jacques. *De quoi vivait Voltaire?*. Paris: Deux rives, 1949. (De quoi vivaient-ils?; 2)

Dupanloup, Félix. *Nouvelles Lettres à MM. les membres du conseil municipal de Paris sur le centenaire de Voltaire*. 2ème éd. Paris: Librairie de la société bibliographique, 1878.

Duval, Edgard-Raoul. *Cour impériale de Rouen. Audience solennelle de rentrée (4 nov. 1867). De l'action exercée par Voltaire sur nos moeurs judiciaires*. Rouen: Imp. de J. Lecerf, 1867.

Du Vernet, T.-J. *Vie de Voltaire, suivie d'anecdotes qui composent sa vie privée*. Paris: F. Buisson, 1797.

Faguet, Émile. *La Politique comparée de Montesquieu, Rousseau et Voltaire*. Paris: Société française d'imprimerie et de librairie, 1902. (Nouvelle bibliothèque littéraire)

Favier. *Le Poète reformé, ou apologie pour la Semiramis de M. de Voltaire*. Amsterdam: [s. n.], 1748.

Ferradou, François. *Barreau de Bordeaux. La Conception de l'avocat dans Voltaire*. Discours prononcé le 2 décembre 1927 à la séance de l'ouverture de la conférence des avocats stagiaires. Bordeaux: Delbrel, 1927.

Feugère, A. «Un compte fantastique de Voltaire: 95 lettres anonymes attribuées à la Beaumelle.» Dans: *Mélanges de littérature, d'histoire et de philologie offerts à Paul Laumonier, professeur à la Faculté des lettres de Bordeaux, par ses élèves et ses amis*. Bordeaux: Impr. J. Bière; Paris: Libr. E. Droz, 1935.

Flottes, Jean-Baptiste-Marcel. *Introduction aux ouvrages de Voltaire, par un homme du monde qui a lu avec fruit ces ouvrages immortels*. Montpellier: Tournel frères, 1816.

Gasté, Armand. *Voltaire à Caen en 1713 (le salon de Mme d'Osseville, le P. de Couvrigny)*. Caen: H. Delesques, 1901.

Gaxotte, Pierre. *Frédéric II*.

______. *Histoire de l'Allemagne*.

______. *Louis XV*.

Graffigny, Françoise de. *Lettres de Mme de Graffigny: Suivies de celles de Mmes de Staal, d'Épinay, du Boccage, Suard, du chevalier de Boullfers, du marquis de Villette, etc., des relations de Marmontel, de Gibbon, de Chabanon, du prince de Ligne, de Gretry, de Genlis, sur leur sejour pres de Voltaire*. Revues sur les éditions originales, augm. de nombreuses notes, d'un index, et précédées d'une notice biographique, par Eugene Asse. Paris: G. Charpentier, 1879.

Guénée, Antoine. *Lettres de quelques juifs portugais, allemands et polonais à M. de Voltaire, avec un petit commentaire, extrait d'un plus grand... Suivies des Mémoires sur la fertilité de la Judée.* 2ème éd. revue, corrigée et augmentée. Lyon: Savy, 1819. 4 vols.

Guyon, Claude-Marie. *L'Oracle des nouveaux philosophes: Pour servir de suite et d'éclaircissement aux oeuvres de M. de Voltaire.* Berne: [s. n.], 1760.

Harel, Maximilien-Marie. *Voltaire, recueil des particularités curieuses de sa vie et de sa mort.* Porrentruy: J.-J. Goetschy, [s. d.].

Hommage aux mânes de Corneille et de Voltaire. Présenté à l'institut national par Marie-Victoire-Hortense Frescarode. Paris: Impr. de Baudouin, [1798].

Houssaye, Arsène. *Le Roi Voltaire: Sa jeunesse, sa cour, ses ministres, son peuple, ses conquêtes, sa mort, son Dieu, sa dynastie.* Paris: M. Lévy frères, 1853.

Labroue, Henri. *Voltaire antijuif.* Paris: Les Documents contemporains, 1942.

Lachèvre, Frédéric. *Voltaire mourant, enquête faite en 1778 sur les circonstances de sa dernière maladie.* Suivie de Le Catéchisme des libertins du XVIIe siècle, les Quatrains du déiste ou l'Anti-bigot. Paris: H. Champion, 1908.

La Motte, Antoine Houdar de. *Suite des Réflexions sur la tragédie, où l'on répond à M. de Voltaire.* Paris: G. Dupuis, 1730.

Lanson, Gustave. *Voltaire.* Paris: Hachette, 1906. (Les Grands écrivains français)

Lantoine, Albert. *Les Lettres philosophiques de Voltaire.* Paris: Edgar Malfère, 1931.

Lenôtre, G. *Existences d'artistes: De Molière à Victor Hugo.* Paris: B. Grasset, 1940.

Lepan, Édouard-Marie-Joseph. *Commentaires sur les tragédies et les comédies de Voltaire restées au théâtre, précédés de préfaces historiques sur chacun de ces ouvrages.* 2ème éd. Paris: Les Principaux libraires, 1826. 2 vols.

______. *Vie politique, littéraire et morale de Voltaire, où l'on réfute Condorcet et ses autres historiens.* Quatrième édition, précédée de détails sur les biographes de Voltaire, sur l'origine de son nom, et sur la clôture mystérieuse de son prétendu appartement. Paris: [L'Auteur], 1824.

L'Hospital, Jean Eléazar. *Apologie de Voltaire.* Londres; [s. n.], 1786.

Linguet, S. N. H. *Examen des ouvrages de M. de Voltaire, considéré comme poète, comme prosateur, comme philosophe.* Bruxelles; Paris: Lemaire, 1788.

Lounsbury, Thomas R. *Shakespeare and Voltaire.* New York: C. Scribner's 1902. (His Shakespearean Wars; 2)

Luchet, Jean-Pierre-Louis de La Roche du Maine. *Histoire littéraire de M. de Voltaire.* Cassel; Paris: Moutard, 1781.

Marcadé, Victor-Napoléon. *Etudes de science religieuse expliquée par l'examen de la nature de l'homme.* Paris: Cotillon, 1847.

Marchand, Jean-Henri. *Testament politique de M. Voltaire.* Genève: [s. n.], 1771.

Maurois, André. *Voltaire.* 6ème éd. Paris: Gallimard, 1935.

Maynard, Michel-Ulysse. *Voltaire, sa vie et ses œuvres.* Paris: A. Bray, 1867. 2 vols.

Mégret de Belligny, Jean-Santiago de. *A Voltaire.* Bordeaux: Impr. de G. Gounouilhou, [1885].

Mémoires pour servir à l'histoire de M. de Voltaire, dans lesquels on trouvera divers écrits de lui peu connus sur ses différends avec J.-B. Rousseau... un grand nombre d'anecdotes et une notice critique de ses pièces de théâtre (par le baron de Servières, revus par l'abbé L.-M. Chaudon). Amsterdam: [s. n.], 1785.

Naves, Raymond. *Voltaire: L'Homme et l'œuvre.* Paris: Boivin, 1942. (Le Livre de l'étudiant; 10)

Nisard, Charles. *Les Ennemis de Voltaire: L'Abbé Desfontaines, Fréron, La Beaumelle.* Paris: Amyot, 1853.

Nolbac, Gay de. *Epître envoyée à M. de Voltaire, à Genève, avec la lettre de remerciement de Voltaire.* Bordeaux: La Cornée, 1768.

Nonnotte, Claude-François. *Les Erreurs de Voltaire.* Lyon: V. Reguilliat, 1776-1779. 3 vols.

Observations grammaticales et morales sur Figaro, présentées aux amateurs de la langue; précédées d'un discours à MM. les comédiens ordinaires du Roi, et suivies de quelques réflexions sur les trente volumes des «oeuvres de Voltaire», livrés au public par M. de Beaumarchais. Du séjour de la Vérité: Chez l'Ingénie, 1785.

Olivier, Jean-Jacques. *Voltaire et les comédiens interprètes de son théâtre: Etude sur l'art théâtral et les comédiens au XVIIIème siècle.* Paris: Société française d'imprimerie et de librairie, 1900.

Ombre, L. *De Boileau à M. de Voltaire. Précédé de l'épître ou mon testament.* [s. l.: s. n.], 1772.

Oulmont, Charles. *Voltaire en robe de chambre.* Paris: Calmann-Lévy, 1936. (Nouvelle collection historique)

Palissot de Montenoy, Charles. *Zelinga, histoire chinoise: Augmentée d'une lettre à l'auteur de Nanine, et de plusieurs lettres d'une demoiselle entretenue à son amant*. Marseille: [s. n.], 1749.

Perey, Lucien et Gaston Maugras. *La Vie intime de Voltaire aux Délices et à Ferney (1754-1778)*. Paris: C. Lévy, 1885.

Pilon, Edmond. *Dames et cavaliers*. 2ème éd. Paris: B. Grasset, 1936.

Pomeau, René. *La Religion de Voltaire*. Paris: Nizet, 1956.

Pompéry, Édouard de. *Le Vrai Voltaire: L'Homme et le penseur*. Paris: Agence générale de librairie, 1867.

Prod'homme, J. G. *Recueil d'éloges à Voltaire. Pièces qui ont concouru pour le prix de l'Académie française en 1779*.

Rossel, Frédéric. *Voltaire, créancier du Wurtemberg*. Paris: Honoré Champion, 1929.

Sélis, Nicolas-Joseph. *Relation de la maladie, confession et mort de M. de Voltaire*. Genève: [s. n.], 1778.

Sertillanges, Antonin-Dalmace. *Le Christianisme et les philosophies*. Paris: Aubier, 1941. 2 vols.

Spenlé, Jean-Édouard. *Les Grands maîtres de l'humanisme européen*. Préface de Gaston Bachelard. Paris: Corrêa, 1952.

Toldo, P. *Un rapporto a Benedetto XIV contro la «Pucella» del Voltaire*. Bologna: Stabililento poligrafici riuniti, 1931.

Trahard, Pierre. *Les Maîtres de la sensibilité française au XVIIIe siècle: 1715-1789*. Paris: Boivin, 1931-1933. 4 vols.

Tronchin, Henry. *Le Conseiller François Tronchin et ses amis Voltaire, Diderot, Grimm etc. d'après des documents inédits*. 2ème éd. Paris: Calmann-Lévy, 1885.

Valéry, Paul. *Voltaire, discours prononcé le 10 Décembre 1944 en Sorbonne*. Paris: Domat-Montchrestien, 1945. (Au voilier; 1)

Voltaire, Oeuvres choisies. Disposées d'après l'ordre chronologique, avec introduction, bibliographie, grammaire, lexique et illustrations documentaires par Louis Flandrin. Paris: A. Hatier, 1946.

Voltaire, raconté par ceux qui l'ont vu (de Paris à Genève): Souvenirs, lettres, documents, etc. Réunis, annotés et accompagnés de résumés biographiques, par J. G. Prod'homme; Préface de Edouard Herriot, à l'occasion du cent cinquantième anniversaire de la mort de Voltaire. Paris: Libr. Stock, Delamain et Boutelleau, 1929.

Voltaire, sa vie et son œuvre. Avec textes complets annotés par Fernand Vial. Paris: M. Didier, 1953.

Voltaire. *Correspondence*. Edited by Theodore Besterman. Genève: Institut et musée Voltaire, 1953-1977. 135 vols. (Publications de l'institut et musée Voltaire)

______. *Les Pages immortelles de Voltaire*. Choisies et expliquées par André Maurois. Paris: Corrêa, 1938. (Les Pages immortelles)

______. *Lettres inédites à Constant d'Hermenches: [1755-1777]*. Présentées par Alfred Roulin. Paris: Corrêa, 1956.

______. *Lettres inédites à son imprimeur Gabriel Cramer*. Publ. avec une introd. et des notes par Bernard Gagnebin. Genève: Droz; Lille: Giard, 1952. (Textes littéraires français)

______. *Pensées philosophiques de M. de Voltaire, ou Tableau encyclopédique des connaissances humaines, contenant l'esprit, principes, maximes, caractères, portraits, etc., tirés des ouvrages de ce célèbre auteur et rangés suivant l'ordre des matières*. [s. l.: s. n.], 1766.

______. *Poétique de M. de Voltaire, ou Observations recueillies de ses ouvrages concernant la versification française, les différents genres de poésie et de style poétique, le poème épique, l'art dramatique, la tragédie, la comédie, l'opéra, les petits poèmes et les poètes les plus célèbres anciens et modernes*. Genève; Paris: Lacombe, 1766.

Voltariana, ou Éloges amphigouriques, de Fr. Marie Arrouet, Sieur de Voltaire. Discutés et décidés pour sa réception à l'Académie française. Nouvelle édition augmentée d'une pièce très-intéressante. Paris: [s. n.], 1749.

Ximénez, Augustin-Louis de. *Discours en vers, à la louange de M. de Voltaire, suivi de quelques autres poésies et précédé d'une lettre de M. de Voltaire à l'auteur*. Paris: [s. n.], 1784.

فهرس عام

-أ-

الآباء الصالحون: 80، 87، 573، 612، 644، 874

آداب البلاط: 781

آداب السلوك: 102، 107، 199

آدم (الأب): 696-698، 713-714، 717، 776-778، 784، 791، 798-799، 817، 866، 871

آدم (النبي): 265، 697

آراس (منطقة): 803

آرتوا (الكونت): 750، 886

آل أرويه: 65-66، 68-71، 73-75، 79، 86-87، 89، 91-92، 103-105، 120، 138، 153، 156، 188، 203، 206، 208، 217، 219، 224، 270، 374، 517، 593، 640، 660، 672، 674، 722، 749، 930

آل إيسمبور دوبريكور: 288

آل باران: 67

آل باري دوفيرنيه: 330، 576

آل برنيير: 173، 188-189، 197، 219، 280

آل بروتوي: 128، 236، 282، 728

آل بريز: 643-644

آل براسون: 354

آل بورجيا: 456، 523

آل بيلو: 66

آل ترافنول: 366

آل ترونشان: 551-552، 554، 561، 635، 723، 733، 766

آل دارجنتال: 267، 334، 361، 392، 395-396، 415، 426، 430، 440، 479-480، 490، 521، 543، 550، 559، 583، 631، 655، 675، 683، 685، 701، 739

آل دوبوي: 685

آل ديدو: 322

آل روهان: 202-203، 205، 207

آل ريشوليو: 71، 105، 199

آل سان سيمون: 71

آل سولي: 71، 89، 105، 120، 199

آل سيرفان: 736-739، 801، 804، 835

آل شاتليه: 236-237، 256، 273، 282، 298-299، 412، 423

آل شامبونان: 272

آل شوازول: 814-816

آل غانغانيلي: 800

آل غيز: 239، 243

آل فندوم: 105

آل فيلار: 147، 199

آل كالا: 664-666، 669، 673-675، 677-678، 680-681، 708، 738، 806، 831، 835-836

آل كراسييه: 643

آك كرامر: 831
آك كريزوس: 141
آك كورناي: 634، 638-639، 685-686، 704
آك كولمون: 684
آك كومارتان: 115، 146
آك كونتي: 199
آك لا بار: 742
آك لوشيه: 830
آك ليفري: 121
آك لينان: 273
آك مارسوتون: 67
آك مويرتوي: 498
آك ميتوار: 918-919
آك ميزون: 182-184
آك ميمور: 174
آك مينيو: 659
الآلهانية: 77، 618، 621، 715
آن النمساوية (Anne d'Autriche): 181
آنيسي (منطقة): 641-642، 646، 649، 790-791، 793، 799
آيسيه (الآنسة): 577
إبراهيم (النبي): 500، 767
أبرشية سانت إيتين دو مون: 68
أبرشية سانت مارغريت: 193
أبرشية ليون: 551
أبفيل (منطقة): 741-744، 746
أبقراط: 116
أبولون (الإله): 83، 554
أبيقور: 589، 772
الأبيقورية: 111
الأبيقوريون: 590
أبيكتيتوس: 772
الاتجاه الفكري الفولتيري: 18
الاتحاد الفدرالي: 365
الأتقياء: 209، 326
أتينيان (السيد): 878
أثينا: 80
الأثينيون: 426
إجيري (مساعدة الآلهة الرومان): 226
الأحكام الأخلاقية: 562
الإخراج المسرحي: 581
الأخلاق: 87، 107، 110، 115، 197، 254، 302، 380، 559، 624-625، 680، 695، 731، 752، 771-773
الأخلاق الأدبية: 594
الأخلاق الفولتيرية: 771
الأخلاق الكونية: 772
الأخلاق المالية: 138
الأخلاق المتراخية: 573، 719
الأخوان دارجنسون: 79
الأخوان كيث: 460
الأخوة بومبينيان: 693-694
الإدارة الملكية: 641
الأدب: 103، 140-141، 198، 255، 283، 292، 300، 359، 390، 397، 400، 408، 436، 483، 537، 613-614، 654، 744، 758، 765، 773، 782، 929
الأدب التنويري: 574
الأدب الفرنسي: 390، 616
أدور (الأب): 775
أدويه (الشاعر): 70
أديسون، جوزف: 211، 845
الإرادة الملكية: 813
إرث أرويه: 219
أرخميدس: 295، 818
الأرستقراطية: 71، 334-335، 651، 917
إرفو: 66
أرميا (النبي): 770
أرنو، صوفي (الآنسة): 658، 873، 893

أرنولو (السيد): 804
الإرهابيون: 397
إروسترات: 724
أرويه، أرمان: 71-72، 74-76، 155-156، 204، 209، 271، 343-344، 813
أرويه، بيار: 67
أرويه، مارغريت: 72، 270
أرويه، هيلينوس: 66-67
الأزمنة الحديثة: 275
الأزمنة الديمقراطية: 349
الأساقفة الأكاديميون: 361
أساقفة أمبران: 551
الإسبان: 150، 522
إسبانيا: 164-165، 345، 453، 542، 573، 605، 749، 843
الاستبداد الديني: 762
الاستنباط المنطقي: 148
الأسد الذهبي (نزل في فرانكفورت): 515
الأسرار المقدسة: 791، 874
الأسرة المالكة: 87، 342، 384، 450، 464
اسطنبول: 732
أسقف أورليان: 849، 918
اسكتلندا: 712، 718
الاسكتلنديون: 460
الإسكندر االكبير: 490، 594، 620، 771
أسكولابيوس: 554
الأسكيمو: 492
الإسلام: 320، 453
الأسواق التجارية: 89
أسويروس (الملك): 580
الأسياد الإنكليز: 654
الأسياد الفرنسيون: 210، 466
الأشقاء باري: 153، 156، 179
أصحاب السمو الملكي: 112، 281، 336، 548، 631
أصفهان: 139
الإصلاح: 386، 865
الإصلاح القضائي: 813
الإصلاحيون: 186
الاضطرابات الأدبية: 624
الاضطهاد الديني: 95، 686
الإطراء الملكي: 266
أعياد رامير: 562
إغناطيوس (القديس): 890
أغيسو (المستشار): 233
أفريقيا: 843
أفلاطون: 239، 306، 448
أفينيون: 694
إقليم دوفينيه: 152
إقليم سافوا: 152، 198، 381، 589، 641، 649، 691، 747، 774، 776-777
إقليم غاسكونيا: 152
الأكاديمية البروسية: 493
أكاديمية الطب: 907
أكاديمية العلوم: 268، 274-275، 315، 323-324، 491، 896
الأكاديمية الفرنسية: 145، 319-320، 322-324، 326-328، 346، 349، 351-352، 355، 358، 360-365، 408، 416، 493-494، 496، 506، 558، 614-615، 618-619، 623، 626، 654-655، 664، 781، 824، 836، 849، 854، 866، 869-870، 882، 885، 889، 895-897، 909، 919، 924-925
أكاديمية الفنون الجميلة: 427
أكاديمية برلين: 358، 495-496، 498، 598
أكاديمية بورغونيا: 659

أكاديمية بولونيا: 854
أكاديمية ديجون: 656
أكاديمية كروسكا: 568
أكاديمية ليون: 550
الأكاديميون: 322-323، 364، 408، 433، 495، 924
أكاكيا (الدكتور): 498
إكرلنف (السيد): 687
إكس لا شابيل: 321، 332، 453-454
الإكليروس: 642، 673، 908، 929
إكليريكية كاستر: 805
ألامان (منطقة): 551
آلان (السيد): 604
ألبيون (منطقة): 207
الإلحاد: 94، 110-111، 265، 271، 421، 455، 500، 544-545، 638، 644-645، 743، 752، 767، 769، 771، 895
الألزاس (منطقة): 653
ألسيست: 781
ألعاب الفروسية: 449
ألغاروتي (السيد): 306-307، 310، 453، 459، 463
الألمان: 68
ألمانيا: 159-160، 164، 307، 310، 334-335، 436، 438، 452-453، 455، 458، 475، 482، 488، 536، 539، 580، 584، 587، 594، 599، 605، 711
أليكسي (الكونت): 751
أليو (الزوجان): 418-419
الإمبراطوريات البائدة: 620
الإمبراطورية المقدسة: 511، 799
الأمة الفرنسية: 616، 809
الامتيازات الإقطاعية: 245
إمدن (منطقة): 410
الأمراء الألمان: 677
أمراء أورليان: 839
الأمراء اللورينيون: 239
الأمراء الملكيون: 449
أمستردام: 260، 274، 333، 554، 601، 723، 843
أملو (السيد): 338، 341، 906
الأمم الأوروبية: 728
إمهوف (السيد): 711
أميان (مدينة): 624
الأميرات الألمانيات: 334، 589
أناشيد المجون: 111
أناكريون: 89
الانتحار: 666، 668
الأنجو (منطقة): 170
الإنسان المتحضر: 289
الإنسانية: 19، 284، 489، 534، 582، 744، 773
أنظمة البلدان الغربية: 733
أنفيل (منطقة): 657
إنكلترا: 95-96، 136-137، 160، 171، 179، 206-210، 213، 216-217، 222، 230، 244، 335، 356، 409، 423، 477، 554، 584، 653، 677، 716، 734، 819، 846-847، 853، 872، 897
الإنكليز: 95، 207، 212-214، 216، 219، 267، 331، 356، 460-461، 575، 653، 695، 700، 845-847
إنيان (الأب): 476
أهل الأدب: 827
الأوبرا: 88-89، 114، 137، 140، 155، 179، 227-228، 249، 263، 294-295، 365، 367-369، 396، 448، 474، 486، 536، 587، 607، 796، 888، 916-917
أوتوي: 120

أوجين (الأمير): 160
أوديب: 129
أودبير (السيد): 672، 831
الأوديون: 917
أورغون (السيد): 123
أورفيوس: 241
أورنكس (منطقة): 643، 649
أوروبا: 18، 81، 93، 108، 127، 133، 136، 141، 144، 152، 164، 213، 274، 277، 284، 302، 309-310، 321، 323، 332، 347، 387، 410-411، 438، 443، 447، 449، 453، 457، 483، 489، 495، 499، 505، 508، 514، 533، 534، 554، 581-582، 590-591، 595، 605، 630، 640، 649، 678، 694، 699، 715، 717، 728، 731، 748-749، 775، 786-787، 793، 797، 816، 837، 840، 843، 851، 859، 879، 917، 926-927
أوري (السيد): 343، 371
أوريون (الزنجي): 492
الأوساط الدينية: 103
الأوساط العليا: 150
الأوساط الفلسفية: 686
الأوساط المتواضعة: 274
الأوساط الملكية: 334
أوفرن: 75
أولريكه (الأميرة): 334-336
أولمب (الآنسة): 95
إيبيريا (شبه جزيرة): 843
إيتالوند (الشاب): 814
إيتامب (منطقة): 462
إيتيول (منطقة): 354-355
إيرلندا: 211، 316، 846
إيزابو (المفوض): 118-119، 124-126
إيسون (منطقة): 379
إيطاليا: 605، 660، 748، 843، 847
الإيطاليون: 847
إيفان (السيد): 729-730
إيفرو: 101
إيفيجيني (الموسيقي): 701
إيل، بيل: 328
الإيمان: 194، 553، 614، 645، 689، 771-772، 787، 792-793، 832، 877، 901، 906، 909-910
الإيمان المسيحي: 346، 349
الإيمان الملكي: 341، 880
إينياس (القديس): 874
إيون (الفارسة): 881

-ب-

باباريل (الآنسة): 139-140
البابوات الصالحون: 349
بابل: 697
البابوية: 541، 552-553
باترو (الشاعر): 570
باث (اللورد): 213
باجيلو (الدكتور): 402
باخوس (إله الخمر): 763
بادي دورلاخ (منطقة): 587
بار سور أوب (منطقة): 433
الباراغواي: 573
باران، ماري: 69، 75
باربيه (المحامي): 182، 193-194
بارت (السيد): 653، 864، 884
بارتنستين (السيد): 416
باروبل (الأب): 349
باري (السيد): 139، 141، 179، 409
باريتي (السيد): 853

الباريسيون: 113، 152، 262، 264، 535، 630، 637، 675، 838، 850، 866، 912، 915
باستار (الرئيس): 739
باستوشيف (السيد): 416
باستيان (السيد): 776، 783
باسكال، بليز: 309، 834-835، 910
باسكور (العمدة): 333
باسكييه (القاضي): 742-743، 899
باسيوني (الكاردينال): 352، 648
بافيه سان برنار (شارع): 103
باك (شارع): 811-812، 907
بال (مدينة): 591، 711
بالزاك، أونوريه دو: 840
الباليار (منطقة): 575
باليسو (الشاعر): 570، 594، 612
بان، ماليه دو: 773
بانكوك (السيد): 830، 926، 928
بانييه فير (ناحية): 115
بايروت (منطقة): 334-335، 511
بايرون، جورج غوردن (اللورد): 751
بايل، بيير: 186، 772
بايي (السيد): 916
باينغ (الأميرال): 575
البحث الفلسفي: 331
البحوث التاريخية: 375
بحيرة ليمان: 614
البرابرة: 542، 702
براد (الأب في): 524، 544-545
براكسيتيليس: 365
بربارا (السيدة): 698
برتران (القس): 578، 725
البرتغال: 562
البرج الكبير (شارع): 300
برج بابل: 152
البرجوازية: 71، 103، 353، 841، 851
البرجوازية الجنيفية: 748
البرجوازيون: 750، 752-753، 755، 757، 759، 815، 830، 844
برسلاو (المدينة): 482
البركة الرسولية: 352، 361
برلين: 313-314، 318، 321، 328-330، 332، 334، 339، 358، 364، 407، 419، 436-437، 440-441، 450-452، 454، 458، 461، 463، 466، 468-470، 473، 475، 477، 480، 482، 484، 486-488، 490، 492-493، 497، 501-502، 506، 508، 511، 517، 524، 526، 530، 532، 534، 579، 583-584، 628، 652، 713، 723، 726-727، 807، 843، 928
برن: 547، 552، 564، 578، 599-600، 862
البرناس الفرنسي: 437، 471، 509، 875، 878
برني، فرانسوا يواكيم دو (الأب): 326، 354، 418، 433، 575-576، 583-584، 672، 749، 799-800، 817
برنيل (السيدة): 123
برنيير (الرئيس): 137، 173، 177، 188-189، 278
بروتانيا: 481، 491
البروتستانت: 96، 101، 165، 193، 554، 649، 665-666، 668-669، 671-672، 695، 737، 740، 767
البروتستانتية: 576
بروتوس: 500، 912
بروتوي، غابرييل إميلي لو تونولييه دو (السيدة دو شاتليه، الكونتيسة): 15-16، 235-238، 240-241، 246، 248-250، 252-253، 261-

262، 264-265، 267-270، 272-273، 275-276، 279، 280-283، 285-286، 288، 290-302، 305، 307، 309، 311-315، 317-318، 321، 323، 328، 330-331، 334-335، 338-342، 346، 350، 355-356، 372-373، 375-378، 381-382، 385-386، 388-396، 399-408، 411-414، 416-427، 436-437، 443، 449، 459، 463، 493، 495، 558، 567-569، 728، 796، 836، 925
برودوم، جورج (السيد): 280، 752
برودوم (السيدة): 281
بروسيا: 16، 266، 268-269، 308، 321، 330-333، 356، 358، 403، 410، 436، 438، 440، 443، 454، 461، 463، 470، 474، 480، 482، 492، 500، 503، 520-521، 532، 534، 536، 538، 545، 547، 565، 579، 581، 583-584، 587، 594، 656، 727، 745
بروسيا الشرقية: 307
البروسيون: 468، 490، 526، 580
البروفانس (مقاطعة): 158، 160، 453، 610، 748
بروكسل: 132، 162، 164، 166-168، 248، 253، 260، 266، 283، 298-301، 305، 308، 312-313، 319-321، 335، 338، 372، 843
البروليتاريا الجنيفية: 755-756
بروموا (الأب): 81
بروميثيوس: 734
برونوا (منطقة): 857
برويل (الأب): 343
بريزار (السيد): 907
البريطانيون: 212
بسترمان (السيد): 16، 567، 925، 930
بستريس (الآنسة): 595-597
بطرس (القديس): 351، 589
بطرس الأكبر (القيصر): 606، 726-729، 731، 857
بطرسبرغ: 498، 515، 726-728، 733، 749، 751، 788، 841-842، 922
بلاد البلقان: 732
بلاد الغال: 660
بلاد جيكس: 604، 642، 662، 750، 775، 801، 804، 828، 835، 844، 849
بلاد فارس: 139
البلاط البروسي: 319، 328، 357، 523
بلاط روما: 186، 690
البلاط الفرنسي: 159، 216، 331، 461، 578، 592
البلاط اللوريني: 418
البلاط الملكي: 108، 839
البلاطات الألمانية: 387، 453
بلاطات أوروبا: 730
بليسي، أرمان جان دو (المونسنيور): 71
بمبيت (الآنسة): 95-106، 120، 556
بنتك (السيدة): 473
بنو إسرائيل: 614
بنوا (السيدة): 863، 868
بنوا (القديس): 544
بنوا الرابع عشر (البابا): 349-352، 362، 364، 378، 447، 461، 498
بوابة سان جيرفيه: 234، 236، 244، 276
بواتو (مقاطعة): 66-67، 69، 75، 374، 576، 688
بوازينيه (الشاعر): 701
بواسون (السيد): 145-147
بواسون (السيدة): 353-354

بواسونييه (السيد): 831
بوالو، نيكولا: 73-74، 78، 245، 360، 827، 885
بوابيه (الأب): 326-328، 611
بوب، ألكساندر: 208، 216، 562، 566
بوبيلينيير (الجابي): 257
بوتان، بوليه دو (السيد): 577، 600
بوتسدام: 313، 345، 357، 436، 440، 448-449، 452، 454، 457-459، 463-464، 466، 468، 473، 481، 484-485، 489، 491-494، 497-498، 500-502، 521، 545، 593
بوتفيل (السيد): 755، 758، 774-775
بوتو (الآنسة): 15
بودريج، دافيد دو (القاضي): 666-669، 671، 681
بودفير (شارع): 890
بودفيك (الكونت): 331
بور (المنطقة): 467
بور ماهون: 575
بوربون - فندوم، فيليب دو (الجنرال): 88
بورج (الأب): 671
بورجيا، سيزار: 510
بوردو (مدينة): 15، 665
بورغون (الدكتور): 475
بورغونيا (مقاطعة): 79، 177، 291، 566-567، 610، 632، 641، 648، 663، 828، 844، 890
بوركيه (الأب): 418
بورنبروك، هنري سان جون دو (اللورد): 19
بوروغار (الأب): 895
بوروغار، لويال (النقيب): 119-120، 160-163، 168، 283، 508
بوريه (الأب): 80-81
بوزويل (السيد): 711-718
بوسلدوك (الطبيب): 193
بوسويه، جاك بنين: 142، 283
بوسي، رابوتان دو: 114، 205
بوفون، جورج دو: 494، 672، 725، 796-797، 818، 827
بوكاتشيو، جيوفاني: 805
بولس (القديس): 845
بولنبروك، سان جان (اللورد): 170-171، 179، 207-208، 423، 554، 845، 853
بولنبروك (الليدي): 171
بولندا: 802
بولنيتس (البارون): 461-463، 511-512
بولونيا: 459، 607، 843
البولونيون: 732
بومارشيه (السيد): 333، 824-825، 928-930
بومبادور، أنطوانيت دو (المركيزة): 353-355، 360، 374-375، 383، 388، 397، 401، 410-411، 418، 431، 433، 439-441، 537، 573-574، 576، 581، 583، 585، 592، 604، 606، 608، 631-632، 654، 659، 674، 727، 841، 865
بومبي (الشاب): 701
بومبنيان، لوفران دو (السيد): 256-257، 608، 611، 613-621، 623، 663، 691-692، 700، 782
بوميرانيا: 166
بون (شارع): 177، 189، 192، 243، 867-868، 870-871، 882-883، 888، 891، 896-897، 905-907
بونزانفان (شارع): 919
بونياتوفسكي، ستانيسواف أغسطس: 843
بونيه (السيد): 752، 769-771، 902
بوهيميا: 595

بوهيه (الرئيس): 360-361
بوي، جورج دو (الأسقف): 620
بويرهيف (الطبيب): 554
بوينز (منطقة): 646
بيت (الوزير): 596
بيتروبورو (اللورد): 213
بيتشيني (الموسيقي): 870
بيتو (الملك): 746
بيتوار (السيدة): 15
بيتينيلي (الأب): 601-602
بيتيه (السيد): 609
بيجكس، سيمون (السيد): 777
بيرت (الأب): 791
بيرتيه (الأب): 612-613، 616، 628
البيرو: 522
بيرون (السيد): 169، 173-177، 185، 192، 221، 231-232، 304-305، 336، 349، 397، 429، 620، 794، 806-807
بيري: 113، 118
بيزارو، فرانسيسكو: 522
بيزنطة: 749، 751
بيستير (منطقة): 915
بيسون (السيد): 15
بيسير (الآنسة): 209
بيغال، جان بابتيست: 809-810
بيفركورن (السيدة): 15
بيكار (الوصيف): 490
بيكارديه (السيد): 656
البيكارديون: 786
بيكتيه (السيد): 728-729
بيلفال (السيد): 742
بيليستات (الكونتيسة): 546
بيمبو، بييترو (الكاردينال): 799

-ت-

التاج البابوي: 589
تاريخ الأتراك: 813
تاريخ الأدب: 235
تاريخ أوروبا الحديثة: 664
التاريخ الديبلوماسي: 582
التاريخ القديم: 149
التاريخ الكوني الشامل: 760
التأريخ الملكي: 343
تاريخ فرساي: 108
تاريخ فرنسا: 375
تاسيت: 880
تاشان (الآنسة): 822
تامبونيه (الأب): 611
تانغي (السيد): 16
تايركونل (اللورد): 453، 460-461، 482، 489-490
التجار الأغنياء: 66
تجار الجوخ: 69
التجارة: 138، 140، 667
تجارة كاديكس: 409
التراجيديا: 93، 102، 108-109، 112، 131، 189، 194، 227، 229، 242، 254-256، 262، 270، 294، 307، 324، 339، 353، 364، 374، 400، 411، 413، 425-425، 431، 435، 473، 490، 518، 537، 657، 708، 727، 778، 816، 819، 851، 853، 878، 896، 915، 926، 929
التراجيديا الراسينية: 145
التراجيديا السورية: 228
التراجيديا القروسطية: 629
التراجيديا الكلاسيكية: 630، 854
ترافرسيير سانت أونوريه (شارع): 219، 413، 425، 428-430، 434، 547، 576
ترافنول (السيد): 365-369، 372
التربية القديمة: 91

تركيا: 453
تروا (طريق): 906-907، 913
ترويليه (الأباتي): 625
ترودان (السيد): 844
ترودين، دانيال شارل: 897
ترونشان (السيد): 551، 554-555، 563، 572، 583، 603، 617، 648-649، 657، 673، 700، 704، 708-709، 744، 764-766، 774، 793، 868، 870-873، 876، 879-880، 889-890، 897-903، 905
تري (السيد): 907
تريانون (منطقة): 396، 412
ترييزوند: 751
تريتكييه (السيد): 737
التسليات الملكية: 344
تسول (الأمير): 453
تشرشل (الليدي): 213، 215
تشسترفيلد (اللورد): 320، 348، 441، 483، 845
التضامن الإنساني: 19
التعصب البروتستانتي: 673
التعليم الدرامي: 556
التعليم الشعبي: 687-688
التفاهة الاجتماعية: 92
تفينكهام (منطقة): 566
التقدم: 650، 688، 894
تمثال نبوخذ نصر: 885
التمثيل المسرحي: 121
التواضع المسيحي: 165
التوراة: 695، 714، 771
توربو (السيد): 833
تورغو، آن روبير جاك: 828، 835، 844، 849، 865، 884-885، 897
تورنم، لونورمان دو (الجابي العام): 353، 574
تورنمين (الأب): 81، 100-101
توزني: 603-604، 608-610، 617، 631، 637، 660، 662-663، 706، 774، 867، 921
تورينو: 649، 723
تورينبي (منطقة): 197
توسكانيا (مقاطعة): 536
توكاي (منطقة): 354
تول: 113
تولندال، لالي: 743، 803، 816، 899
تولوز: 665، 667، 671-675، 677، 679، 681، 738، 740، 802-803، 805
توليس (السيد): 758
تولينيون (منطقة): 350
توليه، بول جان: 388
توما (السيدة): 148
توما (القديس): 193
تونس: 740
تيبوفيل (السيد): 824، 853، 862-864، 866، 884، 889، 891
تيري (الأب): 858
تيليماك: 269
تييرو (السيد): 81، 104-105، 150-151، 155، 162، 172-173، 179، 183، 190-192، 199، 204-206، 208-209، 217-219، 223، 227، 243-244، 254، 256-257، 273، 278-283، 285، 316، 367، 434، 436-437، 565، 592، 603-604، 653، 689، 782، 798، 821-822
تييري (الطبيب): 905

-ث-

الثراء الفولتيري: 291
الثقافة: 262، 625

الثورة الفرنسية (1789): 194، 880
ثيسيوس: 276، 550

ـ ج ـ

الجاذبية: 491
الجاسوسية: 159، 337
جاك دي بروس (شارع): 234
جاكييه (الأب): 340
جامعة السوربون: 152، 275، 417
جامعة غوتنغ: 457
جان (الفتاة): 801
جان جورج (الأسقف): 691
جان دارك: 250، 702
جان فيسي (الأب): 643-644
الجانسينية: 72، 79، 116
الجانسينيون: 156، 186، 309، 320، 344، 644، 653، 696، 719، 740
جبال الألب: 588، 798، 851
جبال سافوا: 289
الجبة الكهنوتية: 158
جبل الأولمب: 888
جبل مون بلان: 552، 561، 822
جدوان (الأباتي): 74
جرمانيا (منطقة): 330
جريدة السنة الأدبية: 627
جريدة العام الأدبي: 852
جريدة المشاهدة الدانماركية: 484
جريدة أوتريخت: 657
جريدة خطيب الشعب: 432
جريدة غازيت برلين: 503
جريدة لوجورنال دو تريفو: 612، 695
جريدة لومركور: 254، 256، 371
جريمة ريشوليو: 150
الجزائر: 750
جزر الهيبرد: 712
الجسر الملكي: 916
جسر بون نوف: 740
جسر سيفر: 161، 163
الجمهورية التوراتية: 768
جنائن أكاديموس: 448
جنفال (الآنسة): 873
جنفياف (القديسة): 85، 93، 326، 845
جنكيز خان: 556
جنلي (السيدة): 212-213، 838-840، 843، 848-849
جنوب فرنسا: 207
جنوة (منطقة): 377
جنيف: 19، 484، 551-555، 557-561، 564، 566، 570، 572، 576، 585، 589، 592، 599-601، 603-605، 609-611، 617-619، 632، 649-650، 652، 657، 662، 672-673، 675، 682، 688، 693-694، 703، 718-723، 725، 733-734، 747-749، 752-755، 757-764، 766-768، 773-775، 779، 783-785، 788، 796، 817-820، 822، 828، 831، 839، 845، 850-851، 859-860، 902، 904، 925
الجنيفيون: 610، 630، 643-644، 651، 682، 722-723، 734، 752، 754، 762-763، 766، 775، 783، 818-820
الجواسيس: 160-161، 164
جوانيي (بلدة): 867
الجوائز الأدبية: 106
جوبيتير: 438-439، 621
جور (الناشر): 223، 243-244، 258-259، 262، 276، 474
جورا (محافظة): 803
جورج الثالث (الملك): 179، 210، 460
جوردان (السيد): 311-313

جوزف الثاني (الإمبراطور): 859-862
جوفيني، ريغولي دو: 185
جوكاستا: 129، 860
جولي (الآنسة): 818
جونون (الربة): 822
جيرفازي (الدكتور): 183-184، 543
جيزور (السيدة): 906
الجيش الإمبراطوري النمساوي: 159
الجيش البروسي: 579-580، 659
الجيش الفرنسي: 95، 331، 732
جيش الفلاندر: 410
الجيش الملكي: 923
جينونفيل (السيد): 121-121، 152-153، 179-181، 183، 215، 225، 404
الجيوش الأجنبية: 561
الجيوش الأوروبية: 605

-ح-

الحاشيات الملكية: 142
حجر الفلاسفة: 153، 157، 263، 830
حديقة تويلري: 889، 916
حرب الإنكليز: 657
الحرب الأهلية: 614، 762، 768
الحرب الصليبية: 613
الحرب القارية: 584
الحرب الكلامية: 229، 233، 597، 617، 619، 632، 639
الحرب النضالية لمقاومة الإكليروس: 131
الحرس الملكي: 157، 915
الحروب الدينية: 195
الحرية: 19، 87، 104، 128-129، 132، 140، 180، 196، 207، 236، 275، 306، 308، 428، 448، 450، 467، 480، 521، 524، 577، 591، 602-603، 650، 664، 681، 691، 714، 745، 772، 804، 813، 826، 872، 883، 889، 917، 930
حرية الاختيار: 190
حرية الأخلاق: 95
حرية الصحافة: 322
حرية العادات: 280
الحرية الفردية: 513
حرية الكتابة: 92
حرية المعتقد: 95
الحزب الديني: 895
الحساسية الفلسفية: 521
الحضارة: 18-19، 136، 144، 197، 262، 289، 483، 489، 548، 586، 826، 926
الحضارة الكلاسيكية: 489
الحظوة الملكية: 181، 442
حق المواطنة: 752
الحقوق الإقطاعية: 661، 813
الحكام الرومان: 760
الحكايات الشعبية المنظومة: 18
الحكاية الخرافية: 854
الحوذيون: 406، 527، 888
حوليات الإمبراطورية: 536، 538، 544
الحياة الاجتماعية: 172، 708، 868
الحياة الأدبية: 401، 627
الحياة الباذخة: 247
الحياة الريفية: 172

-خ-

الخدمة الكهنوتية: 271، 578
الخزينة الملكية: 138
الخطيئة الأصلية: 212، 693
الخلود: 80، 362، 602، 615، 661، 717، 772
خلود الروح: 306

-د-

داء الإسقربوط: 479
داء البرص: 193

داء السل: 242
دار الشعارات الكبرى: 69
دار المطرانية: 735
دارجان (المركيز): 453-456، 475، 479، 541، 691، 695، 727
دارجنتال (السيدة): 361، 414-415، 635
دارجنتال (المركيز): 78، 120، 146، 171، 223، 243، 247، 250-251، 279، 282، 299، 312-313، 321، 335، 339، 361، 384، 414-415، 420، 423، 433، 481، 537، 540، 542-543، 562، 584، 594، 604، 631، 636، 680، 684، 687، 787-788، 793، 795، 799، 820، 822-824، 853، 857، 865-866، 868-869، 884، 889، 891
دارجنسون (السيد): 118-119، 146، 162، 285، 329-331، 340، 343، 347-348، 350-352، 357، 360، 396، 433، 512-513، 524، 539، 558، 576، 643
دارجيه (السيد): 460، 470، 477، 488، 490، 545، 565
دارنو، باكولار: 428، 436-437، 440، 452، 473، 696
داسكوتا (السيد): 209
داغيسو (المستشار): 611
دالامبير، جان لورون: 17، 430، 542، 555، 570-573، 577-578، 586، 611، 616، 618، 621، 625، 650، 655-656، 689-690، 726، 730، 743، 745، 771، 777-778، 781، 783، 795، 798، 804، 809، 836، 854-856، 860-861، 876، 885، 897، 909-910، 924-925
داليغر (الماريشال): 164
داميفيل (السيد): 690-691
داميلافيل (السيد): 678، 687-688، 690، 695-696، 745، 798، 821
داناي: 438-439، 441، 472، 504، 523، 528
داندان، جورج: 619
دانفيل (السيدة): 372، 674
دانكور (الممثل): 199-200
الدانمارك: 484، 487، 797، 802، 809
داود (الملك): 574-575
دبلن (العاصمة): 217
الدبلوماسية: 159، 461، 749، 758
الدبلوماسيون: 461
الدراما الشكسبيرية: 246
درايدن، جون: 208
درسدن (منطقة): 469
الدرك الملكي: 75، 139
درو بريزيه (الأسقف): 918
دو باري (السيدة): 812، 823، 861، 864، 873
دو برالان (الدوق): 679، 730، 750، 755، 758، 857
دو برانكا (الماريشال): 235
دو برنيير (السيدة): 155، 163، 173، 177، 179، 189، 191-192، 199، 205، 219، 280
دو بروتوي (الأب): 295
دو بروتوي (البارون): 128، 163، 236، 323
دو بروس (الرئيس): 603-604، 641-642، 659-660، 663، 673، 678، 797، 824، 844-845
دو برونشفيك (الدوق): 338
دو بروي (الماريشال): 897
دو بريستول (الكونت): 843
دو بلبي (السيد): 468
دو بورداي (السيد): 410

دو بورنتروي (المونسنيور): 542
دو بوسي (الأب): 114، 149، 264
دو بوفليه (الدوق): 78، 702-704، 713
دو بوفليه (السيدة): 325، 387-390، 394، 408، 418، 420-421، 601
دو بوفليه (الماريشال): 78
دو بوفو (الأمير): 308، 869-870
دو بوكاج (السيدة): 586
دو بولمي (السيد): 576
دو بولينياك (الأميرة): 870
دو بويون (الدوق): 409
دو بونكاريه (السيد): 222
دو بيفر (المركيز): 68
دو تانسان (السيدة): 206، 405، 550
دو تانسان (الكاردينال): 342، 550-551، 575، 583-584
دو تريشاتو (المركيز): 299
دو تولينون (الأب): 350-352
دو تيل (الآنسة): 350، 352، 378، 420، 558
دو جاريغس (السيد): 471
دو جيونفيل (الآنسة): 121، 144
دو دولوين (الدوقة): 576
دو ديفان (السيدة): 205، 236-238، 299، 315، 318-319، 335، 376، 379، 794، 875، 892
دو رويلموند (السيدة المركيزة): 164-166، 168، 187، 233
دو روتنبرغ (السيد): 337
دو روفي (السيد): 546، 549
دو ريشوليو (الدوق): 71، 76، 79، 83، 114، 137، 144، 146، 150، 159، 178، 188، 190-191، 195، 202، 210، 219، 220، 224، 231، 238-239، 242-243، 246-247، 250، 259، 268، 271، 286، 288، 300، 312، 327، 329، 339-340، 353، 356-357، 359-360، 364، 377، 401، 408-409، 421، 426، 430، 548، 550، 575، 578-582، 595، 657، 672-674، 774، 776، 785-786، 809، 822-823، 836، 865، 873، 876، 898
دو ريشوليو (الكاردينال): 142، 364
دو ريومير (السيد): 275
دو سارتين (السيد): 636-637، 805
دو سان بيير (السيدة): 235، 249
دو سان جوليان (السيدة): 748، 839، 848-849، 856، 889، 897-898
دو سان فلورنتان (الوزير): 671، 674، 806
دو سان لامبير (المركيز): 287، 390-395، 400-401، 403-407، 412-413، 418-422، 424-425، 825-826، 836، 869
دو ستال (البارونة): 376، 606
دو سوسور (الآنسة): 822
دو سوسور (السيد): 822
دو سوفيني (السيدة): 776
دو سولي (الفارس): 113
دو شابو (الفيكونت): 382
دو شاتليه (المركيز): 235-236، 248، 253، 256، 260-261، 265، 280، 291-292، 299، 379، 394-395، 402، 406-407، 420-421، 424-425
دو شاتورو (السيدة): 327، 338، 466
دو شازو (الفارس): 457-458، 470
دو شاستيلو (الفارس): 896
دو شامبونان (السيدة): 249، 252، 271، 292، 296، 298، 323، 386
دو شوازول (الدوقة): 731، 748-749، 812، 815
دو شوازول (السيد): 593-597، 601، 632، 640، 648، 654، 679، 694، 723، 739، 749، 774، 779، 812-814، 816، 889

دو شوفلان (السيدة): 649
دو شوليو (الأب): 233
دو غوبريان (الكونت): 410
دو غيتو (الكونتيسة): 143
دو غيز (الآنسة): 288
دو فاريكور (الآنسة): 851
دو فالوا (الآنسة): 150
دو فالوا (السيد): 983
دو فرانشفيل (السيد): 482
دو فرساك (الأب): 875، 877، 901، 906
دو فلوريان (السيد): 580، 659، 728، 732، 735، 786، 817-818، 829
دو فلوريان (المركيزة): 786، 818، 827، 835
دو فليفور (السيد): 291
دو فورتمبرغ (الدوق): 698
دو فونتين دورنوا (السيدة): 540، 659، 695
دو فونتين مارتيل (الكونتيسة): 226، 229، 317، 435، 587، 707، 821
دو فونتين هورنوا (السيد): 343-344، 410
دو فيايفيل (السيد): 863، 877
دو فيريول (السيدة): 208
دو فيلار (الماريشال الدوق): 141، 149، 159، 179، 204-205، 259، 268، 409، 610، 657، 674
دو فيلار (الماريشالة): 131، 142، 156، 310، 325، 576
دو فيلروا (الماريشال): 159
دو فيلفور (الفارس): 262-264
دو فيليت (المركيزة): 171، 851، 869، 872، 886، 898، 900، 903، 910، 917-918، 925
دو كامبريه (الأسقف): 821
دو كايلوس (السيد): 231
دو كزيمينيس (المركيز): 480، 558-559، 653
دو كليرمون (الكونت): 363
دو كورتانفو (المركيز): 382
دو كوسي (السير): 242
دو كوفرينيي (الأب): 94
دو كوفنتري (الدوقة): 847
دو كوكسيجي (السيد): 472
دو كومارتان (السيد): 107-109، 115، 118-120، 145، 202
دو لا بار (الفارس): 740-743
دو لا بوبلينير (السيدة): 359-360
دو لا توش (الفارس): 504-505
دو لا شالوتيه (السيد): 687
دو لا غاليزير (السيد): 386، 390، 418
دو لا غاليزير (السيدة): 393
دو لا فار (المركيز): 114، 139
دو لا فالوير (السيد): 121، 180
دو لا فاي (السيد): 151، 260
دو لا فون (السيد): 70
دو لابورد (السيد): 823
دو لاموانيون (السيد): 674، 679
دو لوراغيه (الكونت): 396، 657-658
دو لورج (الكونت): 546، 700
دو لوزو (المركيز): 409
دو لوشيه (المركيز): 829
دو لوشيه (المركيزة): 829-830، 837
دو لوكسمبورغ (الماريشال): 654
دو لوين (الدوق): 344، 379
دو لوين (الدوقة): 356
دو ليبين (السيد): 694
دو ليسبيناس (الآنسة): 745، 825
دو مارسيه (السيد): 691
دو مالزيو (السيد): 169
دو مانتونون (السيدة): 88، 484-485، 488، 839

دو مايبوا (الماريشال): 376
دو ماي (السيدة): 318
دو منتونون (السيدة): 88
دو موبيو (الوزير): 803، 812، 814
دو مورا (السيد): 576
دو مونتيسون (الكونتيسة): 892
دو مونفيرا (السيدة): 585
دو مونمورنسي (الكونت): 821
دو موهي (الفارس): 278
دو ميربوا (الأسقف): 361
دو ميزون (الرئيس): 179، 182-183، 224-225
دو ميمور (السيدة): 175، 177، 180، 184-185، 192-193، 219
دو ميمور (المركيز): 174
دو نواتيل (السيدة): 183
دو نواي (الآنسة): 79
دو نوفيل (السيدة): 249، 252-253
دو نيكولاي (السيد): 674
دو هوسيه (السيد): 620
دو هوسيه (السيدة): 621
دو هوهنلوهي (الأمير): 602
دوبار (الآنسة): 177
دوبري (السيدة): 195-196
دوبريه (الأب): 904
دوبليسي (السيد): 380
دوبوا (الكاردينال): 158، 164، 828
دوبومون، إيلي (المحامي): 678، 738، 769
دوبوي (السيد): 784
دوبوي (السيدة): 704، 851، 889
دوبيري (الكاهن): 903
دوتري (السيدة): 317
دوجاري (الأب): 106
دورا (الدوق): 370، 461
دورن (السيد): 528-531
دوروثي دوساكس ماينتغن (الأميرة): 269، 511، 548
دوزيس (الكونت): 109-110
دوسفيل (السيدة): 94
دوغرو (الجراح): 790
دوفان (السيدة): 779، 812، 814-815، 891، 921
دوفرني (السيد): 409
دوفو (السيد): 287
دوفور (السيد): 823
دوفيرنيه (السيد): 78، 179
دوفيفيه (السيد): 883، 904، 909، 920، 921، 924، 926
دوفيه (السيدة): 220
دوق أورليان: 110، 119، 135، 202، 409، 513، 838، 892-893
دوقة أورليان: 136، 893
دوق بوربون: 154، 195-196، 204
دوق راندون: 700
دوقة إيغويون: 498، 557
دوقة بارم: 861
دوكرمان، رونيه: 15
دوكلو (الآنسة): 109، 441، 881
دوكو (الوكيل): 669
دولالو (السيد): 804
دولباخ، بول هنري (البارون): 456، 745، 771-772
الدولة الساكسونية: 468
دولوك (السيد): 719، 767-769
دوليفه (الأب): 77، 259، 364، 366، 442
دوليكلوز (السيد): 607، 636-637
دوليل (الأباتي): 825
دومار (الآنسة): 69، 71
دومار (الرقيب): 75
دومرسون (الرئيس): 742

دومولان (الوكيل): 163، 234، 276-277
دومون (الدوق): 183
دومين (الدوق): 169
دومينيل (الآنسة): 325، 398
دومبير، هونوريه: 381
دونواي (الماريشال): 157، 194
دونوايه (السيدة): 95-99، 103، 136
دونون، فيفان: 841-842
دونوي (الرئيس): 410
دوني، ماري لويز (السيدة): 73، 270-272، 338، 400-401، 424، 426-428، 435-438، 450-451، 475، 480، 490-491، 502، 512-514، 521-526، 528-529، 534-537، 539-540، 544، 547-549، 552، 558-560، 566-567، 569-570، 576، 580-581، 586-588، 607-610، 630، 633، 635-637، 645، 659، 683، 694، 700، 705، 713-714، 720، 726، 759، 774-777، 779-780، 784-786، 807-808، 813، 817، 822، 825، 827، 829-830، 832، 837، 839، 843-844، 858، 863، 866-867، 869، 871-872، 875-876، 879-884، 886، 889، 897-900، 904-905، 907-908، 910-911، 921-926
دوني، نيكولا شارل: 73، 637
دوهيس (المارغراف): 773
ديانا (السيدة): 848
الديانة النيوتنية: 243
ديبريو، بوالو: 106
ديبيني (السيدة): 585، 630
ديتالوند، غايار: 740، 742، 831
ديتيول، لونورمان (السيدة): 353، 374
ديجون (مدينة): 549، 553، 541، 643، 647-648، 655، 659-660، 662-663، 777، 784، 804، 818، 825-826، 867، 890
ديدرو، دينيس: 430، 456، 571، 585-586، 628، 631، 639، 656-657، 660، 681، 689، 732، 745، 810
ديدو (السيد): 322
ديديوس جوليانوس: 467
دير السيدات السود: 735-736
دير رهبان القديس أوغسطين: 138
دير ريباري: 589
دير سيليير: 911-912
دير فارين: 75
دير فريغوليه: 114
دير فندوم: 96، 110، 124
دير فيلانكور: 741
دير ماري دن هو: 483
ديستان (الكونت): 409
ديستريه، غابرييلا: 88
ديسكاربانياس: 619
ديسكالون، دافيد: 671
ديشوفور (السيد): 198
ديغابيل (السادة): 137
ديفان (السيد): 731
ديفونتين، بيار غويو (الأباتي): 163، 186، 190، 197-199، 216، 253-258، 261-262، 277-285، 292، 298، 362، 431-433، 442، 483، 556-557، 613، 720، 722، 853
ديكارت، رينيه: 232، 245، 493، 871
ديلونيه (الآنسة): 114
الديليس: 16، 552-554، 557، 559، 561، 564، 566، 570، 572، 576، 584-585، 587-588،

590، 593، 598-599، 601-604، 610، 621، 632، 649، 657، 694، 728، 760، 769، 925، 930
ديماريه (السيد): 287-288
الديماغوغية: 860، 912
ديمانش (السيد): 768
ديمقراطيات القرن العشرين: 333
ديموستين: 750
ديمولان، كاميل: 912
الدين: 101، 151، 168، 211، 233، 239، 245، 271، 320، 326، 352، 392، 411، 456، 492، 544، 553، 562، 588، 611-612، 644-645، 667، 686-687، 689، 691، 696، 714، 724، 735، 741، 744، 753، 771-772، 861، 892-893، 901، 917
ديوجين الكلبي: 724
دييز (السيد): 543

-ذ-

الذات الملكية: 345، 379، 384
الذكاء الإنساني: 483، 489
الذوق الكلاسيكي: 631

-ر-

رابليه، فرانسوا: 137، 660، 922
راسين، جان: 106، 109، 131، 142، 229، 246، 255، 257، 275، 429-430، 442، 453، 483-484، 613، 701-702، 778، 781، 826، 834، 846، 852-855، 885، 910
راسين، لوي: 258
راكل (السيد): 904
رامبويه (السيد): 306
رامو، جان فيليب (الموسيقي): 238، 240-241، 340-341، 353، 359-360، 367، 442
رانس (مدينة): 320، 425
الرأي العام: 108، 205، 258، 368، 424، 597، 676، 678-679، 803، 865، 870، 900، 908
الراين: 249، 296
الربا: 149
رجال الأعمال: 315
رجال البلاط: 306، 317، 321، 343، 362، 416، 431، 551، 587، 591، 832
رجال الدين: 550، 572
رجال القضاء: 320، 368، 604، 867
رجال الكنيسة: 481
رجال الكهنوت: 130، 143، 197، 223، 430، 658، 686
رجال المال: 137-138، 140-141، 144، 175، 190، 794، 833
رجالات الأدب: 151، 208، 210، 254، 278، 293، 304، 441، 481، 499، 532، 547، 591، 614، 616، 623، 652، 654، 690، 708
رجالات الإنجيل: 759
رجالات الفكر: 135، 178، 186، 265، 280، 480، 500، 591، 605، 693
رجالات المجتمع: 741
الرسائل الفكرية: 533
الرفاهية: 596
رفائيل (الرسام): 585
الرهبان البندكتيون: 423، 544
رهبان سان فرانسوا: 800
الرهبان الغاليكانيون: 801
رهبان مالطة: 88
رهبانية العذراء: 679
روا (السيد): 362-363، 365، 367
الرواقيون: 772
روان (مدينة): 173، 177، 179-180، 197، 222-224، 227، 238، 243، 258، 273، 383، 634، 701

روتشيستر: 208
روجيه (السيدة): 904-905
الروح الإنسانية: 281، 855
الروح القدس: 16، 69، 132، 175، 374، 575، 768، 818، 927، 930
الروح المسيحية: 789
رودوغون (الآنسة): 633، 636، 638-639، 684، 702
الروس: 726
روسباخ (منطقة): 590
روستان (السيد): 563
روسو، جان باتيست: 81، 85-86، 93، 105، 119، 132-133، 160، 164، 167-172، 189، 229، 231، 233، 241، 260، 266، 283، 285، 300، 304، 556
روسو، جان جاك: 131، 166، 289، 359-360، 390، 427، 429، 460، 521، 523، 561-564، 571-574، 585، 605، 633، 649-654، 672، 687-688، 691-692، 696، 700، 706، 718-722، 724-725، 732، 738، 746، 753-754، 765، 767-768، 776، 805، 826، 888، 897، 920
روسيا: 473، 726، 728-730، 733، 922
روش إيمون (منطقة): 855
روشبزون (السيد): 75-76
روفروا، كلود دو (المونسنيور): 72
روفو (السيد): 791، 793
روكوليه (شارع): 218
روما: 186، 349-350، 454، 461، 498، 562، 572، 658، 716، 749، 801، 817، 842، 860
الرومانسية: 592
روماوي (منطقة): 352
روميلي (قرية): 908، 913-915
روني (الأب): 890
الرياء الديني: 767، 776، 791
الرياضيات: 248، 252، 275، 295، 300، 315
ريبورت (السيد): 672
ريتشارد الثالث (الملك): 845
ريتشاردسون، صمويل: 414
ريزونكو (السيد): 648
ريشوليو (شارع): 889، 892
ريشوليو، أرمان دو: 79
ريفيير بورديه (منطقة): 173، 177-178، 188، 280
ريكار (السيد): 776
ريموسبرغ (مدينة): 307، 310، 312
رين (مدينة): 143
ريناتيا (منطقة): 536
رينيار، جان فرانسوا: 294
ريومور (السيد): 323
رييه (السيدة): 817

-ز-

زلزال لشبونة: 562-563، 605، 650
الزندقة: 88، 230، 368، 655، 686، 690، 740، 743، 858، 861، 872
الزندقة الفولتيرية: 350
زوغو (مقاطعة): 816
زينون: 772
زيوس (الإله): 741

-س-

ساباتييه (الأب): 512، 805
ساحة بلو: 738
ساحة الفوج (الساحة الملكية): 150، 929
ساحة الكونكورد: 882
ساحة موبير: 103
الساعاتيون الكالفنيون: 750

ساكس (الدوقية): 452، 459، 468-470، 473، 500-501، 543
ساليه (الآنسة): 227-228
سان أندريه ديزارك: 136
سان أوستاش: 231
سان بول: 117
سان بير (شارع): 174
سان بيير، برناردان دو: 131
سان جان (منطقة): 610
سان جرمان (ضاحية): 289
سان جوان دو مارن (قرية): 66
سان جيرمان أن ليه (منطقة): 218، 795
سان دوني (شارع): 68
سان سوسي (منطقة): 453، 475، 509، 521، 596-597، 859
سان سولبيس (منطقة): 875-878، 890، 902-903
سان سير (منطقة): 589
سان سيمون، كلاود هنري دو: 72، 108، 110، 164، 174، 886
سان فرمان، كورديه دو: 890
سان كلو (منطقة): 224، 238، 803
سان لازار (منطقة): 815
سان لو (قرية): 66-67، 71، 374، 664، 672
سان لوي (منطقة): 851، 879
سان مارك (السيد): 887
سان مالو (منطقة): 456، 481، 491، 493، 625
سان مور، دوبريه دو: 614
سان ميشيل (منطقة): 675
سان يانست (السيد): 283-284
سانت أليان، شارل دو (الأب): 821
سانت أنج: 107-109، 115، 123
سانت أنج، فاريان دو: 880
سانت إيتيان (منطقة): 668
سانت غودول: 229
سانتو دومينغو (الدومينيكان): 923
ساند، جورج: 402
سانس (مدينة): 295، 327
ستاندال، ماري هنري بايل: 123، 855
ستانهوب (اللورد): 819
ستانيسلاس (الملك): 287، 386-390، 394، 396، 398، 400، 407، 412، 417، 423، 542، 553، 601-602
ستانيسلاف (ملك بولونيا): 195
ستراسبورغ (منطقة): 511، 537-538، 580، 929
ستروغونوف (الكونت): 890
ستورمونت (اللورد): 872
ستيوارت، جاك: 716
سجن الباستيل: 116، 118، 123-124، 126-127، 135، 140، 150، 202-205، 207، 233، 236، 512، 532، 550، 805، 916
سجن شاتليه: 163
سجن فنسين: 89
السرقة الأدبية: 601
سقراط: 112، 268
سكابان (الخادم): 98-99، 284
السكيثيون: 732
سلالة بلانتاجونيه: 847
سلالة الكومنينيون: 751
سلالة هانوفر: 716
السلطات التقليدية: 571
السلطات الجنيفية: 733
السلطات السياسية: 168
السلطات العليا: 233
السلطات القضائية: 662
السلطات الكهنوتية: 168، 692
السلطان التركي: 455
السلطة الأبوية: 265

السلطة البيروقراطية المطلقة: 333
السلطة الكنسية: 736، 906
السلطة الملكية: 66، 470
السلك الكهنوتي: 197
سليمان الحكيم: 334
السماح الإلهي: 741
السمو الباريسي: 227
سميراميس: 395-397، 399-401، 725-726، 730، 732-734، 820
سو (مدينة): 123، 147، 380، 414، 435
سوار (السيدة): 830-833، 835-838، 840، 842، 926
سوارت (منطقة): 878
سودر (المحامي): 669
سودين، ميشيل جان: 628
السوربون (منطقة): 554
سوريل، أنييس: 801
سورين (السيد): 599-600
سورين (مدينة): 291
سوفوكليس: 129-130، 426، 732، 750، 864، 880
سوفيني، بيرتييه دو (الرئيس): 813
السوق الموسمية: 173-174
سولتيكوف (السيد): 831، 837
سولي (الدوقية): 88، 113-115، 120-121، 123، 148، 151، 188، 201، 210، 215-216، 280
سوهر (منطقة): 539
السويد: 133، 335
سويسرا: 547، 600، 603، 632-633، 703، 707، 774، 859، 861
السويسريون: 703
سويفت، جوناثان: 208، 211، 216-217، 846
السياسة: 108، 274، 332، 334، 336، 339، 464، 716، 769، 828، 871
السياسة الأوروبية: 584
السياسة الروسية: 728
السياسة الفرنسية: 583
سيدفيل (السيد): 113، 173، 222، 241، 314، 780
سيرفيان (الكاهن): 88، 113
سيرفيه، ميشيل: 572
سيري (مدينة): 248-249، 252-253، 256-257، 260-262، 264، 267، 269-273، 276-281، 283، 285-286، 288، 291، 294-295، 298-299، 301، 313، 317-319، 323-324، 331، 339-342، 384-386، 388، 394، 405-407، 416، 423-424، 453، 459، 493، 538، 544، 552، 783، 896
سيريس (الربة): 853
سيريه (السيد): 823
سيغييه (المستشار): 364، 837
السيكولوجيا الفولتيرية: 555
سيليزيا (مدينة): 308، 310، 333، 407، 463، 583، 596
سيليير: 73، 907-909
سينون (منطقة): 423، 544
سينيك: 186

-ش-

شابانون (السيد): 778، 780
شابريان (العقيد): 779
شابو، روهان (الفارس): 199-204، 206، 216، 221، 255، 337، 357، 380، 508، 907
شابيل (الشاعر): 113
الشاتلين (منطقة): 818
شاتليه: 68-69، 128، 162، 283، 362
شاتني: 75، 128
شاتو تييري (منطقة): 398

شاتونوف، شارلوت دو لوبيسبين دو (السيدة، مركيزة روفيك): 71، 635
شاتونوف، فرانسوا دو كاستانييه دو (الأباتي): 74-75، 81، 83-84، 87، 93، 96-97، 101، 110، 851
شاتيون (السيد): 218
شاتيون (منطقة): 133
شارتر (الدوقية): 383
شارل الثاني عشر (الملك): 133، 215، 218
شارل الخامس (الملك): 117
شارلمان (الملك): 511
شارلو (الوكيل): 662-663
شارون (السيد): 914
شارون (منطقة): 193-194
شاساين (الآنسة): 887
شالون (منطقة): 346، 395، 398، 406
الشامبرتان (مقاطعة): 763
شامبونان (الشاب): 294
شان (منطقة): 355
شانتلو (طريق): 812، 814
شانتي: 188
الشانزيليزيه (منطقة): 912
شانسيل، لاغرانج: 147
شانييه، أندريه: 916
شتوتغارت (مدينة): 455
الشرطة الملكية: 207
شركة الهند: 156، 410
شرلوك (المستر): 843، 845-848
الشعائر المسيحية: 577
الشعب اليوناني: 751
الشعر الإسكندري: 854
الشعر الكلاسيكي: 778
الشعر الميثولوجي: 438
شكسبير، وليام: 245-246، 702، 715، 843، 845، 852-855، 872
شمبانيا (مدينة): 165، 249
شميت (السيد المستشار): 525-525، 527، 531، 580، 597
شميت (السيدة): 527
شويفلن، جوهان دانيال (العلامة): 538
شوفالوف (الكونت): 726، 729، 734
شوفلان (السيد): 604، 610
شوليو (الشاعر): 88، 93، 142، 213
شوليو (مدينة): 114
الشؤون الحربية: 314
الشؤون الدينية: 550-551، 600
الشؤون السياسية: 828
الشؤون اللاهوتية: 482
الشؤون المالية العليا: 138-139
شيبوا (السيدة): 15-16
شيشرون: 208، 307، 859
الشيطان: 69، 78، 107، 115، 194، 297، 309، 316، 325، 362، 400، 419، 516، 541، 544، 563، 593، 616، 629-630، 663، 680، 682، 698، 700، 705، 719، 731، 752، 769، 789-791، 867، 873، 876، 893، 903، 905، 911

-ص-

صالون فيرني: 696، 700
صالونات باريس: 102، 319
صحارى منغوليا: 556
الصداقة: 181-182، 184، 206-207، 238، 261، 264، 281-283، 285، 287، 296-297، 308، 313، 337، 346، 358، 369-370، 372، 391-392، 411، 422-423، 434، 448، 450، 479، 481، 487، 504-505، 518-519، 521، 523، 533، 535، 567، 591، 630، 651، 653، 673، 704، 727-728، 750، 778، 811-812، 821

825، 830، 851، 858، 863، 868، 870
الصداقة الملوكية: 450
صك المعمودية: 75
صكوك الغفران: 209
صناعة الساعات: 759
صندوق المالية الفرنسية: 273
الصنميون: 655
الصين: 522، 537

-ض-

الضرائب: 618-619، 755، 849

-ط-

الطاعون: 70، 218
الطائفة الفلسفية: 456، 731، 745-746
الطبقات الراقية: 638، 649، 728
الطبقة الأرستقراطية الروسية: 733
طبقة الأعيان: 137
الطبقة الرفيعة: 226
طبقة العامة: 442
طبقة العمال: 752
الطغيان: 123
الطغيان الزوجي: 97
الطقوس الدينية: 223، 294، 394، 671
الطقوس الرومانية: 572
الطقوس الوثنية: 916
الطوباوية: 688، 740، 745

-ع-

العادات الإنكليزية الحكيمة: 245
العادات البالية: 813
العادات البربرية: 222، 815
العادات الفرنسية: 245
عالم الأدب: 172، 278، 547، 809
العالم الجديد: 102
العالم السامي: 275
العالم القديم: 855
العالم المتمدن: 605
عالم المضاربات: 141
عائلة بوفو: 221، 387
عائلة دوبروس: 921
عائلة فاريكور: 871-872
عائلة لا تور دو بان: 214، 848
عائلة مارسييه: 171
عبادة الأوثان: 326
العبرانيون: 695
العبقرية: 275، 370، 463، 617، 681، 708، 743، 832، 845، 857، 927
العبقرية الفرنسية: 18
العبودية: 19، 745، 756-757، 847
العجرفة الشعبية: 575
العدالة: 19، 139، 222، 259، 366، 470، 472، 482، 500، 510، 534، 668، 670، 672-678، 680-681، 698، 739، 762، 801، 804، 899، 930
العزلة الدراسية: 262
العزلة العاطفية: 262
عصر الأنوار: 136، 349، 476، 605، 640، 660، 669، 678، 730، 740، 841، 927
عصر السينما: 284
عصر العقل: 195
العصور المظلمة: 195
العصور الوسطى: 678
العقائد الرومانية: 572
العقلانيون: 571
علم البيان: 880
علم الجبر: 262، 377
العلم الجديد: 252
العلم الرسمي في باريس: 232، 315
علم الهندسة: 248-250، 252، 262، 292، 315، 492-493

العلماء الفرنسيون: 232، 274
العلمانيون: 678
العلوم: 315، 323-324، 247، 380، 457، 464، 483، 769
العلوم الإنسانية: 555
العلوم الحقيقية: 252
العناية الإلهية: 101، 167، 226، 255، 326، 562-563، 566، 605، 621-622، 644، 729، 752
عهد الإصلاح: 918
عهد الإمبراطورية: 842، 918
عهد الإمبراطورية الثانية: 920
عهد الرومان: 300
العهد الملكي: 88، 893
عهد الوصاية: 112، 120، 129، 132، 138-139، 144، 158، 166، 246، 705، 886
عهد مانتونون: 79
عيد العنصرة: 117، 217

-غ-

غاتين: 66
غاتينيه (منطقة): 637
غاراسيز (الأخ): 612
غاريك (الممثل): 570
غاكسوت، بيار (السيد): 16
غاليان (السيد): 776
غاليكاني (منطقة): 352
غراسيه (السيد): 559-560، 599-601
غرافيني (السيدة): 270، 282، 286-292، 294-299، 323-325، 436، 486، 783
غران شين (شارع): 588
غرانفال (الممثل): 398
غروز، جان بابتيست: 102، 684، 868
غريتري (السيد): 795-796
غريسيه (الشاعر): 257، 261، 327، 624، 668
غريف (منطقة): 805
غريم (السيد): 585، 745، 798، 813، 829، 833، 861، 902، 923
غرينيتش: 207
غلوك، كريستوف ويليبالد: 870
غليوم (الفاتح): 847
غوابيه (الأب): 858
غوتا (المارغراف): 518، 595
غوتا (منطقة): 488، 511، 536، 544
غوته، جوهان فولغانغ فون: 694
غوتييه (الأب): 874-878، 901-903
غوراني (السيد): 751
غورتس (البارون): 132-133، 147، 150
غوسان (الآنسة): 221
غوفرنيه، لا تور دوبان دو (السيد): 214
غوفرنيه، لا تور دوبان دو (المركيزة): 214-215، 894
غولار (السيد): 607-608
غونتو (الدوقية): 383
غيبونز (السيد): 588-589
غيز (الدوقية): 224، 238، 410
غيسكلان، أديلايد دو: 242
غيغيه (السيد): 551
غيمار (الراقصة): 382، 442، 861
غينيه (الأب): 855
غيهينو، جان (السيد): 16
غيو (السيد): 556

-ف-

دورنوا (الأب): 906-907
فابري (السيد): 844
الفاتيكان: 349، 648
فاريكور، روف دو (الكاهن): 849
فافار، شارل سيمون: 618
فال ترافير (السيد): 765، 767
فالانسيين (مدينة): 299

فالتيني (الكاردينال): 352
فالوري (الكاهن): 314، 336، 460
فاليت، سيمون: 622
فان دورين (الناشر): 303-305، 307، 519، 531
فانديه: 66
فانبير (السيد): 415، 542، 776، 784، 789-793، 810، 822، 834، 866، 869، 873، 876-877، 883، 895، 897-899، 921-923
الفتيات النبيلات: 734
فرانسوا (القديس): 801
الفرانسيسكان: 801
فرانش كونتيه (مقاطعة): 804
فرانكفورت (مدينة): 482، 488، 511، 513-516، 518-520، 522-523، 525، 530، 532-535، 538، 540، 542، 544، 546، 548، 565، 569، 580، 597-598، 602، 744-745، 780، 809، 928
فرانكلين (الدكتور): 872، 874، 896، 910
فرايتاغ (السيد): 514-517، 520، 522، 524-532، 535، 579-580، 591، 597
فرتنبورغ (الدوقية): 454
الفردوس: 289
فرساي: 108، 160، 165، 193، 207، 224، 268، 308-309، 317-318، 321، 330-334، 342، 344-346، 353، 357-359، 379-381، 384، 386-389، 394، 411، 419، 429، 440-443، 453، 481، 504، 513، 521-522، 524، 532، 539، 542، 545، 574، 582، 584، 592، 593، 597، 601، 603، 608، 633، 667، 679، 691، 727، 732-733، 754، 774، 787-788، 793، 805، 812، 823، 841-842، 845، 857، 859، 866، 879-880، 895
الفرقة البرجوازية: 172
فرنسا القديمة: 66، 70
الفرنسيون: 159، 165، 204، 212، 214، 217، 222، 244، 267، 281، 301، 413، 452، 486، 649، 685، 712، 716، 759-760، 828، 843، 846-847، 853، 855، 888
فرنيه (السيد القس): 759-761، 764
فرنيه، جاكوب (البروفسور): 553
الفروض الدينية: 635، 637
الفروق الاجتماعية: 199
فرونساك: 71، 79، 88
فريدريك الثاني (ملك بروسيا): 16، 257، 265، 268-270، 281-282، 290، 299، 301-305، 307-314، 316، 318-319، 321، 323، 326، 328-337، 354، 358، 364، 391، 405، 407، 410، 416، 419، 422، 425، 427، 434، 436-438، 440-442، 447-450، 452-470، 472-474، 480-482، 484، 487، 490-509، 511-512، 514-515، 520-521، 523-526، 528-535، 539، 543-546، 548، 550، 564-566، 569، 577-585، 590-598، 608، 616، 686، 689، 691، 716، 725-728، 734-735، 744، 746، 780، 785، 794، 797، 801-802، 807، 809، 859، 861، 876، 909-910، 925، 928
فريدريك فيلهلم (الملك): 265
فريدندورف (السكرتير): 514، 524، 529
فريرون (السيدة): 629
فريرون، جان (السيد): 85، 349، 358، 362، 431-434، 439، 442، 452، 473، 481، 483، 513،

613، 622-623، 627-631، 634-637، 639، 658، 701، 720، 722، 795، 798، 804، 806، 816، 825، 827-828، 852، 854-855
فستري (السيدة): 871، 881، 887
الفضائل المسيحية: 721
الفكر الأوروبي: 274
الفكر الجديد: 613
الفكر العلمي: 274-275
الفكر المادي: 455
الفكر الملكي: 332
الفلاسفة: 303، 411، 432، 571، 573، 620، 628، 690، 692، 695، 735، 745-746، 773، 787، 796، 802، 815، 889، 895، 903
الفلاسفة الباريسيون: 745
فلاماران (الآنسة): 235
فلامنكي (السيد): 164
الفلاندر (منطقة): 78، 164، 298-299
الفلسفة: 210، 306، 418، 421، 448، 585، 680، 686-687، 725، 728، 731-732، 745، 769، 778، 807، 861، 917
فلسفة الأنوار: 850
الفلسفة الفرنسية: 616
فلورنسا (منطقة): 555
فلوري (الكاردينال): 79، 198، 218، 245، 308-310، 312، 318-319، 321، 323، 327، 584
فن استثمار المال: 219
فن الإطراء: 112
فن التحدث: 293، 447
الفن الخطابي: 631
فن الدعاية: 151
فن السرد: 108
فن الغزليات: 121
فن الكتابة: 231، 447
فندوم: 111، 158
الفنون: 129، 138، 210، 252، 464، 483، 518، 596، 624، 626، 640، 842، 910
الفنون التشكيلية: 712
الفنون الجميلة: 92، 614
فو (منطقة): 744
فوا (الكونتية): 806
فوازنون (الأب): 258، 324، 392، 425، 556، 626، 702
فوبان الكبير: 171
فوجيرار (شارع): 918
فورتنبرغ (مدينة): 475، 538، 565، 808، 871
فوركالكييه (الكونت): 235
فورمس (منطقة): 536
فورمي (السيد المستشار): 471
فوريال (الأباتي): 142
فوسيه سان جرمان (شارع): 917
فوفنارغ (السيد): 346، 370-371
فوكنر (السيد): 210، 356
فونتنيل (السيد): 634-635
فونتونوا (منطقة): 346-348، 352-353، 356، 360، 364، 375، 405، 432، 550
فونتونيل، برنار لو بوفييه دو: 74، 154-155، 158، 268، 323، 363-364، 427، 644، 760، 880
فونتين، جوزف دو دومبيير دو (السيد): 73، 273
فونتينبلو (منطقة): 107، 356، 373-374، 560، 619، 798
فيايفيل (المنطقة): 397
فيت، جان دو (الممثل): 554
فيثاغورس: 766
فيدر (الموسيقي): 701

فيدياس: 809
فيرجيل: 126، 305-306، 308، 310، 313، 331، 349، 434، 471-472، 497، 499، 501، 530، 581، 614، 859
فيرجين (الوزير): 805
فيرلوز، كاترين: 762-763
فيرن (القس): 561، 573
فيرني (منطقة): 375، 602-606، 608-610، 612، 617، 621، 631، 633، 635-638، 640-648، 650، 653، 656-658، 662، 671، 673، 680، 682-686، 688، 690-691، 696-700، 702-704، 706، 708، 711-714، 717-721، 723-724، 728-729، 731، 733، 739، 741، 743، 745-753، 758-759، 762، 769-781، 784-789، 791، 795-797، 799-801، 805-809، 812، 815-816، 818-820، 822-823، 828-830، 833، 835، 839-840، 842، 844-845، 848-851، 853-857، 859-862، 864-867، 869، 876، 878، 880، 882، 889-890، 892-893، 895، 904، 906، 911، 921-923، 925-926
فيرونا (منطقة): 602
فيرونيز، باولو: 290
الفيزياء: 252، 262، 267، 275، 289، 292، 314، 324
فيزياء نيوتن: 267، 274، 295، 413، 493
الفيزيغوت: 739
فيغوبر (السيد): 720، 739-740
فيغيير، جان (الخادمة): 669
فيلار (الدوقية): 143، 157، 210
فيلارسو (السيد): 892
فيلاي (منطقة): 693
فيليب دورليان (الوصي على العرش): 110، 147-148، 520
فيليبرت، رونيه: 849
فيليبسبورغ (مدينة): 247
فيليت، شارل دو (المركيز): 849-851، 863، 866-869، 871-872، 875، 879، 890، 894، 901، 907، 910-912، 916، 918، 923
فين (شارع): 68
فيناش (الطبيب): 157
فينايسين (الدوقية): 436
فينوس: 289، 440، 455، 567، 593
فينيلون، فرانسوا: 142، 164، 821
فينيورو (السيدة): 239
فيو، تيوفيل دو: 198
فيونيه (الأب): 612
فيينا: 132، 159، 192، 332، 493، 498، 520، 565، 583-584، 652، 693، 751، 843، 859

-ق-

القانون الروماني: 660
القانون الكنسي: 578
قبائل السموانيون: 816
قبر نينوس: 396
قبعة الكاردينالية: 158
القرآن: 845
القراءات الأخلاقية: 263
القراءات الفلسفية: 263
القراءات المقدسة: 574
القراءات الملحدة: 723
القربان المقدس: 193، 231، 455، 542، 642، 645، 647، 669، 762، 788-791، 793، 876
قسطنطين (السيد): 96
القسطنطينية: 732، 749، 751

القصائد الغزلية: 92، 246، 854
القصائد الهجائية: 926
قصر آنيه: 372، 375، 377
قصر أوسيه: 170-171، 173
قصر برانجان: 551
قصر تريانون: 560، 852
قصر رامبوييه: 595
قصر روي: 69
قصر ريشوليو: 151
قصر سان سوسي: 466، 505، 535
قصر سو الريفي: 112، 382
قصر سولي: 154، 182
قصر سيري: 248
القصر العدلي: 73، 140، 892
قصر فرساي: 379، 382، 583، 753
قصر فنسين: 110
قصر فو: 141
قصر فونتينبلو: 231، 372، 378
قصر فيرني: 639، 851
قصر فيلار: 141
قصر فيلارسو: 889، 895
قصر فيلروا: 342
قصر فيليت: 900، 903، 918
قصر كراون: 601
قصر لابوبلينيير: 821
قصر لاسورس: 151، 171
قصر لامبير: 317، 319
قصر اللوفر: 416، 885، 917
قصر مانسار: 182
القصر الملكي: 116، 226-228
قصر موالار: 305
القصور الريفية: 94
القضاء الأعلى: 69
القضاة النبلاء: 69
قضية سلومون: 164
قضية سيرفان: 735-739، 802
قضية كالا: 664، 674، 676-679، 681-682، 700، 732، 735، 737-738
قضية لابار: 747، 815، 838
قضية لو: 152
قضية مورانجي: 803
قضية مونبالي: 802
قلعة كيهل: 929
القوات الفرنسية: 159
القوانين الإنكليزية: 714
القوانين الدينية: 553
قوانين العقل: 745
القوانين الكنسية: 791
القوانين الملكية: 790

-ك-

كاتدرائية القديس بطرس: 860
كاتدرائية برلين: 910
كاتدرائية نوتردام: 194، 262، 891
كاتر بيار (مقهى): 667
كاترين الثانية (إمبراطورة روسيا): 364، 603، 654، 726، 728، 730-734، 749، 751، 801، 816، 831، 843، 851، 915، 922
الكاثوليك: 554، 669، 737، 750
الكاثوليكية: 97، 216، 350، 361، 461، 463، 484، 544، 562، 665-669، 675، 706، 735-736، 750، 788، 791-792، 862
كارترايت، ميليدي (السيدة): 846
كاروج (مدينة): 649
كاريه، جيروم: 627
كازانوفا: 589
كاسترو، إينيس دو: 178
كاسل (منطقة): 511-512
كافاليه، جان: 96
كالا (السيدة): 675-677، 679-681

كالا، بيار: 665-666، 669، 671، 674-675، 680
كالا، جان: 19، 665، 670، 675-676، 678، 680، 682، 736، 815
كالا، دونا: 665، 674-675
كالا، لويس: 665، 668
كالا، مارك أنطوان: 665-668
كالا، نانيت: 679
كالاندر (شارع): 115، 138
كالفن، جون: 554، 572، 652، 718-719، 722، 740، 747، 752، 760، 766
الكالفنية: 79، 484 552، 572، 576
الكالفنيون: 553-554، 599، 750
كالفيه، دوم: 423، 544
كاليسو (جزيرة): 269
كامبريه (مدينة): 164-166
الكاميزار: 96
كان (مدينة): 94، 457
كانتلو (مدينة): 223
كانيلاك (الأباتي السفير): 350-351
الكبوشيون: 800، 851
الكتاب المقدس: 169، 471، 559، 641، 689، 692، 695
- العهد الجديد: 760
- العهد القديم: 471، 694-695، 760
الكتابات المقدسة: 722
الكثلكة: 668-669
كرافاخال (السيد): 522
كرامر (السيدة): 703
كرامر (الناشر): 608، 694
الكرسي الرسولي: 350، 799
كروا دي بتي شان (شارع): 341، 633
كريبان (القديس): 912
كريبيون، كلود بروسبير جوليو دو: 134، 221، 328، 364، 396-397، 399، 410-411، 414، 426، 430، 656، 701، 806، 847
كريسبان (القديس): 260
كريستين (الملكة): 142
كلارك (الميتافيزيقي): 211
كلانشان (السكرتير): 657
كلوش بيرس (شارع): 300
كلية بليسي: 855
كليرو (العالم): 413، 416
كليرون (الآنسة): 398، 426، 560، 608-609، 530-631، 708-710، 780، 811، 881، 886
كليف (مدينة): 305، 310، 744
كليمان الرابع عشر (البابا): 799
كليوباترا: 263
كمبرلاند (الدوقية): 346
كندا: 584، 605، 772
كنكامبوا (شارع): 152، 462، 471
الكنيسة: 97، 101، 111، 131، 167-168، 202، 223، 234، 245، 271، 338، 344، 361، 442، 481، 539، 541، 550، 595، 641، 646-647، 658، 668، 684، 687، 689، 693، 698، 787-791، 793، 805، 851، 874، 906، 908، 910، 917، 925
كنيسة آيا صوفيا: 750
كنيسة دو تور: 668
كنيسة الروم: 749
كنيسة روما: 562
الكنيسة الرومانية: 228، 612، 791، 913
كنيسة سان فولفران: 742
كنيسة سانت أندريه ديزارك: 209
كنيسة سانت إيتيان: 667، 670، 909
كنيسة سانت شابيل: 74
كنيسة السيد في فيرني: 645
كنيسة فرساي: 855

كنيسة فرنسا: 910
كنيسة القديسة جنفياف (البانتيون): 912، 915، 919
الكنيسة الكاثوليكية: 599
كنيسة المادلين: 723
الكنيسة المقدسة: 84، 309
الكهنة البرلينيون: 910
كهنة بور روايال: 344
الكهنة القانونيون: 165، 168، 647
كوبنهاغن: 484
كوتان (الأباتي): 594
الكوردوليه: 909
كوردي، شارلوت: 838
كورناي (الآنسة): 635-638، 643، 645، 653-654، 683-685، 784، 851-852، 889
كورناي، بيار: 74، 93، 106، 142، 229، 483، 633-634، 654-655، 683-685، 701-702، 785، 846، 853
كورناي، جان فرانسوا: 634
كورناي، ماري: 634
كوسكو (منطقة): 522
كوفيل، روبير: 761-764
كوكشاين (النقيب): 486
كوكيلير (شارع): 919
كولبير، جان باتيست: 67، 108، 210، 835
كولمار (منطقة): 538، 541-544، 547-549، 558، 570، 616
كولمون، هنري كامي دو: 683-684
كولين (منطقة): 580
كوليني (السكرتير): 503، 506-507، 513-515، 518-519، 524-528، 531، 541، 544، 549-552، 560، 564، 566-567، 570، 580
كوليه (الناقد): 780
كومرسي (منطقة): 396، 401، 405، 417، 419
الكوميديا: 157، 194-195، 294، 297، 352، 386-387، 396، 421، 428، 499، 536-538، 542، 544، 561، 608، 610، 651، 656، 675، 715، 720، 732، 795، 878
الكوميديا الجنائزية: 230، 906
الكوميديون: 332
كونتي: 87، 154، 200، 202، 247
كوندورسيه، نيكولا دو كاريتا: 575، 771، 804، 825، 834، 836، 863، 884، 929
كوندياك، إيتيان بونو دو: 769
كونديه (الدوقية): 890
كونستانس (منطقة): 817
كونغريف، وليام: 211
كونيغ (السيد): 300، 314-315، 340، 495-497
كويه (الأب): 194
كيث (اللورد - ميلورد مارشال): 521-524، 528، 530، 534-535، 545
كيسرلينغ (البارون): 269-270، 306
كيلافا (السيد): 890
كينغسبرغ (منطقة): 436
-ل-
لا بايف (السيدة): 763
لا بروتون، ريستيف دو: 929
لا بوبلينير (الجابي العام): 341، 359، 613
لا بوكتيير، بابيه: 584-585، 874
لا تور، موريس كانتان دو: 381، 925-926
لا سال (السيد): 670
لا شو، ديبوي دو: 684
لا شوفالري، باكون دو: 890
لا فار (الشاعر): 88، 93، 142
لا فاليير، لويز دو: 430، 439، 574
لا كلوش (نزل): 395، 406

لا مارش (مدينة): 655
لا مارش، فيو دو: 79
لا مارود (الأب): 581
لا مورلبير (السيد): 397، 558
لا نو، فرانسوا دو: 491
لا هارب (السيد): 514، 639، 778، 780-785، 811، 825، 836، 864، 869، 879، 902، 924
لا هارب (السيدة): 514، 780، 782
لابروس (السيد): 919
لابوميل، لوران دو (السيد): 323، 362، 483-489، 494، 501، 512-513، 532، 667، 720، 804-806، 816، 825
اللادينية: 553
لارجيليير، نيكولا دو: 122، 381، 894، 918، 925
لاسورس (مدينة): 170-171، 179
لافريليير (الدوقية): 604
لافوس (السيد): 193
لافوس (السيدة): 194
لافونتين، جان دو: 18، 67، 81، 120، 246
لافيس (السيد): 665-667، 669، 671، 676-677، 681، 806
لافيلد (منطقة): 375
لالاند (السيد): 883، 890-891
لامتري، جوليان أوفريه دو (المركيز): 453، 455-457، 481-482، 498، 599، 691
لاندو (مدينة): 779
اللانغدوك (مقاطعة): 671، 673
لانكلو، نينون دو: 73-74، 76، 83-84، 96، 114، 138، 477، 847
لاهاي: 93-95، 97-100، 103، 123، 172، 303-304، 307، 329، 331، 495، 498، 539، 601
اللاهوتيون: 224، 611، 741
لايبزغ (مدينة): 505-506، 508-510، 516
لايبنتز، غوتفريد فيلهلم: 239، 314-315، 324، 495
اللايبنتزية: 340
لايدن (منطقة): 554-555
لسينغ، غوتهولد إفرايم: 474-475
لشبونة (مدينة): 561-562
لشتشينسكا، ماري: 195
اللغة الألمانية: 453، 467
اللغة الإنكليزية: 212-213، 262، 295-296، 379، 402، 414، 474، 627، 712-714، 769، 853، 855، 872
اللغة الإيطالية: 536، 568، 769، 796، 853-854
اللغة الفرنسية: 18، 133، 253، 284، 288، 296، 320، 329، 364، 383، 402، 447، 453، 463، 515-516، 648، 714، 733، 796، 852، 896
اللغة اللاتينية: 252، 273، 498، 769، 772، 776، 778
لقب النبالة: 66-69
لندن: 137، 165، 205-208، 210، 212-213، 215، 217-219، 243-244، 248، 266، 268، 280، 309، 356، 448، 474، 491، 498، 515، 575، 584، 598، 718، 754، 762، 843، 848، 854، 894
لو با (السيدة): 427
لو بران (الشاعر): 634-637، 639
لو بلان (الكاهن): 315
لوبران (الكاتب): 116، 873
لوبلان (وزير الحربية): 161، 163، 210
لوبيلوتيه (المراقب): 220
لوتورنور (السيد): 952
اللوثرية: 462-463
لوجيه (الأب): 77-78
لودان (منطقة): 70

لو ديبونير، لوي: 764
لور (الطبيب): 905
لور (المركيز): 890
لوري (السيد): 879
لورين، شارل دو: 539
لورين، ليوبولد دو (الدوق): 286، 857
اللورين (مقاطعة): 136، 220-221، 247-248، 252، 271، 386-388، 395، 400، 412-413، 417، 520، 601-602
لوزان (مدينة): 547، 551، 564، 576-577، 588-589، 599، 601، 604، 737
لوسون: 114، 264
لوغو (السيد): 655
لوفسيين (المنطقة): 862
لوفييه (الناشر): 172
لوك، جون: 692-693، 734
لوكان (الممثل): 186، 429-430، 553-554، 556، 682-683، 818-819، 854، 863-864، 868
لوكسمبورغ (الدوقية): 296، 325
لوكوفرور، أدريين (الآنسة): 107، 109، 149، 178، 181، 183، 187، 199-200، 221-223، 425
لوميتر (السيد): 914-915
لونبون (شارع): 276
لونشان (السكرتير): 262، 372-373، 381، 395، 398-399، 402، 406، 409، 414، 420-421، 425-426، 450-451، 475
لونوار (السيد): 906
لونيفيل (مدينة): 252، 386-390، 393-394، 398-399، 407، 412، 416، 423، 464، 553
لوي فيليب الأول (الملك): 893
لويس الثالث عشر (الملك): 67، 93
لويس الثاني عشر (الملك): 851
لويس الخامس عشر (الملك): 172، 186، 197، 287، 301، 319، 329، 333، 336، 339، 347، 353، 355، 357-358، 361، 374، 408، 411، 431، 439، 440، 442، 460، 466، 471، 492، 534، 548، 556، 579، 592، 656، 812، 841، 857، 882
لويس الرابع عشر (الملك): 93، 108، 118، 130، 166، 181، 301، 449، 453، 461، 483، 654، 906
لويس السادس عشر (الملك): 828، 842، 857، 862، 865، 891، 895، 915، 923
لويس (القديس، لويس التاسع): 417
لويولا، إينياس دو: 77، 573، 698
لياج (مدينة): 301، 306-307
ليروتي (السيد): 352
ليبينوا، روز دو (السيد): 907
ليتشينسكا، ماري (الملكة): 362، 400
ليتلتون (اللورد): 632-633
ليفري، سوزان دو (الآنسة): 120-123، 144-145، 178، 180، 213-215، 404، 832، 848، 894
ليفي، سلومون: 159، 164
ليكسان: 243
ليل (مدينة): 314، 319-320، 338، 779، 830
لين (منطقة): 704-706، 708
لينان (الكاهن): 222، 227-228، 242، 252-253، 257، 273، 290، 781-782
لينغيه (السيد): 688
ليون (مدينة): 549-551، 553-554، 603، 635، 657، 682، 805، 850، 859

-م-

الماء المقدس: 630، 895

مارا، جان بول: 857
ماران (الرقيب): 824-825
ماربورغ (منطقة): 513
مارت (الأب): 875
مارشان، ماتيو: 68، 330، 410
ماركوس أوريليوس: 467، 581، 772
مركيزة بايروت (الأميرة، المارغراف): 310، 334-335، 452، 471-472، 474، 503، 511، 535، 545، 547-548، 550-552، 565، 581، 584، 590
ماركيه (السيد): 330
مارلبورو (الدوقية): 213
مارو، كليمان: 18، 117، 825-827
ماري أنطوانيت (الملكة): 856، 859، 865، 870
ماري تيريز (الإمبراطورة): 345، 565، 577، 583، 861
ماري كريستين (الملكة): 465
ماريفو، بيير دو: 214، 369، 372
ماريه (السيد): 202
ماريت (المحامي): 676، 678
مازاران، جول (الكاردينال): 108
مازاميه (مقاطعة): 735، 737-740
الماسونية: 368، 891
ماسيون، جان بابتيست 158، 794
ماشو (الوزير): 146-147
ماغدوبورغ (منطقة): 448
مالارميه، ستيفان: 18
مالبار، ماري دو: 68، 71
مالطة: 88
ماليرب، فرانسوا: 854
ماليزيرب (الوزير): 615، 636-637، 845
مانشتاين (السيد): 496
مانهايم (مدينة): 536، 587
مانوري (المحامي): 366-368
ماهوب (اللورد): 819
الماورائيات: 771
ماينتس (منطقة): 525، 536
ماينغن (الدوقية): 520
المباهج الفكرية: 175، 500
متحف تروا: 914
المثقفون: 571
المثل الإنسانية: 699
المجتمع الباريسي: 206، 382، 811
المجتمع الجديد: 760
المجتمع الراقي: 108، 115، 141، 158، 168، 188، 206، 208، 213، 293، 359، 548، 571، 718، 829، 838، 840، 927
المجتمع الفرنسي: 452
المجتمع المتمدن: 596
المجتمع المتوسط: 259
المجتمع المهذب: 596
المجلة الأدبية: 433، 857
مجلة تريفو: 274
مجلة فرنسا الجديدة: 16
المجلس العدلي: 138-139
مجلس جنيف: 759
مجلس لانغدوك: 549-550
مجمع القساوسة البروتستانت: 561
مجمع الكرادلة المقدس: 352، 648-649، 722-723، 747، 761-762، 799
المحاكم الملكية: 642، 669
المحبة المسيحية: 256
محرقة جان سيرفيه: 767
محفل الشرق الأعظم الماسوني: 890
محكمة أبفيل: 742
محكمة باريس العليا: 170، 690، 742، 802، 906
محكمة بروتانيا العليا: 121

محكمة بوردو العليا: 673
محكمة بورغونيا العليا: 546، 604
محكمة تولوز العليا: 670، 672-673، 676، 678، 680، 738-739
محكمة ديجون العليا: 79
المحكمة العليا: 69، 87، 91، 182، 245، 256، 266، 271، 611، 648، 659، 673، 679، 681، 688، 706، 719، 739، 791، 812-814، 826-827، 837، 899، 929
محكمة نورماندي العليا: 173، 177، 222، 637
محمد (الرسول): 320
مدرسة الحقوق: 90
مدرسة لوي لو غران: 79-80، 85-86، 118، 431، 544، 548، 576، 773
مدرسة هاركور: 253
مذابح طولون: 432
المرابون: 148-149
مراكش: 15-16
مرسوم نانت: 599
مرسيليا (منطقة): 831
مرض الأكزيما الجلدي: 226-227
مرض الجدري: 182-183، 225، 346
مرفأ كاليه: 205
مرفيل، غويو دو: 103
مرمونتيل (السيد): 371-372، 411، 426، 428، 430، 437، 607-609، 811، 836، 869
مريم العذراء: 93، 105، 252، 325، 374، 457، 744، 839
المسرح الإيطالي: 518
مسرح برلين: 314
مسرح تورني: 649
مسرح الشاتلين: 856
مسرح فرساي: 344
المسرح الكلاسيكي: 852
مسرح ليل: 314
مسرح ماريفو: 142
المسرح الوطني الفرنسي: 109-110، 130، 145-146، 181، 190، 199، 213، 229، 257، 278، 324، 415، 427، 430-431، 436، 447، 480، 701، 727، 862-864، 871، 882، 885، 891، 909، 917، 925
مسرحيات الميلودراما: 108، 903
المسرحيون: 435
المسيح: 148، 168-169، 320، 572-573، 588، 621، 659، 681، 713، 718، 724، 741، 767-768، 799، 830، 836، 840، 870، 902، 927
المسيحية: 320، 388، 562، 686، 691، 717-718، 745، 794
المسيحيون: 572، 644
المشاعر الدينية: 601
المشعوذون: 157
مصرف ماليه: 676
مصطفى الثاني (السلطان العثماني): 750
المطابع الملكية: 615
مطرانية لوسون: 114
المعتقدات التقليدية: 432
معجم بايل: 465
المعجم الفلسفي: 500، 625، 723، 730، 741، 770، 773، 796، 840
معركة كوسترين: 590
معركة مولديتس: 458، 492
معركة ميسولونغي: 751
المعمودية: 545، 629
المغرب: 16
المغربيون: 16
المفكرون الأحرار: 88
المقالات اللادينية: 544

مقبرة سان فيرجيه: 183
المقدسات: 252، 655، 892
مقهى غرادو: 248
المكتبة الفرنسية الوطنية: 918
مكتبة بلدية ليبورن: 15
مكتبة فيرني: 922
مكيافيلي، نيكولو: 310، 526، 727
الملاسنة الدينية: 572
الملحدون: 88، 148، 239، 271، 541، 903، 919
الملكية: 130، 411
الملكية الليبرالية: 919
الممالك الأجنبية: 449
الممثلون الإنكليز: 266
الممثلون الإيطاليون: 400-401، 796
الممثلون المسرحيون: 649، 909
المملكة الربانية: 448
المنطق الفولتيري: 188
المنفيون السياسيون: 94
مهنة الأديب: 92
مهنة الدباغة: 67
مو (الأسقف): 792
المواطنية: 204
المواعظ الجانسينية: 344
مؤامرة ألبيروني: 150
موان (منطقة): 604، 641، 643، 648، 662
موانيل (الفتى): 740-742
موبرتوي، فريدريك (السيد): 232، 243، 248، 252، 300، 306، 315، 323، 358، 364، 440، 453، 455-457، 468، 484، 486، 489، 491-499، 501-504، 506، 508-512، 532، 544-545، 591، 597، 613-616
مودين (الدوقية): 150
موربا، جان فريديك دو (الوزير): 258، 298، 301، 327-328، 401، 828
مورسان، دوري دو: 776
مورفوندو (شارع): 676
مورفيوس: 910
موريليه (الأب): 617-618
موريون (منطقة): 552
موزار، فولفغانغ أماديوس: 17
المؤسسات الفرنسية: 245
موسكوفيا: 734
الموسوعيون: 611، 615، 689-690
موسى (النبي): 614، 768
موسيقى أليغرو: 17
موسينو (الأب): 70، 268، 271، 276، 409
موسيه، ألفريد دو: 402، 804، 925
موشون، أنطوان: 820
موقعة دونان: 141
مولتو (السيد): 720، 738، 858
المولدون: 755-759، 762، 766
مولديتس (المدينة): 314
مولر، جان دو: 773
موليه (الرئيسة): 638-639، 774، 873
موليير، جان باتيست بوكلان: 18، 67، 123، 375، 475، 598، 619، 906
المؤمنون: 271
مونبار (منطقة): 818
مونبليه (منطقة): 818
مونتان، ميشيل دو: 18، 290، 542
مونتريون (منطقة): 564، 576، 588
مونتسكيو، شارل لوي دو سكوندا: 361، 364، 557، 760، 797
مونتوبان (منطقة): 613، 619، 621-623، 672
مونجو (منطقة): 243
مونمورنسي (المنطقة): 651
مياه بلومبيير: 220-221، 340، 407، 476، 502، 506، 509، 530، 543-544، 546-547

مياه بوهيميا: 502-503
مياه رول: 745
مياه فورج: 178، 188، 195، 318، 476
الميتافيزيقا: 211، 725
ميتوار (السيد): 907، 918-919
الميثولوجيا الإغريقية: 276
ميرابو (السيد): 621
ميربوا (السيدة): 601
ميربوا (منطقة): 326-327، 330، 337
ميروب: 65
ميرومينيل (السيد): 895
ميس (منطقة): 341
ميشيل (السيد): 315-317
ميلتون، جون: 212
ميلي (الرئيس): 890
ميلييه، جان (الكاهن): 689-691
مين (الدوقية): 112، 124، 147، 372، 375، 380، 382-383
مينار (السيد): 674
مينرفا (الإلهة): 65، 83، 225
مينو (الأب): 387-388، 407، 418، 542، 601
مينيو (الأب): 72، 270، 813-814، 827، 877، 901، 906-907، 909، 921
مينيو، إليزابيت (السيدة): 156، 204، 208، 270-271، 273، 343، 726-728، 817، 827
مينيو، فنسان (الأباتي): 73، 426

-ن-

نابوليون الثالث: 16، 918
نادال (الأباتي): 189-190
الناشرون الهولنديون: 260
نافار: 673
نانتوا (منطقة): 867
نانجي (منطقة): 385-386
نانسي (مدينة): 220، 287، 395، 541، 601
نبتون: 741
النبلاء: 66-69، 90، 121، 245، 263، 280، 374-375، 379، 442، 493، 550، 618، 639، 662، 705، 814
النخبة الأوروبية: 652
النخبة الثقافية: 699
النخبة الكالفنية: 652
النخبة المستنيرة: 128
النزاع الديني: 740
النزاهة الأخلاقية: 156
النزعة الإنسانية: 18
النصوص التوراتية: 855
النظام الاجتماعي: 611
النظام الإنساني: 562
النظام الرهباني: 264
النظام الطبيعي: 562
النظام العسكري: 264
النظام القديم: 65، 571
النظام الملكي: 678
نظرية شمولية الإنسان: 240
النظم الكنسية: 186
النعم السماوية: 352
النقد الأدبي: 241
النمسا: 159، 190، 318، 579، 583-584، 594-595
النمساويون: 332-333، 492
نهر التارن: 613
نهر التايمز: 207
نهر التيبر: 349
نهر الرون: 550، 552، 693
نهر الرين: 929
نهر السون: 550

نهر السين: 188، 218، 222، 349، 614، 676، 905، 916-917
نهر شبريه: 449
نهر اللوار: 113
نهر المين: 518
نهر هافل: 466
النورماندي (مقاطعة): 98، 177، 180، 197، 847
نوميا: 128
نونوت (الأب): 131، 628
نيدهام (الأب): 796-797
نيرون (الإمبراطور): 82، 435، 695، 771
نيفرنيه (الدوقية): 383، 906
نيكر (السيد): 672، 833، 872
نيكر (السيدة): 808-809، 871
نيم (مدينة): 98، 665، 737
نيوتن، إسحق: 210-211، 232، 239، 243، 245، 252، 262، 267، 274-276، 284، 324، 385، 404-405، 411، 413، 420-422، 459، 491، 495، 692-693، 847، 871
النيوتنية: 340، 491
نيوشاتل (الإمارة): 581
نيولم (الناشر): 539

-هـ-

هابسبورغ (مدينة): 515
هاركور (منطقة): 657
هارون (النبي): 614
هالر (السيد): 457، 600، 707-708، 769، 862
هامبورغ (مدينة): 511، 516-517، 524
هانوفر (مدينة): 460
هرتفورد (مدينة): 310
الهرطقة: 186
هرقل: 206، 289
الهزائم الفرنسية: 592
هزليات القرون الوسطى: 18
الهزلية الرومانية: 801
هلفيتيوس، كلود أدريين: 805، 890
الهند: 290، 605، 657
الهند الغربية: 409
هنري الرابع (الملك): 88، 150-151، 172، 215، 912
هنغاريا: 332، 802
هوبر (المصور): 608
هودوتو (السيدة): 390، 826
هودون، جان أنطوان: 928
هوربرغ (منطقة): 538
هورنوا، دومبيير: 814، 843، 899، 921
هوغرز (البارون): 133، 146-147
هولندا: 86-95، 102، 164، 172، 249-250، 263، 266-267، 274، 329، 331، 355، 453-454، 462، 469، 677
هوميروس: 126، 471، 880
هيوش (التاجر): 468-470، 480
هيرفي (اللورد): 213، 845
هيرو (السيد): 233، 251، 258-259، 285، 309، 319، 322، 400
هيسه (منطقة): 511
هيسي دارمشتات (منطقة): 587
هينان (السيد): 753، 762، 785، 828، 845، 856
هينو (الرئيس): 110، 127، 142، 171-172، 318، 340، 342، 1384
هيو كابيه (الملك): 450
هيوم، ديفيد: 853

-و-

واتو (السيدة): 129
واتو، جان أنطوان: 290
واقعة بوروغار: 178

والبول، روبرت (السيد): 213، 731، 853
وسام سان ميشيل: 362-363
وستفاليا (منطقة): 448
الوسط البرجوازي: 92
وليام الأورنجي (وليام الثالث): 554
ونترفيلد: 104
ويل (العبد): 208
-ي-
اليسوعيون: 76، 80-81، 116، 120، 186، 193، 197، 224، 252، 282، 361، 365، 431، 538، 573، 612، 643-644، 653، 669، 695-696، 698، 719-720، 729، 738، 777، 801، 835، 890
اليعاقبة: 918
ينبوع رول: 744
اليهود: 189، 855
يوربيد: 880
يوم الدينونة: 693
اليونان الوثنية: 809

هذا الكتاب

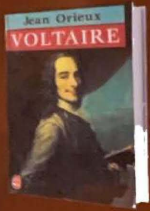

كلنا نعرف فولتير. ولكل منا فكرته عنه، معه أو ضدّه، سيّان. حين نقترب منه يتضح لنا جليًا، حين نسبر أغوار حياته يُصيبنا الدوار بسبب وفرة الحقائق عنه وتقلبات شخصيته وتناقضاته وحيله.

نمط كتابة هذا الكتاب هو نمط حياة فولتير نفسه، على إيقاع أليغرو موزارت. ليس ثمة ما يكشف الحجاب عن طبيعة فولتير العميقة أكثر من العجلة، فهو يغيّر نبرته وموضوعاته وملامح وجهه بإيقاع سريع يكاد لا يُصدّق. ولا عجب أن يقول عنه محبّوه إنه يعيش على قطار وجهته جهنم، حتى إن بعضهم أحب أن يرسل فولتير إلى جهنم، حتى لو حيًا، وهو القائل: "الجنة تكون حيث أكون". فهذا الرجل يستحق أن نكرّس له بضع سنوات، ولا فضل لنا في ذلك. فبكل سرور نختار أن نحيا قليلًا مع رجل هو الأذكى والأرهف والأشد تهذيبًا والأكثر بذاءةً في آن.

المؤلف

جان أوريو، قاص وكاتب سيرة فرنسي، عمل أستاذًا للآداب حتى عام 1937، ثم مفتشًا تربويًا. نال جائزة الأكاديمية الفرنسية للرواية في عام 1946، وجائزة الأكاديمية الفرنسية للآداب بول موران في عام 1998. ترك مؤلفات كثيرة، منها في الرواية: *Les Fontagre, Les Ciseaux d'Argent, Le Lit des Autres*؛ وفي أدب السيرة: *Bussy-Rabutin: Le Libertin Galant-Homme*؛ وفي المذكرات: *Souvenirs de campagnes*؛ وفي الشعر: *L'Étoile et le Chaos*.

المترجم

عبود كاسوحة (1938-2013)، مترجم سوري، منحته وزارة التربية والتعليم الفرنسية "وسام الفارس" لما قدّمه في سبيل التبادل الثقافي بين العربية والفرنسية. ترجم عددًا من أعمال ديدرو، وكتاب **مفهوم الأدب** لتودوروف، و**لوياثان** لجوليان غرين... وغيرها عشرات الكتب.

- فلسفة وفكر
- اقتصاد وتنمية
- لسانيات
- آداب وفنون
- تاريخ
- علم اجتماع وأنثروبولوجيا
- أديان ودراسات إسلامية
- علوم سياسية وعلاقات دولية

السعر: 34 دولارًا

ISBN 978-614-445-184-7

9 786144 451847

المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies